شؤون فلسطينية

٥٦

نيسان (ابريل) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٦ نيسان (ابريل) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، **التوزيع** ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن هذا العدد : ٧ ل.ل. في لبنان ، ٨ ل.س. في سوريا ، ٩٠٠ فلس في الكويت والعراق ، ٩ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في أوروبا وأفريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في أميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

شؤون فلسطينية :

عماد سمارة

كلنا نعرف ان الموت لا يختار الا الاحسن . فملائكة السماء تصطفى لجوارها الانقياء الابرار . ودرب الشهاده معبد بذوي الشجاعة والشهامة .

وكنا ، افراد اسرة مركز الابحاث (ومجلة شؤون فلسطينية) نعرف ان ملائكة السماء تقف بانتظار زميلنا عماد سمارة ، وان عدة الشهادة عنده قد اكتملت ولم ينقص الا تحديد موعد الاستشهاد .

ومع ذلك ، نجد انفسنا اليوم ، وقد حصل ما توقعناه ، وما خشيناه ، اعجز من ان نرضى او ان نفهم .

لقد زاملنا عماد خمسة اعوام . جاءنا الى المركز فتى ابن سبعة عشر ربيعا ، شهما شجاعا ، حييا خلوقا ، لطيفا كريما ، دمثا ، نشيطا ، مؤمنا ، صلبا ، متعاونا متواضعا ، وعاش صفاته هذه وعمل متحليا بها في خدمة بلده وقيمه وثورته وشعبه، ومضى حينما صرعه الموت وكأن الحياة كلها مجرد محطة عابرة في مسيرة لا تسمح بالبقاء ولا بالانتظار .

وعلى قصر السنوات الخمس ، ترك عماد سمارة لزملائه في مركز الابحاث تراثا حيا حافلا . فكان اقدر العاملين (وهو من اصغرهم) على فهم العلاقة بين المركز وبين المنظمة التي انتسب اليها ، وبينهما وبين الثورة التي انتميا اليها ، وعلى وضع صيغة عملية وناجحة في خدمة الثورة من خلال الانتماء للمركز ، في حمل البندقية والقلم في آن ،في تكملة جهد المكاتب بالجهادفي الخنادق. وكان انجح العاملين فيتجسيد مواصفات العامل الثائر ، الاداري المقاتل ، الموظف الجندي . نقل الى الادارة انضباط الجندي واندفاعه وجراته . وانطلق في عملياته القتالية ، في فلسطين المحتلة وخارجها ، بوعي ومعرفة وخلق . وجعل فلسطين اكبر من المركز الذي يعمل فيه ومن الحركة التي ينتمي اليها . وعمل للمركز وللحركة باخلاص لانه رأى فيهما سبيلا نحو فلسطين وجهدا يسهم في تحرير الشعب واستعادة الوطن .

وان كنا ، عموم افراد اسرة مركز الابحاث (وشؤون فلسطينية) نرى في عماد سمارة قدوة نعتز بالاعتبار بها ، فانني ، وقد حصلت منه على ارقى صور الوفاء والسلوكية الخيرة والمناقبية الرفيعة ، افتخر بان مناضلا مثل عماد كان من جملة ، وعلى راس ، عشرات الزملاء الذين تعهدهم مركز الابحاث واتاح لهم ان ينموا في رحابه وتتبلور فيه مداركهم وشخصياتهم وطموحاتهم وعطاءاتهم ، حتى انطلقوا به وحققوا له المزيد من نجاحاته واسهموا في تمكينه من خدمة القضية التي قام المركز من اجلها .

وبفضل عماد سمارة ، وامثال عماد سمارة من المناضلين الصامتين ، تصبح مرارة العمل الشاق حلوة المذاق ، وتبدو وعورة السبيل التي نسلكها ليبلغ المركز ذروة العطاء ومثال المؤسسة المعطاء ناعمة المسلك . فقد كانت رفقته ، في العمل وفي النضال ، ممتعة . ولولا ذكراه الحية ابدا لاصبح الفراغ الذي تركه مثبطا للعزائم .

انيس صايغ

انتفاضـــة . .

□ ضفة ، ضفتان ، لا . انه وطن واحد . والنهر ، حصان الغضب ، يتدفق منهم جميعا . دبابة بحجر ، وسجن بابتسامة ، ويغير الاطفـــــال العابهم . من الدمية الى عجلة المطاط المحترق ، ويدخلون في وقت الثورة .

الان الان ، وليس امس . الان يتكامل نشيد الارض . الداخل والخارج متداخلان . هنا كانت هناك . وهناك صارت هنا . ولا تشكل احصائية الهزائم العابرة اي فارق في الزواج الابدي بين الناس ذاتهـــم والارض ذاتها . فالقابضون على طرف البركان يتحدون جميعا في ساعة اللهب .

دقت . . دقت . من المخيمات الزاحفة الى العواصم ، الـــى الجليل الذي كاد يلامس النسيان في حساب المؤقت ــ يندلع نشيــــد الارض ذاتها . واليكم هذه الاحصائية : ابن الشهيد شهيد ، وحفيده شهيـــد ، ولا نورث الا الذاكرة واليوم القادم . وفي الوقت المحدد يلتئم شمــــــل العائلة .

عدنا من كل الهزائم لنقاوم . وطني ليس حقيبة ، وطني ليس جدارا . من راس الخارطـــــة حتـــى بطنهـــا ينهمر نداء الحريـــــة . ومـــن اول اغتيال حتى احدث سلاح يتحول الموت فينا الى مواطن اليف والـــى دمية حتى تجد الحياة حياتها فينا . اي موت لم تذوقوه ايها الفلسطينيون ! واي موت سيمشي فيكم بعد الان على قدمين ؟ .

لا تقيسوا الجهـــات بالنهر النازل من الشمــــال الى الجنوب . مـــــن الجرح تبدأ المسافة ، والبوصلة ايضا تبدأ . والضفة الغربية الجـــرح الفلسطيني لا تدهش الا السائح والكاميرات .

فلا يصفقن احد لهذا الفجر الطالع من جرح طفل مارس فيه الغـــزاة طقوسهم ، لانه ولد من اجل ذلك . . من اجل ان يطلع الفجر البديهي .

□ ضفة ، ضفتان ، لا . انه جسد واحد . وجملة الوطن واحدة .

عائلة الوطن تعرب نفسها : غزة كانت المبتدأ والضفة الغربية صارت الخبر وللجليل مزايا شجر الزيتون .

في الناصرة مات حبنا الاول وسقط سجننا الاول

وماذا يحدث الان .. ماذا يحدث ؟ يتصاعد نشيد الثورة من كل جسد وصخرة وشجرة . تنتفض الارض في الانسان ، وينتفض الانسان في الارض . ويبدأ جناز اليأس ..

وقال لي صاحبي القادم من المشهد الخارجي : ان الجسر هو العار . دخلت الوطن برخصة وتجولت كسائح . لم اذهب الى حيفا ، لان اطفال نابلس الذين استبدلوا العابهم برقصة الوطن والتحدي ذكروني بأنني قطعت الجسر برخصة ..

الجسر .. الجسر كم كان لغزا ومصيدة لان الذين اقاموه ارادوه لتصدير الوطن في صناديق تجار الفواكه . وكم من سؤال اخذ هذه الصيغة : من يوقف هذه السياحة التي تنشر عدوى الدعاية ؟ والان يدرك صاحبي المسكون بالانتفاضة ان الثورة لا تعبر طريق الجسر . انها تنفجر من كل قيد ، وتطلع من كل سجن . والان يدرك صاحبي ان الوطن لا يرحل ولا يعتقل .

— وماذا ينشدون هناك ؟

— يا قمرنا طل طل
ضوي الكرة الارضية
ما خلقنا نعيش بذل
خلقنا نعيش بحرية

واطل القمر الفلسطيني : من كل شهيد قطرة ضوء . من كل سجين قطعة معدن ، ومن كل مقاتل خطوة . لقد رموك يا صاحبي من النافذة كجسر طائش وجرحت رصاصة بريئة

— هل تعني بيروت ؟

اعني انك في كل تحول لا تموت . اعني انك في كل مكان علاقة . واعني ان القمر الفلسطيني لم يقع في شباك الصيد ، فهل نسيت عقدة الجسر ؟

□ ضفة .. ضفتان .. لا . انه نهر واحد . والقدس تخدع عشاقها كما تخدع غزاتها . تسللت اليها بلا رخصة وبلا هزيمة او انتصار وكان الجسر في داخلي . قلت : اضع حدودا لقلبي على الاسوار وازور الاقصى والاجراس ، فاشغلتني القدس في البحث عن قلبها المطمور تحت عجلات المحتلين . حملت اسوارها وعدت . لقد كان الصفر في اول العمر . لم اعتذر لها لان الجريح لا يعتذر لجرحه . مرت سبع سنين ، وصار عمر الطفل الذي ولد في السقوط سبع سنين . والان ارى قلبي هناك حجرا في يد الطفل الذي يواجه دبابة . لم يضع قلبي .

وقال صاحبي : لقد عبرت الجسر قبل سنة ، ولم تكن الارض تنتفض
— لم تسمعها جيدا

— لعل تمادي الغزاة في تدنيس الاماكن المقدسة .... لعل انخفاض الليرة ومستوى المعيشة .. لعل مصادرة المزيد من الارض ... لعل

نجاح الثورة في الخارج ... لعل معارك بيروت ... لعل ذلك كله هو الذي حرك الأرض المحتلة ..

— كانت الارض تتحرك . ليس نهر الاردن هو الذي يحدد الجهات . الثورة هي العلامة وهي النهر وهي الوطن . جاء وقت الانفجار . جاء وقت الانفجار ، فبأية بيروت ستذهب : في الشارع الضيق يموت فقراء الوطن دفاعا عن رغيف يدخل في ازمة ، وبرصاص حسن التصويب . وفي الشارع الواسع يجري سباق السيارات . يطلق الرصاص ابتهاجا فتصاب ثلاث موجات بجراح طفيفة ، فبأية بيروت ستذهب .

ضفة .. ضفتان .. لا . انه وطن واحد . تأتي الشرارة من بيروت احيانا لان بيروت ليست اصغر من قذيفة كما يتصور السائح . هذا هو طرف البحر . وهذا هو طرف البركان . وليست الرباط مصدر الشرعية ، انها محصلة الدم والتضحية . وهكذا تلتحم دائرة العلاقة بين انتفاضة بيروت وانتفاضة الارض المحتلة على محور واحد : الثورة . وهكذا تجري عملية الانقسام بين انصار الثورة واعداء الثورة .

فليواصل الاعداء تدنيس المسجد الاقصى ، والاستيلاء على اجراس القدس

فتلك هي طقوسهم

وذلك هو وقتنا .

ان الزمن يرتدي لباس الميدان

والنهر — قميصه كحلي .

ضفة ، ضفتان . لا . انه وطن واحد وشعب واحد . والرب والشعب وزن واحد ، وقافية واحدة .

محمود درويش

المسألة الفلسطينية والتسوية : احتمالات وتوقعات

غازي الخليلي

تدخل المسألة الفلسطينية الآن مجالات التسوية السياسية للصراع العربي — الاسرائيلي ، ليس باعتبارها احدى مسائل التسوية فقط ، بل باعتبارها المركز والاساس في هذه التسوية ، على الرغم مما يجري من محاولات اسرائيلية واميركية للالتفاف حول هذه المسألة ودفعها الى المؤخرة . ولم يكن ممكنا ان تحظى المسألة الفلسطينية بكل هذا الاهتمام وهذه المركزية ، لو ان الحركة الوطنية الفلسطينية لم تثبت قدرة بعد العام ١٩٦٧ على فرض نفسها كمعبرة عن الطموحات الوطنية للشعب العربي الفلسطيني . فالى ما قبل العام ١٩٦٧ ، كانت المسألة الفلسطينية ، لا تخرج في نظر العديد من الاطراف الدولية ، وكذلك بعض الدول العربية ، عن كونها « قضية لاجئين » . ولهذا فان كل مشاريع الحلول التي طرحت قبل العام ١٩٦٧ لتسوية الصراع مع العدو الصهيوني كانت تقوم على اسكان وتوطين الفلسطينيين الذين هجروا من اراضيهم ، مع السماح — في اقصى الحالات — بالتعويض عن البعض ، وعودة بعض آخر ضمن اطار « جمع شمل العائلات » . وقد استمر هذا النهج من التعامل مع المسألة الفلسطينية فارضا نفسه ، وجرى تكريسه بعد حرب العام ١٩٦٧ بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، الذي عبر عن المسألة الفلسطينية « بايجاد حل عادل لقضية اللاجئين » . ولم يكن بامكان الحركة الوطنية الفلسطينية ان تحول دون صدور هذا القرار — آنذاك — فقد كانت لما تزل وليدة ، تخطو خطواتها الاولى لانهاض جماهير الشعب الفلسطيني في اماكن شتاته المختلفة وفي الاراضي المحتلة . ولذلك استمرت محاولات البحث عن تسوية للصراع العربي — الاسرائيلي ، تتجاهل المسألة الفلسطينية باعتبارها قضية وطنية ، وتعتبر ان الصراع ان هو الا صراع بين اسرائيل والدول العربية ، وان حل المسألة الفلسطينية لن يكون الا « تحصيل حاصل » لتسوية الصراع مع الدول العربية .

واستمر هذا النهج مع بعض التعديلات الطفيفة * طيلة الفترة الممتدة من اواخر العام ١٩٧٠ الى حرب تشرين « اكتوبر » ١٩٧٣ . ومع النتائج التي افرزتها حرب تشرين ، خرجت التسوية للصراع مع العدو الصهيوني من مجال الاحتمال البعيد

---

* كان ابرز هذه التعديلات مجموعة القرارات التي صدرت عن الجمعية العامة للامم المتحدة بدءا من الدورة ٢٥ في العام ١٩٧٠ ، حيث اكدت الجمعية في قرارها عن هذه الدورة ان احترام حقوق

ــ نسبيا ــ الى مجال الامكان ، وجرى قطع اول خطوة عملية بهــذا الاتجاه بعقــد اتفاقيتي فك الارتباط بين اسرائيل من جهة ، وكل من مصر وسوريا من الجهة الاخرى. ان هذا الانتقال بموضوع التسوية ، دفع المسألة الفلسطينية الى واجهة الاحداث ، لان ما مثلته الحركة الوطنية الفلسطينية اثر نهوضها بعد حرب العام ١٩٦٧ ، فرض نفسه علــى اطراف الصراع المختلفة ، وجعل مــن الصعب التقنز فوق المسألــة الفلسطينية والتعامل معها بالنهج السابق . ازاء هذا الوضع الجديد كان لا بد لاطراف الصراع المختلفة ، وهي تبحث عن منافذ للتسوية ، ان تجيــب على سؤال اساسي وهو : **كيف ستحل المسألة الفلسطينية وعبر من ؟** وطيلة الفترة الماضية منذ حــرب تشرين حتى الآن ، والسؤال لا يزال طارحا نفسه وبالحاح ، ولا زالت الاجوبة عليه ــ حتى الان ــ تدور في حلقة مفرغة ، ولا ينتظر ان تخرج منها لسنتين او ثــلاث قادمات . وذلك لاسباب عديدة منها ، ان الدخول العربي الى التسوية وقطع اولــى الخطوات العملية باتجاهها قد تم دون ان يتم الاتفاق ــ ولو بشكل اولي ــ على وضع المسألة الفلسطينية في هذه التسوية ، فقد كانت ارضية التسوية هي قرارا مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وهما قراران لا يتعاملان مع المسألة الفلسطينية الا باعتبارهــا قضية لاجئين ، وان اساس التسوية هو الدول العربية التي تحتل اسرائيل قسما من اراضيها ، وليس المسألة الفلسطينية . ان الدخول العربي للتسوية بهذا الشكل ، قد اعطى اسرائيل والولايات المتحدة وحلفائها ، هامشا واسعا وكبيرا جدا للمنــاورة بالمسألة الفلسطينية ، ومحاولة القفز من فوقها ، او التهرب من التعاطي معها بالاهمية التي تفرضها مركزيتها في التسوية وفي الصراع مع العدو الصهيوني . ومنها ايضا ، ان بعض الدول العربية تتعامل مع المسألة الفلسطينية بما يخدم حركتها التكتيكيــة فقط ، اي بما يخدم مناوراتها السياسية للحصول على بعض المكاسب الجزئية التي قد تقوي بعض مواقعها هنا وهناك ، او قد تقوي مركزها التفاوضي . ان المسألــة الفلسطينية لم تدخل ــ الى الآن ــ عقل بعــض الدول العربية مــن ضمن رؤيــة استراتيجية شاملة لمستقبل الصراع مع العدو الصهيوني وحلفائه ، بقدر ما سكنــت عقل هذه الدول باعتبارها « مهمازا » قد يستخدم ــ احيانا ــ لحث الفرس علــى الجري السريع ، وقد يستخدم في احيان اخرى ، لايذاء الفرس ومنعها من الجري . وهذا يعني ان عبء دفع المسألة الفلسطينية الى الامام ، سيكون عبئا على الثــورة الفلسطينية ان تتحمله بمعظمه ، وان تتحمل معه عبء حركة ومواقف بعض الــدول العربية . وهو عبء اثبتت الثورة الفلسطينية خلال السنوات الماضية ، انهــا قادرة على تحمله ، بدليل ان المضي قدمــا بالتسوية ، عــاد واصطدم مجددا بالمسألــة الفلسطينية ، على الرغم من عقد اتفاقية سيناء المذلة ، وما الحوار الدائر الآن فــي الاوساط الاسرائيلية وكذلك في اوساط اميركية عديدة ، حول المسألة الفلسطينية ، الا دليلا آخر ، على **ان اندفاع التسوية الى الامام سيظل يصطدم بالمسألة الفلسطينية ما لم يتم حل هذه المسألة حلا وطنيا .**

ان ما جرى ويجري من محاولات اميركية واسرائيلية منذ حرب تشرين حتى الآن ، وربما لفترة قادمة ، في التعامل مع المسألة الفلسطينية لا يزال يدور في اطار البحــث

شعب فلسطين « عنصر لا غنى عنه في اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط » . كمــا اعترفت بقرارها بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني . كذلك كان من ابرز هذه التعديلات ما ورد في بيان القمة السوفياتي ـ الاميركي المشترك حول الشرق الاوسط عقب زيارة بريجنيف لواشنطن في العام ١٩٧٣ . حيث اكد الطرفان « النظر بعين الاعتبار للمصالح المشروعة للشعب الفلسطيني » في اية تسوية لازمة الشرق الاوسط .

عن حلول تقسر المد الوطني الفلسطيني وتحول دون بلورة الشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة ، فالحلول الاميركية والاسرائيلية المقترحة تقوم على النقاط التالية : (١) الاعتراف شبه الرسمي بأهمية ايجاد حل للمسألة الفلسطينية في نطاق التسوية المطروحة أو الممكنة ،مع محاولة التقليل من مركزية هذه المسألة في التسوية، على اعتبار ان الصراع هو مع الدول العربية ، وبشكل خاص ، مصر وسوريا ، وليس مع الفلسطينيين«٢» . (٢) الفصل بين المسألة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والعمل على تنمية او ايجاد اطر ومراكز بديلة او موازية للمنظمة يجري التعامل معها وعبرها لايجاد حل للمسألة الفلسطينية«٢» . (٣) التأكيد على ان اي حل للمسألة الفلسطينية يجب ان يقوم على اساس استمرار الدور الفلسطيني للنظام الهاشمي ، وان لا يكون نفيا له او اسقاطا له لمدى زمني منظور — على اقل تقدير . ومن هنا يجري التأكيد باستمرار على رفض قيام دولة فلسطينية مستقلة بين اسرائيل والاردن ، كما يجري التأكيد على ان حل المسألة الفلسطينية لن يكون ممكنا الا في اطار فلسطيني — اردني .

ان هذه النقاط الثلاث ، والتي تعتبر بمثابة مرتكزات قام ويقوم عليها الموقفان الاسرائيلي والاميركي ، تصطدم بشكل حاد مع الموقف الوطني الفلسطيني ، وتتداخل وتشتبك وتصطدم **بحدود** مع المواقف الرسمية لبعض الدول العربية . كما تتداخل وتصطدم ايضا — **بحدود** — مع التحرك العام للاتحاد السوفياتي بصدد المسألة الفلسطينية . ومن خلال وحول عملية التداخل والاصطدام هذه تتحرك وترتسم مواقف اطراف الصراع المختلفة . وحتى الآن ، يمكن القول بكل ثقة ، ان حركة هذه المواقف لا زالت تدور في حدود ضيقة جدا ، وهي اقرب الى المراوحة في مكان واحد منها الى الحركة الفاعلة . فما يدور من حوار واسع في هذه الفترة في الاوساط الاسرائيلية ، لم يخرج عن اطار الحوار العام ، ولم ينتقل الى التأثير في السياسة الرسمية او في الحركة السياسية للحكومة الاسرائيلية ، اضافة الى ان هذا الحوار لم يخرج في اطاره العام عن المرتكزات الاساسية المعلنة بصدد سياسة اسرائيل ازاء المسألة الفلسطينية ، باستثناء اصوات قليلة ، اعلنت استعدادها للقبول بدولة فلسطينية اذا اعترفت هذه الدولة باسرائيل وبالتعايش معها .

الخلاف الاسرائيلي حول المسألة الفلسطينية

وفي داخل الحكومة الاسرائيلية يتمركز الحوار حول نهج اسحاق رابين ، ونهج ييغال آلون ، ففي حين ان رابين لا زال يحشر نفسه في الخيار الاردني ، اي التفاوض مع النظام الاردني بصدد تقرير مستقبل الضفة الغربية ، فان آلون يحاول ادخال تعديل على هذه الصيغة بادخال الفلسطينيين من غير م.ت.ف. اليها . فآلون يرى ان المسألة الفلسطينية « يجب ان تحل في اطار المفاوضات مع الاردن وباشتراك ممثلين عن الضفة الغربية » وهو يرى « ان ممثلي الفلسطينيين في الضفة الغربية يجب ان يشتركوا في هذه المفاوضات حتى تجد الشخصية الفلسطينية التعبير عنها داخل دولة اردنية — فلسطينية شرقي اسرائيل » «٣» . كما يرى ان اسرائيل سترتكب خطأ في حال قبولها التفاوض مع الاردن دون اشتراك ممثلين عن الضفة الغربية» «٤» . اضافة الى ذلك فان آلون عكس رابين ، يرى ان الوقت قد حان للبحث مجددا في الموضوع الفلسطيني . واتخاذ قرار يوسع هامش المناورة والمبادرة الاسرائيليتين بصدد المسألة الفلسطينية وهو « يخشى ان تكون اسرائيل ، بسبب الجرف في الموقف الاميركي وازدياد قوة م.ت.ف ، قد دفعت نحو سياسة عقيمة لدولة محاصرة ، لن

تكون هناك عودة عنها » ويبدي خشيته من ان استمرار المراهنة الاسرائيلية على حسين ، يجعله اقل مرونة لانه « يتوقع ان تقوم اسرائيل عنه بالعمل المجاني ، لرفض كل محاولة لاشراك م.ت.ف » «٥» . في حين ان رابين يرى ان الساعة غير ملائمة بعد للبحث مجددا في الموضوع الفلسطيني ويرى « ان النقاش والخلاف في الموضوع الفلسطيني ، في الحكومة والجمهور خصوصا الآن ، قد يكونان ضارين وخطرين » «٦» ويعزو ماتي غولان ، اصرار رابين على موقفه هذا الى اعتبارين « اولهما ان قيام دولة فلسطينية يشكل تهديدا لوجود اسرائيل ، والثاني يكمن في الخوف من الهزة التي يمكن ان تحدثها تغيير صيغة الائتلاف الحكومي ، مما يخشى رابين ان تكون له تأثيرات سلبية في وضعه السياسي الشخصي » «٧» وينتقد غولان نهج رابين هذا ويطالب بتغييره فيقول « ومما يدعو الى خيبة الامل ، ان رابين لا يبدي اية دلالة على انه يفهم ان تغيير الاسلوب والصيغة لا يقودان بالضرورة الى النتيجة التي يخشاها ، اي انه اذا اعلنت اسرائيل استعدادها للتفاوض مع م.ت.ف اذا اعترفت بوجود اسرائيل ، فذلك لا يعني ان دولة فلسطينية في يهودا والسامرة ستقوم غدا ، بل على العكس فهناك دبلوماسيون كبار في القدس ، يؤمنون ايمانا عميقا بان تبني هذه الصيغة سيحدث ارباكا في العالم العربي يخرج اسرائيل من الموقف الدفاعي الذي تورطت فيه . . . اضافة الى ان مثل هذا التغيير سيخلق شروخا في الساحة الفلسطينية » «٨» .

ان الخلاف بين رابين وآلون ، هو خلاف في الحركة التكتيكية ، فبينما يرى آلون ضرورة توسيع هامش المناورة الاسرائيلية من خلال اتخاذ قرار اكثر وضوحا من المسألة الفلسطينية والخروج من اطار المراهنة على الخيار الاردني كخيار وحيد ، فان رابين لاعتبارات تتعلق بوضعه داخل الحكومة يحجم عن اتخاذ قرار كهذا ، ويحاول ان يناور بالخيار الاردني . وهذا ما اتضح بعد زيارته الاخيرة للولايات المتحدة . فقد اكد بعد رجوعه من الولايات المتحدة «انه جرى الاتفاق بين اسرائيل والولايات المتحدة على محاولة ادخال الاردن مجددا الى حلقة المفاوضات السياسية » وان الطرفين تمسكا « بالرأي القائل بعدم جواز اجراء مفاوضات مع م.ت.ف » «٩» . **ولكن ما هي امكانات استمرار اسرائيل بموقفها هذا ، وما هي حدود المناورة السياسية امامها بهذا الموقف ؟**

مما لا شك فيه ان اسرائيل باتت شبه محاصرة بالمسألة الفلسطينية ، ولم يعد بامكانها ان تتعامل معها بنفس النهج الذي تعاملت به معها قبل حرب تشرين ١٩٧٣ ، ويتضح ذلك من كثافة واتساع الحوار الذي يدور منذ سنتين في الاوساط الاسرائيلية . وهو حوار ، وان كان بمعظمه لا يزال يدور في فلك السياسة الاسرائيلية التقليدية ولا يخدش الا جوانب هذه السياسة ، فأنه بتركيزه على المسألة الفلسطينية واهميتها فيما يدور من بحث عن منافذ للتسوية ، ثم ميل بعضه نحو حث الحكومة الاسرائيلية على التعامل مع المسألة الفلسطينية بأفق اوسع ، يجعل بالامكان القول ان هذا الحوار قد يتخذ مستقبلا ابعادا اكبر — بحدود — من الابعاد التي يبدو فيها الآن ، وذلك على ضوء ما يمكن ان تمثله الثورة الفلسطينية من تحرك فاعل يضغط على المجتمع الاسرائيلي ويؤثر بشكل واضح على احتمالات التسوية وصيغتها الممكنة . الا اننا حتى لا نقع في التفاؤل المسطح ، يجب ان نحدد بدقة المدى الذي يمكن ان تصل اليه هذه الابعاد في ظل محاولات التسوية الجارية في هذه الفترة وفي ظل ما تتمتع به اطراف الصراع المختلفة — المباشرة وغير المباشرة . من مواقع قوة ، وامكانية احداث تأثيرات معينة على مسيرة التسوية .

ان معظم ما يدور من حوار في الاوساط الاسرائيلية حول المسألة الفلسطينية يقوم على اساس انتقاد الموقف المعلن للحكومة الاسرائيلية من هذه المسألة ، وتحديدا موقف رابين ، باعتبار ان هذا الموقف لا يترك خيارات مفتوحة امام الدبلوماسية الاسرائيلية يوسع هامش المناورة امامها ، وباعتبار ان هذا الموقف لا يساعد على قطع الطريق على م.ت.ف واستبعادها كممثله للفلسطينيين . اضافة الى ذلك فان عددا من المعلقين الاسرائيليين يرى ان دولة فلسطينية مجردة من السلاح ، وتقوم على اساس الاعتراف باسرائيل ، لا تشكل هذا الخطر الكبير الذي تعكسه تصريحات المسؤولين الاسرائيليين «١٠» . ويرى يهوشوع تدمور « انه لا يجوز التهرب من امكان ان توافق اسرائيل على شكل من الدولة الفلسطينية اذا جاء يوم ورفضت فيه جميع الامكانات الاخرى » «١١» . ولكن كما يقول تدمور ان امكانا كهذا « ليس امكانا واقعيا في المستقبل القريب ، ومن المؤكد ان ذلك لا يعني دولة بقيادة م.ت.ف » «١٢» ولهذا فان الحكومة الاسرائيلية ، لا تزال تدور في اطار الحلول الاخرى او الخيارات الاخرى ، وهي التي تقوم في جانب منها على مشروع آلون المقلص ، اي اتفاق اسرائيلي — اردني مرفق بحل وسط اقليمي يمنح حكما ذاتيا معينا للفلسطينيين ، كما تقوم في جانبها الاخر على مشروع المملكة العربية المتحدة الذي طرحه حسين في آذار « مارس » ١٩٧٢ . ولا يبدو في الافق ما يشير ادنى اشارة الى ان الحكومة الاسرائيلية ستخرج عن هذا الاطار خلال هذه السنة او السنتين القادمتين . بل على العكس من ذلك فان جميع الدلائل تشير الى استمرار النهج الاسرائيلي في المراهنة على الخيار الاردني وفي ايجاد قيادة بديلة او موازية لـ م.ت.ف. داخل الاراضي المحتلة . فرابين عاد واكد في اكثر من تصريح له خلال الشهر الماضي عن استعداد اسرائيل للتفاوض مع الاردن ، وجاءت خطوة حسين الاخيرة في العودة عن سياسة الاردنة ، وتأجيل اجراء انتخابات نيابية الى اجل غير محدد ، لتتلاقى مع التحرك الاسرائيلي على ارضية الخيار الاردني . على الرغم مما اعلنه زيد الرفاعي « من ان الاردن غير مستعد لاجراء مفاوضات مع اسرائيل حول الضفة الغربية ، وان اي مفاوضات حول الضفة الغربية يجب ان تتم بين اسرائيل والمنظمة » «١٣» . ان النظام الاردني وقد استعاد — الى حد كبير — مكانته السياسية لدى معظم الدول العربية ، يحاول الآن ان يوظف هذه الاستعادة في تأكيد دوره الفلسطيني ، والزيارة الاخيرة التي سيقوم بها حسين الى الولايات المتحدة تأتي بمثابة خطوة كبيرة يقطعها النظام الهاشمي في هذا المجال ، لا سيما ان هذه الزيارة تأتي في ظل ما اعلن عن اتفاق اميركي — اسرائيلي على تنشيط الدور الاردني ، واعادة الاردن الى الحلبة السياسية.

ان التحرك الاسرائيلي في دعم الدور الاردني ، لا يقوم على اساس الدفع بعقد اتفاق او اجراء فك ارتباط مع الاردن ، فهذه خطوة لا زالت سابقة لاوانها ، بل يقوم على اساس تقوية نفوذ النظام الاردني داخل الضفة الغربية عبر ما تسميه اسرائيل **« تسوية عملية مع الاردن »** باعطاء الاردن مكانة في الحياة اليومية في الضفة الغربية ، واعداد الاردن كعامل لـه وزنه في الضفة الغربية على حساب م.ت.ف بتشجيع الاستثمارات الاردنية في المنطقة ونقل اموال الاردن الى الضفة الغربية ، وبالتنسيق بين الاردن واسرائيل في موضوع انتخابات المجالس البلدية القادمة «١٤» . وتعطي اسرائيل اهمية كبيرة للنتائج التي ستسفر عنها هذه الانتخابات لانها تأمل في ان تشكل المجالس البلدية الجديدة اطارا يمكن تنميته كبديل او مواز لـ م.ت.ف. او اطارا ممثلا لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، يكون اقرب الى حسين منه الى المنظمة .

ان اسرائيل تحاول ان ينطوي تحركها باتجاه الاردن وباتجاه المجالس البلدية

الجديدة خلال هذه السنة ، والسنة القادمة ، على قيمة عملية ، تتيح لها التحرك بحرية اوسع لدفع الخيار الازدني المطعم باشتراك ممثلين من داخل الضفة الغربية وقطاع غزة ، خطوة كبيرة الى الامام ، وهي خطوة ترى فيها انها وان كانت لا تؤدي الى قطع الطريق كليا على م.ت.ف ، فانها قد تدفع — على اقل تقدير — لايجاد معادل للمنظمة ، يمكن استخدامه كأداة ضغط عليها ، او كوسيلة للمناورة وابتزاز التنازلات السياسية . وتبني اسرائيل بعض حساباتها بهذا الخصوص على اساس ان النظام الاردني في نظر بعض الدول العربية لم يعد « نظام » مجزرة ايلول ، ولا « النظام » المستنكف عن الاشتراك الفاعل في حرب تشرين . كما تبني حساباتها الاخرى على اساس انها تتلاقى في خطوتها هذه مع الولايات المتحدة التي لا تزال تراهن ايضا على الخيار الاردني .

المناورة بسياسة انهاء حالة الحرب

لقد جاء اعلان اسرائيل بالموافقة على ما سمته « مبادرة اميركية » لعقد مباحثات مع الدول العربية بصدد انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل «١٥» ، ليخدم الخط العام لتحركها السياسي بصدد المسألة الفلسطينية . فسياسة الحكومة الاسرائيلية في هذه الفترة تقوم على اساس عدم اقحام المسألة الفلسطينية في صلب محادثات التسوية الجارية الآن، لانها **اولا** ، غير مستعدة لاتخاذ قرار محدد بالانسحاب من اجزاء من الضفة الغربية سواء لصالح الاردن او لصالح اي طرف آخر ، فحكومة رابين التزمت ببرنامج حكومة مئير السابقة ، والتي ربطت اي انسحاب من الضفة الغربية باجراء انتخابات جديدة للكنيست او باجراء استفتاء عام. **وثانيا** ، لان الخلاف داخل الحكومة الاسرائيلية حول هذه المسألة لم يتبلور ويتأطر بما فيه الكفاية ، اضافة الى ان رابين سيعمل كل جهده على ان لا يشكل الخلاف حول هذه المسألة نقطة او قضية تفجر الحكومة من الداخل وتفرط التآلف الهش الذي تقوم عليه . **وثالثا** ، لان كثيرين في الاوساط الاسرائيلية الحاكمة يعتقدون ان الخيار الاردني لم يستنفد امكاناته كلها بعد ، اضافة الى ان هذا الخيار لم يجر اختباره بطريقة عملية بعد ، وان امكاناته ستكون اوضح بعد دراسة النتائج التي ستسفر عنها انتخابات المجالس البلدية الجديدة .

ان التحرك الاسرائيلي باتجاه البحث عن تسوية شبه شاملة تقوم على اساس انهاء حالة الحرب مقابل انسحابات كبيرة — نسبيا — من الاراضي العربية المحتلة باستثناء الضفة الغربية وقطاع غزة ، يقوم على الاسس التالية : (١) استبعاد انعقاد مؤتمر جنيف خلال الفترة القريبة القادمة ، بسبب ربط الاطراف الاخرى — باستثناء اسرائيل والولايات المتحدة — بين عقد المؤتمر ودعوة م.ت.ف للمشاركة به كطرف في حال انعقاده . وحيث ان استمرار زخم الاندفاع الاميركي في المنطقة يقوم على اساس عدم احداث جمود واضح في السعي نحو التسوية، فانمسألة انهاء حالة الحرب ودراستها ومعرفة مواقف الاطراف المختلفة منها ، تشكل مادة تتيح لاسرائيل والولايات المتحدة ، امكانية جيدة للتحرك ، كما توحي للعديدين ان جهود « السلام » لم تتوقف. (٢) ان البحث في مسألة انهاء حالة الحرب ودراسة ردود الفعل المختلفة حولها ، ستستغرق وقتا ليس قصيرا ، وهو وقت تشعر اسرائيل انها بحاجة اليه لتنظيم وضعها الداخلي، ولحسم بعض خلافات اقطاب الحكومة الاسرائيلية حول المسألة الفلسطينية ، اضافة الى انها بحاجة لهذا الوقت ، لاعطاء الخيار الاردني بعد انتهاء انتخابات المجالس البلدية في الضفة الغربية وقطاع غزة، فرصة اكبر لاختباره

عمليا . (٣) يهم اسرائيل جدا ان تختبر بشكل كاف امكانات صمود اتفاق عربي — اسرائيلي على غرار اتفاق سيناء الاخير في وجه المعارضين له . كما يهمها ان تدرس بشكل كاف ، مدى العمق الذي سيأخذه مثل هذا الاتفاق في السياسة العربية ازاء اسرائيل ، قبل ان تقدم على خطوة اخرى من هذا النوع او خطوة اخرى اكبر منها . ان اختبار ودراسة نتائج وردود فعل هذا الاتفاق تتطلب فترة زمنية ليست قصيرة ، من سنتين الى ثلاث سنوات على اقل تقدير . وترى اسرائيل ان الغوص في مسألة انهاء حالة الحرب قد يعطيها مثل هذا الوقت . اضافة الى ذلك فان اسرائيل حتى تعمق الاتجاه المصري في السياسة العربية كما عبر عنه باتفاق سيناء ، ترى ان لا يظل الموقف المصري يعيش بعزلة او شبه عزلة عربية تقلل من قدرته على الفعل في السياسة العربية ، وفي نفسية الجماهير العربية . ولذا فانها ترى ان الغوص في مسألة انهاء حالة الحرب ، قد يؤدي الى «**تعويم الموقف المصري**» وفك جانب كبير من العزلة المفروضة على مصر ، في ظل توجه سياسي عربي عام نحو البحث في مسألة انهاء حالة الحرب مع اسرائيل . (٤) تعطي التصريحات الاسرائيلية منذ شهرين انطباعا قويا ان اسرائيل باتت تتحرك على اساس ان التسويات الجزئية استنفدت اغراضها وامكاناتها . فالتسوية الجزئية على الجولان تصطدم بموقف اسرائيلي غير راغب في الانسحاب من اجزاء محسوسة من الجولان ، كما تصطدم بتعقيدات الترابط بين الانسحاب من اجزاء من الجولان والمسألة الفلسطينية . اضافة الى ان اسرائيل ليست مهيأة رسميا لعقد اتفاق جزئي مع الاردن . فحول التسويات الجزئية صرح رابين « ان اسرائيل لن تقدم في المستقبل على عقد اي اتفاق مؤقت مع جيرانها » واضاف « ان اسرائيل تريد الآن البحث عن تسوية شاملة في الشرق الاوسط » واشار الى انه بحث في هذا الموضوع في المحادثات التي اجراها مؤخرا في واشنطن مع فورد وكيسنجر «١٦» . وحول الاردن ، ذكر رابين في لقائه الشهري مع كتلة المعراخ بعد عودته من الولايات المتحدة ، « ان الادارة الاميركية تركت لاسرائيل دراسة احتمال الغاء حالة الحرب كبديل لمؤتمر جنيف ، وان هذه الادارة تعي ان اسرائيل معنية بالاشتراك في مؤتمر جنيف ،ولكن عقده الآن مقرون باشتراك م.ت.ف ، لذلك اقترحت الادارة الاميركية موضوع امكان انهاء حالة الحرب » واضاف انه كان في استطاعته « ان يرد بالايجاب بالنسبة لموقفنا في هذا الموضوع فيما يتعلق بمصر وسوريا ، اما بالنسبة للاردن فقد اردت ان اجري مشاورات مع الحكومة «١٧» » ونفى في الكنيست أن يكون قد جرى اي بحث اقليمي بصدد اتفاق مع الاردن خلال زيارته للولايات المتحدة فقال « لم اجد نفسي مأذونا للرد على الولايات المتحدة بشأن الموافقة او عدم الموافقة على مفاوضات مع الاردن بشأن الغاء حالة الحرب ... ومن البديهي انه اذا لم يتفق على مفاوضات مع الاردن ، فبطبيعة الحال لم تجر المفاوضات حول موضوع اقليمي «١٨» » .

استنادا على هذه الاسس ، فقد بادرت اسرائيل الى اعلان موافقتها على البحث في مسألة انهاء حالة الحرب وبحث امكانيات عقد تسوية شبه شاملة ، وهو اعلان سيشكل الاساس في التحرك السياسي الاسرائيلي خلال هذه السنة على اقل تقدير اي الى حين انتهاء انتخابات الرئاسة الاميركية ، ولا ينتظر ان يطرأ تغيير يذكر على السياسة الاسرائيلية خلال هذه الفترة ، لا سيما ان الولايات المتحدة بحاجة الى وقت ايضا حتى تنتهي من مسألة الانتخابات الرئاسية .

الموقف الاميركي من المسألة الفلسطينية

لقد كان الموقف الاميركي منسجما — الى حد كبير — مع الموقف الاسرائيلي ، وقد

جرى التأكيد على هذا الانسجام او التوافق بين الموقفين الاميركي والاسرائيلي في الملاحق السرية لاتفاق سيناء ، حيث تعهدت الولايات المتحدة لاسرائيل بعدم الاعتراف بـ م.ت.ف ، او التفاوض معها اذا لم تعترف باسرائيل ، كما تعهدت لها ايضا بعدم اشراك م.ت.ف في مؤتمر جنيف الا باتفاق كل الاطراف التي دعيت اصلا للمؤتمر بما فيهم اسرائيل «١٩» اما وثيقة ساوندرز التي اثارت بعض الضجيج في الاوساط الاسرائيلية عند صدورها ، فقد اعتبرت شبه معدومة ، بعد التوضيحات التي ادلى بها كيسنجر عقب صدور الوثيقة اضافة الى ان الوثيقة لم تأت بجديد فيما يتعلق بالموقف الاميركي الا اشارتها الى اهمية ومركزية المسألة الفلسطينية في تسوية النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وهي اشارة لا تثير ذلك القدر من التفاوت او التباين بين الموقفين الاسرائيلي والاميركي . اما الحلول التي تذكرها الوثيقة للمسألة الفلسطينية ، فهي الحلول اياها التي تحبذها اسرائيل ، والتي يقف على راسها الاستمرار في اعتبار الاردن الطرف المفاوض المعقول والممكن بصدد تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة «٢٠» .

ان الاتفاق الاسرائيلي ـ الاميركي بصدد تنشيط الدور الاردني كما اعلن عنه رابين بعد زيارته للولايات المتحدة ، يؤكد ان لا افتراق بين الموقفين ، وان السياسة الاميركية لا تزال تسير بمحاذاة السياسة الاسرائيلية ومعها فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية . ومعظم الدلائل تشير الى ان اي افتراق ولو ضئيل لن يحدث خلال الفترة القريبة القادمة . وبالتالي تصبح اي مراهنة على امكان احداث تغيير في الموقف الاميركي ازاء المسألة الفلسطينية مراهنة خاسرة ولا تقوم الا على فراغ .

لقد فشلت محاولة بعض الدول العربية في الحصول على قرار فلسطيني معتدل من مجلس الامن بدون فيتو اميركي عندما جرى بحث المسألة الفلسطينية في مجلس الامن في شهر كانون الثاني « يناير » الماضي . ولقد جاء الفيتو الاميركي ضد مشروع القرار الذي قدمته دول عدم الانحياز ، ليؤكد بالملموس ، ان الموقف الاميركي من المسألة الفلسطينية لا يزال هو هو ولن يتغير ، ولا يختلف عن الموقف الاسرائيلي المعلن كما يعبر عنه رابين .

الاحتمالات والامكانيات

يتضح مما تقدم انه على الرغم من بروز اهمية المسألة الفلسطينية في التسوية ، فان هذه الاهمية لم يجر التعبير عنها بما يتناسب واهميتها ، وان مجموع الحلول التي طرحت لحل هذه المسألة في نطاق مساعي التسوية الجارية الآن ، لا زالت تدور خارج اطار الحل الوطني لها ، وان اقصى ما يمكن ان تصل اليه هذه الحلول ، في ظل موازين القوى القائمة الآن ، هو القبول بدولة فلسطينية مجردة من السلاح ، لا تشكل نفيا للنظام الهاشمي او اسقاطا له ولدوره السياسي في المنطقة ، وتقوم على اساس الاعتراف باسرائيل والقبول بالتعايش السلمي معها . ان مثل هذا الحل لا يرضي حتى الحد الادنى والضئيل جدا من الطموحات الوطنية الفلسطينية ، وبالتالي فانه سيكون مرفوضا من جميع القوى الوطنية الفلسطينية والعربية . ان امكانات احباط مثل هذا الحل في هذه المرحلة لصالح تأمين الحد الادنى من الطموحات الوطنية للشعب الفلسطيني ، تظل مرهونة بما يمكن ان يحدث من تغيير على مواقع اطراف الصراع المختلفة خلال مباحثات التسوية . وما جرى خلال السنتين الماضيتين من محاولات بهذا الاتجاه ، يؤكد ان مثل هذه الامكانية ضعيفة ، **فاي تغيير يمكن ان يحدث في ظل موازين القوى السائدة الآن ، وبعد عقد اتفاق سيناء سيظل تغييرا له امكانية تأثير**

في حدود الحركة التكتيكية لاطراف الصراع ، وليس في حدود احداث نقله او تغيير اساسي يقلب معادلة التسوية التي يجري اعدادها . فاي تسوية هي بالنهاية انعكاس لمواقع القوى الداخلة في هذه التسوية والمشاركة بها ، ان ما حققته الثورة الفلسطينية من انجازات على الصعيد الدولي بالحصول على قرارات من الجمعية العامة للامم المتحدة « قراري دورتي ٢٩ و ٣٠ » تستجيب لبعض الطموحات الوطنية للشعب الفلسطيني ، تظل انجازات محدودة ولا تكتسب قوة الفعل واحداث التأثير الفاعل الا اذا اسندت بانجازات عملية موازية لها على صعيد الواقع وعلى ارض المعركة ، تقلب معادلة التسوية الجارية الآن ، وتحدث تغييرا اساسيا في مواقع الاطراف المشاركة بها . وبكل ثقة اقول ان الثورة الفلسطينية لم نصل بعد الى تحقيق مثل هذه الامكانية ، وان كان المجال مفتوحا امامها لامكانية كهذه باستمرار قدرتها النضالية ، وباستمرار البندقية الفلسطينية اداةفاعلة لحسم الصراع وتأكيد الشخصية الوطنية الفلسطينية . وما تشهده الضفة الغربية الآن ومنذ فترة من تحرك جماهيري واسع اخذ يتسم ببعض مظاهره بطابع الانتفاضة الشعبية ، وما اكدته الاحداث الدامية في لبنان ، من قدرة الثورة الفلسطينية على التصدي لايقاف مؤامرة اعادة تحجيمها ، كلها شواهد ودلائل تؤكد ان الثورة الفلسطينية تملك القدرة على تحويل الامكانية الى فعل . ولكن مثل هذه القدرة ، لن تتبلور بقفزة ، وخلال فترة قصيرة ، بل لا بد لهذه القدرة من ان تعبر عن نفسها من خلال النضال الشاق والمرير الذي قد يستمر عدة سنوات . وعليه ، فان ما تواجهه الثورة الفلسطينية الآن ، ضمن ما يجري من محاولات لفرض تسوية قسرية بخصوص المسألة الفلسطينية ، يجعل من الممكن القول **ان امكانات الخروج بحل وطني للمسألة الفلسطينية من معادلة التسوية في هذه المرحلة ، تبدو امكانات ضعيفة جدا ان لم تكن معدومة كليا** . وبالتالي فان مرحلة من النضال القاسي والمرير ستفرض نفسها على الحركة الوطنية الفلسطينية قبل ان نصل الى امكانية كهذه . وهي مرحلة ستكون اقسى واشد من اي مرحلة نضالية سابقة ، فعلى الثورة الفلسطينية ، ليس فقط ان تستمر في كفاحها المسلح الفاعل ضد العدو الصهيوني والامبريالية الاميركية ، ولكن ان تواجه ايضا وبفعالية ، مجمل التوجهات السياسية العربية وغير العربية التي تسعى لاعادة تحجيم الثورة الفلسطينية حتى تنسجم مع معادلة التسوية التي يجري اعدادها . ان ما جرى في لبنان خلال الاشهر العشرة الماضية ، وما يمكن ان يجري ايضا خلال هذه الفترة ، تشكل كلها ، الحلقة الرئيسية في سلسلة المحاولات الجارية لافقاد الثورة الفلسطينية مواقع فعلها وتأثيرها في الاحداث . ان الثورة الفلسطينية بجميع اطرافها وفصائلها ، لا زالت تشكل عنصرا غير قابل للذوبان في المعادلة . ومن هنا فان ما قاله بيغال آلون، من ان الصراع في المرحلة القادمة سيتمحور حول الفصل بين المسألة الفلسطينية و م.ت.ف ، اي اداتها الوطنية ، يجب ان لا يؤخذ ببساطة ، فهو قول سواء جاء عبر آلون او غيره ، يشكل عنوانا كبيرا للصراع في المرحلة القادمة . وعليه فان احباط مخططات ايجاد البدائل او القوى الموازية للثورة الفلسطينية ، يجب ان يشكل جانبا اساسيا من البرنامج العام للثورة الفلسطينية في هذه المرحلة . وليس من شك في ان اعادة النظر في مجمل علاقات منظمات المقاومة الفلسطينية فيما بينها ، وفي مجمل السياسات التي وضعت موضع التنفيذ والتجربة خلال السنتين الماضيتين ، يشكل مدخلا لا بد منه لاعادة النبض القوي الى الوحدة الوطنية الفلسطينية . ان عودة الحرارة الى العلاقات بين منظمات المقاومة الفلسطينية ، وعودة بعض السخونة

الفاعلة الى الحوار الفلسطيني ، امران من الضروري ان يعطيا الامكانية والفرصة ، من دون تشنج ومن دون المترسة وراء مواقف مسبقة . ذلك ان الوحدة الوطنية الفلسطينية ، الفاعلة والمبنية على وضوح كامل في العلاقات ، تشكل احد شروط النجاح في خوض الصراع بفعالية وتأثير خلال المرحلة القادمة من نضالنا الوطني .

---

١ ـ في ١٩٧٦/٢/٢٠ ، صرح رابين « على رغم ان المشكلة الفلسطينية لا تشكل قلب النزاع العربي ـ الاسرائيلي فمن المؤكد انه لا يمكن الوصول الى تسوية سلمية نهائية في الشرق الاوسط ما لم تسو هذه المشكلة » ـ انظر **النهار** بتاريخ ١٩٧٦/٢/٢١ .

٢ ـ اكد ييجال الون في جلسة الحكومة الاسرائيلية عشية سفر رابين لواشنطن «ان المشكلة الاساسية ستكون الفصل بين المسألة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية وان الصراع سيدور حول هذا الموضوع ـ **هآرتس** ١٩٧٦/١/٥ . كذلكفقد ثبتت وثيقة ساوندرز الاميركية مثل هذا التصور ، عندما اشارت الى اهمية المسألة الفلسطينية في ازمة الشرق الاوسط ، ورفضت اعتبار م٠ت٠ف٠ طرفا مفاوضا مقبولا وممكنا .

٣ ـ **السفير** بتاريخ ١٩٧٦/٢/١٦

٤ ـ **هآرتس** بتاريخ ٢٠-٢-١٩٧٦

٥ ـ **دافار** بتاريخ ١٩٧٦/١٢/١٢

٦ ـ المصدر نفسه

٧ ـ **هآرتس** ١٩٧٥/١٢/٩

٨ ـ المصدر نفسه

٩ ـ نشرة رصد اذاعة اسرائيل ر٠١٠١٠ العدد ٩٨١ .

١٠ ـ انظر تعليق ماتي غولان ، حول مواقف حكومة رابين ازاء التطورات السياسية في المنطقة **هآرتس** ٧٥/١٢/٩ وكذلك تعليق يهوشوع تدمور ، حول الخلاف بين رابين والون دافار ١٢-١٢-١٩٧٥ .

١١ ـ **دافار** ١٩٧٥/١٢/١٢

١٢ ـ المصدر نفسه

١٣ ـ **النهار** ١٩٧٦/٢/١١

١٤ ـ ر٠١٠١٠ العدد ٩٨٥

١٥ ـ **النهار** ١٩٧٦/٢/٢٣

١٧ ـ ر٠١٠١٠ العدد ١٠٠٥

١٧ ـ ر٠١٠١٠ العدد ١٠٠٥

١٨ ـ ر٠١٠١٠ العدد ١٠٠٤

١٩ ـ انظر النص الكامل للملاحق السرية لاتفاق سيناء ، **تقارير القدس برس** ، تقرير رقم «٥» بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٠ .

٢٠ ـ انظر النص الكامل لوثيقة ساولدرز ، **فلسطين الثورة** ، العدد السنوي، بتاريخ ١٩٧٦/١/١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣

صراع من اجل الوحدة

ملاحظات على برنامج الجبهة الديموقراطية

محجوب عمر

البرنامج السياسي الذي اعلنتـــه الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في ذكرى تأسيسها السابعة، مضى دون ان يحظى بالانتباه الواجب ولا الاهتمام الذي يستحق..

فمن جهة ، انشغل الناس عنه بالاقتتال الدائر في لبنان والتطورات المتسارعة التي تحدث على ساحته . ومن جهة اخرى فان الناس البعيدين عن لبنان ، القريبين مـــن فلسطين شدت ابصارهم واسماعهم واذهانهم وقلوبهم انتفاضة جماهيرية عنيفة ، فلم يلتفتوا الى « البرنامج السياسي » المعلن ولـــم ينتبهوا الى اهمية ما ورد فيه مـــن افكار ..

اما الذين هم في « الداخل » ، في الوطن المحتل (ونقصد به فلسطين كلها وليـــس مجرد قسم منها) فهؤلاء طبعا لم يعرفوا « بالبرنامج » وان عرفوا بـــه لم يناقشوه « فان ممارسة الثورة خير من الحديث عنها » كما قال لينين معلقا على كتابه « الدولة والثورة » .

ومع ذلك .. ورغم الانشغال بما يجري ، فان « البرنامج السياسي » للجبهـــة الديمقراطية لتحرير فلسطين يستحق التنبيه والمناقشة وان اقتصرت على ملاحظات وتساؤلات اولية سريعة ، لعل رفاق الجبهة الديمقراطية تتسع صدورهم لها ، **فدوافع الاستعجال** هي نصائحهم المكررة بان « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » والبرنامج المطروح هو « نظرية » فصيل من فصائل الساحة الفلسطينية (بل يطرح نفسه قيادة لها) ، لذا لا بد من استعجال الفهم والوضوح تدعيما لوحدة الصف والنضال .

اما دوافع الحوار نفسه فهي كون « البرنامج السياسي » يتعلق بقضية فلسطين وهي قضية مقدمة على كل قضية اخرى . وكمـــا لا يجب ان تنحرف بنادقنا عـــن اتجاهها نحو فلسطين المحتلة ، فالاولى الا تنحرف افكارنا عنها ايضا .

ان رفاق الجبهة الديمقراطية يقدمون برنامجهم **السياسي** من منطلق **فكري** يشيرون انه الفكر الاشتراكي العلمي ويتحدثون في برنامجهم عن « الطبقة العاملة بقيادة حزبها الطليعي العظيم » (١) ويوجهون النقد الى « التنظيمات التي تنتمي ايديولوجيا الـــى الطبقة العاملة » (٢) ، ويقيمون القوى والعوامل بالفـــاظ وعبارات « كتلك التـــي يستخدمها الماركسيون عادة » ، اي اننا يمكن ان **نستنتج** ان رفاق الجبهة الديمقراطية

يتبنون او يتسلحون بالماركسية اللينينية عند قيامهم « بالتحليل الملموس للواقع الملموس » حسب عباراتهم في تقارير سابقة لهم .

استنتاج .. الى ان يعلنوا غير ذلك ، وعذرنا انهم اتبعوا في **هذا** « البرنامج السياسي » ما لم يتبعوه من قبل في برامج سياسية اخرى لهم ، اذ فضلوا العبارات والالفاظ غير الواضحة والمغماه الغامضة تاركين للقارىء ان يستنتج .

فاذا كان هذا الاستنتاج صحيحا فان حوارنا لن يتعرض في هذا المقال الى صحة تطبيق الافكار الماركسية اللينينية كما اجتهد رفاق الجبهة الديمقراطية ، لاحتمال اختلافنا على فهم الماركسية اللينينية وهو الارجح ، وايضا حتى يعلنوا هم انهم يطبقونها فلا يكون حوارنا قائما على استنتاج وافتراض .

ان استيضاحاتنا وملاحظاتنا ستتركز حول « **البرامج** » **السياسية** المتضمنة في « **البرنامج السياسي** » باعتبارها « واقعا ملموسا » اي وثيقة مكتوبة نحاول ان نفهمها « بالتحليل الملموس » ايضا ..

ولا شك ان رفاق الجبهة الديمقراطية يوافقون على ان نهج « التحليل الملموس للواقع الملموس » لا بد ان يستند الى تطور هذا الواقع ، وهو امر ليس صعبا عند تناول « البرنامج السياسي » المعلن مؤخرا (الربع الاخير من ١٩٧٥ حسبما جاء في مقدمة البرنامج المطبوع) ذلك ان لـه شقيقا اعلن في الربع الاخير ايضا من عام ١٩٦٩ انه :

« البرنامج الاكثر تقدما وتقدمية مما هو قائم ، البرنامج الذي يشق طريقا جديدا للمقاومة يعتمد على الذات والجماهير « بافق وطني » جذري يقود المقاومة على طريق الانتقال من الحرب الفدائية المحدودة الى حرب البؤر الثورية المتنقلة الى حرب العصابات ويدفع بالمنطقة للأخذ ببرنامج حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد لالحاق الهزيمة الكاملة بالصهيونية والامبريالية والرجعية » (من مقدمة الرفيق نايف حواتمه لتقرير « حركة المقاومة الفلسطينية في واقعها الراهن ») .

« منشورات الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين »

من هنا تبدأ ملاحظاتنا :

اولا : استيضاحات ضرورية :

الذي يقرأ البرنامج المنشور في ايلول ١٩٦٩ و « البرامج السياسية المتضمنة في البرنامج السياسي » المنشور في ١٩٧٥ له الحق ان يتساءل ما اذا كانت الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين صاحبة البرنامج الاول هي نفسها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين صاحبة البرنامج الثاني ، فان اجيب بالايجاب فان اول سؤال يتبادر للذهن هو السؤال عن مصير شعارات اساسية كان البرنامج الاول مليئا بها وبالتأكيد عليها من المقدمة حتى آخر سطر ، بل وصل الامر باصحاب التقرير الاول الى تحديد :

« ان حركة المقاومة الفلسطينية **ترفض وتستنكر بشدة هذا المنطق الخياني** (منطق المطالبين بازالة اثار العدوان والتسوية السلمية مع اسرائيل ، اي منطق الذين كانوا وقتها يطالبون بدحر الاحتلال من الاراضي العربية التي احتلها العدو الصهيوني بعد ١٩٦٧ ـــ م.ع) وتعلن ان **الكفاح المسلح** الذي يخوضه شعب فلسطين **لن يتوقف الا**

بتحرير فلسطين وتدمير الكيان الاسرائيلي واسترجاع كل شبر من الارض المغتصبة ».

ص ٩١ من برنامج ١٩٦٩

هذا الحسم والجزم والوضوح غاب تماما من البرنامج الجديد .. ربما كان في الامر حكمة لا ندريها ولكن من حقنا السؤال بل الاسئلة :

ا) لماذا خلا برنامج ١٩٧٥ **تماما** من اي ذكر **لشعار الكفاح المسلح**(٣) حتى ولو على سبيل التقييم لما كان قائما ومدعوا له من قبل ؟.

ان البرنامج الاول والذي اوردنا فقرة واحدة من مقدمته (تضمنت هذه الفقرة كلمة الحرب اربع مرات مع التأكيد بانها شعبية وطويلة الامد) وما الحق به من برامج ومشاريع برامج ، كرر مئات المرات ، وبتشديد وتأكيد ، شعار الحرب الشعبية **طويلة الامد** ، والكفاح المسلح الذي لن يتوقف حتى **تحرير آخر شبر من فلسطين واسترجاعه** واعتباره الطريق الوحيد للتحرير (ص ١٣٧) .

« ان التناقض بين حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية وبين **الامبريالية** واسرائيل هو تناقض **يستحيل** حله بالطرق السلمية بل فقط بالكفاح المسلح عن طريق حرب تحرير شعبية طويلة الامد تساهم فيها جميع الجماهير العربية المسلحة لتدمير الكيان الصهيوني واستئصال الوجود الامبريالي على امتداد الارض الفلسطينية والعربية » .

(التشديد من عندنا)

« من مشروع قرار مقدم للمؤتمر السادس — ملحق برنامج ١٩٦٩ ص ١٠٥ »

بل ان رفاق الجبهة الديمقراطية قدروا في ذلك الوقت ان مستلزمات النصر الوطني الحاسم كانت تتطلب ايضا :

« ٥ — شن حرب شعبية طويلة الامد تشارك فيها الجيوش النظامية الثورية الى جانب قوات المقاومة الفلسطينية وكتائب الميليشيا الشعبية المسلحة » .

ص : ٨٣ — المصدر السابق .

ان كلمة **الكفاح المسلح** لم ترد ، بل ان كلمة **« الفدائي » ومشتقاتها لم يشر اليها** ، فضلا **عن حرب التحرير الشعبية طويلة الامد ..**

لماذا ؟... هل كانت شعارات خاطئة ؟ ام حدث ما جعل « المستحيل » ممكنا ؟ ام لم تعد حرب الشعب والفدائيين والكفاح المسلح ضرورية ؟..

ب) البرنامج السياسي الجديد (١٩٧٥) يحمل اسم الجبهة الديمقراطية **لتحرير فلسطين** . وباستثناء هذه الاشارة الى مهمة الجبهة فان جملة واحدة **لم ترد** عن هذه المهمة بهذا التعبير على طول البرنامج . بل ان جملة **« تحرير فلسطين »** وردت في موقعين مرة بكونها الشعار الذي تحركت تحته الرجعية العربية في١٩٤٨ ،واستخدمت « **شعارات جوفاء** » بشأنه(٤) والمرة الاخرى وردت بالنص التالي :

« ان الغاء الصهيونية على الارض الفلسطينية يعني بالضرورة تحرير فلسطين من فلك الامبريالية العالمية »

ص : ٣٠

ورغم تعدد البرامج الاستراتيجية والمرحلية « والمرحلية المتنوعـــة » في البرنامج المنشور فان مهمة « **تحرير فلسطين** » لم توضع في اي منهم كهدف وشعار محدد .

اليس هذا الغياب الواضح مثيرا للتساؤل والدهشة ؟

برنامج ١٩٦٩ لم يكن يتردد في ذكر هذا الهدف بشكل محدود واضح بل وان يقرنه على الدوام بما سنسأل عنه فيما بعد ، بالقضاء على الكيان الصهيوني (ص ٢٣ — ص ٨٥ — ص ٩١ — ص ١٠٣ — ص ١٣٧ — ص ١٦٧ — علـى سبيل المثـال لا الحصر ، من برنامج ١٩٦٩) . لماذا اذن خـلا البرنامج الجديد مـن هده العبارات الواضحة ؟ لماذا اغرقت ضمنا في مسلسل متتال من الشروط **اللازمة** ، والتي **بدونهـا لا يمكن** (!!) والتي حتى لو تحققت تؤدي فقط الـى « ضمان حقـه (اي الشعـب الفلسطيني) في تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني » (برنامج١٩٧٥ ، ص : ٣٢) — سنعود فيما بعد الى مسألة حق تقرير المصير — ولكننا نتساءل الان عما اذا كـان **اغفال** تحديد ان مهمة النضال الاستراتيجية هي **تحرير فلسطين** ، هو بمثابة تخلي عن شعار « استرجاع كل شبر من الارض المغتصبة » كما بشر وطالب برنامج ١٩٦٩ . لماذا ؟.. وهل ما يزال الرفاق مصرون على شعارات ١٩٦٩ ؟..

ج) وهل تخلى رفاق الجبهة الديمقراطية ايضا عن شعارات « القضاء على الكيان الاسرائيلي » و « تدمير الكيان الاسرائيلي » ، و « ازالة الكيان الصهيوني» ، و «الغاء الدولة الصهيونية العنصرية التوسعية » و «تصفية الكيان الاسرائيلي ممثلا بمؤسساته العسكرية والسياسية والادارية » وكلها شعارات وردت بالنص في برنامج ١٩٦٩ ؟..

ان البرنامج الجديد **لم يذكر ولا مرة واحدة** مهمة « القضاء على الكيان الصهيوني او تصفيته » ولا تكلم عن « تدمير الكيان الاسرائيلي » واستبـدل تلـك الشعارات الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض بالقول بأن التوصل الى الحل (!!) يتطلـب النضال من اجل سلسلة مـن التدابير السياسية (!!) الملموسة التـي تكفل **الغـاء** الصهيونية وكافة تعبيراتها السياسية ، وتتمثل في :

١ — فرض **الاعتراف** العملي بالوجود الوطني المستقل للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره بحرية في اطار **دولة وطنية مستقلة** .

٢ — اقرار حق **جميع** اللاجئين الفلسطينيين العرب في **العودة** الى ديارهم الاصلية وارض وطنهم واستعادة ممتلكاتهم .

٣ — **الغاء قانون العودة** الصهيوني ووضع حد للهجرة اليهوديـة الـى فلسطين وتصفية سائر المؤسسات الصهيونية العسكرية والسياسية والاقتصاديـة والاجتماعية .

٤ — الغاء كافة مظاهر التمييز القومي والعنصري والدينـي **وتوفير الضمانـات الدستورية والسياسية** للتعايش والمساواة في ظـل الدولة الديمقراطيـة الموحدة .

برنامج ١٩٧٥ ص : ٣٢
(والتشديد من عندنا)

والبرنامج يصف « الحل » بانه « الحل الجذري لمعضلة التبديد والاقتلاع القومـي للشعب الفلسطيني » .

ونلاحظ ان المطلوب في البرنامج الجديد ليس هو **تدمير الكيان الاسرائيلي** كما سبق ان طالبوا ، بل سلسلة من التدابير السياسية (اتفاقات مثلا ؟!) تكفل :

١ ــ الاعتراف بدولة فلسطينية (ترى ما حدودها ؟)

٢ ــ الاقرار بحق اللاجئين في العودة (مقر منذ زمن ولكن المشكلة في التنفيذ) .

٣ ــ الغاء قانون العودة الصهيوني !! (ان الغاء القانون لا يعني الغاء الدولة) وتصفية سائر المؤسسات الصهيونية (هناك مؤسسات غير صهيونية في الكيان الاسرائيلي) .

٤ ــ الغاء مظاهر التمييز .. وتوفير ضمانات دستورية (ضمانات **ممن** ؟ ودستور من ؟)

ان هذا البرنامج الجذري « الاستراتيجي » المطروح **لا يعاقب عليه** « القانون » في الكيان الاسرائيلي ، وهناك تنظيمات « اسرائيلية » ذات برامج تطالب بأكثر مما يطالب بـه برنامج الجبهة الديمقراطية . ان اتحاد الشيوعيين الاسرائيليين مثلا يطالب بتطبيق قرارات التقسيم ١٩٤٧ (اي الانسحاب من اكثر من ثلثي المساحة المحتلة قبل ١٩٦٧) وايضا الانسحاب من المثلث والجليل (لان اغلبية السكان عرب) ، وحق الانفصال للعرب المقيمين في (اسرائيل) (٦) .

د) يتحدث البرنامج السياسي عن « الدولة الديمقراطية **الموحدة** » (التشديد من عندنا) يتعايش فيها العرب (واليهود) (٧) في ظل المساواة **القومية** الكاملة ..

هل هي الدولة **« المتعددة القوميات »** التي يطالب بها بعض « الاسرائيليين » الان ؟ وكيف يمكن الجمع بين العرب **(وهم قومية)** وبين (اليهود) **(وهم ليسوا قومية)** في معادلة واحدة اسمها « المساواة القومية » ؟ أوليست **« المساواة القومية »** تعني في الواقع العملي حق كل « قومية » في تقرير مصيرها ، بمعنى **حقها في الانفصال ؟..** وماذا لو قرر (اليهود) الانفصال لاسباب « غير صهيونية » وقد تكون لاخطاء من الجانب العربي ؟ ان الغموض الذي صيغت به هذه العبارات مثير للتساؤل خصوصا اذا قرأناها في سياق القول بأن الدولة الديمقراطية « الموحدة » سترتبط **بعلاقات وحدوية** مع سائر اقطار الوطن العربي ص ٣٢ . مجرد علاقات وحدوية وليست « جزءا من دولة الوحدة العربية التقدمية الكبرى » كما هو مصطلح على وصفها باعتبارها دولة « عربية » حتما .. ام ان الرفاق يرون انها لن تكون دولة ديمقراطية عربية ؟.. الاغلب انهم لا يرون ذلك والا لذكروه صراحة وتحديدا منعا للبس والغموض ..

ثانيا : حق تقرير المصير ــ متى واين ومن ؟

يتحدث البرنامج السياسي الجديد (١٩٧٥) عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في اكثر من مكان وبأكثر من معنى في نفس الوقت . (٨)

فقد ورد الحديث عن حق تقرير المصير في المقدمة التاريخية ، وفي البرنامج العام وفي « البرامج المتنوعة المرحلية » ، والفقرة الوحيدة التي لم ترد فيها اشارة له هي تلك الخاصة « بالارض المحتلة ١٩٤٨ » على حد تسمية البرنامج .

اول ذكر لحق تقرير المصير ورد عند الحديث عن اثر اقامة (دولة اسرائيل) « الهلالين لنا » اذ يقول البرنامج :

« ان اقامة (دولة اسرائيل) وضم فلسطين الشرقية الى الاردن يضعان المسالة الوطنية الفلسطينية في اطار جديد محوره النضال من اجل استعادة الهوية الوطنية المتميزة لشعب فلسطين ، واعادته الى ارضه ، **وضمان حقه في تقرير مصيره ، بما يكفل اعادة توحيد وطنه في ظل دولة ديمقراطية مستقلة** » . ص : ١٥

(التشديد لنا) . . .

لنلاحظ اولا ان الفقرة لم تورد اي شيء يشير الى النضال من اجل **استعادة الارض** المغتصبة التي اقيمت عليها (دولة اسرائيل) ، واقتصر على استعادة الهوية الوطنية المتميزة لشعب فلسطين وهو امر كان من الممكن تحقيقه قبل ١٩٦٧ باعلان حكومة فلسطينية على ما بقي من فلسطين بعد اقامة (دولة اسرائيل) . كما **أن العودة الى الارض** لم تقترن بأي اشارة الى من يحكم ويتحكم في هذه الارض وما هو موقفنا منه : هل هو « تدميره » و « القضاء عليه » ام مجرد **اجباره** على ان يعطي للشعب الفلسطيني العائد الى ارضه حق تقرير المصير ؟ حتى لو قبلنا بذلك خضوعا للواقعية وخوفا من الاتهام بالطوباوية والجمود والعاطفية وما شابه ذلك من صفات يمكن ان يخلعها علينا الرفاق .. حتى لو قبلنا بذلك فان البرنامج **يجرد** الشعب الفلسطيني من حق تقرير المصير في الجملة التالية اذ يضيف :

« **بما يكفل** اعادة توحيد وطنه في ظل دولة ديمقراطية مستقلة »

معنى ذلك ان البرنامج يحدد الهدف من حق تقرير المصير ، ورغم انه من المعروف ان حق تقرير المصير يعني في الاساس حق **الانفصال** ، اي حق **الاستقلال** عن البلد او الامة او الدولة القاهرة المستعمرة، الا ان البرنامج يطالب بأن يؤدي استخدام الشعب الفلسطيني له الى ما يكفل **اعادة توحيد** وطنه في ظل دولة ديمقراطية مستقلة . .

توحيد مع من ؟؟ واستقلال عن من ؟؟

هناك قوتان في المعادلة التي طرحها البرنامج (اسرائيل) و (الاردن) ، ويفهم من سياق الحديث أن الاستقلال سيكون عن الاردن « لاستعادة الهوية الوطنية المتميزة لشعوب فلسطين » .. فهل ستكون « الوحدة » مع (اسرائيل) في ظل دولة ديمقراطية مستقلة (بعد ذلك اضاف البرنامج كلمة موحدة) سؤال .. مجرد سؤال ، نرجو ان يتسع له صدر الرفاق .. خصوصا وان البرنامج يعود للحديث عن « حق تقرير المصير » في اطار **استراتيجي مرحلي** (؟) **جديد بسبب** نتائج حرب ١٩٦٧ ..

يقول البرنامج :

«مرة اخرى وضعت الحرب الثالثة المسألة الوطنية الفلسطينية في اطار استراتيجي مرحلي جديد يملي كمهمة مباشرة النضال من اجل تحرير المناطق المحتلة وانتزاع الحق في الاستقلال الوطني وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة للشعب الفلسطيني . ونتيجة لذلك توطد الترابط اكثر فاكثر بين نضال الشعوب العربية في الاقطار المحيطة، الهادف الى استعادة ارضها المحتلة واحباط المساعي التوسعية الاسرائيلية ، وبين نضال الشعب الفلسطيني الرامي كخطوة مرحلية الى احباط المخطط التصفوي الامبريالي — الاسرائيلي ودحر الاحتلال واعادة تأسيس الكيان السياسي الوطني لشعب فلسطين على ارضه في اطار دولة مستقلة ذات سيادة تكون الخطوة الاولى على طريق الدحر الكامل للمشروع الصهيوني » . ص : ٢٠

نعتقد ان الكلمات واضحة ... حق تقرير المصير لشعب فلسطين ستكون نتيجته

دولة مستقلة لهذا الشعب على جزء من ارض فلسطين يسميها البرنامج « المناطق المحتلة » .. او « الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة » وهي خطوة **اولى ومرحلية** .

وقد اكد البرنامج هذا الفهم عند الحديث عن نتائج حرب تشرين اذ نص على انه :

« لقد انتجت حرب تشرين تعادلا نسبيا في ميزان القوى في المنطقة وارست الامكانية الموضوعيه لانهاض النضال **من اجل اجبار العدو على الانسحاب الكامل من** الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة وانتزاع حق تقرير المصير والاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني في اطار دولة وطنية مستقلة ذات سيادة » ص ٢٧ من البرنامج .

ثم اكد البرنامج هذا الفهم عند الحديث عن البرنامج المرحلي المحلي للضفة الغربية وقطاع غزة اذ قال :

« ان النضال من اجل طرد الاحتلال الاسرائيلي عن المناطق المحتلة وانتزاع حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير مصيره في اطار دولة وطنية مستقلة ، يشكل الآن المحور المركزي لهذا البرنامج المرحلي » .

هذا هو راي الرفاق .. وقبل ان نقول اننا مختلفون معهم يجب ان نفهم رايهم كما **يقصدون** هم لا كما **نفسره نحن** ، لذلك فالسؤال يظل قائما ، خصوصا عندما يؤكد البرنامج في حديثه عن **الثورة** الفلسطينية :

« ان الحل الجذري لمعضلة التبديد والاقتلاع القومي للشعب الفلسطيني ، يكمن في ضمان حقه في تقرير مصيره بحرية على كامل ترابه الوطني . ان هذا الهدف يتطلب انجاز الاستقلال الوطني الشعب الفلسطيني والغاء الضم والالحاق الهاشمي والنضال من اجل قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين » ص ٣٢ من البرنامج .

اذا ، فالبرنامج يقترح ، او يطالب بالنضال من اجل ان يمارس الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره **مرتين** .. **الاولى** بعد دحر الاحتلال عن الاراضي الفلسطينية المحتلة **والثانية** كحل جذري لمعضلة التبديد والاقتلاع القومي للشعب الفلسطيني .. الاولى على **جزء** من التراب الفلسطيني والثانية على **كل** التراب الفلسطيني وفي **المرتين** فان **كل** شعب فلسطين له الحق في ممارسة « حق تقرير المصير » .. كل شعب فلسطين : اللاجئون في بلاد اللجوء ، واللاجئون في (المناطق المحتلة) واللاجئون في شرق الاردن ، اما اللاجئون في فلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧ (يسميها البرنامج اسرائيل) **فلم** يرد عند ذكرهم (وقد ذكرهم التقرير في فقرة خاصة في ص : ٦٠) ان من واجباتهم النضال من اجل « حق تقرير المصير » كما لم يشرح التقرير كيف يمكن ان يمارسوا وهم جزء من شعب فلسطين «حق تقرير المصير » مرحليا، وهم يعيشون الان لاجئين على ارضهم في ظل الاحتلال الصهيوني والقهر الاسرائيلي الذي فرض عليهم جنسية غير جنسيتهم . **ام أنهم مستبعدون من عملية « حق تقرير المصير » المرحلية هذه ؟ ومن غيرهم مستبعد** ؟ ام ان كل الباقين مدعوون الى الانتقال من اقطار اللجوء الحالية الى **« لجوء مرحلي »** في الضفة والقطاع . وماذا عن « اللاجئين » الذين هم في الضفة **والقطاع الان ؟** هل سيشملهم « حق تقرير مصير » (الضفة وغزة) ؟

ان نصيب « الارض المحتلة ١٩٤٨ » اي فلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧ في برامج العمل المرحلية هو فقرة وردت في « البرنامج » ص : ٦٠ تقول :

« ٤ ــ الارض المحتلة ١٩٤٨ :

في الارض المحتلة ٤٨ تجابه جماهير الشعب الفلسطيني مهمات مباشرة تتلخص في صيانة شخصيتها القومية المستقلة ومحاربة محاولات الصهر والتذويب والاستيعاب الصهيوني والدفاع عن الحقوق الديمقراطية والقومية المباشرة ، ومكافحة اجراءات التهجير والاقتلاع والاستيلاء على الارض ، الى جانب الانخراط المنظم في الحركة الوطنية للشعب الفلسطيني ومقاومة كافة سياسات الاحتلال والتوسع الصهيوني ».

ص : ٦٠ من البرنامج

ونشهد ويشهد العالم كله انهم يفعلون اكثر مما يطالبهم به البرنامج ، وربما خرجوا ــ بدافع من الوطنية ــ عن شرط « الانخراط المنظم » فنظموا من انفسهم وعفويا مجموعات تمارس « الكفاح المسلح » ضد العدو الصهيوني ، بالاضافة الى كافة اشكال النضال الاخرى العلنية والسرية .



ومنذ اكثر من عامين ادلى الرفيق نايف حواتمه بحديث لمجلة « الحرية » (٩) كان هو الحديث الاول الذي يتناول فكرة حق تقرير المصير في الضفة الغربية وقطاع غزة تحديدا والذي اجاب فيه بوضوح ان النضال في « هذه المرحلة » يستهدف : « طرد الاحتلال واقرار حق تقرير المصير لشعبنا بنفسه وسيادته الوطنية على اراضيه المحررة بعد طرد الاحتلال من دون اي وصاية عربية ومن دون ان تنوب عنه حكومة الاردن او اي دولة عربية اخرى في ذلك » .

ثم تابع الرفيق حواتمه فأكد في حديثه انه :

« ومن مواقع تقرير المصير يناضل شعبنا لتصحيح العلاقة وتجديدها بين الشعبين الفلسطيني والاردني في ظل سلطة وطنية ديمقراطية تستند الى المساواة الاقليمية بين الشعبين وتعترف بالحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطيني **لمتابعة نضاله المسلح والجماهيري ضد دولة اسرائيل على درب تحرير كامل التراب الوطني** » .

(التشديد من عندنا)

وفي تلك الايام رفضنا **تقسيم** الارض **ولم** نرفض **مراحل** النضال . ذلك اننا لا نفهم ان « حق تقرير المصير » يمكن ان يمارسه شعب فلسطين الا على كل ارض فلسطين وبعد **طرد** الاحتلال عن كل ارض فلسطين ، اي بعد **استعادة كل شبر من الارض المغتصبة** على حد تعبير الرفاق انفسهم ، اي بعد القضاء على « الكيان الاسرائيلي » وتحرير فلسطين .

ذلك ان حق تقرير المصير لا يمكن ان **« يمرحل »** وانه في اللحظة التي يمارس فيها « الفلسطيني » من اي قطر من اقطار اللجوء « حقه في تقرير مصيره » على قطعة ارض من فلسطين فانه بذلك يسلم بباقي الارض « للمستوطنين » صهاينة كانوا او غير صهاينة ..

اما القول بأن « حق تقرير المصير » انما « يستهدف التخلص من الاضطهاد الاقليمي والسياسة الالحاقية التي تنتهجها الطبقة الحاكمة » (١٠) في الاردن فانه قول مردود لأن ذلك لا يتطلب « ممارسة حق تقرير المصير » بل يتحقق بالنضال مباشرة لالغاء

الضم **وقد تقرر ذلك في « مؤتمر الرباط » ولم تقبل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ولا يمكن ان تقبل** باجراء **استفتاء** بين سكان الضفة الغربية . كما اقترح ذلك نعلا الملك حسين . اي ان قيادة م.ت.ف. **لم تقبل بقاعدة « حق تقرير المصير » بعد دحر الاحتلال عن الضفة الغربية وغزة . وكان موقفها هو الصواب .**

وواجبنا الان هو تشديد النضال من اجل **تثبيت** قرارات الرباط وعدم السماح لاحد بالالتفاف عليها او الغائها مهما كانت الحجج والمبررات حتى وان كانت محاولة انجاح عقد مؤتمر جنيف .

ترى هل فهمنا « البرنامج » كما يقصد كاتبوه ؟ هل نكرر السؤال عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني .. متى وعلى اي قطعة ارض .. ومن ؟؟ ولنضف ، وكم مرة سيمارس الشعب هذا الحق على « الارض الفلسطينية » ؟؟

★ ★ ★

ثالثا : البرامج والمراحل ونسبة القوى :

بين برنامج ١٩٦٩ ، الذي نترحم عليه الان وبرنامج ١٩٧٥ الذي نستوضح لكي نفهمه تطور النضال القومي العربي ضد الاستعمار ودولة العدو الصهيوني تطورا كبيرا الى الامام . وانجز النضال القومي العربي **باستخدامه اسلوب الكفاح المسلح** (وحرب تشرين شكل من اشكاله) انجازات زلزلت الكيان الصهيوني وهزت مؤسساته ..

ولعل احدا لا يختلف على ان اهم **انجاز الكفاح المسلح** العربي الفلسطيني كان هو **استعادة وابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية** وفرضها مرة اخرى على العالم كله مما اثمر قرارات الرباط وقرارات الامم المتحدة واخيرا وليس آخرا قرار ادانة الصهيونية وهو القرار الذي بدأ حربا ايديولوجية عالمية هي الثانية في هذا القرن بعد الحرب الايديولوجية العالمية ضد النازية .

ولقد اثمرت هذه الانجازات تسارعا ملحوظا في النهوض القومي النضالي لعرب الارض المحتلة (قبل وبعد ١٩٦٧) وتتابعت الانتصارات والانتفاضات الجماهيرية العربية ضد العدو الصهيوني ومؤسساته ..

اي باختصار ان « نسبة القوى » تتحول لصالح الثورة العربية بشكل عام والثورة الفلسطينية بشكل خاص .

ومن المنطق والحال هكذا ان يشدد المستعمرون والصهاينة من مؤامراتهم وان يغيروا من اشكالها ويبدلوا ساحاتها .. ولكن متى كانت هناك ثورة لا تتعرض للتآمر ولا تواجه الصعاب ..

لا نعتقد ان هناك من يختلف على ما اسلفناه .

كما اننا نتفق تماما على ان « سياسة حرق المراحل » « تؤدي باصحابها الى حرق انفسهم » (١١) ، ونعرف ان هناك اهدافا مرحلية واهدافا استراتيجية . كما اننا نوافق تماما على ان من حق اي تنظيم ان يضع **برامج عمل** تفصيلية للساحات المختلفة التي يمارس فيها نشاطه .. ولكن المشكلة تواجهنا عند محاولة « التحليل الملموس للبرنامج الملموس » الصادر في الربع الاخير من عام ١٩٧٥ والمقارنة بينه وبين ما سبقه من برامج ومقالات وتصريحات ... فكلما تقدم النضال الفلسطيني وتغيرت

موازين القوى لصالحه كلما « تراجع » البرنامج عن شعارات اساسية كان **يطرحها** ... لـــــماذا ؟

ان من حق اصدقاء الجبهة الديمقراطية قبل المختلفين معها ان يتساءلوا : **ما الذي** غير الشعارات الاستراتيجية الخاصة بالقضاء على الكيان الاسرائيلي و « تدميره » ، والخاصة « بحرب الشعب طويلة الامد » ونشرها بين كل العرب ؟

ما الذي تغير في طبيعة المرحلة وسماتها ونسبة القوى لكي **« يخفي »** الرفاق **هذه** الشعارات والاهداف ويستبدلوها بعبارات طويلة معقدة عـــن « الغاء الصهيونية » الذي يتطلب سلسلة من التدابير السياسية . (ص : ٣٢)

نحن نفهم ان يتعمق البرنامج الاول ، وتصحح بعض افكاره الخاطئة ، **وان يزداد** تفصيلا او تلحق به برامج تفصيلية مرحلية محلية ..

ولكن ان يتغير كلية شكـــلا ومضمونا فهو امر يتطلب التفسير ، **خصوصـــا وان** « المرحلة التاريخية » لم تتغير باقرار البرنامج الجديد (١٩٧٥) نفسه **اذ يقـــول** الرفاق : « ان الثورة الفلسطينية هي في مرحلتها الراهنة **ثورة وطنية ديمقراطيـــة** تتحدد مهمتها في انجاز حل ديمقراطي جذري للمسألة الوطنية للشعب الفلسطيني » (ص : ٣٠) . وبدلا من ان يزداد « البرنامج » تعمقا عن برنامج ١٩٦٩ ، نرى ان انجاز الحل يتلخص في جملـــة **« ان تصفية الصهيونية تشكل المهمـــة الاستراتيجية الرئيسية لثورتنا الوطنية الديمقراطية »** (ص : ٣٤)

(التشديد لنا)

ان هناك فارقا جوهريا بلا شك بين **« تصفية الصهيونية »** و **« وتصفية الكيـــان الصهيوني ومؤسساته »** ، كما ان هناك فارقا لا يجب التغافل عنه بين **« تحريـــــر فلسطين تحريرا كاملا »** وبين **« تصفية الصهيونية »** وقد تناولنا هذا الجانب من قبل ونضيف ماسبق ان ذكرته الجبهة الديمقراطية نفسها في مشروع برنامج الجبهة الوطنية المقدم منها الى « كل مقاتل ومناضل في صفوف المقاومة الفلسطينية وحركة التحـــرر الوطني العربية » (١٢) .

تقول الجبهة الديمقراطية في تلك الايام : « ان الحركة الصهيونية **حركة عنصريـــة موالية للامبرياليـــة قامت علـــى اساس اضطهاد قومـــي وعرقي للشعب العربـــي الفلسطيني واجلائه من ارضه بالقوة »** .

«ان مصير الحركة الصهيونية مرتبط عضويا بمصير الامبريالية ونشاطها **الاقتصادي** والسياسي والعسكري على **مستوى العالم هو جزء منحركة الامبريالية العدوانية »**.

وتضيف بعد ذلك ايضا : « ان نضال الحركة الوطنية الفلسطينية يهدف **الى تحقيق التحرير الكامل لفلسطين** وتطهيرها من قيادة ونفوذ الحركة الصهيونية واجهزتهـــــا ومؤسساتها .... »

ثم تؤكد : « ان نضال الحركة الوطنية الفلسطينية يهدف الى اقامة دولة فلسطين (الموحدة) بعد ازالة الكيان الاسرائيلي » .

(التشديد لنا)

(من مشروع برنامج للجبهة الوطنية الفلسطينية الموحدة ص : ١٣٠ من برنامج ١٩٦٩)

كان ذلك رأي الجبهة الديمقراطية منذ ست سنوات فقط ، ولم تتغير المرحلة التاريخية بعد ، وتحسنت موازين القوى بالنسبة للثورة الفلسطينية ... وتتقهقر برنامج الجبهة الديمقراطية .. تقهقر حتى عن مقررات الدورة الرابعة للجنة المركزية للجبهة الديمقراطية في آب ١٩٧٣ .. على الاقل بدأت تلك القرارات بذكر **« حرب الشعب »** باعتبارها ليست مسألة تكتيك عسكري فقط (من الذي قال انها تكتيك فقط ؟؟) . ثم ان تلك القرارات التي « كانت فاتحة التراجعات كررت عدة مرات الحديث عن « الحق التاريخي » و « الحل التاريخي » واعتبار ان النضال المرحلي «من اجل دحر الاحتلال وحق تقرير المصير لا يشكل حلا نهائيا للمشكلة الوطنية للشعب الفلسطيني التي هي بالاساس مشكلة تبديده واقتلاعه القومي على ايدي (دولة اسرائيل) ... خطوة هامة على طريق انتزاع الحق التاريخي في العودة » بل ان الملحق رقم «٢» المنشور في نفس الكتيب ص : ١٢٥ وهو البلاغ الصادر عن الاجتماع الموسع الطارىء للجنة المركزية ومندوبي منظمات الجبهة المنعقد في تشرين الثاني ١٩٧٣ » ، تضمن تلك العبارة التي بحثنا عنها في البرنامج الجديد ولم نجدها اذ قال : « وكذلك حقه (اي الشعب الفلسطيني) **في استرداد وطنه وبناء دولة ديمقراطية على كامل ترابه الوطني »** .

(التشديد لنا .. والهتاف ايضا)

لماذا تراجع البرنامج الجديد ، استراتيجيا ومرحليا ؟ لم تتغير المرحلة التاريخية ، ونسبة القوى تتحسن لصالح النضال القومي العربي والفلسطيني على وجه الخصوص ، فلماذا تغير البرنامج ..؟

يقول برنامج ١٩٧٠ : « ان البرنامج الوطني المرحلي للثورة والشعب والقائم على حق شعبنا في العودة وتقرير المصير والاستقلال وبناء دولته الوطنية على جميع الاراضي الفلسطينية التي يتم تحريرها ودحر الاحتلال عنها ، هو البرنامج الذي يمكن من تحقيق اقصى درجات التعبئة والوحدة الوطنية لشعبنا ، ويوطد نضاله المشترك **مع حلفائه الطبيعيين ، عربيا ودوليا . »**

(التشديد لنا) ص : ٥٠ من البرنامج

لو اقتصر امر التغيير على البرنامج الوطني المرحلي او برامج العمل المرحلية المحلية لكان اقل خطورة ، ذلك ان البرامج المرحلية والمحلية تتعلق مباشرة بالقوى الذاتية وبالظروف الواقعية المنظورة ، **وان كانت لا تخفي ولا يجب ان تخفي الشعارات الاستراتيجية الواضحة** ، ولكن الامر متعلق بالبرنامج الاستراتيجي الذي تخلى عن شعار **استرداد الارض و « تحريرها كاملة »** والذي تخلى عن شعار « حرب الشعب» سبيلا « قائدا » او « رئيسيا » او حتى احد السبل ، ولم يرد ذكره اطلاقا . ترى لماذا تغير البرنامج الاستراتيجي ؟.. هل لنفس الاسباب التي من اجلها وضع البرنامج المرحلي اي « توطيد النضال المشترك **مع الحلفاء الطبيعيين عربيا ودوليا .»**

لئن كان هذا هو *الدافع والمبرر* فاننا نعتقد ان الرفاق قد جانبوا الصواب، فاكتساب الاصدقاء والحلفاء وتطوير المواقف الصديقة لا يمكن ان يتم **بالتنازل عن الاهداف الرئيسية وانما بتشديد النضال** ، كل اشكال النضال ، وفي مقدمتها طبعا **النضال** المسلح على ارض فلسطين .

ان الاقرار بواقع « الوجود الاسرائيلي » لم ينجح من قبل في كسب « الحلفاء الطبيعيين » وانما الذي نجح كان هو **الرفض المسلح** لواقع هذا الوجود .

★ ★ ★

ختاما .. نؤكد من جديد ان هذه الاستيضاحات جميعا هي في سبيل فهم اعمق لما طرحه الرفاق ، كخطوة ضرورية لمزيد من الوحدة في النضال ..

ولقد تجنبنا الدخول في نقاش فكري للاسباب التي ذكرناها في المقدمة وايضا حتى لا يتشعب الموضوع لكثرة ما في « البرنامج » من قضايا فكرية تتطلب حوارا طويلا نأمل ان يتم على طول درب المسيرة .. مسيرة حرب الشعب طويلة الامد من اجل تحرير فلسطين .

وحتى مع اختلافنا حول ما فهمناه من برامج سياسية معلنة فان ذلك لا يمنع ولا يجب ان يمنع من وحدة النضال الفلسطيني ضد العدو الصهيوني والاستعمار ومن اجل تحرير كل ما يمكن تحريره من ارض فلسطين معا .. وعندما يرى الرفاق ان برامجهم قد تحققت بالطريقة التي اختاروها فاننا سنواصل القتال ، سنستمر بالكفاح المسلح حتى تحرير كامل التراب الوطني وازالة الكيان الصهيوني وتصفية مؤسساته واقامة دولة فلسطين الديمقراطية التي هي جزء من دولة الوحدة العربية التقدمية الكبرى .

بقيت ملاحظة قد تبدو ثانوية ولا محل لها في مثل هذا المقال .. ولكنها هامة ومفيدة ..

يقول البرنامج السياسي ١٩٧٥ مقيما دور القوى الوطنية الفلسطينية بعد النكبة لائما اياها لانها تكيفت مع الواقع الاقليمي الجديد وفقدت هويتها الفلسطينية المميزة ، يقول البرنامج انه :

« وبالرغم من ضرورات هذا التوجه من حيث المبدأ ، فقد عجزت تلك القوى الوطنية الفلسطينية ، بما فيها التنظيمات التي تنتمي ايديولوجيا الى الطبقة العاملة ، عن ادراك الضرورة المقابلة للحفاظ على شخصيتها الفلسطينية ، وتضمين برنامجها حلولا للمسألة الوطنية الفلسطينية ، بما هي اولا صراع ضد الغزو والاستيطان الصهيوني الى جانب الانخراط في النضال ضد الرجعية الهاشمية كجزء عضوي من الحركة الوطنية الموحدة في الاردن » .

بعض النقد صحيح .. ولكن النقد ينكر على تلك التنظيمات التي تنتمي ايديولوجيا الى الطبقة العاملة انها كانت طوال الوقت مناضلا عنيدا وصلبا ضد « السياسة التوسعية » (لدولة اسرائيل) و « السياسات العدوانية (لدولة اسرائيل) ، وكون (اسرائيل) مخفرا اماميا للامبريالية » الى آخر الشعارات التي كانوا هم اصحابها والتي دفعوا في سبيل الدعاية لها وتعبئة الجماهير حولها التضحيات الجسام . كما انهم كانوا ايضا وعلى الدوام ضد النظام الملكي الهاشمي وهم اصحاب تعبير « الحكم الوطني الديمقراطي في الاردن » .

ومع كل ذلك ، ورغم كل التضحيات ، وخلو ساحة النضال الوطني الا منهم تقريبا .. الا انهم لم ينجحوا . والاسباب لا بد يعرفها رفاق الجبهة الديمقراطية فقد اشاروا

لها في برنامج ١٩٦٩ ، وكتاباتهم الاولى . السبب الاول هو انهم **وافقوا على قرار التقسيم في ١٩٤٨ ، وعلى قيام واستمرار (دولة اسرائيل)** وان ناضلوا ضد توسعها .. والسبب الثاني انهم لم يتولوا بالعنف الثوري (**بالكفاح المسلح) ولم يمارسوه** .

لذا لم ينجحوا في قيادة الجماهير ، بل لم تغفر لهم الجماهير هذا الموقف التاريخي..

تبدو ملاحظة بسيطة .. ولكنها هامة .. اذا اراد الرفاق في الجبهة الديمقراطية ان يجعلوا من خبرة التاريخ دليلا للمستقبل ..

---

١ ـ البرنامج السياسي ص : ١٢٤

٢ ـ البرنامج السياسي ص : ١٢

٣ ـ للدقة وحتى لا نتهم بالتزييف فان المرة الوحيدة التي ورد فيهاذكر للكلمة هي عند الحديث عن انجازات حركة المقاومة الفلسطينية بعد حرب تشرين فجاءت كما يلي : « كما تصاعد الكفاح الفلسطيني المسلح والنضال الجماهيري الذي اتخذ في في بعض الاحيان طابع الانتفاضة الشعبية الشاملة » .
« من البرنامج السياسي ١٩٧٥ ص : ٢٨ »

٤ ـ البرنامج السياسي ١٩٧٥ ص : ١٤

٥ ـ للامانة ورد ذكر كلمة مسلحة في برنامج العمل المرحلي المحدد لداخل المناطق المحتلة (الضفة وغزة) عند ذكر « ان الجبهة الديمقراطية تناضل داخل المناطق المحتلة لتعبئة وتنظيم الجماهير وقيادة نضالها بكافة اشكاله الجماهيرية والسياسية والنقابية والمسلحة » .

٦ ـ من منشورات مجموعة الماهفاك ـ برنامج النضال ١٩٧٤

٧ ـ الهلالين لنا .

٨ ـ ورد ذكر عبارة حق تقرير المصير فيالبرنامج المطبوع والموزع في الصفحات : ١٥ ، ٢٠ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ .

٩ ـ الحرية عدد ٦٣٣ تاريخ ١٩٧٣/٨/٢٠

١٠ ـ البرنامج ١٩٧٥ ص : ٥٨

١١ ـ الحرية عدد : ٦٣٤ تاريخ ١٩٧٣/٨/٢٧

١٢ ـ من مقدمة الرفيق نايف حواتمه لبرنامج (١٩٦٩)

اتفاقية سيناء كشكل من اشكال سياسة الاحتواء الاميركية

الدكتور نصير عاروري

يجري الاعلان عن اتفاقية سيناء في الولايات المتحدة ، على انها خطوة دبلوماسية بارعة من شأنها احلال السلام الدائم في منطقة الشرق الاوسط التي يمزقها الصراع . لكن فحص محتويات هذه الاتفاقية عن كثب ، ودراسة مزاعم الذين صنعوها، يكشفان ان العكس هو الصحيح في الواقع . ان الشيء الجديد والمشؤوم في اتفاقية سيناء ، انها زرعت بذور الخلاف بين العرب ، في الوقت الذي يحتاجون فيه الحد الاقصى من التعاون فيما بينهم لدحر المخططات الامبريالية والصهيونية اللئيمة الموجهة اليهم ، دحرا نهائيا . وفيما عدا هذا فان اتفاقية سيناء ليست غير حلقة جديدة في الفلسفة التقليدية للسياسة الخارجية الاميركية ، التي انتهجتها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بتبني دور القوى الامبريالية الاوروبية .

ينبغي النظر الى اتفاقية سيناء في سبتمبر ١٩٧٥ في سياق سياسة الاحتواء التي اختطتها الولايات المتحدة لنفسها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويؤكد مبدأ كيسنجر عناصر فكرة الاحتواء التي اوضحتها من قبل مبادىء ترومان وايزنهاور وكندي وجونسون ، وهي ان الاتحاد السوفياتي و / او القوى الاشتراكية في العالم الثالث ، يهددون بتقويض اسس « نظام عالمي شرعي » يتألف من الولايات المتحدة وعدد وافر من حلفائها ووكلائها في انحاء مختلفة من العالم . مرة اخرى ، يرى هذا المذهب ، انه لا بد من طرد الوجود السوفياتي من اية بقعة يمكن ان يوجد فيها في العالم ، وذلك لانه يمثل سياسة توسعية ، في حين ينبغي ان تدفن الثورة الاشتراكية في المهد ، لانها تهدد بتقويض ما يحب هنري كيسنجر تسميته « اساس السلام » . واذا لم يحدث هذا ، فان انصار هذا المذهب يعتقدون بأن العالم سوف يواجه التهديد من جانب صفقات شبيهة بتسوية ميونيخ . وان قدرة اميركا على مقاومة « الشيوعية» سوف تتلاشى الى حد بعيد . ففي هذا الاطار اذن انبثق المبدأ الاستراتيجي الاميركي الذي كان محرك الحرب الباردة على امتداد مسيرتها . ولقد سعت سياسة الاحتواء الاميركية لتحقيق غايتها الشاملة بتطبيق سيطرة اميركية متفوقة تقوم على شبكة من الاحلاف العسكرية تحيط بحدود العالم الصيني — السوفياتي .

لقد كانت سياسة الاحتواء في الشرق الاوسط منذ اول عهد العمل بها ، جهدا خائبا . وبقي حديث الغرب عن « التهديد العسكري السوفياتي » امرا خارج الموضوع وغير مفهوم من جانب الجمهور العربي الذي يتصدى فعلا لتهديد واضح

وملموس وماثل امام العيون ، ليس من جانب الاتحاد السوفياتي ، بل من جانب اسرائيل .

ان ادوات تطبيق سياسة الاحتواء : منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، وحلف بغداد ، والحلف المركزي (السنتو) ، ومبدأ ايزنهاور ، جميعها واجهت الرفض والادانة ، ويتبين بكل جلاء من دراسة مجمل التطورات والاحداث التي اعقبت الحرب العالمية الثانية في منطقة الشرق الاوسط ، ان الوفاق بين مجهودات ومساعي الولايات المتحدة من جانب ، وسياسات الانظمة العربية المحافظة ، قد اخفق في كبح الشعبية المتنامية للقومية العربية .

وامام التآكل التدريجي في وضع الدول العربية المحافظة في اواخر الخمسينات ، وجدت الولايات المتحدة انه لا بد لها من استحداث بعض التعديلات والتكيفات التكتيكية في سياستها ازاء القومية العربية الثورية والنفوذ السوفياتي في العالم العربي . وحاولت ادارة كندي التفاهم مع القومية العربية على افتراض انها تشكل حاجزا فعالا يتصدى للشيوعية . لقد كان المقصود ، تطبيق سياسة الاحتواء عن طريق جمال عبد الناصر ، الامر الذي يذكرنا بمحاولة دين اتشيسون في العام ١٩٥٠ لاحتواء الاتحاد السوفياتي عن طريق ماوتسي تونغ . على ان خليفة كندي في البيت الابيض لم يستطع مواصلة سياسة التقرب من الناصرية . ذلك لانه كان ميالا للاعتماد على التقنية العسكرية في تحديد علاقة الولايات المتحدة الاميركية بالعالم الثالث . ووضعت النخبة السياسية في مجلس الامن القومي الاميركي في عهد الرئيس جونسون تقييما لمصر عكس فهما محدودا على الاقل ، ان لم يكن الخوف والفزع من الثورة الاجتماعية. وكانوا ينظرون الى نشاط الحكومة المصرية في سبيل الوحدة العربية والتحول الاشتراكي ، على انه تهديد حقيقي للمصالح الاميركية الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة ، بالاضافة الى ما يحمله من اخطار مؤكدة على اسس الانظمة العربية المحافظة . وكان تقديرهم ان الضرورة تقتضي تدخلا اميركيا رئيسيا لكبح تلك الحركة .

وكان مقررا احتواء تأثيرات القومية العربية الثورية التي تعاضدها كل من مصر وسوريا ، في منتصف الستينات ، بدون اللجوء الى القوة العسكرية الاميركية . وكان عملاء اميركا من المحافظين العرب قد اصبحوا في حالة عجز نوعا ما بعد ان تلقوا ضربات قاسية في ١٩٥٦ (الاردن) و ١٩٥٨ (العراق) و ١٩٦٢ (اليمن) . واصبحوا يظهرون قابلية متضائلة للبقاء . ومن هنا انطلقت اسرائيل باعتبارها الوكيل الرئيسي للولايات المتحدة ، وجاءت الحرب الخاطفة في العام ١٩٦٧ بمثابة الاسلوب الجديد للاحتواء . فان حرب يونيو ١٩٦٧ ، التي خاضتها الايدي الاسرائيلية بالعتاد الاميركي والدعم الاميركي الكامل ، كانت تنفيذا مسبقا لمبدأ نيكسون ــ كيسنجر ، وهو المبدأ الذي جرى توضيحه بصراحة وجلاء في عدة خطابات رئاسية بدءا من خطاب « جوام » في نوفمبر ١٩٦٩ ، الذي ابان ان اميركا لا تستطيع تحمل الثمن الاجتماعي والاقتصادي للتدخل ، ولذلك « فان الآخرين يمتلكون الآن المقدرة والمسؤولية للتعامل مع النزاعات المحلية التي كانت تقتضي تدخلنا من قبل » ولقد شرحت نيويورك تايمز في يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ تعهد نيكسون في حملته الانتخابية بأن يضمن لاسرائيل « هامشا من التفوق التقني والعسكري » على الدول العربية ، بأن في وسع « قوة اسرائيل ان تحول دون الهجوم ، وان تمنع الداعي لتدخل عسكري اميركي مباشر » . والواقع ان اسرائيل كانت قد تقبلت هذه المفاهيم قبل وقت طويل من اعلان مبدأ نيكسون ــ

كيسنجر . فلقد صرح ناطق بلسان الخارجية الاسرائيلية في ١١ يونيو ١٩٦٦ بأن :

« الولايات المتحدة توصلت الى الاستنتاج انه ليس في وسعها بعد الآن الاستجابة لكل حادثة في انحاء العالم ، وان عليها تبعا لذلك الاعتماد على قوة محلية ، على عائق تمثله قوة صديقة كخط اول ، وذلك لتجنب التورط الاميركي المباشر . وان اسرائيل تشعر بأنها ملائمة لهذا التعريف . » (خط التشديد من عندنا) .

ولقد انجزت حرب ١٩٦٧ تحويل اسرائيل الى رأس جسر لاستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، والى حامية تقف على اهبة الاستعداد لاحباط جميع اشكال الثورة الاجتماعية في المنطقة . وعلى هذا النحو كان البعد الجديد لسياسة الاحتواء الاميركية في الشرق الاوسط .

وفي اعقاب تبول العرب بوقف اطلاق النار غير المشروط في العام ١٩٦٧ ، اصبح الهم الرئيسي لصانعي السياسة الاميركية هو صعود حركة المقاومة الفلسطينية . وتمثل رد الفعل الاميركي على هذه الحركة ، في خطة روجرز (١٩٧٠) التي تسببت في النهاية بخلق انقسام خطير في الصفوف العربية ، وهبوط في تأثير حرب العصابات الفلسطينية . وعلاوة على ذلك كانت خطة روجرز بعدا جديداً في سياسة الاحتواء ، ذلك انها كانت سبيلا لاستخدام المبادرة الدبلوماسية كبديل للمجابهة العسكرية ، بغية اخماد تلك الظاهرة السياسية (المقاومة الفلسطينية) .

ويغدو بعد الاحتواء هذا اكثر جلاء مع طرح خطة كيسنجر في الشرق الاوسط . وعلى الرغم من ان بعض خصائص سياسة دالس في الاحتواء غير موجود في صيغة كيسنجر ، فان الجوهر واحد في مفهوم الرجلين الى حد بعيد .

ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، والحظر النفطي اللاحق ، زودا الخارجية الاميركية باستراتيجية كاملة في الشرق الاوسط شهدت اوجها في الاتفاقية المصرية — الاسرائيلية المؤقتة الموقعة في سبتمبر ١٩٧٥ . لقد خلقت الحرب جوا ملائما لحوار مصري — اسرائيلي . فبالنسبة لمصر ، مثلت الحرب نصرا عربيا ، هو الاول من نوعه . وانطلاقا من هذا تحركت مصر في اتجاه مفهوم كيسنجر لتسوية سياسية تجري فيها مقايضة الاعتراف بشرعية وديمومة اسرائيل ، باستعادة مصر لاراضيها المحتلة . اما بالنسبة لاسرائيل ، فان الحرب كشفت لها مدى اعتمادها على الولايات المتحدة ، كما بينت لها التأثير المدمر الذي يحمله النزاع الدائم مع العالم العربي ، على الاقتصاد الاسرائيلي الواهن الضعيف . ولقد وجدت الخارجية الاميركية هذا الموقف على جانبي خطوط وقف اطلاق النار ، بما يحمله من عناصر « نموذجية » ، موقفا مثاليا انطلقت على الفور لاغتنام الفرصة والتحرك في ظله . ولم يكن كيسنجر صانع معجزات ، انه بكل بساطة اكتشف الظروف « الصحيحة » في اللحظة « الصحيحة ». ويبين تكشف استراتيجيته منذ اكتوبر ١٩٧٣ ، مجموعة من الاهداف التي يسعى لتحقيقها بعد الهزيمة السياسية والعسكرية التي لقيتها الولايات المتحدة في صراعها مع الاتحاد السوفياتي والفيتناميين . ومن الواضح ان جهود صنع السلام التي يبذلها كيسنجر ترمي الى تحقيق ثلاث غايات :

اما الغاية الاولى فهي الانهاء الكامل للنفوذ السوفياتي في المنطقة . ولقد تحقق من هذه الغاية حتى الآن ، وبمساعدة المملكة العربية السعودية ، طرد الوجود السوفياتي من مصر . وان عملية اعادة توجيه السياسات المصرية الداخلية والخارجية ، تهدد بتحويل المرحلة الناصرية الى مجرد فاصل زمني بين عهدين .

واما الغاية الثانية فهي احراز تسوية سياسية تكون قادرة على خلق تحول جذري فيما يسمى بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، يتناول حتى طبيعة هذا النزاع نفسها . تسوية تستبعد من هذا النزاع اية اعتبارات ايديولوجية وتجعله بكل بساطة مجرد نزاع على الحدود ، وعلى حقوق الملاحة ، وشؤون الامن . وفي حال تحقيق التسوية الاقليمية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، فان العرب والاسرائيليين والايرانيين سيتصرفون بتوافق وانسجام باعتبارهم رهطا متآلفا من العناصر المرتبطة بالغرب ، ويلعبون دورهم في تهدئة المنطقة ، وقمع جميع اشكال الخروج السياسي عن « الخط» المرسوم . ومن المؤكد ان اندماج مصر الساداتي في هذا الائتلاف الذي يضم حلفاء اميركا ووكلاءها ، يمثل نجاحا كبيرا للسياسة الخارجية الاميركية ، ويضيف لحساب فورد وكيسنجر اعظم انقلاب دبلوماسي عرفته السياسة الدولية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

واما الغاية الثالثة ، والتي تنبع من الغاية الثانية السالفة الذكر ، فهي تزويد مصر بمصلحة ثابتة في الاستقرار (وذلك بالمساعدة الاقتصادية والتعديلات الاقليمية) ، بغية استبعاد دورها المؤثر من المجابهة العربية ضد اسرائيل . وهذا بدوره يمنح الولايات المتحدة القدرة على توجيه ضغط الى سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية لدفعهما نحو تقديم تنازلات بارزة الى اسرائيل . والهدف النهائي الذي ترمي اليه هذه الاستراتيجية ، هو وضع حل نهائي لقضية الفلسطينيين وتوصيل سوريا الى التسليم عمليا على جبهة الجولان .

اتفاقية سيناء المؤقتة التي جرى التفاوض بشأنها تحت رعاية هنري كيسنجر ، كانت مدبرة ومحسوبة لتحقيق هذه الغايات . فالواقع ان مصر اعطت اسرائيل ما يلزمها من وقت لتدعيم احتلالها للاراضي ولاعادة بناء قوتها العدوانية . وان الجبهة الشرقية تصبح اكثر قابلية « للترتيب » . وستتحرك اسرائيل في ظل شروط ملائمة تتزايد ملاءمة بالنسبة اليها .

ان مصر لم تكتف بالتخلي عن اصرارها السابق على استعادة ممري المتلا والجدي، لكنها بالاضافة الى ذلك وافقت على جعل اتفاقية سيناء المؤقتة مستقلة وقائمة بذاتها، وبمعزل عن اية ترتيبات مع سوريا والاردن والفلسطينيين ، وكذلك بمعزل عن اي جدول زمني للانسحاب الاسرائيلي . والحقيقة ان مصر وافقت على ثلاث سنوات اخرى من الاحتلال الاسرائيلي للقسم الاعظم من سيناء ، ذلك ان ٨٧٫٥٪ من سيناء سيبقى تحت الاحتلال الاسرائيلي . وفيما تدير الامم المتحدة ٧٫٥٪ من مساحة سيناء ، فأن « مكسب » مصر هو ٥٪ لا غير من هذه المساحة . وان الوجود المصري المنتشر على امتداد شريط ضيق بين خليج السويس وبين المواقع الاسرائيلية ، هو وجود مدني . وستبقى حقول النفط في ابو رديس رهينة لاسرائيل ، وكذلك الطريق الذي يربط هذه الحقول بخليج السويس ـ وهو الطريق نفسه الى شرم الشيخ ـ لن يكون مفتوحا الا امام السير المدني المصري . واكثر من ذلك ، وافقت مصر على وجود اميركي في ممري متلا والجدي ، بمعزل عن الامم المتحدة . والواقع ان مصر تخلت عن حقها في تقرير انتداب هيئة الرقابة على الهدنة التابعة للامم المتحدة ، بتعهدها بتجديد هذا الانتداب سنويا ، وان « تعمل بالتنسيق النشط » مع الولايات المتحدة لجعل الجمعية العامة للامم المتحدة تجدد ذلك الانتداب ، في حال قيام « فريق ثالث » كالاتحاد السوفياتي او الصين مثلا ، باستخدام حق النقض ضد التجديد في مجلس الامن . وبالاضافة الى ذلك ، سمحت مصر بعبور جميع شحنات البضائع الاسرائيلية عبر قناة السويس ، كما تبنت المبدأ القائل ان

حرية الملاحة تتضمن حق السفن الاسرائيلية في استخدام مضائق باب المندب . وتلقت الولايات المتحدة من مصر تعبيرا عن عزمها على التقليل من الدعاوة المعادية لاسرائيل، بما في ذلك وقف المساعي الدبلوماسية الرامية الى تعويق دول العالم الثالث عن استئناف علاقاتها مع اسرائيل ، ووقف الجهود المبذولة لطرد اسرائيل من الامم المتحدة .

اما بالنسبة لاسرائيل ، فلقد وافقت على اعادة حقول النفط في ابو رديس ، مقابل تعهد اميركي بامداد اسرائيل بحوالي ٣٥٠ مليون دولار سنويا ثمنا لشراء النفط من السوق العالمي . ولقد سلمت ممري متلا والجدي للامم المتحدة ، مقابل اعلان مصري بالتخلي عن استخدام القوة . ومقابل هذه التنازلات الاسرائيلية المتواضعة ، كسبت اسرائيل ما يمكن اعتباره ضمانا اميركيا لامنها : لقد وافقت الولايات المتحدة على اجراء « مشاورات » مع اسرائيل في حال اقدام فريق ثالث ، والمقصود هو الاتحاد السوفياتي ، على التدخل عسكريا . وعلاوة على ذلك كله ، وافقت الولايات المتحدة على ان « تكون مستجيبة تماما ... وعلى اساس مستمر وبعيد المدى » لتلبية احتياجات اسرائيل العسكرية . وان الصفقة الاولى انطلاقا من هذا الالتزام الاميركي بالدعم ، هي مساعدة متوقعة بحوالي ٢ر٥ مليار دولار ، ستكون كفيلة بتمكين اسرائيل من الحصول على احدث التجهيزات في ترسانة الاسلحة الاميركية ، والتي قد تشتمل على صواريخ بيرشيبنغ (وهو صاروخ ارض — ارض ذاتي الدفع ذو مدى يتجاوز ال ٤٥٠ ميلا على الاقل) . وهناك اعتدة اخرى بينها الطائرتان المقاتلتان اف — ١٥ واف — ١٦ أ ، وصواريخ لانس التي يبلغ مداها ٦٠ ميلا ، و « القنبلة الذكية » الموجهة بأشعة ليزر .

وينبغي لنا ان نلاحظ في هذا الصدد ، ان هذا الامداد الكثيف بالاسلحة الاميركية ، والذي ينبغي النظر اليه في اطار سياسة الاحتواء ، يمثل تصعيدا مدمرا للعدوان الاميركي في المنطقة . وكما كان قرار ادارة جونسون تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم اف — ٤ هو الذي اتاح لها ان تضرب عميقا في داخل الاراضي العربية ، فان استراتيجية فورد — كيسنجر ترمي الى جعل كل مدينة عربية رئيسية في الشرق الاوسط تحت رحمة وكيل اميركا القوي في المنطقة . ويمكن تعريف استراتيجية فورد — كيسنجر بانها احكام السيطرة على ، والوصول الى ، اهم الثروات من الناحية الاستراتيجية ، وهو النفط العربي . لكن الزمن الذي كانت فيه القوات الاميركية تتدخل عسكريا باسم المصالح الاميركية الحقيقية او المزعومة ، قد ولى واصبح من الماضي. اما اليوم ، فان الولايات المتحدة تحدد دورها في تزويد وكلائها في « المناطق — المفاتيح » في العالم بالعتاد العسكري اللازم الذي يمكنهم من ابقاء الميزان في صالح الولايات المتحدة .

وبالاضافة الى جعل اسرائيل القوة العسكرية المتفوقة في المنطقة ، فان الولايات المتحدة الزمت نفسها في « مذكرة الولايات المتحدة للاتفاقية » الموقعة في سبتمبر ١٩٧٥ ، بأن تواصل رفضها الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية او التفاوض معها، الى ان تعترف المنظمة بمبدأ حق اسرائيل في الوجود . وما يعنيه مضمون هذا الشرط، ليس اقل من التسليم بترك القول الفصل لاسرائيل في كل ما يتعلق بالارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني . واكثر من هذا ، فان اذعان مصر ، المفهوم ضمنا بقبولها اتفاقية سيناء ، يجعل انور السادات اول حاكم عربي يصادق على مبدأ تصريح بلفور سواء على مستوى التفكير او على مستوى **العمل** . اضف الى ذلك ان

الاتفاقية جعلته اول حاكم عربي يقوم بتسهيل الامور ومساعدة الوجود الاميركي المادي على الارض العربية ، والاقرار بالحكم المشترك الاميركي — الاسرائيلي .

ان مرابطة من يوصفون بالتقنيين المدنيين الاميركيين في سيناء ، بالاضافة الى ما تعنيه من ربط الولايات المتحدة بالاحتلال الاسرائيلي ، تمثل « وصلة » في سلسلة القواعد الاميركية ونظامها البعيد المدى للاتصالات والمواصلات الذي تحتفظ به في منطقة المحيط الهندي — شرق افريقيا . وعلى هذا فان سيناء ستضاف الى شبكة متسعة بلا انقطاع، تتألف من دييجوجارسيا ،وعمان ، والبحرين ، وجزر موريشيوس، واثيوبيا ، لتوازي وتزيد من عدد وكلاء الولايات المتحدة في منطقة تمتد من جنوب آسيا الى شرقي ابحر الابيض المتوسط .

ان اتفاقية سيناء عبارة عن لوحة ايضاحية لمفهوم كيسنجر في الاحتواء مرتديا ثوب التسوية السلمية . وبعد عامين من « دبلوماسية المكوك » ، مستخدما ضمانا عمليا لامن اسرائيل ، والتهديد باعادة تقويم السياسة الاميركية في المنطقة وانفاق عشرة بلايين دولار ، فان وزير الخارجية الاميركي الداهية ، اعاد الى مصر اقل من خمسة بالمائة من مساحة سيناء . وبناء على ذلك ، من حقنا ان نستنتج ان ثمن الانسحاب من مرتفعات الجولان ، والقدس ، والضفة الغربية ، ربما كان فوق قدرتنا على الاحتمال .

لا يصح النظر الى مشروع كيسنجر على انه استثمار في خدمة السلام ، بل ينبغي النظر اليه على ضوء استراتيجية الولايات المتحدة العالمية ، ذلك لانها تنطلق في اسسها من روح الحرب الباردة . ويأمل كيسنجر ان تنجح خطة « الفتنمة » في الشرق الاوسط ، على الرغم من اخفاقها في فيتنام نفسها . لكن القوى التي اتحدت لهزيمته في الهند الصينية ، ليست غائبة كليا عن مسرح الشرق الاوسط . ان خلق حصن عسكري في اسرائيل وكأنها ستكون قادرة الى الابد على مقاومة حل المشكلة الاساسية ، أعني قضية فلسطين ، هي في افضل الاحتمالات سياسة غير واقعية . وان رعاية النظام المصري وغيره من الانظمة الرجعية في الوطن العربي ، لن تكون ذات نتائج افضل من احتضان جنرالات سايغون ، والزمرة العسكرية في اليونان ، والعملاء الآخرين حول العالم .

الفاشية الصغيرة

دراسة في صحف ونشرات القوى الانعزالية

انور خالد

لقد افرزت الحرب الاهلية في لبنان العديد من الظواهر الاجتماعية ، التي كانت مخفية في قعر الواقع الاجتماعي والسياسي . وضعت المسألة الوطنية في مكانها الصحيح المركزي ، بوصفها محركا للتوازنات اللبنانية بأسرها ، وكشفت عن عمق وترسخ المسألة الطائفية بوصفها احدى الظواهر الاجتماعية الرئيسية المرافقة لراسمالية الوساطة الاقتصادية . فتقدم لبنان ، كان يعني ترسيخا لمسألة الانتماءات الطائفية . في دولة كانت اصلا جهاز توازن بالغلبة ، ولم تكن تتشكل كجهاز للهيمنة (١) .

ان المسألة الطائفية ، ليست مسألة جامدة . فهي ككل الظاهرات الاجتماعية ، تخضع لتحولات في داخلها كبنية اجتماعية تخوض صراعات معينة ، من جهة . كما تؤثر عليها سلبا او ايجابا مجريات الصراع وتوازناته الجديدة من جهة اخرى . لذلك ففي داخل الطائفة هناك اكثر من اتجاه واحد ، يعبر عن افق التوازن المفترض . كما ان اتجاهات الطائفة ليست بمعزل عن مجريات الصراع الاجتماعي الوطني ، بل هي احدى تعبيراته الرئيسية .

ان احدى اهم الظواهر التي افرزتها الحرب الاهلية ، كان انتشار صدور الصحف غير المرخصة في الطرف الانعزالي . وربما يعود هذا الى ضعف الجهاز الاعلامي الانعزالي في ظل سيطرة الاطراف الوطنية العربية او الاطراف الوسطية المعتدلة على الاكثرية الساحقة من صحف بيروت . فكانت الصحيفة غير المرخصة جهاز اعلام صغير ، يفيد على نطاق الحي او المدينة او ربما على نطاق المناطق المسيحية بأسرها الخاضعة للسيطرة الانعزالية . غير ان السبب الاعلامي ، لا يبدو كافيا لتفسير هذه الظاهرة ، فقد تكفي صحيفة « العمل » ، واذاعة صوت لبنان ، في تغطية المسألة الاعلامية . لكن المسألة تعبر عن ظاهرة جديدة :

١ — النمو الهائل للشعور الطائفي ، الذي اصبح بحاجة الى قنوات فكرية وايديولوجية تستوعب تعدديته .

---

١ - خالد جابر : السلطة والتوازن في لبنان في شؤون فلسطينية ، ت ٢ ١٩٧٥ .

٢ ــ نمو قوى جديدة متطرفة في الشارع الماروني ــ حراس الارز ، التنظيم اللبناني ..

٣ ــ عدم قدرة الحزبين الطائفيين الكبيرين : الكتائب والاحرار ، على استيعاب المد الطائفي الذي يصب في نهاية التحليل في خطهما السياسي وارتباطتهما الخارجية ، دون ان يعني قدرتهما على توظيفه تنظيميا . فحزب الكتائب يبقى رغم تطرف طروحاته ضمن مشروعه الاساسي ، التحول من حزب طائفي الى حزب الطائفة . وهذا يفترض ارتباطا وثيقا بالسلطة ، وشبه توازن ضمن طرحه الطائفي المتطرف . اما الاحرار فهو كهيكلية حزبية تبقى دون القدرة على تحويل كوادره وعناصره من ازلام شمعون او ازلام شخصياته الى عناصر حزبية فعلية .

٤ ــ صاحب هذه الظواهر الثلاث ، اتجاهات ايديولوجية صارمة ، كانت تتسلل منذ سنوات ، في اطار الفكر الذي يطرحه دعاة من امثال سعيد عقل ، كمال الحاج ، شارل مالك ، امين ناجي ... وهي في جوهرها تيارات فاشية شبه عقلانية ، تعبر عن اتجاه رد الفعل تجاه الامتداد العربي في لبنان ، فتقع في دعوة القومية اللبنانية ، التي هي التسمية المهذبة « العلمانية » لدعوة القومية المارونية . لقد افلتت هذه الاتجاهات من عقالها . لتتحول الى لغة ايديولوجية تتعامل بالرصاص وتفعل وسط المتاريس . مما ادى الى ظاهرة ردفية هي انضمام اعداد من المثقفين الموارنة الحياديين او شبه الليبراليين اليها ، في وجه العرب فوبيا التي انتشرت وسط نيران الحرب الاهلية .

فدراسة هذه النشرات او الصحف ، رغم قلة اهمية بعضها وحرفيته ، تصبح ضرورية ، اذا اردنا اكتشاف الاتجاهات الايديولوجية العامة المؤثرة في الوسط الانعزالي ، والتي لا تفصح عن نفسها في الصحف الرسمية (المتوازنة او شبه المتوازنة) . ان هذه الاتجاهات بالغة الخطورة ، لانها تعبر عن تيارات فعلية ، تيارات شابة تنمو على ايقاع طبول تقرع تحية «لشهداء لبنان » وهي رغم انها لا تعبر عن جميع عناصر الايديولوجية الانعزالية ، انما تعبر عن جانب اساسي منها ، يكشف الكثير من النقاط في مسار الحرب الاهلية المستمرة منذ اغتيال معروف سعد (١) .

---

١ ـ الصحف التي تتناولها هذه الدراسة هي :

١ ـ **لبنان** • يصدرها حراس الارز • نشرة اسبوعية صدر عددها الاول في ٢٤ تشرين الاول ١٩٧٥ • ثم تحولت لتصدر مرتين في الاسبوع • يشرف على تحريرها سعيد عقل ومي المر •

٢ ـ **اللبناني** • تصدر كل نهار اثنين • نشرة اسبوعية • صدر عددها الاول في ٥ ـ ١ ـ ٧٦ • وهي نشرة لها علاقة بالكتائب •

٣ ـ **الانصار** • يصدرها التجمع اللبناني لانصار الكتائب • اسبوعية • صدر عددها الاول في ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٥ •

٤ ـ **ملحق العمل** • يصدرها اقليم زحلة الكتائبي •

٥ ـ **صوت زحلة** • لسان حال التجمع الزحلي العام • صباح كل اربعاء وسبت • صدر عددها الاول في ٣ ـ ١ ـ ٧٦

٦ ـ **جبل لبنان** • تصدرها الحركة الجبلية اللبنانية • صباح كل خميس • صدر العدد الاول منها في ٢١ ـ ١ ـ ٧٦

٧ ـ **الفداء** • اسبوعية صدر العدد الاول منها في ٢٦ ـ ١ ـ ٧٦

عدنا ، الى عدد كبير من النشرات والصحف التي تصدرها القوى الانعزاليـــة . ورغم اننا استطعنا الحصول على مجموعات كاملة أو شبه كاملة لجميع هذه النشرات ما عدا اربع منها هي : الاولى ، الجلاء ، المردة ، الحركة ، وهي نشرات قليلة الاهمية وحرفية ولا تحمل قيمة خاصة ، استطعنا الحصول على نماذج منها ، عدد واحـــد او عددان . غير ان الصعوبة المنهجية التي اعترضتنا تعود الى جملة اسباب :

١ ــ عدم القدرة على دراسة مدى جدية توزيع النشرة وانتشارها . فالارقام التي تشير اليها هذه النشرات هي ارقام خيالية ، لا تصدق .

٢ ــ عدم القدرة على التحديد الدقيق لجمهور النشرة ، فالنشرة توزع غالبا بقـــوة السلاح ، وكتبرع لاحد الاطراف المقاتلة .لذلك فلا مجال لتحديد جمهورها الفعلي .اي الذي يقرا ويتأثر بما يقرأ .

٣ ــ عدم القدرة على المعرفة الدقيقة للطرف الفعلي الذي يصدر النشرة . رغم اننا استطعنا تحديد الاتجاهات في غالب الاحيان استنادا الى النص نفسه .

٤ ــ عدم معرفة اسماء الكتاب والمحررين في اغلب الاحيان . فهم يوقعون باسماء مستعارة ــ لها دلالة سياسية طبعا ــ او بالاسم الاول دون اسم العائلة .

تعود هذه الصعوبات الى التقسيم الفعلي الذي فرضته الحرب الاهلية . والـــى الهستيريا الطائفية التي رافقتها ، حيث تمنع اجراء دراسة مدققة للمنشورات هذه .

لذلك تبقى دراستنا ناقصة . هذا النقص لا يقلل من اهمية استنتاجاتنا . لان مـــا نطمع اليه في هذه الدراسة ، هو الوصول الى كشف الارضية الايديولوجية التي تحرك او تساهم في تحريك الشارع الانعزالي وتوجيه ممارساته العسكرية .

فيدولة كالدولة اللبنانية، لا وجود لايديولوجية سائدة واضحة المعالم يمكندراستها . ونحن هنا لا ندرس اذن الايديولوجية السائدة . ففي لبنان ايديولوجية غالبـــة هي

---

٨ ـ **الاولى** ، يصدرها نادي لبنان المستقبل ، صدر العدد الاول في ١ ـ ١ ـ ٧٦ ،

٩ ـ **الجلاء** ، اسبوعية جامعة ، صدر العدد الاول في ١٤ ـ ١ ـ ٧٦

١٠ ـ **الصمود** ، اسبوعية ، تصدرها حركة الجامعيين اللبنانيين ، صدر العدد الاول في ١٢ ـ ١ ـ٧٦

١١ ـ **المردة** ، يصدرها مردة الجبل ، انصار الكتائب والرابطة ، العدد الاول بدون تاريخ ،

١٢ ـ **المصير** ، لسان حال الاكثريةالصامتة ، العدد الاول ٢٣ ـ ١٢ ـ ٧٥ ، تعبر عن اتجاهات معتدلة تقترب من طروحات ريمون اده ، وهي النشرة الوحيدة المعتدلة ،

١٣ ـ **التحرير اللبناني** ، تصدرها جبهة المساندة اللبنانية ، صحيفة يومية صدرت اوائل كانـــون الثاني ١٩٧٦

١٤ ـ **وطني** ، تصدرها منظمة دعم الجيش ، صحيفة عادية ، وثيقة الصلة بالجيش ، صدرت في اوائل كانون الثاني ١٩٧٦

١٥ ـ **الحركة اللبنانية** ، تصدرها حركة التجمع اللبناني ، اسبوعية جامعة ، العدد الاول ١٨ ـ ١٢ ـ ٧٥

١٦ ـ **لبنان ـ ابدي ـ ازلي ـ سرمدي** ، تصدرها الرابطة اللبنانية ،

١٧ ـ **صوت عين الرمانة** ، يصدرها ابناء عين الرمانة ، اسبوعية ، سياسية ، جامعة ،

ايديولوجية الطرف الغالب ، التي تتنازع الحيز الايديولوجي مع ايديولوجيات اخرى . فالحقل الايديولوجي هو حقل صراع وتوازن . كما ان داخل الايديولوجية الغالبة هناك اكثر من اتجاه . هناك تحديداً اتجاهان رئيسيان :

١ ــ الاتجاه المتطرف . هو كلاسيكيا الاتجاه الماروني المرتبط بالغرب . والذي يبرز على السطح كاتجاه عام يوحد الطائفة ، عندما تشعر الطائفة بالخطر يتهددها ، فتحمل السلاح دفاعا عن النفس او عن مصالحها او ما تعتقده مصالحها .

٢ ــ الاتجاه المعتدل الذي يمسك بطرف خيط التوازن . يكبر حجمه او يصغر حسب اتجاهات التوازن. وهو الذي يدعي التعبير عن المصلحة العليا المسيحية. ومنذ احداث ١٩٥٨ يتخذ من بكركي مقراً ثابتا له .

ان تمايز هذين الاتجاهين ليس واضحا ، يختلطان ويفترقان كجواب على المرحلة التاريخية . لكنهما يتوحدان عند فهم مشترك لدور لبنان الوسيط وعلاقاته العربية المتحفظة . وحين يختل هذا الفهم المشترك تختل المعادلة ويغلب احد هذين الطرفين .

ان دراستنا للصحف والنشرات الانعزالية ، هي اساسا ، دراسة لايديولوجية الاتجاه المتطرف الذي يقاتل او يدعي القتال . فجميع هذه النشرات ما عدا ــ المصير ــ تدعي المشاركة في القتال ، او تتبنى اطرافا مقاتلة. فاهمية دراسة العنصر الايديولوجي فيها ، هو محاولة كشف عناصر ومحاور واتجاهات ايديولوجية الاطراف المقاتلة (١) . سوف نقسم دراستنا الى ثلاثة اقسام :

١ ــ **العناصر الايديولوجية** حيث نقوم بتفكيك عناصر ايديولوجية هذه الصحف والنشرات في عناصرها الاولى : **نحن وهم** ونلجأ هنا الى الصفات . صفات **نحن** وصفات **هم** . هنا نكشف العنصر الايديولوجي الاولي ، الذي تقف على ارضيته هذه النشرات ، دون ان ندرس تنظيم هذه الصفات . اي نقوم بتفكيك الايديولوجية الى عناصرها الاولية .

٢ ــ **المحاور الايديولوجية** . هذه الصفات ، او العناصر الاولى ، هي جزء من اتجاه عام . من وجهة سياسية شاملة . هنا ندرس كيف توظف هذه العناصر في اطر محورية ثابتة .

٣ ــ **التوجه العام** حيث نعود مرة اخرى الى تفكيك الايديولوجية الانعزالية الى ثوابت . ندرس اللغة الخاصة ، المسبقات ، الاطر المرجعية ، العلاقة بالتاريخ . فنعيد تركيبها من داخلها وخارجها ، لنصل الى لوحة علمية عن توجهات عامة تحكم الايديولوجية الانعزالية .

ان هذا التقسيم لا يهمل الفروقات بين الصحف والنشرات هذه ، بل يأخذها بعين الاعتبار ، دون ان يوليها الاهمية المركزية . فهذه الصحف تشكل في نهاية التحليل تيارا واحد تتعدد اصواته نتيجة عاملين :

---

١ ــ لا ندرس في هذا المقال جريدة « العمل » ، الناطقة باسم حزب الكتائب ، لانها بقيت تعبر عن طموحات الحزب المتوازنة في اغلب الاحيان او اخلت بالتوازن في محاولة اعادة تركيبه . ولقد عوض الكتائبيون على هذا النقص باصدار نشرات اخرى او المساهمة فيها .

١ ـ عامل ايديولوجي صرف ، يعبر عن اتجاهات ونزعات متعددة تختلف فيما بينها في درجة فاشيتها ، او فهمها للفاشية نفسها .

٢ ـ عامل سياسي : هو سير المعارك والاحداث الذي يفرض تمايزا في المواقف ، وتغييرات في موقف الجريدة او النشرة الواحدة .

١ ـ العناصر الايديولوجية

سوف نأخذ في سياق « نحن ـ وهم » . سبعة موضوعات : ـ لبنان . المقاتل اللبناني . المسيحية (المارونية) . الفلسطينيون . المقاتل الفلسطيني . العرب ، المسلمون . ان اتساع هم في اربع موضوعات على حساب نحن ، يأتي في الدرجة الاولى ، من بلبلة هذه الصحف في تحديد عدوها . فهو الفلسطيني في غالب الاحيان ، لكن قد يصبح العربي او المسلم اللبناني في احايين اخرى .

أ ـ لبنان

ـ وطن الله . (لبنان عدد ١)

ـ لبنان هو منبع الحضارة . (لبنان عدد ١)

ـ هنا ، منذ مليون سنة عقلنت المادة . (لبنان عدد ١)

ـ آدم وحواء لبنانيان . (لبنان عدد ١)

ـ قدم لبنان الى البشرية عطاءات خمسة لا تزال الى اليوم ثلثي الحضارة : اله محبة ، الابجدية ، القول بالذرة ، حكم الشعب بالشعب ، الهندسة الافليديسية . (لبنان عدد ١)

ـ ومرة اخرى تشرق الشمس على لبنان الاعجوبة . (لبنان عدد ٢)

ـ وطن السلام والمحبة . (لبنان عدد ٣)

ـ لبنان من دول الجودة لا الكثرة . (لبنان عدد ٤)

ـ ابنان مستقلا ، لم يكن يكتفي بتقرير مصيره ، كان يقرر ايضا مصائر الكون . (لبنان عدد ٥)

ـ لبنان امة سيدة ، وجودها قائم بها وبرسالتها . (لبنان عدد ٦)

ـ لبنان ثلثا الحضارة (لبنان عدد ٨)

ـ لبنان واحد كالله غير متعدد الا بذاته (لبنان عدد ٩)

ـ بلد مضيف وقف الى جانب قضيتهم ما استطاع (الانصار عدد ٢)

ـ وجه حضاري مشع (صوت زحلة عدد ٢)

ـ صامد امام كل تدخل اجنبي (صوت زحلة عدد ٢)

ـ لبنان يساوي صيغة حضارية فريدة (صوت زحلة عدد ٥)

ـ الله لن يتخلى عنا (صوت زحلة عدد ٦)

ـ في البدء كان لبنان ، ولبنان كان وطن الله ، والله حفظ لبنان . (الفداء عدد ٥)

ـ ان جبل لبنان سيظل صامدا ، وانه وجد ليبقى ، وسيبقى رغم انف كل الطغاة ، ورغم انف سوريا قبل الجميع (جبل لبنان عدد ١)

ـ لبنان باقي غصب عن كل الدني وما دام في انتو معو الله معو (الفداء عدد ٢)

ـ لبنان السيادة والكيان ، ولبنان الحضارة والثقافة . لبنان القيم الانسانية والتاريخ الطويل في الدفاع عن الحرية والديمقراطية وكرامة الانسان . لبنان واضع شرعة حقوق الانسان . ولبنان غير المنكمش على نفسه ، بل المنفتح على العالم بأسره . (لبنان ، ابدي ازلي ، سرمدي . العدد ٢)

- لبناننا كما نفهمه تربة ان زوبعتها الريح لتبعدها عن جذور الارز ، ترسم في وسط السماء ارزة تتحدى الارض والسماء (الصمود عدد ١)

- سيكون اسم لبنان مرادفا للقوة والمحبة ٠ (الفداء عدد ١)

هذه الصفات التي اخذناها من بعض الصحف والنشرات موجودة او مضمرة فيهـا جميعا . ماذا نستنتج امام هذا العدد الكبير من الصفات ؟ نلاحظ اربع نقاط تركيز : **الحضارة . الله . القوة . المحبة والسلام** . فما هي دلالات هذه الصفات المركزيـة ؟ انها تخدم توجها عاما . تؤكد على نقاط تنفي بها اخرى لترسم لوحة رباعية .

١ ــ **فالحضارة** : تعني التفوق . لبنان بلد متفوق . وهـي تفترض حكم قيمـة . الحضارة في مواجهة البربرية . وهي تعني كذلك درجة من التقدم في مواجهة التأخر . فحين يوصف لبنان بالحضارة فهذا يحمل ضمنيا ادانة للآخرين سوف تظهر واضحـة بعـد ذلك .

٢ ــ **الله** : حين تقول لبنان وطن الله بصيغة علمانية ، فهي تخفي صيغة طائفيـة ثيوقراطية . فحين يكون لبنان وطن الله ومكتشف الله ، او هـو كالله ، فهذا يقود حتما الى صيغة طائفية ، سوف تفصح عنها العجائب . العذراء تفتقد لبنان . او اشياء اخرى . وهـذا مجرد رديف او تذكير بصراع المسيحيـة مـع الاسلام . الحـروب الصليبية مثلا .

٣ ــ **القوة** : هي رديف الحضارة . لا حضارة بـلا قوة تحميها . لبنان وجد ليبقى وسيبقى بالقوة . فهو يقرر مصائر الكون (نزعة استعمارية) او الله سيحفظ لبنـان ويعطيه القوة .

٤ ــ **المحبة والسلام** : هي الرمز الآخر ، الذي يغطـي رموز العنف . فالصيغـة الحضارية الفريدة ، هي صيغة تفرض نفسها بالقوة ، ثم تنفتح على الحب والسلام . فالمحبة والسلام هي وجه الخدمات والوساطة ، التي لا بد منها . المحبة في خدمـة الوساطة حين يكون هذا ممكنا .

القاسم المشترك الذي يوحد هذه الصفات ، هو نزعة قومية ، عنصرية ، تتعالى على الآخرين باسم قيم الحضارة والله . وهما رمزان فاشيان قديمان .

ب ــ المقاتل اللبناني

- بطولات شبابنا الثائر وراء متاريس الصمود (اللبناني عدد ٣)
- المقاومة اللبنانية (اللبناني عدد ١)
- اعداد قليلة تغلب اعدادا كبيرة من العدو (اللبناني عدد ٣ ، مقابلة مع احد القادة الكتائبييـن الذين احتلوا الكرنتينا)
- الخسائر لا تصدق ٠ قليلة جدا (اللبناني عدد ٣)
- لبنان اليوم قبضة يدك ، هو جزء من بندقيتك (الانصار عدد ٢)
- اسم حراس الارز اصبح **فزيعة الغرباء** ٠ (لبنان عدد ١)
- حراس الارز هم **المردة الجدد** (لبنان عدد ١)
- اهم ما قيل في المردة انهم كانوا جدار النحاس في وجه الغزو الصحراوي (لبنان عدد ٢)
- احفاد قدموس (لبنان عدد ٥)

ـ انتم في خط الحضارة الامامي (لبنان عدد ٥)

ـ حملة مشعل الحقيقة واصحاب الارض (لبنان عدد ٨)

ـ لا يمكن ان يصدق احفادنا اننا تجرأنا ان نخوض هذه الحرب ضد عدد يتفوق علينا بهذا المقدار عددا وعدة ٠ وان نتغلب عليه في جميع المعارك ٠ (لبنان عدد ١٤)

ـ اسود يدافعون عن عرينهم حتى آخر نقطة من دمهم (صوت زحلة عدد ٢)

ـ شرفاء الفرق بينهم وبين المقاتلين الآخرين انهم لا يتقاضون اجرا (صوت زحلة عدد ٢)

ـ نسبة الذين استشهدوا في المتاريس كانت قليلة جدا بالنسبة للابرياء المذبوحين (صوت زحلة عـــدد ٢)

ـ اصاباتهم كثيرة الدقة (صوت زحلة عدد ٣)

ـ عدد اقل من الزحالنة يتغلب على اعداد كبيرة من الاخصام (صوت زحلة عدد ٣)

ـ ان المقاتل الزحلي اخذ يتميز بقدرته الخارقة على الصمود رغم كثافة النار وحداثة الاسلحة التي بحوزة الخصم (صوت زحلة عدد ٥)

ـ التمثل بقائد اسباني فرنكوي افدى بحياة ابنه وزوجته ولم يستسلم (صوت زحلة عدد ٣)

ـ مشاعرنا ملك الانتقام (المردة عدد ١)

ـ نحن ابناء الله الحقيقي ٠ فنحن لهم بالمرصاد ، لندق اعناقهم ، ما دامت لنا اقدام٠ (المردة عدد١)

ـ ان اللبناني الذي ركب الجبال منذ القدم وحارب الغزاة وقهرهم ، لن يقف في طريقـه بعـض الجبناء الذين فروا من بلادهم وتركوها للغرباء (التحرير اللبناني عدد ٨)

ـ المعركة مستمرة والنصر لنا ٠ لماذا ؟ لان الله هو قائد المعركة ٠ (وطني عدد ٥)

تتكرر هنا موضوعة الله ، والحضارة . **الله** هو قائد المعركة ، نعود هنا الى الرمز الصليبي . فانتشار عادة لبس الصلبان الخشبية في اوساط المقاتلين الانعزاليين ليس عبثا . لكن الاضافة الجديدة هي التركيز على ثلاثة عناصر : القوة ، البطولة والشرف، الرمـــوز .

١ ــ **القوة** هي نقيض الضعف . والقوة هنا هي قوة فكرية ، متقدمة ، متحضرة . العدد القليل يغلب العدد الكثير ، الكيف ينتصر على الكم .

٢ ــ **البطولة والشرف** هي مؤشر المعركة . معركـــة دفاع عن الارض ، عـــن الشرف . لذلك فالمقاتل اللبناني شريف وبطل ، ولا يخاف الموت .

٣ ــ **الرموز** اشارات الـــى التاريـــخ ، تدموس ، هنيبعل ، المردة . او التمثـل بالفاشيين الاسبان . هذه العودة الرمزية ، هـــي مؤشر تاريخي ، يعبىء فراغــات كبيرة في لوحة القوى الانعزالية .

تبقى نقطة اساسية لم نشر اليها حتى الآن : الشهداء . فبينما لا تقول نشرة **لبنـــان** استشهد ، بل تقول قتل ، لاسباب دينية طائفيـــة ، فان النشرات الاخرى تستعمل عبارة استشهد .

تتفق جميع النشرات في تكريم « الشهداء » « ماتوا لنحيا » باب ثابت في اللبناني . « استشهد بعد ان زرع الرعب في صفوف المرتزقة اعداء بلده لبنان » . (اللبناني عدد ٣) . وجوزف الغصين هو « السيف الذي انكسر » (لبنان عدد ٣) . أصيب شارل في متراسه . شارل الذي عمره ريحان (لبنان عدد ٦) . « لا تبكوا فـــي يوم

عرسه . ان مات فليحيا لبنان » (صوت زحلة عدد ٢) . « استشهد وهو يغرس علم لبنان فوق ارض اراد الاخوان اللئام ان يدنسوها بوجودهم عليها» (الحركة عدد٢) تكريم الشهداء . والاسماء قليلة جدا ، ولا تعبر عن الرقم الحقيقي ، هو جزء من تكريس قيم القوة والبطولة التي ينعت بها المقاتل اللبناني .

ج ـ المسيحية (المارونية)

لا تظهر الكتابة واضحة جلية في تحديد الانتماء الماروني ، المسيحي ، في جميع النشرات ، بل تبقى مضمرة في غالب الاحيان . لكنها حين تكشف عن نفسها ، تظهر رهيبة ، وبالغة الصرامة :

ـ ان احتضار المسيحية في لبنان ، يعني تخلي المسيحيين عن دورهم الحضاري (اللبناني عدد ١)

ـ في مقابلة مع تريز التي قتل زوجها وهجرت من ضهر الجمل :

ـ بتفتكري قتلوا زوجك لانو كتائبي او لانو مسيحي ·

ـ الاثنين ، ما بفرقوا بين الكتائبي والمسيحي · (اللبناني عدد ١)

ـ اذا بسبب الصليب لازم موت هيدا فخر الي · (اللبناني عدد ٣) ·

ـ هذا هو جوهر تراث المارونية · فاحترام الانسان يفترض ايضا ان لا يشوب حرية المعتقد خوف من فقدان هذه الحرية (اللبناني عدد ٥)

ـ الايديولوجية المارونية هي شريكة اساسية في توجيه تاريخ الشرق الديني (اللبناني عدد ٥)

ـ الايديولوجية المارونية ، جسدت اللاهوت ، وجعلت منه ايديولوجيا اجتماعية ناهضت حتى الآن اقوى ايديولوجيات العصر · وولدت عند الموارنة الروح القتالية التي اضفت عليها طبيعة لبنان صلابة (اللبناني عدد ٥)

ـ مذبحة ١٨٦٠ التي تعرض لها المسيحيون ما زالت اخبارها تتناقل حتى اليوم · بالله قولوا لي اخبار مذبحة او محنة ١٩٧٥ كم سيتناقلها المسيحيون في هذه المنطقة (الانصار عدد ٢)

ـ يعيشون في العالم العربي اشبه بمواطنين من الدرجة الثانية بسبب الحكم الثيوقراطي المتخلف، الناتج عن عدم فصل الدين عن الدولة · (جبل لبنان عدد ١)

ـ تمثلت زحلة في القمة المارونية ، والقمة الكاثوليكية ولولا بعض عوائق طارئة لتمثلت في القمة الارثوذكسية وقمة الاقليات · بذلك حققت زحلة مبدأ الوحدة في التنوع ووحدة الموقف ضمن تنوع الطوائف (صوت زحلة عدد ٥)

ـ ان لبنان ليس ملكا للدروز ، بل هو لنا ، وهم ملتجئون الينا · (الصمود عدد ١ · وثيقة تاريخية في كتاب اهالي زحلة الى المسيو بوجاد ١٨٤٥)

ـ سيظل المسيحيون في لبنان حماة الحرية من مستنقع البعوض · ستبقى المسيحية في لبنان رائدة الحضارة (الصمود عدد ٣)

ـ ماذا فعل لبنان والمسيحي في لبنان ليتلقى الغزوات الهمجية البربرية على القرى المسيحية النائية (وطني عدد ٥)

المسيحية المارونية هي اذا هوية حضارية . تعاني عقدة الخوف من الذوبان في البحر الاسلامي العربي . وهي هوية انتماء ، قد تصبح قومية او شبه قومية كما سنرى في نشرة (جبل لبنان) او هي ايديولوجية كاملة متكاملة .

ان هذا الطابع الطائفي ، الديني الصارخ ، يكشف زيف الانتماء اللبناني الى لبنان الكبير ، ولا جدواه . كما انه يحمل جميع انواع الحقد والاحتقار للطرف الديني الآخر .

(مستنقع بعوض) ويحمل بالمقابل جميع اشكال افتخار الانتماء المصحوبة بالخوف من المذابـــح .

د ـ الفلسطينيون

- فاذا بهم كالجراد اتوا . (الفداء عدد ٢)
- ارحل ايها الغريب عن لبنان فلن يكون لك (الفداء عدد ٢)
- ... يشرب من بئر لبنان ويرمي قعره بحجر (الحركة عدد ٢)
- اتقوا شر من احسنت اليه (صوت زحلة عدد ٥)
- استضفناهم فاستعذبوا الطعن في الظهر (صوت زحلة عدد ٤)
- آويناكم فحاولتم تشريدنا ! (صوت زحلة عدد ٤)
- الفلسطيني على ارض فلسطين فدائي ، على ارض لبنان هربان (لبنان عدد ٢)
- داسوا على كل القيم وتصرفوا كأسفل ناكري جميل عرفهم التاريخ (لبنان عدد ٢)
- الفلسطينيون ، وهم اعداؤنا المباشرون ويتميزون بالحقارة والجحود (لبنان عدد ٣)
- حيث يدفع اولادنا الجنود ضريبة الدم بسبب تحرش الفلسطينيين باسرائيل (لبنان عدد ٥)
- الاغراب جعلوا العالم يمج لبنان (لبنان عدد ٢٠)
- تشربوا التخريب والهدم منذ نعومة اظفارهم ، هم كالحية الرقطاء التي لسعت من انقذها من الموت (التحرير اللبناني عدد ٤)
- لولا الغرباء لكان المسلمون والمسيحيون بألف خير (الجلاء عدد ١) .

الصفات التي تلصق بالفلسطينيين تتحدد في مسألتين اساسيتين :

ـ **الغريب** : الذي لا علاقة له بالارض التي يسكن عليها ـ لبنان ـ **والذي بـــاع** وطنه . وهو **لاجيء** . اللاجيء عرفات . الغريب يهدد الحضارة . يهدد امن البـــلاد وسيادتها .

ـ **العدو** : الذي تلصق به جميع صفات التحقير . فهم فاشلون ، جاحدون ، سبب الشقاء والخلافات بين اللبنانيين . يطعنون في الظهر . يحتلون لبنان ...

تؤكـــد هاتان المسألتان علـــى نقطة مركزية هامة ، تقذف المشكلة الى الطـــرف الفلسطيني ، وتقذف هذا الطرف الى الخارج ، فهو غريب . اذا جميع مشاكلنا هـــي من الخارج . ويمكن حلها بطريقة واحـــدة ، طرد الفلسطينيين ، طالما يرفضـــون المحافظة على سيادة لبنان .

الغريب او الطريف هنا ، هو ان الطرف الصهيوني ، لا يعامل كعـــدو ، دون ان يذكر كصديق او كحليف الا تلميحا وبشكل غير مباشر . امـــا العدو الاساسي فهـــو الغريب ، الفلسطيني ، المتحالف مع العرب .

هـ ـ المقاتل الفلسطيني

- اعداؤك اقزام ، انهم كافرون خبثاء . يقتالون لبنان كل يوم (ملحق العمل عدد ٢)
- كل من يعمل على تهديم هذا البلد هو شهيد للثورة (اللبناني عدد ٢)
- هاجم الغرباء زحلة بستة الاف مأجور (صوت زحلة عدد ٢)

ـ في خبر عن المسلحين الغرباء ان تسعماية يمني قدموا الى لبنان ، عادت نفوس ٥٠٠ منهم الى ربها (صوت زحلة عدد ٥)

ـ حضر ليقاتل الكفار (صوت زحلة عدد ٢)

ـ غدروا بشبابنا في السهل ، مثلوا في جثثهم (صوت زحلة عدد ٥)

ـ لا يفوق جبانة الغرباء في المعارك سوى بطولتهم عندما يخطفون انسانا بدون سلاح ! ففي المعركة ارجلهم ارجل غزلان اما مع المخطوفين فهي ارجل بغال (لبنان عدد ١)

ـ استغرب احد مراسلي الصحف الاميركية كون زمر الاربعين منظمة لم تتمكن من احتلال ولا شبر من معاقل الامبريالية الكتائبية والرجعية الحراس ارزية ، ورغم كثافة الاسلحة الثقيلة والخفيفة الدم التي يملكها ابطال الوفا • فافاد احد المراقبين ان السلاح في يد بعض الناس ما بيجرح (لبنان عدد ٤)

ـ معركتنا بين عملقة وقزمنة (لبنان عدد ٥)

ـ اما الفلسطيني فقد هرب من فلسطين بعد ان باعها ، وهنا يدعي الكفاح المسلح ، للتهريب وسلب الاعراض في احراج عرمون ، والتجسس وحرق المحلات وتفجيرها ونهب الممتلكات (لبنان عدد١)

تبدو هذه الصفات ، النقيض المباشر لصفات المقاتل الانعزالي . فالمقاتل اللبناني ، شريف ، شهم ، لا يسرق يدافع عن قضية ، اما هؤلاء فمرتزقة ، لصوص ، لا قضية لهم ، يحبون التخريب .

ان النقطة الاساسية التي تجمع عليها جميع النشرات والصحف والانعزالية ، هي جبن الفلسطينيين ، يستعينون بالكثرة ، لا يقاتلون جيدا ، واخيرا يفشلون في تحقيق اهدافهم . هذه الصفات هي في الواقع جزء من التعبئة الاعلامية . فالاحساس بالعجز او التراجع ، يترجم عمليا بالكذب ، وبادعاءات الانتصارات . لا ينشرون شيئا عن الدامور ، سوى انها استبحت وذبح سكانها ، بينما يتحدثون عن نتائج وتفاصيل معركة المسلخ .

د ـ العرب

ـ غدا ، اذا ابتدأت السنة الدراسية ، سأكون مجددا في موقف حرج امام طلابي • فاول درس اجبرتني وزارة التربية على تلقينهم اياه يدور حول مناسبة معلقة امريء القيس وهي قصة دعارة (لبنان عدد ٢)

ـ منذ سنة ١٩٤٨ يردد معلم لبنان في خطاباته ومقالاته : حذار حذار يا لبنان ذات يوم ماتت روما غرقا في خضم الاعراب (لبنان عدد ٢)

ـ دول الحضارة ، لن تتخلى عن وطن الحرية الوحيد في الشرق (لبنان عدد ٢)

ـ يوم كانت الارض حولنا صحراء قاحلة ، كان لبنان يختال على دروب الكون يزرعها جمالا وخيلاء (لبنان عدد ٤) •

ـ الوساطة القائمة ، هي تدخل من سوريا في شؤون لبنان (لبنان عدد ١٤)

ـ جامعة الدول العربية هي حائط مبكى ، جمعية خيرية (صوت زحلة عدد ٧)

ـ وصل مؤخرا الى مرفأ اللاذقية في سوريا خمسة آلاف جندي ليبي تمهيدا للدخول الى لبنان للمشاركة في الهجمة الاسلامية على المسيحيين (اللبناني عدد ٥)

ـ ضغوط عربية على الولايات المتحدة عن طريق سياسة حظر النفط لمنع اميركا من التدخل لمصلحة المسيحيين في لبنان (اللبناني عدد ٥)

- المؤامرة فلسطينية سورية ، ليبية (لبنان ، ابدي - ازلي - سرمدي) .
- الانتداب السوري على لبنان يفرض التقسيم (جبل لبنان عدد ٢)
- كذابون من المحيط الى الخليج .. هل هذه شعوب تستحق هذه التسمية (الصمود عدد ٣)
- المستفيدان من خراب لبنان : اسرائيل وسوريا (التحرير اللبناني عدد ٤)

ان السمة العامة التي توحد المواقف من العرب تتحدد بموقفين متكاملين : —

١ — **الاحتقار** : واحة الحضارة تحتقر الغرباء ، المحيطين بها . فلبنان ، هو مركز حضاري ثابت مهدد . لذلك يأخذ موقفه او الموقف الذي يعطى له ، اطار الاحتقار للشعوب « الهمجية » المحيطة به ، يحتقر غناها وثروتها ويوجه اصبع الاتهام لها جميعا ، ويتمسك بلبنان بوصفها نقيضا فعليا لها . ويجري التركيز هنا على انحطاط الثقافة العربية ، وتدهور اوضاع المنطقة العربية وتمزقها .

٢ — **الخوف** : الذي هو الوجه الآخر للاحتقار ، فالخوف يتركز اساسا من اتساع المدى العربي الذي يدعم المقاومة ، وضيق رقعة الدعم الذي تلقاه القوى الانعزالية من الدول الامبريالية التي تصل الى حد اللامبالاة . كذلك يجري التركيز على الدور السوري ومهاجمته ، باعتباره احتلالا ! هنا تلتقي (المصير عدد ٥) مع رفض التدخل السوري والتركيز على خطره ، انسجاما مع مواقف اده .

هـ — المسلمون

- لنقل بصراحة ، بأن النزاع يدور حول السلطة وبيد من يجب ان تكون : بيد المسيحيين الذين يفهمون لبنان وطنا نهائيا متميزا ، ام بيد المسلمين الذين يريدونه عربيا (ملحق العمل عدد ٢)
- ان المعركة ليست لحماية الثورة الفلسطينية ، واسترجاع فلسطين ، بقدر ما هي صراع من اجل الحكم لادخاله في دار الاسلام . (اللبناني عدد ٣)
- ان عصبية المسلمين رجعية بذاتها وممارستها ، فالدول الاسلامية والمفكرين المسلمين لم يفهموا الاصلاح والتقدم الا بالعودة الى جذور الاسلام في عصوره الاولى ، رافضين الاخذ بمعطيات الحضارة الحديثة لانها من صنع الكفرة . (اللبناني عدد ٣)
- المسيحيون هم الوطنيون الحقيقيون ، وغالبا ما ينسى المسلمون هذه الوطنية لانهم دائما يتكئون على الخارج (صوت زحلة عدد ٦)
- في منطقة بعلبك هاجم « المسلمون التقدميون » القرى المسيحية . (صوت زحلة عدد ٧)
- في لبنان شعبان متميزان حضاريا . مسلمين عرب ومسيحيين لبنانيين . (جبل لبنان عدد ١)
- حرب السيادة هذه التي نخوضها ، هي حرب يخوضها لبنان بمسلميه ومسيحييه . يخوضها بمسيحييه علنا وبمسلميه سرا (التحرير عدد ٤)

المسألة الاساسية حول قضية المسلمين ، انها تبقى غامضة في اكثر الصحف والنشرات التي تصدرها القوى الانعزالية . لكنها تكشف عنها في لحظات الضعف ، حيث يبدو التقسيم هو المخرج الوحيد لمسألة السيادة ، او حين تشتد عليها الضربات. لكن المسألة المركزية تبقى في اعتبار المسلمين من صفات الاعداء ، وتحقرهم كما في (اللبناني) او تسميهم اسلام ، جمع مسلم . وهي صيغة دارجة هدفها التحقير . وتحاول بعض النشرات (لبنان) او الصحف (وطني) اعتبار مسلمي لبنان الى جانبهم ولكنهم واقعون تحت الاحتلال الفلسطيني (لبنان) .

ان بحثنا التفصيلي عن العناصر الايديولوجية اخذ نموذج ، نحن وهم كاطار لهذه

العناصر . يكشف هذا النموذج النقاط الاساسية لتحريض القوى الانعزالية الطائفية لجماهيرها . فهي تدافع عن موقعها في السلطة ، وتعيد التذكير بالمذابح التي تعرض لها المسيحيون . تتوقف اساسا عند الغريب (الفلسطيني ، العربي) بوصفه عنصر الفتنة ، وتدعو الى تصفيته وطرده من لبنان . وهـي تستعمل الاساليب الفاشية التقليدية في عناصرها الايديولوجية : —

١ — تركز على موقعها « الحضاري » المتقدم .

٢ — تركز على بطولات مقاتليها وشرفهم القتالي .

٣ — تقاتل باسم التقدم ضد التأخر .

٤ — تهاجم الغريب وتلصق به جميع اسباب مشاكل البلاد .

٥ — تثق بنفسها وقدرتها اكثر من اللازم .

٦ — جبهة حلفائها هي الدول الاوروبية المتحضرة والولايات المتحدة ، اما الاعداء فهم العرب المتخلفون .

٧ — تستغل العنصر الديني ، الرموز الدينية ، في معركتها .

٨ — تعود الى رموز تاريخية تشحن بها الحاضر ، وتدعو الى تبديله .

ان بحثنا عـن نقاط الـ نحن وهم ، يعطـي فقط صورة الاساس التـي تحرك الايديولوجية الانعزالية الفاشية . لكن هذا لا يكفي . فهذه العناصر تنتظم في محاور ايديولوجية ، تحاول صياغة برنامج سياسي .

٢ — المحاور الايديولوجية

لا تأخذ هذه العناصر الايديولوجية ، الا في سياق سياسي موحد او شبه موحد . فعناصر الاختلاف التي تبرز بين هذه الصحف والنشرات، تتركز حول الموقف السياسي النهائي : قبول الوساطة السورية او رفضها الدعوة الى التقسيم علنا ، او الاكتفاء بالدعوة اليه بشكل مبطن او رفضه الاعتراف بشبه الهزيمة العسكرية او تحويلهـا الى انتصار . غير انها تلتقي في جوهر العلاقة بالقارىء ، فهي تتوجه اساسا الـى **المسيحي البرجوازي الصغير** الناقم على الاوضاع ، تقنن نقمته في ثلاثة اتجاهات : —

الاتجاه الاول : وهو الاتجاه الاساسي ، الذي يقنن ، الحقـد والكراهية علـى الغريب — الفلسطيني ، العربي ، المسلم . . . يرتكز هذا الاتجاه اساسا ، على عقدة الخوف المسيحية ، ويدفع بها الى اقصى مداها ، فيندمج الخوف بالكبرياء والحقـد والاحتقار . هذا العنصر ، او الاتجاه يمكـن اكتشافه من دراسة نحن وهم ، حيث تأتي الصفات لتدفع باتجاه واضح ، هو جزء من « الايديولوجية الشعبية المسيحية » في لبنان . فالنشرات والصحف الانعزالية ، لا تخترع الطائفية وتمايزاتها الاجتماعية . تنقل الكلام الشعبي البرجوازي الصغير الى الكتابة بدون خجل هذه المرة . فتحمل جميع رواسب الخوف والكراهية الطائفية ، وتصبها في قالب جديد . فهي تنطلق من موقع ازمـة النظام السياسية العامة ، وانعكاساتها الاجتماعية ، لتعيد صياغـة اسباب الازمة ووضعها على كاهل العرب والفلسطينيين ، باعتبارهم سبب توريـط لبنان في ازمات . فهم فتحوا النار على اسرائيل ليورطوا لبنان في معركة لا يريدها ،

وهم الذين يريدون تهديم السلطة والنظام ، في سبيل نزع هوية لبنان الخاصة ودمجه بالمنطقة العربية .

الاتجاه الثاني : يبقى الاتجاه الاول ، في اطار كلاسيكي ، لا يضيف جديدا . لذلك تاتي النشرات لتصب نقمتها على القيادات التقليدية . ان النقمة على القيادات التقليدية هي تعبير عن بروز قيادات جديدة « حربية » في الشارع المسيحي . فلم تعد القوى التقليدية تستطيع الادعاء بأنها تمثل الشارع المسيحي باسره . فهي قوة رئيسية في داخله ، تنمو على جوانبها ، او في ظلالها قوى مارونية جديدة شابة ، مثقفة ، متعصبة . لذلك لا تشترك النشرات والصحف في صب نقمتها على السياسيين التقليديين . فالنشرات التي لا علاقة لها بالاحزاب المارونية الاساسية : الكتائب ، الاحرار ، الكتلة ، هي التي تركز على انتقاد السياسيين التقليديين ومهاجمتهم . (لبنان ، صوت زحلة ، الفداء) ، بينما تبقى صحف اخرى لها علاقة بالكتائب : (اللبناني ، الانصار ، ملحق العمل) ، صامتة حول الموضوع ، في الوقت الذي تركز فيه صحيفة (التحرير) المديح للزعامة المارونية الجميل ، شمعون ، ويصل الامر ببعض النشرات غير الجدية (الاولى) الى تخصيص ثلاثة ارباع صفحاتها لحياة الشيخ بيار الجميل الخاصة ، وصوره وصور عائلته .

ان اتجاه رفض الزعامة التقليدية ، هو في الواقع اتجاه شعبي ، له جماهيريته . فنظام العلاقة الطائفي ، بين الزعيم وانصاره هو نظام معقد ، ولاء ورفض لهذا الولاء في آن ، رغم ان الولاء هو الذي يغلب في التحليل الاخير . لذلك يأتي الهجوم المركز الذي تشنه نشرة (لبنان) ليعبر عن ظاهرة قديمة — جديدة ، تعبر عن اتجاه جديد في واقع الشارع الماروني . فهي ظاهرة قديمة ، لانها تعبر عن تململ قطاعات المثقفين والتكنوقراطيين من الزعامات التقليدية ، لكن جدتها هو في تحولها الى ظاهرة اجتماعية ، تهاجم وتتعايش مع الزعامات التقليدية . ترفضها وتنمو الى جانبها . لذلك يأخذ الهجوم اشكالا ملطفة — ما عدا في نشرة سعيد عقل — ويركز على مسالتين :

أ — تحميل القيادات التقليدية والزعامات السياسية مسؤولية ايصال لبنان الى الكارثة . « عمالقه وقت الكراسي واقزام ساعات الرؤى » (الفداء عدد ٢) ، « فما دام هؤلاء سيظلون فوق فسيظل لبنان ، تحت » (لبنان عدد ٨) .

ب — التركيز على بروز زعامات سياسية مارونية جديدة ، جادة في تحمل مسؤوليتها . (صوت زحلة عدد ٥) (لبنان عدد ١٣) تلتقي هذه النشرات على التبشير بولادة قوى جديدة ، هي وحدها القادرة على انقاذ لبنان .

الاتجاه الثالث وهو اتجاه تجمع جميع الصحف والنشرات على تبنيه ، على اختلاف انتماءاتها السياسية . وهو التركيز ضد الاغنياء واحتقارهم ، واحتقار الذين غادروا لبنان منهم الى اوروبا. ان هذا التركيز ، هو الوجه البارز لنوع المخاطبة الايديولوجية، ولنوع التوجه الى القارىء . فهذه النشرات تتوجه اساسا الى قاعدة شعبية برجوازية صغيرة، تشحنها بالحقد على عدو مفترض — الفلسطيني العربي ، الغريب، لكن لهذا القارىء ، او لهذه النزعة متطلبات اخرى . اولها هو الهجوم على الاغنياء فهم اعداء لبنان ، وساهموا في خرابه بسبب بخلهم وغباوتهم وجبانتهم (لبنان عدد ٣) وهم اشد جحودا من الغرباء (لبنان عدد ٤) كما يجري التركيز ضد المحتكرين (صوت

زحلة عدد ٣ ، اللبناني عدد ٣ ، الانصار عدد ٣ ، الحركة عدد ٢ الخ ...) هذا الرفض للاغنياء وكراهيتهم ، هو جزء من عمليتين مزدوجتين :

١ ــ تبرير فرض الخوة بالقوة المسلحة ، وهذا ما جرى في جميع المناطق التي تقع تحت سيطرة الانعزاليين .

٢ ــ اتجاه برجوازي صغير ، شعبي ، يصب حقده على الراسماليين ، بطريقة جديدة . فهو يحمل السلاح ليدافع عن مصالحهم الاقتصادية والسياسية ، لكنه ينال تعويضا سيكولوجيا ، عبر هجومه عليهم . ان هذا الاتجاه البرجوازي الصغير ، هو الاساسي في الهجوم على الاغنياء . لانه يجيب فعليا ، على واقع التشكيلة المقاتلة في الصف الانعزالي ، التي تشكل البرجوازية الصغيرة قاعدتها الرئيسية .

ان هذا الحقد والاحتقار الموجه الى الاغنياء ، يوظف في المقابل ، ضد الفقراء . ضد اهالي المسلخ ــ الكرنتينا ، ضد سكان بيوت التنك . فالنزعة الفاشية توجه كذلك ضد عدوين آخرين ، الفقراء ، واليسار . فاذا كان الاغنياء جرذان كما تقول نشرة لبنان ، فان النعوت التي يوصف بها الفقراء هي اكثر تحديدا ، فهم « تنكيون » كما تقول نشرة (لبنان) اي يعيشون في بيوت التنك ، وفقرهم هو نتيجة مؤامرة شيوعية كما تقول نشرة (اللبناني) اما الاملاك فستعود الى اصحابها الاساسيين ، ولن يسمح للمهجرين بالعودة اليها . تبدو هذه النزعة الفاشية ، غريبة ، اذا ما قورنت بالفاشية الاوروبية . فالفاشية الاوروبية تنظم البروليتاريا الرثة ، وتستخدمها في صراعها ضد الديمقراطية وضد حركة الطبقة العاملة . اما هنا ، فان النزعة الفاشية الظاهرة في الطرف الانعزالي ، هي فاشية طائفية . تتحدث عن لبنان ، وتعني به الموارنة او اكثرية المسيحيين في افضل الحالات ، من هنا حقدها على التنكيين ، وسكان الاكواخ والفقراء . وهذا يعود ايضا الى الموقف الوطني لسكان المسلخ والكرنتينا والنبعة والشياح وجميع الضواحي الفقيرة .

يأتلف هذا الموقف ، مع موقف مشابه من القوى اليسارية . فرغم ان اغلبية هذه النشرات ، تعتبر عدوها هو اللاجيء المقاتل الفلسطيني ، وترفض الاعتراف بالبعد الداخلي للازمة ، فانها تركز بعض الهجوم على اليسار . فنشرة (لبنان) ترفض وجود الفقراء في لبنان : « ليس محروما في بلد اجر العامل فيه يزيد على ٢٠ ليرة » والشيوعية خدعة تفقر الناس ، وهم الذين يبداون المشاكل (صوت زحلة) والشيوعية هي العدو الاول للمسيحية (الانصار) . وجنبلاط هو رئيس الفولكلور التقدمي الرجعي ، الاشتراكي ، الراسمالي ، الاقطاعي المأجور كما تقول نشرة (لبنان ، ابدي ازلي ، سرمدي) ، والشيوعية هي الفساد (التحرير) ... يلاحظ هنا هجوما على اليسار والشيوعية ، لكنه ليس هجوما مركزا ، حتى حجمه في النشرات ليس اكبر من حجم الهجوم على الاغنياء الفارين من بلادهم . ان عدم التركيز على الخطر اليساري ــ الذي يلاحظ مثلا في جريدة العمل ــ هو تعبير عن المحاور الايديولوجية الفعلية التي تحرك الشارع الماروني . فالخطر الاساسي هو الخطر العربي ، الفلسطيني ، الذي قد يكون اسلاميا . ورد الفعل ضده هو رد مسيحي « حضاري او طائفي » لا فرق .

توظف هذه الاتجاهات الثلاثة في تحديد خط سياسي ، او خطوط سياسية ، للدعوة الانعزالية . فالموقف الاجتماعي ــ الفاشي ، الذي تكشفه هذه النشرات ، هو اللون الخلفي من لوحة سياسية . فالطرف الانعزالي ، يقاتل دفاعا عن مجموعة من الرموز السياسية والمواقف العملية ، التي تصب في النهاية في عنوان واحد كبير :

الدفاع عن مصالح القوى المتسلطة على السلطة . اي الدفاع عن امتيازات الطائفة المارونية في السلطة . ويأخذ هذا الدفاع عدة تعابير : الاستقلال ، السيادة ، رفض التدخل الخارجي العربي ، انتظار التدخل الخارجي الامبريالي او الصهيوني ...

ان اهم الرموز السياسية ، التي تدافع عنها هذه الصحف والنشرات ، هو رمز **الجيش** . فالجيش هو الجواد الاخير ، حصن الدفاع الاخير والاساسي عن الاستقلال والسيادة . فالجيش لم ينقسم ولا مرة (لبنان) وهو امل لبنان (لبنان) . وحين يدخل الجيش طرفا في القتال الى جانب الانعزاليين ، فهو يقوم بواجبه ولم يتجاوز حده (صوت زحلة) ، ويجب انزال الجيش ، لان عدم انزاله جريمة (الفداء) ... فالجيش هو رمز السلطة ، الذي تتمسك به النشرات الانعزالية ، وتدعوه الى مزيد من المشاركة في حربها ضد الفلسطينيين والمسلمين . الى جانب الجيش ، تأتي رموز اخرى اقل اهمية : **الدستور** ، الذي لن يمس . فالجيش هو حامي الدستور ، ويجب عدم تعديل الدستور لجهة اجراء اي اصلاح ، فالخطأ ليس في النص بل في التطبيق . ثم تأتي رموز اخرى اقل اهمية : **الجبل** ، **المردة** ، **هنيبعل** ، **قدموس** ... تلعب هذه الرموز دور شد لحمة العناصر الايديولوجية الانعزالية ، وربطها في توجه سياسي اساسي . رفض كل محاولة للتغيير ، والتمسك بالموجود باعتباره افضل الحلول ، ثم الانطلاق من هذا الواقع في سبيل شن هجوم مضاد هدفه تكريس السيادة . يمكننا وضع المحاور الايديولوجية التي يجري التركيز عليها في اتجاهين متكاملين :

١ ــ **السيادة اللبنانية** : هذه السيادة تخرق من قبل الغرباء ، الفلسطينيين . اما تبرير اختراقها من قبل العدو الصهيوني فسببه « تحرش الفلسطينيين باسرائيل » . ان اعادة السيادة تعني تحطيم الثورة الفلسطينية ، وحتى ترحيل الفلسطينيين من لبنان . اما شروط السيادة او الاستقلال ، فهو رفض اتفاقية القاهرة ، وهذا ما تجمع عليه جميع النشرات ، في فترات عدم توجيه ضربات عسكرية مؤلمة للقوى الانعزالية . اما عندما توجه هذه الضربات ، فان اللهجة تتغير . وتصبح سوريا شقيقة ، ويدعي الجميع الحرص على الاتفاقيات . ان موضوعة السيادة ، هي في الواقع محاولة لرسم هدف محدد . فالهجوم الذي تشنه القوى الانعزالية ــ الفاشية ، يحمل هدفا محددا ، هو تصفية الوجود الفلسطيني ، لذلك قوبل اسقاط مخيم الضبيه ، وضرب الكرنتينا ــ المسلخ ، وفرض الحصار على تل الزعتر ، بمانشيتات متفائلة جدا ، وعنيفة ، وتبشر بالنصر . ثم عندما سقطت الدامور ، عادت اللهجة الطائفية لتحتل المقام الاول ، ففي فترات التقدم ، تأخذ القوى الانعزالية ، بحلم احكام سيطرتها على الوضع ، اما في فترات التراجع والهزيمة ، فانها تعود الى اللهجة الطائفية : « فلقد احتلت الدامور ، تحت شعارات اسلم تسلم » ، كما تقول نشرة اللبناني . والمبادرة السورية ، ودخول جيش التحرير تعني احتلالا فلسطينيا ــ سوريا للبنان ، يجب مواجهته . هنا تأخذ المواجهة اكثر من شكل :

ــ الرضوخ للواقع الجديد ، واعتبار سورية شقيقة . ثم محاولة الالتفاف على الواقع الجديد ، والاستمرار في عملية احكام التقسيم ، عبر السيطرة الكاملة على المناطق الانعزالية .

ــ رفض هذا الواقع ، جملة وتفصيلا ، ضمن موقفين :

أ ــ الدعوة الصريحة الى التقسيم . فمانشيت نشرة (جبل لبنان العدد الاول) يقول : « نعم لتقسيم لبنان ، التقسيم اصبح امرا واقعا » . هذا الاتجاه الواضح ،

يجد تبريره في اعتبار الطائفة شبه قومية مستقلة ، لها الحق في تقرير مصيرها بشكل مستقل ، وهو في الواقع تعبير عن هزيمة القوى الانعزالية في تحقيق فهمها للسيادة والاستقلال .

ب ــ رفض الواقع الجديد جملة وتفصيلا ، والاستمرار في الدعوة التصعيدية . وهو اتجاه ضعيف ، يصب في نهاية التحليل في دعوة التقسيم ، دون ان يصرح بذلك .

٢ ــ **التدخل الخارجي** : فيما تجمع النشرات الانعزالية ، على رفض التدخل السوري ، واعتباره جزءاً من مخطط اجنبي لاحتلال لبنان وضرب استقلاله ، فانها تجمع على طلب تدخل الدول الامبريالية لمصلحتها . ينطلق هذا الموقف من الحنين القديم الى الانتداب او الى الجيش الاميركي كما في ١٩٥٨ . هذا الحنين هو تعبير عن واقعين : واقع ايديولوجي ، هو الاحساس بالارتباط بالعالم الراسمالي الغربي المتحضر . فالحضارة الغربية حين لا تنقذ المتحضرين اللبنانيين، فانها ترتكب خطأ اكبر من خطيئتها في فيتنام . وواقع موضوعي يتعلق بسير المواجهة العسكرية لغير مصلحتها ، وبروز اصوات مارونية ــ بكركي ، اده ــ لا توافق على خطة القوى الانعزالية ، وتمهد لشق الصف الماروني في مرحلة لاحقة . لذلك كانت الدعوة الى التدخل الاوروبي ــ الاميركي ، مصحوبة بفجيعة كبيرة من لا مبالاة هذه الدول بالواقع اللبناني ، او وقوعها تحت ضغط العرب . لذلك ركزت جميع النشرات على المغتربين ودورهم المفترض . فاحتلت اخبار تظاهراتهم المؤيدة موقعا هاما في الصحف الانعزالية ، واعطيت حجما اكبر من حجمها الفعلي ، فهي ستضغط على الرئيس فورد . وجرت محاولة لاعطائها دورا مشابها لدور الصهاينة في الولايات المتحدة .

هكذا تفهم السيادة والاستقلال . فلبنان ، المعقل الحضاري ، المهدد ، لا ينقذه الا عمل مزدوج : نضال اللبنانيين وقتالهم ضد الغرباء المحتلين ، وقيام العالم « الحر » بواجبه في دعم هذا القتال .

الطريف ، ان جميع النشرات تجمع على الموقف هذا ، وتاسف لعدم تدخل دول اجنبية في الازمة او تنتظر تدخلا اسرائيليا لا ياتي ، لانقاذ وضع الانعزاليين ، الذي بدأ انحداره الشامل بعد معركة الدامور .

ان المحور الايديولوجي المركزي ، الذي تحاوله هذه النشرات يتلخص في ٧ عوامل :

ا ــ التاكيد على الانتماء اللبناني ــ الحضاري .

ب ــ العمل للتقسيم ، دون التصريح بذلك .

ج ــ الدعوة لتصفية الوجود العربي في لبنان ، ورفض انتماء لبنان العربي .

د ــ بعث الروح القتالية في المردة الجدد .

هـ ــ التاكيد على انتماء لبنان للغرب ، وللحضارة الحديثة التي لم يستطع العرب والمسلمون استيعابها .

و ــ العدو الرئيسي ليس الصهاينة بل الثورة الفلسطينية .

د ــ التمسك بالامتيازات الطائفية ، التي تكرسها التركيبة اللبنانية .

يقودنا هذا المحور الى استنتاج اساسي ، هو ان هذه النشرات هي تعبير عن

محاولة خلق اطر فاشية مسيحية ، تتصدى للمد العربي في لبنان ، دون ان تأخذ في عين الاعتبار بشكل دقيق لتغير ميزان القوى الدولي والعربي لغير صالحها . او هي محاولة لرفض معنى تغير ميزان القوى ، الذي عبرت عنه حرب تشرين ، واحتلال الثورة مواقع متقدمة عربيا ودوليا .

٣ ــ التوجه العام

ان دراسة المحاور الايديولوجية ، ووضعها في اطارها السياسي ، يقود بالضرورة الى محاولة اعادة دراسة تفصيلية جزئية للنشرات الانعزالية . تخدم هذه الدراسة التفصيلية في كشف توجه عام ، هو قاعدة الخط السياسي الذي يقود ممارسة سياسية وعسكرية معينة . فعندما ندرس طبيعة التوجه نحو القارىء ، واللغة الخاصة ، والمسبقات والاطر المرجعية ، فاننا نستطيع صياغة التوجه التفصيلي في قاعدته . اي ان اعادة دراسة التوجه الايديولوجي ، تهدف الآن الى اكتشاف ثوابت النص في النشرة الانعزالية .

أ ــ طبيعة التوجه نحو القاريء

ان جميع هذه النشرات تتوجه الى قاريء ماروني مسيحي تحديدا . فهي بحكم حقائق الحرب الاهلية اللبنانية . لا تستطيع ان تتوجه الى قاريء في الطرف المقابل . لذلك فلا وجود لاعلام مضاد في صفوف العدو ، او لا تضطر لاخفاء طابعها الصارخ وتغليفه بلغة ملطفة . نستطيع ان نكشف هذا التوجه من خلال مجموعة من التوجهات :

١ ــ **الرموز المسيحية** الدينية والاجتماعية التي تجري العودة اليها دائما . فالعجائب ، والصليب ، والله هي مجموعة من الرموز الدينية او شبه الدينية ، لا يمكن ان تكون موجهة الا لقاريء مسيحي تعني له هذه الرموز اشياء محددة . غير ان الشيء الاساسي في الرمز الديني هو الرمز الاجتماعي . اي الافكار المشتركة ، او العناصر الايديولوجية الخاصة ، التي تميز الطوائف المسيحية عن غيرها . فجميع الرموز **التاريخية** المستعملة : المردة ، هنيبعل ، قدموس ، هي رموز مارونية . تستعمل عادة كاطار تاريخي لمجموعة من سكان لبنان . لا تعترف بها المجموعات الاخرى . كما ان رمز **الجبل** الذي يتكرر تقريبا في جميع النشرات ، اصبح فعليا ، وفي الايديولوجيا الشعبية رمزا مسيحيا . اما الرموز السياسية الاساسية التي يجري التركيز عليها ، وخاصة **الدستور** لجهة عدم مسه او تعديله ، هي في الواقع قناعة الخوف المسيحية من اي تغيير فعلي .

٢ ــ **التحريض ضد المسلمين** . يأخذ التحريض ضد المسلمين ، طابع الطعن في لبنانيتهم وانتمائهم الى الصيغة اللبنانية . من هنا ، يأتي التشبث بلبنان وبالصيغة اللبنانية ، وكأنه موجه ضمنيا ، ضد المسلمين ، والعرب الذين ينعتون بصفات محددة ، همج ، شعوب لا تستحق هذه التسمية ، كذابون ... وهي تسميات مأخوذة من قاموس شبه شعبي متداول . وعندما يجري التحريض ضد الفلسطينيين والعرب، فهناك تعابير مشتركة تستعمل للدلالة عليهم ، الغريب ، اللاجيء ... اما التعابير التي تشير الى المسلمين فانها اخف وطأة . **الاخوان** ، هي الكلمة التي تستعمل عادة للاشارة الى المسلمين .

٣ ــ **التحريض ضد الفقراء** . هنا ، يأخذ الطابع الطائفي وجها عنصريا . فالتركيز ضد المسلمين والعرب والفلسطينيين ، يبقى ضمن القاموس الاجتماعي الطائفي . اما هنا، فيجري استعمال تعابير عنصرية ، فاشية ، تحمل الاحتقار الى جانب الكراهية. والخلفية الواضحة التي تختفي خلف هذا الشكل من التعابير هي احتقار المسلمين ، وخلق راي عام طائفي معاد لاسباب عنصرية طائفية .

ب ــ اللغة الخاصة

تحاول هذه النشرات ، صياغة لغة خاصة بها اي صياغة مجموعة من التعابير والجمل التي تشير الى معان متفق عليها . واذا استطاعت ان تخلق مجموعة من الكلمات ذات المعاني الموحدة والتي تشير الى الفلسطينيين اساسا ، فانها فشلت في صياغة لغة ايديولوجية ، تخرج عن اطار لغة ايديولوجية مفتتة . وهذا يعود الى الطابع الحرفي الذي لهذه النشرات . فهي ليست صحفا ، بالمعنى الحقيقي ، انها مجرد محاولات لتغطية نقص اعلامي بالتي هي احسن . لذلك فهي تحاول وعبر النشرتين الاكثر جدية (اللبناني ، لبنان) التركيز على مسالة اكتشاف لغة خاصة ، تتمثل اساسا في محاولة ادخال اللهجة العامية ، في سياق النشرة . ورغم ان هذه المحاولات تبقى غير منسقة . ففي (اللبناني) هناك المقابلات مع الذين اصيبوا او تضرروا بالاحداث الدامية ، تستخدم اللهجة العامية ، وبعض مقالات لموريس عواد (شاعر باللغة العامية) تنشر في النشرتين على حد سواء . اما في لبنان ، فتأخذ المحاولة طابعا جزئيا ، ويتخلى سعيد عقل مؤقتا عن « لغته اللبنانية وحرفه اللاتيني» ولا يلجأ الى اللهجة العامية ، الا حين ينشر نص قسم حراس الارز . ثم يستعمل تعابير اصبحت هي التعابير المستعملة في جميع النشرات ، غرباء ... او تلجأ نشرة لبنان الى كلمات مفبركة على طريقة كمال الحاج ، دون ان تستطيع هذه التعابير ان تشكل وجها خاصا للنشرة او لنشرات اخرى . وهناك تعبير ثابت يستعمل للدلالة على المسلمين في جميع النشرات تقريبا وهو الاسلام كجمع لكلمة مسلم ، وهو تعبير يقصد به الاحتقار اساسا .

في المقابل ، تستخدم تعابير مستعارة من القاموس الوطني ، اي من قاموس القوى الوطنية ، لم تكن القوى الانعزالية تستعملها : النضال ، الفداء ، الشهداء ... وهي تعابير تشحن هنا بنبرة فاشية واضحة ، وبتمجيد القتال . هنا تجري صياغة لغة خاصة متكاملة تتعلق بالبطولات التي يقوم بها المقاتلون الانعزاليون ، وتحث على الالتحاق بالقتال .

ج ــ المسبقات

ان اللغة الايديولوجية الفجة ، التي تستعمل في غالبية هذه النشرات ، تفترض قارئا مقتنعا سلفا ، لذلك لا تلجأ الى حيل اللغة ، لفرض مسبقات معينة بشكل معين. فاذا راجعنا بعض مانشيتات هذه الصحف ، فاننا نعثر على فجاجة من نوع :

- نار وغير نار على جبهات عشر (لبنان عدد ١٣)
- وحدها مصارف لبنان ستنهض بلبنان (لبنان عدد ٤٠)
- ماذا تنتظر يا سليمان لانزال الجيش (وطني عدد ٤)
- جوانب مثيرة من حياة الشيخ بيار الجميل (الاولى عدد ١)
- فريش : سنقاتل حتى آخر ماروني (الصمود عدد ٣)

- مشاعرنا ملك الانتقام (المردة عدد ١)
- مذابح في الجية والدامور والمشرف (التحرير عدد ٨)
- غباء دول النفط يدفع لبنان الى الشيوعية (الانصار عدد ٢)
- بعد اتفاقها على اقتسام العالم الى مناطق نفوذ : مخطط اميركي سوفياتي ينفذ على ارض لبنان . (اللبناني عدد ٣)

تشير هذه النماذج المختارة بشكل عشوائي تقريبا من عناوين عشرات النشرات ، التي تصدرها القوى الانعزالية ، الى حقيقتين :

١ — الشكل غير الجدي والبالغ الوضوح في النص الايديولوجي ، الذي يأخذ عنصره الغالب في الكلام الشعبي البرجوازي الصغير ، الذي يفترض مؤامرات دولية غير موجودة او تطرح بشكل كاريكاتوري ، او بالتصعيد اللفظي ، والكذب في بعض الاحيان .

٢ — العودة الى مسبقات « شعبية » ، تفترض الطائفة هي الوحدة الاساسية ، ولبنان ضمن فهم معين ، طائفي له . لذلك ، تقدم هذه الصحف بوظيفة اعلامية مباشرة ، تحريضية . ويأخذها تحريضها شكلا مباشرا ، يتركز حول تمجيد القتال ، والتبشير بالنصر .

من هنا ، تتركز الاطر المرجعية في هذه النشرات بابعد الطائفي . لكنه بعد طائفي حديث . الطائفية التي يجري التبشير بها ، ليست طائفية طائفة مستضعفة . انها طائفية تعي تماما اهدافها ، لذلك تستخدم تعابير جديدة ، وتركز على مفاهيم ، لا يلعب العنصر الديني فيها الا دورا غير مباشر .

اما التواقيع ، او اسماء كتاب المقالات ، فانها بالغة الطرافة والدلالة . فهناك القليل من الاسماء الصريحة : سعيد عقل ، موريس عواد ، مي المر ، ميشال فضول ، بشارة برشا رينه عبدالملك . او نصف الصريحة : سامية ، اما بقية الاسماء فتحمل دلالات طريفة . ففيما تصدر نشرة (لبنان) على اسماء تاريخية ايل ، اليسا ، فخر الدين ، سليل المردة ، تأخذ تواقيع نشرة لبنان معنى آخر . اسماء مستعارة فقط : النهر ، الحكيم ، اللبناني . اما في (الانصار) فهنا كمحاولة لانتحال اسماء اسلامية وفلسطينية : فلسطيني ، طارق . مع اسماء لبنانية صرفة : عملاق الجبل ، مناصر . واكثرية المقالات تنشر غفلا من اي توقيع في اكثر النشرات . لكن هناك ملاحظة اساسية ، فاغلبية هذه النشرات تحرر من قبل عدد قليل جدا من المحررين ، قد يصل الى محرر واحد فقط . وهذا يدلل على طبيعتها الحرفية غير الجدية ، وعدم قدرتها على الاستقرار ضمن خط سياسي واضح . لذلك يأتي التحريض السياسي يحمل رواسب ايديولوجية عامة ، اكثر مما يحمل توجيها سياسيا برنامجيا . لذلك بقيت السيطرة السياسية للحزبين الكبيرين ، مع محاولة حراس الارز ، دون كبير نجاح اختراق هذا التوجه ضمن دعوة علمانية ، عوملت كما تعامل دعوة مثالية ، لا ضرر منها ، طالما توظف في خدمة الهدف السياسي العام .

لقد حاولنا ، ان نقرأ هذه النشرات ، ثلاث قراءات متكاملة . والاستنتاج الاساسي الذي نخرج به يتحدد اساسا في ثلاث نقاط .

١ — محاولة خلق اتجاه فاشي مسيحي . يستعير جميع عناصر الايديولوجية الفاشية . يركز مسألة الاخلاص لوطن مفترض وضرورة المحافظة على استقلاله .

٣ ــ الدعوة الى نسق شبه قومي ، مسيحي ماروني ، يقود في النهاية الى ضرورة التقسيم ، باعتباره الحل الجذري .

ان هذه النقاط ، هي آخر نقاط الدفاع عن مواقع الامتيازات الطائفية ، الذي يأتي المد الوطني ، الممثل بالثورة الفلسطينية ، ليزعزع اسسها ، حين يستقطب الاغلبية الساحقة من الجماهير . فالدعوة الفاشية « المارونية » ، هي آخر خشبــة خلاص تحاولها الفئات المتسلطة لتحافظ على تسلطها . لكن هذه الفاشية هي فاشية صغيرة. فاشية لا تأخذ بعين الاعتبار انقلاب ميزان القوىبشكل جذري ضد مصالحها . فتأتي فاشية صغيرة ، فاشلة منحطة . تلجأ الى احقر الاساليب واشدهــا غباء لتمارس سيطرة يزعزعها الواقع ، ولتفرض ايديولوجية ، لا تزيد الا في قوقعة الاقليات ودفعها الى الهاوية .

مجرد فاشية صغيرة ، لا خوف منها على المدى الاستراتيجي ، لانها خارج حقائق الواقع الموضوعي . لكنها في المقابل ، خطرة على المستوى التكتيكي ، تستطيع جــر البلاد الى حرب أهلية . لكنها لا تستطيع ان تحقق النصر .

حول الازمة اللبنانية : عرض وتقييم للمسار السياسي للاحداث وخطوط سير القتال (الحلقة الاولى)

نواف عبد الله

منذ معركة كفرشوبا ★ (كانون الثاني ١٩٧٥) واحداث صيدا (شباط ــ اذار ١٩٧٥) والثورة الفلسطينية تواجه مؤامرة استعمارية ــ رجعية في لبنان ، بدات تكشف عن نفسها في مسلسل مذكرات بيار الجميل وتحرك بعض جيوب القوى المضادة اللبنانية ، لتتفجر في صراع مسلح بعد مجزرة عين الرمانة (١٣ نيسان ١٩٧٥) . **وقد اتي تحرك القوى المضادة للثورة هذا من ضمن الخط العام لسياسة الاستعمار الاميركي الهادفة الى اخضاع المنطقة العربية للهيمنة الاميركية وتصفية القضية الفلسطينية وتمرير مشاريع التسويات الاستسلامية وذلك من خلال :**

ا ــ اخراج مصر العربية من دائرة الصراع العربي ــ الصهيوني وانتزاع اقصى التنازلات الوطنية والقومية منها .

ب ــ « تعريب » (على غرار الفتنمة) الصراع العربي ــ الصهيوني ، اي دفع العرب الى ضرب بعضهم البعض وذلك بتعزيز وانعاش الجيوب الاميركية .

ج ــ **محاولة تحجيم وعزل الثورة الفلسطينية سياسيا وتوجيه الضربات العسكرية المتتالية لها** بهدف ارغامها على الرضرخ لمنطق التسوية وشروطها الاميركية ــ الصهيونية القاضية بالتعامل مع القضية الفلسطينية من خلال النظام الاردني العميل وعبر مقترحات « حلول » لا تخرج في محصلتها عن جوهر مشروع **« المملكة العربية المتحدة »** .

ومع النجاحات التي اخذت تحرزها سياسة الخطوة ــ خطوة الكسنجرية وما ينتج عنها من تنازلات وطنية عربية على حساب الحقوق القومية في فلسطين وسائر

★ ترتكز هذه المقالة ، في حلقتيها ، على عدد من الكتابات التي وضعتها خلال بعض مراحل الازمة اللبنانية وذلك من ضمن الجهود العامة التي بذلت للوقوف على حقيقة الصراع الدائر على الساحة اللبنانية وطبيعة اطرافه . كما ان هذه المقالة تشكل خلاصة ما قدمته في ندوتين عقدتا في مركز التخطيط خلال النصف الثاني من شهر كانون الاول ١٩٧٥ .

الاراضي العربية المحتلة ، راح الاستعمار الاميركي يدفع لان تتحول الساحة اللبنانية الى مسرح لتصعيد المواجهة مع الثورة الفلسطينية بهدف تضييق الخناق عليها واحداث تغيير حاسم في السلطة السياسية اللبنانية لمصلحة الخط الاميركي .

وسنحاول في عرضنا هذا استرجاع الاحداث الرئيسية التي شهدتها الساحة اللبنانية خلال الاشهر الممتدة من معركة كفرشوبا (كانون الثاني ١٩٧٥) الى زيارة الرئيس فرنجية الى دمشق (شباط ١٩٧٦) . ولعل هكذا مراجعة تحليلية لتتبع الاحداث بما توفره من عناصر تسمح ببناء رؤية شاملة للمراحل المختلفة التي قطعتها المؤامرة الاستعمارية في لبنان ، تقودنا الى :

أ ــ تحديد اكثر دقة لعقد ترابط الاحداث ودلالاتها .

ب ــ فهم اعمق لعلاقات الصراع والتحييد والتحالف التي تحكم القوى السياسية المختلفة للتشكيلة االبنانية وذلك عبر اعادة قراءة التكتيكات والمناورات السياسية التي اعتمدتها هذه القوى في كافة حلقات الصراع .

ج ــ استكشاف العلاقة القائمة بين الخطوط العريضة لسير القتال والمسار السياسي للاحداث من خلال العودة الى الاهداف والمهمات التكتيكية التي وضعتها لنفسها كل من القوى المتصارعة في المراحل المختلفة التي عبرتها الازمة .

ونقسم الحقبة الممتدة من معركة كفرشوبا الى زيارة الرئيس فرنجية الى دمشق واعلانه الوثيقة الدستورية الى ثماني مراحل سياسية دنيا ، وذلك وفقا لحدوث متغيرات سياسية تؤدي الى ادخال تعديلات على الاهداف التكتيكية واسلوب ادارة الصراع لدى كل من القوى المتصادمة . وهذه المراحل الدنيا الثماني هي :

١ ــ من مسلسل الاعتداءات الصهيونية على جنوب لبنان الى مجزرة عين الرمانة .

٢ ــ مجزرة عين الرمانة : نتائجها المباشرة وابعادها السياسية .

٣ ــ اشتباكات تل الزعتر ــ الدكوانة واعلان الحكومة العسكرية .

٤ ــ من تجدد الاشتباكات المسلحة وصولا الى تشكيل الحكومة السداسية .

٥ ــ من تشكيل الحكومة السداسية الى احداث زحلة ــ السهل وطرابلس ــ زغرتا .

٦ ــ احداث زحلة ــ السهل وطرابلس ــ زغرتا .

٧ ــ اتفاقية سيناء وتجدد القتال في العاصمة او مرحلة اكتساب الحرب الاهلية ابعادها الداخلية والخارجية . (من منتصف ايلول ١٩٧٥ الى نهاية كانون الثاني ١٩٧٦) .

٨ ــ الوساطة السورية وسقوط حلقة جديدة من حلقات المؤامرة الاستعمارية ــ الانعزالية .

١ ــ من مسلسل الاعتداءات الصهيونية على جنوب لبنان الى مجزرة عين الرمانة:

شكلت معركة كفرشوبا (كانون الثاني ١٩٧٥) قمة التصعيد في مسلسل الاعتداءات

الصهيونية المتواصلة التي شهدها الجنوب اللبناني على امتداد النصف الثاني من عام ١٩٧٤ ، حيث تميزت هذه الاعتداءات بالسمات التالية :

١) قصف مدفعي مستمر لقرى الجنوب الامامية دونما تعليل ذلك القصف بعمليات الفدائيين .

٢) قصف مدفعي بعيد المدى لبعض المناطق البعيدة نسبيا عن الحدود .

٣) اللجوء الى القصف الليلي للمناطق الداخلية في الجنوب (النبطية ، الرشيدية).

٤) استخدام الزوارق البحرية في القصف وبشكل اوسع مما سبق .

٥) اقتحام بعض القرى الامامية ونسف عدد من المنازل وخطف بعض المواطنين اللبنانيين »

وان كانت كل هذه العمليات ، من وجهة **اهدافها العسكرية المباشرة** تنضوي تحت تحرك تكتيكي واحد يرمي من خلال القصف شبه اليومي لخطوط السير وتحرك الدوريات او محطات العبور وقرى التجمع الى تأخير عمل وحدات المقاومة العسكرية وارباكها كأحد جوانب محاولة العدو لاتمام اغلاق الحدود الشمالية للارض المحتلة (علاوة على سلسلة الاجراءات والاستعدادات المتخذة داخل المناطق المحتلة المتاخمة للحدود : السياج الامني ، تعزيز الدوريات تشكيل الحرس المدني داخل المستوطنات، الاسلاك المكهربه ، حقول الالغام ، مراصد المراقبة . . .) فان **الوجه الرئيسي** لسياسة الاعتداءات المتواصلة هذه بما ارتكزت عليه من اشكال ارهابية كالخطف والنسف والتدمير (عمليات يارين ، الطيبة ، عيترون ، مجدل زون ، كفرشوبا) **هو الابقاء على ضغط سياسي يومي على السلطات اللبنانية** من خلال وطأة النزوح الناجمة عن الاعتداءات والنتائج الداخلية التي راحت تترتب على تعرض مدن ومواقع سكانية لبنانية للقصف المستمر . فيبدو اذن ان مسلسل الاعتداءات المتواصلة الذي بلغ ذروته في معركة كفرشوبا ، قد مثل الركن الاساسي في سياسة « **الردع المتدرج** » التي يمارسها العدو الصهيوني تجاه لبنان ، حيث ان الخط الاستراتيجي العريض لحرب العدو مع الثورة ارتكز دوما (حرب الايام الاربع ، اعتداء ١٦ ــ ١٧ ايلول ١٩٧٢ ، عمليات الكوماندوس المستمرة) على النقطتين التاليتين :

أ ــ استعداء السلطة في لبنان على الثورة . (مثال الاردن) .

ب ــ خلق التناقض بين فئات من الشعب في لبنان وبين الثورة الفلسطينية وتصعيد هذه التناقضات الى مرحلة الصدام المسلح .

وكان كل من قادة العدو الصهيوني والاستعمار الاميركي قد اعربوا مرارا طوال الاشهر التي سبقت احداث صيدا وجريمة عين الرمانة عن قلقهم من الانفراج الذي يسود علاقات السلطة اللبنانية بالثورة ونمو الارتباطات السياسية العربية (خاصة السورية ، لقاء فرنجية ــ الاسد في شتورا) للبنان الرسمي ، وذلك اثر التراجع الذي فرضته حرب رمضان على القوى اللبنانية المضادة وبعد تكليف مؤتمر الرباط الرئيس فرنجية التحدث باسم المجموعة العربية اثناء عرض قضية فلسطين على الجمعية العمومية للامم المتحدة . واخذ العدو الصهيوني يواكب اعتداءاته المتواصلة على جنوب لبنان بسلسلة من « التهديدات » و « التحذيرات » التي اطلقها بوجه السلطات اللبنانية داعيا اياها الى ممارسة « **سيادتها** » والمحافظة على « **استقلال**

لبنان » والتمثل بالدور الذي لعبه الملك حسين في ايلول ١٩٧٠ . وقد اشار بيرس ، وزير حرب العدو ، صراحة الى هذه السياسة ، خلال معارك كفرشوبا ، اذ قال : « **ان الاردن فهم المسألة عام ١٩٧٠ ، ولذلك فعلى لبنان ان يفهم هو الاخر ، ويستخلص النتائج »** . ويضيف بيريس نفسه في تصريح اخر : « ان معظم العمليات التي نقوم بها هي بالتأكيد عمليات محسوبة ، الى الحد المطلوب ، لضمان امن مستوطنات الشمال والى حد دفع لبنان للتصرف كدولة ذات سيادة . » (ر.١٠.أ ١٥/١/٧٥) .

فاذا كانت هذه هي الاهداف الفعلية للاستعمار والعدو الصهيوني ، فما هي القوى اللبنانية التي يراهن العدو الصهيوني على رضوخها **لابتزازه السياسي** او ما هي اساسا المواقع التي تسعى السياسة الاميركية الى التحرك منها ومن خلالها للتأثير على الوضع العام في لبنان ؟ سيما ان التشكيلة السياسية اللبنانية تمثل **عقدة** تتجمع فيها التناقضات الدولية والعربية فضلا عن تناقضاته المحلية والتي هي بدورها تعكس الى حد ما مصالح وامتدادات سياسية خارجية ، خاصة عربية .

يتحرك الاستعمار الاميركي من خلال ربطه لمجموعة من العلاقات **الاقتصادية والسياسية** — القائمة اساسا على قاعدة تبعية التشكيلة اللبنانية — مع مراكز وقوى اجتماعية وسياسية متنوعة ومتفاوتة في آن ، ولكنها تلتقي ومصالحه على اكثر من صعيد ، وان كان ذلك يتم بدرجات متفاوتة ايضا . وفي مقدمة هذه الروابط نجد :

١ — علاقات واسعة بمجموعة من القوى والشخصيات السياسية حيث يتميز نمط العلاقة ومقدار التبعية وشكلها بحسب مستوى تطابق مصالح هذه القوى وخط الاستعمار من ناحية وبأمكانية الاستعمار الاميركي على تلبية متطلباتها المحلية ووضعها ضمن عجلة سياسته من ناحية اخرى . ومن بين هذه القوى ، نجد تلك التي ورثها الاستعمار الاميركي عن حالة تقلص المصالح والروابط البريطانية في المشرق العربي (مثال شمعون وحزب الوطنيين الاحرار) وحالة انحسار النفوذ الفرنسي في لبنان . (وقد يكون هذا الوضع هو الذي قاد البعض الى التصور خطأ بان شمعون يمثل خطا « اوروبيا » في السياسة اللبنانية) .

ويحتل حزب **الكتائب اللبنانية** المرتبة الاولى بين هذه القوى حيث انه يلتقي تاريخيا ومصالح الاستعمار سواء من حيث **بنيته الطائفية** الصرفة وتجنيده الجماهير المسيحية على **قاعدة الدفاع عن الامتيازات السلطوية المارونية** ، او من جهة **نهجه السياسي الانعزالي** الطائفي المعادي للعروبة ولتواجد الثورة الفلسطينية على الاراضي اللبنانية . اذ ان الكتائب بما تمثله من سياسة محافظة — رجعية تنعكس اول ما تنعكس في « **فاشية** » تنظيمها ونمط استقطابها الحزبي ، ولما تروج من **افكار شوفينية** ترتكز على تنمية عقدة الخوف عند المسيحيين ، وصولا الى تبني موضوعة « **الامة اللبنانية** » والدعوة الى « **الحياد اللبناني** » ، فهي ترى في تواجد الثورة الفلسطينية على الاراضي اللبنانية **اخلالا بموازين القوى الداخلية** لصالح الاتجاهات الوطنية والعروبة كما ترى في الكفاح المسلح الذي تقوده الثورة ضد دولة الاحتلال الصهيوني نقضا ماديا للانعزالية اللبنانية التي راحت تتستر وراء شعار « **قوة لبنان في ضعفه** » ، ودفعا للبنان باتجاه الارتباط بالمصير العربي الموحد والالتزامات القومية التي طالما حاولت الانعزالية اللبنانية الانفلات منها . وتتعزز قاعدة المصالح المشتركة هذه التي تجمع الكتائب بالدوائر الاستعمارية ، « باكتساب » الكتائب (كما هي حال حزب الاحرار) **تمثيلية سياسية متنامية لاوساط الكومبرادور اللبناني ، ذات الصفة**

المسيحية الغالبة اصلا (وتتضح هذه السمة في مراجعة سياسة التحالفات النيابية لعامي ١٩٦٨ و ١٩٧٢ .) وهو العامل نفسه الذي ادخل القسم الاكبر في اركان الكتائب كشركاء صغار (اعضاء مجلس ادارة ، محامين) **في عدد من شركات الاستثمار والمؤسسات المصرفية** . ومنذ بداية **نشاط منظمات الثورة الفلسطينية في لبنان** وحزب الكتائب يمارس التعبئة والتحريض والدعوة الى **الحزم تجاه العمل الفلسطيني** . (دعوات الحلف الثلاثي الى التحييد والتدويل ، بيان ٦٢ **ايلول ١٩٦٩** ، بيان ٤ **نيسان ١٩٧٠** ، **تصريح الجميل الى العمل بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٧٠ ، مذكرة** الجميل الى مجلس الوزراء حول العمل الفدائي بتاريخ ٥ حزيران ١٩٧٠) . اما من جهة الاستعمار الاميركي فانه قد بنى لحسابه عملاء مباشرين من بين قادة الكتائب ، كما عمل ومنذ احداث ايار ١٩٧٣ على **تطوير علاقته بهذا الحزب عموما عبر امداده بالمال** والسلاح والعتاد والخبراء والمدربين من خلال كل من **ايران والنظام الاردني بشكل** رئيسي .

٢ ــ مقدرة الاستعمار الامريكي من خلال التقاء مجمل هذه المصالح السياسية وتضافرها على التأثير في القرارات السياسية للسلطة التنفيذية في لبنان نتيجة اكتساب النفوذ لدى **رئاسة الجمهورية** .

٣ ــ نفوذ الاستعمار الاميركي داخل مؤسسات النظام اللبناني : **القطاع المصرفي** ، اجهزة التربية والتعليم . . . **وخاصة الجيش** (اسكندر غانم) .

هذا من حيث مراكز النفوذ والهيمنة الاميركية داخل لبنان، اما من حيث توجه القوى المضادة اللبنانية **فبعد انتكاسها في حملة ايار ١٩٧٣ ومن ثم التراجع الذي فرضته** عليها حرب رمضان ، فانها اخذت تزاوج بين رفع مستوى القوى **الذاتية (جيش + مليشيات) ارتكازا على الدعم الاميركي ــ الاردني للدخول في معركة الحسم مع الثورة الفلسطينية ، وبين التعويل على مقدرة الانظمة العربية على الوصاية على الثورة الفلسطينية وطلب التنازلات منها لحساب السلطات اللبنانية.** وبالرغم من الدور المتنامي الذي اخذت تكتسبه الميليشيات الطائفية ــ بعد احداث ايار١٩٧٣ ،فان النهج الذي اخذ يسلكه «عرب التسوية» في مصر خاصة ، (بعد اكتوبر ١٩٧٣) جعل الانعزالية **اللبنانية تبقي رهانها على كلا الوجهتين ، حيث برزت ، والى جانب الاستعدادات العسكرية المستمرة ، برزت تلك الدعوة الرسمية اللبنانية (خطاب نصري المعلوف في مجلس الدفاع العربي ، تموز ١٩٧٤) الى ضرورة اعتماد « استراتيجية عربية موحدة » وان « تشارك بها المقاومة وتلتزم بها » ، بمعنى ان تجمد الثورة الفلسطينية** عملياتها من جنوب لبنان وان تبدأ مسيرة التنازل عن مكتسباتها العسكرية والسياسية **في لبنان تمشيا مع صمت المدافع على الجبهات العربية ومع ازدياد « الثقة » بخطوات** « الساحر كيسنجر » . (وهو ما درج البعض على اعتباره خطأ ، تفيبرا لغير صالح **الانعزالية فيما اسموه «المحصلة السياسية للسلطة السياسية في لبنان متمثلة اساسا** برئاسة الجمهورية حيث حالت هذه المحصلة بعد حرب تشرين وحتى الان الى انتهاج **سياسة انفتاح عربي واسع » .) وبقي هذا الرهان المزدوج قائما دون حسم لصالح سياسة على اخرى حتى معارك كفرشوبا وانتهاء مجلس الدفاع العربي الاخير** (شباط ١٩٧٥) الى الفشل . وكان الجميل قد ناشد المجلس المذكور بان يبدأ النظر «في الدفاع عن لبنان والمقاومة من نقطة الفوضى التي يتخبط فيها هذا الدفاع . . .واي **دفاع سيكون هذا اذا بقيت الجبهة هكذا سائبة . » (٣٠/ ١/ ٧٥) .**

فمن هذا المنظار بالذات ، **شكلت معركة كفرشوبا نقطة فاصلة في معطيات الصراع**

الدائر ، وراحت بعدها معالم المؤامرة الانعزالية ــ الاستعمارية تتضح اكثر فأكثر .

فمن جهة اولى ، عزز الانتصار المنتزع من العدو الصهيوني في معركة كفرشوبا ، الوضع العام للثورة الفلسطينية بوجه الضغوط اللبنانية الرسمية التي كانت تمارس عليها ، كما **فجر حالة وطنية عارمة** على الساحة اللبنانية ، تجسدت في الزخم الذي حصلت عليه المبادرات السياسية المختلفة التي تمت تحت شعار « **دعم كفرشوبا وصمود الجنوب** » هذا الزخم الذي فاق كل تقدير والذي قاد الى فتح ملف السياسة الدفاعية اللبنانية على كافة المستويات الشعبية والرسمية .

وبالمقابل شكلت نتائج معركة كفرشوبا ، وخاصة لجهة انعقاد مجلس الدفاع العربي وفشله ، بداية تحرك جديد للقوى المضادة اللبنانية بدأت تتضح معالمه مع الوقائع التالية : ــ محاولة دخول الجيش اللبناني بلدة كفرشوبا خلال المعارك للحلول مكان قوات الثورة ، وثم طلب بعض التنازلات من الثورة الفلسطينية على حساب تمركزها وحرية حركتها في بعض مناطق الجنوب .

ــ المذكرة التي رفعها الشيخ بيار الجميل بتاريخ ٧٥/١/٢٤ الى رئيس الجمهورية اللبنانية ، داعيا فيها الدولة اللبنانية الى « استرداد سيادتها على كامل الاراضي اللبنانية ... وتطبيق القانون .. ووقف التساهل مع المقاومة . ــ واعتبار اسرائيل الرابح الاكبر من التنازلات التي تقدمها السلطة اللبنانية للمقاومة» .وقد اعلن كميل شمعون عن تبنيه للمذكرة المعنية كما انه رافق الجميل في زيارته الى القصر لتقديمها .

ــ الاعلان عن مذكرة اعدها كامل الاسعد ونوابه بغية رفعها الى مجلس الدفاع العربي للمطالبة بما يسمى « تجميد العمل اللفدائي في لبنان » . (وقد وضعت المذكرة ولكنها لم تنشر علنية .

ــ افتعال حادثة مدبرة عن حاجز صف الهوا بين الجيش ودورية من قوات الثورة، واستثماره للاعلان عن عزم الدولة على ضبط الامن وحالة الانفلات في البلاد بهدف ابتزاز بعض التنازلات من الثورة ، كما ان بعض الجبهات المتامرة حاولت استغلال الحادثة نفسها لجهة الايحاء بأن الصدام حصل بين احدى المنظمات التابعة « لجبهة الرفض » والجيش من اجل تكرار صيغة « الفدائي الشريف» و «الفدائي غير الشريف» بلباس « الفدائي المنضبط » و « غير المنضبط » اي التابع « لجبهة الرفض » .

وقد حاولت القوى اللبنانية المضادة في بداية تحركها هذا الاستفادة من العوامل التالية :

ــ دقة التوازنات التي كانت تحكم وزارة رشيد الصلح ، **وضعف الصلح داخل موازين القوى العامة في السلطة** (**مثال ذلك اضطراره للتراجع عن عدد من التصريحات** التي كان قد ادلى بها بشأن السياسة الدفاعية .)

ب ــ **تردد الزعامات الاسلامية التقليدية في التصدي للكتائب وتغليبهم لاعتباراتهم التكتيكية الهادفة الى الاطاحة بحكومة الصلح** على اي عمل اخر ولو اقتضى ذلك وبشعوذة فريدة استخدام مذكرة الجميل نفسها للتشهير بشخص رشيد الصلح كرجل « صف ثاني » !

ج ــ غلبة الترقب والصمت في تحرك الامام موسى الصدر عشية انتخابات المجلس الشيعي الاعلى مما سمح ببروز صوت شيعي كصوت المفتي الجعفري الممتاز في مؤتمر

البوريفاج يطالب بحصر نشاط الثورة في احدى مناطق الجنوب وعودة الجيش الى القرى الحدودية وانشاء « حرس حدود » باشراف الجيش .

وفي سياق هذه المؤشرات الاولية على اهداف التحرك الانعزالي الجديد ، اتت « احداث صيدا » (من التصدي لمظاهرة الصيادين واصابة المناضل معروف سعد في ٢٦ شباط الى استقالة مالك سلام وطلبه اقالة اسكندر غانم حتى استشهاد معروف سعد في ٦ اذار ومن ثم تجميد الصراع) لتسمح بالجزم حول هوية التحرك المضاد واهدافه وابعاده . وقد سعت القوى المضادة في حقبة الصراع التي عرفت بأسم « احداث صيدا » الى تحقيق ما يلي :

— ارهاب الحركة الوطنية في الجنوب والتضييق عليها خاصة بعد تنامي المد القومي باتجاه الثورة الفلسطينية اثر معركة كفرشوبا وازدياد الضغط الشعبي من اجل انتهاج سياسة دفاع وطني .

— ارهاب الحركة الشعبية ودفعها للتخلي عن النضال من اجل حقوقها ، وتشديد قبضة الدولة على المناطق التي اخذت تتفلت من تحت سلطتها .

— جر الثورة الفلسطينية الى صراع داخلي مفتوح نظرا للتشابك الفلسطيني — اللبناني في صيدا .

الا ان الانقسام الذي اصاب الحكومة خلال احداث صيدا وما قاد اليه الصراع الدائر من طرح لمسالة التوازن الوطني في الجيش ودور هذه المؤسسة ، زيادة على فشل الجهات التي افتعلت الصدام في تحقيق اي من اهدافها المباشرة ، كلها عوامل اعادت الكتائب اللبنانية الى صدارة التحرك الانعزالي .

فالى جانب التركيز على اعلان مواقفها في قضايا التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان من خلال المذكرات المتكررة (٢٤/ ١/ ٧٥، ٣٠ / ١/ ٧٥) والدعوة الى استفتاء (٢٠/ ٢/ ٧٥) والتصريحات الصحفية شبه اليومية لبيار الجميل ، عملت الكتائب عبر افتتاحيات وكتابات جريدة « العمل » وتحركها العام في لبنان على شحن الاوساط المسيحية طائفيا اثر حوادث صيدا والمضاعفات التي نجحت عن احتمالات يوم المولد النبوي في طرابلس . وفي خطها التصعيدي ومن اجل رفع التعبئة بين صفوف مناصريها لجأت الكتائب الى احداث الصدامات المحلية المحدودة حيث اعتدت عناصرها على قوى مناصرة للثورة الفلسطينية في عدد من الكليات والمعاهد الدراسية في بيروت ، وتوجت خطها الارهابي — التعبوي هذا بتنظيم ما اسمته « يوم دعم الجيش » فنصبت الحواجز والمتاريس وقطعت الطرقات في بيروت وضواحيها ورفعت اللافتات والشعارات الاستفزازية . وكان اخر ما لجأت اليه الكتائب في هذا المجال قبل ١٣ نيسان هو الادعاء عن كشف محاولة اختطاف لامين الجميل . (وهو اسلوب اثارة استخباراتي معروف ، ولكنه يكتسب اهمية مضاعفة نسبة لسوابق شبيهة : الرسائل السبع الملغومة التي اكتشفت في دوائر البريد بتاريخ ١٣ اذار ، وكانت موجهة الى عدد من قادة الصف الوطني اللبناني) .

وفي سياق هذا الخط العام لتحرك القوى المضادة اللبنانية ، وعلى قاعدة المصالح المشتركة التي بيناها اعلاه والتي تجمع كل من الاستعمار الاميركي ودولة الاحتلال الصهيوني بالكتائب اللبنانية ، اخذت المؤامرة الانعزالية تكشف عن نفسها حتى انفجرت على شكل صراع دام اثر جريمة عين الرمانة بتاريخ ١٣/ ٤/ ٧٥ .

٢ — جريمة عين الرمانة ونتائجها :

شكل تدبير عملية الباص ، وبالتالي جريمة القتل الجماعي التي نفذت ممارسة

اجرامية تولدت من داخل التعبئة الحاقدة المعزولة بقرار حزبي قيادي ، يمثل الخط العام لسياسة الكتائب ضد الثورة الفلسطينية ولكن هذه الواقعة لما مثلته من استفزاز واجرام مكشوف بالنسبة للثورة الفلسطينية فقد سمحت لها بانتزاع **المبادرة الهجومية** مرحليا ، سياسيا وعسكريا بالرغم من كل عناصر الارتباك والعفوية التي شابت التحرك العام للثورة ، بينما فرضت من خلال التجسدات التكتيكية للمعركة وضعا من الانقسام داخل جبهة القوى المضادة اللبنانية **حيث لم يتمكن الصاعق الكتائبي المعبر عنه في شروط الصراع الملموسة بحادثة الباص ـ الجريمة ونتائجها الفورية ، من توحيد المعسكر المعادي للثورة وزجه ككتلة متماسكة في الصدام بل سعر من تناقضاته وتفاوت قواه** . وهذا اساسا ما جعل كميل شمعون يسعى منذ اللحظة الاولى الى تجميد الصراع وطرح الوساطة والالحاح عليها رغم استنفاره السريع لكامل قوى حزب الوطنيين الاحرار منذ نهار الاحد ١٣/ ٤ ، وذلك ادراكا منه للمخاطر السلبية التي يحملها هكذا انفجار للصاعق الكتائبي . ومن ناحية اخرى ، فقد انعكس الاستقطاب السياسي العام الذيتولد عنحادثة الباص، بشكل **فرز قوى داخل مؤسسة الجيش** مما عطل احتمال اعلان حالة الطوارىء وشل المؤسسة نسبيا عن اية مبادرة مواجهة ممكنة .

وكان رد الثورة الفلسطينية على الصاعق الكتائبي يتسم **بحصر نطاق المعركة مع حزب الكتائب** دون سواه مما ادىبوجه عام الىتوسيع جبهة الاصدقاء والمحايدين ،وقد تجلى ذلك منذ اليوم الاول للمؤامرة حيث سلطت النار سياسيا واعلاميا وعسكريا على الكتائب وحدها كما رافق ذلك تحرك واسع النطاق قامت به قيادة الثورة باتجاه مختلف القوى السياسية اللبنانية ، على اساس ادانة المجزرة الكتائبية في عين الرمانة والدفاع عن حقوق الثورة . وقد ترجمت قوى ميليشيا الثورة هذا الخط عسكريا ، حيث قادت سلسلة من العمليات الهجومية ضد مواقع ومؤسسات وعقارات كتائبية شملت غالبية المناطق اللبنانية ، وخاصة مدينة بيروت . وبموازاة الثورة الفلسطينية اتى موقف الاحزاب والقوى الوطنية عنيفا في شجبه واستنكاره للمجزرة الكتائبية المجرمة . ومؤيدا بشكل واضح للثورة وداعيا للدفاع عنها وحمايتها . كما ان القوى الشعبية في الاحياء قد تحركت بقوة نحو المشاركة في القتال ودعم الثورة الفلسطينية ، فأقامت التجمعات الوطنية الحواجز والمتاريس في الاحياء الوطنية كما شاركت في عدد من العمليات العسكرية تحت قيادة الثورة الفلسطينية .

ومن جهة اخرى ، ساهمت الوساطة التي قام بها محمود رياض ، الامين العام لجامعة الدول العربية ، كمندوب للرئيس السادات في الحد من تدهور الاوضاع سعيا الى تجميد الصراع واللحيلولة دون الوصول الى الانفجار السياسي العام لما يترتب عن ذلك من نتائج على الساحة العربية تهدد وضع الرئيس السادات في مفاوضاته المتجددة (بعد فشل كيسنجر في اذار ١٩٧٥) مع الادارة الاميركية سيما انه خرج من قمة الرياض مجددا مبايعة « التضامن العربي » لسياسته في المفاوضات .

وتوقفت المعركة عسكريا ، بانتهاء الجولة الاولى ، لتبدأ سياسيا ، من خلال بقاء وزارة رشيد الصلح او سقوطها ، فعمد حزبا الكتائب والاحرار الى زيادة الدفع باتجاه سقوط الوزارة مستفيدين من التناقض القائم بين جنبلاط والحلف الثلاثي، بينما جنبلاط والقوى الوطنية باتجاه المحافظة عليها . وبدأ الحديث في الاوساط الوطنية عن ضرورة اجراء تعديلات اساسية في هيكل النظام بينما اصرت الكتائب على الاستعانة بالجيش . واخذت الازمة السياسية تتفاقم باستقالة وزيري الكتائب والامير مجيد ارسلان من الحكومة الصلحية وتضامن كل منكميل شمعون وكامل الاسعد وجوزيف سكاف وطوني

فرنجية معهم ، حتى انفجرت باعلان رشيد الصلح استقالة حكومته امام مجلس النواب يوم ١٥/٥ موضحة اكثر فاكثر الاتجاهات التي راحت تستقر عليها التحالفات السياسية اللبنانية ومبددة كثيرا من الاوهام التي انبنت على امكانية كسب بعض القوى الانعزالية الى الجبهة المناهضة للتحرك « الكتائبي » وقد اتهم الصلح في بيان استقالته الكتائب بافتعال ازمة عين الرمانة وطالب بتعديلات اساسية في النظام السياسي اللبناني هي : تحقيق اصلاح سياسي ديمقراطي من خلال تعديل قانون الانتخاب ، الالتزام بمقتضيات المعركة العربية المشتركة ومساندة القضية الفلسطينية ، تعديل قانون الجيش ، اقرار قانون التجنس ، معالجة الوضع المالي والاقتصادي وفق سياسة ضريبية جديدة .

ويتلخص موقف الثورة الفلسطينية خلال هذه المرحلة بالنقاط التالية :

١ ــ عدم السماح للكتائب بتوتير الوضع وتصعيده ، والعمل من اجل التهدئة بعد توجيه الرد عملا بسياسة تفويت الفرصة على الكتائب التي تريد التصعيد وعدم اعطائها الوقت الكافي لاستقطاب قوى سياسية الى جانبها وتكريس بقائها منفردة ، معزولة . وكذلك للمحافظة على معنويات ثوارنا وجماهيرنا الفلسطينية واللبنانية من جهة اخرى .

٢ ــ التحرك بقوة مع مختلف القوى الوطنية والشعبية اللبنانية .

٣ ــ العمل النشط بين اوسع الفئات السياسية اللبنانية من اجل كسب تأييدها وادانتها لمجزرة الكتائب ومحاولة تحييد رئيس الجمهورية والجيش واوساط من اليمين اللبناني .

اما « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » فعلاوة على المواقف السياسية التي اعلنتها في شجب المجزرة الكتائبية فانها طرحت مطالب عديدة تتسم بجملها بطابع هجومي « حل حزب الكتائب » مثلا و « طرد وزراء الكتائب من الحكم ومقاطعة هذا الحزب وطنيا وسياسيا ، وقطع كل حوار معه » وهي المطالب التي تلخصت فيما بعد في شعار **« عزل الكتائب »** . وقد بينت التكتيكات السياسية التي سارت عليها «الاحزاب والقوى الوطنية » ان مرامي سياسة « العزل » هذه كانت اولا واخيرا السعي لاستثمار تنامي الدور السياسي الذي راحت تكتسبه هذه القوى بعد احداث صيدا **داخل موازين القوى في السلطة اللبنانية** ، مما يرفع الابهام عن نقطتين :

أ ــ تحول الدعوة من « طرد وزراء الكتائب في الحكم » الى منح حكومة الصلح الدعم الكامل وكيل الاتهامات للكتائب والاحرار لانسحابهم من الحكومة وتهديدهم بالتالي مستقبل الوزارة الصلحية بالانفراط .

ب ــ انحسار شعار العزل في مرحلة لاحقة الى وجه وحيد ومهمة وحيدة الا وهي : عدم اشراك حزب الكتائب في الحكومة المقبلة .

وقد تكون هذه **الممارسة « الحرفية »** هي التي جعلت بعض الدوائر الوطنية تندفع بقوة في معارضة « شعار العزل » وطلب استبداله بشعار يحافظ على وحدة الصف اللبناني المناهض للمؤامرة الكتائبية ــ الاستعمارية ، وايجاد صيغة وحدوية لا تستعدي الزعامات الاسلامية التقليدية واطراف سياسية كحركة المحرومين واتحاد قوى الشعب العامل وحزب البعث وغيرهما من القوى .. الا ان هذه الدوائر نفسها ظلت عاجزة عن الارتقاء الى الصيغة الوحدوية المنشودة والانتقال الى ممارسة سياسية ايجابية : **تحقيق اوسع جبهة لبنانية لنصرة الثورة الفلسطينية والدفاع عن مكتسباتها ونحر المؤامرة** ، بل على العكس ارتكبت هذه الدوائر جرم « المحظور »

نفسه ، ودخلت من الباب العريض ، باب الدعوة الى « الوحدة » ، معركة اخرى ، **معركتها هي السياسية والايديولوجية مع تيار « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية »**.

ويبقى ان « العزل » ، وبالرغم مما انتهى عليه كخط سياسي ، فانه من احد اوجهه قد تحول الى **ارادة وطنية عارمة في اقصاء الكتائب عن الحكومة المقبلة كثمن لادانتها** ولكنه ايضا ، ونتيجة لكل الاخطاء التي شابت الممارسة السياسية ، فان الكتائب قد تغذت منه لتنمي عقدة الخوف عند المسيحيين وتتكسب زخما مرحليا في عملها لتجييش جمهور المسيحيين باسم مواجهة الاخطار الداهمة « الفلسطينية » ، « واليسارية » و « الاسلامية » **ذلك ان شعار « العزل » لم يوضع في موضع التطبيق الصحيح ، اي داخل الجماهير اللبنانية المسيحية** ، فلم تعزل الكتائب عن الجماهير المسيحية ، ولم تنكشف ابعاد المشروع الانتحاري ــ الكتائبي لهذه الجماهير .

٣ ــ اشتباكات تل الزعتر ــ الدكوانة واعلان الحكومة العسكرية :

بعد استقالة حكومة رشيد الصلح ، اخذت الكتائب تصعد من الموقف السياسي وفجرت الوضع عسكريا من جهة تل الزعتر الدكوانة ، واتهمت المخيم بافتعال الفتنة وطالبت بنقله وذلك من اجل **اغلاق كل منطقة بيروت الشرقية ووضعها تحت قيادتها** . وقد حوصر المخيم وتعرض لقصف مستمر واطلاق نار دائم ، واستمر الهجوم الكتائبي بهدف تعطيل الاستشارات النيابية ، والتي بدا انها كانت تميل باتجاه تكليف رشيد كرامي ، وفرض جو من الحرب الاهلية الذي بلغ قمته في تشكيل الحكومة العسكرية برئاسة نور الدين الرفاعي ليل ٢٣ ايار . وقد شكلت الحكومة العسكرية **ذروة وحدة المعسكر الانعزالي وعزلته السياسية في آن** . وان كان هذا التصعيد يهدف الى ارهاب الحركة الوطنية اللبنانية وابتزاز المقاومة الفلسطينية بوضع البلاد على شفير الهاوية ، علاوة على ما يدلل اليه من تصميم القوى المضادة اللبنانيه على المضي في مخططها متجاوزة مكان الرئاسة الثالثة في اعمدة التوازن الطائفي و شروط اللعبة « الديمقراطية » اللبنانية ، فأنه قد امكن تجنب احتمال الصدام المفتوح الذي يحمله مشروع الحكومة العسكرية في طياته لاسباب موضوعية هي :

١ ــ قوة الردع الذي شكله التلاحم الوطني العام مع الثورة الفلسطينية والذي تمثل في التحرك السريع داخل الاحياء الوطنية من بيروت وفي الاحياء المحيطة بالمخيمات باقامة المتاريس والحواجز واغلاق هذه المناطق بوجه السلطة والتهديد بثقل القوة الجماهيرية المسلحة .

٢ ــ اتحاد جبهة لبنانية عريضة ، ضمها اجتماع دار الافتاء المنعقد بتاريخ ٥/٢٤ ووضع السلطة امام خيارين : **اسقاط الحكومة العسكرية فورا او الشروع بحرب اهلية شاملة** .

٣ ــ انتقال الموقف الاسلامي الواحد الى داخل الجيش، بما يهدد وحدته ويشل من قدراته القتالية .

٤ ــ بروز تيار مسيحي ذي جذور جماهيرية (اده ،فرعون ، الاوساط الارثوذكسية البطريرك الياس الرابع) معارضا لاتجاهات السلطة . وان كان الامر واضحا بالنسبة للزعامات السياسية والروحية الارثوذكسية فان جذور مواقف اده وفرعون تعود الى العوامل التالية :

أ ــ بالنسبة لاده :

ــ حساباته المرتبطة بمعركة رئاسة الجمهورية (عام ١٩٧٦) والدوافع التي قادته

الى تشكيل الحلف الثلاثي مع القطبين السنيين سلام وكرامي .

ـ نهجه الديمقراطي الليبرالي المعادي للعسكر ولتدخلهم في السياسة اللبنانية (وهو موقف يعود الى اوائل العهد الشهابي والدور المتنامي الذي راح يلعبه جهاز الشعبة الثانية آنذاك .) ـ نتائج انفراط التحالف الثلاثي (اده ـ الجميل ـ شمعون) ودخول اده في صراعات عنيفه على الزعامة المارونية مع شمعون والجميل من جهة ومع سليمان فرنجية من جهة ثانية ، ولعل الامر نفسه يشرح خلفية العلاقة الخاصة التي اخذ العميد اده يبنيها مع البطريرك خريش .

ب ـ بالنسبة لفرعون :

ارتباطه وعلاقاته بالزعامات البيروتية من جهة كونه يشكل الزعامة الكاثوليكية والمرجع السياسي الكاثوليكي الرئيسي وطبيعة تاريخ علاقات الطائفة الكاثوليكية في بيروت بالسنة والارثوذوكس (ظاهرتا فرعون والمطران حداد) .وقد يساعد استرجاع مواقف فرعون الشبيهة عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٩ في فهم طبيعة معارضته للحكومة العسكرية ودعمه لكرامي .

٥ ـ الموقف العربي الضاغط ، والذي تمثل بوضوح في الموقف السوري وقدرته على الحركة السريعة ، مؤكدا من جديد ثقل الوزن العربي داخل لبنان واثره الحاسم على قرارات السلطة ، وخاصة بعدما حاول الرئيس فرنجية استفزاز السفراء العرب وتصوير نفسه طليق اليد في لبنان و « سيدا » في « لبنان السيد المستقل » .

٦ ـ تردد جبهة القوى المضادة وبلبلتها ، وعدم قدرتها على المبادرة نتيجة عزلتها ، فكلما ترددت بأخذ المبادرة ، وهي تشكيلة هجومية من حيث جوهرها وشروطها التكتيكية ، كانت جبهة الحكومة العسكرية تزداد ارتباكا وتبدأ عناصر التفسخ تظهر خلالها .

وقد ادى تضافر هذه العوامل الستة الى احباط المؤامرة من جديد وفي احدى ابرز حلقاتها وذلك من خلال :

أ) توجيه ضربة حقيقية للمخطط الاميركي ، خاصة بعدما كان كيسنجر قد اعتبر في تصريح له عن الازمة اللبنانية ان الوضع شبيه بوضع الالمان ابان الحرب العالمية وان احتمالاته تتراوح بين تدخل « اسرائيلي » وحدوث تصفية للثورة على الطريقة الاردنية وصولا الى تهديد الوضع العالمي بحرب كونية . (٢٥ ايار ١٩٧٥)

ب) فرض استقالة الحكومة العسكرية بعد يومين من تشكيلها .

ج) كسر شوكة الرؤوس المتآمرة داخل الجيش اللبناني وتوجيه صفعة قوية اليهم.

د) بروز جبهة لبنانية واسعة ومتحدة للدفاع عن الثورة الفلسطينية ولبنان بوجه المؤامرة الاميركية . حيث لعبت الثورة الفلسطينية دورا اساسيا في جمع شمل القوى والشخصيات الوطنية اللبنانية والتقريب بين جنبلاط وكل من كرامي وسلام .

هـ) نجاح الصف الوطني اللبناني في طرح قضية المشاركة من خلال فرض رئيس الوزراء من قبل اجتماع عام للمسلمين في دار الافتاء لاول مرة في لبنان .

٤ ـ تجدد الاشتباكات والانتهاء الى الحكومة السداسية :

لم ترضخ القوى المضادة للنتائج التي اسفرت عنها الجولة الثانية من الاشتباكات

وانتهت باسقاط الحكومة العسكرية وتكليف رشيد كرامي تأليف وزارة جديدة . فأخذت تصعد في الموقف السياسي ، وتطرح شروطا تعجيزية امام مهمة كرامي **في محاولة للابقاء على الحكومة العسكرية** بعد تأمين الشرعية السياسية والشعبية **الضرورية لها** . وقد ساعد هذا التوجه آنذاك على ازدياد احتمالات تمرير المخطط الاميركي من خلال انقلاب عسكري يضع البلاد على شفير الهاوية . وقد ازداد هذا الاحتمال قوة بعد تدخل الجيش في السياسة اللبنانية كطرف (تشكيل حكومة من الاركان) اي كمؤسسة تفقد آخر بقايا هيبتها ، وانتعاش وضع القيادات المرتبطة داخلها والتي لعبت سابقا دورا بارزا في دعم وتطوير الميليشيات الانعزالية وفقا لاستراتيجية الارتكاز المزدوج : جيش + ميليشيات . كما راحت القوى المضادة تكثف من هجومها على الثورة الفلسطينية متهمة اياها بالتدخل المستمر بالشؤون اللبنانية وبالتحول الى فريق سياسي لبناني ، مما حدا بقيادة الثورة الى القيام بسلسلة جديدة من اللقاءات السياسية مع مختلف القوى اللبنانية ، كان ابرزها لقاء الاخ القائد العام بالرئيس شمعون بتاريخ ٦/١٥ ومن ثم اجتماعه مع الرئيس فرنجية يوم ٧٥/٦/٢٣ ، والذي وجه على اثره رسالة هامة الى اللبنانيين ، تضمنت النقاط البارزة التالية : ــ

ــ ان المقاومة الفلسطينية في لبنان ليست فئة سياسية تنتمي الى هذه الجهة او تلك ، ولا طرفا في الحلبة الداخلية اللبنانية ، ولا طائفة ولا رديف لطائفة .

ــ ان التعايش بين الطوائف هو ما تسعى الثورة الى تحقيقه في فلسطين الغد ، وان الثورة الفلسطينية تحمل السلاح فقط من اجل التحرير ومن اجل الدفاع عن الوجود « فهذان صنوان لا ينفصمان ، فلا تحرير بلا ثورة ، ولا ثورة بلا ثوار » .

ــ اعتبار ان لب الموضوع للحفاظ على معادلة الاخوة اللبنانية ــ الفلسطينية تكمن في احترام الثورة الفلسطينية للسيادة اللبنانية احتراما لا تحفظ فيه ولا ابهام وفي اقرار لبنان بحق الثورة في التواجد على ارضه ضمن الالتزام نصا وروحا بالاتفاقات المعقودة.

ومع صدور رسالة الاخ ابو عمار ، ولما لاقته من تجاوب ايجابي عند معظم القوى السياسية اللبنانية ، وخاصة اثرها العميق داخل الاوساط المسيحية ودورها في الحد من التعبئة الطائفية المعادية للثورة الفلسطينية ، اخذت الكتائب توسع من الاشتباكات المسلحة بين عين الرمانة والشياح من اجل تطويق النتائج الايجابية المتولدة عن رسالة الاخ القائد العام ، وتهديد مساعي التهدئة في محاولة اخرى لفرض شروطها السياسية . ونجحت الكتائب في مد الاشتباكات الى مواقع اخرى ، شملت معظم انحاء بيروت كما نجحت في انتزاع موقف ماروني متضامن معها في طلب صيغة حكومة الاتحاد الوطني خلال الاجتماع الذي عقد بدار الرهبانية المارونية اللبنانية . الا ان تماسك الموقف الوطني والاسلامي والتحرك العربي الذي تجلى ثانية في تجديد مهمة الوزير عبد الحليم خدام ، كلها عناصر ساهمت في دحر الهجوم الكتائبي وسمحت لرشيد كرامي بتشكيل الحكومة السداسية والاعلان عنها يوم ٦/٣٠ .

واهم ما تميزت به هذه المرحلة هو :

ــ **احباط كافة محاولات انعاش الحكومة العسكرية** ، سيما ان الكتائب حاولت استثمار اتساع الخلافات الفلسطينية ــ المصرية ، اثر لقاء سالسبورغ وما واكب ذلك ايضا من اشتداد الصراع الليبي المصري ، لتضاعف من تصلبها ازاء الوساطة السورية ومساعي كرامي لتشكيل الحكومة مستفيدة من رسالة السادات الى الجميل ومن ان الدوائر الرسمية والاعلامية المصرية اخذت تحمل ليبيا قسطا كبيرا من مسؤولية الاحداث اللبنانية .

٢ ـ اسقاط الشعارات المعادية للثورة الفلسطينية والتي بدأت القوى المضادة هجومها تحت راياتها : **اعادة النظر باتفاقية القاهرة ، نقل مخيم تل الزعتر ، الحد من حرية حركة الثورة الفلسطينية .**

٣ ـ خلق الشروخ داخل المعسكر المعادي للثورة بتنازل فرنجية وشمعون عن الاصرار على حكومة الاتحاد الوطني ، وفرض عدم اشتراك الكتائب في الوزارة الجديدة تثبيتا لادانتها ومسؤوليتها عن مجزرة عين الرمانة .

٤ ـ نجاح رسالة الاخ ابو عمار في افشال المحاولات الرامية الى زج الثورة الفلسطينية في صيغة **الصراع الطائفي** اللبناني واعادة العلاقات اللبنانية الفلسطينية الى نصابها من خلال مركز القوة الذي واجهت به الثورة التحركات المتآمرة .

٥ ـ خاضت الثورة الفلسطينية معركتها الدفاعية **« في مناطق جديدة »** ، اذ شكلت مناطق الشياح والنبعة والمسلخ والكرنتينا وغيرها مواقع جديدة من الاحياء الوطنية اللبنانية التي تولت حماية الثورة والشعب ومنعت الكتائب والقوى المضادة من امكانية احراز اي اختراق او تقدم عسكري ، مجسدة في ذلك صورا خالدة من التلاحم الوطني اللبناني والفلسطيني .

٦ ـ انكشاف دور قيادة الجيش اللبناني الى جانب الكتائب (التسليح ، التدريب ، تسهيل التحرك ، توفير الذخيرة الامداد بالعناصر المجازة وغير المجازة .. وضرب العناصر المتعاطفة مع الثورة) ، **وهو اسلوب يتوخى منه تجنيب قوات السلطة الانقسام ، وتجنيد امكاناتها في المعركة في آن معا .**

٥ ـ من تشكيل الحكومة السداسية الى احداث زحلة وطرابلس ـ زغرتا :

ومع نجاح الثورة الفلسطينية في تلاحمها النضالي مع الحركة الوطنية اللبنانية من احباط المؤامرة الرجعية في اكثر من حلقة من حلقاتها القوية ، فان مجرى الاحداث في في صيف ١٩٧٥ اخذ يشير الى ان القوى المضادة اللبنانية والكتائب في مقدمتها قد خرجت من تقييمها للجولات الاولى بالدرسين التاليين : ـ

١ ـ ان القوة العسكرية والعمق السياسي ـ الجماهيري لتلاحم الثورةالفلسطينية والصف الوطني اللبناني اعظم بكثير بما قدرت الدوائر الاستعمارية والكتائب وحلفائها كما انه ليس من السهل احداث الشروخ داخل صفوف الثورة وفي تلاحمها مع الصف الوطني اللبناني العريض .

٢ ـ ان مدى اي تحرك مضاد للثورة الفلسطينية والقوى الوطنية في لبنان ، امر مرهون **بظرف عربي مؤات تكتيكيا** اي بحالة تصدع فعلي في العلاقات الفلسطينية ـ العربية . (حيث نجد ان المؤامرة كسبت دفعا جديدا مع لقاء سالسبورغ ، وبلغت اوجها بتوقيع اتفاقية سيناء) .

ومن هنا نرى ان التحرك الذي واجهت به الكتائب اللبنانية المرحلة الجديدة التي تولدت من تشكيل الحكومة السداسية قد ارتكز على المحاور التالية : ـ

١ ـ مضاعفة العدد والعدة في « القوى النظامية للحزب » حيث برز هذا الاتجاه جليا من الامور التالية : ـ

أ ـ وصول عدة شحنات جديدة من الاسلحة المتنوعة للحزب .

ب ـ توزيع الاسلحة الخفيفة على اعضاء ومناصري الحزب في اقاليمه واقسامه

المختلفة بشكل واسع .

ج ــ اقامة معسكرات التدريب في كافة انحاء المتن وكسروان ، واهمها في ضهور بعبدات ، ميروبا ، بحرصاف ، عين الصفصاف زحله .

د ــ التركيز على رفع الكفاءة العسكرية للفرق الخاصة المنظمة في كتيبتي الصخرة والمــردة .

هـ ــ الاستعانة بالمرتزقة الاجانب وباعداد كبيرة منهم .

٢ ــ الاستمرار في الرهان على تصدع العلاقات الفلسطينية العربية ، حيث عكفت

جريدة العمل على تبشير قرائها طــوال الاسابيع التي سبقت نجاح مهمة كيسنجــر باقتراب موعد الازمة المنظرة على جبهة سيناء وبالتالي موعد الازمة المتوخاة فــي العلاقات المصرية الفلسطينية وخــلال الفترة نفسها **شهدت الساحة اللبنانية نشاطا مكثفا من جهة العدو الصهيوني الذي اخذ يصعد من عملياته بغية الابقاء على حالــة التأزم الداخلي في لبنان ودفع القوى المضادة اللبنانية للاستفادة المباشرة من الانشغال العسكري الصهيوني لقوى الثورة العسكرية ومن الوضع العربي الجديد الناجم عن تقدم مهمة كيسنجر** . اما نمط تجاوب القوى المضادة المحلية ، فنقرأه في لسان حال الكتائب « جريدة العمل » التي اخذت تتساءل : « الى اي حد يمكن ان يسمح الوضع القائم (اي تصعيد الاعتداءات الصهيونية) بالابقاء على حالة التفاهم بين السلطــات اللبنانية والمنظمات الفدائية » ومضت العمل تقول : في حقيقة ما يجري في الجنوب نجد ان كل هذا ، الذي يخدم مرة واحدة .. وقد لا يخدم المقاومة الفلسطينية ، لكنــــه بالمقابل يخدم اسرائيل الف مرة .. **امــا ان يطلق بعض المحسوبين على المقاومــة « فتاتيشهم » من داخل الحدود ، وتخوض اسرائيل حرب استنزاف من طرف واحد ، فيما تسعى مصر ثم سوريا والاردن الــى تجميد كل الجبهات ، بانتظار المساعــي السلمية ، فان في هذا دفعا للبنان والمقاومة معا الى الانتحار « العمل ١٩٧٥/٨/٨ »**.
(بينما في الحقيقة ان الثورة ممتنعة ومنذ حرب تشرين عن عمليات الحدود القريبة من الاراضي اللبنانية وعملياتها في العمق) .

٣ ــ الابقاء على جبهتي تحريض ثابتتين :

الاولى : التركيز المستمر على ضرورة « استعادة » السيادة اللبنانية كاملة على كل الاراضي اللبنانية واتهام الثورة بالتدخــل في الشؤون اللبنانيــة وحماية المخربين وسيطرة الفكر الماركسي على اجهزتها الاعلامية ، والتشكيك بانضباطيتها ومقــدرة قيادتها على السيطرة على كل مسائل الثورة والتواجد الفلسطيني في لبنان .

الثانية : الهجوم على كامل الصف الوطني في لبنان ، والربط بين الوطنية والتخريب، والوطنية والسلب والنهب ، الوطنية « والشيوعية الهدامة » وذلك بالتركيز عــلى كمال جنبلاط والاحزاب التقدميــة والهجوم على البرنامــج المرحلي للاحزاب والقوى التقدمية ، حتى الامام الصدر ورعايته لمعسكرات التدريب الخاصة بمنظمة المحرومين لــم تسلم منهم ، وكذلك المواقف النقدية التــي تتخذها الزعامة الاسلامية التقليدية الاخــرى .

وعلى هذا الصعيد فان الكتائب اخذت تنهج نهجا جديدا في تركيز محاور دفاعهــا

وهجومها السياسيين . **فهي من جهة الدفاع عملت تحت اليافطات التالية :**

أ ــ طرح قضية السيادة اللبنانية من زاوية عدم السماح بانفلات مناطق جديدة كالشياح والمسلخ والنبعة من تحت سيطرة الدولة .

ب ــ التركيز على طلب تعيين حدود التواجد الفلسطيني في لبنان اكثر من التركيز على اثارة مسألة هذا الوجود نفسه .

ج ــ الاصرار على تبرئة نفسها من حادثة عين الرمانة .

د ــ تحميل ما يسمونه الصحافة « المأجورة » و « المرتبطة » مسؤولية الدس على الكتائب وتشويه مواقفها .

هـ ــ تركيز بيان الجميل في اعقاب تشكيل الحكومة السداسية على مصير « منطقة المسلخ اللبنانية » وتحذيره من « الانزلاقات » التي وقعت بها الثورة وقيادتها .

و ــ اتخاذ مواقف دفاعية في كل ما يتعلق بمسائل تعديل الدستور او اعادة البحث بالميثاق الوطني .

اما من حيث التكتيكات الهجومية فقد ركزت الكتائب على المسائل التالية :

أ ــ انه من اجل نزع السلاح ، فعلى الدولة ان تتواجد بسلطتها فوق الاراضي اللبنانية (تصريح للجميل ، العمل ٧٥/٨/١٢ ، مقابلة وليم حاوي للانوار ، مقابلة بشير الجميل للبيرق) .

ب ــ « انه ليس من المعقول ان تطالب احدا الا يدافع عن نفسه عندما لا يجد من يدافع عنه » (العمل ٧٥/٨/١٢) .

ج ــ اعتبار تصاعد عمليات الثورة ضد دولة الاحتلال زج للبنان في معركة اذا خاضها « وهو ليس قادرا عليها تكون جريمة اكبر لان لبنان يكون بذلك كأنه يحقق ارادة اسرائيل (الجميل للعمل الصادرة بتاريخ ٧٥/٨/١٠) .

د ــ « ان المصطادين في الماء العكر » آخذين اكثر فأكثر في « اقحام المقاومة الفلسطينية فريقا في صراع ضد اللبنانيين ، وقد ونقوا حتى الآن في تحويل المخيمات الفلسطينية الى معسكرات تدريب لبنانية ــ فلسطينية ، باسم التضامن اللبناني مع القضية » (العمل ٧٥/٨/٢٨) .

هـ ــ تحريك عقدة الخوف عند مسيحيي لبنان ، من خلال تصوير قضايا الصراع على الساحة اللبنانية وكأنها مسألة « حرمان المسيحيين من الضمانات دون تقديم اية ضمانات اخرى ، معنوية او مادية » (من سلسلة من الافتتاحيات التي صدرت في جريدة العمل ابتداء من ٧ آب ١٩٧٥ تحت عنوان : لماذا لبنان قضية ؟)

اما من جهة اخرى ، وخلال هذه المرحلة نفسها ، (من تشكيل الحكومة السداسية الى احداث طرابلس ــ زغرتا) **ونتيجة عناصر الاستقرار المرحلي الذي كانت تحمله التوازنات التي قادت الى تشكيل الحكومة السداسية ، اخذت تبرز على السطح السياسي « هموم » الانتخابات النيابية والرئاسية اللبنانية** (المقررة لنيسان وآب ١٩٧٦) فيما بدا حينها على شكل اعادة صياغة للتحالفات السياسية اللبنانية : القصر

وتحالفاته ، كرامي ـ جنبلاط ، العلاقات داخل التحالف الثلاثي ، الدور الذي راح يلعبه شمعون ، تصدر شارل حلو مختلف حلقات ولجان وهيئات « الحوار » ، مظهر الاعتدال والانفتاح الذي لبسه طويلا شاكر ابو سليمان .

وفي هذا السياق نفسه ، اطلت « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » على المسرح السياسي « ببرنامج مرحلي » اعلنت عن بنوده في يوم ١٨ آب ، وهو البرنامج الذي ستشكل مطاليبه الرئيسية ، في المرحلة اللاحقة ، **قاعدة ارتكاز للمناورة السياسية القائمة على طرح الصراع ، كصراع لبناني ـ لبناني ، وبالتالي السعي لنقل ارضية المعركة واستعادة المبادرة السياسية من الطرف الانعزالي للحيلولة دون تمكنه ـ على الصعيد السياسي على الاقل ـ من المضي في طرح مسالة التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان** وذلك من خلال طرح مسألة النظام السياسي اللبناني في تخلفه وطائفيته على بساط البحث . وبالتأكيد فان البرنامج يندرج اولا ضمن سياسة « الهجوم المتواصل » التي اتبعتها الاحزاب من ١٣ نيسان والتي تناولناها في معرض تقييمنا لشعار « العزل » ،كما انه شكل محطة رئيسية من ضمن توجه « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » الى اثبات وجودها السياسي المستقل في الصراع الدائر ، كطرف متمايز عن الزعامات الاسلامية التقلبدية ، وهو الخط الذي سيتضح في الدعوة المنفردة التي ستوجهها هذه القوى ، فيما بعد للاضراب العام يوم ١٥ ايلول .

غزال يبشر بزلزال...

محمود درويش

● **يصدر قريبا المجلد الثالث من الاعمال الكاملة للاديب الكبير الشهيد غسان كنفاني ، ويضم هذا المجلد دراسات غسان عن الادب في الارض المحتلة ، وقد كتب مقدمته الزميل محمود درويش :**

من الطبيعي ان يكون دمه قد جف . ومن الطبيعي ان يكون اصدقاؤه قد عادوا الى لغتهم . ومن الطبيعي ان نستعيد قدرة الكلام عنه كما نتحدث عن الانهار التي اخترقتنا وذهبت .

وهذا ما يحدث لي : ايام وايام احاول فيها ان اعتاد هذا « الطبيعي » لاكتب عنه في هدوء . ولكنه يطردني عن الورق ، فان حبره لم يجف . هو الذي يمنعني من ان افي بوعدي ، هو الذي يمنعني عن الكتابة .

الكتابة ! كم نتساءل : ما هي ؟ ونتعثر . ذباب كثير يحط فوق الكلام الجميل . وكأنه الفلسطيني الوحيد الذي اعطى الجواب القاطع الساطع ، وكانت الشهادة شهادة ، وكأنه احد النادرين الذين اعطوا الحبر زخم الدم . وفي وسعنا ان نقول : ان غسان كنفاني قد نقل الحبر الى مرتبة الشرف ، واعطاه قيمة الدم .

فيه حسم لتعدد اشكال سوء الفهم والتفاهم . وفي كتابته سطوة اليقين . من نيقن قراءته يطرح الاسئلة على مستويات مختلفة .

هنالك من يعتبر الحياة اتهاما وخيانة ، فينفي الكتابة عن فعاليتها لان الحرية لا تأتي بغير الموت !.. ومن هنا ، يتحول الموت لدى هؤلاء الى هدف في حد ذاته . « انت متهم الى ان تثبت موتك » . داء شاع في حياتنا الفلسطينية ، فاتخذ الفاشلون فينا جثث الشهداء متاريس وخنادق وقاعات محاكم . اطلقوا النار على الذات مرة ، وانتظروا رصاص الاعداء ، مرة اخرى ، ليكون معيار الجدارة . هذا الطراز ذاته من

النظر الى الحركة والى الاشياء يحول جثة غسان كنفاني الى قاعدة لاغتيال الكتابة . وهي ، بذلك ، تجرد كاتبنا الكبير من اية قيمة خلاقة عدا الموت .

وهنالك ، هنالك من يعطي الكتابة قدسية الانفصال ، وشرعية الطلاق عن المغامرة، والاحتيال على الحياة والخطر . هنالك من يعتبر الكتابه غاية في حد ذاتها .

ولكن غسان كنفاني هو كاتب الحياة . كان يكتب لانه يحيا . وكان يحيا لانه يكتب ويحيي ذاكرة الفلسطيني لتكون مكان المستقبل . لم يكن الموت هدفه لانه لم لم يكن عاجزا عن الحياة في الكتابة ، ولانه لم يكن بعيداً عن حركة الفعل الفلسطيني الثوري التي تبلور حياتها في الصراع . وكان توحده في الفعل الكتابي ، والذي يبلغ حد التصوف ، نوعا من استرداد حياته في حياة شعبه وصياغتها في مسرى الحلم العظيم.

لقد سقط غسان كنفاني فيميدان الصراع . سقط وهو يسيطر على موقعه الكتابي. وقد اغتاله الاعداء لانه حمل فاعلية الكتابة التي تصنع جيلا سيعثر على اداة التعبير عن فاعليته في السلاح . ولذلك ، فان الدفاع عن غسان كنفاني ، امام اخطاء من لا يرى فيه غير موته ، هو دفاع عن الكتابة وعن الحياة .

ويعرف الكاتب الثوري ان اداة التعبير عن فاعليته الاجتماعية تأخذ شكل الكتابة لانها تميزه وسلاحه . وليس بوسع الكتابة ان تحقق اثرها النضالي الا اذا كانت كتابة ناجحة . فالفن الرديء الذي يروج له الصغار في حياتنا الآن ، تحت اي شعار كان ، لا يقل ضررا عن السلاح الرديء . وقد كان غسان كنفاني فعالا ومؤثراً باتقانه مهنة الكتابة ، بخصوصيته الفنية الجميلة ، وبطريقة توظيفه هذا الجمال . وليس بانقلاب المعادلة .

لن نلتقي به بعد . . . لن نسمع مزيدا من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون الى الكتابة بفضيلة القضية . ولكنه يقتحمنا دائما بقوة كلماته التي لا تموت . كم كتب الفلسطينيون وماتوا . ولكن حبرهم كان يجف مع دمهم . كتابته هو قد تكون هي النادرة التي تصلح للقراءة بعد العودة من جنازة كاتبها . وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدأ من غسان كنفاني .

لماذا هو . . لا سواه ؟ تلك هي الهدية . ذلك هو النجم . هو الموهوب الذي عرف كيف يربي موهبته وفي اي نهر يضعها .

لقد تمكن غسان كنفاني من اداء دوره ، لان له دورا ، ولانه مؤهل ، فنيا ، للقيام بهذا الدور . كان نتاج رحلة العذاب الفلسطيني من السقوط المتمثل في وعاء المخيم حتى الصعود المتمثل في واقعية البندقية . وفي عمله الكتابي الذي مارس من خلاله دوره الاجتماعي والوطني تأريخ الحركة الفلسطينية في قلب فنان . لقد كان ثوريا من حيث هو كاتب ثوري . لم تنتزع هذه الصفة من لحظة الاستشهاد .

كان يعرف لماذا يكتب ولمن يكتب . ولكنه كان يعرف ايضا ان قيمة هاتين المسألتين مشروطة ، لانتاج الفن ، باتقان تطبيق المسألة الاخرى : كيف يكتب .

لم تسلم كتابة غسان من الاتهام حين ارتقى بشكله الكتابي من حالة السكون الوصفي الى حالة ارقى واصعب بتأثير تعقد القضية التي تحتويه . ولم تسلم من مواجهة هذا السؤال الابدي : من يفهم هذا الاسلوب ؟ لم يكن غسان كنفاني سهلا

كما يبدو لقرائه السطحيين . صحيح انه كرس كل طاقته الخلاقة ونشاطه الاجتماعي في خدمة قضيته الكبرى . وصحيح ان هذه القضية ، بجماهيرها واشكال صراعها ، كانت هاجسه العظيم . ولكن الكتابة ، كقضية ، كانت ايضا هاجسه . وان التعامل مع سؤال مثل « قضية الكتابة » جعله قادرا على التطور الدائم وحيا الى هذا الحد .

لم يستطع غسان كنفاني ان يكون مؤثرا وفعالا الا لانه كان كاتبا محترفا .. حتى في كتابته الصحفية او اليومية كان شديد الخصوصية والتميز والاتقان . رشيقا ومتوترا كغزال يبشر بزلزال .

كان ممتلئا بحيوية نادرة في هذا الجيل . كان مسكونا بكهرباء لا تنضب . ولم يترك لنشاطه الواعي مجالا واحدا للراحة . لم يقض اجازة لاستعادة قواه بين رواية واخرى ، او عمل وآخر . لم يذهب للامتلاء بالتأمل من اجل تنفيذ عمل كتابي جديد . كان يجدد وقوده الابداعي بتبذير قواه . كان يتزود بالطاقة تلقائيا ، فالذاكرة الجماعية لا تستنزف . وكان يستعيد ملء طاقاته بعمليات تفريغها الدائم .

هل كان حقا يشعر بموته المبكر ، فاطلق ينابيعه الى هذه الدرجة من الاسراف ؟ هل كان هاجس الموت يستدرجه لصب طاقاته في وقت قصير ؟ هل كان استشرافه لهذه النهاية ــ البداية دافعا لتناول كل اشكال التعبير من قصة ورواية ومسرحية ودراسة وبحث ونقد ، ليسجل دمه على اصابعنا وذاكرتنا ؟ وهل كان يسبق الموت الى الحياة في الكتابة ؟

ربما . وربما كان هذا السباق احد اجمل تجليات « الانانية » الخلاقة والتفاني في آن واحد . انها شكل نادر من اشكال تحقيق حياته في سياق تبذيرها في حياة الآخرين . وهكذا تتحول انانية الفنان الى نهر كريم .

ان الذين عرفوه ، عن كثب ، كانوا يعرفون مدى حيويته وقدرته الثمينة على العمل . وكانوا يعرفون ايضا حرصه المرهق على تحقيق ذاته الفنية . كان يقوم بكل الاعمال العامة طيلة النهار . وفي آخر الليل ... في اول الفجر كان يذهب الى كتابته « الخاصة » ، الى كتابته الفنية ، فلم يكن متاحا له ان يتخصص بشكل علني . كان يحترف الكتابة سرا . لماذا ؟ لانه فلسطيني ... ببساطة لانه فلسطيني .

لم يقل احد ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم . سأقول : ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم . ذلك من فرط ايمانهم بفاعلية الادب الذي قدم لهم، ومنهم ، تعويضا عن مهانات ، عندما فقدوا كل شيء ولم يملكوا الا كلمات . وذلك لانه استمد منهم القوة ليؤسس لهم العلاقة . نادرا ما يسطو الوطن ، كما يسطو على ادب الفلسطينيين . ولذلك ، يدرك الفلسطينيون ، وبحق ، انهم هم الذين خلقوا ادباءهم .. ولذلك ايضا يطالبونهم دائما بالمواطنية المثالية وبالطاعة الفولاذية ، ولا يسمحون لهم في ان يكونوا اقل من جنود او قديسين . ومن هذه العلاقة الصارمة ، من هذه المطالبة التي تشمل كل شيء يجد الاديب الفلسطيني نفسه « يسرق » حرفة الادب سرا . وفي النهار عليه ان يمارس اشكالا اخرى للتعبير عن التزامه بسلطة الوطن !

هكذا كان غسان كنفاني يغتصب كتابته الفنية من الساعات المخصصة لنومه . ولم تكن تلك الكتابة الا نتاج علاقته بفلسطين ــ الوطن والحلم والصراع والجماهير والمنفى . كان اكثر من كاتب . ولكن ما افدح الخطأ الذي يرتكبه صغار النقاد والصحفيين ويخدعون به الناس حين يضعون واو العطف [للتمييز] بين الكاتب والمناضل . كأن يقولوا : كان كاتبا ومناضلا . ليس الامر في مثل هذا التفصيل ، فقد كان غسان كنفاني كاتبا مناضلا .

كثيرا ما يجابه الكاتب الفلسطيني باسئلة تأتيه من البراءة او الاتهام : هل انت كاتب ام مناضل ؟. في مرحلة تاريخية معينة يحدد الكاتب المناضل بأنه الكاتب الذي يعبر عن حركة القوى الثورية . . عن حركة الجديد . وغالبا ما تكون اداة تعبير الكاتب عن اندماجه بقوى الثورة هي الكتابة . وقد بقي غسان كنفاني مطاردا بهذا السؤال الى ان بلغ الشهادة ، فهزم السؤال وانتصرت كتابة غسان .

كان نشاطه الكتابي متعددا . والطريقة التي سفك فيها دمه محرومة من الوصف . لقد رسم جسده الممزق حالات القضية الفلسطينية . . لقد حقق الاسطورة .

كم من صديق رثيت . ولكن لم احس بأنني ارثي نفسي ، فاعيد صياغة حياتي ، الا عندما حاولت الامساك بطرف هذا البركان : غسان كنفاني . ماذا بوسعك ان تفعل ؟ حقا ، ماذا بوسعك ان تفعل ؟ هكذا ينقض الكاتب على نفسه في حضرة الكارثة التي لا يردها قلم . ولعل مثل هذه الحالات التي تنتقص من جدوى الكلمة وقوتها في سياق المقارنة مع عناصر الطبيعة او الفعل الهائل هو الذي خلق ، منذ القدم ، تقليد عقد المقارنة الظالمة بين الكلمة والفعل . ليس الخطأ ، دائما ، ان نتقدم اجابة مخطئة . احيانا وفي مثل هذه الحالة بالذات يأتي الخطأ من مجرد طرح هذا السؤال .

وان الموت حادث . ولكن هنالك نوعا من الموت يأخذ شكل الاجابة على معضلة او مقارنة . وهكذا يتحول مصرع الكتاب المناضلين الى دلالات ورموز . وهكذا كان مصرع غسان كنفاني شهادة على فاعلية الكتابة لا نفيا لها كما يتصور الميكانيكيون والعاجزون امام حركة العلاقات ، كهؤلاء الصبية القادمين الى اسم الثورة من اقاليم العجز والاحباط والقبح ، ليعمموا عاهاتهم على الورق وعلى نفسية البشر ، فيتهمون الفن بالردة ، ويتهمون الحياة بالخيانة .

صديقي غسان ! كم من صديق ودعت ، ولكن لم اودع مرحلة من حياتي الا في وداعك الاخير . كان آخر ما انتظر من كوابيس هو ان اقدم لاعلانك السابق عن وجودي منذ عشر سنين . لقد ولدت قبل ذلك ، ولكنك انت الذي اعلن ميلادي . لم اقل لك : شكرا ، فقد كنت احسب العمر اطول .

الآن نقول: ادب الارض المحتلة . . ها . . ها ! ولكن الحالة كانت تختلف عامئذ.فقد كنا مجموعة من شباب دون الثلاثين نفتقر الى ادنى مقدمات الرد العملي على الهزائم التي يعاصرها وعينا وعارنا . وكنا نحاول كتابة الشعر دون ان نعي انه شعر . كنا نصرخ ، نتوجع ، نحتج ، فلم نملك اداة تعبير اخرى . وكانت اغلبية مواطنينا تسخر منا ، لانها تعرف طفولتنا ومراهقتنا وصبانا معرفة لا يليق بها الاعجاب . صبيان

يكتبون شعرا . وكان لقب « شاعر » طموحا قاسيا يعذب . وفي احسن الاحوال كان بعض المعلمين يقول : مبتدئون لهم مستقبل . حتى العدو نفسه لم يكن يكترث بنا بشكل جاد . وفي الامسيات الشعرية التي كنا نقيمها في القرى كان الفضول والاعتبار السياسي وبنات المدرسة هي التي تشجعنا . فقد كان الشعر « المعتبر » .. الشعر المقبول ، آنئذ ، لدى الناس والصحف هو الشعر القادم من الخارج .. هو الشعر المصنوع خارج الارض المحتلة .

وكانت النجوم الشعرية الرائجة في العالم العربي هي ذاتها الرائجة لدى صحف العدو باستثناءات قليلة . ولم نسأل يوما : كيف يملك الشعر كل هذه القدرة على الاحتيال فيكون مطرب الاضداد ؟

وبقينا مجهولين ...

الى ان قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة : الاعلان عن وجود شعر في الارض المحتلة ، فانقلبت العلاقة داخل الارض المحتلة وخارجها . ومشى التطرف الى نقيضه المتطرف : لا شعر الا في الارض المحتلة !!.

الفضيحة معروفة . ولا اضيف هنا جديدا . وسأعترف بأن شهادتي لا تتمتع بأية قيمة عدا قيمة الاعتراف : نحن الذين كنا نكتب ما سماه غسان « شعر المقاومة » لم نكن نعرف اننا نكتب « شعر مقاومة » وقد دهشت ، قبل سواي ، بهذا الشغف السياسي بما نكتبه . كل شيء قابل للتفسير كأن نقول : مرحلة تاريخية معينة انفتحت فيها النفسية العربية الجريح على تقديس كل ما يرد من ارض فلسطين . ولكن ... ولكن بعضنا داخ من اللذة ، وبعضنا صار يصمم القصائد لحناجر المذيعين ، وبعضنا خاف المسؤولية وقلق . وبعضنا ادرك انها موجة وتنكسر ولا يبقى من هذا الزبد غير الشعر الحقيقي . ويوما .. يوما كتبت : « انقذونا من هذا الحب » ..

ولكننا نعرف جيدا ان محاولات الغاء الشعر العربي الثوري كله بواسطة خطب حماسية او بكائيات يكتبها شباب في الارض المحتلة ، قيمتهم الفنية الاساسية هي انهم يعيشون في الارض المحتلة ، ليست من صنع غسان كنفاني .

ان ما فعله غسان هو كسر الحصار المضروب حول اوضاع العرب في الارض المحتلة ، واضاءة كل موقع صمود يمارسه ابناء الشعب الفلسطيني هناك . وكان الشعر ، ولا يزال ، احد وسائل التعبير عن هذه المواقع وعن هذا الصمود .

وكان اكتشاف العرب بأن العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية ويحبون بلادهم ويكرهون الظلم اكتشافا مذهلا .. مذهلا حتى الخزي . ومع ذلك ، اتاح هذا الاكتشاف للصوت العربي القادم من هناك سعادة الاحساس بالانتشار والتغلب على الاسوار . وكان وعي اصحاب هذا الصوت بوجود من يستمع اليهم حافزا لنموه وتطويره لدى البعض ، وعقبة امام تطويره لدى البعض الآخر الذي اكتفى بالجغرافيا موهبة غير قابلة للمناقشة .

لقد دل غسان كنفاني الراي العام العربي على ادب الارض المحتلة . واما المبالغات واختلال الموازين فتلك مسألة تخص الذين درسوا ما قدمه غسان . لم تكن لفظة « مقاومة » رائجة في الشعر هناك قبل ان يطلقها غسان عليه . وهكذا ايضا دل المسمى على اسمه ...

واذا كان غسان كنفاني قد شمل ، بهذه الصفة ، كل من كتب باللغة العربية في الارض المحتلة ، فلأن افراحه بما يجد كانت تشمل الكتاب واشباه الكتاب ، والمقاومين واللامقاومين لان افراحه كانت تشمل اللغة العربية في فلسطين المحتلة . ولذلك ، يمكن لفت الانظار الآن الى ان بعض الاسماء الواردة في مقالات غسان كنفاني عن الادب في الارض المحتلة لا تحتل اكثر من فاصل هامشي في حياة العرب هناك، وبعضها يحتل هامشا سلبيا يتناقض مع تقدير الوهلة الاولى .

وفي الوقت الذي كان يكشف فيه غسان كنفاني غطاء السر عما يكتبه كتاب الارض المحتلة العرب ، كان يدرس نقيض هذه الكتابة واحدى مواد محاوراتها : الكتابة الصهيونية ، ودورها في تشكيل الوعي والكيان الصهيونيين . وبكلمات اخرى : كان يدرس فاعلية الكتابة لدى العدو . فقدم بذلك اول دراسة عربية عن واحد من اخطر الموضوعات الصهيونية . وكان بذلك جديدا وكاشفا ورائدا كعادته .

واذا كانت الصورة التي قدمها غسان عن الادب الصهيوني تفتقر الى تصوير بعض الجوانب المهمة فذلك يعود الى اعتماد غسان على النصوص الانكليزية المختارة من الادب العبري . واذا كانت هذه النصوص المنتقاه وحدها كفيلة بالتدليل على الدور التدميري للثقافة الصهيونية ، فكم ستكون الصوره حالكة حين نطلع على الاصل العبري الصريح الذي لا يراعي متطلبات الحرص على الرأي العام خارج الوطن المحتل !

ان دراسة غسان تتمتع بقدرة كبيرة عن التقاط الجوهري وادراك الخصائص الاساسية للادب الصهيوني ، وتشكل حافزا لدى دارسي اللغة العبريه لمواصلة خط الكشف الذي اسسه غسان كنفاني .

وقد يكون من المفيد ان نعرف ان الادب الصهيوني هو احد وسائل غسيل الدماغ الذي يتعرض له طلبتنا العرب في الارض المحتلة . ولذلك فانه يحمل امكانية تشكيل المكونات الثقافية للشاب العربي الواقع تحت الاحتلال ، بغض النظر عن اتجاه رد فعله عليه . فهو قد يؤثر في شده الى مقدمات التعايش مع نمط الحياة الاسرائيلية ومن ثم الى التخاذل او التساهل تجاه ادعاء الحق الصهيوني على ارض فلسطين . ومن ناحية ثانية يؤثر فيشده الى موقع الرفض لكل جوانب الحياة والفكر الصهيونيين.

★ ★ ★

ويا صديقي غسان !

ان البياض امامي كثير . ودمك الذي يجف ما زال يلون . لقد ودعت مرحلة من حياتي حين كنت اودعك . جئت ورايت . ورأيتك كيف تذهب . لقد اتسعت مساحة الارض المحتلة ولم يعد ذلك ميزة . ودورة السجون تدور . . تودع وتستقبل . وكل ارض ترى استشهاد ابناء شعبي . ونحن مطاردون في كل مكان . والكاتب ملعون ومتهم بالحياة والكتابة . والوطن هو الوطن ولم تكتب فيه حرفا واحدا . واين هي الارض غير المحتلة في السكون ؟ واين هي الارض المحتلة في الثورة ؟

ويا صديقي غسان !

لم نتناول طعام الغداء الاخير . ولم تعتذر عن تأخرك . تناولت سماعة التلفون لالعنك كالمعتاد : « الساعة الثانية ولم تصل ! كف عن هذه العادة السيئة » .

ولكنهم قالوا لي : قد انفجر !

والآن ، اكتب اليك دون ان اخشى يد كمال ناصر التي خطفت رثائي لك . وقال مازحا : لا تنشر هذا الكلام عن غسان كنفاني . هذا الكلام يليق بي . . وسأقتل قريبا.

كان يمزح ؟ نعم . ولكنه انفجر ايضا .

لا احد يحيا لنفسه كما يشاء .

ولكننا نراك في كل مكان . . تحيا فينا ولنا . وانت لا تدري ، ولا تعلم .

دور العلم والتكنولوجيا في المعركة

الدكتور الياس زين

عندما اطلق الاتحاد السوفياتي ، اول قمر صناعي وحلق فوق الارض ، عام ١٩٥٧ ، راحت ملايين الناس في العالم تتساءل : « لماذا وصل الروس بالذات الى الفضاء الكوني قبل غيرهم ؟ »

وفي الواقع ، حاول مئات من العلماء والتكنولوجيين والمهندسين والعسكريين والديبلوماسيين والمعلقين الصحافيين وغيرهم ، ان يجيبوا على هذا السؤال وما شابهه . ولا ريب في انهم عرضوا مختلف التفسيرات والتحليلات لاسباب « نجاح روسيا العجيب » . الا ان الباحث المدقق ، عندما يحاول ان يجمع شتى التفسيرات، لا يمكنه الا ان يخرج بنتيجة واحدة وهي : ان نجاح الاتحاد السوفياتي في ارتياد الفضاء، اولا ، هو نتيجة حتمية لانجازات الروس في ميادين العلوم والتكنولوجيا . وفي اعقاب نجاح اطلاق « سبوتنك » الاول ، كتبت جريدة « يورك شاير بوست » ، البريطانية ، قائلة : « ان تحول روسيا خلال جيل واحد تقريبا ، من بلد الفلاحين الاميين والمثقفين الحالمين ، الى دولة ذات علم طليعي ، ينبغي اعتباره واحدة من اعجب حقائق التاريخ » (١). واعلن العالم الاميركي ، ادوارد تيلر ، اول صانع قنبلة هيدروجينية في العالم ، قائلا : « ينظر الروس الى العلم ، كما لو كان دينا لهم ، وينظرون الى علمائهم باقصى درجات الاحترام » (٢) .

والسؤال الآن : ماذا كانت ردود فعل الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول الغربية ، لهذا الانتصار ، بل التحدي العلمي والتكنولوجي السوفياتي هذا ؟ لا نغالي اذا قلنا انه اجتاحت الولايات المتحدة آنذاك ، حالة شبه ذعر ، وارتبكت الاوساط العلمية والتربوية والسياسية، واعتبرت النجاح العلمي السوفياتي من ناحية ، وفشل المحاولات الاميركية الاولى لوضع جرم فضائي مماثل من ناحية ثانية ، نكسة كبيرة للولايات المتحدة ، تحمل في طياتها ابعاد ومضاعفات عسكرية ودولية خطيرة . الا ان الموضوع الذي يهمنا ، في هذا البحث ، هو: ماذا فعل الاميركيون للتغلب على « النكسة » وتصفية آثارها ؟

ان هذا الانتصار العلمي ، قد حمل كثيرين من مختلف الهيئات والمؤسسات الاميركية على الاعتقاد بان التعليم السوفياتي للعلوم ، كان متفوقا على نظيره الاميركي . فراحت تلك الهيئات تطالب المعاهد التعليمية في اميركا ، باعداد العلماء والباحثين والمخترعين ، الذين يتوقع ان يتم على ايديهم رفع الولايات المتحدة الى المكانة الاولى ، في ميادين العلوم والتكنولوجيا الحديثة .

وعلى اثر ذلك ، كان اول ما قام به الاميركيون ، تأليف لجان مختصة في طول البلاد وعرضها ، لدراسة المناهج التربوية والبرامج التعليمية ، المعمول بها آنذاك ، في المستويات التعليمية جميعها (ابتداء بالمدارس الابتدائية حتى الجامعية) ، وكذلك حتى اضخم مختبرات

الابحاث النووية ، لتحديد مواطن الضعف فيها، ولتقديم طرائق التدريس والاساليب المتبعة في المراحل التعليمية المختلفة ، لمعرفة مدى فعاليتها في تهيئة العدد الكافي من العلماء والباحثين والمخترعين وتدريبهم . وكانت الغاية من ذلك ، تطوير العلوم وتعزيزها لتواكب التطورات العلمية الحديثة ، ومتطلبات التحدي العلمي والتكنولوجي والعسكري ، التي اخذت تواجه البلاد الاميركية .

ونتيجة للدراسات والابحاث والنقد الذاتي والتمحيص الدقيق ، التي قامت بها اللجان المختصة ، فقد تم اتخاذ خطوتين اساسيتين ، هما : (١) تعزيز البحث العلمي ، النظري والتطبيقي، في البلاد ودفعه الى الامام ،بسرعة وخاصة في المجالات الحيوية ،التي تخلفت فيها اميركا وراء الاتحاد السوفياتي . (٢) اجراء اصلاح جذري في مناهج العلوم والرياضيات واساليبها التربوية ، لتعزيزها ولتجديدها ، بما يتفق والاهداف القومية ، للنمو على المستويات كافة ، في حياة الامة الاميركية . وقامت الحكومة الاتحادية الاميركية بتحويل مشروعات كثيرة للمناهج العلمية ، التي تركز على قيمة البحث الاصيل والتجربة الذاتية ، كوسيلة لحث الشباب على الالتحاق بالفروع العلمية في المدارس والمعاهد . وقد سلكت هذا السبيل ايضا ، بعض البلدان في اوروبا الغربية ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلدان الاسكندينافية (٣) .

اهداف البحث واطاره العام

ان الغاية من هذه الدراسة ، ان نظهر ، بالارقام والحقائق ، دور العلم والتكنولوجيا ، في خدمة المعركة ضد التخلف بوجه عام ، وفي خدمة الدفاع والامن والحرب بوجه خاص . فجميع الدلائل تشير الى ان العلوم والتكنولوجيا تمثلان دورا بارزا في بناء امة قوية ، تستطيع ان تواجه التحديات الاقتصادية والعسكرية . وعليه ، فاننا ننطلق ، في هذا البحث ، من الافتراض القائل بان المعارف العلمية والتقنية، قوة استراتيجية فعالة من الدرجة الاولى . ولا يمكن لاي امة ان تصبح قوة اقتصادية وعسكرية ، الا بالاعتماد ، اولا ، على العلم والتكنولوجيا ، كما سنبين في هذا البحث ، بعد قليل . ومما يجب الاشارة اليه ، هو ان المعركة التي تخوضها الامة العربية في الوقت الحاضر، ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية ليست مواجهة عسكرية فحسب ، بل مواجهة علمية وتقنية ايضا . ولا ريب في ان المعركة العلمية والتقنية هذه ، لا تقل خطورة عن المعركة على الجبهات الاخرى . بل والاهم من كل ذلك ، ان النجاح في المعارك العسكرية ، على ما يبدو يعتمد الى حد بعيد ، على العلوم والتكنولوجيا ، وما يجري في المراكز والمختبرات من بحوث واختراعات واكتشافات علمية . ويظهر ، مع الاسف ، ان الاقطار العربية عامة، لم تعتن بالعلوم والتكنولوجيا ، كما يجب . لذا نجد ان ثمة فجوة علمية وتقنية بين الامة العربية وبين اسرائيل ، وان هذه الهوة آخذة في الاتساع ، كما سنرى . واسرائيل اذا ماضية في كسب الحرب العلمية والتقنية غير المعلنة في الشرق الاوسط (٤) .

سنبدأ بحثنا بتحديد مفهوم العلم والتكنولوجيا والمعركة ، ثم نذكر دور العلم والتكنولوجيا واهميتهما في المعركة ، وبعدها نعرض الوضع الراهن لواقع العلم والتكنولوجيا في الاقطار العربية ، ثم نقدم عرضا موجزا يوضح كيف تسخر اسرائيل وقواتها المسلحة العلم والتكنولوجيا في خدمة الحرب ، واخيرا نقترح اهم الخطوات الواجب اعتمادها في البلدان العربية لوضع العلوم والتكنولوجيا في المعركة ، وكذلك وسائل التنفيذ .

مفهوم العلم والتكنولوجيا والمعركة

قبل ان نسترسل في بحثنا ، يجدر بنا ان نحدد بعض المفاهيم الاساسية التيتتكرر هنا، وهي العلم والتكنولوجيا والمعركة . فالعلم والتكنولوجيا مظهر من مظاهر الحياة البشرية، ونشاط من النشاطات الانسانية الواسعة النطاق ، وسلعة من السلع الكثيرة ، التي يستخدمها الانسان المعاصر ويستهلكها في كل يوم من حياته . ويضم هذا النشاط ، كل ما تجمع لدى الانسانمن معارف وابحاث ومعلومات ونظريات ، في الحقول والمواضيع العلمية كافة، الممتدة من العلوم البحتة ، الطبيعية والاحيائية

(البيولوجية) من جهة ، الى العلوم التطبيقية (التكنولوجية) من جهة اخرى . وفي ضوء ذلك ، يمكن للعلم ان يتنبأ او يستعمل للتنبؤ ، بحوادث المستقبل . وبالاضافة الى ذلك ، فان العلم لا يقتصر على ذلك ، بل هو روح ومنهجية علمية ، اكثر منه مجموعة معارف عامة او نظريات تجريبية . فهو في الواقع طريقةونمط معين لحل المشاكل - ليس ربما كل المشاكل ، بل قسم كبير من المشاكل العلمية ، وخاصة تلك المشاكل الخاضعة الى قوانين المنطق الاساسية ، وخاصة المادية في طبيعتها. فالعلم اذا هو طريق تنظيم المعرفة حول مثل هذه المشاكل ، بالتركيز عليها ، لتحليلها ولتقويمها ولفحص الافتراضات . وبكلمة ، ان العلم روح ومنهجية علمية وطريق في التفكير والتجربة ، اكثر منه مجموعة معارف عامة ، او نظريات تجريبية ، تتغير وتتجدد ساعة بعد الاخرى .

واما التكنولوجيا (التقنية) ، فهي تطبيق المعرفة والنظريات العلمية ، اذلك تسمى ايضا العلوم التطبيقية . وجدير بالذكر ان التكنولوجيا لا تعني شيئا ، الا اذا وجدت لها مجالا في المجتمع . ويمكننا ان ندرك تطورات التقنية فقط ، عندما نجد تأثيرها على الطريقة التي نعيش فيها ، سواء في مجالات الصحة او الصناعة والزراعة او التعليم او الدفاع والحرب . وتشمل الوسائل التكنولوجية مثلا ، وسائل النقل الحديثة ، والالات الزراعية الحديثة ومبيدات الحشرات ، وادوات التعليم والتقنيات التربوية ، وكذلك المعدات الحربية الحديثة ووسائل الدفاع والدمار من طائرات وصواريخ ومدافع وقنابل ودبابات وبنادق وغير ذلك من وسائل الحرب والمواد اللازمة لذلك (٥).

ونقصد بالمعركة ذلك الصراع الدائر حاليا بين الامة العربية ، وبين العدو الاسرائيلي والصهيونية والامبريالية العالمية . ولا يقتصر هذا الصراع على النزاع العسكري فحسب ، بل على التحديات التي تواجه الامة العربية في المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية والاعلامية ايضا .

دور العلم والتكنولوجيا في الحروب

والآن نقدم عرضا للدور البارز الذي مثله العلم والتكنولوجيا ، عبر التاريخ ، منذ ايام اليونان القدماء حتى يومنا هذا . ولا يمكن ان نذكر سوى بعض النماذج فقط لضيق المجال . ويعود استخدام العلم والعلماء في المعارك منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، عندما سأل ملك اليونان انذاك العالم الرياضي ، ارخميدس ، كي يخترع اسلحة للدفاع وللهجوم ، تكون اكثر فعالية من اي شيء عرف في ذلك الزمان . وكان ارخميدس قد قال للملك في احد الايام : « اعطني عتلة ومكانا ، لاضعها ، لكي اهز العالم » . ووجه ارخميدس مواهبه الى الالات الحربية ، فاستخدمت معلوماته عن العتلات في بناء المنجنيقات .

وفي العام ٢١٥ قبل الميلاد ، حاصر الاسطول الروماني مدينة سيراكيوز (سرقسطة) اليونانية ، فرست سفن العدو الروماني في الميناء وبعضها وصل الى الشاطىء وربط بالصخور هناك . وفي اثناء الحصار ، ابتدع ارخميدس نوعا من العدسات المصقولة ، استطاعت اشعال النار في الاسطول الروماني ، وذلك بعد تركيز حرارة الشمس على مراكب العدو . فارتعب الرومان من اعمال العالم اليوناني وفكوا الحصار . فاصبحت جميع الاسلحة غير فعالة امام اختراع ارخميدس هذا. وكان اختراعه سلاح الدفاع والهجوم للمدينة . ويقول المؤرخ بوليوس : « ليس من شك في ان الانسان الواحد ، والعقل الواحد ، اذا كان يملك المؤهلات الجيدة للعمل ، الذي كلف به ، يقوم في ذاته مقام جيش . ولا نزال نحن ، في العصور الحديثة ، نعتقد بان هذا القول صحيح . فان فرقة صغيرة من العلماء ، هي التي تمكنت وحدها من صنع الاسلحة النووية الرهيبة (٦) .

وبعد القرن الثاني عشر للميلاد ، ارتبط العلم وصناعة الحرب ارتباطا وثيقا ، ولم يكن ذلك وليد الصدفة . وكان احياء فن الحرب القديم مرتبطا ارتباطا وثيقا بالانتعاش والتطور في المعرفة العلمية القديمة . لقد كان القليلون من العلماء الاوروبيين الاولين جنودا ،

ولكن في القرون الاخيرة ، عمل الكثيرون من العلمـاء كمستشارين ومعاونين فنيين في الجيوش . لقد سجل عدد كبير من الجراحين العسكريين اسماءهم في سجلات الجيش . وكان عددهم اكبر بكثير من عدد المهندسين ، لان هؤلاء ركزوا ، في مساهمتهم في الحرب ، على اختراع الآلات الحربية ، فضلا عن مساهمتهم في العلم النظري للحرب . وكان ليونـارد دا فنشي اول اصحاب العقليات الفذة الاصيلة ، في تاريخ العلم الحديث ، الذي عمل في الهندسة العسكرية . هذا ولقد وجه الكثيرون من اعظم العلماء في ايطاليا وفرنسا وانكلترا ، في اثناء القرن السادس عشر ، واغلب سنوات القرن السابع عشر ، انتباههـم الى القضايا ذات الطابع الفني العلمي من صناعة الحرب .

وفي ابان الحروب الايطالية الفرنسية ، في عصر مكيا فيللي ، استخدم الفرنسيون المدافع لتدمير تحصينـات القرون الوسطـى ، ذات الجدران العالية ، التي كانت حول المـدن الايطالية . وكان رد الايطاليين على ذلك ، اختراعهم نموذجا جديدا للقلاع ، ادخلت عليه التعديلات ، فيما بعد ، وظل يستخدم في اوروبا كلها ، حتى فجر القرن التاسع عشر . وهكذا اصبح تخطيط هذه القلاع فنا يتطلب دراية حسابية وهندسية . وكان عدد من العلماء الاختصاصيين ، هم وحدهم ، الذين يعملون في هذا الميدان . ولقد اشتهر من بينهم العالم الرياضي الايطالـي ، « تارتاليا » ، والعالم الهولندي الكبير ، « سيمون ستيفن »، وبقيت شهرتهما قائمة بسبب ما اسهما به في الرياضيات والميكانيكا . هذا وكان الكثيرون من العلماء يقومون بتدريس فن التحصينات . وكان من ابرز اولئك العالم الايطالي المعروف، جاليليو ، الذي كان يقوم بتدريس هذا العلم في بادوا . وتجدر الاشارة الى ان هندسة القلاع امتدت الى فرنسا ، حيث علم ملكها الذاك ، فرنسيس الاول ، بمهارة المهندسين الايطاليين ، فاستخدم عددا منهم في جهوده الاولية ، لتحصين حدوده الشمالية والشرقية ، ضد تهديد شارل الخامس .

ونلاحظ في دراسة تطورات المدفعية ، طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، التعاون الوثيق بين المهارة الفنية والمطالب العسكرية. وقد الف العالم ، بير هجوتشو ، كتابا في علم الكيمياء ونشر عام ١٥٤٠ ، وظل هـذا الكتاب لوقتطويل المرجع الرسمي للمستحدثات النارية العسكرية ، ولاعداد البارود ولاستخلاص المعادن التي تصنع منها المدافع .

وفي قرابة نهاية القرن السابع عشر ، كان تقدم العلـم والمعرفة عاملا دافعا لايجـاد التجارب الاولى في التعليم العسكري الفني ، كما كان دافعا لان تتولى حكومتا انكلتـرا وفرنسا ، رعاية العلم في بلديهما . ونالت الاكاديمية الملكية في لندن قانونها علـى يد الملك شارل الثاني عام ١٦٦٢ . وبعد اربـع سنوات ، انشأت الاكاديمية الملكية الفرنسية للعلوم . وفي هاتين الهيئتين ، اللتين اوجدتا اصلا مـن البداية للمعرفة النافعة ، اجريت بحوث عدة ذات فوائد عسكرية لكل من الجيش والاسطول . ولقد شغل اعضاء الاكاديميتين ، باجراء دراسات وبحوث في حركة المقذوفـات والمفرقعات ، وخواص ملح البارود ، والوسيلة الصحيحة لقياس خطوط الطول في البحر ، وغير ذلك من الموضوعات الاستراتيجية الهامـة للجيش وللبحرية (٧) .

وشهد القرن الثامن عشر ثورة في فن الحرب، وذلك بادخـال سلسلة مـن التحسينـات في الاسلحة النارية . فما وافت سنة ١٧٣٠ ؛ حتى كانت بندقية الجندي ، في فرقة المشاة ،تصلح لاطلاق اكثر من طلقة واحدة ، في الدقيقة . ثم اخترع مدفـع للميدان خفيف الحمل سهـل الاستعمال ، ثم جاءت المدفعية التي تجرهـا الخيل ، اي « المدفعية الراكبة » (٨) .

وقد بينت الحرب العالمية الثانية اهميـة العلم في الصناعة الحربية ، وفي الدفاع القومي، والدور الحيوي الذي يمثله العلم في التـاج الاسلحة الحديثة . ففي سنة ١٩٣٩ تولـى العلماء البريطانيون وظائف عالية في الحكومة وفي الصناعة ، لحل قدر كبير من القضايا التي تواجه البلاد من جراء الحرب . وقام ، فـي الولايات المتحدة الاميركية ، مكتب البحـوث العلمية بنفس المهمة ، فوفق الى اختراعات ساعدت على كسب الحرب . ولعل اهم ما يذكر

عن ذلك ، مشروع « مانهاتن » ، الذي نسق بين عدد من مواهب الاختصاصيين ، للكشف عن القنبلة الذرية · وكان الوقت هنا هو العنصر الحيوي ، فتوحدت الجهود للوصول اليها ، وهكذا كان (٩) ·

ويمكن القول ان الحرب العالمية الثانية كانت حرب علماء ، الى حد بعيد · فاصبح هؤلاء حماة الامة والمدافعين عن امنها · فالعلماء في مختبراتهم ، الى حد ما ، قد حلوا محل الجيوش والاساطيل ، بفضل اكتشافاتهم واختراعاتهم وابتكاراتهم ولا ريب في ان التطور العلمي والتقني المذهل ، الذي يشهده العالم المتقدم ، بعد الحرب العالمية الثانية ، قد قلب الاوضاع والمفاهيم في مختلف نواحي الحياة العصرية ، سواء في قدرة الامة الدفاعية ، او في قدرتها الاقتصادية والتربوية والسياسية والاجتماعية · ويمكن القول بثقة ، ان ارتفاع مستوى المعيشة ، ومستوى القوة العسكرية ومستوى الصحة في مجتمع ما ، يرتبط ارتباطا مباشرا بمستوى تطور العلوم والتكنولوجيا في ذلك المجتمع (١٠) · ويقول وزير الدفاع الاميركي الاسبق والرئيس الحالي للبنك الدولي ، السيد روبرت ماكنمارا : « ان الدفاع الوطني ، والامن ، في العالم المعاصر ، هو ، في الحقيقة ، الازدهار الاقتصادي والعلمي (١١) » · فلا غرابة ان نجد ان البلدان المتقدمة والبلدان النامية ، على السواء ، تتسابق ، الى انشاء المؤسسات العلمية والمختبرات للبحوث العلمية ، والى ادخال المزيد من المواد العلمية في مناهج التدريس ، والى اعداد المزيد من العلماء وتدريبهم ، اما في جامعاتها ومعاهدها ، او عن طريق البعثات العلمية في الخارج · لان هناك ادراك متزايد بين شعوب العالم كافة ، ان مصيرها يتوقف ، في الدرجة الاولى ، على اكتشافات علمائها وتكنولوجييها واختراعاتهم، وانتاج مصانعها من الالات والمعدات والمواد اللازمة لها (١٢) ·

وفي ضوء ذلك ، فان الحل الوحيد ، الذي يضمن للعرب اسباب القوة الاقتصادية والعسكرية ، بالاضافة الى سلاح البترول ، هو الاخذ باساليب العلوم والتكنولوجيا الحديثة ·

الوضع الراهن للعلوم والتكنولوجيا في الاقطار العربية

لا ريب في ان القاء نظرة فاحصة على الوضع الراهن للعلوم في الاقطار العربية ، يرينا وجهين : الاول مشرق اجمالا والآخر قاتم · كما نجد عناصر ايجابية يمكن ان نفتخر بها ونشجعها ، يقابلها عناصر سلبية ، لا يمكن السكوت عنها في الوقت الحاضر ·

١ ـ الوجه المشرق للعلوم :

اذا القينا نظرة سريعة ، على احوال العلوم والتقنية في البلدان العربية عامة ، نجد بعض التطور ، وان لم يكن كافيا او في المستوى المطلوب · ولعل من ابرز مظاهر هذا التطور او بالاحرى الاهتمام بالعلوم النقاط الآتية :

١ ـ عقد مؤتمرات علمية بعد حرب ١٩٦٧ :
من الملاحظ ان الاهتمام بالعلوم بدأ بشكل واضح في اعقاب نكسة حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ · ولعل من اكبر هذه المؤتمرات العلمية « المؤتمر الوطني السابع للانماء » ، الذي انعقد في بيروت في ٢٤ ـ ٢٥ / ١١ / ١٩٧٣ حول « استراتيجية الثورة العلمية والتكنولوجية العربية : تكوين البنية الاساسية للتقدم العلمي والتكنولوجي » · وقد نظم المؤتمر ندوة الدراسات العلمية بالاشتراك مع المركز التربوي للبحوث والانماء · وقد اشترك في المؤتمر مئات العلماء والباحثين وعدد غفير من رجال التربية والاعلام والقانون والانماء والسياسة والطب ، الخ · ولقد جمعت الدراسات التي قدمت في ثمانية اجزاء · ولا ريب في انها تعد مرجعا اساسيا لكل المهتمين بالعلوم والتكنولوجيا · هذا وعقدت ندوة الدراسات العلمية ايضا ، مؤتمرها الوطني السادس للانماء حول « لبنان وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية » ، وذلك في بيروت في اواخر تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧٢ ·

وتعقد الجمعية اللبنانية لتقدم العلوم ، منذ عام ١٩٦٨ ، مؤتمرات علمية ، وبدأت مؤخرا تصدر ملخص البحوث لكل مؤتمر في كتاب ، يعد مرجعا مهما جدا للباحثين · وانعقد في بيروت ايضا ، مؤتمرا حول « العلم والتكنولوجيا

في البلدان النامية » في اواخر عام ١٩٦٧ . وقد نشرت الدراسات في كتاب طبع باللغة الانكليزية .

ب ـ **انشاء مؤسسات للتعليم الفني والتقني العالي** : بدأ بعض الاقطار العربية ينشىء مؤسسات للتعليم الفني والتقني العالي، بشكل يتجاوز الجامعة التقليدية . فهناك معاهد فنية عليا في الزراعة ، الصناعة ، وتدريب المعلمين وغير ذلك من التدريب ، وذلك خارج نطاق الجامعة التقليدي . ففي مصر مثلا ، نجد ، بالاضافة الى مختلف الجامعات ، عددا كبيرا من المعاهد الفنية العليا ، كالمعاهد الصناعية والمعاهد الزراعية او المعاهد التجارية ومعاهد الاقتصاد المنزلي، ومعاهد الخدمات الاجتماعية، الخ . كما نجد معاهد مماثلة في بقية الاقطار العربية (١٣) .

جـ ـ **توسع في الكليات العلمية** : في اوائل الخمسينات ، لم يكن في الجامعة الاميركية في بيروت مثلا ، سوى كليتين : واحدة للاداب والعلوم والاخرى للطب . وبعد ذلك بقليل ، اضيفت كلية العلوم الزراعية وكلية الهندسة. وهذا الوضع يطبق ايضا على بقية الجامعات في الاقطار العربية ، حيث يجري المزيد من انشاء كليات للعلوم . وفي اوائل عام ١٩٧٥ تحولت كلية الهندسة في جامعة بغداد الى جامعة للتكنولوجيا (١٤) .

د ـ **انشاء وزارات ومجالس واتحادات ومنظمات علمية** : ومن مظاهر الاهتمام في العلوم ، تأليف وزارات خاصة بالعلم والتكنولوجيا (العلوم الصناعية) او بالبحث العلمي ، ومجالس علمية للاشراف على تشجيع البحوث العلمية وتنسيقها وتخصيص مبالغ مالية متزايدة من خطط التنمية الاقتصادية للانماء العلمي . وعلى الصعيد العربي، انشىء اتحاد العلميين العرب ، واتحاد الفيزيائيين العرب ، ومنظمة التربية والعلوم والثقافة العربية ، الخ .

٢ ــ الوجه القاتم للعلوم :

ويقابل هذا الوجه المشرق للعلوم ، وجه آخر قاتم . ومن ابرز مظاهر هذا الواقع المرير لاوضاع العلوم الآتي :

أ ـ **نقص في الاعداد العلمي** : تؤكد احدث الدراسات المتوافرة ، ان ثمة نقصا واضحا في الاعداد العلمي على الصعيد الجامعي . فقد بلغت نسبة الطلاب المسجلين في الجامعات في الاقطار العربية في الحقول العلمية والتقنية ٣٩ بالمائة ، مقابل ٦١ بالمائة للملتحقين بالآداب والفنون (العلوم الانسانية ، الحقوق ، التربية، الفنون الجميلة ، العلوم الاجتماعية) ، في عام ١٩٧٠ ، بيد ان هذه النسبة تبدو ضئيلة بالمقارنة مع اوروبا ، حيث بلغت نسبة طلاب العلوم في الجامعات ٥٨ بالمائة مقابل ٤٢ بالمائة للاداب والفنون في عام ١٩٦٥ (١٥) .

ب ـ **نقص في معدل خريجي العلوم** : وهناك نقص كبير في معدل خريجي العلوم في الاقطار العربية ، حيث بلغ المعدل لكل ١٠٠ الف نسمة من السكان ٣ مقابل ٣٧ لاميركا الشمالية و٣ر١٣ لاوروبا . بينما نجد المعدل ٤ لاسيا ، و٤ر١ لاميركا اللاتينية و٣ر٠ لافريقيا (١٦) .

جـ ـ **هجرة اصحاب الكفايات العلمية** : تخسر الاقطار العربية اهم ثروة لديها ، اعني بها اصحاب الكفايات العلمية ، عن طريق الهجرة الى الخارج ، ويستفاد من دراسة مصرية ان اكثر من ٥٨ بالمائة من مجموع الذين هاجروا من مصر هم من العلماء والمهندسين و٥ر١٧ بالمائة من حملة شهادة الماجستير في العلوم .

وكشف بحث مفصص لخريجي الجامعة الاميركية في بيروت النقاب ، عن ان ٦٥ بالمائة من اللبنانيين ، الذين هاجروا الى بلدان متقدمة ، هم من حملة الشهادات في الهندسة، مقابل ٥ بالمائة فقط لحملة الشهادات في الاداب والفنون والادارة والعلوم . واما بالنسبة لخريجي كلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت فبلغت نسبة الاطباء اللبنانيين ٣٣ بالمائة ، والفلسطينيين ٢٥ بالمائة ، والسوريين ١٨ بالمائة والمصريين ١١ بالمائة . ويؤخذ من دراسة تناولت خريجي قسم الكيمياء في الجامعة الاميركية ، خلال ١٩٣٠ ـ

١٩٧٠) ، ان ٥٤ بالمائة من حاملي شهادة الدكتوراة في الكيمياء ، و٣٢ بالمائة من حاملي الماجستير في العلوم ، و٢٠ بالمائة من حاملي شهادة البكالوريوس في العلوم كانوا يعملون في الخارج خلال ١٩٧٠ – ١٩٧١ (١٧) . هذا وتخسر المملكة الاردنية الهاشمية تقريبا كل علمائها ومهندسيها واطبائها ، كما تخسر سوريا حوالي ثلثي مهندسيها (١٨) .

وهناك نوع آخر من الهجرة ، نطلق عليها « الهجرة الداخلية » . ونقصد بذلك عدم استخدام الطاقات العلمية او سوء استخدامها في المراكز المناسبة . ولا ريب في ان هذا النوع من الهجرة ، هو اسوأ من الهجرة الى الخارج ، كما انه عامل من عوامل دفع العلماء العرب للنزوح الى الخارج .

٣ – مقارنة بين الاقطار العربية واسرائيل :

قبل ان نأتي الى البحث ، في اوضاع العلوم في اسرائيل ، يجدر بنا ان نقارن الاحوال العلمية ، في الاقطار العربية وفي اسرائيل ، لنرى مدى التخلف العلمي في العالم العربي . فعلى الرغم من ان عدد سكان الاقطار العربية بلغ ١٣٥ مليون نسمة ، ومساحتها ١٣ مليون كيلومتر مربع ، مقابل اكثر من ثلاث ملايين اسرائيلي ومساحة ٢٠٫٧٠٠ كيلو متر مربع ، وعائدات بترول قدرت بحوالي ٧٥ بليون دولار، عام ١٩٧٥ ، فما زالت البلدان العربية متخلفة، في الابحاث العلمية والانتاج العلمي . والشيء المرير حقا هو ان الهوة العلمية بين العرب واسرائيل ، آخذة في الاتساع باستمرار ، لصالح اسرائيل ، كما سنبين .

أ – الموقف من العلوم : لا بد للدارس من ان يجد بوضوح الاهمال الزائد للعلوم في معظم الاقطار العربية ، بينما نجد اهتماما كبيرا ومواقف جدية تماما ، نحو العلوم في اسرائيل ، فيعتبر الاسرائيليون ان العلوم والتعليم العالي ، كوسائل للسياسة ، يجب حمايتها وتشجيعها بعناية .

ب – النتاج العلمي : على الرغم من ان عدد العرب يفوق عدد الاسرائيليين بمعدل ٤٥ الى

١ ، فان نتاج اسرائيل العلمي في الحقول العلمية يقدر بحوالي مرتين ونصف المرة لجملة نتاج العالم العربي في العلوم . ومعدل نتاج الفرد العلمي في اسرائيل يساوي معدل ١٠٠ فرد عربي . وهل تعلم ان مدينة واحدة صغيرة في اسرائيل ، تنتج ابحاثا علمية اكثر من معظم الاقطار العربية مجتمعة . وعلى صعيد البحوث العلمية ، تنتج اسرائيل وحدها ، حوالي ٣٠ ضعف ما ينتجه لبنان . واذا استثنينا الابحاث التي تقوم بها الجامعة الاميركية في بيروت ، فان النسبة تصل الى ٥٠ ضعفا . وكذلك تنفق اسرائيل على البحوث العلمية ٥٠ ضعف ما ينفقه لبنان .

جـ – عدد العلماء الناشرين : ويفوق عدد العلماء الناشرين في اسرائيل العلماء الناشرين في العالم العربي . بلغ مجموع العلماء الناشرين في ١٣ قطرا عربيا (٥٥١ عالما فقط) في عام ١٩٦٩ مقابل ١٥٤٢ عالما ناشرا في اسرائيل وحدها في العام نفسه . ويلاحظ ان عدد العلماء الناشرين ، في الدول العربية ، يتزايد ببطء بالمقارنة مع اسرائيل . ففي عام ١٩٦٧ ، بلغ عدد العلماء الناشرين في ١٣ قطرا عربيا ٤٦٥ ، وارتفع الى ٧٥٠ عالما في عام ١٩٧١ ،بينما ارتفع العدد في اسرائيل من ١١٢٥ الى ١٧٣٩ عالما ، خلال الفترة المذكورة .

د – ابحاث ذرية : تستثمر اسرائيل العديد من الابحاث في الفيزياء النووية والهندسة النووية . ويتزايد الحديث عن ان اسرائيل تملك الطاقة العلمية لانتاج اسلحة ذرية ، بيد انها لا تملك قنبلة الآن ، ولكنها تستطيع ان تنتج اسلحة ذرية في خلال ستة اشهر الى سنة واحدة . ولا يملك اي بلد عربي الامكانيات العلمية الاساسية في حقل الذرة .

هـ – انفاق على البحوث : ينفق العرب على البحوث العلمية حوالي ١٠٠ مليون دولار في السنة ، بينما تنفق اسرائيل ثلاثة اضعاف هذا الرقم . ويؤخذ من احدث الاحصاءات ان الابحاث العلمية آخذة في التوسع والنمو بمعدل ٢٦ بالمائة في السنة .

و – العلوم الصناعية : لقد ادى اهتمام

اسرائيل بالعلوم والابحاث العلمية ، الى تنمية الصناعة ، وخاصة في حقل صناعات الكهرباء والالكترون • وانشأت اسرائيل٦٠٤ر١ مؤسسات صناعية ، في هذا الحقل بين ١٩٦٣ و ١٩٧٠ • وبالاضافة الى القيمة الاقتصادية الكبرى لهذه الصناعة ، فانها مهمة وحيوية في المجال العسكري والحربي • ومقابل ذلك ، لا نجد اية صناعة كهربائية عامة ، يمكن مقارنتها ، بتلك في اسرائيل • كما لا يتوافر في اي بلد عربي دروس جامعية مناسبة ، في حقول الهندسة الكهربائية الملائمة لصناعة الالكترونيات •

ز ـ **الحاسبات الالكترونية** : وما زالت الالات الحاسبة الالكترونية (كمبيوترز) في البلدان العربية ضئيلة ، بالمقارنة مع اسرائيل • ويقدر عدد الالات هذه ، اكثر من عشرة الاف حاسبة، اي اكثر من جملة الالات الحاسبة في الاقطار العربية مجتمعة • وينتج المركز الالكتروني الواحد ، من المراكز الاربعة في اسرائيل ، عدة مرات ما تنتجه الالات الالكترونية في البلدان العربية مجتمعة (١٩) •

د ـ **اصدار الكتب العلمية والتقنية** : تصدر سبعة اقطار عربية ، وهي : مصر والسودان وليبيا والمغرب والاردن والكويت وقطر ٥٨٤ كتابا في العلوم البحتة والتطبيقية ، من اصل ٣٢٥١ كتابا في المواضيع كافة ، اي بنسبة ١٥ بالمائة ، وذلك لعام ١٩٧١ او ١٩٧٢ ، مقابل ٣٠٣ كتب علمية لاسرائيل في الفترة نفسها ، مع العلم ان عدد سكان هذه الاقطار مجتمعة ، لا يقل عن ٢٥ ضعفا اكثر من عدد سكان اسرائيل • وتجدر الاشارة الى ان اصدار الكتب العلمية سمة من سمات الدول المتقدمة في العصر الحاضر • تبلغ نسبة الكتب العلمية لمجموع الكتب الصادرة مثلا في الاتحاد السوفياتي ٥١ بالمائة ، وفي فرنسا ٢١ بالمائة ، وفي اليابان ٢٢ بالمائة • وبكلام اخر طبع الاتحاد السوفياتي ٥٩٣ر٤١ كتابا علميا وتقنيا عام ١٩٧١ ، اي ٧١ مرة اكثر من جملة الكتب الصادرة في الدول العربية السبع المذكورة • وطبعت اليابان ٦٥١ر٧ كتابا علميا وتقنيا ، اي اكثر بـ ١٣ مرة من الاقطار العربية المذكورة • وطبعت فرنسا ٣٥٤ر٦ كتابا علميا وتقنيا ، اي اكثر من الاقطار العربية المذكورة(٢٠) •

٤ ـ هل يخدم العلم العربي المعركة ؟

هناك علاقة وثيقة بين مستوى تطور العلوم والتكنولوجيا وتقدمها وبين مستوى القدرة العسكرية في اي بلد • فالامة القوية علميا وتكنولوجيا ، هي امة قوية عسكريا واقتصاديا وسياسيا واعلاميا ، الخ • والعكس صحيح •

وتجدر الاشارة الى ان قدرة البلاد العسكرية ، تأتي من الربط بين النشاط العلمي والتقني ، وبين متطلبات القوات المسلحة من اسلحة متطورة وحديثة • ونذكر هذه الحادثة لنبرهن على عدم ارتباط قواتنا المسلحة بالعلم وبالعلماء • اشترت احدى الدول العربية صواريخ ارض ـ ارض ، بمبلغ ٣٠ مليون دولار ، وذلك بعد حرب ١٩٦٧ • وتنطلق هذه الصواريخ بقوة دفع مائية ، لانها مصممة في الاساس للاستعمال في المناطق الباردة من الارض عامة • ونظرا لمناخ البلاد العربية الحارة ، لم تستطع استعمال هذه الصواريخ • وهكذا ذهبت الصواريخ هدرا (٢١) ، وان دلت هذه التجربة على شيء ، فانما تدل على مدى اهمية المواصفات العلمية والتقنية في اختيار الاسلحة الملائمة لكل بلد •

غير انه جرت محاولات عربية عديدة ، خلال الاربعين السنة الماضية ، لاقامة صناعات حربية ، الا انها لم تحقق سوى القليل من النجاح الجزئي ، والباقي باء بالفشل التام • ونذكر على سبيل المثال بعض هذه المحاولات • فقبل اكثر من ٤٠ سنة مثلا ، انفقت دولة عربية مبالغ باهظة على مشروع حربي لصناعة اسلحة صغيرة • بيد ان اول انتاجه كان قبل سنتين فقط ، وكان دون المستوى المنشود • وحصلت محاولة اخرى لانشاء مصنع حربي ، خلال الفترة المذكورة ، وما زالت حتى الان معداته في صناديقها ، مكدسة في عنابر مهجورة • وانفق قطر عربي اكثر من ١٦٠ مليون جنيه في صناعة الصواريخ ، ولكنه لم يطلق صاروخا واحدا من انتاجها في اي من الحروب العربية ـ الاسرائيلية الماضية • ولم يكن حال

صناعة الطائرات افضل من ذلك ، على الرغم من توافر الاحتياجات الرئيسية لها • ويذكر ان بعض المحاولات قد لاقت نجاحات جيدة في المراحل الاولى لها ، ولكن ما لبث العمل فيها ان تعثر وفشل كليا ، بسبب فرض الادارات الصناعية التي تفتقر الى الخبرة والشجاعة والنزاهة •

وفي المقابل ، نجد ان هناك مشاريع صناعية حربية ، قد نجحت ونمت ، ولا زالت تنتج حتى الان ، ومنها صناعة المسدسات والبنادق والذخائر وانواع اخرى • ويبدو ان الجزء الاكبر من انتاج الصناعة الحربية العربية ، تتركز في مصر وسوريا • ففي مصر مثلا تنتج الذخائر لكثير من انواع البنادق والمدافع ، مسدسات حلوان ، بنادق متنوعة ، القاذف « ار • بي • جي ٧ » المضاد للدروع ، ودبابات صغيرة • اما في سوريا ، فتنتج ذخائر للبنادق وبعض انواع المدافع •

وهكذا يتضح ان العلوم والتقنيات في الاقطار العربية ، لا تخدم المعركة ، لعدم وجود القاعدة الصناعية التقنية ، بكافة كوادرها الفنية المطلوبة ، بالاضافة الى عدم التخطيط الجيد وعدم جدية القائمين على هذه المحاولات في معظم الاحيان (٢٢) •

٥ ـ اسباب تخلف العلم العربي :

بعد عرضنا لهذه الصورة القاتمة للواقع المرير للعلم والتكنولوجيا ، السؤال الذي يطرح نفسه الان هو : ما هي الاسباب الكامنة وراء هذا الواقع العلمي الاليم ؟ ثمة عدة اسباب رئيسية يمكن ان تعتبر مسؤولة عن تخلف العلوم في الاقطار العربية في الوقت الحاضر •

ـ **انظمة التربية والتعليم** : يبدو ان انظمة التربية العربية ، التي تعتبر مسؤولة بالدرجة الاولى ، عن تطور المجتمع العربي وتقدمه ، اقتصاديا واجتماعيا وعلميا وسياسيا ، هي ، اعجز من ان تواكب حاجات المجتمع العربي المتطورة حاليا ، وكذلك حاجات المجتمع المحارب والمتقدم ، الذي يجب ان تسعى التربية الى تحقيقه • لذا ينبغي اجراء اصلاحات جذرية في انظمة التعليم لتطويرها وتحديثها ، كي تساهم في بناء مجتمع عصري ومتقدم ، يستطيع ان يواجه التحديات الصهيونية والامبريالية بالممارسة النضالية المسلحة وباستخدام العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة •

ـ **هجرة العلماء العرب** : ان افضل علماء العرب يعملون حاليا في الخارج ، حيث المناخ العلمي المناسب والتقدير والتشجيع المادي والمعنوي • ويعود السبب في ذلك الى انه لا يتوافر حتى الان ، اي مخطط عربي هادف ، يمكنه استقطاب هذه الادمغة العلمية في العمل العلمي العربي • وبذلك اصبح التعليم ، سواء تم في الاقطار العربية نفسها او في البلدان الاجنبية ، وسيلة للهجرة ، وليس اداة فعالة ، كما يجب ان يكون للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية ، الخ •

ـ **عدم حشد العلماء العرب** : ومن اسباب التخلف العلمي العربي ، عدم توافر مؤسسة علمية عربية عليا ، ذات مستوى رفيع ومتقدم تستطيع ان تقرب فيما بين العلماء وتنسق مجهوداتهم وتوحد امكانياتهم العلمية ، لصالح دعم المجهود العربي في سبيل التقدم الصناعي والعسكري •

ـ **وضع العالم في المكان غير المناسب** : ومن عوامل عدم مساهمة عدد كبير من العلماء العرب في الاقطار العربية ، في تطور العلوم والتكنولوجيا ، وضع هؤلاء في مراكز غير التي يجب ان يكونوا فيها • اي انهم اضطروا ان يقوموا باعمال ادارية بحته ، بدلا من القيام بابحاث علمية منتظمة للانماء والتطوير ، وذلك للنقص الفادح في المراكز والمختبرات العلمية المناسبة لاختصاصاتهم •

ـ **معاهد للبحوث بدون ابحاث** : ونلاحظ ان مراكز البحوث العلمية نفسها ، التي تنشأ عادة لتطوير العلم والتكنولوجيا هي نفسها بحاجة الى تطوير • فقد انشأت دولة عربية نفطية معهدا للابحاث العلمية عام ١٩٦٩ • ويقول احد العلماء الذي قضى عاما دراسيا فيه (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) ، ان المعهد لم ينتج حتى دراسة واحدة مناسبة ، للقضايا التي تعانيها البلاد ، كالتلوث وتحلية مياه البحر وتحضير

البدو وغير ذلك . وتبلغ ميزانية المعهد ١٠ ملايين دولار ، تنفق معظمها على تمويل الرحلات للمؤتمرات التي لا ترتبط بالقضايا الملائمة (٢٣) .

– **العيش على هامش العصر** : لا تزال الاقطار العربية تعيش على هامش هذا العصر ، علميا وتكنولوجيا . ولم يعد يجوز لاية امة ، تريد الحياة الكريمة والقوة والتقدم ، في عصر الانطلاق العلمي والتقني الهائل ، ان تظل عالة ، على مفكري وعلماء البلدان الاجنبية و « مستعمرة » للعلماء الاجانب (٢٤) .

– **تراجع لدور العلم** : وربما تكمن اساس المشكلة في ان العرب – قادة وشعبا – لا يدركون تماما اهمية العلم والتكنولوجيا في تطور البلاد اقتصاديا وعسكريا وتقدمها . ويبدو ان العلم ما انفك ، بالنسبة للعرب ، شكلا من اشكال الزينة ، لا يستحق من المرء ان ينزعج في التفكير به ، او ان يعيره اي انتباه . فادراك معظم العرب ، لدور العلم ، في الوقت الحاضر، ليس بافضل من ادراكهم لدوره مثلا ، في عهد محمد علي في مصر عام ١٨٣٠ ، وفي عهد الامير عبد القادر الجزائري عام ١٨٤٠ . لذلك قلما نجد اشراك رجال العلم في الهيئات التشريعية، وكذلك قلما نجد اخبار العلم والعلماء ، تحتل مكانة بارزة في وسائل الاعلام الجماهيرية ،اللهم الا اذا كان الحادث خطيرا جدا ، كالهبوط على سطح القمر والتحام المركبتين الفضائيتين الاميركية والسوفياتية ، « ابوللو وسيوز » في عام ١٩٧٥ (٢٥) .

٦ – الثورة الفلسطينية والعلم :

والبحث عن العلم والتكنولوجيا ، في الاقطار العربية ، يقودنا بالطبع الى موقف الثورة الفلسطينية من العلم والتقنية . يبدو ان الثورة الفلسطينية تدرك دور العلم ، في بناء جيل ثوري وموضوعي ، يعتمد على التفكير العلمي ، وعلى استخدام العلم ، كسلاح حقيقي للارادة الثورية . فالثورة لا تحارب العدو الصهيوني بالكفاح المسلح او بالنشاط العسكري فحسب ، بل بالعلم كسلاح ايضا ، وذلك ايمانا منها ان التفوق ، العسكري والسياسي والاعلامي والاقتصادي ، يعتمد ، في الاساس ، على العلم والتكنولوجيا . فقد اسست منظمة التحرير الفلسطينية مراكز للابحاث والتخطيط من الدرجة الاولى . ويظهر ايمان الشعب الفلسطيني بالعلم ، من الشعار الذي اعتمده الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين ، في ندوته حول « دور المهندس العربي في معركة الصمود » ، والتي انعقدت في بغداد في نيسان / ابريل عام ١٩٧٥ . وكان الشعار : « بالبندقية وبالعلم ننتصر » .

ويلاحظ ان فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، التي اعدها قسم التخطيط التربوي في منظمة التحرير الفلسطينية ، تتمثل في « اعتبار التربية عملية دينامية ومتطورة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بالتطور العلمي والتكنولوجي والاجتماعي » . وتشجع التربية والتجارب والابحاث التربوية من اجل العمل والتحسين على المستويات كافة. وتدعو التربية الفلسطينية ، في وضع المناهج والمقررات الدراسية ، الى اتباع « الاسلوب العلمي في البحث والتفكير والاستنتاج ، وفي تمييز المعلومات الصحيحة من الخاطئة » (٢٦) .

هذا ويقول الثائر والقائد الشهيد ، كمال عدوان : « ان العمل الثوري ، لا بد وان يكون مستندا الى تحليل علمي للواقع الملموس ... » (٢٧) .

كانت هذهبعض النماذج عن المكانة المرموقة التي يحتلها العلم الحديث في الثورة الفلسطينية ، التي تسعى الى تحرير فلسطين والعودة ، باستخدامها البندقية والعلم معا .

العلم في خدمة الحرب في اسرائيل

ادركت الحركة الصهيونية مدى دور العلم واهميته في « بناء الدولة » الصهيونية في فلسطين، فبدأت تخطط، في تطور العلوم البحتة والتطبيقية ، بهمة لا تعرف الكلل ، وبادراك موضوعي ، للمكانة الهامة التي يمثلها العلم في السلم وفي الحرب على السواء . وعلى هذا اتخذت الصهيونية العلم اساسا من اسس اقامة دولة اسرائيل في فلسطين . ويعود اهتمام الحركة الصهيونية ، في العلم وفي التعليم

العالي ، منذ بداية هذا القرن ، عندما اسست معهد اسرائيل التكنولوجي (التخنيون) ، في فلسطين عام ١٩١٢ ، ووضع حجر الاساس للجامعة العبرية ، في القدس عام ١٩١٨ (٢٨) • وكان حاييم وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية واول رئيس لاسرائيل ، عالما كيماويا وبحاثة ، يحض دوما على غرس العلم في فلسطين على كافة المستويات •

وحددت الصهيونية طبيعة جامعاتها ، في فلسطين ، قبل الحرب العالمية الاولى ، ان تكون على غرار الجامعات الالمانية ،اي ان يمثل البحث العلمي دورا اساسيا في حياة تلك الجامعات • ويعود تعلق الصهيونيين بالعلم الى طبيعة الحركة الصهيونية ، في كونها حركة اوروبية في الاساس ، الامر الذي جعل العلم ، من حيث فهمه والايمان به ، اصيلا في نفوس الصهيونيين المستوطنين في فلسطين • وكان يهود اوروبا ، وخاصة يهود المانيا يدركون اهمية الجامعات ومراكز البحوث في عملية «بناء الدولة » ، وفي التفهم العميق للدور المصيري الذي تمثله الجامعات ومراكز البحوث في حياة الدولة الحديثة ، اية دولة (٢٩) •

ونتيجة لاهتمام اسرائيل بالعلم ، فلا غرابة ان نجد ، ان جامعاتها تمنح اكثر من ١٥٠ شهادة دكتوراه سنويا ، معظمها في العلوم ، اي بنسبة ٨٥ بالمائة من كل مرشحي طلاب الدكتوراه هم في العلوم البحتة والتطبيقية ، مقابل ١٥ بالمائة من المرشحين للدكتوراه في الانسانيات والحقوق والعلوم الاجتماعية (٣٠) •

١ ـ **تكنولوجيا الحرب الاسرائيلية** : مما لا ريب فيه ان التكنولوجيا ، وخاصة تكنولوجيا الحرب ، هي حصيلة العلم ، وكذلك التحصينات والتعديلات الصغيرة في تكنولوجيا الحرب ، لا يمكن ان تتم بغير ابحاث علمية • وتعتبر اسرائيل نموذجا مثاليا حقا ، لدولة صغيرة في هذا المجال • فلم تستطع فقط ، ان تستوعب المعدات التكنولوجية المتطورة ، التي تستوردها لجيشها ، ولكنها قامت بادخال تعديلات كثيرة على هذه المعدات ، كما سنرى ، مما مكنها من استخدام عنصر المباغتة في عملياتها التكتيكية (٣١) •

٢ ـ **الجيش والعلم** : يتمتع الجيش الاسرائيلي بنفوذ كبير في توجيه الابحاث العلمية ، وكذلك في مختلف اوجه النشاط الجامعي • ويبدو ان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، قد بدأت اهتماما مبكرا بفنون الحرب الحديثة ، رغبة منها في تطوير قوة نووية مستقلة• لذا تفاعلت المؤسسة العسكرية، مع المؤسسة العلمية ، اي المجلس الوطني للبحوث والانماء ، الذي اسس في عام ١٩٥٩ ، كما ابدى المجلس اهتماما كبيرا بتطوير القطاع المدني ايضا • ويذكر ان اول مجلس للبحوث في اسرائيل ، كان قد اسس في عام ١٩٤٩ ، ثم قام بدوره بتأسيس معظم المختبرات الصناعية في اسرائيل • ولما كان الجيش يعتمد اعتمادا كبيرا على العلم ، لذا يمكن الاستنتاج ان القطاع العسكري يمثل الدور الرئيسي ، في وضع السياسة العلمية وتنفيذها (٣٢) •

٣ ـ **وزارة الدفاع والبحث العلمي** : وتبذل وزارة الدفاع الاسرائيلي جهودا كبيرة ، لتشجيع العلوم البحتة في البلاد كلها وتطويرها • فانشأت « هيئة الطاقة الذرية » ، التي تدير مركزين للابحاث النووية ،واثنتي عشرة صناعة ذات صبغة عسكرية في ميادين الالكترونيات والطيران النفاث • والقت الوزارة ، في الواقع، بكل ما لديها من ثقل سياسي ومادي في سبيل : (أ) تأمين الدعم الكافي للمعاهد العلمية في الارض المحتلة ، (ب) وانشاء معاهد ، ضمن اطار القطاع العسكري ، مهمتها تسخير العلوم والتكنولوجيا في خدمة آلة الحرب ، وكما يستطيع العاملون فيهذه المعاهد تحديد المشاكل التقنية العسكرية ، وعرضها على العلماء والباحثين كافة في سائر انحاء فلسطين المحتلة• (ج) تأمين الدعم الاقتصادي والسياسي ،اللازم لانشاء صناعات تتعلق بشؤون الطيران والالكترونيات ، لسد حاجات القطاع العسكري الاسرائيلي (٣٣) •

٤ ـ **استفادة اسرائيل من جهدها العلمي** : استطاعت اسرائيل ، في المجال العسكري ، ان تسخر قاعدتها العلمية في تحقيق اهداف كثيرة، منها : (أ) امكانية انتاج القنبلة النووية • (ب) تطوير انظمة مواصلات آلية متقدمة ذات اهمية حيوية • (ج) تطوير معدات مناسبة

للحرب الليلية وانتاجها وشرائها • (د) بلوغ المقدرة على استعمال وسائل الحرب الكيماوية والتكنولوجية• (هـ) تطوير الصناعات العسكرية الاساسية والعمل للوصول الى مستوى الاكتفاء الذاتي ، خلال الربع الاخير من القرن العشرين• (و) انتاج المعدات العسكرية البصرية الضرورية وتطويرها ، ومتابعة احدث التطورات الخاصة باستعمال الاشعة الضوئية المركزة (Laser) في اكتشاف الاهداف وتحديد مداها ، الخ •

ومـــن الواضح ان القضايا التكنولوجيـــة المذكورة ، تتطلب قاعدة علمية قوية • ويبدو انها متوافرة في الوقت الحاضر لدى اسرائيل • فاسرائيل تحتل مركزا علميا ممتازا ، اذا مـا قورنـــت بالدول المتقدمة ، سواء تمت هـذه المقارنة على اساس عدد السكان ، ام عـــلى اساس النتاج القومي الكلـي • فهي تحتـل المرتبة السابعة عشرة ، بين غيرها من بلدان العالم ، مـن حيث عـدد العلماء الناشرين ، مثلا (٣٤) •

٥ ــ **علاقة وثيقة بين الجندي والعالم** : وثمة علاقة وثيقة جدا بين الجندي الاسرائيلي الذي يستعمل السلاح وبين المهندس او العالم ، الذي يعمل على تطويره • ويعمل الجميع سويه على اكتشاف الوسائل ، لجعل السلاح اكثر ملاءمة مع الحاجات الخاصة الاسرائيلية (٣٥) •

٦ ــ **تعديل الاسلحة وتطويرها** : تلقى انقطاع العسكـري في عنصريه ــ البحـث والانتاج ــ اهتماما كبيرا ، منذ قيام اسرائيل ، ولكنـه اندفع دفعة قوية ، ولاقى دعما كبيرا بعد حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ • اذ حاولت اسرائيل ان تنفذ سياسة اكتفاء ذاتي ، خاصة في تصنيع الاسلحة الخفيفة وقطع الغيار ، بعد الحظـر الفرنسي في اعقاب حرب الايام الستة • وفي هذا المجال ، اعتمدت اسرائيل ، على نتائـج الابحاث والتطوير ، في البلدان المتقدمة ،وخاصة في الولايـات المتحدة الاميركيـة ، فاستوردت المعلومات وبراءات الاختراع ، وعملت لتكييفها وتطويرها في مؤسساتها العلمية ، كي تخدم حاجاتها العسكرية • هذا وقد توصل رؤسـاء جهاز الامن الاسرائيلي ، بعد حرب تشريـــن الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، الى استنتاج : انه من الضروري بذل جهد اكبر بكثير من الماضي ، في تطوير وسائل قتـــال ذاتية • وكان احـــد الاستنتاجات هو ، انـه نظرا الى عدم قدرة الجيش الاسرائيلي على سد الثغرة الكمية بينه وبين الجيوش العربية ، يجب بذل الجهـــود لزيادة الفجوة النوعية • واحدى الطرق للمحافظة على نسبة ملاءمة ، كما ونوعا ، بين الجيـش الاسرائيلي والجيوش العربية ، هي تطويـــر اسلحة حديثة ، وكذلك الانتاج المستقل لاسلحة متقدمة •

أ ــ **تعديل الدبابات وتطويرها** : يقوم العلماء والتكنولوجيون في اسرائيل ، بادخال تعديلات في الدبابات المستوردة وتطويرها • فلقد كشفـت اسرائيل النقاب ، في ١٩٧٣/٤/١٤ ، انها ادخلت تعديلات مهمة ، على دبابات « سنتوريون » مارك ٥٠ • وكان ابرزها تغيير المدفع الاصلي ، عيار ٨٥ ملم ، بمدفع عيار ١٠٥ ملم ، وكذلك استبدال المحـــرك ، الذي كـان يعمل عـلى البنزين ، وقوته ٦٥٠ حصانا ، بمحرك ديـزل اميركي ، بقوة ٧٥٠ حصانا • وزادت سرعتها من ٣٥ كلم في الساعة الى ٤٣ كلم في الساعة، وزودت باجهزة الرؤية الليلية •

وطورت اسرائيل الدبابات ت ــ ٥٤ و ت ــ ٥٥ ، السوفياتية الصنع ، التي استولت عليها في حرب ١٩٦٧ • فغيرت مثلا ، اجهزة الاتصال والتصويب واجهزة الانارة ، وركبت جهاز رماية كهربائيا ، كمـــا استبدلت المدافع الاصليـة بمدافع عيار ١٠٥ ملم ، البريطانية التصميـم والاسرائيلية الصنع •

وبالاضافة الى ذلك ، فقد تم تصميم وصنع دبابة ، في اسرائيل ، دعيت « سابرا » وزودت بمدفع عيار ١٠٥ ملم الاسرائيلي • ويقال انها صممت خصيصا لتعمل في الصحراء •

ب ــ **تصميم المدفعيـة وصنعهـا** : وتنتـج اسرائيل معظم المدافع ، وذلك عن طريق شركة سولتام الاسرائيلية التي تأسست عام ١٩٥١ • وتصدر الشركة الآن ٦٠ بالمائة من انتاجها ، الى حلف الاطلسي في اوروبا والى دول فـــي افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية • وصممـت الشركة مدفعا مضادا للمدرعات وصنعته بعيار

٩٠ ملم ، ويمكن ان يطلق النار في الاتجاهات كافة ٠ وهو نصف آلي ، وطوله ٧٫٢ قدم ، وطاقمه خمسة جنود ٠ وكشف الاسرائيليون عن مدفع جديد ، ل -٣٣ ، من عيار ١٥٥ ٠ يحمل هذا المدفع ٦٠ قذيفة ومزود بجهاز تلقيم نصف آلي ، ويسير ٢٠ ساعة متواصلة ، بسرعة قصوى تصل الى ٥٨ كلم في الساعة ٠ وتصل سرعة اطلاق النار الى ثلاثة قذائف في الدقيقة، كما يصل مداه الى ٢٠ كلم ٠

ج ـ رشاشات وبنادق لسلاح المشاة : ويصمم الجيش الاسرائيلي ويصنع رشاشات وبنادق يستعملها سلاح المشاة ٠ ومن اهم الرشاشات هذه ، « اوزي » ، الذي يعتبره البعض احسن رشاش خفيف متوافر في العالم اليوم ٠ ويطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة ٠ وقد صدرت اسرائيل هذا الرشاش الى المانيا الاتحاديه ودول اوروبية اخرى ٠ وتصمم اسرائيل وتصنع بندقية « غاليل » ، عيار ٥٫٥٦ ملم ، تطلق نظريا معدل ٦٥٠ طلقة في الدقيقة ، ويمكن ان تستخدم لاطلاق القذائف المضيئة وقذائف مضادة للدروع ورمانات شديدة الانفجار ويقال انها افضل من بنادق الكلاشينكوف ومن م-١٦ الاميركية ٠

د ـ سلاح البحرية : واظهرت التقنية الاسرائيلية تقدمها في ابان حرب ١٩٧٣ ، في سلاح البحرية ٠ اذ وفق الاسرائيليون باعتراض صواريخ « ستيكس » السوفياتية ، بواسطة آلة الكترونية ، صممها العلماء في اسرائيل ، تستطيع تغيير وجهة سير صاروخ « ستيكس » في اثناء رحلته ٠ وتصنع اسرائيل ، منذ عام ١٩٦٩ ، حوامات تدعى « ليدي بارد » ٠ وهي من تصميم شركة اسرائيلية اميركية وانتاجها٠ ولعل اهم ما ينتجه العلماء ، في اسرائيل ، للسلاح البحري ، هو صاروخ « غبرئيل » ٠ وقد عرض لاول مرة عام ١٩٧٠ ٠ وهو صاروخ موجه من السفن الى السفن ، وتنتجه مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية ٠ ويستطيع هذا الصاروخ ان يعمل في جميع الاحوال الجوية ، ولا تؤثر فيه المعطلات الالكترونية ٠ ويتبع هذا الصاروخ ، في مساره ، خط طيران منخفض جدا فوق الامواج ويصيب الهدف بدقة بالغة ٠

هـ ـ تطوير سلاح الجو : تركز جهود العلماء والتكنولوجيين في اسرائيل على صناعة تطوير سلاح الجو ٠ وثمة عدة صناعات قد نمت وازدهرت ، لارتباطها ، بشكل مباشر او غير مباشر ، بالصناعة الجوية ٠ ويعمل الآن في مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص٠ ط٠ ٠١) نحو الف شخص ٠ وتستوعب المؤسسة معظم خريجي معهد تخنيون ، في حقل العلوم الفضائية والجوية ٠

وتنتج اسرائيل طائرة « عرافا » ، وهي طائرة خفيفة معدة للاستخدامين العسكري والمدني ٠ وبدأ تصميمها منذ عام ١٩٦٦ ٠ وهي مصممة ، بحيث تتمكن من الاقلاع والهبوط على مدارج قصيرة (١٢٠ ـ ١٥٠ مترا) وغير معبدة ٠ وتستطيع ان تحمل ٢٠ جنديا بكامل اسلحتهم ، او حوالي طنين من الذخيرة ٠ وتم تجهيز طائرة عرافا الاولى لحساب المكسيك ، في حزيران / يونيو ١٩٧٣ ٠ ويبلغ المعدل الحالي للانتاج طائرتين في كل شهر ٠ وشاركت طائرة عرافا في حرب ١٩٧٣ ٠وكانت مهمتها الاساسية نقل الجنود من الجبهة واليها ، وكذلك نقل الجرحى والقتلى ٠

واجرت اسرائيل تعديلات على طائرة « كومودور ـ جت » الاميركية ، التي اشترت حكومة اسرائيل الادوات الخاصة بصنعها في عام ١٩٦٧ ، فاستخدمت محركات اقوى ،وزادت طول هيكل الطائرة لتستطيع نقل ١٠ اشخاص، بدلا من ثمانية ، كما اضافت تحسينات اخرى على الاجهزة الكهربائية وغيرها ٠ ويذكر ان هذه الطائرة ، كانت مصممة اصلا ، لاستعمال رجال الاعمال ورؤساء الدول في رحلات قصيرة ٠ وقد اتمت ص٠ط٠١٠ صنع النموذج العسكري الاول لطائرة « وست ويند ـ ١١٢٣ » لصالح قوات خفر السواحل الاميركية عام ١٩٧٣ ٠ ويقدر انتاج الشركة من « وست ويند ـ ١١٢٣» بأربع طائرات في الشهر ٠

وتصنع اسرائيل ايضا طائرة « باداك » المقاتلة النفاثة ، وهي اسرع من الصوت ، ربما بمرتين ونصف المرة ٠ وكشف النقاب لاول مرة عن هذه الطائرة ، ابان حرب ١٩٧٣ ، حين تبين ان حوالي ٢٥ طائرة ، من هذا النوع ،كان

قيد الاستعمال • ومن المعروف ان الطائرة المذكورة مشابهة جدا لطائرة ميراج ـ ٣ • وكانت تصنع ، في الاساس ، تحت اسم « سوبر ميراج » • وقد سرق مهندس سويسري تصاميم هذه الطائرة ، في صيف عام ١٩٦٩ ، وسلمها الى اسرائيل • واستعانت اسرائيل في تصنيع هذه الطائرة بالمعلومات وبالخبرة التقنية ، التي حصلت عليها من شركة «داسو» الفرنسية ، عندما كانت العلاقات مع فرنسا متينة • هذا واتفقت الحكومة الاسرائيلية ، في اوائل عام ١٩٧٣ ، مع الحكومة الاميركية ، لتساعدها في انتاج هذه الطائرة • وهكذا يتضح ان دور اسرائيل محدود في تصميم المعدات الحربية وصنعها (٣٦) •

و ـ تطوير « قنبلة الاسمنت المسلح » : ان العلماء المختصين والمهندسين العاملين في مراكز الابحاث العلمية ، هم وحدهم القادرون على تزويد القوات المسلحة ، بكل ما تحتاج اليه من مشورة ومساندة علمية وتقنية • فهم الذين يعينون رجال الاستراتيجية والتكتيك ، على تطوير العمليات العسكرية المبتكرة ،وذلك عن طريق ابداء الاراء الصائبة ، فيما يتعلق بكل ما يمكن عمله على ضوء المعلومات المتوافرة ، ثم عن طريق المساعدة العلمية في اختيار المعدات والاسلحة وتكييفها ، بحيث تصبح قادرة على الايفاء ببعض متطلبات القوات المسلحة الخاصة • ونذكر ، على سبيل المثال ، تطوير « قنبلة الاسمنت المسلح » في اسرائيل •

فقد اتخذ سلاح الجو الاسرائيلي قرارا بأن تحلق طائراته ـ لدى مهاجمتها للاهداف العربية ـ على ارتفاعات منخفضة لا تتجاوز السبعين مترا ، لكي تتجنب شبكات الرادار العربية • ويذكر ان الطريقة التقليدية المتبعة لتدمير المطارات المعادية هي ، ان ترتفعالطائرة المغيرة ، رأسيا ، فوق الهدف ، على ارتفاع شاهق جدا ، ثم تلقي بحمولتها من القنابل والمتفجرات • الا ان هذه الطريقة تجعل من الطائرة هدفا سهلا للنيران المضادة ، كما انها قد تؤدي الى انزلاق القنبلة على ارض المطار بغير ان تخترقه • بيد ان العلماء المختصين والمهندسين الباحثين الاسرائيليين ، طوروا « قنبلة الاسمنت المسلح » للتغلب على هذه القضايا • ولقد صممت القنبلة ، التي يبلغ طولها ثمانية اقدام وقطرها قدم واحد ووزنها ٢٠٠ كلغ ، بحيث تتناقص سرعتها تدريجيا اثر مغادرتها للطائرة ، التي تحلق بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة • ويتم ذلك بفعل اربع عبوات موضوعة ، بين زعانفها ، تنفجر في اتجاه الارض ، وتؤدي بذلك الى ان تتجه مقدمة القنبلة الى اسفل • وفي هذه اللحظة بالذات ، يعمل محرك نفاث كائن في مؤخرة القنبلة ، مع قوة الجاذبية الارضية ، على تحسين مقدرة القنبلة على اختراق ارض المطار (٣٧) •

ز ـ فوائد الصناعة الجوية : ولا بد من الاشارة الى الفوائد الكثيرة التي يجنيها المجتمع الاسرائيلي ، من الصناعة الجوية الاسرائيلية • فهي تعود بفوائد كبيرة في مجال تنمية القدرة العلمية والتقنية في اسرائيل ، وكذلك في المجال الاقتصادي ، من حيث انها تزيد في حجم النشاط الاقتصادي في الداخل ، وتؤمن اعمالا جديدة للايدي العاملة الماهرة ، فضلا عن انها تخفف من عبء الاستيراد باستبداله بالانتاج المحلي ، وتعطي اسرائيل قدرة اكبر على تحمل الضغوط السياسية الخارجية • فاسرائيل لم تتأثر كثيرا مثلا ، نتيجة الحظر الفرنسي عليها ، بعد حرب ١٩٦٧ ، لا لان الولايات المتحدة فتحت سوقها امامها فحسب ، بل لان الصناعة الاسرائيلية قادرة على تلبية حاجات الجيش الاسرائيلي ، في معظم قطع الغيار ، التي كان يحتاج اليها• وبالاضافة الى كل ذلك ، تستغل اسرائيل الصناعة المحلية استغلالا اعلاميا كبيرا ، في محاولة منها ، لاكتساب اعجاب الدول المتقدمة وتقديرها ، وذلك للاستفادة من تبادل الخبرات بينها وبين الدول المتقدمة من جهة ، وفي محاولة لتحسين علاقاتها بالدول النامية ،بعرض مساعداتها العلمية والتقنية من جهة ثانية • وفوق كل ذلك لاحداث آثار نفسية معينة في الشعب العربي ، من خلال اعلامه بهذه المنجزات العلمية والتقنية التي تحرزها اسرائيل (٣٨) •

ح ـ تطوير الصواريخ وصنعها : ولعل اهم

ها يبرز دور التقنية في اسرائيل في تطويـــر الصواريخ وصنعها ، بالاضافة الى صــــاروخ غبرئيل السابق ذكره ، تطوير عدة صواريـــخ اخرى ٠ فهي تنتــج صاروخ ارض ـ ارض ، اسمه « جريكو » ، الذي كان يصنع في فرنسا قبل عام ١٩٦٧ ، حين تقرر نقل المصنع الــى اسرائيل ، لوضعه تحت مراقبة السلطـــــات الاسرائيلية مباشرة ٠ وكانت اسرائيل تنتــج ٤ الى ٦ صواريخ في الشهر ، وتملك ٦٠ صاروخا اثناء حرب ١٩٧٣ ٠ ويبلغ مداه ٣٠٠ ميل ويكلف مليون ونصف المليون من الدولارات ٠

هـــذا ويفاخـــر الاسرائيليون بصـــــاروخ « شفرير » ، الذي تدعي اسرائيل انه مـــن تصميمها وصنعها كليا ٠ وقد كشف النقـــاب عنه ، لاول مرة ، في ايار / مايو عام ١٩٧٣ ، واستعملته في اثناء حرب الاستنزاف وفـــي المعارك الجوية التي تلتها ، في حرب ١٩٧٣ ٠ ويمكن لهذا الصاروخ ، جو ـ جو ، ان يعترض طائرات تحلق على ارتفاع هائل ، يصل الــى ٧٥ الف قدم ، ويبلغ مداه خمس كلم ، ووزنـه ٩٣ كلغ ، ويحمل راسا حربيا وزنه ١١ كلغ ٠ ويعمل بالحرارة ما تحت الحمراء ، اي انـــه يتبع الحرارة الصادرة عن الطائرة المعادية ٠ ويقال انـــه مزود باجهزة غير موجودة فـــي الصواريخ الاخرى ، وان تكاليفه هي ثلـــث تكاليف صواريخ « ماترا » ، جو ـ جـــو ، المشابهة ، الفرنسية الصنع (٣٩) ٠

٧ ـ ادمغـة الكترونية في خدمة الحروب : تستعمل اسرائيل في الحروب احدث الاساليب العلمية والتكنولوجية ، بالاضافة الى الاساليب الكلاسيكية المجربة ٠ ويلعب العلماء دورا بارزا في ادخال التكنولوجيا في خدمة آلة الحـــرب ٠ ونذكر دور العالم الاسرائيلي ، يوفال نعمان ، الذي نال جائزة البرت اينشتاين ، في عـــام ١٩٦٩ ،الذي مثله في مضاعفة اجهزة استخبارات الجيش الاسرائيلي ٠ وعندما دخل في « جهـــاز استخبارات الجيش » ، المعروف تحت اســـم « امان » ، في عـــام ١٩٥٤ ، كانت اساليـب العمل ما تزال بدائية وحرفية ، ولكن « الخطر» كان يتفاقم من ناحية مصر ، حيث كانت تجري محاولات اعداد جيش حديث ٠ واحدث العالم نعمان ثورة في « المكتب الثاني الكلاسيكي » ، اذ ركز ، منذ البدء ، على اهمية استعمـــال الادمغـــــة الالكترونيـــــة ، في وزارة الدفـــاع الاسرائيلية ٠ وقد اثبتت هذه الادمغة ، انهـــا ذات اهمية جوهرية ، غداة عدوان السويـــس عام ١٩٥٦ ، اذ استطاعت استيعاب المعلومات التي اعطاها الاسرى العرب وتحليلها ٠وترجمت هذه المعلومات الى اصطلاحات ، وضعت تحت تصرف مختلف اجهزة الجيـــش الاسرائيلـــي ، وساعدت فيما بعد على تحضير عدوان ١٩٦٧ ٠ وقد اعد نعمان ملفا خاصا لكل ضابط مصري ، تضمن كل المعلومات والوثائق المتعلقة به ٠

ويستطيع الاختصاصي الاسرائيلي ، بمجرد ان يضغط على زر ، معرفة ما اذا كان الانسان العربي ، الذي يهمه ، مـــن النـــوع اللين او الشرس ، من النوع المتحفظ او المغامر ، مـــن النوع النزيه او الفاسد ٠ وفي صباح المعركـــة مثلا ، يكون لدى كل قادة الوحدات الاسرائيلية «الصورة النفسية» ، لعدوهم المباشر ويتمكنون في كثير من الاحوال ، من التنبؤ واستباق بعض ردود فعله او خطواته ٠

وقد ساهمت ادمغة وزارة الدفاع ، بوضــــع مخططات حرب ١٩٦٧ جميعها ، والتي تطلبت حسابات شديدة التعقيد ، بسبب النمو المتزايد لمشاكل النقل والامدادات والتموين ٠ كمـــــا استخدم الاسرائيليون ادمغة البحرية الوطنية الفرنسية في مدينة تولون ، وذلك بمعرفة وزير الحربية الفرنسية انذاك السيد بيار مسمير ، وبموافقته ٠

هذا واستعمل الاسرائيليون بعد حرب ١٩٦٧ ، الاساليب نفسها ، التي استعملوها بعد حرب ١٩٥٦ ، وبالاضافة الى ذلك خلق يوفال نعمان تراثا من المنجزات العلمية ، اضحت ذات فائدة كبيرة للجيش الاسرائيلي ٠ وتعتبر مصـــــدرا هاما من مصادر معلوماته ٠ وراحت الدوريات الاسرائيلية ، التي كانت تتسلل الى صحراء سيناء ، قبل عام ١٩٦٧ ، تضع آلات تسجيل صغيرة موصولة بالخطوط الهاتفية المصرية ٠ وكانت هذه الاشرطة تجدد بفترات دورية ٠وقد وضع العالم نعمان ايضا ميكروفونات موجهة شديـــــدة الحساسية ، تستطيع ان تلتقـــط

الاحاديث ، على بعد عدة مئات من الامتار من المعسكرات المصرية . وساهم نعمان ايضا في تطوير الاجهزة الفوتوغرافية ، التابعة لطائرات الاستطلاع والاجهزة الالكترونية المضادة ، التي تستطيع « اعماء » رادار « العدو » . وساهمت هذه الاجهزة الدقيقة مساهمة فعالة في انجاح الهجوم المفاجىء ، الذي شنه الطيران الاسرائيلي في صباح ٥ / ٦ / ١٩٦٧ (٤٠) .

نحو علم وتكنولوجيا عربية في خدمة المعركة

بعد كل ما تقدم من حقائق ومعلومات ، السؤال الكبير والمصيري ، الذي يطرح نفسه الآن ، هو : كيف يمكن للعرب ان يضعوا العلم والتكنولوجيا في خدمة معركة المصير والحياة معالصهيونية والامبريالية ومع التخلف؟ وماذا يجب علينا ان نعمل ؟ لا يخفى ان السبيل الى الاصلاح ، يجعلنا ننظر الى المستقبل ، والذي يبدو لنا بانه مشرق من جهة ، وقاتم من جهة اخرى . فاصلاح الاوضاع العلمية في الاقطار العربية وتعبئتها في خدمة المعركة يواجه احتمالين اثنين : الاحتمال الاول يتمثل في السير بالاوضاع الحالية ، ولكن باجراء اصلاحات جزئية وهامشية قليلة ، اي اصلاحات غير جذرية او ثورية ، كانشاء كليات ومعاهد جديدة للعلوم ، تسير على النهج التقليدي ، او اعتماد ميزانية اكبر للبرامج والبحوث العلمية، او خلق مناصب علمية جديدة في الجامعات والمراكز العلمية ، او اصلاح الكتب المدرسية ، او اصدار نشرات ومجلات علمية ، او عرض المزيد من البرامج العلمية على الاذاعة والتلفزيون ، وما شابه ذلك من الاصلاحات الهامشية ، لا تستطيع ان تطور فعلا العلوم والتكنولوجيا ، ولا يمكنها بالتالي ان تواجه تحديات العدو العلمية والمعركة معه . اما الاحتمال الثاني ، وهو الضروري والاهم والاصعب ، فيدعو الى اعتماد نظرة جديدة وموقف حديث من العلوم والتكنولوجيا ، يؤدي بالنتيجة الى اتخاذ خطوات جذرية لاصلاح الاوضاع الحالية للعلوم والتكنولوجيا في الاقطار العربية . ومن المعروف ، ان الاوضاع الراهنة للعلم والتكنولوجيا في البلاد العربية ، لا يمكن ان تخدم المعركة ، كما اوضحنا سابقا ، لانها ضعيفة ومتخلفة ، عن الاوضاع العلمية في الدول المتقدمة وفي اسرائيل . وعليه ، قبل ان نفكر في تسخير العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة ، فلا بد لنا ، اولا ، من تطوير القطاع العلمي والتكنولوجي وانمائه ، وذلك بتوسيعه، كما ونوعا ، كي يصبح بمستوى متقدم . ولقد اعتمدنا على تجارب الدول المتقدمة ، في الشرق وفي الغرب ، في رسم استراتيجيتنا العلمية هذه .

١ ــ تطوير العلم والتكنولوجيا :

لعل اول ما يجب القيام به ، في هذا المجال، هو تطوير العلم والتكنولوجيا وانمائهما في الاقطار العربية . ولا يمكن لجيش ، في اي بلد من البلدان ، ان يكون افضل من مستوى علم الفيزياء او الكيمياء او الاحياء ، التي تمارس في ذلك البلد . وبكلام اوضح ، فالعلم القوي يخلق قوة عسكرية قوية ، بينما العلم الضعيف او المتخلف ، لا يستطيع ان يخدم القوة العسكرية في البلاد . وعليه ، ما هي ابرز الخطوات الواجب اعتمادها لتطوير العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي وانمائهما ؟

لكي يخدم العلم المعركة ، ينبغي ان ينطلق من سياسة انماء علمية هادفة ، للدولة ، تكون محور الخطة الانمائية الوطنية الشاملة والمتكاملة . ولا يمكن تحقيق انجازات تذكر ، بغير اعتماد سياسة تنمية علمية قومية . وتتمثل السياسة العلمية ، في تحديد الاهداف العلمية والتقنية في كل بلد ، في زمن معين ، وعلى مستوى معين من التقدم العلمي والتقني، كما تبين الوسائل الكفيلة لبلوغ هذه الاهداف، وذلك في اطار خطة انمائية قومية عامة . وترتكز السياسة العلمية على القواعد والاسس الآتية :

أ ــ تعزيز تدريس العلوم : من الضروري العناية الوافية بتدريس العلوم وتعزيزها ، في مختلف مواضيعها وفي مراحل التعليم كافة . ويمكن بلوغ ذلك ، بواسطة اعداد المدرسين العلميين الاكفاء ، وتدريبهم ، وتأمين احدث الاساليب التربوية والادوات التعليمية ، وتزويد المدارس بالمشاغل والمختبرات والمتاحف العلمية

والاجهزة السمعية البصرية اللازمة ، اعداد مناهج علمية وبرامج حديثة ، تشجيع المتفوقين والنجباء من الطلاب في الحقول العلمية ، وذلك بالمساعدات والمنح واعتبار ذلك توظيفا ناجحا من الدرجة الاولى ، للاموال التي تنفقها الدولة والمؤسسات في هذا السبيل ، واتاحة فرص التخصص العلمي العالي للممتازين من الطلاب الاذكياء ، وتنظيم حملة اعلام علمية مدروسة في وسائل الاعلام الجماهيرية وغيرها من وسائل الاعلام (٤١) ٠

ب ـ **مسح الموارد البشرية العلمية** : ينبغي القيام بمسح شامل ، اساسي ثم دوري عام او خاص ، في كل بلد عربي ، ضمن المؤسسات العلمية وغيرها حول الطاقات البشرية العاملة في حقول العلم والتكنولوجيا وتوزيعها ، على قطاعات النشاط المختلفة والمهن والمستوى تدريبها واعدادها ٠

جـ ـ **تشجيع البحث العلمي وتوسيعه** : ان البحث العلمي هو اساس كل تطور وتقدم في اي بلد متقدم ٠ لذا نجد الدول المتقدمة تهتم بالبحوث العلمية ، لانها تأتي بثمرات هائلة ، وخاصة في ميادين الكشف والاختراع ٠ فانماء البحوث العلمية اذا ، يعتبر عنصرا اساسيا في تحريك عجلة التنمية الاقتصادية والعسكرية ٠ ونذكر على سبيل المثال ان حكومة الاتحاد السوفياتي تنفق المال بغزارة وبسخاء ، على تطوير البحث العلمي ، لانها تعتبره العامل الضروري لتطوير البلاد وتقدمها ، في مجالات الاقتصاد والدفاع والسياسة والمكانة الدولية ٠ ويفتخر الاتحاد السوفياتي بانه يملك في الوقت الحاضر اكثر من مليون من الباحثين العلميين ، اي ربع العاملين في مجال العلم في العالم قاطبة ٠ واما الولايات المتحدة ، كما سبق القول في المقدمة ، فقد راحت تعزز البحث العلمي في المجالات الحيوية ، لمواجهة التحدي العلمي السوفياتي ، على اثر اطلاق اول قمر صناعي روسي عام ١٩٥٧ ٠

وعلى هذا ، فلا بد من تشجيع البحث العلمي في مختلف الفروع من علمية بحتة وتطبيقية والتركيز على الدراسات العسكرية ، وتعزيز الهيئات والافراد العاملين في مجالات البحوث ، وتسهيل نشر نتائج الدراسات العلمية وتخصيص الاموال اللازمة لذلك ٠ لذا ينبغي وضع سياسة واضحة لانماء البحث العلمي والافادة من نتائجه ، في تطوير قدرة البلاد الاقتصادية والدفاعية والانمائية ٠

د ـ **توسيع الدراسات العلمية وتعزيزها** : ان تطوير العلم والتكنولوجيا في البلاد يتطلب التوسيع في الدراسات العلمية وتعزيزها على الصعيد الجامعي ٠ فالامم المتقدمة والقوية تركز على توسيع التعليم العلمي في معاهد التعليم العالي ، بحيث تصل نسبة الطلاب الملتحقين بالدراسات العلمية اكثر من ٦٠ بالمائة ٠ ويجدر بنا ان نذكر تجربة الصين ، بعد انتصار الثورة عام ١٩٤٩ ، بحيث ركزت على الدراسات العلمية ٠ فقفزت نسبة الطلاب في العلوم الى ٤١ بالمائة عام ١٩٥٨ ، مقابل ١٠ بالمائة فقط ، في خلال ١٩٢٢ ـ ١٩٢٨ ، كما ان عدد الملتحقين بالاداب قد انخفض بشكل كبير جدا ، الى ٥ر٤ بالمائة ، مقابل ٢٢ بالمائة خلال الفترة نفسها (٤٣) لذا نقترح ان تصل نسبة طلاب العلوم والتكنولوجيا الى٥٥ بالمائة، مقابل ٤٥ بالمائة في الاداب والفنون ٠ ويمكن تطوير كليات العلوم بتزويدها باساتذة وعلماء وباحثين ، على مستوى رفيع من الكفاية العلمية ، وتطوير مناهج الدراسة لمواكبة التطورات العلمية الحديثة في العالم ٠

هـ ـ **توسيع التعليم المهني والتقني وتطويره**: ولا بد من عمل جدي في نوعية التعليم في المرحلة الثانوية ٠ فمن الملاحظ ان الغالبية الساحقة من الطلاب العرب في المرحلة الثانوية (متوسطة ، ثانوي) ، كانوا ملتحقين بالتعليم الاكاديمي العام (٨٨٪) ، مقابل ١٢ بالمائة فقط في التعليم المهني والتقني عام١٩٧٠ (٤٤)٠ ولا ريب في ان هذه النسبة تختلف باختلاف الاقطار العربية ٠ في حين نجد ان نسبة الطلاب في التعليم المهني في تشيكوسلوفاكيا تصل الى ٦٤ بالمائة ، وفي الاتحاد السوفياتي ٥٠ بالمائة وفي اسرائيل ٤٥ بالمائة (٤٥) ٠

وعلى هذا ،يجب اجراء تغيير في هيكل التعليم الثانوي العربي ، بحيث تتوازن ، على الاقل ، نسبة طلاب التعليم المهني والتقني بنسبة

طلاب التعليم العام · فالتعليم المهني والتقني يعد الفنيين من المستويات الوسطى للصناعة·

و ـ **اعتماد خطة انماء علمية :** لعل افضل الوسائل لتحقيق اهداف السياسة العلمية وتطوير العلوم تتمثل في اعتماد خطة تنمية علمية ، يمكن ان تمتد من ٥ سنوات الى ١٢ سنة ، وهذا ما تقوم به معظم الدول في العالم التي حققت نجاحا في مجال العلم ومجال الاقتصاد · ونذكر على سبيل المثال ، تجربة الصين الشعبية ، في عام ١٩٥٦ ، عندما دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى « **الزحف على العلم** » · وكان ذلك بناء على دعوة الرئيس ماوتسي تونغ ، في ٢٥ / ١ / ١٩٥٦ ، عندما دعا مجلس الدولة الاعلى الى خطة لمحو التخلف في المجالات الاقتصادية والعلمية والثقافية · فانشأ المجلس « لجنة التنمية العلمية » ، لاعداد خطة علمية لمدة ١٢ سنة · ولا يخفى ان النداء الداعي الى « **الزحف على العلم** » قد كان نقطة تحول في التنمية العلمية في الصين الشعبية · ومن جملة الانجازات ، التي تمت كان مضاعفة عدد الباحثين العلميين في اكاديمية العلوم الصينية في سنة واحدة ، كما شهد النشاط العلمي نموا كبيرا ، كما تغيرت اساليب التعليم بشكل جذري في الصين (٤٦) ·

ز ـ **اقامة تعاون علمي عربي ودولي :** يتوقف تطور النشاط العلمي على التعاون بين الاقطار العربية نفسها ، وبين الاقطار العربية من جهة ، وبين البلدان الاجنبية · ويشمل حقل التعاون هذا ، التعارف والاتصال بين العلماء والعاملين في الحقل العلمي او التقني الواحد والحقول العلمية المتقاربة ، ضرورة تتبع مراحل التطور العلمي والتقني في الوطن العربي وفي العالم ، تبادل المعلومات والمنشورات العلمية ، توثيق العلاقات العلمية بين الاقطار العربية نفسها ، ثم بين البلاد العربية والبلدان الاخرى ، تبادل العلماء والخبراء ، الاستعانة بالعلماء والخبراء الدوليين في الدراسات والتخطيط ، تنظيم المؤتمرات والاجتماعات والحلقات العلمية في الاقطار العربية وكاداة اعلام لاثبات الوجود العلمي العربي ، تعاون مع اليونسكو ووكالاتها ، ومع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، وغيرها من المنظمات العربية والدولية المعنية بالعلوم والتكنولوجيا · كما ينبغي التعاون والتنسيق في الاعلام العلمي والنشر العلمي والتوثيق العلمي ، فضلا عن التعاون العلمي والتكنولوجي العسكري (٤٧) ·

٢ ـ العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة

بعد ان ذكرنا الخطوات الواجب اتخاذها لتطوير العلوم وتقدمها ، نأتي الآن الى صلب الموضوع ، ويمكن ان نضعه في السؤال الكبير : كيف يمكن للعلم والتكنولوجيا ان نضعهما في خدمة المعركة ، لمواجهة التحدي العدمي والعسكري الاسرائيلي والصهيوني والامبريالي؟

أ ـ **اعتماد العلم في التخطيط العسكري :** من المعروف ان السمة الاساسية لهذا العصر ، هي التطور العلمي السريع الشامل · وبات مؤكدا ان تقدم البلدان وقوتها العسكرية وبالتالي سلامتها ، يتوقف على مدى اعتمادها على العلم · لذلك نجد ان البلدان المتقدمة والمتفوقة ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، هي البلدان التي تعتمد العلم اساسا لكل نشاط ، وخاصة الافادة من تطبيقه في القطاع العسكري· لذلك ينبغي على الاقطار العربية ان تأخذ الحقائق والنظريات والمبادىء العلمية والتكنولوجية بعين الاعتبار في التخطيط الامني والدفاعي والعسكري · هذا يعني ان قرارات التخطيط يجب ان ترتكز على المعطيات العلمية والممكنات التكنولوجية ، كي يصبح التخطيط العسكري اكثر واقعية وموضوعية · لذا تحتم الحاجة اعتماد التفكير العلمي في وضع الخطط العسكرية وتصميمها ، واشراك رجال العلم في التخطيط العلمي للقطاع العسكري والسياسي (٤٨) ·

ب ـ **ربط بين السياسة العلمية والسياسة العسكرية :** ان السياسة العلمية المعتمدة في البلاد ، يجب ان ترتبط ارتباطا وثيقا بسياسة البلاد العسكرية ايضا · ان السياسة العلمية ، التي تخدم المعركة ، هي التي تتلاحم بقوة بالسياسة العسكرية ولا تنفصل عنها · وعلى

هذه العلاقة ان تكون متبادلة ، اي دائرية . فالسياسة العلمية تساهم في توجيه السياسة العسكرية ، وكذلك السياسة العسكرية توجه السياسة العلمية .

جـ ـ اقامة صلة بين وزارة الدفاع والتطورات العلمية : لعل افضل وسيلة ، لتهيئة اية مؤسسة عسكرية ، لمواجهة اي نوع من انواع الحرب او المعركة ، ان تؤسس صلة وثيقة بينها وبين التطورات العلمية والتقنية الحديثة وخاصة في تكنولوجيا الحرب . واثبتت التجربة ان بلوغ مثل هذه الغاية ، لا يمكن ان يتحقق الا بانشاء (ضمن اطار وزارة الدفاع) العديد من مراكز الابحاث العلمية ، التي تقوم بتحويل العلوم البحتة الى اسلحة حربية ، كما تتولى ، كما هو الحال في الاقطار العربية حاليا ، مهمة استيراد الاسلحة الحربية من الخارج وادخال التعديلات المناسبة عليها .وكذلك ينبغي اقامة معاهد علمية ، في القطاع العسكري ، يسعى لتسخير العلم والتكنولوجيا ، لاغراض الامن والدفاع والحرب . كما يسعى العاملون فيها الى اجراء دراسات ، لتحديد القضايا التقنية العسكرية وعرضها ، للدرس والتحليل ، على العلماء والتكنولوجيين والباحثين في البلاد كافة .

ويمكن ربط نشاطات مراكز البحوث والمعاهد العلمية هذه ، في الشؤون العسكرية ، بجعلها مراكز لتزويد القوات المسلحة . بكل ما تحتاج اليه من مشورة ومساعدة علمية وتقنية . فالعلماء المختصون والمهندسون ، العاملون في هذه المراكز والمعاهد ، يعينون رجال الاستراتيجية والتكتيك ، على تطوير العمليات العسكرية المبتكرة ، وذلك عن طريق ابداء الآراء الصائبة ، المعتمدة في جوهرها على العلم ، في ضوء المعلومات والحقائق المتوافرة ، ثم عن طريق المساعدة في اختيار المعدات والاسلحة ، بناء على مواصفات مدروسة وتكييفها ، لتفي ببعض المتطلبات الخاصة (٤٩) .

د ـ توجيه النشاط العلمي من قبل الجيش : لا يمكن للعلوم والتكنولوجيا ان تخدم الدفاع والامن والمعركة ، اذا ظلت منفصلة تماما عن حاجات الجيش الدفاعية ومتطلباته . فعلى المؤسسة الوطنية ، بفضل نشاط العلماء وجهودهم ، ان توجه الدراسات والابحاث العلمية والتقنيه ومختلف اوجه النشاط العلمي والتعني لصالح الدفاع ولتلبيه حاجات الجيش الامنيه والدفاعية . فعلى الجيش اذا ان يعتمد اعتمادا كبيرا على العلم ، وان يمثل دورا بارزا في وضع السياسة العلمية وخطة التنمية العلمية والمساهمة في تنفيذهما (٥٠) .

هـ ـ اجراء تعديلات في الاسلحة وتطويرها : لعل ابرز ما يمكن ان تقوم به الاقطار العربية ، في الوقت الحاضر ، اجراء بعض التعديلات او التحسينات على المعدات الحربية المستوردة من الخارج وتطويرها او تكييفها ، كي تصبح مناسبة لاغراض الدفا عالعربي . وتجدر الاشارة الى ان التحسينات الصغيرة ، في تكنولوجيا الحرب ، لا يمكن ان تتم بغير ابحاث علمية . هذا ما تقوم به اسرائيل ، كما ذكرنا سابقا . ولا ريب في ان التكييف ، ليست عملية جديدة في تاريخ الامم . فاليابان ، كما هو معروف ، تشتهر ، منذ القرن الماضي ، في تطوير السلع والاجهزة والمعدات المستوردة في الخارج ، وتجري عليها تعديلات واصلاحات وتحسينات جذرية . وتقول عبارة مدونة في احد القواميس اليابانية ما يأتي : ان اليابانيين مقلدون اذكياء (ومقتبسون) . وثمة شعار في اليابان يقول : « اقتبس ، وكيف ، وحسن » . فعلى الجيوش العربية ان تستفيد من استغلالها الكامل ، لمراكز البحوث القادرة وحدها ، على تصميم المعدات الحربية وانتاجها ، وكذلك تحسينها وتكييفها لتفي بأغراض دفاعية وعسكرية معينة . هذا يعني ، علينا الا نكتفي بنقل العلم والتكنولوجيا من الخارج ، دون اجراء عملية تكييف واستيعاب .

و ـ توحيد المصطلحات العلمية العسكرية والمواصفات العلمية للمعدات والاسلحة ، واساليب وطرائق واجهزة واشارات وقوانين الدفاع ، بين الاقطار العربية كافة . ولا ريب في ان ذلك ، من شأنه ان يوحد الجهود وينسقها في خدمة المعركة (٥١) .

ز ـ استخدام الاساليب والاجهزة العلمية

الحديثة : من الافضل ان تستخدم القوات المسلحة العربية ، الاساليب العلمية والاجهزة والمعدات الحديثة في فرز الجنود والضباط وتحديد اختصاصاتهم ، وذلك حسب قابلياتهم الشخصية • وكذلك استخدام الاجهزة الالكترونية في شؤون التجنيد والتعبئة والاحصاء العسكري ، ورفع مستوى الاجهزة الالكترونية المستخدمة ، في كشف تقدم جيوش العدو ، ورفع مستوى المعدات الالكترونية اللازمة ، لدقة الرماية على العدو ، الامر الذي يرفع كفاية القوات العربية المحاربة • كما يجب استخدام المعدات الحديثة في التدريب العسكري (٥٢) •

جـ ـ تنمية الصناعة : ان تعديل المعدات المستوردة او صنعها في الاقطار العربية يتطلب قيام صناعة عسكرية او ذات صبغة عسكرية في عدة ميادين • ولا يخفى ان انماء الصناعة يرتبط ارتباطا وثيقا بالقدرة العسكرية • ومعلوم ان توسيع الصناعة وتطويرها ذو قيمة اقتصادية ، كزيادة الانتاج والدخل القومي او رفع مستوى دخل الفرد العامل في الصناعة ، فضلا عن ان الصناعة مهمة وحيوية في الحقل العسكري ، وخاصة صناعة الالكترونيات • ودعما لذلك ، ينبغي استحداث دروس في الكليات والجامعات لتطوير الصناعة العسكرية ، وخاصة الكهربائية والالكترونية (٥٣) •

ط ـ تنسيق بين الصناعتين المدنية والعسكرية: من المعروف ان المؤسسات الصناعية، في الاقطار العربية ، لا تتعاون فيما بينهما ولا تنسق نشاطاتها • وهذا هدر للجهود المبذولة لانماء الصناعة • لذا يجب تنسيق التعاون بين الصناعتين ، المدنية والعسكرية ، وكذلك تنسيق التعاون بين الخبراء المدنيين والعسكريين ، في سبيل تطوير الصناعة بوجه عام ، وصناعة الاسلحة العربية واجهزتها بوجه خاص (٥٤) •

خطوات التنفيذ

بعد ان علمنا كيف يمكننا ان نضع العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة ، فأن الاسئلة التي تتبادر الى الذهن الان هي : كيف يمكن ان نحقق الاقتراحات الواردة سابقا ؟ ما هي الوسائل الواجب اعتمادها لتنفيذها ولانجاحها ؟ ما هي المستلزمات البشريه والفنيه والماديه اللازمه لذلك ؟ فمن الملاحظ انه في بعض الاقطار العربية ، ليس المطلوب تقديم مشاريع واقتراحات للاصلاح ، بل المطلوب اكثر من ذلك ـ تنفيذها • فكم من مشروع او سلسلة اقتراحات بقيت حبرا على ورق ، لم تنفذ • وهناك قطر عربي لم ينفذ الا القليل من خطته الخمسية في خطته السداسية ، وعلى ذلك نعتقد ان انجاح اي مشروع يستلزم التشريع السياسي والتشريع العلمي اللازمين ، ثم يتطلب التوعية العلمية لفئات الشعب ، والطاقات البشرية العلمية والمدربة ، والمؤسسات والهيئات ، فضلا عن الاموال •

١ ـ تأمين القرار السياسي : لعل اول ما نحتاجه في تنفيذ اي مشروع ، هو تأمين القرار السياسي له ، وذلك لتنسيق المؤسسات العلمية والتقنية وتدعيمها وتعزيزها ، حتى تصبح متناسبة مع واقع التحديات العلمية الراهنة ، ومتهيئة لتقبل مستمر للجديد وللمتغير ، وتمكين العلماء والباحثين العرب ايضا من المساهمة الناشطة في مختلف انواع النشاط العلمي والتقني (٥٥) •

٢ ـ اشراك رجال العلم في التشريع : ان الحاجة تدعو الى اعتماد التفكير العلمي ، في كل تشريع تقوم به الدولة ، واشراك رجال العلم في هيئات ولجان التشريع كافة ، وعلى المستويات جميعها، وينبغي انشاء رابطة تضم رجال العلم على انواعهم ، تنبثق عنها هيئة علمية ، على اعلى المستويات ، لتؤمن الكفايات العلمية ، التي تحتاج اليها الهيئات التشريعية (٥٦) •

٣ ـ التوعية العلمية : لا يخفى ان انجاح اي مشروع يتوقف الى حد بعيد على كسب عطف المواطن العادي ، واثارة اهتمام رجل الشارع بشؤون العلم ، وذلك لتهيئة الجو الاجتماعي المواتي لتطبيق العلم في المجالات العسكرية والدفاعية • لان العلم لا ينجح ، الا اذا كان مفيدا ، وحتى يكون مفيدا ، ينبغي ان تتوفر لدى المواطنين العرب بعض الميول العلمية ، اي الثقافة العلمية للطبقة المتوسطة من

الشعب . فكم من دولة عربية الفت مجالس علمية ورسمت خططا او سياسات علمية ، ولكنها لم تحقق سوى نجاح هزيل . وذلك لان العلم لا يمكن ان يفرض من عل ، اي بقرار من السلطة ، او بخطة عالم او بلجنة من العلماء . لذا يتوجب تعميم المعطيات العلمية على فئات الشعب كافة ، وجعل الرأي العام يتفهم ان الروابط بين العلم والمجتمع ضرورة وطنية ، غايتها زيادة المعرفة بصورة مطلقة ، والافادة من تطبيق نتائج العلم على تحسين المستوى المعيشي لكل فرد . ويتطلب ذلك برامج علمية شاملة على مختلف المستويات والاعمار ، تسخر لها وسائل الاعلام ، لنشر المعلومات العلمية والتقنية ، وتفسيرها في القطاعين المدني والعسكري (٥٧) .

٤ ـ **اعلام علمي** : لعل افضل المحاولات لنشر التوعية او الثقافة العلمية ، تأتي عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية وغيرها . هذا ما قامت به الصين الشعبية ، لغرس حب العلم في نفوس الصغار والكبار على السواء . فقد وضعت الصين « حب العلم » مثلا ، واحدا من الشعارات الخمس في الصين الجديدة ، بالاضافة الى حب الوطن وحب الشعب وحب العمل والعناية بالاملاك العامة . واصبحت كلمتا علوم وتكنولوجيا تستعملان في الصحف الصينية ، يوميا . ويمكن كذلك غرس حب العلم في نفوس النشء والكبار ، بواسطة اعداد برامج علمية مبسطة على الاذاعة والتلفزيون ، واصدار مجلات علمية على كافة مستويات الشعب وتكتب بلغة مبسطة . ومن ابرز مهمات برامج الاعلام العلمي ، على صعيد الكبار ، مساعدة على توضيح منزلة العلم الحديث في التنمية الاقتصادية والعسكرية . وهذا الادراك يولد رأيا عاما يؤيد السلطة في مشاريعها العلمية (٥٨) .

٥ ـ **تأمين الطاقات العلمية البشرية** : يمكن تأمين الطاقات العلمية اللازمة بواسطة: (أ) حشد الادمغة العلمية العربية المتوافرة وتعبئتها ، (ب) دعوة العلماء العرب المهاجرين للعودة ، (ج) اعداد العلماء وتدريبهم في المدارس وفي الجامعات ، في داخل البلاد وفي خارجها .

أ ـ **حشد الادمغة العلمية وتعبئتها** : لعل اول مصدر لتأمين الطاقة العلمية البشرية ، لاي مشروع علمي ، تكمن في استخدام العقول العربية العلمية المتوافرة في الاقطار العربية وتعبئتها في خدمة المعركة . فمن المعلوم ان الوطن العربي يملك اكثر من ٥٦٠ الف خريج جامعة . وهذا جيش ضخم ، الا ان هذه العقول العربية الكبيرة ، وخاصة العلمية منها ، غير مجندة اليوم وغير مستخدمة ، الا بنسبة ضئيلة في خدمة المعركة . لذا يجب حشدها وتجنيدها فورا ، في اطار مؤسسات علمية وفكرية وانمائية وتخطيطية (٥٩) .

ب ـ **الحد من هجرة العقول العلمية الى الخارج** : ولعل استخدام العقول العربية المتوافرة ، يتطلب الحد من هجرة الكفايات العلمية الى الخارج . ويمكن الحد من هجرة الادمغة العلمية العربية ، باعادة النظر في تعديل الرواتب ، وانشاء معاهد علم متطورة ، ومراكز بحوث متقدمة ، وتطوير الكليات والجامعات الحالية وتوسيعها ، كما ونوعا ، ووضع سياسة علمية للبلاد ، تشمل رفع المستوى العلمي بين فئات الشعب . هذا وتحاول عدة دول عربية ، كسوريا والعراق ومصر والجزائر ، الحد من هجرة عقولها العلمية الى الخارج .

ج ـ **دعوة العلماء والمهاجرين للعودة** : ومن افضل الوسائل لتأمين العلماء الممتازين نتمثل في العلماء العرب المهاجرين . فهؤلاء على اتصال واسع باحدث التطورات العلمية في البلدان المتقدمة . لذا ينبغي اتخاذ اجراءات جريئة لاعادة هؤلاء من الخارج ، للمساهمة في نهضة الامة العلمية والتقنية والانماء الشامل . هذا ما فعلته الصين الشعبية ، بعد انتصار الثورة الشيوعية في عام ١٩٤٩ . ونجحت التجربة ، فلبى عدد كبير من العلماء الصينيين النداء ، وكان منهم عدد كبير من كبار العلماء الذين شكلوا فيما بعد ، النواة التي تبني الصين حولها نهضتها العلمية الحديثة (٦٠) . ولقد اتخذت مؤخرا بعض الاقطار العربية ، كالعراق

وليبيا وسوريا والكويت والجزائر ، تشريعات خاصة لاعادة الادمغة العربية المهاجرة .

د ـ **اعداد العلماء وتدريبهم** : من المعروف ان تكوين العلماء وتدريبهم ليس بالامر السهل ، لان اعداد العالم الكفوء يستغرق فترة طويلة من الوقت ، من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية ، اي ما لا يقل عن ٣٠ سنة . لذا يجب الاعتماد مباشرة ، اولا ، على العلماء العرب الكبار ، المقيمين والمهاجرين . ويمكن اعداد العلماء في مدارسنا وجامعاتنا اولا ، ثم ارسالهم عن طريق البعثات العلمية ،الهادفة الى الخارج ، للحصول على المزيد من التخصص العلمي والتقني المركز . ويجب توجيه عملية تخصص الطلاب في الخارج ، من قبل الحكومات والمؤسسات المعنية ، بحيث لا يؤدي ذلك الى هدر الاموال او استنزاف الطاقات العلمية ، او الى نزوح الكفايات العلمية العربية (٦١) . لذا ينبغي ان يبدأ تدريس العلوم للاطفال في المرحلة الابتدائية، وذلك خلافا للاعتقاد السائد، بان تكوين العلماء يتم في المرحلة الجامعية(٦٢). ومن هنا يجب توجيه الطلاب في المرحلة الثانوية الى الالتحاق بالفروع العلمية ، وذلك بنسبة اكثر من ٥٠ بالمئة من نسبة اولئك الذين يلتحقون بالفروع الادبية .

هـ ـ **رعاية الطلاب الموهوبين والمتفوقين** : من الملاحظ ان الاقطار العربية ، لا تهتم الاهتمام الكافي بالاطفال الموهوبين والمتفوقين علميا ، هذا على الرغم من ان هؤلاء يحظون برعاية خاصة في الدول المتقدمة ، وفي طليعتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . لان الاطفال ذوي المواهب العلمية هم ثروة قومية اثمن من اية ثروة اخرى في الامة . لذا ينبغي رعايتها بدقة ، لاستغلالها فيما بعد ، لتطوير البلاد . ففي الاتحاد السوفياتي مثلا ، يحظى الاطفال الموهوبون علميا ، برعاية خاصة ، وذلك على اساس مناهج تعد لهم خصيصا ، لا تطبق عادة في المدارس العادية . ويتم تدريسها على مستوى اسرع وارفع بكثير ، من مستوى البرامج الثانوية العادية ، بغية الحصول على اكبر عدد ممكن من العلماء المبدعين ، باقصر وقت ممكن (٦٣) . وفي اعقاب نجاح اطلاق اول جرم صناعي سوفياتي عام ١٩٥٧ ، اعارت الولايات المتحدة فئة الاذكياء والموهوبين ، عقليا ودراسيا ، اهمية بالغة . واجرى المربي الكبير ، جيمس كوننت، دراسة للمدارس الثانوية ، واقترح تقديم برنامج مدرسي خاص بهم ، وتوجيه خاص من قبل المرشدين التربويين ، وكذلك تقديم المساعدات والمنح المالية ، وتنظيم تعليم خاص بهم (٦٤) .

و ـ **تامين مدرسين اكفاء للعلوم** : لا يخفى ان اعداد العلماء في المدارس الابتدائية ، يثير قضية نوعية مدرسي العلوم المرغوب فيهم ، في هذه المرحلة . فعلى مدرسي العلوم ، في المرحلة الابتدائية ، ان يكونوا خريجي الجامعات ، وان ينالوا قسطا وافيا من التدريب الوافي على الاساليب التربوية الحديثة ، في تدريس العلوم للصغار ، وان يتحلوا بمزايا خلقية ونفسانية ، تتسم بالبشاشة وروح الصداقة والموده . وتجدر الاشارة الى انه لا يمكن اعداد الطاقات العلمية الوطنية ، بشكل يخدم المعركة ، بما فيها التحدي العلمي والتقني الاسرائيلي ، الا بمعالجة قضية اعداد مدرسي العلوم ـ كما وكيفا ـ معالجة مدروسة ومنسقة ، مستمرة (٦٥) .

ز ـ **اجراء دراسات علمية ميدانية** : ولعل في مقدمة الوسائل الواجب ،تخاذها ، لتطوير العلوم في المدارس وتعزيزها ، القيام بدراسات ميدانية حول المدارس ،لتقييمها واظهار مواطن الضعف فيهاوتقديم اقتراحات بناءة واساسية، بغية رفع مستواها التربوي والعلمي والثقافي ، لتقوم برسالتها وبمسؤولياتها ،بشكل يتناسب والتحدي العلمي والاقتصادي والعسكري والسياسي ، الذي يواجه الامة العربية . هذا ما قامت به الولايات المتحدة ، في اعقاب اطلاق اول قمر سوفياتي عام ١٩٥٧ (٦٦) .

ح ـ **تامين البيئة العلمية المناسبة** : على الرغم من اهمية المناخ العلمي المؤاتي للعمل المنتج ، نجد ان البيئات العلمية غير مناسبة في الاقطار العربية عامة . لذا تعاني هذه الاقطار من استنزاف افضل الكفايات العلمية ، عن طريق الهجرة الى الخارج . فالعالم المنتج لا يمكن ان يعمل في فراغ ، بل في مناخ علمي

واداري واجتماعي مريح . ولعل ابرز الطرق لتأمين البيئة العلمية المؤاتية ، تتمثل في تزويد العالم بالاجهزة العلمية الحديثة في مركز عمله ، وتأمين حرية اكاديمية كافية ، ليتمكن من التنقيب والبحث ، وراتب محترم ، وعدد من المساعدين المؤهلين والمكرسين ، ادارة علمية مرنة او حديثة وبعيدة عن مقتضيات الادارة المتحجرة التي تعرقل الانتاج والابداع معا ، مساهمة دائمة في المؤتمرات العلمية الدولية ، وكذلك اتصال دائم بالجماعات العلمية في البلدان المتقدمة ، عن طريق دنح للسفر الى مراكز الابداع العلمي . وبالاضافة الى ذلك ينبغي تزويد مراكز عمل العالم باحدث المراجع والكتب والمجلات وغيرها من المطبوعات العلمية والتقنية (٦٧) .

ط ـ تأمين الاموال اللازمة : لا يختلف اثنان على ان تنفيذ اي مشروع يحتاج الى مال . ومن الملاحظ ان الاموال ، التي تنفقها جملة الاقطار العربية على المشاريع العلمية ، تعتبر ضئيلة جدا ، بالنسبة للاموال التي تنفقها اية دولة متقدمة ، وكذلك اسرائيل . ويعتقد ان نسبة الانفاق على العلوم والتكنولوجيا ، لاي مجتمع يريد النمو والاستمرار في النمو العلمي والاقتصادي ، ان تكون ما بين ٣ و ٤ بالمائة من الناتج القومي الاجمالي (٦٨) .

الخلاصة والاستنتاجات :

كانت الغاية من هذا البحث ، اظهار دور العلم والتكنولوجيا ، في الحرب بوجه عام ، وكشف مدى تقدم الخطر العلمي والتقني الصهيوني للامة العربية، ثم رسم استراتيجية لتطوير العلم والتكنولوجيا في الاقطار العربية ، واساليب وضعها في خدمة المعركة ، ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية . ولقد انطلقنا في هذا البحث من الافتراض القائل ، بان المعارف العلمية والتقنية المتقدمة ، قوة استراتيجية ايجابية ، في المواجهة العسكرية مع اسرائيل . كما نعتبر ان المعركة مع اسرائيل ، ليست عسكرية فحسب ، بل علمية وتقنية ايضا . ولا يقتصر العلم على مجموعة من المعارف والنظريات فحسب ، بل على روح ومنهجية علمية ونمط معين موضوعي، لحل معظم المشاكل والقضايا التي تواجه المجتمع . واما التكنولوجيا ، فهي تطبيق العلم . وتكنولوجيا الحرب هي حصيلة العلم ، اي الوعاء الطبيعي ، الذي يمكن فيه تحويل الاكتشافات والاختراعات العلمية الى صناعة ، خفيفة او ثقيلة .

ولم تعد فوائد العلم تقتصر على النواحي الاقتصادية والثقافية والعقلية فحسب ، بل على النواحي العسكرية والقتالية والدفاعية . فالعلم والتكنولوجيا اصبحا شرطان اساسيان للقوة العسكرية وللتنمية الاقتصادية . وهما السبيل الوحيد ، الذي يضمن للعرب اسباب القوة والتقدم ، وكذلك السلاح الحاسم الذي يحقق النصر في المعارك والحروب . ويشهد التاريخ للادوار البارزة التي مثلتها العلوم والتكنولوجيا في الحروب .

بعد كل ما تقدم ، كيف يمكن للعرب ان يضعوا العلم في خدمة المعركة ؟ قبل ذلك ، لا بد منتطوير العلم والتقنية في الاقطار العربية، ثم اعتماد سياسة انماء علمية وتطبيق العلم والتكنولوجيا في القطاع العسكري ، وكذلكتأمين الاساليب اللازمة لتحقيق ذلك .

وبالاختصار ، لعله من الخطأ الفادح ان نقيس ، بعد الآن ، قوة العرب وقوة اسرائيل، بعدد السكان او بعدد الجنود ، او تراكم الاسلحة الحديثة وحدها . لان **مفتاح النصر** يعتمد اليوم على **التفوق العلمي والتكنولوجي** ، وعلى **التفكير العلمي والتخطيط العلمي** .

الحواشي

١ – **الاتحاد السوفياتي : الانسان ، العلم ، التكنيك** (كتيب باللغة العربية من المركز الثقافي السوفياتي في بيروت ، بلا تاريخ) ، ص ١–٢ .

٢ – صادق جلال العظم ، « العلم الحديث والنكبة الاخيرة » ، **دراسات عربية** ، العدد ١٠ ، آب / اغسطس ١٩٦٧ ، ص ٤٢ .

٣ – (أ) – المصدر نفسه ، ص ٤٥ – ٤٦ .
(ب) مجلة « **قافلة الزيت** » ، مارس / ابريل ١٩٧٠ ، ص ٣٣ .
(ج) – جريدة « **صوت العروبة** » ، بيروت ، ١٩٧٠/١١/٢٢ ، ص ٧ .

٤ –
Monday Morning Magazine, Beirut, August 18-24, 1975, p. 24

٥ – (أ) ندوة الدراسات الانمائية ، المؤتمر الوطني السابع للانماء ، « استراتيجية الثورة العلمية التكنولوجية » ، بيروت ، ٢٤ – ١٩٧٣/١٢/٢٥ .

ب – انطوان زحلان ، « العلوم والتكنولوجيا والتنمية » ، مجلة « **قضايا عربية** » ، العدد ١ ، نيسان / ابريل ١٩٧٤ ، ص ٧٥ – ٧٦ .

٦ – (أ) فيليب كين ، **عمالقة العلم** ، ترجمة اديب يوسف ، ص ٣٢ القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٦٣ .
(ب) –
Bull J, *One Hundred Great Lives*. London : Amersham, Hulton Educational Publications Ltd., 1972.

٧ – ادوارد ميد ايرك ، **رواد الاستراتيجية الحديثة** ، ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١١٢ – ١٢٢ .

٨ – هربرت فشر ، **نابليون** ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ، ص ٣٥ .

٩ – ليونارد سلك ، **ثورة البحوث** ، ترجمة عمر القباني ، القاهرة ، دار الكرنك ، ١٩٦٠ ، ص ٥٧ – ٥٨ .

١٠ – (أ) – جلبرت هايت ، **جبروت العقل** ، ترجمة فؤاد صروف . بيروت ، دار الثقافة ، ص ١٤٠ .
(ب) – المصدر الرقم (٥ ب) ، ص ٨٣ و ٩٠ .
(ج) – حسن صعب : « الانسان العربي وتحدي الانماء » ، محاضرة القيت في الدورة التدريبية لوزراء خارجية دولة الامارات العربية المتحدة في ابو ظبي في ٢٤ آذار / مارس ١٩٧٤ ، ص ٤ – ٦ .

١١ – مجلة « **هنا بيروت** » ، مجلة الاذاعة اللبنانية ، بيروت ، شباط / فبراير ١٩٧٠ ص ١٣ .

١٢ – مجلة « **اذاعة لبنان** » ، بيروت ، تموز / يوليو ١٩٧٤ ، ص ١٥ .

١٣ –
Costi Zurayk, «*The University in a Deveolping Arab World,*» *al-Kulliyah,* (Beirut, Summer, 1975), p. 13.

١٤ – المصدر نفسه ص ١٣ .

١٥ – (أ) – مجلة « **التربية الجديدة** » ، العدد الثاني ، بيروت ، نيسان / ابريل ١٩٧٤ ، ص ٣٤ .
(ب) – **تحليل البيانات الاحصائية المقارنة حول التعليم في الدول العربية** ، لمؤتمر وزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، المغرب ١٢ – ١٩٧٠/١/٢٢ ، ص ٤١ .

١٦ – مجلة « **وقائع اليونسكو** » ، ايلول / سبتمبر ١٩٦٧ ص ١٥ .

١٧ – الياس زين ، **هجرة الادمغة العربية** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٤٣ – ٥١ .

١٨ ـ المصدر الرقم ٤ ، ص ٢٧ ٠

١٩ ـ (أ) ـ المصدر الرقم ١٤ ص ٢٤ ـ ٢٧ ٠
(ب) ـ المصدر (٥ ـ ب) ، ص ٨٨ـ٩٢ ٠
(جـ) ـ انطوان زحلان ، « الهوة العلمية والتكنولوجية بين اسرائيل ولبنان : اثرها على لبنان » ، دراسة قدمت في المؤتمر الوطني السادس للانماء ، باشراف ندوة الدراسات الانمائية ، بيروت ، ١٩٧٢/١٠/٢٧ ٠

٢٠ ـ
United Nations, *Statistical Yearbook 1973* (New York : United Nations 1974), pp. 793-795.

٢١ ـ هالة سلام مقصود ، « تحدي التقنية الاسرائيلية وكيف نواجهها ؟ » دراسة قدمت في ندوة « دور المهندس العربي في معركة الصمود » ، باشراف الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين ، بغداد ١٤ ـ ١٨/٤/ ٠

٢٢ ـ مركز التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية ، « الصناعة الحربية الاسرائيلية » ، دراسة قدمت في ندوة بغداد السابق ذكرها، ص ٩ و١٤ و٢٦ ٠

٢٣ ـ (أ) ـ مجلة **العلوم** ، بيروت ، حزيران / يونيو ١٩٦٨ ، ص ١١ ٠
(ب) ـ المصدر ٤ ، ص ٢٥ ٠

٢٤ ـ هيئة التعبئة الوطنية ، مؤتمر التعبئة الوطنية ، « تقرير لجنة التعبئة العلمية » ، ٩ ـ ١٩٦٧/١٠/١٠ ، ص١ ٠

٢٥ ـ المصدر ٤ ، ص ٢٤ ٠

٢٦ ـ منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز التخطيط ، **فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني** ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١١ ٠

٢٧ ـ منير شفيق ، **حول كتابات الشهيد كمال عدوان** ٠ الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، منشورات الاتحاد ، رقم ٢ ، ص ٢١ ٠

٢٨ ـ
Ministry of Immigrant Absorption, the Student Authority, *Student's Guide* (Jerusalem, November 1971), pp. 4-5.

٢٩ ـ انطوان ب٠ زحلان ، **العلم والتعليم العالي في اسرائيل** ، ترجمة محمد صالح العالم ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالاشتراك مع دار الهلال ، ١٩٧٠ ، ص ٧ و ١٨٠ ٠

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٩ ٠

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣ ٠

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ ٠

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ٠

٣٤ ـ المصدر نفسه . ص ١٥٦ او ١٦٦ ٠

٣٥ ـ المصدر ٢١ ، ص ٢ ٠

٣٦ ـ المصدر ٢١ ، ص ١٢ ـ ٢٥ ٠

٣٧ ـ المصدر ٢٩ ، ص ١٤ ـ ١٦ ٠

٣٨ ـ المصدر ٢١ ، ص ٢٤ ٠

٣٩ ـ المصدر ٢١ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

٤٠ ـ معين احمد محمود ، **الجديد في العسكرية الاسرائيلية** ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٧٢ ، ص ٩٢ ـ ٩٤ ٠

٤١ ـ (أ) ـ فؤاد صروف ، **اوراق علمية ١٩٦٨ ـ ١٩٧١** ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ٠
(ب) ـ المصدر ٢٤ ، ص ٢ ٠

٤٢ ـ جريدة « **انباء موسكو** » ، موسكو ، (١٥) ، ١٩٧٣ ، ص ١٠ ٠

٤٣ ـ
Frederick Harbison and Charles Meyers, *Manpower and Education* (New York : McGraw-Hill, 1965), p. 220.

٤٤ ـ المصدر (١٥ ـ أ) ، ص ٣٤ ·

٤٥ ـ المصدر ٢٠ ، ص ٧٦٠

٤٦ ـ
Sydney H. Goult, Science in Communist China, Washington D.C. 1961.

٤٧ ـ (أ) ـ المصدر ٢٤ ، ص ٢
(ب) ـ اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلوم والثقافة ، الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البلاد العربية ، التقرير النهائي ، بيروت ، ٢ ـ ١٩٧٤/٩/٧ ، ص ١٠ ·

٤٨ ـ (أ) ـ المصدر ٢٤ ، ص ١ ·
(ب) ـ المصدر ٢٩ ، ص ٦-٧ و ١٦٤ ـ ١٦٥ ·

٤٩ ـ المصدر ٢٩ ، ص ١٤ ـ ١٥ ·

٥٠ ـ المصدر ٢٩ ، ص ٣٠ ·

٥١ ـ (أ) ـ المصدر (٢٣ ـ أ) ، ص ١١ ·
(ب) ـ الياس زين ، « انماء الطاقات العلمية العربية » ، قضايا عربية ، العدد ١٠ ، شباط / فبراير ١٩٧٥ ، ص ٥٣ ·
(ج) ـ جريدة « الحياة » ، عدد خاص عن اليابان ، الرقم ١٣ ، ص ٧٦ ، بلا تاريخ ·

٥٢ ـ المصدر (٥ ـ أ) ، التوصيات ·

٥٣ ـ المصدر ٢٩ ، ص ١٨٦ ·

٥٤ ـ المصدر (٢٣ ـ أ) ص ١١ ·

٥٥ ـ المصدر ٢١ ، ص ٣٣ ·

٥٦ ـ المصدر ٢٤ ، ص ١ ·

٥٧ ـ (أ) ـ المصدر ٢٩ ص ١٧٨ ·
(ب) ـ المصدر ١٢ ، ص ١٤ ·
(ج) ـ المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، الاتجاهات السائدة في التعليم العام والمهني في الدول العربية ، مراكش ١٢ ـ ١٩٧٠/١/٣٠ ، ص١٠١ (اليونسكو)

٥٨ ـ (أ)
L.O.A. Orleans, *Professional Manpower and Education in Communist China*. (Washington, D.C. Library of Congress, 1960). p. 109.
(ب) ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٣١ ·

٥٩ ـ (أ) ـ المصدر (٥١ ـ ب) ، ص ٤٥ ·
(ب) ـ المصدر ٤٠ ، ص ٢٩١ ·

٦٠ ـ المصدر ١٧ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٨ ·

٦١ ـ (أ) ـ
Development Studies Association, Seventh National Development Conference, 24-25 November 1973, «A Note on the Role of Overseas Study in the Transfer of Scientific and Technological Knowledge,» by David Latta (Beirut : Development Studies Ass.).
(ب) ـ المصدر (٥ ـ أ) ، التوصيات ·

٦٢ ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٢٤ ·

٦٣ ـ المصدر ٢ ص ٤٧ ·

٦٤ ـ
James B. Conant, *The American High School Today* (The New American Library, A Signet Book, June 1964), pp. 62-68.

٦٥ ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ·

٦٦ ـ (أ) ـ المصدر ٤ ·
(ب) ـ المصدر ٢ ، ص ٤٦ ـ ٤٧

٦٧ ـ (أ) ـ المصدر ٢١ ، ص ٣٣ ·
(ب) ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ·
(ج) ـ المصدر (٥١ ـ ب) ، ص ٥١ ·
(د) ـ المصدر (٥ ـ ب) ، ص ٨٢ ·

٦٨ ـ المصدر (٥ ـ ب) ، ص ٨٤ ·

الطبقة العاملة والحركة السياسية في فلسطين

عبد القادر ياسين

كشفت القيود المفروضة على الحركة النقابية ، وغياب الحقوق السياسية ، للعمال العرب الفلسطينيين الصلة الحميمة بين السياسة وبين ما يعانون من ظروف قاسية في الحياة وفي العمل على السواء ٠

فظروف هؤلاء العمال كانت لهم المعلم والمدرسة ، اذ طالما اصطدموا ، يوميا ، بوقائع الاستغلال البريطاني والصهيوني ٠ وادى غياب الشركات العربية الفلسطينية الكبيرة – وتلك نتيجة طبيعية للقهر الاستعماري الصهيوني المزدوج – الى تعزيز اتجاه العمال المعادي للامبريالية البريطانية وللصهيونية ٠ فالاحتكارات البريطانية هي التي تدفع لهم اجور الفاقة ، وهي التي تقف عقبة في سبيل مطالبهم بحياة افضل ٠ والحكام البريطانيون هم الذين يمارسون ضدهم شتى اساليب القهر والتنكيل ٠ وحكومة الانتداب البريطاني هي التي تشوه قضيتهم ، وهي التي تقمع – بكل شراسة – الاضرابات والمضربين من العمال العرب الفلسطينيين ٠ واذا ما حظي بعض العمال بمحاكمة ، كان قضاتهم – في الاغلب – من البريطانيين ٠ وفي سوق العمل ينافسهم عمال يهود ، جلبتهم الحركة الصهيونية من خارج البلاد ، وهي الحركة التي تمارس ابشع انواع التمييز ضد العامل العربي ، كما يعمق توالي الهجرة اليهودية الوافدة الى فلسطين ، وتدفقها ، ازمة البطالة العمالية في البلاد ٠وعن هذا الطريق عرفت شعارات الاستقلال الوطني طريقها الى عقول العمال العرب الفلسطينيين ، من خلال ممارساتهم اليومية ٠ وادركوا انه لا يمكن احداث اي تغيير جذري في حياتهم ، دون حدوث تغيير سياسي ، وان جوهر هذا التغيير السياسي لا يمكن ان يكون الا الاستقلال والتحرر الوطني ٠ وهكذا ، من السخط الاقتصادي الى الوعي السياسي ، مما افضى الى تضامن طبقي ارتبط بمشاعر وطنية قوية ٠

لذا ، كان طبيعيا ان تلعب الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ذلك الدور المؤثر – باضطراد – في الحركة الوطنية الفلسطينية ٠ على الرغم من وقوعها – اغلب الوقت – تحت قيادة دخيلة ، لم تصدر عنها ٠ فخبرة هذه الطبقة، ونمو وعيها ، واشتداد عود تنظيماتها وتعاظم كفاحها ، كانت كلها مقدمات تأجج الحركة الوطنية للشعب الفلسطيني ٠ فالعمال هم الذين كشفوا – بكفاحهم الجماعي الاقتصادي – للشعب الفلسطيني نظام الاستغلال الاستعماري ، الجاثم على انفاس الشعب الفلسطيني ٠ والهمت الطبقة العاملة الشعب بأسره ، وحفزته على الكفاح ، كما هتكت الطابع الحقيقي للنظام الاستعماري ، واطماعه ٠ وقبل هذا كله ، اوضحت خبرات معارك الطبقة العاملة طريق التخلص من الاستعمار والصهيونية ٠

« تفبرك » البرجوازية نظريات عديدة عن

« حياد » النقابات ، كما تعمل من اجل ايقاع هذه النقابات في شباكها ، وتضييق نطاق نشاطها ، وقطع اية صلة بين النقابات والاشتراكية ، وحبس النقابات داخل اسوار العمل النقابي البحت .

فالبرجوازيون يدركون تماما ان النقابات العمالية هي مدرسة للصراع الطبقي . اذ هي - حسب رأي لينين - سلاح لا غنى عنه للطبقة العاملة في صراعها من اجل الاطاحة بالنظام الرأسمالي وبناء المجتمع الاشتراكي .

والنقابة - كما هو معروف - تنظيم طوعي ، يهدف الى تعليم الطبقة وتدريبها ، مؤسسة تعليمية مستقلة ، خاصة ، ضرورية للطبقة العاملة . يجري العمل التعليمي فيها ، اساسا ، من خلال الممارسة اليومية للنقابات ، عن طريق ادانة مظاهر المجتمع الرأسمالي الاستعماري ، وابراز القيم الاشتراكية .

والنقابة مدرسة للوحدة والتضامن . اذ هي توحد ، اختياريا ، الاف العمال ، وتنمي لديهم الاحساس بالجماعية ، وبالمساعدة المتبادلة ، وتعلمهم الجمع بين مصالح الذات ومصالح الطبقة .

واقامة اوسع الصلات بالجماهير هي اساس نجاح النشاط النقابي ، ويتأتى ذلك بالمراعاة الدقيقة لمبادىء تنظيم النقابات ، ونشاطها ، واشكال وطرق عملها . ومع الوعي بهذه الحقائق كلها ، جاءت تصرفات الطبقات والقوى السياسية المختلفة متباينة ، متعارضة مع بعضها البعض .

فالصهيونية كانت اول من احس بأخطار قيام نقابات عمالية عربية صحيحة في فلسطين ... فقاومتها منذ البداية ، ثم عملت على ابعادها عن العمل السياسي ، لما يشكله اسهامها في هذا العمل من خطر حقيقي على المشروع الصهيوني في فلسطين . وعلى سبيل المثال اكدت مقررات المؤتمر السابع لعمال سكك الحديد اليهود (اواخر ايار ١٩٣١) انه « لا يمكن للعمال ان ينالوا حقوقهم المشروعة المهضومة الا باتحادهم وتكوينهم كتلة واحدة ، بقطع النظر عن القوميات والمذاهب والابتعاد عن السياسة ، ضمن وحدة النقابة »(١) .

اما البرجوازية العربية الفلسطينية فنجحت في التسلل الى قيادة الحركة النقابية العمالية، حيث نشرت افكارها الداعية الى عدم تدخل العمال في السياسة . وسمعنا اصواتا ، من داخل الحركة النقابية ، تردد هذه الافكار . على ان هذه الافكار اخذت في الانحسار ، مع مرور الوقت ، تحت تأثير النشاط المتزايد للشيوعيين في الاوساط العمالية ، وبعد اكتشاف العمال الصلة الوثيقة بين السياسة والاقتصاد .
وهذه صحيفة اممية شيوعية تؤكد، في اواسط العشرينات ، بأن الطبقة العاملة في الشرق لم تسلم « من الاتجاهات الاقتصادية ، والاشتراكية البوليسية ، والاصلاحية ، اي انها تأثرت - الى حد ما - بمبادىء الاممية الثانية وشعاراتها » .(٢) وغني عن القول بأن هذه الاتجاهات جاءت بتأثير البرجوازية الصغيرة التي نجحت في التسلل الى قيادة الحركة النقابية العمالية في بلدان الشرق العربي المختلفة .

وفي قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية نجد النموذج لهذه الاتجاهات . فسكرتيرها العام يتباهى - في العام ١٩٤٦ - بنجاح قيادة الجمعية في النأي بالحركة النقابية عن الحزبية والسياسة ، فيقول « نجونا بحركتنا النقابية من الانزلاق لتيارات السياسة والحزبية » .(٣) وفي العام التالي كتبت صحيفة مصرية موالية للاستعمار البريطاني تنفي ان يكون لاعضاء جمعية العمال العربية « مذهب سياسي ، وانما يدنو برنامجهم من الاشتراكية المعتدلة ، فهم جد معنيون بأن تكون لهم صلة بجهة سياسية اجنبية ما . وقد حدث في عام ١٩٤٤★ ان اتفق رأيهم على فصل العناصر التي بدأت تجنح الى الشيوعية » .(٤) ووصل النفور من السياسة لدى قيادة جمعية العمال الى حد الرعب ، فاذا وجد مجلس الفرع التابع للجمعية « ان لبعض المسائل السياسية ارتباطا بالشؤون الاجتماعية بحثها من هذه الناحية وحدها » .(٥) وفي حديثه للصحيفة نفسها أبان سامي طه « حقيقة عزا

★ - الصحيح ان الشيوعيين هم الذين خرجوا، ولم تفصلهم الجمعية ، كما ان هذا الخروج وقع في آب (اغسطس) ١٩٤٥، وليس قبل ذلك .

اليها جزءا كبيرا مما اصابته جمعيته من نجاح ، وهي بعدها عن المزالق السياسية ، وتخليها عن اعتناق اي مذهب سياسي كان » • وحـرص سكرتير عام جمعية العمال على ان يبين لمندوب الصحيفـة « المبدأ الذي عليـه تدور رحـى حركتهم ، وهو **الوصول الى اهدافهم بالتدرج لا بالثورة** • فهم جد مقتنعين بأن العمل في امانة واخلاص وصبر وامتثال للنظامهو السبيل لتحقيق اماني العمال وطلباتهم في اقرب وقت • فما كان التذمر ، والاندفـاع الـى الفتنـة ، والسعي لاحداث الشغب مما يؤدي الـى تقدم ما » • اذن ، فقائد جمعية العمال العربيـة الفلسطينية يرى في كفاح العمال الجماعـي تذمرا وفتنة وشغبا ، وهو بهذا يصدر عـن افكار برجوازية خالصة لا تشوبها اية شوائب عمالية !

وتطمس قيادة جمعية العمال الطابع الطبقي للجمعية ، بتغليبها لعنصر الموظفين ورؤساء العمـل علـى عنصر العمـال • وهـذا مندوب الصحيفة المصرية نفسها يؤكد اشتراك موظفي الحكومة في عضوية الجمعية « لانة ليس ثمـة فرق او تمييز بين العامل والموظف » ! ويصيح محرر الصحيفة الموالية للاستعمار البريطاني مهللا معجبا : « وذلك لعمري طابع الديمقراطية الصراح ، الذي يهدف ـ اصلا ـ الى الاحتفـاظ دائما بمستوى عال للعامل » •(٦) وبالاضافـة الى ان اشتراك الموظفين ورؤساء العمل يفقـد الجمعية نقاءها الطبقي كمؤسسة نقابيـة عمالية ، فانه يشدد ، في الوقت نفسه ، مـن قبضة البرجوازية التي ينتمي اليهـا هـؤلاء الموظفون ورؤساء العمل ـ على الجمعيـة • اذ يحتـل هؤلاء اغلب مقاعـد قيادة الجمعية • فالطريق امامهم جد ممهـد ، في حـين نثـرت العقبات والتحفظات في وجه العمال ، للحد من وصول عناصرهم الى مناصب قيادية فـي الجمعية ، اذ يجوز « لكل عامل ان يقبل عضوا في مجلس الادارة ، ولكن ذلك يقتضي تفوقـا فنيا خاصا » !(٧)

وتصر قيادة جمعية العمال على طابعهـا القومي كبديل لطابعها الطبقي • ففي مقررات آب (اغسطس) ١٩٤٦ جاء « ••• ان حركتنـا تستهدف تكتلا قوميا ، على اساس الاشتراك والمساهمة في الحركة الانسانية الدولية ، بشرط المحافظة علـى استقـلال وشخصيـة تكتلنـا القومي »(٨) •

ويتجلـى المنطـق التوفيقـي ، والرغبـة في التعايش الطبقي في مداولات المؤتمر المذكور ، حين تحدث رئيس الغرفة التجاريـة بحيفـا ، كامل عبد الرحمـن ، عـن مقـررات مجـالس التحكيم ، التي تدل ـ في العادة ـ « علـى التعاون الايجابي بين العمال واصحاب العمل ، والذي بدونه يختل نظامنا الاقتصادي الناشيء ، وتتضرر ثـروة البلاد » • ودعـا عبـد الرحمن اصحـاب العمل الى قليل من حسـن النيـة والتضحيـة والاستعـداد لفهـم طلبات العمال ، وشبه الخلافات بين العمـال واصحاب العمل بتلك الخلافات التي تنشأ بين الاب وابنه والاخ واخيـه • وانتهـى الـى ان « الواجب الوطني يقضي على العمال التفاهم مع اصحاب الاعمال » • وذكرهم « ان عليهم واجبات تجاه اصحاب الاعمال ، لا بد من القيام بها لقاء الامتيازات التي يتمتعـون بهـا » ! وانتهى رئيس الغرفة التجارية الى الاعـلان عن ثقته « في القائمين على جمعية العمـال العربية الفلسطينية » لانجاز هذه المهام !(٩)

وفي حفل الغداء الذي اقامه لاعضاء مؤتمـر جمعية العمال ، اشار كامل عبد الرحمن الـى « انه اذا حصل زاد وملح بين فريقين ، سهـل عليهما حل ما قد ينشأ بينهما من خلاف ، بروح الود والتصافي » •(١٠) وبرهن كامل عبـد الرحمن عن وعيه بمصالح طبقته البرجوازية ، واتساقه مع نفسه • اما سامي فقد كان حريا به ان يرفع شعارات الطبقة العاملة التي يزعم الدفاع عن مصالحها • فلا يرائي ، ولا يمتدح الداعي لانه انحدر من اسرة عمالية ويمتـدح المستر شلنر ، نائب مدير عام سكك الحديد ، والمستر هوبكلز ، مدير العمل بشركة تكريـر البترول ، اللذين حضرا المادبة • ووصل بـه الامر الى حد القول « ••• عرفتهما [شلنـر وهوبكلز] يرغبان رغبة صادقة بحل جميـع قضايا عمالهما بالبحث والمناقشة » ! ثم تحدث عن نفسه وجمعيته ، فقال ان هذين المسؤولين عرفاه بانه يمثل « هيئة لا تنظر الى صاحـب العمل نظرة عدائية ، وانما هي تؤمن بأن عليها

ان تسير في طريق مزدوج ، طريق العامل حتى يصل الى حقه العادل ، وطريق صاحب العمل باعترافها بحقه العادل بعمله ، وتعترف بأنه من الضروري – لمصلحة العمال والعمل – ان تكون هناك رابطة قوية بين العمال واصحاب العمل ، رائدها لخير الطرفين »(١١) . وهكذا ، يعبر اكبر مسؤول في جمعية العمال العربية في طابعها التوفيقي ، كما يعترف – مفاخرا – بميولها التهادنية .

وفي مجال اخر ، تزيد وثيقة صادرة عن مؤتمر آب (اغسطس) نفسه الامر وضوحا ، فترى « ان كل ثورة لانقلاب اجتماعي مقضي عليها لا محالة ، وذلك لاننا كعرب يربط بعضنا ببعض الاواصر العائلية ، وكل دم يراق من فرد من افراد اي عائلة فأن كل فرد من تلك العائلة مطالب باخذ الثأر . لذلك فكل دعوة لتحقيق اي انقلاب لاصلاح اجتماعي بالثورة هي دعوة رجعية ، لانها قضاء على ذلك الاصلاح ، وتأخير الدعوة له مرة اخرى سنين طويلة ، وزج البلاد بفتنة لا يعلم الا الله نهايتها . ولان الدعوة للثورة معناها وضع البلاد في معسكرين ، كل منهما يتحين الفرصة ليوضع الضربة بخصمه » .(١٢) وهكذا ، من الهبوط لمنطق العلاقات العشائرية الى ادانة الثورة . وكان اجدر بقيادة جمعية العمال ان تدعو الى تأجيل الثورة الطبقية لحين الخلاص من الاستعمار والصهيونية ، لا ان تدين الثورة ادانة مطلقة .

وعداء جمعية العمال العربية للسياسة والحزبية تعود الى فترة سابقة على تولي سامي طه سكرتيريتها . ففي مؤتمر العمال العرب الفلسطينيين الاول (١٩٣٠) ، اشار رئيس المؤتمر ، محمد علي قليلات ، الى ان جمعية العمال « لا تسمح لاحد من المؤتمر ان يشذ عن هذا القانون [قانون الجمعية] ، ولا ان يتكلم او يقوم بأي حركة من شأنها سوق المؤتمر في طريق حزبي . اذ ان الغاية الوحيدة من عقد هذا المؤتمر هي العمل على ادخال العامل العربي في سلك التنظيم النقابي ، ليتبوأ المركز الذي يستحقه في الهيئة الاجتماعية »(١٣) .

وفي مؤتمر اب (اغسطس) ١٩٤٧ طالب حسني الخفش ، احد قادة الجمعية ، بتطهير الحركة العمالية « من كل حزبية سياسية ، داخلية او خارجية » ! على انه رد موقفه هذا الى ان الاحزاب السياسية العربية الفلسطينية اولا لا تقوم على تمثيل صحيح للشعب ، وثانيا لان النأي بالحركة العمالية عن الحزبية يجنب الحركة الفرقة التي تحدث بسبب انتساب العمال الى احزاب سياسية مختلفة . وانتهى الخفش الى المناداة بتشكيل حزب عمالي خالص (١٤) .

وفي مؤتمر اب (اغسطس) ١٩٤٦ ، تبنت جمعية العمال شعار « الاشتراكية » ، اولا بعد ان اصبحت الاشتراكية نظاما عالميا غداة الحرب العالمية الثانية ، وبهرت بأنوارها ابصار شعوب الارض . وثانيا حتى تفوت الجمعية على مؤتمر العمال العرب فرصة التمايز عنها او اتهامه لها بالرجعية . وثالثا حتى تتمكن الجمعية من تخريب الاشتراكية من الداخل . ورابعا لان حزب العمال البريطاني – الذي اعربت قيادة الجمعية ، في اكثر من مناسبة ، عن اعجابها الشديد به – يرفع ايضا راية الاشتراكية ، وان كانت اشتراكية في ظاهرها رأسمالية في جوهرها .

وجاءت الوثيقة التي اصدرتها قيادة الجمعية بصدد الاشتراكية لتعتبر ، في مبدئها الاول « الحركة النقابية الطريق الصحيح للوصول الى الاهداف الاشتراكية » . وفي شرح هذا المبدأ جرى انتقاد الذين بدأوا نشاطهم النقابي بالاشتغال بالسياسة (١٥) !

والاشتراكية ، في رأي الوثيقة « حركة اصلاح لتحقيق العدالة الاجتماعية ، بتوزيع ثروة البلاد الطبيعية والانتاجية توزيعا عادلا بين جميع المنتجين من المواطنين ، لتحرير كل فرد من خوف العوز والجهل والمرض ، وباعطاء فرص متساوية بالحياة للجميع لضمان المساواة التامة بين الافراد »(١٦) . وهذا يعكس مفهوما حرفيا (بكسر الحاء) للاشتراكية ، يرى فيها توزيعا متساويا للخيرات المنتجة ، اي اشتراكية الفقر . واشتراكية جمعية العمال تتحقق ، في رأي قيادتها « اذا اخذ العامل المنتج نصيبا عادلا من انتاجه ... [حين] يتحدد الحد الادنى لمستوى المعيشة المحترمة وتأمين ذلك

الحد للجميع ... وهدفنا هو ان تمتلك الامة ادارة هذه المشاريع [الشركات الاجنبية الكبيرة بفلسطين] وغيرها ، وان يصرف ريعها على تأمين رفاهية الشعب ورفع مستواه المادي والثقافي والاجتماعي ، وبذلك نكون قد وزعنا تلك الثروة توزيعا عادلا »(١٧) .

واشتراكية جمعية العمال قومية لا طبقية ، تردد كلام ابواق الاستعمار ضد الشيوعية ، فالوثيقة تفخر باستقلال اشتراكية جمعية العمال استقلالا تاما « فليست هي تابعة الى اية حركة من الحركات الدولية ، وكل حركة من اعمالنا هي موحاة من مصلحة البلاد والامة » . وترى الجمعية ان تبنيها لاشتراكية « غير محلية » يجعل الحركة العمالية « لا تعود تفكر الا برأس خارجي ، ولا ترى الا بعين الغير .. اضف الى هذا ان الفرد يفقد اعتماده على نفسه ، وثقته بأمته ، ويرسخ في عقله اعتقاد خطر انه هو لا ينفع شيئا بدون مساعدة الغير له ، ومع الزمن ينقلب ذلك الفرد الى داع لدولة اجنبية » (١٨) !! نعم ، الى هذه الدرجة من الابتذال في معاداة الشيوعية ! والاستخفاف بعقول الناس . ويستمر هذا العداء حتى بعد وقوع النكبة بنحو خمس عشرة سنة ، حين يزعم حسني الخفش ان الوكالة اليهودية ساعدت على انتشار الفكرة الشيوعية في فلسطين !!(١٩)

وفي تبرير توجه الجمعية للاشتراكية ، قال نصري الحلو ، احد قادة عمال معسكرات الجيش والمرتبط بالجمعية « ان نظمنا الاقتصادية مرتجلة ، نفعية ، جائرة ، فيجب ان تستبدل بنظام اقتصادي ، متزن ، مدروس ، يسعى الى منفعة المجتمع بكامله ، ويحقق العدل في التوزيع ، كما في الانتاج » (٢٠) . ويخشى النقابي الفلسطيني من اساءة تفسير الاخرين لكلامه ، فيسارع الى التأكيد بأن « الاهداف التي نرمي اليها لا يحققها الا الاشتراكية الصحيحة ، وليس الاشتراكية المتطرفة ، القائمة على الثورة والعنف لمصلحة افراد قلائل من الامة » (٢١) . اذن ، فالمتحدث ضد الاشتراكية قصدها بـ « افراد قلائل من افراد الامة » !

ويكمن الاساس الاجتماعي لانحراف قيادة جمعية العمال عند تفسير الاشتراكية في تخلف قوى الانتاج ، في انتشار الانتاج السلعي الصغير ، في سيادة الاساليب الزراعية على السلوك الاجتماعي . مما يدفع الكثيرين الى تصور الاشتراكية كتجمع للفقراء، يتساوى فيه توزيع الخيرات المادية الشحيحة . وفي هذه التربة تنبت الافكار الاشتراكية الخاطئة ؛ حيث التشكك المطلق في السلطة ، وحيث النزوع لنشر الملكية الصغيرة ، وتكريس الانتاج السلعي الصغير ، بحيث لا يتم القضاء على الاستغلال الرأسمالي ، بل يجري تمليك العمال ادوات الانتاج في بعض الوحدات الانتاجية الصغيرة . وهنا يبرز قطاع من المثقفين للتعبير عن هذا التطلع البرجوازي الصغير ، الذي يخشى الانفصال عن الرأسمالية ، ويقف عند حدود الثورة الوطنية ، ويبالغ في استخدام الشعارات الطنانة المفرغة من اي مضمون حقيقي ، لتغطية ضحالته الثورية .

ومع استقبال الطبقة العاملة اعدادا كبيرة من الفلاحين في صفوفها ، يتسرب هذا الفكر الى صفوف الطبقة العاملة ، وهو الذي يقدس الملكية الفردية ، ويبالغ في تأليه الطبقة العاملة .

ويساعد على انتشار هذا الفكر ، تدني الوعي الطبقي والسياسي لدى جماهير العمال .

وينسى هؤلاء البرجوازيون الصغار الذين يخترعون اشتراكيات على هواهم انه ليس هناك الا اشتراكية واحدة ، وان كان هذا لا ينفي عنها التطور وعدم الجمود ، كما ان للوصول اليها طرقا مختلفة ، بما يلائم ظروف كل بلد على حدة .

واما الاشتراكية القومية او الاشتراكية الوسط الا تكتيكا رأسماليا للتنديد بالاشتراكية العلمية . ولا وجود لاشتراكية وسط ، فالحياد غير ممكن في مجال الايديولوجيات ، فأما رأسمالي واما اشتراكي ، ولا يصح ابدا الباس الاشتراكية رداء رأسماليا ، او العكس ، كما ان الاشتراكية ليست حلية ، بل ممارسة وتنفيذا ومرحلة متكاملة . والاشتراكية انحياز طبقي كامل ، تعادي التعايش الطبقي ، لانها

تعمل لصالح الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين وضد الطبقات المستغلة , بكسر الغين) ·

والقول بأن تطور القوى المنتجة في فلسطين لا يؤهلها لدخول مرحلة الاشتراكية ، قول غير سليم ، لان الامبريالية هي اعلى درجات الرأسمالية · وسيطرة الاستعمار البريطاني على فلسطين جعله ينقل اليها الرأسمالية في اعلى درجاتها : الرأسمالية الاحتكارية الامبريالية · وما كفاح الشعب العربي الفلسطيني ضد الامبريالية الا كفاح ضد الرأسمالية ·

ويتوهم قادة جمعية العمال بأن التحول للاشتراكية لا يتطلب اكثر من نية حسنة او مجرد قرار اداري · مع اهمال لدور الجماهير ، مما لا يؤدي الا الى تثبيت الرأسمالية · فالاشتراكية تتحقق بالجماهير ، ولا تفرض من اعلى ابدا · وليس كل من قال بالاشتراكية اشتراكي · فهناك المتمضمضون بالشعارات الاشتراكية ، المجتهدون في اخفاء جوهرها ، القاضي بانهاء استغلال الانسان لاخيه الانسان ·

واستمرت قيادة جمعية العمال العربية تنأى بنفسها عن السياسة الى ما بعد النصف الاول من الاربعينات(٢٢) · وما ان قام « مؤتمر العمال العرب » الذي كان له انتماؤه السياسي الواضح ، اضافة الى انتمائه النقابي المحدد ، حتى هرعت جمعية العمال تفتش لها عن مثل هذين الانتمائين · فحوت وثيقتها السياسية المباشرة الاولى ، واعني بها « مبادؤنا الاشتراكية » الصادرة عن مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ، اكثر من تبرير لهذا التحول نحو النشاط السياسي · فأكدت هذه الوثيقة انه « لا بد للنقابيين الاشتراكيين من ان يزجوا في ميدان السياسة رجالهم الاكفاء ، الذين امتهنوا السياسة ، وبرعوا بها · ليأمنوا على حركتهم مخاطرها »(٢٣) · على ان الوثيقة نفسها قلبت العلاقة بين النقابية والسياسة ، فاعتبرت « الحركة السياسية بالنسبة للعمال فرعا من الام : الحركة النقابية ، وواسطة للوصول الى الغاية »(٢٤) ·

على ان ثمة دوافع اخرى كانت وراء توجه قيادة الجمعية نحو النشاط السياسي · فكل من كامل سليم وحسني الخفش - من قادة الجمعية - طالب ، في مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ، بتكوين حزب سياسي عمالي ، حتى لا يتفرق العمال على الاحزاب السياسية المختلفة ، « والتي لا تمثل الشعب في شيء» (٢٥) · كما ان التطلع للسلطة كان وراء هذا التوجه للسياسة ، وهذا سامي طه يعرب ، في المؤتمر نفسه ، عن ايمان الجمعية « بأن من دواعي الاسراع بالتطور هو استلام زمام السلطة » · مما يتطلب « النزول الى ميدان السياسة » · (٢٦) كما ان ازدياد شعور الجمعية بالخطر الصهيوني وبالطابع السياسي للهستدروت ، حفز قيادة الجمعية الى مقابلة « هذه المنظمة بمنظمة عمالية سياسية قوية » (٢٧) · على حد تعبير كامل سليم في المؤتمر المذكور · واخيرا برر العضو نفسه مطالبته بادماج الحركة السياسية بالحركة النقابية بتولي حزب العمال البريطاني الحكم في بريطانيا ، مما يجعله مؤهلا لسماع شكوى العمال العرب الفلسطينيين، « لان العمال في بريطانيا لا يمكن اقناعها الا على ايدي عمال مثلهم ، لانهم يفهمون اساليبهم واهدافهم فيقابلونها بمثلها » (٢٨) ! ولا ندري هل كان قائل هذه الجملة من السذاجة بالدرجة التي يقتنع فيها بأن حزب العمال البريطاني يمثل حقا الطبقة العاملة في بريطانيا ، ام ان القائل كان يخدع سامعيه ؟!

وقبيل مؤتمر آب (اغسطس) بأسابيع قليلة ، وامام اللجنة الانغلو - امريكية ، اقر سامي طه بعدم انفصال العمال العرب عن النضال الوطني كل الوقت · كما اعترف باستمرار « العمال ، كأفراد ، يناضلون مع امتهم سياسيا ، وكجماعة · يناضلون اقتصاديا لرفع مستواهم » (٢٩) ·

وتوالت اعترافات قادة الجمعية بضرورة العمل السياسي · ففي المؤتمر المشار اليه ندد ابراهيم عليان بانعزال العمال عن الشؤون السياسية ، واكد ان « فكرة ابتعاد النقابات عن ميدان السياسة هي فكرة رجعية ، اوجدها الاستعمار لمصلحته الخاصة ، وليمكنه ان يعقد الاتفاقات مع الشركات الاحتكارية

الاجنبية بدون اي تهديد او تدخل عمالي في شؤون اتفاقياته ، مما جعل شروط الاستخدام في مصلحة اصحاب العمل ، الا النزر اليسير في مصلحة العامل» (٣٠) وانتهى العضو نفسه الى التأكيد بأن « بلادنا سائرة فيطريقها الى الهاوية ، وسوف تكون مأساتها مخيفة »٠ وناشد المؤتمر « بأن يجعل استقلال فلسطين على رأس اهدافه » (٣١) ٠ وتبعه عضو اخر في المؤتمر ، هو داود يونس من عمال حيفا ، فأشار الى « ان العامل هو اجدر وأحق من يشتغل بالسياسة ، فالسياسة كفاح ونضال ومراس ٠ والعامل هو اقوى من ينهض بهذا العبء ويحتمل مشاقه ، وهو الشخص الوحيد الذي يذهب في كفاحه المذاهب التي تكلفه حياته ودمه ، دون ان ييأس او يأسف » ٠ وانتهى العضو نفسه الى القول بأن « دعوة الابتعاد عن السياسة هي دعوة رجعية استعمارية ، فيها الشر كل الشر ، والضرر كل الضرر » (٣٢) ٠٠٠٠ والاعتراف سيد الادلة !

على ان نزول قيادة الجمعية المفاجيء الى ميدان السياسة لم يكن الا امتدادا لعملها النقابي ، بكل ايجابياته وسلبياته ، مما طبع مطالبها ومواقفها السياسية - ايضا - بالاصلاحية واليمينية والادقاع ٠

فعلى سبيل المثال ، ناشد سامي طه - في مؤتمر آب (اغسطس) - الهيئات السياسية العربية الفلسطينية بأن تتوجه الى حكومة الانتداب ، مطالبة : « بتأليف جيش عربي، لحماية الارواح والمصالح العربية تجاه الجيش الصهيوني الذي دربته وسلحته الحكومة ٠٠٠ ب - بحرمان المهاجرين الذين دخلوا البلاد بعد انتهاء المدة التي حددها الكتاب الابيض من جميع الحقوق المدنية ، ثم باخراجهم من البلاد » (٣٣) ٠ وهكذا ، يكشف الامين العام لجمعية العمال عن مدى سذاجته السياسية ويمينيته ، وعن حسن ظنه الشديد بالاستعمار البريطاني في آن واحد ! حين توهم بامكانية استجابة الاستعمار لنداء باقامة جيش عربي فلسطيني ٠ ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اعرب فيها الامين العام لجمعية العمال عن حسن ظنه في الاستعمار البريطاني ، اذ برأ امام اللجنة الانغلو - امريكية - حكومة الانتداب من مسؤولية عدم قيامها بواجبها حيال الشعب العربي الفلسطيني ، فقال « في فلسطين ، التي بسبب الصهيونية تمتعت بعدم الاستقرار السياسي واضطراب حبل الامن منذ الاحتلال ، لم يكن لدى الحكومة مجالا لكي تقوم بواجباتها نحو الشعب كما يجب ، بل انصرفت بالدرجة الاولى لمعالجة استتباب الامن ، فخصصت له القسم الاكبر من جهودها ، والمبلغ الاكبر من ميزانيتها ، وطبيعي - بعد ذلك - ان تخصص لمعالجة تلك المشاكل الجزء اليسير من ميزانيتها وتفكيرها » (٣٤) ٠ اذن ، فعدم استتباب الامن لم يسببه الاحتلال البريطاني لفلسطين ، بل هذا الاحتلال يستحق الشفقة لما يبذله من جهود في سبيل فلسطين ، على حد رأي الامين العام لجمعية العمال العربية! وهو الذي سرعان ما يناقض نفسه ، حين يرى « ان العرب يطالبون بتحرير انفسهم وبلادهم من الاستعمار ، ليحكموا انفسهم حكما ديمقراطيا » ٠ (٣٥) ثم يتناقض مع نفسه مرة اخرى ، حين يرى ان الصهيونية «احبولة من احابيل الاستعمار ، يتستر وراءها ليضمن لنفسه قدما راسخة في البلاد » (٣٦) ٠ وهنا لا يتهم سامي طه الصهيونية بالتسبب في تقصير الاستعمار حيال الشعب الفلسطيني ، بل يعي انها احدى ادواته ! وهو ايضا يعي الوجه الاخر للصهيونية فيصفها بأنها « حركة رأسمالية رجعية ٠٠٠ تستهدف تأسيس قومية جديدة على حساب القومية العربية بهذه البلاد ، ولذلك نحن العمال نعتبرها فلسفة عنصرية » (٣٧) ٠

وفي الوقت الذي طالب سكرتير عام جمعية العمال بالتحرر من الاستعمار ، فانه لم ير في كفاح شعبه العربي الفلسطيني او امته العربية السبيل لتحقيق هذا التحرر ، بل علق آماله على شعوب الامم المتحدة ، اذ قال « ونحن نتطلع الى شعوب الامم المتحدة ان تنقذ هذه البلاد [فلسطين] من الاستعمار »! (٣٨)

ويبدي احد اعضاء مؤتمر آب (آغسطس)

اعجابه الشديد بمكاتب الدعاية العربية* ، مما جعله يطالب المؤتمر بالسعي لتمثيل الحركة النقابية في هذه المكاتب « لان العمال ادرى في افهام سواد الشعب في غير فلسطين مطالبها » · كما طالب بانشاء « مكتب خاص في الجمعية للدعاية ، ويكون شبيها بمكاتب الدعاية العربية ، غير انه عمالي ، ولا تنحصر اعماله في فلسطين » · ودعا العضو نفسه الى « معاضدة المشروع الانشائي ** ، والسير معه ، لان اهدافه اهداف اشتراكية ، تنطبق على اهداف العمال » (٣٩) ! وفي خطابه امام مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ، طالب سامي طه بالتوجه « الى هيئة المكاتب العربية بالتوصية الى فتح مكتب او اكثر لها في الهند » (٤٠) ·

وفسرت قيادة الجمعية عدم مطالبتها باستعادة الامتيازات الاجنبية باهتمامها بمسألة توزيع « الثروة الانتاجية توزيعا عادلا بين المنتجين من الشعب » · وفي صيف ١٩٤٦ تمنت قيادة الجمعية على الله « ان يأتي الوقت القريب الذي تتمكن حركتنا فيه من ان ترفع الصوت عاليا بالمطالبة بتوزيع ثروة البلاد الطبيعية توزيعا عادلا بين المنتجين من الشعب » (٤١) ·

ويتضح الطابع الاصلاحي لقيادة جمعية العمال من صلاتها الحميمة بالجامعة العربية ، اداة الاستعمار البريطاني في المنطقة العربية طوال النصف الثاني للاربعينات · وسقطت جمعية العمال ضحية اوهام بصدد الجامعة العربية ، اذ عولت عليها الكثير · ففي العام ١٩٤٥ لفت المجلس الاعلى للجمعية نظر الجامعة العربية الى ضرورة تأليف فرع خاص بها للعناية بالشؤون النقابية بالبلاد العربية · والتقى ــ في آب (اغسطس) ١٩٤٥ ــ سامي طه وحنا عصفور بالامين العام للجامعة العربية في لندن ، واشارا الى الموضوع نفسه « وقد اظهر الامين العام حماسا كبيرا للموضوع » ، واقام السفراء العرب بلندن وليمة لحنا عصفور وسامي طه ، مما جعل سعيد قواص ــ عضو مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ــ يؤكد بلا تردد « ان المسؤولين من رجالات العرب يحملون روحا تقدمية يمكننا ان نفاخر بها » ! (٤٢) ·

وعندما انقسم اتحاد النقابات العالمي الى شطرين ، غداة طرح « مشروع مارشال » الامريكي ، في صيف ١٩٤٧ ، اعلن سامي طه ، باسم جمعية العمال ، عدم انتماء الجمعية لاي من الفريقين ، في الوقت انضم فيه « مؤتمر العمال العرب » الى اتحاد النقابات العالمي ، اليساري الاتجاه · وكان طبيعيا الا تنضم الجمعية لاي من هذين الاتحادين ، ذلك ان الاتحاد الحر كان كامل الولاء للغرب الاستعماري، مما يكشف اتجاه الجمعية فيما لو انضمت اليه ، كما ان الاتحاد العالمي استقطب النقابات التي يسيطر عليها اليساريون ، وجمعية العمال العربية الفلسطينية بعيدة كل البعد عن هذه الصفة ، بل ومعادية لها ·

وفي المجال العالمي ايضا ، ادان سكرتير عام الجمعية ــ في صيف ١٩٤٧ ــ اعتداء الاستعمار الهولندي ضد الشعب الاندونيسي ، واعلن « ان العمال العرب ينتصرون للشعب الاندونيسي » (٤٣) ·

واحساسا من القوى اليمينية والمحافظة

★ ــ المكاتب العربية · انشأتها الجامعة العربية ، ونصبت موسى العلمي ، السياسي الفلسطيني اليميني المعروف على رأسها ، في العام ١٩٤٥ ، بهدف الدعاية للقضية الفلسطينية في كل من واشنطن ولندن ، لاقناع الشعبين الامريكي والبريطاني بعدالة القضية الفلسطينية ·

★★ المشروع الانشائي : صندوق اقترح تأسيسه ، على الجامعة العربية (١٠/٥/ ١٩٤٤) ، موسى العلمي ، بهدف انقاذ وشراء الاراضي الفلسطينية المهددة بالسقوط في ايدي المستوطنين اليهود ، وتحسين حالة الاراضي ومساعدة العربي الفلسطيني · وترأس هذا المشروع توفيق ابو الهدى ، رئيس وزراء الاردن الاسبق ، في حين بقي العلمي المهيمن الاول على المشروع ·

العربية الفلسطينية باتجاه جمعية العمال ، عملت هذه القوى على دعمها وتأييدها « فقد ساعدت معظم القوى ذات الاتجاه القومي من مختلف الطبقات على دعم جمعية العمال وفروعها ، وعدم التعامل الا مع ممثليها » (٤٤) وعلاوة على « الحزب العربي الفلسطيني » الموالي للحسينية ، كان اعضاء الحزب القومي السوري بفلسطين ، والمعروفين بميولهم الفاشية ، اكثر تعاونا مع قادة جمعية العمال العربية (٤٥) ٠ كما اقامت الجمعية - باعتراف احد قادتها - صداقات مع تيارات مختلفة ، وخاصة مع خريجي الجامعة الامريكية في بيروت ! (٤٦) ٠ وهذا احد اشد انصار الحسينية يرى ان زعماء جمعية العمال هم « من الذين كانوا يعتقدون بفائدة التعاون مع الانجليز ،وان الدعاية في الاوساط الغربية لقضية فلسطين من الاسلحة المفيدة - وان لم تكن السلاح الوحيد - التي يمكن ان يؤدي الى نتيجة » (٤٧) ٠

وتفسر احدى وثائق جمعية العمال العربية عدم اصطدام الجمعية بأي من الاحزاب العربية الفلسطينية القائمة ، بكون هذه الاحزاب كانت تستهدف استقلال البلاد السياسي ، وليس لاي منها برنامج اقتصادي ٠ في حين تهدف جمعية العمال الى الاستقلال السياسي والاقتصادي معا ، مما جعلها تلتقي مع كافة هذه الاحزاب على درب الاستقلال السياسي ، دون ان تصطدم معها في المجال الاقتصادي (٤٨) ٠ وهذا تفسير سطحي وساذج ، اذ ان الاحزاب ليست الا فرق سياسية لطبقات اجتماعية عربية فلسطينية ، صاغت اهدافها ومطالبها وشعاراتها ٠ حتى هذه الاهداف والشعارات السياسية ليست الا التعبير المكثف عن المصالح الاقتصادية للطبقات الاجتماعية التي تعبر عنها هذه الاحزاب ٠ ومن هنا يمكن القول بأن عدم الصدام جاء بسبب احساس هذه الاحزاب (وكلها احزاب محافظة مع تفاوت في الدرجة) بأن الجمعية تناوىء الحركة الشيوعية في فلسطين ٠ ومن هنا جاء - ايضا - التقاء هذه الاحزاب مع قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية٠٠

وحتى حكومة الانتداب تعاملت مع جمعية العمال دون مؤتمر العمال العرب ، مكافأة لقيادة الجمعية - فيما يبدو - على مواقفها الاصلاحية المتهادنة في الاقتصاد والسياسة ٠

وغداة انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استجدت جملة امور ، وتغيرت مواقع عديدة في الساحة الفلسطينية ٠

وجاء المؤتمر الثاني لجمعية العمال (١٨ / ٨ / ١٩٤٧) معبرا عن ايلاء الجمعية اهتمامها الرئيسي للسياسة ★ ٠ وكان طبيعيا ان تميل قيادة الجمعية للجانب الاكثر رجعية في الحركة الوطنية الفلسطينية ، واعني به « المكاتب العربية » ٠ مما فجر صراعا حادا بين الحزب العربي والحسينية عموما وبين جمعية العمال ،

★ - اهم مقررات هذا المؤتمر كانت :

١ - رفض مشروع تقسيم فلسطين ، والمطالبة باقامة دولة عربية بفلسطين، يكون لليهودي المستوطن فيها قبل الاحتلال البريطاني حق العيش فيها كأي مواطن عربي آخر ، على ان يجلي بقية المستوطنين اليهود عنها ٠
٢ - تأييد مشاريع الجامعة العربية لانقاذ اراضي فلسطين ٠
٣ - تأييد « الهيئة العربية العليا » ، ومشاريعها الاقتصادية ، ومواقفها السياسية ،
٤ - تأييد مشروع « صندوق الامة » لشراء الاراضي العربية بهدف منع تسربها للمستوطنين اليهود ،
٥ - تأييد مشروع موسى العلمي ، القاضي بانشاء قرى نموذجية ، والحيلولة دون بيع العرب لاراضيهم ،
٦ - تعزيز الحركة التعاونية ،
٧ - تأليف حزب سياسي على غرار حزب العمال البريطاني ٠

مكتب العلاقات ٠٠٠٠ ص ٤٧-٤٩ + خريس ، علي عناد ، الصفدي ، صلاح : الحركة النقابية العمالية في الاردن ، دار النشر والتوزيع والتعهدات ، د٠ت٠ ، ص ٥١ ٠

وجد تعبيرا له في مقالات « الوحدة » ، صحيفة الحزب العربي ، التي اخذت تندد بقيادة الجمعية ، وانتهت المعركة بين الطرفين باغتيال سامي طه في مدينة حيفا ، في ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ . واختير الدكتور عمر الخليل ★ خلفا له ، وسارع الخليل الى اعلان ولائه للهيئة العربية العليا (٤٩) ، التي يلعب فيها الحسينية الدور المحوري !

وتبدأ قصة الصدام بين الجمعية وجماعة الحسينية ، منذ وطأت اقدام قيادة الجمعية ارض السياسة ، حيث اختارت جماعة الحسينية سامي طه عضوا في اللجنة العربية العليا (الهيئة العربية العليا فيما بعد) في آذار (مارس) ١٩٤٦ ، مفضلة تمثيل الجمعية على تمثيل مؤتمر العمال العرب ، المرفوض من كافة الفصائل السياسية العربية الفلسطينية المحافظة ، بسبب اتجاهه اليساري الواضح . وفي العام ١٩٤٧ سافر سامي طه الى انكلترا لحضور مؤتمر لندن ، ضمن الوفد الفلسطيني (٥٠) .

وعقب مؤتمر جمعية العمال الثاني ، وخلال شهري آب (اغسطس) وايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ ، ركزت قيادة جمعية العمال جهودها من اجل تكوين حزبها السياسي . وحدث ان ارسلت قيادة الجمعية برقية الى الامين العام للامم المتحدة تخطره فيها بأنها تمثل الاغلبية الساحقة من الشعب العربي الفلسطيني ، حيث ينتسب لعضويتها ١٢٠ الف عامل ، ولو ضرب هذا الرقم بخمسة - متوسط عدد افراد الاسرة الواحدة - لكان الناتج ٦٠٠ الف (ثلثي عدد عرب فلسطين تقريبا) ، وهو العدد الذي تزعم الجمعية انها تعبر عنه . واوغر هذا التصرف صدر الحسينية ، الذين كانوا يحتكرون تمثيل الشعب الفلسطيني طوال فترة الاحتلال البريطاني لفلسطين . وعندما وفدت لجنة الامم المتحدة الى فلسطين ، في حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، بهدف جمع المزيد من حقائق الموقف فيها ، قرر الدكتور حسين فخري الخالدي ، سكرتير الهيئة العربية العليا ، استقبال اللجنة الدولية باضراب عام يستمر ثلاثة ايام ، مع مقاطعة هذه اللجنة . وعلى اثر هذا القرار ، اجتمع - في مدينة حيفا - المجلس الاعلى للنقابات (قيادة جمعية العمال) ، وخطأ موقف الخالدي هذا ، على انه رأى - تفاديا للصدام وتحقيقا لاستعراض عضلاته امام الهيئة العربية العليا واللجنة الدولية على السواء - الموافقة على مقاطعة اللجنة الدولية من جهة ، مع الاكتفاء باضراب ساعة واحدة (من ١١-١٢ ظهر يوم الاثنين الموافق ١٩٤٧/٦/١٦) على اعتبار ان امتداد الاضراب لثلاثة ايام سيكلف العمال العرب نحو نصف مليون جنيه فلسطيني (٥١) . ولتخفيف حدة الصدمة على الهيئة العربية العليا قرر المجلس الاعلى للنقابات ان يقدم كل عامل من اعضاء الجمعية ما بين ٢٥٠ - ٥٠٠ مليم للهيئة العربية العليا، تجمع في صندوق خاص ، يكون نواة لتأسيس صناعات شعبية في البلاد (٥٢) . وانتهى الامر بأن دفع سامي طه حياته ثمنا لمواقفه المعارضة للحسينية . وبموته قبرت فكرة انشاء حزب سياسي لجمعية العمال . وبالرغم من ان الكثيرين اتهموا جماعة الحسينية بتدبير اغتيال سامي طه ★★ ، الا ان رفيق التميمي ، عضو الهيئة العربية العليا ، سارع باصدار بيان باسم الهيئة استنكر فيه بشدة حادث الاعتداء على حياة الامين العام لجمعية العمال ! (٥٣) على ان جماعة الحسينية - قطب الرحى في الهيئة العربية العليا - طلبوا الى رئيس الجمعية ، عبد الحميد حيمور ، احلال يعقوب الحسيني محل سامي طه في السكرتارية العامة لجمعية العمال ، الا ان قيادة الجمعية رفضت طلب الحسينية هذا ، واختارت الدكتور عمر الخليل لهذا المنصب .

الاحزاب والطبقة العاملة

لم تكتف البرجوازية بالتسلل الى داخل الحركة النقابية العاملة ، فثمة محاولات عديدة بذلتها الاحزاب السياسية العربية

★ طبيب من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت ، في العام ١٩٣٧ .

★★ - قيل ان شقيا نابلسيا هو الذي نفذ عملية الاغتيال لحساب الحسينية . الا انه ليس ثمة تأكيدات في هذا الصدد .

الفلسطينية ★ المختلفة بهدف تحقيق هذا الاحتواء • ومعلوم ان هذه الاحزاب كانت تمثل كبار الملاك الزراعيين والعقاريين ، بالاضافة الى البرجوازية الوطنية •

وبالرغم من اجماع هذه الاحزاب على ابعاد العمال العرب الفلسطينيين عن العمل السياسي، الا انه كلما تأزمت الامور بين قيادة الحركة الوطنية وبين سلطات الانتداب البريطاني ، سارعت القيادة الوطنية الى دعوة الطبقة العاملة الى التحرك ، دون ان تترك لها حرية الحركة ، فحركة الطبقة العاملة يجب ان تكون ـ في رأي هذه الاحزاب ـ الى الحد الذي لا يهدد بتحولها ضد قيادة الحركة الوطنية نفسها • مما يتطلب ابقاء لجام الطبقة العاملة ـ دوما ـ بأيدي قيادة الحركة الوطنية ، حيث يمكن تحريك هذه الطبقة في استعراض للقوة امام سلطات الانتداب ، من اجل الضغط ، وفي اطار المساومة لا المقاومة !

دعا كبار الملاك والبرجوازيون العرب الفلسطينيون ومفكروهم الى ضرورة اكتفاء العمال العرب الفلسطينيين بالاهتمام بالقضايا المطلبية الاقتصادية دون السياسية • وحتى عندما كانت الحاجة تضطر البرجوازية وكبار الملاك الى استدعاء الطبقة العاملة وغيرها من الطبقات الكادحة ، للكفاح ضد الاستعمار ، فان البرجوازيين وكبار الملاك لا يفقدون حرصهم على امتلاك زمام القيادة ، وابقاء الطبقات الكادحة في القاعدة ، رهن الاشارة • وما ان يشعر كبار الملاك والبرجوازيون بالخطر من تعاظم حركة الجماهير حتى يسارعون الى اجهاضها • فالبرجوازية وكبار الملاك يتحركون ضد الاستعمار في الوقت الذي يخشون فيه الجماهير • وما ان يظهر ما يبشر بنهوض الجماهير حتى تسارع هاتان الطبقتان الى ايقافه ، والاسراع الى عقد صفقة مع الاستعمار البريطاني ، كيفما اتفق • وهنا يبرز الطابع المزدوج للبرجوازية : فبقدر ما تعادي الاستعمار نجدها تعادي الشعب وطبقاته الكادحة •

وهكذا ، فالبرجوازيون وكبار الملاك كانوا شديدي الوعي بمصالحهم الطبقية ، وما دعوتهم الى انصراف العمال عن السياسة الى الاقتصاد الا ليخلو لهم الجو ، فينفردوا بقيادة الحركة السياسية ، ويحتكروها •

وبسبب تعبير الاحزاب العربية الفلسطينية عن مصالح كبار الملاك والبرجوازيين ، نأت هذه الاحزاب عن الشعب ، وبشكل خاص عن الطبقة العاملة • فتلك الاحزاب اكتفت بالمطالب الوطنية العريضة ★★ ، ضاربة عرض الحائط بالمطالب الطبقية لمجموع الكادحين •

على انه في النضال من اجل التحرر الوطني والاستقلال السياسي التقت على ارض المعركة كل الطبقات التي احست بقهر الاستعمار البريطاني • فالعمال والفلاحون والبرجوازيون الوطنيون والقطاع المستنير من كبار الملاك عملوا ، بأساليب مختلفة وبدرجات متفاوتة من التضحية وطول النفس ، من اجل التحرر والاستقلال • وغني عن القول بأن منطلقات الطبقات التي شاركت في الكفاح الوطني كانت شديدة التباين •

ونشأ تأثير البرجوازيين وكبار الملاك الضخم على الحركة الوطنية بأسرها ـ بما في ذلك تأثيرهم على الطبقة العاملة وحركتها النقابية ـ اولا من تشجيع الاستعمار البريطاني النسبي للبرجوازيين وكبار الملاك ، باعتبار هؤلاء واولئك اكثر استعداد للمهادنة من الطبقة العاملة ، كما نشأ هذا التأثير ـ ثانيا ـ بسبب ضعف الطبقة العاملة وحزبها السياسي ، بما جعل حركة الطبقة العاملة عاجزة عن تجذير النظرة الطبقية ، الواضحة ، المحددة ، والناضجة ، لدى جماهير الطبقة العاملة وغيرها من الطبقات الكادحة ، نظرة تتميز عن النظرة الوطنية البحتة •

وفي اواخر العهد التركي ، كانت البرجوازية العربية السورية الوليدة تعاضد العمال سياسيا،

★ ـ العربي ، الدفاع ، الاستقلال ، الكتلة الوطنية ، الاصلاح ، والشباب •

★★ ـ الغاء وعد بلفور ،وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ومنع بيوع الاراضي للمستوطنين اليهود •

وتدعو الى تكوين نقابات لهم ★ • وجاء موقف البرجوازية هنا لرغبتها في توحيد الطبقات الجديدة ضد النظام التركي •

وفي مجال العلاقة بين العامل وصاحب العمل ، كانت البرجوازية تشدد على ضرورة التوفيق بينهما ، وكان هذا الموقف من البرجوازية يحسب لصالح صاحب العمل ، وضد مصلحة العمل ، وهذا طبيعي !

وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٨) عمدت قوى الثورة المضادة الى تشكيل حزيبات ، سرعان ما ذوت واختفى اثرها ، لافتقارها لمبرر قيامها الفكري والسياسي ، ولعزلتها الشديدة عن الشعب • واذا كان « الحزب العربي الموالي لبريطانيا » ، وصنوه الموالي لفرنسا ، قد اهملا العمال تماما في برنامجيهما ، فان مؤتمر « الحزب الوطني » ، المنعقد في القدس من ٩ – ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٣ ، تعهد في مقرراته بالمطالبة بانعاش الفلاح والعامل ، علما ، واقتصادا ، وسياسة ، وادارة (٥٤) •

واخذت الجمعيات الاسلامية المسيحية – التجمع السياسي الرئيسي لكبار الملاك – في خطب ود العمال • فوافقت الجمعية الاسلامية بيافا على ان تكون النقابات او الحرف اساسا للانتخاب ، وان يدعى اصحاب كل حرفة الى دار الجمعية لاعطاء اصواتهم لمن يختارونه • على ان يقوم المنتخبون الثانويون بانتخاب هيئة الجمعية (٥٥) • كما عملت الجمعية الاسلامية بنابلس ، في العام ١٩٢٥ ، على اختيار ممثلين للنقابات ، اشتركوا مع غيرهم في اختيار الهيئة الادارية للجمعية بنابلس(٥٦) • ولم يكن كبار الملاك والبرجوازيون يخشون من وقوع قيادة هذه الجمعيات بأيدي العمال ، اذ كان العمال واقعين تحت السيطرة الكاملة لكبار الملاك ، فكريا وسياسيا •

ثم تأسس في نابلس « حزب العمال » • والطريف انه لم يكن يضم عاملا واحدا ، بل كان وقفا على البرجوازيين وكبار الملاك •وحضر حفل تأسيس الحزب كل من : حسني عبد الهادي ، حافظ طوقان ، احمد الشكعة ، نمر النابلسي ، عزت دروزة ، حيدر طوقان ، طاهر المصري ، عفيف عاشور (٥٧) • وظل هذا الحزب محصورا في نابلس ، فغدا حزبا اقليميا اقرب الى العشائرية منه الى الحزب بمعناه الحديث • وصادقت الحكومة على تشكيله ، في مطلع العام ١٩٢٦ ،تحت رياسة عارف عبدالحليم عبد الهادي وآخرين (٥٨) • ثم سرعان ما اصبح احمد الشكعة رئيسا لهذا الحزب (٥٩) •

وكان طبيعيا ان يفشل كبار الملاك ، واغلبهم من المحسوبين على الثورة المضادة ، في الارتباط بالطبقة العاملة ، او بالتأثير في الحياة السياسية الفلسطينية • وندد عامل شيوعي – في جلسات مؤتمر العمال العرب الاول (١٩٣٠) – بحزب العمال هذا ، الذي يضم الرأسمالي والعامل معا (٦٠) •

ولم تتوقف الاحزاب العربية الفلسطينية عن ارتداء معطف التقدمية ، ولا عن محاولة الافادة من جموع العمال في العمليات الانتخابية ، وفي تمييع الصراع الطبقي • ففي اوائل العام ١٩٢٨ ، الف « الحزب الحر الفلسطيني » نقابة للبنائين في يافا (٦١) •

وفي شمال فلسطين تأسس ، في ربيع العام ١٩٣٠ ، «حزب الاحرار العربي الفلسطيني» (٦٢) وفي الوقت الذي امتدحته « المقطم » ، الصحيفة الشديدة الولاء للاستعمار البريطاني في مصر ، وصفته « الشورى » ، التي كان يصدرها في مصر الوطني الفلسطيني المعروف ، محمد علي الطاهر ، بأنه « حزب مريب ، يجب ان يحذره كل مخلص » (٦٣) • على ان « المقطم » نفسها اكدت ان هذا « الحزب حيادي ، وانه يعمل لخدمة البلاد بالطرق المعتدلة المشروعة » ! (٦٤)

★ على سبيل المثال : اسس بعض القوميين العرب « المنتدى الادبي » في الاستانة ، خلال العام ١٩٠٩ ، كمنظمة ثقافية علنية • ونادى رئيس المنتدى باحياء الجامعة العربية ، وعدم التفريق في الدين والمذهب ، وتأسيس النقابات الزراعية والصناعية • عمارة ، محمد : **القومية العربية ومؤامرات امريكا ضد وحدة العرب** ، القاهرة ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، آب (اغسطس) ١٩٥٨ ، ص ٢٨ •

وغني عن القول بأن ابواق الاستعمار كانت تعني بالاعتدال معنى مرادفا للمحافظة والرغبة في التعامل مع الاستعمار . وفي برنامجه ★ ، ذكر الحزب الطبقة العاملة في في مادته الثالثة ، التي اشارت الى ضرورة « تنظيم حركة الطلبة والشبان والعمال واصحاب الصناعات الحرة والزراع والصناع ، على اساس النقابات او ما شاكلها » (٦٥) .

وما ان تأسست احزاب الثلاثينات ★★ حتى سارع كل منها الى اتخاذ موقف من الطبقة العاملة . فشكل فخري النشاشيبي - موظف حكومي وسكرتير حزب الدفاع المجاهر بعدائه للحركة الوطنية . نقابة لسائقي السيارات ، ونصب نفسه قائدا لها . ويقول كاتب ماركسي فلسطيني ان فخري اراد ان يسير هذه النقابة حسب اهدافه ومرمى عائلته ، التي فل تأثيرها في اواسط الثلاثينات بصورة جلية ، ففخري النشاشيبي - في رأي هذا الكاتب - يريد اقامة نقابات « تتمشى مع سياسة الاستعمار والسياسة الفاشستية » . وشبه الكاتب نفسه مساعي فخري النشاشيبي في هذا الصدد بأعمال الجنرال الروسي « زوباتوف » ، الذي حاول ، ولكنه لم يفلح ، اقامة مثل هذه النقابات في العهد القيصري بهدف « صد العمال عن الاشتراك في حركة العمال الثورية ، التي كان يقودها لينين وزملاؤه » . ويرى الكاتب ان « فخري يحذر العمال من السير في طريقهم الطبقي » (٦٦) .

ودب الحسد في قلوب جماعة الحسينية من « نجاح » فخري النشاشيبي - خصمهم السياسي والعائلي - في المجال النقابي ، وخشوا ان يستحوذ على جماهير العمال ، مما يهدد الحسينيين بالخطر . لذا اخذ هؤلاء ، منذ اواسط الثلاثينات ، يتحدثون عن ضرورة التنظيم للعمال ، وعن تأسيس النقابات للعمال العرب في فلسطين . ويفسر جبرا نقولا اهتمام الحسينية المفاجىء هذا بالعمال وشؤونهم ، بخوفهم « من ان ينظم العمال والفلاحون انفسهم ، ويكونوا بعيدين عن تأثير اولئك السادة » . وينتهي نقولا الى ان موقف جماعة الحسينية الاجتماعي « لا يسمح لهم بتنظيم العمال ضد اصحاب العمل . لان مثل هذا التنظيم يكون موجها ضدهم ، بصفتهم اصحاب العمل الذين مصلحتهم لا تتفق مع مصالح العمال والفلاحين » (٦٧) .

وفي الآونة نفسها اخذ زعماء « مؤتمر الشباب » في التحدث عن ضرورة تأسيس نقابات عمالية . ويتساءل جبرا نقولا عن نوع تلك النقابات التي يتحدثون عن ضرورة

★ - برنامج حزب الاحرار :
مادة ١ : غاية الحزب السعي للحصول على الاستقلال التام لفلسطين العربية، وتوصلا لهذه الغاية أ - يطالب الحزب بتأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام برلمان ذي صلاحية تامة ، ويسعى مع الحكومة البريطانية لعقد معاهدة تقام على اسس شريفة ، تضمن مصالح البلدين ، ب - يحافظ على موارد البلاد الطبيعية ومرافقها الاقتصادية .

مادة ٢ : تجديد الطرق والوسائل السياسية التي ما زالت تسير عليها البلاد ، بحيث تلائم مقتضيات الثقافة المدنية ، وتنظيم صفوف الامة على احدث الاساليب السياسية ، ليكون الرأي العام ، في اي شأن من الشؤون، كتلة متراصة منظمة تنظيما وثيقا في شأن ما يجري في البلاد .

مادة ٣ : تنظيم حركة الطلبة والشبان والعمال واصحاب الصناعات الحرة والزراع والصناع ، على اساس النقابات، او ما شاكلها .

مادة ٤ : العمل الحثيث لكل ما يأخذ بيد الامة للرقي في نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والزراعية . المقطم ، ١٩٣٠/٤/٣ .

★★ الاستقلال : آب (اغسطس) ١٩٣٢ ، مؤتمر الشباب : كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٢ . الدفاع الوطني : كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٣٤ ، الكتلة الوطنية : تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٥ . الاصلاح : حزيران (يونيو) ١٩٣٥ ، العربي : نيسان (ابريل) ١٩٣٥ .

تأسيسها . ويضيف ساخرا « هل يريد زعماء مؤتمر الشباب ـ السادة يعقوب بك الغصين وادمون روك ـ تنظيم اولئك العمال الذين يشتغلون في بياراتهم او في بيارات آبائهم الواسعة ، وهل هم حقا يريدون اعلان الاضراب، اي توقيف العمل حتى يستحصل العمال على رفع اجورهم ، وجعل يوم العمل ٨ ساعات ؟ ثم هل يرضى اولئك السادة بزيادة اجور اولئك العمال الذين يشتغلون عندهم ، حتى ولو قرشا واحدا ، دون كفاح شديد ؟ » . ويرد نقولا على نفسه بنفسه ؟ « كلا ! لان هؤلاء السادة زعماء مؤتمر الشباب اغنياء ومن اصحاب العمل ، لذلك فان مصالحهم لا تتفق مع مصالح العمال » . ويشير الكاتب نفسه الى وجود مثقفين فقراء وموظفين صغار في قواعد « مؤتمر الشباب » لهم صلة بالطبقة العاملة . وان كان « لا يمكنهم ان يقوموا بأي عمل جدي ، يعود بالفائدة على العمال ، لا سيما وهم تحت رئاسة يعقوب الغصين وادمون روك ، السادة اصحاب البيارات الواسعة والاملاك الشاسعة». ويشترط الكاتب الماركسي على اعضاء مؤتمر الشباب من المثقفين الفقراء « ان ينضموا الى الطبقة العاملة ، وان يقفوا موقفها ، ويأخذوا بنظريتها » . ان هم ارادوا الاشتغال، باخلاص ، في سبيل مصلحة العمال ، اي انه يطالبهم صراحة بالانضمام الى الحزب الشيوعي الفلسطيني . ويشن نقولا هجوما حادا على « مؤتمر الشباب » الذي يصفه بالشوفينية والرأسمالية . ويؤكد ان الغصين وروك ليسا بعيدين عن ابويهما في الموقف السياسي . ويرى ان كل آمالهما ومطالبتهما ، فيما يختص بالتحرير الوطني والاستقلال ،هي ان تغير بريطانيا العظمى سياستها نحو العرب ، وتمنح فلسطين « استقلالا » على نحو ذلك « الاستقلال » الذي منحته لشرق الاردن ! (٦٨)

وحضر « مؤتمر الشباب » الثاني (١٠ / ٥ / ١٩٣٥) ما يزيد عن الف شاب ، وتولى رئاسته يعقوب بك الغصين . وجاءت قراراته تبحث في الحالة السياسية، والمسائل التنظيمية، بيوع الاراضي ، المعارف والتعليم القومي ، الصحة العامة ، مسائل العمال ، العيد الوطني، والمخيمات الكشفية . وجاء بصدد البند السادس ـ اي العمال ـ ما يلي : « ١ ـ تأليف نقابات في كل بلد ، ٢ـ ان يتولى مكتب المؤتمر تنظيم حركة العمال بتأسيس النقابات في كل بلد ، والدعوة لمؤتمر يضع مقررات تفيد العمال ، ٣ـ تأليف مجلس عام مرتبط بمؤتمر الشباب ، يسجله في مكتب العمل الدولي في جنيف » (٦٩) . وغني عن القول بان اي من هذه المقررات لم ير النور !

وفي المدة المحكي عنها ، خرجت مجلة برجوازية تسدي بعض النصائح للحركة النقابية العمالية في فلسطين « عسى ان تفيدهم في جهادهم ، فلا يقعوا في اغلاط وقع بها غيرهم ، فأصابهم من الاضرار المؤلمة ما نستطيع تفاديه بشيء من التدبر والحكمة » ! وتشير المجلة الى ان الحركة العمالية الفلسطينية تحتاج الى تقوية مادية ومعنوية ، تثبتها في مركز لا يتزعزع . وذلك بتنظيم « اكتتاب العمال انفسهم بمبالغ ولو قليلة ، تحفظ في صندوق امين ... ستنمو مع الزمن ، فتصبح موردا كبيرا للنقابة ... فلا تحتاج لمساعدة الغرباء الذين يحاولون استمالة العمال خدمة لمآربهم الخاصة . وبذلك يضمنون استقلالهم وحريتهم من عبث العابثين وطمع الطامعين . واما التقوية المعنوية فتأتيهم عن طريق الاسترشاد بأهل العلم والخبرة من المخلصين لقضيتهم ، المؤمنين بعدالة مطالبهم ، ولو كانوا من غير العمال ». وبعد ان تفصح المجلة البرجوازية الفلسطينية عن غرضها الماكر ، وهو تسريب بعض الخبراء البرجوازيين الى الحركة العمالية ، تقفز المجلة الى بيت القصيد ، حين تنصح العمال « بأن لا يلجأوا للعنف في مطالبتهم بحقوقهم » . على اعتبار ان العنف من علامات الضعف ، وتطالبهم بالسعي للحصول على حقوقهم المشروعة بكل هدوء وسكينة ، واستمالة جمهور المنصفين الى جانبهم » ! و « لن يعدم العمال من ينصفهم ويعطف عليهم ، حتى من ارباب المصانع التي يشتغلون فيها، ورؤساء الشركات التي يعملون لها » !!! (٧٠) ، وكأن اصحاب العمل « اصحاب العقول الكبيرة » في حاجة الى من يرشدهم الى مطالب العمال ، التي

تنصح المجلة بالوصاية عليهم من قبل « الخبراء » ٠

على انه بالرغم من محاولات البرجوازية وكبار الملاك كلها من اجل تكبيل واحتواء الحركة العمالية ، والحيلولة دون اسهامها في النشاط السياسي ، الا ان الحركة العمالية نجحت في الاسهام بالحركة السياسية ، بقدر ما اعترى قيادة الحركة الوطنية الضعف ،وبقدر حاجة هذه القيادة لهذا الاسهام في اتجاه الضغط على الانتداب في اطار مساومته ، وبقدر تعاظم قوة وتأثير حزب الطبقة العاملة السياسي : الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

اسهام الطبقة في الحركة السياسية

في العهد التركي ، لم يرتق التناقض بين صاحب العمل والعمال الى مرتبة التناقض الرئيسي ، بل ترك هذه المرتبة انعدائية للتناقض القائم بين الحكم التركي وبين جماهير الشعب السوري ، بطلائعها المثقفة ، وبرجوازيتها الوليدة ، وعمالها ، وحرفييها ، وفلاحيها ، والمتنورين من كبار الملاك فيها ٠

وخلال سني الانتداب تدهور الوضع المادي للطبقة العاملة ، وترتب على هذا ان احتدم الصراع الطبقي ، وان انصب غضب الطبقة العاملة على سلطات الانتداب وعلى الحركة الصهيونية ، مسببي هذا التدهور ٠

وطوال العشرينات لم يكن العمال اكثر من مشاركين في الصدامات الطائفية وفي هبة البراق ★ ، الا ان فترة بداية الثلاثينات شهدت نضوجا سريعا للوعي الطبقي والوطني عند قطاعات وفئات الشعب العربي الفلسطيني المختلفة ٠ وانعكس هذا النضوج في المجال الاقتصادي في تشكيل البرجوازية بنوكها ★★ وفي المجال السياسي توسعت البرجوازية في اصدار الصحف ، كما اقامت احزابها السياسية الستة ، وهي التي شارك كبار الملاك في بعضها ٠

اما العمال العرب الفلسطينيون فلجأوا الى نقاباتهم ، وصعدوا كفاحهم المطلبي ٠ ومزجت الطبقة العاملة ، بوعي كامل ، بين الكفاح الاقتصادي المطلبي وبين الكفاح السياسي الوطني ٠

ولا شك ان وقوع اغلب الاضرابات في النصف الاول من الثلاثينات (٤٠ اضرابا) ، فترة النهوض الثوري بفلسطين ، واسهام الطبقة العاملة بدور محوري في الاضراب السياسي في العام ١٩٣٦ ، والتي استمر زهاء ستة اشهر ، كل هذه الاضرابات اثبتت ـ بتوقيتها وتلازمها مع الكفاح الوطني ـ ان الكفاح المطلبي للطبقة العاملة ، هو كفاح سياسي في الوقت نفسه ، خاصة وان معظم المؤسسات الصناعية كانت بيد رأس المال الاجنبي ٠

وتعلم العمال السياسة من خلال معاركهم المطلبية ٠ وهذا بيان للنقابة العربية لعمال سكك حديد فلسطين يشير ـ في شباط (فبراير) ١٩٣٦ ـ الى ان غزو عمال اليهود مراكز الاعمال يفيد الحركة الصهيونية سياسيا ، لتحقيق حلم « تأسيس الوطن القومي » ، بغمر البلاد بأكثرية يهودية ٠ « وبما ان السكة الحديدية هي اكبر مراكز الاعمال التي تضم اكبر عدد من العمال ، اخذوا يسعون على غزوها ، ليصبحوا دائما بوجه الحكومة عن (حاجتهم الى الايدي العاملة) ٠ ولما كان هذا لا يتم الا

★ ـ الصدامات والهبة : تميزت فترة العشرينات بوقوع عدة صدامات بين المستوطنين اليهود ، وعرب فلسطين ، ظاهرها طائفي ، وجوهرها طبقي وطني٠ واشهر هذه الصدامات ما وقع منها في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ، وفي اول ايار (مايو) ١٩٢١ ، وفي آذار (مارس) ١٩٢٤ ٠ اما هبة البراق (آب ١٩٢٩) فأتسمت بتحولها لاغلب انحاء فلسطين، وامتدادها لاكثر من اسبوعين ، واتساع حجم القتلى والجرحى من الطرفين فيها ٠ لمزيد من التفاصيل ، راجع كتابنا : **كفاح الشعب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨** ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٧٥ ٠

★★ البنك العربي ١٩٣٠ ، البنكين الزراعي والصناعي ١٩٣٥ ٠

عن طريق احتلالهم المراكز الهامة ، عزوهـا بمالهم من نفوذ قوي لدى الحكومة ، وتمكنوا منها » (٧١) ٠

وغني عن القول بأن استفحال ازمة الفلاح العربي الفلسطيني ، الى جانب نمو الحركة العمالية العربية الفلسطينية ، افضيا الى وضع ثوري ، توج بانتفاضة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ ٠ فبعد هبة البراق (آب ١٩٢٩) تأكد لجماهير الشعب العربي الفلسطيني عقم الاساليب السلبية في الكفاح ، تلك التي فرضتها عليها قيادة الحركة الوطنية ، كما افتضح امر ممالئة سلطات الانتداب للصهيونية٠ وبسبب نضوج البرجوازية ، والطبقة العاملة ، وتجذر حركة الفلاحين ، اندفعت الحركة الوطنية تصحح مسارها من العداء لليهود كدين الى معاداة الاستعمار البريطاني باعتباره « اساس البلاء » ، وليس الحكم بينها وبين الصهيونية، كما اوهمتها قيادتها المتهالكة ٠ وادت مساهمة البرجوازية الوليدة الثورية في قيادة الحركة الوطنية ، ونفاذ صبر الجماهير ، الى اعتماد اساليب كفاح ايجابية في مواجهة الاستعمار البريطاني وربيبته الصهيونية ٠ وكان الصدام الدامي الاول ، في اطار المرحلة النضالية الجديدة ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ ، بين الحركة الوطنية وبين قوات الاستعمار البريطاني (٧٢) ٠

وهذه الوثيقة التي اصدرها الحزبان الشيوعيان الفلسطيني والسوري ، في العام ١٩٣١ ، تؤكد ـ بحق ـ « ان الازمة العالمية الصناعية والزراعية (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢) ، بطريق او آخر ، قد غطت جميع البلاد العربية ، ضاربة بقوة خاصة العمال والجماهير الفلاحية٠ وانخفاض الاجور والبطالة يزيدان سوءا على سوء مستوى معيشة البروليتاريا ، الامر الذي يدفعها في طريق الكفاح الطبقي الثوري » (٧٣)٠

مع وصول النازيون الى الحكم في المانيا ، في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ ، اخذت معدلات الهجرة اليهودية من المانيا الى فلسطين وغيرها في الارتفاع الجامح ، فرارا من الاضطهاد الذي اخذ اليهود الالمان يتعرضون له على يد النازيين فبلغ عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ، في العام ١٩٣٣ وحده ٣٠٫٣٢٧ مهاجرا،

وفي العام ١٩٣٤ بلغ ٤٢٫٣٥٩ ، وقفز في العام ١٩٣٥ الى ٦١٫٨٥٤ ٠

وكان طبيعيا ان يقترن هذا التدفق بتشدد ملحوظ في تطبيق شعاري « العمل العبري » و « احتلال العمل » ٠ اذ سرعان ما شكل الهستدروت « حاميات يهودية » منذ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٤ ، لوضع هذين الشعارين موضع التطبيق الصارم ، وبالقوة ٠ وتضاعف، منذئذ ، عدد العمال العرب المطرودين بالجملة من المشاريع اليهودية ، او من تلك التي تنفذها حكومة الانتداب في الاراضي والمناطق اليهودية٠

وعند هذا الحد ، بادرت « جمعية العمال العرب » ، بقيادة الشيوعي الفلسطيني المعروف : ميشيل متري ، بتشكيل « حاميات عربية » ، بهدف الحيلولة دون تشغيل العمال اليهود في المشاريع التي تنفذها ، او تديرها، سلطات الانتداب في المناطق العربية من فلسطين ، عوضا عن المشاريع العربية ٠ واتخذت هذه الحاميات من العنف اسلوبا لتحقيق غايتها تلك ، فلا يفل الحديد الا الحديد ! وشملت هذه الحاميات بنشاطها كلا من القدس وحيفا ويافا ، مراكز الاحتكاك والصدام بين العمال العرب ونظرائهم اليهود ٠ واعترف المندوب السامي البريطاني بالقدس ، آرثر واكهوب ، في تقرير سري رفعه الى وزير المستعمرات البريطاني ، كنليف ليستر ، في اواخر العام ١٩٣٤ ، بأن الحاميات العربية ظهرت لمواجهة اعمال الارهاب والعدوان التي يشنها العمال اليهود ، وان الامر تطور ، فظهرت على المسرح السياسي لجان عمالية عربية ، لاول مرة ، في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ ، لمناسبة حلول ذكرى وعد بلفور ، حيث اضرب عمال النقل والمواصلات اضرابا شاملا على صعيد فلسطين كلها (٧٤) ٠ فكان اول اضراب سياسي يخوضه قطاع بأكمله ، تقريبا ، من الطبقة العاملة ، هو قطاع السائقين ، وفي طول البلاد وعرضها ، مما يجعله منعطفا سياسيا هاما في حياة الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ٠

الطبقة العاملة وثورة ١٩٣٦

وعندما بدأت البلاد اضرابها الشهير في ٢٠

نيسان (ابريل) ١٩٣٦ ، احتجاجا على القهر الاستعماري – الصهيوني المتزايد ، لم يتردد العمال – على ضعف امكاناتهم ووسائلهم – عن المساهمة في هذا الاضراب ، الذي امتد حتى ١١ تشرين الاول (اكتوبر) من السنة ذاتها ، « كما انهم لم يترددوا في بذل اغلى التضحيات في الرجال في الثورة التحريرية التي امتدت من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٣٩ • فاكتظت السجون بالعمال والفلاحين ، وسقط منهم الشهداء » (٧٥) •

وكانت الصدامات بين العرب واليهود قد بدأت في الاتساع ، منذ يوم الاثنين الموافق ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ ، حين هاجم حوالي ثلاثمائة عامل عربي (اغلبهم من العمال الموسميين الوافدين من حوران بسوريا) بعض الاحياء اليهودية بيافا ، واحرقوا الحي اليمني اليهودي عن آخره • وتمخض الهجوم عن مقتل خمسة من المستوطنين اليهود واثنين من المواطنين العرب • فسارعت سلطات الانتداب الى تقسيم المدينة الى قطاعات ومناطق تحت اشراف الشرطة ، واستدعت المزيد من التعزيزات لقوات الامن في المدينة ، كما اعتقلت الشيوعيين المعروفين ، والذين اعتبرتهم مسؤولين عن هذا الهجوم ، وبلغ عدد هؤلاء الشيوعيين المعتقلين ٨١ شخصا ، منهم ١٥ عربيا و٦٦ يهوديا (٧٦) •

وفي ٢٤ نيسان (ابريل) قررت « نقابة اصحاب السيارات والسائقين العرب ★ » في اجتماعها بالقدس ، وبالاجماع ، اعلان الاضراب العام ابتداء من ٢٥منه في سائر انحاء فلسطين، ولمختلف وسائط النقل • مع الاتصال بشرق الاردن وسوريا ، طلبا لمؤازرتهما للنقابة في هذا الصدد • على ان النقابة استثنت الصحف والاطباء والقابلات من هذا الاضراب ، بل وفرت لهم سيارات مجانية لتسهيل مهامهم النبيلة (٧٧) • وفي اواخر نيسان (ابريل) اصدرت النقابة نفسها بيانا ، حثت فيه الجماهير العربية الفلسطينية على الامتناع عن دفع الضرائب لسلطات الانتداب ، الى ان توافق هذه السلطات على تقييد الهجرة اليهودية الى فلسطين • ودعت النقابة «اللجنة العربية العليا ★★ » الى تقرير اضراب جميع الموظفين العرب • ولغاية ٥ ايار (مايو) كانت عدة لجان قومية ★★★ قد استجابت لهذه الدعوة وتبنتها • الا ان اللجنة العربية العليا التزمت الصمت حيالها ، في يوم نشرها ، بل رفعت مذكرة – في اليوم نفسه – الى المندوب السامي ، توهما منها بأنه لا يرغب في ادخال المزيد من المهاجرين اليهود الى فلسطين • واحس المندوب السامي بمدى خور اللجنة العربية فسارع الى استدعاء اعضائها ، حيث اعرب لهم عن سروره لعدم استجابتهم لنداء نقابة السائقين ،ثم طلب اليهم انهاء الاضراب وحل اللجنة العربية العليا ، وذهاب اعضائها الى لندن حيث يقدمون مطالبهم هناك ، على ما كان متفقا عليه قبيل بداية الاضراب • ويبدو ان وهم اعضاء اللجنة تبدد بمجرد سماعهم مقترحات المندوب السامي ، فردوا عليه بأنهم غير راغبين في مغادرة فلسطين الا بعد تعليق الهجرة ، وظهور ما يدل على ان حكومة الانتداب سوف تفاوض قيادة الحركة

★ – تنظيم شبه نقابي ، يضم السائقين الى جانب اصحاب السيارات ، واغلب هؤلاء من الذين افادوا من قيادتهم للسيارات في جمع بعض المال مما مكنهم من شراء سيارات وتشغيلها لحسابهم ، او العمل بها • وترأس هذه النقابة المحامي/حسن صدقي الدجاني ، سكرتير حزب الدفاع الوطني ، وقطب الثورة المضادة في فلسطين • المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ •

★★ تشكلت « اللجنة العربية العليا » من ممثلين لكافة الاحزاب العربية الفلسطينية ، وترأسها الحاج امين الحسيني ، من خارج هذه الاحزاب جميعا ، وان اعتبر الاب الروحي للحزب العربي الفلسطيني • وكانت اللجنة المذكورة بمثابة قيادة للتحالف الوطني الذي ربط بين هذه الاحزاب •

★★★ تشكلت اللجان القومية في اغلب المدن والقرى الفلسطينية، لتشرف على تنظيم الاضراب العام ، الذي بدأ منذ ٢٠ نيسان (ابريل) ، والسير بالحركة الوطنية الى الامام •

الوطنية الفلسطينية بشأن تشكيل حكومة وطنية مسؤولة • على ان المندوب السامي رد باعتقال المحامي حسن صدقي الدجاني ، رئيس نقابة السائقين واصحاب السيارات ، ونائبه، صالح عبده ، ووجهت اليهما تهمة التحريض على الاخلال بالنظام ، وغرم كل منهما ٢٥ جنيها فلسطينيا • على ان ما شجع المندوب على اعتقال الدجاني وعبده كان - بالدرجة الاولى - اخراج اللجنة العربية العليا للاول لتشدده السياسي • لكن اللجنة العربية العليا سرعان ما رفعت - في الخامسة وخمسين دقيقة من مساء اليوم نفسه - مذكرة اخرى الى المندوب السامي ، ضمنتها - هذه المرة - انذار لجنة الاضراب في نقابة السائقين واصحاب السيارات نفسه ، والخاص بالامتناع عن دفع الضرائب ! (٧٨) وهكذا ، عجز المندوب السامي عن تفسير تراخي اللجنة العربية العليا ، او معرفة المدى الذي يمكن ان يذهب اليه هذا التراخي ، كما لم يضع في اعتباره حجم ضغط حركة الجماهير على قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية ، وهي القيادة التي اتسمت بالتراخي ، وان تطورت مع تزايد نهوض حركة الجماهير ، فبرز التمايز بين صفوفها ، ثم سرعان ما انفك اقصى اليمين فيها خارجا عليها ، في حين ارخت بقية عناصر هذه اللجنة شراعها لريح الحركة الجماهيرية الصاعدة •

وفي نفس اليوم الذي اضربت فيه نقابة السائقين واصحاب السيارات ، اعلن عمال ميناء يافا اضرابهم ، رغم ما كان يعترض امر تنظيمهم - فيما سبق - من مصاعب •اي ان النهوض السياسي نجح في تنظيم صفوف هؤلاء العمال ، الامر الذي عجز عنه النشاط المطلبي • وحاولت سلطات الانتداب ارغام عمال الميناء على انهاء اضرابهم ، دون جدوى• مما عطل العمل في الميناء ، واوقف حركة النقل والتصدير والتفريغ • « وخلا البحر من البواخر والمراكب الشراعية الكثيرة العدد » • واعلن هؤلاء العمال اضرابهم ، بقرار رسمي اذاعوه بتاريخ ٢٧ نيسان (ابريل) ، تعهدا منهم الى الامة • وباضراب ميناء يافا والسيارات عن العمل شلت حركة النقل في جميع انحاء البلاد (٧٩) •

اما ميناء حيفا فلم يضرب عماله ، بسبب عدم احكام السيادة العربية على عماله ، لوجود عدد غير قليل من العمال اليهود والغرباء والموظفين ، ولان حيفا كانت مركزا للجيش البريطاني الذي كثيرا ما حل جنوده محل عمال الميناء المضربين (٨٠) •

هذا على الرغم من ان اسهام العمال في الاضراب الكبير ، الذي امتد زهاء ستة اشهر ، اتى مع تحفظ قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية على الاضراب المشار اليه ، وجدواه (٨١) •

وخلف هذا الاضراب تركة ثقيلة للحركة النقابية العمالية ، فاستغنت الشركات اليهودية عن العمال العرب بالجملة ، واحلت محلهم عمالا يهود • وسرح ٣٠٠ عامل عربي كانوا يعملون في شركة « نيشر » اليهودية للاسمنت • وتوسعت الهستدروت في حملات اقصاء العمال العرب عن اعمالهم • كما اعتقلت سلطات الانتداب البريطاني عددا من المسؤولين في الجمعية ، علاوة على تسريحها اعدادا كبيرة من العمال العرب • فبعد ان كان ٩٠٪ من عمال مرفأ حيفا - قبل الاضراب - من العرب ، انتقلت المراكز الرئيسية - خلال الاضراب - الى يد الشركات اليهودية • كما ادى تعطل العمل في ميناء يافا العربي الى ازدهار ميناء تل ابيب اليهودي ، المجاور له •

عصف ذلك كله بجمعية العمال العربية ، الهشة • ولم تفتح الجمعية ابوابها الا في اوائل العام ١٩٣٨ ، حين افرج عن المعتقلين من قادة الجمعية • على ان النشاط النقابي لم يعد الى سابق عهده ، بفعل تركيز جهود العمال على النشاطين السياسي والعسكري ،واضطهاد الانتداب للحركة النقابية الذي ازداد ابان الثورة ، وتدهور الاحوال الاقتصادية ، وبنشوب الحرب العالمية الثانية عاد للحركة العمالية نشاطها ، بل بشكل اوسع واكثر عمقا (٨٢) •

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الطبقة العاملة لم تلعب الدور اللائق بها في ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، فلا دورها كان كبيرا ، ولا تميز عن ادوار غيرها من الطبقات • وربما عاد ذلك

الى ضعفها اولا ، والى انفصالها ـ الى حد كبير ـ عـــن تنظيمها انسياسي : الحـزب الشيوعي ، ثانيا ٠

على ان فتـرة الاربعينات حفلت بنشـاط سياسي عمالي عارم ، وجد تعبيرا لـه فـي البيانات السياسيـــة العديدة الصادرة عـن « المؤتمر » ، والى حد ما عن « الجمعية » ٠ كما شاركت الجمعية في اللجنة العربية العليا ، منذ آذار (مارس) ١٩٤٦ ، وهي اللجنة التي حملت اسم « الهيئة العربية العليا » ، منذ حزيران (يونيو) من السنة ذاتها ٠ اما مؤتمر العمال العرب فشارك مع « عصبة التحـــرر الوطنـــي » و « رابطة المثقفين العـــرب » ، المنظمتين الماركسيتين الفلسطينيتين ، فـي تشكيل « الجبهة العربية العليا » ، كما نـزل المؤتمر ، بكل ثقله ، في الميدان السياسي ٠ مما ساعد في اجبار قيادة جمعية العمال علـى النزول الى الميدان نفسه ، على النحو الـذي اوضحناه فيما سبق ٠

وهذه وثيقة رسمية بريطانية ، صدرت في ربيع العام ١٩٤٦ ، تعترف بعدم وجود فاصـل بين الانشطة الاقتصادية والسياسية للنقابات العمالية العربية ، كما اشارت الى قيام بعض المثقفين العرب بدور في تنشيط الحركة العمالية العربية (٨٣) ٠

والملفت للنظر ان الحركة العمالية لعبـــت دورا رئيسيا في بلورة تنظيم ماركسي عربـي انسلخ عن الحزب الشيوعي الفلسطيني، مبقيا الحزب وقفا على الاعضاء اليهود ٠ اذ شهدت اواخـــر الثلاثينات واوائل الاربعينات ازمـة داخلية عنيفة في الحزب الشيوعي الفلسطيني، وادى تكويـــن بعض الشيوعيين العـــــرب الفلسطيليين « اتحاد جمعيات ونقابات العمال العرب » في العام ١٩٤٢ الى اجتذاب المزيد من الشيوعيين العـــرب الفلسطينيين الى هـذا الاتحاد ، ومن داخل هذا الاتحاد تبلورت فكرة الانسلاخ العربي عن الحزب الشيوعي وتشكيل « عصبـــة التحرر الوطني » ، في ايلـــول (سبتمبر) ١٩٤٣ ٠ وارتبطت « العصبة » و « الاتحاد » ارتباطا حميما ، واشتركا فـي نفس القادة ، والسياسة ، والصحيفة ٠ وكان توحيد الحركة النقابية العمالية احد الاهداف الرئيسية للعصبة ٠ واعلنت صحيفة « الاتحاد» ـ التي اصدرتها العصبة ـ انها تتحدث الـى النقابات العمالية الفلسطينية ، ودعت كـل ممثلي النقابات الى الاسهام في تحريرها ٠ الا ان وحدة الحركة النقابية العمالية لم تتحقق ٠ ولم تكن عصبة التحرر تحلم بوسيلة افضـل مـن مؤتمـر العمال العرب لتوصيل افكارهـا للجماهير العمالية العريضة ٠ فمن خلال المؤتمر قامت العصبة بالاتصال بجماهير واسعة مـن العمال ٠ كما كان المؤتمر من المصادر الرئيسية للمكانة العالية التي احرزتها عصبة التحـــرر خلال سنتي الانتداب الاخيرة (٨٤) ٠

على ان « مؤتمر العمال العرب » لم يعزل نفسه عن بقية الاحزاب السياسية العربية في فلسطين ، بل اعلن ، في دستوره ، عن رغبته في التعاون مع كافة الاحزاب والمنظمات التي تعمل في سبيل حرية فلسطين ، وتسعى لاقامة حكومة ديمقراطية ، يتساوى في ظلها جميـع المواطنين في الحقوق والواجبات (٨٥) ٠

وكانت اهداف مؤتمر العمال السياسيـــة تنحصر في (٨٦) : « المطالبة بالغاء الانتداب ، واعطاء فلسطين حريتها واستقلالها ، المطالبة باقامة حكومة وطنية ديمقراطية في فلسطين ، المطالبة بمنع الهجرة منعا باتا ، المطالبة بمنع بيع الاراضي ، المطالبة بالافراج عن المساجين والمعتقلين والمبعدين السياسيين » ٠ وهـــي الاهداف التي اقرها مؤتمر العمال من قبل ، في ١٩ آب (اغسطس) ١٩٤٥ ٠ وحملها مندوبوه الى مؤتمر النقابات العالمي ، المنعقد في باريس في السنة نفسهـــا ٠ وهـــي نفس مقررات المهرجانات الشعبية ، التي اقيمت في كل مـن القدس ويافـــا وغزة والمجدل وبئر السبـــع والناصرة ، احتفاء بعودة وفد مؤتمر العمـال الى مؤتمـر باريس ٠ كما تأكـدت القرارات نفسها في خطب وتصريحات وبيانات قيـادة المؤتمر في مختلف المناسبات ٠

وبالنسبة للبنـــد الخامس مـن الاهـداف السياسية المذكورة ، فان جمعية العمال العربية قررت في مؤتمرها ، المنعقد في آب (اغسطس) ١٩٤٦ « الطلب من فخامة المندوب السامـي لحكومة فلسطين ارجـاع المبعدين السياسيين

العرب الى فلسطين ، وعلى رأسهم سماحة المفتي الاكبر ، الحاج امين الحسيني ، ثم الافراج عن مساجين الاضطرابات العرب » (٨٧)

وفي خريف العام ١٩٤٧ ، اكد سليم اقاسم ، السكرتير العام لمؤتمر العمال العرب « ان المؤتمر ليس حزبا سياسيا ، ولكنه منظمة نقابية بحتة ، تعمل لتحقيق الاهداف الوطنية ، وهي الغاء الانتداب ، وجلاء الجيوش الاجنبية ، واستقلال فلسطين ، وهي تقاوم مشروع تقسيم فلسطين والمشروعات الاستعمارية الاخرى ، كمشروع سوريا الكبرى ، وتصر على منع الهجرة اليهودية الى فلسطين بجميع اشكالها والوانها . وتدعو الى المحافظة على ارض الفلاح العربي » (٨٨) .

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ اصدرت الجمعية العمومية للامم المتحدة قرارها القاضي بتقسيم فلسطين ، وسرعان ما اشتعل القتال بين المواطنين العرب الفلسطينيين والمستوطنين اليهود . وشارك العمال ، مع بقية الطبقات الكادحة ، في الكفاح من اجل الحفاظ على عروبة فلسطين ، فحملوا السلاح ، بينما اكتفت قوى البرجوازية وكبار الملاك بالقيادة السياسية ، والانكى من ذلك ان اغلب هذه القيادات هجر فلسطين الى ما جاورها من البلاد العربية ، طلبا للامان !

على ان نشاط الطبقة العاملة السياسي لم يقتصر على الداخل فحسب ، بل تعداه الى خارج نطاق فلسطين ، في المجالين العربي والعالمي. على ان هذا النشاط لم يبدأ ـ فعلا ـ الا في مرحلة نهوض ونضوج الحركة العمالية النقابية في فلسطين ، اي في النصف الثاني من الاربعينات .

وفي المجال العربي ، كان مؤتمر العمال ينظر الى الوحدة العربية من جانبها الكفاحي ، فعندما اعتقلت الحكومة المصرية بعض قادة النقابات العمالية المصرية وغيرهم من العناصر الوطنية التقدمية ، في اوائل العام ١٩٤٦ ، ارسل مخلص عمرو ، سكرتير اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب بفلسطين عند ذاك ، برقية احتجاج الى محمود النقراشي باشا ، رئيس وزراء مصر ، جاء فيها : « ان اعتقال حكومتكم لرئيس الوفد العمالي وزملائه ، لمطالبتهم برفع الحيف عن طبقتهم ، هو خدمة صريحة للاستعمار ، ووصمة لمصر في الحقل الديمقراطي العالمي . ان عمال فلسطين العرب يستنكرون عملكم ، ويطالبون بالافراج عن زملائهم » (٨٩)

وفي الرابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٤٦ اجتمع ، في القدس مؤتمر العمال العرب ،واتخذ مقررات وطنية ، منها : تحية الموظفين المضربين ، والمطالبة بالافراج عن المعتقلين السياسيين ، وتحية قادة العمال المعتقلين في مصر (٩٠) .

وما كادت مذبحة مصانع « سباهي » تتم في مصر ★ ، ويسقط فيها ثلاثة عمال مصريين صرعى الكفاح من اجل الخبز والحرية ، حتى كان لهذه الحوادث الدامية صدى عميق بين العمال في ارجاء الوطن العربي ، الذين يعانون من نفس انواع الاستبداد والقهر ، لذا كان طبيعيا ان يسرعوا للتضامن مع زملائهم المصريين ، معبرين عن سخطهم وغضبهم على موقف الحكومة المصرية من كفاح العمال المصريين ، وانعكس تضامنهم الرائع وتأييدهم لعمال سباهي في البرقية التي ارسلها مؤتمر العمال العرب بفلسطين الى عمال سباهي ،جاء فيها (٩١) : « ان مؤتمر العمال العرب بفلسطين الذي يمثل عشرات الالوف من العمال المنظمين في فلسطين ، يستنكر ، اشد الاستنكار ،اطلاق الرصاص على عمال مصانع سباهي . كما ان المؤتمر يقدم تحياته القلبية الى عمال هذه المصانع ، والى جميع افراد الطبقة العاملة بمصر . وان عمال الشرق الاوسط ، الذين يواجهون ابشع هجوم على حقوقهم التي اكتسبوها بفضل اتحادهم وتضامنهم ونضالهم الشاق المرير من قبل الاستعمار وعملائه وصنائعه المحليين ، سوف تكون دماء اخوانهم

★ ـ سباهي هي شركة غزل ونسيج في الاسكندرية . كون عمالها نقابة لهم ، ففصلت ادارة الشركة بعضهم ، وسارع العمال الى اعلان الاضراب ، واشتبكوا مع البوليس ، في ١٧ شباط (فبراير) ١٩٤٨ ، واعتقل بعضهم ، واغلقت المصانع .

عمال مصانع سباهي ، التي سفكت ظلمـــا وعدوانا ، حافزا لهـم على تشديد نضالهـم وتضامنهم لنيل مطالبهم ، وفي سبيـل تحرير بلادهم وانعتاقهم من الاستعمار والرجعية » .

وتتضح الاهمية البالغة لهذه البرقية فيكونها ارسلت في قمة ازمة عصبة التحرر الوطنـي الفلسطينية - والمؤتمر تنظيم جماهيري لهـا - وقمة ازمة القضية الوطنية الفلسطينيـــة برمتها . ومع ذلك ، لم تمنع هذه الازمـــة المضاعفة امين سر مؤتمر العمال العرب مـن اظهار تضامنه مـــع اشقائه عمال سباهـي المصريين .

وفي المجال العالمـي كان للحركة النقابيـة العمالية الفلسطينية شأن آخر . فبعد الثورة البلشفية (تشرين الاول [اكتوبر] ١٩١٧) شكل الماركسيون تنظيما نقابيا دوليا ، ضـم نحو ٣٠ مليون عامل ، ومركزه موسكو ، ويحمل اسـم « بروفنترن » او « اممية النقابـات الحمراء » . وكانت النقابات الحمراء تتشكل، في البلاد التي تحكمهـــا الفاشيـــة ، سرا . ومعروف ان اممية النقابات الحمراء تأسست في العام ١٩٢١ ، واشترك في تأسيسها مندوبون عن النقابات العمالية التي يسيطـر عليهـــا اليساريون في انحاء العالم . وخلال تصاعـد الخطر الفاشي في اوروبا ، فـي اواسـط الثلاثينات ، سعت هذه الاممية من اجل ايجاد جبهة موحدة من جميع نقابات العمال للكفاح ضد الفاشية ، وضد ضغط الرأسماليين عـلى العمال ، وضد خطر الحرب ، التي بدت فـي الافق منذ وصول هتلر الى الحكم في المانيا ،في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ (٩٢) .

ومعروف ان هذه الاممية انشئت بقرار مـن مؤتمرها الاول ، المنعقد في موسكو ، من ٣ - ١٩ (يونيو) ١٩٢١ . وكان اول مؤتمر نقابـي دولي يأخذ على عاتقهتحقيق الوحدة بين العمال الذين اقاموا في روسيا دولة العمال والفلاحين وبين التنظيمات الطليعية في الحركة العماليـة بالبلدان الرأسمالية المستعمـرة والتابعة . وجمعت الاممية الحمراء ، داخل صفوفهـا ، المراكز النقابية التقدمية واتحادات العديد من البلدان و٣٨٠ مندوبا شاركوا في مؤتمرها الاول، يمثلون ١٧ مليونا من النقابيين في ٤١ بلـدا . فكانت حافزا لتطور وتدعيم الحركة النقابية في العالم اجمع . ومنذ الايام الاولى من نشأتها كانت مدرسة للاممية البروليتارية . وقد مثلت فيها بلدان مثل : الاتحاد السوفياتي ، فرنسا، المانيا ، هولندا ، كندا ، الصين ، اندونيسيا ، تشيلي ، كوبا ، واليابان ، بالاضافة الى كـل الذين يرون - بغـض النظر عن آرائهـم السياسية - ضرورة الكفاح من اجل المصالح الطبقية للشعب العامل . ولذلك وقفت هـذه الاممية - منذ البداية - مواقف طبقية ثابتة في تقديرهـــا للاحداث وللتطورات السياسيـــة والاجتماعية ، وحرصت على الا تبتعد القـوى التقدمية ، المنضوية تحت لوائها ، عن الصراع الطبقي . وكانت الظروف الموضوعية قد توفرت عند ذاك ، لقيام الاممية الحمراء ، اذ احتدم الصراع الطبقي في البلدان الرأسمالية ، وبرز التباين الايجابي في صفوف الحركة العماليـة الغربية . واخذ اكثر العمال وعيا وتقدمية في النقابات الاصلاحية القديمة يقفون ضد سياسة الانشقاق ، التي ينتهجها قادة الاتحاد النقابي الدولي ، المعروف باسم « دولية بوتسدام » . وبدأوا يتحدون في المعارضة النقابية الثورية . واخذ الوعي بتطابق مصالحهم مع الثـــورة الاشتراكية الاولى ، في التأكد والنضوج (٩٣) .

وكانت التوصية الاولى بانشاء الامميـــة الحمراء قد جاءت من المؤتمر النقابي الروسي ، المنعقد في حزيران (يوليو) ١٩١٧ ، ومـــن المؤتمر الاول للنقابات الروسية ، المنعقد فـي كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، والذي نص على انه « من واجب المؤتمر المساعدة ، بكل ما في وسعه ، على احياء الحركة المهنيـــة الدولية ، وادرج في جدول اعماله الدعوة الـى انعقاد مؤتمر مهني دولي وسلسلة منالمؤتمرات المهنية الدولية ، وفقا للفروع المعينة مـــن الانتاج » (٩٤) .

وفي العشرينات ، توزعت الحركة العماليـة الثورية الى ثلاث مجموعات : أ - المنظمـات المنضمة - بشكـل مباشر - الى الامميـــة الحمراء (١٥ بلدا ، بلغ مجموع اعضائها - عام ١٩٢٥ - ٠٠٠ر١١٤ر٩ عضو ، اصبحوا ،عام ١٩٢٧ ، ٠٠٠ر٨٢٢ر١٣ عضو ، ب - مجموعـات اقلية ثورية داخل النقابات الاصلاحية (داخل

٤٩ بلدا ، ضمت ، عام ١٩٤٥ ، ٣٫٧٨٧٫٠٠٠ عضو ، وعام ١٩٤٧ ضمت ٢٫٨٧٤٫٠٠٠ عضو ، من بينها فلسطين ، التي ضمت في كل من العامين المذكورين نحو الفي عضو ، ج - المنظمات التي وقفت على ارض النضال الطبقي والثوري ، ولكنها لم تكن منظمة رسميا في الاممية النقابية الحمراء ، لاسباب سياسية (مثل الارهاب الابيض) ، وهي ١٨ بلدا ضمت عام ١٩٤٥ ، ٢١٨٫٣٥٨ عضوا ، اصبحوا بعد عامين ٣٦٨٫٤٣٠ عضوا (٩٥) .

واستطاعت الطبقة العاملة في الاقطار العربية ، بفضل التطور الجزئي في القوى المنتجة ونشوء بعض الصناعات ، وبتأثير النشاط النقابي للاممية النقابية الحمراء ، من ان تكون نفسها ، وتصقل افكارها ، وتقوم بسلسلة من النضالات الطبقية ، التي واكبت النضال الوطني . اي ان تأثير الاممية النقابية الحمراء على مجمل الحركة العمالية في الاقطار العربية كان ملحوظا ، وفاق تأثير الاتحاد النقابي الدولي (دولية امستردام) ، التابع للاممية الثانية والاحزاب الاشتراكية الديمقراطية (٩٦) .

وادركت الطبقة العاملة العربية الفلسطينية، من جانبها ، اهمية التضامن بين عمال العالم، وعمدت ذلك بالدم . لدرجة ان بعض ابناء الطبقة العاملة العربية في فلسطين انخرط في سلك المتطوعين لمقاومة فاشية فرانكو ، التي اخذت تهدد الديمقراطية في اسبانيا ، في العام ١٩٣٦ ، ولا يزال شهيد عمال فلسطين ، محمود المغربي ، رمزا للتضامن والاخوة بين كافة عمال العالم (٩٧) .

كما ساهمت الطبقة العاملة العربية الفلسطينية في المؤتمرات العمالية العالمية . ابتداء من المؤتمر التأسيسي لاتحاد نقابات العمال العالمي ، الذي عقد بلندن في شتاء ١٩٤٥ ، والمؤتمر الاول الذي عقد بباريس في خريف العام نفسه ، الى المؤتمر الثاني في براغ (١٩٤٧) . وكسبت الطبقة العاملة لقضية فلسطين عطف وتأييد عمال العالم (٩٨) .

بدعوة من نقابات عمال انكلترا ، فرنسا والاتحاد السوفياتي ، انعقد في لندن المؤتمر التمهيدي للنقابات ، من السادس الى السادس عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٥ ، وضم ٥٤ مركزا نقابيا ، يمثلون نحو ٥٠ مليون عامل . ومثل فلسطين - في هذا المؤتمر - سامي طه ، ورافقه المستشار القانوني لجمعية العمال العربية الفلسطينية ، المحامي حنا عصفور . ونادى هذا المؤتمر بضرورة الدعوة الى قيام اتحاد عام يجمع العمال العرب عامة (٩٩) .

واهمية اشتراك جمعية العمال العربية الفلسطينية في هذا المؤتمر تأتي من منعها في السابق من الاشتراك في اجتماعات ذلك المؤتمر، بسبب اشتراك الهستدروت كممثل للحركة العمالية الفلسطينية بأكملها (١٠٠) .

الا ان مساهمة طه وعصفور في هذا المؤتمر لم تحل دون اصدار المؤتمر قرارا لصالح الحركة الصهيونية ، جاء فيه : « ان هذا المؤتمر يعتقد انه بعد الحرب يجب ايجاد علاج اساسي لاصلاح الظلم الذي لحق الشعب اليهودي ، ببذل نشاط دولي . ويجب ان يكون الدفاع عن اليهود من القمع والتمييز العنصري والسلب في بلاد كانت من واجب المنظمة الدولية الجديدة . ويجب أن نتيح للشعب اليهودي الاستمرار في انشاء وطنه القومي في فلسطين ، هذا المشروع الذي كللت بدايته بالنجاح بالهجرة اليهودية والاستيطان الزراعي والتنمية الصناعية ، مع المحافظة على المصالح العادلة لجميع سكان البلاد والمساواة بينهم في الحقوق والامكانيات » . وكان ب. لوكر ، مندوب الهستدروت في لجنة صياغة القرارات، حيث اقترح قرارا فلسطينيا على غرار «مشروع

بلتيمور ★ » ٠ الا ان اللجنة رفضت الاقتراح، حتى ولو كأساس قابل للتعديل ٠ وبعدمباحثات جرت بين اعضاء وفد الهستدروت تم الاتفاق بعدم المطالبة بالقرار وفق الصيغة التي اقترحها لوكر ، وصياغة قرار حول وطن قومي يهودي في فلسطين ، وهو الاقتراح الذي وافقت عليه ـ اخيرا ـ اللجنة الدائمة ، ثم وافق عليه، بعد ذلك ، المؤتمر كله (ولم يعارضه الا مندوب جمعية العمال العربية الفلسطينية ، ومندوبو غامبيا ، ونيجيريا ، والهند) (١٠١) ٠

وفي ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥ ، انعقد في باريس المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي ، واشترك في المؤتمر ٣٠٠ مندوب ، يمثلون نحو ٦٠ مليون عامل ٠ وناقشت السكرتارية التنفيذية للاتحاد مذكرة عاجلة للجنة التنفيذية للهستدروت ٠ وفي التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) اتخذت القرارات التالية ، بالاجماع (١٠٢) :

أ ـ ان السكرتارية تقر قرار مؤتمر لندن ، القاضي بوجوب اتاحة الفرصة للشعب اليهودي في انشاء وطنه القومي في فلسطين ، بالهجرة والاستيطان الزراعي والتنمية الصناعية ، مع المحافظة على اهالي البلاد ، والمساواة في الحقوق والامكانيات ٠

ب ـ تناشد سكرتارية اللجنة التنفيذية لاتحاد النقابات العالمي الحكومة البريطانية اتخاذ سياسة تضمن بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ٠

ج ـ ترى اللجنة التنفيذية ضرورة التفاهم المتبادل بين العمال اليهود والعرب في فلسطين٠

على ان نصر الصهيونية هذا لم يعش طويلا ، اذ سرعان ما تم الاجهاز عليه داخل جلسات المؤتمر نفسه ، على ايدي الوفود العربية (مصر ، سوريا ، لبنان) ، ووفد مؤتمر العمال العرب الفلسطيني ٠ فالمعروف ان مندوبي مؤتمر العمال العرب ، مخلص عمرو وبولس فرح ، هما اللذان اعتمدت عضويتهما في مؤتمر الاتحاد العالمي ، في حين ظل عضوا جمعية العمال العربية ، سامي طه وحنا عصفور ، مجرد مراقبين في المؤتمر ٠ بعد ان نجح مندوب مؤتمر العمال العرب في اقناع لجنة فحص اوراق اعتماد المندوبين في مؤتمر باريس بأنه الممثل الحقيقي للعمال العرب الفلسطينيين ٠ وكان مندوب « مؤتمر العمال العرب » هو الذي وقع عليه الاختيار لعضوية المؤتمر العام لاتحاد النقابات العالمي ، بالاضافة الى مندوب الهستدروت ومندوب عصبة عمال فلسطين ، ممثلين لكافة عمال فلسطين(١٠٣) ٠

وانهى المؤتمر جلساته يوم ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥ ٠ وكان اشتراك وفود عمال البلاد العربية ذا فائدة كبيرة ، في المجالين السياسي والنقابي معا ٠ فمن الناحية السياسية ، تمكنت تلك الوفود من شرح قضاياها الوطنية لوفود عمال شتى الاقطار المشتركة في هذا المؤتمر ٠ كما اتخذت الوفود العربية من المؤتمر منبرا لفضح الاستعمار ٠ وعملت كل الوفود ، متضامنة ، في سبيل قضية فلسطين ومقاومة انشاء الوطن القومي الصهيوني ، ومن اجل منع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ونجحت في اقناع وفود كثيرة بعدالة القضية الفلسطينية ٠ ومن هنا ظهر الفرق واضحا في اتجاه هذا المؤتمر عن اتجاه مؤتمر لندن ، الذي لم يشترك فيه وفد عربي واحد ، عدا وفد جمعية العمال العربية ، الذي كان عديم التأثير والفاعلية ! ولم يتخذ مؤتمر باريس اي قرار لصالح الصهيونية ، بالرغم

★ ـ مشروع بلتيمور : عقدت « لجنة الطوارىء الامريكية للشؤون الصهيونية » مؤتمرا استثنائيا في فندق بلتيمور بالولايات المتحدة ، في ايار (مايو) ١٩٤٢ ٠ ودعا هذا المؤتمر الى الاسراع بتنفيذ وعد بلفور ببناء وطن قومي يهودي في فلسطين ، والغاء القيود التي وضعها الانتداب البريطاني ـ تحت ضغط الحرب العالمية الثانية ، ورغبته في ترضية العرب ـ في وجه الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ونعرقلة انتقال الاراضي للمستوطنين اليهود فيها ، وتكوين قوة عسكرية يهودية ٠٠٠ وحمل هذا المؤتمر اسم الفندق الذي انعقد فيه ٠

من المساعي والمحاولات الدؤوبة للصهيونيين داخل المؤتمر وخارجه ٠ اذ عدلت اغلب الوفود عن تأييدها الذي منحتهم اياه في مؤتمر لندن ، خصوصا وفود امريكا اللاتينية وايطاليا والاتحاد السوفياتي وبولندا وغيرها ، التي وقفت موقفا حازما ضد الصهيونية ، وايدت الوفود العربية في موقفها ٠ وكانت هناك هزيمة اشد واوقع ، وهي فوز احد المندوبين العرب (مصطفى العريس) ، الذي اجمعت الوفود العربية - متضامنة - على ترشيحه في مواجهة المرشح الصهيوني ، ب ٠ لوكر ، كممثل للشرقين الادنى والاوسط في اللجنة التنفيذية لاتحاد النقابات العالمي ٠ وفاز مصطفى العريس على ب٠ لوكر بستمائة وعشرة اصوات ضد ثلاثمائة وتسعة عشر صوتا ، وامتنع عضو واحد عن التصويت ، في حين تغيب تسعة اعضاء عن حضور الجلسة التي تم التصويت فيها ٠ وكان للاتحاد السوفياتي ، باصواته المائتين وخمسة ، الفضل الكبير في نجاح النقابي اللبناني الشيوعي ٠ اذ نال هذا المرشح اصوات وفود السوفيات وامريكا اللاتينية وفرنسا وايطاليا والبلقان وبولونيا ويوغسلافيا والهند وبقية المستعمرات ٠ في حين صوت مع المرشح الصهيوني كل من الامريكي ، والبريطاني ، والصيني ، والهولندي ، والبلجيكي ، والكندي ، والسويدي ، والسويسري ٠ وبهذا فاز المرشح العربي بعضوية اللجنة التنفيذية للاتحاد العالمي ، مندوبا عن الشرقين الادنى والاوسط(١٠٤) ٠

وعقب نجاح العريس وسقوط لوكر ، صرح مخلص عمرو وبولس فرح بأنهما يمثلان عمال فلسطين ، وبأنهما سكلفين بقبول مشروع القانون التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي ، وعرض مطالب عمال فلسطين ، والدفاع عن حرية الشعب الفلسطيني ٠ وتعاون عمرو وفرح مع الوفود العربية ، واحبطا مساعي الصهيونية لضم مندوب يهودي الى اللجنة التنفيذية ، كما حالا دون ادخال تعديلات في القانون التأسيسي تخص الصهيونية ٠ ثم دعى العضوان المشار اليهما العمال اليهود الى الانضمام لقضية الكفاح من اجل فلسطين المستقلة الحرة الديمقراطية ، التي سيقضون فيها حياة سعيدة الى جانب اخوانهم العرب(١٠٥) ٠

وقبل ذلك بساعات قليلة ، صرح عمرو وفرح ، لوكالة الانباء الفرنسية ، بأن « المسألة الفلسطينية ليست مسألة عرقية ، بل مسألة سياسية ٠ واذا كان اليهود ديمقراطيين ، فلا يجب ان يكافحوا من اجل دولة يهودية ، بل من اجل استقلال الدولة الوطنية الديمقراطية الفلسطينية »(١٠٦) ٠ كما خطب ، في جلسات المؤتمر ، بولس فرح عن فلسطين ، وابراهيم البكري عن سوريا ، ومصطفى العريس عن لبنان ، ومحمد يوسف المدرك عن مصر(١٠٧) ، وكلهم شيوعيون ٠

وفي طريق عودتهما الى فلسطين ، مر مخلص عمرو وبولس فرح بالقاهرة ، حيث نشر الاول فيها مقالا ، قال فيه ان « الطبقة العاملة في العالم اصبحت لا ترى انها طبقات متباعدة ، ولا كتلا مناضلة منعزلة ٠٠٠ وان وحدة وفود العمال العربية في هذا المؤتمر ادت الى انتخاب رئيس الوفد اللبناني عضوا في اللجنة المركزية ، والى محاربة الصهيونية بين صفوف العمال وفضحها كحركة استعمارية رأسمالية ، مما الغى ونفى مساعدة العمال العالميين لها(١٠٨) ٠ وادلى بولس فرح بحديث الى مجلة ماركسية مصرية ، قال فيه « ان الظاهرة الاساسية في مؤتمر العمال العالمي بباريس كانت - بلا شك - التضامن الكلي بين الوفود العمالية العربية ٠٠٠ وظهر اتفاق تام بين جميع هذه الوفود [وفود المستعمرات والوفود العربية] على العمل في الحقل الوطني ، لينال كل بلد استقلاله التام » ٠ واكد فرح ان اشتراك وفود العمال العرب في ذلك المؤتمر « لا بد وان يحدث بعثا جديدا للحركات العمالية في البلاد العربية ، وبعثا جديدا في الحركات الوطنية » ٠ واشار النقابي اليساري الفلسطيني الى « الانتصار الكبير الذي احرزته البلاد العربية والانسانية جمعاء بانتصار وفود عمال العرب على الصهيونية ٠ واهم مظهر لهذا الفوز كان ، بلا شك ، نجاحها في انتخاب مصطفى العريس » ٠ ثم انتقل فرح الى الحديث عن محاولات الصهيونية لجر المؤتمر العالمي « الى قرار لتأييدها ، ولكن وفد العمال العرب

الفلسطينيين تنبهوا لذلك ، ونبهوا جميع الوفود العربية ، واحبطوا محاولات الصهيونية ... وقد ايد هذا الموقف وفود نقابات الاتحاد السوفياتي ، وفرنسا ، وامريكا اللاتينية ، والهند ، واستراليا ، ودول البلقان ونيوزيلندا »(١٠٩) .

وفي المؤتمر الثاني لاتحاد النقابات العالمي ، المنعقد في العاصمة التشيكية ، براغ ، تحدث سليم القاسم ، السكرتير العام لمؤتمر العمال العرب الفلسطينيين ، مندوبا عن عمال فلسطين . فطالب بجلاء القوات البريطانية عن فلسطين ، وقيام حكومة مستقلة فيها ، على اسس ديمقراطية صحيحة ، وايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، مما يجعل في الامكان « حل جميع المشاكل الناتجة عن سياسة الاستعمار البريطاني الخطيرة الفاشلة في هذه الرقعة الصغيرة من العالم العربي »(١١٠) .

وقبل ان ينفض المؤتمر ، عرض الوفد الامريكي مشروع قرار بتأييد اغراض الصهيونية واطماعها في فلسطين ، على غرار ما كان اتخذه اتحاد النقابات في مؤتمره بلندن . فتصدى مصطفى العريس لهذا المشروع ، واعلن استنكار الوفود العربية والديمقراطية لقرار مؤتمر لندن المشار اليه ، باعتباره اعتداء صريحا على مصالح العرب ، اصحاب فلسطين . واعلن « اننا سنقاوم ذلك القرار ، واي مشروع لقرار مماثل ، بكل ما في استطاعتنا من قوة وبأس » . واقترح ممثل نقابات عمال لبنان حلا لقضية فلسطين : أ ـ وقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، ب ـ اعلان استقلال فلسطين وجلاء الجيوش الاجنبية عنها ، ج ـ اقامة حكومة وطنية ديمقراطية فيها . ثم طلب حذف الفقرة التي ايد فيها مؤتمر لندن اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، او اعادتها الى المكتب التنفيذي للاتحاد ، من اجل دراستها من جديد . كما تكلم سليم القاسم ، فشرح القضية الفلسطينية تفصيلا ، ودعا المؤتمر الى مراعاة حقوق العرب ، اصحاب فلسطين الشرعيين ، وعدم الانسياق وراء الدعاية الصهيونية المضللة ، وطالب بالجلاء العاجل عن فلسطين . الا ان رئيس المؤتمر ، كارل زيبريس (انكليزي) ، لم يوافق على اعتراض الوفود العربية، وعرض المشروع الصهيوني للتصويت ، واسفرت النتيجة عن الموافقة عليه ، بأكثرية ١٠ اصوات ضد ٤ ، في حين امتنع الكثيرون عن التصويت . وهنا حدثت ضجة ، وقام مصطفى العريس ، من فوره ، الى حيث يجلس السكرتير العام (فرنسي) ، ثم الى رئيس الوفد السوفياتي ، ونجح في اقناعهما بأن التصويت غير قانوني ، لامتناع الاكثرية عن التصويت . واعلن رئيس الجلسة اعتراض العريس على قانونية التصويت ، فانفجرت مناقشات حامية بين اعضاء الوفد الامريكي ـ صاحب المشروع ـ والمندوبين الصهيونيين ، الذين كانوا ملأوا الدنيا صياحا ، وهزوا اسلاك البرق وموجات الاثير ، الى جميع انحاء العالم ، بالنبأ الخطير وبين وفود لبنان وفلسطين ومصر وتونس والاتحاد السوفياتي . واصر الامريكيون والصهيونيون ، من جانبهم ، على اعتبار القرار نافذا ، قانونيا ، بعد ان انتهى المؤتمر من التصويت عليه . ورفضوا اقتراحا قدمه السكرتير العام للمؤتمر بايقاف الجلسة مدة ١٥ دقيقة ، ليجتمع المكتب التنفيذي للاتحاد ، ويبحث المشكلة القائمة . وحاول الرئيس البريطاني ان يغرر بالوفود العربية ، فاقترح عليهم الموافقة على المشروع مع تسجيل تحفظاتهم عليه ، ولكنهم ابانوا له ـ بوضوح ـ ان مثل هذا التلاعب لا يجوز عليهم ! وعند هذا الحد ، دعا رئيس المؤتمر بعض اعضاء الوفود الامريكية والانكليزية والفرنسية ورئيس الوفد السوفياتي ومصطفى العريس، وتباحثوا مجتمعين على منبر الخطابة في الامر . وظل الامريكيون متعنتين متمسكين بموقفهم . فأعلن الرفيق تراسوف ، رئيس الوفد السوفياتي ، انه اذا لم تحذف هذه الفقرة التي تضر بمصالح العرب فالوفد السوفياتي يمتنع عن التصويت . مما اضطر الوفد الامريكي ، امام موقف السوفيات الحازم هذا ، الى التراجع ، واعلن المندوب الامريكي عن اسفه لموقف الرفيق تراسوف ، وارجع موقف السوفيات هذا الى اسباب سياسية ، فرد عليل تراسوف : انه امام البيانات التي سردتها الوفود العربية عن الاضرار التي تلحق

بمصالح العرب ، من جراء الموافقة على هذا القرار ، فأنه يرفضه · وعاد السكرتير العام فاقترح ايقاف الجلسة خمس دقائق ، ليتمكن رؤساء الوفود المعنية من التشاور ، فوافق المؤتمرون على ذلك · وانتهي الامر بأن عدلت الفقرة الخطيرة بشكل يشبه الالغاء ، اذ اصبحت خالية من الاشارة الى قرار مؤتمر لندن ، اي خالية من تأييد فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين واباحة الهجرة اليها · وهكذا ، احبطت مؤامرة صهيونية - امريكية كبرى ، هدفها التأثير على اجنة التحقيق الدولية ، التي شكلتها الامم المتحدة ، بهدف جمع المزيد من حقائق الموقف في فلسطين · « وقد احبط هذه المؤامرة المندوبون العرب الذين استطاعوا الوصول الى براغ رغم انف حكوماتهم » !(١١١)

وبذا ، تكون السنوات الثلاث التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، قد شهدت نشاطا سياسيا عارما للحركة النقابية العمالية في فلسطين ، ان داخليا ام خارجيا ، وصل مداه حين حمل العمال السلاح لمقاومة قرار تقسيم فلسطين ، الذي اصدرته الجمعية العمومية للامم المتحدة ، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ · الا ان حجم المؤامرة والمشتركين فيها كانا اكبر من ان ينجح الشعب العربي الفلسطيني ، بقواه المتواضعة ، في احباطها ، كما لم يفد تدخل الجيوش العربية ، في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، في شيء ، بل زاد الطين بلة ، ذلك ان معظم نظم الحكم العربية كانت مرتبطة بالاستعمار البريطاني ، عند ذاك ، بشكل او بآخر ، كما ان جيوش تلك الانظمة كانت مهيأة للاستعراضات لا للقتال · مما افضى الى *الكارثة* وقيام *اسرائيل* على اغلب اراضي فلسطين ·

العلاقة بالعمال اليهود

كان طبيعيا ان تتحكم السياسة بعلاقات الطبقة العاملة العربية الفلسطينية بنظيرتها اليهودية · ففي ظل العداء الذي اخذ يستفحل تعذر اقامة علاقات ايجابية بين الطبقتين ، كما ان وقوع العمال اليهود تحت السيطرة الفكرية شبه التامة للحركة الصهيونية زاد الامر صعوبة ، فاغلب العمال اليهود كانوا ينحدرون من اصول برجوازية صغيرة ، مما ابتعد بهم عن افكار الطبقة العاملة ، وجعلهم اكثر استعدادا للتأثر بالافكار الصهيونية ، وعزز هذا الاستعداد الامتيازات الجمة التي كان العمال اليهود يجنونها من ارتباطهم بهذه الحركة الصهيونية ، فهم اولا يتميزون على نظرائهم العمال العرب من حيث الاجر ، كما انهم - ثانيا - يعيشون اسرى اقتصاد صهيوني مغلق ، وفي احضان مجتمع صهيوني تفصله عن المجتمع العربي الفلسطيني هوة سحيقة ، مما عمق الحس الطائفي لدى العمال اليهود · عدا عن ان الحركة الصهيونية لجحت في تصوير قيادة الحركة الوطنية العربية في اعين العمال اليهود ، كحركة رجعية معادية لليهود ، مما جعل هؤلاء العمال يعتقدون ان في تقوية الصهيونية تقوية لهم ، في مواجهة « الخطر العربي » !(١١٢)

وازاء اصرار الهستدروت على الاكتفاء بتنظيم العمال اليهود في صفوفه ، حاول الشيوعيون التغلب على هذه العقبة ، مستندين الى مفاهيمهم الماركسية اللينينية ، فنص دستور مؤتمر العمال العرب على « العمل على التعاون والتضامن بين جميع عمال فلسطين ، بغض النظر عن الجنسية ، واللون ، والدين ، والمذهب السياسي » ·(١١٣)

اما جمعية العمال العربية الفلسطينية فكان لها موقف اخر من هذه المسألة ، عبر عنه سكرتيرها العام ، سامي طه ، حين سأله رئيس اللجنة الانكلو - امريكية ، سلغلتون ، عما اذا كان من الخير ان تنشأ نقابات للعمال بدون تمييز على اسس عنصرية او دينية ، فأجاب طه : « نعم ، هذا هدفنا ، ونحن نوافق من حيث المبدأ على ذلك ، ولكن لا يمكن تحقيق ذلك في فلسطين » · على انه عاد ، بعد برهة وجيزة ، واوضح لكروسمان ، عضو اللجنة نفسها ، « انه اذا زالت الصهيونية يصبح الاتفاق [بين العمال العرب والعمال اليهود] ممكنا »(١١٤) ·

وفي غياب القيادة النقابية الواعية ، وتحت وطأة القهر الرأسمالي ، حدث ان استجار

العمال العرب بالهستدروت · ففي مطلع ١٩٣٨ نشرت صحيفة الثورة المضادة في فلسطين خبرا عن اضراب عتالة ميناء يافا ، وحملت عليهم ، زاعمة ان حسابات المتعهد الذي يستخدمهم (سليم افندي الخوري صحيحة « وان العتالة مبطلون في دعواهم »(١١٥) ·

واستمر اضراب العتالة (٦٠ عتالا) اكثر من اربعة اسابيع ، دون ان يتقدم احد من العرب لمساعدتهم او لارشادهم ، بل رفضت معظم الشخصيات اليافية والصحف مد يد العون لهم ، فاغتنمت الهستدروت هذه الفرصة الذهبية ، وعرضت مساعدتها على العتالة المضربين (١١٦) ·

وفي العام ١٩٤٣ فشل مشروع اضراب مشترك للعمال العرب واليهود معا ، حين تقدمت الهستدروت بمطالب عمالية الى قيادة الجيش البريطاني في فلسطين ، الا ان المفاوضات بين الهستدروت وهذه القيادة منيت بالفشل · فأسرعت الهستدروت تعلن الاضراب العام في كافة معسكرات الجيش البريطاني ، حتى تتحقق المطالب التي رفعتها الى قيادة الجيش البريطاني · ورأت قيادة جمعية العمال العربية في مثل هذا الاضراب نصرا مؤزرا للهستدروت وانهاء لهيمنة الجمعية على عمال المعسكرات العرب ، الذين يشكلون اغلبية العاملين في معسكرات الجيش البريطاني بفلسطين ، مما حدا بالامانة العامة لجمعية العمال العربية مع النقابة العامة لعمال المعسكرات الى رفض الاضراب · وفي اليوم المحدد للاضراب ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ، توقف العمال اليهود عن العمل ، الا ان قلة عددهم اضعف من تأثير اضرابهم على مجمل العمل في معسكرات الجيش البريطاني ، وفشل الاضراب في تحقيق اهدافه النقابية المعلنة ، واهدافه السياسية الخفية ! وعقدت الهستدروت مؤتمرا في تل ابيب ، لدراسة اسباب الفشل ، واوفدت الامانة لجمعية العمال — سرا — وفدا برئاسة فؤاد شما ، رئيس النقابة العامة لعمال المعسكرات (قسم الخياطة) ، وعضوية نصري الحلو ، عضو الهيئة الادارية للنقابة نفسها ، لحضور هذا المؤتمر · وشن قادة الهستدروت حملة قاسية على جمعية العمال العربية ، فأنبرى فؤاد شما مدافعا ، مذكرا قادة الهستدروت بأنهم — حين قرروا اعلان الاضراب — اهملوا متعمدين الاتصال بجمعية العمال العربية ، ولم يحصلوا على موافقتها ، كما لم يتعرفوا على مطالبها ، حتى يمكن اقامة لجان مشتركة بين النقابتين العربية واليهودية ضمانا لنجاح الاضراب (١١٧) ·

على ان اضرابا اخر لعمال البرق والبريد والتليفونات ، نجح ، في العام ١٩٤٦ ، في احراز تقدم ملموس ، بل وحقق المطالب التي رفعها المضربون العرب واليهود سويا ·

التعاونيات

عمدت اجهزة الانتداب وعناصر البرجوازية المحلية والثورة المضادة الى نشر افكار التعاونيات الحرفية في فلسطين · وكانت هذه الاجهزة والعناصر تلجأ لرفع راية التعاونيات عند كل مد نقابي ، وفي وجه كل اشتداد للحركة المطلبية · وكانت التعاونية الحرفية تبدو قادرة على خدمة مصالح الانتداب وقسم من البرجوازية العربية الفلسطينية ، دون ان تشكل اي خطر على مصالح اي منهما · فالتعاونية الحرفية من شأنها تمييع الصراع الطبقي ، مع عدم المساس بالاستغلال الرأسمالي ، كما يمكنها ان تلعب دورا تضليليا ، يصعب على العمال اكتشاف امره قبل مرور وقت طويل ·

وتهدىء التعاونيات الكفاح النقابي · لذا احتضنت جمعية العمال دون « المؤتمر » امر التعاونيات ، فانفردت بمزاولة نشاط اقتصادي هذا اذا استبعدنا جميع عمال نابلس ، الذين افتقروا الى الطابع النقابي ، بل كانوا اقرب الى المؤسسة او الجمعية التعاونية · وقد اشرفت جمعية العمال على عدد من التعاونيات الخاصة بالمنتجين والمستهلكين ، كما ادارت جمعية للتوفير والتسليف وتشغيل العمال · ووجدت معظم هذه المشروعات في حيفا ، حيث المقر الرئيسي لجمعية العمال (١١٨) ·

ويمكن الوصول الى مفهوم التعاونيات عند قادة جمعية العمال من خلال اقوالهم المسؤولة · ففي مؤتمر اب (اغسطس) ١٩٤٦ ، وقف بنيامين يونان ، من عمال سكة حديد القنطرة ، يعرف الحركة التعاونية ، بأنها تلك التي

يساهم « كل عامل بمبلغ ضئيل ، مما يوفره ، وتؤسس ، من المبالغ المساهم بها ، مصانع ومشاريع تعاونية ، يتقوى بها العمال ، فتقوى البلاد ، وتقوى الدولة ، ويقوى الوطن» (١١٩) ٠ وقبل هذا التعريف السطحي الساذج ،ضرب بنيامين مثلا باول جمعية تعاونية في العالم ، تلك التي اقامها عمال صناعة الساعات في سويسرا ، وضاربوا فيها اصحاب مصانع الساعات ٠ كما ضرب مثلا بمشروع القرش بمصر ، الذي استغل في صناعة الطرابيش ، عند اوائل الثلاثينيات (١٢٠) ٠

وعرّف مؤتمر اب المشار اليه ، الحركة التعاونية بأنها « حركة قامت على اساس حماية المنتجين والمستهلكين من استغلال رأس المال ٠٠٠ فالتعاون ، اذن ، هو حركة اقتصادية احوج ما يحتاج اليها العمال والفلاحون ، لاصلاح حالهم وحماية انفسهم من استغلال التاجر والوسيط وغيرهما » (١٢١) ٠ هكذا ، تعرف جمعية العمال العربية التعاون تعريفا مطلقا بلا حدود ، ولا ندري ما اذا كانت تجهل ام تتجاهل ، كون التعاون رهن بالنظام الاقتصادي الذي يقوم في ظله ، فالتعاون في ظل النظام الاحتكاري لا يخدم الا الاحتكارات ، اما في ظل النظام الاشتراكي فيرفد هذا النظام ويعززه ٠

وايمانا من جمعية العمال بالتعاون ، اسست العديد من الجمعيات التعاونية ، مثل « جمعية ذابحي الاغنام التعاونية » ، و «جمعية متعهدي الحوايا » ، و « جمعية اللحامين » ٠ كما اسست جمعية للتموين والبضائع ، و « جمعية العمال الخياطين » ، و « جمعية التسليف والتوفير » ، التي عرفت باسم « المصرف الشعبي » ، وبلغ عدد اعضائه ، في صيف العام ١٩٤٦ ، ١١٠٠ عضو ، ووصل حجم المبالغ التي اقرضها المصرف للعمال ، ما بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٦ فقط ، ٤٨٫٢٤٧ جنيها فلسطينيا ، كما اسست « جمعية الاسكان والتعمير » ٠ ويبين الجدول التالي تطور تعاونيات جمعية العمال ، في النصف الاول من الاربعينات (١٢٢) ٠

تطور تعاونيات جمعية العمال العربية الفلسطينية :

السنة	الوضع المالي		عدد	عدد
	مل	جنيه	الاعضاء	الجمعيات
١٩٤٠	٠٠٠	١٢	١٢	١
١٩٤١	١١٠	١٢٢٣	٦١	٢
١٩٤٢	٦١٠	٣٠٨٠	١١٦	٤
١٩٤٣	٨٧٣	١٣٥٥٢	٤٤٠	٦
١٩٤٤	٣٣٥	٣٠٨٣١	٧١٧	٧
١٩٤٥	٣١٨	٣٥٠٢٣	٩٨٦	٧

وانتقلت جمعية العمال بنشاطها التعاوني الى المزارعين ، فشكلت العديد من جمعيات الدخان التعاونية ، لمؤازرة مزارعي الدخان ، وتحسين زراعته ، وهو الذي بلغ معدل محصوله السنوي اكثر من مليون جنيه فلسطيني ٠ وافادت هذه الجمعيات في الوقوف بوجه المنافسة الاجنبية الشديدة ، حيث استولى دخان الفرجينيا والدخان التركي على قرابة ٧٠٪ من استهلاك السوق (١٢٣) ٠ وفي نيسان (ابريل) ١٩٤٧ ، عقد في مدينة عكا اول مؤتمر لمزارعي الدخان ، تمخض عن مقررات استهدفت المحافظة على هذه الثروة الوطنية ، وتخليص اصحابها من سيطرة احتكار الشركات ٠ ومن اهم هذه المقررات : ١ ـ خلق مراكز لتجميع الدخان ، ٢ ـ انشاء جمعيات تعاونية لبيع الدخان ، ٣ ـ مقاطعة الدخان الاجنبي ٠ وتم فعلا انشاء بعض المستودعات الحديثة في منطقة الجليل ، لحفظ الدخان ومنع بيعه للشركات الا عن طريق الجمعيات التعاونية ٠ وادى ذلك الى فرض بيعه بسعر مناسب ، بدلا من تراكم الديون على المزارعين لصالح بنك الزراعة في عكا (١٢٤) ٠

الا ان جمعية العمال العربية الفلسطينية لم توظف الحركة التعاونية بالريف في توثيق التحالف بين العمال والفلاحين الفقراء ، ولا في تحريك الفلاحين سياسيا ضد الاستعمار والصهيونية ٠ وكان هذا التقصير من جانب الجمعية طبيعيا ومتعمدا ، فهي تهمل ـ عن قصد ـ الجوانب السياسية في اوساط العمال ، ومن هنا جاء اهمالها لهذه الجوانب في نشاطها الريفي ، بالتبعية !

وللاشراف على الحركة التعاونية ، اسست

جمعية العمال فرعا خاصا في مقرها بحيفا(١٢٥) ٠

ولا نستطيع انكار تأثير الحركة التعاونية في القطاع اليهودي على جمعية العمال ٠ فقد حمل اليهود الافكار التعاونية من البلاد التي وفدوا منها ، وخاصة بولندا والاتحاد السوفياتي ، وحتى العام ١٩٣٠ لم يكن للعرب جمعيات تعاونية ذات شأن ، في حين كان للمستوطنين اليهود ٢٤٩ جمعية تعاونية ، عمل منها ، حتى العام ١٩٣٠ ، ١٧٣ جمعية ، وزعت نوعيا على النحو التالي : ٣٩ جمعية زراعية ، ٢٧ جمعية صناعية ، ١٤ جمعية كيبوتزات ، ٥٢ جمعية تسليف ، ٣٤ جمعية لمشتري الاراضي والبناء ، و ٧ جمعيات مختلفة الغايات ٠ وحتى اخر ايار (مايو) ١٩٣٠ بلغ عدد اعضاء هذه الجمعيات ٣٣٫٤٣٦ عضوا ، وبلغ رأس المال المساهم به والمال الاحتياطي وغير ذلك من الاموال الخاصة بهذه الجمعيات ٣٣٤٫٨٢٧ جنيها فلسطينيا ٠ وعلاوة على هذه المبالغ ، بلغت الاموال المودعة من الاعضاء مع توفيراتهم ٧١٫٤٤٥ جنيها فلسطينيا ، بينما وصلت الديون المستحقة ، في ذلك الحين ، على الجمعيات للمصارف وغيرها ١٤٫٢٩٤ جنيها (١٢٦) ٠

وكانت سلطات الانتداب قد ادخلت نظام التعاونيات الى القرية العربية منذ وقت مبكر ، حين اسست ، في خريف العام ١٩٢٣ ، جمعيات للاقتصاد والتسليف في ١٤ قرية عربية ، وزاد عدد اعضائها من ٢٦٤ الى ٦٥١ عضوا ، ومالها الخصوصي من ٢٦٦ الى ٧٨٠ جنيها ٠ وكان الاعضاء يدفعون الديون المطلوبة منهم بانتظام حتى تمكنت الجمعيات من الوفاء بديونها للبنك قبل تاريخ الاستحقاق ٠ واختار مسجل الشركات ١٨ قرية من ٦٠ ، بثت فيها دعاية واسعة عن فوائد التعاون ٠ واسست في هذه القرى جمعيات تعاونية ، وبلغ حجم المبلغ الذي اكتتب به الاعضاء ٩٣٣ جنيها ، دفعوا عشرها عند التأسيس ٠ وفي صيف العام ١٩٣٥ كان عدد اعضاء جمعيات الاقتصاد والتسليف في القرى العربية ٩١١ عضوا ، ورأس المال المكتتب ٣٫٦٥٨ جنيها ، تحصل منه ٩٤٤ جنيها ٠ واقرض بنك باركليز هذه الجمعيات قروضا لاجال قصيرة ، بفائدة قدرها ٧٪ ٠

وبلغ مجموع ما اقترضته هذه الجمعيات من هذا البنك ، في العام ١٩٣٥ ، ١٣٫٧٣٦ جنيها ، مقابل ٣٫٣٦٩ جنيها للعام ١٩٣٣ ٠ وفي المدن تسجلت ست جمعيات عربية جديدة للنقل ، في اواسط الثلاثينات ، وانحلت جمعية واحدة ، فأصبح عددها كلها ١٣ جمعية ، وكان نجاحها متوسطا في اجماله ٠ وفي الفترة نفسها كان ثمة جمعيات عربية اخرى لاغراض مختلفة ، بعضها تم تأليفه والاخر كان على وشك التأليف ، كالزراعة والري وصيد الاسماك وبناء دور لعمال السكك الحديدية ، وغير ذلك(١٢٧) ٠ وغني عن القول بان سلطات الانتداب كانت ترمي من وراء صرف القروض للجمعيات التعاونية العربية الى ربط اعضاء هذه الجمعيات بها ، بالاضافة الى اخفاء طبيعتها الاستغلالية ٠

وفي العام ١٩٣١ قامت اول شركة تعاون عربية محضة ، حملت اسم « شركة تعاون العمال العرب الفلسطينيين المحدودة الضمان » ، برأس مال قدره الفا جنيه ، موزعة على الفي سهم ٠ وفي قانونها اوضحت الشركة ان غايتها : « هي تحسين وازدياد التعاون بين جميع طبقات العمال العرب في فلسطين ، وذلك : 1 ـ بأن يؤسسوا ويديروا ورش اعمال من جميع الاصناف ، بما فيه ورش نجارة ، ودقاقة احجار ، وحداده ، واشغال سيارات ، الخ ، ب ـ المناقصة على اي شغل كان ، عمومي او خصوصي ، ج ـ القيام باي عمل يقرر القيام به مجلس المديرين ، بشرط ان تكون جميع الاعمال التي تقوم بها الشركة لمصلحة اعضاء الشركة ، فقط دون سواهم » (١٢٨) ٠

حزب الطبقة السياسي

ما دمنا نتحدث عن الطبقة العاملة العربية دون اليهودية ، فلا بد من الحديث بتركيز عن النشاط العربي داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وهو الحزب الوحيد في فلسطين الذي ضم عناصر عربية ويهودية جنبا الى جنب ، اما بقية الاحزاب فكانت عضويتها اما عربية صرفة او يهودية صرفة ٠

وفي فلسطين ارتبط تطور الحزب الشيوعي الفلسطيني ـ الى حد بعيد ـ بتطور الحركة

الوطنية الفلسطينية . ومنذ آذار (مارس) ١٩١٩ ، تأسس « حزب العمال الاشتراكي » من اعضاء يهود اكثرهم شيوعيون ، وعرف الحزب باسمه العبري « مفلاجات بوعاليم سوسيالستيم » ، وان اشتهر باسمه المختصر « مويسي » . وضم عناصر ماركسية جنبا الى جنب مع بعض العناصر اليسارية الصهيونية ، مما جعله نهبا للصراعات الحادة منذ قيامه (١٢٩) . وكان طبيعيا ان ينفر العرب من الانضمام الى هذا الحزب ، بسبب نفورهم الاقدم من المستوطنين اليهود عموما ،خاصة بعد افتضاح اطماعهم في فلسطين ، ولوقوع اغلبية عرب فلسطين الساحقة في اسار الافكار الاقطاعية السائدة في فلسطين انذاك . في حين لم يشكل الحزب مركز جذب للعمال اليهود الشديدي التأثر بالافكار الصهيونية ، والذين تنحدر اغلبيتهم من اصول برجوازية صغيرة ترفض الافكار العمالية وتعاديها . وعليه كانت عضوية الحزب ضئيلة ، لم تتعد في شباط (فبراير) ١٩٢١ ، مائتي عضو(١٣٠) .

وفي اول ايار (مايو) ١٩٢١ ، اصدر الحزب بيانا ، بمناسبة عيد العمال العالمي ، حث فيه العمال والفلاحين للاستيلاء على السلطة ، وندد بالاستعمار البريطاني ، واشاد بالثورة البلشفية ، ودعا البيان العمال والفلاحين الى مقاومة البرجوازية العربية واليهودية والمستعمرين البريطانيين (١٣١) .

واثناء احتفالهم بعيد اول ايار (مايو) ١٩٢١ اصطدم - في تل ابيب - اعضاء المويسي باعضاء المنظمة الصهيونية « احدوت هاعفودا » وانتقل المتصادمون الى اطراف حي المنشية بيافا ، الملاصق لتل ابيب . وتوهم عرب يافا ان المستوطنين اليهود يهاجمونهم ، فتصدوا للمتصادمين جميعا ، ووقعت صدامات قتل فيها ٤٨ عربيا و ٤٧ يهوديا ، وجرح ٧٣ عربيا وضعفهم تقريبا من اليهود .

وفي اعقاب هذه الصدامات نفت السلطات البريطانية خمسة عشر من قادة المويسي خارج فلسطين ، واستكتبت ثلاثة عشر اخرين من اعضائه تعهدات بحسن السير والسلوك (١٣٢) . واضطر الحزب الى سلوك طريق العمل السري ، منذئذ ، تجنبا لضربات اجهزة الامن البريطانية .

على ان الحزب الشيوعي ، باسمه وفكره ، لم يولد الا في خريف العام ١٩٢٢ . فبعد ضربة ايار (مايو) ١٩٢١ ، انضوى من تبقى من اعضاء الحزب تحت لواء « بوعالي زيون » الصهيوني اليساري ، الا ان مؤتمر هذا الحزب، المنعقد في دانزيغ في ايلول (سبتمبر) من ١٩٢٢ بغرض الاختيار بين الاندماج في الحركة الشيوعية العالمية ، المعروفة انذاك بالاممية الثالثة او « الكومنترن » وبين الاندماج بالمؤتمر الصهيوني ، انتهى الى اختارت غالبية اعضائه (نحو ٣٠٠ عضو) الصهيونية ، وتحولوا الى قادة لحزب الماباي ، في حين اختار الباقون (حوالي ١٥٠ عضوا) طريق الشيوعية واسسوا عندذاك ، « الحزب الشيوعي الفلسطيني » . وفي العام التالي عقد الحزب مؤتمره الخامس ، الذي قرر فيه ان المهمة الرئيسية للحزب هي النضال ضد الصهيونية بأشكالها المختلفة ، وفضح خدعتها . ونشط اعضاء الحزب ، فعلا ، في تحذير الشباب اليهودي من الهجرة الى فلسطين (١٣٣) .

واعترف الكومنترن رسميا بالحزب الشيوعي الفلسطيني ، في شباط (فبراير) ١٩٢٤(١٣٤) . وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٤ طرد الهستدروت الشيوعيين اليهود من عضويته ، بسبب نشاطهم المعادي للصهيونية ، وحملاتهم ضد الهستدروت نفسه .

وداخل الحزب الجديد : دار صراع فكري وسياسي بين اقلية تمتلك ثلاثة مقاعد في اللجنة المركزية للحزب ، وبين اكثرية تمتلك المقاعد الخمسة الباقية في اللجنة ، وتتهمها الاقلية بالانهزامية والجمود . وفي المؤتمر السادس للحزب ، تموز (يوليو) ١٩٢٤ ، تمكنت الاقلية من دحر الاغلبية وتنحيتها . وفي هذا المؤتمر رفع ، لاول مرة ، شعار « تعريب الحزب »(١٣٥) . وربما رفعوا شعار التعريب بهدف تثوير الحزب اولا ، ولكسر الحصار المضروب على الحزب في القطاع اليهودي من فلسطين ثانيا .

ودعا الحزب ، دوما ، الى وحدة عمال

فلسطين ، عربا ويهودا ، اداة للكفاح ضد الرأسماليين الصهيونيين والعرب والمستعمرين البريطانيين ٠

ومنذ العام ١٩٢٧ ، اخذت مجموعات من الاعضاء العرب في الحزب تسافر لتلقي مبادىء الماركسية اللينينية في « جامعة كادحي الشرق » التابعة للكومنترن بموسكو ٠ (١٣٦) ٠

وفي اوائل العام ١٩٢٩ : دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني اعضاء الحزب لمناقشة قرارات المؤتمر السادس للكومنترن ، التي تضمنت تأكيدا بانتهاء الدور الثوري للبرجوازية ٠ وقد توصل الكومنترن الى هذا الاستنتاج غداة غدر الكومنتانغ بالشيوعيين في الصين ، في العام ١٩٢٧ ٠ على ان هذا الاستنتاج انسحب على القادة البرجوازيين الوطنيين في البلاد العربية ، ومن ضمنها فلسطين ، فاعتبروا نظراء لشيانغ كاي شيك ، الذي نظم المذابح البشعة لاعضاء الحزب الشيوعي الصيني وارتبط بالقوى الاستعمارية (١٣٧) ٠

وكشف مؤتمر الحزب الشيوعي الفلسطيني ، المنعقد في حزيران (يونيو) ١٩٢٨ ، عن وجود صراع بين اتجاهين داخل الحزب ، حيث رأت اقلية المؤتمر ان وطن اليهودي هو المكان الذي يولد فيه ، وان فلسطين ملك لسكانها العرب ، وان واجب الشيوعيين هو النضال بجانب العرب ضد الخطر الصهيوني ٠ اما الاغلبية ، فبالرغم من تشهيرها بالصهيونية ، الا انها رفضت قول الاقلية بان كل اليهود في فلسطين مرتبطين بالصهيونية بشكل او آخر ٠ وحدث ان حبذ الكومنترن رأي الاغلبية ، واقصيت الاقلية عن قيادة الحزب ٠ على ان الكومنترن سرعان ما عاد ، بعد عام واحد ، وأيد موقف الاقلية ، وادان موقف الاكثرية ، باعتباره امتدادا خطيرا لمصلحة الصهيونية (١٣٨) ٠

وفي آب (اغسطس) ١٩٢٨ احتفلت مجموعات كبيرة من المستوطنين اليهود قرب « حائط المبكى » ، بعيد الغفران ، وعلا صراخهم بحقهم في هذا الحائط ، الذي يعتبرونه الاثر الوحيد المتبقى من قصر نبيهم سليمان ، بعد ان هدمه الرومان ، في حين يقدسه المسلمون ، لانه الحائط الذي حط عنده البراق الذي صعد بالنبي محمد (ص) الى السماء ٠ وكشف توتر الموقف بين المستوطنين اليهود والمواطنين العرب عن اتجاه متعاطف مع الصهيونية في اوساط الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠ فوصف تقرير كتبه جوزيف بيرغر ، احد قادة الحزب « التعطيل الوحشي لهذا الاحتفال الديني » ، واعاد بيرغر الى الاذهان كون « فلسطين هي البلد الذي اكدت بريطانيا العظمى وعدها بايجاد وطن قومي لليهود فيها » ٠ ووصف تقرير القائد الشيوعي الفلسطيني تصدي البوليس البريطاني لليهود المحتفلين بـ « البوجروم الصغير ★ » ٠ ولستر ميوله الصهيونية ، اعترف القائد الشيوعي اليهودي بأن « هذا الحائط ليس لليهود فحسب ، بل لاتباع محمد ايضا » ٠ وان الصدامات بين العرب واليهود هي من صنع الاستعمار البريطاني ، لتكريس «الضمانات للبريطانيين ، كي يقوموا بدورهم كمحكمين٠٠٠ وكطرف ثالث يضحك على الطرفين الاخرين » (١٣٩) ٠

وفي المؤتمر الصهيوني الرابع عشر ، المنعقد في زيوريخ بسويسرا في صيف العام ١٩٢٩ ، جرى التأكيد ، مجددا ، على حق اليهود في الحائط ، مما زاد في سخط العرب اشتعالا في فلسطين ٠

وخلال عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ نشر القادة الشيوعيون الفلسطينيون مقالات عدة ، حذروا فيها من دسائس الاستعمار البريطاني الرامية الى احداث صدامات بين العرب واليهود في فلسطين ٠ كما نشر الحزب الشيوعي الفلسطيني كراسا ، عشية هبة آب (اغسطس) ١٩٢٩ العربية الفلسطينية ، دعا فيه الجماهير العربية واليهودية الى مقاومة الاحقاد العرقية ومحاولات توسيع نطاق الحرب الاهلية (١٤٠) ٠

وفي منتصف آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، وبمناسبة عيد الغفران العبري ، نظم

★ ـ البوجروم : هي المذابح التي نظمت ضد اليهود في روسيا القيصرية ، عقب اغتيال قيصر روسيا ، الكسندر الثاني ، في العام ١٨٨١ ٠

المستوطنون اليهود مظاهرة ضخمة طافت بحائط المبكى بالقدس ، مطلقة شعارات واناشيد معادية للعرب ، ورد العرب بمظاهرة مضادة اشد عنفا . ثم تلاحقت ردود فعل الطرفين ، الى ان تطورت الى مصادمات دامية ، غطت ارجاء فلسطين ، وامتدت لاكثر من اسبوعين قتل فيها ١١٦ عربيا و١٣٣ يهوديا ، كما جرح ٢٣٢ عربيا و٣٣٩ يهوديا .

ولم تر قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني في هذه الهبة اكثر من مجرد « مذابح لليهود » ، واعتبرت هذه القيادة سلطات الانتداب مسؤولة عن هذه المذابح ، وارجعت عدم مشاركة العرب في تنظيم مذابح لليهود الى ارتفاع وعي سكان المدن العرب السياسي (١٤١) . ونشرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بيانا في الصحف السوفياتية ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٩ ، دعت فيه الجماهير العربية واليهودية الى التصالح والتعايش ، والوقوف في وجه الاستعمار والصهيونية والخونة من العرب (١٤٢) .
وغداة هبة ١٩٢٩ وجه الكومنترن نظر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بضرورة مؤازرة الحركة الوطنية العربية بفلسطين ، وتوسيع نطاق ثورتها ، والعمل على استلام زمام قيادتها ، مع العمل على ضم المزيد من الاعضاء العرب الى اللجنة المركزية للحزب (١٤٣) .

وما ان اطلع الكومنترن على موقف قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني من الهبة حتى سارع باستنكاره ، وشجب بشدة تأثير الافكار الصهيونية الاستعمارية على قيادة الحزب (١٤٤) . ووصف « الرفيق شامي » مسؤول الحزب الشيوعي السوري ، الهبة ، في تقرير الى الكومنترن ، بأنها « حركة زراعية عظيمة ، تعكس الصراع الطبقي الحاد في القرية العربية » . وفسر اتجاه الهبة ضد اليهود دون غيرهم ، لانهم « اقلية تتمتع بامتيازات ، كالارمن في سوريا » . وتكهن بأن « هذه الحركة المعادية لليهود سوف تكتسب، تدريجيا، طابعها المعادي للاستعمار، والاقطاع، والحكومة» . واشار شامي الى انه قد «يحدث تطرف من بعض الاشخاص ، وقد تنظم بعض المذابح لليهود هنا وهناك ، ولكن هذا لا يؤثر في جوهر الطبيعة التقدمية للحركة العربية »٠
واعرب شامي عن رأيه في أن « قيادة هذه الحركة يمكن ان تنتقل ، او لعلها انتقلت بالفعل ، الى ايدي الثوريين الوطنيين» .(١٤٥)
وعزز ديمشتاين - احد المختصين في شؤون الشرق لدى الكومنترن - موقف شامي ، فوصف الهبة بأنها « نضال ثوري وطني » ، كما انتقد استخدام قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني لمصطلح « البوجروم » (١٤٦) .

وفي اعقاب تحليل شامي وديمشتاين ، نشرت مجلة « الثوري الجديد» الموسكوفية ان افيغدور وابوزيان وجوزف بيرغر ، وسائر المختصين بمكافحة الصهيونية في الكومنترن ، قد كشف امرهم كعملاء للاستعمار ، يدعون للصهيونية تحت ستار من الهجمات المفتعلة على الصهيونية(١٤٧) .

وبذا انتهى الكومنترن الى الاخذ بتحليل شامي وديمشتاين لهبة ١٩٢٩ ، اذ رأى فيها « ثورة من الفلاحين ضد الاستعمار البريطاني واعوانه من الصهيونيين » . ونسب انحراف الحزب الشيوعي الفلسطيني لدى تحليله الهبة الى « العناصر الصهيونية » التي تسللت الى قيادة الحزب (١٤٨) . وفي وقت لاحق فسرت وثائق الكومنترن هذا الانحراف باعتماد الحزب « موقفا خاطئا في المسألة القومية الفلسطينية ، اي في مسألة دور الاقلية القومية اليهودية في فلسطين ازاء الجماهير العربية . ونتيجة لذلك ، لم يقم الحزب بنشاط عملي بين الجماهير العربية ، وظل قطاعا انعزاليا يعمل بين العمال اليهود وحدهم . وهذه العزلة انعكست في موقف الحزب اثناء الثورة العربية عام ١٩٢٩ ، حين قطع الحزب عن حركة الجماهير » (١٤٩) .
ومع التطهير الذي اجري في صفوف الحزب غداة هبة ١٩٢٩ ، بدأ الحزب مرحلة جديدة في حياته ، واكبت المرحلة الجديدة في الحركة الوطنية الفلسطينية . ففي الوقت الذي دخلت فيه البرجوازية الوطنية شريكا لكبار الملاك الزراعيين في قيادة الحركة الوطنية ، نجد قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني وقد تخلصت - الى حد بعيد - من التأثيرات الصهيونية ، وفي

حين صححت قيادة الحركة الوطنية وضع قوى معسكر الاعداء ، فاعتبرت الاستعمار البريطاني « اس البلاء » ، والصهيونية ذيلا له ، بعد ان كانت تعادي اليهود كدين ، وتحتكم للاستعمار البريطاني في خصومتها مع اليهود ، نجد الحزب الشيوعي الفلسطيني وقد انهى تأرجحه الفكري ، واعتمد خطا ثوريا، منذ اوائل الثلاثينيات ، قوامه تشديد الكفاح ضد الاستعمار البريطاني وربيبته الصهيونية وعناصر الثورة المضادة عن الاقطاعيين العرب. وكان خط الحزب الجديد نتاجا لكفاح الطبقة العاملة في سبيل استقلالها الطبقي ، كما كانت الاضرابات الواسعة التي خاضتها الطبقة العاملة منذ الثلاثينيات ، محاولة اخرى لتأكيد وجود الطبقة العاملة المستقل ٠

وطوال مراحل الكفاح الوطني الفلسطيني، احتفظ الحزب الشيوعي بفهم سليم لقضية الحريات ، اذ لم يفصل بين الحريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنقابية. وفهم الحزب الحرية والديمقراطية مرادفة للاستقلال الوطني ٠

كشفت هبة ١٩٢٩ عن ازمة الحركة الوطنية الفلسطينية ، ازمة الفكر ، والبرنامج ، واساليب الكفاح ، والقيادة ٠ كما كشفت عن الاخطاء القاتلة التي انزلق اليها الحزب الشيوعي ٠ وعرف الحزب اكبر ازماته ، حين وجد نفسه معزولا عن الجماهير العربية « نتيجة انحراف صهيوني اعاق تعريب الحزب » ٠ على ان تأمين المقدمات الضرورية لتصحيح مسار الحزب تطلب عاما ونصف العام ، خاضت فيها القوى الثورية معارك ضارية ضد القوى الانتهازية في الحزب ، تلك التي عرقلت محاولات تعريب الحزب (١٥٠) ٠

وكانت اللجنة التنفيذية للكومنترن قد طالبت بأبعاد معرقلي التعريب ، خاصة بعد ان تكشفت لها عدم جدية الخطوات التي تظاهرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني باتخاذها من اجل تعريب الحزب (١٥١) ٠ وبدأ الحزب في اتخاذ اجراءات جذرية من اجل التعريب ، منذ المؤتمر السابع ، في اواخر العام ١٩٣٠ ، بعد نداءين تلقاهما الحزب من اللجنة التنفيذية للكومنترن في هذا الصدد ٠ واصدر المؤتمر العديد من القرارات ، اعتبرت تصحيحا للاخطاء الفكرية والسياسية والتنظيمية السابقة ، واعتمدت اساسا لاعادة تنظيم الحزب ، وتعريبه (١٥٢) ٠

ونشطت اللجنة المركزية في تطهير الحزب من العناصر المشبوهة بميولها الصهيونية ، وفتحت ابواب الحزب للعرب ، ومنذ العام ١٩٣٣ تولى منصب الامين العام للحزب عربي فلسطيني ، كان تلقى الافكار الماركسية اللينينية في « جامعة كادحي الشرق » بموسكو، وهو رضوان الحلو (١٥٣) ٠

وصعد الحزب نشاطه في التجمعات الجماهيرية العربية (ورش ، نواد ، واسواق) ٠ وكان على كل مرشح لعضوية الحزب ، يهوديا كان ام عربيا، ان يقر - قبل كل شيء - بان «انتفاضة ١٩٢٩ كانت تعبيرا عن ثورية الجماهير العربية » (١٥٤) ٠

وانسجاما مع اجراءات التعريب هذه ، اوقف الحزب اصدار الكراسات الحزبية بلغتي اليديش ★ والعبرية ، واكتفى باصدارها باللغة العربية ٠ كما توقفت ، منذ العام ١٩٣١ الجريدة السرية التي كان يصدرها الحزب باليديش ، لتحل محلها مجلة سرية شهرية عربية ، تحمل نفس اسم الجريدة المتوقفة : « الى الامام » ٠ في حين استمرت الجريدة العبرية ، هاأور ★★ ، في الصدور ، منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٠ ٠

وفي انتفاضة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ شارك الحزب بدور غير هين ، كفصيل في الحركة الوطنية الفلسطينية ٠ واعتبر الحزب هذه الانتفاضة « رد فعل طبيعي ويائس للجماهير المستغلة من مضطهديها الصهيونيين، الذين يرغبون في طردها من اراضيها» (١٥٥) ٠ والقي القبض ، في هذه الانتفاضة ، على عدد من الشيوعيين ، في حين نشطت صحافة الحزب

★ - مزيج من اللغتين العبرية والبولندية ، ويتحدث بها قطاع كبير من يهود شرقي اوروبا ٠

★★ وتعني بالعربية : النور ٠

السرية في الدعـــوة الى جمـع الاموال لاسر ضحايا الانتفاضة ، كما طالبت باطلاق سراح المعتقلين على ذمة تلك الانتفاضة • وخلال هذه الانتفاضة وبعدها ، اتجه الحزب الى التحالف مع الجناح الراديكالي من قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية ، معتبرا التناقض الوطني هـو التناقض الرئيسي ، في حين وضع التناقـض الطبقي في مرتبة التناقض الثانوي •

وفي آب (اغسطس) ١٩٣٥ ، عقد الكومنترن مؤتمره السابع ، وفيه اعلن مندوبو الحـزب الشيوعي الفلسطيني ، ان الحزب جاد فـي مسألة التعريب ، بالرغم من تمسكه بالمخلصين من اعضائه اليهود ، وجمعه لهم في قسم خاص بهم داخل الحزب (١٥٦) •

وفي الوقت الذي اخذ فيه نفوذ الحزب يتسع وسط الجماهير العربية الفلسطينية ، كانـت اسهمه ، تزداد هبوطا في اوساط المستوطنين اليهود ، بنفس القدر الذي اخذت مقاومتـه للصهيونية تشتد وتتزايد • ففي انتخابـات « الاسيفـات هانيفخاريـم ★ » ، التـي جرت في العام ١٩٣٠ ، خسر الحزب نصف عدد الاصوات التي سبق وحصل عليها في العـام ١٩٢٥ ، مع ان عدد الناخبين اليهود كان ارتفع من ٦٩٠ر٣٦ الى ٤٣٦ر٥٠ ناخبا في السنتيـن المذكورتين (١٥٧) •

ولا حاجة بنا الى الاشارة ، من جديد ، الى ان « الحاميات العربية » هي مبادرة شيوعية فلسطينية بحتة •

ومع تفاقم خطر الفاشية في العالم ، عقب وصول هتلر الى الحكم في المانيا ، في مطلـع العام ١٩٣٣ ، اعتمد المؤتمر السابع للكومنترن (صيف ١٩٣٥) ، استراتيجية « الجبهـات الشعبية » ، التي تقضي بضرورة اقامـة الشيوعيين تحالفا معالاشتراكيين الديمقراطيين ومع كل العناصر المعادية للفاشية • وبالرغم من ذلك ، فان الحزب الشيوعي الفلسطيني لم يقم تحالفا مع الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية اليهودية في فلسطين ، مبررا ذلك الموقف بكون « العامل اليهودي في فلسطين ليس من طراز العمال المضللين بالاشتراكية الديمقراطية» (١٥٨) اما صيغة « الجبهات الوطنية » التي اقـر مؤتمـــر الكومنترن السابــع تنفيذها فـي المستعمرات ، بين الشيوعيين وكافة الفئـات المعادية للامبريالية ، فلقيت استجابة لـدى الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي بادر الى عرض التحالف معه على كافة القوى الوطنية العربية الفلسطينية •

وغداة انفجار حركة القسام في اواسط تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ، شدد الحزب علـى خط دعم الحركة الوطنية ، كما طالب بحـل « الهاغناه » ، المنظمة العسكرية الصهيونيـة المعروفة ، واصدر تعليماته لاعضائه العـرب بضرورة المشاركة «الفعالة ، لتدمير الصهيونية والاستعمار » ، في حين طالب اليهود مـن اعضائه « باضعـــاف المجتمع اليهودي مـن الداخل » (١٥٩) •

على ان قيادة الحركة الوطنية ظلت علـى عدائها للحزب الشيوعي ، وردت على محاولاته هذه بالرفض والتجاهل •

وعندما انفجرت الثورة الكبرى ، في نيسـان (ابريل) ١٩٣٦ ، كان الحزب الشيوعي طرفا فيها ، الى جانب بقية فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية •وشارك فكرا وقتالا ضد الاستعمار والصهيونية • واصـدر في اول ايار (مايو) بيانا ايــد فيه مطالب الحركة الوطنيـة الفلسطينية ، في منح فلسطين الاستقلال والحكم الديمقراطي ، ووقف الهجرة اليهودية ، ومنـع انتقال الاراضي الى المستوطنين اليهود •ووصل الامر بالحزب الى حد دعوة اعضائه اليهـود الى الانخراط في الحركة الوطنيـة العربية • وباختصار كان موقف الحزب هو « التأييد التام للثوار » ، ورأى الشيوعيون في الثورة « حربا من اجل التحرر » (١٦٠) • امـا الكومنترن ، فدعا ـ من جانبه ـ الى تأييد هـذه الثورة ، واتهم المستوطنين اليهود بتخريب الصناعات العربية ، كما ادان المهاجرين اليهود بالهتلرية، وطالب بوقف الهجرة اليهودية الى فلسطين ،

★ مؤسسة علىغرار البرلمانات، وترجمتها العربية : « مجلس المندوبـين » • وتعتبر نـواة الكنيست الاسرائيلـي الحالي •

وبضرورة احتفـــاظ فلسطيـــن بطابعهـــا العربي (١٦١) ٠

ومع ميل القسم الاكبر من قيادة الحركـــة الوطنية الفلسطينية الى المحور ، رأي الحزب الشيوعي الفلسطيني - بحق - ان « السياسة البريطانية هي التي ترميهم بين اذرع هتلـر وموسوليني» ، وان الحركة الوطنية الفلسطينية تنقسم الى فئتين : الفئـة الاكبـر للمقاتلين العرب من اجل التحرر الوطني ، والفئة الاصغر المتحالفة مع النازيين (١٦٢) ٠

وفي اواخر العام ١٩٣٩ ، وبعد ان خفضت الثورة راياتهـــا ، عزا الحزب الشيوعـــي الفلسطيني فشل هذه الثورة الى : ١ - غياب القيادة الثورية ، ٢ - فردية قادة الثـــورة وانتهازيتهم ، ٣ - افتقار فوات الثورة الـــى القيادة المركزية ، ٤ - ضعف الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ٥ - وعدم ملاءمة الوضع العالمي٠

وبانتهاء الثـــورة دخلت الحركة الوطنيـــة الفلسطينيـــة - ومعها الحزب الشيوعـــي الفلسطيني - مرحلة جديدة من حياتها ٠ اذ عززت انتكاسة الثورة قوى الثورة المضادة في فلسطين ، ووفرت المناخ الملائم لانتشار الافكار الانهزامية ، والداعيـــة لمهادنة الاستعمار ٠ وتعمق هذا الاتجاه الاستسلامي بعد ان نشبت الحـــرب العالمية الثانية وانقطـع الاستيراد ، واضطر الاستعمار البريطاني الـــى السمـــاح للصناعة المحلية بالنمو ، بما يتيح مد قواته المرابطة في فلسطين باحتياجاتها ، مما دفـــع بالدماء في عروق البرجوازية العربية الفلسطينية من جهة ، كما استحدث روابط لم تكن من قبل بين البرجوازيـــة المحلية الفلسطينية وبيـــن الاستعمار البريطاني من جهة اخرى ٠ امـــا داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني فقد اعـــرب قسم كبير من الاعضاء اليهود في الحزب عـــن ضجرهم من مشاركة الحزب في ثورة ١٩٣٦ الى جانب بقية فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية واستفز موقـــف الاعضاء اليهود هذا الاعضـــاء العرب في الحزب ، وظل الموقف بين اخذ ورد ، مما شل الحزب عن العمل ٠ حتى كانت المفاجأة حين كـــون الشيوعيون العرب الفلسطينيـــون تنظيمهم المستقل : « عصبة التحرر الوطني »، في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ٠ وغني عن القول بان الخلافات التي افضت الى هذا الانشقاق كانت ذات طابع قومي متكامل الملامح ٠

وفي الوقت الذي جاء فيه قادة « اتحـــاد جمعيات ونقابات العمال العرب » من « رابطة المثقفين العرب » اليسارية ، فان هذا الاتحاد غـــدا نقطة التفاف الشيوعيين العرب بعـــد تفكـك الحـــزب ، اواخر الثلاثينات واوائـــل الاربعينات (١٦٣) ٠

والحت عصبة التحرر الوطني ، منذ قيامهـــا وحتى وقوع نكبة ١٩٤٨ ، على الوحدة الوطنية، وتصعيـــد الكفاح ضد الاستعمار البريطانـــي واجيرته الصهيونية ، ومن اجل انتزاع الاستقلال التـــام ٠

وحين تقرر ارسال لجنة التحقيق الانغلو - امريكية الى فلسطين ،لبحث امكانية استيعاب البلاد لمزيد مـــن المهاجرين اليهـــود ، اجتمع المكتب السياسي للعصبة ، واصدر ، فـــي الحادي عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ بيانا ، اعلن فيه ان في « اثارة موضوع الهجرة مؤامرة لابعاد الشعب العربـــي عن نضالـــه الحقيقي في سبيـــل الغاء الانتداب واستقلال فلسطين » ٠ ورفض البيان تحمل الجامعـــة العربية مسؤوليات القضية الفلسطينية ،واصر على ان « تكون قيادة النضال الوطني فـــي فلسطين بأيدي الشعب العربي المجاهد ، وان تكون الجامعة العربية مؤيدا ومؤازرا » ٠ ورأى بيان العصبة ان لجنة التحقيق مجرد « هيئـــة استعمارية ، تريد ان تفرض سياسة (جديدة)، بعد ان نقضت جميع السياسات » (١٦٤) ٠

واتى عدم ثقة العصبة بالجامعة العربية من وعي العصبة بمواطن الضعف في هذه الجامعة، وبالتأثيرات الرجعية على بعض قادتها ، فهذه الجامعة كانت « تقوم على دول ما زالـــت تناضل ضد الاستعمار البريطاني ، وما تزال عناصرها المهادنة لهذا الاستعمار قوية نافذة، تؤثر على سياسة الحكومات الوطنية » ٠ وهذه الجامعة - في رأي العصبة - « لينة ، مهادنة، مترددة ، قلقة ٠٠٠ وان نضال الشعوب العربية وحده هـــو الكفيل بتحقيق اهداف الشعـــوب العربية ، وهو الذي سيجعل من الجامعة العربية

منظمـــة للنضال ضد الاستعمار واعوانـــه الرجعيين » (١٦٥) ٠

وعشيـة وصـول لجنـة التحقيـق الانغلو - امريكية الى فلسطين ، اصدر مكتب الرئاسة بعصبة التحرر الوطني ، بيانا ، في اوائـــل آذار (مارس) ١٩٤٦ ، طالب فيه بمقاطعة هذه اللجنة ، بعد ان تنبأ بأنها « سوف تتقـدم بحلول استعمارية مجحفة » ٠ وناشد البيـان اللجنة العربية العليا بأنهاء ترددها وحسمـه لمصلحة مقاطعةهذه اللجنة الاستعمارية(١٦٦) ٠ وفي وقت لاحق ، نددت العصبة بتوصيـات اللجنة الانغلو - امريكية ، التي نصت علـى فتح ابواب فلسطين لمائة الف مهاجر يهـودي جديد ٠

وعند وصول لجنة التحقيق التي اوفدتهـا الامم المتحدة الى فلسطين ، في حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، عدلت العصبة عن مقابلتها ، واكتفت بتقديم مذكرة لها ، ضمنتها موقفها من كافة جوانب القضية الفلسطينيـة ٠ وجاء موقفهـا المفاجيء بمقاطعة اللجنة انسجاما مع بقيـة فصائل الحركة الوطنية ، التي احلت لنفسها المثول بين يدي اللجنة الاستعمارية الانغلو - امريكية ، في حين شاء لها مزاجها مقاطعة هذه اللجنة الدولية !

وعندما اوصت اغلبية اللجنة الدولية بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، استنكرت عصبة التحرر هذه التوصية ٠ وظلت العصبة عـلى معارضتها لتقسيم فلسطين ، حتى بعد صدور قرار الامم المتحدة بذلك ، في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، واستمرت معارضتها حتى شباط (فبراير) ١٩٤٨ ، حين اتخذ مؤتمـر العصبة قراره بالموافقة علـى قرار التقسيـم ٠ وتعرضت العصبة ، بسبب هذه الموافقة ، الى حملة تحريضية ضخمة ، شنتها ضدها الهيئة العربية العليا ، وصلت حد احراق بعض مكاتب العصبة والاعتـداء على بعـض اعضائها ٠ وساهمت سلطات الانتداب في الحملة ، فسحبت رخصة صحيفة « الاتحاد » ، في اول شبـاط (فبراير) ١٩٤٨ ، بدعوى « الاخلال بشروط المراقبة الصحفية » (١٦٧) ٠

على ان المؤامرة فرضت نفسها ، فقامت اسرائيل على مساحة من الارض اكبر من تلك التي منحها اياها قرار التقسيمالجائر ،واقتسم النظامان الاردني والمصري ما تبقى من ارض فلسطين ٠٠٠ وكانت مرحلة جديدة !

الحزب والطبقة العاملة

تميزت مواقف الشيوعيين الفلسطينيين - عن غيرهم من الاحزاب - حيال الطبقة العاملـة بالصدق والجدية ٠ فمنـذ نشأته ، والحـزب الشيوعي مثابر على احتضانه لمطالب الطبقة العاملة ، والتصدي لتحقيق اهدافها ٠ واذا كانت بقية الاحزاب قد اشارت الى الحركـة العمالية في برامجها مجرد اشارة ، او احتلت مشاكل هذه الطبقة سطرا او سطرين من هذا البرنامج او ذاك ، فان الحزب الشيوعي اولى اهتماما خاصا لمشاكل الطبقة العاملة ، كـان يتسع ويتعمق مـع تقدم الحزب ، فكريـا ونضاليا ٠

وفي العام ١٩٣٠ حدد المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني مهام الحزب في الريف ، ورأى « ان عددا كبيرا من انصاف البروليتاريين (العمـال الموسميين) والعمـال الزراعيين يشكلون ، في البلاد العربية ، الرابطة الحيوية بين الفلاحين والطبقة العاملة الفتية في المدن» ٠ ومن هنا خرج المؤتمر مشددا على ضرورة توجيه الحزب « كل جهوده نحو نضال نشيط من اجل انصاف البروليتاريينوالعمال الزراعيين» (١٦٨)٠

وفي الوثيقة نفسها ، يرى الحزب « ان اهم واجب ، هـو انشاء نقابـات عمال البناء ، المستخدمين في المشاريع العامة ، ونقابـات العمال الزراعيين ٠ كذلك يجب طرح مطالـب خاصة بتحسين احوال العمال المزارعين ، كرفع الاجور وغير ذلك ، على ان ترافق هذه المطالب، في الظروف النوعية التي تسود فلسطين ، حملة قوية ومتواصلة ضد طرد العمال العرب مـن قبل الصهيونيين ، وانشاء جبهة متحدة للعمال العرب واليهود من اجل النضال ضد الاغتصاب الصهيوني والاستثمار ، الذي يمارسه المعمرون والزراع والمشاريع الزراعية » ٠ وحددت الوثيقة مطالـب العمال الزراعيين بزيـادة الاجور ، ومساواة دخل العمال العرب واليهود ، والغاء

اشكال الاستثمار الاقطاعية ، وحماية عمل النساء والاولاد ، الخ » (١٦٩) .

وفي العام ١٩٣١ ، اجتمعت قيادتا الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني . وانتهى اجتماعهما هـذا الى اصدار جملة مقررات تضمنها كراس ، حمل عنوان : « واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية الشاملة» . ورأى الحزبان انه في بعض الاقطار العربية ، حيث تم تدمير التنظيمات النقابية للطبقة العاملة ، فان هذه التنظيمات يعاد بناؤها ، بالرغم من سقوط اغلبها في ايدي الاصلاحيين . على ان الاضرابات العمالية ، والمظاهرات ، واشتراك العمال النشط في الكفاح ضد الامبريالية ، وانسحاب اعداد من الطبقة العاملة من صفوف الاصلاحيين ، كلها تشير الى ان الطبقة العاملة العربية الفتية قد بدأت النضال في سبيل احتلال دورها التاريخي في الثورة المناهضة للامبريالية والاقطاعية ، في الكفاح من اجل الوحدة القومية . واشار الحزبان ، في وثيقتهما ، الى « ان الازمة العالمية الصناعية والزراعية ، بطريق او بآخر، قد غطت جميع البلاد العربية ، ضاربة بقوة خاصة العمال والجماهير الفلاحية . وانخفاض الاجور والبطالة يزيدان سوءا على سوء مستوى معيشة البروليتاريا ، الامر الذي يدفعها في طريق الكفاح الطبقي الثوري » . ولم يغب عن وثيقة الحزبين كون « الفلاحين الفقراء والمتوسطين الذين اصابهم الخراب ، والعمال الذين هم في عوز دائم وتحت خطر التسريح ، وابناء الطبقة الفقيرة في المدن ، وجمهور البرجوازية الصغيرة الذي هو اليوم اكبر عددا مما كان في الماضي ، يشعرون بنير الامبريالية، ويشرعون في النهوض للكفاح باسم التحرر القومي . وتجهد الامبريالية كي تلقي على كاهلهم كل عواقب الازمة وكي تسوي اوضاعها على حسابهم » . ولاحظت الوثيقة الشيوعية « ان الموجة الجديدة لغضب الفلاحين ضد مزاعم الملاكين والمرابين وعملاء الامبريالية ، التي لا تحتمل ، تنزع الى الاتحاد مع العمال في كفاحهم من اجل خبزهم اليومي ، وضد النير الامبريالي » . وحدد الحزبان المهام الملحة والمباشرة للاحزاب الشيوعية العربية في « ثورة فلاحية زراعية ، وتنظيم عملها بما يتفق مع اهداف مناهضة الامبريالية ومناهضة الاقطاعية . فالاطاحة بالنير الامبريالي ، ومصادرة كل الامتيازات والمشاريع والمنشآت والمزارع وسائر الممتلكات العائدة للامبرياليين ، والاستقلال السياسي القومي الكامل ... ومصادرة اراضي جميع الملاكين الاقطاعيين والغاصبين المستعمرين الذين يعيشون على دخل لا يستحقونه، ويوم العمل بثماني ساعات، والضمان الاجتماعي للعمال على حساب الرأسماليين ، وحرية التنظيم للكادحين ،وحكومة عمال وفلاحين ، ونضال من اجل تحرير الشعوب العربية ، ووحدة هذه الشعوب الطوعية الحرة)» . وتضع وثيقة الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني مطالب العمال والفلاحين في المقدمة ، وتحددها في : « تخفيض يوم العمل الى ثماني ساعات ، رفع الاجور ، التأمين على البطالة من حساب الرأسماليين، حرية تنظيمات العمال والفلاحين ، الغاء ديون الفلاحين الفقراء والمتوسطين للمرابين وملاكي الارض والمصارف، ايقاف الدفع على الاراضي المستأجرة ، جلاء قوات الامبرياليين كافة ، واستفتاء شعبي حر على مسألة تقرير المصير السياسي (في مصر على النظام الملكي ، وعلى المعاهدة الانكليزية - المصرية ، وفي سوريا وفلسطين على انتداب عصبة الامم) » (١٧٠) .

وكانت مشاكل الطبقة العاملة ومطالبها مدرجة باستمرار على جدول اعمال الحزب الشيوعي الفلسطيني . وتعبيرا عن التحالف الوثيق بين العمال والفلاحين الفقراء ، كان الحزب يتبنى مطالب الفلاحين الفقراء ، ويمزج بين مطالب هاتين الطبقتين وبين شعارات الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية .

وهذا كاتب شيوعي فلسطيني يقدم لكتابه عن التنظيم النقابي - في اواسط الثلاثينات - بوصف لحال العامل العربي الفلسطيني ،فيقول انه يرزح « تحت ظلم واستبداد مضاعفين ، اولا لانه عامل ... وثانيا لانه عامل عربي من امةكبيرة مستعبدة فاقدة استقلالها القومي» . ومن هذا الوضع يرى الكاتب ان ثمة واجب على الطبقة العاملة العربية قوامه « تحرير العمال من الظلم والاستبداد المضاعف ، اي

تحريرهم من الاستبداد الواقع عليهم كعمال مأجورين ومستغلين ، وتحريرهم من استعبادهم القومي كأبناء امة مظلومة مستعمرة » . ويربط الكاتب نفسه بين التحرر القومي والتحرر الطبقي ، فيؤكد انه « لا يمكن تحرير الطبقة العاملة في الاقطار العربية تحريرا طبقيا دون ان تتحرر تحريرا قوميا . وكذلك لا يمكن تحرير امة مظلومة ، دون ان تحرر طبقة العمال والفلاحين فيهـا من الرأسماليين واصحاب الاراضي والاقطاعيين والمرابين » . ويرى الكاتب في مقدمته ان تأسيس « نقابات عمال مهنية طبقية ، في الاقطار العربية بوجه عام ، وفي فلسطين بوجه خاص ، هو الواجب الذي يقع علينا الآن ، لان ذلك هو الخطوة الاولى في سبيل الغاية المنشودة الصعبة ، وهي ان تكون طبقة العمال العرب في طليعة الحركة التحريرية القومية ، حركة تحرير العمال والفلاحين في البلاد العربية » (١٧١) .

ولم يكتف الحزب الشيوعي بمجرد تبني مطالب الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ، بل كان له رأيه الصريح في الدور الذي تلعبه الهستدروت ، اذ « ان الصهاينة ، من اجل تعزيز قضيتهم الاستعمارية وارغام المهاجرين اليهود على ان يلعبوا دور الغاصبين ،لا يمكنهم ان يقصروا عملهم على التحريض والخداع ، بل لا بد لهم ان يقدموا للعمال اليهود بعض المكاسب الاقتصادية . ولهذا الغرض ، فأن البرجوازية الصهيونية ، جنبا الى جنب مع حزب بوعال زيون ، قد نظمت الهستدروت ، تنظيم العمال اليهود ، الذي اوكلت اليه مهمة تأمين وضع ممتاز للعمال اليهود في سوق العمل ، مقابل ادخالهم في جبهة (على النطاق القومي) » (١٧٢) .

واستمرت « عصبة التحرر الوطني» في القيام بدورهـا حيال الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ، مخلصة لكونها المعبر عن هذه الطبقة ، تنفذ المهام الكفاحية الملقاة على عاتقها ، باعتبارهـا فصيل هذه الطبقة الصدامي . فمنذ صدور عددها الاول (١٤ / ٥ / ١٩٤٤) و « الاتحاد » ـ صحيفة العصبة ـ تناضل بدأب من اجل الحريات السياسية والنقابية ، معتبرة نفسها بحق « لسان حال العمال العرب في فلسطين » على ما جاء في الجملة الثابتة المسكوكة تحت اسم الصحيفة في صدر صفحتها الاولى . وعنونت « الاتحاد» احدى افتتاحياتها المبكرة بـ « نريد دمقراطية في الادارة » (١٧٣) ، واعقبتها بأخرى حملت عنوان « الدمقراطية في التطبيق » ، طالبت فيها بحرية العمل السياسي والنقابي ،وفضحت الطابع الرجعي للانتداب البريطاني في فلسطين (١٧٤) . ولم يمنعها من صنع كل ذلك كون بريطانيا تشارك بقية دول الحلفاء حربا تقدمية ضد دول المحور الفاشية الشديدة الرجعية . وبالاضافة الى نضالها الوطني الديمقراطي ، وفي التحام معه ، احتضنت « الاتحاد » مطالب العمال والفلاحين العرب الفلسطينيين ، وحظيت اخبار هاتين الطبقتين ومشاكلهمـا بنصيب الاسد من صفحات « الاتحاد » . وجاء تبني الصحيفة الشيوعية لمشاكل العمال العرب العاطلين ، ومطالبتهـا برفع اجور العاملين ، وحثها العمال على استخدام سلاح الاضراب ضد اعدائهم الطبقيين (١٧٥) ، مصداقا لزعمها التعبير عن العمال العرب في فلسطين . ويمكن ادراك الاهمية البالغة لهذه المواقف ، اذا ما علمنا ان الاتحاد اتخذتها بالرغم من قوانين الطوارىء التي كبل بها الانتداب فلسطين منذ ثورة ١٩٣٦ وطوال ايام الحرب العالمية الثانية ، وهي القوانين التي تصادر الحريات وتحرم الاضراب، ويتعرض الداعون الى الاضراب الى المساءلة والاعتقال .

اما في اوساط العمال اليهود ، فقد واصل « الحزب الشيوعي الفلسطيني » ـ الذي اصبح وقفا على اعضائه اليهود دون العرب منذ انشقاق ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ـ واصل دوره التحريضي ضد اصحاب العمل والحركة الصهيونية والانتداب .

وحتى بعد ان اعادت الهستدروت العمال الشيوعيين اليهود الى عضويتها في العام ١٩٤٣ ، حض الياهو جوجالسكي ، سكرتير الحزب الشيوعي الفلسطيني عند ذاك ، العمال الشيوعيين اليهود على ضرورة « الاستيلاء على السلطة في الهستدروت ، لانها منظمة الطبقة » . واوضح في اجتماع للعمال في

« قاعة الشعب » بتل ابيب ، ضرورة التمسك بعضوية الهستدروت ، على الرغم من تحمل العضو في الهستدروت رسوم عضوية فيها اكثر مما كان يدفعه العضو لعيادة مرضى خاصة · ويزيد جوجانسكي الامر وضوحا فيخاطب العامل الشيوعي « الا ان هذا هو واجبك الطبقي ، كي تصبح منظما في منظمة طبقية ، حتى وان كانت لا تزال تحت قيادة ليست لنا » (١٧٢) ·

وعندما اغتيل سامي طه ، لم تمنع خصومة الشيوعيين له من ادانة اغتياله ، والتنديد بمدبري اغتياله ، بكل قوة· فأشارت «الاتحاد» - صحيفة عصبة التحرر الوطني - الى ان الاعتداء على حياة سامي طه قد قوبل « بالاستنكار من جميع الاوساط ، بغض النظر عن اختلاف وجهات نظرها السياسية ، فهذا الحادث ، عدا عن انه غريب عن تقاليد الحركة النقابية واهدافها ، فانه ، في الوقت نفسه ، بادرة سيئة جدا ، وخيمة العاقبة على الحركة الوطنية التي ما زالت تئن من آثار الارهاب الذي علق بها في الماضي » · واستنكرت الصحيفة الحادث ، والحت على الحكومة لكشف النقاب « عن بواعث هذه الجريمة البشعة » · واهابت « بالقوى الوطنية والعمالية في البلاد الوقوف في وجه هذا الاتحاد الارهابي ، الذي بدأ يذر قرنه ، وهو ان استفحل داؤه اصاب البلاد بكارثة لا تقل تدميرا وتخريبا عن غيرها من الكوارث التي بلا المستعمر بها بلادنا » · وقدمت الصحيفة تعازيها لجمعية العمال العربية ولاسرة الفقيد (١٧٣) · ووصفت الصحيفة - في كلمتها - الارهاب بانه « وسيلة خبيثة ، يدسها المستعمر على الحركات الوطنية ، فتتبناه العناصر المنحلة التي تشعر بتدهور مركزها وحرج موقفها ، وهي عناصر غير مخلصة وغير شريفة ، وهي لا تفهم مطلقا معنى النضال ضد الاستعمار ، ولا تثق بقوى الشعب الصاعدة » · ونوهت الصحيفة بانها، بالرغم من مآخذها على المرحوم سامي طه « في الناحيتين النقابية والسياسية ، ولكنها وجميع القوى التي تؤيدها لم تكن لتفكر ، في يوم من الايام ، ان الاعتداء الشخصي والارهاب الفردي الدنيء هو من الوسائل لمقارعة الخصوم السياسيين او اخصام المبادىء ، بل كانت وما تزال ، تعتقد ان الوسيلة الوطنية الصحيحة هي في فسح المجال للجميع ، ليعبر عن رأيه ويدافع عن فكرته ، وللشعب الحق ، كل الحق، ان يحكم بصحة رأي هذا وفساد رأي ذاك ، وان يتبع هذا ويعرض عن ذاك » · وانتهت الصحيفة الى « ان الطريق الرئيسي لمقاومة هذا الاتجاه الارهابي وعزل اصحابه والمحرضين عليه هو تشديد النضال ضد الاستعمار ، وتوجيه الشعب توجيها صحيحا ، مما يساعد على حشد جميع القوى الشعبية ، وجعل الحركة الوطنية حركة شعبية جبارة تحقق اهداف البلاد في الجلاء والاستقلال والحرية » (١٧٤) · وعقدت عصبة التحرر الوطني مؤتمرا شعبيا في القدس للتنديد باغتيال سامي طه وادانة الارهاب الفردي ، كما اصدرت كراسا لهذا الغرض · ثم توالت الاحداث ، على النحو المعروف ، والذي انتهى بالنكبة ، وبها طويت صفحات سفر كامل من حياة الشعب الفلسطيني ، لتبدأ صفحات سفر آخر مليء بالدم والعرق والدموع ·

الهوامش

١ - النقابة العامة لعمال السكك الحديدية والبرق والبريد في فلسطين : المؤتمر السابع ، تل ابيب ، ٢٩ ايار ١٩٣١ ، بيان مختصر عن اعمال المؤتمر ، حيفا ، مطبعة الجميل ، ١٩٣١ ، ص ٤٠ ·

٢ - مجلة « الاممية الحمراء » ، مكتب الاممية الحمراء ، موسكو ، الطبعة الالمانية ، العدد العاشر ، ايلول (سبتمبر) ١٩٣٢ ، ص ٦٧٠ · اوردها عبدالله حنا ، الحركة العمالية في سورية ولبنان ، دمشق ، دار دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٦٣ ·

٣ - جمعية العمال العربية الفلسطينية بحيفا مبادؤنا الاشتراكية ، الطبعة الثانية ، اصدار الامانة العامة للاتحاد العام لعمال فلسطين ، دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢ ·

٤ - المقطم (القاهرة) ، ١٩٤٧/٣/٢٩ ·

٥ - المصدر نفسه ·

٦ - المصدر نفسه ·

٧ _ المصدر نفسه ٠

٨ _ جمعية العمال العربية الفلسطينية : **تقرير المؤتمر المنعقد في قاعة الجمعية بحيفا عام ١٩٤٦** ، الطبعة الثانية ، اصدار الامانة العامة للاتحاد العام لعمال فلسطين ، دمشق ، ١٩٧٥، ص ٦٣ + **مذكرات حسني صالح الخفش، حول تاريخ الحركة العمالية العربية الفلسطينية** ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ايار (مايو) ١٩٧٣ ، ص ٣٤ ٠

٩ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٤٢_٤٥ ٠

١٠ _ المصدر نفسه ، ص ١٩٢ ٠

١١ _ المصدر نفسه ، ص ١٩٢ _ ١٩٣ ٠

١٢ _ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٩_٢٠ ٠

١٣ _ **مؤتمر العمال العرب الاول** ، حيفا ، ١١ كانون الثاني ١٩٣٠ ، حيفا ، المطبعة الاهلية التجارية ، ١٩٣٢ ، ص ٣_٤ ٠

١٤ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٥٩_١٦٠ ٠

١٥ _ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٣_١٤ ٠

١٦ _ المصدر نفسه ، ص ١٥ ٠

١٧ _ المصدر نفسه ، ص ١٥_١٧ ٠

١٨ _ المصدر نفسه ، ص ٢٣_٢٤ ٠

١٩ _ مكتب العلاقات باتحاد العمال العرب : **تاريخ العمال العرب في فلسطين** ، القاهرة ، د٠ت٠ ، ص ٣٣ ٠

٢٠ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٦٨_٦٩ ٠

٢١ _ المصدر نفسه ٠٠٠ ص ٦٩_٧٠ ٠

٢٢ _ نصري الحلو : **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ، ص ١٧٣ ٠

٢٣ _ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٥ ٠

٢٤ _ المصدر نفسه ، ص ٢١ ٠

٢٥ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٧٣ ٠

٢٦ _ المصدر نفسه ، ص ٥٨_٥٩ ٠

٢٧ _ المصدر نفسه ، ص ٧٤ ٠

٢٨ _ المصدر نفسه ، ص ٧٤ ٠

٢٩ _ الشقيري ، جميل (جامع) : **مجموعة الشهادات والمذكرات المتقدمة الى لجنة التحقيق الانكلو _ امريكية المشتركة حول قضية فلسطين** ، يافا ، مطبعة النجاح ، حزيران (يونيو) ١٩٤٧ (انظر : شهادة سامي طه ص ١٢٧ _ ١٢٨) ٠

٣٠ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٧١ ٠

٣١ _ المصدر نفسه ، ص ٧٢ ٠

٣٢ _ المصدر نفسه ، ص ١٥٨ _ ١٥٩ ٠

٣٣ _ المصدر نفسه ، ص ٦٥ ٠

٣٤ _ الشقيري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٧ _١٢٨ ٠

٣٥ _ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

٣٦ _ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

٣٧ _ المصدر نفسه ، ص ١٢٩ ٠

٣٨ _ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

٣٩ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٥٥_١٥٦٠

٤٠ _ المصدر نفسه ، ص ٦٦ ٠

٤١ _ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٧ ٠

٤٢ _ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٤٨ _ ١٤٩ ٠

٤٣ _ **صوت الامة** (القاهرة) ، العدد ٣١٣ ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٧/٢٧ ٠

٤٤ _ **مذكرات حسني صالح الخفش** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤١ ٠

٤٥ _ المصدر نفسه ، ص ٣٩ ٠

٤٦ _ حديث حسني صالح الخفش ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ ، ص ٧٤ ٠

٤٧ ـ الغوري ، اميل : **المؤامرة الكبرى ، اغتيال فلسطين ومحق العرب** ، القاهرة ، ١٩٥٥، ص ١٣٤ .

٤٨ ـ **مبادؤنا الاشتراكية** ... ص ٤١-٤٢ .

٤٩ ـ كوهين ، أهرون: **اسرائيل والعالم العربي**، ترجم عن العبرية بمعرفة المخابرات العامة ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ٦٤٠ .

٥٠ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ... ص ٤٤-٤٥ . يذكر الخفش ان انضمام سامي طه الى الهيئة العربية العليا تم في العام ١٩٤٧ ، والصحيح ان هذا الانضمام تم في آذار (مارس) ١٩٤٦ ، وكان اسمها آنذاك « اللجنة العربيةالعليا» ، وبهذه الصفة تقدم سامي طه للادلاء بشهادته امام اللجنة الانغلو ـ امريكية في اذار (مارس) ١٩٤٦ .

٥١ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ... ص ٤٥-٤٦ .

٥٢ ـ **صوت الامة** ، ١٩٤٧/٦/١٥ .

٥٣ ـ **صوت الامة** ، ١٩٤٧/٩/١٦ .

٥٤ ـ **الاهرام** ١٩٢٣/١١/١٣ . وقد قرر المؤتمر استبقاء فلسطين لاهلها العرب ، ورفض وعد بلفور ، والمطالبة بوقف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، واستنكار الوطن القومي اليهودي ، والمطالبة بحكومة دستورية ، وسن دستور تضعه جمعية وطنية ، وانعاش العامل والفلاح ، علما واقتصادا وسياسة وادارة ، والنظر في الضرائب ، وتحوير القوانين بما يلائم مصلحة الامة .وانتخب سليمان التاجي الفاروقي ـ قطب الثورة المضادة ـ رئيسا للحزب ، وعبدالله مخلص سكرتيرا لهذا الحزب .

٥٥ ـ **الجزيرة** العدد ٤٩ ، ١٩٤٤/٧/٢٤ ، اوردها غنيم ، عادل : **الحركة الوطنية الفلسطينية** ، رسالة ماجستير (مخطوط)، اجازتها كلية الاداب بجامعة القاهرة (قسم التاريخ) ١٩٧٠ ، ص ٢٦٣ .

٥٦ ـ **الاتحاد العربي** العدد ٤ ، ١٩٢٥/٥/١٦ ، اوردها غنيم ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

٥٧ ـ **الشورى** (القاهرة) ١٩٢٤/٣/١٨ .

٥٨ ـ **الف باء** (دمشق) ١٩٢٦/١/٢٨ .

٥٩ ـ **الشورى** ١٩٢٧/٥/١٩ + **الرابطة الشرقية** (القاهرة) ٣-١٩٣١/١/٥ .

٦٠ ـ **مؤتمر العمال العرب الاول** ... ص ٣٧ .

٦١ ـ **فلسطين** (يافا) ١٩٢٨/٢/٧ ، اوردها غنيم ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦١ .

٦٢ ـ **المقطم** ، ١٩٣٠/٣/٢٩ .
قادة الحزب هم : من عكا : اسعد الشقيري (مؤسس الحزب) ، توفيق عبدالله ، حبيب حوا ، قاسم الشقيري ، احمد الشقيري ، سليم قبلاوي ، عبدالله مخلص . ومن الناصرة : توفيق الفاهوم، شكري قطينه . ومن جنين : عفيف عبد الهادي : ومن يافا : علي المستقيم . ومن حيفا : محمود الماضي ، حنا عصفور (احد مؤسسي الحزب) والطريف انه ذهب يمثل عمال فلسطين في مؤتمر النقابات العالمي في لندن وباريس ، خلال العام ١٩٤٥ . واستقطب هذا الحزب بعض رموز الثورة المضادة في فلسطين ، كما يتضح من اسماء قادته . لمراجعة اسماء قادة الحزب ، راجع : **الشورى** ١٩٣١/٥/١٣ .

٦٣ ـ الشورى ، ١٩٣١/٥/١٧ .

٦٤ ـ **المقطم** ، ١٩٣٠/٧/٢٩ .

٦٥ ـ **المقطم** ، ١٩٣٠/٤/٣ ..

٦٦ ـ نقولا ، جبرا : **التنظيم المهني** ، يافا ، مطبعة النور ، ١٩٣٥ ، ص ٣٤-٣٥ .

٦٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠-٢١ .

٦٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٢-٢٤ .

٦٩ ـ السفري ، عيسى : **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** ، يافا ، ١٩٣٧ ، الكتاب الاول ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ .

٧٠ ـ العمل والعمال ، **مجلة الاقتصاديات العربية** (القدس) ، العدد السابع ، ١/٤/ ١٩٣٥ ٠

٧١ ـ النقابة العربية لعمال سكك حديد فلسطين : **بيان عام من النقابة** ... وضع على اثر القرار المتخذ بحل اللجنة المشتركة لتوضيح اسباب تأليفها ونية الفئة اليهودية الفسادية ، حيفا ، دار الطباعة والنشر الفلسطينية ، ١٩٣٦ ، ص ٤ ٠

٧٢ ـ لمزيد من التفاصيل عن هذه الانتفاضة، راجع كتابنا : **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٥ ص ١٤٠ ـ ١٤٨ ٠

٧٣ ـ واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية ، قرار متخذ من مجلس الحزبين الشيوعيين الفلسطيني والسوري في سنة ١٩٣١ (انظر : مرقص ، الياس : **الاممية الشيوعية والثورة العربية** ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٧١)

٧٤ ـ اورده د٠ الكيالي ، عبد الوهاب : **تاريخ فلسطين الحديث** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، تشرين الثاني (نوفمبر) ص ٢٨٧ ٠

٧٥ ـ سامي طه في شهادته امام اللجنة **الانغلو ـ امريكية** (انظر : الشقيري (جامع) ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٠)٠

٧٦ ـ كالكاس ، برباره : ثورة عام ١٩٣٦ ، عرض زمني للاحداث (انظر : ابو لغد ، ابراهيم (محرر) ، **تهويد فلسطين** ، ترجمة الدكتور اسعد رزوق ، بيروت ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، ص ٢٦٣ ، ٢٧٧ ٠

٧٧ ـ **السفري** ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ١٨ ٠

٧٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ تقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، القدس ، ١٩٣٧ ، ص ١٢٨ ٠

٧٩ ـ كالكاس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٤ + السفري ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ١٨ـ١٩ ٠

٨٠ ـ السفري ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ١٩ ٠

٨١ ـ حديث ابراهيم عليان ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، ص ١٨٠ ٠

٨٢ ـ المصدر نفسه + خريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٧ـ٤٨ ٠

٨٣ ـ

Vol. II, p. 763.

٨٤ ـ

Porath, Yehoshua; Usbat Al-Ta harrur Al-Watani (The national Liberation League) 1943-1948, Asian and African Studies, Annual of the israel oriental society, Vol. 41968, pp. 1-22.

٨٥ ـ **الاتحاد** (حيفا) ٢١/٤/١٩٤٦ ٠

٨٦ ـ الدفاع ، ١٢/٦/١٩٤٦ (انظر : بيان اللجنة المركزية لمؤتمر العمال العرب في فلسطين ٠ (في الملحق) ٠

٨٧ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ... ص ١٨٦ ٠

٨٨ ـ **صوت الامة** ، ١٤/٩/١٩٤٧ ٠

٨٩ ـ **الفجر الجديد** (القاهرة) ٣٠/١/١٩٤٦ ٠

٩٠ ـ **الفجر الجديد** ، ١/٥/١٩٤٦ ٠

٩١ ـ **الجماهير** (القاهرة) ، ٢١/٣/١٩٤٨ ٠

٩٢ ـ نقولا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٦ـ٦٨ ٠

٩٣ ـ تامارين ، أ : يوم عظيم في تاريخ الحركة النقابية الدولية ، **الحركة النقابية العالمية** (القاهرة) ، آب (اغسطس) ١٩٧١ ٠

٩٤ ـ المصدر نفسه ٠

٩٥ ـ حنا : مصدر سبق ذكره ، ص ٨٠ـ٨٣ ٠

٩٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٩١ ٠

٩٧ ـ الاتحاد العام لعمال فلسطين : المؤتمر الاول للاتحاد العام لعمال فلسطين ـ غزة ١٤ـ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٦٥ ، د٠ت٠ (انظر : **الطبقة العاملة العربية الفلسطينية في غمرة النضال ضد الاستعمار والصهيونية** ، ص ١٤) ٠

٩٨ ـ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ٠

٩٩ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ٠٠٠ ص ٣٤ ٠

١٠٠ ـ خريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٩ ٠

١٠١ ـ كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٦١٩ ٠

١٠٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٢٠ ٠

١٠٣ ـ
Survey... Vol II, p. 766.

١٠٤ ـ عثمان ، طه سعد : مذكرات ووثائق من تاريخ الطبقة العاملة ، **الكاتب** (القاهرة) ، العدد ١٢٨ ، السنة ١١ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ ، ص ١٢١ـ١٢٣ ٠

١٠٥ ـ **المقطم** ، ١٩٤٥/١٠/١٠ ٠

١٠٦ ـ **الفجر الجديد** ، ١٩٤٥/١٠/١ ٠

١٠٧ ـ **الضمير** (القاهرة) ، ١٩٤٥/١٠/٢٤ ٠

١٠٨ ـ **الفجر الجديد** ، ١٩٤٥/٩/١٦ ٠

١٠٩ ـ **الضمير** ، ١٩٤٥/١٠/٢٤ ٠

١١٠ ـ **صوت الامة** ، ١٩٤٧/٦/٢٧ ٠

١١١ ـ **صوت الامة** ، ١٩٤٧/٦/٢٨ ٠

١١٢ ـ كامل ، انور : **الصهيونية** ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٥٤ـ٥٧ ٠

١١٣ ـ **الاتحاد** ، ١٩٤٦/٤/٢١ ٠

١١٤ ـ الشقيري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٠ـ١٣١ ٠

١١٥ ـ **الجامعة الاسلامية** ١٩٣٨/١/٤ ٠

١١٦ ـ **حقيقة الامر** ١٩٣٨/١/١٢ ٠

١١٧ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ٠٠٠ ص ٤١ـ٤٣ ٠

١١٨ ـ
Survey... Vol. II, p. 764.

١١٩ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٠٢ ٠

١٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

١٢١ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، ٩٣ ٠

١٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٤ـ٩٥

١٢٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٥ـ٩٦ ٠

١٢٤ ـ حديث ابراهيم عليان ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ٠

١٢٥ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٩٦ـ٩٧ ٠

١٢٦ ـ فلسطين ، **تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران** ، لمؤلفه السير جون هوب سمبسون ، القدس ، ١٩٣٠ ، رفعه وزير المستعمرات الى البرلمان في شهر تشرين الاول ١٩٣٠ ، ص ١٢٨ ٠

١٢٧ ـ من تقرير حكومة فلسطين للجنة الانتدابات لسنة ١٩٣٥ ، **الاقتصاديات العربية** ، ١٩٣٥/٧/١٥ ٠

١٢٨ ـ شركة تعاون عمال العرب الفلسطينيين المحدودة الضمان : **قانون الشركة** ، حيفا ، مطبعة كشاف الصحراء ، ١٩٣١، ص ١ ٠

١٢٩ ـ ماديار ، ل ، واخرين : وثائق برامج الاحزاب الشيوعية في الشرق ، نشرة حزبية ، موسكو ، ١٩٣٤ (انظر : مرقص ، الياس (مترجم) ، **الاممية الشيوعية والثورة العربية** ، بيروت ، دار الحقيقة ، تموز (يوليو) ١٩٧٠ ، ص ٥٤) ٠

١٣٠ –
Jefries, J.M.N. : *Palestine, the reality,* London, 1939, p. 418.

١٣١ – الكيالي ، عبد الوهاب (جامع) وثائق **المقاومة العربية الفلسطينية ضد الاحتلال والصهيونية** ، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٦٨ .

١٣٢ –
Laquer, Op. Cit., p. 76.

١٣٣ – منظمة الاشتراكيين الاسرائيليين: **بعض الملاحظات على احزاب اليسار في** اسرائيل ، تل ابيب ، كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ : ص ١٤ +

Laquer, Walter : *Communism and Nationalism in the Middle East,* London, Routledge and Kogan Paul, 1961, pp. 76-77.

١٣٤ – ماديار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ +
Ibid, q. 77

١٣٥ –
Laquer, Op. Cit, p. 77.

١٣٦ –
Ibid, p. 82.

١٣٧ –
Ibid, p. 82.

١٣٨ –
Ibid, pp. 79-80.

١٣٩ –
International Press Correspondence, No. 70, p. 330.

١٤٠ –
Laquer; Op. Cit., p. 82.

١٤١ –
Laquer, op. cit., pp. 82-84.

١٤٢ – لاكير ، والتر : **الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط** ، بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٥ .

١٤٣ –
ESCO Foundation for Palestine: *Palestine, a study of Jewish, Arab and British Policies,* 2nd Edition, U.S.A., Yale University Press, 1949, Vol. II, p. 780.

١٤٤ – لاكير : الاتحاد السوفياتي ... ص١٢٦.

١٤٥ – المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

١٤٦ – المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

١٤٧ – المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

١٤٨ – المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

١٤٩ – ماديار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ .

١٥٠ – واجبات الشيوعيين في الحركة القومية الشاملة ، قرار متخذ في كونفرنس الحزبين الشيوعيين الفلسطيني والسوري عام ١٩٣١ (انظر مرتمص ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٨) .

١٥١ –
Laquer; op. cit., p. 90.

١٥٢ – ماديار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ .

١٥٣ –
Czudnowski ; Landau : The Israeli Communist Party and the Elections for the Fifth Knesset, p.6.

١٥٤ –
Laquer, op. Cit., p. 84.

١٥٥ –
Laquer; op. cit., p. 89.

١٥٦ –
ESCO... op. cit., p. 781

١٥٧ –
Laquer; op. cit., p. 88+Czudnowski; op. cit., p. 5.

١٥٨ –
Ibid, p. 92.

١٥٩ –
Ibid, p. 87.

١٦٠ ـ **لاكير** ، **الاتحاد السوفياتي** ... ص ١٦٠ ٠

١٦١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٠ ٠

١٦٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٠–١٥١ ٠

١٦٣ ـ Porath, op. cit.,

١٦٤ ـ **الفجر الجديد** ، ١٩٤٦/١/٢٣ ٠

١٦٥ ـ **الاتحاد** ، ١٩٤٦/١/٢٠ ٠

١٦٦ ـ **الفجر الجديد** ، ١٩٤٦/٣/٦ ٠

١٦٧ ـ **الجماهير** ، ١٩٤٨/٢/١٥ ٠

١٦٨ ـ **مهمات الحزب الشيوعي الفلسطيني في الارياف** ، قرار المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩٣١ ، مرقص ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢٠

١٦٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٢–١٢٣ ٠

١٧٠ ـ واجبات الشيوعيين ... ص ٧٠–٧٢ ٠

١٧١ ـ نقولا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣–٤ ٠

١٧٢ ـ **الاتحاد** ، ١٩٤٤/٧/٢٣ ٠

١٧٣ ـ **الاتحاد** ، ١٩٤٤/٨/٢٠ ٠

١٧٤ ـ **الاتحاد** ، ١٩٤٤/١١/٩ ٠

نظرة جديدة على معادلة امبريالية قديمة :
وعـــد بلفـــور والبحث عـــن الجـــذور

حــازم موسى الحسيني

مع ان للامبريالية في بعض الاحيان مضمونا عقائديا ، الا انها في الاساس ترتكز على قاعدة اقتصادية بحتة ، وبريطانية ، القوة الامبريالية بلا منازع في بداية هـــذا القرن ، هي بيت القصيد في محاولة فهمنا للجذور التاريخية لوعد بلفور . لا نحتــاج الى تعريفات اضافية للامبريالية ، اذا سلمنا جدلا بان « الامبريالية هي مرحلـــة الرأسمالية نفسها حين تصــل الاخيرة مستوى تسيطر فيه الاحتكارات والرأسمــال المالي ، وحيث يكون قد بدأ توزيع العالم بين التروستات الدولية ، وحيث يكون قــد انتهى التوزيع الجغرافي للعالم (المستعمرات) » (١) . وما يسترعي الانتباه فعــلا هنا هو تحول بريطانية السريع عن امبرياليتها القديمة القائمة على الصداقة الــــى امبرياليتها الجديدة القائمة على تفسيخ ممتلكات الامبراطورية العثمانية . فمنـــذ معاهدة باريس (١٨٥٦) ، حين دخلت الامبراطورية العثمانية ضمن التعاضد الاوروبي، شعرت بريطانية بانه يجب حرمان الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية) ، ومهما كلف الامر ، من ثمار التقسيمات او الانتصارات لان الدولة العثمانية لم توفر لبريطانية سوى ممر آمن ينفذ الى مصالحها التجارية في الشرق ، ولانه يجب الحد من التوسع الروسي في الامبراطورية ، هادفة بريطانية من ذلك الى انجاز ما يسمى بـــ « ميزان القوى » . لقد كان من الواضح انه ما لم تحدث تعديلات سريعة وحاسمة فــي بنيــة الامبراطورية العثمانية ، فانها ستتعرض حتما الى التجزئة . وبالرغم من ان التنافس الاستعماري لم يظهر جليا الا بعد العام ١٨٧٨ (معاهدة سان ستيفانو) ، الا انه كان لكل من فرنسه وروسيه مناطق نفوذ ضمن الامبراطورية العثمانية . آنئذ كانت الجذور التاريخية لنظام الملة لا زالت سائدة ، فكان الناس يصنفون ليس تبعا لعرقهـــم او جنسيتهم ، بل تبعا لخلفياتهم الدينية . وهذا بالتالي كان يستدعي ان تدعي روسيه حماية الارثوذكس في الشرق ، وان تدعي فرنسه حماية الكاثوليك ، ولكن بريطانيه البروتستانتية لم تقم علاقات كتلك . وهذه الحقيقة كانت واردة في تفكير بالمرستون حين بعث برسالة الى السفير البريطاني في استانبول في ١١ آب (اوغسطس) مـــن العام ١٨٤٠ يطلب منه اجراء مشاورات مع السلطان العثماني فيما اذا كان يسمح هذا الاخير يهود اوروبة الاثرياء بانشاء مصالح لهم ضمن الامبراطورية ، طالما انهم بذلك يشكلون حاجزا امنيا في وجه الثوار امثال محمد علي(٢) . وعلى النقيض لذلك ، فان حاييم وايزمن كان باستمرار ومرة اثر مرة يصرح ان معظم اليهود الفقراء في روسيه ، وليس اليهود الاغنياء في اوروبه ، هم الاكثر رغبة في الاستيطان في فلسطين . وهناك حقيقة دامغة

مفادها أن اليهودية الغربية ما كانت لترغب في استعمار فلسطين بمثل ذلك الاسلوب ، وعليه فان طلب بالمرستون يبرز كأداة في يد البريطانيين لتأمين مناطق نفوذ دينية يهيمنون عليها ويمارسون فيها تعزيز رغبة اليهود تجاه « اعادة استيطانهم» في الاراضي المقدسة . وفي هذا الصدد يقول ليونارد شتاين : « كان يهدف بالمرستون ، من ضمن سياسته ، الى تشجيع اليهود بالهجرة الى فلسطين من كافة انحاء الامبراطورية العثمانية ، والى الحصول على حماية من بريطانية العظمى بنفس الطريقة التي يحصل فيها الارثوذكس على حماية من روسية » (٣) وبعد العام ١٨٧٥ ، اخذت هذه السياسة تشق طريقها باتجاه تحركات ملموسة . فقد شكلت الثورة القصيرة الاجل في بلجارية في العام ١٨٧٦ نقطة التحول في السياسة البريطانية تجاه الامبراطورية العثمانية . لقد بدأ تلك الثورة ، التي سرعان ما انتهت ، جماعات ثورية في جيورجيغو وبوخارست ، الا ان السلطات التركية اخمدتها بوحشية وهي في مهدها ، فذبحت من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ ثائر . ازاء تلك المذابح اهتز الراي العام البريطاني ، ومنذ ذلك الوقت تناست بريطانية كافة تودداتها تجاه السلطة التركية ، لاسيما حين ولت حكومة المحافظين وتسلم الوزارة حزب الاحرار بزعامة جلاوستون في العام ١٨٨٠ ، التي عملت على مواجهة نقيضها المتجسد في استبدادية عبد الحميد الثاني بعد العام ١٨٧٧ ، لا بل ان التوتر في العلاقات بين البلدين ازداد حين حدد عبد الحميد موقفه المعادي للغرب .

كانت حرب البلقان في اثناء ذلك تستهلك الكثير من الخزينة العثمانية : فالجيش يحتاج الى مصاريف جمة ، اضافة الى ان بريطانية كانت تقدم قروضا وتحتاج الى التعويض عنها . وهناك العجز المتزايد في ميزان المدفوعات بالاضافة الى مشاكل الامبراطورية العثمانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية (٤) . لقد عجزت اصلاحات عبدالحميد عن مجابهة الاوضاع السائدة آنذاك بسبب نمو القوميةالتركية — التي قضت عليها التدخلات الاجنبية وهي فيمرحلتها الجنينية — مما دفعه الى استبدال التنظيمات الثورية بسلطويات تحمي عرشه . وفي نهاية المطاف ، انشئت هيئة قضائية دولية في العام ١٨٨١ للبث في قضايا الديون المستحقة على الامبراطورية العثمانية ، ومن البديهي ان تؤدي هذه الخطوة الى تأزيم اعمق في العلاقات التركية — الانكليزية . وفي الوقت نفسه ، ومع ادراك ديزرائيلي للحاجة الىالاستمرار فيدعم ، الامبراطورية، الا انه كان مقتنعا بان الاهتمام يجب ان ينصب في تلك المرحلة على الحفاظ على المصالح التجارية البريطانية (مثل استثمار قناة السويس) والمصالح السياسية الاستراتيجية (العمل على مجابهة الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨٢ ، والنفوذ الروسي في البلقان ، والنفوذ الالماني المتزايد في تركية) ، فطالب عبد الحميد باعطائه جزيرة قبرص ذات الموقع الاستراتيجي ، وفعلاً حصل عليها بعد تحذير وتهديد السلطان . كانت الهوة بين بريطانية والامبراطورية العثمانية ازدادت اتساعا ، عقب فشل الثورة البلجارية ، نتيجة اربعة عوامل رئيسية ، هي : الاشراف الدولي على الخزينة العثمانية ، فشل الاصلاحات الداخلية ، ازدياد الجور ومضايقة الاجانب في الامبراطورية ، وآخيرا فقدان جزيرة قبرص . الا ان العامل الرئيسي والحاسم جاء مع اندلاع الحرب الروسية — التركية في العام ١٨٧٧ التي انتهت بمعاهدة سان ستيفانو (١٨٧٨) . ومع ان الحرب حققت مكاسب بسيطة للروس ، الا ان روسية تخبطت في ضائقة مالية وتزايد فيها الضغط الشعبي مناديا بالغاء مقررات مؤتمر برلين ، وتخلفت بريطانية عن تقديم يد العون الى تركية بسبب ما نشأ بين الدولتين من تجاف اثر الثورة البلجارية . وعليه فان احتلال بريطانية لمصر في العام ١٨٨٢ انهى الاعتبار البريطاني لاستقلالية ووحدة الامبراطورية العثمانية ، وحين التفت

الاتراك الى الالمان طالبين منهم العون بعد العام ١٨٩٦ ، وصلت العداوة الانكليزية ـ التركية اوجها ، وشهدت تلك الفترة تحولا ملموسا في السياستين البريطانية والتركية ، انتلقت على اثرها بريطانية من موقعها المدافع عن الامبريالية الى موقف جديد : تجهيز الحملات الامبريالية . اما تركية ، فانها شرعت في اقامة الاحلاف . ان هاتين الميزتين الجديدتين حددتا تطوراً جديدا في عهد الامبريالية : انتهاء وتفتيت ما سمي بالتعاضد الاوروبي ، وكردة فعل لذلك ظهرت على الساحة « سياسة الاحلاف » . فمنذ ان فرغ بسمارك من توحيد المانيه ، وخاصة منذ ان فرغ من خلق الحلف الثلاثي مع النمسه ـ هنجارية وايطالية في العام ١٨٧٩ ، الى ان تفكك ذلك الحلف في العام ١٨٩٠ ، كانت القوى الامبريالية بلغت حدا من معاداة بعضها البعض يوازي العداء الذي كانت تكنه لها الشعوب الافريقية ـ الاسيوية الراضخة لتلك القوى . وكلما كانت بلغت احدى تلك القوى مرحلة اعلى تبعا لتوسعاتها الامبريالية ، كانت تنظر بعين الشك اكثر الى منافسيها . ان هذا الشعور بالخوف المتبادل دفع الى اتباع سياسة الاحلاف ، ففرنسه تحالفت مع روسيه للوقوف في وجه المانيه ، اما النمسه فتحالفت مع المانيه في وجه روسيه .

عبر هذه الخلفية التاريخية ، التي سلفت ، يمكن فهم نشوء الحركة الصهيونية كرديف للامبريالية ابان تلك المرحلة . فبالرغم من أن الصهيونية منذ ولادتها كانت طفيلية (بمعنى انها بدأت جيبا انشق عن القومية اليهودية الام ،ثم كانت بعثة ارسالية تعمل على تحقيق آهدافها بتغطية من الامبريالية البريطانية ، ثم كانت ستارا للامبريالية الاميركية في الشرق الاوسط بهدف تأمين قاعدة ديمقراطية ، في المنطقة) ، الا ان هناك خاصية واضحة تبرز خلال التطور المذكور : كانت الصهيونية تركز على فلسطين . والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا فلسطين بالذات ؟ ان الباعث على ذلك دافع عقائدي . ان الولادة الرسمية للحركة الصهيونية ذات خصائص دينية شوفينية تضرب جذورها في مسقط راس تلك الحركة : النمسه . ان اليهودية النمساوية عملت على تخمير الافكار الصهيونية التي تبلورت في **دولة اليهود** (١٨٩٦) لهرتسل (٥) . في تلك الحقبة عملت الصهيونية ما في وسعها للتقرب من فلسطين ، فعمد اليهود وغيرهم الى تأييد منظمة « محبي صهيون » الروسية (١٨٨٧ ـ ١٨٩٧) ، ولجأ المتعصبون منهم وحفظة التوراة الى رسم جميع انواع الخطط الدينية الارسالية باتجاه فلسطين ، وكان هرتسل هو من اعطى الحركة الصهيونية برنامجا سياسيا متكاملا ومن هنا تجلت في كتاباته شوفينية دينية ، كما اتبع اسلوبا اوروبيا في الكتابة والتفكير وذلك لاستدرار عطف الاوروبيين .ان مقولات هرتسل تركت اثرا وانطباعا حسنين في ذهن تشامبرلين، بالرغم من ان الاخير ينظر الى الصهيونية نظرة انسانية ، رأى تشامبرلين ان الوقت مؤات كي تعمل الديبلوماسية البريطانية على دعم الحركة الصهيونية لان ذلك يؤدي الى التعاطف اليهودي العالمي مع بريطانيه . ليس هذا فحسب ، بل ان بريطانيه عندئذ سوف تضمن وجود الراسمال والاستيطان اليهوديين لتنمية وتطوير ما سيكون بالنسبة لها « اراض بريطانية » ، . وبالنظر مستقبليا « فان مستعمرة يهودية تقام في سيناء ، لسوف تساعد كثيرا على امتداد النفوذ البريطاني الى كل انحاء فلسطين ، وبانتظار الفرصة السانحة حين تتفكك اواصر الامبراطورية العثمانية » (٦) . وهكذا ، يتضح جليا ان الامبريالية البريطانية قد بدأت تفكر بجدية لاقامة منطقة نفوذ تابعة لها في الشرق الادنى ، عبر راس حربة الديانة اليهودية ، اذا ، فالامبريالية البريطانية اوجدت اخيرا لحاجاتها الاقتصادية مبررا عقائديا يدفعها لاستعمار فلسطين ، والفكرة بدأت تختمر منذ العام ١٩٠٣ . كان البريطانيون يعرفون تماما ان الحركة الصهيونية تفتقر الى التنظيم وان القومية العالمية صلبة الى حد لا يسمح لحركتهم بالظهور ما لم ترتكز

الى دعم امبريالي . وبناء على ذلك ، فان الاستيلاء على فلسطين صار يعتمد اساسا على التحالف بين الامبريالية والحركة الصهيونية ، ان تحالفا كهذا سيحقق دعما واسعا « لعملية التبرير » بعد الانتهاء من الصياغة الذكية لتصريح بلفور . وبالتالي يفهم وعد بلفور (التصريح) ، اعتمادا على ما تقدم ، على انه مؤشر ملموس على الوحدة . بين حركة اوروبية تعتمد علـى اقلية شوفينية (الحركة الصهيونية) وبين قوى غربية استعمارية (الامبريالية البريطانية) . وفي الوقت الذي كانت فيه الدول الاوروبية الامبريالية تتناحر باستمرار فيمابينها متنافسة للحصول على مصادر رزق اكثر وجبروت اعتى ومكانة مرموقة أوسع ، مما يؤدي حتما الى اندلاع الحرب ، كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت حدا لا يمكن الرجوع عنه . لقد اجبرت سياسة عبد الحميد المستبدة الكثير من الشباب الاصلاحيين على الهرب الى القارة الاوروبية ،حيث أنشأوا هناك جمعية « تركية الفتاة » ثم خططوا وتدارسوا للعودة والعمل على تسلم السلطة بالقوة . حين عاد أعضاء تلك الجمعية عادوا كوطنيين اتراك تتملكهم ثقافة غربية وليس كاصلاحيين مستقيمين ، وحين تسلموا السلطة في العام ١٩٠٩ حدثت تغييرات في بنية الدولة ، اهمها ان السلطنة العثمانية تحولت الى دولة علمانية ذات نظـام دستوري برلماني ، ومنذ ذلك الوقت اختفت معالم التناحر الديني في الامبراطورية وظهرت التناحرات العرقية (٧) . وابان تلك المرحلة ، حين بدأت الامبراطورية العثمانية تواجه تصدعات داخلية ،سواء في أطرافها (البلقان)أم في داخلها ، عمدت الامبراطورية الى التحالف مع دول المحور في محاولة منها للحفاظ على ما تستطيع من الاجزاء المتفسخة . بعد ثلاثة اشهر من الحياد ، دخلت تركية الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩١٤ . بعد يومين فقط من ذلك ، أعلنت بريطانية الحرب على الامبراطورية العثمانية .

لبضعة اسابيع سابقة لذلك ، كان وايزمن قد تعرف الى ش . ب . سكوت ، رئيس تحرير صحيفة « مانشستر جارديان » الانكليزية ،واقنعه بسرعة بالمبادىء الصهيونية، فاعتنقها الاخير . ثم عمد سكوت ، عبر جهود مركزة ، الى عقد اجتماع بين لويد جورج وهربرت صموئيل من جهة ووايزمن وانصاره من جهة ثانية . بهذا تم وضع الاساس لما سمي فيما بعد بـ « مدرسة مانشستر الصهيونية» . اثناء تلك الفترة كان ينظر الى الحرب على انها سوف تكون قصيرة وحاسمة بحيث افترض كل من الاطراف المتناحرة انه الرابح الفعلي ، الا ان الحرب طالت وكانت دموية وبـلا نتائج مثمرة . ووصلت الحرب البحرية بين بريطانيه والمانيه الى طريق مسدود ، نشطت خلالها الغواصات الالمانية ضد السفن الحربية البريطانية . ومع أعلان الثورة في روسيه ، صارت بريطانيه تفكر جديا في نقل مخططاتها ومصالحها الامبريالية الى الشرق الادنى. كانت تلك الخطط واردة دوما في ذهنية الديبلوماسية البريطانية ، الا ان الاوضاع السائدة في اوروبة آنذاك عجلت باتجاه تنفيذها . وقتها كان هربرت صموئيل قد عكف جديا على دراسة النتائج المترتبة على انجلتره في حال عمدت الى الاستيلاء على فلسطين ، وذلك قبل ستة اشهر من شروعه في مراسلاته مع الشريف حسين (شتاء ١٩١٥) عارضا فيها المساعدة البريطانية على العرب ، اخذا بعين الاعتبار الا يثير قضية المناطق الممتدة على طول ساحل المتوسط . لقد وضعت بريطانيه نصب عينها المصالح الامبريالية بدل الاعتراف بالحقوق الانسانية لشعوب المنطقة . في الشهر نفسه الذي أعلنت فيه بريطانيه الحرب على الامبراطورية العثمانيه ، وقبل فترة بسيطة من عرض صموئيل بدء المراسلات ، كتب وايزمن : « نستطيع القول بعقلانية انه فيما لـو دخلت فلسطين ضمن النفوذ البريطاني ، وفيما لو شجعت بريطانيه اقامة مستوطنة يهودية هناك ، سوف يكون لنا حوالي مليون يهودي في فلسطين خلال عشرين الـى

ثلاثين سنة يعملون على تطوير البلاد ويعيدون اليها المدنية ويقفون حرسا فعالا على قناة السويس » (٨) . بهذه الطريقة تعاضد ساعد الصهيونية مع الامبريالية [عمد وايزمن اثناء الفترة الى عرض اهدافه الشوفينية المرتبطة بالامبريالية البريطانية على ش.ب. سكوت الذي وافق على مشاريعه] .

في ايار من العام ١٩١٥ اعطى هربرت صموئيل مقومات لوحدة الحركة الصهيونية مع الامبريالية ، وذلك حين بقي المجال مفتوحا امام « مدرسة مانشستر » لكسب مواقف الحكومة البريطانية باتجاه ما كان صموئيل قد عرضه سابقا . هناك حادثتان اكدتا نجاح ذلك : (١) تعيين ارثر بلفور في الوزارة البريطانية (ايار ١٩١٥) (٢) في العام ١٩١٥ نجح وايزمن في ابتكار طريقة جديدة لتحضير مادة الاسيتون لاستعمالها في صناعة المتفجرات ، التي كان يحتاجها البريطانيون آنذاك . بالرغم من ان هربرت صموئيل ، مدير عام وزارة البريد البريطاني آنذاك ، بقي محافظا على وعده الذي تعهد بموجبه بالاعتراف باهداف الصهيونية (لا سيما حين التفتت الحركة الصهيونية الى قيصر المانيه بحثا عن الدعم) ، كان واضحا لدى « مدرسة مانشستر » ان موقف القيصر مؤقت ، لانها كانت يقظة الى ان المانيه لم تؤيد فكرة اقامة وطن يهودي لان ذلك يتعارض تماما مع تحالفها الى جانب الامبراطورية العثمانية . واضافة الى ذلك ، فان الحركة الصهيونية لم تلق صدى لدى المانيه نظرا الى ان تلك الحركة كانت تحتاج آنذاك الى وعد امبريالي اكثر جدية ، وهذا ما لم تكن تقدر عليه المانيه بسبب تفاقم الاوضاع العالمية وبروز عوامل جديدة على المسرح السياسي منها الثورة الروسية ، هزيمة دول المحور ودخول اميركه الى الحرب . فقط بريطانيه الامبرياليه كانت قادرة على منح مثل ذلك الوعد آنذاك ، فاخذت الحركة الصهيونية ببناء برامجها السياسية على هدى اتفاقية سايكس ــ بيكو . لم يكن مارك سايكس عضوا في « مدرسة مانشستر » حين جرى تعيينه مساعدا في وزارة الحرب البريطانية في خريف ١٩١٥ ، الا ان ايمانه بالامبريالية البريطانية ، وتعاطفه مع الحركة الصهيونية ، واطلاعه الواسع على اوضاع العالم العربي ، جعله من اهم مناصري الحركة قدرة على انجاز وتحقيق اهدافها . وهو الذي سعى جاهدا الى تقريب فلسطين ضمن النفوذ البريطاني وابعادها عن نفوذ السلطتين المتنافستين فرنسه وروسيه . وكانت جهوده الشخصية التي بذلها هي السبب الاساسي الذي دفع الى تقسيم اراضي الامبراطورية العثمانية بين النفوذين الانكليزي والفرنسي بعد الاتفاقية التي عقدها مع جورج بيكو في كانون الاول (ديسمبر) من العام ١٩١٥ والتي اعتبرا فيها فلسطين منطقة حساسة وبالتالي من الضروري تدويلها . ثم الاعلان رسميا عن فحوى تلك الاتفاقية في شباط (فبراير) من العام ١٩١٦ ،الا انها لم تنشر حتى شهر ايار (مايو) تحت اسم « اتفاقية سايكس ــ بيكو » . اثناء ذلك نجحت بريطانيه وفرنسه في ابعاد روسيه عن الساحة عبر خلقهما منطقة نفوذ روسيه تعتمد على استمرار الروس في الحرب حتى نهايتها ــ (رغم ان ذلك كان غير مرغوب فيه ابدا) ــ وفي تفسيخ اجزاء الامبراطوريه العثمانيه ، لا بل ان فرنسه اذعنت لطلب بريطانيه بنت الاخيرة بموجبه انابيب ضخ النفط والسكك الحديدية في فلسطين ، حيث ان بريطانيه كانت تتوقع آنذاك ان يتم اكتشاف النفط في الاقليم العراقي « التابع » لها .

كانت احداث العام ١٩١٦ حافلة ، فالحكومة البريطانيه تتخبط من جراء الحرب ونفقاتها لا سيما وان ذلك انعكس على الاوضاع في ايرلنده (التي نشبت فيها ثورة لمدة قصيرة في ايار) ، وروسيه تستعد للثورة ، اما الجبهة الغربية فهي على حالتها المستعصية . في كانون الاول (ديسمبر) تسلم لويد جورج رئاسة الوزارة البريطانية

فقام باجراء تغييرات في وزارة الحرب من ضمنها العمل نحو تحقيق هدف « مدرسة مانشستر » الامبريالي في فلسطين ، والذي اتخذ في نهاية المطاف شكل تصريح بلفور وفرض تنفيذه مع اكتمال معالمه في العام ١٩١٧ . في تشرين الاول (اكتوبر) من العام ١٩١٦ عرض الصهاينة خططهم الاستيطانية على الحكومة البريطانيـة ، وفي شباط (فبراير) من العام ١٩١٧ ، شرع مارك سايكس في اجراء المناقشات حول فلسطين . استمرت الجهود المبذولة للحصول على التصريح مدة ستة اشهر ، من نيسان (ابريل) حتى تشرين الثاني (نوفمبر) . ان « اوراق وزارة الخارجية البريطانية تظهر انـــه خلال الاشهر القليلة تلك جرت عدة محادثات مع الدكتو وايزمن واخرين في الحركـــة الصهيونية ، كما جرت مراسلات برقية حول الموضوع ذاته مع السير مارك سايكس ، الذي كان يقيم آنئذ في القاهرة » (٩) . في حزيران (يونيو) تقدم رونالد جراهام ، وكيل وزارة الخارجية البريطاني والذي اعتبره وايزمن بانه كان ذا مساعدة فعالـــة في اصدار تصريح بلفور ، بمذكـــرة الى اللورد هارينج ، وزيـــر الخارجية البريطاني الدائم وحاكم الهند سابقا ، قال فيها انه طالما ان « مدرسة مانشستر » (لم يسمهـــا باسمها) تتعاطف مع الحركة الصهيونية وبما ان الحركة ستكون ذات منفعة في روسيه (في حال عمدت اليهودية هناك الى دعم الثورة البلشفية) ، فليعط الصهاينة « ضمانة بان حكومة صاحبة الجلالة كلها تتعاطف مع ما يطمحون اليه » (١٠) . والى ذلـــك اضاف بلفور الى محضر الجلسة : « طلبت من اللورد روتشيلد والبروفسور وايزمـــن ان يعملا على تقديم معادلة ما » . في الثامن عشر من تموز (يوليو) [تاريخ له اهمية في ذلك اليوم بالتحديد] بعث روتشيلد برسالته الجوابية :

واخيرا اجد نفسي قادرا على ارسال المعادلة التي طلبت مني . فاذا ما بعثت حكومة صاحب الجلالة رسالة تتضمن معالم هذه المعادلة ، وفي حال موافقتك عليها حين تصلك : انا بدوري سأعمل على تحويلها الى المنظمة الصهيونية ...

١ - ان حكومة صاحب الجلالة توافق مبدئيا على تحويل فلسطين الى وطن قومي للشعب اليهودي .

٢ - ان حكومة صاحب الجلالة ستعمل قدر المستطاع محاولة انجاز هذه المهمة وستبحث عن الاساليب الضرورية بالتعاون مع المنظمة الصهيونية(١١) .

وافق بلفور على شكل هذه المقولة ، الا ان ميلز ، احد كبار مسؤولي الحركـــة الصهيونية ، اعتبر كلمتي « تحويل » و « انجاز » غير كافيتين . وحتى يبعد الشبهة عن البريطانيين بأنهم القوة الاساسية في تهويد فلسطين ، عمد الى كتابة الرد التالي المعروف :

ان حكومة صاحب الجلالة توافق مبدئيا على استغلال كل فرصة مناسبة من اجل انشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، على ان تعمل ما في وسعها لتسهيل هذه المهمة وتكون مستعدة للنظر في اية اقتراحات حول الموضوع تقدمها المنظمة الصهيونية الى اعضاء الحكومة) .

بالرغم من ان الوزير البريطاني ادوين مونتاغو لم يكن متعاطفا كثيرا مع الصهيونية، الا انه اقترح تأجيل اصدار القرار حتى يكون بالمستطاع تقدير مواقع القوى المتصارعة في الحرب . وهذا ما حدث بالفعل ، فحين اجتمعت وزارة الحرب في الرابع من تشرين الاول (اكتوبر) ، تركز برنامج عملها على النقاط التالية : (١ كانت الحكومة الالمانية آنذاك تكسب دعم الاكثرية من اليهود . (٢) كانت الحكومة الفرنسية على علم بان الرئيس الاميركي ويلسون يحظى بتأييد كامل من الحركة الصهيونية (٣) كان اللورد كيرزون يعتبر ان اعادة توطين اليهود فكرة طوباوية ويفكر بان ذلك غير عملي ابدا .

نظرا لهذه العوامل مجتمعة قدم ميلز نصا مقترحا للقرار وزعت نسخ منه بشكل سري على الرئيس ويلسون وعلى زعماء الحركة الصهيونية بالصيغة التالية :

ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على ان يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة حاليا في فلسطين ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى ٠

. في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ، وبعد ان اجرى بلفور بعض التغييرات في المفردات التي كان قد اقترحها وايزمن ، صدر النص النهائي لما عرف فيما بعد بأنه من اقدر التصريحات التي صدرت عن الحكومة البريطانية . وهكذا يتبرهن بوضوح ان اقلية صهيونية صاغت الوعد وعكفت مدة شهر على اعطائه طابعه النهائي . وما يسترعي الانتباه فعلا هو ان مفردات النص منتقاة عن قصد وحذر يجعلها مبهمة ومبطنة . وهناك توافق ملموس في عملية صياغة النص بين المفكرين الصهاينة والديبلوماسيين البريطانيين ، فالحركة الصهيونية رافقت الامبريالية البريطانية في سيرة واحدة لمدة طويلة قبل الصياغة النهائية . والاهم ان بلفور ، الذي كان قادرا على ضبط امور امبراطورية واسعة ، ما كان ليسمح بقرار « يسقط سهوا » لو لم تكن الصهيونية فعلا عضوا متكاملا ضمن الخطة الامبريالية الاوسع . آن « مدرسة مانشستر » باعضائها وخططهم كان لها الدور الفعال في استصدار التصريح الوعد . ان وجهة نظر كمشه لهي على صواب ، حين رد الدعم الرسمي البريطاني للاهداف الصهيونية الى رغبة بريطانية في كسب اليهودية الروسية والاميركية وبالتالي اضعاف النفوذ الالماني ، ورغبتها ايضا في مواجهة الانحسار الامبريالي وبالتالي اخماد النشوء المتوقع للحركة القومية العربية محاولة بذلك انشاء منطقة نفوذ حيوية تجارية وسياسية لها في المشرق . وعليه فان وعد بلفور حاصل معادلة امبريالية طرفاها حركة اوروبية تعتمد على اقلية شوفينية وقوة غربية آمبريالية واستعمارية . ان وحدة منهذا النوع تميزت ايضا بانها تناست وبذكاء فائق مصير الشعب الذي سيخضعونه. ولم يصعب على بريطانيه والحركة الصهيونية خلق نقيض ما طلبوا ودعوا اليه دائما : « انقاذ الحضارة من همجية الشرق » ، فطيلة فترة الانتداب وحتى الوقت الحاضر نجحت الوحدة القائمة بين الصهيونية والامبريالية الغربية الهمجية في الاقتصاص من الشعب الذي يحكمون . واذا ما عدنا الى التصريح بهذه الخلفية السابقة لوجدنا ان الوحدة التي اشرنا اليها تعتمد في شقها البريطاني فقط على الدافع الاقتصادي بينما تعتمد في شقها الصهيوني على قاعدة عقائدية ، وان الترابط العضوي الذي كان سائدا بين الطرفين في اثناء مرحلة الامبريالية يلقي ضوءا مهما على الترابط الحالي بين الصهيونية المعاصرة والامبريالية الجديدة .

---

١ - V. I. Lenin, *Imperialism, the Highest Stage of Capitalism,* (Moscow : Progress Publishers, 1966), p. 60.

٢ - Leonard Steim, *The Balfour Declaration,* (London : Vallentine-Mitchell, 1961), p. 6.

٣ - Steim, p. 8

٤ - Charles Issawi, *The Economic History of the Middle East 1800-1914,* (Chicago : University of Chicago Press, 1966), pp. 17-125.

٥ -
David Thomson, «Social and Political Thought,» *The New Cambridge Modern History*, edited by F. H. Hinsley, (London : Cambridge, 1970), XI, p. 119.

٦ -
Steim, pp. 24-25.

٧ -
Zeime Zeime, The Emergence of Arab Nationalism, (Beirut : Khyyat, 1966), pp. 83-114.

٨ -
Chaim Weizmann, *Trial and Error* (New York : Schocken Books, 1966), p. 43

٩ -
Doreem Ingram, *Palestine Papers 1917-1922 : Seeds of Conflict,* (London : John Murray, 1972), p. 8.

١٠ -
Ingram, p. 8.

١١ -
Ingram, p. 9.

مراجعات

SUSAN LEE HATTIS, **The Bi-National Idea In The Mandatory Times** (SHIKMONA PUBLISHING COMPANY, HAIFA : 1970).

في العام ١٨٩١ قام آحاد هعام بزيارة الى فلسطين ، واثر عودته كتب مقالة شهيرة « الحقيقة من ارض اسرائيل » نفى فيها الخرافة التي كانت سائدة في بعض الاوساط اليهودية من ان فلسطين صحراء ويقطنها اناس متوحشون ، واكد ان في فلسطين شعبا عربيا متحضرا وذكيا ، ويعرف ما يدور حوله، وقال « لقد اعتدنا خارج فلسطين على الاعتقاد ان كل العرب وحوش ولا يفهمون ما يدور حولهم ، وهذا خطأ كبير ، لان العرب مثل كل الشعوب السامية اذكياء وبارعين » واضاف « ان مدن سوريا وفلسطين تغص بالتجار العرب الذين يعرفون كيف يستغلون الجماهير ويخدعون القادمين ، تماما كما يحصل في اوروبا ، والعرب وخاصة التجمعات الحضرية منهم ،يرون ويفهمون اعمالنا ورغبتنا في البلد، وان تظاهروا بعدم ملاحظة ذلك » ٠

وعلى الرغم من هذه الحقيقة التي اعلنها احد كبار الصهاينة الاوائل ، فان تيودور هرتسل انكر وجود الشعب الفلسطيني عندما اطلق عبارته الشهيرة « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » ٠ وقد حدد هذا الموقف الذي اعلنه هرتسل ، السياسة العامة للحركة الصهيونية تجاه الشعب العربي الفلسطيني ، منذ ان ظهرت هذه الحركة في اواخر القرن التاسع عشر حتى الآن ، وهي سياسة تقوم على انكار وجود الشعب الفلسطيني وتجاهل حركته الوطنية وانتماءاته القومية العربية ٠ ويؤكد أهارون كوهين* ان هرتسل كان يعرف تمام المعرفة الحقيقة عن ارض فلسطين وشعبها ، ويشير بهذا الخصوص الى ان يهوديا من القدس يدعى ١٠س٠ يهودا (١٨٧٧ - ١٩٥١) وكان طالبا في فرانكفورت في العام ١٨٩٥ ، حضر المؤتمر الصهيوني الاول بصفته احد مؤسسي تجمع الناطقين بالعبرية في المانيا ، شرح لهرتسل قبل المؤتمر وخلاله حقيقة الوضع في فلسطين ، واشار عليه بضرورة الوصول الى تفاهم مع الشعب العربي هناك ٠ ويقول كوهين نقلا عن يهودا ان هرتسل ومستشاريه هزئوا من ارائه واستخفوا بها » ٠٠ كما يذكر كوهين ان ماكس نوردو ٠ والذي كان اليد اليمنى لهرتسل ، جاء لهرتسل بعد ان عرف لاول مرة الحقيقة عن فلسطين وشعبها وقال له « انا لم اكن اعرف ذلك ، اننا نقوم بعمل غير عادل ٠ » (المصدر نفسه ص ٦٥-٦٦) ٠

وعلى هامش هذا الموقف الصهيوني الرسمي والعام ، برزت مواقف اخرى لافراد او تجمعات صغيرة صهيونية ، او يهودية متعاطفة مع الصهيونية ، اخذت بالاعتبار حقيقة وجود الشعب الفلسطيني على ارض فلسطين منذ زمن طويل ، ونادت بضرورة التفاهم بين العرب واليهود في فلسطين حتى يمكن انجاح المشروع الصهيوني ٠ والقاسم المشترك بين هذه التجمعات هو :

- انها لا تنكر صهيونيتها واعتبار فلسطين وطنا قوميا لليهود ٠

---

* «Cohen, Aharoun, Israel and the Arab world, London, 1970 ص ٥٠ »

– ترى ان ايجاد الوطن القومي اليهودي يجب ان لا يتعارض كليا مع المصالح الاساسية للشعب الفلسطيني ، وذلك بتنمية مصالح مشتركة بين الطرفين تقوم على اساس استخدام الخبرة اليهودية وامكانات اليهود الاقتصادية لتطوير فلسطين لصالح الطرفين ·

– ترفض ايجاد دولة يهودية في فلسطين ، وتدعو الى قيام دولة ثنائية القومية تقوم على اساس التكافؤ والمساواة بين الطرفين بغض النظر عن عدد كل منهما ·

ولذا ، فان الافراد اليهود والصهاينة الذين كانوا يدينون بهذه الآراء ، نشطوا في البداية للاتصال ببعض زعماء الحركة الوطنية العربية قبل صدور وعد بلفور ، لخلق نوع من التفاهم او الاتفاق بين الحركة الصهيونية والحركة الوطنية العربية · والملاحظ ان هذه النشاطات كانت تقوم على اساس اقناع زعماء الحركة الوطنية العربية بفائدة الصهيونية لبلادهم والحصول على اقرار منهم بالمشروع الصهيوني في فلسطين · الا ان كل محاولاتهم باءت بالفشل ، لان الحركة الصهيونية كانت تعارض الوصول الى اتفاق او تفاهم بين العرب واليهود · اضافة الى ان العرب لم يقبلوا بالمشروع الصهيوني · ومن اوائل الذين نشطوا في هذا الاتجاه د· فيكتور جاكوبسون الذي قال « ان المعارضة العربية لمطامح الصهيونية ستكون العقبة القاتلة » وكذلك حاييم مارجليت كالفاريسكي ، والذي يدعي انه وضع مسودة اتفاقية عربية – يهودية في العام ١٩١٩ بناء على طلب من حاشية فيصل في دمشق · (المصدر نفسه ص ٧٧) ·

وحول هذه المحاولات والنشاطات يدور الكتاب موضوع المناقشة وهو عبارة عن اطروحة دكتوراه قدمتها الكاتبة لدى جامعة جنيف للحصول على دكتوراه في العلوم السياسية · ويشتمل الكتاب على مقدمة وخمسة فصول اضافة الى خاتمة تعبر فيها الكاتبة عن وجهة نظرها وتقييمها لهذه المحاولات · ويقع الكتاب في ٣٥٥ صفحة من الحجم الكبير ·

استعرضت الكاتبة في المقدمة اصول فكرة ثنائية القومية في الفكر السياسي الصهيوني، وقالت ان هذه الاصول تعود الى ثلاثة من الفلاسفة اليهود هم آحاد هعام · واهارون دافيد جوردون ، ومارتن بوبر الذي ذكرت انه كان اول من دعا لدولة ثنائية القومية في فلسطين (ص ٢٤ – ٢٥) · وعن هعام ذكرت انه كان قريبا من فكرة الدولة الثنائية القومية عندما اشار في كتابه «على مقطع العراق » « ان الحق التاريخي للشعب اليهودي في فلسطين ، لا يلغي حق بقية سكان الارض الذين لهم حقوق ثابتة في الارض بعد اقامتهم وعملهم فيها لاجيال طويلة » (ص ٢٦) كما ذكرت «ان هعام كان متشائما في آخر ايامه حول الوضع في فلسطين وكان يعتقد ان العرب سيسيطرون على الوضع ، وحذر اليهود من احتقار القومية العربية » (ص ٢٧) · وعن جوردون ، قالت انه لم يحدد شكلا دستوريا حول مستقبل الوضع لليهود والعرب في فلسطين ولكنه دعا اليهود « ان لا يبنوا انفسهم على حساب العرب » (ص ٢٨) · وحول موقف العرب من هذه الفكرة ، ذكرت انه لم يوجد ولا عربي فكر بامكان التآلف بين القومية العربية والصهيونية · باستثناء ما ادعته ان عربيا من شرق الاردن – لم تذكر اسمه – دعا الى فكرة امبراطورية سامية عوضا عن الوحدة العربية او الوحدة الاسلامية (ص ٣٢) واكدت الكاتبة « ان موقف العرب كان واضحا منذ البداية ، فعلى الرغم من تنوع تكتيكاتهم فقد بقي هدفهم واحدا وهو ان فلسطين يجب ان تبقى عربية ، وان اكثر ما يمكن ان يتوقعه اليهود من العرب هو قبولهم كاقلية ومنحهم حقوق الاقلية » · واضافت « من السهل ان يفهم المرء لماذا نظر العرب بريبة الى البرامج المعتدلة التي طرحها اليهود من دعاة ثنائية القومية ؟ ذلك انهم رأوا فيها طلاء من السكر على حبة مرة المذاق ، رفضوا ان يلبوها » (ص ١٩ – ٢٠) ·

استعرضت الكاتبة في كتابها تطور فكرة ايجاد دولة ثنائية القومية في فلسطين من العام ١٩٢٢ – ١٩٤٨ ، فخصصت الفصل الاول للفترة من ١٩٢٢ – ١٩٢٩ ، حيث كانت « برت شالوم » – جماعة السلام – ابرز التجمعات

التي ظهرت في هذه الفترة - تأسست في العام ١٩٢٥ - ، كما كانت اوضح التجمعات في دعوتها لفكرة دولة ثنائية القومية ، اضافة الى انها كانت تلقى تأييدا ودعما من البروفسور «يهودا ماغنيس» الذي عين رئيسا للجامعة العبرية عند تأسيسها في العام ١٩٢٥ . والذي يعتبر من ابرز وانشط من دعا لفكرة الدولة الثنائية - القومية . وحول هذه الجماعة ذكرت الكاتبة ان زمام المبادرة في قيامها يعود لارثر روبين (ص ٣٩) والذي كان رئيسا لشركة تطوير الاراضي في فلسطين في العام ١٩٠٨ ،كما ذكرت انها تأسست نتيجة لمحاضرة القاها البروفيسور جوزيف هورتيز في افتتاح الجامعة العبرية ، والتي اشار فيها « انه من الصعب جدا على اليهود - حتى بعد التصريحات والضمانات من الدول الكبرى ،وبعد اكتساب الارض ، ان يبقوا في فلسطين طالما لم يصلوا الى تفاهم مع العرب الذين سيبقون محيطين بهم » (ص ٣٩) .

لم تتخذ هذه الجماعة صفة الحزب او التنظيم ذي المعالم السياسية المحددة ، بل كانت تضم عدة مجموعات تتفاوت في رؤيتها ومفاهيمها سواء حول دور الجماعة وبنيتها ، او حول سياستها ، فالمجموعة الاولى والتي سادت حتى قيام اضطرابات ١٩٢٩ تكونت من رجال هاجروا الى فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى من اوروبا الشرقية باستثناء آرثر روبين الذي اتى من المانيا ، وكلهم كانوا من ذوي المؤهلات الاكاديمية العالية ، وكان حاييم مارجليت كالفاريسكي من ابرز افراد هذه المجموعة اضافة الى روبين (ص ٤٠-٤١) ، اما المجموعة الثانية فقد سادت بعد العام ١٩٢٩ ، وكانت مكونة في معظمها من مهاجرين يهود من مثقفي اوروبا الوسطى الذين كانوا يملكون خلفية ليبرالية (ص ٤١) وكانت هذه المجموعة تعمل على دفع الجماعة الى العمل السياسي الواسع (ص ٤٢) . بالاضافة الى هاتين المجموعتين فقد كانت هناك مجموعة ثالثة من المسالمين ضد الحرب والعنف ، كان من ابرزهم ناثان خوفشي ، ومجموعة رابعة من المثقفين غير الصهيونيين ، ومجموعة اخرى من المستشرقين اضافة الى مجموعة الانجلو - سكسون ، التي كان معظمها من رجال الادارة الفلسطينية (حتى العام ١٩٢٩ لم يكن يسمح لامثال هؤلاء ان يكونوا اعضاء) وكان نورمان بنتويتش ، على الرغم من انه لم يكن عضوا في الجماعة ، من اكثر النشيطين المتعاطفين معها (ص ٤٦) .

لم يصل عدد اعضاء الجماعة في اي يوم الى ٢٠٠ (ص ٣٨) وكان تأثيرها في اليهود في فلسطين محدودا . وكان لها تأثير كبير فقط في الاتحاد الصهيوني الالماني الذي كان ايضا صغيرا في عدده ومحدودا في تأثيره . (ص ٣٨). والملاحظة الجديرة بالاهتمام انه لم ينضم اي يهودي شرقي الى الجماعة ، وتقول الكاتبة ان السبب في ذلك ربما ثقافي . (ص ٤٧) .

وحول اهداف الجماعة ، تقول الكاتبة « انها لم تتأسس لتقيم مفاوضات مع العرب ولا لتعد برنامجا لحل النزاع العربي - اليهودي ، بل كان هدفها الاساسي التأثير على اليهود في فلسطين ليتبنوا موقفا معينا ازاء القضية العربية ، ومحاولة فهم العالم الشرقي الذي يجب على اليهود ان يعيشوا فيه » (ص ٤٧) ولذلك حصلت خلافات داخل الجماعة حول تحويلها الى تنظيم يقوم بنشاط سياسي واسع وان لا تظل مقتصرة على حلقات المثقفين والاكاديميين .

وحول موقف الحركة الصهيونية من الجماعة. ذكرت ان الموقف الرسمي فيها كان في البداية مشجعا .

وتقول ان وايزمن تبرع لها بمبلغ ١٠٠ جنيه من المالية الرسمية في تموز ١٩٢٧ (ص ٥٨) الا انها هوجمت بعنف في الصحافة الصهيونية واعتبرت آراؤها الهزامية بعد اضطرابات ١٩٢٩ في فلسطين (ص ٦١) لقد ضعفت الجماعة وتبعثر افرادها بعد العام ١٩٣٠ ، ولكن نشاطهم كافراد استمر .

بالاضافة الى بريت شالوم ، ذكرت الكاتبة ان مجموعات اخرى ظهرت في هذه الفترة ، كانت قريبة في افكارها من فكرة ثنائية - القومية ، الا انها لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، اضافة الى انها كانت تختلف مع

بريت شالوم . من هذه المجموعات هاشومير هتسعير ـ العامل الفتي ـ التي تأسست في غاليسيا في العام ١٩١٣ . وقد تحولت الى حزب سياسي في العام ١٩٤٨ واصبحت تعرف باسم المابام . وتذكر الكاتبة ان هذه المجموعة لم تتخذ موقفا محددا من العرب الا في العام ١٩٣٠ حيث اعلنت في مجلسها العام الثالث المنعقد في العام ١٩٣٠ ان هدفها هو « تحقيق مجتمع اشتراكي ثنائي ـ القومية في فلسطين » . غير ان هذه المجموعة كانت تنادي بوجود اكثرية يهودية في فلسطين ، واعتبر مئير يعاري ، قائدها « ان الوصول الى اكثرية يهودية ليس هدفا بل شرطا » (ص ٧١) .

الفصل الثاني يغطي الفترة من « ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ » وفي هذه الفترة كما يتضح من عرض الكاتبة لم تبرز تجمعات محددة تنشط باتجاه الفكرة الثنائية ـ القومية . وتأثرت هذه الفترة باضطرابات ١٩٢٩ التي حددت ملامح يائسة لاي تقارب عربي ـ يهودي ، كما تأثرت بنهوض النازية في اوروبا وازدياد الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، حيث ان الصهاينة بدأوا يرون امكانية ان يصبحوا اكثرية في فلسطين خلال فترة قصيرة . وعليه فان الفصل يشتمل على بعض المواقف لحاييم وايزمن ودافيد بن غوريون ، اضافة الى استعراض فكرة تقسيم فلسطين الى كانتونات عربية ويهودية في دولة موحدة . وحول موقف وايزمن، تذكر الكاتبة في انطباعها الخاص عن وايزمن انه كان ميالا لافكار بريت شالوم ، الا ان اصطدامه بالاوضاع السياسية اليومية جعل آراء وافكار بريت شالوم ليست كافية (ص ٨٣) . وتنقل عنه انه انتقد في المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين المنعقد في بالتيمور ، الذين يتهمون الداعين الى التعاون بين العرب واليهود انهم باعوا انفسهم للعرب ، وانه قال « يجب ان نصل الى تفاهم مع هذا الشعب » واضاف « حتى لو وصل اليهود الى اكثرية في فلسطين ـ كما آمل ـ فانه سيكون امرا عديم الجدوى ان نبقى جزيرة في بحر عربي » (ص ٨٤) .

وحول موقف بن غوريون ، تذكر الكاتبة انه في العام ١٩٢٩ وحتى العام ١٩٣٤ كان يرى ان فكرة ايجاد كانتونات عربية ويهودية يمكن ان تكون حلا لقضية العرب واليهود في فلسطين ، الا انه كما تذكر الكاتبة تراجع عن آرائه هذه بعد العام ١٩٣٦ ، حيث كان واضحا في دعوته الى ايجاد دولة يهودية في فلسطين ، (ص ١١٢) ولا سيما بعد ان تصاعدت الهجرة اليهودية الى فلسطين بعد سيطرة النازية في المانيا .

وحول فكرة الكانتونات تقول الكاتبة انها كانت فكرة فردية لعدة اشخاص في فلسطين وخارجها وان « اتمار بن افي » يعتبر ابو الفكرة ، حيث حاول في اعقاب الحرب العالمية الاولى اقناع بن غوريون وبرانديس بخطة ايجاد حكومات محلية مستقلة للمستعمرات اليهودية في فلسطين (ص ١١٦) .

وتذكر الكاتبة ان فكرة تقسيم فلسطين الى كانتونات عربية ويهودية كانت رائجة في بريطانيا في العامين ١٩٣٥ و ١٩٣٦ . وقالت ان افضل المشاريع التي طرحت بهذا الخصوص كان مشروعا اعده ارثر كوست الذي عمل في الادارة الفلسطينية فترة من الزمن ، وبعث بمشروعه الى وزارة المستعمرات البريطانية في العام ١٩٣٥ (ص ١٢٦) .

وتذكر الكاتبة ان بعض العرب اخذوا بعين الاعتبار فكرة الكانتونات . منهم احمد الخالدي الذي ذكرت انه دعا الى قيام كانتون عربي وآخر يهودي ، يشرف عليهما مجلس تنفيذي اعلى ، على اساس ان يضم الكانتون العربي مناطق غزه ، بير السبع ، المجدل ، القدس ، حيفا ، رام الله ، نابلس ، جنين ، طولكرم ، عكا ، ووادي الاردن ، بيت لحم وبيسان . اما اليهودي فيتشكل من المنطقة الممتدة من تل ابيب الى حيفا الى الغرب من سكة الحديد ، ومن حيفا الى بيسان الى الغرب من خط سكة حديد الحجاز ، ومن بيسان لطبريا ، ومن طبريا للحولة ، في حين تكون مدن القدس والخليل وبيت لحم وصفد والناصرة مدنا مفتوحة . وان يكون ميناء حيفا ميناء حرا . على ان يكون لكل كانتون مجلس تشريعي ، وان يتشكل مجلسا تنفيذيا اعلى يضم الاثنين. (ص ١٤٢ ـ ١٤٣) . وادعت الكاتبة ان جريدة

فلسطين نشرت مشروع الخالدي في ٢٧ / ١٢ / ١٩٣٣ دون ان تذكر اسمه ، وان الجريدة اشارت الى ان حزب الماباي رفض هذا المشروع لانه يحدد الاستيطان الصهيوني في منطقة معينة من فلسطين * .وتقول الكاتبة ان الخالدي بعث بمشروعه الى ماغنيس واوضح له في رسالة في تموز ١٩٣٤ انه لا يعتبر تقسيم فلسطين الى مناطق عربية ويهودية بمثابة حل مثالي ، بل حلا عمليا واكد له مجموعة من النقاط منها «ان اي مشروع لا يمكن ان يقبل من العرب ما لم يتحقق اليهود من انه يجب ان يكون هناك حد معقول لموضوعة ايجاد وطن قومي لليهود سواء في الارض او عدد السكان » (ص ١٢٤).
كذلك تذكر الكاتبة ان موسى العلمي دعا في تقرير له الى وزارة المستعمرات البريطانية في ايلول ١٩٣٣ ، الى اقتطاع قسم من فلسطين يمتد من تل ابيب الى عتليت مع عمق يغطي المستعمرات اليهودية في تلك المنطقة ، لتأسيس كانتون يهودي مستقل ، يسمح فيه لليهود بجلب ما يشاؤون من المهاجرين اليهود اليه . على ان يترافق ذلك مع انشاء حكومة مركزية تضم كل فلسطين بما فيها الكانتون اليهودي تحت اشراف الانتداب البريطاني (ص ١٢٦).

وتقول الكاتبة ان هذين المشروعين العربيين « يعتبران من اكثر المشاريع اعتدالا والتي يمكن توقعها . ولربما المرء يظن انهما يمكن ان يرضيا على الاقل اليهود من دعاة الدولة ثنائية - القومية .ولكن مما هو جدير بالملاحظة ان كل اليهود من دعاة ثنائية - القومية سواء بريت شالوم او هاشومير هتسعير ، كانوا يرفضون اي حل يرسي حدودا من اي نوع داخل فلسطين . وهذان المشروعان اللذان يقومان على اساس ايجاد حل نهائي وتحديد الهجرة اليهودية في مساحة ضيقة من الارض ، اصغر بكثير مما يمكن لاكثر اليهود اعتدالا من دعاة تقسيم فلسطين الى كانتونات عربية ويهودية، القبول بهما » (ص ١٢٦) .

وقبل الانتهاء من عرض هذا الفصل لا بد من الاشارة الى موقف الدكتور حاييم ارلوزوروف (١٨٩٩ - ١٩٣٣) والذي كان يعتبر من اصغر قادة ثلاثة في الحركة الصهيونية ، هاجر الى فلسطين من المانيا في العام ١٩٢١ واغتيل في فلسطين في العام ١٩٣٣ ، ولا زالت قضية اغتياله حتى الآن مجهولة او لم يكشف النقاب عنها بعد . وتذكر الكاتبة ان آرلوزوروف كان من دعاة التفاهم العربي - اليهودي ، وتنبأ من صغره منذ كان عمره ٢٢ عاما ان الوطن القومي اليهودي في فلسطين سيظل محكوما بالتفاهم المتبادل بين العرب واليهود ، وكتب في العام ١٩٢١ « في وضعنا الحالي وفي ظل رغبتنا للحفاظ على انفسنا اكثر ما نستطيع ، وحرية العمل في سبيل بناء وطننا القومي اليهودي ، فانه ليس امامنا الا طريق واحد ، طريق السلام ، فقط سياسة قومية تقوم على اساس التفاهم المتبادل بيننا وبين العرب » (ص ٨٥) .

بالاضافة الى ذلك فان الكاتبة تذكر ان جماعة صغيرة في حزب الماباي اطلقت على نفسها « مجموعة الاعضاء الاشتراكيين في الماباي » انتقدت سياسة الماباي من العرب وايدت فكرة الدولة الثنائية - القومية . مما اضطر قيادة الحزب الى طرد اعضاء المجموعة من الحزب ، حيث انتهت بعد ذلك كمجموعة سياسية . (ص ١٠٣ - ١٠٥) .

يغطي الفصل الثالث الفترة بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، وهي من اكثر الفترات اضطرابا في فلسطين . وفي هذه الفترة ابدت بريطانيا اهتماما اكبر بموضوع حل الوضع في فلسطين ، ولا سيما بعد اندلاع الثورة الفلسطينية في العام ١٩٣٦ ، وتزايد عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين . ولذا تعددت المشاريع البريطانية ،

---

* لدى مراجعتنا للعدد المذكور من الجريدة في مكتبة مركز الابحاث تأكد لنا نشره بمزيد من التفصيل ولا سيما الاشارة الى ان الحكومة المركزية التي ستتشكل من العرب واليهود يجب ان تقوم على اساس نسبة عدد السكان في المنطقتين . اضافة الى ذلك اشارت في مقدمة المشروع ، الى ان المشروع كان خلاصة حديث اجراه البعض مع ممثلي وزارة المستعمرات البريطانية اثناء زيارتهم الاخيرة للقدس .ولم تحدد الجريدة من تعني بهذا البعض .

وكان اهم هذه المشاريع ، المشروع الذي قدمته لجنة بيل بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود .

استعرضت الكاتبة في هذا الفصل مجمل النشاطات التي قام بها دعاة الدولة ثنائية - القومية ، حيث نشطوا ضد قرار التقسيم ، ومن ابرز هؤلاء كأفراد كان ماغنيس الذي شكل واربعة آخرين مجموعة عرفت باسم مجموعة الخمسة ، (ص ١٤٤) ، ومن التجمعات كانت مجموعة « كديما مزراحا » - التقدم نحو الشرق - التي تأسست في العام ١٩٣٦ ، وضمت معظم اعضاء بريت شالوم اضافة الى مجموعة من اليهود الشرقيين ومستوطنين قدامى من اليهود في فلسطين . وتقول الكاتبة ان المجموعة لم تطرح نفسها على انها صاحبة وجهة نظر محددة في ايجاد حل للمسألة العربية - اليهودية ، بل حددت هدفها في انه « معرفة الشرق واقامة علاقات ثقافية ، اجتماعية ، واقتصادية مع شعوب الشرق » كذلك فانها عملت على اساس عدم التنسيق الكامل مع المؤسسات الصهيونية العليا في فلسطين ، وكانت تدعو الوكالة اليهودية الى تكوين لجنة سياسية مشتركة بممثلين متساوين منها ومن المؤسسات الصهيونية العليا لمتابعة النظر في ايجاد حلول عملية للعلاقات بين العرب واليهود . (ص ١٣٨ - ١٣٩) . وتقول الكاتبة ان معظم نشاطات المجموعة كانت تبدو وكأنها نشاطات كالفاريسكي نفسه الذي نشط في هذه الفترة لمقابلة عدد من الزعماء العرب في فلسطين وفي سوريا ولبنان . (ص ١٤٣) . كذلك تذكر الكاتبة ان الوكالة اليهودية لم تبد ارتياحا لنشاطات المجموعة واعتبرتها غير مخولة بعقد اية محادثات مع العرب (ص ١٤٤) .

بالاضافة الى ذلك فقد استعرضت الكاتبة في هذا الفصل عددا من المشاريع البريطانية غير الرسمية والتي قامت على اساس رفض التقسيم وايجاد دولة موحدة بين العرب واليهود في فلسطين تقوم على اساس المساواة والتكافؤ بين الطرفين ، ومن هذه المشاريع ، المشروع الذي طرحه هربرت صموئيل (ص١٥٩ - ١٦٠) وكذلك مشروع هايمسون - نيوكمب .

وهايمسون كما تعرفه الكاتبة بأنه يهودي غير صهيوني من بريطانيا كان مدير دائرة الهجرة في فلسطين ، اما نيوكمب فتعرفه بأنه كان مناصرا للعرب واحد مؤسسي مكتب المعلومات العربي في لبنان (ص ١٧٦) وقد توسعت الكاتبة في عرض هذا المشروع وتوضيح وجهة نظر العرب وكذلك الوكالة اليهودية من المشروع ، وتذكر الكاتبة ان هايمسون في رسالته حول المشروع الى وزارة المستعمرات البريطانية ذكر انه تم عرض المشروع على المرحوم الحاج امين الحسيني وابدى بعض التحفظات عليه (ص ١٧٧) . كما تذكر ان الحاج امين وضع صيغة معدلة للمشروع (ص ١٧٨ - ١٧٩) الا ان الكاتبة تعود وتذكر ان الهيئة العربية العليا في فلسطين اعلنت في ٢٤ / ١٢ / ١٩٣٧ بيانا وضعت فيه ما يثار من حديث عن محادثات وحلول معينة للمسألة الفلسطينية مجرد اشاعات ولا اساس لها من الصحة ، واكدت فيه ان المرحوم الحاج امين لا يمكن ان يوافق على مثل هذه الحلول (ص ١٨٧) . ان العرض الذي قدمته الكاتبة حول هذا المشروع وردود الفعل العربية واليهودية تجاهه مضطرب ومشوش ، واعترفت الكاتبة بذلك في البداية عندما قالت « ان التقارير حول الموضوع برمته معقدة ومتناقضة » . (ص ١٧٦) .

ومن الملاحظات التي ذكرتها الكاتبة ، ولا بد من تسجيلها هنا ، هي :

- حول نشاط ماغنيس ، تقول الكاتبة انه لاقى معارضة من معظم الصهيونيين ولم يؤيده او يساعده الا افراد ومجموعات متعاطفة مع فكرته ومعظمهم يهود غير صهيونيين وغير يهود . (ص ١٧٠) .

- من المنظمات الصهيونية التي عارضت فكرة التقسيم كانت هاشومير هتسعير ، التي دعت الى قيام مجتمع اشتراكي ثنائي القومية (ص ١٦٩) .

- ان الحركة الصهيونية رفضت التقسيم كما ورد في تقرير لجنة بيل ، وشجعت فكرة التقسيم من حيث المبدأ . (ص ١٦٩) .

– ان وزارة الخارجية البريطانية شجعت المحاولات المتعددة التي قام بها عدد من الانكليز لايجاد حلول بديلة للتقسيم ، في حين ان وزارة المستعمرات البريطانية كانت تتصرف على اساس انها مرتبطة بالتقسيم ، حتى تم رفض التقسيم من قبل بعثة وود هيد ، وبعد ان غير الوضع في اوروبا الموقف كله تجاه الشرق الاوسط (ص ١٩٥) .

– ذكرت الكاتبة ان هربرت صموئيل ذكر في رسالة له الى اورسبي جور ، ان عوني عبد الهادي قال له بدون تردد ، ان العرب يقبلون اقتراح نسبة ٤٠٪ لليهود ، اذا لم تكن محددة بفترة زمنية وكانت كحل نهائي . (ص ١٩٤) .

يغطي الفصل الرابع الفترة من سنوات ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، وابرز ما في هذا الفصل ثلاثة امور .

١ – اتحاد جميع المنظمات والافراد من دعاة الدولة الثنائية – القومية في تجمع واحد اطلقوا عليه اسم « عصبة التقارب والتعاون العربي – اليهودي » وذلك اثر فشل مؤتمر لندن ، وقد انضمت هاشومير هتسعير مؤخرا الى العصبة ، في حين انها كانت تبدي تأييدا واسعا لها قبل انضمامها .

٢ – موافقة اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية على تشكيل لجنة تابعة للوكالة اليهودية ، لبحث المسألة العربية ، وقد تألفت اللجنة من سبعة اشخاص منهم اربعة من دعاة الدولة ثنائية – القومية ، من بينهم ماغنيس وكالفاريسكي ،وعين ساسون سكرتيرا للجنة ، وكان يوصف في اوساط اللجنة بأنه « جاسوس الوكالة » (ص ٢٣٨) . وحول مهمة اللجنة ، تقول الكاتبة ان بن غوريون حددها في اول اجتماع للجنة حين قال « ان هذه اللجنة ليست لجنة عمل ، ولا وظيفتها التوسط بين العرب واليهود ، وادارة النقاش بين الطرفين للوصول الى اتفاق ، كذلك فليس من مهمة هذه اللجنة انتقاد اللجنة التنفيذية . ان وظيفتها هي البحث في المسألة العربية ووضع اقتراحات وحلول عامة حولها » (ص ٢٣٧) .

وتؤكد الكاتبة ان هدف الوكالة اليهودية من تشكيل هذه اللجنة كان « اسكات – ولو لبعض الوقت – كل هذه الاصوات التي كانت تنتقد الوكالة اليهودية بانها لم تعمل شيئا على الجبهة العربية ، فوضعت المزعجين الرئيسيين في لجنة واحدة تحت سيطرتها » (ص ٢٣٧ – ٢٣٨) .

لقد فشلت اللجنة في تحقيق اية نتيجة ، وكانت وجهات نظر اعضائها مختلفة ، ولم تغير المناقشات التي جرت ايا من وجهات نظرهم الاساسية ، ولم تتفق اللجنة على صياغة تقرير موحد في ختام اعمالها ، ولذلك صدر عنها تقريران ، الاول اقر بالاغلبية ، والثاني كان تقرير الاقلية . (ص ٢٣٨ – ٢٤١) ولمتعر الحركة الصهيونية ايا منهما اهتمامها وكما تقول الكاتبة فقد صدر تقرير الاغلبية في وقت سيء ، ولم يجد من يتعاطف معه ، حيث كان اجتماع بلتيمور الذي دعا الى قيام دولة يهودية في فلسطين (ص ٢٤٩) .

٣ – في اواسط عام ١٩٤٢ تم تشكيل منظمة جديدة « ايحود» – الوحدة – كان اكثر اعضائها من عصبة التقارب العربي – اليهودي ، وكان ماغنيس وكالفاريسكي وسميلانسكي من الاعضاء المؤسسين لها (ص ٢٥٩) وحدد ماغنيس موقفها ، فنفى ان تكون ضد الصهيونية ، واكد انها ضد انشاء دولة يهودية او عربية في فلسطين ، واوضح ان منظمته مع ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين يقوم على اساس الحقوق المتساوية لكلا الطرفين – العرب واليهود – في دولة ثنائية القومية ، واشار الى ان منظمته ترحب بقيام اتحاد بين فلسطين والاردن وسوريا ولبنان ، وان يرتبط هذا الاتحاد مع العالم الحر وبشكل خاص مع اميركا وبريطانيا . (ص ٢٦١ – ٢٦٢) .

ومن احدى الاتهامات التي وجهتها الحركة الصهيونية للمنظمة ، تتعلق بموقفها من الهجرة اليهودية ، والقول بأن ماغنيس قبل ان يكون اليهود اقلية في فلسطين بنسبة٤٠٪ . وقد نفت المنظمة ذلك ، واكدت انها ضد اي تحديد للهجرة اليهودية يثبت اقليتها بشكل

دائم · (ص ٢٦٩) · وتؤكد الكاتبة ان قبول ماغنيس بأقلية ٤٠٪ لليهود كان على اساس ان ذلك لفترة محدودة وليس دائما (ص ٢٦٨)·

لقد قام دعاة الدولة الثنائية ـ القومية بنشاطات واسعة في هذه الفترة ، سواء على صعيد اتصالاتهم ببعض العرب ، او على صعيد محاولة تقاربهم مع الحركة الصهيونية ، وكذلك على صعيد صياغة برامج محددة لمواقفهم ، الا ان مواقفهم ونشاطاتهم كانت تصطدم باستمرار بموقف الحركة الصهيونية ، التي كانت ترفض مثل هذه البرامج · وقد عبر عن ذلك سميلانسكي حين قال « طالما ان فكرة دولة يهودية موضوعة على جدول الاعمال فانه لن يكون هناك امكان لاتفاق عربي ـ يهودي » (ص ٢٦٩) ·

الفصل الخامس يغطي الفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ · وفي هذه الفترة قام دعاة الدولة ثنائية ـ القومية ، بجهد اخير ولكن بدون نتيجة تذكر · وكما تقول الكاتبة « فقد كانت السنوات الاخيرة من الحرب وكذلك السنوات الثلاث التي تلتها كانت سنوات المأزق او الازمة بالنسبة لدعاة الدولة الثنائية ـ القومية حيث لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون » (ص ٢٧٧) ·

وفي هذه الفترة ، تذكر الكاتبة ان العصبة توصلت في العام ١٩٤٦ الى اتفاق مع شخص يدعى فوزي درويش الحسيني الذي كان رئيس منظمة عربية تدعى « فلسطين الجديدة » كما تقول الكاتبة · وتضيف ان الحسيني واربعة آخرين من منظمته وقعوا اتفاقية مع العصبة، عبروا فيها عن موافقتهم على برنامج العصبة الذي طرحته في اواسط ١٩٤٢ · (ص ٣٠٤) · الا ان الحسيني اغتيل في ٢٣ / ١١ / ١٩٤٦ من قبل وطنيين عرب وبقيام « دولة اسرائيل » انتهت فكرة الدولة الثنائية ـ القومية وماتت· وتقول الكاتبة ان من بقي من اصحاب هذه الفكرة كيف نفسه ووضعه مع قيام الدولة وقبل بها واخذ يعمل للدفاع عن حقوق الاقلية العربية التي بقيت في فلسطين ، ومنهم من اختار مغادرة فلسطين · (ص ٣١٧) ·

من خلال العرض المطول الذي قدمته الكاتبة، يتضح ان فكرة دولة ثنائية ـ القومية ، كانت محض خيال ولا يمكن ان تقوم ، فالصهاينة كانوا يسعون الى قيام دولة يهودية في فلسطين ، وبالتالي فانهم كانوا يرفضون اي حل يحد من الهجرة اليهودية او من استيلائهم على الاراضي ، كما كانوا يرفضون الوصول الى اي اتفاق مع العرب يحد من قدرتهم على قيام دولة يهودية ، وكما قال روبين في يومياته في ٢٥ / ٤ / ١٩٣٦ « لقد وصلت الى نتيجة ، وهي انه محكوم علينا ان نعيش في دولة بحرب دائمة ومستمرة مع العرب » (ص ١٣٩) · ذلك انه لا يمكن التوفيق بين حق العرب في وطنهم فلسطين وبين المشروع الصهيوني ، واية صيغ من هذا النوع ، ستظل مجرد فكرة ومحض خيال ، ولا يمكن ان نجد تطبيقها على ارض الواقع ·

لقد ظل دعاة الدولة الثنائية ـ القومية ، على هامش الحركة الصهيونية ، ولم يستطيعوا ان يحدثوا اي تأثير ولو محدود على السياسة العامة للحركة الصهيونية · ويلاحظ من يقرأ الكتاب ، ان الاشخاص الذين تبنوا هذه الفكرة ، ظلوا هم انفسهم منذ العام ١٩٢٢ حتى العام ١٩٤٨ ، مما يدل على ان دائرة فعلهم كانت محدودة بأنفسهم وبالقلائل الذين يحيطون بهم ·

غازي الخليلي

CHAIM HERZOG, **The War of Atonement,** (WEIDENFELD AND NICOLSON, LONDON, 1975)

منذ البداية ، يلمس القارىء في المقدمة ان المؤلف يدس مادة دعائية مباشرة، حين يتحدث عن حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ باعتبارها قصة نصر اسرائيلي متميز وقصة حرب جديدة في طرازها تذكر العالم الغربي « الحر » بالمخاطر التي تتهدد الديمقراطية الغربية . وبالطبع لا عجب في ذلك فالكاتب رأس المخابرات العسكرية الاسرائيلية مرتين فيما سبق ، فضلا عن كونه احد قادة الرأي في اسرائيل ، وكان المعلق العسكري الاسرائيلي ابان نشوب القتال ، وهو اليوم مندوب اسرائيل في الامم المتحدة .

ومن بين الفصول الثمانية عشر التي يتضملها الكتاب ، يخصص هرتزوج الفصلين الاولين لتحليل الاوضاع الاستراتيجية السابقة على الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة . وهو يرى ان الجذور الحقيقية لحرب « يوم كيبور» ترتد الى حرب الايام الستة التي كانت ذات تأثير عميق على كل من طرفي الصراع . لقد حفزت تلك الحرب العرب على اعادة تقييم الوضع العسكري بالكامل ، في حين ان الاسرايليين اخفوا تحت البساط اوجه القصور التي كشفت عنها اذ ان نشوة النصر جعلت الجميع يغض النظر عنها واحاطت المفاهيم العسكرية الناتجة من الحرب بهالة من القداسة مما هيأ الاذهان للحرب التالية وكأنها بمثابة حرب اليوم السابع .

لقد ظل التفكير الاستراتيجي لرئاسة الاركان الاسرائيلية ، منذ عام ١٩٤٩ ، يرتكز على ضرورة اخذ زمام المبادرة وذلك بشن هجوم وقائي ضد الدول العربية في حالة اشتعال الموقف ، وذلك لافتقار اسرائيل الى العمق الاستراتيجي . وجاءت نتائج الجولة الثالثة فتغير المركز الاستراتيجي لاسرائيل بسبب ابتعاد المطارات المصرية عن مناطق التجمع السكاني في اسرائيل لتصبح على بعد ست عشرة دقيقة بدلا من اربعة دقائق . ومع ذلك

يرى المؤلف ان ضياع سيناء من مصر قد افقد اسرائيل ميزة استراتيجية نسبية اذ كان مجرد تحرك القوات المصرية عبر قناة السويس الى سيناء يحمل لاسرائيل معنى الانذار تستطيع معه ان تدعو الى التعبئة في وقت مبكر . اما تمركز الجيش المصري باستمرار على الضفة الغربية للقناة فقد ضيع على الجيش الاسرائيلي فرصة الانذار المبكر هذه .

على اية حال ، فمن خلال تمركز الجيش المصري بطول القناة شن الرئيس عبد الناصر حرب الاستنزاف في مارس ١٩٦٩ ، مما حمل العسكريين الاسرائيليين على السعي لاعداد نظام دفاعي في سيناء انتهى باقامة مجموعة تحصينات قوية اطلق عليها فيما بعد خط بارليف . ولما تضاعفت حرب الاستنزاف لجأت اسرائيل الى شن هجمات مضادة في عمق مصر، وانتهت بقبول كل من اسرائيل ومصر لمبادرة روجرز وزير الخارجية الامريكية . وبدأ وقف اطلاق النار في ٧ اغسطس (آب) ١٩٧٠ ، بعد ان نجحت مصر في تحريك قواعد الصواريخ قريبا من حافة القناة . وكان هدف عبد الناصر هو التمهيد للمرحلة التالية من خطته وهي السيطرة على جزء من الضفة الشرقية لقناة السويس تحت حماية مظلة الصواريخ في الغرب . الا ان وقوع تطورات هامة وهي احداث سبتمبر (ايلول) في الاردن التي اطاح فيها الملك حسين بوجود المقاومة الفلسطينية من هناك ، ثم وفاة عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ اثر بعمق على سير الاحداث .

ويستطرد الكاتب في وصف المسرح السياسي والدولي والمجهودات التي بذلها الرئيس السادات من اجل البحث عن حلول للمشاكل المعقدة التي تمخضت عن استمرار وضع الهزيمة ، ويروي قصة كفاحه خلال العامين ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ضد مراكز القوى ومع السوفييت للحصول علىمزيد من السلاح ومحاولته المستمرة توريط الامريكيين في نزاع الشرق الاوسط

بصورة مباشرة . ويقف المؤلف عند واقعة انهاء مهمة الخبراء السوفييت في الجيش المصري خلال عام ١٩٧٢ وكيف انها لقيت ترحابا في اسرائيل ، رغـم انهم اساءوا فهم الغرض الحقيقي منها والذي كان كامنا لدى الرئيس المصري وجوهرية التوجه الى الحرب .

لقد ظلت مشكلة الحصول على قاذفات بعيدة المدى تعادل الفانتوم ، ونعني بها الميج ٢٣ ، تؤرق القيادة المصرية لتستطيع ان تروع بها اسرائيل بتهديد مراكز الكثافة السكانية فيها. وقد قدرت المخابرات الاسرائيلية ان مصر لـن تستطيع الحصول على مثل هذا السلاح قبـل عام ١٩٧٥ ، الامر الذي رتبوا عليه توقع عـدم نشوب الحرب قبل هذا التاريخ .

ويسوق هرتزوج الحديث الصحفي الهـام الذي ادلى به الرئيس السادات في ٩ ابريل عام ١٩٧٣ الى بورشجريف محرر النيوزويك، والذي الح فيه الى حتمية المعركة . وكيف ان مختلف المراقبين الاسرائيليين والغربيين - باستثنـاء هنري كيسنجر - لـم يعيروا هذا الحديـث الاهتمام الواجب بسبب اعتقادهم بخطـورة مشكلة القاذفات البعيدة المدى بالنسبة لمصر.

ويروي الكاتب كيف ان النجاح الاعظم للرئيس المصري تمثل في انجازاته - بالتنسيق مـع الرئيس السوري حافظ الاسد - في توحيـد العالم العربي رغم ما لقيه من متاعب . وتدعم موقف كل من مصر وسوريا بحصولهما علـى الصواريخ الروسية سكود وفروج بعيدة المدى . وكان اقوى رد على التهديد الجوي الاسرائيلي التنسيق مع الدول النفطية العربية لاستخدام سلاح البترول .

وفي الفصلين الثالث والرابع يعالج المؤلف تلك الشبكة المعقدة من العوامل والعلاقات التـي كونت نسيج الوضع الاستراتيجي والسياسـي بين المتصارعين قبل اندلاع القتال ، والتي ادت فيما بعد الى ذلك الخطأ الفاحش الذي وقعت فيه القيادة الاسرائيلية حين اساءت تقديـر النوايا المصرية والسورية لدرجة جعلت حاييم هرتزوج يقول ان الاسرائيليين كانت لديهـم العيون - التي كانت ترى الحشود وكل اشارات الحرب - ومع ذلك فانهم ما كانوا يبصرون .

لقد وضع العرب خطتهم على العديـد مـن الدراسات للمذهـب العسكري الاسرائيلـي ، ولاحظوا بمزيد من الغبطة الثقة المفرطة بالنفس لدى الاسرائيليين . وبينما ركن الاسرائيليون الى اوهامهم تلك عمد المصريون الى تحليل كل المشاكل التي يتوقعون ان تجابههم عند قيامهم بعبور قناة السويس . وعلى سبيل المثال تم تسليح الموجات الاولـى من المشاة بمدافـع صاروخية ضد الدبابات ، وكان واحدا مـن الحلول المناسبة لتأمين الاندفاعة الاولى مـن الهجوم . كما تم تزويدهم بالذخيرة الكافيـة والسلالـم وخراطيم المياه والمدافع السهلـة الحركة ، وذلك لتأمينهم عند اقتحام الساتـر الترابي على الضفة الشرقية للاستيلاء عـلى خط بارليف .

ويقول هرتزوج انه كلمـا اقتربت ساعـة الصفر ازداد حذر الجنود المصريين لدرجـة ان نحو ٩٥٪ منهم عرفوا بالحرب صباح يـوم ٦ اكتوبر فقط ، معنى ذلك ان المخططين العرب نجحوا في تضليل القوات الاسرائيلية والمخابرات الغربية الى ابعد حد .

لقد ظلت المخابرات الاسرائيلية اسيرة فكرتها الجامدة ، بان السادات لن يبدأ بشن الحرب طالما لم يجد حلا لمشكلة الهجوم الاسرائيلـي الجوي في العمق ، وهذه الفكرة اسدلت عـلى عيونهم غشاوة كثيفة جعلتهم لا يدركون ابعاد التحركات التي تتراءى لهم والتي ظنوا انها لا تعدو ان تكون مناورات ليس الا . وفي اليومين السابقين عـلى اندلاع القتال ايقـن القادة الاسرائيليون ان الحرب باتت وشيكـة لدرجة جعلت دافيد العازار يقترح توجيه ضربة وقائية ضد سوريا .

وفي اجتمـاع عقـد برئاسـة غولدا مائير في الثامنة صباح السبت توقع الجميع الحرب في السادسة مساء نفس اليوم ، لذا فوض رئيس الاركان بالدعوة الى تعبئة مائة الف مـن الاحتياط . وجاءت الساعة الحاسمة حين اجتمع مجلس الوزراء في الظهر ، حين تم استدعـاء

اعضائه من منازلهم ومن المعابد ، وخلال المناقشات قدمت التأكيدات بأن الخطوات التي اتخذت للتعامل مع الهجوم كافية لايقافه حتى يتم تطوير الهجوم المضاد • وفي تمام الثانية الا خمس دقائق ، ووسط النقاش ، فتح الباب جنرال ليور السكرتير العسكري لرئيسة الوزراء ، وصاح قائلا « الاخبار ان الحرب بدأت » •

خصص المؤلف الجزء الاعظم من كتابه ، ال اثني عشر فصلا ، لمعالجة تطور المعارك على الجبهتين الشمالية والجنوبية • وقد صور الاهمية الاستراتيجية لهضبة الجولان ، وهي تطل على الجليل ومناطق الكثافة السكانية ، بأن جعل وجود القوات السورية عليها بمثابة ذئب يقف على باب حظيرة للغنم • وتناول تفصيلا مراحل الهجوم السوري الكاسح ثم مراحل الهجوم الاسرائيلي المضاد • لقد دارت معارك وحشية ضارية في الهضبة السورية ومن اجل السيطرة على مرصد جبل الشيخ ، ودار التصادم بالمدرعات واستخدم الاسرائيليون سلاحهم الجوي بكثافة كبيرة ولقي مقاومة عنيفة من الصواريخ المضادة •

وعلى نفس المنوال تناول هرتزوج تفاصيل معارك الجبهة المصرية في ستة فصول مبينا فيها كيفقام الجيشان الثاني والثالث باقتحام قناة السويس وخط بارليف •ويشرح كيف كانت القيادة الاسرائيلية متنبهة الى ان الهجوم كان وشيكا ، فقد كان فريق من المهندسين قد وصل صباحالسبت ٦ اكتوبر واخذ يشرح للجنود الاسرائيليين كيفية تشغيل الانابيب والقنابل الفوسفورية التي تشعل النار في مياه القنال حين انهالت فوق رؤوسهم قنابل المدفعية المصرية • ويروي كيف قتل جنرال البرت مندلر قائد المدرعات ثم كيف شن المصريون هجومهم الكبير بالمدرعات يوم ١٤ اكتوبر • ويشرح باسهاب عملية العبور الاسرائيلي في الثغرة عند الدفرسوار والتي كان قد خطط لها منذ زمن بعيد •

ثم يعالج الكاتب في الفصل ما قبل الاخير وقائع الحرب الجوية والبحرية بين المتقاتلين • ويحاول التقليل من اهمية الخطوة الاستراتيجية البارعة التي اقدمت عليها البحرية المصرية حين اغلقت باب المندب في وجه الملاحة الاسرائيلية ، وذلك بابرازه جهود البحرية الاسرائيلية المتمركزة في شرم الشيخ لفرض حصار على خليج السويس وبالاخص ضد تزويد مصر ببترول حقل مرجان •

ويشير الكاتب الى حادث الهجوم الفدائي الفلسطيني يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٣ على قطار الحدود التشيكية النمساوية الذي اعقبه قرار المستشار كرايسكي اغلاق معسكر شناو للمهاجرين من اليهود السوفييت • وشد هذا الحادث اهتمام الحكومة الاسرائيلية عنالانتباه الى التطورات على خط وقف اطلاق النار على الجبهتين ، لدرجة ان غولدا مائير سافرت من ستراسبورغ الى فيينا لمقابلة المستشار النمساوي لتستحثه على اعادة النظر في قراره ثم عادت يوم ٣ اكتوبر لتعقد اجتماعا لمجلس الوزراء يناقش المسألة •

ويرى هرتزوج انه لم يثبت حتى اليوم ان حادثة معسكر شناو كانت جزءا من الخطة العامة التي وضعت لخداع اسرائيل وشد انتباهها بعيدا عن الجبهة • ولكن على اية حال فقد كانت الجماعة التي نفذت العملية تنتمي الى واحدة من كبريات منظمات المقاومة •

كما كان للهجمات التي قام بها الفدائيون عبر الحدود ، والحملات المضادة التي قام بها سلاح الطيران الاسرائيلي ، دورها في تصور الاسرائيليين ان ما قام به السوريون من انشاء قواعد للصواريخ ارض ـ جو كان يستهدف اضعاف فاعلية مثل هذه الحملات ، وليس شن الهجوم العام الذي شهده السادس من اكتوبر •

ويعتبر الفصل الثامن عشر اهم فصول الكتاب قاطبة ، ففي اكثر من عشرين صفحة ضمن المؤلف ابرز الدروس المستفادة من الحرب في شتى النواحي الاستراتيجية والتكتيكية والعملياتية • بل انه قيم التفكير الاسرائيلي السياسي والعسكري وبين مناص النقص والجمود فيه •

يرى هرتزوج ان الاخطاء الرئيسية التـي اقترفتها اسرائيل في حرب الغفران تمت اصلا ، ويا للتناقض ، من انتصار حرب ١٩٦٧ ٠ لقد رسخ فيعقيدة الاسرائيليين ان الدبابة والطائرة يمكنهما ان تنجزا كل الامور ، ومن ثم اقاموا قواتهم بطريقة غير متوازنة ٠ وعلى العكـس من ذلك عمل المصريون على تحييد كل مـن الدبابة والطائرة وتأخير عملية تعبئة الاحتياط لدى الجيش الاسرائيلي ٠

يضاف الى ما سبق خطأ آخر اذ لم تستفد القيادة الاسرائيلية من المعلومات التي قدمتها المخابرات عن صواريخ ساجر المضادة للدبابات٠ كما اهملوا دور المدفعية المتوسطة التي وصلت ساحة القتال متأخرة ٠ وكشفت الحرب ضرورة ان تتعامل القوات الارضية مع كل المشاكـل التي تواجهها دون ان تعول كثيرا على القوات الجوية ٠

وهكذا تولد خطأ من خطأ ، البطء في تحريـك الدبابات الى جبهة سيناء ، عطب الكثير منها في الطريق الطويل مما كشف ضرورة الاهتمام بالسكك الحديدية ٠ لقد وجه الاسرائيليـون استثمارات كبيرة الى المدرعات والطائـرات ولكنهم اهملوا نواحي اخرى مثل مدافع المورتر وقاذفات اللهب ومعدات القتال الليلي ٠ ولم يكن مشاة الجيش الاسرائيلي في احسـن حالاتهم يوم اشتعال الحرب٠ كما وقعت القوات الاسرائيلية في خطأ تكتيكي وهو مهاجمة مواقع قوية التحصين مثل المزرعة الصينية وغيرها ، مهملة بذلك استراتيجية الاقتراب غير المباشر٠ ويقول هرتزوج ان القوات العربية قاتلت بكفاءة عالية على عكس الافكار الشائعة سابقا لدى الاسرائيليين ، ويشهد بأن العرب حاربـوا جيدا في السابق ولكن نقطة ضعفهم كانـت قيادتهم العسكرية العليا ٠

ويثير الكاتب واحدة من اكبر خطايا التفكير الاستراتيجي الاسرائيلي ، حين تلـون الى حد كبير بحرب الاستنزاف ، وهي عدم قـدرة المصريين على عبور القناة حتى يتحقق لهـم التفوق الجوي ، مما ادى الى سقوط مبـدأ الردع الاسرائيلي حين عثر العرب على الحل الامثل في تحقيـق المفاجـأة الاستراتيجيـة والعملياتية التي خططوا لها مع استخـدام ميكانيكية الدبلوماسية الدولية لاستثمـار اي موقف يتطور لصالحهم ٠ والمؤلف لا يعتد هنا بوجهة النظر الاسرائيلية بأن الاعتبـارات الاقتصادية كانت تجعل من المستحيل الحفاظ على الجيش الاسرائيلي في حالة تعبئة كاملة على طول خطوط الجبهة ٠

وثمة مفاجأة استراتيجية اخرى اصابت القيادة الاسرائيلية ونعني بها ذلك الاستهلاك الكثيف للذخيرة والسلاح والمدرعات والطائرات، الامر الذي القى بالرعب في قلوب الاسرائيليين حين اكتشفوا مدى اعتمادهم عـلى الامداد الامريكي ٠

هذا ويطرح هرتزوج آراء بعض المحللين التي تبلور الفشل الاسرائيلي في غلطتين خطيرتين : الاولى، ان الخطأ القاتلكان فيتقييم المخابرات لما لديها من معلومات وكذلك اخفاق القيـادة العليا العسكرية والسياسية في تقدير مغـزى التطورات المتوازية على الجبهتـين السورية والمصرية ٠ والغلطة الثانية ذلـك الافتراض العنيد من قبل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية بان معدل القوات على الجبهتين غير كاف لشن الهجوم ٠

والواقع أن المؤلف يضع يده على السقطة الكبرى في التفكير الاسرائيلي والذي يتمثـل في النظرية الرئيسية بأن العرب غير قادرين وغير راغبين في شن الهجوم ٠ وقد تولد من هذا الخطأ كثير من الاخطاء والسقطات ٠ وهكذا تتكشف سلسلة كاملة من الاخطاء ، فقد كان التحلل والتراضي قد نما في اوصال الجيش الاسرائيلي ٠ لقد جـرى استبقاء الاحتياطي شبه المدرب من جبهة قناة السويس وافتقرت القوات الاسرائيلية الى الانضباط الذي انعكس من كثرة وفيات حوادث الطرق والتدريبات من الفترة السابقة على الحرب ٠ يضاف الى ما سبق أن السرعة من دورة كبار الضباط (باحالتهم الى التقاعد في سن مبكرة) قد اصبحت هدفا في حد ذاته ، مما حرم الجبهة من ضباط ذوي خبرة قتالية حيث حل محلهـم ضباط يفتقرون الى الخبرة ٠

وفضلا لما يقوم به الكاتب من تحليل مسؤولية كل من ديان وجولدا مائير والقادة أمثال اليعازار وجونين وشارون ، بخبرة يخرج بعدة استنتاجات اساسية ٠ منها انه لا يجوز لاي حكومة اسرائيلية في المستقبل أن تسمح للعرب باختيار الضربة الاولى، وان كثافة السلاح قد تلعب دورا رادعا في الشرق الاوسط ، وان العرب قد استعادوا كرامتهم وشرفهم القومي مما قد يسهل اجراء مفاوضات بين الطرفين ٠

يبدو ان شئون الحرب والنصر والهزيمة من اصعب الموضوعات على المعالجة الموضوعية النزيهة ، وبالاخص اذا كان الباحث ينتمي الى احد اقطاب الصراع ، اذ غالبا ما تتغلب الاعتبارات العاطفية - او قل غير الموضوعية - لتكون تقييمه ووجهة نظره للامور ٠ ونفس الظاهرة لا شك نشاهدها في كثير مما كتب عن حرب اكتوبر - رمضان - من وجهة النظر العربية ٠ على اية حال فان كثيرا من الكتابات التي صدرت عن الجانبين (الاسرائيلي والعربي) لا ترقى الى مستوى ما صدر عن مراكز الدراسات الاستراتيجية العالمية ٠

ولوحظ كذلك أن هرتزوج قد بالغ في عرضه لسير المعارك على كل جبهة على حدة بصورة جسمت الانفصال بين القيادتين العسكريتين السورية والمصرية ٠ وقد وقع في نفس هذا الخطا كثير من الكتب العربية التي عالجت الموضوع (باستثناء كتاب الحرب العربية - الاسرائيلية الرابعة ٠ وقائع وتفاعلات ، الصادر عن مركز الابحاث الذي اعتمد التسلسل الزمني وليس التقسيم الجغرافي اساسا لتتبع ايام القتال) ، علما بأن معالجة الحرب على هذا النحو يوحي بغير الواقع الاستراتيجي الذي تلتزم به اسرائيل فهي تحارب المعركة بقيادة واحدة وان تعددت الجبهات ، في حين ان العرب يحاربونها بقيادات متعددة بتعدد الجبهات ٠

وزيادة على ذلك يلجأ الى مخاطبة القارىء الغربي ، بل يحاول تحريض امريكا واوروبا الغربية ضد العرب بحجة انهم كانوا مسلحين بالعتاد السوفييتي ، وان القوات الاسرائيلية حين حاربت العرب كانت تدافع عن ما هو اكثر من حرية ووجود اسرائيل وحدها ٠ ويدعى أن حرب الشرق الاوسط اكدت كم يهدد الاتحاد السوفييتي العالم الغربي بسبب تفوق الناتجه من الدبابات على انتاج الاخير ٠

كما نلمس ايضا بعض السموم النفسية التي يحاول المؤلف دسها في كتابه حين يتحدث عن أن امكانيات الجيش المصري في القتال باقتدار قاصرة على الدفاع او القتال الهجومي المخطط بدقة ، أما القتال الهجومي في مواجهة التغيرات السريعة فأنه فوق طاقة قيادته ، أو حين يقول انه لم تكن هناك ضرورة لذلك التمجيد المفرط في شجاعة السوريين رغم انه يعترف بأنهم قاتلوا بجسارة لا بأس بها ٠ وكم كان هرتزوج متجنيا على الحقائق التي كشفت عنها معارك الدفرسوار وجبل الشيخ ٠

والاكثر مدعاة للدهشة اننا نجد هرتزوج يحاول ان يقابل بهز الاكتاف الجناح العسكري العربي حين يثير نظرية « الظروف الصعبة » التي حارب فيها الاسرائيليون ٠ فهم في نظره « قد هرعوا لتوهم من المعابد الى ميدان القتال تحت المفاجأة » ، بل اننا نجده يردد نفس هذا المنطق فيما كتبه مؤخرا عن وجهة النظر الاسرائيلية من اتفاقية سيناء (انظر الهيرالد تريبيون الامريكية ٩ سبتمبر ١٩٧٥) حيث يصور « ان الاسرائيليين قد حققوا اعظم نصر ساحق في الصراع العربي - الاسرائيلي لانهم قاتلوا في ظروف صعبة ومعاكسة » ٠

والواقع ان المحللين العسكريين لو اخذوا بهذا المنظور « الظروف الصعبة » لتبرير هزيمة طرف امام اخر ، لجردنا التخطيط العسكري من محتواه الاستراتيجي الذي يفترض ان كلا الطرفين يتعمد شن الحرب في ظروف ملائمة له ومناوئة لخصمه ٠

مهما يكن من امر ، فان هذا لا ينفي أن المؤلف قد طرح في كتابه بعض الافكار الصائبة والاستنتاجات الجديرة بالتأمل والاهتمام ٠ فهو يدين تاريخيا القيادة الاسرائيلية التي ضيعت على اسرائيل مركزا متميزا من القوة كانت تستطيع من خلاله أن تتفاوض من اجل المستقبل وسوف تدفع

بضياعه ثمنا باهظا · كما انه يدعي على العرب - في ذات الوقت - أن يستخفهم النصر ولا يستخلصوا الدروس الصحيحة من الحرب ، اذ أن ذلك يحمل في طياته بذور الحرب القادمة، وذلك ما لم يتمكن زعيم عربي حكيم من أن يعطي للعالم العربي رؤية جديدة ومتوازنة · ويقرر ايضا ان السوفييت قد تورطوا في العالم العربي بصورة بالغة لدرجة ان رأيهم، عما اذا كانت الحرب امرا مرغوب او غير مرغوب فيه ، اصبح غير اساسي ·

ولا يفوتنا أن نشير الى انه من الناحية الشكلية يتضمن الكتاب سبع عشرة صورة فوتوغرافية اختيرت بدقة وعناية بالغة ، تركز في معظمها على ابراز الاشخاص (القادة والجنود الاسرائيليين) دون اهتمام يذكر بالاسلحة المتقدمة (على النحو الذي تلجأ اليه الدعاية العربية بهدف الرد على الدعاية الصهيونية التي تتهمنا بالتخلف والعجز عن استيعاب التكنولوجيا الحديثة) وذلك لادراكهم أن مخاطبة القارىء الغربي ادعى للتأثير من خلال الصور المجسمة لتفوق « الانسان الاسرائيلي » وليس « التكنولوجيا المستوردة» التي الفها الاوروبيون · وما اشبه الصور التي اوردها الكتاب بصور القادة والجنود من الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ·

خاتمة المطاف ان المؤلف تلافى مناقشة الحقائق الكبرى ، ذات الدلالة التاريخية ، التي تمخضت عنها الحرب مثل مستقبل اسرائيل في مواجهة تحول الكم العربي الى كيف مؤثر ·

بيد ان الكتاب يظل مع ذلك قطعة من ادب الدعاية الصهيونية الذكية التي توجه للرأي العام العالمي (وبالاخص الناطق بالانجليزية) وتقدمه للاعلام العربي للدراسة والاعتبار ·

السيد عليوه

ديوان عبد الرحيم محمود ،

(مكتبة بلدية نابلس ، ايار ١٩٧٥)

في الرابع عشر من تموز ١٩٤٨ استشهد الشاعر عبد الرحيم محمود اثناء ادائه لواجبه المقدس في معركة الشجرة بفلسطين · وبعد مرور ستة وعشرين عاما تنبه كثيرون الى احياء ذكراه · فهب اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الى جمع ديوانه ونشره مع مقدمة طويلة عن الشاعر وشعره بقلم الدكتور كامل السوافيري · ومع ان الديوان جاء ناقصا بشكل ملحوظ فانه يعد عملا كبير الاثر في احياء ذكرى الشاعر الشهيد · وقد شاء قسم الابحاث في مكتبة بلدية نابلس ان يحيي ذكرى الشاعر بطريقة مماثلة · فقام عادل عبدالقادر الحاج حمد ، وعلي محمد واصف طوقان ، وباسمة مرتضى حلاوة ، بجمع ما هو موجود من قصاصات الورق ، والابيات ، والقصائد ، عند اقارب الشاعر في عنبتا ، والكثير من اخبار حياته وسيرته ، مع ما جاء في الديوان الذي اصدرته لجنة التكريم في عمان سنة ١٩٥٨ · وخرجوا من كل ذلك بحصيلة متواضعة نشرتها مكتبة البلدية في كتاب يضم دراسة وافية عن الشاعر وشعره ·

واذا كانت طبعة اتحاد الكتاب جاءت اوفى واشمل من الطبعة الاولى للديوان فان طبعة مكتبة بلديةنابلس [ايار ١٩٧٥] قد استطاعت ان تستوفي ما لم يتوصل اليه كامل السوافيري. ويستطيع القارىء المتأني ان يثبت اعدادا من الابيات كبيرة اضافتها الطبعة الجديدة . كما يلاحظ - من جهة اخرى - وجود نواقص في بعض قصائدها يجدها القارىء مستوفاة في طبعة الاتحاد سالفة الذكر .

ومع ان مقدمة كامل السوافيري طويلة للغاية الا انها لم تستطع ان تقدم للقارىء رؤية نقدية جديدة لشعر الشاعر عبد الرحيم محمود . وما اشبههذه المقدمة بالدراسات الادبية الكلاسيكية التي تطغى عليها نزعات التاريخ والتصنيف والمبالغة في التقدير الجمالي مع سيطرة الاتجاه الكلاسيكي في النقد والتقويم والتحليل . ولم تكن المقدمة التي استهل بها معدو الديوان في قسم الابحاث بمكتبة بلدية نابلس متميزة من حيث النوعية عن مقدمة السوافيري او غيره من الكتاب التقليديين . فالنظرة الى عناوين المقدمة تؤكد ما نقول : « سيرة الشاعر الذاتية» « بيئته الخاصة والعامة » . « نضاله العسكري ومعركة الشجرة » . « الصراع بين العرب واليهود » . « شخصيته » « تأثره بالشعراء الآخرين » . الى آخر تلك العناوين التي اعتدنا قراءتها في كتب تاريخ الادب . والحق ان المرء لا يستطيع ان يلوم هؤلاء الشبان الثلاثة الذين قاموا باعداد هذا الديوان وهذه الدراسة لاسباب لا تخلو من الوجاهة . فليس فيهم من هو متخصص في مجال الدراسات النقدية المعاصرة . كما ان وضعهم تحت كابوس الاحتلال جعل من احياء ذكرى الشاعر هدفهم النهائي ولم يلتفتوا الى ضرورة احيائه شعريا وفكريا .

ونحن الآن لسنا بصدد الحديث عن طبعات الديوان . ولا نود ان نحصي الاضافات التي اشتملت عليها كل طبعة . ولا نروم كذلك تسجيل انطباعاتنا عن هفوات وقع فيها جامعو الديوان ومحققوه . بل حسبنا ان نلقي الاضواء على شعر عبد الرحيم محمود بعد سبعة وعشرين عاما من استشهاده محاولين ان نكتشف طاقة هذا الشاعر الثورية التي ابقت لشعره هذه النكهة الخاصة ، وهذا الزخم المتميز ، وما فيهما من عناصر التجدد والاستمرار التي تجعل شعره على وصال مع التجربة الشعرية الثورية المعاصرة . ومع ان الشاعر - في الواقع - لم يصدر عن رؤية فنية واقعية موحدة ،بل تجاذبته رؤى مختلفة شتتت طاقته الشعرية ، وحشرته في نقطة التماس مع شعر المناسبات - الا اننا سنعمد في هذه الدراسة لاستقراء الجوانب الكاملة فيه . وهي نفس الجوانب التي تهبه قوة العطاء الثوري.

وهذه الجوانب - للاسف - هي التي لم يشر اليها اي من دارسي عبد الرحيم محمود . لا الاكاديميون ولا جامعو الديوان ومحققو القصائد وما اقصده هو ذلك الوعي الطبقي الذي بدأ بالظهور في شعر عبد الرحيم محمود قبل غيره من الشعراء .

ويستطيع الباحث ، باستقراء الشواهد التاريخية التي بقيت من الفترة التي توهجت فيها شاعرية عبد الرحيم محمود - وهي فترة الثلاثينات والاربعينات - ان يستنبط جملة خصائص تميزت فيها تلك السنوات على المستويين السياسي والاجتماعي . فقد ازدادت - على المستوى السياسي - حدة النضال ضد الاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني . كما برزت - على المستوى الاجتماعي - مجموعة التناقضات الطبقية بحكم العوامل المختلفة التي تحدها جدلية التطور والصيرورة. فقد تبلور في هذه الفترة اتحاد العمال العرب في فلسطين . كما تطورت جمعية عمال فلسطين العربية .وتأسست النقابات العمالية وانتشرت - رغم الانتداب البريطاني - افكار اجتماعية ديمقراطية تنبه الى الخطر الذي يحمله الاستعمار كما تنبه الى خطر استمرار التركيبة الاجتماعية الحالية التي كانت تتألف من تحالف طبقة الاقطاع وطبقة الوجهاء الى جانب الطبقة المتوسطة التي برزت حديثا والفئات البيروقراطية . وظهرت صحف اتخذت من الخط الديمقراطي شعارا لها مثل مجلة الطريق ، ومجلة الى الامام ، وصحف اخرى . وعبدالرحيم محمود باعتبار انه شاعر ذو حساسية متميزة

كان عليه ان يدرك كل ما يدور من حوله ، وهو الذي ينحدر من صلب طبقة فقيرة هي صغار الفلاحين ، وانتقل من القرية الى المدينة ليعايش فيها واقعا طبقيا متمايزا • ومع تفجر شاعريته اصبح عليه ان يناضل في جبهتين : ضد الاستعمار المزدوج البريطاني الصهيوني ، وضد الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي •

ورغم ان الظرف الموضوعي كان يحتم على الشاعر الفلسطيني آنذاك ان يصرف النظر عن التناقضات الثانوية • وان يركز الجهود باتجاه الخلاص من الاستعمار المزدوج فان عبدالرحيم وجد نفسه مرغما على الاشتراك في الحوار المحتدم داخل الطبقة البورجوازية الصغيرة حول الافكار الجديدة التي بدأت تصل البلاد فور انتصار الثورة الروسية ، وتأسيس الحركة النقابية • ولهذا يلحظ قارىء الديوان وجود هذين الخطين المتوازيين لديه • ولعل الغلبة الكمية لجوانب الصراع السياسي في شعره هي التي جعلت جل الدارسين يغفلون عن ادراك الجانب الاجتماعي منه ، ويبذلون القدر الاكبر من اهتماماتهم في استجلاء الجوانب الوطنية • ان اعادة النظر في شعر عبد الرحيم محمود والكشف عن مكامن الوعي الطبقي لديه ، يهدينا الى السبل الحقيقية لمعرفة الصلة بين تراث الشعر الثوري الفلسطيني ، وبين هذا الشعر الذي نقرأه بعد تصاعد المقاومة ، او بالتحديد ، في المرحلة التي تلت حزيران الاسود ١٩٦٧ •

من بين القصائد التي تطرح تصور الشاعر للحوار الذي دار في فلسطين حول مفهوم التحرر الاجتماعي قصيدته التي عنوانها « نحن المصادر والموارد » فهي اشبه بردود فعل ضد اقوال وآراء كانت تطرح لكي تنتقص من العمال بوصفهم طبقة ذات حقوق • ونراه ـ في الرد على هؤلاء المتقولين ـ يفخر بانتمائه لهذه الطبقة ذات الدور الكبير في بناء الحضارة والاقتصاد والمجتمع :

نحن المصادر والموارد
وسلاحنا فتل السواعد
وقلوبنا نبع المكارم ••
ليس ينضب والمحامد
ودماؤنا الحمراء للحرية العليا روافد
ولنا الايادي البيض ••
لا ينسى الايادي غير الجواحد
وبنا اذا تدهو الشدائد ••
كان تفريج الشدائد •

والملاحظ ـ هنا ـ ان الشاعر ربط قضية التحرير الاجتماعي بالتحرر الوطني • فهؤلاء العمال هم الذين كانوا يسقطون في غمار الحرب ضد البريطانيين والصهيونيين ، الى جانب حربهم ضد مستغليهم الذين يصفهم الشاعر بكلمة الجواحد • ويرى الشاعر جثة حمال مطروحة في الطريق ، والناس يمرون مزورين عنها • فتنهيج قريحته لهذا الموقف الذي يجسد الشوط الذي قطعته هذه الطبقة في تحمل الاضطهاد طوال العصور :

قد عشت في الناس غريبا وها
قد مت بين الناس موت الغريب
والناس قد كانوا ذوي قسوة
فليس للبأس فيهم نصيب
لو كنت في حبلك شناقهم
لولولوا حزنا وشقوا الجيوب •

ورغم الخطأ الذي وقع فيه الشاعر حين استعمل كلمة « الناس » وهي كلمة عامة لا تحمل مضمونا طبقيا محددا ، رغم ذلك فانه لمس في القصيدة جانبا من جوانب الصراع الاجتماعي في ظل الانظمة الاجتماعية التقليدية• ويمضي الشاعر في تصوير الفارق بين موقفين : موقف الناس المؤمنين بالقيم الاقطاعية ، وموقف الشاعر الذي يعوزه الاحساس بقيمة الاشياء في ضوء الموقف الذي رأى فيه ابعاد مأساة الحمال الميت :

لثوبك الرث واخلاقه
كرهت اثواب الحرير القشيب
والجسد الجامد في يبسه
كره لي الغصن الطري الرطيب
وصمتك الرائع يا موحشي
بغض لي الصوت الحنون الطروب •

اي تعبير اعمق ، وادق ، في تصوير الانتماء، من التعبيرات التي استخدمها عبدالرحيم محمود

في تصوير انتمائه الاجتماعي ؟ وفي قصيدة اخرى بعنوان « انصفني فأنا اخوك » يخاطب الشاعر اصحاب الاموال ، والمصالح ، طالبا منهم الانصاف والعدل ، لا شيء اكثر من ذلك:

اتينا للحياة فلي نصيب
كما لك انت في الدنيا نصيب
فلم تعدو وتغصبني حقوقي
وتطلب ان يسالمك الغصيب
اعدلك قال ان اسعي وتجني
واطلب لي المعاش فلا اصيب ٠

وتدلنا هذه الابيات على حقيقة ان الشاعر كان يخوض معركة حامية الوطيس ٠ فهو لا يقر بعدالة المطلب الاقطاعي بسكوت المغصوب على غاصبيه بل يحث العامل ، ويحرضه ، على المطالبة بحقوقه ، وعدم السكوت ٠ ولعل في هذه القصيدة ما يوحي بأن الشاعر كان لديه من الوعي بايديولوجية الطبقة العاملة فكرا وممارسة ما يدفع بنا الى استنتاج خطير وهو ان الشاعر - من الجائز - ان يكون قد التزم في تلك الفترة المبكرة بهذه الايديولوجية تنظيميا الى جانب الممارسة ٠

ويصل عبد الرحيم محمود ، في التزامه ، الى حد التشكيك بالقيم الغيبية التي دأب رجالات الاقطاع ، والوجهاء ، ومثقفو الطبقة الحاكمة آنذاك على زرعها في نفوس الفقراء والفلاحين والعمال ٠ وهي تحض على الصمت والاستكانة والتسويف ، والقبول بما كتبه الله على عباده :

بغى في قسمة الارزاق ناس
وقالوا : هكذا قسم الاله ٠٠
وقالوا ان احب الله عبدا
برزقته المقدرة ابتلاه ٠
دعونا ان يكن هذا صحيحا
ير الفقراء معبودا سواه
لقد وصفوا الاله بشر ظلم ٠٠٠
بما كذبوا ، تنزه في علاه ٠

وعلى هذا النحو درج اشاعر في رفع راية التحدي، لا ضد الاستعمار البريطاني الصهيوني فحسب ، بل ضد 'الاستغلال والاضطهاد الاجتماعي ٠ودفع دمه فدية للاهداف الاجتماعية والوطنية السامية التي عاشت في دمه وعاش في صميمها ٠ وهكذا يظل شهيد الشجرة شاعرا نموذجيا تتحقق فيه امثولة المناضل الوطني بحق ٠ وهذه الامثولة هي التي نجد صداها - بشكل قوي - في نتاج الشعراء الفلسطينيين الثوريين المعاصرين : التزاما بالثورة المسلحة والتزاما بايديولوجية فكرية طبقية تكون خطوة تالية لانتصار الثورة ٠ والشعراء الفلسطينيون من توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش واحمد دحبور وخالد ابو خالد والقيسي ووليد سيف والكثيرين غيرهم ان ساروا في هذا الطريق فانهم لا يزيدون الا تعميقا وتوسيعا للتيار الذي بدأه عبد الرحيم محمود في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ٠

ابراهيم خليل

حسين ابو النمل ، **بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي** (مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : ١٩٧٥)

ينطلق حسين ابو النمل في كتابه من مقولة اساسية تقوم على ادراك اثر الاوضاع الاقتصادية على الكيان الصهيوني ، والتي هي « مسألة وجود او عدم وجود بالدرجة الاساسية » ٠

ويتناول البحث الاول « دور القرار السياسي في منع السياسة الاقتصادية الاسرائيلية » حيث يعتبر المؤلف « ان الاهداف السياسية وليس المعايير الاقتصادية ، هي المتحكمة بسياسة اسرائيل الاقتصادية » ٠ اذ ان مفهوم القرار السياسي وعلاقته بالاقتصاد مختلف في الكيان الصهيوني عن المفهوم التقليدي له ٠ فهو الاساس ويرتدي دورا مركزيا يستخدم الامور الاقتصادية لتكون في مصلحته ٠ وتبرز سياسة العمل العبري كنموذج حي للتدليل على المنطق القائل «بتراجع المعايير الاقتصادية امام المعايير الايديولوجية عند التعارض بينهما » ٠ وكذلك ازدياد الاجور بشكل يفوق الانتاجية الجدية للقوى العاملة ٠ غير ان المؤلف لا يرمي من وراء هذا التأكيد الى نفي القانون الذي يعتبر السياسة اقتصادا مكثفا ، فهو ينظر الى الكيان الصهيوني على ضوء الاعتبارات الداخلية ، كما يضعه في اطار شبكة العلاقات الاقتصادية الامبريالية ، حيث يلعب هذا الكيان دورا اقتصاديا محددا قائما على خدمة الامبريالية العالمية ، لكن بالرغم من التأكيد على الاعتبارات الخارجية لدور الكيان الاداة ، فالمؤلف لا يلتزم بهذه الرؤية في كتابه كما سلبين ٠

ويكشف المؤلف في القسم الثاني من البحث الاول احد الاساليب التي يلجأ اليها العدو الصهيوني للحصول على الموارد المالية ٠ ويتمثل هذا الاسلوب بخلق او استغلال الازمات، واصدار التصريحات والبيانات المذعورة التي تتحدث عن صعوبة الوضع الاقتصادي وتأزمه ، مما يعلي مزيدا من التبرعات والمساعدات من بعض الدول ويهود العالم ، مع انه يتبين فيما بعد ان « لا اساس حقيقي » لهذه الازمة ٠ من هنا فان اي تشخيص للاقتصاد الصهيوني لا بد ان يكون تشخيصا خاطئا اذا ما وقع اسيرا للدعاية الصهيونية المضللة ٠ ولا ينفي ذلك ، من جهة اخرى ، ان كل الازمات التي تعصف بالكيان الصهيوني هي ازمات مفتعلة ، بل ان السؤال المطروح « لماذا تضخم اسرائيل ازماتها » ٠ ويجد السؤال جوابه في الطموح الصهيوني لتجاوز حدود دور الاداة الذي ارادته الامبريالية ، لينتقل الى موقع الشريك للامبريالية٠ وهذا امر تحدده قدراته الاقتصادية والقاعدة الصناعية التي يبنيها ٠

ويفسر المؤلف مستوى المعيشة المرتفع للمستوطنين الصهاينة انطلاقا من كونه عامل وجود او عدم وجود للكيان الصهيوني ، وليس « مرده تمتع القوى العاملة في اسرائيل بقوة سياسية لها وزنها » بل ان الحفاظ على هذا المستوى المرتفع وتحسينه هو الذي يؤمن استمرار سياسة جلب مهاجرين جدد من الخارج ، حيث يترابط مستوى المعيشة المرتفع بتدفق الهجرة ، « وبلا هجرة لا توجد اسرائيل» ويخلص المؤلف الى نتيجتين هامتين :

١ – ان ارتباط معدل الهجرة بمستوى المعيشة يؤكد ان دور العامل الايديولوجي محدود اذا ما تعارض مع اسباب مادية قوية ٠٠٠ فالعامل الايديولوجي لم يستطع ان يقدم عام ١٩٥٣ سوى ٣ر١ الف مهاجر ٠ بينما التحسين الكبير في الناتج القومي عام ١٩٥٤ قدم ٤ر١١ الف مهاجر ٠

٢ – اهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لدولة العدو الامر الذي يفرض مواجهة عربية لها في مستوى ما يمثله من خطورة ٠

ويناقش المؤلف مدى صحة القول بان الكيان الصهيوني « دولة امبريالية بالمعنى

الاقتصادي » . ويجيب بالنفي منطلقا من التعريف اللينيني للامبريالية باعتبار ان الامبريالية كمرحلة متطورة منمراحل الرأسمالية تقوم على مجموعة من الخصائص ابرزها تصدير رأس المال الحالي الى الخارج وقيامه بدور استثماري ، ويشكل مصدرا للعائد . وهذه السمة لا تنطبق على الكيان الصهيوني لكونه دولة مستوردة لرأس المال ، ويعتمد على القروض والمنح والمساعدات الخارجية ، مع عدم استبعاد امكانية تحول الكيان الصهيوني الى « قاعدة اقتصادية » للامبريالية علاوة على كونه قاعدتها العسكرية والسياسية . غير ان هذا الدور الجديد يتطلب « انهاء حالة العداء والحرب واقامة علاقات طبيعية » مع جيرانها. وعلى رأسها « الحدود المفتوحة » .

اما بالنسبة الى التحويلات المالية للكيان الصهيوني كعبء مستقبلي على اقتصاده . فيعتقد المؤلف ان هذه التحويلات لم تعد تشكل عبئا على الاقتصاد الصهيوني وذلك بعد التطورات المستجدة التي طرأت عليه حيث ان « جزءا كبيرا من المساعدات التي قدمت لاسرائيل قد وظفت بشكل رئيسي لخلق اصول اقتصادية ... معمرة وتشكل بحد ذاتها رأس مال » . ويورد المؤلف بهذا الصدد الملاحظات التالية :

١ - ان معظم التحويلات المالية لاسرائيل هي غير قابلة للاسترداد ...

٢ - ان مصادر هذه التحويلات لم تجف بعد.

٣ - ان المرحلة القادمة وبالذات في حالة السلام ستشهد تخفيضا فيبعض اوجه الصرف، والتي كانت تبتلع الجزء الاكبر من المساعدات.

٤ - ... ان اعباء الدفاع في المرحلة القادمة، وعلى ضوء ترتيبات السلام ، لا بد وان تتبدل جذريا .

لذلك يعتقد المؤلف ان الكيان الصهيوني قد استغل التحويلات المالية « لوضع اساس ثابت لطموح اسرائيل الاقتصادي ... حيث وجهت الموارد الاستثمارية نحو بناء رأس المال التحتي ، وترجمت بتحسين الزراعة ومكننتها وتحديثها ... [و] توفير قاعدة صناعية لا تلبي مصلحة الحاضر فحسب ، بل تتطلع لتغطية المستقبل ايضا » .

ويخلص المؤلف من هذا كله الى ان الكيان الصهيوني في طريقه الى التحرر من مجموعة من الضغوط وخلق الاساس لبناء اقتصاد مستقل عن طريق خلق قاعدة صناعية توفر الاساس المادي لهذا الاستقلال .

اما فيما يتعلق بحقيقة البطالة في مجتمع العدو فيعتقد المؤلف « ان كلمة البطالة بمعناها التقليدي والرائج لا تنطبق على الحالة التي تعاني منها اسرائيل » . وهي ليست عامل ضعف .. اذ ان البطالة المتفشية بين الجامعيين والشباب واصحاب الكفاءات والخبرة تعني وفرة في العقول التي اذا ما شغلت تصبح خطرا على العرب اكثر مما هي على دولة العدو . ولا ينظر المؤلف الى العجز في ميزان المدفوعات لاقتصاد العدو كمؤشر على ضعف هذا الاقتصاد وعدم قدرته على تحقيق الاستقلال ، بل ان الامر يختلف عندما ننظر الى الواردات التي تشكل قيمة السلع الاستثمارية جزءا هاما منها . والتي تخدم اغراض التنمية الصناعية وبالتالي فهي مؤهلة لان تصبح منتجة في المستقبل ، وقادرة على سداد هذا العجز .

وفي البحث الثاني يبين السيد ابو النمل « دور العمال العرب في الاقتصاد الاسرائيلي » حيث يساهمون عمليا في حل المشاكل الناتجة عن اختلال النسبة بين رأس المال والعمل في الكيان الصهيوني ، وبالتالي رفع الناتج القومي بنسب عالية ومتساوية نسبيا مع نسبة الطاقة العاطلة في اقتصاد العدو ، مما سيؤدي الى تخفيض تكلفة « السلع الاسرائيلية ، وكذلك انخفاض في اجمالي قيمة الاجور الحقيقية المدفوعة » . وهذا بدوره سيعزز القدرة التنافسية لسلع دولة العدو في الاسواق العالمية. غير ان المشكلة التي ما زال يعاني منها الاقتصاد الصهيوني تتمثل في « عدم توازن .. (هيكل القوى العاملة) لصالح الكفاءات الفنية والعلمية » مما يجعل وضع دولة العدو

« شبيها » بوضع المرء الذي يملك من النقود اكثر مما يستطيع ان ينفق » .

ويكشف المؤلف بالارقام مدى اعتماد اقتصاد العدو على اليد العاملة العربية ، حيث « ان اليد العاملة غير الفنية ، التي يقوم عليها الاقتصاد الاسرائيلي ، انما هي اليد العاملة العربية » ، ويتمثل تخطي الكيان الصهيوني عقبة توفير العنصر البشري في الاستفادة من بقية الموارد ، وتحقيق المزيد من فائض القيمة مما يفتح امامه مرحلة اقتصادية جديدة قائمة على تصدير رأس المال في المرحلة القادمة ، وليس رأس المال البضاعي فقط . وهنا نصل الى تناقض هذه السياسة الاقتصادية الجديدة القائمة على الاعتماد على اليد العاملة العربية مع سياسة العمل العبري التي اعتنقها قادة الحركة الصهيونية مع بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين . غير ان تبدل الظروف الاقتصادية والسياسية قد جعل الاعتماد على اليد العاملة العبرية دون سواها قضية تاريخية محضة بعد وصول الاقتصاد الصهيوني الى مرحلة جديدة من التطور تستلزم تشغيل اليد العاملة العربية . وامام التهديد الذي يمثله تزايد العرب لديموغرافية السكان في الكيان الصهيوني ، نلاحظ ان قادة هذا الكيان يحاولون الاستفادة من العمال العرب اقتصاديا، وعدم تحمل مسؤوليتهم سياسيا واجتماعيا .

اما البحثان الثالث والرابع فيرتديان اهمية خاصة في هذه المرحلة من الصراع العربي - الصهيوني وذلك لتناولهما مدى خطر السلام على الاقتصاد الصهيوني واثار حرب تشرين على هذا الاقتصاد .

ويناقش المؤلف الوضع الاقتصادي في الكيان الصهيوني في ظل السلام المؤقت من خلال ثلاثة مؤشرات : تطور الناتج القومي ، تطور الهجرة ، المساعدات الاقتصادية . ويؤكد تلازم هذه المؤشرات وترابطها ، وارتفاع نسبها في ظل وضع يسوده الامن والسلام ، وانتفاء التهديد بحرب وشيكة . ويدحض هذا الاستنتاج وجهة النظر القائلة بخطر السلام على الكيان الصهيوني .

ويفسر عدوان حزيران في العام ١٩٦٧ انطلاقا من الديناميكية الداخلية للاقتصاد الصهيوني حيث كان قد بلغ مرحلة جديدة تتمثل في الانتقال من خلق وبناء الاصول الى تشغيل هذه الاصول، وبالتالي بروز النزعة العدوانية لرأس المال والسعي وراء ما اسماه لينين « الرقع الاقتصادية » لتوفير سوق استهلاكية ويد عاملة رخيصة تلبي احتياجات صناعة العدو المتزايدة.

وفي رأينا ان هذا التفسير لا يتوافق مع ما ذهب اليه المؤلف في تشخيصه لطبيعة الكيان الصهيوني ودوره :

١ - فلقد نفى المؤلف في القسم الرابع من البحث الاول ان تكون دولة العدو دولة امبريالية بالمعنى الاقتصادي ، واعتبرها اداة سياسية وعسكرية للامبريالية تطمح الى لعب دور الشريك عن طريق بناء قاعدة اقتصادية مستقلة . فاذا كان الكيان الصهيوني هذه الاداة التي تستمر في تأمين وجودها عن طريق المساعدات والقروض الخارجية ، فلا بد ان تكون الحروب التي تشنها مرتبطة بمخططات الامبريالية في المنطقة ، وليست نتيجة لديناميكية التطور الاقتصادي الداخلي فقط .

٢ - يعتقد المؤلف انه مع تزايد التنامي للصناعة الصهيونية ، ستتزايد حاجتها لرقع اقتصادية جديدة ، وستسعى دولة العدو لتوفيرها عن طريق اتفاقيات السلام . وعندما تتوصل هذه الدولة الى اي حالة سلام ، فلسوف تتمكن من تخفيض اعباء الدفاع عن كاهل موازنتها . مما يعني تخصيص تلك الموارد نحو اهداف التنمية واستيعاب المهاجرين .

ويقع المؤلف مرة اخرى في تناقض حول تطور اقتصاد دولة العدو المستقبلي . فاذا كان لرأس المال نزعة عدوانية تدفعه الى شن الحرب من اجل الحصول على الرقع الاقتصادية، فهذا يعني ان هذه النزعة سوف تتضاعف مع تركز هذا الرأس المال ونموه ، مما سينعكس على زيادة النفقات العسكرية والعمل على عسكرة الاقتصاد بغية تحقيق غاياته . هذا ما يدل عليه تاريخ الدول الامبريالية التي تزداد نفقاتها العسكرية ومخصصات الدفاع في

ميزانيتها مع ازدياد توسعها الخارجي لمد نفوذها وتصدير رؤوس اموالها واستغلال اليد العاملة الرخيصة والحصول على المواد الخام ، ودخولها مع الامبرياليات الاخرى في صراع مكشوف على مناطق النفوذ ٠

وتأتي حرب تشرين لتعمق الازمات التي كان يعاني منها اقتصاد العدو فيما قبل الحرب ٠ مما زاد في التكاليف المباشرة وغير المباشرة ، وخلق جوا من التعبئة ، اي الاستمرار في عدم العودة الى الاوضاع الطبيعية قبل الحرب ، ومحاولات الكيان الصهيوني لاستعادة قوته العسكرية وانعكاس هذه المسألة على ميزان المدفوعات وجميع فروع الانتاج ٠ بكلمة اخرى، ارتفاع الاعباء الامنية ، وبروز مسألة تمويل مشتريات الاسلحة ٠ وتطرح مسألة ارتفاع الاعباء الامنية ضرورة « توجيه مزيد من الطاقة البشرية والانتاجية لتلبية متطلباتها » ، مما سيؤدي الى «ازدياد النقص في الطاقة البشرية المخصصة للفروع الصناعية الانتاجية » ٠ وبالتالي رفع اسعار السلع المعدة للاستهلاك الداخلي ، وارتفاع العجز في ميزان المدفوعات نتيجة النقص في السلع المعدة للتصدير ٠

وبالرغم من حفاظ دولة العدو على سياستها القديمة الثابتة بالنسبة الى المصروفات الامنية ، فان ضمان مستوى معيشة مرتفع لمواطنيها قد تعرض لهزة لاول مرة ٠ ولقد لجأت حكومة العدو الى الاجراءات التالية لمعالجة هذا الوضع :

« (١) الحصول على مزيد من المساعدات والقروض لتمويل مشترياتها الامنية بالدرجة الاساسية ٠٠ ومن ثم بقية الواردات الضرورية لاقتصادها ٠

(٢) تخفيض الاستيراد المعد للاستهلاك والعمل على تحسين الصادرات ٠

(٣) تقييد وتخفيض مستوى الطلب النقدي الكلي وتخفيض العمل في الاستثمارات ومشاريع التنمية وكذلك قطاع البناء ٠

(٤) رفع الانتاج باستنفار الطاقة البشرية في اسرائيل الى اقصى مدى » ، بالاضافة الى الاعتماد على المتطوعين الاجانب ٠ والاستفادة من العمال العرب في مناطق ٤٨ و٦٧ ٠

وينتهي المؤلف الى التأكيد على النقاط التالية :

١ – ان اكثر الاجراءات التي تركت اثرا ، كانت المساعدات الاميركية التي انقذت ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، والعمال العرب ، من المناطق المحتلة ٤٨ و٦٧ الذين يشكلون حجر الرحى في سياسة اسرائيل لزيادة الانتاج ٠

٢ – اذا كنا لا نستطيع ايقاف المساعدات الاميركية نتيجة للارتباط العضوي بين الامبريالية الاميركية واسرائيل ، فيجب ان نكون قادرين على الاستفادة من الدور المؤثر الحيوي للعمال العرب ٠٠٠ وان العرب الذين يقرضون اميركا ، والذين تخشى اوروبا ليس سحب ارصدتهم النقدية ، بل مجرد تحريكها، يجب ان يعكسوا قدرتهم هذه باتجاه مزيد من الصمود لدول المواجهة ٠

واخيرا نورد الملاحظات التالية :

١ – كنا نتمنى الا ينجر المؤلف الى استخدام التعابير التي ترد في القاموس الصهيوني حول دولة العدو ،خاصة عندما يطلق على المستوطنين الصهاينة اسم « المواطنون الاسرائيليون » ٠

٢ – رغم ايلاء المؤلف الهجرة الى دولة العدو اهمية قصوى ، غير انه يتجاهل هجرة اليهود السوفيات ومدى دعمهم لهذه الدولة وتعزيز كيانها ٠ ونحن لا نفهم تجنب هذه المسألة الخطيرة حتى من باب الحوار والتعامل مع « دولة صديقة » ٠

٣ – يغرق المؤلف في بعض الاحيان في تفسير اقتصادي جامد بالنسبة الى تفسير الاهداف الكامنة وراء الاعتداءات الصهيونية على الدول العربية خاصة عدوان حزيران ٦٧ ، وبالرغم من انه يذكر في مطلع الكتاب انه يضع الكيان الصهيوني في اطار شبكة العلاقات الاقتصادية الامبريالية ، حيث يلعب هذا الكيان دورا قائما على خدمة الامبريالية العالمية ٠ وهذه نقطة اثرناها في سياق العرض ٠

يوسف شويري

اسرائيليات

[١]

اسرائيل تتخوف من « تغيير » في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية

تحتل القضية الفلسطينية مكانا بارزا في وسائط الاعلام الاسرائيلية في المرحلة الراهنة. وتعبر المقالات والتعليقات الكثيرة التي تعالج هذه القضية عن اختلاف في المواقف والاراء داخل الائتلاف الحكومي وفي الرأي العام الاسرائيلي حول كيفية مجابهة هذه القضية ، وتولي اهتماما شديدا بكل ما يصدر عن الولايات المتحدة من بوادر واتجاهات حول هذا الموضوع . ومع ان الاوساط الاسرائيلية المختلفة تقيم المواقف الاميركية بصورة متباينة ، احيانا بحسب رغبتها ، يمكن القول، بصورة عامة ، ان هذه الاوساط جميعا ، تتحدث عن حدوث تغيير في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية ، وخاصة بعد نشر «وثيقة ساوندرز » التي اعترفت الولايات المتحدة بموجبها ، ولاول مرة ، ان القضية الفلسطينية هي اساس النزاع في الشرق الاوسط . وتعتقد بعض هذه الاوساط ان هذا التغيير ليس الا مجرد بداية ، بينما يذهب بعضها الى القول ان اعتراف الولايات المتحدة الاميركية بـ م.ت.ف. ليس الا مسألة وقت .

ماذا تغير في السياسة الاميركية ؟

يعتقد معظم المعلقين الاسرائيليين ان اي تغيير حصل ، او سيحصل ، في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية و ـ م.ت.ف. يدخل في اطار « اعادة النظر » في هذه السياسة تجاه قضية الشرق الاوسط ، بهدف تعزيز مواقع اميركا في العالم العربي على حساب الاتحاد السوفياتي من جهة ومحاولة تجنب العزلة التامة عن بقية دول العالم في مواقفها من القضية من جهة اخرى ، وان هذه السياسة متأثرة وستتأثر اكثر ، باحتمالات سياسة الوفاق الدولي . وهذا التغيير الذي يتحدث عنه الاسرائيليون يثير قلقهم ، ليس لانه قد يؤدي الى تخلي الولايات المتحدة عن اسرائيل بل لانه قد يؤدي الى اقامة دولة فلسطينية الى جانبها ، مقابل اعتراف م.ت.ف. باسرائيل .

اما متى بدأ هذا التغيير في السياسة الاميركية يعبر عن نفسه بصورة ملموسة ، فان البعض يعزي ذلك الى نشر « وثيقة ساوندرز » ، والبعض الاخر يعود الى الوراء اكثر ... « ان وثيقة ساوندرز لم تفاجئنا . فقد كان واضحا منذ رفعت الولايات المتحدة الشعار القائل انها لن تعترف بـ م.ت.ف. الى ان تعترف م.ت.ف. باسرائيل ، ان هذا الشعار لم يقصد به خدمة مصالح اسرائيل . فمنظمة التحرير الفلسطينية تستطيع ان تتغلب على معضلة الاعتراف باسرائيل اذا ما حصلت على الارشاد الدبلوماسي المناسب » (النائب زلمان شوفال ـ يديعوت احرونوت ، ٧٥/١٢/٧) .

ويعتقد الاسرائيليون ان « وثيقة ساوندرز » لا تعبر فقط عن رأي حامل اسمها ، بل تعبر ايضا عن موقف الحكومة الاميركية . فقد كتب احد المراسلين الاسرائيليين في واشنطن ان وزير الخارجية كيسنجر بعث برد على سؤال وجهه اليه لي هاملتون ، رئيس احدى لجان الكونغرس « ... المؤيد للعرب . وقد جاء في

الرد انه [اي كيسنجر] علم مسبقا بالوثيقة، الامر الذي يتناقض مع تصريح سابق له على اثر نشر الوثيقة ... » (دان مرغليست ـ هآرتس ، ٧٥/١٢/٩) . واضاف هذا المراسل ان الرئيس فورد (بحسب مقال نشره المعلقان ايفان ونوفاك ، المعروفان بحسن اطلاعهما ، في صحيفة واشنطن بوست الاميركية) « يعمل على تغيير سياسته الفلسطينية ، مستندا بذلك الى اشارات من التيار الرئيسي في م.ت.ف. حول استعداد للاعتراف باسرائيل » (المصدر نفسه) .

وتوقعت صحيفة اميركية اخرى ، هي « بلتيمور سان » ، ان « يسود التوتر العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية ، كلما تعمقت الولايات المتحدة في بحث القضية الفلسطينية » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/١٢/٧) . ومعنى ذلك ان اسرائيل تعتبر مجرد معالجة القضية الفلسطينية من قبل الولايات المتحدة تغييرا في السياسة الاميركية . وهذا امر لا ينسجم مع موقف اسرائيل التي تصر على تجاهل القضية والالتفاف حولها ، وتحاول بالتالي التهرب من التوصل الى حل شامل لقضية الشرق الاوسط .

وتحدث الدكتور ناحوم غولدمان ، رئيس المجلس اليهودي العالمي ، عن التغيير في موقف الولايات المتحدة من م.ت.ف. فقال : « ان اعتراف اميركا بـ م.ت.ف. ليس الا مسألة وقت . واميركا لا تفعل ذلك الان لكي لا تحرج اسرائيل ... الوزيران الون وعوفر مستعدان للاعتراف بالفلسطينيين ،اما رابين فغير مستعد لذلك . ولكن اسرائيل قد تغير موقفها بسبب اعتمادها على الولايات المتحدة التي لا تتخذ دائما المواقف نفسها التي تتخذها اسرائيل » (معاريف ، ٧٥/١٢/٢) . ووافق النائب السابق اوري افنيري على هذا الرأي بقوله : « كل انسان عاقل في واشنطن يعلم ان اعتراف واشنطن بـ م.ت.ف. ليس الا مسألة توقيت واسلوب . ان الولايات المتحدة تريد ان تقبض ثمن هذا الاعتراف لنفسها وليس لاسرائيل . ستشترك م.ت.ف. في مؤتمر السلام وهذا بحد ذاته يعتبر اعترافا باسرائيل . وبعد او قبل ذلك ستنضم المنظمة الى القرار ٢٤٢ الذي يعترف بسيادة دول المنطقة ، وذلك في مقابل اعتراف اسرائيل بحق الفلسطينيين في وطن قومي » (هاعولام هازيه ، ٧٥/١٢/٣) .

سخط على مجلس الامن ... وعلى الولايات المتحدة

اذا كانت وثيقة ساوندرز قد اثارت الغضب في اسرائيل فان رضوخ الولايات المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ لمطلب سوريا في مجلس الامن بعقد المجلس في ٧٦/١/١٢ باشتراك م.ت.ف. ، مقابل موافقة سوريا على التمديد لقوة الطوارىء الدولية في الجولان ، قد اثار سخط اسرائيل على مجلس الامن وعلى الولايات المتحدة معا .

فعلى الصعيد الرسمي عقدت الحكومة الاسرائيلية جلسة طارئة في ٧٥/١٢/١ ،واتخذت قرارا بمقاطعة مجلس الامن . كذلك رفضت الحكومة اقتراح وزراء مبام والاحرار المستقلين والوزير عوفر (حزب العمل) بالموافقة على المفاوضات مع كل طرف يعترف باسرائيل (وهي الصيغة التي يعرفها الاسرائيليون باسم « صيغة ياريف ») . وقررت الحكومة ايضا ، آخذة جانب التصلب « تقوية التشكيل الامني في الجولان . وتقوية شبكة 'الاستيطان هناك » (يوسف حاريف ـ معاريف ، ٧٥/١٢/٢) . اما الصحف الاسرائيلية فقد اتهمت الولايات المتحدة بانها بموافقتها على بيان رئيس مجلس الامن، حول دعوة م.ت.ف. للاشتراك في مناقشات المجلس لقضية الشرق الاوسط وقضية فلسطين، « خدعت » اسرائيل . ودعت تلك الصحف الولايات المتحدة نفسها الى مقاطعة جلسات مجلس الامن اذا حضرها ممثل م.ت.ف. ،بينما اتهم بعضها الاتحاد السوفياتي بانه يستغل « الانجراف » لصالح الفلسطينيين في مجلس الامن والولايات المتحدة لكي يظهر كأنه حامل لواء القضية الفلسطينية ، وانه في هذا الجو « يدفع م.ت.ف. للحوار مع الولايات المتحدة. وقد ظهرت اشارات لذلك في البيان المشترك الذي صدر في ختام زيارة ياسر عرفات الاخيرة الى موسكو » (دافار ، ٧٥/١٢/١٤) .

ومع ان الرئيس فورد بعث برسالة تطمين

الى اسحاق رابين يقول فيها انه لم يطرأ اي تغيير في موقف الولايات المتحدة من م٠ت٠ف٠ ، ودعا فيها الى « تعميق التنسيق بين البلدين والى تعزيز الثقة المتبادلة بينهما » ، فقد استمر الاسرائيليون في انتقادهم للموقف الاميركي «والنظر الى الخطوة الاميركية بخطورة بالغة » (معاريف ، ٧٥/١٢/٢) ٠ وقد استمر هذا النقد ، على الرغم من ان الدكتور كيسنجر ايضا وجه رسالة الى يغال الون طمأنه فيها ان موقف الولايات المتحدة « لم يكن الا مناورة داخلية لا تعبر عن الطريق الذي ستسلكه اميركا في المستقبل ، ودعا الون الى زيارة واشنطن بهدف التنسيق الاستراتيجي» (المصدر نفسه) ٠ وقد اعتبر بعض الوزراء ، وخاصة وزير الدفاع شمعون بيريس ، قرار مجلس الامن بدعوة م٠ت٠ف٠ للاشتراك في مناقشاته بانه « خطير » ، « وقد يستغل للضغط على اسرائيل لتطبيق قرارات سابقة للامم المتحدة٠ واتهم بيريس وزارة الخارجية الاسرائيلية بالفشل الذريع ، ودعا الى مزيد من التصلب في الموقف الاسرائيلي » (هآرتس ، ٧٥/١٢/٢) ٠

واتهم بعض المعلقين الولايات المتحدة بانها خضعت « للابتزاز السوفياتي ـ السوري » ، وحذروا من انها قد « تستند على مناقشات مجلس الامن من اجل اجراء مفاوضات مع سوريا وربما مع م٠ت٠ف٠ » (فيليب بن ـ معاريف ، ٧٦/١/١٣) ٠

ومن ناحية ثانية ، يمكن القول ان معظم المحللين السياسيين الاسرائيليين يعتقدون ان هدف الرئيس فورد ليس ارضاء الفلسطينيين بقدر ما هو ارضاء سوريا ، لان اهم شيء بالنسبة له هو ان تمر انتخابات الرئاسة الاميركية بسلام ٠ ويتذكر اولئك كيف غضب الرئيس ايزنهاور في حينه على اسرائيل ، التي اشتركت في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ قبل الانتخابات بايام ٠ ولهذا ، وبما ان سوريا تضع كشرط اساسي اشراك م٠ت٠ف٠ في المفاوضات ، فمشكلة الحكومة الاميركية هي كيف ترضي سوريا ، وليس م٠ت٠ف٠ ، في موضوع الفلسطينيين ٠ (أ٠ شفايتسر ـ هآرتس ، ٧٦/١٢/٥) ٠

وتولي المصادر الاسرائيلية ايضا اهتماما بالغا ليس فقط بمواقف الحكومة الاميركية بل باتجاهات وسائط الاعلام والرأي العام الاميركيين ايضا ٠ وقد شكا معظم المراسلين الاسرائيليين في واشنطن من موقف الاميركيين ضد الاعتداء الاسرائيلي الوحشي على معسكرات الفلسطينيين في لبنان ، على اثر قرار دعوة م٠ت٠ف٠ الى مجلس الامن ٠ فقال احد المراسلين ، مثلا : « منذ قدمت الى واشنطن في منتصف عام ١٩٧٤ حتى الان لم اسمع نقدا بهذه الشدة ضد اسرائيل ٠ لقد قال لي احد الصحافيين الاميركيين: انكم اسوأ مما كنا عليه في فيتنام٠ وقال آخر : انني لا استطيع ان اصدق ما شاهدته في التلفزيون عما فعلتموه في لبنان ٠ واعلن حتى بعض اصدقاء اسرائيل ان هذا الهجوم يدل على ان حكومة اسرائيل ضلت السبيل وتعاني من الضعف داخليا » (دان مرغليت ـ هآرتس ، ٧٥/١٢/٥) ٠

« وثيقة بروكنكز »

مثلما اهتمت الدوائر الاسرائيلية بوثيقة ساوندرز ، اهتمت ايضا بوثيقة جديدة اخرى اطلق عليها اسم « وثيقة بروكنكز » ، وهي وثيقة اعدت في معهد بروكنكز في واشنطن بواسطة فريق من الشخصيات المتخصصة في شؤون الشرق الاوسط ٠ وقد ترأس الفريق المندوب الاميركي السابق في الامم المتحدة شارلز يوست ، واشترك معه في اعداد هذه الوثيقة ٦ شخصيات يهودية اميركية ، شخصيتان عربيتان اميركيتان وعدد من الخبراء الاميركيين٠ ومع ان هذه الوثيقة تدعو الى « دعم دول الشرق الاوسط » فقد اغضبت وسائط الاعلام الاسرائيلية لانها « تدعو اسرائيل ايضا الى الانسحاب التدريجي من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ مع تعديلات متفق عليها على الحدود ٠ وتعطي الفلسطينيين حق تقرير المصير وحق الاختيار بين اقامة دولة مستقلة او الدخول في اتحاد فدرالي مع الاردن » (دافار ، ٧٥/١٢/١٧)٠

ووصف اوري افنيري الوثيقة المذكورة بانها « اعدت من اجل تمهيد الطريق لاعتراف واشنطن بـ م٠ت٠ف٠ » (هاعولام هازيه ،

٧٥/١٢/٣) • ومهما يكن من امر ، فالظاهر ان الاسرائيليين يعتقدون بان الولايات المتحدة تعمد الى المناورة الدبلوماسية بشأن الفلسطينيين اكثر من سعيها الى حل القضية حلا عادلا • ولكنهم ، من ناحية ثانية ، يبدون قلقا واضحا لان كل تصريح وكل وثيقة وكل خطوة تجاه الفلسطينيين تضر ، بحسب رأيهم، باسرائيل من حيث انها تبرز القضية الفلسطينية وتكرسها في الرأي العام الاميركي والعالمي ، في حين تسعى اسرائيل الى دفنها وتجاهلها • ومع ذلك تخشى اسرائيل من ان تضطر الولايات المتحدة الى تقديم تنازلات ، بسبب موقف سوريا الصلب بشأن اشراك م•ت•ف• في المفاوضات ، بحيث توافق بشكل او بآخر على ذلك ، حتى تبقى الولايات المتحدة سيدة الموقف في جنيف ، ولا تنتقل المفاوضات الى مجلس الامن « الذي يسيطر عليه السوفيات» • وقد اشار محرر يديعوت احرونوت الى تصريح جوزيف سيسكو ، الذي قال فيه : « يجب عقد مؤتمر جنيف ، وفي البداية بدون ممثلي ياسر عرفات » ، موضحا « ان التأكيد هنا هو على كلمة في البداية » (يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢٥) • والواضح هنا ان الصحيفة لا تستبعد ان توافق الولايات المتحدة على اشتراك م•ت•ف• في مؤتمر جنيف في مرحلة لاحقة ، الامر الذي تصر اسرائيل على رفضه مسبقا •

اميركا لم تيأس من البديل الاردني

اثناء زيارة وزير الخارجية الاسرائيلي يغال الون الاخيرة الى واشنطن ، ابلغه الدكتور كيسنجر ، بحسب رأي احد المراسلين الاسرائيليين ، انه « من السابق لاوانه ان ننظر الى الملك حسين كجثة سياسية هامدة • فليس من قبيل المستحيل انيحظى الملك حسين بتأييد اغلبية الدول العربية في التفاوض مع اسرائيل حول مصير الضفة الغربية ، مع ان حافظ الاسد صادق عندما يقول انه يربط نفسه بـ م•ت•ف• » (ماتي غولان – هآرتس ، ٧٦/١/٢٣) • واضاف المراسل المذكور ، الذي يعتبر مقربا من الدوائر الرسمية الاسرائيلية ، ان السؤال هو : « ماذا تستطيع اسرائيل ان تعطي ؟ فالملك حسين ، اذا اراد المحافظة على مكانته في العالم العربي ، سيطلب الضفة الغربية كلها ، وربما مع تعديلات طفيفة على الحدود • ولكن هل رابين مستعد لذلك ؟ جواب كيسنجر على هذا هو : استمرار التحرك • وافضل وسيلة لذلك مؤتمر جنيف• فهذا المؤتمر سيتطلب وقتا طويلا في الجدال حول عقده او عدم عقده • ثم سيتطلب وقتا طويلا للجدال حول تحديد موعد انعقاده • ثم سيتطلب وقتا طويلا للجدال حول من سيشترك فيه • واذا عقد بعد كسب الوقت المطلوب ستثار قضية اشتراك م•ت•ف• فيه • لذلك تحاول الولايات المتحدة اجراء جس النبض حول امكانية تشكيل وفد عربي مشترك • وماذا سيكون موقف اميركا في المؤتمر ؟ الجواب هو : مشروع روجرز ••• » (المصدر نفسه) • وجاء ايضا في افتتاحية الصحيفة نفسها (هآرتس ، ٧٦/١/١٦) : « انه ليس من المستبعد ان تجري الولايات المتحدة عملية جس نبض حول امكانية التوصل الى اتفاق اردني – اسرائيلي ، على الرغم من التقارب السوري – الاردني • هذا الاتفاق ستكون له صلة بالقضية الفلسطينية ، على افتراض ان اية مناورة دبلوماسية افضل من الجمود » •

وكتب احد المراسلين الاسرائيليين في واشنطن ، معلقا على توجه الولايات المتحدة في المرحلة القريبة ، ومشيرا الى ما يلي :

١ – تريد الولايات المتحدة بادرة حسن نية اسرائيلية تجاه سوريا ، لانها تريد التقليل من خطر الحرب ، خاصة في سنة الانتخابات للرئاسة الاميركية من جهة ، وتعزيز نفوذها في دمشق من جهة ثانية ، ودعم مكانة الرئيس السادات الذي يعاني من العزلة من جهة ثالثة•

٢ – الى هذه « الطبخة » تريد الولايات المتحدة ان تضيف « بهارا فلسطينيا » • فاذا عارض رابين « صيغة ياريف » ، يريد الاميركيون ان يعرفوا ما هو اقصى ما يستطيع التنازل عنه للفلسطينيين غير المرتبطين بـ م•ت•ف• ؟ اما رابين فسيحاول اقناع الولايات المتحدة ان مجرد اقامة دولة فلسطينية يضر بمصالحها • ولكن من الصعب ان يحدث

هذا ، فقد يكون كيسنجر مقتنعا بذلك ، ولكن ليس الحكومة الاميركية كلها ٠

٣ ـ اذا لم تحصل الولايات المتحدة على هذين الامرين فستتوقع من اسرائيل تنازلا بعيد المدى تقدمه للملك حسين ، بحيث يحصل على تأييد من مصر والسعودية وسوريا ٠ وهنا لا تكفي « خطة اريحا » ٠

٤ ـ اذا اتفق رابين في رحلته القريبة مع واشنطن على خطة استراتيجية او لم يفعل ذلك ، فان الحكومة الاميركية ستطلب منه وضع خطة تمكن فورد من الوصول الى الانتخابات في تشرين الثاني من هذه السنة بسلام ٠ « سينتظر فورد خطة عمل للتنفيذ ، واذا كانت هذه الخطة مقبولة ستوافق الحكومة الاميركية على الصيغة القائلة ان سنة ١٩٧٦ هي سنة وضع الخطط وليس تنفيذها ، وان سنة ١٩٧٧ هي سنة التنفيذ ٠ واما اذا لم تقتنع الحكومة الاميركية بافكار رابين فستطلب مساعدته في وضع خطة للتنفيذ العملي » (دان مرغليت ـ هآرتس ، ٧٦/١/٢٣) ٠

والملاحظ ان رحلة رابين الى واشنطن ، في شباط الماضي ، وكذلك موقف الولايات المتحدة في مجلس الامن من القضية الفلسطينية في كانون الثاني ، بددا الكثير من الشكوك التي اثارتها وثيقة ساوندرز وغيرها حول موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية ٠ وقد صرح رابين نفسه ، بعد عودته من واشنطن ، قائلا : « كانت الزيارة مفاجأة سارة لي ، فلم يضغطوا علي في واشنطن » (معاريف ، ٧٦/٢/٢٣) ٠ اما يوسف حاريف ، مراسل معاريف (المصدر نفسه) فقد علق على اجتماع الحكومة بعد عودة رابين من زيارة واشنطن بقوله ان « اميركا ليست متحمسة لمؤتمر جنيف الان ٠ ابلغ رابين فورد وكيسنجر ان اسرائيل ستكون مستعدة لانسحابات كبيرة في سيناء والجولان مقابل انهاء حالة الحرب ،وان وزير الدفاع بيريس يعارض اي انسحاب من الضفة الغربية لانه يعتبر ذلك بمثابة قتل لمعنويات الشعب » (المصدر نفسه) ٠

« البعبع » السوفياتي

من الواضح ان في اسرائيل دوائر عديدة لا تريد الانسحاب من الضفة الغربية ـ لا لمصلحة الفلسطينيين ولا لمصلحة الاردن ، خاصة وان البعض يشكون في ان « الملك حسين قد يكون ممثل القمة العربية [في الرباط ، سنة ١٩٧٤] ووكيل الفلسطينيين في المفاوضات مع اسرائيل» (متتياهو بيليد ـ معاريف ، ٧٦/٢/١٣) ٠ والواضح ايضا ان اسرائيل تحاول استخدام كل وسيلة لاقناع الاميركيين ان اقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ستكون هزيمة للولايات المتحدة ونصرا للاتحاد السوفياتي ٠

ويعلق احدهم على موقف اسرائيل هذا بقوله: « ان اسرائيل ضحية لفشل اميركا تجاه السوفيات ٠ لقد تمسكت بمواقع كانت تعلم مسبقا انها لا تستطيع الحفاظ عليها فتنازلت وضعفت في نظر السوفيات ٠ وهي ايضا لا تستغل جيدا العلاقات مع الصين ٠ ان العدوانية السوفياتية تجاه اسرائيل نابعة من ضعف اميركا تجاه الاتحاد السوفياتي ٠ وازاء هذا الوضع يجب اتخاذ موقف عسكري صلب ضد م٠ت٠ف٠ ، ويجب التصلب ايضا في السياسة الاستيطانية » (حغاي اشد ـ دافار ، ٧٥/١٢/٥) ٠

ويضيف معلق آخر : « لقد اثبت الاسد للسادات ان الارتباط بالسوفيات مفيد اكثر من الارتباط باميركا : واميركا لا تريد ان تكون معزولة وتسعى ، على الاقل ، الى اتخاذ المواقف الاوروبية تجاه القضية الفلسطينية ٠ من ناحية تكتيكية من المفيد ان نتخذ الموقف نفسه [اي « صيغة ياريف »] ، ولكن من الناحية الاستراتيجية قد يؤدي ذلك الى الاعتراف بدولة ثالثة [اي دولة فلسطينية بين الاردن واسرائيل] ٠٠٠ » (اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت ، ٧٥/١٢/٥) ٠

ويقول معلق ثالث ان الولايات المتحدة مقتنعة بعدم التفاوض مع م٠ت٠ف٠ والاعتراف بها ، لاسباب اميركية وليس لاسباب اسرائيلية فقط ، ذلك لان « ٠٠٠ تفاوضا اميركيا مع م٠ت٠ف٠ سيكون بمثابة اعتراف بفشل

السياسة الاميركية وسيقوض ركائز الوفاق الدولي نهائيا . هناك عدد متزايد من الشخصيات الاميركية يعتقد انه على اسرائيل الدخول في مفاوضات مع م.ت.ف. ولكن الاحداث الاخيرة ، مثل استخدام اميركا لحق الفيتو في مجلس الامن ، وقرار تزويد اسرائيل بطائرات ف - ١٥ ، تدل على ان الولايات المتحدة تنظر الى المفاوضات مع م.ت.ف. على انها فشل لاميركا ولسياسة كيسنجر الرامية الى اخراج السوفيات من المنطقة وكذلك فشل لسياسة الوفاق الدولي » (فيليب بن - معاريف ، ٧٥/١٢/١٩) .

وذكر مراسل آخر : « يدرك الاميركيون الان ان فشل اسرائيل الدبلوماسي هو انتصار سوفياتي على الولايات المتحدة . وعلى الرغم من « المهرجان الفلسطيني » في الولايات المتحدة ، ورغم الانجراف في موقفها الذي عبرت عنه وثيقة ساوندرز ، من الممكن اقناعها ان فرض اي تراجع آخر على اسرائيل سيكون انتصارا اكبر للسوفيات على الاميركيين . ان اضعاف السادات سيبرهن [للعرب] على ان الطريق الصحيح لا يمر في واشنطن بل في موسكو وعلى واشنطن ان تبرهن ان السادات كان على حق عندما راهن على الورقة الاميركية » (شموئيل سيغف - معاريف ، ٧٥/١٢/٨) .

وباسم المصلحة الاميركية وباسم التلويح « بالبعبع » السوفياتي ، يحاول الاسرائيليون اقناع الولايات المتحدة ايضا ان مجلس الامن ليس المكان الصحيح لحل قضية الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية . « علينا ان نقنع الولايات المتحدة ان الامم المتحدة هي جهاز سوفياتي معاد للغرب ولها » (يوسف لابيد - معاريف ، ٧٥/١٢/٨) .

ويبدو ان استخدام « البعبع » السوفياتي في هذا الوقت بالذات له علاقة بانتخابات الرئاسة الاميركية . فاذا اقنعت الدعاية الرأي العام الاميركي بان اقامة دولة فلسطينية ستكون « خدمة » للسوفيات و « اساءة » لاميركا ، سيكون من الصعب على ادارة فورد تأييد مشروع اقامة هذه الدولة ، خاصة وهو يتنافس على الرئاسة مع مرشحين محافظين خطرين ، مثل رونالد ريغان ، الذي اثبت انه منافس عنيد في انتخابات الترشيح الاولية في ولاية هامبشاير .

ان رفض الحلول الفردية واصرار الدول العربية على تنفيذ قرارات مؤتمر الرباط نصا وروحا هو الضمانة لافشال المناورات الاسرائيلية الرامية الى تجاهل القضية الفلسطينية ، خاصة وان الولايات المتحدة تعلن انها تريد منع الحرب من جهة ، ومنع الجمود من جهة اخرى ، وهي بالتالي لا تستطيع ان تكون معزولة عن العالم كله بسبب دعم مواقف اسرائيل المتزمتة من جهة ثالثة .

ويلاحظ ، من ناحية ثانية ، ان الاصوات الداعية الى عدم تجاهل القضية الفلسطينية آخذة في الازدياد في اسرائيل . وانطلاقا من هذا الموقف ، انتقد احدهم حكومة اسرائيل بقوله : « ان هناك تناقضا في قول رابين ان الدول العربية ترفض وجود اسرائيل ، ولكنه [رغم ذلك] يريد التفاوض معها ، بينما لا يريد القيام بذلك مع م.ت.ف. لانها ترفض وجود اسرائيل ... يبدو ان معظم دول العالم تريد اقامة دولة فلسطينية ، ورابين يقول ان هذا لا يلزم اسرائيل . ولكن اسرائيل لا تستطيع ان تعيش لوحدها . لهذا يجب الموافقة على اقامة دولة ثالثة والحصول على ثمن ذلك ، ليس من العرب بل من الولايات المتحدة . والثمن هو معاهدة دفاع مع الولايات المتحدة من شأنها ان تمنع نشوب الحرب » (ي. شفايتسر - هآرتس ، ٧٥/١٢/١٢) .

الا ان طابع التصلب هو الغالب ، عامة ، ما يصدر في اسرائيل من مواقف رسمية بشأن القضية الفلسطينية ، فحكومة رابين ترى ان التصلب قد يظهرها بمظهر القوة في نظر الرأي العام الداخلي والعرب واميركا . وقد حذر شمعون بيريس حكومته من اظهار اية علامات ضعف ، خاصة وهي مقبلة على امتحان صعب في نهاية ايار القادم ، اي عندما ينتهي انتداب قوات المراقبة الدولية في الجولان ، وذلك « في وقت يكون فيه الانسحاب في سيناء [بموجب اتفاقية سيناء الاخيرة] قد تم ، وتكون معركة

الانتخابات الاميركية محتدمة ، مما سيشكل عوامل ضاغطة على اسرائيل » (معاريف ، ٤ / ١٢ / ٧٥) • ويعتقد البعض ان تصلب اسرائيل هو افضل ضمانة لدعم الولايات المتحدة لها ، لانه « ••• فقط عندما نتمسك برأينا بشدة ، وعندما ترى الولايات المتحدة ان شعب اسرائيل صامد في المعركة السياسية ، ستمدنا عندها بـ « جسر جوي » على الصعيد السياسي ايضا » (موشي زاك – معاريف ، ٤ / ١٢ / ٧٥) •

وفي الوقت نفسه ، هناك من يعتقد ان التصلب وحده لا يكفي ، « هناك فراغ في الشرق الاوسط ، ويجب ان نملأه • علينا ان نقدم افكارا ووثائق ، مثل وثيقة ساوندرز ووثيقة بروكنكز ••• لا يكفي ان ننتظر ساكنين حتى تمر السنوات السبع العجاف » (يوئيل ماركوس – هارتس ، ٢٦ / ١٢ / ٧٥) • وهذا يعني ان اسرائيل تحاول كسب الوقت عبن طريق المناورات الدبلوماسية • وعلى سبيل المثال ، طلبت اسرائيل مؤخرا من الولايات المتحدة ان تطلب الى كل دولة عربية ان تقدم تعريفها لانهاء حالة الحرب بينهما وبين اسرائيل • وتسعى اسرائيل من وراء هذا ، على ما يبدو ، الى كسب الوقت – موهمة العالم انها تفكر بالسلام – لكي تستمر في اللف والدوران حول القضية الفلسطينية وهي جوهر الصراع في الشرق الاوسط ، مع المحافظة على دور الولايات المتحدة التي ترتدي ثوب الوسيط لصنع السلام في المنطقة •

يوسف حمدان

[٢]

حكومة اسرائيل تقر ميزانية مخفضة للسنة المالية المقبلة

قدم وزير المالية الاسرائيلي يهوشواع رابينوفيتش الى الكنيست ، قبل اسبوعين ، مشروع الميزانية للسنة المالية ١٩٧٦ / ٧٧ التي تبدأ في اول نيسان المقبل • ويبلغ حجم الميزانية المقترحة ٨٥ر٢ مليار ليرة اسرائيلية ، وتحتل نفقات الامن الجزء الاكبر منها ، اذ خصص لها مبلغ ٤٢ر٣ مليار ليرة • اما اهم بنود الانفاق الاخرى في الميزانية فهي : تسديد الديون – ١٨ مليار ليرة ، الاسكان – ٢ر٣ مليار ليرة ، السلطات المحلية – ٧ر٢ مليار ليرة ، التأمين الوطني – ٢ مليار ليرة ، التعليم – ٣ر١ مليار ليرة ، الخدمات الصحية – مليار ليرة ، الشؤون الاجتماعية – ٦٥٠ مليون ليرة • كذلك خصص للمساعدات التي تمنحها الحكومة لمنع ارتفاع اسعار بعض المواد الغذائية الاساسية مبلغ ٦ر١ مليار ليرة • واعتمد مبلغ ثلاثة مليارات ليرة لتشجيع الصادرات (هآرتس ، ١٥ / ١٢ / ٧٥) •

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد صادقت قبل اكثر من شهرين على مشروع للميزانية يبلغ ٨٤ر٢٥ مليار ليرة ، وذلك بعد تسوية الخلاف مع بعض الوزراء المعارضين ، خاصة وزير الدفاع ، وبين وزير المالية ، حول المبالغ المقترحة لكل وزارة (هآرتس ، ٢٩ / ١٢ / ٧٥) • الا انها عادت واضافت نحو مليار ليرة اخرى الى هذا المبلغ ، وذلك بواسطة رفع نسبة الضرائب

على الواردات من الخدمات ، مثل التأمين والتخصص في الخارج واستئجار الخبراء والفنانين والرياضيين وما شابه ٠ كذلك ازدادت الضرائب على رحلات السفر الى الخارج (دافار ، ١٦ / ٢ / ٧٦) ٠

ويتوقع اجراء عدة مناقشات في الكنيست ، وفي اللجنة المالية المنبثقة عنه ، حول مشروع الميزانية ، قبل المصادقة عليه نهائيا والعمل بموجبه في اول شهر نيسان المقبل ٠ ونتيجة لهذه المناقشات ، يمكن ان تطرأ تعديلات على بنود الميزانية المقترحة ٠

بالاضافة الى ذلك ، سيقدم وزير المالية الى الكنيست ، ميزانية اضافية للسنة المالية ، ١٩٧٥ / ٧٦ ، بمبلغ ٧ر٥ مليار ليرة ، بحيث ستصل ميزانية السنة الحالية ، في نهاية الامر ، الى ٦٥ر١ مليار ليرة ٠ ويبلغ العجز في هذه الميزانية الاضافية نحو ٤ر٥ مليار ليرة ، بالاضافة الى عجز بمقدار ١ر٥ مليار ليرة كان متوقعا في بداية السنة (دافار ، ١٥ و ١٧ / ١٢ / ٧٥) ، بحيث يبلغ العجز الاجمالي خلال السنة الحالية نحو ٦ مليارات ليرة ٠ ولكن ، من ناحية ثانية ، اعلن حاكم بنك اسرائيل ان العجز الشامل في الميزانية الحالية سيصل ، بعد تقديم الميزانية الاضافية ، الى سبعة مليارات ليرة ٠ كذلك ستقوم الحكومة قريبا بطبع اوراق نقدية جديدة بمبلغ ٣ مليارات ليرة (هآرتس ، ٢٦ / ١٢ / ٧٥) ٠

الميزانية جزء من خطة اقتصادية شاملة

يعتبر مشروع الميزانية جزءا من خطة اقتصادية شاملة اعتمدتها الحكومة الاسرائيلية للسنة المالية المقبلة ٠ وتعتبر مشكلة العجز الكبير في ميزان المدفوعات ، الذي وصل في سنة ١٩٧٥ الى ٧ر٣ مليار دولار ، البند الاساسي وموضع الاهتمام الاول في هذه الخطة ٠ وسبب ذلك هو «ان هذا العجز يؤدي الى تعلق اسرائيل بشكل خطير بالمصادر الخارجية ، وعليها ان تخفف من هذا التعلق سريعا قدر الامكان ، خاصة وان هناك خوفا من امكان انخفاض في المساعدات الخارجية خلال السنين المقبلة » (دافار ، ١٥ / ١٢ / ٧٥) ٠ وعلق حاكم بنك اسرائيل ، موشي زنبار ، على هذه المشكلة (في مقابلة مع معاريف ، ٢٠ / ٢ / ٧٦) بقوله ان الاجراءات التي اتخذتها الحكومة في الماضي لمعالجة العجز في ميزان المدفوعات وتدني احتياط العملة الصعبة لم تحقق اهدافها كاملة ، « والارقام تدل على ذلك : ففي سنة ١٩٧٣ بلغ العجز في ميزان المدفوعات نحو ٧ر٢ مليار دولار ، وارتفع في سنة ١٩٧٤ الى ٦ر٣ مليار دولار ٠ اما في ميزانية ١٩٧٥ فقد توقعنا عجزا بقيمة ٣ر٣ مليار دولار ولكن بموجب الحساب النهائي تقريبا ، يتضح الآن ، ان العجز سيصل الى٩ر٣مليار دولار – اي٦٠٠ مليون دولار زيادة عما كان متوقعا ٠٠٠ وبالنسبة لاحتياط العملة الصعبة ، في نهاية ١٩٧٣ بلغ الاحتياط ٧٠ر١ مليار دولار ٠ وفي نهاية ١٩٧٤ وصل الى ٠٧ر١ مليار دولار ، اي انخفض بـ ٦٣٠ مليون دولار ٠ اما في نهاية ١٩٧٥ فقد بلغ ٠٤ر١ مليار دولار ، اي انخفاض بـ ٣٠ مليون دولار اخرى » ٠ وحول تعلق الاقتصاد الاسرائيلي بالاوساط الخارجية ، يقول زنبار : « لقد قسمنا هذا التعلق بصورة دقيقة ، وذلك بواسطة تحديد النسبة بين فائض الواردات الى اسرائيل وبين مجموع الانفاق العام ٠ وبلغت نسبة هذا التعلق في سنة ١٩٦٤ ، وهي سنة التضخم المالي ، ١٩ر٠ وفي سنة ١٩٦٩ – سنة الانكماش الاقتصادي ، التي قل فيها الطلب على البضائع المستوردة – انخفضت الى ١٣ر٠ ٠ ولكن منذ ذلك الوقت وهي في ارتفاع حتى سنة ١٩٧٠ ، وهي السنة التي قرر فيها عبد الناصر تقريب الصواريخ الى قناة السويس – حيث بلغت ٢٣ر٠ ، واتضح ان هذا الامر خطير جدا ٠ وفي سنة ١٩٧٢ انخفضت الى ١٧ر٠ ، ولكنها عادت فيالسنة السابقة ، ١٩٧٥، ووصلت الى ٢٨ر٠ ،وهي نسبة ليس لها سابقة واشك اذا كان قد حدث مثلها في اية دولة حديثة ٠ وتعني هذه النسبة ، بلغة بسيطة ، ان اسرائيل تقترب من وضع لا تستطيع معه توفير ثلث حاجياتها بنفسها ، وانما هي بحاجة الى مساعدة الجهات الخارجية » ٠ وعلى سبيل ذكر المساعدات الخارجية ستحصل اسرائيل خلال هذه السنة من الولايات المتحدة على مساعدات عسكرية بقيمة ١ر٥ مليار دولار

وعلى مساعدات اقتصادية بقيمة ٧٠٠ مليون دولار ٠

وفيما يلي اهم وابرز اهداف ومميزات الخطة الاقتصادية التي جاءت الميزانية الجديدة لتنفيذها ، وذلك بالاضافة الى معالجة العجز في ميزان المدفوعات بواسطة محاولة خفضه بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مليون دولار خلال السنة المقبلة :

١ ـ ميزانية مخفضة ـ ان الميزة الاولى للميزانية المقترحة هي انها ميزانية مخفضة بالمقارنة مع ميزانيات السنين الماضية ، رغم الزيادة التي طرأت عليها ، والناجمة اساسا عن ارتفاع الاسعار ٠ « ففي جانب النفقات في الميزانية حدث ارتفاع بمبلغ ٢١ مليار ليرة تقريبا ، الا ان ذلك لا يعتبر بمثابة زيادة في الميزانية ٠ ان زيادة ٢،٢١ مليار ليرة من هذا المبلغ ناجمة عن الغلاء ، و٧ مليارات ليرة مخصصة لتغطية الزيادة في الديون ، و١،٧ مليار ليرة لتغطية نفقات امن اضافية بالعملة الصعبة ، وبعض البنود الاخرى ٠ وبعد اختصار هذه الامور جميعها ، يتضح ان هناك انخفاضا حقيقيا بنسبة تزيد على ٥٪ في ميزانيات جميع الوزارات » (دافار ، ٧٥/١٢/١٥) ٠ وخلافا لما يقال بأنه هذه هي المرة الوحيدة التي يعلن بها رابينوفيتش عن ميزانية مخفضة ، فالحقيقة هي انه اعلن حتى الان منذ توليه وزارة المالية ، اربع مرات عن شد الاحزمة بواسطة تعديل الميزانية ٠ ففي المرة الاولى خفضت، في حزيران ١٩٧٤ ، ميزانية ١٩٧٤/٧٥ ، وبعد ذلك بفترة قصيرة قدمت ميزانية اضافية بمبلغ يفوق ما تم تخفيضه ٠ وفي المرة الثانية اعلن عن ميزانية مخفضة لسنة ١٩٧٥/٧٦ ٠ وقد فاقت هذه الميزانية كل ما سبقها ، واذا كان ينقصها شيء ما ، فستتم اضافته خلال هذه الايام ، بعد تقديم الميزانية الاضافية للسنة المالية الحالية بمبلغ ٧،٥ مليار ليرة ، كما ذكرنا ٠ وفي المرة الثالثة اعلن رابينوفيتش عن تخفيض مبلغ ٥٠٠ مليون ليرة في الميزانية خلال سنة ١٩٧٥ ٠ ولكن اثر هذه التخفيضات ، بالمدى الذي نفذت به ، سيزول عند اقرار الميزانية الاضافية لهذه السنة ٠ واخيرا مشروع الميزانية الجديدة ، التي يقتضي ان تشمل تخفيضا حقيقيا بنسبة ٥٪ بالمقارنة مع الميزانية الجارية (ابراهام طال ـ هآرتس ، ٧٦/١/١٢) ٠ ولكن بناء على تجربة الماضي ، ليس هناك ضمان بعدم تقديم ميزانية اضافية خلال السنة المالية المقبلة ، تفوق نسبة التخفيض ، رغم ما يعلنه رابينوفيتش عن تمسكه باطارها ٠ وتجدر الاشارة هنا الى ان العجز المخطط في الميزانية المقترحة هو ٢،٧ مليار ليرة : « ان المبدأ الاساسي ، هذه المرة ، في المشروع الذي قدمه وزير المالية هو تعيين حد ادنى للميزانية لا يمكن تجاوزه ٠٠٠ يبلغ العجز فيه ٢،٧ مليار ليرة ٠ ويعتقد معظم الخبراء الاقتصاديين ان العجز سيكون اكبر ، لانه على اثر الانخفاض المتوقع في النشاط الاقتصادي ، هناك اساس للاعتقاد بان مقياس المداخيل لن يتحقق بكامله » (دانيئيل بلوخ ـ ملحق دافار ، ٧٥/١٢/١٩) ٠

٢ ـ ارتفاع الانتاج في سنة ١٩٧٦ بنسبة ١،٥٪ فقط ، على ان يعود النمو في سنة ١٩٧٨ الى وضعه الطبيعي بحيث تصل نسبته الى ٢،٧٪ ـ هذا هو احد التوقعات الاساسية في الميزانية للسنة المقبلة ، ويعود السبب في ذلك الى خفض الاستثمارات وتحديد ميزانيات الوزارات ، مما سيؤدي الى خفض النشاط الاقتصادي العام بهدف توفير العملة الصعبة ٠ وقد ولدت هذه الظاهرة قلقا متزايدا لدى الاسرائيليين ، الامر الذي عبر عنه احد خبرائهم الاقتصاديين ، بروفيسور دان باتنكين (في مقابلة مع معاريف ، ٢٩-١٢-٧٥)، بقوله : « لقد توقفنا عن النمو ٠ يجب وضع هذه المشكلة في مركز اهتمامنا ٠٠٠ ان احدى الظواهر الايجابية والمشجعة التي ميزت الاقتصاد الاسرائيلي منذ قيام الدولة ، هو سرعة النمو لدينا ٠ وقد استمرت هذه الظاهرة منذ ١٩٥٠ حتى ١٩٧٢ ، باستثناء فترة الانكماش الاقتصادي القصيرة خلال ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ٠ لقد نما الاقتصاد بنسبة ١٠٪ سنويا ـ وهي من اعلى النسب في العالم ٠ ولكن بدأ انخفاض في هذه النسبة قبل حرب ١٩٧٣ ، حيث بلغ النمو في تلك السنة ٦٪ فقط ٠

وحتى بعد حرب يوم الغفران ، في سنة ١٩٧٤، بلـغ النمو نحو ٤٪ • وعندما وصلنا الى سنة ١٩٧٥ ، توقـف النمو الاقتصادي عندنا تماما• ففي النصف الاول من سنة ١٩٧٥ حدث انخفاض في النمو ، بالمقارنة مع الفترة ذاتها من سنة ١٩٧٤ ، لا يعادله الارتفاع الذي طرأ في النصف الثاني من السنة ، بحيـث يمكن القـول ان النمو الاقتصادي خلال تلـك السنة كان في حـدود الصفر • وبحسـب التوقعات سينمـو الاقتصاد في سنة ١٩٧٦ بنحو ١٪ فقط ، وفي سنة ١٩٧٧ ، سيرتفع حتى ٥٪ ، وفقط فـي سنة ١٩٧٨ سيعود الى نسبة ٧٪ تقريبا ••• اذا صح التوقع » • ويرى باتنكين انه لـو استمر النمو الاقتصادي على صيغته القديمة لادى ذلـك الى تخفيض العبء الامنـي • « فبحسب التوقعات ستصل نفقات الامن فـي سنة ١٩٧٦ الى ما يقارب ٣٥٪ من الناتـج القومي القائم • ولو استمرت سرعة النمـو الاقتصادي بنسبة ٨٪ في السنة ، بدون توقف، لشكلت ميزانية الدفاع ٢٩٪ من الناتـج القومي القائم • وهذا فرق مهم جدا • وبالارقام يمكن القول ان هذا الفرق ، الذي يتجاوز ٥٪ يشكل نحو نصف الميزانية المدنية في تلـك السنة • ان قدرة الاقتصاد على الصمـود امام المطالب الامنية المتزايدة ، متعلقة بقدرة نموه » (المصدر نفسه) •

٣ - استمرار انخفاض الاستهلاك الخاص والعام بنسبة ٣٪ خلال سنة ١٩٧٦ ، وتجميده في سنة ١٩٧٧ ، ثم بدء ارتفاعه في سنـة ١٩٧٨ - وهذا ما اعلنه وزير المالية في خطابه امام الكنيست عند تقديمه مشروع الميزانية • وكـان رابينوفيتش قد ذكر في مناسبة اخرى ان مستوى المعيشة في اسرائيل يعتبر مـن اعلى المستويات في العالم الغربي ، « رغم ان ديوننا تتراوح بين٨-٩ مليارات دولار• فمنذسنة ١٩٧٢ ارتفع الاستهلاك الخاص بنسبة ١٥-١٦٪ ، وفقط في النصف الاول من هذه السنة (١٩٧٥) برز انخفاض بنسبه ٥ر٥٪ ، ولكن بسبب علاوة غلاء المعيشة ، والاصلاح فـي الضرائب المباشرة ، يبلغ الانخفاض ٣٪ فقط» (دافار ، ٧٥/١٢/١٢) •

٤ - تجميد الاجر الاساسي في القطـاع العام، وكبـح ذاتي في سياسة الاجور - فقد تقـرر وفق الخطة الاقتصادية والميزانية الغاء ساعات العطلة في الصـيف في الخدمة العامة ، واضافة ساعة عمل اسبوعية لجميع الذين يعملـــون اقل من ٤٥ ساعة في الاسبوع ، واحيانا الغاء ايام العطلة او تقليلها • كذلك تقرر تجميـد الاجر الاساسي في القطاع العام لمدة سنة •

٥ - تفضيل الاستثمارات في فرع الصادرات - تقرر تبديـل شروط تشجيع الاستثمارات بهدف تفضيلها في مجال الصادرات ، من خلال الاهتمام اولا بمناطق التطوير • اما بالنسبة للاستثمارات العامة الاخرى فقد تقرر ملاءمتها مع اطار الميزانية على غرار الاستثمار فـي التنقيـب عن النفـط وما شابه • وبالنسبة لتطوير السياحة تقرر استمرار تجميد بنـاء الفنادق الجديدة • اما ميزانيات تطويـــر شبكة المواصلات واجهزة الاتصال ، فتعتمـد على استمرار الاعمال قيد التنفيذ ، بالاضافة الى مشاريع جديدةصغيرة تقرر تنفيذها (دافار، ٧٥/١٢/١٥) • ونفى وزير المالية ما تردد من اشاعات حول تخفيض الاستثمارات في المجال الصناعي قائلا : « ان هذه الاقوال ليس لهـا اساس من الصحة ، اذ ان الاستثمارات فـي الصناعة وصلـت الى ذروتها في سنة ١٩٧٥ ، حيث بلغـت ٥ر٣ مليار ليرة ، مقابل ٢٫٧ مليار ليرة في سنة ١٩٧٤ • ان الزيادة الحقيقية فـي الاستثمارات في الصناعة هي ٨٪ » (دافار ، ٢١-١٢-٧٥) •

٦ - تعميـق جباية الضرائب المباشـرة ، وفرض ضريبة القيمة الاضافية - سيبلغ الدخل من الضرائب خلال السنة المالية المقبلة نحـو ٤٠ مليار ليرة (هآرتس ، ٧٥/١٢/١٩) • ومن اجل تحقيق هذا الهدف ، ومنع التهرب من دفع الضرائب بين قطاعات واسعة داخـل اسرائيـل ، كما حـدث في السنين السابقة ، تقرر اتخاذ عدة اجراءات كفيلة بتعميق جباية الضرائب ، مثل تشكيل لجان تحقيق خاصة ، وفحص نماذج من ملفات ضريبة الدخل العائدة لطبقات معينة مـن المكلفين بدفع الضرائب ، وجمع المعلومات الدقيقة حول دخل الافـــراد

والشركات ، واتباع اجراءات قانونية ضد المتهربين • كذلك تقرر فرض ضريبة القيمة الاضافية خلال السنة المالية المقبلة ، ويتوقع جمع ٢ر٥ مليار ليرة بواسطتها • ولا زالت هناك بعض الخلافات بشأن نسبة هذه الضريبة بين وزارة المالية وبين الهستدروت ، الا انه بات مؤكدا ان نسبتها ستتراوح في البداية بين ٦-٨٪ (دافار ، ١٥/٢/٧٦) •

٧ - استمرار سياسة التخفيض الزاحف في قيمة الليرة ، والقيام ببعض الاعمال لكبح الواردات - ستستمر خلال السنة المالية المقبلة سياسة التخفيض الزاحف في قيمة الليرة، وذلك من اجل الحفاظ على مستوى ايجابي في قيمتها لدى المصدر • والجدير بالذكر ان اخر تخفيض من هذا النوع حدث بتاريخ ١٠-٢-٧٦ حيث خفضت قيمة الليرة بنسبة ٢٪ تقريبا بحيث اصبح الدولار يساوي ٧٫٣٨ ليرة • كذلك ستطبق اجراءات اخرى من اجل تشجيع الصادرات، مثل اعادة ضريبة القيمة الاضافية للمصدرين وتوسيع التأمين على اخطار التجارة الخارجية ومنح مساعدات لاقامة مراكز بيع ومخازن في الخارج •

اما في مجال الواردات فستشدد القيود على الواردات الامنية بهدف استبدالها بالانتاج المحلي • كذلك ستتبع بعض الاجراءات للتوفير في الوقود ، بما في ذلك رفع الاسعار والضرائب •

وفي مجال اخر ، سيتم تحديد رحلات الوفود الرسمية والعامة الى خارج اسرائيل والغاء دورات تخصص موظفي الدولة في الدول الاجنبية • وسيدعى الجمهور الى تفضيل الانتاج المحلي • كذلك ستشدد القيود على التجارة غير القانونية بالعملة الصعبة (دافار، ١٥-١٢-٧٥) • وكان اخر اجراء اتخذته الحكومة ، في مجال التشديد على الواردات ، هو فرض ضريبة بقيمة ١٥٪ على الواردات من الخدمات ، كما اشرنا •

٨ - تخفيض سيولة السندات المربوطة بجدول الغلاء - تقرر ضمن الميزانية المقترحة استمرار تشجيع التوفير بجميع اشكاله • كذلك تقرر تخفيض سيولة سندات الدين المربوطة بجدول الغلاء ، والتي كانت الحكومة الاسرائيلية قد اصدرتها في الماضي في مناسبات مختلفة والحفاظ على مبدأ الربط الكامل بجدول الغلاء بالنسبة للتوفير على المدى الطويل فقط • وقد اتخذ هذا الاجراء لتضييق الثغرة القائمة بين الدخل من السندات والدخل من العمل • وبناء على ذلك تقرر تخفيض الربط بجدول الغلاء تدريجيا حتى ٧٠٪ من قيمة السندات ، خلال سنتين • وكمرحلة اولى سيتم اصدار سندات مربوطة بالجدول بنسبة ٩٠٪ فقط ، ابتداء من موعد اتخاذ هذا القرار • واكد وزير المالية أن الحكومة لن تتعرض الى شروط السندات القديمة التي كانت قد اصدرت في الماضي ، وستتحمل كامل التزاماتها بشأنها (هآرتس ، ٢٤/١٢/٧٥) •

٩ - تسديد الديون - يشكل بند تسديد الديون عاملا مهما في ميزانية ١٩٧٦/٧٧ - وقد ادى الارتفاع الكبير في هذه الديون الى تخصيص ٤٢٪ من الميزانية لهذا الغرض ، مما سيؤثر على مركب العملة المحلية او على النفقات بهذه العملة •

وسيصل حجم تسديد الديون خلال السنة المالية المقبلة الى ١٨ مليار ليرة مقابل ١١ مليار في سنة ١٩٧٥ • كذلك فان اكثر من نصف الزيادة في الدين ناتج عن دفع ديون في داخل اسرائيل ، والباقي بالعملة الصعبة (دافار ، ١٥/١٢/٧٥) •

وعلق بروفيسور باتنكين (معاريف ، ١٩/١٢/٧٥) على مشروع الميزانية الجديدة بقوله : « ان الحل الصحيح والحقيقي وبعيد المدى لخفض العجز في ميزان المدفوعات هو بالطبع زيادة الصادرات ثم الانتاج المحلي كبديل للواردات • وفي هذا المجال يتوقع ، بحسب الخطة الاقتصادية ، نمو الصادرات بنسبة تتراوح بين ٩ - ١٢٪ خلال السنين الثلاثة المقبلة » • واضاف باتنكين ان نقل العمال من الخدمات الى فروع الانتاج هو امر ضروري ولكنه غير كاف • « ليست هذه هي المشكلة الاساسية • ليس هناك حوافز كافية للمصدرين - هذه هي المشكلة ، والخطة الاقتصادية التي

عرضتها الحكومة لا تبين لنا كيف ستتغلب عليها ... ان عائدات اكبر من الصادرات هي التي ستشجع الصناعيين على توجيه منتوجاتهم الى الاسواق الخارجية » . اما التخفيض الزاحف كوسيلة لتشجيع الصادرات ، فانه لم ينجح بمدى كاف ، بحسب رأي باتنكين ، لان زيادة الاجور والمداخيل تغطي خلال زمن قصير الفرق الذي يحصل عليه المصدر نتيجة التخفيض الزاحف ، بحيث يؤدي غلاء الانتاج الى جعل التصدير غير مفيد . وهناك رأي اخر يقول ان اسلوب التخفيضات لم يعد يجد نفعا ، بسبب سرعة تحسن قيمة الدولار الاميركي ، وازدياد قدرة المنافسة لدى منافسي الصادرات الاسرائيلية (دوف غنحوفسكي - يديعوت احرنوت ، ١٢/٢/٧٦) .

خلاف بين وزير المالية ووزراء اخرين

اثار مشروع الميزانية ردود فعل « عدائية » لدى بعض الوزراء في الحكومة الذين خفضت ميزانيات وزاراتهم ، مثل التعليم والاسكان والشؤون الاجتماعية والاستيعاب والصحة . وعلق وزير الصحة فيكتور شمطوف على هذه الميزانية قائلا : ان التخفيضات المقترحة ستؤدي الى التوقف عن بناء مستشفيات جديدة ، الامر الذي سيؤدي الى انخفاض مستوى الخدمات الصحية . واضاف وزير الصحة انه ليس في هذه الميزانية اي توازن في فرض العبء وستؤدي الى توسيع الثغرات الاجتماعية بدلا من تضييقها (حديث مع حاييم ايزك - دافار - ١٩/١٢/٧٥) .

كذلك انتقد وزير الاستيعاب شلومو روزن « التوزيع غير العادل للعبء » في الميزانية . ففي وزارة الاستيعاب خفضت الميزانية من ١٨٨ مليون ليرة الى ١٣٤ مليونا ، والوزارة على استعداد لتقليص جهازها . ولكن روزن اعلن انه تلقى وعدا من وزير المالية بالا تكون الميزانية عاملا محددا لعدد المهاجرين « فهناك احتياط مالي لاستيعاب عشرة الاف مهاجر اضافي في حال وصولهم ، زيادة على العدد المتوقع وهو عشرين الف مهاجر ، كما في السنة السابقة » (المصدر نفسه) .

وذكر وزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ان تخفيض ميزانية وزارته سيؤدي في الاساس الى خفض ميزانيات الجامعات ، وبالتالي الى رفع الاجور الدراسية وتقليص الهيئة الادارية . كذلك سيؤدي التخفيض الى فرض نظام المناوبة في المدارس الابتدائية والثانوية وعدم بناء ابنية جديدة ، واغلاق نحو الف صف (هآرتس ، ١٥/١٢/٧٥) . وذكر ايضا ان التخفيض سيلحق ضررا باربعين الف طالب في الصفوف التاسعة ، كانوا معفيين في الماضي من دفع الاجور الدراسية (معاريف ، ١٧-١٢-٧٥) .

البطالة متوقعة

يتوقع الاسرائيليون حدوث بطالة على نطاق واسع خلال السنة المالية المقبلة ، نتيجة تخفيض النشاط الاقتصادي العام المخطط له في فرعي البناء والخدمات . وتهدف وزارة المالية من وراء ذلك الى تحويل طاقة بشرية عاملة لفروع الانتاج المعدة للتصدير ، ولكنها تدرك ان هذا الامر صعب التحقيق بسبب قلة الخبرة المهنية لدى اولئك العمال ، خاصة العاملين منهم في فرع البناء . وكان وزير الاسكان ابراهام عوفر قد اعلن ان الميزانية المخفضة التي خصصت لوزارة الاسكان للسنة المالية المقبلة ، ستؤدي الى هدم هذا الفرع وتعطيل ٤٠ الف عامل فيه . واضاف عوفر قائلا « ان وزارة الاسكان بحاجة الى ٤،٥ مليار ليرة اخرى من اجل تقديم مساعدات للعائلات الشابة وتحسين ظروف سكنها ، ونقل السكان الى مدن الاعمار ، واقامة المؤسسات العامة والبدء ببناء ١٥ الف وحدة سكنية ، بحسب تخطيط وزارة المالية . واذا لم تباشر بذلك سيتعطل نحو ٤٠ الف عامل ، وفي حال بدء البناء ، سيبلغ عدد العاطلين ١٥ الف عامل » (دافار ، ١٥-١٢-٧٥) . وذكر بروفيسور باتنكين (معاريف ، ١٩-١٢-٧٥) انه اذا لم يستوعب العمال العاطلين في فرعي البناء والخدمات في فروع الانتاج من اجل التصدير او من اجل مواد بديلة للواردات ، فهناك خطر من ان تفوق نسبة البطالة عندها تلك المتوقعة في خطة الحكومة الاقتصادية . « واذا لم

يحدث تطوير في الصناعة من اجل الصادرات ، لن يكون هناك حل للعمال العاطلين في فروع اخرى » .

وبرر حاكم بنك اسرائيل ، موشي زنبار ، اسباب حدوث مثل هذه البطالة (في مقابلة مع معاريف ، ٢٠-٢-٧٦) بقوله « انه اذا حدث انخفاض كبير في المساعدات الخارجية ، بدون ان نستطيع في موازاة ذلك تقليل العجز في ميزان المدفوعات ، فستحدث في اسرائيل بسرعة وبالضرورة بطالة واسعة ، بسبب العجز الكبير في العملة الصعبة . كذلك من الافضل لنا من الان تقليص الطلب الداخلي وتحويل اموال الاستثمارات والطاقة البشرية العاملة الى فروع الصادرات . وهكذا سنربح دولارات اكثر ، وننفق عملة اجنبية اقل ، ونقلل الواردات ونخفض العجز في ميزان المدفوعات .

« كذلك فان هذا الانتقال الى فروع الصادرات مرتبط ايضا بحدوث بطالة . ستقل فرص العمل لانتاج منتوجات لمتطلبات السوق الاسرائيلي . هذه هي السياسة المعلنة للحكومة ويجب ان ننجح في تنفيذها » .

ارتفاع اسعار المواد الغذائية الاساسية

سيؤدي تخفيض المساعدات التي تدفعها الحكومة لمنع ارتفاع اسعار ١٤ مادة غذائية اساسية ، وكذلك اجور المواصلات العامة ، الى ارتفاع كبير في اسعار تلك المواد وفي تكاليف المواصلات . وكانت قيمة هذه المساعدات قد بلغت خلال السنة الحالية ٢ر٧ مليار ليرة . ولو ارادت الحكومة المحافظة على اسعار المواد الغذائية الاساسية الحالية، لاضطرت الى تخصيص ٥ر٣ مليار ليرة لهذا الغرض ، خلال هذه السنة . الا انها اقترحت في الميزانية مبلغ ٦ر١ مليار ليرة فقط ، اي انه سيكون هناك نقص بمقدار ملياري ليرة في المبالغ المخصصة للمحافظة على الاسعار . ويتوقع ان يرتفع ، مثلا ، سعر الحليب ومنتوجاته بسبب ذلك بنسبة ٣٠-٤٠٪ ، بحيث يصبح ثمن لتر الحليب نحو ليرتين وربع . كذلك سيرتفع سعر الخبز بنسبة ٥٠٪ والعلف بنسبة ٥٠٪ ، مما يؤدي الى رفع اسعار اللحوم والبيض (تسفي كسلر - يديعوت احرونوت ، ٩-٢-٧٦) . وبحسب التقديرات الاولية سيزيد مصروف العائلة العادية ، نتيجة هذا الغلاء ، بنحو ١٦٠ ليرة شهريا (رازي غوترمان - معاريف ، ١٦-١٢-٧٥) . وليس هناك امل لدى الاسرائيليين بان تقوم الحكومة بتعويضهم عن ذلك ، نظرا الى تجميد الاجور خلال السنة المالية المقبلة .

الاثر الاجتماعي للميزانية

يسود الانطباع لدى العائلات الفقيرة بأنها ستكون الضحية الاولى لسياسة التخفيض في الميزانية ، وخاصة ميزانية الشؤون الاجتماعية، اذ ان اكثر من مئة الف نسمة في اسرائيل (اي نحو ٢٥ الف عائلة) تحصل اليوم على مساعدة شهرية من مكاتب الشؤون الاجتماعية (يوسف تسوريئيل - معاريف ، ١٦-١٢-٧٥). وقد اعلن وزير الشؤون الاجتماعية ، زفولون هامر ، انه ليس هناك احتمال بان يستطيع هؤلاء تدبير امورهم ، وكل تخفيض في الخدمات التي تمنح لهم سيؤدي الى اضعافهم اكثر (حديث مع حاييم ايزك - دفار ، ١٩-١٢-٧٥).

يستدل مما ذكر ان التأثير الاجتماعي للميزانية سيكون صعبا على الطبقات الفقيرة والمتوسطة من الاسرائيليين خلال هذه السنة . فاسعار المواد الغذائية سترتفع بشكل ملحوظ، بينما ستجمد الاجور في القطاع العام ، مع امكان حدوث بطالة بين الاف العمال . كذلك ستقل الخدمات التي تقدمها الحكومة للجمهور ، خاصة في مجالات الصحة والتعليم والاسكان . ومن ناحية الضرائب ، ستفرض ضريبة جديدة ، كما ذكرنا ، وهي ضريبة القيمة الاضافية . وهذه الاجراءات جميعها ، التي تبدو حادة وصارمة ، كفيلة بتخفيض مستوى المعيشة ، الا ان الاسرائيليين ، على ما يبدو ، بامكانهم تحملها نظرا الى مستوى المعيشة المرتفع نسبيا ، الذي حققوه خلال السنين الماضية ، رغم ان هذا القول لا ينطبق عليهم جميعا .

الهستدروت تقر سياسة مهنية جديدة

من ناحية ثانية ، اعلنت الهستدروت ، النقابة العامة للعمال في اسرائيل ، عن « عدم رضاها » عن سياسة الحكومة المالية بكل جوانبها ، واقرت سياسة مهنية جديدة لسنة ١٩٧٦ تتضمن مواقفها من العمالة والدخل والاجور والارباح والضرائب والمساعدات الحكومية . وترتكز هذه السياسة على الاسس التالية : (١) ستساند الهستدروت وتتعاون خلال السنة المالية المقبلة مع كل عنصر يعمل على زيادة الانتاج ، والحفاظ على العمالة الكاملة وزيادة الصادرات . (٢) تعتبر الهستدروت ان البطالة ليست وسيلة لسياسة اقتصادية - وانما ، على العكس ، بمثابة فشل لها . « فالبطالة تؤدي الى تبذير الموارد وتضر بالطبقات الفقيرة بصورة خاصة » . (٣) تطالب الهستدروت بسياسة دخل معتمدة على الغاء الثغرة بين الدخل من العمل وبين الدخل من رأس المال . (٤) ترى الهستدروت انه ينبغي تشجيع الصادرات وليس المصدرين . فتغيير قيمة العملة لا يكفي لتشجيع الصادرات ، بل ينبغي اعادة النظر في جميع الاجهزة العاملة على تشجيعها . ويجب ان يمكن هذا التشجيع منح حوافز مالية لعمال الانتاج ايضا ، من اجل جذب القوى العاملة المطلوبة للمشاريع المصدرة ، وتشجيع تحسين النوعية وزيادة الانتاج . (٥) ينبغي توسيع قاعدة الاستثمارات المعدة لفرع الصادرات . وترى الهستدروت انه بدون استثمارات كبيرة في فروع الانتاج ، لا يمكن العودة الى النمو الاقتصادي في المستقبل القريب . (٦) ينبغي اجراء المفاوضات حول سياسة الاجور والسياسة المهنية على مستويين : مفاوضات جماعية على مستوى اقليمي ، تقر بواسطتها اتفاقات تشمل جميع العمال المأجورين ، ومفاوضات فرعية ومباشرة بين ارباب العمل والعمال . (٧) يجب على الحكومة الاستمرار في تقديم المساعدات للحفاظ على اسعار المواد الغذائية الاساسية ، والمواصلات العامة ، لان هذه المساعدات تعتبر جزءا غير منفصل من المداخيل ، والغائها الكامل او تخفيضها يؤدي الى تبديل سيء في توزيع الدخل . (٨) تكرر الهستدروت وتؤكد ان الاصلاح الضريبي يمنح افضلية بالنسبة للضريبة المفروضة اليوم على الدخل من رأس المال ، مقابل الدخل من العمل المأجور . ان الاصلاح في مجال الضرائب (حسب توصيات لجنة بن - شاحار) ينفذ اليوم بكامله بين جمهور العمال المأجورين فقط ، بينما تستفيد الجماعات الاخرى من المعيلين من نسب الضريبة المخفضة ، بدون ان تنجح ادارة مداخيل الدولة حتى الان من تحديد دخل هذه الجماعات التي تهربت سابقا من دفع الضرائب المترتبة عليها . وتقترح الهستدروت سن قوانين خاصة واتخاذ اجراءات قانونية ضد المتهربين من دفع الضرائب . كذلك تقترح رفع نسبة الضريبة على الاشخاص الذين يتجاوز دخلهم ١٥٠ الف ليرة سنويا .

حنة شاهين

[٣]

الاستيطان مستمر في المناطق المحتلة

بعد صدور قرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ومجلس الامن بادانة الصهيونية ، ردت الحكومة الاسرائيلية باتخاذ قرارات تقضي بانشاء مزيد من المستوطنات في المناطق المحتلة ، واعلنت عن موافقتها على اقامة اربع مستوطنات في الجولان ٠ وكانت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان قد انتهت من البحث في اقامة تلك المستوطنات في ايلول الماضي ، بينما اعرب الوزير يسرائيل غليلي في حينه ، عن ثقته بان « الحكومة ستقر في احدى جلساتها المقبلة اقامة ٤ مستوطنات جديدة في هضبة الجولان ، وسينفذ هذا الامر باقصى سرعة ممكنة » (معاريف ، ١٨/ ٩/ ٧٥) ٠ وايد غليلي في ذلك وزير المواصلات جاد يعقوبي الذي صرح اثناء زيارته للنواتين الاستيطانيتين في تل كطيف وتل فرج في الجولان بانه « يتوجب علينا تعزيز المستوطنات اليهودية في هضبة الجولان بشكل قانوني وبقرار من الحكومة » ٠ واضاف يعقوبي ان الهدف من ذلك هو « توجيه الحكومة في سياستها » (المصدر نفسه) ٠

وفي وقت لاحق بحثت لجنة مستوطنات الجولان ، بتاريخ ١٣/ ١٠/ ٧٥ ، « الخطوات العملية والسياسية والاعلامية لدفع المعركة السياسية المتوقعة ، واحتمال اجراء مباحثات بالنسبة لتسوية ثانية مع سوريا » (معاريف ، ١٤ / ١٠ / ٧٥) ٠ وكانت اللجنة قد استمعت الى تقرير عن اعمال لجنة مصغرة منبثقة عنها ، يحتوي على نتائج الاتصالات المختلفة التي اجريت مع كبار موظفي الدولة ومع رئيس الحكومة رابين بهذا الشأن ٠ كذلك استعرضت اللجنة الخطة التي وضعتها وحدة الاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية ، لاستيطان القسم الاوسط « والفارغ » من هضبة الجولان على امتداد ٤٠ كم (من عين زيفون في الشمال الى رمات مغشيميم في الجنوب) ، لانشاء ٤ مستوطنات زراعية في هذه المنطقة تحتوي كل منها على مركز صناعي ، وانشاء ٤ مستوطنات اخرى صناعية ومستوطنة اضافية على سفوح الجولان والمركز المدني - الصناعي في كتسرين (المصدر نفسه) ٠ وكلما كانت فترة عمل قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة في الجولان تقترب من نهايتها ، واحتمال احالة الموضوع للبحث في مجلس الامن ، كان الحديث عن الاستيطان في الجولان يزداد تصاعدا ، ليشكل ضاغطا سياسيا على التحرك السوري ، وعاملا مؤثرا بالنسبة لاية قرارات قد تتخذها الجمعية العمومية في هذا الشان ٠

كذلك اجرت كتلة « ارض اسرائيل الكاملة » في ليكود حوارا حول شؤون هضبة الجولان نتيجة للاوضاع السياسية الراهنة ، وقررت ان تتوجه بطلب الى حكومة اسرائيل « للموافقة على انشاء مستوطنات اضافية في الجولان » (دافار ، ٣٠ / ١٠ / ٧٥) ٠ وبالاضافة الى ذلك قررت الكتلة القيام « بحملة اعلامية جماهيرية متشعبة لمعرفة مشاكل الجولان ، ولزيادة التجنيد في وسط الشبيبة للاستيطان هناك » (المصدر نفسه) ٠

ومن ناحية اخرى، بعث الكيبوتس القطري ، التابع لحزب مبام ، بوفد الى رئيس الحكومة ، لنقل وجهة نظره بالنسبة لموضوع استيطان هضبة الجولان القاضية « برفض خطة المستوطنات المدنية ، التي ليست عملا استيطانيا بقدر ما هي خطوة سياسية تظاهرية » تهدف الى عرقلة امكانيات المفاوضات السياسية وتكبيل يدي حكومة اسرائيل ، في «مساعيها لتأمين شؤون الامن الاساسية لاسرائيل في هضبة الجولان ، بايجاد امكانية للمعادلات والحل السلمي » (دافار ، ٣٠/١٠/٧٥) ٠ولكن رغم ذلك عبرت سكرتارية الكيبوتس القطري عن تأييدها لموقف رئيس الوزراء بان « اسرائيل لن تتخلى عن الجولان » ، مع ان

الحدود الفاصلة الان بين سوريا واسرائيل ، لا تشكل في نظرها حدودا نهائية بين الدولتين . ولهذا فان « سياسة الاستيطان في الجولان ، يجب ان تكون قائمة على هذه الفرضية الاساسية » (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى ، قام المؤيدون لاستيطان الجولان بحملة تمهيدية لقرار الحكومة اللاحق . ففي مؤتمر صحفي عقدته لجنة مستوطنات الجولان في بيت سوكولوف في تل ـ ابيب ، يوم ٢٧/ ١٠/٧٥ ، تطرق ممثل المستوطنات يهودا هرئيل الى امكانية قيام سوريا بحرب استنزاف في الجولان ، خاصة وان « هضبة الجولان الاهلة الان بالسكان ، ليست كصحراء سيناء ، ولن تسمح اسرائيل للمدافع السورية بقصف المستوطنات ، ولن تقف مكتوفة اليدين » (دافار ، ٢٨/١٠/٧٥) . ثم تبعه رئيس اللجنة يتسحاق نيس الذي طلب بالنيابة عن مستوطنات الجولان من الحكومة « ان تسرع في اتخاذ قرار لاقامة اربع مستوطنات جديدة في مركز الجولان ،زيادة على الاثنتين والعشرين مستوطنة » الموجودة هناك (المصدر نفسه) . واضاف نيس ان « خطة انشاء المستوطنات الاربع ، تؤيدها سلطات الامن ، وقد صادق عليها قسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية» (المصدر نفسه) . كذلك اوضح ان الاستيطان في الجولان كان قد تركز في الشمال والجنوب ، بينما بقيت منطقة واسعة في الوسط دون اية نقطة استيطانية واحدة . ولهذا فانه « من الضروري الان اقامة مستوطنات فيها ، وعدم ترك مركز الجولان مخترقا من الناحية الاسكانية ،كما وان سلطات الجيش الاسرائيلي في المنطقة معنية بسد هذه الثغرة » (المصدر نفسه) .

وزيادة على ذلك ، قرر مركز الكيبوتسات الموحد في جلسته في كيبوتس عميعاد بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ٧٥ ، بان « الاستيطان اليهودي في هضبة الجولان ، هو عمل طلائعي ، ويعتمد على قرارات حكومة اسرائيل ، ومؤسسات الحركة الصهيونية » (دافار ، ٢٨/١٠/١٩٧٥)، وان ذلك يعتبر « استمرارا للطريق التقليدية للاستيطان الصهيوني » كذلك اعلن المركز انه يرى في تعزيز المستوطنات في هضبة الجولان ، بما في ذلك توحيد الكيبوتسات ، « حاجة ضرورية وملحة » .

كما وتقدمت وحدةالاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية بخطتها ، مجددا ، لبناء « ٤ مستوطنات جديدة في هضبة الجولان ، ٣ منها في الجولان الاوسط ، في تل يوسيفون وتل فرج وحاج حيدر ، والمستوطنة الرابعة في بركة رام في شمال الجولان » (معاريف ، ٣١/ ١٠/ ٧٥) ، واحالتها على اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان .

ورغم ان الحكومة كانت قد رفضت في بحثها السابق لشؤون الاستيطان اقامة المستوطنات الاربع المقترحة ، عادت ووافقت على انشائها في ١/ ١٢/ ٧٥ ، ردا على قرارات الجمعية العمومية ومجلس الامن . وتمشيا مع موافقة الحكومة هذه ، قررت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان في اليوم التالي « انشاء ٤ مستوطنات في هضبة الجولان» (دافار ، ٣/١٢/ ٧٥) .

وقد صوت ممثلو حزب مبام فياللجنة الوزارية ضد القرار ، وانضم اليهم وزير الاستيعاب شلومو روزن ، وعضو ادارة الوكالة اليهودية ابراهام شنكر . اما وزير العدل حاييم تسادوق ـ الذي كان قد ايد اقتراح اقامة المستوطنات الاربع في البحث السابق في اللجنة الوزارية ـ فقد امتنع عن التصويت هذه المرة ، لان « القرار الان ليس في صلب الموضوع ، وانما هو قرار تظاهري ضد قرار مجلس الامن » (دافار ، ٣/ ١٢/ ٧٥ وهآرتس ، ٥/ ١٢/ ٧٥) . كما لم يشترك في هذه الجلسة وزير الاسكان ابراهام عوفر ،الذي اعترض على القرار في البحث السابق في اللجنة الوزارية ، وطلب احالته واعادة بحثه امام الحكومة بكامل هيئتها . ولكن عوفر اضاف « انه لا يعارض هذه المرة القرار الذي اتخذته اللجنة ، كما عارض في المرة السابقة ، لاسباب توقيتية » (المصدر نفسه) . واضاف شارحا : « كان ذلك بعد اتفاقية فصل القوات مع المصريين ، وقبل ان يعلن السوريون عن رفضهم للتوقيع على اتفاقية فصل قوات جديدة مع اسرائيل ،

وكان ثمة تخوف من انهم سيتذرعون بانشاء المستوطنات بالنسبة لذلك » ٠ اما الان وبعد قرار مجلس الامن، «فثمة معنى لقرار تظاهري، ضد قرار مجلس الامن ،وضد موقف السوريون » (دافار ، ٣/ ١٢/ ٧٥) ٠

واكد شمعون بيريس، وزير الدفاع الاسرائيلي على ان « الحكومة نفسها تعمل كل ما في وسعها بالنسبة للاستيطان في الجولان والغور ومشارف رفح » (معاريف ، ٤/ ٧٥/١٢) ٠ واضاف انه « بالاضافة الى المستوطنات الاربع التي تقرر بناؤها في الجولان ، فان الحكومة تخطط الان لانشاء ٥ مستوطنات اخرى » (المصدر نفسه) ٠ كذلك صرح بيريس بان « الحكومة لا تعارض حق الاستيطان في الضفة الغربية ، وانها ليست جريمة ، اذا استوطن اليهود في هذه الاماكن » (المصدر نفسه) ٠

تقوية المستوطنات في الضفة الغربية وسيناء

لم تكتف الحكومة الاسرائيلية بالقرار الذي اصدرته بالنسبة للمستوطنات الجديدة في هضبة الجولان ، بل عمدت مختلف المؤسسات الحكومية الى تنشيط وتطوير المستوطنات التي كانت قد اقرت اقامتها في جنوب سيناء ومشارف رفح ومنطقة القدس وغور الاردن ، والتحضير لاقامة مستوطنات جديدة فيها ٠

وعبر رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، عن تأييده للاسراع في اقامة حي مدني في اوفيره في جنوب سيناء ، وتطويره بشكل اسرع ٠ واوضح رابين موقفه هذا ، في مقابلة له مع وزير الزراعة اهرون اوزن ، المسؤول عن تطوير منطقة شرم الشيخ ، وروؤفين الولي ، رئيس ادارة تطوير تلك المنطقة ، حين طلبا اليه اطلاعهما على توجيهاته بالنسبة لتطويرها بعد توقيع اتفاقية سيناء المرحلية ، واعادة منطقة ابو رديس للمصريين ٠ وفي هذا الصدد اعلن رابين انه « يصر على الاسراع ، والاختصار في الوقت المحدد لتنفيذ تطوير منطقة اوفيره » ، وانه يولي « الاسراع في تنفيذ المخططات التي صادق عليها ، اهمية من الدرجة الاولى » (معاريف ، ١٢/ ١٠/ ٧٥) ٠

وكان رابين قد اعلن في اللقاء الذي اجراه قبل نحو نصف عام مع مستوطني اوفيره بانه « حتى ١/ ١/ ٧٦ ، سيتم في المكان بناء ٥٠٠ وحدة سكن ، وستقام عدة مصانع في المنطقة » (المصدر نفسه) ٠

وبالنسبة لمشارف رفح ، اعلن آرييه بير ، مدير قسم التطوير في شركة الكيرن كاييمت انه « تتم الان تسوية الارض ، لاستكمال مدينة يميت ، وتسوية اراض اخرى لانشاء مستوطنات جديدة ، تعمل في الزراعة الزجاجية للتصدير في الشتاء » ، وانه قد « خصص مبلغ ١٥٠ مليون ليرة لذلك » (هآرتس ، ١٤/ ١٠/ ٧٥) ٠

وصرح ناتان راز ، سكرتير الكيبوتس الموحد ، في معرض حديثه عن اعمال منظمته بانه « قد تم استيعاب كيبوتسين جديدين في مشارف رفح وفي رامات هانجيف وثمة تحضير لاستيطان جديد غيرهما » (هآرتس ، ١٠/٢٨/ ٧٥) ٠

كذلك صرح شلومو آفني ،رئيس لجنة تطوير يميت ، عند الاحتفال بوضع الحجر الاساسي للمنطقة الصناعية في المدينة ، ان مبلغ ١٠٠ مليون ليرة قد صرف حتى الان في تطوير المدينة ٠ واضاف انه بعد اقامة ٣٥٠ وحدة سكن في الحي الاول في يميت ، يجري العمل الان على « تسوية الارض لبناء ١٠٠٠ وحدة سكنية اخرى في ثلاثة احياء » (معاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥) ٠

اما زئيف برغر ، نائب المدير العام لوزارة الصناعة والتجارة ، فقد صرح انه خصص مبلغ « ١٠ ملايين ليرة لبناء مصانع في يميت » (المصدر نفسه) ٠

وكتب تسفي ايلان انه « تقام في هذه الايام في مشارف رفح مستوطنة جديدة للناحال في خروبه » (دافار ، ١٩/ ١٢/ ٧٥) ٠ واضاف المراسل معلقا ، ان « هذه المستوطنة ، ومعها وادي سيناء الواقع الى الغرب منها ، والمؤدي الى العريش ، ترمزان ـ على ما يبدو ـ الى نوايا الحكومة بالنسبة لخط الحدود النهائي بيننا وبين المصريين » (المصدر نفسه) ٠

الاستيطان في منطقة القدس

اما بالنسبة لمنطقة القدس ، فانه ـ تمشيا مع موافقة الحكومة على المخطط الهيكلي لمنطقة القدس الذي قدم اليها قبل ثلاث سنوات ، المقترح بموجبه انشاء ثلاث مدن في قضاء القدس وتوسيع مدينة القدس نفسها ـ فقد تقدمت كل من اللجنة الادارية لتطوير القدس (المسماة لجنة غفني) ووزارة الاسكان بتقريرين الى اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ، توصيان فيهما ببناء ما يتراوح عدده بين ٢٨٦٠٠ و ٤٩٩٥٠ وحدة سكنية (هآرتس ، ١٤/ ١٠/ ٧٥ ودافار ، ١٧/ ١٠/ ٧٥) . ثم عادت لجنة غفني وقدمت مشروعا آخر لبناء ٨٦٠٠ وحدة سكن اضافية في اتجاه الجنوب ، « وبما ان الارض جنوب نفيه يعقوب ارض عربية ، فكل قرار بالبناء يوجب مصادرة اراضي المنطقة » (دافار ، ١٧/ ١٠/ ٧٥) . ولهذا فان مديرية عقارات اسرائيل تستولي على اراض واسعة في منطقة القدس ، من النبي صموئيل وحتى معاليه ادوميم ، « والصفقات التي تتم تجري بسرعة تامة دون اعلان » (هآرتس ، ١٤/ ١١/ ٧٥) . وجاء في تقرير المديرية لسنة ١٩٧٤/ ٧٥ والذي قدم للجنة عقارات اسرائيل ، بانه قد « نفذت عمليات مصادرة اراض حول مدينة القدس فقط، وقدم٠٠٠طلب لمصادرةاراض اخرىبالقرب من بيت لحم، لاقامة جدار امنيحول المستوطنة الجديدة عتسيون ج » (المصدر نفسه) . كما وقدم اقتراح اخر « لمصادرة ١٠٠ دونم كانت تابعة للجيش الاردني بالقرب من غيلاه » (المصدر نفسه) . وزيادة على ذلك فقد ضم التقرير كشفا شاملا بالاراضي « الضرورية لتوسيع معسكرات الجيش الاسرائيلي في قضاء رام الله » (هآرتس ، ١٤/ ١١/ ٧٥) . وجدير بالذكر ان معسكرات الجيش تقوم بتبني نقاط الاستيطان ، التي لم توافق الحكومة على اقامتها رسميا ، كما حدث في مستوطنة عوفره بالقرب من رام الله ، وغيرها من المستوطنات في المناطق المحتلة .

وبالنسبة لمستوطنة مفشيرت يروشلايم ، فقد افتتحت المناقصة على تسوية الارض في المنطقة « لجعل المستوطنة التي تتكون من مئات العائلات فقط ، تضم ٤٠ الف مستوطن » (معاريف ، ١٠/ ١١/ ٧٥) ، وذلك ضمن البرامج التي تسعى الى اقامة سلسلة من المدن والمستوطنات في شمال وشرق وجنوب مدينة القدس . وبحسب المخطط ، ستكون مفشيرت يروشلايم تابعة للقدس ، ومبنية من « الفيلات والكوتجات والابنية المسطحة ، مكونة من خمسة الاف وحدة سكن ، ولكل وحدة سكن منها قطعة ارض خضراء » (المصدر نفسه) .

وتضم الخطة ايضا اقامة ٣٠٠ وحدة سكنية فوق قمة جبل الشيخ عبد العزيز الموجودة خارج « الخط الاخضر » ، ولا بد من مصادرة الاراضي هناك وضمها الى اراضي دولة اسرائيل » (معاريف ، ١٠/ ١٠/ ٧٥) . وقد عقب ميرون بنبلشتي نائب رئيس بلدية القدس على ذلك بقوله ان مفشيرت يروشلايم هي ، « برنامج الحكومة ومديرية عقارات اسرائيل ، وهي خطة تطوير منظمة بشكل واسع » (المصدر نفسه) .

كذلك تهدف الخطة الشاملة الى « انتشار » القدس بنسبة ٦ بالمئة كل عام ، بحيث تبلى احياء جديدة في النبي صموئيل وتلبيوت ونفيه يعقوب وتلبيوت مزراح (قصر المندوب السامي) . وقد تم بناء الاف وحدات السكن في هذه المناطق . وطبقا لما قررته لجنة غفني « يوجد الان في منطقة القدس اراض معدة لبناء ٤٠ الف وحدة سكن خلال ٥ سنوات » (المصدر نفسه) .

وفي تقدير المسؤولين في بلدية القدس ، ان هناك خطة « لمضاعفة عدد سكان القدس الى ٦٧٠ الف نسمة في المنطقة التابعة للمدينة ، بواسطة توسيع الضواحي واعمار « الفراغات » بين الاحياء » (معاريف ، ١٠/ ١٠/ ٧٥) .

الغزوة الاستيطانية لسبسطيه

كان من بين ردود الفعل غير الرسمية على قرار ادانة الصهيونية ، مبادرة جماعة غوش ايمونيم المتطرفة ـ التي تنادي بضم المناطق

المحتلة الى اسرائيل وتسعى الى اقامة المزيد من المستوطنات فيها ـ بغزوة استيطانية مكثفة الى جوار سبسطيه يوم ١/ ١٢/ ٧٥ ، حيث اطلقوا على المكان الذي استقروا فيه اسم آلون موريه ، مدعين انه في هذا المكان قال الرب لابراهيم اول مرة « لك ولنسلك اورثت هذه الارض » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥) ٠

وتوافد يوم السبت ١/ ١٢/ ٧٥ ما لا يقل عن الف مستوطن من جماعة غوش ايمونيم الى محطة القطار القديمة في سبسطيه بعد ان اعلنوا عنها نقطة تجمع لهم ، بينما توافدت طوابير اضافية من المستوطنين والانصار خلال الاربع والعشرين ساعة التالية في طريقها الى تلك المحطة ، حيث ارسلوا من هناك برقية لرئيس الحكومة رابين ، بتأييد النائبة غيئولاه كوهين ، نددوا فيها بقرار مجلس الامن وطلبوا منه ان « يرد على هذا القرار باقامة مستوطنة في السامرة » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥) ٠ كذلك طالب المستوطنون الكنيست بأن لا يكون « شريكا لزمرة المنددين بالصهيونية » ، اذ ان الاستيطان في السامرة هو « العمل الصهيوني الحقيقي الذي يوضح للشعب اليهودي وللعالم ، بان هذا هو بيتنا »، وان صاحب الحق الوحيد في « ارض ـ اسرائيل» هو « شعب اسرائيل » (المصدر نفسه) ٠

الا ان الحكومة طلبت الى المستوطنين اخلاء المكان بعد ساعات قليلة من هذه الغزوة الاستيطانية المكثفة ، فعقدت على اثر ذلك الكتلة البرلمانية الموسعة للحزب الديني القومي جلسة طارئة ، وقررت ان تبادر الى « اجراء مشاورات مع الكتل الائتلافية والمعارضة » ، للحصول على موافقتها « لاسقاط بحث الاستيطان في سبسطيه من جدول اعمال الكنيست » ، ولتوحيد الصفوف في « مواجهة قرار مجلس الامن » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥)٠

وقد اثارت عملية الاستيطان هذه ردود فعل عنيفة لدى اهالي الضفة الغربية ، وخلقت توترا كبيرا في نابلس والقرى المجاورة ، مما دفع رئيس بلدية نابلس الحاج معزوز المصري ، الى دعوة مجلس البلدية ومخاتير القرى المجاورة لبحث الموقف في جلسة خاصة ، تقرر بعدها اغلاق جميع المحال التجارية في المدينة « احتجاجا على ما يجري في سبسطيه » ٠ ثم شكلت لجنة البلدية وفدا قام بمقابلة الحاكم العسكري في نابلس وقدم له احتجاجا يؤكد فيه ، ان الاستيطان في سبسطيه « يخلق توترا بالغ الخطورة في المنطقة » (المصدر نفسه) ٠ كذلك قام طلبة المدارس الثانوية في نابلس بمظاهرات احتجاج في شوارع المدينة ٠

ومن ناحية اخرى ، اثارت عملية الاستيطان هذه موجة من ردود الفعل المعاكسة ، لدى بعض الاحزاب والقوى الاخرى المعارضة لجماعة غوش ايمونيم وغزواتها الاستيطانية المدعومة من الاحزاب الدينية ومن التجمع اليميني ليكود ، موجهة انتقاداتها لموقف الحكومة المهادن منها٠ فقد نددت سكرتارية شباب حزب العمل في منطقة القدس بمحاولة الاستيطان هذه وعبرت عن دهشتها لموقف الحكومة التي لم تفعل شيئا لافشال محاولة الاستيطان تلك قبل حدوثها » (معاريف ، ٢ / ١٢ / ٧٥) ٠ كذلك تقدم افرايم كورن ، مسؤول الجيل الجديد في حزب مبام ، بطلب لمحكمة العدل العليا ، لاصدار « امر مع وقف التنفيذ ضد وزير الدفاع وقائد منطقة الضفة الغربية ، يأمرهما فيه بتقديم الاسباب التي جعلتهما يتقاعسان عن اتخاذ الاجراءات اللازمة لاخلاء مستوطني سبسطيه ، رغم بقائهم فيها اكثر من ٤٨ ساعة »(معاريف، ٢/ ١٢/ ٧٥) موضحا ان محاولة الاستيطان هذه « تشكل مخالفة للاوامر الصادرة بالنسبة للمناطق المغلقة » (المصدر نفسه) ٠

وفي باحة الكنيست وامام مكتب رئيس الوزراء ، تظاهر نحو ١٥٠ شخصا من حزب موكيد ، بقيادة النائب مئير بئعيل الذي اعلن ان « الرد على قرار مجلس الامن لا ينبغي ان يكون بالاستيطان ، وانما بالمفاوضات مع الفلسطينيين » وان « الاستيطان حجر عثرة في سبيل السلام » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥) ٠

بعد الاجراءات التي اشرنا اليها ، احيلت قضية الاستيطان في سبسطيه، الى جدول اعمال الكنيست ، في ٣/ ١٢/ ٧٥ ، بموافقة وزير الدفاع شمعون بيريس ٠ وتعطي كلمات النواب الذين تحدثوا حول البنود الستة التي طرحت

من مختلف الكتل على جدول الاعمال ، صورة واضحة لدائرة الاراءالمؤيدة والمضادة للاستيطان في سبسطيه ، فقد طالبت النائبة غيئولاه كوهين (ليكود) « باسقاط البحث كلية من الكنيست » (هآرتس ومعاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥)٠ اما يتسحاق غولان (الاحرار المستقلين) فانه يعتقد ان « على الكنيست ان يمتنع عن البحث في هذا الموضوع ، اثر القرارات التي اتخذها مجلس الامن ، والضربة السياسية التي تلقتها اسرائيل » (المصدر نفسه) ٠ وتحدث النائب يودين (مبام) معلنا ان « عمليات الاستيطان هذه ليست قانونية ومناقضة لسياسة حكومة اسرائيل » ، وان « ثمة خطر للانشقاق داخل الحكومة نتيجة للخروج على قوانينها » ٠ واضاف انه « علينا ان نتركز في جهودنا ، من اجل استيطان واسع في الجليل والنقب » (هآرتس ومعاريف ، ١٢/٤/ ٧٥) ٠ ثم تبعه يهودا بن ـ مئير (مفدال) فهاجم الحكومة لموقفها المعارض من الاستيطان ، الا بموافقتها ، واضاف ان « الحكومة ليست مفوضة اطلاقا ـ بحسب رأيي ـ لان تمنع استيطانا يهوديا في ارض ـ اسرائيل ٠ وما من قاعدة قانونية لذلك تستند عليها ٠٠٠ اننا نواجه الان مرحلة خطيرة في تاريخ دولة اسرائيل وعلينا ان نوحد صفوف الشعب ونرصها » ٠ اما النائب ليفنبراون (راكاح) فقد شجب عمليات الاستيطان ، متهما الاوساط اليمينية باختلاقها لعرقلة اية حلول سلمية مع الدول العربية ، واجراء مفاوضات مع الشعب الفلسطيني ، مؤكدا انه « في كل مرة يحصل فيها حدث سياسي ، من شأنه ان يهيء المناخ نحو حل سلمي ـ تختلق هذه الاوساط المتطرفة عملية استفزازية ، تهدف منها ضرب اي امل للمفاوضات مع الشعب المجاور ـ الشعب العربي الفلسطيني » ٠ واضاف ليفنبراون : « وهكذا في هذه المرة ، فان محاولة جماعة غوش ايمونيم ومناصريهم الاستيطان في سبسطيه ، ترتبط بحسب اقوالهم وتصريحاتهم بمقررات مجلس الامن ، بالنسبة لتمديد فترة قوة الطوارىء في الجولان ، والقرار القاضي بطرح قضية الشرق الاوسط على بساط البحث في مجلس الامن في شهر كانون الثاني ١٩٧٦ ، ودعوة ممثلي م ٠ ت ٠ ف ٠ لهذا النقاش » ٠ واتهم ليفنبراون الحكومة بانها تتواطأ مع هذه الاوساط ، بتساهلها في عدم اتخاذ موقف حازم تجاهها (هآرتس ومعاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥) ٠ كذلك عارض مئير باعيل (موكيد) الاستيطان في السامرة وطالب الكنيست باجراء « بحث اساسي ومبدئي في هذه المسألة » (المصدر نفسه) ٠

ورد وزير الدفاع شمعون بيريس على اعضاء الكنيست قائلا انه لا يمكن ان يكون استيطان في « السامرة » دون موافقة الحكومة ، لانها « هي التي تقرر خارطة الاستيطان والاجراءات الامنية » ٠ ولم يعارض بيريس الاستيطان في « السامرة » من حيث المبدأ ، معلنا ان « الجدال الدائر اليوم ليس جدالا على ماهية الحاجة للاستيطان ، او حتى الخارطة التي تدل على مدى الاستيطان ، وانما على طريقة تنظيمه ، اي على طريقة عمله في نظام ديموقراطي ، قائم على قانون واضح وصريح ، وعلى سياسة موضوعة ومنفذة بشكل ديموقراطي » (المصدر نفسه) ٠ ونفى بيريس ان يكون قانون لدى الحكومة يمنع الاستيطان في الاراضي المحتلة : «انني لا اعرف عن اي مبدأ لدى الحكومة يمنع حق الاستيطان في يهودا والسامرة » ٠ وفي نهاية حديثه طلب بيريس من المستوطنين « اخلاء سبسطيه بارادتهم الحرة » ، ملمحا الى امكانية الموافقة على عودتهم للاستيطان بقوله « ان عليهم التوجه الى دوائر الاستيطان بالنسبة لرغبتهم في الاستيطان في سبسطيه » (هآرتس ومعاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥) ٠

ورغم المعارضة والمظاهرات الشعبية الفلسطينية ضد الاستيطان ، ورغم التظاهرات المعادية التي قام بها مبام وموكيد ثم طلب الحكومة الى المستوطنين اخلاء سبسطيه ، ظل المستوطنون وانصارهم من الحزب الديني القومي والاحزاب والقوى المتطرفة الاخرى ، يتوافدون على سبسطيه بمسيرات مكثفة ، حيث اقاموا مدينة من الخيام ثم نقلوا ستة مبان جاهزة الى مكان الاستيطان في الون موريه

بالقرب من سبسطيه · وادى ذلك الى زيادة التوتر بين السكان العرب في المناطق المحتلة ، ودفع « قوات الامن في منطقة نابلس الى تعزيز عناصرها واستنفارها ، نظرا للثورة العارمة التي اجتاحت نابلس والقرى المجاورة » (معاريف ، ٦/ ١٢/ ٧٥) ·

وقد وصلت الثورة ذروتها يوم ٦/ ١٢/ ٧٥ ، حيث « تظاهر العشرات من التلاميذ في قرية سبسطيه ضد المستوطنين ، وتوجهوا من مركز القرية الى مكان الاستيطان ، بغية الاصطدام مع « جيرانهم » الجدد ، وقد انضم القرويون اليهم في طريقهم ، وهم يهتفون بهتافات قومية ، ويرفعون لافتات تندد بالسلطات » (معاريف ، ٧/ ١٢/ ٧٥) · الا ان قوات الامن « حضرت الى المكان ، وحالت دون وصولهم ، وفرقتهم قبل ان يصلوا الى الشارع المؤدي الى مكان الاستيطان » (المصدر نفسه) · وفي نابلس ، قام تلاميذ المدارس الثانوية بمظاهرة ضخمة وهم يحملون الاعلام الفلسطينية » (المصدر نفسه) ، الا ان قوات الامن « تصدت لهم وفرقتهم واعتقلت عددا من المشتبهين بتحريض المتظاهرين » (معاريف ، ٧/ ١٢/ ٧٥) · اما في قرية عنبتا فقد « تصدى ابناء القرية للمستوطنين وانصارهم ، وهم في طريقهم الى سبسطيه ، بالحجارة ، محاولين منعهم من الوصول » ، الا ان المستوطنين « اطلقوا النار عليهم من بندقية رشاشة ، فسارع الجيش الى المكان واعتقل عددا من ابناء القرية » (المصدر نفسه) ·

وعلى اثر ذلك ،اجتمعت الحكومة الاسرائيلية في جلسة طارئة ، في ٧/ ١٢/ ٧٥ ، للبت نهائيا في مشكلة المستوطنين · وقد اختتم النقاش الوزير غليلي باقتراح تبنته الحكومة ، لا ينص على اخلاء المستوطنين ، بل يكتفي بالاعلان انه « لن يكون هناك استيطان بدون موافقة الحكومة » (معاريف ، ٨/ ١٢/ ٧٥) ·

واخيرا توصل رئيس الحكومة يتسحاق رابين ووزير الدفاع شمعون بيريس الى حل وسط مع المستوطنين في سبسطيه لانهاء المشكلة ، وذلك بقبول الاقتراح الذي تقدم به الوزير غليلي بايحاء من مستشار رئيس الوزراء ومفاده ان « ينتقل جزء من المستوطنين في سبسطيه الى معسكر للجيش في قدوم ، بحيث تكون لهم حرية الحركة ، بينما يترك باقي المستوطنين وانصارهم سبسطيه » (معاريف ويدعوت احرونوت ، ٨/ ١٢/ ٧٥) ، على ان تجري الحكومة بحثا شاملا ، بعد شهرين او ثلاثة ، بالنسبة لسياسة الاستيطان في الضفة الغربية ·

موقف واشنطن

ابدت حكومة الولايات المتحدة ، ربما لاول مرة ، قلقها من الغزوات الاستيطانية الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ، وما رافقها من تصريحات اسرائيلية رسمية متصلبة ، وردود فعل فلسطينية وسورية وعربية تهدد مستقبل الحلول السلمية الاميركية المطروحة في المنطقة ، الى حد دفع الرئيس فورد الى ارسال برقية لرئيس الحكومة الاسرائيلية رابين يعبر فيها « عن استيائه للقرار الذي اتخذته حكومة اسرائيل باقامة ٤ مستوطنات جديدة في الجولان »· كذلك طالب فورد اسرائيل ان« تنسق مع الولايات المتحدة بالنسبة لاي استيطان في يهودا والسامرة » (معاريف ، ٢٤ – ٢٦/ ١٢/ ٧٥) ·

وكان رد رابين ، الذي أعاد البرقية للرئيس فورد رافضا تسلمها ، ان « السوريين لن يملوا علينا اذا ما كنا سنقيم مستوطنات في الجولان ، ومتى » · ويبدو ان رابين قد « احس مباشرة بما تنطوي عليه هذه الرسالة من اخطار كبيرة ، ولما تحمله من بذور حل مفروض » (معاريف ، ٢٦/ ١٢/ ٧٥) · وهذا ما يشير اليه قول رابين في احدى مشاوراته مع الحكومة « لماذا علي ان انسق مع الولايات المتحدة ؟ » (المصدر نفسه) ، وما اعرب عنه لسفير الولايات المتحدة من تخوف ، بانه لو نقل مضمون الرسالة للبحث في الحكومة بشكل موسع فانه « سيتسرب الى الخارج وستقوم معارضة شديدة لطلب الرئيس الاميركي في الحكومة ، لان الجميع سيرون في ذلك املاء رأي » (معاريف ، ٢٦/ ١٢/ ٧٥) ·

واكد وزير الخارجية الاميركي كيسنجر ، في

مؤتمر صحفي عقده في مكتب وزارة الخارجية في واشنطن يوم ٢٣/ ١٢/ ٧٥ ، بان الولايات المتحدة ارسلت برقية شخصية لرئيس الحكومة الاسرائيلية رابين « انذرت اسرائيل فيها من النتائج المترتبة على انشاء ٤ مستوطنات جديدة في هضبة الجولان » (معاريف ، ٧٥/١٢/٢٤) ٠ وردا على سؤال وجه اليه عن رأيه بالنسبة للتوتر الذي خلقه رابين في العلاقات الاميركية الاسرائيلية ، باعادته رسالة الرئيس ، وما يترتب على ذلك ، اجاب كيسنجر « سياستنا العامة تشير الى ان اية مستوطنات جديدة في هضبة الجولان ، وفي اماكن اخرى ، تعقد العملية الدبلوماسية في الشرق الاوسط ٠ وقد اوضحنا هذا الامر لحكومة اسرائيل جيدا ٠٠٠ والمرة تلو الاخرى » (معاريف ، ٢٤/ ١٢/ ٧٥) ٠

توفيق فياض

شهريات

(١) القضية الفلسطينية دولياً

على اثر زيارة رابين الاخيرة لواشنطن ومقابلته الرئيس فورد ووزير خارجيته كيسنجر اخذت الانباء والتصريحات الرسمية تشير الى وجود اتفاق اميركي اسرائيلي لاطلاق مبادرة سلمية امريكية جديدة في المنطقة تتناول سوريا والاردن بصورة رئيسية ٠ وقد اطلق رابين وبعض كبار المسؤولين الاسرائيليين تصريحات هامة حول هذا الموضوع تحديدا وحول الامور الاخرى التي شملتها محادثات رابين مع الزعماء الامريكيين ٠ في الواقع ادلى رئيس الوزراء الاسرائيلي بسلسلة غير قصيرة من التصريحات حول هذه المسألة بالذات ، بعد عودته من واشنطن ، ونوجز فيما يلي اهم النقاط التي ركز عليها : (أ) ان اسرائيل لن تقدم في المستقبل على عقد اي اتفاق مؤقت ومنفرد مع اي من الدول العربية ، (ب) ان اسرائيل والولايات المتحدة توصلتا الى تفاهم حول الخطوات الدبلوماسية المقبلة في الشرق الاوسط والتي تتمركز حول قيام الولايات المتحدة بجس نبض الدول العربية المعنية حول امكانية انهاء الاخيرة لحالة الحرب مع اسرائيل مقابل تنازلات معينة على صعيد الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، (ج) ان اسرائيل لن تتفاوض في شأن الضفة الغربية الا مع الحكومة الاردنية ولا مانع من ان تنضم الى الوفد الاردني المفاوض عناصر فلسطينية ٠ واعلن رابين ان حكومته قررت فتح مفاوضات مع الاردن في هذا الشأن لانه على الرغم من ان « المشكلة الفلسطينية لا تشكل لب النزاع العربي الاسرائيلي » ـ حسب قوله ـ لا يمكن التوصل الى تسوية نهائية سلمية في المنطقة بدون تسوية المشكلة الفلسطينية على الا يعني هذا دخول اسرائيل في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبار الاخيرة لا تعترف بشرعية وجود اسرائيل ، (د) ان اسرائيل قد طلبت بالفعل الى الولايات المتحدة الاتصال بالدول العربية للبحث في امكانات الوصول الى اتفاق يقضي بانهاء حالة الحرب بين الطرفين ، (هـ) ان اسرائيل لن تتخلى عن مرتفعات الجولان كليا حتى في حال التوصل الى تسوية سلمية نهائية في المنطقة ولكنها على استعداد للقبول باكثر من « تعديلات تجميلية » فيما يتعلق بالحدود النهائية في الجولان ، (و) ان اسرائيل تعتبر الان وضع مصر العسكري اضعف بكثير مما كان عليه عشية حرب تشرين مما يعني ان مصر لن تدفع باتجاه الحرب في المستقبل المنظور ٠ ونسب رابين هذا الضعف المصري الى اتفاقية سيناء مما فرض على نظام السادات عزلة عربية « اخرجته خاسرا من صفقة سيناء » ٠ لهذا السبب رجح رابين بأن اكثر الدول العربية ميلا للدخول في محادثات حول انهاء حالة الحرب هي مصر ٠ أما آلون فقد قال بأن اسرائيل سترتكب خطأ كبيرا ان هي رضيت التفاوض مع الاردن بدون اشتراك ممثلين عن الضفة الغربية ٠ كما اكد الموقف الاسرائيلي الرافض لمشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف وفي التعامل معها كممثلة للشعب الفلسطيني ٠ وذكرت الانباء بأن اسرائيل كلفت عددا من رجال القانون المحليين والامريكيين لدراسة معنى عبارة « انهاء حالة الحرب » ومضامينها وما

تنطوي عليه من نتائج خاصة ما اذا كان هناك فارق اساسي بين حالة انهاء الحرب وحالة السلام ٠

بالنسبة للجانب الامريكي صرح كيسنجر على اثر محادثاته مع رابين بأن حكومته ستستدعي سفراءها في منطقة الشرق الاوسط للتشاور معهم حول الخطوة المقبلة في المنطقة معززا بذلك ما ذهب اليه رابين حول المبادرة الامريكية الجديدة الواردة ذكرها ٠ اما مساعد كيسنجر ، آثرتون ، فقد قال صراحة بأن الحكومة الامريكية تضع الان الخطوط العريضة لمبادرتها الجديدة في المنطقة ٠

على الجانب العربي تكفلت سوريا بايضاح المواقف ردا على الحملة الاسرائيلية اذ نفى مصدر رسمي مسؤول الانباء القائلة بان سوريا والاردن على استعداد لتوقيع اتفاق مع اسرائيل لانهاء حالة الحرب معهامقابل انسحابات واسعة من مرتفعات الجولان والضفة الغربية ٠ كما أكد وزير الخارجية عبد الحليم خدام مجددا الموقف السوري المعروف بقوله ان اية خطوة نحو السلام في المنطقة لا يمكن ان تتم الا على اساس تحقيق مبدأين هما انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ٠ ثم اوضح الرئيس الاسد الموقف السوري في مقابلة اجراها معه التلفزيون الايطالي حيث تناول مشكلة الشرق الاوسط من اهم جوانبها ٠ وكانت اهم النقاط التي شدد عليها الرئيس الاسد هي : (أ) التأكيد على ان سياسة الخطوة خطوة توافقت تماما مع مصالح اسرائيل ومطالبها في حين ان سوريا هي التي احبطت هذه السياسة وانهتها لانها استهدفت تمزيق الامة العربية عبر « خطوات عرجاء » حققت مكتسبات لصالح العدو اكثر من غيره ، (ب) التأكيد على ان احدا لم يفاتح سوريا بموضوع انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ٠ واستغرب الرئيس الاسد ان يكون عنوان العمل السياسي في المرحلة المقبلة هو انهاء حالة الحرب في ظل الاحتلال القائم ٠ واضاف الاسد قائلا ان الكلام عن انهاء حالة الحرب يشكل تحركا اخر ضد المصلحة العربية ولكن بزي جديد اذ ان هذا التحرك ليس الا استمرار السياسة الخطوة خطوة تحت عنوان اخر ، (جـ) التأكيد على ان عنوان العمل السياسي في المرحلة المقبلة يجب ان يكون قضية الشعب الفلسطيني وقضية الانسحاب من الاراضي المحتلة وتنفيذ قرارات الامم المتحدة لان انهاء حالة الحرب لا يمكن ان يتم بدون انهاء الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، (د) التأكيد على ان اتفاقية سيناء خربت جهود السلام واعاقت المسيرة نحوه لانه لا يجوز ان توافق حكومة مصر على نبذ استخدام القوة في حل مشاكلها مع اسرائيل في وقت يشكل فيه احتلال الاراضي العربية وتشريد الشعب الفلسطيني استخداما مستمرا للقوة من جانب اسرائيل ٠

☐ الموضوع الدولي الاخر الذي استأثر بالاهتمام كان مسألة التمديد لقوات الطوارىء الدولية في الجولان مع نهاية شهر ايار المقبل ٠ على هذا الصعيد بدأت اسرائيل منذ الان حرب اعصاب وتصريحات بهدف الالتفاف على اي ضغط عربي يمكن ان تتعرض له اسرائيل عندما يحين موعد التجديد للقوات الدولية ، خاصة بعد المأزق الذي وجدت اسرائيل نفسها فيه لاشهر خلت (عندما ناقش مجلس الامن موضوع التمديد) ٠ وقد تراوحت التحركات الاسرائيلية في هذا الشأن بين توجيه التهديدات السافرة الى سوريا من ناحية واعلان عدم اهتمامها باستمرار وجود القوات الدولية من ناحية ثانية ٠ على سبيل المثال صرح رابين في الكنيست قائلا : « بأنه من الافضل لسوريا الا تلعب بالنار لان الوضع القائم حاليا يعد في صالحها اكثر مما هو في صالح اسرائيل » ٠ واضاف قائلا بان الجيش الاسرائيلي على اتم استعداد « لمواجهة تطورات الموقف على الجبهة » ٠ واتهم سوريا بالعمل منذ الان للحصول على اقصى قدر من الفوائد والامتيازات في مقابل موافقتها على التجديد لقوات الطوارىء في الجولان كما اتهمها بتنظيم جبهة ضد اسرائيل منذ توقيع اتفاقية سيناء « لمواصلة النضال المسلح الذي تقول ان مصر قد تخلت عنه » ٠ من ناحية اخرى اعلن الناطق

الرسمي بلسان وزارة الخارجية الاسرائيلية بان بلاده لن تقدم اية تنازلات مقابل التجديد للقوات الدولية في الجولان • كما اكد وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز الموقف نفسه بقوله ان حكومته ترفض تقديم اية تنازلات لسوريا مقابل التجديد لمهمة قوات الطوارىء • كما اضاف قائلا بانه في حال رفض سوريا للموقف الاسرائيلي فان حكومته قد تستغني عن وجود القوات الدولية كليا لان اسرائيل غير مستعدة لدفع الثمن الذي تطلبه سوريا في كل مرة تنتهي فيها فترة عمل هذه القوات كما ان اسرائيل لن تتأثر بعد اليوم باية تهديدات باستئناف القتال في الجولان •

بالنسبة لمؤتمر جنيف ما زال الكلام كثيرا حوله من كافة الاطراف لكن بدون ان تبرز اية اشارة تلمح الى جدية هذا الكلام او الى اتجاه دولي نحو اتخاذ خطوات عملية لانعقاده مجددا• وكانت اخر التطورات على هذا الصعيد قيام وزير الخارجية السوفييتي بتوجيه رسالة الى امين عام هيئة الامم المتحدة تطالب باستئناف اعمال مؤتمر جنيف باشتراك منظمة التحرير على اعتبار انه لا سبيل للتوصل الى تسوية في الشرق الاوسط الا باستئنافه المؤتمر لاعماله • واكدت الرسالة مرة اخرى الموقف السوفييتي القائل بضرورة الاعداد جيدا لهذا المؤتمر وضم جميع الاطراف المعنية به مباشرة بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية • كما انتقدت الرسالة موقف اسرائيل والذين يساندونها لانهم يعملون دوما على تجميد مشكلة الشرق الاوسط والقت اللوم على سياسة الولايات المتحدة لانها منعت مجلس الامن من اتخاذ القرارات المناسبة للتوصل الى حل سياسي شامل في المنطقة •اما الجانب الامريكي فقد رد برسالة وجهها كيسنجر الى فالدهايم اقترح فيها عقد اجتماعات ثنائية امريكية سوفييتية بهدف الاعداد لمؤتمر تحضيري يعد لاستئناف اعمال مؤتمر جنيف مع التأكيد على عدم شمول المؤتمر التحضيري لاية اطراف جديدة لم تشترك فيأعمال مؤتمر جنيف السابقة (اي استبعاد منظمة التحرير) • بعبارة اخرى عاد كيسنجر الى فكرته القديمة القائلة بعقد مؤتمر موازلمؤتمر جنيف والتي رفضتها الاطراف المعنية الاخرى • اما الحكومة الاسرائيلية فقد اكدت موقفها المعروف على لسان وزير خارجيتها آلون الذي قال ان حكومته مستعدة لاستئناف المحادثات في مؤتمر جنيف اذا ما انعقد وفقا لصيغته الاصلية كما كرر القول بان حكومته لن توافق على اشتراك منظمة التحرير في المؤتمر •

☐ قام وزير الخزانة الامريكي ويليام سايمون بجولة في المنطقة زار خلالها اسرائيل والسعودية وسوريا ومصر والخليج العربي • وعلى الرغم من ان التصريحات العلنية شددت على الجانب الاقتصادي من مهمة سايمون من المؤكد انه كان لجولته جانب سياسي قد يرتبط بما تردد حول اتفاق اسرائيل والولايات المتحدة على اطلاق مبادرة امريكية جديدة في المنطقة تهدف الى انهاء حالة الحرب • اجرى الوزير الامريكي مباحثات على اعلى المستويات حيث قابل رابين والسادات والرئيس الاسد والملك خالد • في اسرائيل شدد سايمون على التزام الولايات المتحدة بتقوية الدولة اليهودية واشاد بالتفاهم والتعاون بين البلدين واصفا العلاقات الوثيقة بينهما « بأنه لا مثيل لها بين الامم » • ويبدو ان مفتاح هذه الجولة يكمن فيما قاله سايمون حول رغبة حكومته في تشجيع ازدهار كل دول الشرق الاوسط لتسهيل عملية احلال السلام الدائم في المنطقة • وسنرى ابعاد هذا الكلام واهميته عندما يصل سايمون الى المحطة الرئيسية في رحلته : الى القاهرة • في دمشق ذكر سايمون ان بلاده تجري حاليا مشاورات اقتصادية لتوثيق العلاقات مع سوريا والمساهمة في التنمية الاقتصادية لها • وألح الوزير الامريكي الى الجانب السياسي من جولته عندما قال في دمشق ان رحلته الاستطلاعية هذه ستتيح له الفرصة لجمع العناصر اللازمة لاعادة تقييم الوضع في المنطقة •كذلك ذكر انه استعرض مع المسؤولين السوريين القضايا السياسية اليجانب القضايا الاقتصادية • ووصف محادثاته مع الرئيس الاسد بانها كانت « حساسة » واعترف بوجود خلافات في وجهات النظر بين حكومتي البلدين • في مصر بين سايمون ان هدف زيارته هو دراسة افضل الوسائل لدعم

الاقتصاد المصري ومساعدة الرئيس السادات في تحقيق اهداف البلاد الاقتصادية القائمة على سياسة الانفتاح والمساهمة المتزايدة للقطاع الخاص في حياة البلاد . ولم يلجأ سايمون الى اية تعبيرات غير مباشرة او توريات لغوية في الافصاح عما تريده حكومته من النظام المصري اذ قال صراحة ان الحل الطويل الاجل لمشكلات مصر الاقتصادية يكمن في زيادة استثمار الرأس المال الخاص حيث المجال واسع للدور الذي تقدر ان تقوم فيه الولايات المتحدة . كما كرر قوله بان الانتعاش الاقتصادي في دول المنطقة وفي مصر خاصة سيساعد على تحقيق السلام الذي نريده في الشرق الاوسط . واقترح الوزير الشاء « مشروع مارشال » امريكي جديد لتنشيط القطاع الخاص في مصر باعتباره الطريقة الوحيدة لزيادة الانتاج الاقتصادي للبلد . كما اكد ان اللجنة التنفيذية للهيئة المشتركة المصرية – الامريكية ستجتمع في نهاية شهر اذار في واشنطن لهذا الغرض بالتحديد . كذلك عبر سايمون عن اعجابه بالسادات وسياسته لانه ابتعد عن الاتحاد السوفييتي وطبق سياسة الانفتاح الاقتصادي مبتعدا عن تجارب مصر السابقة (اي في عهد عبد الناصر) في الاقتصاد الموجه . ووعد بارسال خبراء امريكيين لدرس مشروعات التنمية المصرية والمساعدة في تطوير قوانين الضرائب والجمارك .

☐ لا بد من الاشارة الى زيارة السادات الى السعودية وعدد من دول الخليج العربي (بهدف تحصيل مساعدات مالية مباشرة لدعم اقتصاديات مصر) لان الرئيس المصري تعرض الى عدد من القضايا والمشكلات ذات الطابع الدولي والتي تخرج عن نطاق العلاقات العربية المحض . ومن اهم الامور التي اشار اليها السادات هجومه المتشدد على الاتحاد السوفييتي واتهامه اياه بتحطيم التضامن العربي « وخلق المحاور » في العلاقات العربية المتبادلة وعدم تجاوبه مع طلبه (اي طلب السادات) اعادة جدولة ديون مصر وتعويضها عن خسائرها العسكرية في حرب تشرين . كما هاجم القيادة السورية واتهمها بفرض وصايتها على منظمة التحرير الفلسطينية خلافا لمقررات مؤتمر القمة العربي في الرباط . في مقابل هذا الهجوم عاد السادات الى تأكيد وجهة نظره القائلة ان « الولايات المتحدة تمسك بمفتاح الموقف في المنطقةرضينا بذلك ام لم نرض» «واذاتغاضينا عن هذه الحقيقة فاننا نضلل شعبنا» .هذا على الرغم من استخدام الولايات المتحدة حق الفيتو في مجلس الامن لنقض قرار يعترف نوعا ما بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . وكعادته ادلى السادات بتصريحات كثيرة كان اهم ما جاء فيها : (أ) اعلانه انتهاء سياسة الخطوة خطوة وضرورة استئناف مؤتمر جنيف بحضور كل الاطراف المعنية بما فيها الفلسطينيون ، علما بانه كان قد صرح قبل فترة بانه على استعداد لحضور مؤتمر جنيف بدون منظمة التحرير وحتى بدون سوريا ، (ب) اعلانه بان البنود السرية في اتفاقية سيناء تتلخص في تعهد امريكي يمنع اسرائيل من شن حرب على سوريا وتعهد اخر بتحقيق فك ارتباط ثان على جبهة الجولان شبيه باتفاقية سيناء وتعهد ثالث بالعمل بجميع الوسائل المتيسرة لاشراك الفلسطينيين في اية مفاوضات تتعلق بالتسوية السلمية في المنطقة ، (ج) اعلانه بان مصر لن تحارب الى جانب سوريا ضد اسرائيل فيما اذا بدأت سوريا حربا جديدة لاستعادة الجولان . وقد رحب رابين ترحيبا حارا بهذا التصريح الساداتي معتبرا اياه نجاحا كبيرا للدبلوماسية الاسرائيلية . وعلقت على ذلك الصحافة الاسرائيلية بقولها ان الاتفاقات المرحلية مع مصر بدأت تعطي ثمارها . وجدير بالاشارة الى ان البيانات المشتركة التي صدرت نتيجة زيارة السادات لم تتضمن اية اشارة تأييد لا من قريب ولا من بعيد لاتفاقية سيناء واقتصرت على الدعوة لاستئناف مؤتمر جنيف في اقرب وقت ممكن مع التشديد على مشاركة كافة الاطراف المعنية بما فيها الفلسطينيون . وبعد عودته الى القاهرة دعا السادات دول اوروبا الغربية لضمان الحل السلمي في المنطقة الى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كما دعا الى انشاء دولة فلسطينية باعتبارها الشرط المسبق لاعتراف الفلسطينيين باسرائيل وبحقها في العيش داخل حدود آمنة .

□ اخيرا لا بد من اشارة الى التقرير الذي تقدم به بريجنيف حول سياسة بلاده في الشرق الاوسط امام المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي انعقد مؤخرا في موسكو • كانت ابرز النقاط في تقرير بريجنيف هي التالية : (أ) التشديد على التفاهم السوفييتي السوري الممتاز والتنسيق بين البلدين في كثير من القضايا الدولية لا سيما مشكلة الشرق الاوسط ، (ب) الاشارة الى اهمية معاهدة الصداقة والتعاون مع العراق باعتبارها الاساس الذي تستند اليه العلاقات السوفييتية ـ العراقية وتتطور، (ج) اتساع التعاون وتعمقه معالجزائر واليمنالديموقراطية الشعبيةبالاضافة الى الخطوات الهامة التي تحققت على صعيد تنمية العلاقات السوفييتية ـ الليبية و « تقوية الاتصالات الودية مع منظمة التحرير الفلسطينية » ، (د) الاشارة الى تمسك الاتحاد السوفييتي بمعاهدة الصداقة والتعاون مع مصر على الرغم مما تقوم به « قوى معينة من محاولات لتقويض العلاقات السوفييتية المصرية » : (هـ) الاشارة الى المساعدات والدعم اللذين قدمهما الاتحاد السوفييتي الى الشعوب العربية خاصة في نضالها من اجل ازالة آثار العدوان ، (و) التأكيد على انه على الرغم من عدم وجود الحرب في الشرق الاوسط في الوقت الحاضر فان هذا لا يعني استتباب السلام • هنا اكد التقرير الموقف السوفييتي المعروف بانه لا يمكن احلال السلام في المنطقة ما دام الجيش الاسرائيلي يحتل اراضي عربية وما دام الفلسطينيون محرومين من حقوقهم الشرعية ومن امكان انشاء دولتهم الوطنية ، (ز) الاشارة الى ان السلام في الشرق الاوسط يتطلب ايضا ضمان امن جميع دول المنطقة في الوجود ، (حـ) التنديد بالاتفاقات الجزئية والانفرادية باعتبارها تعمل على ابعاد موعد حلول التسويات الحقيقية للازمة ، (ط) التعبير عن استعداد الاتحاد السوفييتي الاشتراك في الضمانات الدولية اللازمة لحفظ امن جميع دول المنطقة وحرمة حدودها مع دعوة بريطانيا وفرنسا للاشتراك ايضا في تقديم مثل هذه الضمانات •

(٢) المناطق المحتلة

الانتفاضة

منذ الذكرى السنوية الاولى لعرض القضية الفلسطينية امام الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة وحركة الاضراب والتظاهر والاحتجاج تسود مختلف مدن ومناطق الضفة الغربية • وقد ظلت هذه الحركة محافظة على وتيرتها الى ان قدمت سلطات الاحتلال بنفسها مناسبة جديدة لتحدث الانعطاف الهام فيحركة الاحتجاج هذه ، وذلك عندما اصدرت محكمة الصلح في القدس ـ اوائل شهر شباط (فبراير) الماضي ـ قرارا تجيز فيه لليهود الصلاة في المسجد الاقصى بالقدس • وجاء قرار المحكمة الاسرائيلية هذا والجماهير الشعبية في افضل حالاتها الثورية ، وذلك بعد ان كانت قد نزلت الى الشوارعاياما عديدة واصطدمت بقواتالقمع الاحتلالية في مناسبات سابقة مماثلة • وما حرك العواطف الشعبية ودفعها احتجاجا واضرابا وتظاهرا ، ما كانت قد اقدمت عليه سلطات الاحتلال قبل فترة وجيزة من ذلك التاريخ على تقسيم الحرم الابراهيمي في الخليل وفرضه كامر واقع بالرغم من الاحتجاج

العربي والاسلامي والدولي على ذلك · من هنا فقد تحسست جماهير الضفة الغربية مسؤولياتها الوطنية الخاصة بها هذه المرة ، وتقدمت في مواجهة اجراءات الاحتلال وقمعه ، لتدفع بقرار المحكمة الاسرائيلية ذاته الى الوراء وتثبت قدرتها على مقارعة العدو وافشال مخططاته الهادفة الى طمس عروبة القدس وتهويد كل معالمها · وبالفعل فقد اضطرت جماهير الضفة المحتلة محتليها الى استئناف قرار المحكمة المشار اليه ولم تلزم نفسها بما صدر عن تلك المحكمة ·

الا ان جماهير الضفة الغربية لم تنطل عليها الخدعة الاسرائيلية ، فخاضت معركتها مع الاحتلال في باحة المسجد الاقصى ذاته وفي شوارع القدس ومختلف مدن الضفة الاخرى ·

وقد اعترفت اذاعة العدو : « ··· يخطيء من يعتقد بان التظاهرات ذات طابع ديني · انها حلقة في سلسلة تظاهرات بدأت بعد خطاب عرفات في الامم المتحدة وذلك بتحريض من عملاء م· ت· ف· ويبدو هذا واضحا من العريضة التي قدمها امس وجهاء نابلس الى وزير الدفاع امس ، والتي ادرجت ادعاءات ضد الاستيطان في الضفة الغربية والقدس ، وضد مشروع الحكم الذاتي ، وضد الاعباء الضريبية· وثمة من يعتقد بان هناك علاقة بين هذه التظاهرات وبين الانتخابات البلدية التي ستجري بعد شهرين » (ر·ف·ا· ١٦/٢/٧٦) ·

وامام التجاوب الكامل من مختلف قطاعات الشعب في الضفة الغربية في حركة الانتفاض هذه التي حركها طلاب المدارس ، لم تستطع وسائل اعلام العدو من الادعاء كعادتها بان بعض الصبية والمراهقين هم الذين يثيرون « الشغب » · فقد اضطرت اذاعة العدو الى الاعتراف بشمول حالة الغليان الجماهيري هذه مختلف قطاعات الشعب في الضفة الغربية في اكثر من مناسبة · اذ انه بعد ان حصلت احدى المواجهات الساخنة بين طلاب مدرسة قدري طوقان في نابلس وقوات الاحتلال يوم ٧/ ٣/٧٦، وتقديم المجلس البلدي في المدينة استقالته احتجاجا على ذلك ، اضطرت اذاعة العدو الى الاعتراف بان مدينة نابلس في ذلك اليوم قد شاركت بكاملها في الاضراب حين قالت : « ان الشوارع في نابلس خالية تماما اليوم ، ولم يفتح اي دكان ، كما ان المدارس مقفلة ، وحتى باصات المدينة بقيت في محطاتها » (ر·ف·ا· ٨ / ٣ / ٧٦) · وقالت الاذاعة في فقرة اخرى ذلك اليوم : « لقد كانت نابلس اليوم كمدينة الاشباح · فالدكاكين مقفلة ولم تجر دراسة في المدارس ووقفت الباصات في الساحات ··· وكان قد قام اطفال من سن ٤–٥ سنوات باحراق دواليب سيارات في شوارع المدينة ، وقام فتيان اكبر سنا بقذف حجارة وزجاجات على جنود الجيش لدى مرورهم في شوارع القصبة · ولكن كانت هذه حوادث صغيرة · اذ ان ابرز ظاهرة كانت اضراب النشاط التجاري الذي شمل جميع احياء المدينة شمولا تاما » (المصدر نفسه) ·

وفي الوقت الذي كانت فيه سلطات الاحتلال تصعد من حملاتها القمعية ضد مواطني الضفة الغربية ، كان هؤلاء يردون على العدو بمختلف وسائل النضال والاحتجاج المتاحة · وهكذا يمكن فهم استقالة المجلس البلدي في نابلس في ضوء التحدي المتبادل بين الجماهير الفلسطينية وقوات المحتلين · ولذلك فقد كانت هذه الاستقالة فاتحة لحملة استقالات متتالية حدثت في العديد من مجالس بلديات مدن الضفة الغربية مثل طولكرم وجنين وسلفيت ورام الله والبيرة وسلوان وغيرها · وهكذا فعندما دعت سلطات الاحتلال رؤساء هذه المجالس الى سحب استقالات مجالسهم ، وسع هؤلاء من رقعة تحديهم للعدو مطالبينه ليس فقط بوقف حملة العنف والاعتقالات والغرامات المالية ضد مدنهم ، وانما بموافقة سلطات الاحتلال سلفا على الغاء قرار المحكمة الاسرائيلية الخاص بالمسجد الاقصى والحرم الابراهيمي واطلاق سراح جميع الذين اعتقلوا خلال فترة الانتفاضة ووقف عمليات الاستيطان وسحب القوات العسكرية من مدن وقرى الضفة الغربية ·

وهكذا توالت الانتفاضة الشعبية واتسعت دائرتها بتوسيع سلطات الاحتلال لدائرة عنفها وقمعها الاسود ، مشكلة بذلك نقطة انعطاف

هامة في مسيرة النضال الفلسطيني في الارض المحتلة ومضيفة الى سجل هذه النضال صفحة مشرقة ٠

اغلاق جريدة الشعب

اوقفت سلطات الاحتلال يوم ١٩/ ٢/ ٧٦ جريدة الشعب لاسباب « امنية » كما ادعت تلك السلطات ، وذلك لمدة ثمانية ايام بحجة مخالفتها لقانون الرقابة العسكري ٠ و « الشعب » هي احدى الصحف اليومية الثلاث التي تصدر في القدس المحتلة باللغة العربية ، وتتبع سياسة معادية للاحتلال ومؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

وصدر امر توقيع الصحيفة عن الصدور بعد نشرها تفاصيل عن حادث وقع في احدى معسكرات اللاجئين القريبة من نابلس وادى الى مقتل شابين ٠ وقد نشرت الصحيفة اسماءهم الامر الذي اعتبرته سلطات الاحتلال مسا بحالة الامن ٠ وقالت السلطات في معرض تبريرها لقرار وقف الصحيفة ان ادارة الاخيرة لم تعرض على الرقابة هذا الخبر قبل نشره ٠

وبالرغم من التذرع الواضح بهذه الحجة « الامنية » فانه لم يغب عن بال المراقبين ان الدوافع الحقيقية الكاملة وراء هذا القرار الاسرائيلي هي دوافع سياسية بحتة ، وذلك لمواصلة الصحيفة نهجا وطنيا معاديا لسياسة الاحتلال ،وكانت « الشعب » الى جانب زميلتها « الفجر » قد قامت خلال الاسابيع الاخيرة بمواكبة الانتفاضة الجماهيرية ، سواء من جهة سرد تفاصيل المظاهرات والاضرابات ، او جهة الاعتقالات والغرامات المالية وما عداها من اجراءات قمعية ٠ وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن فهم قرار وقف الصحيفة عن الصدور الا باعتباره انذارا منالسلطات المحتلة فيمحاولة لارهاب الصحيفة وحملها على تغيير سياستها٠ وقد كشفت الاذاعة الاسرائيلية عن ذلك بقولها : « صحيح ان جريدة الشعب اغلقت بسبب مخالفة الرقابة مخالفة خطيرة ، ولكن السلطات كانت تريد منذ زمن طويل اغلاق هذه الجريدة ، بسبب الخط المتطرف الذي تتبعه وهو خط يشكل احيانا تحريضا ظاهرا ضد الحكومة » ٠ (ر ٠ ١ ٠ ١ ٢٠/ ٢/ ٧٦) ٠

وبعد انقضاء مدة التوقيف ـ العقوبة ، عادت « الشعب » الى الصدور يوم ٢٩/ ٢/ ٧٦ واكدت على مواصلة خطها الوطني المؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية بنشرها في العدد الاول بعد عودتها الى الصدور صورة كبيرة لرئيس منظمة التحرير ، ياسر عرفات ، غطت ربع مساحة الصفحة الاولى ٠ كما جاءت الافتتاحية منددة بسياسة الاحتلال وقوانين الرقابة العسكرية ، فقالت انهم طبقوا ضدها ما اوجده العقل العثماني قبل مئة عام ، «ولكن سوف نبقى كما تطلب منا الجماهير ان نكون ٠ وهذا يعني اننا سنستمر بالكتابة والقول ان لا سلام من دون الشعب الفلسطيني ، وانه لن يتحقق سلام دون تحقيق جميع الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ولن يكون سلام دون اشراك قيادة هذا الشعب ، هذه القيادة التي اعترف العالم كله بها ٠٠٠ » ٠

وقد علقت الاذاعة الاسرائيلية على نهج الصحيفة هذا بالقول : « ان هذه المبادىء تتماشى مع مبادىء م٠ ت٠ ف٠ ، وهذه هي المبادىء التي عرضتها الصحيفة وعبرت عنها خلال اربعة اعوام من صدورها ٠ ولقد تورطت الصحيفة اكثر من مرة مع السلطات ، وطرد رئيس تحريرها علي الخطيب قبل عام من البلاد بسبب التحريض » (ر ٠ ا ٠ ا ٢٩/ ٩/ ٧٦) ٠

معركة الانتخابات في الخليل تبدأ مبكرة

اذا لم تلغ سلطات الاحتلال قرار اجرائها الانتخابات البلدية في ١٢/ ٤/ ٧٦ ، نتيجة لتصاعد الانتفاضة الشعبية ، فان الضفة الغربية ستشهد هذه المرة معركة انتخابات عنيفة وصراعات كبيرة على مجالس بلديات ٢٤ مدينة ، يبلغ فيها عدد المقترعين ما يقرب الـ ٩٠ الف ناخب ٠

ومما يستوقف الانتباه في هذه المعركة ، هو ما شهدته وتشهده مدينة الخليل من مناقشة شديدة ، هي الاولى من نوعها التي تحدث في

المدينة ، بين زعيمها التقليدي الشيخ محمد علي الجعبري الذي امضى نحو ثلاثين عاما في رئاسة البلدية ، وبين تيار يطلق على نفسه اسم تيار الشباب ويعبر عن نفسه بمجموعة من الاسماء ابرزها الدكتور احمد النتشة وفهد قواسمي .

ويذكر انه في المرة السابقة التي جرت فيها الانتخابات في اواسط العام ١٩٧٢ ، فان بلدية الخليل لم تشهد تنافسا على المجلس البلدي دون غيرها من المدن الاخرى في الضفة الغربية باستثناء سلفيت . حيث فازت القائمة التي شكلها الجعبري بالتزكية . اما هذه المرة فان عدد المرشحين قد وصل الى حوالي ٢٠ شخصا ، كما ان المهرجانات الانتخابية قد بدأت مبكرة الامر الذي يشير الى ان معركة تنافسية شديدة ستشهدها مدينة الخليل هذه المرة .

فهذه هي المرة الاولى التي يجرؤ فيها شخص على طرح نفسه كبديل للشيخ الجعبري الزعيم التقليدي لهذه المدينة . والتحدي هذا لا يبرز فقط على انه صراع بين جيلين وثقافتين وما الى ذلك ، بل كصراع بين اتجاهين سياسيين ، الاول محافظ وموال للاحتلال ويمثله الجعبري ، والثاني عصري ووطني يمثله جيل الشباب بتفاعله مع الخط الوطني والتزامه بالهموم الوطنية الفلسطينية .

لذلك حاول الجعبري وما زال قطع الطريق على منافسيه الاقوياء بمختلف الوسائل . فبالرغم من استعداد سائر اعضاء مجلس بلديته الحالي الى ترشيح انفسهم مجددا في قائمة الشيخ ، فانه من جانبه يبدي تحفظا على ذلك ، لكي يتيح لنفسه مجالا للمناورة ومقارعة خصومه ، بادراج اسماء شابة في قائمته الانتخابية .

ومما يلفت الانتباه الى اهمية معركة انتخابات بلدية الخليل هذه ، ذلك التأييد الواسع الذي لقيه ترشيح الشباب لانفسهم ضد القيادة التقليدية للمدينة . فقد نشرت صحف الضفة الغربية بيانات تأييد لمنافسي الجعبري ليس من مؤيدين لهم من مدينة الخليل فقط وانما من مؤيدين من مدن اخرى في الضفة الغربية وحتى من قطاع غزة ، الامر الذي يشير الى مدى الرغبة الشعبية الواسعة التي تجتاح الضفة الغربية في التخلص من رئيس بلدية الخليل بما يمثله من نهج وعقلية سياسية موالية للاحتلال ومعادية للاماني الوطنية للشعب الفلسطيني .

عيسى الشعيبي

(٣) القضية الفلسطينية عسكرياً

العمليات العسكرية في داخل الارض المحتلة

واصلت حركة المقاومة العمل في اكثر من جبهة عسكرية وسياسية بحذر كبير لتتجنب الانزلاق في الشراك المنصوبة لها . وقد تطلب منها ذلك خلال الشهر الفائت تخفيضا في حجم عملياتها في داخل الارض المحتلة غير ان ذلك لم يمنع عناصر الثورة المسلحة في داخل الارض المحتلة من ممارسة نشاطاتها القتالية ضد الاهداف الحيوية الاقتصادية والعسكرية الاسرائيلية . لهذا يمكن اعتبار العمليات التي جرت في داخل الارض المحتلة خلال الشهر الفائت بمثابة نشاطات ازعاجية قصد بها ازعاج العدو وارهاق اعصاب اجهزته العسكرية

والامنية عن طريق ابقائها في حالة استنفار دائم . ان ابقاء اجهزة العدو في حالة استنفار دائم يؤدي في نهاية الامر الى استنزافه ماديا وبالتالي التأثير عليه نفسيا .

لقد اصبح العدو على قناعة تامة بأن المؤامرة التي حيكت وتحاك ضد الثورة الفلسطينية في لبنان سيكون مصيرها الفشل التام . وهذه الحقيقة هي التي دفعت شمعون بيريز في اكثر من مناسبة للقول بأنه لن يستبعد ان يصبح لبنان دولة مواجهة بل وان المؤشرات تشير الى انه سائر في هذا الطريق ليحتل مكانه الطبيعي بين الدول العربية .

لقد ابدت اسرائيل ارتياحها لاندلاع الاحداث في لبنان ، ذلك لانها كانت تتوقع ان تنجح قوى التآمر والشر في هز الثورة الفلسطينية وبالتالي تحجيمها الى القدر الذي يجعلها غير قادره على مواصلة كفاحها المسلح في داخل الارض المحتلة . الا ان ظن اسرائيل تلاشى بسرعة مع تطور الاحداث في لبنان . خاصة وان الثورة خرجت من هذه الاحداث اصلب عودا واقوى شعبية في لبنان وفي الاوساط العربية والدولية. وعلى الرغم من كل ذلك قامت فصائل الثورة في الداخل بما يمليه عليها الواجب الوطني .ففي ١٤/ ٢/ ١٩٧٦ نسف الفدائيون الفلسطينيون ملهيين ليليين في تل ابيب وسيارة عسكرية محملة بالتموين والكابل الرئيسي للهاتف ما بين حيفا وتل ابيب والمنطقة الجنوبية . فقد اعلن ناطق عسكري فلسطيني ان الفدائيين نسفوا ناديين ليليين هما (بلو آب) و (هآريه هادوم) في تل ابيب بعد ان مهدوا لعملياتهم بهجوم شنوه على الملهيين بالاسلحة الرشاشة. وقد نجم عن الحادث قتل وجرح عدد من افراد العدو . كما ذكر الناطق نفسه ان الفدائيين نسفوا سيارة تموين على الطريق الرئيسي ما بين تل ابيب واللد بواسطة عبوة ناسفة . وقد اتت النيران على السيارة . وفي الجنوب نسف الفدائيون ايضا الكابل الرئيسي للهاتف في مستوطنة ميجان ميخائيل ما بين حيفا وناتانيا . كما قام الفدائيون بوضع عبوة ناسفة وحارقة في محطة وقود في مفرق ابراهام - رأس العين في منطقة بتاح تكفا شرقي تل ابيب تستخدمها السيارات العسكرية عادة للتزود بالوقود . وقد انفجرت العبوة عندما حاول خبير متفجرات اسرائيلي ابطال مفعولها. وقد ذكرت المصادر الاسرائيلية ان الخبير قتل وجرح عدد من افراد شرطة العدو نتيجة للحادث . (المحرر ١٧/ ٢ / ١٩٧٦)

وفي ١٨/ ٢/ ١٩٧٦ اكتشف العدو الاسرائيلي عبوات ناسفة موقوتة داخل ناد تابع للبحرية الاسرائيلية في اسدود ، زرعها رجال المقاومة الفلسطينية المنطلقون من قواعدهم في داخل الارض المحتلة . وقد اكتشفت العبوات قبيل انفجارها بوقت قصير حيث استدعي الى النادي خبراء المتفجرات الذين تمكنوا من ابطال مفعولها . (المحرر ٢٠/ ٢/ ١٩٧٦)

ومن جهة اخرى قال ناطق عسكري فلسطيني في بلاغ نشرته وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) ان احدى المجموعات الخاصة العاملة داخل الوطن المحتل قامت يوم الخميس ١٩/ ٢/ ١٩٧٦ بوضع عبوات ناسفة وحارقة داخل صالة مكتبة تابعة لاحدى المؤسسات الصهيونية في حي هاتكفا في ضواحي تل ابيب . وقد انفجرت العبوات وادى انفجارها الى تدمير اجزاء كبيرة من الصالة واشتعال النيران في محتوياتها فاصيب نتيجة الحادث عدد من افراد العدو . وقال الناطق ان النيران امتدت الى الابنية المجاورة للمكتبة . (المحرر ٢١/ ٢/ ١٩٧٦) .

وعلى الرغم من اشتداد هجمات القوى الانعزالية المتآمرة في لبنان على الثورة الفلسطينية ، واصل الثوار نشاطاتهم ضد العدو . ففي ٢٠/ ٢/ ١٩٧٦ نفذ الفدائيون الفلسطينيون عملية جديدة في القدس . فقد ذكر ناطق عسكري فلسطيني انه ردا على اعتداء القوات الاسرائيلية على اهلنا اثناء توجههم للصلاة في المسجد الاقصى وحملة الاعتقالات الواسعة التي شنتها سلطات الاحتلال ضد المواطنين في المدينة المقدسة ، فقد تحرك ثوارنا بناء على التعليمات الصادرة لهم ، وقاموا بوضع عدد من العبوات الناسفة داخل احدى السيارات الصهيونية ، وعدد آخر في محل تجاري في حي اشكول في القدس . ففي الساعة المحددة انفجرت العبوات وادى انفجارها

الى اصابة عدد من افراد العدو وتدمير واجهة المحل التجاري واصابة عدد من السيارات الواقفة قرب العبوة الاولى. (المحرر ٢٢/ ٢/ ٧٦)

وفي ٢٢/ ٢/ ٧٦ قال ناطق عسكري اسرائيلي ان قذيفة بازوكا اطلقت في ساعة مبكرة من الصباح عبر الحدود الشمالية اللبنانية على دورية عسكرية اسرائيلية قرب قرية زرعيت الحدودية . وقال الناطق ـ كعادته ـ انه لم تقع اصابات بين افراد الدورية . (المحرر ٢٣ / ٢ / ١٩٧٦) .

وفي التاريخ نفسه ذكرت مصادر اجهزة الامن الاسرائيلية ان قواتها اكتشفت جهاز ارسال قويا ومخبأ للاسلحة في منزل شاب عربي في قرية قلنسوه شمال تل ابيب . كما ذكرت المصادر نفسها انه عثر ايضا في المخبأ نفسه على اسلحة مسروقة من الجيش الاسرائيلي . واضافت ان صاحب المنزل وصديقا له مع جنديين اسرائيليين سيحاكمون في هذه القضية. (النهار ١٩٧٦/٢/٢٣) . والجدير بالذكر انه المرة الاولى التي تعلن فيها اجهزة الامن الاسرائيلية عن اكتشاف اجهزة ارسال معقدة مخبأة في منزل يقع في قلب اسرائيل . ان تفسير ذلك ان سكان المناطق المحتلة اصبحوا الان يشاركون في النشاط المعادي لاسرائيل في الداخل ، وهذه ظاهرة خطيرة يمكن ان يترتب عنها نتائج خطيرة على الوضع الامني في اسرائيل في المدى البعيد . كما يمكن ان يشير الى ان رجال المقاومة الفلسطينية اصبحوا قادرين على العمل في كافة المناطق المحتلة ، مستخدمين اسلحة واجهزة متقدمة ومعقدة . الامر الذي له دلالات كثيرة في المفهوم العسكري . كما انها ظاهرة جديدة ان تعلن اجهزة مسؤولة في اسرائيل عن اتهام جنود اسرائيليين في نشاطات منسوبة لرجال المقاومة العرب . ومهما يقال عن ذلك فانه يدل على ان رجال المقاومة في الداخل نجحوا في استخدام اسرائيليين في نشاطاتهم ، وهذا ناجم عن ثقة كبيرة في النفس وعن استقرار في الاوضاع وجرأة في التخطيط .

وفي ١٩٧٦/٢/٢٦ نصب الفدائيون في منطقة الخليل كمينا لباص تابع لشركة (ايجيد) الاسرائيلية واشعلوا النار بداخله . كما قاموا بوضع عبوات ناسفة مشركة بالقرب من مكان احراق الباص . وقد انفجرت العبوات الناسفة فيما بعد ملحقة عددا من الاصابات في عدد غير معروف من حرس الحدود والشرطة المتواجدين في المنطقة . (المحرر ٢٩/ ٢/ ١٩٧٦)

وفي اثر ازدياد نشاطات رجال المقاومة الفلسطينية وتصعيد عملياتهم اشارت التقارير الواردة من الارض المحتلة ان السلطات الاسرائيلية قررت توزيع السلاح على جميع المدرسين وتدريبهم في دورات خاصة وقد ذكرت المصادر نفسها ان هذه الاجراءات اتخذت لمواجهة احتمال شن الفدائيين هجمات على المناطق السكنية . (المحرر ١٩٧٦/٣/٢) .

ففي ٤/ ٣/ ١٩٧٦ وسع الفدائيون نشاطاتهم العسكرية داخل الارض المحتلة ، فقد صرح ناطق عسكري فلسطيني انرجال المقاومة قاموا بوضع عبوة ناسفة موقوتة داخل سيارة للشرطة الاسرائيلية اثناء وقوفها في شارع (شتراوتس) في القدس . وقد انفجرت العبوة اثناء تحرك السيارة في شارع ياحيين نفوت ، وادى تفجيرها الى تدمير السيارة واشعال النيران فيها وقتل وجرح جميع من فيها . وفي منطقة الخليل نصب الثوار الفلسطينيون كمينا لدورية عسكرية بالقرب من بلدة بني نعيم جنوبي الخليل ، واشتبكوا مع افراد الدورية بالاسلحة الصاروخية والقنابل اليدوية والرشاشات في قتال تمكنوا في نهايته من تدمير سيارة عسكرية واعطاب آلية وقتل وجرح عدد من افراد العدو . كما وضع الثوار في مدينة تل ابيب عبوات ناسفة بجوار احد مواقف الباصات التابعة للعدو في شارع باركوخابا وقد اكتشفت العبوات قبيل انفجارها بقليل وقام خبراء المتفجرات بتعطيلها وفكها . وقد اعترف العدو بكل هذه العمليات (المحرر ١٩٧٦/٣/٦) .

وفي ٥/ ٣/ ١٩٧٦ وضع الثوار عبوات ناسفة وحارقة موقوتة في احد الاندية الليلية في مدينة تل ابيب وتمكنوا من تفجير العبوة واحراق النادي . وفي اليوم نفسه هاجم الثوار قرب

مستعمرة (مانيتا) بوروبسة البة للعـــدو الصهيوني • وقد تمكن الثوار من تدمير دبابة من طراز (باتون ــ م ــ ٤٨) بالصواريـــخ المضادة كما استطاعوا تدمير كمين رشاش (٥٠٠ م) وقتـــل وجرح جميع عناصره • (المحرر ٩ / ٣ / ١٩٧٦) •

وهكذا واصل الثوار عملياتهم الفدائية فـي داخل الارض المحتلة على الرغم من الوضـــع المتأزم الذي ساد الساحة اللبنانية واضطرار حركة المقاومة للتورط مرغمة في بعض الاحداث المؤلمة التي وقعت في عدة مناطق لبنانية، دفاعا عن نفسها وعن الفلسطينيين الذين اصبحوا هدف القوى الانعزالية المتآمرة •

ان اي خبير مطلع على الاوضاع السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الاوسط لا يستطيع ان يفصل بين ما يجري في لبنان وبين ما تعده اسرائيل من مخططات واستعدادات عسكرية في المناطق الشمالية يهدف ضرب حركة المقاومة في الداخل وفي جنوب لبنان • والدليل على صحة هذا التصور التصريح الذي ادلى به « شمعون بيريز » وزير دفاع العدو الصهيونية « يديعوت احرونوت » مؤخرا والذي جاء فيه «ان التطورات الاخيرة في لبنان جاءت تؤيد تقييم اسرائيل وهو ان وقف اطلاق النار لن يدوم طويلا » • وقوله ايضا « ان اسرائيل تقوم بدور المراقب المحايد للوضع في لبنان ولكن اذا جدث اي تغيير من شأنه ان يهدد الامن على طول الحدود فان المستعمرات وسكانها والطرق المؤدية اليهـــا تتطلب منا اجراءات مضادة » (النهار ١٣/٣/ ١٩٧٦) •

الرائد الطيار حسين عويضة

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٢/١٦ ــ ١٥ / ٣ / ١٩٧٦

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	المصدر: تاريخه
١ –	٢/١٤	١٥ر١	تل ابيب	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدد		مهاجمة ناديين ليليين في شارع ديزنغوف	–	–	–	٢٩ – ٧٦	٢/١٦
٢ –	٢/١٣	٠٠ر١٨	بين اللد وتل ابيب	تفجير	عبوة لاصقة	غير محدد		تدمير سيارة تموين عسكرية واشعال النيران فيها	–	–	–	٣٠ – ٧٦	٢/١٦
٣ –	٢/١٥	٣٠ر١٦	بتاح تكفا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	١	—	انفجرت العبوات اثناء عملية تفكيكها من قبل احد الخبراء العسكريين	–	–	–	٣١ – ٧٦	٢/١٦
٤ –	٢/١٥	٣٠ر١٤	ميجان ميخائيل	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير الكابل الرئيسي للهاتف وقطع الاتصالات بين حيفا والجليل وتل ابيب	–	–	–	٣٢ – ٧٦	٢/١٦
٥ –	٢/١٨	١٠ر٩	اسدود	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات في نادي البحرية وابطل مفعولها	–	–	–	٣٣ – ٧٦	٢/١٩
٦ –	٢/١٩	٠٠ر٢٠	هتكفا / تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من صالة مكتبة واشعال النيران فيها	–	–	–	٣٤ – ٧٦	٢/٢٠

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٧ ـ	٢/٢٠	١٧٫٣٠	القدس / حي رامات اشكول	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير عدد من المحلات التجارية وتصدع مبنى سكني واصابة عدد من السيارات باضرار	ـ	ـ	ـ	٣٥ ـ ٧٦	٢/٢١
٨ ـ	٢/٢١	٦٫٠٠	حوارة / نابلس	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	٤	غير محدد	تدمير سيارتين عسكريتين واصابة من فيهما	ـ	ـ	ـ	٣٦ ـ ٧٦	٢/٢٣
٩ ـ	٢/٢٤	١٩٫١٥	زخرون / بين حيفا والخضيرة	تفجير	الغام	غير محدد		نسف جزء من خط سكة الحديد وتدهور قطار وخروجه عنسكة الحديد وتحطم معظم عرباته	ـ	ـ	ـ	٣٧ ـ ٧٦	٢/٢٥
١٠ ـ	٢/١٦	٢٢٫٠٠	نابلس	تفجير	عبوات حارقة	—	—	احراق عدد من التراكتورات داخل احد الكاراجات	ـ	ـ	ـ	٣٨ ـ ٧٦	٢/٢٥
١١ ـ	٢/٢٧	٧٫٠٠	بين الخليل وبيت لحم	كمين	عبوات حارقة	غير محدد		احراق باص لشركة ايجد	ـ	ـ	ـ	٣٩ ـ ٧٦	٢/٢٧
١٢ ـ	١/١٩	—	القصاص / ايلات	تفجير	لغم ارضي	غير محدد		تدمير سيارةعسكرية وقتل وجرح من فيها	ـ	ـ	ـ	٤٠ ـ ٧٦	٣/٣
١٣ ـ	٢/١٣	—	الجريري / الخضيرة	تفجير	لغم ارضي	غير محدد		تدمير سيارةعسكرية وقتل وجرح من فيها	ـ	ـ	ـ	٤٠ ـ ٧٦	٣/٣
١٤ ـ	٣/٤	١٨٫٢٥	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة شرطة واشعال النيران فيها	ـ	ـ	ـ	٤١ ـ ٧٦	٣/٥

١٥ -	٣/٤	٤٥ر٢٣	بني نعيم / الخليل	كمائن	اسلحة صاروخية وقنابل يدوية	غير محدد	تدمير سيارة عسكرية واعطاب اليةوقتل وجرح من فيهما	-	-	-	٤٢ - ٧٦	٣/٥
١٦ -	٣/٤	٠٠ر١٧	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تم اكتشاف العبوات في شارع باركوخبا وابطل مفعولها	-	-	-	٤٣ - ٧٦	٣/٥
١٧ -	٣/٥	٠٠ر١٨	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اشعال النيران في مستودعات الاثاث والمتاجر بشارع همسجير	-	-	-	٤٤ - ٧٦	٣/٥
١٨ -	٣/٥	٠٠ر٢٣	تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد	اشعال النيران في جزء كبير من ناد ليلي واحراق محتوياته وذلك في شارع الهاجانا	-	-	-	٤٥ - ٧٦	٣/٨
١٩ -	٣/٧	٠٠ر٢١	تل الساقي / الجولان	كمين	اسلحة صاروخية ورشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	تدمير اليه وقتل وجرح عدد من افراد دورية هندسة	-	-	-	٤٦ - ٧٦	٣/٨
٢٠ -	٣/٩	٠٠ر٩	نتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تم اكتشاف العبوات في محطة القطارات وابطل مفعولها	-	-	-	٤٧ - ٧٦	٣/٩
٢١ -	٣/١٠	١٥ر١٢	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اعطاب عدد من السيارات والاليات داخل الساحة المركزية	-	-	-	٤٨ - ٧٦	٣/١٠
٢٢ -	٣/١٠	٠٠ر٦	كفاريونا / نتانيا	تفجير واشتباك	الغام ، صواريخ مضادة للدروع	غير محدد	تدمير عدد من الاليات واعطاب عدد اخر	-	-	-	٤٩ - ٧٦	٣/١١

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

غازي خورشيد

خاص بالمشتركين

Palestine Affairs

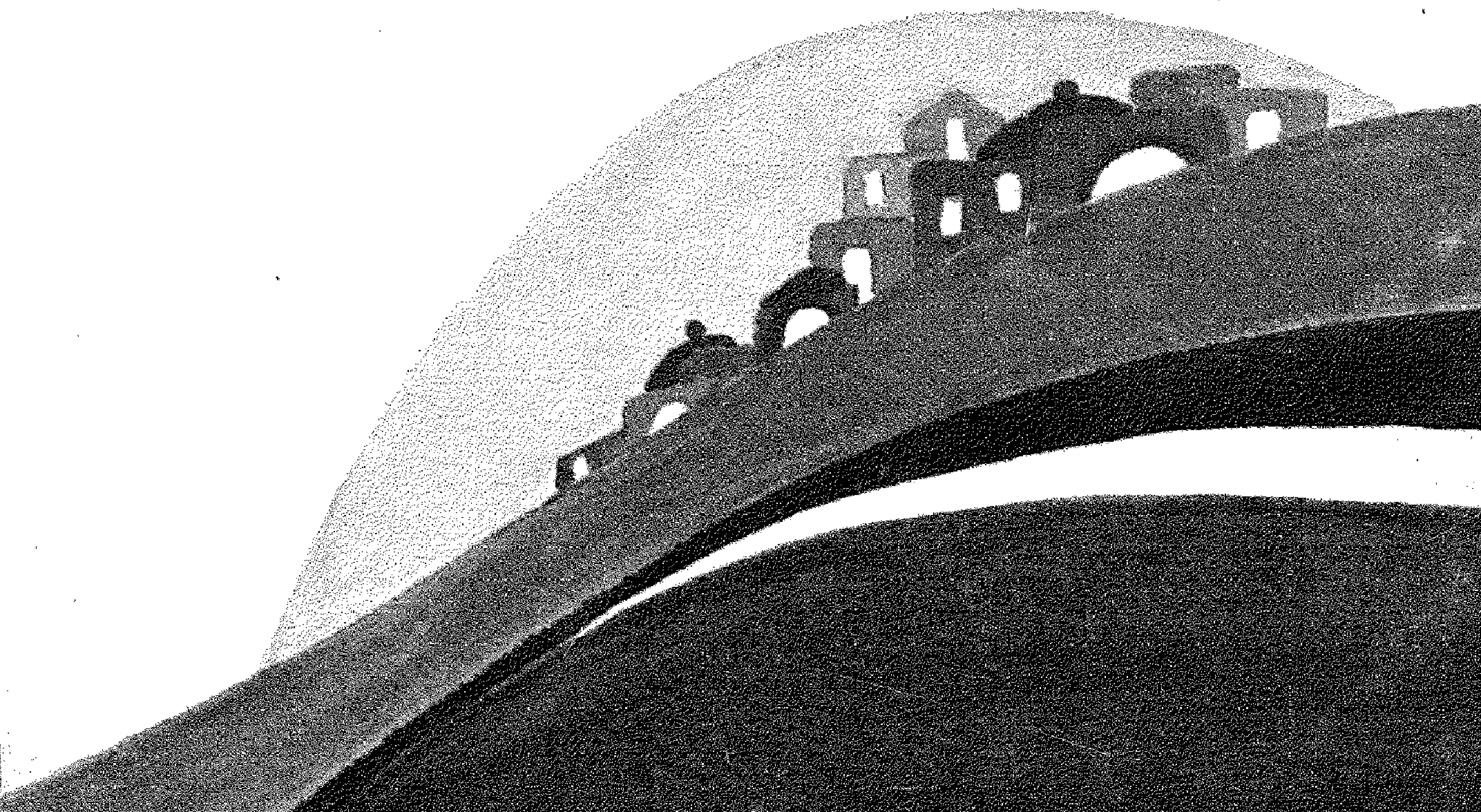
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٥٧

ايار (مايو) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٧ **ايـار (مايو) ١٩٧٦**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ . تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن العدد : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : بريشة الفنانة الفلسطينية جمانة الحسيني

المحتويـــات

واقـــع جديـــد
فكر جديـــد

☐ دائما ، كان الاجتهاد الفلسطيني يسأل : الى اين ؟ ، وكانت الممارسات والتضحيات تدق عنق المؤامرة المزمنة التي تتربص بالشعب الفلسطينـــــي وقضيته ، الان ، تطل المؤامرة وتنشط على مستوى جديد يستدعي اعـــادة النظر في بعض المسلمات والتحالفات ، ويتخذ السؤال السابق ذاته وضعـــا جديدا يتعلق بمفهومي المقاومة ، بمعناها الواسع ، والثورة بمعناها العلمي ، ويبدو ان الافكار الفلسطينية الوطنية المترامية الاطراف لم يعد في وسعهـــا الاطمئنان الى الانسجام الدقيق مع ابعاد الواقع الجديد ، جاءت الحرب الاهلية العربية في لبنان وغيرت المعاني السالفة للتضامن العربـي الفوقي الذي صـار يعني ، الان ، محاولة قمع الثورة الوطنية الجذرية والعلاقة الجوهرية بين الحركة الفلسطينية الثورية وبين قوى الثورة العربية الحقيقية ، ففي لبنان اليوم نتاج اولي وساطع لهذه العلاقة سيكون امتداده وتبلوره تغييرا جذريا لمعادلـة التحالفات وعلاقات القوى التي كانت تبدو ، حتى وقت قريب ، موحدة فـــي موضوع فلسطين وهي على الحدود ، ومتحاربة اذا ضربت فلسطين جذورهـــا العربية في ارض العلاقات ، وان قابلية النتاج اللبناني الجديد في علاقته بالثورة الفلسطينية تدل عليها اشارات كثيرة قد يكون مـن اهمها هذا الهجوم الشامل الذي تشنه عليه اطراف لا يجمعها الا القلق المشترك على النموذج اللبنانـي الجديد ، وصار النموذج اللبناني القديم المعرض للانهيار احد محاور التضامن العربي الجديد الذاهب نحو التسوية بخصائص وطنية مختلفة ، وبخاصة قومية واحدة هي طرد الفلسطينيين ، شعبا وقضية وثورة ، من اطار اي حـــل ، فالمقاومة ذاتها التي كانت ، ذات يوم ، جديرة بتصفيق العرب الرسمييـــن تحولت عندهم الى ورطة ثورية والى قضية الجماهير في صراعها مع معوقات نموها ، ولعل المقاومة نفسها قد اكتشفت في نفسها ، بعد تجاربها السابقة ، طاقات لم يكن الكثيرون يتوقعونها ، فهل سنسأل انفسنا : ماذا نفعـل بهـذه الطاقات على مستوى الارض العربية ؟ وهل نرد على انفسنا بغير التفجير ؟.. لنصب جميعا : القوى الفلسطينية والقوى العربية الثورية ، في النهر الدافق نحو فلسطين ! .

م.د.

قصيــدة الأرض

محمـود درويـش

١

في شهر آذارَ . . في سنةِ الانتفاضة . . قالت لنـــا الارضُ أسرارها الدمويّةَ ؛ في شـهر اذار مَرّتْ أمـام البنفسج والبندقيّةِ خمسُ بناتٍ . وقفنَ على باب مدرسة ابتدائيةٍ ، واشتعلن مع الورد والزعـتر البلديّ . افتتحن نشيد الـتراب . دخلـن العنـاقَ النهـائي – آذارُ يأتي الى الأرض من باطن الأرض يأتي ومن رقصة الفتيات – البنفسجُ مـال قليلاً ليعبر صوتُ البنات . ألعصافيرُ مدّت مناقيرها في اتجاه النشيد وقلبي . .

أنا الارض والارض أنتِ

خديجـة ! لا تغلقي البـاب ! لا تدخلي في الغياب . سنطردهم عن إناء الزهور وحبل الغسيل . سنطردهم عن حجارة هـذا الطريق الطويل الطويل . سنطردهم عن أذان الجوامع . نطردهم عن بخـور الكنائس . نطردهم عن غبار الشوارع . نطردهم عن سطوح المدارس . نطردهم عن دوالي الخليـل وصبّـار سخنين . فامتشقي يا خديجـــة دبوّسَ شعرك او قلم الحبر او حجراً مشبعاً بانفجاري . .

وفي شهر اذارَ ، مرّت أمـام البنفسج والبندقية خمسُ بنـاتٍ . سقطنَ على باب مدرسةٍ ابتدائيـة . للطباشير فـوق الأصابـع لونُ العصافيرِ .

في شهر اذارَ
قالت لنا الأرضُ
أسرارها .

1

أسمّي الترابَ امتداداً لروحي
أسمّي يديّ رصيفَ الجروحِ
أسمّي الحصى أجنحه
أسمّي العصافير لوزاً وتينْ
أسمّي ضلوعي شَجَرْ
وأستلُّ من تينة الصدر غصناً
وأقذفهُ كالحجر
وأنسفُ دبابة الفاتحين .

٢

وفي شهر اذارَ ، قبل ثلاثين عاماً وخمس حروب ، وُلدتُ على كومة من حشيش القبور المضيء . ابي كان في قبضة الانجليز . وامي تُربّي جديلتها وامتدادي على العشبِ . كنتُ احبُّ « جراح الحبيبِ » واجمعها في جيوبي ، فتذبل عند الظهيرةِ . مرَّ الرصاصُ على قمري الليلكيّ فلم ينكسرْ ، غير ان الزمان يمرُّ على قمري الليلكيّ فيسقط في القلب سهواً . .

وفي شهر اذارَ نمتدُّ في الأرض . في شهر اذار تنتشر الارضُ فينا مواعيدَ غامضةً واحتفالاً بسيطاً . ونكتشفُ البحر تحت النوافذِ ، والقمرَ الليلكيَّ على السّرو . .

في شهر اذار ندخل اوّل سجنٍ وندخل اوّل حُبّ . وتنهمرُ الذكرياتُ على قرية في السياج . وُلدنا هناكَ ولم نتجاوز ظلال السّفرجل . كيف تفرّين من سُبُلي يا ظلالَ السفرجلِ ؟

في شهر اذار ندخل اوّلَ حبّ وندخل اوّل سجن . وتنبلجُ الذكريات عشاء من اللغة العربيّةِ . كيف يكونُ الزمان زمانين في لحظة الوردِ ؟ كيف يكون المكان مكانين في لحظة القيد ؟ . قال ليَ

الحبُ يوماً : دخلت الى الحلمِ وحدي فضِعتُ وضاع بيَ الحلمُ. قلت :
تكاثرْ ! ترَ النهرَ يمشي اليكَ
وفي شهر آذار
تكتشفُ الارضُ
انهارها . .

II

بلادي البعيدةَ عني .. كقلبي !
بلادي القريبة مني .. كسجني !
لماذا أُغنيّ
مكاناً .. ووجهي مكانٌ ؟
لماذا أُغنيّ
لطفل ينامُ على الزعفران
وفي طَرَف النوم خنجرْ ؟
وامّي تناولني
صدرَها
وتموت امامي
بنسمة عنبر ؟ .

٣

وفي شهر آذارَ تستيقظُ الخيلُ . سيّدتي الارضَ ! ايُّ نشيد سيمشي على بطنك المتموّج بعدي ؟ وايّ نشيدٍ يلائم هذا الندى والبخور ! . كأنّ الهياكل تستفسرُ الآنَ عن انبياء فلسطينَ في بدئها المتواصلِ . هذا اخضرارُ المدى واحمرارُ الحجارةِ – هذا نشيدي . وهذا خروجُ المسيح من الجرح والريح أخضرَ مثل النبات يُغطّي مساميرَهُ وقيودي . وهذا نشيدى – وهذا صعودُ الفتى العربيّ الى الحلم والقُدْسِ . .

في شهر آذار تستيقظُ الخيلُ – سيدتي الارضَ – والقممُ اللولبيّةُ تبسطها الخيلُ سجادةً للصلاة السريعة بين الرماح وبين دمي . نصف دائرةٍ ؛ ترجع الخيلُ قوساً ويلمع وجهي ووجهُكِ حيفا وعُرْساً .

وفي شهر آذار ينخفضُ البحرُ عن ارضنا المستطيلة مثــل حصانٍ على وَتَرَ الجنسِ. في شهرِ اذار ينتفضُ الجنسُ في شجر الساحل العربيّ. وللموج ان يحبس المــوجَ . ان يتموّجَ . . ان يــتزوجَ . . او يتضرّجَ بالقطنِ .

ارجوكِ — سيدتي الارضَ — ان تَسكُنيني وان تُسكنيني صهيلكْ .
ارجوكِ ان تدفنيني مــع الفتيات الصغيرات بين البنفسج والبندقيــة .
ارجوكِ — سيدتي الارضَ — ان تُخصبي عمري المائل بــين سؤالين :
كيف ؟ واين ؟ . وهذا ربيعي الطليعيُّ . هذا ربيعي النهائيّ . .

في شهر آذار
زوّجت الارضُ
اشجارَها

III

كأني اعود الى ما مضى
كأني اسيرُ امامي
وبين البلاط وبين الرّضا
أُعيد انسجامي
انا وَلدُ الكلمات البسيطه
وشهيدُ الخريطه
انا زهرة المشمش العائليه
فيا ايها القابضون على طرف المستحيل
من البدء حتى الجليل
اعيدوا الي الهويه
اعيدوا الي الهويّه !

٤

وفي شهر آذارَ تأتي الظلالُ حريريةً — والغزاةُ بــدون ظلالِ — وتأتي العصافيرُ غامضةً كاعتراف البنات ، وواضحةً كالحقولِ — العصافيرُ ظلُّ الحقول على القلب والكلمات

خديجةُ ! اين حفيداتُك الذاهباتُ الى حُبّهن الجديد ؟ . ذهبن ليقطفن بعض الحجارة ، قالت خديجةُ وهي تحثُّ الندى خلفهنّ

وفي شهر آذارَ يمشي الترابُ دماً طازجاً في الظهيرةِ. خمس بنات يخبئنَ حقلاً من القمح تحت الضفيرةِ . يقرأنَ مطلع انشودة عن دوالي الخليل . ويكتبن خمس رسائل : تحيا بلادي من الصفر حتى الجليل . ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة .

خديجةُ ! لا تغلقي الباب خلفكِ ! لا تذهبي في السحاب . ستمطر هذا النهار . ستمطر هذا النهار رصاصاً . ستمطر هذا النهار . .

وفي شهر آذارَ ، في سَنَة الانتفاضةِ ، قالت لنا الارض اسرارها الدموية . خمس بنات على باب مدرسة ابتدائيةٍ ينكسرن مرايا مرايا . البناتُ مرايا البلاد على القلب .

في شهر آذار . والعشبُ أخضرُ مثل ولادة تفّاحة في الطريق الى طبريا . وكان جنودُ المظلات أطولَ من قامة العشبِ . كانوا ثمانين في شهر آذار . خمسُ بنات على باب مدرسة يقتحمن جنود المظلات . يسطعُ بيتٌ من الشعر أخضر : تحيا بلادي
من الصفر حتى الجليلِ
وكان الرصيف صغيراً صغيراً ، ولكنَّ مليون برقوقة أشرقت فجأة من شقوق الحجارةِ . كان غناء العصافير أحمرَ . كان الجدار المجاور أحمرَ . كان النهار المقابل أحمر .

في شهر آذار
أشعلت الارضُ
أزرارَها

IV

أنا شاهدُ المذبحه
وشهيدُ الخريطه
أنا ولد الكلمات البسيطه

رأيتُ الحصى أجنحه
رأيتُ الندى أسلحه .
عندما أغلقوا بابَ قلبي عليّا
وأقاموا الحواجز فيّا
ومنع التجوُّل
صار قلبيَ حارهْ
وضلوعي حجاره
وأطلَّ القرنفلْ
وأطلَّ القرنفل .

٥

وفي شهر آذارَ رائحةٌ للنباتاتِ . هـذا زواج العناصر . « اذار أقسى الشهور » وأكثرُها شَبَقاً . أيُّ سيفٍ سيعبر بـين شهيقي وبين زفيري ولا يتكسّرُ ! هـذا عناقي الزراعيُّ في ذروة الحبّ . هـذا انطلاقي الى العمر . فاشتبكي يا نبـاتاتُ واشتركي في انتفاضـة جسمي وعودة حلمي الى جسدي . سوف تنفجر الارضُ حين أحقّق هـذا الصراع المكبّل بالريّ والخجل القرويّ .

وفي شهر آذار نأتي الى هوس الذكريات ، وتنمو علينـا النباتات صاعدةً في اتجاهات كلّ البدايات . هذا نموُّ التداعي .أسمّي صعودي الى الزنزنخت التداعي . رأيتُ فتـاة على شاطيء البحر قبـل ثلاثين عامـاً وقلتُ : أنا الموج . فابتعـدتْ في التـداعي . رأيت شهيدين يستمعان الى البحر . عكّا تجيء مع الموج . عكّا تروح مع الموج . وابتعدا في التداعي . ومالت خديجةُ نحو الندى — فاحترقتْ .

خديجةُ ! لا تُغلقي الباب ! إنّ الشعوب ستدخل هذا الكتاب . وتأفلُ شمس أريحا بدون طقوس

فيا وطن الانبياء .. تكاملْ !
ويا وطن الزارعين .. تكامل !
ويا وطن الشهداء .. تكامل

ويا وطن العائدين .. تكامل

فكلُّ شعاب الجبـال امتدادٌ لهـذا النشيد وكلّ الأناشيد فيـك امتداد لزيتونة زمّلتني

وفي شهر اذار تنمو علينا النباتات . نذهب في شهر اذار نحـو البدايات

في شهر اذار
زفّت لنا الأرض
اخبارها

V

مساء صغير على قرية مهمله
وعينان نائمتان
اعود ثلاثين عاماً
وخمس حروب
واشهد ان الزمان
يخبّيء لي سنبله

يغنّي المغنّي
عن النار والغرباء
وكان المساء مساء
وكان المغنّي يغني

بنادقهم ساخنه
واصواتهم اسنه
اصابوا هواء البيوت
اصابوا مفاتيحها الآمنه
وخمس بنات اصابوا
اصابوا دم السوسنه
ولم تنزل المئذنه

يغنّي المغني
عن الريح والغرباء
وكان المساء مساء
وكان المغني يغني

ويستجوبونه :

لماذا تغني ؟
يردُّ عليهم

وهم يأخذونه :

لأني اغني .
ولا تذهب الياسمينه

وقد فتشوا صدره
فلم يجدوا غير قلبه
وقد فتشوا قلبه
فلم يجدوا غير شعبه
وقد فتشوا صوته
فلم يجدوا غير حزنه
وقد فتشوا حزنه
فلم يجدوا غير سجنه
وقد فتشوا سجنه
فلم يجدوا غيرهم في القيود .

وراء التلال
ينام المغني
وفي شهر اذار
تصعد منه الظلال

٦ و VI

انا الأمل السهل والرحب – قالت لي الأرض – والعشب مثل التحية في الفجر . هذا احتمال الذهاب الى العمر خلف خديجة . لم يزرعوني لكي يحصدوني . يريد الهواء الجليلي ان يتكلم عني فينعس عند خديجة

يريد الغزال الجليلي ان يهدم اليوم سجني فيحرس ظل خديجة وهي تميل على نارها

يا خديجة ! اني رأيت وصدقتُ رؤياي . تأخذني في مداها وتأخذني في هواها

انا العاشق الأبديُّ – السجين البديهيّ . يقتبس البرتقال اخضراري ويصبح هاجسَ يافا

انا الارض منذ عرفت خديجة .

لم يعرفوني لكي يقتلوني . بوسع النبات الجليليّ ان يترعرع بين اصابع كفّي ويرسم هذا المكان الموزّع بين اجتهادي وحبّ خديجةْ

هذا احتمال الذهاب الجديد الى العمر من شهر اذار حتى رحيل الهواء عن الارض . هذا التراب ترابي وهذا السحاب سحابي وهذا جبين خديجة

انا العاشق الابديّ – السجين البديهيّ

رائحة الارض توقظني في الصباح المبكّر . قيدي الحديديُّ يوقظها في المساء المبكّر . هذا احتمال الذهاب الجديد الى العمر . لا يسأل الذاهبون الى العمر عن عمرهم . يسالون عن الارض هل نهضت !

طفلتي الارضَ ! هل عرفوك لكي يذبحوك . وهل قيّدوك باحلامنا فانحدرت الى جرحنا في الشتاء ؟ وهل عرفوك لكي يذبحوك . وهل قيدوك باحلامهم فارتفعتِ الى حلمنا في الربيع ؟

انا الارض
يا ايها الذاهبون الى حبّة القمح في مهدها
احرثوا جسدي !
ايها الذاهبون الى جبل النار
مرّوا على جسدي
ايها الذاهبون الى صخرة القدس
مروا على جسدي
ايها العابرون على جسدي
لن تمروا
انا الارض في جسدٍ
لن تمروا
انا الارض في صحوها
لن تمروا
انا الارض . يا ايها العابرون على الارض في صحوها
لن تمروا
لن تمروا
لن تمروا

دروس الانتفاضة

غازي الخليلي

[١]

شهادات

لا استجدي الغيمة اذا لم تمطر ، فدخان البنادق التي انطلقت يتساقط مطرا ...

وفي يوم الارض ، انهمر المطر ، وازهرت الارض التي ظنوا انها لم تعد تزهر . وبكى جندي صهيوني وهو يقول « لقد حاولوا ان يحرقوني حيا ، واحاطوا بسيارتي وحاولوا اضرام النار فيها . لم اكن اتصور ان الامر بهذه الشدة ، فقد هاجمونا بحجارة لها حجم البطيخ ، وبمشاعل مغموسة بالبنزين تشتعل فيها النيران «١» » ! وذهل الاسرائيليون . قال مراسل « ان احد الضباط الاسرائيليين ذهل للعنف الذي ابداه سكان القرى نحوه ونحو جنوده ، على الرغم من انهم يعرفونه جيدا «٢» » ؟

وفي يوم الارض حدثنا التاريخ « ان المواطنين الفلسطينيين في الجليل والمثلث تحدوا قرار حظر التجول الذي فرضه الحاكم العسكري الاسرائيلي ، وعم الاضراب جميع المدن والقرى العربية بلا استثناء ، ونجح بصورة فاقت كل توقع . وانطلقت اعنف تظاهرات شارك بها الالاف من قرى عرابة ودير حنا وسخنين ، وقرى الطيبة وام الفحم والطالبية وطوان ، التي وقعت فيها اشتباكات دامية وحرائق متعددة .

وفي عرابة استشهد ثلاثة خلال اشتباك مع الجنود الاسرائيليين . وفي قرية الطيبة استخدم المتظاهرون لاول مرة الاسلحة النارية ضد البوليس الاسرائيلي فأصابوا خمسة من افراده . وفي دير حنا القى المتظاهرون قنابل المولوتوف المصنوعة محليا والمشاعل المحترقة على افراد الشرطة . ووقعت اصطدامات دامية اقيمت خلالها الحواجز على الطرق واشعلت النيران في اطارات السيارات .. وفي بلدة سخنين استشهد ثلاثة من المواطنين العرب خلال اشتباك عنيف ، واصيب عدة اشخاص بجروح بينهم٩ من حرس الحدود الاسرائيلي ، واعتقل ٧٠مواطنا عربيا «٣» و « امتد التوتر الى عكا حيث تظاهر نحو ٢٠ شاب عربي وقطعوا بالاطارات المحترقة الطريق بين عكا وصفد » «٤» .

الارض تواصل لا ينقطع . والانتفاضة ، فعل يتراكم وبراعم تتفتح ، واطفال صغار يكبرون قبل الاوان .

ونقلب صفحات التاريخ ، في اواخر العام ١٩٦٨ واوائل العام ١٩٦٩ شهدت مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة تظاهرات عنيفة ضد الاحتلال الاسرائيلي . صرح ناطق اسرائيلي في ١٩٦٩/٢/٢٥ « تجددت تظاهرات الطلبة في غزة، وتقذف المتظاهرون السيارات العسكرية بالحجارة . وفي الضفة الغربية لا تزال جميع المدارس مستمرة في اضرابها احتجاجا على الاحتلال الاسرائيلي . . . وفي نابلس اغلقت المحلات التجارية والمحلات العامة ابوابها مشاركة في الاحتجاج على الاحتلال الاسرائيلي والغارات الاسرائيلية على المدنيين» «٥» .وقالت راوية: من رأى منكم الازهار تقاتل . انالازهار في بلادي تقاتل . فقوارير الزهور على شرفات المنازل ، كانت بأيدي الامهات تقاتل . ونمت في الارض زهرة ، فكل الاشياء في بلادي غضبى تقاتل .

وظنوا ان الارض انكرت اهلها ، او ان الاهل انكروا ارضهم ... ولكن ... في ١٩٧٤/١١/١٣ ذكر راديو العدو « تجمع عدد من المواطنين في الساحة المركزية لمدينة نابلس وكان معظمهم من الطلاب . وكان يسير مع الطلاب عدد من الشبان البالغين اهتموا بتنظيم التظاهرة . . وكانوا يهتفون بشعارات : فلسطين عربية ، ياسر عرفات جميعنا معك» .وتكرر المشهد نفسه ــ اضراب وتظاهر ــ فيالخليل وحلحول وطولكرم ورام الله والقدس والبيرة . « ودارت مكبرات الصوت في شوارع المدينة تدعو التجار الى فتح حوانيتهم بأمر من رئيس بلدية نابلس ، وبدأ التجار بخوف شديد يفتحون متاجرهم . . . ولكن عندها بدأ المتظاهرون يطلقون صيحات الاحتجاج ويندّدون بالتجار . . . ومرة اخرى بدأت الحجارة تتطاير » «٦» .

وقال راديو العدو « لقد كان هذا اعصب اسبوع في تاريخ الضفة الغربية منذ عهد العصيان المدني عام ١٩٦٨ . لقد بدات التظاهرات في نابلس قبل نحو عشرة ايام . . . لقد كانت بؤرة التظاهرات المدارس . ومن هناك خرج المتظاهرون . . . **وسبقت التظاهرات عمليات تحريض وتوزيع منشورات واطلاق شعارات» «٧»** وتساءلالمعلق الاسرائيلي عن السر في ان التظاهرات في عدد من المدن والقرى قامت في وقت واحد « لقد وقعت اعمال الشغب والتظاهرات في عدد من المدن والقرى في الوقت نفسه ، وهذه الظاهرة تجعلنا نتساءل فورا : هل كان هناك عامل موجه واحد ؟ ولكن يصعب الرد على هذا السؤال ، فان عددا من التظاهرات كان شبه عفوي ، واحيانا كانت التظاهرات تقع لاتفه الاسباب، ولكنها هنا حددت فييوم وفيساعة معينة» «٨»،**وستظل علامات الاستغراب والدهشة ترتسم على الوجوه الحاقدة حتى تصفعها الحقيقة .** ذكر راديو العدو في ١٩٧٥/١١/٢٠ « رسمت شعارات بالوان زيتية تشيد بمنظمات المقاومة على جدران المنازل في القدس وعلى ظهور السيارات . . . وان منشورات تحريض وزعت اثناء الليل داخلاسوار المدينة القديمة» «٩» **وفي القدس** « خرج الطلاب بتظاهرة يهتفون ويرفعون الاعلام الفلسطينية ، ووضعوا على الطريق حجارة وقضبانا حديدية ورشقوا الجنود بالحجارة» «١٠» و «انقض عدد منالطلاب على مركز الشرطة في قلندية، ودار هناك شجار مع رجال الشرطة ، وقد استدعيت تعزيزات وتم اعتقال عدد من الطلاب . وما ان فرغ رجال الشرطة من قلندية ، واذا بالحجارة تتطاير من باحة المدرسة الابراهيمية في القدس . وهنا ايضا استعمل رجال الشرطة القوة . . . وانقضوا على ساحة المدرسة . . وجرح عدد من رجال الشرطة بسبب اصابتهم بالحجارة الكبيرة » «١١» .

وتجذرت البذرة في الارض . نما الزرع واشتد ساقه ، واتسع الحقل وامتد .. كل فلسطين ثورة . توحدت الارض ، توحد الشعب ، تواصلت الارض مع الشعب ،

ولمعت العيون واتسعت حدقاتها ، وصوت واحد يوحد : لا للاستيطان ، لا للاحتلال .
جاء في الاخبار « جرت معركة عنيفة بين المتظاهرين وقوات الاحتلال في مدينة نابلس سقط على اثرها عشرات الجرحى من الجانبين ، واقيمت المتاريس في وسط المدينة وداخل الشوارع والازقة ، واشعلت الاطارات ، وسكب الزيت في الطرق لمنع تقدم آليات العدو . . . واستخدم المتظاهرون الزجاجات المملوءة بالمواد الملتهبة وقذفوا بها الجنود بعد اشعالها » وقالت الانباء « ان اما فلسطينية من جنين طعنت جنديا اسرائيليا بسكين عندما حضر عدد من الجنود الى منزلها لاعتقال احد ابنائها . اعتقلت الام مع جميع افراد اسرتها » . وقال المذيع الاسرائيلي « ان اطفال ٤ — ٥ سنوات يشعلون اطارات المطاط ويقذفون الجنود بالحجارة ». وقالت الصحف « ان المتظاهرين ضربوا سائقا مدنيا كان ينقل عسكريا اسرائيليا في سيارته على طريق اريحا — القدس :

وقال شاهد عيان :

المتراس والحجارة والاطار المشتعل ، سلاح الجماهير في مواجهة اليات العدو وجنوده المدججين بالسلاح . . . يغلق الشبان والشابات شارعا معينا بالحجارة وصناديق الخشب والمواسير ، ثم يكمنون على بعد مدروس من ذلك المكان . يتقدم العدو بسيارة مصفحة يسير خلفها من عشرة الى عشرين جنديا شاهرين بنادقهم مع السنجات ، ثم سيارة المخابرات . تقف السيارة المصفحة امام المتراس ، يأمر الجنود ايا من المارة بازالة المتراس بالقوة ، وما لم يكن احد مارا يصعد الجنود الى البيوت المجاورة ويطلبون من سكانها النزول لازالة المتراس . وما ان يزال المتراس ويحاول جنود العدو التقدم ، حتى تنهال الحجارة عليهم من كل مكان ، ويعلو الهتاف بحياة الثورة ، ويرتفع العلم الفلسطيني عاليا .

وروى انه شاهد فتيات في عمر الزهور ، وراء المتاريس والاطارات المشتعلة ، كانت تستطيل اذرعهن وهن يقذفن الجنود بالحجارة ، وكن يعتمرن الكوفية الفلسطينية وقد شددنها على رؤوسهن كالعصبة حتى يزددن صلابة وعنفا .

غابت احاديث الكنة والحماة وماذا قالت الجارة من الاحاديث اليومية لجداتنا وامهاتنا ، وطغى حديث الارض على كل حديث .

وقال :

وتبقى الحقائق تفرض نفسها ، لانها عنيدة كالصخر . قال مراسل « التايمز » اللندنية من القدس « لا الاعتقالات ولا قنابل الغاز فرقت المتظاهرين » واكد ان التظاهرات اتخذت « صفة الاحتجاج الشامل ضد الاحتلال » واوضح ان الرسميين الاسرائيليين لم يجدوا الا ان يعترفوا بان التظاهرات كانت بسبب الاستيطان ، ولكن « لا يبدو ان الحكومة الاسرائيلية سترضخ لمطالب المحتجين لوقف الاستيطان» ! «(١٣)» وقالت الغارديان « لا شك ان الاضطرابات ابتدات بسبب المسجد الاقصى ، ولكن التظاهرات اكتسبت مضمونا مستقلا ، فالذي يجري يوميا في الضفة الغربية ليس تهديد « موقع مقدس » ولكن الاحتلال الاسرائيلي نفسه » «(١٤)» .

[٢]

ثلاث انتفاضات

تقدم هذه الشهادات صورة حية عن واقع جماهيرنا داخل الارض المحتلة ، وهي

شهادات تؤكد انه ، يوما بعد يوم تتبلور الارادة الجماهيرية في فلسطين المحتلة بمقاومة عنيفة وواعية ضد الاحتلال الاسرائيلي بمظاهر وجوده المختلفة ، وانه ، يوما بعد يوم تتكسر عبر التحركات الجماهيرية الواسعة ، الحدود المصطنعة بين اماكن تجمعات الشعب الفلسطيني المختلفة سواء داخل فلسطين المحتلة او خارجها . وكان يوم الارض يوما مجيدا في تاريخ الشعب الفلسطيني ، اذ تاكدت في هذا اليوم وحدة الشعب الفلسطيني عبر توحد نضالاته وشمولها كل الارض الفلسطينية ، فكانت تظاهرات الجليل والمثلث ضد الاستيطان الصهيوني وضد سياسة نهب ومصادرة الاراضي العربية في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ ، تعبيرا واضحا عن الالتقاء مع التظاهرات التي قامت في مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة . ضد الاستيطان الصهيوني وسياسات تهويد الارض المحتلة . ويوم الارض اذ ابرز هذا التلاحم القوي بين جماهيرنا في فلسطين المحتلة ، فان الانتفاضة الشعبية التي لا تزال تعم كل مدن وقرى الضفة الغربية منذ اكثر من ثلاثة شهور ، والتي وجدت لها تجاوبا واسعا في كل فلسطين المحتلة وخارجها ، تطرح العديد من الاسئلة ، وتقدم الكثير من الدروس التي يجب الاستفادة منها واستيعابها بشكل جيد في نضالاتنا القادمة .

ان الانتفاضة الشعبية التي تشهدها فلسطين المحتلة هذه الايام ، ليست هي الانتفاضة الاولى ، وان كانت تختلف عن سابقاتها بامور عديدة سواء من حيث شموليتها ومدى عنفها . فقد شهدت الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ ثلاث انتفاضات منذ الاحتلال الاسرائيلي حتى الان ، الاولى كانت في اواخر العام ١٩٦٨ واوائل العام ١٩٦٩ واستمرت اكثر من ثلاثة شهور . والثانية كانت في تشرين الثاني ١٩٧٤ واستمرت نحو اسبوعين . اما الثالثة ، فهي الانتفاضة الحالية والتي ابتدأت في كانون الاول « ديسمبر » ١٩٧٥ مع بداية توجه جماعات صهيونية لاقامة مستوطنة صهيونية قرب قرية سبسطية ، وقد اكتسبت هذه الانتفاضة المزيد من الزخم الجماهيري والفعالية النضالية مع الاحداث التي شهدتها المنطقة العربية خلال الاشهر الماضية ولا سيما احداث لبنان الدامية .

الانتفاضة الاولى ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩

اثر تزايد النشاط الفدائي داخل الارض المحتلة ، اتخذت السلطات الاسرائيلية المحتلة اجراءات قمعية ، تعسفية وقاسية ، ضد المواطنين العاديين ، بهدف الضغط عليهم والتاثير على مدى تعاونهم مع الفدائيين ودعمهم لهم . ومن هذه الاجراءات ، التوسع في تطبيق سياسة العقوبات الجماعية ونسف البيوت والابعاد الى الضفة الشرقية . وكان من الامور المالوفة في الاراضي المحتلة قيام السلطات الاسرائيلية باعتقال عدد من افراد العائلة الواحدة اذا ثبت ان لاحد افرادها علاقة بالعمل الفدائي، كذلك كان من الامور المالوفة ايضا قيام هذه السلطات بفرض حظر التجول على حي بكامله او اكثر من حي في احدى المدن لمدة قد تزيد عن يومين ، اذا اكتشفت قطعة سلاح في احد بيوت هذا الحي او انفجرت عبوة فيه . كذلك فان نسف البيوت كان من الامور التي اعتادت الجماهير رؤيتها يوميا . وكان البيت ينسف لمجرد ان قطعة سلاح اكتشفت فيه ، او لان احد القاطنين في هذا البيت كانت له علاقة بالعمل الفدائي .

صرح موشيه ديان في ١٩٦٩/١١/١٢ في نادي الصحفيين بتل ابيب « انه نظرا لزيادة التعاون بين سكان المناطق التي يسيطر عليها جيش الدفاع والمخربين ، فان سلطات الامن ستعاقب ليس مرتكبي الاعمال التخريبية فحسب ، بل ستعاقب ايضا اولئك

الذين لهم علم بارتكاب هذه الاعمال او الذين ساعدوا على ارتكابها ولو بصورة غير مباشرة » . لقد كان الهدف من هذه الاجراءات القمعية الجماعية ، تحميل السكان وزر ما يقوم به الفدائيون من نشاطات واعمال ، وبالتالي دفعهم الى عدم تقديم الحماية والعون لهم . ولكن كما ثبت للسلطات الاسرائيلية مؤخرا . فان سياسة العقوبات الجماعية سلاح ذو حدين ، فهو في الوقت الذي قد يؤثر على بعض المواطنين ويخيفهم ، فانه من الناحية الاخرى يزج باعداد كبيرة من الجماهير في مواجهة العدو الاسرائيلي . لقد عمل العدو الاسرائيلي في الاشهر الاولى من الاحتلال ان لا يكثف وجوده العسكري في المناطق المحتلة ، وذلك على امل ان لا يشعر السكان بثقل الاحتلال حتى لا يستفز مشاعرهم الوطنية ، ولكن امام تصاعد العمل الفدائي ، لم تجد السلطات العسكرية المحتلة بدا من تكثيف وجودها العسكري في كل المناطق للسيطرة عليها ومطاردة الفدائيين ولم تجد بدا من القيام باجراءات قمعية كشفت وجهها الفاشي ، فتمزقت امام المواطن العربي صورة اسرائيل » الليبرالية التي كانت تروج لها الدعايات الصهيونية ، وبرز العدو على حقيقته ، كقوة محتلة عنصرية وفاشية . علقت صحيفة « الاتحاد » على اجراءات العدو القمعية فقالت « ان اساليب القمع ضد الجماهير مزقت اسطورة الحكم الليبرالي وعدم التدخل في الشؤون الداخلية التي روجها موشيه ديان » «١٥» .

لم تجد الجماهير من يدافع عنها ضد هذه الاجراءات القمعية ، فالمجالس البلدية وقفت عاجزة ولم تحرك ساكنا . وسياسة العرائض والاحتجاجات الشكلية التي كانت ترفعها بعض الهيئات لم تؤد الى نتيجة ، فكان لا بد من تحرك عام . وكانت البداية في تحرك المدارس . وكانت الشرارة من مدرسة العائشية للبنات بنابلس ، حيث خرجت الطالبات في تظاهرة وهن يهتفن ضد الاحتلال وفلسطين عربية ، وباغنية « انا صامد صامد » وهي الاغنية التي اخذت تتردد في كل بيت وشارع آنذاك ، لانها كانت تعبر عن صمود الجماهير في مواجهة سياسات العدو واجراءاته القمعية .

استخدمت السلطات الاسرائيلية القوة في قمع تظاهرة الطالبات ، فاقتحمت المدرسة وضربت الطالبات والمعلمات واصدر الحاكم العسكري قرارا باغلاق المدرسة . وكما يقول كارل ماركس « ان الثورة تتقدم باستثارة حركة معادية للثورة ، متحدة وقوية ، اي انها تجبر العدو على اللجوء الى وسائل دفاعية قصوى فقصوى ، وهكذا تستنبط وسائل هجومية اقوى فاقوى» «١٦» . فقد اثار اقتحام المدرسة جميع الاهالي ، فاحتج المجلس البلدي لمدينة نابلس ، وسط احتجاج جماهيري عارم ضد ممارسات العدو . وفي اليوم التالي عم الاضراب مدينة نابلس ، وخرج الطلاب في كل المدارس بتظاهرة عامة ، تصدت لها الشرطة الاسرائيلية ، فحصلت اشتباكات دامية بين الطرفين . ومن نابلس انتقلت الشرارة الى كافة المدن والقرى الفلسطينية . فعمت الانتفاضة ، وشملت غزة والقدس ورام الله وطولكرم . . . الخ . كانت غزة تمثل آنذاك حالة نضالية متقدمة عنها في الضفة الغربية . فالعمليات العسكرية في قطاع غزة كانت اكثر واشمل منها في الضفة الغربية ، والتحرك الجماهيري في القطاع كان يكتسب طابعا اكثر عنفا منه في الضفة الغربية . ولذلك كانت سياسة العقوبات الجماعية وآثارها ابرز في القطاع منها في الضفة «١٧» . وتذكر فتاة من اللواتي اشتركن في هذه الانتفاضة ان احد اسباب الانتفاضة في الضفة الغربية ، كان لمواكبة الحالة النضالية التي كانت قائمة في قطاع غزة ، ودعم هذه الحالة بتحريك الحالة النضالية في الضفة .

لقد استمرت الانتفاضة من اواخر العام ١٩٦٨ حتى اوائل آذار « مارس » ١٩٦٩ .

وقد ترافقت الانتفاضة الجماهيرية مع القيام ببعض العمليات العسكرية من قبل بعض المشاركين في الانتفاضة . ففي ١٩٦٩/٢/١١ القيت في غزة قنبلتان على جنـــود اسرائيليين خلال تظاهرة، «١٨» وفي ١٩٦٩/٢/٢١ كانت عملية السوبرسول في القدس «١٩» وفي ١٩٦٩/٣/٦ كانت عملية كافتيريا الجامعة العبرية «٢٠» . والجدير بالملاحظة ان هذه العمليات الثلاث قامت بها فتيات ، وكانت هذه العمليات مع الاشتراك الواسع للفتيات في الانتفاضة ، اول اشارة الى اشتراك المراة الفلسطينية بهذه الكثافـــة في المقاومة الفلسطينية .

لقد **امتازت** هذه الانتفاضة بعدة ميزات منها ، (١) الاشتـــراك الواسع للمـــرأة الفلسطينية فيها ، وبشكل خاص طالبات المدارس ، حيث اعتقلت اعداد كبيرة منهن ، (٢) شمولها كل الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ — الضفة الغربية وقطاع غزة — (٣) جاءت في وقت اشتدت فيه اجراءات العدو القمعية وبالتالي كانت تحديا لـــه . (٤) استمرت فترة طويلة اي نحو ثلاثة شهور ، واستمرارها هذه الفترة ، كان يدلل على ان الجماهير تختزن طاقة كبيرة ، قد لا يمكن تجنيدها كلها من خلال العمليات العسكرية ولكن يمكن تجنيدها واستخدامها بشكل عقلاني وواع من خلال اشكال من النضـــال متنوعة .

من الناحية الاخرى **فقد ابرزت** هذه الانتفاضة عدة امور منها(١) ان جمهور المواطنين الواسع وبشكل خاص الحرفيين وسكان القرى ، ما زال بعيدا عن الاشتراك بفعالية في النضال الجماهيري ، ولذلك كان الطابع الغالب على الانتفاضة هو التحرك الطلابي (٢) الطابع العفوي العام للانتفاضة وعدم وجود الهيئات التي توظف هذه العفويـــة النضالية بعقلانية في مواجهة السلطات المحتلة . وقد تشكلت بعض الهيئات او اللجان خلال الانتفاضة مثل « اللجنة العليا لطلبة الاراضي المحتلة » التي تشكلت في رام الله وقامت بتوزيع منشورات تحرض على الاضراب والتظاهر ، «٢١» ومثل لجنة الطلبة في القدس التي قام عدد من افرادها بارسال عريضة الى السلطات الاسرائيليـــة طالبوا فيها باطلاق سراح المعتقلين من الطلاب والطالبات والغاء قانون تسجيـــل المؤسسات والشركات واصحاب المهن في الدوائر الاسرائيلية وابقاء هذه المؤسسات تسير على القانون الاردني وعدم ضم القدس لاسرائيل «٢٢» .ولكن هذه اللجان كانت محلية ووقتية وكانت تعبيرا عن مدى الحاجة الى وجود هيئات او لجان تقود وتنظـــم التحرك الجماهيري . (٣) لم تلق التجاوب الخارجي الذي تستحقه ، حيث ان الجهـــد الاساسي للمقاومة كان منصبا على العمليات العسكرية وكانت المقاومـــة بجميـــع فصائلها لا تعطي اهتماما كبيرا للتحركات الجماهيرية والنضال السياسي المنظم بين الجماهير ، ولذلك جاءت العمليات العسكرية التي جرت خلال الانتفاضة لتخطف الوهج الذي اضاءته الانتفاضة داخل الارض المحتلة (٤) غياب اي دور لعـــرب المناطـــق المحتلة في العام ١٩٤٨ في الانتفاضة . فاذا استثنينا بعض النشيطين من عرب الجليل والمثلث الذين انتظموا بصفوف المقاومة الفلسطينية وقاموا بعدة عمليات عسكريـــة هناك ، فان الانتفاضة على المستوى الجماهيري هناك لم تحدث اي تأثير .

كيف تعاملت السلطات الاسرائيلية المحتلة مع الانتفاضة . في البداية تحركت بقوة وبعنف ، كما بدا ذلك في اقتحامها لمدرسة العائشية واصدار قرار باغلاق المدرســـة ، وهو نفس الاسلوب الذي كانت تتبعه السلطات الاردنية قبل الاحتلال في مثل هـــذه الحالات . ولا يجب ان نقال من مدى ردة الفعل الجماهيرية لقيام جنود العدو باقتحام مدرسة للبنات وضرب الطالبات في مدينة محافظة كمدينة نابلس . لقد كان الهدف من

مواجهة تظاهرة الطالبات بهذا العنف ، هو استثارة حفيظة اباء الطالبات وعائلاتهم للضغط عليهن وبالتالي اجبارهن على الهدوء كما كان يجري ايام سيطرة الهاشميين. ولكن النتيجة كانت عكس ما توقعته السلطات الاسرائيلية . ففي ظل وجود احتلال ، ومقاومة تعم الارض المحتلة ، يصبح من الصعب على الاهل الضغط بنوع من الاجبار على بناتهم او ابنائهم ، ويصبح موقفهم (الاهل) غير مبرر ، وتصبح كلمات مثل الشرف والعرض ، جوفاء ، ولا قيمة لها ، في ظل وجود احتلال ينتهك يوميا اقدس الاقداس — الارض — ويزج بالمئاتمن المواطنين يوميا فيالسجون والمعتقلات .ولذلك لم تجد سياسة اليد القوية واستثارة حفيظة الشرف والحرص على العرض لدى الآباء في ايقاف ثورة الطالبات .فلجأ الى سياسة فيها بعض المرونة مع تهديد الآباء انفسهم. وتذكر احدى الفتيات التي اشتركت في الانتفاضة : انها اعتقلت هي وسبع طالبات من نابلس ، فقام الحاكم العسكري لمدينة نابلس باستدعاء اولياء امورهن بحضور الفتيات مع بعض وجهاء نابلس ، وهدد الفتيات امام اولياء امورهن واخذ يحرض اولياء امورهن عليهن ، ثم طلب منهم ان لا يتشددوا في معاقبة بناتهم ، لانه عفا عنهم هذه المرة » ! !

ولكن هذه السياسة لم تجد ايضا ، فاتبع سياسة الاعتقال مع التغريم والابعاد والبطش بالمتظاهرين . الا ان الغرامات في هذه الفترة لم تكن كبيرة كما هي الآن ،فقد تراوحت بين ٧٥ ليرة اسرائيلية — ١٥٠٠ ليرة اسرائيلية .

ذكرت « الدستور » الاردنية « ١٩٦٩/٣/٤ » ان السلطات الاسرائيلية المحتلة اصدرت قرارا بفرض غرامية مالية قدرها ١٠٠ دينار اردني اي نحو ١٠٠٠ ليرة اسرائيلية على كل عربي يشترك في تظاهرات معادية للاحتلال الاسرائيلي .

ومن الاساليب الاخرى التي انتهجتها السلطات الاسرائيلية ، الالتجاء الى المجالس البلدية والقروية ومن تسميهم بالوجهاء ، والضغط عليهم كي يتوجهوا الى الجماهير لوقف التظاهرات والعودة الى اعمالم او مدارسهم . وكذلك تهديد التجار الذين يقفلون متاجرهم ، بانها ستقفل هذه المتاجر فترة طويلة اذا لم يتم فتحها ، اضافة الى ابعاد الاشخاص الذين تعتبرهم من العناصر النشطة . في ١٩٦٩/٢/١٠ ابعدت السلطات الاسرائيلية سبعة من الشبان بتهمة اشتراكهم بالتظاهرات ، والسبعة طالبان ومدرس واربعة حرفيين «٢٣» .

انتفاضة تشرين الثاني ١٩٧٤

تختلف هذه الانتفاضة عن الانتفاضة الاولى سواء في مضمونها وطبيعتها والشعارات السياسية التي تبلورت خلالها ، او في دلالاتها السياسية . فقد جاءت هذه الانتفاضة كنوع من المفاجأة للسلطات الاسرائيلية المحتلة التي ظنت انها احكمت الطوق على سكان المناطق المحتلة خلال السنوات التي اعقبت هزيمة المقاومة في الاردن عام ١٩٧١ . فعقب معارك ايلول عام ١٩٧٠ والقضاء على مراكز التواجد العلني للمقاومة في الاردن، نشطت السلطات الاسرائيلية المحتلة في تقوية قبضتها على سكان الاراضي المحتلة ، مستفيدة من حالة شبه الجمود السياسي التي سادت هناك اثر هزيمة المقاومة في الاردن، فدفعت الى الواجهة عملاء النظام الاردني وامدتهم بتسهيلات عديدة ليتصدروا واجهة الاحداث السياسية هناك ، وقامت باجراء اول انتخابات للمجالس البلدية والقروية في ظل الاحتلال على امل ان يساعدها ذلك في ابراز بعض القيادات المتعاونة معها ، كما دفعت بابراز نوع من المعارضة الليبرالية للاحتلال الاسرائيلي ،

عبر بعض القيادات او تجمعات بعض المنتمين الى خط المقاومة الفلسطينية السياسي، وذلك بامل ابراز قوى محلية تمتص اية معارضة جماهيرية متقدمة وواعية للاحتلال الاسرائيلي ، وبنفس الوقت ابراز هذه القوى كناطقة ومعبرة عن الفلسطينيين في الداخل بديلا عن منظمة التحرير الفلسطينية . ومما شجع السلطات الاسرائيلية على المضي بهذه السياسة نجاحها الجزئي في تطويق وحصر مواقع الثورة في غزة وتوجيه ضربات قاسية لها ، وكذلك انشغال الثورة الفلسطينية في مواجهة ما كانت تتعرض له من ضغوط مختلفة اثر اضطرارها للخروج من الاردن .

وكخط مواز لهذه السياسة ، دفعت السلطات الاسرائيلية المحتلة بسياسة الرواج الاقتصادي في المناطق المحتلة خطوات الى الامام ، على امل ان تشكل سياستها الاقتصادية هذه دعما لتحركها السياسي في المناطق المحتلة ، فزادت من اعداد العاملين من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ ، ودفعت الى الامام بسياسات الاسكان وانهاء ظاهرة المخيمات في قطاع غزة . واخذت تشجع نمو شركات برؤوس اموال عربية واسرائيلية للقيام بمشاريع اقتصادية في الضفة الغربية وقطاع غزة، تابعة وملحقة للاقتصاد الاسرائيلي ، وبنفس الوقت راجت سياسة موشي دايان — الضم الزاحف — في اقامة المستوطنات الصهيونية ومشاريع التهويد للاراضي المحتلة ، في ظل المعارضة الجماهيرية المحدودة لمثل هذه المشاريع.

لقد كانت السلطات الاسرائيلية المحتلة تعتقد ان سياساتها في الاراضي المحتلة ، قد تكللت بالنجاح ، وانه لم يعد بمقدور سكان هذه الاراضي التحرك بفعالية ضد سياستها . ولكن جاءت انتفاضة تشرين الثاني ١٩٧٤ لتقوض كل احلام العدو الاسرائيلي ، ودفعت الى الواجهة من جديد ، جماهيرنا داخل الارض المحتلة ، عبر اشكال من النضال جديدة ومتقدمة . لقد كان من المؤمل لانتفاضة الجماهير ان تأتي مع نشوب حرب تشرين في العام ١٩٧٣ . ولا سيما بعد النداءات التي وجهتها قيادة الثورة الفلسطينية الى الجماهير هناك باعلان العصيان المدني . الا ان التحرك الجماهيري خلال الحرب كان محدودا ودون المستوى المطلوب . وذلك لعدة اسباب منها (١) ان الانتقال بالجماهير من حالة الجمود الى الحركة السياسية النشطة والفاعلة لا يحدث فجأة وبقرار تأخذه القيادة فقط ، بل لا بد من مرور فترة زمنية — عدة اشهر على اقل تقدير — حتى تتلمس الجماهير ان جديدا ما قد حدث يدفعها الى التحرك . في حالات الجمود السياسي ، تسيطر على الجماهير شؤون الحياة اليومية العادية ، اما في حالات الحركة السياسية النشطة والجماهيرية ، فأن شؤون الحياة اليومية العادية تتراجع الى الخلف، ليحل محلها الاهتمام بالقضايا السياسية المطروحة على بساط البحث . والحديث الذي رواه شاهد عيان عن الانتفاضة الاخيرة ، من ان احاديث الحماة والكنة وماذا قالت الجارة ، غابت من الاحاديث اليومية لامهاتنا وجداتنا وطغى حديث الارض على كل حديث ، هو تعبير صادق عن الانتقال من الحالة العادية الى الحالة الثورية لاوسع الجماهير بما فيهم جداتنا . (٢) ومن هذه الاسباب ايضا ، اننا لا يجب ان نقلل من الاثار النفسية التي خلفتها هزيمة المقاومة في الاردن وحرب العدو النفسية بعدها على جماهيرنا في الداخل . ان الجماهير طاقة لا تنتهي ، وهي طاقة تتجدد باستمرار وتكتسب مزيداً من القدرة يوما اثر يوم ، اذ كلما تربت الجماهير وزادت خبرتها من خلال النضال ؛ كلما كانت طاقاتها اكبر واقوى واكثر تأثيرا . ان هذه الطاقة تصيبها حالة من الكمون اذا انتكست الحركة الثورية او اصيبت ببعض الهزائم ، ولكن هذه الطاقة تعود لتنفجر من جديد وبقوة لدى اول

انتصار ولو جزئي تحققه الحركة الثورية . ومن هنا فان على القيادة الثورية في الوقت الذي يجب ان تطلق العنان لهذه الطاقة ان تعبر عن نفسها بدعم المبادرات الجماهيرية وبفسح المجال واسعا امام الجماهير كي تكتشف بنفسها مدى قدرتها على الخلق والابداع من خلال النضال ، فانها من الناحية الاخرى يجب ان لا تبدد هذه الطاقة في نضالات غير موجهة ولا مبرمجة ، وخاضعة لعفوية الجماهير المحضة. ومن هنا تأتي ايضا اهمية ايجاد الاشكال النضالية والتنظيمية التي تتلاءم مع الاهداف السياسية للانتفاضة ومع مستوى النضج النضالي الجماهيري . فتحديد الشعارات السياسية للانتفاضة اساسي ، كما هو اساسي ايضا تحديد اي الاشكال التنظيمية والنضالية اكثر ملاءمة للانتفاضة من غيرها . يقول لينين « يجب ان نعرف الى طاحونة اية قوى سياسية فعلية تحمل الماء ، هذه الشعارات التكتيكية او تلك ، او ربما انعدام هذه الشعارات او تلك » «(٢٤)» .

لقد بدأت الانتفاضة صباح الـ ١٣ من تشرين الثاني ١٩٧٤ ، اي في اليوم الذي انعقدت فيه الجمعية العامة للامم المتحدة للنظر في القضية الفلسطينية كبند مستقل ، وهو اليوم الذي توجه فيه الاخ ابو عمار بخطابه المشهور من الجمعية العامة الى العالم . اذن كانت الانتفاضة مؤقتة مع الحضور الفلسطيني في الامم المتحدة ، وجاءت مواكبة لهذا الحضور على الصعيد الدولي بعد حرب تشرين . فهي من هذه الناحية ، لم تكن عفوية ، بل كانت مبرمجة ومخططا لها . وهذا ما لم يستطع المذيع الاسرائيلي التهرب منه عندما تساءل ان كان هناك عامل موجه وراء وتوع ما سماه « اعمال الشغب » في يوم وساعة معنية . لقد بدأت الانتفاضة في كل مدن ومعظم قرى الضفة الغربية في يوم واحد وفي ساعة واحدة وبترتيب واحد . في الساعة الثامنة والنصف من صباح ١٣ تشرين ١٩٧٤ ، توجه طلاب عدة مدارس في كل مدينة وقرية الى ساحة تجمع معينة في هذه المدينة او تلك القرية ، ومن هناك انطلقت التظاهرات لتعم الضفة الغربية . واستمرت التظاهرات لاكثر من اسبوعين استخدم فيها المتظاهرون كل خبرتهم النضالية السابقة من قذف الجنود بالحجارة الى وضع المتاريس واشعال اطارات المطاط الى الاشتباك مع جنود العدو الى الاضراب العام واغلاق المتاجر ولو تحت التهديد . كذلك فقد استخدم فيها المنشور السياسي والكتابة على الجدران بكثافة ملحوظة . واستخدمت السلطات الاسرائيلية كل خبرتها السابقة في قمع المواطنين ، فمن استخدام القنابل الدخانية المسيلة للدموع الى خراطيم المياه ، الى اطلاق الرصاص على المتظاهرين الى الاعتقالات وفرض الغرامات والابعاد ، وكذلك الى تهديد التجار بفتح محلاتهم ، اضافة الى الاتكاء على المجالس البلدية ومن تسميهم بالوجهاء للتوجه للمواطنين لوقف التظاهرات . وايضا استخدام فرض العقوبات الاقتصادية عبر التحكم بغلق وفتح الجسور بين الضفة الغربية والشرقية للضغط على التجار واصحاب الفعاليات الاقتصادية . اضافة الى اغلاق المدارس وفرض حظر التجول على عدد من المدن والقرى لعدة ايام .

وفي محاولة اولية لاستخلاص الدروس من هذه الانتفاضة نجد انها **امتازت بعدة ميزات منها :**

اولا : ان الشعار السياسي كان واضحا ومحددا في هذه الانتفاضة . فمن كل الشعارات التي قيلت او رفعت كان باستمرار يتأكد ويطغى شعار : نعم لمنظمة التحرير ، لا للاحتلال ، لا للحكم الهاشمي ، ذلك ان هذه الانتفاضة جاءت في وقت برز فيه التصارع على اشده حول من يتحكم بمستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة في

حال حدوث تسوية للصراع العربي ــ الصهيوني ، لدرجة ان الجماهير في الداخل لم تكن في تلك الفترة تعيش او تستوعب بشكل واف ، التعارضات التي بدت في الموقف الفلسطيني حول هذا الموضوع ، كانت الجماهير هناك تعيش في الجو الذي طغى في تلك الفترة ، وهي ان التسوية قادمة وقريبة ، وان مستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ ،مطروح على بساط البحث .وكانت الجماهير هناك تعيش تصارع الاطراف المختلفة على مستقبل الاراضي المحتلة اكثر مما تعيشها الجماهير الفلسطينية خارج الارض المحتلة ، فهناك الاحتلال بكل ادواته ومظاهر وجوده ، يجثم على صدور المواطنين ، وهناك عملاء النظام الهاشمي الذين بدأوا يتحركون وينشطون لشراء النفوس المريضة والاتباع ، وهناك الجماهير الواسعة الموالية للثورة الفلسطينية . لقد وجدت الجماهير هناك ، ان ما يطغى عليها الان اكثر من غيره ، ان تؤكد لمن ولاؤها ، وبالطبع اكدت ان هذا الولاء للثورة الفلسطينية المعبر عنها بمنظمة التحرير الفلسطينية التي تضم كل منظمات المقاومة . لقد كانت الاناشيد والهتافات كلها تصب في هذا المجرى وهو الولاء للثورة . وقد حققت الانتفاضة هذا الهدف عندما كسحت في طريقها حتى عملاء الملك الاردني ، والذين لم يجد بعضهم بدا من اعلان تأييده للمنظمة حتى لا تسحقه الجماهير ، وبالتالي خرست كل الاصوات التي كانت تراهن على نجاح السياسة الاردنية في الضفة الغربية وقطاع غزة .

ثانيا : امتازت هذه الانتفاضة عن سابقتها بانها كانت مدبرة ومنظمة ولم تكن عفوية، ولذلك جاءت بدايتها ونهايتها مع وضوح وتأكيد الهدف السياسي الذي قامت من اجله . ولهذا لم تستمر لاكثر من اسبوعين . وهذا ما يميز الانتفاضات التي تقوم بشكل عفوي ، وبفعل حوادث تستفز الجماهير ، ثم تأتي الحركة الثورية لتستوعب هذه الحالة الجماهيرية وتؤطرها ، وتلك الانتفاضات التي تقوم بقرار وتنتهي بقرار . ان الانتفاضات من النوع الاول ، وان كانت عفوية ، الا انها تكون اكثر استيعابا للمبادرة الجماهيرية وعبقرية الجماهير في اكتشاف اساليب من النضال جديدة ومتقدمة ، يقول لينين في دروس من انتفاضة موسكو « لقد شعرت الجماهير قبل قادتها ، بتغير ظروف النضال الموضوعية ، بهذا التغير الذي كان يفرض الانتقال من الاضراب الى الانتفاضة . وتقدم النشاط العملي على النظرية كما هو الامر دائما » «٢٥» . اضافة الى ان هذا النوع من الانتفاضات تظل آفاق تطوره النضالية مفتوحة بتقدم وتطور زخم الحالة الجماهيرية ، يقول لينين عن انتفاضة موسكو ايضا « من الاضراب والتظاهرات الى بناء المتاريس المنعزلة ، ومن المتاريس المنعزلة الى بناء المتاريس بالجملة والى معارك الشوارع ضد الجيش ، ومن فوق رأس المنظمات، انتقل النضال البروليتاري الجماهيري من الاضراب الى التظاهرة » «٢٦» . في حين ان الانتفاضات من النوع الثاني ، تظل محدودة ــ في كثير من الاحيان ــ بأفق القيادات التي اطلقتها او دفعت اليها . ولا يعني هذا بمطلق الاحوال ، تقديس العفوية على البرمجة . كل ما قصدناه من قولنا هو التأكيد على ان الجماهير في كثير من الاحيان وان لم يكن جميعا تكون متقدمة على قادتها ، ولا سيما ابان الانتفاضات والنهوض الجماهيري ،ولذلك من الخطأ جدا خنق المبادرات الجماهيرية باسم البرمجة والعقلنة. فيجب ان ندع الجماهير تتعلم بخبرتها النضالية ، ويجب على القادة ان يتعلموا من الجماهير . وفي يوم من النضال تتعلم الجماهير اكثر بكثير مما تتعلمه بسنة من العمل السياسي الرتيب .

ثالثا : امتازت هذه الانتفاضة بعنف المواجهة بين جماهير المتظاهرين والقوات الاسرائيلية المحتلة ، فالمتاريس والاطارات المشتعلة وقذف الجنود بالحجارة كانت

ابرز في هذه الانتفاضة منها في الانتفاضة السابقة ، اضافة الى ان المواجهة للقوات الاسرائيلية كانت اعنف من الانتفاضة السابقة . ومن هنا كان عنف السلطات الاسرائيلية اكبر في مواجهة هذه الانتفاضة عنها في الانتفاضة السابقة . فالغرامات ارتفعت وكان اقلها ١٠٠٠ ليره أسرائيليه ، والمحاكمات ضد من يعتقل كانت تجري فورا وتصدر الاحكام بسرعة وخلال جلسة واحدة وقصيرة ، اما بالغرامة او الحبس او العقوبتين معا . اضافة الى ان عدد المعتقلين كان اكبر . ففي ٧٤/١١/١٩ مثلا اعترف راديو العدو بأنه اعتقل ٦٤ طالبا هذا اليوم ، كما اعترف انه جرت حتى الآن محاكمة ٢٢ طالبا فرض على ١٤٥ منهم غرامات تصل الى الف ليرة وحكم على ٦٥ بالسجن ٦ اشهر «٢٧» . كما اعتقل بنفس اليوم ايضا ٧٠شخصا منهم ٤٠ طالبة من مدرسة المأمونية للبنات في القدس «٢٨» . وفي ١١/٢١ اعترف راديو العدو بأنه قدم حتى الان للمحاكمة ٤٠٠ شخص «٢٩» .

رابعا : برز دور المحرض السياسي في هذه الانتفاضة ، كما برز دور المنشور السياسي التحريضي ، وكذلك الكتابة التحريضية على الجدران . ان هذه الاشكال من العمل لا تقوم بها الا جماعات منظمة ، وهي الجماعات التي كانت تقف وراء الانتفاضة وتوجهها ، ولذلك قامت السلطات الاسرائيلية باعتقال عدد كبير من العناصر الوطنية ، التي لم يبرز لها دور نضالي في الفترة السابقة ، ولكن برزت الآن مع الانتفاضة وخلالها .

خامسا : امتازت هذه الانتفاضة بشمولها كل مدن ومعظم قرى الضفة الغربية ، ولكنها لم تنتقل الى قطاع غزة . ولم يجر في غزة خلال ايام الانتفاضة الا تحركين محدودين ، الاول محاولة للتظاهر والاضراب جرت في ٧٤/١١/٢١ لكنها قمعت ، والاخرى تمثلت بمحاوله للتظاهر قام بها طلاب مدرسة مصطفى حافظ بغزة يوم ٧٤/١١/٢٦ «٣٠» . وهذا يطرح تساؤلا لماذا تأخرت غزةعن مواكبة الحالةالجماهيريه في الضفة الغربية ، وهو سؤال سيبرز بحدة اكبر خلال الانتفاضة الثالثة ، وسنجيب عليه لاحقا . كذلك فان الانتفاضة لم تشمل عرب المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ ، وان كان الشعور العام السائد هناك هو التجاوب مع ما يجري في الضفة الغربية وتزايد الولاء هناك للمنظمة كما برز ذلك خلال لقاء رابين مع الطلبة العرب في الناصرة . لقد كان التحرك محدودا تمثل ببعض الكتابات على الجدران تأييدا لمنظمة التحرير الفلسطينية وفي التعبير عن الولاء الصامت للمنظمة «٣١» .

سادسا : شاركت جماهير واسعة بالاضافة الى الطلبة في هذه الانتفاضة ، ففي حين كانت انتفاضة ١٩٦٩ انتفاضة طلاب اساسا ، او ثورة الطالبات الى حد كبير ، فان هذه الانتفاضة شاركت بها جماهير واسعة من الحرفيين والشغيلة ، كذلك فان اغلاق المتاجر كان عاما الى حد كبير في بعض الايام .

تبقى ملاحظات اساسية حول الانتفاضة لا بد من تسجيلها وهي :

١) ان جماهير الفلاحين في القرى — باستثناء الطلبة — لم تزج بشكل كامل بالانتفاضة ، بل كانت اقرب الى المتفرج منها الى المشارك ، بعكس ما سنراه في الانتفاضة الثالثة حيث شاركت القرية الفلسطينية بفعالية بالانتفاضة . وهذا يعود الى قصور في الجهات او القوى التي برمجت للانتفاضة وقادتها ، كما يعود من ناحية اخرى الى ان الفلاحين لا يحركهم سياسيا الا قضايا او مسائل مباشرة . فالاستيطان حرك الفلاحين بفعالية في الانتفاضة الثالثة ، في حين ان شعارات الانتفاضتين الاولى والثانية لم تحرك جمهور القرى .

٢) الغياب الواضح لاي دور محدد وبارز للطبقة العاملة الفلسطينية داخل الارض المحتلة . وهذا يعود الى ان عددا كبيرا من العمال الفلسطينيين يعملون في المناطق المحتلة في العام ١٩٤٨ ، وبالتالي يخشون ان شاركوا بالتظاهرات ان يكتشفوا عن نواياهم الحقيقية ، وان لا يسمح لهم بالعمل حيث يعملون . وهذه الظاهرة يجب ان تعالج بدراستها من جميع النواحي ، ذلك ان سياسة العدو الاسرائيلي بافراغ الطبقة العاملة في الاراضي المحتلة من ثوريتها عبر تشغيل العدد الاكبر منها في المناطق المحتله عام ١٩٤٨ ، امر يجب ان يعطى اهمية كبيرة لدى متابعتنا لنشاط المقاومة داخل الارض المحتلة . فقد جرى في السابق اكثر من تحرك عمالي ولا سيما في العام ١٩٦٩ ، ففي آذار ١٩٦٩ اضرب اكثر من ٢٥٠ عاملا في مصنع للحمضيات في غزه احتجاجا على الاحتلال الاسرائيلي ، وفي القدس تظاهر في ١٩٦٨/١٢/١٧ عدد من العمال العرب احتجاجا على الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية لاجبارهم بالقوة على الانتساب للهستدروت ، فهاجموا مكاتب الهستدروت بالحجارة واجبروا السلطات الاسرائيلية على وقف اجراءاتها . ذلك ان الطبقة العاملة الفلسطينيه في الداخل تظل طاقة نضالية على الرغم من كل محاولات العدو لافراغها من ثوريتها .

٣) الغياب الواضح لاي دور للمؤسسات والهيئات النقابية الموجودة في الارض المحتلة ، واذا تحركت مثل هذه المؤسسات فانها تتحرك على اساس مواجهة الانتفاضة بالتوجه للجماهير بالكف عن التظاهر كما يحدث مع المجالس البلديه وغرف التجارة هناك . صحيح ان السلطات الاسرائيلية لا تسمح بوجود مؤسسات نقابية فاعلة ، ولا يمكن التوجه لهذه السلطات المحتلة لانتزاع الحقوق بالعمل النقابي ،ولكن صحيح ايضا ، ان هناك نقابات مثل نقابة المحامين والاتحاد العام للعمال لم تحرك ساكنا ، وكذلك ، اذا كنا لا نتوجه للسلطات الاسرائيلية للترخيص بقيام نقابات او اتحادات مهنية ، فان قيام نقابات واتحادات مهنية سرية يصبح ضرورة مهمة ، حتى يتم عبر هذه الاطر تحريك اوسع الجماهير . ان اشكال العمل العلني في ظل الاحتلال تبقى اشكالا محدودة جدا ، فالصفة « الليبرالية » للعدو الاسرائيلي تختفي كليا وبالمطلق عندما يجد ان هذه الليبرالية تتعارض مع سياساته واجراءاته القمعية ، ولذلك لا يمكن الدعوة الى قيام اشكال من العمل العلني النقابي او غيره في ظل الاحتلال . ان الممكن هو قيام هيئات ونقابات واتحادات للطلبة والمعلمين والعمال والفلاحين سرية ، تبدأ شيئا فشيئا تفرض نفسها من خلال النضال ، لتكتسب وجودها وامكانية فعلها من خلال النضال ضد الاحتلال . ان المجالس البلدية وغرف التجارة، هي مؤسسات كانت ولا زالت ، تلعب دورا رجعيا في مواجهة انتفاضات الجماهير وباستمرار تمثل هذه الهيئات مرتكزات للسلطات المحتلة تتوجه عبرها الى الجماهير لحثها على الهدوء ! والعودة الى الحياة العادية « بعد ان بحثت الامر مع السلطات المعنية » . تماما كما كان يحدث ابان ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ . ان استقالة المجالس البلدية مثلا كما جرى خلال الانتفاضة الثالثة لم يتم الا بضغط جماهيري ، واحسابات انتخابية ، حيث ان هذه الاستقالات تمت عشية انتخابات المجالس البلدية والقروية الجديدة والمقررة في ١٢ نيسان « ابريل » الحالي . ان عرائض الاحتجاج والشكوى التي ترفعها هذه المؤسسات لا تجدي فتيلا ، وليست الا للحفاظ على اوهى الصلات مع الجماهير ، في حين ان تكريس مؤسسات نضالية تؤطر اوسع الجماهير ، وتكتسب وجودها من خلال النضال لا يتم الا بالعمل على قيام مؤسسات نقابية واتحادية سرية اولا ، تبدأ شيئا فشيئا بالتوجه للجماهير عبر بيانات وتوجيهات تواكب الحالة الجماهيرية الناهضة الآن في الاراضي المحتلة وترتقي بها .

الانتفاضة المجيدة

« الانتفاضة فن ، وان قاعدة هذا الفن الرئيسية هي الهجوم ــ الهجوم في منتهى الشجاعة وبعزم لا يتزعزع »

فريدريك انجلز

تختلف الانتفاضة الحالية ، وهي الانتفاضة الثالثة ، عن الانتفاضتين السابقتين ، سواء في مضمونها وشعاراتها البارزة المحددة ، او في مدى شموليتها حيث شملت كل فلسطين المحتلة ، كما تمتاز عن الانتفاضتين السابقتين في تحريكها لاوسع الجماهير بما فيهم الفلاحين ، وكذلك في عنفها ، الذي جوبه باجراءات قمعية قاسية من السلطات الاسرائيلية المحتلة .

لقد قامت الانتفاضة اساسا ضد الاستيطان الصهيوني ، وبدأت بشكل عفوي اذ جاءت ردا على محاولة مجموعات « من جوشي ايموينم » المرتبطة بحزب المفدال الصهيوني اقامة مستوطنة تدعى « ايلون موريه » في سبسطيه القريبة من مدينة نابلس . واتخذت المحاولة الصهيونية صورة استفزازية وقحة ضد المواطنين العرب، عندما اخترقت اعداد كبيرة من الصهاينة تقدر بالمئات مدن وقرى الضفة الغربية في طريقها الى سبسطيه حيث ستقام المستعمرة . في البداية لم تحرك السلطات الصهيونية ساكنا ، اذ تركت للمحاولة ان تمر ، ولكن ما ان بدأت اول معارضة لها من المواطنين العرب ، والتي تمثلت باحتجاج المجالس البلدية في مدينة نابلس وبعض المدن الاخرى على اقامة المستعمرة ، حتى تحركت السلطات الصهيونية بشكل مسرحي لمنع اقامة المستوطنة على اساس انها اقيمت بدون قرار من الحكومة الاسرائيلية . ولكن المستوطنين الصهاينة استمروا في محاولتهم ورفضوا مغادرة المكان . واثارت محاولة اقامة المستوطنة وموقف الحكومة الاسرائيلية منها ، نقاشات عديدة في الاوساط الاسرائيلية ، انعكست على الرأي العام داخل الارض المحتلة وزادت من ضرورة المواجهة العربية لاقامة المستوطنة . فتحركت الجماهير في مدينة نابلس وقراها ضد المستوطنين الصهاينة ، ففي سبسطيه قام الفلاحون بالهجوم على المستوطنين، فتصدت لهم القوات الاسرائيلية، وفي عنبتا تصدى السكان للمستوطنين وانصارهم وهم في طريقهم الى سبسطيه ، واشتبكوا معهم محاولين منعهم من الوصول الى سبسطية. وفي نابلس ، تظاهر الطلاب ضد اقامة المستوطنة، وضغطوا على المجلس البلدي للاحتجاج على اقامة المستوطنة . ولما لم تتخذ الحكومة الاسرائيلية قرارا واضحا بمنع اقامة المستوطنة ، استمرت الاضرابات والتظاهرات، وانتقلت من منطقة نابلس الى كل مدن وقرى الضفة الغربية . وفي ١٩٧٦/١٢/٨ جرت تظاهرة كبيرة في مدينة نابلس ، شارك بها الطلاب والحرفيون ، ولاقت تجاوبا سريعا في الضفة الغربية . وذكرت وكالات الانباء ان المدينة « شهدت اكبر تظاهرة منذ العام ١٩٦٩ حيث اشترك اكثر من الف شاب بالتظاهرة ، فأطلقت القوات الاسرائيلية النار على المتظاهرين لتفرقهم» «٣٢» ، وانتشرت الشرارة ، واشتعلت كل مدن وقرى الضفة الغربية بانتفاضة عارمة استمرت اشهرا ولا تزال ، وبلغت ذروتها في يوم الارض في الـ ٣٠ من آذار « مارس » الماضي عندما انتفضت قرى الجليل والمثلث ضد الاستيطان الصهيوني وضد نهب ومصادرة ٢٠ الف دونم من اراضي الجليل والمثلث .

والسؤال لماذا اثارت محاولة الاستيطان هذه المرة كل ردة الفعل هذه ، ولم تثر مثلها في الفترات السابقة ؟ في الواقع ان محاولات الاستيطان الصهيونية كانت تثير

باستمرار ردود فعل من السكان العرب ، فنضالات عرب الجليل والمثلث وبئر السبع ضد الاستيطان الصهيوني وضد سياسة التهويد للاراضي العربية ، مستمرة ولم تتوقف منذ العام ١٩٤٨ ، كذلك فان نضالات عرب الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ ضد الاستيطان الصهيوني مستمرة ولم تتوقف منذ الاحتلال . الا ان هذه النضالات كانت محلية ، يشترك بها جمهور القرية المعرضة اراضيها للنهب ، او يشترك معها ــ احيانا ــ جمهور القرى المجاورة ، ولم تكن هذه النضالات تتخذ هذه الشمولية من النضال ضد الاستيطان كما هي الآن . ذلك ان اي تحرك نضالي يكتسب عمقه ومداه واتساعه من الظروف السياسية المحيطة به . فالآن وقد اكدت الحركة الوطنية الفلسطينية نفسها كقوة وكأطار لنضال جميع العرب الفلسطينيين ، فأن النضال الوطني الفلسطيني انتقل من مرحلة تثبيت الوجود الى مرحلة ارقى من النضال وهي استهداف نفي وجود العدو عبر تأكيد وجوده . وهذا يعني الانتقال بالنضال من مرحلة الشعارات السياسية العامة الى مرحلة الشعارات السياسية الاكثر تحديدا والمباشرة . في السابق لم تبلغ الحركة الوطنية الدرجة التي تستطيع ان تمنع العدو من اقامة مستوطنة ، لانها كانت تخوض معركة تثبيت وجودها وتأكيد نفسها وسط اوسع الجماهير . اما الآن فقد وصلت الحركة الوطنية الى درجة اصبحت بما تملكه من قوة جماهيرية ومن قدرة على تحريك اوسع الجماهير على منع العدو من اقامة مستوطنة مثلا ، وعلى منعه من اتخاذ بعض السياسات الاخرى مثلا ، لانها اصبحت حقيقة لا يمكن للعدو ان يتجاوزها او يقفز فوقها . فالحقيقة النضالية الفلسطينية لم تعد حلما بل اصبحت واقعا ، وهذا امر مهم .

ارضية الانتفاضة : شكل الاستيطان الصهيوني الامر البارز والاساسي في الانتفاضة واكسابها المزيد من الزخم والفعالية الجماهيرية . ولكن ترافقت عوامل اخرى مع هذا العامل اعطت للانتفاضة طابعها الشمولي ، وامكانية الاستمرار هذه الفترة الطويلة نسبيا ، ومن هذه العوامل (١) مناقشات القضية الفلسطينية في مجلس الامن واستخدام الولايات المتحدة لحق النقض « الفيتو » ضد مشروع قرار دول عدم الانحياز ، ثم استخدامها الفيتو مرة اخرى ضد مشروع القرار الذي يدين العدو الاسرائيلي اضافة الى قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية واعتبارها حركة عنصرية في اقامة المستوطنات والاستيلاء على الاراضي . (٢) موضوع السماح لليهود بالصلاة في المسجد الاقصى . وقد استفز هذا الموضوع المشاعر الدينية لجماهير واسعة من السكان ، وحرك اطارات وهيئات ذات صفة دينية لم تكن تتحرك في السابق . (٣) محاولة العدو الاسرائيلي الاستيلاء على ٢٠ الف دونم من اراضي الجليل . وقد اثارت هذه المحاولة عرب الجليل ، الذين تحركوا منذ بداية آذار « مارس » الماضي لتحدي قرار الحكومة الاسرائيلية ومنعها من مصادرة الاراضي . وقد دفع هذا العامل عرب المناطق المحتلة في العام ١٩٤٨ لمواكبة الانتفاضة الجماهيرية في الضفة ،واوجد لاول مرة تحركا واحداً منسقا في كل الوطن الفلسطيني . لقد اعطى هذا التعامل للانتفاضة زخما وبعدا سياسيين ستكون لهما آثارهما الايجابية جدا على المستقبل السياسي للنضال في فلسطين المحتلة . (٤) الاحداث الدامية في لبنان . لقد دكر اكثر من مراقب وشاهد عيان ، ان احداث لبنان الدامية انعكست على جماهيرنا داخل الارض المحتلة ، بحيث ان الجماهير هناك وجدت ان من واجبها التحرك لدعم نضال الثورة الفلسطينية في لبنان ضد المحاولات التي تستهدف تقزيمها واعادة تحجيمها ، لقد اكد وعي الجماهير هذا ، مدى الترابط فعلا بين الثورة الفلسطينبة وقيادتها في الخارج وبين الجماهير في الارض المحتلة .

وقال شاهد عيان : ان الجماهير في الارض المحتلة كانت تتابع باهتمام كبير ما يجري في لبنان ، وكانت تؤكد في كل احاديثها ان المعركة واحدة من لبنان الى فلسطين ، وان الانتفاضة التي تعم مدن وقرى فلسطين ، ان هي الا دعم للنضال الذي تخوضه جماهير المقاومة في لبنان . ذكرت « الجيروزاليم بوست بتاريخ ١٦/ ١٩٧٦/٢ » ان التظاهرات في الضفة الغربية تعود « الى التطورات السياسية في العالم العربي » .

لقد تفاعلت هذه العوامل المختلفة مع بعضها ، واكسبت **الانتفاضة هذا البعد** الشمولي سياسيا وجغرافيا . ولكن كما قال اكثر من مراقب ، **بقي الاستيطان** الصهيوني هو العامل الابرز والاوضح في كل ما جرى في فلسطين المحتلة **خلال** الاشهر الاربعة الماضية .

القوى الاجتماعية التي اشتركت بالانتفاضة : لقد امتازت هذه الانتفاضة عن سابقاتها باشتراك اوسع الجماهير بها ، وقوى اجتماعية كانت مشاركتها في الانتفاضات السابقة محدودة او شبه معدومة . وبالتالي فان صفة الانتفاضة الطلابية التي كانت غالبة على الانتفاضتين السابقتين قد غابت عن هذه الانتفاضة ، وذلك يعود لعدة عوامل ، منها ان اسباب الانتفاضة وعواملها كانت متعددة مما جعل بالامكان مشاركة قوى اجتماعية عديدة . فالاستيطان مثلا حرك **الفلاحين** بفعالية وبزخم . ذكر راديو العدو « زارت دار البلدية في نابلس وفود من القرى المجاورة عبرت عن تضامنها مع ابناء نابلس وكررت معارضتها لاستمرار بقاء المستوطنين» «٣٥» وهذه الظاهرة لم تكن بارزة في الانتفاضتين السابقتين . ولم يقتصر دور الفلاحين وجمهور القرى في الانتفاضة ، على ابداء التضامن فقط ، بل كان اشتراكا فعليا تمثل في شمول الانتفاضة اصغر القرى في الضفة الغربية . ذكرت « معاريف ٦و١٩٧٥/١٢/٧» ان فلاحي سبسطية والقرى المجاورة لها تصدوا بعنف للمستوطنين الصهاينة الذين حاولوا اقامة مستوطنة لهم في سبسطية . وهذا تطور ستكون له دلالاته السياسية خلال الفترة القادمة ، فالقرية التي كانت تتضامن وتبدي التعاطف مع جمهور المتظاهرين ، الان تتحرك وتشارك بفعالية ، وهو امر قد يدفع بأي انتفاضة قادمة الى مرحلة متقدمة من النضال . كذلك فان اشتراك الفلاحين الواسع تمثل اروع تمثيل في التظاهرات العنيفة والدامية التي قامت في قرى الجليل والمثلث في يوم الارض . لقد نقل الفلاحون اساليبهم النضالية الى الانتفاضة وطبعوها بطابعهم ، فاستخدام المشاعل والهجوم بها على سيارات جنود العدو ، اسلوب يدل على جراة واستعداد للتضحية في المقام الاول ، كما يدل على مدى الاستعداد الجماهيري للذهاب بالانتفاضة الى ابعد مدى . اضافة الى الفلاحين فان **الحرفيين والشغيلة** من سكان المدن شاركوا بالانتفاضة بفعالية ، فلم تعد المدرسة هي اطار التجمع ومركز الحركة ، بل اصبح الحي بجميع فئاته وسكانه ، وهذا تطور ستكون له دلالاته السياسية ايضا . فان الانتقال بالمركز من المدرسة الى الحي ، سيدفع بتطوير الانتفاضة وبلوغها شكلا ارقى سواء من حيث دفع اوسع الجماهير للاشتراك بالنضال او من حيث التنظيم والاشكال النضالية التي ستأخذها الانتفاضة لاحقا . اضافة الى ذلك فان **مشاركة صغار التجار واصحاب الحوانيت** في الانتفاضة ، لم تعد مجرد الاستجابة لضغط المتظاهرين باقفال المحلات ، بل تطورت الى ان يأخذ هؤلاء التجار زمام المبادرة في الدعوة للاضراب والتظاهر . ذكرت الغارديان « ان الاضراب يعم القدس بدعوة من اصحاب المتاجر انفسهم » واضافت « هذه اول مشاركة من الرجال بعد اسابيع من اضطرابات الشباب» «٣٦» اضافة الى هذه القوى فان اصحاب **الفعاليات**

الاقتصادية وبعض القيادات التقليدية الممثلة في المجالس البلدية وغرف التجارة ، لم تجد امام هذه الانتفاضة العارمة الا ان تواكب ولو **ضمن حدود** حركة الجماهير . فكانت استقالات عدد من المجالس البلدية والتهديد باستقالة اعضاء غرفة التجارة بنابلس ردا على اقتحام جنود العدو لمدرسة قدري طوقان بنابلس صورة من تحرك هذه القوى . لكن يجب ان يكون واضحا ان مشاركة هذه القوى لا يتعدى عرائض الاحتجاج ، وان مشاركتها تظل ضمن مفهومها ، وهي محاولة السير خطوة مع الحركة الجماهيرية مع العمل على ارجاعها خطوات الى الوراء . فمثلا في اجتماع جرى في القدس في ١٩٧٦/٢/١٧ حضره رؤساء الغرف التجارية في الضفة الغربية مع الشيخ حلمي المحتسب رئيس المجلس الاسلامي الاعلى **لبحث القضايا الاقتصادية وقضية المسجد الاقصى** ، اقترح احد الحاضرين ان تدعو الغرف التجارية الى اضراب عام في الضفة الغربية احتجاجا على سيطرة اليهود على المسجد الاقصى ، رفض رؤساء الغرف التجارية هذا الاقتراح ، وعلق راديو العدو على ذلك فقال « لقد شعروا بان من واجبهم التضامن مع المسلمين ولكنهم ارتأوا عدم التدخل عمليا فيما يحدث » «٣٧» . لقد لعبت هذه المؤسسات مع بعض النقابات المهنية دورا في محاولة ارجاع الانتفاضة خطوات الى الوراء . ذكر راديو العدو « ان المجلس البلدي لمدينة نابلس بالاشتراك مع الاتحادات النسائية والنقابات المهنية ومديرية التربية والتعليم، اصدروا بيانا يدعو الطلاب للعودة الى الدراسة والكف عن التظاهر » ٣٨ . وقد تكررت اكثر من مرة هذه الظاهرة، وكان من الامور المألوفة في الضفة الغربية ان تدور مكبرات الصوت في الشوارع تدعو المواطنين بأمر من مجالس بلدياتها ، الكف عن التظاهر والعودة الى الهدوء . وعندما فشل هذا الاسلوب في السيطرة على الجماهير حاولت بعض القيادات التقليدية في مدينة نابلس انشاء ما سمته لجان التوجيه الوطني لاحتواء الانتفاضة واجهاضها ، ولكن محاولاتها فشلت امام وعي الجماهير ويقظتهم .

الاشكال النضالية للانتفاضة : تنوعت الاشكال النضالية للانتفاضة بتنوع وتفاوت الاساليب النضالية للقوى التي شاركت بها ، كما تنوعت هذه الاشكال على ضوء الخبرة المستفادة من الانتفاضتين السابقتين . لقد تدرجت الانتفاضة من عرائض الاحتجاج والاستنكار التي رفعتها المجالس البلدية والقروية والغرف التجارية ، الى التظاهر والاضراب واقامة المتاريس واشعال اطارات المطاط ، الى الهجوم على جنود العدو والاشتباك معهم بالايدي والعصي. اضافة الى الاعتصام في المدارس والمساجد. ولكن الشكل الارقى للانتفاضة والذي ساد هو اقامة المتاريس والاشتباك مع جنود العدو ، وهذا ناتج عن اشتراك جماهير الشغيلة والحرفيين والفلاحين في الانتفاضة . ان كون الحي اصبح مركز الانتفاضة بدلا من المدرسة فرض تطورا في الاشكال النضالية ، فالحي احيانا عبارة عن زقاق طويل او مجموعة من الازقة ،مما يجعل بالامكان الاشتباك مع جنود العدو بفعالية . وهنا شاركت الامهات وربات البيوت في الاشتباك سواء برمي قوارير الزهور على الجنود او بسكب الزيت المغلي على رؤوسهم ، وان لم يتوفر الزيت ـ لغلائه ، فسطل من الماء المغلي . ان اشعال اطارات الكاوتشوك لم يعد وسيلة لالهاب حماس الجماهير فقط ، بل اصبح عملية نضالية قائمة بذاتها ، ذكر شاهد عبان « ان السلطات الاسرائيلية المحتلة دهشت لهذا الاستخدام المنظم والمكثف لاطارات المطاط المشتعلة ، فقامت بجمع الاطارات من مدينة نابلس بسيارات ورمتها في وادي الباذان الذي يبعد عن المدينة نحو ١١ كم ، ولكن الجماهير قامت بتهريب اطارات المطاط خلال الليل ، وفي اليوم التالي التهبت الشوارع والازقة بالاطارات المشتعلة » ولمقاومة ذلك ، فرضت السلطات المحتلة

غرامة باهظة على كل شخص يوجد لدبه اطار ، وعلى كل حانوت يشتعل امامه اطار . ولكن . . . الارض تنبت نارا او كما قال جندي صهيوني « ان الجماهير تزرع النار ايضا » .

اضافة لذلك فان هذه الانتفاضة ابرزت نوعا من التنظيم افتقدته الانتفاضتان السابقتان ، او لم يكن بارزا بشكل واضح فيهما . روى شاهد عيان : ان الاشتباك مع جنود العدو لا يتم بشكل عفوي او عشوائي ، بل هناك عملية تنظيم تجري لهذا الاشتباك بدءا من اختيار مكان المتراس ، وتنظيم مجموعات تختفي ثم تظهر لقذف الجنود بالحجارة ، وانتهاء باختيار العناصر الشابة والقوية لمهاجمة جنود العدو والالتحام معهم بالايدي .

اساليب العدو في قمع الانتفاضة : امتازت اساليب العدو واجراءاته في قمع الانتفاضة بشدتها وقسوتها . فالامر لم يقتصر على استخدام القنابل الدخانية المسيلة للدموع والضرب والاعتقال بل تعداه الى اطلاق الرصاص على المتظاهرين واحيانا اجتياح المتظاهرين الذين لم يفرقهم الرصاص بآلياته ومجنزراته ، مما ادى الى استشهاد وجرح اعداد كبيرة من المتظاهرين . اضافة الى هذه الاساليب الفاشية ، والتي ما زادت الجماهير الا عنفا ، لجأ العدو الى اساليب اخرى لحصر وتطويق الانتفاضة من هذه الاساليب :

١) محاولة الضغط على اصحاب الفعاليات الاقتصادية عن طريق التهديد باغلاق الجسور مع الضفة الشرقية ، او باقفال المتاجر لفترة طويلة اذا لم تفتح ، «٢» التوجه الى المجالس البلدية والقروية واعضاء الغرف التجارية ، وتهديدهم بانهم اذا لم يهدئوا الوضع في مدنهم وقراهم ، فانهم سيتحملون مسؤولية ما يجري ، ولكن الانتفاضة كانت قد تجاوزت هذه المجالس بكثير ، «٣» فرض حظر التجول على عدد من المدن والقرى ، لتجويع السكان واجبارهم على الهدوء ، «٤» التهديد باغلاق المدارس ، وقد جرى اغلاق عدد من المدارس . «٥» التشدد في فرض الغرامات الباهظة على المعتقلين ، وعدم اللجوء الى الحبس الا نادرا ، واعتماد الغرامات التي لا تقل اي منها عن ٥٠٠٠ ليرة اسرائيلية . ورفض العدو استبدال الغرامة بالحبس كما كان يجري سابقا ، وتهديد كل من لا يدفع الغرامة بالحجز على اثاث بيته . والحجز على اثاث البيت ، ليس بهدف بيعه واستحصال الغرامة ، بل بالاستيلاء عليه. لان العدو يعرف ان احدا لن يتقدم لشراء الاثاث المصادر ، لان الجماهير ستدين وتقمع اي شخص يقوم بذلك . والسؤال هنا ، **لماذا هذا التشدد في فرض الغرامات الباهظة ؟** ان العدو يدرك مدى الترابط الاسري والعائلي لدى الفلسطينيين ، ويدرك ان مصادر دخل معظم العائلات في ارضنا المحتلة محدود ، ورب العائلة الذي يضطر ان يدفع غرامة كبيرة كهذه عن ابنه او ابنته ، سيعاني العوز والفاقه ، مما يعني ان دفع الغرامة سيكون على حساب الاسرة برمتها . وفي هذه الحالة يعتقد العدو ،انه بفرض هذه الغرامة الباهظة والاصرار على دفعها ، يقلب افراد العائلة ضد الابن او الابنة ، او اي شخص آخر من العائلة تسبب في الغرامة ، ويدفعها للضغط عليه لايقاف نشاطه . وهذا قد يجعل الانسان يعيش في حالة صراع بين واجبه الوطني وواجبه تجاه افراد عائلته ، مما يجعل حركته مضطربة ، وفيها شيء من الحذر . والغرامة بهذا الشكل نوع من العقاب الجماعي ، لتحميل آخرين نتائج اعمال لم يقوموا بها . ولكن ، ان اسلوبا كهذا سيرتد الى نحر العدو ، فقد يحدث في البداية ان الاسرة تلوم هذا الفرد على ما سببه لهم ، الا انها ستدرك في النهاية ان السبب

هو الاحتلال ، وبالتالي تنتقل الثورة الى قلب البيت والى جميع افراد الاسرة . ان استخدام العائلة كوسيلة للضغط لم تجد فتيلا، بدليل ان الانتفاضة استمرت ، ولقدبلغ عدد المعتقلين خلال شهر واحد ٢٠٢٥ معتقلا ، بقي محتجزا منهم نحو ٩٠٠ ، ومعظم الباقين غرموا بغرامات كبيرة . وفي يوم واحد اصدرت محكمة عسكرية في بيت لحم احكاما على ٤٤ طالبا برأت خمسة منهم وغرمت الـ ٣٨ الباقين بغرامات بلغت ٥٠٠٠ ليرة اسرائيلية لكل منهم، ومنحت ذويهم مهلة ثلاثة ايام للدفع«٣٩» . لقد كانت الغرامة تفرض على اطفال لم يتجاوزوا الثانية عشرة من عمرهم . وهذا يدل على رعب العدو من الانتفاضة .

ماذا غاب عن الانتفاضة ؟ ان روعة الانتفاضة يجب ان لا تحول دون رؤيتنا لبعض الظواهر التي غابت عنها ، حتى يمكن معالجتها مستقبلا ، واولى هذه الظواهر، **غياب غزة** عن الاشتراك الفعلي في الانتفاضة. وهذه ظاهرة برزت خلال انتفاضة تشرين ،كما برزت في هذه الانتفاضة على الرغم من استمرارها هذه الفترة الطويلة ، وعلى الرغم من وجود مجموعة من العوائل التي حركت الانتفاضة واكسبتها المزيد من الزخم السياسي والجماهيري . لقد كان التحرك الوحيد في غزة ، هو التظاهرة التي جرت يوم ١٩٧٦/٣/٢٤ ، وقد تمت هذه التظاهرة ، ولم ينتج عن قمعها اية مضاعفات تدفع بألهاب الجماهير في قطاع غزة . وبتقديرنا ان هذا الغياب المؤقت لجماهير هذا القطاع . يعود لعدة اسباب فيها (١) أن الظاهرة العسكرية في قطاع غزة كانت ابرز ظواهر المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني الاسرائيلي منذ بداية الاحتلال في العام ١٩٦٧ . وبسبب سيادة الظاهرة العسكرية ، غاب الدور الفاعل للتحركات السياسية في القطاع ، وبنفس الوقت اهتمت منظمات المقاومة خلال السنوات الماضية بتنمية هذه الظاهرة وسيادتها ، دون ان تعمل على دعمها بتنظيمات سياسية تزج بأوسع الجماهير في المعركة . لقد مرت فترة على قطاع غزة ، ولا سيما خلال سنتي ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ، كان الفدائيون يسيطرون خلالها على قطاع غزة ، لدرجة ان موشيه ديان ، وصف وضع غزة في العام ١٩٦٩ بأنها « مدينة يحكمها الفدائيون خلال الليل » .وبعد هزيمة المقاومة في الاردن ، ركزت السلطات الاسرائيلية المحتلة جهودامكثفة لضرب المقاومة العسكرية في القطاع ، فحشدت قوات كبيرة في القطاع المتابعة ومطاردة الفدائيين ، وبنفس الوقت سارعت في انهاء ظاهرة المخيم في القطاع ، عن طريق مشاريع الاسكان وربط المخيمات بالمجالس البلدية في القطاع ، كما قامت بفتح الطرق والشوارع الواسعة وسط المخيمات لتسهيل مطاردة وملاحقة الفدائيين . وحقق العدو الاسرائيلي نجاحات لا بأس بها في هذا المجال ، في وقت كان الوضع السياسي شبه راكد في معظم المناطق المحتلة . لقد تعرض القطاع خلال السنوات الماضية لاجراءات قمعية قاسية حدت من قدرة الفدائيين على الحركة ، مما اثر على التحرك السياسي العام للسكان هناك . (٢) تمتلك الحركة الوطنية في الضفة الغربية تراثا نضاليا تكون من خلالها النضالات الجماهيرية التي خاضها سكان الضفة ضد الهاشميين قبل الاحتلال ، في حين أن الحركة الوطنية في قطاع غزة ، ابان الادارة المصرية قبل الاحتلال ، لم تكن تمتلك مثل هذا التراث . فبعض اطراف الحركة الوطنية هناك مثل حركة القوميين العرب ، كانت قريبة الى الحكم المصري ، وكانت مؤيدة له . في حين ان بعض اطرافها الاخرى ، التي كانت معارضة للحكم المصري ، مثل الحزب الشيوعي ، كانت ضعيفة وتعرضت لعمليات سحق مبكرة من قبل الادارة المصرية ، ولهذا امتاز القطاع ابان الاحتلال الاسرائيلي بقوة تنظيماته العسكرية وبضعف تنظيماته السياسية . وهذا جانب لا بد لمنظمات المقاومة العاملة في القطاع ، أن توليه اهتمامها وعنايتها بتنمية اشكال العمل السياسي بين

جماهير القطاع اضافة الى العمليات العسكرية . ان القذف بعدة محرضين وسط التجمعات السكانية وفي المدارس ، كبداية ، سيساعد كثيرا في تحريك الحالة السياسية الراكدة في قطاع غزة . وثاني هذه الظواهر ان **الشعار السياسي خلال الانتفاضة** لم يكن بمثل وضوحه خلال انتفاضة تشرين الثاني . فعلى الرغم من ان معارضة الاستيطان الصهيوني كان هو الشعار الابرز خلال الانتفاضة ، ولا سيما في انتفاضة عرب الجليل والمثلث ، فأن دخول عوامل اخرى وظروف سياسية جديدة على الانتفاضة كان يفرض تطوير الشعار السياسي بما يتلاءم وما يحدث من تطورات . مثلا ، كان يبدو ان الانتفاضة وليس لها ادنى علاقة بالانتخابات البلدية التي ستجري قريبا . فلم ترفع شعارات لا مع ولا ضد . وهذا عائد بشكل اساسي الى ان قيادة المنظمة لم تحدد موقفا معلنا من الانتخابات معها او ضدها . وبالتالي فأن الجماهير كانت شبه مبلبلة ازاء هذا الموضوع ، وهذه ملاحظة اكد عليها اكثر من شاهد عيان عاش الانتفاضة وتابعها . ان الشعارات التي كانت تطرح ، اما شعارات قديمة جرى تطويرها على ضوء التطورات الجديدة « مثل ابو عمار لا تعبس بدك جيش منلبس » وكانت سابقا « عبد الناصر لا تعبس بدك جيش منلبس » أو شعارات عامة لا تعبر عن مدلولات سياسية محددة ، بعكس الانتفاضتين السابقتين ، حيث طرحت خلالهما شعارات محددة . اضافة الى ذلك فأن المنشور السياسي والكتابة على الجدران ، كاسلوبين من اساليب التحريض والتعبئة الجماهيرية كانا غير بارزين خلال الانتفاضة . ان تحديد الشعار السياسي ، ذي المدلولات السياسية المحددة خلال اي انتفاضة شعبية ، مهم واساسي ، لانه يزج بأوسع الجماهير حول قضية محددة ، اضافة الى انه يعطي للانتفاضة افقا محددا ، بدل ان تضيع في متاهة الشعارات العامة وغير المحددة . وثالث هذه الظواهر ان **اشكال التعبئة الجماهيرية** كانت متخلفة عن المستوى الذي بلغته الانتفاضة ، وعن مستوى حماس الجماهير واندفاعها . ان الحالة الجماهيرية ، زخمها ، عمقها ، اتساعها ، تفرض اشكالا معينة من العمل التنظيمي والتعبوي للجماهير ، وفي حالات كثيرة تكتشف الجماهير اشكالا جديدة بعفويتها وتكرسها من خلال النضال . ويمكن القول على ضوء ما ورد من تقارير وما رواه شهود عيان عن الانتفاضة ، أن اشكالا من العمل النضالي والسياسي متقدمة عن السابقة بدأت تتبلور الان وسط الجماهير ، ان بشكل جنيني . فتنظيم مواجهة قوات العدو داخل الاحياء هي شكل متقدم من العمل ، ولكن انتقال مركز الانتفاضة الى الحي بدلا من المدرسة ، يتطلب ايجاد اشكال من العمل تنظم كل جمهور الحي بفئاته المختلفة ، وهذا يفرض قيام لجان للاحياء ، وكذلك لجان في المدارس والقرى ، وربطها مع بعض ما امكن ، حتى يتم الانتقال بالانتفاضة الى مرحلة ارقى ، من الطابع العفوي شبه المنظم ، الى الطابع المنظم . أن تطور اساليب القمع التي ينتهجها العدو تفرض تطورا في اشكال مواجهة هذه الاساليب ، وهو تطور قد يفرض نفسه تلقائيا ــ احيانا ــ ولكن لا بد من جهد فاعل بهذا الاتجاه .

[٣]

آفاق المستقبل

ان الانتفاضة الشعبية ، اي انتفاضة ، لا تكتسب قيمتها واهميتها الا من افقها السياسي . وهذا الافق يرتبط دائما وباستمرار بقضية محددة ، بموضوع محدد ، قد لا يكون واضحا بما فيه الكفاية في بداية الانتفاضة ، ولكنه يأخذ في الوضوح والتبلور اكثر فأكثر خلال الانتفاضة . في البداية ، قد لا تتمكن القيادات من تحديد مدى

الانتفاضة وزخمها ، وبالتالي يصيبها شيء من التردد في تحديد افق الانتفاضة السياسي وشعاراتها السياسية . ولكن مع استمرار الانتفاضة ، واشتراك المزيد من الجماهير فيها ، لا بد من تحديد الافق السياسي لها ، عبر شعارات سياسية محددة تتلاءم والمدى الذي بلغته الانتفاضة ، تلتقطها الجماهير وتستوعبها وتناضل من اجلها ، والا فان نضالات الجماهير قد تبدد في متاهات عديدة ، وتفقد زخمها السياسي ، مما يسهل على العدو ضربها وسحقها . والانتفاضة الشعبية التي تعم فلسطين المحتلة الان ومنذ اشهر ، تطرح على كل التيارات الوطنية امرا في غاية الاهمية ، وهو ماذا نريد من الانتفاضة ؟ ما هي الافاق المفتوحة امامها ؟ كيف نعمل على تطويرها ودفعها خطوات اكبر الى الامام ؟ هل نكتفي بالدعاية لها ، والاشادة بجماهيرنا في الارض المحتلة ، ام ان واجبنا اكبر من ذلك بكثير ؟ أن هذه الاسئلة وربما اخرى غيرها لا بد من الاجابة عليها ، ولا يمكن في هذا المقال الاحاطة بكل هذه الاسئلة ، وكبداية اطرح بعض التصورات والاقتراحات ، على أمل أن تشكل مدخلا او نافذة نلج منها الى هذا الموضوع الكبير والهام .

لقد طرحت الانتفاضة ، جملة من الحقائق ، قد تكون بديهية ، ولكن لا بد من التأكيد عليها حتى لا تغيب عن الذهن . وهذه الحقائق هي (١) ان المقاومة ليست عمليات عسكرية محضة ، بل هي فعل جماهيري ، هي احداث اقوى التأثيرات في اوسع الجماهير وزجها في المعركة . هي تجنيد وتعبئة الجماهير من كل الفئات الوطنية عبر اشكال من العمل التنظيمي والسياسي والعسكري ، مختلفة ومتفاوتة . ومن هنا تكتسب العمليات العسكرية عمقها وفعلها في اوساط الجماهير . وفي هذا المجال لا بد من التذكير بالوضع الذي يعيشه قطاع غزة الان ، على الرغم من انه قبل سنتين ، كان يمثل — عسكريا — حالة متقدمة . (٢) لقد اكدت الانتفاضات المتتالية في فلسطين المحتلة ، ان جماهيرنا هناك طاقة ، وطاقة كبيرة جدا عندما تدفعها الاحداث من الامكان الى الفعل ، من الكمون الى الحركة ، من الجمود الى النشاط . وهذه الطاقة ، تفرض علينا ان نتعلم جيدا ، كيف يجب ان نعبئها ونجندها في نضالات مستمرة وعبر سياسات صائبة . (٣) ان الجماهير لا تتحرك بنشاط وفعالية ، عبر السياسات والشعارات العامة ، فدائما وابدا تنشطها القضايا المحددة التي تتلمسها عن قرب . وترى آفاقها المنظورة او القريبة . ان الاستيطان الصهيوني في المناطق الآهلة بالسكان ، لم يثر الجماهير بنفس الفعالية والزخم الذي اثارها استيطان مناطق قريبة من التجمعات السكانية او في وسطها . وايضا قد نرى الجماهير هادئة ساكنة ، تعيش حياتها اليومية العادية بشكل عام ، ولكن حادثا صغيرا ، كاقتحام مدرسة مثلا ، او اطلاق النار على تظاهرة للطلبة ، يقضي على هدوئها ويدفعها الى ساحة المعركة بزخم . شبه راديو العدو الوضع في نابلس اثر اقتحام مدرسة قدري طوقان بأنه « عاصف جدا واشبه بكرة من الثلج تتدحرج وتجمع زخما وقوة خلال تدحرجها » (٤٠) . وهذا يعني ان انتقال الجماهير من حالة الكمون الى حالة النشاط ، امر لا يمكن التنبؤ به مسبقا في اغلب الاحيان . وهذا يفرض الاستعداد المسبق للحركة الوطنية لاستيعاب هذه الحالة وتوجيه نشاطات الجماهير الوجهة الصحيحة ، وذلك عبر تحديد اي الشعارات السياسية اكثر صوابية ، واكثرها قدرة على تحريك الجماهير واستقطابها .

على ضوء هذه الحقائق ، ماذا نريد من الانتفاضة ؟ من الواضح ان الانتفاضة ، اي انتفاضة ، لا بد من نهاية لها ، وقد لا تحقق الجماهير من هذه الانتفاضة كل ما تبتغيه ، ولكن حتما ستحقق بعض النتائج لصالحها ، أن لم يكن على المدى القريب

والمباشر ، فعلى المدى الاستراتيجي . وانتفاضات الجماهير داخل الارض المحتلة ، تظل متأثرة بما تواجه الثوره الفلسطينية خارج الارض المحتلة ، وما يسود من ظروف سياسية في المنطقة العربية . وبالتالي فأن فعل الانتفاضة وامكاناتها تظل محكومة — نسبيا — بهذه العوامل ، فمثلا تطور الانتفاضة الى نوع من العصيان المدني الشامل وشبه المسلح لا يمكن الوصول اليه الا بوصول الثورة الفلسطينية الى مرحلة تصبح فيها قادرة على فرض الاندحار الكامل للعدو وطرده من الارض المحتلة بدون قيد او شرط . ودفع الامور داخل الارض المحتلة بهذا الاتجاه قبل وصول الثورة الفلسطينية الى هذه المرحلة من النضال ، يكون بمثابة مغامرة ، ونوعا من الانتحار للانتفاضة . اذن طالما لم تبلغ الثورة الفلسطينية هده المرحلة ، فأن الانتفاضة تفعل وتؤثر ضمن حدود ولخدمة غايات واهداف يمكن تحديدها بما يلي :

١) الابقاء على حالة من التحفز الجماهيري داخل الارض المحتلة ، تبقي الجماهير في حالة من الحركة السياسية ، وتجعلها مستعدة لمواجهة اي تطور في الاوضاع ، فالتحرك السياسي النشط بين فترة واخرى ، والذي سيقابل باجراءات قمعية من العدو ، يحول دون العودة الى الحياة اليومية العادية ، ويبقي الجماهير في حالة من الترقب والاستعداد للحركة النشطة (٢) تكثيف الخبرة السياسية والنضالية الجماهيرية ، وتكريس هذه الخبرة كتراث نضالي توظفه الجماهير وتستفيد منه في نضالاتها القادمة بناء على خبرتها الخاصة . ٣) مواجهة مشاريع العدو المختلفة ، من استيطان ومشاريع ادارة ذاتية وغيرها ، وتحريك اوسع الجماهير ضد هذه المشاريع (٤) مواجهة سياسات النظام الهاشمي في الارض المحتلة ، بتعبئة اوسع الجماهير ضد سياسات الالحاق الهاشمية ، وبملاحقة عملاء النظام الهاشمي ومطاردتهم وعزلهم داخل الارض المحتلة . وتقديري ان هذه المهمة ستصبح هي المهمة الاساسية للجماهير في الداخل خلال الفترة القادمة ، وذلك على ضوء ما يجري من ترتيبات واتصالات لاستعادة النظام الهاشمي سيطرته على الضفة الغربية عبر تسوية مع العدو الاسرائيلي . ولم يكن صدفة مثلا مهاجمة المتظاهرين في الخليل لمكاتب جريدة « القدس » ومحاولة احراقها ، ذلك ان الجريدة المذكورة معروفة بصلاتها مع النظام الهاشمي ، وانها المنبر الاعلامي لعملاء النظام الهاشمي داخل الارض المحتلة . (٥) اعداد الجماهير اعدادا ثوريا لانتفاضة شاملة وشبه مسلحة في مرحلة لاحقة من النضال .

ان هذه المهمات والاهداف ، تفرض الارتقاء بنضال الجماهير عبر الارتقاء باساليب واشكال تنظيمها ونضالاتها . وكبداية يصبح من الضروري تنمية البدايات الجنينية التي برزت مع الانتفاضة في تشكيل لجان الاحياء والمدارس والقرى ، وصيرورة هذه اللجان الشعبية اطرا لتعبئة وتجنيد اوسع الجماهير في حالات شبه الهدوء وحالات الحركة النشطة ، كذلك يصبح من الضروري التوجه لقيام نوى لاتحادات نقابية ومهنية سرية تتطور وتفرض نفسها من خلال النضال ، كما يصبح من الضروري الاهتمام بالمنشور السياسي والنشرة السياسية كوسائل لتربية الجماهير وتثقيفها سياسيا .

ايام للنضال : اضافة الى ذلك فأن النجاح الذي لاقاه يوم الارض في ال ٣٠ من اذار الماضي ، يجعل الثورة الفلسطينية تقدم بلا وجل على تحديد ايام اخرى للنضال ، تكون بمثابة ايام نعبىء ونحشد من خلالها جماهيرنا في اماكن تجمعاتها المختلفة ، ونكرس من خلالها تقاليد ثورية تحييها جماهيرنا كل عام . وفي هذا المجال اقترح

ان يتم تحديد **يوم للمراة الفلسطينية ، ويوم للعامل الفلسطيني ، ويوم للطالب الفلسطيني ، ويوم للفلاح الفلسطيني** . ويكون كل يوم من هذه الايام بمثابة تظاهرة وطنية نحيي فيها نضالات جماهيرنا بفئاتها المختلفة . ان تكريس هذه الايام كأيام للنضال ستزود جماهيرنا بالمزيد من القوة ، والمزيد من الحماس والاندفاع في خدمة قضيتنا الوطنية .

---

١) **فلسطين الثورة** بتاريخ ١٩٧٦/٤/٤

٢) **السفير** بتاريخ ١٩٧٦/٣/٣١

٣) المصدر نفسه .

٤) **النهار** بتاريخ ١٩٧٦/٤/١ .

٥) **اليوميات الفلسطينية** للعام ١٩٦٩ ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية المجلد ٩ ص ١٧٧ و ١٧٨ .

٦) نشرة رصد اذاعة اسرائيل ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٢ ص ٣٤١ و ٣٤٧ .

٧) ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٩ ص ٦٠٨ .

٨) المصدر نفسه ص ٦٠٩ .

٩) ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٦ ص ٥٣٨ .

١٠) ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٤ ص ٤٦٣ و ٤٦٤ .

١١) ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٦ ص ٤٩٤ .

١٢) **فلسطين الثورة** بتاريخ ١٩٧٦/٢/٢٢ .

١٣) « **التايمز** » بتاريخ ١٩٧٦/٣/١٧ .

١٤) **الغارديان** بتاريخ ١٩٧٦/٣/١٨ .

١٥) **الاتحاد** بتاريخ ١٩٦٩/٢/٢٨ .

١٦) كارل ماركس ، **النضال الطبقي في فرنسا ١٨٤٨ - ١٨٥٠** ص ١٦٦ .

١٧) للمزيد من التفاصيل حول اسباب التفاوت في الحالة النضالية بين قطاع غزة والضفة الغربية ، انظر : **المقاومة الفلسطينية في الارض المحتلة** ، من منشورات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، آب ١٩٧٠ .

١٨) **اليوميات الفلسطينية** للعام ١٩٦٩ مجلد٩ ص ١٣٣ .

١٩) المصدر نفسه ص ١٦٣ .

٢٠) المصدر نفسه ص ٢٠٠ .

٢١) المصدر نفسه ص ١١١ .

٢٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ .

٢٣) المصدر نفسه ص ١٤٨ .

٢٤) لينين ، **المختارات** ، **مجلد** ج٢ ص ١١٠ .

٢٥) المصدر نفسه ص ١٦٧ .

٢٦) المصدر نفسه ص ١٦٧ .

٢٧) ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٦ ص ٥٢٩ . .

٢٨) ر١٠٫١٠ العدد ٦٨٨ ص ٥٧٨ .

٢٩) المصدر نفسه ص ٥١١ .

٣٠) **عشرة ايام هزت الاحتلال الصهيوني** ، منشورات دائرة الاعلام والتوجيه القومي في منظمة التحرير الفلسطينية ص ٦٧ .

٣٢) **اليوميات الفلسطينية** للعام ١٩٦٩ مجلد ٩ ص ١٩٦ .

٣٣) **اليوميات الفلسطينية** للعام ١٩٦٨ مجلد٨ ص ٤٩٩ .

٣٤) **النهار** بتاريخ ١٩٧٥/١٢/٩ .

٣٥) ر١٠٫١٠ العدد ٩٦٤ ص ٢٥٧ .

٣٦) **الغارديان** في ١٩٧٦/٣/١٩ .

٣٧) ر١٠٫١٠ العدد ٩٩٤ .

٣٨) المصدر نفسه .

٣٩) المصدر نفسه .

٤٠) ر١٠٫١٠ العدد ١٠١٠ ص ١٩٤ .

الانتفاضة الكبرى

شهادات . دروس . آفاق

[ندوة]

اشترك فيها :
الدكتور احمد حمزة
الدكتور الياس شوفاني
عربي عواد
الدكتور عبد العزيز الحاج احمد
عبد الجواد صالح
احمد خليفة
محمود سويد

الضفة الغربية : كانت الانتفاضة شاملة جغرافيا وبشريا

الدكتور احمد حمزة :

احب اولا ان اقدم الاسباب الذاتية للانتفاضة . منذ الاحتلال وشعبنا في الارض المحتلة مستمر في النضال . ولكن مرت المعركة خارج اطار هذه الاستمرارية بشكل تميز احيانا بعنف النضال ، وسمينا هذه بالانتفاضات. اهم هذه الانتفاضات التي حدثت في الضفة الغربية بشكل موجز ، الانتفاضة الاولى جاءت بعد حرب اكتوبر ، بعد زلزال اكتوبر ، وما احدثه هذا الزلزال في نفوس الشعب العربي الفلسطيني في الداخل والخارج ، وخصوصا في الداخل فتلا هذه الحرب انتفاضة كلكم تعرفونها ، كانت مي اواخر سنة ١٩٧٣ . وعلى اثرها ابعد بعض الاخوان مثل الاخ عبد الجواد صالح ، كانت اسباب هذه الانتفاضة اسباب خارجة عن المناطق المحتلة ، هي انتصار حركة التحرر العربي وانتصار الثورة الفلسطينية في الخارج . الانتفاضة الاخرى كانت بعد بروز الشخصيه الفلسطينية والانتصارات التي حققتها الثورة الفلسطينية فيما بعد والتي تتوجت في مؤتمر الرباط وخطاب الاخ ابو عمار في هيئة الامم المتحدة. هذه ايضا اعطت دفعة لشعبنا العربي الفلسطيني في ارضنا المحتلة فقام بمظاهرات واضرابات ، وكانت تتميز هذه الحركة بتأييد الشعب العربي الفلسطيني في داخل المناطق المحتلة لمنظمة التحرير الفلسطينية واعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني . هذا مثل من الانتفاضات السابقة . الانتفاضة الحالية حصلت في ظروف

اخرى . هذه الظروف منها الظروف الذاتية في الاراضي المحتلة ، وطبعا لا نستطيع فصل الانتفاضة عن ظروف اخرى خارج المناطق المحتلة . لكن الدوافع المباشرة التي ادت الى الانتفاضة كانت بالاساس دوافع ذاتية فبدأت الانتفاضة بشرارة محاولة المستوطنين الصهاينة الاستيطان في سبسطية فقامت مظاهرات واضرابات في مدينة نابلس ، عنيفة جدا ، في اواخر العام الماضي ، كانت محصورة وبقيت محصورة في الشمال وخاصة في مدينة نابلس . ففي هذه الفترة تمكنت السلطات الاسرائيلية وبمساعدة بعض المسؤولين المحليين من حل القضية بالتي هي احسن . فوجدوا حلا وهو الغاء الاستيطان في سبسطيه ونقل المستوطنين الى معسكر كفرقدوم . فكان هذا بمثابة تفكيك للرأي العام في الشمال . ولكن الغليان ظل قائما ولم ينس الناس الاستيطان . كانوا يعلمون ان الاستيطان يبدأ بالتدريج ، وبطرق ملتوية ، مثلما حدث في مدينة الخليل . فقبل انشاء كريات اربع ، ارسل الصهاينة الى مدينة الخليل السواح في فندق ثم نقلوهم من الفندق الى السلك عند الحاكم العسكري وبالتدريج توصلوا الى بناء كريات اربع . فالناس تعلموا من مكر العدو ولم يكونوا مطمئنين . الا ان قضية الاستيطان جاءت قبل عيد الاضحى المبارك وكانت الظروف لا تسمح بالاستمرار ولكن في اوائل العام الحاضر حدثت امور اخرى منها الفيتو الاميركي في مجلس الامن الذي كان له ردود فعل كبيرة في المناطق المحتلة . وتبع ذلك قرار محكمة الصلح في القدس بالسماح لليهود باقامة صلاتهم في الحرم الشريف في القدس، وكانت هذه الشرارة التي اشعلت الحركة في القدس ، فبدأت بالاضرابات ثم المظاهرات والاعتصامات وطبعا كانت سلطات الاحتلال تقابل هذه الحركة باعمال قمعية ، تتناسب مع قوة الحركة النضالية . ومن القدس انتقلت الى نابلس ومن نابلس الى منطقة رام‌الله والبيرة ثم الى اريحا ، جنين ، طولكرم ، قلقيلية ، الخليل ، بيت لحم ، وشملت جميع المناطق بما فيها قطاع غزة . وهكذا نرى انه من الشرارة التي حدثت في القدس امتدت الاضرابات والاحتجاجات الى جميع المناطق المحتلة . فاذن هذا اول شيء ممكن التأكيد عليه وهو ان الانتفاضة كانت شاملة ، شملت جميع المناطق من الشمال الى الجنوب . النقطة الاخرى ، وهي ان النضال لم يقتصر على فئة من الفئات وبقيت الفئة الاخرى متفرجة مثلما كان يحدث في بعض المرات . ففي السابق كانت المدارس تغلق وبعض التجار يغلقون محلاتهم وبعض الشباب والعمال يشاركون بالمظاهرات الطلابية ، ولكن في هذه المرة كانت القضية مختلفة . الانتفاضة شملت جميع القطاعات الاجتماعية في الضفة الغربية . كانت السلطات الاسرائيلية تصور القصة دائما وكأنها قصة اولاد يغلقون مدارسهم وينزلون الى الشوارع ، اي كانت تلغي العامل الوطني وتصور القضية وكأنها قضية اولاد لا يودون الدراسة ، ولكن ذلك كذب ونفاق . الانتفاضات ، كل الانتفاضات كان يشارك بها قطاعات كبيرة من الشعب ولكن الانتفاضة الاخيرة ساهم بها كل القطاعات بدون استثناء ، الطلاب ، العمال ، التجار ، الموظفين ، معلمو المدارس كانوا مشتركين ايضا . وهذا يمكن اثباته ببعض الامثلة . مثلا عندما حدثت الاصطدامات بين قوات القمع الاسرائيلية وبين المتظاهرين، نأخذ نوعية الذين قتلوا ، ونوعية الذين جرحوا .فالى حين ابعادنا كان هناك شهداء، الشهيد الاول طفل عمره ١١ عاما ، والشهيد الاخر من سلفيت، مثقف ، عمره حوالي ٤٥عاما وكان على رأس المظاهرات ، واخذ من المظاهرات وضرب ثم نقل الى مدينة طولكرم وتوفي على اثر الضرب . في البداية قالوا انه اصيب بنوبة قلبية ولكن ثبت على اثر التشريح انه توفي على اثر الضرب الوحشي الذي تعرض له من قوات الاحتلال . الشهيد الاخر ، حميدان اسعد ابو رميلة من الخليل ، بائع فلافل ، عمره ٣٤ سنة ، وانا اعرفه شخصيا حيث كنت ابتاع من عنده فلافل . ومن ناحية اخرى ، هناك نوعية المجروحين . فقد كنت

في مستشفى بيتجالا وكان هناك حوالي ٨ الى٩ مجروحين ، كان هناك طلاب ، لكنهم كانوا اثنين فقط ، والبقية كانت عمالا ومثقفين ، من بينهم عامل جرح في نفس المكان الذي قتل فيه الطفل عفانة ، عمره حوالي ٣٠ سنة ، وكان مصابا برصاصة في راسه ومن بين المجروحين كان رئيس النادي الارثوذكسي في بيت ساحور ، وكذلك كان هناك شاب عمره ٣٥ عاما ، ومن بين المجروحين هناك تجار . هذه الامثلة تدل على ان الانتفاضة لم تقتصر علىفئة معينة من الناس وانما شملت كل الناس. فهي اولا كانت شاملة كل الضفة الغربية وثانيا كانت شاملة بالنسبة للفئات التي اشتركت في الانتفاضة . من ناحية اخرى ، وهو ما تحدثت عنه في البداية ، كانت هناك اسباب ذاتية . الاسباب الذاتية هذه كانت كلما تصاعد النضال ، يضاف اليها شعارات اخرى . بدأت بالاستيطان في سبسطيه ،ثم تغير الشعار واصبح ضد الاستيطان وبعد ان رفع شعار ضد كل الاستيطان الجديد ، رفع شعار اخر ، الغاء المستوطنات القديمة ، فلاول مرة في الخليل مثلا ، وبعد الدور القذر الذي لعبه المستوطنون في الخليل بمساعدة سلطات الاحتلال في قمع المظاهرات ، ظهر تماما ان هؤلاء لا يريدون السكن فقط وانما جاؤوا للقيام باعمال عدوانية ، فظهر شعار جديد لاول مرة في الخليل نريد ابعاد المستوطنين في الخليل . وفعلا اضطرت الحكومة الاسرائيلية بقرار ان تمنع الحاخام ليفنجر من دخول مدينة الخليل. وهذا دليل على ان قضية الاستيطان انتقلت من سبسطيه الى نضال ضد كل الاستيطان ، ومن ثم الغاء الاستيطان . اثناء النضال ظهرت ايضا شعارات اخرى ، شعارات المعتقلين . فعندما كانوا يعتقلون الناس اثناء المظاهرات ارتفعت الاصوات التي تندد بالاعتقالات والغرامات الباهظة التي كانت تفرض على الناس ، والاحتجاجات على الاعمال الوحشية التي كانت تقوم بها سلطات القمع . وهناك مثل في مدينة الخليل بالذات حيث اعتدوا على القاضي الشرعي في المدينة وضربوه ، واضطر بيريز نفسه ان يعتذر الى القاضي بما ان كل الصحافة كتبت واستنكرت الاعتداء على القاضي الشرعي الذي يمثل شيئا في الخليل، لا لانه الشيخ بيوض ولكن لانه يمثل رمزا امام الناس في مدينة الخليل . ارتفعت شعارات اخرى ، اطلاق سراح المعتقلين الاداريين الذين كانوا منسيين . هناك شعارت ذاتية وانية ومؤقتة لكن مدلولها هو سخط الناس على الاحتلال ورغبتهم في الخلاص من هذا الاحتلال . وهناك نقطة اخرى ظهرت اثناء الانتفاضة ، هتافات تأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية ، رفع الاعلام الفلسطينية ، الهتاف بحياة ابو عمار كرمز لحركة الفلسطينية ، لمنظمة التحرير الفلسطينية . هذه الاسباب الذاتية للانتفاضة هناك اسباب اخرى موضوعية وعامة مثل الانتفاضات الاخرى ، ولكن الانتفاضات الاخرى كانت تحدث عندما كانت حركة التحرر العربي في مد ، بعد حرب اكتوبر ،وبعد الانتصارات التي حققتها الثورة الفلسطينية ، اما هنا فقد كان شعبنا العربي الفلسطيني في الداخل يعبر عن سخطه واستنكاره لجميع السلبيات التي تحدث في الخارج . ما يحدث في مصر ، لم يكن غريبا عن الانتفاضة لان الاتجاه الخطر الذي اخذه السادات اثار السخط والاستنكار ، هذا الاتجاه كان خطرا على حركة التحرر العربي وعلى الثورة الفلسطينية بالذات . وكذلك التقارب السوري ــ الاردني الذي تثار حوله عدة علامات استفهام ، ويعود ذلك لعدم الثقة بالنظام الهاشمي وكذلك الوضع في لبنان ، فالناس هناك يعلمون عن الوضع في لبنان ، وان هناك مؤامرة كما حصل في عمان في ايلول ١٩٧٠ ، امتدت الى لبنان وحيكت لضرب الحركة الفلسطينية في لبنان ، وطبعا يعلمون ان الرجعية اللبنانية هي التي تنفذ المؤامرة التي تقودها الكتائب اللبنانية . ويعلمون ايضا ان القضية ليست طائفية ، انها قضية حركة تحرر ، ورجعية تحاول ان تقضي على حركة التحرر في لبنان وايضا على الثورة الفلسطينية . كل هذه تعتبر اشياء سلبية

تلهي الفلسطينيين عن الهدف الاساسي وهو العمل في داخل الاراضي المحتلة والعمل لتحرير فلسطين . فهم يعتبرون ان كل معركة جانبية هي بمثابة حرب استنزاف للثورة الفلسطينية . هذه العوامل مجتمعة كانت من المؤثرات والمسببات للانتفاضة الاخيرة والتي لم تكن موجودة في السابق . وهناك ظرف اخر ساعد على ان تكون الانتفاضة في مثل هذا العنف ، وساعد على مشاركة كل القطاعات في هذه الانتفاضة وهو الوضع الاقتصادي في اسرائيل وهو سيء للغاية . فقد نجحت اسرائيل ولمدة تسع سنوات ، في ربط الاقتصاد في الضفة الغربية بالاقتصاد الاسرائيلي وكلما ساءت الحالةالاقتصادية في اسرائيل ، انعكس ذلك على الوضع في الداخل ، واظهر للناس المتوهمين الذين اصابتهم النشوة الاقتصادية من وراء الاحتلال ، ان كل ما ربحوه ، قد فقد مرة واحدة. فالتضخم المالي الذي حدث هدم كل ما بني خلال تسع سنوات . وقد لعب هذا العامل دورا كبيرا في تحريك التجار الذين كانوا سابقا منتفعين من الاحتلال ، فقد وجدوا أنهم متضررون تماما ، وكل ما قدم لهم الاحتلال في مدة ٨ سنوات اخذه في اشهر بواسطة السياسة الاقتصادية التي اتبعتها اسرائيل . هناك امثلة ، هناك شخص يعمل في تصنيع الادوية ومواد التجميل . يقول هذا الشخص انه بدأ عام ١٩٦٧ بعشرين الف دينار ، اما رأسماله الحالي فلا يساوي اكثر من عشرة الاف دينار . فكل عمله كان من اجل تغطية معيشته ، أما رأسماله فقد انخفض . هذا كله احدث النقمة على الوضع ، زيادة على العوامل الوطنية داخل المناطق المحتلة . هذه هي الامور التي اردت بيانها والتي تميزت بها الانتفاضة الاخيرة عن الانتفاضات الاخرى .

في الجليل : الصراع على الارض كوطن ، لا كوسيلة انتاج

الدكتور الياس شوفاني :

ليس عندي الصورة الكاملة عما قاله الدكتور احمد ،ومعلوماتنا قليلة لذلك فان كلامي سيجنح هنا نحو نوع من التنظير ولكن في تقديري (وربما يكون هذا نوعا من المبالغة البلاغية) ان انتفاضة يوم الارض في الجليل هي تشرين عرب الجليل . فعرب الجليل لم يشاركوا في حرب ١٩٥٦ ولا في حرب ١٩٦٧ ولا في حرب ١٩٧٣ ، فكان لهم تشرينهم الخاص في ٣٠ اذار ١٩٧٦ . لهذه التشرين مفاجأتها الخاصة ، كما كان لتشرين مفاجأتها الخاصة ايضا . المفاجأة كانت للعدو اولا الذي لم يكن يتوقعها ، وللعرب والفلسطينيين خارج الارض المحتلة ثانيا وللعالم ثالثا ، وربما فاجأوا انفسهم . اعتقد من الكلام الذي قيل على الراديو من مقابلات مع رئيس بلدية عرابة مع اشخاص من البوليس العربي في سخنين وفي ديرحنا، انهم كلهم فوجئوا وكلهم من ابناء هذا الشعب. المفاجأة كما في حرب تشرين ، لم تكن في التوقيت ولا في التنبيه وانما في الحجم والنوعية. ويمكن تقييم هذه الانتفاضة بانها فقرة في الصراع المستمر والمواجهة الدائمة بين الشعب الفلسطيني والمستوطنين الاسرائيليين . الصراع المستمر على الانتماء الى الارض والعلاقة بها ومعها . هذا الصراع بدأ قبل يوم الارض ولا يزال مستمرا . خلفية هذا الصراع ، يمكن ان نعتبرها نوعا من الديانة لدى الطرفين . هناك خلفية تراث يهودي طويل جدا بالنسبة للارض ، وهناك صراع كذلك بالنسبة للفلسطينيين. فالارض انتماء للوطن وانتماء للانتاج وما الى ذلك . في التراث اليهودي القديم ، الدين الذي يتميز بالغيبة والصوفية ربما ، هناك ربط للتاريخ الحي بالجغرافيا الثابتة . ومن هنا يمكن ان نلاحظ في الديانة اليهودية نوعا من الغاء التاريخ الحي خارج الجغرافيا الثابتة ، والغاء وجود الارض او تاريخ الارض ما دام سكانها ليسوا عليها .لذلك فان تاريخ اليهود خارج فلسطين مرتبط بحسابات الصهيونية المتأخرة وكأنه لم يكن هناك تاريخ ، وكأن الارض

في حقبة الـ ٢٠٠٠ سنة التي لم يسكنها اليهود ، لـم نكـن قائمة . هذا نوع من لاهوت الارض المقدسة الذي نجده في فلسفة اليهود ، وفيه طبعا طابع صوفي غريب غيبـي يتناسب مع تراث اليهود الغيبي ، والذي انعكس على الفلسفة السياسية الصهيونية، حيث الغيبية هي احدى العناصر الاساسية . من هنا فقد ترجم هذا التراث من جانب الصهاينة بالعمل على تهويد الارض ، اي ربط الارض مرة اخـرى ، ربـط التاريـخ بالجغرافيا ، في المكان الذي يعتقدون دينيا انه الاساس ، هذا الذي فعله الصهاينة من اجل تهويد الارض واقاموا من اجله رأس المال القومي الدائم من اجل استملاك الارض، على ان تكون الارض ملكا للشعب اليهودي وبذلك فان الملكية غير محددة ، كـمـا ان الشعب غير محدد ، فهذه نظرة غيبية اخرى . المفترض ان يهاجر كل اليهود الـى فلسطين ومن هنا محاولة امتلاك كل الارض لهذا الشعب اليهودي دون ملكية محـددة للافراد . من هنا نستطيع ان نفسر الجشع الفظيع بالنسبة لامتلاك الارض لانه لا يقوم على احتياجات ذاتية انيه للاستيطان . هناك اراض شاسعة في المناطق المحتلة غير مستغلة ولم تقم عليها مستوطنات ، وان اقيم عليها مستوطنات فهي خالية ، هنـاك مستوطنة ايلات مثلا وهناك مستعمرة كفرامون . ونستطيـع ان نعـدد عشرات المستوطنات الخالية من السكان ، بينما جشع اليهود في امتلاك الاراضي مستمر ، وهو نابع من النظرة الصوفية الى الارض . وهي نظرة غير محددة . اذن تهويد الارض ، اي ملك الارض للشعب اليهودي هو ركن من اركان تجسيد المشروع الصهيوني . اذن كان لا بد للكيان الصهيوني من خلق القوة السياسية القادرة على تحديد العلاقـة بين السكان والارض . كانت المتغيرات ثلاثة : الارض متغير ثابت ، والسكان في نظرهـم متغير غير ثابت ، والذي يحسم العلاقة بين المتغير الثابت وغير الثابت هو القـدرة السياسية . ومن هنا التحرك الذي قام ، اداة سياسية قادرة على تحديد العلاقة بين المستوطنين وبين الارض . من هنا طبيعة الاستيطان الصهيوني الذي هو في اساسـه استيطان استعماري اجلائي ، اي قطع العلاقة بين السكان الاصليين والارض ، لتقوم عليها علاقة جديدة بين المستوطنين الحديثين والارض المعنية . ومقابل الاستيطـان اليهودي هناك نضال الشعب الفلسطيني من اجل العلاقة بالارض ، وهو ينقسم فـي رأيي الى شقين ، هناك نضال المشردين ، المبعدين من اجل العودة للارتباط بالارض والانتماء اليها وهو نضال الثوره الفلسطينية ، واهم شعاراتها العوده . والشكـل الاخر هو نضال الباقين تحت الاحتلال من اجل المحافظة على العلاقة مع الارض ، ليس كوسيلة انتاج فحسب ، وانما كوطن ايضا . بالمقابل اتجه الكيان الصهيوني لاستعمال كافة السبل للقضاء على هذه العلاقة سواء بالاغراءات المادية ، من شراء اراض ومـا الى ذلك ، او بتطوير العمالة ، اي الشغل المأجور وبسن القوانين والمصادرة وما الى ذلك من وسائل القمع . فعملية تغيير العلاقة بين السكان الباقين والارض هي عمليـة اقتلاع جذور ، وعلى هذا الاساس يجب ان نرى الانتفاضة . انهم يحاولون منع اقتلاع جذورهم من الارض . اما الحجج الواهية التي نسمعها من الاعلام الصهيوني عن تنمية، تطوير ، الفوائد المادية التي تعود للعرب ، فكله كلام غير صحيح . المسار الصحيح بالنسبة لعرب الداخل هو استعمار كولونيالي ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، كما فسرها فرانز فانون والبير ميمي في تقييمهم لهذه العلاقة . ففي كثير من الاحيان انقلب العرب الباقون تحت الاحتلال منذ ١٩٤٨ الى مرابعين على الارض التي كانوا يملكونها وهذا هـو احد التناقضـات البارزة في مـا يسمى بالاشتراكية الصهيونية الاسرائيلية . فهم يأخذون الارض من السكان الاصليين ، ومن ثم يشغلونهم عليهـا كمرابعين لاستغلالهم هم وارضهم . اذن الفرق بين الذين طردوا والذين بقوا ، هو ان الذين طردوا انقطعت علاقتهم بالارض تماما والذين بقوا تغيرت علاقتهم بها ، بحيـث

اصبحوا مرابعين على الارض لصالح المستوطنين الصهاينة . من هنا نفهم انخفاض نسبة الفلاحين المستقلين من ١٩٤٨ الى ١٩٧٦ ؛ من ٧٥٪ الى حوالي ١٥٪ ،وارتفاع نسبة العمال المأجورين الذين كانوا فلاحين سابقا ، وكذلك ارتفاع نسبة الفلاحين الموسميين . هذا الانتقال لم يحصل بدون نضال ، ولكن هذا النضال مر باشكال ودرجات مختلفة . في البداية ، الفكرة التي كانت قاءمة عن المستوطنين ، ظل بقايا منها بين الناس الذين ظلوا في ١٩٤٨ ، فلم يأخذوهم بجدية كافية . ولذلك ففي بداية عام ١٩٤٩ كان هناك نوع من التحدي ، وانا اذكر تماما فلاحي بلدنا الذين خرجوا ليفلحوا الارض بالقوة وقد قوبل هذا التحدي بالقمع حيث اعتقل هؤلاء الناس . ثم في بداية الخمسينات كانت اسرائيل في ذهن الناس ظاهرة عابرة سوف تزول لا محالة . فلجأ الناس الى محاولات في اطار « الشرعية » وقوبلت هذه المحاولات بالاحكام العسكرية واغلاق المناطق وما الى ذلك . في اواخر الخمسينات بدأت ملاحظة أن الاحتلال ليس عابرا بهذه الصورة ولذلك يمكن التعامل معه من خلال قوانينه . ففي اواخر الخمسينات واوائل الستينات كان هناك حملة واسعة من المحاكمات من اجل الاراضي . ذهبوا الى المحاكم الاسرائيلية من اجل التقاضي مع الحكم الاسرائيلي على الارض . وقوبلت هذه باصدار قوانين خاصة تجيز الاستيلاء على الاراضي ، مثل قوانين التطوير وما الى ذلك . في الستينات كانت صورة اسرائيل في انتفاخ هائل بالنسبة لحجمها الحقيقي ولحجمها في موازين القوى في المنطقة وخاصة بعد عام ١٩٦٧ . وبالرغم من كل ذلك فقد تعود الناس على الحكم الاسرائيلي ، حيث عرفوه في نقاط قوته ونقاط ضعفه فكان هناك لجوء الى عمليات يمكن تسميتها بنصف شرعية مثل المظاهرات ، كما حصل عند بناء مدينة الرميل (؟) على ارض مشتركة لقرى الجليل الاسفل على طريق عكا صفد ، وعلى طريق الرامة الناصرة . المجموعة التي قامت بالثورة في هذه المرة هي نفسها ، الى ان انتهت بالفعل بالمرحلة الاخيرة منها في يوم الارض ، التصدي العنيف . وفي هذا التصدي العنيف يمكن ان نرى اللقاء بين عرب الجليل وبين الثورة الفلسطينية ،التصدي للمستوطنين بشكل عنيف . ما هو السياق التاريخي لهذا التصدي العنيف ؟ بالامكان بالفعل ربط اشكال التصدي لمحاولات الاستيلاء على الاراضي بالصورة التي برزت فيها اسرائيل في موازين القوى في المنطقة . كلما برزت اسرائيل قوية اكثر كلما كان هناك قبول للتعامل معها من خلال شرعيتها في نظامها . فالمراحل كانت ، ١ — مرحلة المفاجأة بعد الاحتلال ، اسرائيل قامت فالناس فوجئوا ، ٢ — مرحلة جس النبض في بداية الخمسينات لمعرفة ما هي قوة هذا الكيان ، ٣ — مرحلة التحدي عندما فرض الحكم العسكري بكل قوته ، ٤ — مرحلة التراجع الى الاطار القانوني بعد بداية ترسخ فكرة ان الدولة قائمة ، ٥ — مرحلة قمة التراجع بالفعل في اوائل الستينات وفي حرب حزيران مع النصر الاسرائيلي على القوى العربية الطليعية . بعد هذه كان اللجوء الى المظاهرات في ايام كفر برعم بتعاون مع اطراف اسرائيلية ، كأنك دخلت في عملية اسرائيلية داخلية ، وليست عملية تناقض بين كتلتين بشريتين ، ليست بينهما اية علاقة . لكن التصدي العنيف لم يحصل الا بعد ٦ تشرين ولا يمكن بالفعل تصور المظاهرات بالضفة الغربية ولا في الجليل بدون حرب تشرين .

ذكرت في السابق انه قبل حرب تشرين كان هناك صورة مقلوبة لموازين القوى في المنطقة : هناك انتفاخ هائل لحجم اسرائيل ومقابله تقلص هائل لحجم الشعب الفلسطيني ، الذي هو نقيض اسرائيل . من هنا اتت النظرة الى الثورة الفلسطينية كشيء رومنطيقي لا تستطيع ان تفعل شيئا لاسرائيل التي طمنت كل هذه القوى . هذه الصورة انقلبت بعد حرب تشرين . فكل ما حصل من تحجيم لاسرائيل بعد حرب تشرين انصب في كفة الشعب الفلسطيني ، والثورة

الفلسطينية ممثلة بمنظمة التحرير الفلسطينية . ومن هنا المكاسب التي انجزتها منظمة التحرير والثورة الفلسطينية في سنة ١٩٧٤ وسنة ١٩٧٥ دون ان تشارك مشاركة بنفس الحجم في حرب ١٩٧٣ . قرارات الرباط شجعت انتفاضات الضفة الغربية ، كما ذكر الاخ حمزه ، بروز منظمة التحرير شجع المناطق المحتلة على التصدي بعنف وتحدي سلطات الاحتلال والا كيف نفسر الفرص التي كانت متاحة لهؤلاء العرب دون ان يستغلوها في حرب ١٩٥٦ وفي حرب ٦٧ وفي حرب ٧٣ بالذات . بروز منظمة التحرير في تقديري اثار مسألة تهويد الجليل بصورة اكثر جدية خاصة بعد النصر الذي احرزته المنظمة في لبنان . كان يفترض ان تقزم منظمة التحرير ، ان تحجم ، وربما تصفى في لبنان ، ولكنها خرجت منتصرة ، خرجت من المعركة بحجم اكبر مما دخلتها . هذا بالاضافة الى الانتصارات والانجازات على الصعيد السياسي خارجيا وبزيادة قوتها شعبيا وعربيا ، اثار مشكلة امكانية انقلاب لبنان الى دولة مواجهة ، ووجود الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان يهدد الوجود الصهيوني في الجليل الذي لا يزال اكثرية عربية (٦٠٪ من سكانه عرب) وبالتالي اصبحت مسألة تهويد الجليل مسألة جدية اكثر وملحة اكثر . وطبعا كان رد الفعل على محاولات تهويد الجليل هو انتفاضة عرب الجليل التي وضعتهم على الخارطة السياسية ، اولا الفلسطينية وثانيا العربية وثالثا الدولية . هؤلاء الضالون المنسيون لم يعد بالامكان تناسيهم ولا بد من ان تنعكس انتفاضتهم على تركيبة الثورة الفلسطينية وعلى اهدافها ومسارها في المستقبل . ماذا سيحدث ؟ لا اعلم ، لدي تطلعات ولكنني لا اعلم ماذا سيحدث . لكن من المؤكد ان تفاعلهم مع الثورة الفلسطينية سيزداد ، ونتيجة لذلك ستزداد الفجوة والشرخ بينهم وبين سلطات الاحتلال ، مما سيفرض عليهم تبعات معينة ، كما سينعكس ذلك على الثورة الفلسطينية بالذات في المستقبل . وفي تقديري ان الانتفاضة في الجليل كشفت تقصيرا من جانب الثورة الفلسطينية بالنسبة لعرب الجليل . فقد قاتل الناس ثلاثة ايام بالحجارة والعصي بدون اية قطعة سلاح . فنأمل ان يصار الى تفادي هذا النقص .

هناك بعض البوادر قد تكون بالفعل مقلقة وانا اقولها بحذر شديد وارجو ان لا تفسر على غير ما هو مقصود منها . انا اقلق اولا من محاولات الكسب السياسي الحزبي من الانتفاضة . هذا قد يخلق فجوة ينفذ منها العدو الى تفتيت الصف العربي في الجليل . وارجو ان تبقى الانتفاضة بصورة جبهة عريضة ، في طبيعتها هي صدام بين انتماء الشعب الفلسطيني وعلاقته بالارض وبين انتماء الى الكيان الصهيوني ومحاولاته لاقتلاع هذه العلاقة ، وليس صراعا سياسيا في اطار الكيان الصهيوني كما هو موجود ، من هنا اخشى ان يتميع هذا الصدام القومي ويتحول الى مسألة داخلية في اسرائيل . تلقي ناتج من انه في صبيحة الانتفاضة طرحت المشكلة في الكنيست الاسرائيلي كمشروع لنزع الثقة من الحكومة وبذلك نقل الصراع من مواجهة مع الكيان ككل الى مواجهة مع حزب في الحكومة او قسم منها . قد يقال انه لا بد من الاعلام حول القضية ، فاذا كان لا بد من الاعلام يجب ان تطرح القضية في الامم المتحدة . نحن الان في الامم المتحدة ، الشعب الفلسطيني وممثله الشرعي ، منظمة التحرير ، موجودة في الامم المتحدة ، اذن لتطرح القضية في الامم المتحدة كصراع بين الفلسطينيين عامة وبين الكيان الصهيوني عامة وليس كشيء داخلي في اطار الكيان الصهيوني . انني اتوقع تصاعد الصدام وازدياد التحدي . فالكيان الصهيوني استيطاني بطبيعته وبمواقفه واطره الفكرية والنفسية ، ولا يستطيع التراجع . اي كيان استيطاني يبدأ بالتراجع تكون هذه بداية النهاية بالنسبة له ؛ لذلك اتوقع ان تقوم السلطات الاسرائيلية في القريب العاجل باغلاق هذه المناطق والبدء باقامة المنشآت عليها ، وهذا بالطبع سيصعد الصدام مع السكان وبالتالي لا بد من

التفكير كيف نستطيع ان نساعد هؤلاء الناس في صدام مع قوة تفوقهم عددا وعدة . بالنسبة للتفاصيل ، مع بداية التفكير بتهويد الجليل والاستيلاء على الاراضي ، اقيمت لجنة شعبية فيها مخاتير ودؤساء مجالس محلية واشخاص تقليديون ولكنهم مرتبطين بالارض ، واقيمت لجنة الارض وحددت يوم ٣٠ اذار يوم الانتفاضة . يبدو ان السلطات الاسرائيلية كانت مستعدة للمظاهرات ، ولكن ليس على مستوى الصدام . وكما ذكرت كانت مفاجأة للجميع ان يكون الناس مستعدين للجوء للعنف ، لكن السلطات الاسرائيلية لم تكن هناك لتنظيم صفوف المتظاهرين فقد كانت هناك ايضا لمجابهة التحدي فأفلت زمام الامور وبدات حركة عفوية تنم عما يختلج في صدور هؤلاء الناس من نقمة على الاحتلال ، فحدث ما حدث ، هناك قتلى عددهم بين ٦-٩ وكان هناك جرحى ، حوالي ٣١ . وكذلك سقط في طرف العدو حوالي ٣٧ جريحا وكل ذلك تم بواسطة الاسلحة المتوفرة في منطقة المظاهرة من حجارة وعيدان وما شابه ذلك .

ان العامل المحرك الوحيد في العالم العربي اليوم بعد ان تمت التسوية ، هو الثورة الفلسطينية والقوى المتحالفة معها والمرتبطه بها فمن يتحرك سياسيا في المنطقة لا يحتاج الى محاولات اقناع لمشاهدة الرابطة بين انجازات الثورة الفلسطينية في خارج الارض المحتلة وبين ما يحدث في الداخل .

الفلاحون العرب جددوا مقاومة الثلاثينات ضد الاستيطان

عربي عواد :

ان التفجر الذي حدث في الارض الفلسطينية المحتلة اتسم بصفة الشمول لانه لم يقتصر على الضفة الغربية او قطاع غزة انما امتد الى الجليل والمثلث . هذه ظاهرة بارزة تقع لاول مرة في تاريخ النضال الفلسطيني . كذلك هذه الثورة الجماهيرية اتصفت بطول المدة لانها عملية بدأت في شهر تشرين اول واستمرت حتى ايامنا هذه . هذه كذلك قضية تحدث لاول مرة ، لانه فعلا حدثت انتفاضات في الماضي ، منذ الاحتلال بعد ١٩٦٧ ولكنها لم تكن تمتد مثل هذه الفترة الطويلة . وكذلك مشاركة فئات وجماهير متعددة فيها بحيث انها كانت حركة الشعب باسره في كل المواقع ساهمت فيها كل الطبقات الاجتماعية . ويلفت النظر انه على الرغم من ان الطلاب هم رأس الحربة الا ان عدة قوى برزت في الميدان لاول مرة مثل الفلاحين. وهذا ما حدث في سبسطيه عندما قدم المستوطنون باعداد كبيرة ، خرج لملاقاتهم ومجابهتهم قرى باكملها ، سبسطيه والقرى المحيطة بها . خرج كل الفلاحين بالعصي والحجارة والفؤوس وهاجموا المستوطنين واشتبكوا معهم وطردوهم . وقد اعاد ذلك للاذهان اشتباكات الفلاحين الفلسطينيين مع المستوطنين الصهاينة في الثلاثينات ، عندما حدث الاستيلاء على الارض الفلسطينية في مرج أبن عامر ، وهذه كانت مقدمة لحركة عز الدين القسام ثم الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ . وقد برز ايضا دور المراة بشكل واضح جدا وصدامي ، فقد سقطت شهيدات مثلما جرى في نابلس مثلا حيث سقطت الشهيدة تمام اسيتية . وكذلك اتسمت هذه الثورة بالاقدام والجراة المتناهية حيث كانت الجماهير تهتف ضد سلطات الاحتلال وتضربهم بقصد القتل فعلا . وبالتالي وقع عدد من القتلى والجرحى . هذا حدث في الضفة الغربية وكذلك في الجليل . وهذا بالطبع كان بمثابة مفاجأة للاحتلال ، فلم تكن سلطات الاحتلال تهاجم بمثل هذا العنف والاستبسال وعدم الخوف . وبالمقابل كان الرد كذلك في منتهى الشراسة لم يحدث في الماضي على مثل هذا النطاق في مواجهة انتفاضات جماهيرية . مثلا الانتفاضات التي

حدثت عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٣ كانت تقابل باعمال قمعية لكنهـا لم تبلغ مثـل هذه الوحشية حيث كان المحتلون يهاجمون الجماهير ويضربونهم بهدف القتل وهذا ادى الى استشهاد عدد من المناضلين في الضفة الغربية وقطاع غزة .

هناك سؤال مطروح لا بد من الاجابة عنه ما هو السبب من وراء مثل هذه الثـورة الجماهيرية ؟ العامل الرئيسي هو النهوض الوطني الذي اجتاح الارض المحتلة بعـد حرب تشرين وازدياد مكانة ونفوذ منظمة التحرير بعد ان طرحت برنامجها الذي اقـره المجلس الوطني الثاني عشر والذي تعتبر القضية الرئيسية فيه قضية اقامة الدولـة الفلسطينية المستقلة على الارض التي يندحر عنها الاحتلال ، والتأييد العربي والعالمي المتعاظم لمنظمة التحرير . وهذا يظهر فعلا من ان كل حدث كان يؤدي الى دفعة لهذا النهوض . مثلا مؤتمر الجزائر ، بالتحديد بعد حرب تشرين ، اعقبه حركة في الارض المحتلة عبر عنها بمجموعة البيانات والتحركات التـي ايدت مقررات مؤتمر الجزائـر وخصوصا اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني . وكذلك مؤتمر الرباط تحدثت عنه الصحافـة الاسرائيلية فقالت انه فتح جبهة جديـدة للاحتلال في الارض المحتلة . وهذا ما حدث بالفعل لانه (مع دورة الجمعية العامة) ادى الى انتفاضة عام ١٩٧٤ . وبالطبع كان افق هذا النهوض اتساع عمليات المقاومـة المسلحة وشمولها مختلف الارض الفلسطينية ، ثم تنامي واتساع النضالات الجماهيرية والسياسية في هذه الفترة . هذا السبب تظهر قوته بدليل ان القوى المعادية ممثلة في التحالف الاستعماري الصهيوني الرجعي حاولت ان تستغل الوضع السلبي في المنطقة العربية ، خصوصا بعد اتفاقية سيناء ، فقامت بهجوم للالتفاف على انجازات منظمة التحرير في محاولة لارجاع تيار النهوض ولاثبات بان الاحتلال ثابت وبـاق . هـذا الهجوم تمثل في طرح مشروع الادارة المحلية كبديل لمنظمـة التحريـر ، وفي تكثيـف العمليات الاستيطانية ، ثم التطاول على المقدسات بالسماح لليهود بالصلاة في المسجـد الاقصى . هذا الهجوم كان نتيجته انه زاد عملية النهوض تفجـرا والتهابا ، فكانـت النتيجة عكسية بدليل انه بعد اتفاقية سيناء ، حـدث احتجاج . ثـم مشروع الادارة المدنية ، الذي هبت في وجهه الانتفاضة التي اخذت في التصاعد والاستمرار مـع تصاعد مظاهر او عمليات الهجوم الاحتلالي والاستيطاني والاعتداء على المقدسات . هذا يبين ويؤكد عمق النهوض الوطني الموجود في الارض المحتلة وقوته بحيث انه يستطيع ان يتجاوز سلبيات الموقف العربي بوجه عام . هذه الثورة الجماهيرية العارمة هـي كالبريق في سماء الوطن العربي الملبـد بغيوم الاستسلام والتخاذل والسير في ركـاب الاستعمار ، وكذلك الانشغال في الانقسامات والمعارك الجانبية .

هناك قضية اخرى هامة في هذه الانتفاضة التي جرت سواء كانت في قطاع غـزة والضفة الغربية او في الجليل والمثلث ، وهي انها لم تكن عفوية . صحيح انه كانـت هناك عوامل موضوعية كما ذكرنا لكنها جرت من خلال عمل منظم قامت به التنظيمات الوطنية المتواجدة على الارض الفلسطينية ، والتي لعبت دورا بارزا في الضفة الغربية في تحريك الانتفاضة ودفعها وتوجيهها ، مثلا المنظمات الجماهيرية الموجـودة هناك ، كنقابات العمال ، والنقابات المهنية ، والهيئات النسائية وهيئات دينية ، كذلك تنظيمات اخرى سرية ، مثل اتحاد المراة الفلسطينية ، اتحاد الطلبة وكذلك الجبهة الوطنيـة الفلسطينية لعبت دورا هاما باعتبارها اطارا يحوي القوى المناهضة للاحتلال . ومـن هنا فانه ليس صدفة رد سلطات الاحتلال بابعاد اثنين من قادة الجبهـة الوطنيـة الفلسطينية (الدكتوران حمزه والحاج احمد) وتحميلهم مسؤولية التحريض علـى التظاهر والمقاومة ضد الاحتلال . ومما ينفي صفة العفوية فعلا ، التوجيه والوعـي

الذي كان يصبغ الانتفاضة . الانتفاضة لم تكن مجرد غضبة ضد الاحتلال ، واستنكار للاعتداء على المقدسات . صحيح انها طرحت هذه القضايا ، ولكنها فوق ذلك كله كان هناك شعار رئيسي للانتفاضات هو الالتفاف حول منظمة التحرير والتأكيد انها هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، ثم التأكيد كذلك على برنامجها المتمثل باقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، كذلك التنديد بالامبريالية الاميركية والفيتو الاميركي. وهناك شيء يلفت النظر في الواقع وهو انه بعد الفيتو الاميركي مباشرة في مجلس الامن اندلعت في اليوم التالي المظاهرات العنيفة في الضفة الغربية من اولها الى اخرها . ويلفت النظر كذلك انها البقعة الوحيدة في الوطن العربي من المحيط الى الخليج التي تفجرت فيها هذه القضية الجماهيرية ضد الامبريالية الاميركية . هذه قضية في غاية الاهمية وتبين مدى الوعي الذي كان يوجه ويسود الانتفاضة في الارض المحتلة .

كذلك ، فان الانتفاضة في الجليل والمثلث فاجأت الجميع فعلا ، ولكنها لم تأت بشكل عفوي ، بل كان لها تمهيد هناك . التمهيد جاء من خلال مجموعة احداث ونضالات . اولا انعقد مؤتمر قطري للدفاع عن الارض في الناصرة ، وشاركت فيه قوى متعددة يجمعها هدف الدفاع عن الارض العربية في وجه مخططات التهويد الصهيونية . كذلك نتيجة انتخابات بلدية الناصرة ، التي فعلاً ولاول مرة منذ ٢٨ عاما تنجح فيها قائمة معادية للصهيونية ، ليس لها فقط اهداف محلية ، انية ومعاشية وانما لها ايضا موقف سياسي واضح بالنسبة لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، اي تأييد واضح لبرنامج منظمة التحرير . وهذه مسألة في غاية الاهمية في الواقع . ثم كذلك حركة الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية واحتجاجاتهم ورفضهم للمشاركة في الحراسة ضد الفدائيين الفلسطينيين . لقد شاركت قوى متعددة في الانتفاضة ولكن هناك حقيقة موضوعية ، هي ان هناك قوة اساسية متمثلة بالحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكح » الذي كان النواة لقائمة الجبهة الديمقراطية في الناصرة ، ورئيسها الشاعر توفيق زياد، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكح » واحد ممثليه في الكنيست. ثم وكذلك الامر بالنسبة لمؤتمر الارض ، فالقوة الاساسية في الدعوة له كانت « راكح » وحركة الطلبة العرب . هذه الحركة ليست حركة حزبية ضيقة . هي حركة للجماهير العربية كلها ومما يؤكد ذلك شمول هذه المظاهر التي تحدثنا عنها . فهي حركة قومية طابعها تحرك قومي ضد الحكم والنظام العنصري الصهيوني المتواجد في المنطقة . وهذا يفسر بالطبع الحملة الشرسة التي تشن الان على الحزب الشيوعي الاسرائيلي والمطالبة بحله وضربه وحملة الاعتقالات الواسعة ضده . كل ذلك تتوج في يوم الارض . ويوم الارض له اهمية كبرى لانه عبر للمرة الاولى عن وحدة النضال الفلسطيني في كل المواقع . ولان هذا اليوم انطلق من الجليل والمثلث ، وهذه قضية في غاية الاهمية . وتجاوب مع هذه الحركة النضالية كل الجماهير الفلسطينية في كافة مواقعها النضالية، سواء في داخل الارض المحتلة او خارجها وهذا يبين وحدة النضال الفلسطيني . وللمرة الاولى تلتقي روافد النضال الفلسطيني لتصب في هذا النهر العريض الذي يضم كل القوى الوطنية الفلسطينية في مختلف مواقعها ، على تباين اتجاهاتها وتنظيماتها الايديولوجية . وليس صدفة ان صور الشاعر توفيق زياد اصبحت تملي كل ادبيات الثورة الفلسطينية ، فهذه احدى مزايا يوم الارض التي يجب ان تقيم حق قدرها . وبهذه المناسبة لا بد من الاشارة الى دور القوى التقدمية اليهودية في يوم الارض ، لان ذلك المؤتمر القطري الذي ذكرناه ساهمت فيه مجموعة من القوى التقدمية اليهودية. صحيح ان الحركة الصهيونية لها نفوذ واسع في اوساط اليهود في فلسطين ، لكن وجود مثل هذه القوى مسألة لها قيمتها لانها تفضح الصهيونية وتظهر كذب ادعائها بانها ممثل لليهود ، وكتبت ان هناك تمييزا بين اليهود والحركة الصهيونية .

نتائج الانتفاضة في غاية الاهمية ولا بد من ابرازها وسوف اتحدث عنها بايجاز كبير جدا . ان ما جرى لم يكن مجرد انتفاضات وصدامات ، ولكن بالعكس فقد كان لهـا نتائج في غاية الاهمية . فهي اولا دفنت المؤامرات المعادية لضرب منظمة التحرير وحقها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني . دفنت مشروع الادارة المدنية . ثم هي كذلك وجهت ضربة قاسمة لادعاءات ومحاولات النظام في الاردن للبروز كممثل للشعب الفلسطيني. ثم هي ايضا اكدت امام العالم كله حقيقة ان اساس الصراع في المنطقة ليس خلافا بين اسرائيل والدول العربية على الحدود ، انما اساسه قضية الشعب العربي الفلسطيني كشعب يعاني من الاحتلال الذي فرضه عليه نظام عنصري توسعي . ولذلك فان حل هذا الصراع يكون بتمتع وظفر هذا الشعب مثل بقية شعوب العالم الاخرى بحقـه بالاستقلال وحق تقرير المصير . ثم هي ضربت كل ادعاءات الصهيونية التي كانـت تصور الشعب الفلسطيني كمجموعة من الارهابيين . بالعكس فان الاعمال الوحشية البربرية التي ارتكبها المحتلون وصمتهم هم بالارهاب امام العالم كله . وهذا ما ظهر امام دورة مجلس الامن التي انعقدت لشجب الاجراءات الوحشية التي مارستها سلطـات الاحتلال ضد جماهيرنا في الارض المحتلة .هذا بالاضافة الى انهذه الثورة كانت دفعة هائلة للنضال الفلسطيني وكذلك كانت محركا لحركة التحرر العربي والشعوب العربية فاستنهض همتها ان هذا الشعب الموجود وتحت الاحتلال هـذه السنوات الطويلـة ، والذي انتفض كله صغيرا وكبيرا ، امراة او رجلا رغم كل اساليب القمع والارهاب ، يستحق من الشعوب العربية ان تقف الى جانبه ولا تتركه وحيدا . وخصوصا أنه لا يدافع عن نفسه فقط بل يدافع عن الارض العربية كلها وعن المقدسات العربية كلها. كذلك كان للانتفاضة نتيجة هامة في التأثير على المجتمع اليهودي في داخل فلسطين ،لان الصهيونية استغلت حرب حزيران والانتصار الكبير الرخيص الذي احرزته ، لتغذي نزعات التوسع والعنعنات الشوفينية عند اليهود ولتظهر ان هذه الارض غنية ، وهي ارض الاباء والاجداد ، وهذا انعكس على تصرفات اليهود الذين اقاموا الرقصات في هذه الارض ، لكن جاءت الانتفاضة بعد هذه المدة الطويلة وبعد كل النضالات التـي خاضها الشعب الفلسطيني لتؤكد حقيقة اخرى لليهود وهي ان هذه الارض ليسـت ارضا بلا شعب كما صورتها الصهيونية بل هي رض لها شعب مستعد ان يقاوم بضراوة من اجل الدفاع عنها ، وبالتالي فان بقاء الاحتلال يكلفهم ثمنا باهظا . يكفي انهم كانوا في البداية يأتون للنزهة ولاخذ الصور التذكاريـة في المنارة في رام الله او في المسجد الاقصى او في نابلس اما الان فحتى الجنود الاسرائيليون وهم في السيارات ومدججون بالاسلحة ، تداهمهم وتلاحقهم الضربات . وهذا بالطبع يخلق حالة من التوتر النفسي وعدم الشعور بالامن ، ومن ناحية اخرى يؤدي الى التدهور الاقتصادي الذي جـرى الحديث عنه وهذا يكلفهم ثمنا باهظا ، بالاضافة الى فضح امر اسرائيل امام العالم ككيان ونظام عنصري في الوقت الذي كانوا والى حد كبير يطرحونها كبلد ديمقراطي في وسط صحراء مقفرة من الاستبداد والتأخر والظلم في البلاد العربية . وهذا من شأنه ان يزيد في التيار الذي اصبح يشعر بانه مضطر للاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وفي السيادة في الوقت الذي ينفـي فيه الصهاينـة وجود الشعـب الفلسطيني . وهذا ما يفسر ان هذه الحركة لم تعد تقتصر على القوى الديمقراطية ، فحتى الاوساط الصهيونية اصبحت تشعر بان هده الحقيقـة تفرض نفسها ولا يجوز تجاوزها .

كانت الدعوة الى الاضراب ، فتجاوزتها جماهير الجليل الى العنف

الدكتور عبد العزيز الحاج احمد :

لقد غطى الاخوة الذين سبقوني كل الاشياء تقريبا لكن يهمني ان اركز على نقطتين من الظواهر . النقطة الاولى هي اشكال النضال السياسي التي مارستها جماهيرنا في الارض المحتلة والتصعيد ، واتجاه هذه الاشكال نحو العنف الذي كان واضحا جدا في الانتفاضة في الضفة الغربية وفي الجليل وفي غزة . في الانتفاضات التي سبقت ، كانت اشكال النضال الجماهيري تتجه نحو الاعتصامات الطلابية في المدارس والاعتصامات النسائية والاعتصامات الجماهيرية في المساجد . اما في هذه الانتفاضة فقد اتجهت اشكال النضال نحو المواجهة والتصدي المباشر لجنود الاحتلال الصهيوني . وقد كان ذلك واضحا في المظاهرات العنيفة التي كانت تمتد في كل انحاء الارض المحتلة ، من هجوم على جنود الاحتلال واقامة الحواجز واشعال اطارات السيارات وحصر مصفحات الجنود بين الحواجز والهجوم عليها ، وضرب سيارات الحكام العسكريين انفسهم بعد حصرها بالحواجز وتكسيرها . واكثر من ذلك فقد استخدمت المولوتوف في الجليل ، وانتزعت اسلحة الجنود الاسرائيليين وضربوا بها كما حصل في مخيم لمعي في البيرة . هذا يؤكد ان جماهيرنا تتجه باستمرار نحو التصدي العنيف ادراكا منها بانه لابد من البحث عن وسائل جديدة باستمرار واشكال متقدمة في النضال . صحيح انه كانت هناك عمليات عسكرية اثناء الانتفاضة وقبلها ، لكن لا بد ان تقوم منظمة التحرير الفلسطينية وفصائل المقاومة بتقديم وسائل بكمية اكبر وباشكال جديدة للجماهير والقوى المنظمة في الداخل حتى يستمر التصعيد في اشكال النضال . وفي تقديري ايضا فان امتداد الانتفاضة طوال هذه الفترة الزمنية في الضفة الغربية كان حافزاً كبيرا للفلسطينيين في الجليل ، رغم ان لجنة الدفاع عن الارض دعت الى الاضراب فقط في يوم الارض . هذا يؤكد ان كل فرد من شعبنا يحاول القيام بدور اكبر مما قام به من سبقه . الظاهرة الثانية التي اود التحدث عنها هي التلاحم النضالي الذي ظهر من خلال مشاركة كافة التنظيمات الجماهيرية في الارض المحتلة : الحركة الطلابية ، قطاع المرأة ، النقابات المهنية والعمالية وفي نفس الوقت جميع التنظيمات والاحزاب المتواجدة في الارض المحتلة . كما ان هذه الظاهرة تؤكد قدرة قيادة الجبهة الوطنية في الارض المحتلة على توجيه الحركة الجماهيرية . وقد كان ذلك واضحا في الشعارات التي طرحت وكيف استغلت الشعارات . بدأت الشعارات بتأييد المنظمة وهذا كان يتم باستمرار ورفض الاحتلال ومقاومته ، ثم بدأت الشعارات تطرح قضية محددة وهي قضية الاستطيان في سبسطيه اخلاء المستوطنين من كفرقدوم . وبعد انعقاد مجلس الامن تحركت الجماهير للتصدي للامبريالية الممثلة بالفيتو . وقد استغلت الحركة الوطنية وقيادتها بالذات الفيتو وربطت شعاراتها ، الفيتو ، رفض الاستيطان ، ومن ثم المقدسات . وتحركت الجبهة الوطنية لتوحيد الموقف ولتوحيد الشعارات فجاءت استقالة البلديات مسببة باسباب مباشرة وهي رفض الاستيطان واخلاء المستوطنين من كفرقدوم ورفض انتهاك حرمة المقدسات ، لا للفيتو الاميركي ، واضيف اليها لا للرجعية . وقد حددت البلديات المستقيلة مطالب معينة لاننا ، كما ذكر الدكتور شوفاني ، لا نتوقع ان يلجأ الكيان الصهيوني الى التراجع ، وادراكا من قيادة الجبهة الوطنية لذلك ربطت النضال بشعارات محددة يمكن ان تؤدي الى اجبار الكيان الصهيوني على التراجع . واذا تصعد النضال وتراجع الكيان الصهيوني في نقطة واحدة (ولو على سبيل المثال اخلاء كفرقدوم) فستكون هذه بداية سلسلة من التراجعات . يهمني ايضا ان اؤكد على التلاحم والوحدة الوطنية للمناضلين في الارض المحتلة ، تكريس قيادة منظمة التحرير ، تأييد المنظمة واعتبارها الممثل الشرعي

الوحيد للشعب العربي الفلسطيني اينما كان . وجاءت انتفاضة الفلسطينيين في الجليل لتؤكد انه هناك عربا في الجليل ، يجب ان يحسب حسابهم وهذه النقطة بالذات في غاية الاهمية لانه لا يمكن تجاوز حق الفلسطينيين في الجليل في تقرير مصيرهم ، ويجب ان تؤخذ هذه النقطة بعين الاعتبار في حال طرح اي حلول سياسية . كذلك فان الانتفاضة في الارض المحتلة في يوم الارض والمشاركة خارج الارض المحتلة وفي كل البلاد العربية ، تؤكد البعد القومي لحركة جماهيرنا في الارض المحتلة . لقد جاءت الانتفاضة ردا على اتفاقية سيناء ، وردا على محاولات الالتفاف حول منظمة التحرير، وردا على الطائفية والانعزالية في لبنان ، واكثر من ذلك تأكد البعد العالمي في رفضها للامبريالية وكان ذلك ممثلا في رفض الفيتو كما ذكر الاخ عربي .

عبد الجواد صالح :

ساتطرق الى بعض الزوايا التي لم يتطرق اليها الاخوة او لم يفسروها بالشكل الكامل . بالنسبة لحرب تشرين ، فانها كانت نقطة تحول في نضال الفلسطينيين داخل الارض المحتلة . كان هناك نتيجة ايجابية بشعور المواطن العربي داخل الارض المحتلة بامكانية نهاية وانهيار الكيان الصهيوني في المدى البعيد ، كما تأكدت في المدى القريب امكانية انسحاب اسرائيل من الارض المحتلة بدون أن يقدم العرب اي ثمن لهذا الانسحاب . ولهذا بالفعل كان التجاوب مع البرنامج المرحلي تجاوبا ايجابيا وفعالا وعضويا وزاد من نضالات شعبنا . هناك عامل اخر ساعد بالفعل على وحدة الشعب الفلسطيني عن طريق وحدة النضال الفلسطيني بين عرب ١٩٦٧ وعرب ١٩٤٨ . ففي فترة الاحتلال الطويلة بعد عام ١٩٦٧ قامت نضالات مستمرة لشعبنا وانتفاضات مستمرة جعلت المواطن العربي في ١٩٤٨ يتساءل السنا جزءا من هذا الشعب ؟ وبالتالي اصبح هناك تجاوب ايجابي بين الفئتين ، وحدثت الوحدة النضالية ، وحدة اطراف المثلث ، عرب ١٩٤٨ وعرب ١٩٦٧ والعرب في خارج فلسطين . ضمن اطار الثورة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية . كانت هناك كذلك ظاهرة ايجابية وهي ان الجيل الذي لم يكن يتجاوز عمره سنوات قليلة عندما قام الاحتلال ، والذي حاولت سلطات الاحتلال الصهيوني غسل دماغه ، هذا الجيل افشل كل مخططات الصهيونية ، وبالفعل بدأ هذا الجيل بقيادة النضال . وهناك ظاهرة في منتهى الروعة في داخل الارض المحتلة ، اود ان اضرب بعض الامثلة عليها . مثلا في الجلازون ، وهو مخيم للاجئين في شمال مدينة البيره اكتشفت السلطات المحتلة تنظيما لاطفال لا يتعدى معدل اعمارهم ١٣ عاما ، قاموا بتنظيم المظاهرات وكتابة الشعارات على الجدران وارسال كتب انذارات الى العملاء واغلاق الطرق . هذه الظاهرة تنتشر في كافة انحاء الاراضي المحتلة وتساهم مساهمة فعالة في نضالها. تطور النضال الجماهيري ظاهرة مميزة كذلك لهذه الثورة او هذه الانتفاضة الشعبية في اخر فترة ، فمثلا في فترات رفع منع التجول التي لم تتعد ساعة او ساعة ونصف في مدينة البيره وفي حلحول وغيرها، كانت هناك فئة من الشباب تختص في تنظيم عملية تموين المواطنين بالحليب والخبز بينما تكرس بقية الجماهير في تسعير المظاهرات . وكما ذكر الاخ عبد العزيز فان النضال تصعد فشمل اختطاف السلاح من الجندي الاسرائيلي وبالتالي استخدامه ضده . في هذه الانتفاضة تجاوزت جماهيرنا الثورة الفلسطينية وكافة الانظمة العربية وهناك مثال على ذلك ، وهو ما حصل في اول يوم من ايام الترشيح ، لم يوجد في معظم المدن الرئيسية اي مرشح ، لا في البيرة ولا نابلس . ولا طولكرم ولا جنين ، في رام‌الله ظهر مرشح عميل واحد هو جنحو . ولو ارتبط نضال هذه الجماهير بالثورة الفلسطينية ، وبكافة فصائل المقاومة والعمل المسلح ، ولو استطاعوا مثلا ضرب هذا العميل ،فانني

أؤكد لكم ان الانتخابات البلدية كانت حتما ستفشل وهذه وجهة نظر كافة فصائل المقاومة . ولا بد من دراسة هذا التجاوز في نهاية الندوة .

بعض النتائج التي لم يتطرق اليها الاخوان ، ما تم من افشال فكرة التعايش ليس فقط بين سلطات الاحتلال وشعبنا المحتل وانما بين الحركة الصهيونية وهذا الشعب. لقد فشلت بالرغم من كافة الجهود التي بذلت من جانب السلطات الصهيونية ، سواء بتغيير المناهج أو باقامة مخيمات الصيف المشتركة ، وبالرغم من كافة وسائل الاعلام من تلفزيون وصحف ومحاولات تشكيل صحافة موالية للاحتلال . رغم كل ذلك فشلت فكرة التعايش بين هذا الكيان الصهيوني وبين العرب تحت الاحتلال . كان هناك ايضا ظاهرة جديرة بالدراسة وهي اشتراك الموظفين ولاول مرة اشتراكا فعالا في هذه الانتفاضة فلاول مرة يتقدم اكثر من ١٥٠٠ موظف بتقديم استقالاتهم للمجالس البلدية تضامنا مع هذه المجالس ، تضامنا مع جماهير شعبنا ، وهذا ما لم يحدث في المرات السابقة وبالطبع فان هؤلاء هم موظفي دوائر الحكم العسكري في نابلس ورام الله والبيره ...

من نتائج هذه الثورة الشعبية غير المسلحة انها مهدت الطريق ، مهدت الارض للانخراط في الكفاح المسلح ، وفي اعتقادي ان الانسان الفلسطيني الذي تجرأ بمهاجمة الدروع الصهيونية قادر الان على حمل السلاح ومجابهتها مجددا . ازالت هذه الثورة الشعبية، الوجه الديمقراطي الممسوخ الذي كانتتحاول فيه الحركة الصهيونية البروز امام العالم . وهذا ما اثبته قرار ادانة الصهيونية بانها حركة عنصرية ولم يعد هناك مجال ، وخاصة في الغرب ، ان يحاول الاعلام الصهيوني ان يبشر بهذه الديمقراطية بعد وسائل القمع التي استخدمها ضد شعبنا .

عرب الجليل يريدون معرفة مكانهم في مشروع « السلطة الوطنية »

احمد خليفة :

اعتقد ان المسافة لا تزال طويلة بين النتائج التي ادت اليها الانتفاضة وتأثيرها على تغيير البرامج الاسرائيلية . الانتفاضة كانت شاملة ، شملت اعدادا كبيرة ولهذه الانتفاضة اهمية كبيرة في مدلولاتها ،ولكن ليس في التأثير الفوري العملي الذي يمكنان تحدثه باتجاه الغاء الاستيطان من الضفة الغربية او باتجاه تشكيل متاعب جديدة ملموسة للاحتلال الاسرائيلي الذي يغطي اراضي ١٩٤٨ و١٩٦٧ وبعد ان اتضحت صورة الانتفاضة ومداها واهميتها وقيمتها ، يصبح السؤال المركزي والرئيسي الواجب طرحه هو ، كيف يمكن تطوير هذه الانتفاضة ، بل هناك سؤال أدنى مستوى ، كيف يمكن المحافظة على اندفاع واستمرار هذه الانتفاضة ؟

الانتفاضة في الضفة الغربية لاتزال تتخذ اشكال نضالات جماهيرية وسياسية وهي ذات مستوى أرفع من النضالات التي سادت في الضفة الغربية بعد الاحتلال . فقد شهدت الضفة الغربية بعد الاحتلال مباشرة وفي السنة الاولى تقريبا اضرابات مدارس واحتجاجاتواعتصامات ومظاهرات وصدامات معالشرطة الاسرائيليةاحيانا واضرابات تجار ، كانت احيانا شاملة واحيانا جزئية ، لكن انتهت كل هذه النضالات الى التهدئة. اما في غزة فقد أخذت مقاومة الاحتلال اشكالا أرقى كثيرا ، ارتقت الى ثورة جماهيرية مسلحة واحدثت متاعب كبيرة جدا للاحتلال وايضا انتهت هذه الانتفاضة في قطاع غزة بالقمع شبه الكامل لهذه الثورة الجماهيرية المسلحة . انتفاضة الجليل لها مدلولات

هامة جدا ويجب العمل على استمرارها وعلى ان تأخذ اشكالا ارقى .

اعتقد ان الاخوان قد عددوا كل العوامل التي حركت هذه الانتفاضة. حرب تشرين والهزيمة التي الحقت بالعدو الاسرائيلي والهزيمة النسبية ايضا بنهوض الثورة الفلسطينية وازدياد مكانتها الدولية . وقد ذكر الاخ عربي عواد نقطة هامة جدا هي الشعار الذي طرح في المجلس الوطني الفلسطيني باقامة دولة فلسطينية مستقلة (ولا ادري اذا كان هذا الشعار استراتيجيا او تكتيكيا) ثم التأييد العربي والدولي المتزايد للمقاومة الفلسطينية . يبدو ان مجموع هذه العوامل حرك الجماهير في الضفة الغربية للنضال مرة اخرى باعتبار ان هناك هدفا طرح امامهم وهو دولة فلسطينية مستقلة ، وبدا هذا الهدف ملموسا وممكنا في الضفة الغربية وايضا لدى المقاومة الفلسطينية في الخارج على ضوء نتائج حرب تشرين . طرح هذا الشعار ، وكان من الواضح جدا ان هناك ضرورة للاستمرار في الكفاح المسلح من اجل تحقيقه باعتبار اننا نعرف جميعا المعارضة التي تواجهها الدولة الفلسطينية المستقلة من قبل الامبريالية والنظام الهاشمي وبعض الدول العربية الاخرى رغم موافقتها الشكلية على قرارات الرباط . الدولة الفلسطينية المستقلة موضوع ليس من السهل تحديده وقد تجد المقاومة الفلسطينية نفسها مضطرة لتواجه بقوة السلاح كل الهجمة الضارية التي تستهدف تصفيتها . ولذلك فان المقاومة الفلسطينية في الخارج لم تلق السلاح واستمرت في الكفاح المسلح. الوضع في الضفة الغربية ، لظروف ليس هنا مجال الخوض فيها ، لم يمكن جماهير الضفة الغربية من المشاركة بالحجم المطلوب والفعالية المطلوبة في الكفاح المسلح . ولذلك، وبحكم الظروف الموجودة هناك ، كانت الاشكال التي يتخذها نضاله ،الاشكال السياسية المعروفة التي قد تنتهي الى لا شيء ، اذا لم يتحول جزءا من النضال الفلسطيني العام . وهذا النضال الفلسطيني العام اذا لم يظل يشدد على موضوع الكفاح المسلح واستخدامه ونقل الكفاح المسلح ايضا الى الداخل ، فقد يصبح هذا العامل الهام جدا ، وهو شعار الدولة الفلسطينية الملموس ، قد يصبح غير ملموس في حال التخلي عنه . فاذا كنا نريد استمرار هذه الانتفاضة الجماهيرية وتطويرها الى اشكال ارقى من النضال فيجب الاتجاه الى التشديد على موضوع الكفاح المسلح وتوفير الوسائل اللازمة لامكان القيام به .

ثم ان هذا البرنامج المطروح والذي يقود الى طرح هذه النقطة هو انتفاضة عرب الجليل . الدولة الفلسطينية المستقلة رقعتها واضحة ، لا تشمل عرب الجليل في المدى القريب . واذا كان لنا ان نعتبر ان النهوض الفلسطيني العام وطرح الشعار المرحلي جعل عرب الجليل كما ذكر الدكتور شوفاني ، لا يتمسكون بالارض كوسيلة انتاج بل كوطن . وكانت نضالات الجماهير في الضفة الغربية حافزا لهم ايضا للتحرك فاذا كان تمسكهم بالارض كوطن ، فهم يريدون ان يعرفوا اين مكانهم في هذا الوطن حتى يكونوا قادرين على الاستمرار ، ولو تطلب الامر وقتا طويلا ، وحتى يكونوا مستعدين ايضا لتطوير كفاحهم وتحمل القمع القاسي جدا الذي سيوجه ضدهم . انني اوافق الاخ عربي عواد على ان طرح شعار الدولة الفلسطينية المستقلة قد حث الجماهير في الضفة الغربية على النضال ولا اقول انه شعار خاطىء بل كان شعارا صائبا في ذلك الوقت ، وقد يكون لا يزال شعارا صائبا ايضا في هذا الوقت ، ولكن ما تحاول الامبريالية انتزاعه مقابل الدولة الفلسطينية المستقلة هو الاعتراف باسرائيل. الاعتراف باسرائيل يضع عرب الجليل خارجا وله تأثيرات سلبية كثيرة على الثورة الفلسطينيه . اذا لم يأت هذا الاعتراف فستتعرض المقاومة الفلسطينية لاستمرار الهجمة الهادفة الى القضاء عليها ، والى نزع السلاح من يدها او تحجيمها بحيث لا

تعود قادرة على استئناف النضال عن طريق الكفاح المسلح واقتصار الجزء الاكبر منه على الوسائل السياسية . والاشكال السياسية في تقديري لن تقود الى شيء .

يجب التنبه للعلاقة الجغرافية ـ السياسية بين الجليل وجنوب لبنان

محمود سويد :

يخيل لمن يطلع على ما دار في الندوة اننا امام نقلة نوعية ازاء الانتفاضة الاخيرة التي شهدتها المناطق المحتلة ، امام نقلة نوعية لنضال الشعب الفلسطيني بعد ١٩٦٧ . في تقديري ، ان الانتفاضة الاخيرة هي حلقة من سلسلة النضال الفلسطيني في المناطق المحتله بعد ١٩٦٧ تتميز بتقدم وتطوير اساليب النضال ، وبتمحيص لاساليب واشكال النضال في المراحل السابقة ، انما لا تشكل نقلة نوعية . النقلة النوعية مرتبطة ، في تقديري ، بشكل اساسي بالقيادة السياسية وبالموقف السياسي . ولا يمكن الكلام عن نقلة نوعية في النضال الفلسطيني في المناطق المحتلة ، دون ان يكون هناك فعلا الموقف السياسي والقياده السياسية التي تترجم النضالات الى برامج يومية وتنقلها من الحالة العفوية الى الحالة المنظمة ذات الاهداف المتراكمة شيئا فشيئا . ولا بد هنا من ملاحظة ان طاقات الشعب الفلسطيني وقدراته على النضال وعلى التضحية تسبق دائما (ولا تزال) الاشكال التنظيمية للقيادة السياسية لحركة الشعب الفلسطيني ، المتمثلة بمنظمة التحرير الفلسطينية وفي حركة الشعب الفلسطيني السياسية ، منظمات المقاومة . لا شك ان التجربة الغنية للشعب الفلسطيني خلال ثلاثين او اربعين عاما على الاقل ، وعلى الاقل بعد عام ١٩٦٧ ، لم تترجم حتى الان ببلورة اشكال تنظيمية قادر فعلا على ان تستوعب القدرات الهائلة على العطاء لدى الشعب الفلسطيني وان تعطي لهذه الطاقات الهائلة القدرة على التقدم في نضالها باشكال ارقى . حتى الان لم تستطع الثورة الفلسطينية ان تبلور الموقف السياسي وان تبلور الجبهة المتحدة، اذا لم نقل انها لم تستطع حتى الان ان تعطي الحزب القائد ، لم تبلور حتى الان الجبهة المتحدة التي هي اقل ما يمكن ان يطلب منها، بعد كل هذه التجربة الغنية من النضالات الجبهة المتحدة التي تستطيع ان تبلور القرار والمواقف السياسية والتي تستطيع ان تقود نضالات الجماهير بشكل لا يؤدي في النهاية الى سقوطها في اشكال من خيبات الامل المتراكمة والتي تؤثر في النهاية على مسيرة النضال . نضال جماهير المناطق المحتلة لا يزال ، رغم قيام الجبهة المتحدة بالداخل وعلى الرغم من علاقة منظمات المقاومة باشكال متعددة بهذا النضال في الداخل عبر خلايا قاصرا عن بلورة الحاجات الراهنة في النضال الفلسطيني ، والتي اكرر واشدد على انه لا يمكن بلورتها الا من خلال القرار السياسي الواحد والموقف السياسي والجبهة المتحدة التي تعبر عن الارادة الفلسطينية المستقلة . هذه هي الملاحظة التي اردت ايرادها بالنسبة لنضال الضفة الغربية وغزة وبالنسبة للانتفاضة التي نشهدها في الفترة الاخيرة والتي لا بد ان تحفز القيادة السياسية للشعب الفلسطيني على ان تعود وتراجع مواقفها في المرحلة الاخيرة وتنتهي الى شكل افضل ومتقدم على المرحلة السابقة .

بالنسبة للجليل لا شك ان الملاحظة الاولى التي لا بد ان تطرح في هذا السياق هي ان الجليل يطرح في الواقع على مسألة السلطة الوطنية في الفترة السابقة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ الى الان ، ضرورة اعادة النظر في فهم المرحلية التي انبثقت عنها مسألة السلطة الوطنية . من الواضح ان مسألة السلطة الوطنية كانت منصبة على امكانية انتزاع كيان فلسطيني وسلطة فلسطينية على الضفة الغربية وربما الضفة الغربية وقطاع غزة نتيجة التوازنات التي نتجت بعد حرب تشرين اما انتفاضة الجليل وما

يمكن انترتديه من اهمية فائقة اذا نظرنا اليها بارتباطها الوثيق بالعمق فيجنوب لبنان وتواجد الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان ، فانها تطرح مسألة إعادة النظر في الفهم المرحلي للنضال الفلسطيني . هل يقال لعرب الجليل ان يهدف الان هو اقامة سلطة في الضفة اما انتم فعليكم تأجيل نضالكم او عليكم تجميده حتى تنجلي قضية الضفة الغربية وغزة ام ان المسألة تطرح بشكل يؤدي فعلا الى تصحيح مفهوم مرحليةالنضال، والى اعادة النظر في الاساليب التي مورست خلال الفترة الماضية ، وربما تكون حافز لبلورة الموقف الفلسطيني الواحد والقرار الفلسطيني الواحد وبلورة الجبهة المتحدة التي تعبر عن استقلالية الارادة الفلسطينية وعن تطوير نضالاتها . ربما كانت انتفاضة الجليل فعلا لاعادة النظر وتطوير الموقف .

اود ايضا ان اشدد في نقطة مستقلة على ارتباط انتفاضة الجليل بالمعركة في لبنان. المعركة في لبنان التي تطرح على الثورة الفلسطينية لاول مرة امكان الحصول على موقع فعلي ، امكان ارادة مستقلة فعلية ، امكان القدرة على التعبير المستقل والحر عن الموقف ازاء كل مشاريع التسويات ، وتأخذ هذه المعركة بعدا اضافيا واهمية اضافية بانتفاضة الجليل .فالطبيعة الجغرافية في الجليل والاكثرية العربية في الجليل، بالاضافة الى وجود الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان وما يشكله جنوب لبنان منعمق مؤات جدا ومناسب جدا لاشكال النضال المسلح ، للجليل ، مسألة جداً مهمة وتستحق وقفة طويلة لتطوير اساليب النضال في الجليل ولتطوير كل اساليب النضال الفلسطيني في الارض المحتلة ، وهنا اود ان اشير الى ان اي افتعال لخلاف او تناقض في الادوار بين « راكح » وبين منظمة التحرير مسألة تضر وتسيء للنضال الفلسطيني وغير صحيحة وغير واقعية . اذا كان دور منظمة التحرير غائب فلسبب يتعلق بمنظمة التحرير ، واذا كان دور « راكح » بارز فلأن « راكح » موجود ، وليس هناك اي تناقض بين الدورين ، وكل امكانات منظمة التحرير للعمل في الجليل ممكن ان تكون اساسية دون ان ينتقص ذلك من الادوار التي يقوم فيها حزب « راكح » ، وبالتالي فان التنسيق والتكامل ليس فقط مفيدا وانما ضروري وقد يأخذ اشكالا فعالة ، وليس هناك اي مبرر لوجود اي تناقض في هذه الادوار .

اود انانتهي الى التأكيدعلى انبلورة الموقف الفلسطيني منخلال القيادةالفلسطينية التي لا بد ان تشارك فيها التنظيمات في الداخل ، يعني ان منظمة التحرير يجب ان تكون على صلة بتقدير الظرف وتقدير الموقف من الداخل . ولا شك بان للقيادة السياسية ولبلورة الموقف السياسي تأثيرها على النضال في الداخل ، وهي تسبق اقامة خلايا وتوصيل الاسلحة ، لانها هي التي تضع الاطار وهي التي تضع الاهداف اليومية للنضال في الداخل وتأتي بعد ذلك اقامة الخلايا وتوصيل الاسلحة وتطوير اساليب النضال . . . الخ . ان تشديد النضال في الداخل هو الذي يؤدي في النهاية الى تدهور الوضع الاقتصادي والامني في اسرائيل ،والذي يؤدي فيالنهاية الىتضاؤل الهجرة والى فشل محاولات تهويد الجليل ، والى فشل محاولات الاستيطان . اذن تشديد اساليب النضال ومتابعتها واستمرارها هي التي تؤدي في النهاية الى انجازات على هذه الاصعدة سواء في المناطق المحتلة او في الجليل او في اسرائيل بالذات .وكما اشار الاخ احمد فلا يمكن انتظار نتائج سريعة لهذه الاشكال من النضال على الوضع الداخلي الاسرائيلي بمواقف سياسية او بمواقف حزبية ، ولا يمكن تعليق امال على نتائج داخلية انما تشديد النضال هو الذي يؤدي الى افشال كل هذه المخططات والى الاستمرار في الشعور المستمر بالاحباط لدى المستوطن اليهودي ودفعه الى النزوح مجدداً عن فلسطين .

القسم الثاني : تقييم الانتفاضة ودروس المستقبل

الدكتور احمد حمزة :

هناك قضية ذكرت ولكن الاخوان لم يبرزوها تماما ولم يشددوا عليها بالشكل المطلوب . تحدثنا عن انتصارات الثورة الفلسطينية وعن بروز الشخصية الفلسطينية وعن بروز الدور القيادي الذي تلعبه منظمة التحرير الفلسطينية وتأييد المنظمة كممثل شرعي وحيد لجميع الفلسطينيين . ولكن هذا التقدم وهذه الدروس كان يصحبها طرح شعارات وافقت عليها هيئة الامم المتحدة ووافق عليها كل العالم ، وهي التأكيد على حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، ومن اهم هذه الحقوق شعار تقرير المصير على الارض . اعتقد ان هذا الشعار استوعبته جميع جماهير الشعب العربي الفلسطيني في الداخل وفي الخارج وفي الجليل والمثلث وهذا الشعار اثر على معنويات ونفسيات شعبنا العربي في الجليل والمثلث . فليس من قبيل الصدفة والعفوية ان تظهر الانتفاضة في الجليل في الوقت الحاضر . لقد ظهرت بعد انتصارات الشعب العربي الفلسطيني في الخارج وبروز هذا الشعار . فقد اصبح الفلسطيني يشعر ان له حق ، وهو حق تقرير مصيره على ارضه وكذلك شعار السلطة الوطنية او الدولة الفلسطينية . ماذا قامت دولة فلسطينية او سلطة فلسطينية على جزء من فلسطين نكون قد حققنا جزءا من هذا الشعار وهو ان تمكين جزء من الشعب العربي الفلسطيني من تقرير مصيره على جزء من ارضه . وهذا الكلام لا يعني ان الشعار انتهى . اعتقد انه بالنسبة للاجئين الموجودين في لبنان فانه عندما تقول ان لك حقا بتقرير مصيرك على ارضك ، فذلك يعني اولا رجوعه الى ارضه وهذا شيء ممتاز جدا ، ان يرجع الى ارضه وان يقرر مصيره . وبالنسبة للاجئي عام ١٩٦٧ ، فاذا قامت دولة فلسطينية في الضفة الغربية والقطاع فان هؤلاء الفلسطينيين سيتمكنون من الرجوع الى ارضهم وتقرير مصيرهم على ارضهم . وبالنسبة للاجئي ١٩٤٨ الموجودين في الضفة ، يمكن تلبية طلباتهم وافساح المجال لهم في العودة وتقرير المصير على الارض . لذلك اعتقد ان على الاعلام الفلسطيني والاعلام العربي واجب المزيد من التأكيد على هذا الشعار الذي يحظى بتأييد جميع القوى التقدمية في العالم ، وذلك لتعميقه في نفوس جميع الفلسطينيين اينما كانوا ، في لبنان وسوريا وشرق الاردن والضفة الغربية والجليل وفي اي مكان اخر . ان تأكيد وتعميق هذا الشعار هو من الضروريات الملحة في الوقت الحاضر .

الانتفاضة والانتصار في لبنان تجاوزا اطارات التسوية المطروحة .

الدكتور الياس شوفاني :

الحقيقة انني كنت اود تحاشي الكلام عن شعار السلطة الوطنية واعتقد ان موقفي منها معروف ، انا كملتزم بالثورة الفلسطينية وملتزم بقرارات المجلس الوطني الفلسطيني . لكن لنناقش هنا نقاشا موضوعيا . شعار السلطة الوطنية في الضفة الغربية لا يمكن ان اتكلم عنه بمعزل عن السياق السياسي لما يحدث في المنطقة . نحن لا نرسم خرائط على الورق من منطلق المربع الاول ، وانما نطرح شعار السلطة الوطنية في اطار التسوية الشاملة للمنطقة وفي اطار المفاوضات ، اذا سمح لنا بالمشاركة في جنيف ، والتفاوض مع العدو ، وهناك لا بد من الاخذ والعطاء . فماذا كنا نريد ان نأخذ الضفة الغربية من تحت الاحتلال فماذا ندفع للعدو ؟ ثانيا : اذا كنا سندفع فما هو الذي سندفعه وما هو الاساس الشرعي لمثل هذا الدفع ؟ هذه اسئلة لا بد من الاجابة عليها . في تقديري ، ان اقامة السلطة الوطنية ليست خطوة الى

الامام في نضال الشعب الفلسطيني خاصة في الاطار المطروح حاليا وانما هي نكسة الى الوراء اذ انها تحرف النضال الفلسطيني عن الصراع القومي بين الشعب الفلسطيني كجزء من الامة العربية في نضالها مع الاستيطان الغريب الذي سيبقى في تركيبته الايديولوجية كما هو ، ويعترف به ، وبغير ذلك لا يمكن الوصول الى السلطة الوطنية . في تقديري انها نكسة الى الوراء لانها لن تساعد النضال الفلسطيني على الاستمرار وانها ستشققه . فشعار السلطة الوطنية لم يحرك جماهير الفلسطينيين ، القاعدة الاساسية للثورة الفلسطينية في لبنان بالذات ، اذ ان اكثر قواعد الثورة في لبنان تأتي بالاساس من الجليل . فامامنا اهل صفورية ، اهل سعسع ، اهل البصة. فتقديري ان شعار السلطة الوطنية كان سيفسخ النضال الفلسطيني ولا يدفع به الى الامام . بالاضافة الى ذلك ، انا اتفق مع الاخ محمود في شيء المحت له سابقا ، ان انتفاضة عرب الجليل على خلفية ما حدث في لبنان خلال سنة او اكثر وخروج الثورة الفلسطينية منتصرة وخروج الحركة الوطنية الشعبية في لبنان المتقدمة على قياداتها ، يفتح افاقا جديدة لن تستطيع في تقديري اي قوى ان تكبحها وستسير الى الامام . وانتفاضة الجليل على خلفية ما حدث في لبنان وخروج الثورة الفلسطينية منتصرة بمكاسبها السياسية خلال سنة ٧٤ و ٧٥ ، هو نتيجة مباشرة لاستثنائها القسري من المشاركة في التسوية وليس ، نتيجة الرفض الابات للتسوية . الدليل امامنا ، ان الاتحاد السوفياتي الذي قبل بالتسوية ولم يتمكن من تنفيذ اي شيء خرج خاسرا . الثورة الفلسطينية استثنيت من التسوية ونتيجة لعرقلة التسوية انجزت ما انجزته من مكاسب سياسية . اذن ، الثورة الفلسطينية في مواقعها الحالية وفي الظروف الراهنة في المنطقة لن تخرج باي شيء من التسوية المطروحة لانها تطرح في الاساس التنازل عن الارتباط بالارض ، وهي النقطة التي اردت ان اشدد عليها في الاساس . وهنا اصل الى الكلام عن منظمة التحرير . هناك مثل في الانجليزية يقول انك لا تستطيع اكل الكعكة والاحتفاظ بها . مطروح ، وباعتراف خارجي ، ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . اين هو الشعب الفلسطيني ؟ نصفه تحت الاحتلال ، يقول الاخ عربي عواد ان اساس الصراع هو قضية الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال ، فماذا عن قضية الشعب الفلسطيني غير الواقع تحت الاحتلال وهو اساس النضال ؟ هل يناضل لرفع الاحتلال عن نفسه ؟ او يناضل لرفع الاحتلال عن رقعة من الوطن العربي ؟ اذن الصراع مع الشعب الفلسطيني يجب ان لا يحور ، هو صراع بين الشعب الفلسطيني والمستوطنين الصهاينة على الانتماء للارض كوطن ، مجمل الارض. في الطرح الاساسي للثورة الفلسطينية بقبول الدولة الديمقراطية هناك انتماء لكامل الارض ، يسمح ، نتيجة للظروف الحالية بانتماء عنصر بشري اخر لنفس الارض ، ولكن لا يسمح بتقسيم هذه الارض . انني اتفق مع الاخ محمود بالنسبة لاعادة النظر في البرامج المطروحة اذا كان لا بد من مرحلة النضال فلنرى الواقع ، فمرحلة النضال تنبع من واقع معين ، اين نحن متواجدون الان ؟ ما هي مواقعنا في موازين القوى ؟ وماذا يتطلب منا الوصول الى الاهداف المطروحة حاليا ؟ وهذا يحتم علينا اعادة النظر . المطلوب منا اذا اردنا سلطة وطنية في الضفة الغربية ان نجتاز الحاجز الاردني فما هو الثمن الذي سندفعه مقابل ادخالنا في هذا الاطار . هناك تلميحات عن الاتحاد الفيدرالي ، وهذا الاتحاد الفيدرالي هو الذي ، اذا نجح ، سيقود الشعب الفلسطيني الى تركيبة عجيبة غريبة من نوعها ، تكون في اطارها السياسي نابعة من المملكة المتحدة المطروحة ، وفي حلها لمشروع السلطة نوعا من مشروع آلون . فهل هذه خطوة الى الامام في النضال الفلسطيني ؟ وهل هناك امكان للحصول على اكثر من ذلك في اطار موازين القوى المطروحة حاليا ؟ اعتقد اننا الان في لبنان في

موقع يقدر فيه على الحسم السياسي . وانني اتفق مع الاخ محمود في ان الاطر التنظيمية للنضال الفلسطيني متأخرة ومتخلفه عن النضال الفلسطيني والجماهير الملتفة حوله في هذه المرحلة . العقل السليم يقول انك موجود في جنوب لبنان وقواعد الجنوب كلها ملتزمة معك ، انت موجود في قواعد عسكريه في جبال لبنان الجنوبي ، امامك حركة وطنية مساندة قادرة على قلب موازين القوى في المنطقة عامة والتصدي للامبريالية في النقطة التي كانت الامبريالية ترتع بها ، فمن الضروري اعادة النظر في هذه البرامج ومرحلتها انطلاقا من هذه النقطة بالذات . امامنا واقع ، فانتفاضة الجليل هي رد فعل لتحرك صهيوني من شعور بالخطر الحقيقي ، حيث ان الجليل لا يزال في اساسه عربيا ، والكيان الصهيوني يواجه ازمة استيطان فعلية من الناحية الديمغرافية ، فالناس الذين يسكنون المدن لا يحبذون الذهاب الى الريف . وهناك تحرك في لبنان وهذا التحرك قد يقلب لبنان الى دولة مواجهة ، والمستوطنات الاسرائيلية التي بنيت منذ عام ١٩٢٥ ، مثل حميسا ، الون ، منحسوبا ، غير كافية للتصدي لهذه الحركة . اذن ، فاذا انقلب لبنان الى دولة مواجهة فيها هذه التركيبة الفلسطينية ـ الوطنية ، لا بد من التصدي لها بحركة تهويد واسعة للجليل ، يكون احد مركباتها الاساسية الاستيلاء على الاراضي . اذن القضية ليست خيالية كما قد يتصور المرء . النقطة واقعيه وملموسة ويمكن الانطلاق منها على اساس خط جديد للبرامج المطروحة . انا اقول ان لا مبرر في هذه المرحلة لمرحلة النضال . انطلقنا على اساس صراع على الارض مع كيان قائم ، فلنبق على هذا الصراع ونضم الشعب الفلسطيني بفئاته المختلفة ،المنسية والقائمة حول لواء منظمة التحرير، الى ان يصبح هناك شيء يحتم علينا المرحلة .

احمد خليفة :

كي لا يبدو ان النقاش يدور حول قضية اخرى غير القضية التي من اجلها عقدت الندوة وهي الانتفاضة في الضفة الغربية والجليل . الحديث حول موضوع السلطة الوطنية له صلة وثيقة جدا بالانتفاضة التي جرت ، لانه بعد ان حددنا حجم الانتفاضة واهميتها ، كان السؤال الذي تبقى هو ماذا نفعل لاجل استمرار هذه الانتفاضة . انني شخصيا اعتقد ، وقد طرحت موضوع السلطة الوطنية وسبقني الى طرحه الاخ عربي عواد ، بان طرح شعار السلطة الوطنية واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة كشعار مرحلي ، ساعد جدا في حدوث الانتفاضة وفي ما نسميه بالنهوض الفلسطيني الان . واكثر من ذلك فقد ساعد طرح هذا الشعار على استقلالية العمل الفلسطيني وحال دون حدوث تسوية عربية كان يمكن ان تتم . لانه بعد حرب تشرين ، وخاصة بعد صفقة سيناء ، التي نفذها النظام المصري لصالح الامبريالية الاميركية والطبقة في مصر التي تريد عودة الامبريالية الاميركية الى مصر، كان هناك استعداد لدى النظم العربية لان تعقد صفقة على حساب الشعب الفلسطيني يكون الكاسب منها النظام الهاشمي. فجاء طرح شعار السلطة الوطنية الفلسطينية واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة كشعار مرحلي ساعد جدا في الحؤول دون اتمام مثل هذه التسوية . هذا الشعار كان في تلك المرحلة صحيحا لانه كان يبدو حسب ميزان القوى في ذلك الوقت انه ممكن التحقيق كشعار مرحلي . لكن الامبريالية الاميركية والعدو الاسرائيلي حاولوا تحويل هذا الشعار من شعار مرحلي الى شعار استراتيجي ونهائي . اي ان العدو يريد انتزاع اعتراف فلسطيني باسرائيل .

وفي ظل غياب هذا الاعتراف ، واذا كان هناك اصرار من قبل الثورة الفلسطينية على

عدم الاعتراف باسرائيل ، ستجد الثورة نفسها مضطرة للتشديد اكثر فاكثر على الكفاح المسلح . هنا اقول اننا اذا اردنــا استمرار هذه الانتفاضة ، يجــب من الان تهيئة الادوات اللازمة لاعادة التشديد على الكفاح المسلح ، مستفيدين مــن هذا النهوض الجماهيري ، مستفيدين من قضية زج الكثير من الجماهير في الجليل والضفة الغربية في النضال الفلسطيني بمستوى متقدم من الوعي والاستعداد للتضحية .

عربي عواد :

القضية الهامة التي يجب التركيز عليها في نهاية الندوة هي النتائج المترتبة علــى الانتفاضة الجماهيرية في ارضنا المحتلة والمتطلبات التي تفرضها . واضح تماما مــن مجرى الانتفاضة نفسها ، ان عدونا المتمثل لم يتورع عن استخدام اشرس الاساليب القمعية في مواجهة هذه الانتفاضة مما يدل على اننا في حاجة ماسة الى مواجهة هذا النهج الارهابي الوحشي بتصعيد النضال وتطويره وتعبئة اوسع الجماهير الفلسطينية داخل الارض المحتلة وخارجها وجذبها وتوحيدها في اوسع جبهة ، بحيث تضم كــل القوى الوطنية الفلسطينية كما ذكر . هذه مسألة في غاية الاهمية وليست هناك ايــة اوهام ابدا عند جماهيرنا بمختلف قطاعاتها التي كانت تخوض غمار المعركة والتــي واجهت هذه البربرية الصهيونية . بل بالعكس ، فالمعركة هي بالنسبة لها اوضح من اي وقت مضى . ان الطريق هو طريق المواجهة المتصاعدة ، وبالتالي فهــذه المسألة في غاية الاهمية . وعلى منظمة التحرير وكل القوى الوطنية الفلسطينية اخذ ذلك في عين الاعتبار .

ومن ناحية اخرى ، نحن مطالبون ايضا بان نكثف نشاطنا على مختلف المستويات. صحيح ان الجماهير هي القوة الاساسية وهذه حقيقة اكدتها الانتفاضة ، ولكن لا شك ان هناك ترابطا موضوعيا بين نضال شعبنا وبين حركــة التحرر العربي في مواجهة الغزوة الصهيونية، من حيث انها ليست مقصورة في اطماعها على الشعب الفلسطيني وارضه وانما هي تمتد الى الارض العربية وضد حركة التحرر العربي بوجه عام وهي اداة بيد الامبريالية . لكن بقدر ما هناك من تأثير من حركة التحرر العربي واوضاعها على الحركة الفلسطينية كذلك هناك تأثير بالمقابل من حركة هذا الشعب على حركة التحرر العربي . كلنا مجمعون على ان البلاد العربية تمر في ظروف غير ملائمة وان رياح الامبريالية الاميركية تهب على المنطقة وتنالها بشكل او باخر، مما يضع عقبة كبيرة امام شعبنا في نضاله لكن رغم الوضع السلبي حدثت الانتفاضة ، ليست في الضفــة الغربية وقطاع غزة فحسب وانما في الجليل الذي عانى ما عاناه من اضطهاد عنصري وقمع خلال ٢٨ سنة . هذا يكفي وحده ليثبت ان في مقــدور شعبنا الفلسطينــي ان يواجه السلبيات وان يتجاوز تأثيراتها . ومن هنا فان دفع نضال هذا الشعب وتطويره من شأنه ان يؤثر تأثيرا ايجابيا . وعندما نتحدث عن هذا الشعب ونضاله لا نقصــد فقط الارض المحتلة ، وانما كذلك في لبنان . وفعلا فان مجرى المعركة في لبنان لم يؤثر على الشعب الفلسطيني فقط ، وانما سيؤثر ايضا على حركة التحرر العربي ، هــذه علاقة جدلية . ومن هنا هذا التكالب الاستعماري الرجعي اليميني في المنطقة العربية لدفع مجرى الاحداث في لبنان بحيث لا تسير في اتجاه انتصار للحركة الوطنية اللبنانية بقواها الوطنية والتقدمية متلاحمة مع الثورة الفلسطينية ، لان ذلك سيتــرك تأثيره الملموس على مجرى حركة التحــرر العربي في اتجــاه تمهيد الطريــق امام الشعب الفلسطيني ونضاله وعندما يجري الحديث عن اهداف الشعب الفلسطيني ونضاله في هذه الفترة ، وعندما يجري الحديث عن الاهداف التي طرحتها منظمة التحرير فــــي

البرنامج المرحلي في المجلس الوطني الثاني عشر ، لم يرد في الذهن مطلقا ان الظروف اصبحت الان ناضجة تماما لتحقيق هذا الهدف . بالعكس ، يدور أشرس نضال من اجل تحقيق هذا الهدف . انني اتفق مع الاخ الذي ذكر ان هذه القضية توضع في وجهها مؤامرات وعقبات متعددة الاشكال : المذابح التي تجري في لبنان ، تحرك الحكم في الاردن ، اتفاقية سيناء والبنود المعلنة والسرية فيها ، كذلك ما يجري في المنطقة العربية من افتعال الصدامات مثلا بين الجزائر والمغرب ، وكذلك الذي يجري في منطقة الخليج . كل ذلك في الواقع اجواء ، المقصود منها ليس ضرب حركة التحرر العربي بوجه عام ، انما ايضا وبشكل خاص ، ضرب الشعب الفلسطيني وحرمانه من تحقيق الهدف الذي ورد في البرنامج المرحلي ، وكيسنجر علق على الانتفاضة بانها موجهة للمخطط الاميركي . من هنا فان القضية الاساسية التي نخرج بها من الندوة هي اننا مطالبون على ضوء الانتفاضة الرائعة التي جرت في الضفة الغربية وقطاع غزة والجليل ، بالبحث عن وسائل تطوير النضال ، تعميقه ، تعبئة اوسع القوى والجماهير الفلسطينية وان يتخذ هذا النضال اشكالا جديدة . صحيح ان الكفاح المسلح هو ارقى الاشكال ، لكن التجربة اثبتت ايضا ان الاشكال الاخرى الملائمة والضرورية، السياسية والجماهيرية ، وهي التي تمكن كل مواطن من شعبنا من المساهمة بدوره في المعركة ، ثم التحرك على النطاق الدولي ، وقد شاهدنا تأثير الذي لم يكن فقط مجرد الحصول على تأييد عالمي ، وانما كان له دور في الهاب الجماهير وتحريكها .

الدكتور الياس شوفاني :

انني لا اتفق مع الكلام الذي طرح هنا وهو ان الكلام عن السلطة الوطنية لا يمت بصلة الى هذه الندوة ، بل ان الكلام عن السلطة الوطنية هو في صميم هذه الندوة اذا كنا نريد استخلاص الدروس والعبر وماذا يجب ان نتعلم في المستقبل ، وماذا يجب ان نطرح من برامج ، ففي صلب الموضوع تصور برنامج الثورة الفلسطينية للمستقبل . من المفروض عقد المجلس الوطني الفلسطيني في القريب وفي تقديري انه يجب تطوير الكلام بعد هذه الانتفاضة عن برامج الثورة الفلسطينية ، حتى يعيد المجلس الوطني الآتي النظر في البرامج المرحلية التي طرحت في المجلس الثاني عشر.

هذه الانتفاضة وضعت النضال الفلسطيني على صعيد جديد . اذا كان لا بد من طرح شعار جديد فيجب بالاساس العودة الى البرنامج الاساسي للثورة الفلسطينية، وتطوير بعض جوانبه بحيث تنم المرحلة القادمة عن رفع مستوى الصراع وتنظيم العلاقة بين الفلسطينيين اصحاب الارض الاساسيين والارض والمستوطنين ، باطار اكثر تطورا على اساس الدولة الديمقراطية ، وتطوير الاسس المبدئية التي طرحت في الدولة الديمقراطية الى شعارات اكثر تقدما تحفز الناس في الداخل بمختلف مناطقهم على النضال من اجل تحقيق هذه الشعارات اذا كان لا بد من مرحلتها ، باعطائهم المزيد من الارتباط بالارض : المزيد من القدرة على تحديد العلاقة بين الناس والارض. ولا اعتقد ان ذلك صعب جدا . فهو مرحلة نحو الدولة الديمقراطية وليس نحو تقسيم اضافي لفلسطين .

محمود سويد :

في تقديري ان المرحلة التي وصلها النضال الفلسطيني حاليا ، وكل الانجازات التي تحققت خلال السنوات الماضية على الصعيد السياسي والعربي والعالمي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وتصعيد النضال الفلسطيني وتطوير كل هذه

الانجازات والمكاسب مرتبط الان اشد الارتباط بتطوير البنية الداخلية للقيادة الفلسطينية وتطويرها بشكل يلبي فعلا حاجات المرحلة التي وصل اليها النضال الفلسطيني . في تقديري ان التطوير المطلوب للبنية الداخلية للقيادة الفلسطينية هو ان تكون القيـــادة السياسية والاجتماعية . فالقيادة الفلسطينية لا تزال في مجالات متعددة لا تمارس ، (وان كانت تمارس على الصعيد السياسي) ، على الكثير من الاصعدة المكملة للصعيد السياسي . ولا بد من هذا التطوير الذي بدونه تبدو كـــل هذه المكاسب والنضالات مهددة في حال استمرار البنى الحالة للقيـــادة الفلسطينية في اشكالها وفي قدراتهـــا الحالية .

عبد الجواد صالح :

اود ان اتكلم باختصار عن موضوع امكانية ووسائل تطوير هذا النضال الجماهيري في داخل الارض المحتلة بنقاط مختصرة والعمل في اطارين . هناك اطار طويل الامد ، من العناية بالتراث الشعبي للشعب الفلسطيني الى العناية بمشاريع الاسكان ومساعدة الشباب الذي يتخرج بايجاد امكانية العمل في داخل الارض المحتلة ، الـــى موضوع مساعدة الطلاب حتى يتمكنوا من اتمام دراستهم والرجوع الى الارض المحتلة . وايضا لا بد من التنسيق بين اجهزة المقاومة التي تعتني بالارض المحتلة ، وتطوير هذا التنسيق حتى يتم القيام بعمليات مسلحة ضد التواجد العسكري الصهيوني في مختلف الاراضي المحتلة (عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧) بتعاون كافة فصائل المقاومة . العمل بالحـــوار المستمر مع كافة الفصائل التي تعمل داخل الاراضي المحتلة لتطوير نضالاتها حتـــى تلتزم بالكفاح المسلح . ولا بد من العمل لتطوير اجهزة منظمة التحرير بشكل ثـــوري يخدم هذه النضالات الجماهيرية لتتمكن من قيادتها .

من نابلس الى بيروت
دمي علامة والطريق طويل

علي الخليلي

— ١ —

تأججي ايتها النافرة . آمنت بالاقمار تنبع زعترا وحجارة مضيئة . لا انت شائخة في دمي . لا انت موهنة في الصعاب . اكتب على جدرانك ما حييت . استنفر الخيال. جسدي صوتك :

— قف ! هويتك ؟

— حجر ، حجر ، حجر .

تشابهت فيك . لا اقسم باحتمالات الاماني ولا اختزن مطري . غيوم الحرائق اكملتني وبلغت الرشد . ها انت تكتفين بالاشارة يا ايتها الحبلى بأطفال الحرب . ونكتفي بالموت الرائع حتى نغرق في صوتك . انهضي من الاذهان نعدو في سهوبك . كل التعب : هذا القهر ، هذا الانفجار نلتقي في خلاياك ، فلا تمنحينا ملامح اللجوء ، نابلس ، لا تفتحي كل الابواب . ما زالت النشوة في اولها ، وارعش قبل الوصال . هذا « عيبال » وهذا « جرزيم » ، سمعنا واطعنا : يا نار لا بردا تكونين لا نزهة الابدان . اخفض راسي للعلم الفلسطيني . حمامة ام رصاصة يا قمري . وانت انت : لا تختبئين تحت التراب . لا تسألينا هل اخرج من اصابعكم والبس الليل . تتناثرين في الذهن . هذا الصوت صحوة المحارب الجميل . هذا الصوت ذاكرة الفلسطيني . كوني دليلي . للصحارى وراءك طعم النهايات . للبحر امامك صبح البدايات . واذ ينبثق الاطفال من الازقة يحملون وجوههم قناديل قناديل :

« يا قمرنا طل طل وضوي الكرة الارضية
« ما خلقنا نعيش بذل خلقنا نعيش بحرية

تنفجر براعم اللوز . ينمو الاطفال . وفي الخط الفاصل ما بين قلبك وبين الجبل علاقة نهار . بنادق الجنود تنتصب . وانت انت تتناثرين تحت الرصاص . هكذا هكذا يتناثر الاطفال داخل لحمك . رايتك اجمل من كل الامهات . ورآك مصطفى مسعود اجمل مما رأيت . مصطفى ابن العتال ببنطاله المزق وانفه المتلىء بدخان البارود والغبار والمخاط . سألناه : لماذا تحلم بهذه الطريقة ؟ قال : انا افرح لاول

مرة . وكانت المجنزرة الاسرائيلية توزع بقايا دمه على طول الزقاق . يا مصطفى يا عشق الطلاب والطالبات . امك تزغرد وترشق جنود اسرائيل بالحجارة . قالت جارتها العجوز : ليت رحمي ينضج من جديد . ونكتفي بالاشارة يا جبل النار .

— ٢ —

كانت الشرارة باقتحام مدرسة « قدري طوقان » بنابلس . في خاصرة المدينة يطلع السهم الشرقي فيضا مشتعلا حيث تصحو المدرسة كل صباح ، تماما قرب السجن المركزي ، وقرب مبنى الحاكم العسكري، وعلى بعد خطوة حمراء من مخيم «بلاطة» . عشرات الجنود المدججين بالسلاح يقتحمون المدرسة . الطلاب اعلام فلسطينية خفاقة : يا صهيوني ارحل عنا . ثورتنا ثورة مستمرة . فدائيون فدائيون . فيندفع السلاح الحاقد الى الاجساد الفتية والكتب والاقلام . يصدح الدم الفلسطيني امام العالم كله . وينتشر الزعتر في موائد كل الفقراء . وها نحن نوفي العهد . ليس للسر غطاء . اكشفوا جسد الطفل : « تشهد مدن الضفة وقراها تظاهرات يقوم بها الشبان والشابات تدعو الى انهاء الاحتلال الاسرائيلي . وفي قرية ابو ديس قرب القدس تجري اهم التظاهرات بتشييع طفلعربي يبلغ العاشرة من العمر قتل برصاص جندي اسرائيلي » نتدفق في شرايينك . انطقي ايتها الحجارة ، فالاصابع الاطفال اللثغات تعلمنا ان نوقد العناقيد ، يا صدر امي .

— اطلق النار !

فيتكاثر البرقوق الاحمر ، ونفهم معنى الاشياء الصعبة . ويقول الرجل : عانق وجعي يا عصفور . اناذا اتمدد في كل فلسطين .

— ٣ —

احجار فلسطين لها نبض حقيقي . بأمكاني ان احدثكم عن ذلك بهدوء وحب . وقد تعلمت ، في اللحظة التي اخرج فيها من دائرة « الجسر » ان اتحسس اول حجر اصادفه ، ثم المس وجهي ، فأكتشف نفسي من جديد هذه ليست صلاة ، لان «النهر» العجوز الشاحب يشق رأسي نصفين . كنت قد نهضت في الصباح وفي نيتي انا اعانقكم واحدا واحدا . انني الح على مسؤولية فرحي معكم . ولكن « عمان » تتراكم فوق الجرح فنادق فنادق . ولا يمكنك ان تعرفها من خلال الرماد . لم افاجأ بلقائها . هذه الجبال تعني لنا الكثير . قبل ان يذوب الندى وقفت على رصيف الشارع الرئيسي . ليست الاسماء مهمة ، الآن ، فسائقو السيارات العامة يميزون الفلسطينيين . جدي وجدتي ، وعلى طول الطريق الى جسر « دامية » ظلا يحلمان بأشجار فلسطين .

— يا امرأة ! فلسطين على بعد حكاية صغيرة من هنا .

— فارس استشهد في بيروت . وعدنان اعتقل بنابلس ،

وفي الخليل والقدس ورام الله والبيرة والناصرة يرفعون اعلام فلسطين .

— لا تدخن يا ابا فارس ، اريدك قويا تحرث الارض وتعصر الزيتون . ضحك جدي ، وشعرت بقوة ملء اعماقي . افرغتنا السيارات امام نقطة تفتيش اردنية .

تناثرنا في الحجرات الطينية . لـم نتبادل النظر في عيونهم . خرجنا مـن جغرافيا الصحراء الى تاريخ الدم واللوز والزيتون والبرتقال . كان النهر يفصلنا عن فلسطين بهمسة واحدة . ابتسم لنا المتالون ، وتكدسنا امام الصهاينة . بنادق ــ خوذات ــ اجهزة الكترونية ــ عيون حاقـدة ــ اسلاك ــ حواجـز ــ تفتيش ــ تفتيش ــ تفتيش . ها انت تغضب ، وتكتم الحمى . ولكنك لن تبكي ساعة معانقة التراب . ها انت حزين وممتلىء بالتناقض ، فهل تمتلىء بوجوه رفاقك القدامى . لماذا تنفعل هكذا . انت الآن داخل النبض الفلسطيني . انت الآن في الداخل . تحسس حجرا وجها كأنك تقابل نفسك لاول مرة منذ مئات السنين . اندفع الى الزعتر والميرميـة والحميض والخبيزة ، فتلمس بمنتهى الدقة عضلة في صدرك تخفق تخفق تخفق . التق مع بقايا الاهل . ولكنك لا تبكي . لماذا ايتها الغيمة . لماذا ؟ ما بين عينيك وعيني يتكامل الحب . انقذيني من موت لا يوصلني . انقذيني من وصال ميت . فمن يقترف موتنا في الصبح الجميل ، واي الاعشاب العربية لم تشرئب اليك . تنفست حيـاة وفرحا . قاسمتك رصاصة تعرفها اغاني الصيادين والحجارين والحدادين ،فاستوفي

شرطي : نصحو حتى تجدينا بين يديك لافتة واضحة :

نعم للثورة ،

نعم للبحر ،

نعم للوز الاخضر ،

نعم للجيل الجديد

نتشكل فيك خلية ، خلية . والازقة العتيقة تعرفنا وجها وجها .

اهز جسدي لك زيتونة ، نخلة ، تينة ، لوزة . اقطفي فرحي .

ينهمر الرصاص : اشمك .

ينهمر الرصاص : احسك .

ينهمر الرصاص : اواعدك تحت المطر ، قميصك قرنفلة وبدنك بيت .

يوما ، خجلت من يدي ، فامنحيني منجلا لاستطيل اليك .

— ٤ —

قلت لكم ان احجار فلسطين لها نبض حقيقي . هذا صحيح . وقد اكتشف الشبان والشابات الفلسطينيات هذا السر قبلنا جميعـا . تجمعوا مثل حبة جوافه ، ثـم انتشروا مثل وردة جورية : مجموعة تجمـع الحجارة وتفرزها وتوزعها في اماكـن معينة . ومجموعة تصنع المقاليع . ومجموعة مـن فقراء العشاق الرائعين تهاجم العدو مباشرة . هكذا : حجارتنا الفلسطينية ضد دبابات وآليات اسرائيل . امـا المجموعة الاخيرة فتعمل على تهريب العناصر بين زواريب الازقة والاحياء .

في فلسطين ، تنمو ايضا اطارات المطاط ، تماما مثل اي الكائنات الحية . ١١٤ سيارة شاحنة ملأتها اجهـزة الحكم الصهيوني باطارات المطاط من مدينة نابلـس وقذفتها في وادي الباذان على بعد ١١ كيلومترا مـن المدينة ، وظلت المدينة تشتعـل

باطارات المطاط . هذا الشعب يزرع حتى النار . قال الحاكم العسكري . ونكتشف وحدنا جذور القمح في بلادنا .

ولكن اسرائيل .. لا تفهم هذه الاسرار ، فتبطش وتفقد آخر خيط في يدها :

ـــ ضرب الجماهير بلا استثناء بالعصي واعقاب البنادق .

ـــ مداهمة البيوت وتحطيم ما فيها .

ـــ اعتقالات .

ـــ غرامات مالية باهظة .

ـــ رصاص ـــ قنابل .

ـــ تضليل اعلامي ، كذب مستمر .

ـــ ٥ ـــ

في الزقاق تتسلق الدالية عيوننا . قلت : اتكئي على حبة القلب . قالت : اتوافد قطرة قطرة ولا اكتمل . وقالت : ما هاجـرت عصافير البلـد . وقالت : القمح واف والاطفال يكبرون . ولكن الاشارة الحمراء توقفنا صفا . نزعت جدتي غطاء راسها امام « باب العامود » وقالت : في القدس اكشف شيب راسي للعصافير . وقالت : من هنا تندفع الطريق الى حيفا . وكان فرحي بحرا . انا لا اخجل من موت رائع . ايها البحر الابيض المتوسط استقبلني شابا فتيا . اكلت من خبز القدس ، فتجمعوا حولي :

ـــ حدثنا عن بيروت .

شجرة شجرة نمونا . كنت اغمض عيني واعلن ان بيروت في بدني . انطلقنا مـن بيت مصطفى . ومصطفى يا رفاق عتال كادح ، حبسوه مرة في زمن الملك لانه قال : ما يدوم حال . وضربوه في زمن الاحتلال لانه قال : لا يحرث الارض غير عجولها .

ـــ نعرف بيروت ولم نرها .

ـــ نعرف اسماء كل المخيمات والشوارع والاحياء .

ـــ نحلم بها .

ـــ نعرفها من ايار الكحالة الى نيسان عين الرمانة .

ـــ نعرف الوجوه والتفاصيل .

اسألينا حالة لا تموت فيها داخل بيوتنا . زفاف المدن العتيقة منتشر في الطـرق كلها ، وصوتك يحتمل انفعالاتي انهياراتي . واعرف ان الفرح مسؤوليتي . يحكى ان بذرة قررت الهبوط الى قاع الابيض المتوسط ، فقاومتها الموجـة الغضوب . تجذرت البذرة في جسدي يوما وغاصت . هكذا عرفت طريقها الى القيعان الحمراء ، ذلك اننا لم نفقد الاحساس بعنف الاشياء . فالعالم ندخله كل يوم جديدا جديدا . وغيوم الحرائق تحلـم معنا .

– ٦ –

يحاصرونك . اسألي عنقي هل يطيع الانتحار . علاقتي بك موت مستمر . علاقتي بك عشق مستمر . لا سكري يصفو ولا لغتي تتعلم حقد الحروب . ها أنت عقلة زمن الحرب . يحاصرونك . لغتي تتكاسل وحدها اذ تنتشر رقاب الاشجار تحت كل جسر . اغفري للماء نزوته في السيول المجنونة . يا طفلي في بيروت لا تنزل الى الشارع . يا طفلي في بيروت كن خشبة في البيت ، آنية فخار ، دمية اخزنك في القاع.
هذا الموت عقلاني جدا فلا الطقوس تبقى ولا الشعر الجميل . تخرس قنابل الهاونات ام تتشكل في عروقنا . ليحكم بيروت عشرة قناصين فتحلم بيروت برغيف الخبز . ها انت متعبة في الحلم وميتة تحت عيني . يحاصرونك مدينة الصدف ام سيدة الاعماق . الموت علاقة يومية . لا تنكسري تحت زندي . اصبح تحت الشرفات المهدمة : اراك ايها البحر وارى عكا . دمي علامة والطريق طويل .

سليم البهلول

توفيق فيــاض

(قصة)

عدة شهور مرت على مخيم جنين والحياة فيه تكاد تسير على وتيرة واحدة ، فمنــذ ان اجتاحته القوات الاسرائيلية الغازية ، والرجال القليلون الذين بقوا في المخيم بعد الاحتلال ، يرتدون المنامات المقلمة ، ويتداولون الكراسي الصغيرة المصنوعة من القش الملون في مقهى سعيد الزرعيني، الواقع على حافة الشارع المتعرج الذي يخترق وسط المخيم . بعضهم يلعب الــورق ويحتسي الشاي الدبسي ، المتواتــر على الطاولات الواطئة المشققة الجرباء ، والتي تلذوعت حوافها باعقاب السجائر المنطفئــة عليها . وبعضهم يعانق خراطيم النراجيل المهدبة ، منحنيا عليها بألفة ورقة عجيبتين ، واحجار النرد تتراكض بين الصدور فارة ككائنات صغيرة محاصرة ، لا تيأس من البحث عن مخرج لها من بين اسوار « الطاولات » البنية الباهته ، وانامل اللاعبين المشعوذة ، تطاردها . تمسكها تحكم الحصار حولها ، تخضها . تصطك . تفركها ، تلوحها ، فتفر من بينها ثانية لتصطدم بالاسوار من حولها ، والانامل تعاود الكر خلفها .

وبين العشرة الطيبة والشيش بيش تشتبك القوات المصرية على قناة السويس . تتراشق بالمدفعية الثقيلة والرشاشات . والفدائيــون الفلسطينيون ينصبون كمينــا لدورية معادية في الاغوار ، يعطبون آلياتها ويشتبكون معها بالرشاشات الخفيفــة والقنابل اليدوية ، فتغير طائرات الميراج والسكاي هوك الاسرائيلية على منطقة اربد تقصف مخيمات اللاجئين بالصواريخ . تحرقها بالنابالم ، تطــارد الفارين من الموت بالرشاشات . تحصدهم ، ثم تعود الى قواعدها سالمة .

يحتد النقاش ، تنفصل الخراطيم عن الشفاه المقبلة ، والعشرة الطيبة تطوى ، فلا يجدي هذه المرة « الدبش » ولا « الدام » تنفع ، لاختلاط عدد القتلى والجرحى بارقام العشرة الطيبة والاحجار المدورة . فتتوقف الحيوانات الصغيرة عن تراكضها ، والانامل الملاحقة ترتد . تطوى الطاولات ، تفرقع . تقتتل حجارتها . تهدأ . تفح التنهــدات اليائسة من ياقات المنامات المخططة . تشتعل السجائر ، واكواب الشاي الدبسي تتقافز نحو الشفاه المزمومة ، ثم تعود الى الطاولات الجرباء ، فتمرد فلسطين بينها . تشرح . تحل قضيتها عسكريا . تحل سلميا . تعود الضفة الغربية الى الملك حسين. تعود الى منظمة التحرير الفلسطينية . لا تعود البتة . يحتدون . يقتتلون ، فيحــل الحل سيارة عسكرية تتوقف امام المقهى .

تتعلق العيون بالقبعات الخضر . تتراكض بين نجوم داود اللامعة علــى الجباه .

على الكتوف. تقهر ، فترتد مهزومة حزينة الى العشرة الطيبة واحجار النرد المتراكضة من جديد ، ولا يفرقهم الا بصاق سليم البهلول الغاضب علـــى السيارة العسكرية ، وشتائمه المتلاحقة للجنود الاسرائيليين ، لاصرارهــم على احتــلال فلسطين وعــدم انسحابهم منها ، ومن ثم وقوفه في طرف الزقاق وامطار لاعبي الورق والنرد ، بكـل ما يصادفه في الزقاق من الحجارة ، والاحذيـــة العتيقة ، ونفايـــات الاشياء ، لعــدم مناصرته في شتم الجنود المحتلين ، وانقاذه من الضرب المبرح كلما وقـــع في ايديهم . ولانهماكهم في لعب الورق طول النهار ، بدلا من انضمامهم الى الفدائيين الفلسطينيين الذين تتناقل العجائز والصبايا اخبارهم ، ومحاربة اليهود حتى ينسحبوا من المخيم .

وفي سورة غضبه ذات يوم ، صعد سليم البهلول فوق سطح المقهى . شمر قمبازه القصير المهلهل ، وبال عليهم دون ان يحسب لما سيحل به بعد ذلك من حساب . وكان هم سليم كله ان « يقل » قيمتهم ، وان يشعرهم بأنهم ليسوا رجالا ، لانهم لا يثورون لرجولتهم الا عندما يكون الامر متعلقا به . اما عندما يضربهم الجنود الاسرائيليـــون ويشتمونهم ، فلا احد منهم يجرؤ على رفع رأسه ، بل ينسلون كل الى بيته كالنعاج ، الا انه باء بالفشل هذه المرة ايضا ، ولم ينبه غير الضرب والرفس من « ابو كرش » كما كان يسمي سعيد الزرعيني صاحب المقهى ، بعد ان انصب بوله على مجمرة نرجيلته فقطع عليه « كيفه » وحرمه لذة « النفس » ، فصمم علـــى الانتقام هذه المرة مـــن « ابو كرش » ومن كل من يجلس على مقهاه انتقاما شديدا .

وقد شغلته قضية الانتقام هذه عدة ايام متوالية ، بعد ان سيطرت عليه تلك الفكرة الرائعة ، بأن يغافل احد الجنود اليهود ، ويسرق بندقيته ويخفيها في مكان ما مـــن المقهى ، ثم يوعز للجنود بشكل مـــن الاشكال كي يعثروا عليها ، فيرفشوا في كرش « ابو كرش » ويجروه مع كل من في المقهى الى السجن . الا انه تصور نفسه وهو يهمس في اذن احد الجنود اليهود يدله على مكان البندقية ، والنجمة تلمع فوق رأســه وهو ينحني عليه ، فاحس برعشة باردة تهزه ، وراح يلعن نفسه لوصوله الى مثـل هذه الفكرة الخبيثة ، التي ستحوله الى « داسوس » وتقرب النجمة « المسننة » من من جبينه ، فأقلع عنها وهو غاضب من نفسه ، حتى انه راح يضرب رأسه بقبضتـــه لاخراجها من مخه نهائيا . وما ان كاد يخرجها حتى وجد نفسه متورطا بفكرة اكثـــر تعقيدا . وهي ان يكمن للجنود خلف المقهى في الليل بعد ان يسرق البندقية ، ويطلق النار عليهم ويختفي ، مما سيحمل الجنود على الاعتقاد بأن « ابو كرش » هو الـــذي فعل ذلك ، فيبعجوا له كرشه ويغلقوا له المقهى ، وربما نال كل من الزبائن نصيبه من الضرب والرفس والاهانة ، مما سيجعلهم يطلقون النار فعلا على الجنود كي ينتقموا لانفسهم ، وخاصة محمود « ابو شنب » ، الذي لا ينفك عن تفتيل شنبه المعطر امام الذاهبة والآتية من صبايا المخيم .

شد سليم البهلول على رأسه بكلتا يديه ، يوقف تفكيره عن الجري داخله ، وقلبه يكاد يطير من الهلع ، مجرد ان قفزت صورته الى مخيلته وهو يحمل البندقية الرشاشة، وطلقاتها السريعة تتلاحق من بين يديه ، اللتين راحتا ترتعشان بسرعة عجيبة ، واقسم ان لا يعود الى التفكير في ذلك مطلقا . لانه لو فعل ذلك ، فان البندقية سترتد حتمـــا الى صدره وتقتله ، مما سيسبب حزنا عميقا لحبيبته « فطوم » ؛ بل ويعطي فرصـــة لجميع اعدائه للشماتة به . وهكذا اقلع سليم البهلول عن هذه الفكرة ايضا . بـــل وكف نهائيا عن التفكير بالانتقام من « ابو كرش » و « ابو شنب » ، كي لا يورطه ذلك بفكرة اخرى تسبب له الخوف والهلع .

وفيما كان يسير في اتجاه المقهى ذات يوم ، لاح الرجال ذووا المنامات المخططة له ، وتناهت اليه فرقعات احجار النرد ، فراح قلبه يخفق بسرعة ، وعاودته فكرة الانتقام منهم مرة اخرى . وسرعان ما تشابكت كل المخططات القديمة في راسه وغاب عن كل شيء . ولم يعد الى نفسه ، الا حين احس فجأة على هدير السيارة العسكرية من خلفه تكاد تدهمه ، وهي تطلق صفارتها بشكل مفاجيء . وقبل ان يسارع الى تجنبها دفعه احد الجنود بعقب بندقيته وهو يطلق ضحكة ساخرة ، فسقط سليم على وجهه وسط الغبار المنعقد فوق راسه . فسارع الى النهوض ، وقد تملكه الغضب والحقد وهو يلحقهم ببصقة كبيرة ، وما ان هم بجمع بصاقه مرة اخرى حتى اكتشف انه كان يقبض على حجر مدور في يده ، ورغم ان السيارة قد ابتعدت عن مرمى حجره ، الا انه قذفه خلفها بكل قوته ، وهو لا يزال يترنح ، فسقط على الارض مرة اخرى .

اطلق محمود « ابو شنب » ضحكة عالية ، وراح شنبه يتراقص كفكي عقرب هائج على وجنتيه العريضتين اللامعتين . اما « ابو كرش » ، فكاد يغمى عليه من الضحك ، وهو لا يستطيع ابعاد مبسم النرجيله عن شفتيه ، فشرق بمائها وراح يسعل ضاحكا، وكرشه المتضخم يتناثر بحركات غريبة نحو ذقنه .

نهض سليم البهلول ، وهو يجمع لعابه متذوقا فيه طعم الدم ، ونظراته المتوقدة لا تزال تتعلق بشنب محمود المتراقص حول انفه الضخم ، وبكرش سعيد الزرعيني المتناثر على ركبتيه، فراح ينفض التراب عن ثيابه المهلهلة وهو يتعثر في مشيته نحوهما، وما ان مر بهما حتى نثر بصاقه عليهما وانطلق هاربا .

وفيما كان يجري ، لمعت في ذهنه ، تلك الفكرة التي كان يبحث عنها طيلة الوقت دون ان تسبب له الخوف والهلع . فتوقف لاهثا وهو يلتفت خلفه باحثا اذا ما كان ثمة من يلاحقه ، وقد تهلل وجهه وارتسمت على شفتيه سمة انتصار عريضة .

فرك يديه وعيناه تجولان الطريق حوله ، فوقع نظره على حجر كبير مدور . انفرجت شفتاه . سال اللعاب من بسمته . تقدم نحوه . نظر حواليه يغافل المارة . انحنى عليه . التقطه . دسه في عبه وانطلق .

انحنى في اول زقاق ، واستدار خلف المقهى . التصق بالجدار ، وربض في انتظار الدورية الاسرائيلية حتى تعود . تلفت حوله . تثبتت عيناه في اول الطريق . تحفزت اعصابه . تعلقت عيناه بقرص الشمس. كانت الشمس تتعلق في نهاية المخيم .دمعت عيناه . خيل اليه انها تكاد تسقط فوق البيوت . دق قلبه بسرعة . سقطت عيناه على اول الطريق مرة اخرى .

اطلت الدورية . كانت السيارة تسير بسرعة جنونية ، مثيرة خلفها زوبعة من الغبار ونفايات الاشياء . ارتعشت يد سليم . حك ظهره بالجدار ناهضا ببطء ، كما لو كان يريد الدخول فيه ، وقد اخذ قلبه يخفق بسرعة عجيبة ، وانفاسه تتلاحق بانتظام مكبوت . شدت يداه على الحجر . كورهما . نفخ فيهما . اقتربت السيارة . نقل الحجر الى كفه اليمنى . تلاحقت انفاسه على الحجر بسرعة . مرت السيارة . اتبعها الحجر بكل ما يملك من قوة ، والتصق بالجدار وهو ينتفض .

اصاب الحجر احد الجنود في راسه ، فأطلق صرخة رهيبة اطارت قلب سليم من الهلع . ارتعشت ساقاه . امسك بالجدار .

صرت عجلات السيارة بشدة . توقفت . توقفت ايدي اللاعبين في المقهى على النرد والورق . عادت السيارة بسرعة مذهلة ، تجمد سليم على الجدار . توقفت ثانية . تجمد محمود « ابو شنب » و « ابو كرش » ، وكل من يجلس على المقهى في اماكنهم، دون ان يعوا ما الذي حدث .

وقبل ان يصحو « ابو كرش » لنفسه ، وينهض للاستفسار عما حدث بلهجته المتملقة ، كان الجنود قد قفزوا من السيارة وراحوا يعملون بالجالسين اعقاب بنادقهم واحذيتهم الثقيلة ، دون اي سؤال .

وما كاد سليم البهلول يرى ضابط الدورية يدوس بحذائه على شنب محمود « ابو شنب » وهو يتمرغ بالتراب ، حتى نسي خوفه وراح يغالب ضحكه خوف اكتشافه ، الا انه وجد نفسه يقهقه باعلى صوته ، حين سقط « ابو كرش » على الارض من شدة الضرب ، وراح يتمرغ بين ارجل الجنود ، وكرشه يعلو ويهبط ككرش ثور مطحول ، مما فضح امره ، فلاذ بالفرار باقصى سرعة ، مشمرا عن ساقيه المعوجتين ، مصطدما بكل ما يصادفه في الطريق .



والحقيقة ان قضية احتلال اليهود هذه للضفة الغربية ، وعدم انسحابهم منها ، لم تكن لتطرأ على بال سليم البهلول مطلقا ، الا حين كانت سيارة الدورية تمر وسط المخيم بسرعة جنونية ، فتفزع اطفال المخيم الذين يلعبون في الطريق ، وتروع الدجاج والحمام الذي يبدأ بالتطاير والزعيق ، مما كان يربكه ، ويدب فيه الرعب ، فلا يدري اذا ما كان عليه ان يفر امام الدجاج المتراطم بساقيه ووجهه ، ام امام السيارة المتفتلة في الزقاق كالزوبعة وتكاد تهرصه بالجدار ، بالاضافة الى ضحك الجنود منه وزغته بفوهات البنادق التي ما ان يراها تمتد نحوه حتى يتوقف قلبه خوفا من نيرانها التي قد يلعب الشيطان بها ذات مرة ، فتخترق صدره وتقتله .

ولولا ان «عمر الشقي بقي» ، كما كان يقول له « ابو كرش » دائما لكانت السيارة دهسته منذ زمن . ولكنه كان ينجو من دهس مؤكد في كل مرة كانت تمر فيها الدورية من وسط المخيم .

اما الشيخ عبد الرحيم « ابو دقن مقمله » كما كان يسميه سليم . فقد كان اكثر الناس تمنيا له بالموت ، وخاصة تحت عجلات سيارة الجنود اليهود ، مما كان يزيد من عدائه له ، وحقده عليه ، فلو انه كان يتمنى له الموت العادي ، او حتى الموت تحت عجلات سيارة احد ابناء المخيم ، لما زاد ذلك من حقده عليه ، اما ان يتمنى له الموت تحت عجلات سيارة الجنود اليهود الذين يحتلون المخيم ، فهذه ميتة لن يقبلها .

ولو توقف الامر عند ذلك من استفزازات جنود الاحتلال له ، لربما كان سليم البهلول يكتفي بالبصاق عليهم كلما مروا وشتمهم ، ولربما نسي مع الوقت حكاية الاحتلال هذه، لو لم يطلع الجنود عليه بحكاية جديدة ، لم تكن لتطرأ على باله البتة .

فبينما كان يجلس ذات يوم على درب الحنفيات يداعب الفتيات ، واذا بسيارة الجنود تتوقف في وسط الطريق، وراح احدهم يدعو الناس من مكبر للصوت في يده،ان يذهبوا الى بيوتهم ولا يخرجوا بأمر من الحاكم العسكري ، وانهم سيطلقون النار على كل من تأخر او خرج من بيته ، حتى سمحوا لهم بالخروج مرة أخرى . الا ان سليم

راح يضحك منهم ، وقد ظن ان الجندي قد اصابه شيء من الجنون ، ولكنه عندما رأى الناس يتراكضون الى بيوتهم ، والفتيات كففن عن ملء جرارهن واسرعن الى العودة ، وقف سليم في طريقهن محاولا منعهن من الانصياع لاوامر هذا الجندي المجنون، وان عليهن سماع ما يقوله لهن من اذن واخراجه من الاذن الاخرى ، الى ان وجد نفسه فجأة ، يقف في عرض الطريق وحيدا ، دون ان يفقه ما الذي حصل ، وكيف انصاع الناس لكلام هذا الجندي المجنون بينما لم يستمع اليه احد ، ولم يصح من افكاره هذه الا على صوت الرصاص يتناثر بين رجليه ، فوضع طرف قمبازه بين أسنانه وولى هاربا ، وقلبه يخفق هلعا ، ثم قبع في المغارة التي كان يسكنها في وسط المخيم . ولم يستطع الخروج ليومين متتاليين ، اذ ما كان يحاول ذلك ويطل برأسه من المغارة ، حتى يلعلع الرصاص حوله ، فيعود وهو يرتعش من الخوف ، حتى انه شعر ذات مرة بانه يكاد يبول في ثيابه ،فاقلع عن فكرة الخروج صابرا على الجوع والعطش ،ومكتفيا بشتم الجنود والبصاق عليهم من داخل المغارة .

ولم تتوقف حكاية منع التجول عند هذه المرة، بل راحت تتكرر المرة تلو المرة، فتمنعه من الذهاب الى الحنفيات وجلب الماء لحبيبته فاطمة ، والتي يدعوها هو « فطومة ست البنات » ، والقيام بما تطلبه من خدمات ، كي لا تتعب ، ولكي يكيد جميع بنات المخيم اللواتي لم ينجحن في محاولاتهن لاستمالة قلبه ، وتحويله عن حب « فطومة » حتى ولا « الست » عايدة « ام تنوره قصيره » ، كما كان يسميها ، والتي وعدته بالزواج منه اذا ما احبها وتخلى عن حبه « لفطومة » . رغم ان فطومة متزوجة وام لثلاثة اطفال ، بينما الست عايدة لا تزال صبية كالغزال .

★ ★ ★

وقصة حب سليم البهلول « لفطومة » ، وفقدانه لعقله ، تعود الى اكثر من خمس سنوات ، وهي الفترة التي مضت عليه منذ ان استقر في مخيم جنين ، بعد ان اقام في جميع مخيمات اللاجئين من قبل . وثمة من يردها الى عام « الهجيج الاول » حين كان سليم لا يزال صبيا ، وفاطمة لا تزال طفلة صغيره بعد ، وانه منذ ذلك الوقت وهو يبحث عنها في كل مكان ، ويتنقل من مخيم الى مخيم ، الى ان طاف جميع مخيمات اللاجئين في الجزء الذي لم يحتله الاسرائيليون من فلسطين ، حيث كان يقيم سنة او سنتين علّه يعثر عليها . بل وفي كل مخيمات اللاجئين في لبنان والاردن .

والغريب انه لم يكن يسأل عنها قط . وانما كان يعتمد في بحثه عنها على علامات فارقة في جسدها لم يهتد احد اليها رغم اجتهادهم ، او على دليل آخر لا بد يحتفظ به كل ذلك الوقت ، ولهذا كان دائم الجلوس على درب الحنفيات الى ان اصبح ذلك عادة ثابتة لديه حتى بعد ان وجدها .

هذه هي الرواية التي اجمع عليها اكثرية اللاجئين في المخيم ، على اختلاف القرى والمدن التي نزحوا منها ، ولكن مع اختلاف واحد ، فمنهم من يقول انها حبيبة صباه ، ومنهم من يروي انها لا بد وتكون اخته ، لشدة الشبه بينهما ، ولذلك الحب الذي تغمره به ، وذلك العطف الشديد عليه . فاطمة تطعمه . وفاطمة تغسل له ثيابه وترتقها . وفاطمة تقص له شعره وتقلم اظافره ، بل واسكنته في براكية من التنك بنتها له بنفسها في ساحة البيت المخصصة لها ، ولولا ضيق حماتها به منذ الشهر الاول وطرده رغما عنها لابقته بقربها ، ولما كان يسكن المغارة الواقعة في وسط المخيم ، والتي كانت تستعمل ملجأ للاطفال من غارات الطائرات الاسرائيلية على المخيم ، ومبولة للصغار

والكبار . اما سليم فعلى الرغم من كل التأويلات يدعوها حبيبته « فطومه » ، ونور عينه .

وكثيرا ما كانت النساء تحاول الكشف عن هذا السر من فم سليم البهلول نفسه ، الا انه كان يغضب لمجرد سؤاله ، ويشتم كل من تحاول سؤاله وجره للحديث عن « فطومة » ، ثم يقاطعها ويناصبها العداء . اما العجائز منهن ، فلم يكن ليشغلهن ويقلقهن من كل تلك الروايات التي تحاك حول سليم البهلول وفاطمة غير شيء واحد فقط ، وهو اذا ما كان سليم البهلول رجلا ككل الرجال ام لا . فكن يتعمدن مداعبته ، ولكزه في اسفل بطنه حتى يغرق فيالضحك ويستلقي على ظهره ،بينما تتعلق اعينهنفي تنية قمبازه عله ينحسر ولو قليلا ، كي يستطعن اكتشاف ما يردن اكتشافه ، الا انه كان يعرف نواياهن ، فيشد على اطراف قمبازه بكلتا يديه ، امعانا في استثارة فضولهن وتعذيبهن ، بل وكان يلكزهن بدوره في مؤخراتهن ، فيتصنعن الغضب ويضربنه . اما الحاجة وفيه فقد كانت تتعمد ضربه على فخذيه ، ولما احس سليم ان يدها بدأت ترتفع ذات مرة على فخذه نحو وركيه ، صك فخذيه وعضها في ذراعها ، ثم ولى هاربا ، وصار يتحاشى الاقتراب منها .

والذين يعرفون سليم من قرية زرعين ، يؤكدون على انه كان في طفولته جميلا ووادعا . حتى ان كثيرا من النساء ممن كن يترددن في شهور حملهن الاولى على بيت والديه كي يداعبنه . وكانت ام فاطمة اكثرهن ترددا وهي في شهور وحامها لقربها من بيتهم ، فولدت فاطمة شديدة الشبه به ، وقد امضيا سني طفولتيهما في قرية زرعين ، الى ان اجتاحتها عصابات « الها جاناه » وشتتت اهلها ثم اضرمت النار فيها .

الا ان الشيخ عبد الرحيم ، كان الوحيد الذي لم يقتنع بقصة جنون سليم ، وانه ليس الا ماجنا فاسقا يتستر بجنونه على فسوقه . وكل ما في الامر ان « ابو ، دقن مقمله » ، كان يحسده ويغار منه لتودد النساء في المخيم له ومداعبته، بينما ينفرن منه ولا يقتربن منه البته ، لانه دائم النظر الى اردافهن المهتزة كلما مررن به ، او الى صدورهن العامرة ، بل وكثيرا ما كان يتعمد حك جسمه بأرداف الفتيات كلما سنحت له الفرصة بذلك ، متصنعا التودد لهن ومباركتهن . ولكي يخفي نواياه السيئة هذه ، لم يلق الا سليم البهلول يتستر خلفه ، فراح يشيع عنه انه فاسق وماجن وما مصيره الا جهنم وعذاب السعير ، مما كان يجعل بدن سليم يكش لمجرد ان يتصور نفسه يتقلب في النار ، وكلما احترق جلده يتبدل ليحترق ثانية ، فيغمض عينيه ويحاول الهرب من هذه الصورة البشعة لنفسه . ثم يقنع نفسه ان الله لا يمكن ان يكون قاسيا الى هذا الحد ، ويلعن « ابو دقن مقمله » لافترائه على الله ووصفه بهذه الاوصاف القبيحة ، وحين راه سليم ذات يوم يتلصص على افخاذ الحاجة وفية من شقوق باب الدار وهي تجلس خلف « لجن » الغسيل نصف عارية ، راح يزفه في عرض الطريق باعلى صوته وهو يصفق بيديه لكي يفضحه بين الناس ، مما اثار غضب الشيخ عبد الرحيم وزاد من سخطه عليه ، وانهال عليه ضربا بمحجانته .

وحين هبت الحاجة وفية خارجة من بوابة الدار بعد ان تسترت ، للدفاع عنه وحالت دونه ودون محجانته قائلة بأن « ليس على المجنون حرج » كما جاء في القرآن الكريم ، راح الشيخ عبد الرحيم يستغفر ربه ، وهو لا يزال يلوح نحوه بعصاه من فوق كتفها وهو يلتصق بها ، مؤكدا انه ليس مجنونا وانما هو فاسق ، يسكنه شيطان رجيم ، وسيفسد عليها حجتها اذا ما ظلت تعطف عليه وتدافع عنه .

وحين احتلت القوات الاسرائيلية الغازية مخيم جنين ، وطالت حكايا الحرب ومـــا خلفته على السن الناس ، نسي الشيخ عبد الرحيم حكاية سليم البهلول ، بل وكـف الناس عن الانشغال بقصة حبه « لفطومة » ، والنساء كفت عن التحلق حوله ومداعبته واستدراجه للحديث ، مما ملأ نفسه حزنا ونقمة على هؤلاء اليهود الذين اتوا وعكروا عليه حياته ، ولولا انه كان يلاحقهم بالشتائم والبصاق ومن ثم رجم الجالسين علـــى المقهى ، لكان الناس في المخيم قد نسوا وجوده مطلقا . ولكنه ما كاد يفعل فعلتـــــه الاخيرة مع الجنود ومحمود « ابو شنب » ، و « ابو كرش » حتى عـــــاد مــرة اخرى ليتوسط الاحاديث والحكايا كأيام زمان .

ورغم انه كان سعيدا بذلك ، الا انه لم يجرؤ على المرور من امام مقهى « ابو كرش » لعدة ايام متتالية ، بعد ان سمع بأن الجنود كادوا يقتلون محمود « ابو شنب » ثــم جروه من شعره وهو غائب عن وعيـــه ، وقذفوا به داخل السيارة تحت ارجلهــم واخذوه . بينما لا يزال « ابو كرش » طريح الفراش ولا يستطيع النهوض بعـــد ان كسروا له ضلعين ، فترك شؤون المقهى لابنه جابر ، الذي لا ينفك يترقب مروره من امام المقهى كي يكسر عظامه ، بعد ان عجز وباقي الرجال من العثور عليه في المخيم ، ذلك اليوم ، ولولا ان «فطومة» اخفته في بيتها وحمته ، لكانوا قتلوه كما كانوا يهددون، يحرضهم الشيخ عبد الرحيم ابو « لحية مقملة » ، مقسما ان سليـــــم البهلول ، ليس ماجنا وفاسقا كما كان يقول عنه دائما وحسب ، وانما هو « شوعي » ملحد ولا بد من طرده من المخيم ، والا فانه سيجر الدمار على المخيم كله ، وخاصة اذا اكتشـــــــف الاسرائيليون ذلك ، وعندها ستكون المصيبة مصيبتهن . ويبدؤون باعتقـــال الناس وحبسهم ، ولكي يؤكد ذلك راح يقسم بأنه رآه في سجن جنين مع زوج فاطمـــــــة « الشوعي » مثله اكثر من مرة ، حين كان يذهب يوم الجمعة ليؤم بالمصلين من المساجين ايـــام حكم الاردن ، حيث لم يركعا خلفه ركعة واحدة ، ثم نقلوهما الى الجفـــر كي لا يسمما افكار المساجين بارائهما الهدامة حيث مات زوج فاطمة وبقي سليم ، الذي ما ان خرج من السجن حتى صار يبحث عن زوجة صديقه وشريكه في الالحاد لكي يعيش معها على الطريقة « الشوعية » .

وقبل ان يتوقف الشيخ عبد الرحيم من تحريضه عليه رغم شفاعة الحاجة وفية لـــه خرج محمود « ابو شنب » من السجن . وما كاد يدخل المخيم حتى انهال الناس عليه، يسألونه عما فعله به « اليهود » ، واذا ما كانوا قد عذبوه كثيرا وكيف .

الا ان محمود « ابو شنب » رفض التحدث الى اي احد في المخيم ، حتى ولا الـــى صديقه الحميم « ابو كرش » ، وقد اوصى والدته ان لا تفتح الباب لاي طارق مطلقا . اما سليم البهلول فما كاد يسمع ان محمود « ابو شنب » قد خرج من السجن ، حتى سارع الى بيت « فطومة » كي تخفيه من وجهه ، لئلا يقتله ، خاصة بعـد ان عرف ان اليهود ، قد قصوا له شنبه ، ولم يكن سليم يتصور انه سيجر على « فطومة » ، مصيبة اكبر مما قد جره عليها حتى الان .

فما كاد يمر اليوم الاول على خروج محمود «ابو شنب» ، حتى راح الناس يتجنبون المرور من امام بيتها، بل وكفت النساء عن التحدث اليها، والابتعاد عن طريقها كلما رأوها مقبلة في الطريق . واذا ما مرت بأناس يتحدثون ، صمتوا الى ان تبتعد عنهم ، دون ان يردوا عليها تحيتها . حتى « ابو صالح الدكنجي » الذي كان يرحب بها دائمـــا ، اخبرها انه لا يستطيع بيعها اي شيء على الحساب وعليها ان تسدد الحساب القديم ،

فغامت الدنيا في عينيها وخرجت من دكان « ابو صالح » ودموعها تسح على وجنتيها بصمت .

كان سليم البهلول يحبو في ساحة الدار ، بينما اعتلى اطفال فاطمة ظهره وراحوا ينهرونه ويلكزونه كالحمار في خاصرتيه ، حين دخلت فاطمة ودموعها لا تزال تسح فوق وجنتيها ، فقفز الاطفال عن ظهره وتعلقوا بثوب امهم ، بينما نهض سليم ببطء وهو يضحك ضحكته البلهاء المتقطعة ، التي سرعان ما تجمدت على شفتيه حين غصت بدمعها وهي تأخذ اطفالها متجهة بهم الى الداخل ، ثم اقفلت الباب خلفها . فوقف سليم ينظر الى الباب المغلق وهو لا يستوعب ما الذي حدث ، ثم طأطأ رأسه وخرج ، وهو يحس برغبة ملحة بالموت .

انكفأ سليم البهلول على نفسه ، واصبح لا يغادر مغارته الا عندما لا يجد ما يأكله ، فيذهب الى « فطومة » ، ويقف خارج البيت وينايدها ، فيخرج اليه احد اطفالها يحمل بعض الارغفة والبطاطا المسلوقة او حبات زيتون ، فيأخذها ويعود ادراجه الى المغارة عارضا عن مداعبة الصبية له .

وحين كانت « فطومة » هي التي تخرج اليه ، كانت تمسكه من يده وتدخله ، فينقاد الى يدها دون ان يستطيع النظر اليها ، ثم تسخن الماء له ، وتغسل له شعره الطويل ، كما كانت تفعل في السابق ، ثم تضع الطعام الساخن له وتحضر الشاي ، فيتناول طعامه على عجل ليعود بعدها الى مغارته ، وينزوي مرة اخرى ليفكر من جديد بقضية الاحتلال هذه وما آلت اليه حاله ، وكيف سيتخلص من هؤلاء « اليهود » ويحملهم على الانسحاب ، كي تعود الحياة في المخيم الى سابق عهدها ، فتعود اليه ايامه الحلوة التي ضاعت ، ويعود الى « فطومة » الفرح .

★ ★ ★

مر اسبوع كامل على سليم البهلول دون ان يذهب الى بيت فاطمة ، ودون ان يراه احد في المخيم ، الا ان احدا لم يفطن الى غيابه ، بعد ان تعود الناس انزواءه وابتعاده عنهم . ولولا افتقاد الاطفال له واستهوائهم لرجمه في لعبهم واغاظته، لما كان يفطن اليه احد ، سوى فاطمة التي افتقدته منذ اليوم الثالث لاختفائه ، اذ ارسلت ابنها يحمل الطعام له فلم يجده فوضع الطعام في المغارة وعاد ليخبر أمه انه لم يجده ، فعادت وارسلته في المساء ليرى اذا ما كان قد عاد ، ومن ثم في صباح اليوم التالي ، الا انه كان يعود ويخبرها انه لم يجده، وانه لميجد سوى القطط التي كانت تأكلالطعام الذي وضعه له في المغارة .

وسرعان ما شاع خبر اختفاء سليم في المخيم وانتشر . قال البعض انه لا بد وان يكون قد « فطس » في المغارة دون ان يدري به احد ، الا انهم سرعان ما اكتشفوا انه لم « يفطس » وانه قد نقل معه « طراحته » التي كان ينام عليها ، فقال البعض الاخر انه لا بد وان يكون قد انتقل الى بيت فاطمة ، وانها قررت اخفاءه في بيتها والعيشمعه خفية .

وما كاد هذا الخبر يشيع ، حتى وجدت فاطمة نفسها محط ود جميع العجائز في المخيم ، اللواتي انهلن عليها بزياراتهن المتواترة يحملن لها ولاولادها الهدايا الصغيرة، فما ان تشيع احداهن حتى تستقبل الاخرى ، وفاطمة لا تفقه مما يجري حولها شيئا . وقبل ان تخرج من حيرتها لهذه الزيارات المفاجئة لها وهذا الحب الذي تغمرها به

العجائز فجأة ، كفت العجائز عن زيارتها مرة واحدة ، ورحن يؤكدن ان فاطمة لا بد وان تكون قد اخفته في مكان مسحور ، اذ انهن لم يتركن زاوية واحدة الا وبحثن فيها عن سليم ، الا انهن لم يعثرن له على اثر .

فراح محمود « ابو شنب » ، يؤكد مرة اخرى وبسمة العارف في الاشياء على شفتيه : انه كان يعرف ما يقول ، حين كشف للناس عندما خرج من السجن ان سليم كان « داسوسا » لليهود ، والبرهان على ذلك انه حمل « شروشه » ورحل ، عندما فضحه في المخيم كله ، ومن يعلم الى اي المخبمات ارسله « اليهود » هذه المرة ليمثل دور البهلول كي « يتدسس » على الناس لهم .

ولكن الشيخ عبد الرحيم ، رغم انه وافق محمود ابو شنب ، على ان سليم البهلول ما هو الا « داسوس » للصهاينة ، فانه لم يتنازل عن رأيه السابق فيه ، واصر على انه « شوعي » ملحد ، وما كونه « داسوسا » للصهاينة الا تأكيدا اخر على انه « شوعي » ، لان « المسكوب » كلهم صهاينة ، والدليل على ذلك ان الذي انشأ « الشوعية » في روسيا ، هو يهودي صهيوني ، ولهذا ساعدوا اسرائيل على كسر العرب واحتلال فلسطين كلها ، بحيث اعطوهم سلاحا فاسدا ، ودبابات لا تسير في الصحراء ، وطائرات تنفجر لوحدها في الجو ، ثم ورطوهم في الحرب ولم يوقفوا النار حتى انتصرت اسرائيل عليهم ، اما سليم البهلول فهو واحد من مئات « الدواسيس » الذين بثوهم في الضفة الغربية وسوريا ومصر ، لكي يزودوهم بالمعلومات الدقيقة عن مواقع الجيوش العربية ، ولكي يرشدوا الطائرات التي كانت تقصف هذه المواقع كما اثبتت الحرب . ولذلك فان سليم البهلول نجا بجلده وهرب حين افتضح امره ، ولم يعد قادرا على بث ارائه السامة في المخيم. ومن يدري الى اين هذه المرة، حيث سيكف عن تمثيل دور البهلول ، وتغييره بدور « السنكري » او « الاسكافي » ، لان هؤلاء « الشوعيين » ، مدربون على كل شيء ، مؤكدا بأنه يعرف هؤلاء « الشوعيين » جيدا منذ ان كان في مصر ايام الملك فاروق ، ويعرف كل الاعيبهم ، بل وراهن على ان سليم البهلول ، يعتمر العمة الآن ويلبس الجبه في مخيم آخر او في احدى قرى الضفة الغربية ، ويؤم بالناس . لان كل من سمع عنهم من امثال سليم من « الشوعيين » ، يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، ويعرفون في اصول الدين ، وكأنهم قد تخرجوا من الازهر الشريف ، كي يستطيعوا تزوير الدين والافتراء على الله كذبا ، ليحملوا الناس على الالحاد ، والعياذ بالله .

اما فاطمة ، فقد حزنت على اختفاء سليم ، محملة نفسها الذنب في اختفائه لاهمالها له ، وقد ساورها الخوف عليه ، اذ لا بد وان يصطدم بدورية لجنود الاحتلال في الجبال فيقتلوه ، واذا ما نجا من رصاص المحتلين فانه لن ينجو من الوحوش التي تملأ الوعر .

كاد الناس ينسون قصة اختفاء سليم البهلول من مخيم جنين ، بعد يومين او ثلاثة من اكتشاف ذلك ، لولا تلك اللعنة التي حلت بالمخيم كله فجأة . فقد صحا الناس ذات ليلة على لعلعات الرصاص في ازقة المخيم . وقبل ان يعرفوا ما الذي حصل ، كان جنود الاحتلال يداهمون البيوت ، وسلاحهم مصوب الى صدورهم مقتادين كل الرجال والشباب الى سياراتهم العسكرية ، بعد ان كانوا يقلبون البيوت رأسا على عقب بحثا عن « المخربين » الذين يختبئون داخل البيوت .

واغرب ما في الامر ان الجنود كانوا يتفحصون كل فأس يعثرون عليه ، ثم

يصادرونه ، مما احار اهالي المخيم ، اذ لم يستطيعوا فهم العلاقة ما بين بحث الجنــود عن « المخربين » كما كانوا يدعون الفدائيين الفلسطينيين ، وعــن الفؤوس في آن واحد ، حيث ظل الامر لغزا مبهما حتى الصباح ، اذ سرعان ما شاع في المخيــم ان احد الجنود قد لقي مصرعه في الليل بضربة فأس قوية في رأسه وجرد من سلاحه ، اثناء قيامه بدورية في ازقة المخيم .

كانت هذه هي المرة الثالثة التي يداهم فيها جنود الاحتلال بيوت المخيم ، بحثــا عن الفدائيين الذين بدأت الاذاعات ومقهى سعيد الزرعيني تتداول اخبارهم واخبــار معاركهم مع جنود الاحتلال بالقرب من نهر الاردن ، وفي جبال طوباس والخليــل ، الا ان هذه المرة كانت تختلف عن سابقتيها ، فبينما كان الجنود يبحثــــون فــــي المرتين السابقتين عن فدائيين مرت آثارهم بالقرب من المخيم ، كانوا يبحثون هذه المرة عن فدائيين ، يقولون انهم من ابناء المخيــم نفسه . فاعتقلوا معظم الرجال والشبــاب الصغار ، وفرضوا منع التجول على المخيم ليل نهار ، ولا يزالون يحاصرونه من كــل الجهات وفي كل الازقة ، مهددين باطلاق النار على كل من يخرق منع التجول ، ولكي يثبتوا انهم يعنون ما يقولون ، راحوا يطلقون النار في الهواء بين الفينة والاخرى لالقاء الرعب في قلوب الاهالي . بل واطلقوا النار على عنزة الحاجة وفية واردوها قتيلة ، مجرد ان اطلت من باب الدار ، وكادوا يقتلون الحاجة وفية نفسها ، لولا انها كانت لا تزال على عتبة الدار حين اطلقوا النار .

واتجهت كل الأفكار الى محمود ابو شنب ، الذي داهمه الجنود في بيته ، وجرود وهم يضربونه باعقاب البنادق ، ودمه يطفح من فمه ، اذ ان جميع اهل المخيم يعرفون ان محمود ابو شنب « ولد نشمه » ولم يفوت في حياته اهانه تلحق به دون ان ينتقم لنفسه ، وخاصة اذا كانت هذه الاهانة تتعلق بشنبه المفتول ، الذي كان يعتز بـه ويعطره منذ مطلع شبابه ، وانه لا بد وان يكون قد انضم الى الفدائيين الفلسطينيين منذ ان خرج من السجن ، دون ان يشعر به احد ، ولهذا كف عن الجلوس على مقهى سعيد الزرعيني ، ومعاكسة الفتيات ، ومما يؤكد ذلك ان الجنود قد عثروا على الفأس الملطخة بالدم في الزقاق بالقرب من بيته ، وسرعان ما راح الناس يهمسون باسمــه همسا كما يليق بالابطال ، كي لا يسمعهم الجنود الذين « يتمرسون » في الازقة خلــف النوافذ والابواب ، فيثبتون التهمة عليه ، لان بطلا مثل محمود لا يمكــن ان يعتــرف لهم ، ولا بد وان يخرج في النهاية ليستأنف عمله الفدائي مرة اخرى .

ونام الناس في الليلة التالية مــا بين مصدق نبأ انضمام محمود ابو شنب الــى الفدائيين الفلسطينيين وغير مصدق . اذ انه لــو كــان فدائيــا حقيقيا لما كان يقتل الجندي الاسرائيلي بالفأس ، ولكان اطلق النار عليه من بندقية رشاشة من نــوع كلاشنكوف ، او رماه بقنبلة يدوية كما يفعل الفدائيون في غزة ، بل لكان يقضــي على الدورية كلها .

وما كادوا يستسلمون للنوم ، حتى لعلع الرصاص مرة اخرى في ازقة المخيــم ، وتعالت صيحات الجنود المتراكضين هلعا في الازقة ، وهم يطلقون النار في كل اتجاه، حتى لكان الرصاص يخترق النوافذ المقفلة ويصطدم بالجدران الداخلية ، ممــا جعــل الناس الذين هبوا من نومهم فزعين ، يتجمدون في فراشهم وعيونهم الخائفة تتعلــق بالابواب والنوافذ ، وقبل ان ينهضوا من فراشهم ويستعدوا لمداهمة الجنود كمــا في المرة السابقة ، دوت صرخة قوية في ارجاء المخيم ، تعالت على لعلعات البنادق الرشاشة واصوات الجنود تنادي « ف.. ط.. ط.. و... م » ثم خبت .

لم ير الناس في المخيم ما الذي حدث ، الا ان بعضهم راح يؤكد ان سليم البهلول كان يتنقل من زقاق الى زقاق كالنمر ، والرصاص يتدافع من بندقيته الرشاشة نحو الجنود كالشهب وهم يتساقطون الواحد تلو الآخر ، بينما راح البعض الآخر يؤكد انه لم يكن سليم البهلول ، وانما كان محمود ابو شنب نفسه ، ولا بد ان يكون قد هرب من الجنود الاسرائيليين وهو في طريقه الى السجن وعاد ليقاتلهم .

وثمة من اكد انه لم يكن سليم البهلول ولا محمود ابو شنب ، وانما كانوا ثلاثة شبان كالفهود ، لم يستطيعوا التعرف عليهم ، لانهم كانوا ملثمين « بحطات » مرقطة ، وثيابهم بلون الارض والجدران ، وحين كانوا ينتقلون من جدار الى جدار ، كانوا يمرون كالريح فلا يسمع لهم همس .

ولكن الناس المقربين من الشيخ عبدالرحيم الذي اعتكف في المسجد يتعبد بعد تلك الليلة ، فيروون على لسانه ، انه عندما جره الجنود في الصباح الى المقبرة في سفح الجبل كي يتعرف على الشهيد ، مد يده ليكشف عن وجهه ، فطالعته بسمة سليم البهلول ، وقد شع من جبينه نور الهي عجيب كاد يغشي بصره ، فتلعثم لسانه ولم يعد قادرا على الكلام ة ولم يصح من غيبوبته الا عندما دقه احد الجنود بعقب بندقيته بين كتفيه . وحين مد يده الى يد سليم المسجاه الى جانبه كي يرفع شاهده ، توقفت على سوار من شعر عنبري اللون كشعر فاطمة ، يطوق معصمه .

ولكي تؤكد ما يرويه الناس عن الشيخ عبد الرحيم ، اقسمت الحاجة وفية بقبر النبي وبحجتها ، انها رات سليم البهلول ، فيما يراه النائم تلك الليلة ، عريسا فائق الجمال ، يزفه الناس في المخيم على فرس شهباء ، وحين قطع الرصاص عليها حلمها ، سمعته ينادي بأعلى صوته « فط . . ط . . و . . . م »

اما فاطمة ، فتروي الجارات عنها ، انها عندما خرجت تلبي نداء سليم البهلول وهو يخر شهيدا على عتبة بيتها ، قدت الثوب عليه ، وراحت تزغرد وتزغرد وتزغرد، حتى بعد ان جرها الجنود من شعرها المحلول وغابوا بها .

التوازنات المسلحة

ملاحظات حول الحرب الاهلية في لبنان

خالـد جـابر

ربما كانت الحرب الاهلية في لبنان * ، اكثر اشكال الصراع السياسي العربي دلالة في المرحلة الراهنة . فهي بؤرة صراعات عديدة ، لا تنحصر بكونها صراعا بين طرفين محددين : يساري — يميني ، مسلم — مسيحي ، فلسطيني — لبناني الخ .، بل هي تلخيص مكثف لتاريخ لبنان الحديث والمعاصر ، بوصفه جزءا من تاريخ الصراعات في المنطقة العربية ، بكل ما تحمله هذه الصراعات من تنوع وتعددية ، لا تعني لبنان وحده بل تعنيه بوصفه كيانا ، اي بوصفه نقطة توازن عربية وعربية امبريالية .

ان المسألة اللبنانية ، لا تطرح كمسألة مستقلة . ولم يسبق لها ان طرحت هكذا . منذ امارة فخر الدين وحتى اليوم ، كانت هذه المسألة في صلب ما كان المؤرخون البرجوازيون يطلقون عليه اسم المسألة الشرقية . وما نطلق عليه نحن اليوم اسم الصراع بين الشرق العربي والامبريالية الغربية .

لم يكن تكون الكيان اللبناني في التاريخ المعاصر عام ١٩٢٠ ، حين اعلن الجنرال غورو ولادة دولة لبنان الكبير ، وليد تطور موضوعي مستقل . او وليد نضج مجموعة من الظروف الموضوعية الداخلية التي تقود الى تبلور وعي قومي يفرض انفصالا عن بلاد الشام . بل كان لحظة في التجزئة المفروضة بقوة العنف الامبريالي الخارج من الحرب العالمية الاولى والمتلهف الى مزيد من السيطرة على العالم بأسره . فأتى الكيان اللبناني ، كجزء من سيطرة تستقيم بتجزئة بلاد الشام الى دول ودويلات واعطاء الصهاينة فلسطين . ان هذه التجزئة هي الصيغة السياسية لعملية طويلة ومعقدة ، بدات مع بعثات التبشير ، ثم بعثات التجارة ، وضربت الاقتصاد الطبيعي ، ودمرت الحرف وسحقت الانتاج . ثم اتت على اشلاء التنظيم الاجتماعي القديم ومع بروز نظام الطوائف الحديث ، كتكريس للميل الى تدمير الانتاج ، وسحق المركز العربي من اطرافه . هكذا سلخت الاقضية الاربعة ، وفرض الكيان كي يكون كيانا ، ولم يتكرس عربيا الا بعد الحرب العالمية الثانية ليلعب دور نقطة توازن مع الامبريالية . هذا التوازن هو التعبير عن عجز البرجوازية العربية وجبنها وعدم قدرتها على انجاز مهمات المرحلة الوطنية الديمقراطية .

---

* هذا المقال هو استكمال لدراستنا السلطة والتوازن في لبنان المنشورة في شؤون فلسطينية ٥٠-٥١ .

ان كون الكيان ، نقطة توازن مع الامبريالية ، لا يعني ازليته . بل يعني ان انفراطه وتركيبه هو محصلة صراعات المراكز العربية مع العدو الامبريالي وبمقدار عجز هذه المراكز عن الحسم بعيد التوازن العربي ــ الامبريالي انتاج الكيان . غير ان هــذه العلاقة الصراعية العربية ــ الامبريالية تأخذ اشكالها المحددة في لبنان ، من ضمــن التركيبة الطائفية . فهي صراع لضرب الغلبة المارونية ، وليست صراعا من اجل فرض غلبة جديدة . اي ليست محاولة لاستتباع الطائفة الغالبة من قبل الطوائف المغلوبة . فهذا الاستتباع العكسي لا يصح اذ هو نفي للكيان نفسه .

فالكيان لا يستقيم بغير غلبة الطرف المرتبط بالغرب الامبريالي ، حيث تقيم الحركة الشعبية العربية توازنا معه . من هنا لم يكن انفراط التوازن اللبناني سنــة ١٩٥٨ مجرد لحظة صراع على السلطة ، بل كانت صراعا على الكيان نفسه . لم تكن محاولة لتكريس مطالب طائفية ــ رغم ان هذه المطالب رفعت . بل كانت في جوهرها محاولة لرفض الصيغة ودمج لبنان بالمد القومي الصاعد .

ان الصراع داخل الكيان ، ليس صراعا داخليا . شكله الداخلي هو التعبير المباشر عن صراعات اكثر عمقا . لكن هذا الشكل الداخلي بالغ الاهمية ، لانه يعكس فعليــا مدى نضج الحركة الوطنية العربية ، ومدى استعدادها للذهاب بعيداً في صراعها من اجل حل المسألة الوطنية الديمقراطية بشكل جذري . من هنا ، يأخذ شكل الصــراع داخل الكيان ، طابعه المؤقت دائما ، لان الكيان نفسه هو شكل مؤقت . شكل لــم يعترف به الا نتيجة ظروف الصراع العربي ــ الامبريالي ، ومعرض للنقض بعد ذلك ، عندما تتغير موازين القوى . وهذا ما جرى سنة ١٩٥٨ ، وما يجري حاليا منذ انــدلاع شرارة الحرب الاهلية ، على اثر اغتيال المناضل الوطني معروف سعد .

كان هذا المدخل العام ضروريا ، لنستكشف وقائع الحرب الاهليــة في لبنــــان ، ودلالاتها . فما هي الظواهر ، وما هي المسائل التي تطرحها هذه الحرب ؟

لبنان ١٩٧٦ :

لبنان يتغير ، ينهدم . كل شيء تغير واشياء كثيرة تهدمت . انهارت السيادة . الجيش الذي يقاتل الى جانب الكتائبيين وحلفائهم في المسلخ وحوش الامراء ، ينكفىء داخل ثكناتــه ، ولا يستطيع القتال الى جانب شمعون في الدامور . المغاوير يهربون في الدامور . الشمال ، البقــاع ، الجنوب ، لا مكان لسلطــة الدولة . معارك طاحنة بين طرابلس وزغرتا . احتلال همجي المسلخ ، تصفية الاوكار الانعزالية في الدامور . الوسط التجاري يصبح ساحة مواجهة بمختلف الاسلحة . تتوقف المعارك . المبادرة السورية . رسالة رئيس الجمهوريــة . رغم ذلك استحالة تشكيل الحكومة وبداية حرب الثكنات . ظاهرة جيش لبنان العربي بقيادة الملازم احمد الخطيب تتسع الى حد محاولة قيادة الجيش الاستيلاء على السلطة لمنع انهيار الجيش . ١١ آذار ، انقلاب عسكري يقوده قائد موقع بيروت . جيش لبنان العربي يتابع احتلال الثكنات . قائد موقع بيروت لا يستولي على السلطة ، يستولي على الاذاعة والتلفزيون . المصفحة التي تحمي التلفزيون كتب عليها الجنود عبارة جيش لبنان العربي . الحسم السياسي يفشل ليبــدأ الحسم العسكري . معارك طاحنة في بيروت والجبل تقود الى هزيمة عسكرية للانعزاليين . السلطة في الارض ، لا احد يلتقطها . الاحزاب الوطنيــة تعلن هدنة مسلحة . المبعوث الاميركي براون يأتي الى بيروت . المبعوث الفرنسي

غورس يتبعه الى بيروت . الاقتصاد ينهار بشكل كامل . المصارف تنهب . الجيش رمز السلطة ينقسم ويدخل الحرب الاهلية . السلطة في الارض . لا احد يستلم السلطة .

المسألة الاساسية التي تحتاج الى تفسير وتحليل . تقع هنا . لماذا لا يتقدم تيار ثوري ليقبض على السلطة ويعلن ولادة لبنان الجديد ؟

هذا السؤال هو المدخل الى فهم الحرب الاهلية . فهم اوالياتها ، عناصرها ودلالاتها.

الصراع العربي ــ الامبريالي والصراعات العربية :

بعد مجزرة عين الرمانة في ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، بدا الصراع المكشوف المسلح في لبنان . وبدأت الحرب الاهلية غير المعلنة منذ فشل حملة ايار ١٩٧٣ لتصفية الثورة الفلسطينية تأخذ شكلها الملموس ، بوصفها قتالا اهليا واسعا يضم مجموعات متعددة وشرائح اجتماعية مختلفة ، تتنازع مسألة السلطة في لبنان ، او جانبا بالغ الاهمية من توازناتها . هو وجود الثورة الفلسطينية او تصفيتها .

ان النظرة السريعة الى التمايزات والاستقطابات التي ولدتها الحرب الاهلية ، تشير بشكل عام الى وجود معسكرين واضحين : معسكر ما يصطلح على تسميته بالخط العربي في لبنان (الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية) والمعسكر الانعزالي . المعسكر العربي ، يرتبط بالداخل العربي ، بالقوى العربية الخارجة بنصر جزئي من حرب تشرين . والمعسكر الانعزالي يرتبط بالقوى الامبريالية . الانظمة العربية توحدها سياسة تضامن عربي اثبتت فاعليتها في حرب تشرين ، والمعسكر الامبريالي، يراجع ، يحاول شن هجومه المضاد . هذه الصورة الواضحة ، سرعان ما بدأت تتكشف ، لتتداخل الاوراق ، وتبرز مجموعة استقطابات جديدة .

التضامن العربي يتساقط بعد اتفاقية سيناء ، والخط العربي في لبنان ينقسم الى اكثر من معسكر . هنا تواجه الثورة الفلسطينية التى تقود الصراع سياسيا وعسكريا محاولة اذابتها في استراتيجيات ليست من وضعها ، وتختلط الاوراق .

ان هذا الانقسام في الخط العربى في لبنان ، يعبر في الواقع عن حقيقة موضوعية ، تسم المسار الصراعي المعقد الذى مرت به الحرب الاهلية . فالنقطة الفاصلة فى الانشقاق الحاصل تبدأ مع انهيار اخر معالم التوازن اللبناني ــ الجيش ــ عبر ظاهرة جيش لبنان العربي، وانتقال الثورة والحركة الشعبية في لبنان الى الهجوم الاستراتيجي العام ، الذي جعل من معركة الجبل معركة حسم كاملة . هنا يبدأ الانشقاق الفعلي ، وتبرز الى السطح خطوط متعارضة ، تجمد مسار القتال ، وتطرح العودة الى الحل السياسي .

اذا اردنا تحليل مسار الحرب الاهلية في لبنان ، من زاويتها المركزية ، اي بوصفها صراعا بين الحركة الوطنية العربية واللبنانية والامبريالية الاميركية ، فاننا يجب ان نتوقف عند موضوعة دراسة اوالية الصراع الذي يحكم المنطقة . فالنضال العربي ضد العدو الرئيسي الصهيوني ــ الاميركي ، استطاع ان يفرز جدلية قوانينه الخاصة من خلال الصراع نفسه . المعركة العربية مع العدو الرئيسي هي معركة قومية . اي انها معركة جميع الطبقات الوطنية العربية . لكن هذا الصراع العام يجب ان يمر بخصوصية الوضع العربي : **جدل الوحدة ــ التجزئة وبكون الصراع الطبقي محددا في التحليل الاخير .**

ان السمة الخاصة التي تلخص النفوذ الامبريالي في بلادنا ، هي تجزئة الامة العربية الى اقطار وكيانات . تحكم هذه السمة صراعاتنا مع الامبريالية . اي تحكم شكل المواجهة ومراكز انطلاقاتها ، ومسار الصراع الذي يميز كل مرحلة من مراحلها. فالدلالة السياسية التي يقدمها المطلب الوحدوي ، والصراعات الدائرة حوله ، لا يمكن اعتبارها مسألة هامشية . انها في صلب مهمات المرحلة الوطنية الديمقراطية . ان الصراع مع العدو الرئيسي الصهيوني — الامبريالي ، هو الصراع الذي يحمل المسألة الوطنية الديمقراطية بكل تعقيداتها . فنتائج ميزان القوى مع العدو الرئيسي، لا تنعكس على العلاقات الطبقية في كل قطر على حدة فقط ، بل ايضا على علاقات الاقطار والكيانات فيما بينها . هذا ما تقدمه لنا التجربة الناصرية . فالمد الوطني الناصري الذي خرج من حرب السويس وقد هزم الاستعمار القديم ، طرح مسألتين متكاملتين : الوحدة ، باعتبارها التعبير الملموس عن تغير ميزان القوى مع العدو الاستعماري الذي قام بتجزئة الامة العربية ، وتصفية الراسمال الاجنبي والكومبرادوري . والواضح ان الانكفاء الناصري والتراجع المؤقت عن الصدام مع الامبريالية الاميركية هو الذي سمح للطبقات الرجعية بضرب الوحدة ، ومحاولة الاجهاز على الحركة الناصرية ، بعد محاولتها الالتفاف على الامبريالية الاميركية في حرب اليمن . وهذا هو احد التعبيرات الواضحة التي لحرب حزيران ١٩٦٧ .

ان مسألة الصراع مع العدو الوطني ، في سبيل انجاز الاستقلال ، تمر حتما عبر تغيير الاطر السياسية التي فرضها الوجود الاستعماري . من هنا فمسألة الثورة الوطنية العربية هي بالضرورة مسألة الوحدة . ومسألة الوحدة تفترض بالضرورة تغييرات في الميزان الطبقي الداخلي . فالانقسام الى اقطار وكيانات كامن في التفتت اللامتساوي الذي احدثه الاستعمار في البنى الانتاجية العربية . وفي ضرب الدورة الاقتصادية الشرقية لمصلحة دورة جديدة تزيد في التفتت لارتباطها بخارجها . ان هذا التفتت اللامتساوي للانتاج ، يقود الى تبلور متفاوت للصراع الطبقي بين قطر واخر . ولا يجري توحيد هذا التبلور المتفاوت عبر عملية داخلية خاصة بكل قطر على حدة ، لكنه يجري على ارضية الصراع الوطني مع العدو الامبريالي . ان التحرك باتجاه الوحدة ، الذي هو تعبير عن تغير في ميزان القوى مع العدو الرئيسي لمصلحة الحركة الوطنية العربية ، ينضبط ضمن العلاقات الطبقية الظرفية التي لتركيبة الاقطار . فالبرجوازية تحاول ادارة المد الوحدوي بشكل يعطل انعكاسه على علاقاتها مع الطبقات المحكومة داخل قطرها ، اي على سلطتها ، وحصرا ضمن حدود اعادة توازن جديد مع الامبريالية . واذا كانت الوحدة تفترض اساسا بروز قطب موحد ، يقوم بتصفية الكيانات القائمة على دعم الامبريالية ، كي يستطيع ادارة صراعه معها بشكل يحسم مسألة ميزان القوى لصالح الحركة الوطنية العربية بشكل واضح ، فان مسألة التضامن العربي كانت شكلا لمواجهة هزيمة حزيران ٦٧ وذلك لثلاثة اسباب :

اولا : لان الهزيمة في الحرب الوطنية ، لا تعرض الطبقة البرجوازية الحاكمة للانهيار فقط ، بل تحمل امكانيات تعريض المجتمع ككل لخطر التفتت .

ثانيا : عجز حركة الطبقة العاملة العربية عن التصدي لقيادة الصراع الوطني مع العدو الرئيسي وطرح بناء الجبهة الوطنية العربية المتحدة التي تضم البرجوازية في لحظة بدء انهيارها ، وتحت قيادة الطبقة العاملة . يعود هذا العجز الى اسباب ذاتية وتاريخية ، ربما كان احد اهم مظاهرها عدم وجود حزب للطبقة العاملة في مصر . ان مظاهرات ٩ و ١٠ حزيران الجماهيرية الحاشدة التي طالبت ببقاء عبد الناصر في

السلطة ، عبرت عن هذا العجز الشعبي بالذات . وسمحت للبرجوازية مرة اخرى بالتصدي لمهمات توحيد المجتمع والاعداد للصدام الجديد .

ثالثا : في الوقت الذي استطاعت فيه الامبريالية الاميركية . تحقيق تقدم ملموس على الجبهة العربية . كانت مواقعها في العالم بشكل عام وفي العالم الثالث بشكل اكثر تحديدا تتعرض للتراجع . وتسمح ببروز حيز من الاستقلالية النسبية لكتلة دول العالم الثالث . هذا الحيز هو الذي سمح بتضامن عربي بعد الهزيمة . بعد ان استطاعت الانظمة الاكثر رجعية، ضرب آثار المد الوحدوي الجذري .وتصفية بؤرة حرب اليمن. وبعد ان فرضت ظروف الهزيمة على البرجوازية المصرية تراجعا ملموسا في ادارتها للصراع الوطني .

هكذا برز التضامن العربي ، عشية حرب تشرين ، ليشكل محاولة خروج من المأزق التاريخي الذي وجدت فيه البرجوازية العربية بعد هزيمة حزيران ٦٧ . فالتضامن هو الوجه الآخر للحرب المحدودة ، التي تحاول فيها البرجوازية العربية ، فرض تنازلات على العدو الصهيوني ــ الامبريالي دون ان تطرح مسألة وجوده اساسا . اي انها شكل صراعي محدود . من هنا يأتي التضامن العربي هشا . فالصراع مع العدو الصهيوني ــ الاميركي اكثر تعقيدا من الاكتفاء بفرض تنازل محدود جزئي عليه . رغم ايجابية هذا الفرض . فحين ينتقل العدو الاميركي الى الهجوم الجزئي بعد اتفاقية سيناء ، فان هذا التضامن يسقط عند اول خطوة ، وتبدأ البرجوازيات في محاولة التملص منفردة من المعركة لتحفظ راسها . هذا التضامن هو بالضرورة تضامن هش . اي لا يستطيع الارتقاء الى مرحلة اعلى . **فالوحدة ليست مرحلة اعلى من التضامن .**

تتخذ المسألة النظرية التي نطرحها ، بعدا خاصا ، تطبقيا في الحرب الاهلية في لبنان. فالاستقطاب الذي برز بعد مجزرة عين الرمانة ، سرعان ما بدأ يتشكل وينقسم ويأخذ مسارات مختلفة . هذا التشكل ، الانقسام ، المسارات المختلفة ، يأتي من خصوصية الواقع اللبناني ، بوصفه انعكاسا للوضع العربي في نقطة تماس مع الامبريالية ، التي يشكل الكيان اللبناني جزءا من اشكال هيمنتها .

الهجوم والهجوم الوقائي :

بدأت الحرب الاهلية في لبنان رسميا بهجوم كتائبي ، تجلى في مجزرة باص عين الرمانة . فما هي خلفيات هذا الهجوم ، وما هو معناه العميق في مسار الوضع اللبناني وعلاقته بالوضع العربي .

لقد خرج لبنان من حرب ١٩٥٨ الاهلية ، بتوازن جديد ، اعاد تكريس صياغة الكيان ــ الميثاق الوطني ، التي ولدت سنة ١٩٤٣ . التوازن الجديد الذي سمي الشهابية ، هو تعبير عن توازن بين الحركة القومية العربية بقيادة عبد الناصر والامبريالية الاميركية . لقد تضمن هذا التوازن مجموعة مسائل :

١ ــ كرس مبدأ الغلبة المارونية ، ضمن سياسة اهتمام بالمناطق . وانصاف الطوائف الاخرى ، لا تمس مبدأ الغلبة .

٢ ــ اقام سياسة لبنانية عربية متعاطفة مع السياسة الناصرية .

٣ — جعل الجيش ، الذي لم يمس في حرب ١٩٥٨ بشكل اساسي ضابط التوازن الجديد . ان هذه الصيغة لا تعني ان صراعات الحركة القومية العربية مع الامبريالية الاميركية قد توقفت . بل تعني ان الاطار اللبناني جرى تحييده . وهذا يطمئن الجمهورية العربية المتحدة ، الى ان سياسة لبنان السابقة ، في دخول محاور معادية لها ، وفي كونه بؤرة للتآمر عليها قد توقفت . ويطمئن الامبريالية الى كون الكيان اللبناني الذي هو احد اشكال هيمنتها على المنطقة لن يمس .

لقد استطاعت هذه الصيغة المتوازنة ان تثبت حتى عشية حرب حزيران ١٩٦٧ . فحين وجهت الامبريالية الاميركية والعدو الصهيوني ضربتها الى مصر ، كانت تحاول ضرب محاولات البرجوازية الوطنية العربية للتصدي للنفوذ الاستعماري (حرب اليمن هي مثال عيني على هذه السياسة) . ولقد انتهت حرب حزيران بهزيمة كاسحة للبرجوازية الوطنية ، عبرت عن نفسها في تراجع علني عن المد الوحدوي ، الانسحاب من اليمن ، ورفع شعار التضامن العربي في وجه الهجمة الصهيونية — الاميركية الشرسة .

لقد كرست نتائج حرب حزيران العدوانية ، اختلال ميزان القوى في المنطقة ، انعكس بدوره على الصيغة اللبنانية . يبرز هذا الانعكاس في قنوات لبنانية ، هي من ضمن سياق السياسة الشهابية نفسها . فاستكمال الانتقال الى الراسمالية الوسيطة في العهد الشهابي ، انعكست في مزيد من الاستقطاب الطائفي ، تبلور الطائفة وضربها للاشكال العائلية والعشائرية بنسب متفاوتة . وربما كان بروز المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى ، تعبيرا عن تكون طائفة جديدة على المستوى السياسي ، كنتيجة لاستكمال الانتقال الى الراسمالية الوسيطة . ان هذا التطور بذاته ، لا يخلخل الصيغة الشهابية ، لانه يمكن ادراجه وضبطه ضمن صيغة التوازن بالغلبة . غير ان المد الامبريالي بعد هزيمة حزيران عكس نفسه في محاولة الطرف الغالب ، نقض بنود الصيغة الشهابية ، لجهة السياسة الخارجية ، العربية اساسا ، ومحاولة اعادة تركيب التوازن بشكل جديد ضمن اطار الغلبة المارونية . هذا هو المعنى السياسي لبروز الحلف الثلاثي (الجميل ، شمعون ، اده) واكتساحه دوائر الجبل المارونية على حساب الشهابيين في انتخابات ١٩٦٨ .

ان ظاهرة الهزيمة لا تحمل بعدا واحدا ، بل هي تحمل نقيضها في آن . وهذا ما عبر عنه بروز ظاهرتين :

١ — تحول المقاومة الفلسطينية من شبه بؤرة ثورية الى حركة جماهيرية صاعدة ، تستقطب الجماهير الفلسطينية والعربية حول شعار الكفاح المسلح ، وضرورة دحر العدو الصهيوني بالقوة الجماهيرية المقاتلة .

٢ — قيام الانظمة البرجوازية الوطنية بترميم جدران اجهزتها ، وبناء جيوش وطنية مقاتلة، تستعد لشن هجوم مضاد على العدو . وهذا ما عبر عنه شعار «ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » الذي اطلقه عبد الناصر .

انعكست هاتان الظاهرتان على الوضع اللبناني ، عبر دخول المقاومة الى الجنوب بدعم عربي رسمي ومد جماهيري مؤيد ، وفرضها اتفاقية القاهرة بعد صدامات جماهيرية ومسلحة في لبنان .

يقود هذان الاتجاهان الى اختلال جذري في بنية التوازن اللبناني . هذا الاختلال

هو ما دفع طرفين يتقاتلان على هذا التوازن ، للتحالف غير المعلن على اسقاط السلطة الشهابية وضرب المكتب الثاني ، حتى يتصارعا دون وسيط يريد توازنا سقط . وهذا هو معنى انتخاب سليمان فرنجية رئيسا للجمهورية باصوات جنبلاط والجميل وشمعون وسلام . فبانتخاب فرنجية ، بدأت عمليا الحر بالاهلية غير المعلنة .

حملة ايار ١٩٧٣ :

سنة ١٩٧٣ كانت كل الظروف العربية والدولية مهياة ، لكي يقوم الطرف الغالب بمحاولة ضرب اشكالية التوازن السابقة عبر تصفية المقاومة . ركود الجبهات العربية حالة لا حرب ولا سلم . اعتداءات اسرائيلية متكررة على الجنوب اللبناني ، احتلال الجنوب ايلول ١٩٧٢ لمدة اربعة ايام . اغتيال القادة في فردان نيسان ١٩٧٣ . تهديدات اسرائيلية مباشرة . فكانت حملة ايار ١٩٧٣ محاولة لتصفية وجود المقاومة . استقال رئيس الوزراء السني القوي . سلام — وجيء برئيس ضعيف — الحافظ — وابتدأ تنفيذ المؤامرة . لقد فشلت حملة ايار لثلاثة اسباب رئيسية :

١ — عجز الجيش اللبناني ، عسكريا عن تنفيذ المهمة الموكولة اليه . يعود هذا العجز اساسا الى طبيعة تكون التوازن اللبناني . فتوازن الغلبة لا يحتاج الى جيش قوي وحديث لفرض سلطته . فهو معادلة وليس هيمنة . لذلك فشل الجيش اللبناني، فيما نجح الجيش الاردني .

٢ — وقوف الانظمة الوطنية العربية ضد التصفية وخاصة سوريا . فالانظمة العربية التي تستعد لحرب تشرين ، لا تزال بحاجة لاسباب سياسية وعسكرية بحاجة الى الوجود الفلسطيني المسلح .

٣ — بطولات الجماهير الفلسطينية التي تعلمت من تجربة عمان ان لا تلقي السلاح، وتقاتل ولا تتراجع .

ان فشل الهجوم الاول في ايار ١٩٧٣ فتح الباب امام بداية رفع المطالب الاسلامية — المشاركة . جاءت حرب تشرين ١٩٧٣ لتقلب المعادلات اللبنانية ، فالمد الجماهيري الوطني الذي اطلقته قدرة العرب على توجيه ضربة حقيقية الى عدوهم كان كبيرا . ولقد استفادت الثورة الفلسطينية الى اقصى الحدود من المد الجماهيري الوطني . فكرست منظمة التحرير ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني في مؤتمرات القمة . واعترفت الامم المتحدة بالمنظمة عبر دعوة الاخ ابو عمار الى الامم المتحدة سنة ١٩٧٤ .

الصدامات المعلنة :

ابرزت احداث صيدا ، واغتيال المناضل الوطني معروف سعد ، المطالب الوطنية ، وجعلت من شعار المشاركة وتعديل قانون الجيش واعادة التوازن اليه ، شعارات المرحلة . هنا فتحت الازمة . فالطرف الانعزالي ، الذي فرض عليه التراجع نتيجة فشل حملة ايار والمد الوطني القادم مع حرب تشرين ، كان يراهن على حل سريع للمسالة الفلسطينية (اقامة دولة فلسطينية) . وعندما ثبت ان هذا الحل لا يزال بعيدا عبر التاجيل الدائم لمؤتمر جنيف وسياسة الخطوة خطوة ، بدأ العد العكسي للحرب الاهلية في لبنان . فالطرف الوطني المتحالف مع الثورة يطرح مطالب هجومية . والطرف الانعزالي يحاول الانتقال من الدفاع الى الهجوم الوقائي ، مستفيدا من بداية بروز التناقضات العربية .

في ١٣ نيسان ١٩٧٥ بدات الحرب الاهلية المعلنة . في الطرف الوطني مطالب هجومية وخطوات عسكرية دفاعية . في الطرف الانعزالي ، مطالب دفاعية تتضمن هجوما تكتيكيا بالغ الدلالة (نقل مخيم تل الزعتر)وخطوات عسكرية هجومية محدودة. ان هذا الترجرج في الحسم عند الطرفين ، يأتي اساسا من عجز الطرف البرجوازي الماروني الغالب على فرض تكتيكه (سقوط الحكومة العسكرية بعد ٤٨ ساعة من تشكيلها) وعدم قدرة الطرف الوطني على تحديد اهداف تتجاوز المطالب الوطنية (الاسلامية) التي جرى فيما بعد الباسها ثياب العلمانية في البرنامج المرحلي الذي طرحته الاحزاب .

لقد بقيت المعركة في هذا الاطار المترجرج ، الى ان انتقل الطرف الانعزالي من الهجوم الوقائي الى الهجوم العام . فما هي الخلفيات والعناصر السياسية التي دفعت الى اخذ هذا القرار ؟

لقد اتت اتفاقية سيناء ، لتحمل اول انشقاق في الصف العربي داخل لبنان . واذا كان اثرها الظاهر على اطراف الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية غير واضح (جميع هذه الاطراف رفضت اتفاقية سيناء وادانتها) فانها تركت اثرا كبيرا على مجرى الصراع . لانها ، وبوصفها جزءا من شكل الهجمة الاميركية لاستعادة مواقعها المهتزة في حرب تشرين ، سمحت للقوى الانعزالية بمحاولة الانتقال الى الهجوم العام ، عبر احتلال ضبية وفرض حصار تمويني على تل الزعتر ، واحتلال المسلخ — الكرنتينا . ومحاولة دفع احتياطيها العسكري — الجيش — الى المعركة .

لكن هذا الهجوم العام اصطدم بثلاثة امور :

١ — ان حجم التراجع في اتفاقية سيناء ، لا يسمح للقوى الانعزالية بالانتقال الى هجوم عام يصفي جميع مواقع الخط العربي في لبنان عبر تصفية الثورة الفلسطينية . فاتفاقية سيناء هي اتفاقية يغلب عليها الطابع التراجعي دون شك ، لكنها لا تستطيع انهاء الصراع الوطني بشكل كامل ، بل تقننه ضمن فهم البرجوازية المصرية لحدود هذا الصراع . وهي لا تسمح بالتقسيم الذي يربكها اكثر ، والذي بدا واضحا داخل مخطط القوى الانعزالية في « تحرير المناطق المسيحية » .

٢ — الصمود الشعبي العظيم الذي استطاعت القوى الوطنية الفلسطينية واللبنانية قيادته ، لافشال الهجوم الكتائبي — الانعزالي ، تمهيدا للانتقال الى الهجوم المضاد .

٣ — الموقف السوري ، الذى لا يوافق على تصفية الثورة . بل يضعها كأحد عوامل استراتيجيته لادارة الصراع مع العدو الصهيوني .

لقد بدات سياسة التضامن العربي تتساقط على ارض الحرب الاهلية في لبنان . فالتراجع غير المتساوي الذي برز عبر اتفاقية سيناء ، يعني ان حرب تشرين او نتائجها لم تستطع المحافظة على اولوية التضامن . وابتدات الارض اللبنانية تشهد تفسخ التضامن العربي وبروز سياسة المحاور العربية .

ان الانجاز الهام ، او الظاهرة الاكثر دلالة ، التي عبرت عنها هذه المرحلة ، هي الالتحام الكامل بين الثورة الفلسطينية والحركة الشعبية اللبنانية . فالمطالب الوطنية اصبحت شعار الحرب الاهلية ، والثورة اصبحت جزءا هاما من الخريطة اللبنانية ومن المعادلة الجديدة التي لم تكتب بعد . فالتحام الشارع الوطني بالثورة ، لا يعبر فقط

عن محاولة الطوائف الاسلامية تعديل ميزان القوى اللبناني لصالحها ، بل هو اساسا التحام بالمد العربي القومي . اي التحام بما يتجاوز لبنان الى افق الالتحام الكامل بالمصير العربي . وهذا ما تعبر عنه التنظيمات البرجوازية الصغيرة السنية ، التي قلبت منطق ١٩٥٨ وتصدت لقيادة الصراع ، وتركت البرجوازية السنية ، تلهث وراء صيغة شهابية معدلة .

الهجوم الوطنـي :

لقد فشل الهجوم الكتائبي الانعزالي في الدامور . حيث استطاعت الثورة الفلسطينية ان توجه ضربة قاضية الى موقع انعزالي هام ، في لحظة بدا فيها ان الثورة بدأت تنتقل الى هجوم شامل لضرب القوى الانعزالية ، بعد ان بدأ التفكك في الجيش . هنا اتت المبادرة السورية في صيغة الوثيقة الدستورية ، وبدا ان الحرب الاهلية ستتوقف عند صيغة توازن جديدة ، تحقق مكاسب اسلامية داخل توازنات السلطة اللبنانية ، تضعف الغلبة المارونية دون ان تقضي عليها وتحافظ على الثورة الفلسطينية دون ان تسمح لها بكبير حرية في الحركة السياسية ، مما يؤدي الى ترسيخ دور سوريا اللبناني باعتبارها نقطة توازن بين قوى لم تحسم بعد معركتها فيما بينها .

تتميز هذه التسوية بميزتين رئيسيتين :

١ ــ عدم اخذها بعين الاعتبار لميزان القوى الجديد الذي وضع القوى الانعزالية على شفير الانهيار بعد معركة الدامور .

٢ ــ محاولتها ربط الثورة الفلسطينية باستراتيجية عربية ضمن فهم معين للتسوية ــ الصراع مع العدو الصهيوني ــ الاميركي ، لا يعطي الثورة حجمها الحقيقي .

لذلك كان انهيار التسوية عبر انهيار الجيش ، بعد فشل كرامي في تشكيل حكومة جديدة على اساس الوثيقة الدستورية ، وعبر اتساع حركة الملازم أول احمد الخطيب الى درجة وجدت فيها قيادة الجيش نفسها مجبرة على القيام بتحرك ما لمنع انهيار الجيش بكامله .

ان حركة جيش لبنان العربي ، هي التعبير الفعلي ، عن معنى التحام الشارع الوطني بالثورة الفلسطينية ، اي بالمسألة القومية التي ابعد عنها قصرا بعد ثورة ١٩٥٨ . هذا الالتحام يعني ان الحرب الاهلية في لبنان ليست حربا طائفية الا بمقدار ما تلعب اشكال الصراع دورا في تدمير نفسها في الصراع . فشعار العلمنة الذي رفع هو الشكل الحديث لمطالب اسلامية تريد ضرب الغلبة المارونية ، وليس تحسين مواقعها في داخلها . هذا يعني طرح مسألة السلطة على بساط البحث ، وتغير جذري في ميزان القوى يتجاوز الوثيقة ، ويتجاوز عنصر الضبط العربي ، الى فتح المعركة كاملة حول الكيان . اي فتح معركة الهيمنة الامبريالية ، كمتمم لحركة التقدم العربية التي بدات مجددا مع حرب تشرين ومع انتصارات الثورة .

ان انهيار التسوية عبر حركة جيش لبنان العربي ، وانقلاب الاحدب الذي طرح شعار اقالة رئيس الجمهورية ، وضع الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في موقع الهجوم الاستراتيجي العام ، الذي يطرح مسألة السلطة لاول مرة منذ نشوب الحرب الاهلية . هنا يحدث انشقاق جديد في صف الخط العربي في لبنان . **فطرح مسألة السلطة في لبنان ، تطرح بالضرورة مسألة الكيان** . حين يطرح الكيان على

بساط البحث داخل العملية الثورية ، فان هذا يعني الدفع بعيدا في خلخلة المواقـــع الامبريالية في المنطقة . وهذه المسألة هي جزء من مهمة ادارة الصراع العام ضد العدو الصهيوني والامبريالية الاميركية . وهذا يهدد مواقع البرجوازية الوطنية التـــي في السلطة ، لانه يخرب استراتيجيتها ، ويضعها امام خيار لا تريده ، لذلك فهو ضمنيـــا يهدد سلطتها نفسها . ان طرح مسألة السلطة داخل الكيان اللبناني تفترض بالضرورة طرحها خارجه . اي تفترض على الاقل طرح مسألة القيادة الطبقية لحركة التحـــرر العربية وهذا ما تعجز عنه الحركة الوطنية نتيجة تركيبها البنيوي والتحالف الطبقي الذي يقودها .

هنا يأتي المأزق . تبقى السلطة في الارض دون ان يستطيع احد التقاطها بشكـــل حاسم . يهزم الطرف الانعزالي ، دون ان تعلن هزيمته ، حتى لا يقود هذا الى صراع جديد غير واضح النتائج بين اطراف القوى التي شاركت في الصراع ضد القـــوى الانعزالية .

من اجل توضيح هذا الطرح ، سوف نعود الى مثل تاريخي غير بعيد . فحـــين تعرضت الثورة لمحاولة التصفية في الكيان الاردني ايلول ١٩٧٠ ، كانت مسألة السلطة في الاردن هي المدار الفعلي للصراع. وحين تراجعت سوريا عن دعمها العسكري للثورة تحت دعوات التهديد الاميركي ونصائح الاصدقاء ، فان النظام السوري تعـــرض لتغييرات في ميزان القوى داخله .

ان مسألة السلطة في لبنان ، ليست مسألة لبنانية او لبنانية ــ فلسطينية فقـــط . لذلك عندما تعجز الحركة الوطنية العربية عن التقاط معنى المعركة الواحدة عينيـــا وتنظيميا ، فانها تعجز عن احداث الخلل المركزي الذي يعطل مسار التسوية ، ويدفع الصدام مع العدو الامبريالي الصهيوني نحو نقطة الحسم الجذري .

التراجع الاميركي ، الذي يحاول اليوم التسلل من جديد مع المبعـــوث براون ، يتسلل من شق العجز هذا وليس من شق التضامن الذي يجب لحمه .

من التوازن بالغلبة الى التوازنات المسلحة :

كانت معركة الجبل والفنادق ، مؤشرا جديدا بالغ الاهمية للواقع اللبناني الجديد . واقع انهيار التوازن اللبناني القائم على الغلبة المارونية الى غير رجعة .

فالتسوية ، بالوثيقة الدستورية ، سقطت مع انهيار الجيش ، اي مع عجز اطراف التوازن القديم عن اقامته من جديد حتى في ظل مظلة عربية . فوجود الثورة الفلسطينية تعبير عن تغير جذري في ميزان القوى اللبناني لمصلحة تقدم المسألة القومية . مسألة الصراع الذي لا يهادن مع العدو الصهيوني ، الذي هو صراع يعطي الحركة الشعبية طابعا هجوميا حتى في ليل الهزيمة الحزيرانية .

ان انهيار استراتيجية المظلة العربية ، كان تعبيرا عن عجز البرجوازية عن تدجين قوى اطلقتها التناقضات الموضوعية . لذلك كان الطابع الهجومي للمعركة ، من المطالب الى البرنامج الاصلاحي الذي يطرح السلطة دون ان يستطيع التقاطها ، مؤشرا الى طبيعة الصراع مع العدو الامبريالي ، الذي لا تستطيع المساومات حله ، بل لا يمكـــن حله الا بضرب النفوذ الامبريالي وتصفية قاعدته الصهيونية .

لقد استطاع التغير في ميزان القوى بعد انقلاب الاحدب ، ان يسمح بتوجيه ضربة

عسكرية الى الانعزاليين ، تهدد مواقع غلبتهم ، وتترك على الاقل ، الصراع مفتوحا مع العدو الامبريالي دون ان يستطيع اي طرف وطني التقاط لحظة مسالة السلطة .

هنا ، وامام مازق استلام السلطة تبرز عدة حقائق :

١ ــ لقد اثبتت الحرب الاهلية ميلا وحدويا . ميلا يؤكد على ان الصراعات داخل الكيانات وان اتخذت شكل الصراع الطائفي ، فانه شكل مؤقت لصراع طبقي عربي يدور حول المسالة الوطنية وكيفية حلها .

٢ ــ ان المطالب التي رفعت عبرت عبر استحالتها (العلمنة) عن كون الحركة الوطنية الجذرية في لبنان ، لا تطرح السلطة في لبنان حين تطرحها . بل هي تطرح ، المسالة القومية ، مسالة تصفية الكيانات . اي رفض المساومة مع الامبريالية . هذه الوجهة الغالبة يجب ان لا تحجب تصورا اصلاحيا ذيليا اعتقد بامكانية تحقيقها خارج هذا السياق رغم كون هذا الاتجاه بقي رغم ادعاءاته الاعلامية بالغ الهامشية في مجريات الصراع الفعلي .

٣ ــ ان تعرجات الحرب الاهلية تقود الى مسالتين :

ا ــ قدرة الامبريالية الاميركية على شن هجوم مضاد والمناورة والمراوغة ومحاولة دفع الوضع العربي الى مزيد من التردي .

ب ــ يعود عجز الحركة الشعبية في لبنان عن استلام السلطة . الى عجز الحركة الوطنية العربية بقيادتها الطبقية الحالية عن حسم التناقض مع الامبريالية لصالحها .

لقد افرزت صراعات الحرب الاهلية توازنات مسلحة لم تحسم لصالح احد الاطراف وضربت قواعد الغلبة المارونية ، دون ان تطرح بديلها الثوري . ان التوازنات المسلحة هي التسمية الاخرى لصيغة اللاتوازن .

فالوضع اللبناني مقبل على فترة طويلة من عدم القدرة على اقامة توازنه الجديد ، لكن احدى انجازات هذه الحرب انها افهمت العدو استحالة التسوية الامبريالية وانها تحمل امكانية الدفع مجددا الى حرب وطنية مع العدو الصهيوني .

حول الازمة اللبنانية: عرض وتقييم للمسار السياسي للاحداث وخطوط سير القتال

(الحلقة الثانية)

نواف عبد الله

٦ ـ احداث زحلة ـ السهل وطرابلس ـ زغرتا :

كتبنا في الحلقة الاولى من بحثنا هذا ، انه منذ تشكيل الحكومة السداسية وما رافقها من توقف عن اطلاق النار من قبل كافة أطراف الصراع ، اخذت مسألة اعادة صياغة التحالفات السياسية اللبنانية تحتل الواجهة العلنية لمعظم تحركات اقطاب السياسة في لبنان (القصر وتحالفاته ، كرامي ـ جنبلاط ، العلاقات داخل التحالف الثلاثي كرامي ـ اده ـ سلام ، التحرك السياسي الواسع لشمعون ، دور الحوار والوساطة الذي تنطح الى لعبه شارل حلو وشاكر ابو سليمان ...) ، علاوة على ازدياد الاهتمام بالتحضير لمعركتي الانتخابات النيابية والرئاسية . (الفقرة سادساً لنيسان ١٩٧٦ وآب ١٩٧٦) . وفي السياق نفسه اتت الخلوة التي عقدها المكتب السياسي لحزب الكتائب في الارز يومي ١٦ و١٧ آب لتثبت الخط الذي بدأ ينهجه الحزب منذ تشكيل الحكومة السداسية وليركز تكتيكاته السياسية على محوري تحرك : دفاعي وهجومي ، في المذكرة التي رفعها بيار الجميل بتاريخ ٢٣ آب الى رئيس الجمهورية ، والتي تناولت الكتائب عبرها مختلف قضايا الدستور والميثاق الوطني والاشتراع والعلاقة بين السلطات والمصالحة الوطنية والتمثيل السياسي والمشاركة والحريات والتجنس وشؤون الجيش والادارة والقضاء .

وفيما يخص العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية طرحت الكتائب **« العودة الى الدول العربية في نطاق مجلس جامعتها ، وفي مؤتمر يفضل ان يكون على مستوى القمة لتحديد دور لبنان بالنسبة لقضية فلسطين في هذه المرحلة ، وتنظيم شكل التواجد الفلسطيني على ارضه » . (العمل ١٩٧٥/٨/٢٤) . وكان الحديث هذا يدلل يومها على ان الكتائب وحلفائها من القوى الانعزالية اللبنانية انما يعدون للانتقال الى الهجوم مجدداً في طرح مسألة التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان ، مستفيدين من التقدم الذي راحت تحرزه السياسة الاميركية في المنطقة العربية منذ لقاء سالسبورغ ، واتضاح عناصر الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي** (سيعرف فيما بعد باسم « اتفاقية سيناء ») الذي وصل كيسنجر المنطقة العربية يوم ٢١ آب ليضع عليه اللمسات الاميركية الاخيرة .

ونذكر هنا ان القوى المضادة اللبنانية لم تكن لتنتقل الى الهجوم سابقاً الا **في ظل ظروف عربية مساعدة تكتيكيا** ، حيث نرى انه :

١ ــ تم خلال فترة الجفاء التي اصابت العلاقات المصرية الفلسطينية ، اثر بيــان اللجنة التنفيذية الصادر في آذار ١٩٧٥ ، تصعيد المواجهـــة في صيدا بعد اصابـــة المناضل الوطني معروف سعد وترتيب يوم دعم الجيش .

٢ ــ مع فشل كيسنجر في آذار ، واستعادة الثورة الفلسطينية للمبادرة السياسية على الصعيد العربي ، تحولت الساحة اللبنانية في الفترة ما بين مغادرة كيسنجـــر المنطقة وترتيب لقاء سالسبورغ (او الفترة ما بين مجزرة عين الرمانة وانتهاء حكــم الوزارة العسكرية) ، الى مسرح للصدام مع الثورة الفلسطينية والسعي لتضييق الخناق عليها واحداث تغيير حاسم في السلطـــة السياسية اللبنانية لمصلحة الخـــط الاميركي .

٣ ــ لدى بروز بوادر خلافات مصرية ــ فلسطينية ، اثــر لقـــاء سالسبورغ ، وما واكب ذلك من اشتداد الصراع الليبي ــ المصري ، وقبل وصول الوزير عبـــد الحليم خدام الى بيروت ، ضاعفت الكتائب من تصلبها ازاء مساعي كرامي لتشكيل حكومته السداسية ، مستفيدة في ذلك من رسالة السادات الـــى الجميـــل ومن ان الاعلام المصري الرسمي اخذ يحمل ليبيا القسط الاكبر من مسؤولية احداث لبنان .

٤ ــ استمرار القوى المضادة اللبنانية في الرهان على تصدع العلاقات الفلسطينية ــ العربية ، حيث عكفت جريدة العمل على تبشير قرائها طوال الاسابيع التي سبقت نجاح كيسنجر باقتراب موعد التسوية المنتظرة علىجبهة سيناء ،وبالتالي موعد الازمة المتوخاة في العلاقات المصرية ــ الفلسطينية وهي الفترة نفسها التي شهدت خلالهـــا الجبهة اللبنانية تصعيدا عسكريا ملحوظا من طرف العدو الصهيوني الهادف الـــى الابقاء على حالة التأزم الداخلي في لبنان وابتزاز الانعزالية اللبنانية للمواصلة في طرح مسألة التواجد الفلسطيني المسلح فوق الاراضي اللبنانية .

وعملا بهذه القاعدة التكتيكية ، تحركت القوى الانعزالية اللبنانية لتفجير الوضع في محافظتي البقاع (٢٨ آب) والشمال (٢ ايلول) . وقد تميزت الاشتباكات التـــي دارت في هاتين المحافظتين بسمات بالغة الخطورة هي :

أ) **اتساع رقعة الاشتباكات لتطال اكثر من نصف مساحة البلاد** (اي العمل لوضع مناطق البقاع والشمال ضمن دائرة الاقتتال) .

ب) **ادخال قوى سياسية واجتماعية جديدة في الصراع الدامي** الى جانب الاحرار والكتائب (التجمع الزحلي العام الـــذي يتزعمـــه جوزيف طعمه السكاف والياس الهراوي ، ثم جيش التحرير الزغرتاوي والتنظيمات العائلية الزغرتاوية) .

ج) تكاثر عمليات الخطف والخطف المتبادل والقتل « على الهوية » والاجـــرام الطائفي (وابرزها ، قيام عناصر زغرتاوية ، تحت اشراف طوني فرنجية بمجزرة في داريا ابادت فيه مدنيون من طرابلس يوم ٧ ايلول) : مما انعكس في **طغيان الشكـــل الطائفي الظاهر للقتال على الاهداف السياسية التي يحملها كل من الفرقاء المشتبكين.**

د) حدوث شيء من **((القبرصة)) الجغرافية والسكانية** حيث عرفت مناطق لبنانية عديدة نوعا من الهجرة السكانية في اتجاهين :

١ ــ هجرة اسلامية في اتجاه المناطق الاسلامية الاغلبية (طرابلس ، سهل البقاع، بيروت الغربية) .

٢ ــ هجرة مسيحية في اتجاه المناطق المسيحية الاغلبية (بيروت الشرقية ، زحلة، زغرتا .)

هـ) بداية التشكيك العلني بواقع تعايش الطوائف وانصهارها ، **وبروز الحديث بقوة عن التقسيم على المسرح السياسي الانعزالي** اللبناني بعد ان اخذت الكتائب تتهم في صفحات « العمل » جنبلاط والشيوعيين والفلسطينيين بالعمل من اجل « قبرصة » لبنان .

و) اتخاذ مجلس الوزراء اللبناني قرارا بالاستعانة بقوات من « الجيش اللبناني » للمرابطة في المناطق العازلة بين طرابلس وزغرتا . وبالرغم من خطورة هذا التدبير وكونه الاول من نوعه لجهة **« انزال جزئي ورسمي للجيش »** منذ بداية الصدامات المسلحة في نيسان ١٩٧٥ ، فانه افترض القيام باجراء مواز على كفة الميزان الاخرى : **عزل اسكندر غانم** القائد السابق للجيش وتعيين حنا سعيد قائدا اصيلا بدلا عنه . (١٠ ايلول) .

٧ ــ اتفاقية سيناء وتجدد القتال في العاصمة او مرحلة اكتساب الحرب الاهلية ابعادها الداخلية والخارجية . (من منتصف ايلول ١٩٧٥ الى نهاية كانون الثاني ١٩٧٦) :

مع ابرام الاتفاقية المصرية ــ الصهيونية (اتفاقية سيناء) في اول ايلول ١٩٧٥ ، بكل ما تتضمنه بنودها العلنية والسرية من تنازلات وطنية مصرية وما تحققه من انتصار لسياسة الخطوة ــ خطوة اي سياسة شق الصف العربي واضعافه وكسب التنازلات العربية عبر اسلوب « الانفراد بكل جبهة عربية على حدة » ، علاوة على ما تقود اليه من تراخ في النضال العربي العام ضد الصهيونية ، وسيادة للاتجاهات التسووية ــ المهادنة ومن توطيد للنفوذ الاميركي في المنطقة العربية من خلال اعتبار الولايات المتحدة حكما ومراقبا في الصراع العربي الصهيوني ، **كان لا بد ان تتحول الساحة اللبنانية من جديد الى مسرح لتصعيد المواجهة مع الثورة الفلسطينية** . فكما بادرت القوى الانعزالية اللبنانية للاستفادة سريعا من النتائج السلبية المتولدة عن الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية ، فان سائر القوى السياسية اللبنانية كانت كلها تتابع باهتمام بالغ مراحل التحرك الاميركي الجديد وتعد نفسها لمواجهةالنتائج التي ستترتب على احتمال نجاح كيسنجر . فقد اعلن فيليب تقلا في بيانه العام امام لجنة الخارجية في مجلس النواب ان لبنان يجتاز « مرحلة بالغة الخطورة » ، معربا في ذلك عن التحسب الرسمي ازاء مهمة وزير الخارجية الاميركية ونتائجها ، وابدى الرئيس كرامي قلقه على مستقبل الوضع على الساحة اللبنانية في تصريح ادلى به يوم توقيع الاتفاقية المصرية ــ الصهيونية وقال فيه ، **« العرب يواجهون مصيرهم وعلى لبنان ان يحمي وحدته »** . وقد اعتبرت الثورة الفلسطينية تجدد الاشتباكات في لبنان « تنفيذا لاتفاقية سيناء » . ومما يدلل ايضا على الترابط القائم بين النتائج المتولدة عن الاتفاقية المصرية ــ الصهيونية ومعاودة الانعزالية اللبنانية الى الهجوم العام **ان الجهات نفسها التي اعتبرت اتفاقية سيناء نتاج « استمرار وجود حالة متقدمة من التضامن العربي بقيادة مصر والسعودية المتحالفتين مع سوريا والمقاومة الفلسطينية» ونتاج « ازدياد تدهور وضع الولايات المتحدة في العالم ، وازدياد توجه ادارتها نحو وقف هذا التدهور ولو اضطرت الى تقديم تنازلات تكتيكية اضافية »** ، **هي الاتجاهات نفسها التي بقيت عاجزة عن فهم جوهر الصراع الدائر فوق الاراضي اللبنانية وراحت تساوي بين مواقف القوى الوطنية اللبنانية ومواقف التحالف الانعزالي المتآمر** ،**متهمة**

كلا الطرفين ((بالتصعيد)) ، بل اخذت تجنح في معظم مواقفها الى تحميل القوى الوطنية اللبنانية مسؤولية تدهور الاوضاع واستمرار القتال في لبنان . وما يزيد الامر خطورة، ان هذه الاتجاهات راحت تتنطح لصياغة بعض المواقف ((التكتيكية)) من قضايا الصراع الدائر ... فاتت معظم اجتهاداتها لتخدم وجهة ((**يمينية**)) في فهم وممارسة سياسة ((التهدئة)) . **وقد تراوحت طروحاتها من التعبئة والتحريض ضد قوى الحركة الوطنية اللبنانية بحجة النضال ضد استقطاب العملاقين الدوليين لاطراف الصراع على الساحة اللبنانية ، حتى اطلاق الدعوات الخجولة الى التراجع تحت ضغط الابتزاز الانعزالي المتمثل بالتهديد بالتقسيم .**

فبعد ان فجرت الانعزالية اللبنانية الموقف العسكري في محافظتي الشمال والبقاع، مستفيدة في ذلك من الوضع العربي الناجم عن ابرام الاتفاقية المصرية ــ الصهيونية، وبعد ان واكبت تحركها بسلسلة من التصريحات السياسية الهادفة الى الايهام بان المنظمات التي تطلق على نفسها اسم ((جبهة الرفض)) هي التي ستتحرك في لبنان وتفتعل الصدامات ، **بحجة ان ((الرافضين)) لا بد وان يتحركوا من اجل تصعيد المواجهة مع النظام المحلي واحراج مصر وحشر سوريا** (جريدة العمل ، تصريحات نيابية متفرقة ، اتصالات مزعومة بين شمعون و ((الرفض)) وبين التحالف الثلاثي و ((الرفض)) ، اتجاه بعض تعليقات ميشال ابو جودة) ، انتقلت الكتائب وحلفائها من القوى اللبنانية المضادة الى افتعال سلسلة من الصدامات العسكرية في بيروت (بدات ليل ١٧ــ١٨/٩) ، ومضت في تصعيد هجومها العسكري طوال ايام الاشتباكات الاولى ، بهدف بلوغ نقطتين اثنتين : **الاولى : الوصول الى ((اجماع سياسي عام)) على طلب انزال الجيش** وزجه في الصراع الدائر من اجل ابقاء سيف الاقتتال والاستنزاف الداخلي مسلطا فوق راس الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وذلك لابتزاز التنازلات من الثورة ؛ وبالتالي اضعاف مواقعها وزعزعة ثقة الجماهير بقياداتها . **الثانية : دفع الفرز الطائفي الداخلي بغية تامين قاعدة مادية لشهر سلاح التهديد بالتقسيم** ، ومن ثم الاستمرار في تأزيم الوضع السياسي وصولا الى طرح الازمة على جامعة الدول العربية من جهة أنها ازمة في العلاقات الفلسطينية ــ اللبنانية . (وكان بيار الجميل قد ادلى في ٩/٢٠ ببيان دعا فيه جامعة الدول العربية الى بحث الوضع اللبناني ، وكان واضحا ان الهدف من تلك الدعوة هو افشال مهمة الوزير عبد الحليم خدام .)

وقد تركزت التحركات التكتيكية لهجوم القوى اللبنانية المضادة على المحاور التالية :

١ ــ **استنزاف قوى الثورة الفلسطينية وجماهيرها** ، ملتقية في ذلك مع مصلحة الاستعمار الاميركي في اشغال قيادات الثورة واجهزتها وصرفها عن متابعة قضايا السياسة العربية والدولية ، خاصة في مواجهة مرحلة توقيع اتفاقية سيناء وما بعدها .

٢ ــ **السعي الى شق وحدة الثورة الفلسطينية** ، وذلك بالترويج اليومي لمقولات ((**الفدائي المنضبط**)) و ((**الفدائي غير المنضبط**)) ، والعمل على تحميل ((جبهة الرفض)) مسؤولية كل ما يثير الاضطراب ، ومن ثم الدعوة لتصفية ((جيوب الشغب)) و ((الاضطراب)) كحد ادنى . (خاصة لما كانت تجده من تجاوب بعض الانظمة العربية لذلك) .

٣ ــ **محاولة شق وحدة الصف اللبناني المناصر للثورة الفلسطينية** ، وتقسيمه الى

قوى حركة وطنية وزعامات اسلامية تقليدية ، وتحريض هذه الزعامات على القوى الوطنيـــة .

٤ ــ **تصعيد عمليات القصف على مواقع القوى الوطنية في الاحياء الفقيرة والآهلة بالسكان بهدف تاليبهم ضد وجود القوى المسلحة بينهم ،** مستغلة موقف القوى الوطنية الساعي الى التهدئة بشكل عام ، التزاما منها بمصلحة الثورة الفلسطينية وتواجدها المسلح في لبنان .

٥ ــ **تصعيد الاشتباكات واشكال العنف الاجرامي الممثل بالحرق ،** (الوســـط التجاري ، سوق سرسق) ، والنسف والقتل والخطــف والذبــح الطائفي (على الهوية !) بهدف خلق حالة من الذعر العام في العاصمة وكل لبنان تدفع نحو الاسراع في انزال الجيش .

اما تكتيكات الكتائب وحلفائها في العمل داخل معسكر القوى الانعزالية المتصادمة مع الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، فقد تركزت على الخطوط التالية :

اولا : السعي الى توحيد القوى المضادة اللبنانية في موقف سياسي منسق ، الامر الذي بلغ ذروته باجتماع الشخصيات المارونية في بكركي يوم ٩/٢٤ واعلانهم عـــن الاتفاق على :

ا) مواجهة الاحداث مهما كانت، خطورتها براي واحد وموقف واحد وعمل واحد .

ب) طرح مسألة التواجد الفلسطيني في لبنان والقول « برفض الحـــد من السيادة اللبنانية على اية منطقة في لبنان ورفض كل مساومة على هذه السيادة من اية جهـــة كانـــت » .

ثانيا : تحريك عقدة الخوف عند المسيحيين والتهويل بأخبار المذابــــح الطائفيـــة (استغلال الحوادث التي وقعت في القاع وبيت ملات ودير عشاش وتل عباس) . وذلك بهدف :

ا) **حشد اوسع القـــوى المسيحية بحجة الدفاع عـــن النفس والمصير ،** واسقاط الدعوة القائلة بأن اساس الصراع يكمن في طائفية الكتائب وانعزاليتها وفي تصدرها تحرك القوى المضادة المتآمر على الثورة الفلسطينية ، وللايهام بأن القضية هي **مسألة امن الجماهير المسيحية و « الضمانات »** التي يخصها الميثاق الوطني اللبناني بها .

ب) تجييش الجماهير المسيحية ، من خلال تأجيج الاحقاد والضغائـــن الطائفية ، للدفاع عن الامتيازات السلطوية لفئة من الطائفة المارونية .

ج) الحيلولـــة دون بروز التناقضات داخل الصـــف المسيحي ، وتطويق القـــوى السياسية المعادية لوجهة التحرك الانعزالي .

د) دفع الفرز الطائفي بهدف الوصول الى التهديد بالتقسيم ، وافتعال سلسلة من المجازر الطائفية من اجل ذلك .

ثالثا : السعي للاستفادة القصوى من حالة التصدع التي اصابت العلاقات المصرية الفلسطينية والمصرية السورية على اثر ابرام اتفاقية سيناء ، وما تولد عنها من مواقف

مصرية ، **رسمية واعلامية** ، اتت في خدمة القوى المضادة اللبنانية . وابـرز هـذه المواقف هي :

أ) **الاتجاه المصري الرسمي** الداعي الى تصفية المنظمات التي تنضوي تحت تسمية « جبهة الرفض » مع ما يعنيه ذلك من ضرب للوحدة الوطنية الفلسطينية ، واثـارة اقتتال فلسطيني ـ فلسطيني ، ومن اضعاف للموقف القومي والوطني المعبر عنه في سياسة منظمة التحرير وما يخلقه ذلك من شروخ تنفذ منها القوى اللبنانية المضادة . وقد عبر موسى صبري عن هذا الاتجاه في مقالة نشرها في جريدة الاخبار المصرية بتاريخ ٩/١٤ ، وقد جاء فيه « ان الاجدر بمنظمة التحرير ، ان تعيد تقييم نفسها ، وقدراتها ودورها ، وحـدود التزامها وحقها . واولـى خطوات التقييم ان تصفي الخلافات بين اعضائها ، سواء كانت شخصية ام عقائدية » ، ومضى ملوحا بضرورة **استخدام اسلوب التصفية الجسدية ضد هؤلاء الذي يمثلون على حد قوله « الانفلات والمزايدة والتبعية »** . ومما كتبته اخبار اليوم بتاريـخ ٩/١٣ : « ان الاشتباكـات الحالية في لبنان هي جزء من مؤامرة اعدتها جبهة الرفض لاحباط التسوية السلميـة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي » .

ب) مهاجمة الوساطة التي قام بها الوزير عبد الحليم خدام بشدة ، ممـا شجـع القوى الانعزالية اللبنانية على العمل من اجل انهاء وساطته . وقـد اخذت اجهزة الاعلام المصرية تتهم سوريا بالتدخل في لبنان « من اجل فرض زعامة حزب البعث » (عبد القدوس ، الاهرام ٩/٢٦) . وتساءلت **« لماذا يقبل لبنان الوساطة السورية »** (الجمال ، الاهرام ٩/٢٨) . ومضت الى الايهام بأن « خدام ذهب الى لبنان منصورا انه قادر على ان يستثمر مأساة لبنان للتهجم على مصر ومن اجـل هذا قرر الرئيس فرنجية طرده من لبنان » (موسى صبري ، الاخبار ٩/٢٨) .

ج) **السياسة المصرية الرامية الى طرح الازمة اللبنانية على جامعة الدول العربية** والتي اخذت تكشف عن نفسها علنا بعد تجدد الاشتباكات في الساحة اللبنانية . والى جانب التحركات الدبلوماسية المصرية ، فقد عبرت صحف القاهرة عن هذا الاتجـاه ايضا . فكتبت اخبار اليوم بتاريخ ٩/١٣ : « ان الحكومة اللبنانية طلبـت مراقبين عسكريين وسياسيين عربا للاشراف على تنفيذ الاتفاقات مع المقاومة » . واعتبـر مصطفى امين (الاخبار ١٠/٨) : « ان على الدول العربية ان تتخذ اجراءات فورية لوقف القتال الدائر حتى لو تطلب ذلك تدخل جيوش عربية » .

وازاء تفجير القوى الانعزالية للموقف العسكري على الشكل الذي بينا اعلاه ، تبنت الثورة الفلسطينية خطا يهدف الى منع الاستنزاف الداخلي ورفعت من اجلـه **شعار « التهدئة »** ومارست على اساسه سياسة ضبط النفس بهدف تفويت فرص **التصعيد المبرر** على الطرف الاخر وذلك خدمة لتحركها السياسي الرامي الى **الاستفادة من تناقضات المعسكر الانعزالي ومساعيها لتحييد بعض اطرافه** .وقد تشجعت الثورة الفلسطينية على الثبات على تكتيكاتها هذه نتيجة نجاح الوساطة السورية التي قام بها السيد عبد الحليم خدام والتي اسفرت عن تشكيل هيئة الحوار الوطني اللبناني بتاريخ ٩/٢٤ ، سيما ان النحو الذي شكلت على اساسه هذه الهيئة مثل **هزيمة نسبية لحزب الكتائب ولسياسته في التصعيد والتأزيم والتهديد بالتقسيم** ، وذلك علاوة على الموقف المبدئي الايجابي للثورة الفلسطينية تجاه الوساطة السورية آنذاك والذي تعزز بالضرورة مع توطيد العلاقات الفلسطينية ـ السورية ، اثر اقدام النظام المصري على توقيع « اتفاقية سيناء » ، ودخول كل من منظمة التحرير وسوريا ميدان التصـدي

لنتائج هذه الاتفاقية . وكان الوزير عبد الحليم خدام قد اعتبر في تصريح له يوم ٢٧ ايلول بأن « الاتفاقات السرية حول سيناء بدأت تظهر آثارها ومنها احداث بيروت ، التي هي جزء من مخطط شامل يهدف الى نقل المعركة من طبيعتها العربية ـــ الصهيونية الى معركة عربية ـــ عربية » .

من هيئة الحوار الوطني الى الجامعة العربية :

لقد مثل اذن الوصول الى تشكيل هيئة الحوار الوطني اللبناني انتصارا نسبيا « لخط التهدئة » ، اذ ان تشكيل الهيئة المعنية يحمل بحد ذاته **تأكيدا على وحدة لبنان بطوائفه وقواه المختلفة واقرارا مبدئيا بالحاجة الى احداث اصلاحات سياسية جذرية في بنية النظام اللبناني ، زيادة على الضمانات التي كان قد حصل عليها الوزير خدام بعدم اثارة مسألة الوجود الفلسطيني في لبنان داخل الهيئة** . ومن الجدير بالذكر ايضا ان هيئة الحوار تشكلت من اغلبية تناهض التحرك الكتائبي المتآمر ، كما انها عكست الوزن المتنامي للقوى الوطنية والعروبية في لبنان ولم تحصر التمثيل الماروني على اشراك ممثلين عن حزب الكتائب بل ضمت بين اعضائها الموارنة ممثلين عن الاتجاه المعتدل داخل الطائفة : ريمون اده ورينيه معوض .

وما ان غادر الوفد السوري لبنان ، حتى عادت القوى اللبنانية المضادة الى خلق التوتر والقيام بالاستفزازات المسلحة (خطف : ٣٠٠ مخطوف يوم ١ تشرين الاول ، قنص ، اشعال الجبهات) والسعي لشل هيئة الحوار الوطني وتعطيل اجتماعاتها والاستمرار في تأزيم الوضع السياسي مما حدا بالثورة الفلسطينية الى ادخال **بعض تكتيكات القتال الرادع من ضمن « خط التهدئة »** الذي اعتمدته ، فقصفت الاشرفية قصفا شديدا ليل ٧ـــ٨ تشرين الاول كما نظمت بعض العمليات العسكرية المحدودة في منطقتي عين الرمانة والناصرة ـــ سوديكو يومي ١٨ و ١٩ تشرين الاول . ويبقى في اساس الوضع القائم ، ان القوى اللبنانية المضادة ، وبالرغم من مبادرتها الدائمة الى تفجير الوضع العسكري وتصعيد القتال ، فهي لا بد كانت تعي ايضا عجزها عن بلوغ اهدافها من خلال حسم عسكري للصراع ، **بمعنى انها لن تستطيع انطلاقا من معطيات الصراع آنذاك واستنادا الى قواها الذاتية المحلية ، احداث اي خلل راجح لصالحها في موازين القوى على الساحة اللبنانية للانتقال منه الى فرض تنازلات على الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية** . وتقودنا الى هذا التقدير اربعة عوامل ، هي :

اولا : انه ، بالرغم من الاستقطاب الشارعي الواسع الذي حققته القوى المضادة واستمرارها في الدعاوة والتحريض من اجل تعبئة الجماهير المسيحية وتجييشها لخدمة التحرك الاستعماري ـــ الانعزالي ، فانها لم تتمكن من توحيد كل القيادات المسيحية الرئيسية على قاعدة مخططها . (موقع الضعف الذي تحتله الكتائب في التمثيل الماروني في هيئة الحوار ، مواقف البطريرك خريش وريمون اده ، الحسابات الداخلية المرتبطة بمعركة رئاسة الجمهورية والتي تقود بعض الشخصيات المارونية الى اتخاذ مواقف تكتيكية متمايزة باستمرار عن الكتائب ، التباين الحاصل بين مواقف القادة السياسيين والروحيين للطائفة الاورثوذكسية ومعهم بعض الزعماء الكاثوليك وبين الكتائب والاحرار) .

ثانيا : فتح اقطاب المعارضة معركة الرئاسة الاولى ومطالبة رئيس الجمهورية بالاستقالة منذ مطلع تشرين الاول ، مما يضعف من مكانة فرنجية ومن دوره في الصراع الدائر .

ثالثا : الفشل المستمر في كل المحاولات التي بذلت من اجل زج الجيش علنيا وشرعيا في الصراع ، وذلك منذ عجز الحكومة العسكرية عن اتخاذ اية مبادرة هجومية ضد الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية ، زيادة على آثار عزل اسكندر غانم على وضع الجيوب والقيادات المضادة في الجيش .

رابعا : حجم القوى انقتالية والكفاءة العسكرية التي يتميز بهما معسكر الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية .

واذا اضفنا الى العوامل الاربعة هذه ، عجز القوى اللبنانية المضادة عن استثمار المعطيات العربية المؤاتية لها ، خاصة حالة اشتداد الصراع الفلسطيني ــ المصري بعد ابرام الاتفاقية الاسرائيلية ــ المصرية ، **وتوظيفها بشكل مؤثر في موازين القوى الداخلية في لبنان ،** فاننا نكتشف ابعاد استمرارها في القيام بالاستفزازات المسلحة واشعال الجبهات العسكرية والابقاء على تأزيم الوضع السياسي من اجل حشد القوى العربية المساندة **ونقل الازمة اللبنانية الى اطار الجامعة العربية** وصولا الى تأمين تدخل عربي ضاغط وقادر على تحصيل التنازلات المطلوبة من الثورة الفلسطينية.
ومن هذا المنطلق ، كان الجميل قد ادلى ببيان في ١٩٧٥/٩/٢٠ ، دعا فيه جامعة الدول العربية الى البحث في الازمة اللبنانية (وكان الهدف منه أيضا ، افشال مهمة الوزير عبد الحليم خدام) ، كما ان الرئيس فرنجية كان قد اقترح منذ شهر حزيران الاستعانة بقوات عربية « لضبط الوضع في لبنان » ، وذلك خلال احد لقاءاته العربية الرسمية . وكانت الانعزالية اللبنانية ترمي من تعريبها للأزمة الى تحقيق الاهداف التالية :

١ ــ **ايجاد الاطار الذي يسمح باعادة طرح الازمة في لبنان كأزمة في العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية بعد ان تهاوت شعاراتها العلنية المعادية للثورة الفلسطينية مع تشكيل هيئة الحوار الوطني ونجاح الاطراف الوطنية اللبنانية في طرحها لمسألة المطالب الوطنية .** (وهذا ما يفسر التصعيد العسكري الذي شهدته بيروت في ليلتي ١٣و١٤/١٠ ، اي عشية انعقاد مجلس الجامعة العربية ، على جبهتي الدكوانة ــ مخيم تل الزعتر ، ومحور التحويطة ، فرن الشباك ، الحازمية ــ مخيم جسر الباشا، وذلك لاعطاء القتال طابعه اللبناني ــ الفلسطيني) .

٢ ــ كسب معركة سياسية في جامعة الدول العربية ، باعتبارها احدى ساحات الصراع السياسي مع الثورة وحيث بأمكان القوى اللبنانية المضادة الاستفادة من التناقضات العربية باتجاه الضغط على الثورة الفلسطينية ، **وتوظيف المواقف العربية الساعية الى « تقليم اظافر الثورة » لصالحها في الصراع على الساحة اللبنانية** وصولا الى امكانية **الاستعانة بقوات عسكرية عربية لخدمة هذا الغرض .**

وبالرغم من ان دولة الكويت كانت صاحبة الدعوة الرسمية لعقد مؤتمر استثنائي لوزراء الخارجية العرب للبحث في ازمة لبنان ، فان جمهورية مصر العربية قد لعبت الدور الاكبر لتأمين نجاح الدعوة وذلك من خلال الاتصالات التمهيدية التي قامت بها اولا مع لبنان عبر محمد صبرا السفير اللبناني في القاهرة ، ومن ثم مع عدد من الدول العربية الاخرى ، وخاصة الخليجية . وقد اخذت مصر تتهم سوريا بالتفرد في معالجة الازمة اللبنانية والعمل لبسط نفوذ حزب البعث في لبنان (وكانت مصر قد تدخلت لدى الرئيس فرنجية من اجل عرقلة مهمة الوزير عبد الحليم خدام) مؤكدة ان مصر (على نقيض سوريا) لا تتدخل في الازمة اللبنانية ، وانما دوافعها تنبع من

المصلحة العربية العليا وحدها ، لما تحمله التطورات الممكنة على الساحة اللبنانية من احتمال انفجار عموم الوضع في الشرق الاوسط .

ولم يزاحم جمهورية مصر العربية في اهتمامها بعقد مؤتمر لوزراء الخارجية العرب الا حماس ادمون رزق ، المعلق السياسي في جريدة « العمل » الكتائبية وتبشيراته باقتراب موعد الحدث المنتظر (١/١٥) . وبالمقابل ، فان المقاطعة الفلسطينية للمؤتمر والهجوم السوري الشديد عليه ، وتضامن ليبيا مع موقفي منظمة التحرير وسوريا وتحفظ الجزائر ازاء المؤتمر رغم حضورها الجلسات ، كلها عوامل ادت الى **اضعاف شان المؤتمر وتقليل اهمية القرارات التي صدرت عنه .**

وكان من اثر تلك المواقف ، علاوة على الانقسام الداخلي الحاصل في السلطة اللبنانية ، ان اكتفى الوفد اللبناني الى المؤتمر بطلب المعونات الاقتصادية للتعويض عن الخسائر المادية الناجمة عن القتال ، **وذلك اضافة الى ان حالة المقاطعة الفلسطينية والسورية فرضت على معظم الدول العربية الاسراع في الاعلان عن ان مسالة العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية لن تطرح على بساط البحث في المؤتمر .**

وكانت منظمة التحرير قد تداركت الامر من جهتها ووجهت في ١٣ تشرين الاول ، اي عشية انعقاد مجلس جامعة الدول العربية ، **مذكرة فلسطينية الى هيئة الحوار الوطني اللبناني** ، ضمنتها النقاط الخمس التالية :

ا ـ ترفض المقاومة اي اتجاه لاعتبار لبنان وطنا بديلا للفلسطينيين .

ب ـ ان العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية تحددها الاتفاقات المعقودة بين الطرفين .

ج ـ يحق للبنانيين مناقشة العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية ضمن اطر مؤسسات الدولة على ان تتعامل المقاومة مع محصلة المواقف اللبنانية معبرا عنها بالمواقف الرسمية .

د ـ ان الاتفاقات المعقودة تفرض على سائر القوى ، الاقرار بشرعية الوجود الفلسطيني في لبنان .

هـ ـ تطلب المقاومة من كل الاطراف التعهد بشكل نهائي بعدم اللجوء الى العنف في حل اي اشكالات مستقبلا .

وقد اقتصر البيان الختامي الصادر عن مؤتمر وزراء الخارجية على التاكيد على حرص الدول العربية المجتمعة على وحدة اراضي لبنان ووحدة شعبه كما حذر من امكانية استغلال العدو الصهيوني الموقف بشكل مباشر او غير مباشر .

حملة اسقاط كرامي وتشكيل الهيئة الامنية :

نتج عن فشل مؤتمر وزراء الخارجية العرب في تحقيق اية مكاسب للانعزالية اللبنانية ، سيما ان الانقسام الحاصل في الموقف الرسمي اللبناني (بين فرنجية وكرامي) ـ المعبر عنه في عجز وزير الخارجية اللبنانية عن التحرك الايجابي في المؤتمر ـ قد منع دولا عربية عدة عن الافصاح عن حقيقة مواقفها ، ان **تحولت الانعزالية اللبنانية مجددا الى محاولة حسم الصراع الدائر داخل تشكيلة الحكم**

اللبناني نفسه باتجاه دفع الرئيس كرامي الى الاستقالة والوصول الى انزال الجيش. وقد تركز تحرك تحالف فرنجية ــ شمعون ــ الكتائب على المحاور التالية :

١ ــ **شل هيئة الحوار الوطني اللبناني** واللجان المنبثقة عنها بحجة اولوية القضايا الامنية وارتباطها الوثيق بهدف « العمل على استعادة السيادة اللبنانية فوق كل اراضي البلاد » ، اي طرح اعادة النظر بالتواجد الفلسطيني المسلح في لبنان ، والشروع في حملة طعن « بشرعية » الهيئة المذكورة و « دستوريتها » و «صلاحياتها» والسعي لاحياء المجلس النيابي كاطار « دستوري » و «شرعي» بديل عنها (تصريحات مختلفة لشمعون والاسعد والجميل) .

٢ ــ **المضي في التصعيد السياسي** كما حدث في البيان المشترك الصادر عن الرهبانيات والرابطة المارونية والذي ركز على النقاط التالية: أ ــ اعتبار ان «الحكومة اللبنانية عاجزة عن القيام بأي عمل من شأنه اعادة الامن الى الربوع والطمأنينة الى النفوس » . ب ــ القول بأن لبنان « واقع تحت الاحتلال الفعلي » و « ان مناطق لبنانية (من محافظات الجنوب والشمال والبقاع وبيروت ومسماة في البيان) خرجت تماما عن سلطة الدولة اللبنانية واصبحت تحت سيطرة المنظمات الفلسطينية » . ج ــ « ان اي موضوع او طلب او مفاوضة لا يمكن اطلاقا ان تتم الا بعد سيطرة السلطة اللبنانية سيطرة تامة واضحة مطلقة على كامل الاراضي اللبنانية في كل الظروف والاحوال » . د ــ الدعوة الى طرح القضية اللبنانية « من زاوية السيادة » على الراي العام العالمي سواء عن طريق الجامعة العربية ام هيئة الامم المتحدة » . هـ ــ طرح الوجود الفلسطيني في لبنان كجوهر ازمة دائمة ناجمة عن « تدخل الفلسطينيين في شؤون لبنان الداخلية ، وامتدادهم في عمق المناطق اللبنانية واحتلال جزء كبير منها واشتراكهم المباشر في الحوادث الاخيرة » . و ــ التلويح والتهديد بالتقسيم من خلال طرح المعادلة التالية : اما الاستجابة لمطالب الانعزاليين في حربهم على الثورة الفلسطينية واما « ان يصبح التقسيم الواقع بقوة الاحتلال والتهجير الكرهي ، أمرا ، لا سمح الله محتوما » .

٣ ــ **الاستمرار في تصوير الصراع الدائر كقتال لبناني ــ فلسطيني** وانتهاج خط تكتيكي يتستر بقبول اتفاقية القاهرة وبروتوكولات ملكارت ــ **شرط الالتزام بتطبيقها الصارم** ــ ويدعو الى البحث في ((**صيغة**)) التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان من اجل « استعادة السيادة اللبنانية على كامل الاراضي اللبنانية » .

٤ ــ **اشعال الجبهات العسكرية عن طريق الخطف والقنص والارتكاز على التدهور المستمر في ((الحالة الامنية)) لمضاعفة الضغوط على الرئيس كرامي من اجل انزال الجيش او الاستقالة .**

فبالرغم من تمكن الانعزالية اللبنانية من شل هيئة الحوار الوطني التي كان كرامي يعتبرها من **اهم انجازاته ((الترميمية))** ويعتمدها اطارا لممارسة سياسته في **((اخماد النيران)) و ((التهدئة))** ، وبالرغم ايضا من تهديد مصير لجنة التنسيق العليا ، الاطار « الكرامي » الاخر ، بسبب خرق القوى الانعزالية **لخمس اعلانات متتالية عن وقف اطلاق النار** في النصف الثاني من تشرين الاول ، وبعد ان واجه الحملات السياسية التي قادها التحالف الانعزالي ضد سياسته ، بهجوم مضاد استهدف فيه فرنجية « لانه قادر على انهاء القتال لو اراد » وشمعون « لانه رئيس قبيلة ، فخليه يضب جماعته فينتهي كل شيء » ، بقي كرامي على مواقفه في رفض انزال الجيش ولم يذهب

الى الاستقالة ، اي الى حيث كان يريده التحالف الانعزالي ان يسير . **وقاد تشدد كرامي هذا ، التحالف الانعزالي الى مراجعة تكتيكاته والتبديل في عناصر مناورته السياسية بهدف جعل الاستقالة المطلوبة قرارا طوعيا يختاره كرامي بنفسه ولا يحجم عنه نتيجة الضغط الانعزالي .** فأخذ فرنجية يغطي تحركه واتصالاته السياسية الرامية الى تأمين شخصية سنية تخلف كرامي في رئاسة احدى التشكيلتين الوزاريتين المقترحتين بدلا عن الحكومة السداسية (عسكرية صرفة وعسكرية برئاسة مدني : تقي الدين الصلح او سليمان العلي . بحجة عجز كرامي عن ممارسة صلاحياته وتحميله مسؤولية التدهور المستمر في « الحالة الامنية » ، كما ان الجميل اخذ يعلن ايضا عن تفويضه الكامل لكرامي في اختيار « انجح » السبل الى وقف اطلاق النار . وتجاه هذا الوضع ، اصبح كرامي مجبرا على المبادرة ، فأعلن يوم ٢٨ ت١ عن تشكيل **« هيئة امنية »** ، اتت في تشكيلها على صيغة حكومة مصغرة ، وما ان دعا كرامي الهيئة ـ الحكومة المصغرة الى الاجتماع حتى قوبل بتصعيد عسكري ومقاطعة لتحركه من جهة الاطراف الانعزالية التي اخذت تترقب فشله وتنتظر توجهه بالتالي الى الاستقالة بين لحظة واخرى . **الا ان الدعم المثلث** (سوريا ، الثورة الفلسطينية ، داخليا : جنبلاط سلام اده ، زيادة على الوزيرين تويني وعسيران) **الذي حصل عليه كرامي جعله يعتصم في السراي ويستفيد من الهزائم النسبية التي حصدتها القوى الانعزالية على جبهات القنطاري ـ الفنادق ، عين الرمانة والناعمة ليتمكن من احياء لجنة التنسيق العليا بدلا عن الهيئة الامنية والوصول الى الاعلان عن وقف لاطلاق النار يوم واحد تشرين الثاني .**

وتكتسب هذه الحقبة الصغيرة التي عالجنا فيها تفصيلا التكتيكات وقواعد المناورة السياسية التي اعتمدها كل من فرنجية والكتائب وكرامي ، اهميتها القصوى في مراجعتنا لمجريات الحرب الاهلية في لبنان كونها تمكننا من الوصول الى تحديد دقيق للدور الذي حمله الرئيس كرامي طوال المرحلة الممتدة من تجدد الاقتتال اثر ابرام « اتفاقية سيناء » الى تقديم استقالته الاولى عشية اقتحام منطقة الكرنتينا ـ المسلخ. **وهذا الدور ليس الشراكة الفعلية في السلطة التي تمكنه من المبادرة والتحرك الايجابي ، بل دور القادر من موقعه في السلطة ، ـ اي رئاسة الوزارة وتوليه فيها وزارة الدفاع ـ على منع رئيس الجمهورية والقوى الانعزالية ـ ومنها وزير الداخلية ـ من الاستئثار الكامل بالسلطة . فكما ان ثبات كرامي في رفض الاستقالة فوت الفرصة على تشكيل حكومة جديدة وانزال الجيش ، فانه ايضا لم يكن في موقع الحاكم الذي يستطيع فرض شروطه ، بل كان عنصرا رادعا من داخل السلطة لا يستطيع رئيس الجمهورية تجاوزه بطلاقة .**

مرحلة التدويل الاولى والبحث عن القاسم المشترك :

خرج اذن الرئيس كرامي منتصرا من السراي : فهو قد توصل الى تحقيق وقف لاطلاق النار وافسد مناورة تحالف القصر ـ شمعون ـ الكتائب ، بل انتزع من رئيس الجمهورية اشادة بما اطلق عليه اسم **« الطريقة الكرامية »** بالحكم وذلك في جلسة مجلس الوزراء التي اعقبت الاتفاق (١/١١) . وحاول كرامي الانطلاق من **« انجازه » « الامني »** هذا ، الى توفير شروط الحد الادنى الضرورية « لوقف الاقتتال» و « ترميم » الوضع السياسي عن طريق الاستمرار في لعب دور الوساطة ـ سياسيا الآن ـ بين اطراف الصراع والبحث عما اسماه **« القاسم المشترك »** ، فتحرك داخليا باتجاه الكتائب ، وعربيا عبر رسل اوفدهم الى سوريا ، وذلك بعد ان اطمأن

الـى سقف التهديدات الصهيونية خـلال مشاوراته مع السفير الاميركي غودلـي واستلامه رسالة التأييد التي وجهها اليه كيسنجر في ٦ تشرين الثاني .

وبالرغم من تفجر الوضع العسكـري مجددا بعد حادثة **« باخرة الاكوامارينا »** (٧٥/١١/٦) وما نتج عنها من صدام بين كرامي وقادة الجيش بعد ان رفع اليـه العقيد فارس لحود ، قائد البحرية تقريرا كاذبا عن طبيعة حمولة الباخرة وبعد ان خالفت القيادة العسكرية اوامره بمنع تفريغ الاسلحة ومصادرة الباخرة وسحبـت قوات الجيش اللبناني من مواجهة المسلحين الكسروانيين الذين نزلوا الى الشاطىء لحماية الباخرة ، وبالرغم ايضا مما ادت اليه الحادثة من احتدام بينه وبين الرئيـس فرنجية الذي غطى مسؤولية الضباط المعنيين بقضية الباخرة ، فان كرامي حـاول تجاوز الانفجار المستجد في الوضع العسكري والتصعيد السياسي الحاصل بين اطراف الصراع ليستمر في دور الوساطة الذي اختاره سعيا الى « القاسم المشترك » . **وقد تمكن القصر وحلفاؤه من استدراج كرامي الى القبول بمجلس الوزراء كاطار بديل عن هيئة الحوار الوطني للبحث في شؤون الاصـلاح ومن ثم الـى اعتبار الامر المطلوب مسالة « تفسيرات » للدستور وليس ادخال تعديلات اساسية عليه** ، بينما استمروا ـ القصر وحلفاؤه ـ في توتير الوضع العسكري وتحضير اجواء ساخنة لاستقبـال برتولي ، المبعوث البابوي . وكان تحالف القصر ـ شمعون ـ الكتائب ، وخاصـة منذ فشل اجتماع وزراء الخارجية العرب ، قد بادر على الساحة الدولية الى تحريك عدة رسل ـ ابرزهم الرئيس السابق شارل حلو ، والوزيرين السابقين خليل أبو حمد وشارل مالك وبعض السفراء اللبنانيين المعتمدين في اوروبا والاميركتين ـ **بهدف دفع** بعض الدول الغربية باتجاه الصراع الدائر على الساحة اللبنانية ومطالبتها بمواقف اكثر حسما .

وشكلت الوساطة البابوية التي قام بها الكاردينال برتولـي (وصل بيروت في ٩ تشرين الثاني ١٩٧٥) اولى الوساطات الدولية في الازمة اللبنانية . وقد بدا واضحا منذ بداية تحرك الكاردينال برتولي وتبامه بالاتصالات الاولى ، ان **الفاتيكان ينظر الى الصراع اللبناني من زاوية المخاطر التي يحملها الاقتتال الحاصل ، باشكاله الطائفية الغالبة ، على مستقبل الطوائف المسيحية في سائر الاقطار العربية واحتمال وقوع ردات فعل عدائية تجاه رعاياها ، مما يهدد سياسة الفاتيكان الحالية في الانفتاح على قضايا شعوب اسيا وافريقيا وتوجهه نحو تعزيز الحوار المسيحي ـ الاسلامي .** من هنا ، شدد برتولي على رفضه المطلق لاي كلام عن التقسيم مستغربا حتى حدوثه، ودعا الى تجديد تجربة التعايش اللبناني حتى ولو توجب ذلك تخلي المسيحيين عـن بعض امتيازاتهم من اجل القيام بالاصلاحات الاجتماعية والسياسية الضرورية . **وكان في ذلك قريبا من وجهة نظر البطريرك الماروني خريش والزعامات المارونية المتنورة كالعميد اده** . ولكن برتولي اصطدم بالتباين الشاسع القائم بين سياسـة الكنيسـة الكاثوليكية الحديثة والمواقف التي يدافع عنها الاباتي قسيس واقطاب التيار الانعزالي الماروني . وانتهت الوساطة البابوية دون التمكن من دفع عجلة التسوية الداخليـة المطلوبة مكتفية بتقديم نصائح الاعتدال السياسي وانتهاج سبل الحوار والانفتاح .

وتميز الوساطة الدولية الثانية التي قام بها وفد فرنسي برئاسة السيد كوف دي مورفيل الذي وصل الى بيروت يوم ١٩ تشرين الثاني بطابعها السياسي (باعتبـار الفاتيكان صاحب الوساطة الاولى مرجعا دينيا دوليا) وتمثيلها لموقف كتلة سياسيـة دولية هي مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة التي لها سياسة عربية متجانسة

الى حد كبير والتي عبرت عن رأيها بالازمة اللبنانية في عدة مواقف رسمية سابقا . ومع ان السيد دو مورفيل نعت مهمة بعثته « بالصداقة والاستقصاء » ، **فان فرنسا كانت قد استطلعت الموقف العربي والدولي جيدا قبل التحرك وسعت الى تحضير عمل بعثتها مع كل من السعودية وسوريا بشكل رئيسي والى التنسيق مع اميركا .** وكان السيد سوفانيارغ، وزير الخارجية الفرنسية، قدتباحث مع المسؤولين السعوديين في شؤون الازمة اللبنانية ، واتصل بالمسؤولين السوريين ، وكان وزميله البريطاني قد تبادلا الراي مع الادارة الاميركية بشأن الموقف في لبنان وابعاده العربية والدولية . (وقد صرح كيسنجر امام مجلس النواب الاميركي يوم ١٥ تشرين الثاني بالتالي : **لا اعتراض لنا على الوساطة الفرنسية ، والمهم ان نبقى خلف الكواليس)** . وبالفعل ، لم يكن يتبقى على الوساطة الفرنسية سوى ان «تستقصي» ميدانيا ، المواقف المختلفة لاطراف الصراع ، ومن ثم ان تحاول صياغة الحلول الممكنة .

اما داخليا ، فان القوى الانعزالية تابعت رفضها للسير الفعلي مع كرامي في طريق « القاسم المشترك » ، عبر التصلب في المواقف السياسية ومتابعتها التصعيد العسكري من خلال اعمال الخطف الواسعة النطاق والقنص والتراشق بالقذائف الصاروخية ومدها لدائرة القتال الى تل الزعتر مجددا عشية وصول المبعوث الفرنسي .فبالاضافة الى **افشال جلسات مجلس الوزراء** التي حاول كرامي تخصيصها « لتفسير » الدستور **ورفض الكتائب ما اسمته «(توصيات الامر الواقع)» الصادرة عن الاجنة السياسية لهيئة الحوار ،** بحجة ان « الهيئة لا تتمتع بأية صفة تمثيلية او تقريرية شرعية وليس لها اي وضع قانوني » ، (١٤ تشرين الثاني .) **تمكن التحالف الانعزالي من الحيلولة دون احياء هيئة الحوار الوطني** موجها الضربة القاضية اليها يوم ٢٤ تشرين الثاني من خلال تخلف شمعون ، وزير الداخلية ، عن حضور اجتماع الهيئة المخصص للبحث في الوضع الامني في ظرف يتوجه الاتهام الصريح فيه لقوى حزبه بأنها وراء التصعيد العسكري .

ونتيجة لما كانت تحمله كلهذه المؤشرات من دلالة واضحة على **تعمد القوى الانعزالية اغلاق ابواب الحوار الداخلي ورفضها الاقدام على اية تسوية في ظل موازين القوى القائمة آنذاك وحصر تعاملها مع الوساطات الدولية التي استقدمتها بالحدود التي تكسب فيها تهديدها بالتقسيم والتدويل ابعادا جديدة ومؤثرة في ميزان الصراع ، وتؤهلها للمضي في مساعيها للابتزاز داخليا وعربيا ،** نتيجة لذلك تم تختلف مسيرة دو مورفيل في بحثه عن الحلول « الميدانية » عن الطريق التي كان قد سلكها كرامي سعيا وراء « القاسم المشترك » .

وقد حاول دو مورفيل طمأنة الفريق الوطني اللبناني ـــ الفلسطيني بتكراره « ان لا مؤامرة دولية على لبنان ، ولا يعتقد ان قضية التقسيم مطروحة خارج لبنان ، » معتبرا التقسيم « مأساة وكارثة » وحاول طمأنة الفريق الاخر باعتباره مسألة السيادة قضية جوهرية وبضرورة توفر ضمانات لتنفيذ الاتفاقات المعقودة مع الثورة الفلسطينية ، وحاول ايضا ان يعطي كل فريق شيئا مما يطلبه من الفريق الاخر ، فالمح الى وجود تدخل فلسطيني في الشؤون اللبنانية كما اعتبر الاصلاح السياسي والاجتماعي مسألة حيوية لا غنى عنها . وقد اقترح ايضا تحييد «العامل الفلسطيني» عن شروط التسوية الداخلية وربطه بمستقبل الحلول والمبادرات السلمية المقترحة للصراع العربي ـــ الصهيوني . وحققت الوساطة الفرنسية **نجاحا محدودا** في الوصول الى الاتفاق الذي اعلن في مجلس الوزراء يوم السبت في ٢٩ تشرين الثاني واخذ شكل رسالتين اذاعهما الرئيسان فرنجية وكرامي .

وقد اقتصرت رسالة فرنجية على القول بأن مصير لبنان بالذات قد بات مهـــددا بنتيجة ما يشهد من احداث وان هذه الاحداث ، في حال استمرارها « تهدد بـــأن تمتد بنيرانها الى ابعد من حدوده » . اما البيان الذي اذاعه كرامي فقد اكد ايضـــا على ان الخطر يهدد وجود لبنان وانه يتوجب العمل لبقاء لبنان بلدا موحدا وجزءا لا يتجزأ من العالم العربي وقد تناول الاصلاح السياسي والاجتماعي على انه « تكيف البلد مع واقع العالم الحديث » .

وبالرغم من المباركة السورية التي حظي بها الاتفاق المذكور والتي جعلت سوريـا نتحرك سريعا بأتجاه الكتائب (دعوة الجميل لزيارة دمشق يوم ٢٩ تشرين الثاني) لطمأنتها عن الاستعداد السوري لضمان الاتفاقات المعقودة مع الثورة الفلسطينية ، **فإن الاتفاق بقي اعرجا ولم ينتقل من كونه « مشروعا جديدا لوقف اطـلاق النار + محاولة لتجميد التصعيد السياسي للازمة » ويتحول الى خطوة تفتح باب التسويـــة الداخلية** ، وذلك يعود الى عدة عوامل :

اولا : استمرار مراهنة القوى الانعزالية على **امكانية وصولها الى انتــزاع قرار رسمي بأنزال الجيش** الى ساحةالقتال ، والى جانبها .

ثانيا : تأجج بعض الخلافات داخل الصف الوطني ـ الاسلامي ، وبروز احتمال تحولها الى شروخ فعلية ، وقد طفت على السطح بوادر الفرقة والتمزق في محاور ثلاث : ا ـ ولادة « جبهة الاحزاب والقوى الوطنية والقومية » تميزها عن الخط العام لتحالف الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . ب ـ اتساع الحملات المتبادلة بين صائب سلام وبعض الاحزاب اليسارية (الحزب الشيوعـي خاصة) بعد عودة سلام من السعودية ، وتمكن بعض العملاء السابقين لاجهزة الاستخبارات اللبنانية من النفاذ عبرها لتأجيج صراع اخر : تنمية بقايا النعرة الاقليمية اللبنانية في بيروت الغربية ضد الامتداد الجماهيري الفلسطيني . ج ـ تصعيد جنبلاط لانتقاداته لسياسة كرامي بأسلوب « التمريك » ووضع « علامات السلوك » مما كان يعمق في التبايـــن الحاصل بين مواقفها ويهدد التحالف القائم مع كرامي .

ثالثا : سعي الطرف الانعزالي **لاستثمار حدوث الوساطتين البابوية والفرنسية ، ومن ثم زيارة فالدهايم (١١/٢٦) الى لبنان لجهة التهديد بأمكانية الانتقال الـــى التدويل الفعلي** مستفيدين في ذلك من اقتراب موعد جلسة مجلس الامن ، ومن امكانية تحول الموقف الاميركي الى المبادرة المباشرة ، بعد فشل دومورفيل وهجوم الاتحاد السوفيتي على الوساطة الفرنسية .

رابعا : مراهنة الاطراف الانعزالية على مقدرتها علـى توظيف امتلاكها سلاحي « التدويل » و « التقسيم » للابتزاز عربيا ، خاصة ان مصر وبعض الدول الخليجية لم تكن بعيدة عن التفكير في تجديد مساعيها من اجـل معاودة « تعريب » الازمـــة اللبنانية ، وذلك علاوة على التحرك المستمر للاطراف الانعزالية من اجل الاستفادة التكتيكية القصوى من انقسام المواقف العربية تجاه الصراع الدائر فوق الاراضـــي اللبنانية . (مصر ـ سوريا ، تعريب ـ لا تعريب ، المبادرة العراقية وتناقضها مع الوساطة السورية ، تعثر محادثات سلام في السعودية .)

السبت الاسود ، حصار المخيمات والقمم المارونية :

نتيجة العوامـل الاربع المتبينة اعلاه ، **لـم يقد اتفـاق ٣١ تشريـن الثاني** +

التحـرك السوري باتجاه الكتائب ، الـــى الحد مــن التصعيـد الانعزالــي ، ولم يستكمــل الاعلان عن رسالتي الرئيسين فرنجية وكرامي بالبحث في الاصلاحات المقترحة والسير نحو التبديل الوزاري ، بل على العكس تتابع حدوث مجموعة مــن **عمليات الاثارة الاستخبارية** (١ ــ حرق نسخ من القرآن ، وهي في طريقها من بيروت الى السعودية يوم ٢ كانون الاول ، ٢ ــ افتعال صدامات مسلحة في البقاع علـــى يد عناصر من الشعبة الثانية يومي ٢ و ٣ كانون الاول ، ٣ ــ القيام بحرائق ووضـــع متفجرتين في كنيستين في طرابلس يوم ٤ كانون الاول ،) ٤ ــ وجود جثث اربعة مــن الكتائبيين يوم ٦ كانون الاول في منطقة الفنار ، ٥ ــ استمرار عمليات الخطف الطائفي) . حتى تفجر الوضع مجددا يوم **« السبت الاسود »** في ٦ كانون الاول (وهو يوم زيـــارة بيار الجميل الى دمشق) حيث قامت مجموعات بشير الجميل الكتائبية بأكبر مجزرة طائفية عـــرفتها الحرب الاهلية اللبنانية حتى ذاك الحين : خطف مئات المسلمين وقتل العشرات منهم امام البيت المركزي للكتائب في محلة الصيفي ، وفي مناطق المرفـــــأ والوسط التجاري ، ومصلحة الكهرباء ومعظم مداخل منطقة الاشرفية .

احدثت مجزرة السبت الاسود ــ خاصة من حيث رفعها لاي ابهام حول التوجه الفعلي للفريق الانعزالي سياسيا وعسكريا ــ **تحولا نوعيا في سياسة التصدي لــدى تحالف الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية** ونقلتها من العمل على اســـاس تكتيكي « التهدئة » : أ ــ ضبط النفس بهدف تفويت فرص التصعيد المبرر على الطرف الاخر ، ب ــ الرد على النار بالمثل مع وجود حيز « الرد الاعنف » (قصف الاشرفية ٧ ــ ٨ تشرين الاول ، والعمليات المحدودة في محـــاور عين الرمانـــة والناصرة ــ سوديكو ١٨ و ١٩ تشرين الاول) ، الى العمل بقاعدة الردع الحدود .

تتلخص اهداف المبادرة العسكرية التي اقدمت عليها « القوات الوطنية المشتركة » بشن الهجوم العسكري في منطقة الفنادق ، وتمكنها من تطهير فندقي الســـان جورج والفينيسيا ، بالنقاط التالية :

١ ــ توجيه ضربة عسكرية قوية للكتائب وحلفائها .

٢ ــ اثبات مقدرة «القوات الوطنية المشتركة» على الانتقال منمواقع الدفاعالثابت الى ممارسة الهجوم التكتيكي الرادع .

٣ ــ منع ردود الفعل الطائفية المحتملة على مجزرة السبت الاسود والاستعاضة عنها بمبادرة عسكرية على اساس « الردع المحدود » .

٤ ــ التأثير في موازين القوى من خلال العمل العسكري .

رافق اتساع الاشتباكات العسكرية وتصعيدها اثر مجزرة السبت الاسود ، تعثر ايضا في طريق الساعين الى « القاسم المشترك » . فبعد تحميل الرئيس فرنجيـــة ايسار والصهيونية مسؤولية الازمة اللبنانية (كلمـــــة الرئيس في مجلس الوزراء ١٢/٩) ومن ثم اتهامه الثورة الفلسطينية بالتنكر لوعودها والخروج عن الالتزامات التي تضمنتها مذكرة المنظمة الى هيئة الحوار الوطني (كلمة الرئيس في مجلس الوزراء ١٢/١٧) تحرك شمعون بدوره مصرحا يوم (١٢/٢٢) عن « وجود تدخل مســلح غريب في منطقة البقاع » من اجل التأثير على مباحثات كرامي ــ الموجود يومها فــي دمشق ــ مع المسؤولين السوريين **والالتفاف على برنامج النقاط الخمس** (القاســم المشترك) : مناصفة طائفية في مقاعد المجلس النيابي ، الغاء طائفية الوظيفـــــه ،

انتخاب رئيس الحكومة من المجلس النيابي ، انشاء مجلس اجتماعي اقتصادي ، انشاء محكمة عليا لمحاكمة الرؤساء والوزراء ... وهي النقاط التي وضعها حكمت الشهابي بعد الجولة الاستطلاعية التي قام بها يوم (١٢/١٩) .

وقد وفرت القمة المارونية المنعقدة بتاريخ ١٢/٣١ التغطية الطائفية لتصلب الرئيس فرنجية تجاه المقترحات السورية ، مفوضة اياه العمل على « توحيد الصف الماروني »، وذلك بعد ان تجاهلت مقرراتها « برنامج النقاط الخمس » ، اذ تضمنت تصريحات الاقطاب الموارنة المشاركين في القمة المواقف التالية :

١ — رفض المناصفة النيابية ما لم تكن مرتبطة باحصاء عام يشمل المغتربين .

٢ — رفض الغاء الطائفية السياسية لانه يشكل مساسا بالميثاق الوطني .

٣ — رفض انتخاب رئيس الوزراء من المجلس النيابي والتمسك بعرف الاستشارات.

وفي السياق نفسه ، حملت تصريحات الأقطاب الموارنة اتهامات مباشره للثورة الفلسطينية — « كل كوارثنا هي نتيجة لعدم تطبيق الاتفاقات » — وعودة الى طرح اولوية مسألتي الامن والسيادة ، كما انها لم تخل من تهديدات واضحة بأمكانية اللجوء الى التقسيم .

وبالرغم من اتجاه الطرف الاخر — اي الطرف الوطني الاسلامي — في قمة عرمون الاسلامية الثانية الى ضغط المطالب الوطنية والاسلامية المطلوب تحقيقها يومها ،واتفاق اعضاء القمة على حد ادنى من الاصلاحات المقترحة مما يفسح المجال امام استكمال طريق « القاسم المشترك » ، **فان مبادرة القوى المضادة الى حصار المنطقة الشرقية من بيروت (ابتداء من يوم ٧٦/١/٤) كشفت بما لا يفسح مجالا للشك عن رفض هذه القوى الدخول في اية تسوية انطلاقا من موازين القوى القائمة آنذاك واتجاهها نحو تحقيق الاهداف التالية :**

اولا : تصفية الوجود الفلسطيني والوطني اللبناني القائم في المناطق الواقعة تحت سيطرة قوى التحالف الانعزالي كمدخل لفرض اعادة البحث في مسائل التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان ، وافتعال المعارك مجددا تحت شعار تجريد المخيمات من السلاح للتركيز على الطابع « اللبناني — الفلسطيني » — حسب تعبيراتهم — للازمة وصولا الى **استدراج التدخلات العربية** على هذا الاساس ، مستفيدين كالسابق من حالة الانقسام العربي تجاه الازمة اللبنانية واشتداد الصراع العربي حولها ، خاصة من حيث تبني بعض الانظمة العربية مشروع ارسال قوات عربية الى لبنان . وكان حمود رياض قد ابرق في نهاية كانون الثاني ١٩٧٥ الى وزراء الخارجية العرب يدعوهم « الى التحرك السريع من اجل المساهمة في وقف تفجر الازمة اللبنانية » كما ان اسماعيل فهمي قد دعا في ١/٤ الدول العربية الى القيام « بجهد جماعي لوقف التدهور السياسي في لبنان» . ولم يتلق محمود رياض يومها سوى برقيتين جوابيتين : الاولى من السودان تستجيب لدعوته ، والثانية من منظمة التحرير تدعوه فيها الى القدوم الى بيروت ودمشق واجراء اتصالات عربية بعد التشاور مع هاتين العاصمتين .

ثانيا : استكمال خطة التهجير التي بدأتها القوى الانعزالية في سبنيه وحارة الغوارنة من اجل احكام قبضتها على المناطق المسيحية الواقعة تحت سيطرتها والمضي من مواقع القوة في التهديد بالتقسيم ، خاصة بعد ان اخذت تتبلور **اتجاهات تقسيمية فعلية** داخل

بعض اوساط الرهبانيات ، والتنظيمات المسلحة المتصلة بالرابطة المارونية وبعض حلقات المثقفين واصحاب المهن الحرة من المشاركين في لجان الكسليك ، الامر الذي يزود المهددين بالتقسيم باوراق اضافية تكسب **معادلتهم الابتزازية** الجدية والخطورة المطلوبتين : **لبنان بامتيازات للموارنة وبفلسطينيين كقبل ١٩٦٩ أو التقسيم !**

ثالثا : فتح ملف التواجد الفلسطيني في لبنان عشية انعقاد دورة مجلس الامن ، سعيا للتاثير على المكانة والهيبة الدوليين اللتين اخذت تكتسبهما الثورة الفلسطينية وابتزاز سوريا صاحبة الدعوة الى انعقاد مجلس الامن ودفعها لتحويل ضغوطها باتجاه تحالف الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية او حملها على القبول « بتعريب » الازمة اللبنانية ، خاصة بعد تعثر تحرك محمود رياض واسماعيل فهمي في انجاح الدعوات التي اطلقوها ، وتحول المملكة العربية السعودية الى دعم الوساطة السورية منذ زيارة الملك خالد الى دمشق في اواخر كانون الثاني ١٩٧٥ .

وفي هذا الوضع من الصدام المسلح الناجم عن حصار المنطقة الشرقية من طرف القوى الانعزالية واضطرار الثورة الفلسطينية الى تنفيذ الانذار الذي وجهته مع الحركة الوطنية اللبنانية بضرورة فتح الطريق الى تل الزعتر يوم ٧٥/١/٤ ، وعلى قاعدة التصعيد السياسي المستمر لشمعون — الذي فتح النار على كل من سوريا والثورة الفلسطينية وجنبلاط وكرامي وسلام — والكتائب التي اخذت تعلن انه « **اذا كنا نريد صيانة وحدة البلاد فيجب اما التنازل عن النصف الآخر من السيادة فتتحد البلاد تحت الاحتلال الفلسطيني واما ان نحتفظ بهذا النصف ونتخذ منه منطلقا لتحرير الآخر** » . (٧٦/١/٧) . على هذه القاعدة من التصعيد اذن ، تمكن الرئيس فرنجية من المناورة بشأن الوساطة السورية مؤجلا الحسم في « النقاط الخمس » ومبقيا الجسور مفتوحة مع دمشق . مهمات الشيخين بطرس وسليم الخوري ولوسيان دحداح (من اجل تحضير وتأجيل لقاء الاسد — فرنجية) ، وذلك بهدف **كسب الوقت لانجاح التحرك الانعزالي ، ومن ثم التفاوض من مراكز القوة .**

وفي هذا السياق، عقد فرنجية سلسلة من لقاءات القمة للطوائف المسيحية من اجل التسلح بمواقف متشددة تدعمه في اللقاء المقترح مع الرئيس الاسد لجهة التأكيد على اولوية الضمانات السورية والعربية المطلوبة من اجل « تطبيق اتفاقية القاهرة » وتمكين السلطة من « **استعادة السيادة على الاراضي اللبنانية** » ، ومن ثم اقرار بعض الاصلاحات السياسية . وقد تحرك فرنجية باتجاه ايجاد **نقاط مسيحية مشتركة** في تحميل « الفلسطينيين » مسؤولية الازمة والقتال الدائر ، وذلك من خلال تدخله المباشر للخروج بموقف ماروني متصلب (وقد وفر ذلك باختياره فؤاد الشمالي والياس الهراوي لتمثيل الموارنة الى جانب الجميل وشمعون والقسيس وابو سليمان مستبعدا اي تمثيل للاتجاهات المارونية المعتدلة مثل الكتلة الوطنية والحزب الدستوري) . ومن ثم العمل لانتزاع مواقف شبيهة من قمم الاورثوذوكس والكاثوليك والاقليات ، الامر الذي اتضح من خلال طبيعة اختيار الرئيس لممثلي هذه الطوائف . (فعلى الصعيد الارثوذوكسي مثلا ، تم استبعاد شخصيات بارزة مثل المطران خضر والوزراء السابقين ابو حيدر، سابا وخلف، وبدلا عنهم تم احياء اشخاص فقدوا دورهم كممثلين سياسيين للاورثوذوكس مثل فؤاد بطرس ونسيم مجدلاني) .

فالمواقف المسيحية المتطرفة والمتصلبة التي تسلح بها فرنجية (اي نتائج القمم التي عقدها) وما رافقها من تصعيد عسكري متواصل بلغ ذروته مع اقتحام القوى الانعزالية يوم ١/١٤ مخيم ضبية ومن ثم تدخل الطيران يوم ٧٦/١/١٧ لنجدة الجيوب الانعزالية

المحاصرة في منطقة الدامور ــ السعديات ــ الجية . وانتقال الجنود العسكرية الانعزالية من ضبية الى اقتحام منطقة المسلخ ــ الكرنتينا . كان عليها كلها ان **تخدم الرئيس فرنجية في استجماع اوراقه الضاغطه وتحديد موعد للقاء المقترح عقده آنذاك مع الرئيس الاسد ، حيث كان التحالف الانعزالي يراهن على ان فرنجية سيدخل الى المفاوضات من موقع « الانتصارات العسكرية » المحققة والحدود الدنيا للمطالب الاصلاحية « المفوض » مسيحيا بقبولها .**

٨ ــ اسقاط حلقة جديدة من حلقات المؤامرة الاستعمارية ــ الانعزالية وتجدد الوساطة السورية :

بعد تجميد الثورة الفلسطينية لتحركها العسكري من اجل فتح طريق تل الزعتر يوم ١/٩ تحسبا تجاه التطورات السياسية المتسارعة على المستويين، العربي ــ الدولي، والداخلي اللبناني ، وايقافها لتقدم قواتها عند غاليري سمعان وحرج ثابت ، ونتيجة لاتضاح مرامي التصعيد الانعزالي (استمرار الحصار ــ اقتحام مخيم ضبية ــ بداية الهجوم على المسلخ ــ الكرنتينا) ومن اجل التعامل مع العناصر المستجدة في ميزان الصراع ، بعد كل هذا اعادت القيادة الفلسطينية تقدير الموقف ، **وقررت القيام بهجوم عسكري معاكس الى الحد الذي يرتدع فيه الطرف الانعزالي ويفرض عليه التراجع عن مخططاته .** وقادت عملية الهجوم المعاكس الى احداث مجموعة من **المتغيرات** فيميزان الصراع المدلي والعربي ، والتي فرضت بدورها على القوى الانعزالية التراجع واعادة النظر في مخططاتها وحساباتها . واهم هذه المتغيرات هي التالية :

اولا : تبدل ميزان القوى الداخلي بشكل راجح لصالح الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية بعد النجاح اساسا في تطهير خط الجية ــ السعديات ــ الدامور وسيطرة القوى الوطنية على كامل قرى البقاع باستثناء مدينة زحلة وتقدم القوات الوطنية على المحاور القتالية في جبهة طرابلس ــ زغرتا .

ثانيا : سقوط مراهنة القوى الانعزالية على امكانية انزال الجيش اللبناني الى جانبها في ساحة القتال وذلك نتيجة لتفكك وحداته وتدهور فعاليته القتالية اثر حديث وضع من الاستقطاب الداخلي وحالات التمرد والعصيان والشرود ، بعد الاشتراك السافر للطيران ووحدات من المشاة والمغاوير الى جانب القوى الانعزالية في معركة الدامور ، وقيام وحدات عسكرية اخرى باقتحام حوش الامراء (احد مداخل زحلة) لحساب التجمع الزحلي العام ، وحيث شكل قيام « جيش لبنان العربي » ظاهرة عسكرية متماسكة تمتلك مقومات الاستمرار على قاعدة وعي سياسي وطني متقدم ، وتطرح كمجموعة عسكرية ــ الامر الذي يحدث لاول مرة في تاريخ لبنان الحديث ــ موقفا وطنيا من شؤون القيادة والبنية الداخلية والاصلاح في الجيش وتقدم ابضاوجهة نظر قومية في مسألة دور الجيش وماهيته .

ثالثا : ازدياد الانقسام فيوضع السلطة اللبنانية نتيجة تقديم الرئيس كراميإستقالته يوم ١/١٨ وذلك في محاولة مزدوجة : أ ــ الالتفاف على امكانية تفجير الوضع الوزاري عن طريق استقالة محتملة لشمعون . ب ــ استعجال الضغط السوري على الرئيس فرنجيه . (اما من حيث توقيت استقالته فمما لا شك فيه ، ان عاملين آخرين حددا ذلك : عصيان قيادة الجيش على اوامره ، وتخوفه من سقوط منطقة الكرنتينا ــ المسلخ بينما هو عاجز عن التحرك) .

رابعا : تبدل مواقف الدول العربية باتجاه ادانة الكتائب والتحذير من خطوات

التقسيم والتدويل المحتملة ، وذلك بعد قيام القـوى الانعزالية بحصـار المخيمات ، وانكشاف حقيقة الصراع الدائـر امام الرأي العام العربـي ، على انه تحرك متآمر يستهدف الثورة الفلسطينية وقضية شعب فلسطين .

فلم تلق الكتائب تجاوبا من القاهرة بعد ثنائها على «حكمة القيادة المصرية» ودعوتها الى التوسط ولم نجد صدى « للنداء العام » الذي وجهته الى الملوك والرؤساء العرب للقيام « بوساطة سريعة » .

وكما سقطت الامال « العربية » للكتائب اللبنانية ، انهارت مساعي « التعريب » عند الدول التي عملت طويلا من اجله ... وقبل ذلك كانت دعوات شمعون المتكررة للتدخل الخارجي ، واستنجاداته بدونة الاحتلال الصهيوني ووعوده لجماعته المجتمعين داخل قصر السعديات ، المنتظرين بواخر خط السعديات ــ جونية ، بأن بواخر اخرى ايضا قادمة ، كل هده الاستنجادات والوعود والدعوات لم تحظ سوى بجواب يتيم ،جواب العدو الصهيوني على الارقام التي اذاعها شمعون عن حجم « التدخل » السوري : **« يبدو استنادا الى معلوماتنا ان ما يقوله وزيـر الداخليـة ، كميل شمعون ، غير صحيح » ...**

اذن ، على قاعدة موازين القوى الداخلية والعربية هذه، وفي ظلوضع عالمي يتميز بثلاثة مواقف اميركية : أ ــ « **تمرير** » اميركا لاستخدامها النقض في مجلس الامن ضد القرار المقدم من دول عدم الانحياز بشأن القضية الفلسطينية ، **وذلك دون احداث ردود فعل قوية عند الاطراف العربية المعنية مباشرة بجلسة مجلس الامن ... سوى عند الثورة الفلسطينية .** ب ــ اعتبار كيسنجر **ان المباريات المهمة فيانغولا وليس في الشرق الاوسط .** ج ــ **اتساع الهوة بين المواقف الاميركية والصهيونية المعلنة مـن الوساطة السورية في لبنان ،** في ظل هذا الوضع العالمي تجددت الوساطة السورية يوم ٢١ كانون الثاني ١٩٧٥ ونمكنت من الوصول الى وقف لاطلاق النار وتشكيل لجنة عسكرية عليـا مثلثة الاطراف (سوريا ــ فلسطين ــ لبنان) يوم ٢٢ كانون الثاني .

من هنا ، تبدأ مرحلة جديدة في الحرب الاهلية اللبنانية ، اهم ما ستتميـز به هـو **اختلال معادلات التحالفات السابقة القائمة بين الاطراف الرئيسية في الصراع ، محليا وعربيا ، وانجاه حركة التناقضات في تشابكها اللبناني ــ العربي وتداخلاتها الدولية ــ العربية ، الى ارساء معادلات جديدة في علاقات الصراع والتحالف فيما بين اطراف الحرب الاهلية في لبنان .**

حول مسألة تعدد مصادر الاسلحة

المقدم الهيثم الايوبي

اتسم الصراع العربي ــ الاسرائيلي منذ بدايته ، بأنه صراع بين قوتين محليتين غير صناعيتين ، تستخدمان في القتال اسلحة وذخائر ومعدات مستوردة من الدول الصناعية المتقدمة ، الامر الذي جعل الارادة القتالية في المعسكرين العربي والاسرائيلي مرتبطة الى حد بعيد بارادة الدول المصدرة للاسلحة، وخاضعة لتحديدات العمل التي تفرضها استراتيجيات هذه الدول ومخططاتها .

ولقد زاد قوة الارتباط والخضوع لتحديدات العمل عاملان هامان ، يتمثل **اولهما** في ضعف الانتاج القومي العام في الدول العربية واسرائيل بالنسبة الى تكاليف ومصروفات التسليح التي تتطلبها المجابهة المصيرية ، الامر الذي فرض على هذه الدول ضرورة البحث عن مصدر تسليحي يقدم لها ما تحتاج اليه مجانا او باسعار مخفضة ، او يمنحها على الاقل تسهيلات كبيرة في الدفع (ديون طويلة الاجل بفائدة محدودة ، مبادلة السلاح بالسلع المحلية حتى لو لم تكن الدول المصدرة للسلاح بحاجة ماسة اليها) . اما **العامل الثاني** ، فهو ارتفاع المستوى التكنولوجي للاسلحة المستوردة عن المستوى العام للقاعدة التكنولوجية في دول المنطقة ، وهذا ما جعل كفاءة استخدام الاسلحة في الدول العربية واسرائيل مرتبطة (بنسب متفاوتة) بالخبراء والفنيين الذين يرافقون هذه الاسلحة ، وبعدد البعثات العسكرية المرسلة الى الدول المصدرة .

واخذ الارتباط التسليحي اشكالا مختلفة تتناسب مع طبيعة المرحلة التي مر بها الصراع . ففي مرحلة ١٩٤٨ ــ ١٩٥٥ ، كان الارتباط التسليحي العربي والاسرائيلي وحيد الجانب، نظرا لان المعسكر الغربي كان مصدر السلاح لكلا الطرفين المتنازعين. وكانت ارادة الصراع في الشرق الاوسط بالتالي محكومة بالارادة الغربية القادرة على خلق ميزان القوى الملائم لاسرائيل ، وتحجيم الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، ورسم حدوده الزمانية والمكانية بشكل يخدم مصالح المعسكر الغربي او لا يؤثر عليها على الاقل . وفي العام ١٩٥٥ كسرت سورية احتكار السلاح ، وتلتها مصر ودول عربية اخرى . ولم يعد المعسكر الغربي المصدر الوحيد للاسلحة المتدفقة الى الشرق الاوسط ، واصبحت ارادته جزءاً من معادلة ميزان القوى بدلا من ان تكون الضابط الوحيد لهذه المعادلة .

وكان لوصول الاسلحة الشرقية الى المنطقة عدة تأثيرات سياسية واقتصادية

واستراتيجية اهمها : تزايد النفوذ السوفياتي ، وتضاؤل النفوذ الغربي ، وتنامي قوة المعسكر العربي الراديكالي مقابل قوة المعسكر العربي التقليدي من جهة وقوة راس الجسر الامبريالي — الصهيوني من جهة اخرى ، وخسارة الغرب لبعض اسواق السلاح العربية اللازمة لتنشيط الصناعة التسليحية العربية وتطورها .

واستمر هذا الوضع بعد حرب ١٩٥٦ . واخذ المعسكر الغربي يخسر مناطق نفوذه واسواق اسلحته بشكل مستمر ، خاصة بعد اسقاط النظام الملكي في العراق (١٩٥٨) ، واندلاع الثورة في السودان (١٩٥٨) ، وانتصار الثورة الجزائرية (١٩٦٢) . وبقي المد الراديكالي العربي يسير على منحني متصاعد حتى هزيمة ١٩٦٧ التي رأى فيها المعسكر الامبريالي — الصهيوني ضربة ايقاف حاسمة للمد الراديكالي في المنطقة ، واعتبرتها الامة العربية منطلقا لاعادة تقييم موقفها ، وبناء قوتها الذاتية ، واصلاح العيوب الجذرية الكامنة وراء الهزيمة ، واكتشاف سبب الهزيمة الحقيقي الذي لم يكن بالتأكيد تسليحيا .

وعندما كان معسكر العدو يحاول استغلال الهزيمة العسكرية لتحطيم الارادة العربية واستنزافها وقلب توازنها بغية اجبارها على الاستسلام ، كانت الامة العربية تعمل لتجاوز اثار الهزيمة وتلافي اسبابها ، واعادة بناء القوة العسكرية وتعديل ميزان القوى المادي والنفسي بشكل يجعل من الممكن خوض جولة رابعة تختلف بطبيعتها ونتائجها عن الجولة الثالثة . ولم تكن حرب الاستنزاف على جبهة القناة (١٩٦٩ — ١٩٧٠) سوى وسيلة من الوسائل التي لجأ اليها الرئيس جمال عبد الناصر لتعديل موازين القوى ومنعها من التجمد في الوضع المائل لصالح اسرائيل .

ولقد لجأت الدعاية المعادية في مرحلة ما بعد حرب ١٩٦٧ ، ومرحلتي حرب الاستنزاف وفترة « اللاحرب واللاسلم » ، الى استخدام الاسلوب التفتيتي لفصل المعسكر العربي الراديكالي عن الحليف السوفياتي . واستخدمت لهذا الغرض المقولات التالية :

١ — ان التحالف العربي — السوفياتي يستفز الولايات المتحدة ويدفعها الى دعم اسرائيل دون حدود حتى تقف في وجه المد السوفياتي في المنطقة .

٢ — عدم جدوى مناطحة الثور الاميركي ، وضرورة التفاهم معه واكتساب صداقته او تحييده على الاقل عن طريق الابتعاد عن السوفيات .

٣ — ان ميزان القوى العربي — الاسرائيلي سيبقى لصالح الدولة الصهيونية مهما كان حجم الاسلحة التي تحصل عليها الدول العربية .

٤ — ان السلاح الغربي ، والسلاح الاميركي بشكل خاص ، افضل بكثير من السلاح السوفياتي .

٥ — ان السوفيات لا يقدمون للدول العربية سوى اسلحة دفاعية ، رغم ان في ترسانتهم اسلحة هجومية .

☐ ولقد اثبت استمرار الدعم الاميركي غير المحدود لاسرائيل ، رغم مبادرة الرئيس السادات لانهاء مهمة الخبراء السوفيات في مصر (تموز ١٩٧٢) ، ورغم انهاء حالة العداء مع اميركا بعد حرب ١٩٧٣ مباشرة ، **خطأ المقولتين الاولى**

والثانية ، واكد بشكل لا يدع مجالا الشك ان تحييد الولايات المتحدة ودفعها الى اخذ موقف معتدل بالنسبة الى الصراع العربي — الاسرائيلي لا يمكن ان يتحققا عن طريق اضعاف العرب لانفسهم وانفصالهم عن حليفهم الاستراتيجي . وأن تحقيق هذين الغرضين يتطلب على العكس مزيدا من التلاحم مع الحليف الاستراتيجي بشكل يعرض واشنطن الى خطر الصدام (الذي لا تريده) مع موسكو ، كما يتطلب مزيدا من تهديد المصالح الاميركية ، حتى يشعر المواطن الاميركي بخطورة الحلف الاميركي — الاسرائيلي وتأثيره الضار على مصالحه ومستواه المعيشي .

□ وجاءت حرب ١٩٧٣ تثبت بشكل ملموس **خطأ المقولة الثالثة** ، وأمكانية تبديل ميزان القوى لصالح الدول العربية . فلقد خططت القيادتان المصريةوالسورية للحرب استنادا : الى ما تملكانه من سلاح سوفياتي . وأدى التخطيط الجيد ، وتأمين التناسق بين عمل مختلف صنوف الاسلحة ، والافادة من المميزات الفنية لكل سلاح ، الى تعديل ، ميزان القوى العام ، وخلق منظومات قتالية استطاعت تحييد التفوق الجوي المعادي ، ومزجت النار مع الصدمة والمفاجأة لتحقق الخرق ، وأفادت من الزخم الكلي لاحداث الدفع النوعي الكافي لمواجهة التفوق النوعي المعادي . وهكذا انقلبت موازين القوى رغم تكديس الاسلحة الاميركية المنسق في اسرائيل ، واضطرت الولايات المتحدة الى التدخل خلال القتال بواسطة الجسر الجوي من اجل اعادة هذه الموازين الى وضعها السابق .

□ ولم تثبت حرب تشرين ان السلاح الاميركي افضل من السلاح السوفياتي **(المقولة الرابعة)** ، ولكنها اثبتت على العكس أن السلاح الاميركي المطور خصيصا ليتلاءم مع الحروب العدوانية التي تعتمد على الغزارة النارية والكفاءة النوعية لتعويض الفقر العددي يتلاءم مع اوضاع اسرائيل واستراتيجيتها : على حين ان السلاح السوفياتي المطور للتلاؤم مع حروب التحرير التي تعتمد على تسليح الكتل البشرية الكبيرة المعبأة بزخم معنوي عنيف يتلاءم مع اوضاع الدول العربية واستراتيجيتها .

ومن الخطأ عسكريا مقارنة سلاحين (طائرتين ، دبابتين ، مدفعين) بشكل مجرد مطلق ، وبمعزل عن الاستراتيجيات المتباينة النابعة من اوضاع متباينة . كما ان من الخطأ ايضا مقارنة الاسلحة بشكل منفرد ، لان الاسلحة لا تعمل في ساحة المعركة منفردة بل ضمن منظومة اسلحة متكاملة يغطي بعضها البعض الآخر ، ويساعده على استخدام ميزاته الى الحد الاقصى . والمقارنة الصحيحة هي مقارنة منظومتي اسلحة تعملان ضمن اطار استراتيجيتين محددتين . وعلى هذا الاساس يمكن القول — بناء على حرب تشرين — ان اختيار الاسرائيليين للاسلحة الاميركية المتطورة جدا ، من اجل خلق قوة صغيرة (نسبيا) ، ومؤهلة لشن حرب عدوانية ، عبارة عن تصرف ينسجم مع طبيعة اسرائيل العدوانية وواقعها الديموغرافي ، تماما كما ينسجم مع الاوضاع العربية اختيار الجيوش العربية للاسلحة السوفياتية ، من اجل بناء كتل كبيرة تستفيد من الزخم العددي والمعنوي لخلق الدفع النوعي اللازم لصد العدوان والانتقال الى التحرير .

□ ولا تثبت **المقولة الخامسة** امام التحليل العلمي. ولقد برهنت على خطئها في مقال سابق نشرته مجلة شؤون فلسطينية (عدد نيسان ١٩٧٣) . ومع هذا فانني اجد ان من المفيد العودة الى هذه المسألة من جديد لتوضيحها وتأكيد بعض جوانبها .

لقد حاول بعض العسكريين الانطلاق من تعريف الدفاع « النار الموقفة » وتعريف الهجوم « النار المتقدمة » لتقسيم الاسلحة الى اسلحة نارية توقف الخصم (دفاعية)، واسلحة نارية تتقدم نحو الخصم وتمزج النار مع الصدمة (هجومية) . ولكن هذا التقسيم الذي ينطبق على السلاح كاداة منفردة يفقد صحته اذا عرفنا ان السلاح لا يقاتل منفردا ، بل يعمل ضمن منظومة اسلحة متنوعة القدرات والفاعليات ، تقاتل بشكل متناسق يؤمن تكامل تأثيراتها في سبيل تحقيق المردود الاقصى لمجمل الاسلحة والوسائط المستخدمة ، وانجاز المهمة الملقاة على عاتق المنظومة . ومن هنا نرى ان الاستخدام (المهمة) هو الذي يحدد طبيعة عمل المنظومة ، ويحدد بالتالي طبيعة وعمل كل سلاح من اسلحتها .

وتقدم لنا حرب ١٩٧٣ امثلة عمليه توضح هذه الفكرة . ففي الايام الاولى للحرب ، تركت الدبابة « ت ـ ٥٥ » (التي تعتبر سلاحا هجوميا) المهمة الدفاعية التي قامت بها طوال حرب الاستنزاف ، واستعادت طابعها الهجومي . كما ان الصاروخ « سام ـ ٣ » (الذي وصف بأنه دفاعي) تحول الى سلاح هجومي ، لانه سمح للدبابات والمشاة المصرية بالعمل الهجومي وتحطيم خط بارليف تحت سماء نظيفة . على حين نجد ان طائرة « الفانتوم » والدبابة « سنتوريون » والمدفع ذاتي الحركة « م ـ ١٠٧ » عيار ١٧٥ مم ، تحولت الى اسلحة دفاعية مهمتها ايقاف العبور المصري، رغم انها كانت مصنفة في جدول الاسلحة الهجومية . ولم يأت هذا التبدل النوعي من دفاعي الى هجومي وبالعكس من تبدل طبيعة السلاح ، ولكنه نجم عن الفكرة الاستراتيجية التي استخدم ضمن اطارها . وبعد عشرة ايام فقط تبادلت الاسلحة المصرية والاسرائيلية الادوار لان فكرة اجتياز القناة الى الضفة الغربية (عملية الغزالة) كانت هجومية ، ولان رد الفعل المصري كان دفاعيا . وينطبق هذا القول على الجبهة السورية ، مع فارق واحد هو ان المدة التي تحقق فيها تبادل الادوار كانت اصغر . وكان من الممكن ان يحصل تبادل معاكس جديد ، لو لم يؤد ايقاف القتال على الجبهة المصرية في ٢٢ تشرين الاول، الى ايقاف انطلاق الهجوم المعاكس الاستراتيجي، الذي اعده السوريون والعراقيون والاردنيون في الجولان .

ورغم ثبوت خطأ مقولات الاعلام المعادي (نظريا وعمليا) وعدم استنادها الى اي اساس علمي ، فقد تأثر بعض المنظرين العرب بها، وحاكوا حولها النظرية السياسية ـ العسكرية التي كان من نتائجها التقارب مع اميركا ، وتوقيع اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء (ايلول ١٩٧٥) ، والغاء المعاهدة المصرية ـ السوفياتية (١٩٧٦) . وكانت فكرة تعدد مصادر الاسلحة ركنا من اركان هذه النظرية .

ويعود ظهور هذه الفكرة في مصر الى مطلع السبعينات ، وكانت وراء سعي القيادة المصرية آنذاك للحصول على بعض الاسلحة والمعدات من الدول الغربية ويوغوسلافيا. ولقد حصلت القوات المصرية قبل حرب تشرين على بعض اجهزة الرصد والاتصال الغربية ، وعلى عدد من المعدات البرية والجوية اللازمة لرفع مستوى اداء المنظومة القتالية السوفياتية الصنع . ولكنها لم تستطع الحصول على اسلحة غربية قادرة على تبديل موازين القوى . ويرجع السبب في ذلك الى ان الدول الاوروبية كانت تفرض حظرا معلنا او ضمنيا على الاسلحة المرسلة الى الدول المعنية مباشرة بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وكانت الولايات المتحدة تقف موقف العداء من الدول العربية الراديكالية وتعتبر نفسها مسؤولة عن تدعيم العسكرية الاسرائيلية وجعلها قادرة على تأمين استمرار حالة « اللاحرب واللاسلم » بواسطة الردع المقترن بالعمل المحدود والنشط (١) .

ولم تكن مصر تستطيع آنذاك الحصول رسميا على اسلحة غربية عن طريق دولة عربية اخرى بعيدة عن بؤرة الصدام مع اسرائيل ، نظرا لان الدول الغربية تضع في عقد بيع السلاح بندا ينص على عدم نقل السلاح المباع الى اية دولة معنية بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي ، سواء تم هذا النقل عن طريق البيع او الهبة او الاعارة . ولهذا كان على القيادة المصرية ان تخطط لحرب تشرين استنادا الى ما تملكه من سلاح سوفياتي ــ بالاضافة الى ما وصل الى مصر (سرا او علنا) من اسلحة ليبية وكويتية وعراقية غربية الصنع (٢) . وهكذا خاض الجندي المصري حرب تشرين بسلاح سوفياتي اساسا . ويذكر حسنين هيكل انه سمع الرئيس انور الساداتيقول للسفير السوفياتي (فينوغرادوف) في مساء اليوم الثالث لحرب تشرين (١٩٧٣/١٠/٨) : « قل للرفيق بريجينيف اني اشعر بالامتنان له من كل قلبي . قل لبريجينيف ان الاسلحة السوفياتية هي التي حققت معجزة العبور » (٣) . وقد يكون في هذا القول بعض من الحماسة الناجمة عن مناخ المعركة الدائرة آنذاك ، ولكن فيه الى جانب ذلك اعترافا من الرئيس انور السادات بالدور الهام الذي لعبته الاسلحة السوفيانية في حرب ١٩٧٣ ولا يلغي هذا الاعتراف او يقلل من اهميته هجوم الرئيس السادات على الاسلحة السوفياتية بعد ذلك .

وكان من الطبيعي ان تؤدي خبرات حرب ١٩٧٣ الى تدعيم التحالف المصري ــ السوفياتي وسقوط المقولات الخاطئة المذكورة آنفا بشكل نهائي . ولكن الخرق السياسي الذي حققه الاميركيون في مصر ، والتوجه المصري نحو الولايات المتحدة « التي تملك كل مفاتيح حل ازمة الشرق الاوسط ! » ، وتسلل الافكار القديمة الى المسرح السياسي ، وانتشار الفكر المعادي لانجازات « ثورة ٢٣ يوليو » بما في ذلك معاداة الامبريالية (صداميا) والتحالف مع السوفيات (استراتيجيا) ، ادت الى بدء حملة اعلامية عنيفة ضد السوفيات تستند الى النقاط التالية :

١ ــ ان الاتحاد السوفياتي لم يقدم الى مصر قبل حرب ١٩٧٣ جميع الاسلحة والمعدات المتطورة اللازمة للعبور .

٢ ــ لقد توقفت موسكو عن ارسال الاسلحة بعد حرب ١٩٧٣ كرد على الاتفاق المصري ــ الاميركي في ١٩٧٣/١١/١١ والمسمى « باتفاق النقاط الست » . ولم تعوض مصر ما خسرته في هذه الحرب ، رغم تعويض الخسائر السورية والبدء بتسليح ليبيا بشكل مكثف .

٣ ــ ان الاستراتيجية السوفياتية العليا ، وسياسة الوفاق الدولي ، تؤثران على شحن الاسلحة الى مصر من ناحية النوع والكمية ومهل التسليم .

٤ ــ ان حرب ١٩٧٣ ، وما رافقها من استخدام لسلاح النفط ، قد بدلت الموقف الاوروبي ، وادخلت تعديلات جذرية على العلاقات العربية ــ الاوروبية ، وادت الى رفع الحظر التسليحي الاوروبي .

٥ ــ ان الادارة الاميركية في عهدي نيكسون وفورد تسير على خط معتدل بالنسبة الى الصراع في الشرق الاوسط . وهي تتحول بالتدريج من دور « الطرف » الى دور « الحكم » .

٦ ــ ان احتكار السوفيات لتصدير الاسلحة الى مصر ، يجعل الارادة المصرية

السياسية (وبالتالي العسكرية) مرتبطة بتحديدات العمل التي تفرضها الاستراتيجية السوفياتية .

وانطلاقا من هذه النقاط ، واستنادا الى هذه الحجج عادت القيادة المصرية الى طرح فكرة تعدد مصادر السلاح بشكل مستمر منذ بداية العام ١٩٧٤ . ولقد احتلت هذه الفكرة مكانا متقدما على جدول اهتمامات السياسيين المصريين ، وكانت فقرة دائمة في مباحثات الرئيس انور السادات مع الرؤساء الغربيين خلال زياراته الى اوروبا الغربية والولايات المتحدة ، وخلال زيارات الرئيس جيسكار ديستان وغيره من السياسيين الاوروبيين الى القاهرة .

واذا كانت الجهود المصرية المبذولة للحصول على اسلحة اميركية قد باءت حتى الان بالفشل ، فان المباحثات المصرية ــ الاوروبية حققت بعض النجاح ، وعقدت على اثرها صفقات اسلحة برية وبحرية وجوية . وحصلت مصر على بعض الاسلحة الغربية من الدول العربية المسلحة بهذه الاسلحة . وبدأت عملية تعدد مصادر الاسلحة تسير وفق المنهج المرسوم لها . فالى اي حد يمكن ان تنجح هذه العملية في تحقيق اغراضها ؟ للاجابة على هذا السؤال لا بد من التعرض الى مجموعة من التساؤلات المطروحة على الساحة العربية والرد عليها بشكل يوضح كل جوانب المسألة .

١ ــ هل تستطيع اوروبا الغربية اخذ مكان السوفيات في مجال التسليح ؟ :

تمتلك الدول الاوروبية الغربية ، وخاصة فرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية وايطاليا، صناعة تسليحية متقدمة تصل فيبعض الحالات ، وبالنسبة الى بعض انواع الاسلحة، الى مستوى صناعة السلاح في الدولتين العظميين . ومن الممكن الافادة من التناقض داخل المعسكر الراسمالي والتنافس القائم بين صناعتي السلاح في فرنسا والولايات المتحدة ، واستخدام الضغط الذي يمثله « البترودولار » للحصول على بعض الاسلحة الاوروبية الغربية اللازمة لسد بعض الثغرات التي قد تكون موجودة في منظومة السلاح السوفياتي . ولكن الصناعة الحربية الاوروبية الغربية لا تستطيع من الناحيتين التقنية والانتاجية احتلال مكان الصناعة الحربية السوفياتية ، لان في صناعة الاوروبيين الحربية عددا من الثغرات التي تجعل الدول الاوروبية نفسها مضطرة الى اكمال منظوماتها القتالية بأسلحة اميركية (٤) .

وبالاضافة الى ذلك فان دول اوروبا الغربية لا تملك حريتها السياسية الكاملة . وهي خاضعة بشكل او باخر للضغط السياسي الاميركي ــ رغم محاولات فرنسا للتحرر من هذا الضغط . ولقد حاولت اوروبا الغربية التعبير عن استقلاليتها خلال حرب تشرين وبعدها ، ولكن الولايات المتحدة لم تلبث ان استعادت سيطرتها واكدت وجودها داخل اوروبا الغربية ، مستخدمة في ذلك التهديد بسحب مظلتها النووية وكشف اوروبا الغربية امام حلف وارسو ، ومعتمدة على القوى السياسية ــ الاقتصادية المحلية المؤيدة لها ، والتي اثبتت قوتها الفعلية خلال الصراع الفرنسي ــ الاميركي على « صفقة العصر » (٥) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان حجم الانتاج الحربي الاوروبي الغربي صغير بالنسبة الى حجم الانتاج الحربي السوفياتي . ومن المعروف ان دول حلف الاطلسي تعاني من هذه المعضلة ، وتحس بالنقص الهائل بالدبابات والمدافع والطائرات ، وتعمل ما في وسعها لانتاج الحد الاقصى من هذه الاسلحة لتحقيق شيء من التوازن مع الاسلحة المماثلة

المحتشدة في دول حلف وارسو . ولذا فان من غير الممكن ان تطمح مصر الى الحصول على العدد اللازم من الاسلحة الاوروبية الغربية وضمن مهل معقولة . وحتى لو تم لها ذلك قبل اندلاع القتال ، فان الصناعة الحربية الاوروبية الغربية عاجزة عن امداد مصر بكميات ضخمة من السلاح خلال القتال الذي اثبتت حرب ١٩٧٣ ان استهلاك السلاح والذخيرة فيه يصل الى معدلات عالية ، ويتطلب امدادات كبيرة لم تستطع الولايات المتحدة تأمينها لاسرائيل الا بعد ان سحبت جزءا من احتياطيها الاستراتيجي ومن الوحدات المقاتلة الاميركية نفسها ، الامر الذي اثار نقمة القادة العسكريين في البنتاغون ، ودفعهم الى انتقاد سياسة وزير الخارجية كيسنجر التي عرضت القوة الاميركية للضعف . واذا كان تقرير احدى لجان مجلس النواب الاميركي (٦) يؤكد عجز الانتاج الحربي (التقليدي) الاميركي عن مجاراة الانتاج الحربي (التقليدي) السوفياتي كميا ، فان من الطبيعي ان تكون الصناعة الحربية الاوروبية الغربية عاجزة عن الدخول في هذا التنافس .

٢ ــ هل يمكن الاعتماد على التسليح الاميركي ؟

لقد طرحت مصر فكرة الحصول على اسلحة اميركية بعد حرب تشرين معتمدة على وهم تبدل السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، ومتجاهلة طبيعة العلاقة الاميركية ــ الاسرائيلية ، وحجم « اللوبي » الصهيوني داخل الولايات المتحدة . ولم تجد الفكرة المصرية اي صدى ايجابي . ثم كررت مصر طلب الاسلحة قبيل زيارة الرئيس السادات الى اميركا في اواخر العام ١٩٧٥ ، فجاء رد الادارة الاميركية غامضا ومماطلا . ولقد صرح وزير الخارجية الاميركية هنري كيسنجر في ١٩٧٥/١٠/١٢ . « لا اعتقد اننا سنكون على استعداد في هذا الوقت لتقديم اية التزامات محددة بشأن المساعدة العسكرية . ولكننا سنكون مستعدين لمناقشة المسألة معه (مع الرئيس السادات) في نطاق العموميات » (٧) .

وكان الموقف الاميركي منسجما مع اصرار الولايات المتحدة على دعم القوة العسكرية الاسرائيلية حتى تكون اقوى من الجيوش العربية مجتمعة (٨) ، وعلى حماية الدولة الصهيونية اذا ما تعرضت لاي خطر ، حتى لو كان ذلك خطر دولة عظمى (٩) .

ومن هنا نرى ان من الخطأ وسوء التقدير الاعتماد على السلاح الاميركي ، اذ ليس من المنطق في شيء ان تسلح الولايات المتحدة اسرائيل لتكون اقوى من الدول العربية، وان تسلح هذه الدول في الوقت نفسه بشكل يؤدي الى تهديد ميزان القوى الذي تبنيه واشنطن بيديها .

ومع هذا فان من غير المستبعد ان تقوم الولايات المتحدة بتزويد مصر بأعداد محدودة من الاسلحة ذات النوعيات المتدنية ، اذا رات ان هذا العمل سيؤدي الى اكتساب مزيد من المواقع داخل مصر والعالم العربي . ولكن حصول مصر على اسلحة اميركية سيكون محكوما بالشروط التالية : أ ــ عدم تبديل ميزان القوى لصالح مصر ، ب ــ استخدام السلاح لاغراض الدفاع (الذي لا يحرر ارضا مغتصبة) . ولنا في صفقة صواريخ « هوك » للاردن في العام ١٩٧٥ مثال واضح على ذلك ، جـ ــ عدم تزويد مصر بأسلحة حديثة ومتطورة خوفا من تسرب اسرارها عن طريق الضباط الذين لا يؤيدون سياسة التقارب مع اميركا ، د ــ عدم استفزاز الكونغرس المتصهين وذلك بتزويد مصر بأسلحة « لا نطلق النار » (محركات ، اجهزة اتصال ، طائرات نقل ، عربات . . . الخ .) .

ورغم قناعات اوساط كثيرة داخل الادارة الاميركية بتقديم بعض الاسلحة والمعدات الى مصر ، ورغم الغاء المعاهدة العسكرية المصرية ــ السوفياتية (آذار ١٩٧٦) ، فان هذه الادارة تجد صعوبة كبيرة في اقناع الكونغرس بضرورة ــ وعدم خطورة ــ تزويد مصر بست طائرات نقل قديمة من جيل الستينيات من طراز « سي ــ ١٣٩ » ، رغم ان حصول مصر على هذه الطائرات « التي لا تطلق النار » لا يمكن أن يؤثر على ميزان القوى ولو جزئيا .

٣ ــ هل يمكن الاعتماد على دول اوروبا الشرقية : او اية دول اخرى ؟

ان جميع دول اوروبا الشرقية تملك صناعات حربية متفاوتة التطور . ولكن هذه الدول المرتبطة سياسة حلف وارسو ملتزمة ايديولوجيا بعدم تقديم الاسلحة الى الدول التي تتقارب من الولايات المتحدة وتناصب الاتحاد السوفياتي العداء ، خاصة وان مصانع دول اوروبا الشرقية تصنع الاسلحة المتطورة بناء على اذونات خاصة ووفق براءات اختراع سوفياتية .

اما الدول الاخرى التي تصنع بعض الاسلحة والمعدات السوفياتية كالهند ويوغوسلافيا .. الخ ، فهي مرتبطة بشرط عدم بيع أو منح اي سلاح او قطعة غيار الى اية دولة دون موافقة موسكو . ولقد رأينا كيف تعذر على الهند ويوغوسلافيا تقديم محركات الطائرات « ميغ ــ ٢١ » وقطع غيارها الى مصر ، عندما حظر السوفيات عن مصر هذه المعدات ، رغم الصداقة التقليدية التي تربط القاهرة بكل من بلغراد ونيودلهي . وحتى لو استطاعت هذه الدول تجاوز شروط موسكو ، فان صناعتها الحربية تبقى اضعف (كما ونوعا) من أن تستطيع تلبية حاجات الجيش المصري وتزويده بالاسلحة القادرة على مجابهة السلاح الاميركي المتطور والكثيف المقدم الى اسرائيل .

وتستطيع الصين تقديم بعض الاسلحة والمعدات وقطع الغيار ، وكلها ذات نموذج سوفياتي ، وذلك ضمن اطار الصراع الايديولوجي الدائر بين موسكو وبكين . ولكن المراهنة على السلاح الصيني مسألة محفوفة بالمعضلات ، نظرا لان الصناعة الحربية الصينية لم تتوصل بعد الى المستوى النوعي والكمي للصناعة الحربية في الدولتين العظميين . واذا كانت الصين قد ارسلت الى مصر في اذار ١٩٧٦ ثلاثين محركا لطائرات « ميغ ــ ٢١ » كرد على الحظر السوفياتي ، فان هذا لا يعدو أن يكون عملا رمزيا سياسي الطابع ، ولا يمكن اعتباره دليلا على أن الصناعة الحربية الصينية مؤهلة لان تحل بسهولة محل الصناعة الحربية السوفياتية الا في مجال سد النقص للسماح للعجلة بالدوران ببطء ، وليس في مجال تنمية القوة بشكل يتماشى مع تنمية القوة في معسكر العدو .

ولقد كان من الممكن التفكير بالاعتماد على الاسلحة الصينية ، التي يقل مستوى تطورها عن مستوى تطور الاسلحة الاميركية او السوفياتية ، لو كانت طبيعة البنية الفوقية السياسية ــ الاجتماعية في مصر تسمح ببناء جيش شعبي يخوض حرباشعبية باسلحة كثيرة العدد محدودة التطور . ولكن طبيعة هذه البنية لا تسمح الا ببناء جيش تقليدي يخوض حربا تقليدية . وفي مثل هذا النوع من الحروب يكون للسلاح المتطور (الذي لا تملك بكين كميات وافرة منه) اهمية بالغة ، خاصة اذا كان الخصم يملك اسلحة متطورة اميركية لا يجاريها سوى السلاح السوفياتي اولا والاوروبي الغربي ثانيا .

٤ ـ هل يمكن حل المسالة بخلق صناعة حربية عربية ؟

تمثل الصناعة الحربية العربية دون شك حلا عمليا لتحرير الارادة السياسية العربية ، ومصدرا ثابتا ومضمونا للحصول على الاسلحة . ولكن الصناعة الحربية المعتمدة على التعدين والاليكترونات والايرونوتيك تتطلب قاعدة صناعية مدنية متقدمة وخبرات تقنية عالية . وليس في الوطن العربي حتى الان مثل هذه القاعدة والخبرات التي يتطلب خلقها سنوات طويلة .

وليس هناك ما يمنع الامة العربية من السير على هذا السبيل اليوم قبل الغد ، لان كل ساعة تربحها في هذا المجال تساعدها على الاسراع في تخطي الهوة التي تفصلها من الصناعة المدنية او العسكرية المتطورة ، وتسمح لها بتنمية الكفاءات العلمية والكوادر التقنية وتطويرها . ومن التكرار القول ان قيام مصر ودول عربية نفطية بتشكيل نواة الصناعة الحربية العربية امر على غاية الاهمية ، وخطوة ايجابية لتحرير الارادة السياسية العربية . ولكن اقتطاف ثمار هذه الخطوة يتطلب زمنا طويلا رغم الدعم التكنولوجي الفرنسي الذي اقر خلال زيارة الرئيس انور السادات لفرنسا في كانون الثاني ١٩٧٥ ، وخلال زيارة الرئيس جيسكار ديستان لمصر في كانون الأول ١٩٧٥ ، لذا فان السؤال حول كيفية حل المعضلة التسليحية خلال هذه السنوات الطويلة مع استمرار تدفق الاسلحة المتطورة الى اسرائيل يبقى دون اجابة .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الصناعة الحربية المتطورة تتطلب توظيف راس مال ضخم يقدر بعشرات مليارات الدولارات . وهو اكبر بكثير من راس المال العربي الذي تقرر توظيفه في هذا المجال (حوالي مليارى دولار) . ويرجع السبب في ذلك الى ارتفاع تكاليف التصميمات والنماذج الاولية (بروتوتيب) التى ينبغي اعدادها وتطويرها باستمرار لمتابعة التطور في معسكر الخصم ، كما يرجع الى ضرورة انشاء مصانع ذات قدرة انتاجية عالية حتى تستطيع تلبية حاجات القوات المسلحة بالسرعة اللازمة ، ووضع النماذج الاولية (بروتوتيب) التي تتطور باستمرار موضع الانتاج عند اللزوم.

ولقد اثبتت المصانع الحربية ذات القدرة الانتاجية المنخفضة انها قادرة على تقديم الاسلحة وتطوير النماذج الاولية خلال فترات السلم . ولكنها عاجزة عن اختصار الزمن وانتاج العدد اللازم من النماذج الاولية المتطورة اذا حصل العدو قبيل الحرب على اسلحة ومعدات متقدمة ومتفوقة على الاسلحة المكدسة ، الامر الذي يجعل القوات المجهزة بالاسلحة المكدسة عاجزة عن مجابهة العدو المجهز باسلحة اكثر تطورا .

٥ ـ هل تستطيع مصر التوفيق بين متطلبات الاعداد للمعركة وتعدد مصادر السلاح ؟

ان مسألة الحصول على السلاح مسألة سياسية مرتبطة اساسا بشبكة المصالح المعقدة وبعامل التطابق الاستراتيجي بين الدولة الصناعية والدولة المستوردة . ومن الواضح ان القيادة المصرية لم تأخذ بالاعتبار الجانب السياسي ـ الاستراتيجي لمسألة الحصول على السلاح ، وتعاملت مع هذه المسألة وكأنها مسألة تجارية وتقنية فقط . ففي الوقت الذي كانت القاهرة تتقارب فيه من واشنطن (استراتيجيا) وتمنحها ثقتها المطلقة ، وتتباعد عن موسكو وتعزلها عن المشاركة في حل ازمة الشرق الاوسط ، كانت القيادة العسكرية المصرية تطالب السوفيات بالاسلحة والذخائر وقطع الغيار ، وكأن السياسة العليا للدولة وسياسة التسليح منفصلتان عن بعضهما .

ورد السوفيات على هذا التصرف بايقاف الشحنات العسكرية الى مصر وعدم تعويض جميع خسائر حرب١٩٧٣ .ومع توقيع «اتفاق فصل القوات الثاني فيسيناء»، وخروج القوات المسلحة المصرية عمليا من المعركة ، وتزايد التوجه نحو اميركا ،صعد السوفيات الحظر الى مستوى حظر قطع الغيار ، الامر الذي جعل الاسلحة المصرية معرضة لفقدان جزء كبير من مرونتها وكفاءتها القتالية . وعطل حرية القرار العسكري للقوات المسلحة المصرية ، التي يمثل السلاح السوفياتي حوالي ٩٥٪ من تسليحها .

ولقد حاولت القاهرة الغاء هذه القيود لاستعادة حرية العمل . وكانت حجتها ان اضعاف العسكرية المصرية سيجعل القيادة السياسية المصرية عاجزة عن مجابهة الضغوط الاميركية والاسرائيلية . ولكن السوفيات رأوا غير ذلك . واغلب الظن انهم قدروا ان مصر لم تعد بحاجة لمزيد من الاسلحة ، لان توجهها نحو الولايات المتحدة واعتمادها عليها دليل على انها تضمن عدم التعرض للضغط الاميركي ، ولان « اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء» ،والتعهد بعدم استخدام القوة او التهديد بها لحل النزاع العربي ــ الاسرائيلي (١٠) ، قد جمد القوة المسلحة المصرية وحرمها من امكانية العمل والردع ، وجعل تدعيمها تبديدا لا مبرر له .

ومن المؤكد ان العامل السياسي ــ الاستراتيجي لعب دورا هاما في القرار السوفياتي . وجعل السوفيات يستخدمون صفقات السلاح وقطع الغيار للضغط على القيادة المصرية ، ومنع توجهها السريع المتزايد نحو اميركا التي لا يمكن ان تسلحها كما ينبغي ، واعطاء القاهرة الفرصة للاصطدام بخيبة الامل بعد ان تجد ان سلاحها السوفياتي عاجز عن العمل ، وسلاحها الغربي شحيح الى درجة لا تسمح بالعمل .

ولقد راينا في الفقرات السابقة ان الصناعة الحربية في الدول الاخرى لا تملك الامكانات الكمية والنوعية لاعادة تسليح الجيش المصري في مهلة زمنية قصيرة . وحتى لو استطاعت هذه الصناعة الحربية تأمين ذلك ، فان مصر لا تستطيع ان تتخلى دفعة واحدة عن ٢٠٠٠ دبابة ،و ٢٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ عربة مدرعة ، و ٢٠٠ مدفع ذاتي الحركة ، واكثر من ١٣٠٠مدفع مقطور ،وحوالي ٦٠٠طائرة مقاتلة ،وعشرات الزوارق الحربية، والاف الصواريخ م/د ، وم/ط ، خاصة وانها لا تمتلك (ولا ينتظر ان تمتلك قريبا) صناعة حربية قادرة على تأمين الذخائر وقطع الغيار اللازمة لصيانة هذه الاسلحة .

وهناك عامل اخر يتعلق باستيعاب الاسلحة والمعدات (تقنيا وتكتيكيا) . واذا كان لكل سلاح او جهاز حربي اسلوب محدد للاستيعاب التقني ، فان لكل منظومة قتالية اسلوبا للاستيعاب التكتيكي . ويتطلب كلا الاستيعابين فترات زمنية طويلة ودورات تدريبية تخضع اليها الكوادر الفنية والتكتيكية على جميع المستويات . فاذا حسبنا المدة اللازمة لوصول الاسلحة الغربية (في حالة وصولها بكميات كافية) ، والمدة اللازمة للاستيعاب التقني والتكتيكي ، وجدنا ان السياسة المصرية العليا ، وسياسة تعدد مصادر الاسلحة التي نجمت عنها ، قد وضعت القوات المسلحة المصرية امام تحديات اعادة التسليح والتنظيم والتدريب التي تتطلب مجابهتها عدة سنوات تكون كفاءة القوات المسلحة خلالها محدودة دفاعيا وهجوميا ، الامر الذي يتنافى مع متطلبات الاعداد للمعركة .

٦ ــ هل يؤدي تعدد مصادر الاسلحة الى تحرير ارادة القتال العربية ؟

لقد كانت ارادة القتال العربية مرهونة لدى الدول الغربية قبل كسر راحتكار السلاح في العام ١٩٥٥ . ومنذ ذلك التاريخ ، بدات الارادة العربية تخضع لتحديدات

العمل السوفياتية . وهكذا نرى ان الارادة القتالية العربية ، (وارادة القتال لكل دولة تستورد السلاح) مرتبطة بشكل او باخر بتحديدات العمل التي تفرضها الدولـــة المصدرة . وهذا امر تفرضه حقائق السياسة الدولية . فكل دولة تسعى اولا وقبل كل شيء الى الحفاظ على نفسها وتأمين مصالحها . وهي تنظـر الى كافة المسائل العالمية من هذه الزاوية ــ وهذا ما يعطيها حق حمل اسم دولة .

ولكن الفرق بين الخضوع لتحديدات العمل الغربية والخضوع لتحديدات العمــل السوفياتية ، هو ان الدول العربية كانت تخضع في البداية لارادة دول معادية ، خلقت اسرائيل ودعمتها وشجعتها على العدوان او شاركتها فيه (حرب ١٩٥٦) ، وتابعت دعمها ومساعدتها حتى بعد ان ثبتت نوايا اسرائيل التوسعية بعد حرب ١٩٦٧ ، على حين ان الدول العربية خضعت بعد كسر احتكار السلاح لارادة دولة صديقة تعــارض العدوان الاسرائيلي وتساعد العرب على ازالة اثاره ، وان كانت لا تصل الى حـــد الموافقة على تصفية الدولة الصهيونية .

وتؤثر التحديدات السوفياتية على حرية العمل العربية ولكنها لا تتعارض معها ، لان للعرب والسوفيات مصلحة في الصراع ضد الامبريالية العالمية . وقد تتباين المصالــح العربية والمصالح السوفياتية من ناحية الحجم والشكل ولكنها تبقى ذات طبيعـــة واحدة . ويمكن ان نلاحظ بكل بساطة ان التحديدات الامبريالية على حرية العمل العربية تعارض صداميا مع هذه الحرية ، نظرا لان المصالح الامبريالية المتمثلة في استغلال ثروة العرب ومنع وحدتهم وتقدمهم تتناقض مع مصلحة الامة العربية التواقة للوحدة والتقدم واستعادة ثرواتها كاملة وتوظيفها في مجالات الانماء بكل اشكاله .

ولا شك ان هناك تمايز بالدرجة بين مصالح الامبريالية الاميركية ومصالح الامبريالية الاوروبية الغربية . ولكن هذا لا يعني ان الامبريالية الاوروبية الغربية مستعدة للتخلي عن مصالحها ، وتزويد العرب بالاسلحة دون ان تفرض عليهم تحديدات عمل اوروبية غربية . واذا قارنا بين تحديدات العمل السوفياتية ومثيلتها الاوروبية الغربية ، وجدنا ان الحصول على اسلحة اوروبية غربية لا يحل مسألة تحرير الارادة بل يعيدها الى نقطة الانطلاق التي اشتكى منها الرئيس انور السادات ، اذ ان من غير المنتظر ان تقف اوروبا الغربية الىجانب العرب وقفة تمتاز نوعيا عنالموقف السوفياتي .وسيبقى الموقف الاوروبي الغربي ، في افضل حالاته مماثلا للموقف السوفياتي ان لم يكن ادنى منه .

ولا نستطيع القول ان سياسة الوفاق واستراتيجية السوفيات العليا قد اثرتا على صفقات الاسلحة السوفياتية المرسلة الى مصر ، دون ان نقول ايضا ان الاستراتيجية الاوروبية الغربية العليا ، والعلاقات الاوروبية ــ الاميركية ، ووجود الدول الاوروبية الغربية داخل حلف شمالي الاطلسي الخاضع لارادة واشنطن ستؤثر بالضرورة على صفقات الاسلحة الاوروبية الغربية . وهنا ينبغي ان نتساءل عن الفائدة التي تجنيها مصر منالتخلي عن الحليف الاستراتيجي بحجة وجود تحديدات عمل، والارتباط بحليف تكتيكي سيفرض عليها تحديدات عمل مماثلة على الاقل .

ولنفترض انالقاهرة حصلت على اسلحة فرنسية وانكليزية والمانية غربية بالاضافة الى ما تملكه من سلاح سوفياتي ، وخلقت منظومة اسلحة متكاملة قادرة على خوض المعركة الحتمية ، فهل تستطيع القوات المصرية المبادرة بشن الحرب اذا لم تحصل على الضوء الاخضر من العواصم الاربع ، ولم تتأكد من انها ستحصل على الذخائر وقطع

الغيار اللازمة لادامة المعركة بكل متطلباتها ومعدات استهلاكها العالية ؟ والجواب بالتاكيد كلا . والادهى من ذلك أن تعدد مصادر الاسلحة يجعل الحصول على الضوء الاخضر من دولة واحدة أو اكثر لا يكفي لبدء القتال ، ولا بد من موافقة الدول المعنية كلها، لان امتناع واحدة عن الموافقة يشل جزءا من المنظومة القتالية بعدفترة وجيزةمن المعركة ، ويشل بالتالي المنظومة كلها ويحرمها من التوازن الداخلي .

ومن هنا نرى أن تعدد مصادر الاسلحة لا يحرر الارادة العربيه الا في « مرحلة اعداد القوة » ، لانه يعطي الدول العربية الفرصة للحصول على الاسلحة المختلفة اللازمة لخلق منظومات قتالية متكاملة . ولكنه لا يؤدي الى تحرير الارادة القتالية العربيـة خلال « مرحلة استخدام القوة » (وهي المرحلة الاهم) ، بل يؤدى على العكس الى تدويل هذه الارادة، وربطها بعدة ارادات خارجية، ويعطي كل ارادة من هذهالارادات حق « الفيتو » ، طالما ان معارضتها للعمل المصري كافية لتعطيل عمل المنظومة القتالية المصرية بأسرها .

اتفاقية سيناء :
معاهدة اميركية ـ اسرائيلية

الدكتور عودة انور ابو ردينة

« سلام ، انما من دون قبلة السلام . انها مسألة تسوية وترقيع . اذا طلبت رايي ؛ واذا سألتني ، فاني اعتقد بأن هذا السلام لا يبدو ابدا وكأنه نهاية ، كما انه ليس البداية » .

ان راي رسول اليوت في عملية التوفيق والصلح بين بيكيت وهنري الثاني ، هو نفسه راي العديد من العرب والخبراء الاميركيين في اتفاقية سيناء . وستحاول هذه المقالة ان تطرح تقويما وتحليلا للاتفاقية المؤقتة الجديدة التي تربط ما بين الانسحاب الاقليمي الاسرائيلي ، وبين التنازلات السياسية المصرية ، وبين الوعود الاميركية في تقديم العون العسكري و / او الاقتصادي لكلا الفريقين .

ينبغي ان تؤدي الاتفاقية الى **اخماد بعض التوترات في المنطقة** ، وان تقلل من احتمال اندلاع حرب جديدة في الشرق الاوسط . كما انها ستثبط المسعى المبذول في الامم المتحدة لطرد اسرائيل .

وكما في جميع الاتفاقيات ، فان على كل من الفريقين ان يقدم اشياء. فالاسرائيليون يعلمون انه في حال اندلاع حرب جديدة بينهم وبين سوريا ، **فان مصر سرعان ما ستجد نفسها منجرة الى الحرب على الرغم من كل ما تقوله قصاصات الورق . لكن مثل هذه الحرب لن تكون ــ على الاقل ــ منسقة ومدبرة مسبقا كما حدث بين مصر وسوريا في حرب اكتوبر** ، ولا بد ان تشعر الولايات المتحدة كذلك ببعض **المسؤولية الاضافية** في ترك اسرائيل تربح الحرب قبل تدخلها .

اضف الى ذلك انه يصعب اخفاء حقيقة ان اسرائيل لا تزال محتفظة بالافضلية الاستراتيجية في السيطرة على سيناء . فالتسوية التي تم احرازها خطوة بارعة . فعلى القوات الاسرائيلية ان تنسحب من المجازات الغربية الى الممرات ، الى آخر الممرات تقريبا ، حيث يسمح لها بوجود عسكري محدود . اما المنطقة المصرية ذات القوات المحدودة (والمحددة) مقابل الممرات تماما ، فلقد جرى توسيعها بصورة جزئية للغاية ، لكن الذي حدث هو زيادة حقيقية ملموسة في مساحة المنطقة العازلة تحت اشراف هيئة الامم المتحدة ، والتي تغطي كل منطقة الممرات على وجه التقريب.

وعلى الرغم من تجريد منطقة الممرات من السلاح ، فان الاسرائيليين لا يزالون

يسيطرون على كلا الجانبين ويهيمنون على وادي الجندي المهم الذي يؤدي نزولا الى راس سدر على خليج السويس . وسوف يسمح للاسرائيليين ـ كما للمصريين ـ بالاحتفاظ بقوة تتكون في الحد الاقصى من ثمانيه آلاف رجل في نطاق منطقة القوات المحدودة الجديدة . على ان الميزة التي ينتفع بها الاسرائيليون انهم وراء منطقتهم ذات القوات المحدودة ، يستطيعون الاحتفاظ بأي حجم من الجنود والمعدات والقوه العسكرية . لكن المصريين ، من الناحية الاخرى ، لا يستطيعون الاحتفاظ سوى بثمانية آلاف جندي بالاضافة الى ٧٥ دبابة و٦٠ مدفعا على الضفة الشرقية لقناة السويس .

وهناك ناحية اخرى تتيح للاسرائيليين ان يقوموا بالمهمات الدفاعية على نحو ايسر من المصريين ، هو خلق منطقة رئيسية في الخط الجديد المتجه نزولا من السويس الى آبار النفط في ابو رديس ، في منطقة جديدة منزوعة السلاح في ظل ادارة مصرية مدنية .

وطبقا لما قاله المراسل العسكري لصحيفة **الجيروزاليم بوست** الاسرائيلية ، فان الانسحاب العسكري الاسرائيلي « قد يخلق تحولا من الدفاع القائم على خط ثابت وجامد يتكون من عدد من المعوقات ، الى تشكيل آخر يتكون من تحصينات وقوات متحركة يكون في وسعها ان تقوم بعملية الانتشار اللازمة لصد هجمات العدو » (١).

والواقع ان المنطقة العازلة في الاتفاقية الجديدة تتوجه صعدا الى حوالي ٣٠ ميلا في كلا الممرين ، الامر الذي يشكل في حد ذاته ضمانة تحول دون نشوب حرب استنزاف وانهاك .

ومما يعزز ويؤكد هذا العامل ، هو ازالة اية اسلحة من منطقة التخفيض (منطقة القوات المحدودة) قد يكون بوسعها ان تبلغ في رماياتها الى خط الجبهة في الجانب الآخر .

وعلى الرغم من ان القوات الاسرائيلية لا تزال تحتفظ بالسيطرة الاستراتيجية في سيناء ، فان هناك اجماعا بين المصادر العسكرية الامريكية والاوروبيين العليمين بسيناء ، على ان اسرائيل قد تخلت عن بعض المزايا العسكريه البارزة في سيناء نتيجة للتوصل الى اتفاقية سيناء المؤقتة . ان خسارة اسرائيل لممري متلا والجدي والجبال التي تحمي القاعدة الجوية الاسرائيلية في رفيديم ، يمكن تعويضها بالامدادات العسكرية الامريكية من الاسلحة المتطورة ومن الالكترونيات المضادة . ان النتيجة العاجلة والفورية للاتفاقية تتمثل في الانتقاص من السيطرة الاسرائيلية الجوية على وسط سيناء . فمنذ حرب ١٩٦٧ ، اركنت القوات الدفاعية الاسرائيلية اساسا الى التفوق الجوي لصد اي هجوم مصري شرقا في سيناء ، ولدعم العمليات الدفاعية والهجمات المضادة من جانب القوات الاسرائيلية الارضية . ان انسحاب اسرائيل من الممرات والمرتفعات المحيطة بها ، يزيد من الاخطار التي تتعرض لها قاعدة رفيديم . فلحماية هذه القاعدة مستقبلا ، لا بد من حمايتها من الصواريخ الارض ـ ارض ، وكذلك من هجوم جوي مصري على القاعدة .

ان انسحاب اسرائيل من منطقة الممرات ، افقدها خطا دفاعيا طبيعيا في وسط سيناء . ان السهل المنبسط شرق الممرات لا يحتوي سوى على القليل من العوائق الطبيعية امام تقدم قوات مدرعة . على ان الدفاعات الاسرائيلية يمكن تحسينها

بزراعة كثيفة للالغام ، وبحفر خنادق مضادة للدبابات . لكن هذه الواجبات تستوجب من اسرائيل جهودا طويلة وتكاليف باهظة على السواء .

ان موافقة اسرائيل على وجود محطة مصرية واحدة للانذار المبكر ، تحت اشراف الامريكيين (وعلى تلة احسن اختيارها في جهة متقدمة من ممر الجدي) ، تتيح لمصر القدرة على تلقي انذار مبكر عن اي تحركات عسكرية اسرائيلية .

ومن وجهة النظر العسكرية ، فان الانسحاب الاسرائيلي الجديد سوف يؤمن حماية اضافية لقناة السويس . ويأمل المصريون ان يكون هذا مدعاة لارتياح اصحاب السفن في العالم ، وباعثا على اطمئنانهم كي يستخدموا القناة بكل قوة ونشاط .ولقد كانت هذه الحقيقة في ذهن المصريين وهم يخوضون غمار المفاوضات الصعبة من اجل بضعة اميال استراتيجية في القطاعين الاوسط والشمالي في خط فصل القوات .

وبالمثل ، فان الحكومة المصرية تأمل من اصحاب الاستثمارات الاجنبية الذين نأوا بأنفسهم عن مصر على الرغم من سياسات الرئيس السادات الاقتصادية الليبرالية ، ان يتدفقوا على مصر بأعداد كبيرة .

وتقضي الاتفاقية بتسليم حقول النفط في ابو رديس الى مصر ، وهي الحقول التي كانت اسرائيل تدرك انه لم يكن في وسعها الاحتفاظ بها الى الابد . على ان هذه الحقول النفطية **سوف تقدم انتاجها لحوالي خمس سنوات اخرى ، وان نفطها على اي حال يحتوي على كمية كثيفة من الكبريت** . وفي المقابل ضمنت الولايات المتحدة لاسرائيل تزويدها بامدادات نفطية كافية وبالاموال اللازمة لتمويل عمليات الشراء .

لقد بدت الاتفاقية المؤقتة بين مصر واسرائيل في سيناء ، وكأنها حلف دفاعي بين اسرائيل وجيرانها . « طالما ان الولايات المتحدة معنا ، فان كل شيء على ما يرام . ذلك هو اهم ما في الاتفاقية » (٢) . كان هذا تصريح احد الرسميين الاسرائيليين .

فنظرا لان الولايات المتحدة كانت شديدة الالحاح على وجوب انسحاب اسرائيلي في سيناء ، فستقدم الولايات المتحدة لاسرائيل كميات هائلة من الدعم العسكري والاقتصادي على السواء . وسيرتفع مستوى الدعم لاسرائيل الى ما يتجاوز البليوني دولار ، مع تقديرات تتراوح بين ١ر٢ بليون دولار و٣ر٢ بليون دولار للسنة المالية المقبلة . وسيكون حوالي ٥ر١ بليون دولار عونا عسكريا ، والباقي مساعدة اقتصادية . ومن المقرر ان تمد الولايات المتحدة اسرائيل في الاعوام الخمسة المقبلة بعشرة بلايين دولار على الاقل على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية . والتعهدات الامريكية العسكرية لاسرائيل لا تقل سخاء عن ذلك . فالولايات المتحدة ستزود اسرائيل بأحدث ما لديها من عتاد عسكري بما في ذلك طائرات اف ــ ١٥ وصواريخ ارض ــ ارض من طراز لانس (مداه ٧٠ ميلاً) ، التي كانت قد تلكأت في امدادها بها كوسيلة ضغط عليها لتقبل التسوية في سيناء . والوقت الطويل الذي يتطلبه انتاج هذه الاسلحة وتسليمها ، يعني ان الولايات المتحدة ملتزمة بمستويات عالية من الدعم العسكري لاسرائيل ، على امتداد عدة سنوات آتية . اضف الى ذلك انها ملتزمة باعادة تزويد اسرائيل بأية اسلحة واعتدة يمكن ان تفقدها في اية حرب جديدة في المنطقة .

لقد وافقت الولايات المتحدة مع اسرائيل كجزء من اتفاقية سيناء ، على أن تقوم

معها بدراسة مشتركة للاحتياجات العسكرية الاسرائيلية ، وعلى ان ترسم خطة طواريء للامدادات العسكرية ، عند ظهور حالة طارئة في الشرق الاوسط . والى جانب هذا التعهد العام ، وافقت الولايات المتحدة على ما يلي :

اولا : ان تكون مقتضيات اسرائيل العسكرية على المدى البعيد ، موضوع مشاورات مشتركة بصورة دورية .

ثانيا : اعداد دراسة مشتركة من جانب الخبراء العسكريين خلال ثلاثة اسابيع من توقيع الاتفاقية .

ثالثا : في غضون شهرين توضع خطة طوارىء للامدادات العسكرية في ظل اية حالة طارئة قد تستجد .

رابعا : ستنظر الولايات المتحدة بعين العطف في طلبات اسرائيل من الاسلحة المتقدمة .

تنص الاتفاقية المؤقتة في فقرتها المهمة على ما يلي : « توافق حكومة الولايات المتحدة على عقد اجتماع في وقت مبكر ، لمباشرة دراسة مشتركة تتناول التكنولوجيا العالية والاسلحة المعقدة وبينها صاروخ بيرشينج ارض ـ ارض ، برؤوس تقليدية ، رجاة ان تكون الاستجابة ايجابية » (٣) .

ان اعطاء الاسرائيليين هذا السلاح ، يعادل في خطورته قرار ادارة جونسون بتزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم اف ـ ٤ المقاتلة النفاثة . فذلك القرار كان تصعيدا لعمليات التسلح في الشرق الاوسط ، مكن اسرائيل لاول مرة من ان تضرب في اعماق الاراضي العربية . وذلك هو بالضبط ما فعله الاسرائيليون بالفانتوم ، اذ قصفوا بها المناطق المجاورة للقاهرة ، مما جعل الرئيس عبد الناصر يطير الى موسكو بطلب عاجل للنجدة . ونتج عن ذلك مجيء طائرات الميغ ـ ٢١ بطياريها السوفيات الى القاهرة . وبعد ذلك ابتعد الاسرائيليون عن اجواء القاهرة . لكن تصعيدا عسكريا خطيرا قد حدث ، ونضج في العام ١٩٧٣ عندما امر الرئيس السادات بخروج الروس من مصر .

قال بول وارنكي ، الرئيس السابق لمكاتب الشؤون الامنية الدولية في وزارة الدفاع الامريكية ، والمتخصص في مشكلات الرقابة على الاسلحة ، عن قضية صواريخ بيرشينج **« انها الجزء الوحيد من الصفقة الذي يقتلني من الفزع »** (٤) . ولقد عبر وارنكي عن شكه في انه كان يتوجب على الولايات المتحدة ان تمضي بعيدا الى هذا الحد في تسليح اسرائيل بغية بعث الطمأنينة في كيانها .

وفيما يتعلق باحتمال استخدام اسرائيل لصواريخ بيرشينج ، يقول دكتور ديل ر. تاهتينن ـ وهو مرجع في الشؤون الصاروخية ـ ان مدى هذا الصاروخ في الحقيقة هو « حوالي ٥٦٠ ميلا » لا ٤٦٠ ميلا كما هو معروف لدى الناس . ويضيف هذا الاخصائي الخبير ان في وسع صاروخ بيرشينج « في سرعة ٨ ماك ، ان يضرب بغداد في سبع دقائق . وحتى اذا لم يستخدم (من جانب الاسرائيليين) ، يبقى السؤال المطروح : ماذا ستكون ردة فعل السوفيات ؟ » (٥) .

قد يكون هناك من يقول ان الاتفاقية الجديدة قدمت لاسرائيل اسلحة ما كان يمكن

ان تحصل عليها لولا الاتفاقية . لكن كيسنجر يقول ان معظم المساعدات الامريكية لاسرائيل الواردة في الاتفاقية ، كانت ستطلبها اسرائيل ، وستحصل عليها ، سواء عقدت الاتفاقية ام لم تعقد . كما ان الرئيس فورد اكد « ان الولايات المتحدة زودت اسرائيل (في الماضي) بكميات ضخمة وقويه من الاسلحة العسكرية ، وتقضي خطتنا بأن نواصل فعل ذلك في المستقبل » (٦) .

ويمكن النظر الى صفقة الاسلحه الامريكية لاسرائيل من زاويتين ، فهي من ناحية مكافأة لاسرائيل بسبب انسحابها من بضعة اميال من الاراضي العربية المحتلة ، وهي من الناحية الثانية « سلاح (بيد الولايات المتحدة) يستلزم ويستتبع اسلحة اخرى في المستقبل : فقطع الغيار والبدائل ، يمكن وقفها والمماطله بها مرة اخرى كما كان قد حدث في هذه الاشياء من قبل » (٧) .

وكتب معلق صحافي اسرائيلي قائلا : « ان حقيقة كون الولايات المتحدة قد الزمت نفسها الى هذا العمق في الاتفاقية ، والتزامها بأن تتشاور مع اسرائيل حول السياسة الشرق اوسطية ، امر يعطينا بالفعل قوة وفاعلية . فهل في وسع الولايات المتحدة الآن ان تلعب بنجاح الورقة التي لعبتها سابقا ، المماطلة في العون العسكري والاقتصادي ، بعد ان قدمت هذه التفاهمات ؟ » (٨) .

على ان هناك — في الجهة المقابلة — من يجادل قائلا (مثلما قال بيجن مثلا) ان انغماس الولايات المتحدة مع كل من مصر واسرائيل يعني نفوذا امريكيا اعظم لن يكون في وسع اسرائيل مقاومته .

وهناك جانب آخر من الاهمية في الاتفاقية يتمثل في « صياغة » العلاقات الاسرائيلية — الامريكية في التفاهمات السرية وفي وجود المراقبين الامريكيين في سيناء . ففي الماضي اعتمدت اسرائيل الى حد بعيد في ما تناله من حظوة في الكونغرس الامريكي ومن دعم من جانب الرأي العام الامريكي ، على صورتها كدولة **لم تورط الولايات المتحدة بشريا** . « اعطونا الاسلحة والاموال ونحن وحدنا نقوم بخوض المعركة » . تلك كانت مقولة اسرائيل للامريكيين . لكن اسرائيل لم يعد في وسعها بعد الآن ان نقدم نفسها على انها « الدولة الشجاعة الصغيرة » التي تحارب انتشار النفوذ السوفياتي في الشرق الاوسط . فان تأييد الرئيس السادات للامريكيين اصاب هذه المقولة في الصميم .

ولم تحصل اسرائيل على غاية ما كانت تتمناه ، **اعلانا مصريا بانهاء حالة الحرب** . لقد مضى الرئيس السادات الى ابعد ما يستطيع بقبوله الاعلان بعدم استخدام القوة . ويوافق الاسرائيليون الاكثر واقعية على ان اسرائيل كانت في نهاية الامر تفاوض وتقايض **اشياء مادية محسوسة ، بأمور غير ملموسة** .

ولهذا ، وبينما الولايات المتحدة والعديد من حلفائها استقبلوا الاتفاقية الجديدة بأمل عظيم ، فان اسرائيل تبدي الحذر . ولقد خاطب رابين اعضاء الكنيست الاسرائيلي مؤخرا قائلا : « لا اقف امامكم على هذه المنصة كشخص تغمره روح المسرة والاحتفال ، ولا كمن تخلى عن كل وقار . اني اطرح هذه الاتفاقية على الكنيست وعلى الامة بأقصى ما يمكن ان تحمله التعابير من روية ورصانة وجدية واعتدال ، وبكل ما تشتمل عليه من آفاق متوقعة ومجازفات ممكنة . اني اقدم لكم

هذه الاتفاقية باعتبارها خيارا واحتمالا لا كيقين ثابت ، ويترتب على ذلك ان اسرائيل سوف تواصل الاهتمام بقواتها » (٩) .

قال وزير الدفاع الاسرائيلي السابق موشي دايان : « اننا نقدم تنازلات ، تنازلات مهمة للغاية ، لكننا في المقابل لا نحصل على شيء من المصريين . ان ما نحصل عليه هو عبارة عن تعويض من الامريكيين ، بدلا من الحصول على تنازلات مصرية . وهذا امر حسن لمصر ، لكنه بالنسبة لاسرائيل امر سيء » (١٠) .

بالنسبة لمصر ، لا يبدو انها قد الزمت نفسها باي شيء اكثر من تقييد نفسها بتعهد عمومي بعدم اللجوء الى استخدام القوة في خلال فترة سريان الاتفاقية . وحيث ان الرئيس السادات قد اعلن بشكل جلي انه لم يقطع على نفسه اية تعهدات سرية ، فان علينا من الناحية الفرضية ان نصدق ما يقول . وينبغي ان يبقى في الذهن على اي حال انه سوف يكون من شأن مصر ان تحدد معنى كلمة « قوة » في عبارة « عدم استخدام القوة » .

وحتى لو سلمنا مع بعض القائلين ، بأن مصر قد تعهدت بعدم الاشتراك في الحرب اذا كانت دولة اخرى قد شنت هجوما على اسرائيل ، وانها لن تشترك في حرب الا اذا كانت اسرائيل هي المعتدية ، فانه يبقى من شأن مصر ايضا ان تعطي مفهومها لمعنى « العدوان » ، حيث يكون في وسع الرئيس السادات في مثل هذه الحالة ان يحاجج بأن معنى هذا الالتزام يختلف عما يظهر .

ينبغي النظر الى اتفاقية سيناء باعتبارها تمثل اندحارا للمطالب الاسرائيلية التي اكدت عزمها على عدم الانسحاب من اية بقعة من الاراضي العربية المحتلة ، اذا لم يقم طرفا النزاع ذاتهما بالتفاوض من اجل اتفاقيات سلام . وان اطراف النزاع وهي تصنع « السلام » ، تقيم « الحدود الآمنة والمعترف بها » التي تنسحب اليها اسرائيل، طبقا لجدول زمني متفق عليه .

وعلى هذا ، يبدو ان كيسنجر قد قبل بالراي القائل ان المفاوضات المباشرة و « السلام » مع اسرائيل ، امران لا يمكن تحقيقهما قبل ان تتعهد اسرائيل من الناحية المبدئية بأن تنسحب من جميع المناطق العربية المحتلة .

وهناك جانب مهم آخر في الاتفاقية ، يتمثل في مرابطة ٢٠٠ فني امريكي في سيناء ، لمراقبة الاعمال « الحربية » في كل من الجانبين .

ان الوجود الامريكي في سيناء ، سوف يجعل تجدد الاعمال العدائية اكثر مشقة ، وسيضطر الامريكيين للتصرف بسرعة في حال استئناف مثل هذه الاعمال .

وترى اسرائيل الاتفاقية على انها جعلت الامريكيين بمثابة رهائن في سيناء ، مما يؤكد تورط الولايات المتحدة في حال توجيه ضربة من احد الفريقين .

وهناك اهمية لتاكيد الرسميين المصريين على ان مرابطة الامريكيين في سيناء ، لم تكن فكرة اسرائيلية بل فكرة مصرية . فلقد زعموا ان الرئيس السادات اقترح الفكرة ردا على ما تذرعت به اسرائيل من انها مضطرة للبقاء في ممرات سيناء لرصد الاستعدادات المصرية لشن هجوم عليها .

واتفاقية سيناء ، تلزم الولايات المتحدة بلعب دور متزايد الاهمية لا مثيل له في

السابق في شؤون الشرق الاوسط . ففي سلسلة مفصلة من الاتفاقيات المعلنة والاخرى التي لا تزال سرية ، والتي طلبتها اسرائيل مقابل تنازلاتها الاقليمية ، قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل ما يعادل حلفا امنيا غير رسمي ، **يكاد يكون ملزما للولايات المتحدة للتدخل فعليا في حال اندلاع القتال من جديد** . وفي هذا الصدد يقول مسؤول اسرائيلي : « ان هذه الاتفاقية دفاعية بين الولايات المتحدة واسرائيل ، حتى ولو كانت النصوص لا تعلن ذلك بشكل صريح » (١١) .

وقد تندم اسرائيل لموافقتها على مرابطة الفنيين الامريكيين في سيناء . فاذا كان الوجود الامريكي في سيناء اعتبر امرا ضروريا « لامن » اسرائيل بعد اعادتها لسدس او سبع سيناء فقط ، فما هو مدى الوجود الامريكي الذي سيكون مطلوبا اذا ما تم التوصل الى تسوية تتعلق بجميع الاراضي العربية المحتلة ؟

في وسع النقاش حول وجود المراقبين الامريكيين في سيناء ان يسلط الضوء على كل مسألة المساعدة الامريكية لاسرائيل ، وعلى المدى الذي ستسير اليه الولايات المتحدة في هذا الاتجاه . فهل في صالح اسرائيل اثارة هذا الموضوع في الوقت الحاضر ؟ وهل من المؤكد ان الاميركي العادي في غاية الشوق للتورط في نزاع اجنبي رهيب قد تبدو حرب فيتنام بالمقارنة معه وكأنها مجرد مناوشة محدودة ؟ ربما كان من الممكن تسويغ الوجود الامريكي في حال التوصل الى اتفاق سلام عريض ونهائي بين اسرائيل والدول العربية . ومثل هذا الاتفاق لا يعني مصر وحدها ، بل سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية كذلك . **فقيام الامريكيين بهجوم على حدود ما ، مسألة اخرى ، طالما ان اكثر نواحي النزاع العربي ــ الاسرائيلي بقيت بدون حل** . ان ايا من هذه النواحي المتبقية كفيلة بتفجير حرب رئيسية جديدة .

ومن الاهمية بمكان ملاحظة ان اتفاقية سيناء المؤقتة ليست « تسوية » للنزاع العربي ــ الاسرائيلي ، بل هي في الحقيقة بعيدة للغاية عن هذا . « ان بيت القصيد ، ان الاسرائيليين الذين يحتلون الاراضي العربية بالرغم من الضغوط الدولية منذ ثمانية اعوام ، قد قبلوا الآن ، وعلى احدى جبهاتهم ، ان يسحبوا جنودهم لبضعة اميال الى الوراء » (١٢) .

لقد قامت سياسة اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وكذلك بعد حرب ١٩٧٣ على استمرار الركود وتجميد الموقف . وقد صرح مسؤول اسرائيلي بارز لمجلة « تايم » : « .. لقد كنا نناور منذ ١٩٦٧ لكسب الوقت ولنعيد (الاراضي العرب) اقل ما يمكن . وكان الراي المهيمن على الحكومة ان الركود وتجميد الموقف في صالحنا . وتمثل اخطر تهديد لنا في خطة روجرز والسياسة الامريكية الداعية الى انسحابنا الى خطوط الهدنة القديمة (حدود ما قبل حرب ١٩٦٧) . والاتفاقية الحالية (اتفاقية سيناء المؤقتة) مع مصر ، هي مسمار جديد في نعش تلك السياسة . نحن ندرك ان العالم كله ضدنا في موضوع الحدود ، كما ندرك اننا نعتمد اعتمادا كليا رهيبا على دولة واحدة بغية الحصول على الاسلحة المعقدة . ومع ذلك فلقد كنا ناجحين طوال الاعوام السبعة او الثمانية المنصرمة ، وربما اقتضى الامر ان نواصل سياسة المناورة لعشر سنوات اخرى . واذا كان للاتفاقية المؤقتة الراهنة ان تمنحنا ستة اشهر فقط وبالاحرى ثلاث سنوات ، فاننا برغم ذلك نقدم عليها لان البديل هو جنيف ، وجنيف لا تعني الا ضغوطا اخرى كي ننسحب الى حدود ١٩٦٧ . ان الاتفاقية المؤقتة اخرت جنيف ، وبالاضافة الى ذلك فانها وفرت لنا في الوقت نفسه الاسلحة والاموال والتنسيق السياسي مع واشنطن ، كما امنت لنا هدوءا في سيناء » (١٣) .

ان افتقار اتفاقية سيناء المؤقتة الى تعهد جدي وحقيقي بتحقيق حل نهائي لازمة الشرق الاوسط ، يمثل موطن ضعف رئيسيا في الاتفاقية . « ... قد تكون الاتفاقية المؤقتة مهلكة وقاتلة كقنبلة زمنية . فلا ينبغي النظر اليها كوسيلة سهلة لشراء الوقت، ولا باعتبارها اداة لتحقيق الاستقرار الفوري والخلاص من التوترات ... ان اتفاقية فصل القوات الثانية هذه في سيناء ليست اكثر من خطوة ثانية في طريق طويل ووعر . فهي لا تفعل شيئا كي تعيد الى العرب اراضيهم التي احتلت في العام ١٩٦٧ . كما انها لا تفعل شيئا باتجاه اعطاء الفلسطينيين حقوقهم السياسية او حتى مصالح تجعلهم يتصرفون بصورة بناءة » (١٤) .

وطبقا لما يقوله الامير سعود الفيصل وزير الدولة للشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية ، فان الاتفاقية المؤقتة بين مصر واسرائيل بشأن سيناء « ليست هي المسألة . ان النظرية القابعة وراء مفاوضات سياسة الخطوة خطوة ، انها تخلق الظروف من اجل تسوية نهائية ... فاذا ادت اتفاقية فصل القوات (الثانية) الى انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة والى الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، يمكن عندئذ فقط اصدار حكم على الخطوات المؤقتة » (١٥) .

ان مصر ، بسيرها الانفرادي مع الولايات المتحدة ، قد قطعت نفسها عن مصدر امداداتها العسكرية وقطع الغيار والتجديدات اللازمة لها ، اي عن روسيا ، « وربطت مستقبلها بعلاقة شخصية بين السادات وبين كيسنجر ، الذي هو ناظر الخارجية في دولة لا تزال هيئتها التمثيلية ــ الكونغرس ــ خاضعة لانصار الصهيونية » (١٦) .

لا يزال الشرق الاوسط بعيدا حتى الآن عن السلام . ولن يكون لاتفاقية سيناء من معنى الا اذا نجحت جهود لاحقة في رفع الظلم عن الشعب الفلسطيني ، وحققت مطالبه . « تلك المطالب التي يمكن اختصارها ببساطة بالرغبة في كيان وطني من ضمن مجتمع الامم في الشرق الاوسط . ان مثل هذا الاعتراف مسألة لا تتزعزع . ان دبلوماسية الخطوة خطوة التي تخفف في الاشتمال على الفلسطينيين في وقت مبكر تهدد ... مستقبل السلام ذاته في الشرق الاوسط وفي العالم كله » (١٧) .

وان استبعاد الاتحاد السوفياتي في دبلوماسية المستر كيسنجر ، يمثل ناحية اخرى تبعث على القلق في الاتفاقية . فان دعم السوفيات شرط اساسي لاية تسوية فعالة وذات مغزى .

وقد لا تنجح الاتفاقية وفق ما يتصور الرئيس السادات . فالدعم الضخم الذي سيعطى لاسرائيل على الصعيدين العسكري والاقتصادي ، قد يؤدي الى تعزيز وتصليب رفض اسرائيل لاية تنازلات اخرى . ومن الجائز ان يدعي الاسرائيليون انهم قدموا كل ما في وسعهم ، وان يعتمدوا على انهماك الامريكيين في عام الانتخابات كي يضعوا الموقف في الثلاجة مرة اخرى . ولتحاشي ذلك لا بد من توجيه ضغط شديد على الولايات المتحدة كي تجبر اسرائيل على قبول الاساس المنطقي بان الاتفاقية المؤقتة ينبغي الحاقها باتفاقية اخرى ذات وزن لفصل القوات على الجبهة السورية ، والتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني . وبحكم التحديد والتعريف ، هناك استحالة في تسوية النزاع العربي ــ الاسرائيلي بدون اخذ حركة المقاومة الفلسطينية بعين الاعتبار ، وهي الحركة التي لم يعد في وسع احد بعد الان ان ينكرها او يتجاهلها .

لقد انطلقت المبادرة الامريكية من قاعدة المصالح الامريكية الخاصة ، والاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية تبقي على الزخم في دبلوماسية الشرق الاوسط ، وتبقي على الولايات المتحدة ونشاطها باعتبارها الوسيط الرئيسي في المنطقة .

كما انها تريح بال الرئيس فورد في ان يخوض انتخابات ١٩٧٦ وهو مطمئن الى ان الموقف في الشرق الاوسط لن يتفجر في حرب اخرى . وذلك يعني في المقابل ان الولايات المتحدة ودول الغرب الاخرى سوف تكون مطمئنة الى عدم وجود حظر اخر على النفط العربي .

وصف خبير مطلع على شؤون الشرق الاوسط مضاعفات ونتائج الحروب العربية ــ الاسرائيلية المتعددة بالعبارات التالية : « ان حربا جديدة في الشرق الاوسط ــ بما في ذلك استخدام سلاح النفط ــ ستؤدي الى كساد على المستوى العالمي ، وبطالة حوالي عشرة ملايين من الامريكيين ، وتدمير حلف شمال الاطلسي (الناتو) ، واشتراك الشيوعيين في حكومات ائتلافية في العديد من دول اوروبا الغربية » . (١٨)

---

١ ــ **فاينانشال تايمز** (لندن) ، ٣ سبتمبر ١٩٧٥ ، ص ٥ .

٢ ــ **تشيكاجو تريبيون** ، ٧ سبتمبر ١٩٧٥ ، القسم الثاني ، الصفحة الاولى .

٣ ــ **كريستيان ساينس مونيتور** ، ١٨ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ١٣ .

٤ ــ **ذي ديس موان ريجستر** ، ١٨ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة الثانية ــ أ

٥ ــ المصدر نفسه ، ١٩ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة الثالثة .

٦ ــ **تايم** ، ٢٩ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ٣٧

٧ ــ **ذي اكونومست** ، ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ١٣

٨ ــ **فاينانشال تايمز** ، ٩ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ١٤

٩ ــ **المصدر نفسه** ، ٩ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ١٤

١٠ ــ المصدر نفسه .

١١ ــ **تايم** ، ٨ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ١٩

١٢ ــ **فاينانشال تايمز** ، ٢ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ١٤

١٣ ــ **تايم** ، ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ٣٤

١٤ ــ **مانشستر جارديان** ، ٦ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة الاولى

١٥ ــ **نيويورك تايمز** ، ٢٦ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة الثانية

١٦ ــ **ميدل ايست اكونومك دايجست** ، ٣ اكتوبر ١٩٧٥ ، الصفحة السابعة

١٧ ــ **تشيكاغو دياي نيوز** ، ١٩ سبتمبر ١٩٧٥ الصفحة الثامنة

١٨ ــ **كريستيان ساينس مونيتور** ، ٣ سبتمبر ١٩٧٥ ، الصفحة ٢٧ .

رسالة من واشنطن :
سقوط موينهان وعقم السياسة الاميركية

جاءت استقالة دانيال موينهان ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة في الثالث من شباط (فبراير) وسط مسرحية دبلوماسية حاولت فيها الادارة الاميركية اقناع العالم بأن الخلل لا يكمن في سياستها بل في طريقة التعبير عن هذه السياسة . ولعل الادارة الاميركية ارادت ايضا الايحاء بأنها لم توفق في اختيار ممثليها في الامم المتحدة . ومن الملاحظ ان الولايات المتحدة تعيش منذ اواخر الستينات في عزلة شبه كاملة عن العالم الثالث داخل المنظمة الدولية . ولقد تزايدت هذه العزلة في العام ١٩٧٤ ، ثم وصلت الى ذروتها في العام ١٩٧٥ ، عندما بدأت واشنطن تتحدث عن فكرة الانسحاب من الامم المتحدة .

وتحس الاوساط السياسية في الولايات المتحدة ، أن السياسة الاميركية داخل الامم المتحدة تلاقي صعوبات كبيرة، وان علاقتها مع العالم الثالث في تدهور مستمر ، وان مواقفها السياسية في السنوات الاخيرة جعلتها في صدام مستمر مع غالبية اعضاء المنظمة . وهناك احداث عديدة تؤكد هذه النظرة التشاؤمية . فعندما دعت الجمعية العامة منظمة التحرير الفلسطينية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ للمشاركة في المداولات الخاصة بالقضية الفلسطينية ، واعتبرتها « الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني » ، واقرت بأن الشعب الفلسطيني هو « الطرف الاساسي المعني بقضية فلسطين» (١) ،تحدت الولايات المتحدة ارادة اكثرية اعضاء الامم المتحدة ، واتخذت موقفا عدائيا ليس ضد منظمة التحرير فحسب ، بل ضد جميع الدول المؤيدة لمنظمة التحرير ايضا ، وهاجمت ما اسمته « بتسلط الغالبية » (٢) . ولكنها لم تستطع متابعة هذه السياسة طويلا ، ولم تلبث ان اتجهت نحو العمل لكسر طوق عزلتها وفتح الحوار مع العالم الثالث . وظهر الموقف الاميركي الجديد عندما تقدمت ٧٧ دولة منكتلة دول العالم الثالث ، خلال دورة الامم المتحدة الخاصة السابعة (١ - ١٦ ايلول ١٩٧٥) بطلب يتعلق باجراء بعض التعديلات على النظام الدولي ، وخاصة في مجالي الاقتصاد والانماء ، وتجاوبت الولايات المتحدة مع هذا الطلب ، واعربت عن استعدادها للحوار مع بلدان العالم الثالث حول هذه المسألة(٣) .والقىممثلها في الامم المتحدة خطابا اطلق عليه اسم « كيسيهان » (Kissihan) نظرا لانه كان من اعداد كيسنجر والقاء موينهان .

ولقد اعتبر بعض المعلقين السياسيين هذا الخطاب خطوة ايجابية، في حين اعتبره البعض الاخر تدبيرا لتحاشي الصدام المباشر مع العالم الثالث ، والعمل في الوقت نفسه لتفتيت جبهة هذا العالم . والواقع ان اصحاب هذا الرأي كانوا على حق ، اذ ما ان بدأت الجمعية العمومية مناقشة قضية الشرق الاوسط حتى كشفت اميركا النقاب عن حقيقة اهدافها ، ولجأت الى التهديد بالانسحاب من الامم

المتحدة • وكان ما ازعج الاميركيين القرارات الثلاثة التي اتخذتها المنظمة الدولية في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ • ويتعلق القرار الاول بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى حضور جميع مناقشات الامم المتحدة ، ويتعلق الثاني بضرورة الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، اما الثالث فهو القرار الخاص باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية (٤) •

وبعد مرور العاصفة وحساب الارباح والخسائر ، اخذت الولايات المتحدة تبحث من جديد عن وسيلة للتقارب مع العالم الثالث • وكان عليها ان تقدم ثمن موقفها المتشنج في الامم المتحدة • وهذا ما دفعها الى التضحية بمندوبها جون سكالي الذي كان كبش الفداء في العام ١٩٧٥ ، تماما كما اصبح خلفه موينهان كبش الفداء للعام ١٩٧٦ •

ومن المؤكد ان الولايات المتحدة تجابه في مجال السياسة الدولية معضلات جمة وينعكس هذا الوضع على مواقفها في الامم المتحدة • ولكن هذا لم يدفعها الى اعادة النظر في سياستها ، وتقييم اخطائها ، وتحديد خط سياسي جديد (وهذا امر مفهوم تفرضه طبيعتها الامبريالية ومصالحها الاستغلالية) ، واكتفت بالقاء اعباء فشلها ونكساتها على عاتق ممثليها • مع ان جذور المشاكل والنكسات لا تتعلق باختيار الرجل الذي يمثلها ، بقدر ما تتعلق بالسياسة التي بطلب من هذا الممثل تنفيذها •

ان من السذاجة الاعتقاد بأن الادارة الاميركية فكرت ولو للحظة واحدة بأن سكالي وموينهان مسؤولان عن نكسات اميركا داخل المنظمة الدولية •ورغم ان التصريحات الرسمية الموجهة الى الرأي العام العالمي تحاول التأكيد على ان ما اصاب الولايات المتحدة يعود الى « طريقة الاداء السيئة » ، فان من الواضح ان ما تسعى الادارة الاميركية اليه هو تضليل الرأي العام الاميركي – غير المبالي اجمالا – واعطاؤه تفسيرا مقبولا للضجة التي رافقت مناقشات الامم المتحدة ، ولتدهور علاقات اميركا مع دول العالم • وذلك عن طريق القاء اللوم على الاشخاص نظرا لان المواطن الاميركي العادي يركز على الشخص اكثر من اي شيء اخر •

ولقد ترسخ هذا النهج في وعي المواطن العادي منذ سنوات طويلة ، فاصبح يتجه عند الانتخابات نحو الشخص لا البرنامج (رغم وجود برامج للمرشحين) لقناعته التامة بأن تباين اراء الحزبيين الاميركيين لا يمنع كونهما متماثلين • ومن هنا جاء التركيز في الحملات الانتخابية على الشخصية القيادية ، الاسرة ، والمظهر الخارجي ، وصور الزوجة والاولاد والعائلة السعيدة وحيواناتها الاليفة وكلابها المدللة ••• الخ • لهذا توجهت الادارة الاميركية الى الرأي العام الاميركي بالشكل الذي يتفاعل معه • وبررت فشل سياستها ، داخل الامم المتحدة وخارجها ، بأن ارغمت موينهان على تقديم استقالته بشكل جعله يبدو وكأنه المسؤول الوحيد عن جميع النكسات •

ولقد رافق اعفاء موينهان من منصبه (او اجباره على الاستقالة) حملة عنيفة شنتها عليه الصحافة الاميركية والاوساط المسؤولة في وزارة الخارجية • وتتجاهل هذه الحملة جوهر المسألة المتمثل في ان ما تطلبه اميركا من ممثليها في الامم المتحدة امر صعب ان لم يكن مستحيلا • فهي تريد منه ان يتصرف وكأن العالم متوقف عند الخمسينات ، عندماكانت اميركا تسيطرعلى الامم المتحدة،وان يمرر في المنظمة الدولية سياسة خاطئة ومعرضة للنقد والتجريح ، رغم ميل ميزان القوى داخل المنظمة ضد الولايات المتحدة •

وتتمحور الحملة ضد موينهان على الفكرة القائلة بان نجاح السياسة يتوقف على الرجل الذي يطبقها وطريقته في اداء مهمته • وهي تؤكد على ان ممثلي اميركا في الامم المتحدة ، وخاصة موينهان ، قد استخدموا العصا اكثر من الجزرة ، فأحدثوا خللا في توازن المبدأ الديبلوماسي الاميركي : الجزرة والعصا • ولقد فاتها ان الولايات المتحدة لم تعط لممثليها جزرا ، وانها زودته على العكس بالعديد من العصي لاخضاع شعوب العالم الثالث •

ورغم جميع الانتقادات الموجهةالى موينهان، فقد صرح الرئيس فورد في العاشر من شباط (فبراير) ١٩٧٦ ، بأن خلفه سيتبع « نفس سياسة التحدي الموجهة الى بعض دول العالمين الثالث والرابع ، مسميا الاشياء باسمائها ، اي الجرافة جرافة » (٥) .

واضاف فورد انه لا يوجد في الحقيقة كثيرون مثل موينهان واسلوبه الحماسي الملتهب ، ولكن السياسة الاميركية ستبقى على ما هي عليه . وهنا يخلط فورد بين الغاية والاداة ، فهو يعتبر الغاية جيدة والاداة سيئة ، مع ان سوء الاداة لم يظهر الا بسبب الغاية المنوى تحقيقها . ولو نظرنا الى ماضي سكالي وموينهان ، لوجدنا ان الرجلين كانا من الناجحين والمتميزين في مجال اختصاصهما . وان سقوطهما بدأ عندما حاولا وضع معارفهما وخبراتهما فيخدمة سياسة خاطئة وغاية محكوم عليها بالفشل .

فقبل ان يمثل بلاده في الامم المتحدة في ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ ، كان جون سكالي المستشار الخاص للرئيس نيكسون . ولقد رافقه خلال زياراته الى الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، وكان الى جانبه في معظم مؤتمرات الذروة الاميركية - الاوروبية . ولقد تخرج سكالي من كلية الصحافة في جامعة بوسطن في العام ١٩٤٢ ، وحاز على الدكتوراة الفخرية من عدة جامعات اميركية ، وعمل في صحيفة « بوسطن هيرالد » ، وكان مراسل « الاسوشيتدبرس » في الخارج منذ العام ١٩٤٤ . وفي العام ١٩٦١ اصبح مراسل محطة « اي . بي . سي » في وزارة الخارجية الاميركية . وكان اول اتصال رسمي له مع وزارة الخارجية في العام ١٩٦٢ عندما طلب منه ديبلوماسي سوفياتي خلال ازمة الصواريخ الكوبية ان يوصل الى البيت الابيض اقتراحا سوفياتيا سريا . ولقد لعب دورا فعالا خلال هذه الازمة ، وحصل من جراء ذلك على ثناءات واوسمة متعددة .

اما دانييل باتريك موينهان ، فقد تخرج من جامعة تافت بامتياز ،وحاز على منحة فولبرايت في العام ١٩٥٠ - ١٩٥١ في جامعة لندن للاقتصاد والسياسة ، ثم حصل على الدكتوراة من جامعة فلتشر للحقوق والديبلوماسية في العام ١٩٦١ . كما حصل على شهادات فخرية من جامعات هارفرد و لاسال وستيون هول كوليج وبروفيدانس ، وألف عدة كتب في السياسة والاقتصاد . وحياته العامة مفعمة بالنشاط في مختلف المجالات . فلقد خدم في البحرية الاميركية (١٩٤٤ - ١٩٤٧) ، وفي لجنة الانقاذ الدولية ، وعمل مساعدا لحاكم ولاية نيويورك (١٩٥٥ - ١٩٥٨) ، ومديرا لمشروع الابحاث الحكومية في ولاية نيويورك (١٩٥٩ - ١٩٦١) ، ومساعدا لوزير العمل (١٩٦١ - ١٩٦٥) ، وعضوا في لجنة الامم المتحدة في مفاوضات جنيف (١٩٦٤) ، وعضوا في البعثة الاميركية الى مؤتمر وزراء العمل الاول (التحالف من اجل التقدم) المنعقد في بوغوتا (١٩٦٣) والمؤتمر الثاني المنعقد في ساوباولو في العام نفسه ، وممثلا للولايات المتحدة في المؤتمر الخاص بالاقليات (١٩٦٥)، ومديرا للمركز الموحد للدراسات المدينية في جامعة هارفرد والمؤسسة التكنولوجية في جامعة ماساشوسيتس (١٩٦٦ - ١٩٦٩) ، واستاذا في جامعة هارفرد (١٩٦٩ - ١٩٧٣) ، وسفيرا لبلاده في الهند (١٩٧٣ - ١٩٧٥) .وفي ٢١ ايار (مايو) ١٩٧٥ عينه الرئيس فورد في منصب ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة .

وقد يكون في حديثنا عن سكالي وموينهان بعض الاطالة . ولكننا توخينا ذلك للتأكيد انهما لم يكونا من الفاشلين في العمل قبل وصولهما الى منصب ممثل اميركا في الامم المتحدة . وان فشلهما في هذا المنصب يرجع الى خلل موضوعي وليس الى خلل ذاتي .

ان مهمة ممثل اميركا في الامم المتحدة ، كما تحددها حكومته ، هي العمل تحت اشراف رئيس الجمهورية لاقامة علاقات ديبلوماسية داخل الامم المتحدة ، من خلال الامين العام ومجلس الامن والجمعية العامة ومختلف الاجهزة العامة في الامم المتحدة . وهو مسؤول عن اقامة العلاقات مع الدول الممثلة داخل المنظمة الدولية ، ويساعده في مهمته هذه اربعة سفراء معتمدين لدى الامم المتحدة . كما انه

مسؤول ايضا عن الموظفين المائة والخمسين العاملين في البعثة الاميركية للامم المتحدة .

ولكن اصعب ما يعترض ممثل اميركا في الامم المتحدة ، هو ان حكومته تطالبه بأن يتحدى الرأي العام العالمي بشكل عام ، والعالم الثالث بشكل خاص . وهذا ما حدث لسكالي خلال الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة (ايلول ١٩٧٤ - كانون الثاني ١٩٧٥) ، وما حدث لموينهان خلال الدورة الاخيرة .

عندما دعيت منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مداولات الجمعية العامة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، ودوى صوت فلسطين داخل الامم المتحدة ، وقعت الولايات المتحدة في مأزق نظرا لعدم وجود موقف اميركي محدد ومقنع من مسألة الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل شرعي للشعب الفلسطيني . وكان على اميركا ، بالاضافة الى ذلك ، مجابهة ضغطين متعاكسين : اولهما ضغط الرأي العام العالمي الذي ايد بالاجماع خطوة الجمعية العامة ، اما الثاني فهو ضغط الصهيونية التي وقفت ضد دعوة منظمة التحرير ، وشنت حملة اعلامية مضادة واسعة النطاق في الولايات المتحدة وخارجها . اذا كان من الطبيعي ان يفقد جون سكالي اعصابه ، وان يصب جام سخطه على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، وأن يهاجم المنظمة الدولية بأسرها . ولقد استنكر سكالي في خطابه ما اسماه « بتسلط الغالبية » ، وكان خلال الجلسات منفعلا بتصرف بدون دبلوماسية او حنكة او لباقة . وذكر في خطاب القاه امام الجمعية العامة في السادس من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٤ : « ان قسما كبيرا من الشعب الاميركي مستاء من نزوع الجمعية العامة الى اتخاذ قرارات منحازة وغير قابلة للتنفيذ » . ووجه اللوم الى القرارات « التي تتخذ دون تمييز اكثر الادعاءات تطرفا وانحيازا لجهة واحدة في الخلافات الدولية الخطيرة » . وبالاضافة الى هذا « ففي الجمعية العامة ميل يتزايد حدة نحو تجاهل الاجراءات العادية لصالح الطرف المتمتع بتأييد الغالبية ، واسكات ، بل واقصاء ، ممثلي الدول الاعضاء التي تتبنى سياسة تدينها الغالبية » .

ولكن سكالي نفسه ، كان قد صرح في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، بعد وقف القتال في الشرق الاوسط : « ... من الممكن تصور ، وربما كان من المرجح اننا نشهد بعثا تاريخيا جديدا لتلك المنظمة ، بعثا حاسما لقدرتها على التعامل مع العالم الحقيقي » .

وتدل هذه المواقف المتضاربة على مدى الخلل القائم في قاعدة السياسة الاميركية ، وانعكاس هذا الخلل على الموقف الاميركي من المنظمة الدولية ومن سياسة الدول الاعضاء في هذه المنظمة . فعندما تنجح واشنطن في تمرير قرار ما ، فانها تعتبر المنظمة الدولية وسيلة جيدة لحل المشاكل العالمية . ولكن ما أن تجد نفسها محاصرة داخل المنظمة بسبب سياستها المعادية لدول العالم الثالث حتى تبدأ بمهاجمة المنظمة والتنديد بها . وفي الوقت الذي فقد فيه سكالي اعصابه داخل الامم المتحدة ، كانت الادارة الاميركية تتخبط على غير هدى .ولقد ظهر ذلك آنذاك في التصريحات المتضاربة ، « وتصحيحات » التصريحات ، و « زلات اللسان » حول الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية .

وعندما خلف موينهان سلفه سكالي ،اعتقدت الاوساط السياسية ان اميركا ستتخلص من العزلة التي سجنت نفسها فيها في فترة (١٩٧٤ - ١٩٧٥) ، وان الاوضاع ستتبدل نحو الاحسن مع قدوم رجل قيل عنه انذاك انه دبلوماسي « قدير » و « قوي الحجة » . وما ان بدأت الدورة الثلاثون للجمعية العامة حتىتبدد هذا الوهم ،وبدأ سيل خطب موينهان النارية الرنانة . ولقد فقد هذا الدبلوماسي « القدير » اعصابه عندما صدر قرار يعتبر الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية ، فقال في خطابه امام الجمعية العامة ان هذا القرار عمل مشين ، وان « وبلا كبيرا اصاب العالم» ، وان « العالم اعطى اللاسامية بركة دولية » ، وأن « هذا اليوم عار على البشرية » .

ومع هدوء العاصفة الصهيونية ضد الامم

المتحدة والعالم ، هدأ روع الادارة الاميركية ، فأخذت تبحث عن مخرج ديبلوماسي يمحو اصداء صوت موينهان من اروقة الامم المتحدة. وبدأت الحملة عليه داخل وزارة الخارجية الاميركية ، وأخذت شكل المديح الشخصي . وكثرت تصريحات فورد وكيسنجر حول « تبنيهما » لمواقف موينهان « الصحيحة » ، في الوقت الذي كانا يضغطان فيه على موينهان ليقدم استقالته : وما ان تمت الاستقالة حتى توالت التصريحات الرسمية العلنية حول اسلوبه « الفريد » الذي يمكن القول انه « اقرب الى اسلوب المهرج » ، وحول ضرباته « المتعجرفة » ، الى غير ذلك من الصفات . ووجهت اليه تهمة « الفشل في تفتيت جبهة الدول التي تصوت عادة ضد الولايات المتحدة » (٨) . وهكذا احرقت الادارة الاميركية رجلها لتخفي وراء دخانه حقيقة سياستها الفاشلة .

ولم تحذ الصهيونية حذو الادارة الاميركية، بل تابعت مديح موينهان ، واعتبرته من ابرز ممثلي اميركا في الامم المتحدة ، ووصفته بأنه شخص يمتلك « قوة فكرية مشعة » (٩) .ولقد اكدت صحيفة «معاريف» بعد استقالة موينهان مباشرة ان مدة عمله في الامم المتحدة « كانت اول مرة يسمع فيها في الامم المتحدة صوت نقي وواضح ، سمى الاشياء باسمائها ، وشجب الاكاذيب الراسخة ، ورد الصاع صاعين لمهاجمي الولايات المتحدة » (١٠) . اما حاييم هرتسوغ ، مندوب اسرائيل في الامم المتحدة ، فقد كان ملكيا اكثر من الملك عندما قال في حديث هاتفي اجراه مع الاذاعة الاسرائيلية في ٣/ ٢/ ١٩٧٦ : ان نبأ استقالة موينهان قد صدم الوفد الاسرائيلي . ووصفه بأنه « كان شجاعا وذا مستوى رفيع ، وكانت لديه مواقف ممتازة تجاهنا وتجاه قضيتنا » واضاف بأن اسلوب موينهان الخاص بطرح قضايا جوهرية كان من الممكن ان يوقف تدهور الامم المتحدة .

وتحاول الاوساط الصهيونية في اميركا دفع موينهان وتدعيم موقفه واعداده لمستقبل سياسي . وهناك ما يشير الى احتمال تقدمه لانتخابات مجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك . ولا يستبعد ان ينجح في الانتخابات اذا ما تقدم اليها .

ولقد وقع اختيار الادارة الاميركية على وليام سكرانتون ليخلف موينهان . وتصف الاوساط المسؤولة في الادارة الاميركية سكرانتون بأنه رجل « معتدل » ، « رقيق الكلمة » . ومن المعروف انه قال بعد عودته من مهمة استطلاعية في الشرق الاوسط كلفه بها الرئيس نيكسون في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، بان « على الولايات المتحدة ان تتبع سياسة اكثر اعتدالا في الشرق الاوسط » (١١). ولكن سكرانتون اراد ازالة « تهمة » الاعتدال عن نفسه ، فقال في ١٩ شباط (فبراير) قبل تثبيت تعيينه رسميا (تم التثبيت في ٢٥/ ٢/ ١٩٧٦) وهو في طريقه الى حفلة عشاء اقامتها على شرفه اللجنة الاميركية اليهودية في فيلادلفيا : « انه معجب بالطريقة التي استخدمها موينهان في عمله » وانه « ينبغي ان يقوم شخص ما ويتكلم بجزم من اجل الولايات المتحدة » ، وهاجم الدول التي تسدد ضرباتها الى اميركا ، وقال ان هذه الدول نفسها سوف تنزعج اذا ما قررت الولايات المتحدة ترك الامم المتحدة (١٢) .

ويعتبر سكرانتون شخصية عامة هامة الى حد ما . وهو ينحدر من اسرة غنية وقوية في ولاية بنسلفانيا . تخرج من جامعة ييل في العام ١٩٣٩ ،وحصل على البكالوريوس ، والتحق بسلاح الطيران في العام ١٩٤١ ، وخدم كطيار في طيران النقل خلال الحرب العالمية الثانية . ثم عاد بعد الحرب الى جامعة ييل ، وحصل على شهادة حقوق ومارس مهنة المحاماة . وفي العام ١٩٦٠ انتخب عضوا في مجلس النواب الاميركي . كما انتخب حاكما لولاية بنسلفانيا في العام ١٩٦٢ . وعارض ترشيح باري غولد ووتر لرئاسة الجمهورية في العام ١٩٦٤ . وخاض الانتخابات كمرشح جمهوري لكي يعطي الحزب الجمهوري امكانية الاختيار .

ويصف المراقبون سكرانتون بأنه شخص حيادي ، لطيف ، رقيق الكلمة . ومن المحتمل ان يختلف اسلوب خطبه في الامم المتحدة عن

اسلوب خطب سكالي وموينهان ولكن طريقة الاداء لا تشكل ضمانة لنجاح السياســـــة الاميركية • كما ان الكفاءة التي يتمتع بهـا سكرانتون لا تفوق كفاءة سكالي وموينهان • وليست المسألة على كل حال مسألة كفـاءة شخصية ، ولكنها مسألة خط سياسي فاشل يستقطب عداء العالم ونقمة الشعوب • وكما سقط سكالي وموينهان بسبـــب هـذا الخط السياسي ،فان من المنتظر ان يفشل سكرانتون اذا ما حاول تحدي العالم الثالث واتباع سياسة تتناقض مع طبيعة العصر • ولن يكون سقوط سكرانتون في هذه الحالة دليلا على ضعفـه او نقص كفاءته ، ولكنه سيكون دليلا حسيا جديدا على عقـم السياسة الاميركية النابـع من عقم فكر الطبقات المتربعة على قمـــة الهرم الامبريالي •

سلمى حداد

---

١ –

United Nations, General Assembly, **A/Res.** 3210 (XXIX), 14 Oct. 1974.

٢ – في خطاب له امـام الجمعيـة العامة • نيويورك تايمز ، ٧ كانون الاول ١٩٧٤ •

٣ –

G.A. Resolution 3362 (S-VII) « Development of Int. Economic Co-operation, » Sep. 19, 1975. *The Seventh Special Session of the General Assembly* 1-16 Sept. 1975. Round up & Resolution. United Nations pp. 21-35.

٤ –

G.A. Res. 3375 (XXX) *Invitation to the Palestine Liberation Organization to Participate in the Efforts for Peace in the Middle East*. Nov. 10, 1975; G.A. Res. 3376 (XXX) *Question of Palestine*. Nov. 10, 1975; G.A. Res. 3379 (XXX) *Elimination of All Forms of Racial Discrimination.* Nov. 10, 1975. **Resolutions of** the General **Assembly at its** Thirtieth Regular **Session, 1-16** Sept. 1975. U.N. **Press Section.** Office of Public Information. U.N. New York. Press Release G.A./5438. 19 Dec. 1975. pp. 3-6; 177.

٥ – نيويورك تايمز ، ١٩٧٦/٢/١١ •

٦ –

A/PV. 2400. 10 Nov. 1975. United Nations General Assembly Thirtieth Session P.P. 152-155.

٧ – نيويورك تايمز ، ١٩٧٦/٢/١٢ •

٨ – نيويورك تايمز ، ١٩٧٦/٢/١٥ •

٩ – جويش برس ، ١٩٧٦/٢/٦ •

١٠ – معاريف ، ١٩٧٦/٢/٣ •

١١ – نيويورك تايمز ، ١٩٧٦/٢/١٩ •

١٢ – نيويورك تايمز ، ١٩٧٦/٢/٢٠ •

مراجعـــات

الياهو بيلتسكي ، صهيونية بدون قوسين (تسيونوت ليلو مرخأوت)
(عبري) ، (مركز التربية والتعليم ، شعبة التعليم الحركي ، اسرائيل: ١٩٧٤)

عندما تجد الحركة الصهيونية نفسهـــا مضطرة الى اعداد نشرات ومطبوعات لارشاد الشباب الاسرائيلي وتوعيته الى الصهيونية . وعندما تضطر وزارة التعليم الاسرائيلي الى ادخال مادةادخال مادة الصهيونية في برامج التعليم ، فمعنى ذلك ان الامور ليست على ما يرام من وجهة نظر قادة الحركة الصهيونية الذين هالتهم الاسئلة الحائرة التي اطلقها جيل الشباب مؤخرا ، وعكست روح اليأس والقنوط لدى الجيل بالنسبة لمصداقية الحركة الصهيونية ومصيرها .

من بين المطبوعات التي صدرت بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، كتـــاب « الصهيونية الحقة » ، أو اذا أردنا ترجمته الحرفية « صهيونية بدون قوسين » ، وترجم الاسم بالانجليزية الى « صهيونية زماننا » .

والكتاب ، كما هو واضح من اسم الناشر ، وهو مؤسسة حكومية تتبع وزارة التعليم ، موضوع بايعاز ضمن خطة اشمل لمحاولة تطويق الشباب الاسرائيلي بصفةخاصة وحقنة بجريمة صهيونية لتحويله عنطريق الكفر بالصهيونية.

والهدف من اصدار هذا الكتاب هـــو محاولة تلافي تردي الشباب الاسرائيلي في تيـــار التشكك الذي اكتسح فئات غير قليلة منه بعد ان ظهرت بوادر هذا التشكك في الاحاديث المتناقلة بين فئات مختلفة من الجمهـــور الاسرائيلي . مثل قول احدى طالبات الفصل الاخير من المرحلة الثانوية : «لامي ثلاث اخوات في الخارج ، ومنذ قيام الدولة لم يمت لاحداهن عزيز ، أما نحن ... ؟ »

ويعترف المؤلف في حاشية الكتاب بالدوافع التي ادت الى اصدار هذا الكتاب ، فيقول : « ان الهزة التي انتابتنا في اعقاب حـــرب الغفران دفعت الى اختبار ذاتي متعمق فـــي جميع نواحي حياتنا . فلقد عرضنا انفسنــا في مرآة مقعرة وملؤنا الخوف عـلى مصيرنـا كيهود : نخشى الصعاب الناجمة عن وضــع دولة اسرائيل الجغرافي السياسي ونخشـــى مجموعة القوى المتصدية لكياننا . فما هـــو سر الكيان القومي للشعب اليهودي ، وما هو معنى الصهيونية اليـــوم ؟ وما هي القيـم الاجتماعية والفكرية التي بها أقمنا سيـــادة اسرائيل المتجـــددة ومـــــــا تستوجبـــه للمستقبل ... ؟ »

على هذه الاسئلة وغيرها يحاول المؤلف ان يرد في هذا الكتـــاب ، بعـــد ان ظهرت هـــوة سحيقة اضاءت النور الاحمـــر لدى الاوسـاط الصهيونية ، هوة انعكست بين ما جاء علـى لسان المقاتلين في كتاب « حديث المقاتلين » الذي نشر في اعقاب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وبين ما جاء على لسان الشـــان الاسرائيليين في كتاب « حديث الشباب » الذي صدر في اعقاب حرب تشرين الاول (اكتوبـــر) ١٩٧٣ .

ولكي يصور مدى فظاعة هـــذه الهوة ، اقتبس المؤلف من الكتاب الاول هذه العبارة :

« كانت الحرب بالنسبة لي درسا خارجـا للعادة فيما يسمى بالوعي اليهودي ـ فلاول مرة لم اشعر باسرائيلية الشعب بل بيهوديته ودولة اسرائيل ماثلة معلنة امام يهود العالم كبوابة الحياة والامان لبقاء الامة » .

ومن الكتاب الثاني اقتبس المؤلف هـذه العبارة « شعرت قبل الحرب انه ينبغي علي ان ابقى هنا (في اسرائيل) وظننت ان كل ما ابغي عمله ساعمله هنا في اسرائيل ... لكن الحرب جعلتني ابدأ في التفكير بأنه ما من سبب يجعل ابني يعاني لانه كانت لجـده ميول صهيونية ... فاليهود في نهاية المطاف شعب عادي ، ، وما اهمية القتال من اجـل بقائه ؟ » ...

نعم ، هوة سحيقة بين تفكير المقاتليـن الاسرائيليين بعد حرب حزيران ٦٧ حيث تعملق لديهم الوجه اليهودي وتقزم الوجه الاسرائيلي ، وبدت اسرائيل في نظرهم مركز الاشعاع لكـل يهود العالم ، بينما يتساءل الشباب الاسرائيلي بعد حرب تشرين الاول ٧٣ عن جدوى القتـال من اجل بقاء الشعب اليهودي ، لا بل احطـر من ذلك ، انه يشعر بعقدة الذنب نحو الابنـاء والاحفاد اذا هو اعتنق المبدأ الصهيوني ... فلماذا يجني على الاحفاد ؟

يعترف المؤلف في فصل اخر من الكتاب بأن المجتمع الاسرائيلي يعيش ـ بعد حـــرب تشرين ـ في مناخ روحاني حائر ، « وليـس فقط جيل الشباب » ، ومن هذه العبـارة وسواها تبرز رغبته في انقاذ ما يمكن انقاذه من شرائح المجتمع الاسرائيلي وبفضل شريحة الشباب لانه ذخيرة الحركة الصهيونية فـي حروبها .

ويقارن المؤلف بين مزاج الجمهور الاسرائيلي أمس واليوم ، أمس ، « كنا نسمع صيحـة دعونا نعيش في هذا البلد » اما اليـــوم « فيبدو وكأن حاجزا اقيم فجأة على درب تصاعد الثقة بكياننا ، والشك ينخر نخوس جيل الشباب الذي يصوغ مظهر عالمنا » .

كما يشير المؤلف الى الاسئلة والتساؤلات التي ملأت جو اسرائيل بعد حرب تشرين تشكك في الكيان الاسرائيلي واليهودي على حد سواء ، وتشكك في حقنـا في ارض اسرائيـل وصـدق طريقنا ، وتتساءل عن حروب اسرائيل التـي لا نهاية لها وعن « الملجأ الامين » الذي تحول الى ميدان صراع ... » .

وينتهي الى قناعة بأن هـذه التساؤلات ناجمة عن الخوف على الحياة وعن الخوف على مجرد البقاء . وعن هذا الخوف يحكي حكاية أب له ثلاثة اولاد ، ارسل ليشق طريقا بالجرار اثناء المعارك والقذائف تتساقط من حوله ، وعندما سأله اولاده : وهل خفت ؟ قال : بالطبع خفت ؟ فجاءه التعليق : اذن ، لمـاذا تطوعت للقيام بهذا العمل ؟

يعترف المؤلف بأن « جيل الشباب فـي اسرائيل يعيش في توتر دائم ناجم عمـا يطلبه من نفسه وما يطالب به من اجل بناء الدولة وحمايتها بكل استعداده النفســي والبدني » . ويصف هذا الواقع بأنه « واقع سيء لا مثيل له لدى الشباب في معظم بلاد العالم » .

بعد هذا راح المؤلف يرسم الصورة النفسية للمجتمع الاسرائيلي بعد حرب تشرين محـاولا علاج هذه العلة النفسية وموليا جيل الشباب جل عنايته ، فيعود الى عام ١٨٨٢ عندمـا نشأت حركة بيلو (١) التي اطلقت شعـار « علموا ابناء اليهود القوس » .

فيحاول بذلك تعميم البلاء لمواساة العائلات الثكلى التي فقدت اعزاءها في حروب اسرائيل « التي لا نهاية لها » . ولهذه الغاية اقتبس بعض عبارات وردت في رسالة أحدهم الى احدى الاسر الثكلى :

« تستحوذ علي ، بدون هوادة ، مشكلة الاباء والابناء وما هو دورنا ، كآباء ، في تضحيـة الابناء . انها نفس المشكلة التي تعكسهـا

---

١ ـ حركة بيلو هي حركة رواد الهجرة من روسيا القيصرية الى فلسطين انشئت عام ١٨٨٢ ، وكلمة « بيلو » هي مجموع الحروف الاولى من العبارة العبرية « يا آل يعقوب امضوا ونمضي معا » .

تضحيـة اسحاق (٢) • ويحيرني تكافـؤ الضدين لدينا نحن الابـاء ، اذ نريد الذود باحدى اليدين عن ابنائنـا بينما اليد الثانيـة تقدمهم قربانا • فنحن الذين نربيهم يوميا على التطوع والتضحية ونتوقع منهـم ان يثبتوا جدارتهم – ونحن الذين نربيهم على الصعود الى مذبح القربان • وكيف نصل الى ذلك الشعور ، المسري ولو قليلا ، بأنهـم ضحية ايمان واختيار ، وليس فقط ضحيـة اللامفر ••• »

بعد ذلك ينتقل الكاتب الى تذكير الجمهور الاسرائيلي بان حالته اليوم لا تختلف عن حالة اليهود في العصور الوسطى ، مستشهدا بسؤال طرحه المؤرخ اليهودي س • دوفنوف (٣) في احدى مقالاته :

« هل يمكن العثور ، في تاريخ بني اسرائيل على شيء اشبه بالكوارث التي تحل بنا في عصرنا ؟ » – وبعد مراجعة ، يجد هذا المؤرخ انه في خلال الاربعين سنة الاولى من القرن العشرين مرت باليهود ما لا يقل عن ٦٠٠ واقعة تقتيل وتنكيل •

ويتمنى المؤلف ان يكون سخط وتذمـر جيل الشباب من باب التمرد على الواقـع الاجتماعي ، ولكنه مع ذلك يبدي مخاوفه من مجموعة الاسئلة التي يطرحها الشباب عن « حق » اليهود في ارض اسرائيل وعن لظلم الواقع على عناصر اخرى (يقصد الاهالـي الفلسطينيين العرب) وعن « مصداقيـة الصهيونية » ، ويشير الى ان مثل هـذه الشكوك رافقت الطائفة اليهودية منذ ظهور حركة احباء صهيـون وتأسيس الحركـة الصهيونية قبل اكثر من ٧٨ عاما ، حيث تساءلوا آنئذ : « احقا تعتبر الصهيونية الحل السليم للمسألة اليهودية ؟ » •ويستطرد بان

مثل هذه الاسئلة طرحت ايضا في المجتمـع الاسرائيلي بعد حرب تشرين •

من هنا يبدأ المؤلـف في تهدئـة روع المرتاعين وذلك بأن صور لهـم انهـم ليسـوا الوحيدين على درب المعاناة والالام بل سبقهم كثيرون من اليهود • فيسرد على سبيل المثال فصولا من تاريخ الاستيطان اليهودي فـي فلسطين وكيف كان اليهود اقلية (٢٣٠٠٠ يهودي فقط في عام ١٨٨٣ من مجموع سكان فلسطين وعددهم آنئذ ٤٥٠,٠٠٠) وطبعا يصور المستوطنين اليهود الاوائل ابطـالا ومكافحين حولوا الصحراء الجرداء الى واحة وارفة الظلال الى اخر ما تكرره الدعاية الصهيونية • ثـم يصور « كفاح » المستوطنين الاوائل الذين واجهوا صعابا وعقبات ولكنهم لم يلينوا ولم يتراجعوا بل اتبعوا اسلوب خلق الواقع دون ان ينتظروا ان يؤذن لهم •

ويبث شكواه الى قرائه لان العرب لـم يسلموا « بحق اليهود في فلسطين » بل على العكس ، « تصاعد اعتراضهم على هذا الحق على امتداد الفترة ما بين صدور تصريـح (وعد) بلفور في ٢/١١/١٩١٧ حتى الان » • ثم يشير الى الثورات العربية المسلحة ضد الكيان الصهيوني في فلسطين في اعوام ١٩٢٠ – ١٩٢١ – ١٩٢٩ – ١٩٣٦/٣٩ – ١٩٤٧ – ١٩٥٦ – ١٩٦٨/٧٠ – ١٩٧٣ – ١٩٧٤ •

ويشكو ايضا من انه نتيجة لتصلب عرب فلسطين « انتزع » شرقي الاردن من « ارض اسرائيل » بعد ان كان مشمولا في تعهـد ورد في وعد بلفور •

ويشكو كذلك من ان لجنة بيل البريطانية (٣٧/٧/٧) دعت الى تقسيم فلسطين « مع ان هذا التقسيم معناه ان يقيم اليهود فـي جيتو داخل فلسطين » • ولكـن حتـى هـذا « الحل » رفضه العرب ، كما رفضوا توصية لجنة التحقيق الانجلو /اميركية (٤٦/٤/٣٠) التي اعترضت على اقامة دولة يهودية أو دولة عربية في فلسطين ، كما رفض العرب قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة (٤٧/١١/٢٩) « مع انه خصص لدول اسرائيل مساحة ١٦ الف

---

٢ – عندما هم ابوه ابراهيم بذبحه تنفيذا لما رآه في المنام •

٣ – مؤرخ يهودي من مواليد روسيا • وهو صاحب الرأي القائل بأن سبب بقـاء اليهود في المنفى هو قدرتهم على بنـاء مراكز جديدة بدلا من التي تتهدم •

كيلو متر مربع فقط ، اي نحو نصف مساحة ارض اسرائيل ، ورضي اليهود به ولم يرضى العرب » .

ويستطرد في سرد فصول « معاناة » اليهود الاوائل الذين جاؤوا ليستوطنوا فلسطين مارا بحرب ١٩٤٨ « حيث كان هدف العرب القاء اليهود الى البحر » ، وبعد هذه الحرب تقلصت مساحة اسرائيل الى ٢٠٫٥٠٠ كم ٢ ، اي اقل بـ ٦٥٠٠ كم٢ مما جاء في « وعد تشرشل في اعقاب صدور الكتاب الابيض عام ١٩٢٢ وبعد ان سلخ اجزاء من ارض اسرائيل وضمها الى شرقي الاردن » .

وبعد ذلك لجأ المؤلف الى سرد تحديات العرب وتوعدهم بالكيان الصهيوني ، فاستشهد بتصريح للسيد ياسر عرفات في احدى قواعد التدريب يوم ٧٤/٧/٢٤ : « لرفع علم فلسطين في تل ابيب سواء رضي الاستعمار والولايات المتحدة بذلك ام لم يرضى »

كل هذا طبعا ليصور المستوطنين اليهود القدامى في موقف « المظلومين ـ المضطهدين لكنهم صامدون » لعل « معاناتهم تستدر عطف وربما اعجاب جيل الشباب الذي يجهل هذه السيرة فيتخذ من هؤلاء قدوة له ويشعر بأنه محظوظ ـ اذا قارن وضعه الحالي باوضاع الاجداد الذين مروا بكل هذا العناء » .

ثم يحاول المؤلف ان يبرر الشعور السائد لدى قطاع من الشباب في اسرائيل بأن الحركة الصهيونية اعتدت على حقوق العرب ، فيصور الموضوع على انه «مواجهة بين الحركة الصهيونية والقومية العربية » ، ويقول ان هذه المواجهة « لم تبدأ في حرب يوم الغفران ولا منذ قيام الدولة ، بل منذ اليوم الاول الذي وطأت فيه قدم الطلائعي العبري ارض هذا البلد » .

وبعد ذلك يعرض على قرائه الشبان العقلية العربية ، طبعا ليتهمها بالتطرف او حتى بالشوفونية ، فنقل البنود (ـ ٦ ـ ٩ ـ ١٥ ـ ١٩ ـ ٢١ ـ من الميثاق الفلسطيني الذي اقر في ايار (مايو) ١٩٦٤ وعدل في ٧ ـ ١٠ تموز (يوليو) ١٩٦٨ . بل يذهب الى اضافة « حليف » للعرب في « روحهم العدائية » هذه ويقتبس بعض فقرات من البرنامج العبري الموجه من اذاعة موسكو ويشكو من ان هذه الاذاعة تعرض « مشكلة ارض اسرائيل كحرب تحرير عربية ضد غزو يهودي مسلح يستخدم خرافات ترجع الى الفي سنة كحجة له » .

وبينما يسخر المؤلف من وصف مؤيدي الحق العربي للحجج التي تستند اليها الصهيونية بالخرافات ، يعمد هو الى « بيع » الخرافات لقرائه من جيل الشباب ، فيدعي تفرد الحركة الصهيونية وخاصيتها : « ما من حركة قومية تشبه الصهيونية في اي شعب ، كما انه ما من مسيرة تجميع شتات حدثت في اي شعب من شعوب العالم » .

ويذهب الى تجاهل الواقع الصارخ للشعب الفلسطيني ، فيدعي « في تاريخ الشعوب لا وجود لعبارة « شعب في المنفى » ، بل هناك لاجئون في المنفى ، لاجئون سياسيون وغيرهم » .

ويحار المؤلف ويحير معه جيل الشباب اليهودي الذي يخشى عليه من الضياع ، في تعريف الصهيونية . فتارة ينقل عن بيرنبويم (٤) تفسير الصهيونية في اوائل التسعينات من القرن التاسع عشر : « انها خليط من الفكرة القومية اليهودية وبين استيطان يهود في ارض اسرائيل » . وعن هرتسل : « الصهيونية هي عودة الى اليهودية قبل ان تكون عودة الى بلد اليهود » . وعن دافيد ريمز (٥) : « هذا الاسلوب من السعي لبعث القومي الذي صادفنا ونسميه « صهيونية » ليس الا فرصة تاريخية قد تتحقق وقد لا تتحقق

---

٤ ـ ن. بيرنبويم ، مؤلف يهودي من مواليد فيينا (١٨٦٤) اول من وضع عبارة الصهيونية ، وكان قد عبر عن آراء مشابهة لاراء هرتسل .

٥ ـ دافيد ريمز : زعيم صهيوني من مواليد روسيا (١٨٦٦) هاجر الى فلسطين ١٩١٣ ، كان وزير مواصلات ثم وزير تعليم في حكومة اسرائيل ـ مات سنة ١٩٥٤ .

على ايدينا ـ والبت في ايدي الجيل وفـــي صنيعه » ٠

وفي فصل اخر ينتقل المؤلف ليعدد « الجهود» التي بذلتها الحركة الصهيونية للوصول الــى السلام مع العرب ويعزو اعراض العرب الــى « القومية العربية التي هي قومية عنف لا صلة لها بنوايا السلام والتعايش بين الجيران ، فهي قائمة على القوة ونواياها ابادة شعب » ٠

ثم يعود المؤلف ليعدد الوان « الاضطهاد » التي لقيها اليهود على امتداد تاريخهم راميا الى تصوير الحركة الصهيونية ملاذا وحاميا لليهود من مثل هذه المطاردات ، حتى أنه يحرص على نفي احتمال خلو مجتمع عداء من عداء السامية حتى ولو كان مجتمعـــــا ديمقراطيا ٠

فابتــدأ من عهد قياصرة روسيا واختار فقرة وردت على لسان المدعي العام للكنيســة المقدسة في روسيا القيصرية الى السفيـــر الاميركي في موسكو : « يا صاحب السعادة ! في روسيا ستة ملايين يهودي ، مليونان منهم يجب ان يعتنقوا المسيحية ، ومليونان يجب ان يغادروا البلد ، ومليونان سيقتلون ، وعندها لن تكون مشكلة يهودية في روسيا » ٠

واستشهد بحدث قريب وقع في الولايات المتحدة ٠ بما نشرته بعض الصحف الاميركية بعد حرب تشرين وما نتج عنها من ازمـــة طاقة في الدول الغربية والولايات المتحدة بصفة خاصة ، بأنه « ظهرت شعارات مكتوبة علـى سيارات خاصة وسيارات اجرة تقول : احرقوا اليهود بدلا من الوقود » ، واشار في هـذا الصدد الى عبارة قالها حاييـــم وايزمان : « بلاد العالم تنقسم بالنسبة لليهود الــى نوعين ٠ بلاد يجب ان يخرج منها اليهود ، وبلاد محظور على اليهود دخولها » ٠ وهكذا ، بعد ان اغلق جميع الابواب ، يصل المؤلف الى ما يريد ان يصوره على انه الحل الاخيـــر للمشكلة اليهودية ، الا وهو الصهيونيـــة :

« الصهيونية هي الحرب اليائسة الاخيرة التي يخوضها اليهود من اجل بقائهم اليهودي » ٠

ويسخر الكاتب من الذين اهتزت ثقتهم باسرائيل وبالصهيونية على اثر حرب تشرين، فيرد على احد الذين قرروا النـزوح عـــن اسرائيل ـ وقالوا : « نحن نحزم امتعتنا الى مكان ما ، الى اي مكان اخر ليس فيه واجبات الوطن التي تفترس احلى سني العمر » ، بقوله : « ان هذا بخياله يرى نفسه كالعلاق الطليق الذي يرقى فوق الحدود السياسية ٠٠٠ ولكن خلفية هذا النازح من الناحية الفكرية الايديولوجية المتجذرة في وعيه منـذ صبـــاه بصفته مولودا في اسرائيل ، تؤرقه ، فلا ينام الليل ويشعر بالضيق وبتأنيب الضمير » ٠

وهنا يوجد اللوم والتأنيب الى الجمهـــور الاسرائيلي ككل : « عادات شعب المنفى على امتداد الفي عام ما زالت تنخر في خصائص هذا الشعب الرئيسية ، اذ ان شخصيـــة الشعب العادي القومي المتجذر في وطنه بعصنا وراسخا ، ما زالت معرضة لتنال منها رياح الزمن ، وهذا عامل مشروط بمقدار الخير الذي يقدمه البلد ٠٠٠ » ٠

ان ابرز درس نستخلصه من تصفح هذا الكتاب هو أن اصرار الشعب العربي على حقه وتصاعد نضاله على امتداد السنين من اجل هذا الحق هو صاحب الدور الاول في زعزعـــة ثقة ضحايا الحركة الصهيونية من يهود لعالم في صدق هذه الحركة وفي احتمال بقائها ٠ النضال العربي العنيد هو الذي دفع الشباب الاسرائيلي الى طرح اسئلة التشكك في « حقه على ارض اسرائيل » ، وهو الذي دفع النشء الجديد في اسرائيل الى التفكير في سباب نجـــاة الخالات سارة ورفقه وشوسانا فـــي مونتريال ولوس انجلوس وسيدني من ثكل أعزائهن ، بينما حياة الاسرة هنا ـ في « الملجأ الصهيوني » ـ تطفح بالمآتم والاحزان ٠

صبحي النجار

Publish it Not . . . The MIDDLE EAST Cover-up.
MICHEL ADAMS & CHRISTOPHER MAYHEW (LoNGMAN)

انه لمن حسن الطالع ن ينشر هذا الكتاب ويرى النور ، اذ كان من الممكن ان يختفي ببساطة ، وان يكون في عداد ضحايا عملية « حجب الحقائق » المتعلقة بشؤون الشرق الاوسط ... وهو الموضوع ذاته الذي يدور حوله الكتاب !

مؤلفا الكتاب من ابرز معاضدي القضية العربية المعروفين في بريطانيا ، والفرضية التي يطرحانها هي ان رجال السياسة ، ووسائط الاتصال والاعلام ، والكنائس ، قد عملوا جميعا في بريطانيا بجهد لا يعرف الكلل، على حجب وحظر نشر اية حقائق متصلة بقضية فلسطين . وان الخبرات والتجارب التي كونها المؤلفان خلال اكثر من عشرين عاما من التعاطي المباشر بشؤون الشرق الاوسط ، قد مكنتهما حقا من تقديم دعوى قوية ومدعمة جيدا بالاثباتات والوثائق .

كان مايكل آدامز مراسلا للجارديان في الشرق الاوسط من ١٩٥٦ حتى ١٩٦٢ ، ولقد الف العديد من الكتب حول السياسات الشرق اوسطية ، ويتولى الآن تحرير مجلة « ميدل ايست انترناشينال » وهو مدير وعضو مؤسس « لمجلس تنمية التفاهم العربي - البريطاني» - (كابو) ، الذي يمثل بالتأكيد التجمع البريطاني الرئيسي المناصر للقضية العربية، والمدافع عنها .

اما عن كريستوفر مايهيو الذي اصبح عضوا في مجلس العموم البريطاني في العام ١٩٤٥ ، ثم وزيرا للبحرية في الحكومة العمالية عام ١٩٦٤ ، فانه احد ابرز رجال السياسة في بريطانيا في الدأب والاصرار المتواصلين على دعم العرب وقضاياهم . (ولقد استقال من حزب العمال في العام ١٩٧٤ وانضم الى حزب الاحرار) .

يقوم هذان الكاتبان المتمكنان معا ، بعملية مسح واستكشاف للدوائر الرئيسية للرأي العام البريطاني ، ليسجلا الطريقة الباعثة على الاسف التي استجاب بها البريطانيون ، في الجانب الاعظم منهم ، للنزاع العربي - الاسرائيلي . وان قراءة هذه « القصة » وتتبع فصولها امر يبعث على الحزن ، على الرغم من بعض التقدم الذي امكن تحقيقه في ميدان كسب التعاطف مع القضية العربية ، بعد حرب اكتوبر على وجه الخصوص .

كان الاعتقاد السائد على نطاق واسع في بريطانيا ، قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ وحتى الآن ، الى مدى معين ، هو بعدم وجود قضية عربية ، وبأن اسرائيل على حق دائما . ولم يكن هذا موقف ورأي قليلي الدراية والاطلاع فقط ، بل كان ايضا وفي كثير من الاحيان رأي وموقف اولئك الذين يفرض عليهم واجبهم ان يكونوا افضل معرفة واكثر الماما بالمسألة . ففي ميدان الحياة السياسية على سبيل المثال ، كانت الصهيونية عنصرا عظيم النفوذ والتأثير فيحزب العمال البريطاني منذ ثلاثينات هذا القرن . وينقل السيد مايهيو ، في الفصل الذي يعقده لهذه العلاقة الغرامية الطويلة والقذرة بين حزب العمال والصهيونية ، القرار السيء الصيت الذي تبناه مؤتمر الحزب في العام ١٩٤٤ ، والذي اعلن فيما يخص فلسطين: « ينبغي السعي لتشجيع العرب على الخروج (من فلسطين) ، ولتشجيع اليهود على الدخول » .

على ان هناك واقعة اخرى يقدمها السيد مايهيو ، ربما كانت اقل شهرة ، وهي ما حدث في العام ١٩٧٣ عندما قام هارولد ويلسون بعزل الناطق والنائب العمالي الكفوء اندرو فولدز ، لا لشيء الا لانه انتقد النواب اليهود في مجلس العموم البريطاني بازدواجية الولاء واصبح السيد فولدز - مثل السيد مايهيو نفسه - عضوا قياديا في « مجلس الشرق الاوسط في حزب العمال » ، وهو تجمع انشيء لمناهضة « اللوبي » الصهيوني في حزب

العمل البريطاني ، وان كان عدد انصاره اقل بكثير من عدد النواب « العماليين » المساندين للصهيونية ٠

على ان الجــزء المركزي من كتاب ادامـز ومايهيو ، مكرس لسجل الصحافة والاذاعـة والتلفزة في بريطانيـا ، بخصوص قضيــة فلسطين ، وهو سجل اسود ٠ ومما يبعث على الحزن والاسى ان البي' بي' سي ، علـى الرغم من تغطيتها الموضوعية في خدماتهـا العالمية (الخارجية) ، كانت بعيدة تماما عن الامانة والنزاهة في تقديم الاخبار والتعليقات بشأن الشرق الاوسط ، في برامجها المحليـة (الداخلية) سواء في الاذاعة او على شاشـة التلفزة ٠

وان النموذج الاسوأ الذي يؤكد عليه ادامـز ومايهيو ، هــو مايكل الكنز وتقاريره مـن القدس ٠ فهو على الدوام منحاز الى جانـب سياسة الحكومة الاسرائيلية ، ويغفل تمامـا النواحي السلبية في الحياة الاسرائيلية وفـي المناطق المحتلة ٠ ويوضح كريستوفر مايهيـو ان الكنز هو مؤلف كتاب « مطروق بضراوة » الذي يتغاضى عن الارهابية اليهودية ، مؤكدا ان الكنز صهيوني من الطراز المتطرف ٠ وعلى الرغم من الانتقادات التـي وجهها ادامــز ومايهيو وغيرهما، فان البي' بي' سي ترفض بعناد اتخاذ اي اجراء ضد الكنز ، بل ورفضت ان تجري استقصاء محايدا في الموضوع ٠

ويقدم ادامز ومايهيو امثلة عديدة اخــرى على التحيز والمحاباة والتحامل ، من واقـع كتابات جميع الصحف سواء اليومية او صحف الاحد او المجلات الاسبوعية بلا استثناء ،وان كانت الصحافة المحافظة بينها اسوأ علــى وجه العموم ٠ على ان ناشري الكتب ليسوا احسن من سواهم ، حيث النفوذ الصهيونـي شديد التأثير في هذا المجــال كما في سائـر مجالات الكلمة والتعبير ، ولهذا فان مـــن العسير للغاية ان تجد « مادة » مساندة للعرب او معادية للصهيونيين ، طريقها الى النشر ٠

وفي فصل بعنــوان « اخفـاق الكنائس » ، يعاين ادامز قطاعا من المؤسسة البريطانيـة قلما لقي اهتماما فيما يتعلق بالموقف مـن الشرق الاوســط ٠ ومع ذلك فان مسؤوليـة الكنائس حيـال الارض المقدسة ، وخاصـــة بشأن القدس ، هي مسؤولية كبيرة ، بما لا يسمح بأي عذر لاخفاق قادة الكنائس في ان يعلنوا معارضتهم للاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية ، وقمع الفلسطينيين ٠

وينتهي الكتاب بفصل يتنــاول بالدرس الموقف الناشيء عن حرب اكتوبر ،والاحتمالات الراهنة لتسوية سلمية ٠ ويقدم الكتاب وجهة نظر واضحة ومعتدلة ٠ وربما كان المؤلفـان يفرطان في التركيز على مدى ما خلقته الحرب من توازن في القــوى ، والاحـداث الاخيرة ، وخاصة اتفاقية سيناء ، ربما تجاوزت الكتاب الى حد معين ، الامر الذي قد يدفع المؤلفيـن الى التخفيــف من تفاؤلهما بقوة العـرب الجديدة وانعكاساتها على صورتهم المتغيرة في الغرب ٠ لكن المؤلفين ، كما يتبدى من هـذا الكتاب الممتاز بكل جلاء ، محاربان متمرسان في فنون الحرب الاعلامية ٠ وهذه المعركة لـم تنته ابدا بأي شكل من الاشكال ٠

روجر هاردي

WELT DER KUNST - ISMAIL SCHAMMUT

اسماعيل شموط ، عالم الفنون

(دار هنشل للنشر — برلين — جمهورية المانيا الديمقراطية)

في حوالي الخمسين صفحة ، صدر في المانيا الشرقية في عام ١٩٧٥ المنصرم كتاب عن الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط ، باللغة الالمانية ، ومن المفروض ان تصدر ترجمة له باللغة العربية في شهر ايار (مايو) الحالي ، وترجمة اخرى باللغة الانجليزية ، في اواخر عام ١٩٧٦ الحالي .

والكتاب حلقة في سلسلة كتب بعنوان «عالم الفنون » ، صدر منها حتى الآن مئات الكتب تعرف بفناني هذا العصر ، غير ان هذا الكتاب هو اول معالجة ضمن هذه السلسلة لفنان من خارج اوروبا .

مؤلفة الكتاب الدكتورة كارين روردانتز ، وهي استاذة فنون الشرق ، بجامعة هاليه في المانيا الديمقراطية . ويضم الكتاب نصا تحليليا عن فن اسماعيل شموط وارتباطه بالقضية الفلسطينية (١٢ صفحة) مع سيرة الفنان ، ثم سبع عشرة لوحة مع شرح عن كل واحدة (١٢ بالالوان و ٥ ابيض واسود).

في النص الذي تصدى لتحليل فن اسماعيل شموط وتعريف القارىء الاوروبي به ، يبدو احيانا وكأن النص عرض لمعلومات اساسية واولية عن القضية الفلسطينية اكثر مما هو تحليل لفن اسماعيل شموط ، وهذا ينطبق احيانا بصورة كاملة على بعض فقرات النص، ولعل هذا التداخل يرضي الفنان اكثر مما يضيره ، فتداخل فن اسماعيل شموط بالقضية الفلسطينية سواء في ودائعه الاولية ، او في تطوره ونموه ، كان عملية مستمرة بوعي وبلا وعي ، لم يستطع الفنان التمرد على استمراريتها حتى عندما جرب ذلك ، كما يشير الكتاب عندما يتحدث عن لوحات الناظر الطبيعية ، القليلة اصلا في انتاج اسماعيل شموط .

اهم ما في النص السياسي الفني للكتاب ، انه يقدم للقارىء الاوروبي معلومات اساسية عن القضية الفلسطينية في مراحلها الاولية ، التي غالبا ما تعتم عليها اجهزة الاعلام الاوروبية ، او لا تعني بها كثيرا حتى في الدول الصديقة ، وهي فترة النصف الاول من القرن العشرين .

ومع الاختصار الشديد لهذه المعلومات (بضع صفحات وبضعة سطور) فانها تنبه القارىء الى ان مشروع انشاء دولة اسرائيل عملية غزو استيطاني استعماري تم بمساعدة بريطانيا . كما ان النص هو من النصوص القليلة في اوروبا الشرقية (على تواضعه) التي لا تتحدث عن قرار التقسيم « كحل ديمقراطي » للمشكلة ، بل كحلقة من مشروع المؤامرة .

هذا عن القيمة السياسية للنص ، اما في الناحية الفنية فان الكاتبة ركزت على ما يبدو على موضوع فن اسماعيل شموط اكثر من تركيزها على الاسلوب ، ويبدو ذلك عن قصد وتعمد ، ومع ان الكاتبة تتحدث عن تأثر شموط ببعض فناني عصر النهضة (خاصة بوتشلي) ثم برامبرانت وغويا وفان كوخ ، فانها تلاحظ انه في الوقت الذي كان فيه معظم الفنانين العرب يغرقون في التأثر الكامل باساليب الفن الاوروبي المعاصر ، كان اسماعيل شموط ، بوعي احيانا وبلا وعي في معظم الاحيان ، لا يهتم باختيار وتحديد اسلوبه الا بقدر ما كان ذلك الاختيار يخدم همه الاول ، اي التعبير عن آلام شعبه .

وتعطي الكاتبة اهمية خاصة لمعرض شموط الاول في غزة عام ١٩٥٣ ، فنرى ان الفنان قد اكتشف في ذلك المعرض الدور التحريضي للفن، ثم قدرة الفن على ان يكون تعبيرا صادقا عن احاسيس الناس ، خارج اطار المثقفين

الذين هم عادة جمهور الفن التشكيلي فيمعظم البلاد ٠

واذا كان قصر النص لم يسمح للكاتبة بالتوسع في تقديم دراسة مفصلة ومحققة لتطور الاسلوب عند اسماعيل شموط ، فيبدو ان ذلك لم يكن همها من الاساس ، ويبقى الكتاب في هذا المجال محاولة اولى ، لا بد من ان يقوم نقاد عرب متابعتها حول الفنان الذي ولد فنه مع انفجار قضية فلسطين عام ١٩٤٨ ، وظل ينمو معها حتى اليوم ٠ فالكاتبة الالمانية قدمت تعريفا بفن شموط ، اكثر مما قدمت تحليلا له ، وذلك يبدو حتى في خلو نصها من التعابير النقدية الدقيقة التي لا يخلو منها تحليل فني ٠

على ان ما يلفت النظر في هذا المجال بالذات هو ان الكاتبة الالمانية قد اشارت اكثر من مرة ، وبتركيز واضح ، الى اثر المحرمات الدينية حول التشخيص الفني ، على فن اسماعيل شموط ٠ وهذه نقطة مبالغ فيها ٠

فاذا كان لهذه المسألة التاريخية اعمق الاثر على تطور الفن العربي في الماضي السحيق ، فليست المسألة بهذه الاهمية بالنسبة لفن شموط بالذات ، والدليل على ذلك ان شموط عندما تفتح على الفن ، لم يكن الرسم قد نما وترعرع في كل من مصر والعراق ولبنان ، بل كانت له في هذه البلاد اكاديميات ومعاهد فنية تتولى تدريسه ،بدليل ان العلاقة الجدية الاولى لشموط بفن الرسم كانت من خلال كلية الفنون الجميلة في القاهرة ٠

طبعا ليس من شك في ان لمشكلة المحرمات الدينية اثرا حضاريا عاما على تطور فن الرسم العربي ، تأثر به كل رسام ، غير ان ذلك يبقى مشكلة عامة ، لعل الفنانين المبكرين تأثروا بها اكثر من فناني النصف الثاني من القرن العشرين عندنا ، وشموط ملهم ٠

ا ٠ س

رسالتان عن : السينما وفلسطين

[١]

مدخل الى السينما الصهيونية

السينما الصهيونية قبل انشاء اسرائيل

كان هدف الحركة الصهيونية قبل انشاء اسرائيل اثبات ان لليهود حقا تاريخيا في فلسطين ، ودعوة يهود العالم للهجرة اليها حتى يستقروا فيها ، ويتم انقاذهم من الشتات ٠

وقد استمر هذا الهدف بعد انشاء اسرائيل ولكن التعبير عنه اختلف باختلاف الظروف فاسرائيل اصبحت موجودة بالفعل ، وعلى اليهودي ان يلبي النداء ليؤكد وجودها ، وليس للمساهمة في بعث هذا الوجود ٠

كانت البداية في هوليود مدينة السينما الامريكية الشهيرة ، او « مصنع الاحلام » كما عرفت في العالم كله ٠ وكان من بين هذه الاحلام ، « العودة الى ارض الميعاد » وليس من الغريب ان تكون عودة اليهود الى ما تطلق عليه الصهيونية « ارض الميعاد » حلما من احلام مصنع الاحلام ٠ ففي هوليود سبع شركات كبرى منذالعشرينات هي متروجولديون ماير وكولومبيا ووارنر وباراموت وفوكس ويونيفرسال ويونيتد ارتست ، وكل مؤسسي هذه الشركات بغير استثناء من اليهود ٠

ان متروجولديون ماير لصاحبيهما لويس ماير وسام جولديون كانت تسمى ماير جالسي ميشيوشي ، وعندما غير جولديون اسمه وهو في الاصل جولد فيتش احتفظ بالحروف الاولى الاصلية لاسم شركته ٠ ووليم فوكس مؤسس شركة فوكس هو في الاصل وليم فريدمان ٠ وبينما غير جولدوفيتش وفريدمان اسميهما احتفظ الباقين باسمائهم وهم هاري كوهين مؤسس كولومبيا ، وجاك وارنر مؤسس وارنر وادولف زوكور مؤسس بارامونت ، وكارل لايملي مؤسس يونيفرسال ، وشارلي شابلن احد مؤسسي يونيتد ارتست وهو الوحيد من بينهم الذي ظلت اليهودية دينه ، ولم تصبح الصهيونية عقيدته ٠

ونتيجة ملكية اليهود لكل الشركات الكبرى في هوليود ، ازداد عدد اليهود في صناعة السينما الامريكية بعد تركزها في هذه المدينة منذ اوائل القرن ، ومن ثم كانت ولا تزال قلعة من قلاع الصهيونية على صعيد السينما ، كما تعتبر نيويورك على صعيد المال والاعمال ٠ وليس هذا لمجرد كونهم يهودا ، ولكن لانهم اساسا من اليهود الامبرياليين او المدعمين من اليهود الامبرياليين امثال روتشيلد ٠ وهم اصحاب المصلحة الحقيقية في انشاء اسرائيل ٠

اننا نعرف منهم بول نيومان وبربارا سنرايسند وداستين هوفمان وكيرك دوجلاس وودي آلان وغيرهم من النجوم العالميين ٠ ولكننا لا نعرف اولئك الذين غيروا اسمائهم مثل سام جولدوين ووليم فوكس ٠ ومنهم على سبيل المثال بول موني واسمه الاصلي موني فايسنفرونيد ، وجون جارفيلد واسمه الاصلي جوليوس جارفينكل ، وادوارد روبنسون واسمه الاصلي ايما نويل جولد نبرج ، وال جولسون واسمه الاصلي اسليا يونيلسون وتوني كيرتس واسمه الاصلي برنارد شفارتز ، وملفين دوجلاس واسمه الاصلي ملفين هيلسبرج ،

وجودي هوليداي واسمها الاصلي جوديت توفيم ولورين باكال واسمها الاصلي بيتي بريسكي ٠ وهذا التغيير في الاسماء بقصد اخفاء الديانة اليهودية هو نتيجة لاضطهاد اليهود في اوروبا وامريكا والغرب عامة ٠ الامر الذي لم يحدث في البلاد العربية ، ولا في الشرق عامة حيث لم يضطهد اليهود ، ولم تحدث لهم اية مشاكل بسبب ديانتهم الا بعد انشاء اسرائيل وشبهة الجنسية المزدوجة التي اصبحت تطارد كل يهود العالم ٠

وللصهيونية في هوليود تنظيم رسمي هو قسم السينما في جمعية النداء اليهودي المتحد الذي يرأسه المنتج دافيد سلزنيك ٠ ويروي عند تأسيس هذا القسم عام ١٩٤٧/ ان سلزنيك رفض الانضمام اليه قائلا انه سينمائي امريكي وليس يهوديا في الدرجة الاولى ٠ ولكن بن هشت الكاتب السينمائي المعروف واحد مؤسسي القسم ، اتفق معه على ان يتحدث الى عدد من اصدقائه ويسألهم من يكون ، فاذا قال واحد منهم فقط انه سينمائي امريكي سوف ينزل عند رغبته ، اما اذا قالوا جميعا انه يهودي فلا مفر من قبول رئاسة القسم ٠ وتحدث سلزنيك وكانت الاجابة التي جعلته يوافق على الفور ٠

وهناك نوعان من الافلام الصهيونية في هوليود قبل انشاء اسرائيل ٠ النوع الاول الافلام المسماة دينية ، والمأخوذة عن التوراة مثل « جوديت » اخراج دافيد وارك جريفث عام ١٩١٣ و « الوصايا العشر » اخراج سيسيل دي ميل عام ١٩٢٣ وكلاهما من كبار المخرجين العنصريين الرجعيين في تاريخ السينما الامريكية والنوع الثاني ، الافلام التي تناولت الاضطهاد النازي - لليهود قبل واثناء الحرب العالمية الثانية مثل « الوعد الكبير » اخراج جوزيف ليتيزو و « بيت ابي » اخراج هربرت كلين و « الارض » اخراج هملر اداماه في الثلاثينات ٠

وبينما يعتمد النوع الاول على اثبات الحق التاريخي لليهود في فلسطين من خلال التوراة ، يعتمد النوع الثاني على اثبات هذا الحق بعد اضطهاد اليهود على ايدي النازيين ٠وهنا التناقض الكبير الذي تقع فيه هذه الافلام بالنسبة لكل من له عقل يفكر بعيدا عن الاساطير ٠ والدعاية الضاغطة ٠ ففي التوراة لا يوجد ما يشير الى ضرورة انشاء دولة تحمي مصالح الامبريالية الامريكية في النصف الثاني من القرن العشرين ، واضطهاد النازي لليهود لا يعني اضطهاد اليهود للعرب ، وطرد شعب فلسطين والاستيلاء على وطنه ٠

وتذكر مراجع السينما الاسرائيلية دائما ان اباء السينما الاسرائيلية هم ناثان اكسلرود ، وباروخ اجداتي ، ويعقوب بن دوف ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين صنعوا الافلام الصهيونية في فلسطين في العشرينات ، ولم تكن اسرائيل قد وجدت بعد حتى يصبحوا اباء السينما الاسرائيلية ولكن الدعاية الصهيونية تقوم اساسا على تجاهل هذه الحقيقة ، وعندما يأتي ذكر الحرب الاولى بين العرب واسرائيل عام ١٩٤٨ يطلقون عليها حرب الاستقلال ضد الاستعمار ٠

اخرج ناثان اكسلرود بضعة افلام تسجيلية في العشرينات ، ولكن اهم افلامه كان « اودد » عام ١٩٣٢ وهو فيلم روائي طويل عن كفاح الشباب اليهودي في المزارع الجماعية ٠ اما يعقوب بن دوف فقد اخرج عام ١٩١٢ فيلم « حياة اليهود في ارض الميعاد » و « الفرقة اليهودية » عام ١٩٢٢ واهم المخرجين الثلاثة هو بلا شك باروخ اجداتي ، لانه مخرج اول فيلم ناطق باللغة العبرية في تاريخ السينما وهو فيلم « هذه ارضي » عام ١٩٣٢ ٠

وفي بولندا ، اخرج الكسندر فورد فيلم « صابرة » عام ١٩٣٣ ، وفيه تناول هجرة اليهود الى فلسطين باعتبارها الارض الموعودة ، والحلم الذي راودهم منذ اكثر من الفي عام ٠ وقد هاجر فورد الى اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ واخرج هناك عدة افلام ٠

السينما الصهيونية بعد انشاء اسرائيل

كان هدف الدعاية الصهيونية قبل انشاء اسرائيل ، اثبات ان لليهود حقا تاريخيا في فلسطين ، ودعوة يهود العالم للهجرة اليها ٠

وكان ذلك هو هدف السينما الصهيونية في هذه المرحلة بالتالي ، اما بعد انشاء اسرائيل فقد اضيف الى هذا الهدف دون الغائه هدف ثان ، ان اسرائيل هي منارة الحضارة في عالم متخلف هو العالم العربي ، وان العرب المعاصرين امتداد للالمان النازيين في عدائهم للسامية .

ومن هوليود خرج الفيلم الاول ، وهو الفيلم التسجيلي « الرواد » الذي انتجه واخرجه باروخ دينار عام ١٩٤٩ ، وعرض في ستة الاف ومائتين من دور العرض بالولايات المتحدة في وقت واحد ، ورشح للفوز بجائزة الاكاديمية الامريكية للعلوم والفنون السينمائية المعروفة باسم الاوسكار في نفس العام . وقد انتج باروخ دينار واخرج بعد ذلك العديد من الافلام التسجيلية التي وزعتها شركات هوليود الكبرى ، ثم هاجر الى اسرائيل عام ١٩٦٠ .

ومن لندن اخرج الفيلم الثاني عام ١٩٤٩ ايضا ، وهو الفيلم الروائي الطويل « التل ٢٤ لا يرد » اخراج ثورولد ديكنسون وتمثيل حايا هراريت ويعتبر الوجه الروائي لفيلم « الرواد » حيث تناول كلا الفيلمين هزيمة العرب في حرب ١٩٤٨ وانشاء اسرائيل حلم الاجداد الذي تحقق ، وانقذ اليهود من العذاب والاضطهاد .

وفي الخمسينات عادت هوليود مرة اخرى الى الافلام الصهيونية المسماة دينية والمستمدة من التوراة . فاخرج سيسيل دي ميل « الوصايا العشر » مرة ثانية ناطقا ـ وبالالوان في انتاج ضخم عام ١٩٥٦ بعد ان اخرج نفس الموضوع بنفس الاسم صامتا بالابيض والاسود عام ١٩٢٣ . واخرج ويلم وايلز « بن حور » عام ١٩٥٩ ـ ومن ناحية اخرى اخرج جورج ستيفنز « مذكرات آن فرانك »عن اضطهاد اليهود ايام النازية ، واسرائيل باعتبارها النتيجة المنطقية لهذا الاضطهاد .

وهكذا ظلت السينما الصهيونية تدور في فلك التوراة واضطهاد النازي لليهود دون ان تتناول الموضوع المعاصر الذي كان من الممكن ان تدور حوله افلامها وهو حرب ١٩٥٦ في مصر بعد تأميم قناة السويس . فلم يكن هذا الموضوع يحقق ما تهدف اليه السينما الصهيونية نظرا لوقوف العالم كله الى جانب مصر عام / ١٩٥٦ .

ومع بداية الاعداد لحرب ١٩٦٧ بدأت السينما الصهيونية تنشط نشاطا ملحوظا ، وبعد نجاح اسرائيل في تحقيق اهدافها من تلك الحرب وصل هذا النشاط الى ذروته . فقد بدت مصر هي المعتدية بغض النظر عن صاحب الرصاصة الاولى ، واستطاع المنتصرون ان يفرضوا وجهة نظرهم في عالم لا يعترف بغير القوة .

وكما هو الحال في الخمسينات جاءت اهم الافلام الصهيونية في الستينات قبل حرب ١٩٦٧ من هوليود . وسوف نتناول هنا ستة افلام هي « الخروج » ، « جوديت » و « الظل العملاق » و « راشيل » ثم (التوراة) ومن الملفت للنظر ان « وصايا » دي ميل الثاني «والتوراة» صورا في مصر ولم تنتبه السلطات الى اهدافها السياسية .

اما « الخروج » الذي اخرجه اوتو بريمنجر وكتبه دالتون تريمبو عن رواية ليون اوريس ومثله بول نيومان مع ايفا ماري عام / ١٩٦٠ ، ففيه يعبر بريمنجر بدقة عن اهداف الحركة الصهيونية في هذه المرحلة . فهو يفترض الحق التاريخي لليهود في فلسطين كحقيقة غير مطروحة للنقاش ، ويفترض ايضا ان واجب كل يهودي الهجرة الى اسرائيل كحقيقة ثانية. ثم يوضح من خلال حرب ١٩٤٨ ان ـ اسرائيل هي ملاذ ضحايا النازية من اليهود ، وان يهودها هم رسل الحضارة الذين انتصروا على العرب المتخلفين في تلك الحرب .

وفي « جوديت » اخراج دانييل مان عام١٩٦٤ وتأليف لورانس داريل وتمثيل صوفيا لورين وبيتر فينيش وجاك هوكنز ، يتم التركيز على فكرة ان العرب المعاصرين امتدادا للالمان النازيين في عدائهم للسامية . وذلك من خلال قصة يهودية نمساوية تذهب الى اسرائيل لمعاونة السلطات في البحث عن زوجها الالماني النازي الذي يعيش في احدى الدول العربية . واثناء المغامرة المثيرة تعود الى الماضي ، ولراها في معسكرات الاعتقال النازية .

وفي « الظل العملاق » اخراج ملفيل شافلسون عام ١٩٦٥ ، وهو المخرج الوحيد في العالم الذي اصدر كتابا بعنوان « كيف تصنع فيلما يهوديا » نرى من خلال مجموعة كبيرة من اشهر نجوم هوليود مثل كيرك دوكلاس ويول براينر وجون واين وفرانك سيناترا كيف يعتبر الكفاح ضد العرب امتدادا للكفاح ضد النازيين ، والرباط الوثيق بين الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل ٠ اذ نرى ضابطا امريكيا يهوديا اشترك في الحرب العالمية الثانية ، وبعد نهاية الحرب يشترك في حرب ١٩٤٨ ضد العرب حيث يلقي حتفه ٠

وقبل حرب ١٩٦٧ مباشرة ، وفي عام ١٩٦٦ ، انتجت هوليود « التوراة » اخراج جون هيوستون ، و « راشيل » اخراج بول نيومان حيث يثبت الاول الحق التاريخي المزعوم لليهود في فلسطين ، ويدعو الثاني الى هجرة اليهود اليها ٠ وكان اول افلام صاحبه كمخرج ، وقامت بالدور الاول فيه وهو دور راشيل ، زوجته جوان وود وارد ٠

واثناء حرب ١٩٦٧ أقام جاك وارنو حفلا ضخما لجمع التبرعات لاسرائيل افتتحه بمبلغ ١٥٠ ألف دولار ، وتلاه هارب البرت ٢٥٠ ألف دولار وسام جولدوين ٥٠ الف دولار وليو فاسرمان ٥٠ الف دولار ، وفرانك سيناترا ٢٥ الف دولارا وبرت لانكستر ١٠ الف دولار وسارت المظاهرات فينيويورك يقودها جيري لويسوغيره من السينمائيين الامريكيين اليهود الموالين للصهيونية ٠ وكان جمع التبرعات يجري تحت شعار « ادفع دولارا تقتل عربيا » ٠ وقد بلغ قيمة ما تبرعت به اليزابيث تايلور خلال عامين حوالي ٢٥٠ الف دولارا ، وعندما فتحت وصية جيف شندلر قرأ محاميه انه اوصى بمليونين من الدولارات لاسرائيل ٠

وبعد حرب ١٩٦٧ ، انشىء في هوليود صندوق طوارىء لدعم اسرائيل ، وأسس الممثل ايدي كانتور فرعا لجمعية «بلي بريث » الصهيونية٠ وعندما جاء موعد مهرجان موسكو الخامس في يوليو ، كان من بين المدعوين اليزابيث تايلور وزوجها ريتشارد بيرتون ، وتوني كيرتس ، ولكنهم اصدروا بيانا اعلنوا فيه مقاطعة المهرجان لوقوف موسكو مع العرب ٠

وبينما اضافت الحركة الصهيونية الى اهدافها بعد حرب ١٩٦٧ ، أن اسرائيل تحارب من اجل السلام في محاولة للاحتفاظ بالارض الجديدة التي احتلتها ،وانها تدافع عن المعسكر الغربي فيمنطقة اصبحت تخضع لنفوذ المعسكر الشرقي ، اضاف امبرياليو هوليود الصهاينة الى اهدافهم الى جانب الدعم المالي لاسرائيل، وانتاج الافلام الصهيونية ، مساعدة الانتاج السينمائي في اسرائيل والانتاج المشترك وتصوير الافلام على ارضها ، وشراء الافلام الاسرائيلية وابراز نجومها ٠

واهم الافلام الصهيونية التي تناولت حرب ١٩٦٧ الفيلم الامريكي « الحرب من اجل السلام » اخراج جول داسان عام ٩٦٨ ، عن سيناريو أروين شو ، وهو فيلم تسجيلي طويل يعبر عن اهداف الحركة الصهيونية بوضوح ، ويدين الثورة الفلسطينية ، ويعتبرها حركة ارهابية ٠ والفيلم الايطالي « معركة سيناء » اخراج مورتيزيو لوتشيدي عام ٩٦٨ ، الذي يمجد الجيش الاسرائيلي من خلال قصة ثمانية جنود اسرائيليين يحاصرون في سيناء ، وبعد ان يدمر المصريون مدرعاتهم يتوهون في الصحراء ٠ وبينما هم على حافة الموت من الجوع والعطش يتمكن احدهم من اصلاح جهاز الاتصال ، ومنه يعرفون ان قواتهم قد انتصرت ٠ ولا تلبث هذه القوات ان تلحق بهم وتنقذهم ٠

وفي عام ٩٦٩ ، انتج الفيلم البريطاني « انها ارضه » اخراج جيمس كوللر وهو فيلم تسجيلي يؤكد حق اسرائيل في الاراضي التي احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ والفيلم الفرنسي « حائط القدس » اخراج فردريك روسيت ، وهو فيلم تسجيلي ايضا يحقق نفس الهدف ٠ وفيه نرى مجرم الحرب العريق موشي دايان يصلي امام حائط المبكى ، ويدعو الى السلام ٠

ومن الافلام التسجيلية الصهيونية الطويلة الفيلم الفرنسي « ارثر روبنشتين » اخراج فرسلوا رايشنباخ عام ١٩٧٠ ٠ ويعتبر هذا

الفيلم من اكثر الافلام الصهيونية نجاحا في التعبير عن اهداف الحركة الصهيونية بعد حرب ١٩٦٧ . فموضوعه هو عازف البيانو اليهودي العالمي . ويبدأ الفيلم بالحديث عن روبنشتين والموسيقى والبيانو حديثا يمتزج باروع معزوفات الفنان ، وفجأة نرى روبنشتين في القدس المحتلة يسير امام حائط المبكى ويقول « انني فخور بوجودي هنا . ان الاف من ارواح اجدادي كانت تتطلع الى هذه اللحظة، وكم كنت اتمنى ان يشاهد اقربائي الذين اغتالتهم النازية الالمانية هذا المنظر » . ثم نراه وهو يتجول في اسرائيل ، ويحاضر في طلبة الكونسرفاتوار في تل ابيب .

وبمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على انشاء اسرائيل عام ١٩٧٢ تم انتاج العديد من الافلام الصهيونية اهمها الفيلم الامريكي « اهمس بأسمي » اخراج جيمس كوللر عن فتاة امريكية يهودية تشعر بالضياع في نيويورك ، وعندما تذهب لزيارة اسرائيل تجد معنى الحياة هناك . والفيلم التسجيلي الفرنسي « لماذا اسرائيل » اخراج كلود لانزمان السكرتير الخاص للكاتبة سيمون دي بوفوار وسكرتير تحرير مجلة العصور الحديثة التي يرأس تحريرها جان بول سارتر والفيلم التسجيلي الفرنسي ايضا « شجرة الحياة » الذي اخرجه جون فيرنو وسجل التعليق عليه بصوته اللورد لورانس اوليفيه مدير المسرح القومي البريطاني .

يقول جون فيرنو « يختلف هذا الفيلم اختلافا تاما عن كل الافلام التي صنعتها في هولندا . انه يوضح معنى ان تكون يهوديا اليوم وبالتحديد في اسرائيل . ان شريط الصوت والموسيقى يعبران عن مدى غنى التقاليد في هذا البلد الذي يسعى من اجل حياة جديدة لابنائه » .

ومن الافلام التسجيلية الصهيونية العامة التي انتجت عام ٩٧٢ أيضا ٦ افلام التاج مجموعة انتر فيلم في مدينة اتلانتا بولاية جورجيا الامريكية وهذه المجموعة مكونة من المخرج هنتر هود ، والمصور دافيد موسكوفيتش وهو في نفس الوقت المونتير ، والمنتج بوب ايفانز . ومن اخطر الافلام الستة فيلم عن الدبابات السوفياتية التي كسبتها اسرائيل من العرب في حرب ٩٦٧ فالفيلم يهاجم العرب وفي نفس الوقت يسخر من السلاح السوفياتي .

وبقدر ما كانت الافلام الصهيونية كثيرة عن حرب ٩٦٧ ، بقدر ما هي قليلة جدا عن حرب ١٩٧٣ . وهذا طبيعي فقد هوجمت اسرائيل لاول مرة في تاريخها، وهزمت على يد المقاتل العربي في سيناء والجولان غير ان هذا لا يعني بالطبع توقف السينما الصهيونية في اوروبا والولايات المتحدة وبخاصة في الولايات المتحدة .

واحدث الافلام الامريكية الصهيونية فيلم « البرعم » اخراج اوتو بريمنجر عام ٩٧٥ عن سيناريو بول بونيكاريه وجوان هيمنجواي حفيدة الكاتب الامريكي العظيم ارنست همنجواي . ويحكي الفيلم قصة مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين يحتجزون يختا عليه ٥ فتيات في عرض البحر المتوسط ، ولكن رجل المخابرات المركزية الذي يقوم بدوره بيتر اوتول بالتعاون مع رجل المخابرات الاسرائيلية الذي يقوم بدوره كلين جورمان يتمكنان من انقاذ الفتيات .

ويمثل في هذا الفيلم ايضا راف فالوني وهانز فيرنر وادرين كوري ، كما يمثل فيه جون ليندسي عمدة نيويورك السابق في دور والد احدى الفتيات . وليندسي صهيوني معروف ، وصديق اوتو بريمنجر ، ولا يخفي سعي الفيلم الى تشويه الثورة الفلسطينية ، واستثارة كراهية المتفرج بتعاطفه مع اباء المخطوفات وامهاتهم .

وهناك ايضا فيلم « الرجل في الغرفة الزجاجية » اخراج ارثر هيلر مخرج «قصة حب» الشهيرة ، وانتاج امريكا فيلم تيتر بليويورك عام ٩٧٥ والفيلم عن مسرحية من تأليف ادوارد انالت عرضت لاول مرة على المسرح عام ٩٦٧في لندن ثمعام ٩٦٨في نيويورك، وكان كلاالعرضين من اخراج هارولد بنتر . كما قدمت على مسارح تل ابيب قبلان تخرج للسينما . ويعود الفيلم

الى اسطورة اليهود والنازي ، ولكن من خـــلال موقف درامي قوي يتميز بالحنكة والذكاء ٠

اننا نرى اليهودي الالماني ارثر جولد مان ، ويقوم بدوره مكسمليان شل ، من رجال الاعمال الناجحين في نيويورك ٠ ولكنه يعاني من القلق والاضطراب وذات يوم يقبض عليه البوليس السري الاسرائيلي وتتم محاكمته في اسرائيـل على اساس انه الكولونيل كارل ادولف دورف من ضباط الجيش الالمانـي النازي ٠ واثناء المحاكمة يقول احدهم فجأة ان الرجل هو ارثـر جولد مان فعلا ، وانه كان معه في معسكرات الاعتقال النازية ٠ وعندما تتوجه هيئة المحكمة الى المتهم ، وتسأله عن الحقيقة يكون قــد مات ٠

يبلغ عدد دور العرض السينمائي فـــي اسرائيل ٢٨٧ دارا ، منها ٢٧٠ تعرض الافلام من مقاس ٣٥ مم و ١٧ تعرض الافلام مـــن مقاس ٧٠ مم ٠

وتعرض هذه الدور حوالي ٥٠٠ فيلم اجنبي كل عام ٣٠٪ من الولايات المتحدة و ٣٠٪ مـن اوروبا و٣٠٪ من مصر و١٠٪ من دول اخرى ٠ وبالطبع فان الافلام المصرية التي تعرض فـي اسرائيل لا تستورد من مصر ، وانما يتـــم تهريبها من لبنان والاردن وقبرص وباريـس وغيرها من عواصم العالم ٠ وهي تعرض مـن اجل السكان العرب واليهود الشرقيين في دور عرض خاصة لا تعرض غيرها ٠

وقد صدر اول قانون لتنظيم صناعة السينما في اسرائيل عام ١٩٥٤ ، بعد سبع سنـــوات كاملة من انشاء الدولة الصهيونية عام ٩٤٨ ٠ ولكن الانتاج السينمائي ظل قاصرا على الافلام التسجيلية اكثر من عشر سنوات حتى عام ١٩٦١ ٠ وبعد حرب ١٩٦٧ نما وتطور تطـورا كبيرا بمساعدة شركات هوليود الامبريالية ٠

ولعل اول ما يجب بحثه هنا لماذا تأخـــر انتاج الافلام الروائية الطويلة في اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦١٠ ففي الاجابة علـــى هذا السؤال تكمن طبيعة هذا الانتاج ٠ واسباب نموه وتطوره بعد حرب ١٩٦٧ ٠

ربما يبدو للوهلة الاولى ان السبب هو قيام الافلام الصهيونية خارج اسرائيل بواجبها في تحقيق اهداف الحركة الصهيونية ٠ ولكن الواقع ان هذه الافلام لا تزال تقوم بدورها حتـــــى اليوم ، ومع ذلك ظهرت ضرورة انتاج افلام اسرائيلية ٠

أن السبب الحقيقي وراء تأخر انتاج الافـلام الروائية الطويلة في اسرائيل يرجع اساسا الى عدم وجود اساس ثقافي وطني يمكن الانطلاق منه ، وصنع سينما تكون جزءا من الثقافـة الوطنية ٠ وذلك بسبب تعدد اللغات والاجناس والثقافات والقوميات التي ينتمي اليها سكان اسرائيل القادمين من مختلـــف قارات الارض وبلادها ٠

فانتاج الافلام الروائية الطويلـة في هـذه الحالة سوف يجسد المشكلة الرئيسية التـــي تعاني منها اسرائيل ، وهي الافتقار الـــى الشخصية الوطنية اكثر مما سيساهم في حل هذه المشكلة ٠

وهذا ما حدث بالفعل عندما بدأ الانتـــاج عام ١٩٦١ ٠ فقد بدأ بقصد الاسهام في حل هذه المشكلة ، ونما وتطور بعد حرب ١٩٦٧ في ظل الوهم الكبير بأن الحدود الامنة قد تحققت، ولكن هذا الانتاج في الواقع لم يكن الا تجسيدا لتلك المشكلة ٠

ولقد ادرك بن جوريون ـ مؤسس الدولـــة الصهيونية ـ ذلك جيدا ووقف ضد الانتـــاج السينمائي ، كما وقف ضد انشاء التلفزيـون طوال الخمسينات ٠ وذلك على الرغم مـــن العروض العديدة المغرية التي تلقاها مـــن الشركات الامريكية ٠ وايد رجال الدين موقف بن جوريون وان اختلفت الاسباب ٠ اذ كان بن جوريون يقول ان امام اسرائيل مهام اخرى اكثر جدية ولا داعـــي لتجسيـــد المشاكـل السياسية واثارة الاحزاب والمعارضة ٠ وكـان رجال الدين يقولون ، ان السينما والتلفزيـون ينشران التفاهـة ، ويركزان عـــلى الامـور الدينية ٠

يقول الشاعر الاسرائيلي حاييم بيالـــق

« حينما بلغني خبر القبض على اول يهودي ضبط متلبسا بالسرقة في تل ابيب هزتني الفرحة حتى العظام ، وصرخت ليباركه الرب ، عشت ورأيت هذا اليوم » .

ومن اجل هذا اليوم الذي تصبح فيه اسرائيل بلدا مثل كل البلاد بدأ انتاج الافلام الروائية الطويلة عام ١٩٦١ ، ثم بدأ البث التلفزيوني عام ١٩٦٦ . وتبدو الصلة بين ذلك الهدف وبين الموافقة على انشاء التلفزيون اكثر وضوحا . فقد بدأ التلفزيون عام ١٩٦٦ قاصرا على البرامج التعليمية وتابعا لوزارة التربية والتعليم من اجل مواجهة تحديات التعليم مثل تعدد اللغات والعجز في المدرسين .

وكما كان باروخ دينار هو منتج ومخرج اول فيلم تسجيلي صهيوني بعد انشاء اسرائيل ، وهو الفيلم الامريكي « الرواد » ، كان هو ايضا منتج ومخرج اول فيلم اسرائيلي روائي طويل عام ١٩٦١ بعد ان هاجر الى اسرائيل وهو فيلم « كانوا عشرة » الذي قامت شركة فوكس بتوزيعه في العالم .

وظل عدد الافلام الروائية الطويلة لا يزيد عن فيلم واحد او فيلمين حتى حرب ١٩٦٧ . وبعدها قفز الى خمسة افلام ، حتى صار متوسط الانتاج في النصف الاول من السبعينات خمسة عشر فيلما . وفي نفس الوقت انتقل التلفزيون من وزارة التربية والتعليم الى وزارة الاعلام عام ١٩٦٨ ، ولم يعد قاصرا على البرامج التعليمية . ووصلت نسبة الانتاج المحلي فيه الى ٥٠٪ .

وقد ادى وجود التلفزيون رغم اقتصاره على قناة واحدة بالابيض والاسود من الساعة الخامسة والنصف مساء الى الحادية عشر والنصف تتخللها برامج بالعربية لمدة ساعتين من السادسة الى الثامنة . الى هبوط عدد رواد السينما بنسب تتراوح بين ٢٥٪ و ٤٠٪ . فقد هبط عدد التذاكر المباعة من ٥٠ مليون عام ٩٦٨ الى ٤٠ مليون عام ٩٦٩ ثم الى ٣٥ مليون عام ١٩٧٠ .

ولمواجهة ذلك تقرر الا تزيد ساعات عرض الافلام الروائية الطويلة عن ٦ ساعات في الاسبوع من مجموع ٢٨ ساعة ، وبعد الثامنة مساء .

ويقوم التلفزيون الاسرائيلي بالتقاط العديد من البرامج من التلفزيونات العربية المجاورة لعرضها في ساعات الارسال العربية من اجل السكان العرب . وليس هذا بالغريب على من يقومون بتهريب الافلام المصرية ، وعرضها في دور - عرض الافلام العربية .

كانت اولى خطوات الدولة الصهيونية لتنمية الانتاج السينمائي بعد حرب ٩٦٧ انشاء المؤسسة المركزية الاسرائيلية للسينما برأس مال قدره ٦ مليون ليرة اسرائيلية وقد تحدد لهذه المؤسسة هدفان ، اولهما منح القروض لشركات الانتاج والتوزيع ، والثاني رد ضريبة الملاهي الى شركات الانتاج وقدرها ٣٢٪ من سعر التذكرة . وفي نفس الوقت تم دعم قسم الانتاج في وزارة الاعلام وهو القسم الذي يتولى انتاج الافلام التسجيلية والقصيرة .

ومن اجل تشجيع الانتاج المشترك ، وتشجيع تصوير الافلام الاجنبية في اسرائيل صدر قانون خاص برد ضريبة الملاهي للافلام المشتركة والافلام المصورة في اسرائيل عند عرضها في اسرائيل على الا تحول ايرادات الفيلم الى الخارج ، ويرد ١٥٪ من الاموال المحولة في الداخل ، ويعفي الالات المستوردة مؤقتا من الجمارك ، ويعفي الشركات التي يؤسسها الاجانب من الضرائب ويعاملهم معاملة الخبراء والاجانب ، ويؤمن على العاملين ضد الاخطار بما في ذلك خطر الحرب ، وذلك مقابل الا يقل عدد العاملين في الفيلم من السينمائيين الاسرائيليين عن ٢٥٪ .

واهداف الانتاج المشترك وتصوير الافلام الاجنبية كثيرة ، اهمها الدعاية السياسية ، والدعاية السياحية ، وجلب العملات الصعبة وفتح الاسواق للافلام الاسرائيلية ، ثم دعم الخبرات المحلية بالاحتكاك مع خبرات العالم المختلفة .

والى جانب المؤسسة المركزية ، وقسم الانتاج في وزارة الاعلام ، هناك قسم السينما في

معهد التصوير ، ومركز الفيلم الاسرائيلي في وزارة التجارة والصناعة ، ويتبعه مكتب صناعة السينما الاسرائيلية في لندن ومكتب صناعة السينما الاسرائيلية في لوس انجلوس.

ويتولى الرقابة على الافلام في اسرائيل المجلس الاعلى للرقابة المكون من ٥٠٪ من رجال الحزب او الاحزاب الحاكمة و٢٥٪ من رجال الدين و٢٥٪ من رجال السينما والمسرح والثقافة بوجه عام ٠

هذا عن المؤسسات الحكومية، اما المؤسسات الشعبية فهي اتحاد المنتجين ويرأسه افرايم كيشون ، واتحاد المخرجين ويرأسه دان وولمان واتحاد الممثلين ، واتحاد اصحاب دور العرض، واتحاد الموزعين ، واتحاد عمال السينما والتلفزيون ، واتحاد كتاب السيناريو ، واتحاد نقاد السينما ، واغلب هذه الاتحادات تكون في السبعينات ٠

وقد انشأ اتحاد نقاد السينما الاسرائيليين عام ٩٧٤ ، بعد ان تقدمت جمعية نقاد السينما المصريين بطلب عضوية الاتحاد الدولي الفيبريسي اذ قدمت الجمعية المصرية الطلب في يونيو ليعرض على الجمعية العمومية في اكتوبر ٠ وكان اول طلب يتقدم به اتحاد عربي لنقاد السينما ٠ وهنا سارع اصدقاء اسرائيل الى ابلاغ تل ابيب حتى يتم انشاء اتحاد اسرائيلي ، ويتقدم بطلب يعرض في نفس الوقت مع الطلب المصري ، ويتم الموافقة على كليهما بالاجماع تجنبا للمشاكل وكان هذا ما تم بالفعل ٠

ولا يوجد في اسرائيل ارشيف يتبع الدولة ، ولكن مركز الفيلم الاسرائيلي يحتفظ بنسخ من كل الافلام الاسرائيلية الروائية الطويلة كما ان هناك شركات ومنظمات لها ارشيفها الخاص هي ارشيف الفيلم الاسرائيلي في حيفا وتتبعه قاعة عرض ، وارشيف الفيلم اليهودي في الجامعة العبرية بالقدس ، ويملك افلام قليلة ، ولكنه اصدر دليلا كاملا عن ما يطلق عليه الفيلم اليهودي ، وارشيف المنظمة الصهيونية الدولية ، وارشيف باروخ اجداتي وارشيف كارمل فيلمز وكلاهما يملك افلام العشرينات والثلاثينات ، ثم اراشيف اللقطات الوثائقية في شركات بيركي بات وفيلم سيرفيس وستديوهات اسرائيل ٠

ويقام في اسرائيل سنويا مهرجان تل ابيب الدولي لافلام الهواة ، غير انه يعتبر من المهرجانات الفاشلة ٠

وتشترك اسرائيل في مهرجانات السينما الدولية في الغرب ، ولكنها لم تقبل في اي من مهرجانات الدول الاشتراكية ، او العالم الثالث ٠ وقد كانت المرة الاولى التي اشتركت فيها اسرائيل في مهرجان دولي للسينما في مهرجان كان الفرنسي عام ١٩٦٧ قبل ايام من حرب يونيو ٠ وكان اشتراكها بفيلم « ثلاثة ايام وطفل » اخراج يوري زوهار ٠ ويومها اتيح لي حضور المهرجان وشاهدت كيفتحول المؤتمر الصحفي للوفد الاسرائيلي الى مظاهرة سياسية لعب فيها الطفل الذي مثل في الفيلم دورا كبيرا ، كما لعب الممثل الاميركي جيري لويس دورا كبيرا بحضوره الى المهرجان وقت انعقاد المؤتمر ودخوله القاعة ومعه مئات من الصحفيين والمصورين ٠

وبالاضافة الى المظاهرة السياسية التي سخر فيها جيري لويس من العرب عندما سأله احدهم عن رأيه في منع افلامه في الدول العربية ، وقال « ان من الافضل لهم مشاهدة افلامي بدل من الدخول في حرب خاسرة » ، وصلت المهزلة ذروتها عندما فاز ممثل الفيلم الاول اودد كوتلر بجائزة احسن ممثل متفوقا على ديرك بوجارد مثلا في « حادث » جوزيف لوزي ودافيد هيمنجر في « انفجار » انتونيوني وغيرهما ٠

والى جانب مهرجانات اوروبا الغربية والولايات المتحدة حيث تشترك اسرائيل بافلامها ، وقفت الاكاديمية الامريكية للعلوم والفنون السينمائية مع الافلام الاسرائيلية في مسابقاتها المعروفة باسم الاوسكار منذ عام ٩٦٢ ، عندما رشحت فيلم « صالح شباتي » اخراج افرايم كيشون لجائزة احسن فيلم اجنبي ، كما رشحت الممثل حاييم توبول لجائزة احسن ممثل عام ١٩٧٤ عن دوره في الفيلم الامريكي « عازف فوق السطح » اخراج نورمان جويسون ٠

وتعتبر امكانات السينما الاسرائيلية امكانات كبيرة بالنسبة لصناعة سينما ناشئة . فهناك معملان للابيض والاسود والالوان ٣٥مم ، ومعمل للابيض والاسود ١٦مم، ومركزان للصوت ، وست صالات لتسجيل الصوت .

ويبلغ عدد شركات السينما التي تمتلك اجهزة ومعدات ١٤ شركة منها ثلاث شركات تنتج الافلام الطويلة والقصيرة هي استوديوهات اسرائيل ، وايسرا فيلم ، ورونبي فيلم. وثلاث شركات تنتج الافلام القصيرة هي: كابيتال ورول ودرو . وثماني شركات تؤجر معداتها واجهزتها فقط هي بيركي بات (خدمات) وفيلك سيرفيس (خدمات) وبينز وسواير (تصوير) وموتران (تصوير) وكولينور (صوت) وداني شيك (مونتاج) وكول اور (تحريك) ثم شركة جاكوب نيومان (مؤثرات خاصة) .

وفي اكتوبر عام ١٩٧٢ تم افتتاح مدينة ساركو لافلام الويسترن (رعاة البقر الامريكيين) التابعة لاستديوهات اسرائيل ، والتي صممها فرناندو كاريري وهاري اربور الامريكيان . وكان فيلم الافتتاح الفيلم البريطاني « بيللي » اخراج تيد كوتشين وتمثيل جريجوري بيك .

سمير فريد

[٢]

السينما الفلسطينية والانفصام

بينما كان المهرجان الدولي الثاني لافلام وبرامج فلسطين ينعقد في بغداد (٢٠ - ٢٥ اذار) كانت بيروت تحت القصف العشوائي بلا خبز . بعض المراقبين ابدوا دهشتهم حينما رأوا بعض اعضاء الوفدين السينمائيين الفلسطيني واللبناني وهم يملأون حقائب ملابسهم بالخبز من بغداد بعد انتهاء المؤتمر. وقال احد العراقيين : كيف استطعتم يا اخوان ان تمضوا اسبوعا من التفرج على الافلام السينمائية بينما عائلاتكم تعيش في الرعب بلا خبز . وقال احد اللبنانيين : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » . وقال احد الفلسطينيين : « السينما الفلسطينية التي نريدها هي ضرورية ضرورة الخبز » .

ربما ان المهرجان قد كشف عن هذه الحقيقة . فالانسان المناضل لا يحتاج الى خبز ورصاص فحسب بل انه يحتاج ايضا الى فكر وشعر ورسم وسينما ... وهو في حاجة الى غناء وموسيقى تحمله عبر هذا الدرب الطويل المؤلم بفرح وامل من واقع لا يحتمل الى حياة حرة كريمة . والسينما هي المرآة يرى على صفحتها نفسه ويراه الآخرون ويتعاطفون معه . وهي التي لا تصور له الواقع فحسب وانما هي تعكس له الرؤيا والامل .

في بداية المهرجان الذي انعقد في قصر الشعب في بغداد لفت السيد علي غنام ،عضو القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق ، انتباه الحضور الى ضعف ثقة الناس في الاعلام عموما والاعلام الرسمي على وجه الخصوص . واكد على الحاجة الى ان تكون المرآة السينمائية قريبة من الحقيقة . وقد وضع السيد غنام اصبعه على عصب الموضوع حين قال ان ثمة انفصاما ما بين الكلمة ومعناها وما بين القول والفعل ولا بد

من اعتماد الحقيقة كعلاج لهذا المرض ٠قول الحقيقة والبحث عنها وابرازها ، لانه مهما تعددت وسائل الاعلام وتنوعت ومهما كان لها من طرق في التأثير فإن الحقيقة تبقى اقوى من كل شيء ويبقى ان ما يخرج عادة من القلب يدخل في القلب واما ما يخرج من الافواه فلا يتجاوز الاذان ٠

وقد اكد المخرج الايطالي روسيليني «الذي اعطى المهرجان اسمه اللامع بحضوره حفل الافتتاح ، اكد على الحقيقة بقوله « ان الحديث عن الحقيقة هو حديث عن القضية الفلسطينية » ٠ وقال : « لقد التقيت باناس شديدي الذكاء والحماس » ٠ وفي مؤتمر صحفي قبل مغادرته ، دعا روسيليني السينمائيين العرب الى اعتماد الفيلم الروائي بالاضافة الى الفيلم الوثائقي في الحديث عن القضية الفلسطينية ٠

كان المهرجان السينمائي بمثابة استعراض لصورة السينما الفلسطينية واوضاعها بما فيها من ايجابيات وسلبيات ٠ وكان فرصة جيدة لامعان النظر في الطريقة التي تعرض بها القضية الفلسطينية سينمائيا على الجماهير العربية والرأي العام العالمي ومدى وصولها وتأثيرها في هذه الجماهير ٠

ودعي ممثلو الاقطار والمؤسسات السينمائية للظهور على المسرح بين تصفيق الحاضرين وباقات الزهور ٠ فكان روسيليني من ايطاليا وفوزس من المانيا الاتحادية وجينوني من الارجنتين وانا كريستينا نافارو من اسبانيا والبروفسور بروسيل من تشيكوسلوفاكيا وفيست من الدانمارك وروبرتشيك من الاتحاد السوفياتي وديمان من تشيلي ومارتنس من بلجيكا وايبس من كوبا واوتاني من اليابان ، هذا بالاضافة الى ممثلين لكافة الاقطار العربية تقريبا وحركات التحرر وفلسطين ٠

ممثلو اكثر من اربعين قطرا ومؤسسة اشتركوا في المهرجان ، واكثر من ضعف هذا العدد من الافلام السينمائية القصيرة والمتوسطة والطويلة والبرامج التلفزيونية ٠ وتحت شعار « تحرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي » كان السينمائيون على مدى ستة ايام يستيقظون في الصباح ويذهبون الى قاعة العرض ولا يخرجون منها الا للغداء وبعض الراحة ليعودوا ثانية بعد الظهر لمشاهدة البرامج التلفزيونية ٠ وبينما تغطي الصحافة العراقية في الصباح اخبار المهرجان يتناوب التلفزيون المهمة في المساء ٠

السينما الفلسطينية من خلال ما شاهدناه في المهرجان هي في وضع لا تحسد عليه ٠ ولكنه وضع يحمل تباشير سينما جديدة قوية وفاعلة عربيا وعالميا ٠

واول ما يمكن ملاحظته في هذه السينما هو الانفصام ٠٠٠ الانفصام الذي تحدث عنه السيد غنام بين الكلمة ومعناها ٠ بل واكثر من ذلك : الانفصام ما بين الكلمة والصورة وبين الموضوع ومعالجته وبين اسم الفيلم ومحتواه وما بين الكاميرا والمصور وما بين جودة الفيلم اذا كان جيدا وبين الوصول الى جمهوره ٠ ثم بدا في لحظة من اللحظات ان ثمة انفصاما بين المهرجان ذاته والغرض منه لولا ان البيان الختامي قد انقذ ما يمكن انقاذه ٠

امثلة بسيطة نسوقها من افلام المهرجان على سبيل المثال وليس الحصر ٠ فيلم « على طريق فلسطين » الذي قدم للمهرجان كان هذا الفيلم في رأي الكثيرين من الحضور مثلا حيا على الانفصام ٠ فالهوة كبيرة اولا ما بين الاسم « البطولي » او الدراماتيكي والموضوع الذي هو عن تعليم الفلسطينيين في الكويت اللهم الا اذا قصد المخرج ان موضوع الفيلم او الفيلم ذاته هو ايضا من الاشياء الكثيرة التي تحدث « على طريق فلسطين »٠ وبينما عرضت معظم الافلام في المهرجان الوضع البائس للفلسطينيين وتعليمهم في المخيمات بما في ذلك هذا الفيلم ذاته ، اذا بنا نرى الطلبة الفلسطينيون في الكويت على النقيض من ذلك وكأنهم يعيشون في جنان النعيم ٠ فهم يظهرون في صحة جيدة وفي فصول منتظمة ومدارس راقية وابنية فخمة يمارسون الموسيقى والرياضة والغناء الى جانب تلقي العلم ٠ والفيلم لم يقصد ان يقول

ذلك • فالتعليق بعيد عن الصورة كل البعد بل هو مناقض لها • اذ انه يتحدث عن صعوبة تعليم ابناء الفلسطينيين في الكويت من اضطرارهم الى الذهاب الى المدارس في المساء بعد خلائها من الطلبة الكويتيين الى حاجة الفلسطينيين الى الامكانيات المادية للانفاق على الاساتذة والمواصلات وغير ذلك • والمشكلة الاساسية لم تظهر في الفيلم بل كاد الفيلم ان يخدم الغرض المعاكس فبدلا من ان يدين التمييز في معاملة لطلبة الفلسطينيين في الكويت والمشكلات النفسية والقومية الناشئة عن ذلك بالاضافة الى المشاكل المادية او يعرض على الاقل بعمق هذه المشاكل فان سطحية الفيلم كادت ان تخدم الغرض المعاكس •

فيلم « البيت » اضاع الهدف بما لا يقل عن فيلم « على طريق فلسطين » ان لم نقل اكثر • الفيلم مأخوذ عن قصة زكريا تامر المنشورة في كتب الاطفال بدار الفتى العربي، وهي تتحدث عن ان كل مخلوق بما في ذلك الحيوانات له بيت • ويكاد البيت ان يصبح حلقة داروين المفقودة التي تربط ما بين الحيوان والانسان مع تعريف ان البيت هو المكان الذي يشعر فيه الانسان بالحرية والسعادة والاطمئنان • والمسكن ليس بيتا بدون هذا المعنى •

المعالجة السينمائية التي اعتمدها فيلم « البيت » اضاعت الحلقة المفقودة والشعرة الرفيعة التي تفرق ما بين الحيوان والانسان وان كان كل منهما في حاجة ماسة الى بيت • فهو يعرض بالشكل التالي : طفلة تبني بيتا صغيرا فتقع كرة قدم عليه وتهدمه فتبكي الطفلة • وتسألها معلمتها عن سبب بكائها وتتفهم السبب لهدم البيت • وتبدأ بالحديث عن الحيوانات وكيف انها كلها لها بيوت : الفأر والدجاجة والقط والارنب والسمكة والعصفور والافعى • « حتى الافعى ؟ هل تصدقين ان لها بيتا » • وبعد هذا العرض من سينما والت دزني عن الحيوانات وبيوتها تسأل المعلمة قائلة : « هناك مخلوق وحيد ليس له بيت • هل تعرفون ما هو ؟ » ويسود صمت وتحفز ••• الجواب : الفلسطيني •

المعالجة السينمائية التي اضاعت الشعرة الرفيعة ومفهوم البيت وحولت الفيلم الى احجية بدلا من تعميق مفهوم البيت ثم هذا الانتقال المباشر في المونتاج من الديوان الى الفلسطيني جعلت الفلسطيني بالنسبة لعقول الاطفال – بدون قصد طبعا – نوعا من المخلوقات الغريبة !

الحقيقة التي برزت في العديد من الافلام السينمائية العربية عن القضية الفلسطينية هو ضعف ما يسمى sophistication ي الوعي الاعمق فكريا وسياسيا وسينمائيا او المهارة المثقفة • ولتبيان ما نعنيه بذلك يمكن الاستشهاد بالفيلم الياباني « وطني فلسطين » للمخرج اوتاني الذي عرض القضية بشكل مباشر في لقاء مع « ابو عمار » مدعوم بالفصول السينمائية التي تشرح الخلفية والابعاد • ففي هذا الفيلم خفت حدة المباشرة بالاستعمال المناسب للموسيقى والاناشيد الحماسية التي كانت تظهر بشكل مخفف لا على صور المقاتلين وانما على صور سكان المخيمات • اما المقاتلون فكانت حركاتهم لا تحتاج الى موسيقى بل احيانا الى صمت •

خطورة المبالغة التي يقع فيها السينمائيون العرب لا تأتي احيانا من التعليق المباشر الصاخب فقط وانما من تجميع مبالغات عديدة في بؤرة واحدة بحيث يصبح الفدائي الفلسطيني اما شيئا اكبر من الانسان او يصبح انسان المخيم شيئا اصغر من الانسان • وقد اجمع الكثيرون في مهرجان السينما على ان الفيلم الدانماركي « الشعب المضطهد هو دائما على حق » هو من احسن الافلام التي عرضت في المهرجان لسبب بسيط هو عدم وجود الانفصام فيه ولانه يروي القصة بموضوعية دون مبالغات ويعرض حياة الفلسطينيين كما هي بافراحها واتراحها فهو على ذلك « يؤنسن » الانسان الفلسطيني فلا يبالغ فيه صعودا ولا هبوطا •

لا يمكن ان يكون هذا الفيلم من الافلام العظيمة • والذين قاموا بصنعه كانوا

متواضعين في هدفهم وهو توفير فيلم موضوعي في المكتبة الثقافية الدانماركية بحيث يستطيع طلبة المدارس استعارته ورؤيته ورؤية القضية على حقيقتها دون لف او دوران ٠

هذا الفيلم الذي حصل على افضل جوائز المهرجان ، مع ان الجائزة الذهبية الاولى قد حجبت ، انما يهدف الى « اعطاء تفسير اساسي عن نمو حركة المقاومة الفلسطينية بالنسبة الى الاستعمار الصهيوني » ٠

الفيلم طوله خمس واربعون دقيقة ويتألف من ثلاثة عشر فصلا نصفها في لبنان خريف عام ١٩٧٤ ٠ وهو يلتقي بالفلسطينيين في مخيماتهم ويتابع طريقة تفكيرهم الثورية كما تبدو في فصول التدريس وعيادات الصحة كما يعرض التعبئة السياسية للمرأة الفلسطينية ٠ ونحن نرى ونسمع ام سعد ، التي اشتهرت في قصص المرحوم غسان كنفاني القصيرة ، ونطلع على رؤينها هي وجاراتها للاحداث منذ عام ١٩٤٨ ٠ ثم نرى ليلى خالد وهي تشرح اهداف تمكين المرأة الفلسطينية من الارتقاء بقدرتها الاقتصادية والسياسية ٠

وفي فصل اخر يظهر القائد العسكري ابو موسى وهو يحلل دور النظام الاردني في مذابح ايلول في الاردن ٠ وفي الختام نواجه الفدائيين وهم يشرحون مشاعرهم واسباب انخراطهم في الكفاح المسلح ٠

اما الجزء الاخير من الفيلم فهو بالابيض والاسود وفيه بعض اللقطات بالالوان وهو تاريخي تحليلي يركز على انه لا بد للاضطهاد الصهيوني الاستعماري من ان يؤدي الى خلق حركة ثورية في المقابل كردة فعل حتمية ٠ كما يوضح تأثير الثورة الفلسطينية على الانظمة الرجعية العربية واعتماد هذه الانظمة على مصادر السلاح الغربية والدعم السياسي الغربي ٠ وفي الفصل الاخير يبرز الفيلم تزايد عدد الاسرائيليين الذين يستنكرون التمييز العنصري كما تمارسه الدولة الصهيونية في فلسطين كما يوضح كيف العصابات الثورية المسلحة تتصاعد في قوتها لتصبح اقوى من الجيوش التقليدية التي تعتمد على الطائرة والدبابة ٠

هذا الفيلم متاح للرؤية في مدارس وجامعات الدانمارك وهو جزء من المكتبة الثقافية الدانماركية ٠ وكان يجب ان يكون مثل هذا الفيلم وباعداد اكبر متاحا للمكتبة الثقافية العربية في المدارس والجامعات ٠

« اطفالنا يرفضون » من انتاج وحدة الانتاج التلفزيوني في العراق كان من اقوى الافلام العربية التي عرضت في المهرجان لقربه الشديد من الواقع الفلسطيني في لبنان ٠ وفيه تبدو احداث لبنان الاخيرة على حقيقتها فيختلط التمثيل بالواقع حتى يصبح التمييز بينهما صعبا للغاية ٠ وقد بلغ الطفل الممثل في الفيلم حد الروعة في تمثيله الذي بلا تمثيل ٠ انه يشتغل ماسح احذية ويذهب الى المدرسة وفي نفس الوقت يناضل سياسيا بالملصقات ويتلقى مع اهله وجيرانه ضربات المدفعية ٠ ومع ذلك فعليه ان يحضر فصول المدرسة في مواعيدها ٠ وهو دائما يتأخر عن هذه المواعيد٠ والاستاذ لا يستطيع ان يفهم هذا التأخير خصوصا ونحن نراه باستمرار يلقي درسا عن المكسيك ! الاستاذ يطرد التلميذ من الفصل ويهينه ويطلب اليه ان يحضر اباه الى المدرسة ٠ ومدير المدرسة هو الذي يامر باعادة التلميذ الى الصف لانه كما يبدو يفهم الوضع اكثر من المدرس ٠ كان ينبغي ، في رأي العديدين ، ان يقف الفيلم قبل الفصل الاخير حيث سقط في المبالغة ٠٠ اما فيما قبل ذلك فكان رائعا بمعنى الكلمة ٠

الافلام التي قدمتها المنظمات الفلسطينية كانت شديدة الشبه على وجه العموم من حيث انها « افلام مقاتلة » تعتمد على تصوير الواقع الاخباري تقريبا وترتفع في هذا المجال لتسجيل المواقف السياسية ٠ وهي تصنع بامكانيات محدودة وبالابيض والاسود في معظمها وقد فاز منها « كفرشوبا » لسمير نمر « وبيوتنا الضيقة» لقاسم حول بجوائز فضية ٠كما نالت جريدة فلسطين السينمائية المتوقفة عن الصدور بشهادة تقدير تعبيرا عن الرغبة في استمرارها ٠ وكان القائمون على المهرجان

يفعلون افضل من ذلك لو انهم درسوا كيفية استمرارها في الصدور وما تحتاج اليه من دعم لكي تصدر ٠

اما افلام امين البيني وقيس الزبيدي من سوريا وهي على التوالي « دروس في الحضارة» « ونداء الارض » فهي كانت مثلا على قدر عال مما سميناه بالمهارة المثقفة العربية في استخدام السينما لخدمة هدف سياسي٠ وكذلك فيلم « الاجابة» العراقي الذي يبدأ بسؤال من صحفي اميركي عن الاطفال الفلسطينيين . « اليس من الافضل ان يذهب هؤلاء الى المدارس ولا يتعلمون استعمال السلاح والعنف ٠ » وبعد ان يعرض الفيلم حياة هؤلاء الاطفال على حقيقتها وما جرى لامثالهم في فيتنام ينتهي الفيلم بنفس السؤال الذي هو خير « اجابة » !

فيلم مانفريد فوس الالماني البسيط الى ابعد الحدود والذي هو عبارة عن ارملة الشهيد الفلسطيني « جيفارا » تروي قصة نضالها وتعذيبها على ايدي الاسرائيليين ، كان هذا الفيلم مثلا على الكلمة التي تخرج من القلب فتقع في القلب دونما حاجة الى رتوش او فنون سينمائية ٠ الفيلم طويل نسبيا ومع ذلك فقد شد الجمهور من بدايته الى نهايته ونال جائزة في المهرجان ٠

يبقى اولئك المخرجون الصغار المتطفلون على السينما الفلسطينية والذين يستخدمونها لابراز ما تعلموه من لقطات « بارعة » من سينما هوليوود التي يندى لها جبين المشاهد او اولئك الذين يريدون ان يقفزوا الى السينما الشعرية وهم لم يتعلموا بعد الف باء السينما او السياسة ٠ ربما يكون لامثال هؤلاء مكان في مهرجان للهواة ٠

غير ان ما هو ادهى من هؤلاء وامر هم اولئك المحترفون الذين يقدمون سينما « فارغة » ٠ وقد استرعى انتباه المهرجان الافلام التي اخطأت مكانها في مهرجان للسينما الفلسطينية ، وهي « تحية لمقاتل مصري »٠ « ابطال من مصر » ٠٠ « السويس ٧٣ » « الرجل الذي كان يفكر » « رحلة سلام »

« نهاية خط بارليف » و « صائد الدبابات » ٠ كلها افلام لا علاقة لها بالقضية الفلسطينية ٠ والفيلم المصري الوحيد الذي يمس فلسطين او يقترب منها اقترابا طفيفا هو فيلم « لوحات من معرض فلسطين » وهو عبارة عن جولات بارعة للكاميرا في معرض الرسوم التي تتعلق بفلسطين ٠

من الناحية الفنية البحتة فقد نال مصور احد الافلام المصرية جائزة على التصوير ٠ ومن الناحية الفنية البحتة نال فيلم « سويس ٧٣ » قد قدم فكرة جديدة تحول فيها الانفصام الذي نعاني منه الى شيء ايجابي ٠ فبينما الكاميرا تستعرض الخراب الفظيع في مدينة السويس فاننا نسمع اصوات اولئك العمال والصناع واصحاب الدكاكين والبيوت الذين كانوا يعيشون في تلك البيوت والمكاتب والدكاكين قبل التدمير ٠ هذا الانفصام الذي فعلته الحرب اصبح في الفيلم حيلة بارعة لتعميق الشعور بالاسى ٠ فكانما انت تسمع صوت الميت وضحكاته في حياته ولا ترى الا صورته وهو ميت ٠

ومن الناحية السينمائية البحتة ، كنا نود ان نرى في الافلام المصرية قتالا حقيقيا في « صائد الدبابات » الذي لم نره الا وهو يروي كيف دمر كذا دبابة وكان انيقا في ابهى ما عنده من لباس عسكري نظيف ٠ والمقاتلون الذين رأيناهم في الافلام المصرية كانوا نظيفي الثياب دون غبار عليهم طيلة الفيلم بالرغم من عبورهم سيناء وادائهم لمهمات شاقة ٠ حتى التمثيل لم يقترب من الواقع ٠ والافلام السينمائية المصرية كانت تصلح للتلفزيون الملون كبرامج تعطي فكرة عن خلفيات المقاتلين الاجتماعية لا عن قتالهم ٠ ويقال في مجال التبرير ان الكاميرا السينمائية المصرية كانت بالفعل شبه غائبة كليا عن معركة اكتوبر فلم تسجل معاركها الحقيقية ولا اقترب السينمائي المصري من المقاتل ٠ وللاسف فان السينما المصرية هي كالسياسة المصرية لم تستثمر انتصار اكتوبر كما يجب ٠ ولذلك فلم يبق من المعركة سينمائيا الا اقل القليل ٠

ثمة افلام اخرى نترك الحديث عنها لمناسبة

السؤال الرئيسي الذي يطرح المرء بـه مـن المهرجان وهو : لمن ولماذا تعمل الافلام ؟

ينبغي على السينما الفلسطينية ان تظهر حقيقة القضية الفلسطينية للجماهير العربية والفلسطينية وللرأي العام العالمي • وعلى ذلك يمكن الوصول الى مقياس يقاس به الفيلم وهو جودته في معالجة موضوعه ثم قدرته على الوصول الى الهدف الجماهيري اي الى المشاهدين ، والجودة والوصول كلاهما وجهان لعملة واحدة فجودة الفيلم لا تقاس فقط بالمقاييس الفنية السينمائية وانما بعنصر اخر مهم وهو مناسبة الفيلم للمشاهدين المقصودين • وهذا العنصر الاخير يضعه عادة كل سينمائي في اعتباره حين قيامه بعمل الفيلم • فان الطريقة التي يخاطب بها الجمهور الاوروبي او الاميركي هي غير الطريقة التي يخاطب بها الجمهور العربي • صحيح ان ثمة افلاما يمكن ان تخاطب كل الجماهير بنفس اللغة محدثة نفس التأثير ولكن هذه هي القمم في السينما •

☐ نأخذ فيلم جوسلين صعب الريبورتاجي الوثائقي « لبنان في دوامة » والذي حاز على جائزة النقاد في المهرجان • لقد احدث هذا الفيلم جدلا عنيفا في المهرجان الى حد ان البعض اخذوا يتساءلون اين تقف المخرجة من احداث لبنان ؟ هل هي مع القوى الوطنية والتقدمية ام هي مع القوى الرجعية الانعزالية ؟ وكان جواب المخرجة كلما جوبهت بهذا السؤال : « الا ترون ؟ ••• الا تنظرون ؟ •• الا تفكرون » •

لقد عرض الفيلم اراء كل المتصارعين في الساحة اللبنانية من كمال جنبلاط الى بيار الجميل كما عرض نماذج من الميليشيات واصحابها وطرق تفكيرهم مثلما عرض الوضع الفلسطيني واللبناني • وكان الفيلم كشفا لكل من يريد ان يرى جميع جوانب المشكلة • واستطاع الفيلم ان يبرز ان لبنان هكذا لان طائفة او جماعة سياسية فيه تريد ان يكون لبنان دولة طائفية منغلقة •

لو ان الفيلم اتجه بعد عرض المشكلة الى استخلاص الحل وصولا الى الدولة الديمقراطية العلمانية كحل لا بد منه لكان ربما قضى على استفسارات المستفسرين عن موقف المخرجة • ولكنه حتى بوصوله الى ما وصل اليه من عرض موضوعي بقدر الامكان للمشكلة قد خدم هذا الهدف بطريقة او باخرى • على اي حال فان الفيلم قد انتج بهدف توزيعه على دور التلفزيون الاوروبي والاميركي وهو قد تقيد بمقاييس الموضوعية التي تتطلبها تلك الدور • والهدف الذي يخدمه مثل هذا الفيلم هو انه يقطع الطريق على الموضوعية « الظاهرية » التي تمارسها اجهزة الاعلام الغربية بتحيزها الخفي • لقد قابل هذا الفيلم الموضوعية الاجنبية الزائفة بموضوعية اكثر توازنا وقاوم التحيز الخفي والذكي بتحيز خفي واكثر ذكاء مما قد يمكنه من الوصول الى جماهير المشاهدين الاجانب عبر اجهزة اعلامها • لا غرو ان يفوز هذا الفيلم بجائزة النقاد في المهرجان دون غيره •

الفيلم الدانماركي جيد بتواؤم موضوعه مع هدفه الجماهيري وهم تلامذة المدارس والجامعات وهو على ذلك يعتبر من الافلام التعليمية • « ولبنان في دوامة » فيلم جيد لتواؤم موضوعه مع هدفه الجماهيري وهم مشاهدو التلفزيون الاوروبي والفرنسي على وجه الخصوص • وهو يعتبر على ذلك فيلما اعلاميا • والفيلم الياباني « وطني فلسطين » هو ايضا فيلم جيد لتواؤم موضوعه مع هدفه المقصود وهو جمهور التلفزيون الياباني •

وفي المهرجان افلام عديدة يمكن اعتبارها جيدة اذا ما امكن تحديد هدفها الجماهيري : هل هو جمهور السينما ام جمهور التلفزيون ام جمهور النخبة في مهرجان سينمائي ام جمهور صالات السينما الشباب المثقف • «فيلم موتي في سبيل فلسطين » حول اغتيال المناضل محمود الهمشري على يد العصابات الصهيونية واغتيال مناضلين اخرين يعتبر فيلما جيدا لصالات الشباب المثقف •

الالتزام في السينما الفلسطينية يحمل بالضرورة معنى اخر ويتطلب مقاييس اخرى غير مفهوم الالتزام السائد في الاوساط الادبية

في بلادنا . ان طبيعة القضية تفرض التزاما عريضا واسعا بالحقيقة . وان هذا الالتزام بالحقيقة يتسع لمدارس فنية عديدة ولاساليب كثيرة في ايصال هذه الحقيقة الى الجماهير الواسعة . انه يتسع لاسلوب جوسلين صعب وفيست الدانماركي وفوس الالماني وفرحات العراقي .

يجب ان لا يكون الالتزام « مجرد الالتزام » طبلا فارغا تقرع عليه اصوات الافلام السيئة . فان احد الافلام التي قدمتها احدى المنظمات كان سيئا الى حد فاضح من حيث هذا الالتزام بالحقيقة . في هذا الفيلم نرى عاملا عربيا الى جانب عامل يهودي في احد المصانع الاسرائيلية عام ١٩٤٨ بينما يقول التعليق ان الرجعية العربية قد عملت مع الرجعية الاسرائيلية ... وكانت هذه اللقطة يمكن ان تكون اكثر مصداقية لو شرحت ظروف العامل العربي الذي وضعته قهرا في خدمة الاقتصاد الاسرائيلي . وفي هذا الفيلم بالذات يظهر الجنود البريطانيون في فلسطين في الوقت الذي يتحدث فيه التعليق عن الجيش الاسرائيلي . ولا يضع المونتاج او التعليق حدودا زمنية فاصلة بين اطفالنا في عام ١٩٤٨ واطفالنا الان في المخيمات . كل ذلك ضمن فيلم على الطريقة الاخبارية . واغلب الظن ان مخرج الفيلم قد ربط كل هذه اللقطات خلال يومين ثم « وضع » على اللقطات هذا « ملتزما » على الطريقة الالتزامية اياها ...

ربما ان سؤال « لمن تعمل الافلام ولماذا تعمل» يحدد نوعية كل فيلم وطبيعته . فهناك افلام فلسطينية اخبارية وافلام اعلامية وتثقيفية وتعليمية ووثائقية وتدريبية وتعبوية وروائية وتاريخية ...

لقد كشف مهرجان بغداد السينمائي عن ضرورة وجود جهة سينمائية مركزية للافلام الفلسطينية

اولا : لايجاد ارشيف مركزي سينمائي للقضية الفلسطينية يجمع كل ما صور عن فلسطين سينمائيا منذ بدايات هذا القرن .

وثانيا : لاصدار دليل بالافلام السينمائية المتوافرة عن القضية حاليا والاحتفاظ بنسخ من كل هذه الافلام لتكون مرجعا حتى لا يقوم السينمائيون في اقطار مختلفة بعمل افلام تكرر نفس الموضوع .

وثالثا : لوضع خطة استراتيجية السينما الفلسطينية واهدافها الجماهيرية ووسائل الوصول الى تلك الاهداف .

ورابعا : لكي تقدم هذه الجهة التسهيلات اللازمة لمن يريدون ان يعملوا افلاما عن فلسطين تنسجم والخطة الاستراتيجية او لا تخرج عنها .

وخامسا : لكي تكون هناك بالفعل افلام وثائقية واخرى روائية وثالثة تثقيفية ورابعة تدريبية الخ ...

ومن الواضح ان منظمة التحرير الفلسطينية تستطيع ان تلعب دورا مركزيا في السينما الفلسطينية بمعنى ان تكون هي الجهة السينمائية المركزية في هذا التوجه . فان هذا وحده هو الذي يضع الامر في اطاره الصحيح ويجعل السينما العربية والسينما العالمية التقدمية سينما مساندة تقوم بادوارها العربية والعالمية المطلوبة .

لقد رسم بيان بغداد السينمائي والتلفزيوني الثاني لاستراتيجية السينمائية والتلفزيونية للقضية الفلسطينية كما يراها كما يلي :

فلسطينيا : الالتزام باستراتيجية الثورة الفلسطينية في تحرير كامل التراب الفلسطيني وتكريس حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني على ارضه وبكامل ارادته ورفض الحلول الاستسلامية المطروحة لتسوية القضية الفلسطينية واعتبار الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية الطريق الوحيد لتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي ...

عربيا : التوجيه نحو ما يدور في القطر اللبناني الان على اعتباره ساحة تتمركز فوقها طبيعة الصراع الحاد بين قوى التقدم العربية وقوى العمالة والردة والتوجه لتعرية الفاشية الجديدة المرتبطة عضويا بالمخطط الامبريالي في

المنطقة بدءا بالمخططات الاستسلامية ومرورا باتفاقية سيناء ومخططات التقسيم والتآمر على الثورة في عمان وارتريا وضرب القوى التقدمية في لبنان و نتهاء بتصفية حركة المقاومة الفلسطينية باعتبارها الطليعة المسلحة لتحرير كامل التراب الفلسطيني ٠

دوليا : فضح الفكر البرجوازي وطبيعته الاستغلالية ومقاومة اساليب الامبريالية العالمية في القمع والتقتيل الجماعي لضمان مصالحها الخ ٠٠٠

مرة اخرى ان مركزية السينما الفلسطينية يجب ان تواكب مركزية القضية وكلاهما بصورة رئيسية في يد منظمة التحرير ٠ وهذا لا يمنع اي قطر عربي من ان يقوم بالدور الذي يرتئيه لخدمة القضية الفلسطينية ٠

والسؤال هو هل يزداد الانفصام في السينما الفلسطينية ام ان كل هذا ما هو الا في الطريق الى سينما واعدة وفاعلة وقوية ٠

ابراهيم ابو ناب

شـــهريـات

(١) القضية الفلسطينية دوليـاً

لا شك في ان اهم تطور دولي مؤثر على القضية الفلسطينية في الفترة الاخيرة كان قيام الرئيس السادات بالغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي • وقد أعلـــن الرئيس المصري قرار الالغاء في خطاب القاه في منتصف شهر اذار تميز بهجوم على السلطات السورية من ناحية وبحملة مركزة وواسعة على الاتحاد السوفييتي ، وواضح ان هذا الهجوم علـــى السوفييت كان معدا ليقوم بدور المدخل الـى قرار الالغاء وتبريره • وصف السادات فـي خطابه السياسة السورية بانها تسعى الـــى خلق المحاور في العالم العربي مما من شأنـــه « تمزيق شمل الامة العربية » ، وشدد على ما اسماه بضرورة احتفاظ العرب بحرية الحركة في كافة الاتجاهات على اعتبار ان علاقات سوريا الوثيقة مع الاتحاد السوفييتـــي ومعاهـــــدة الصداقة والتعاون اخذتا تشكلان ، في نظـــر السادات ، قيودا على حرية التحرك المذكورة • من ناحية ثانية كانت لائحة الاتهامات التي وجهها السادات في خطابه الـــى الاتحـــــاد السوفييتي طويلة وعنيفة • وفيما يلي اهم النقاط التي ركز عليها السادات في تقديمـــه لقرار الغاء معاهدة الصداقـــــة والتعـــــاون وتبريرها : (١) رفض ما يقال « في العالـــم العربي » حول العزلة السياسية التي يعانـــي منها النظام المصري مع الزعم على ان نظامه يتحرك في كل الاتجاهات لتحقيق التضامـــن العربي وتكوين رأي عام دولي يشجب الاحتلال الاسرائيلي • وواضح ان السادات يحاول هنا تغطية النتائج السياسية (وغير السياسية) السلبية التي افرزتها اتفاقية سيناء بالنسبة لنظام حكمه • واكد هذه التغطية بقوله أن « مصر تحدت اسرائيل بقضية الســـــلام » فصدرت التفكك والتمزق العربيين الى المجتمع الاسرائيلي كما ابعدت الصراع العربـــــي الاسرائيلي عن الاستقطاب الدولي ونوعـــت مصادر تسليحها وابقت المبادرة بيدها هي • والكلام عن ابعاد الصراع عن الاستقطـــــاب الدولي والتنويع بمصادر السلاح وابقاء المبادرة بيد مصر لا يمكن ان يعني الا ان الدعـــم السوفييتي التقليدي للموقف العربي بالسـلاح والدبلوماسية لم يعد مرغوبا فيه من جانـــب السادات كما يعني ان العلاقات الوثيقة مـع الاتحاد السوفييتي كانت تمنع مصر من اخـذ زمام المبادرة • (٢) التأكيد على ان المصلحة القومية تقتضي تجريد اسرائيل من اخطـــر سلاح استخدمته ضد العرب وهو الانحيـــاز الامريكي الكامل الى الجانب الاسرائيلـــي • لذلك لا يمكن اعتبار العداء التقليدي لامريكـا موقفا ثابتا بل يجب العمل على تغييره وهذا ما فعلته مصر بالفعل من خلال حرب اكتوبـر ، واعتبر السادات هذا التحول فرصة ثميلـة لا يجوز للعرب اضاعتها •وهنا كرر السادات رأيه المعروف القائل بان ٩٩ بالمئة من اوراق اللعبة الدبلوماسية في الشرق الاوسط هي بيد امريكا شئنا ذلك ام لم نشأ « زعـــل الاتحـــــاد السوفييتي مننا ام لم يزعل » اذ بعد حرب اكتوبر « غيرت امريكا موقفها المنحاز انحيازا اعمى لاسرائيل وجاءت الينا وليس مـــــن مصلحتنا القومية رفض ذلك » • (٣) لخص

السادات سياسة الاتحاد السوفييتي في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ بما يلي : (ب) العمل على خلق محاور في العالم العربي بحيث ترتبط به ارتباطا مباشرا مع كل ما يعنيه هذا من التقسيم الذي يحصل على الصعيد العربي ، (ب) العمل على ربط الدول النامية وحركات التحرر الوطني بالاتحاد السوفييتي ربطا لا يقوم على مصالح الثورة والمشاركة في النضال ضد الامبريالية بل على مصالح الاتحاد السوفييتي بصفته دولة عظمى ، (ج) معارضة التوجه نحو السلام الذي سعت مصر الى تحقيقه ، (د) التشدد في التعامل مع مصر عسكريا واقتصاديا ، (هـ) معارضة سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي التي اخذت تسير عليها مصر ، (و) الفصل بين انجازات الثورة المصرية ونظام الحكم القائم حاليا في البلد بدلا من اعتبار هذا النظام استمرارا شرعيا للثورة المصرية ٠ واستشهد السادات على ذلك بفقرة وردت في خطاب برجنيف في المؤتمر الاخير للحزب الشيوعي السوفييتي حيث اشار الى ان مصر تعرضت لمحاولات هدفها نسف انجازات الثورة السياسية والاجتماعية ٠ (٤) اتهام الاتحاد السوفييتي بالتباكي على جمال عبد الناصر و « حمل قميصه » في حين انهم عاقبوا الزعيم الراحل بمنع شحنات الذخيرة عنه عندما شن حرب الاستنزاف وشحنات الاسلحة الهجومية مما اضطره الى الموافقة على مشروع روجرز ٠ (٥) اتهام الاتحاد السوفييتي بعدم تزويد مصر بما يكفي من السلاح حيث قال السادات « لو ان الاتحاد السوفييتي بعت لي ربع ما راح لليهود في الكوبري الجوي كنت خلصت سيناء من زمان » كما وعاد الى تكرار نغمته المعروفة بأن السوفييت لم يعوضوا خسائر مصر في الاسلحة بعد حرب اكتوبر وانهم ما زالوا مصرين على رفض جدولة الديون على الرغم من الوضع الاقتصادي المتدهور في البلاد ٠ واتهم السوفييت بمنع الهند من تزويد مصر بقطع الغيار التي تحتاج اليها ٠ (٦) اتهام الاتحاد السوفييتي وسوريا بمطالبته وقف اطلاق النار في الايام الاولى لحرب اكتوبر ٠ وجه السادات هذا الاتهام على الرغم من ان وقف اطلاق النار في الايام الاولى من حرب اكتوبر كان لصالح الجانب العربي لانه كان في ذروة انتصاراته ٠ اي ان وقف اطلاق النار في تلك اللحظات ـ على افتراض ان اسرائيل والولايات المتحدة كانتا ستوافقان عليه وهو افتراض غير معقول قطعا ـ كان سيمنع حدوث النكسات التي مني بها الموقف العسكري العربي يومها بعد ان اخذ الهجوم الاسرائيلي المعاكس مداه ٠ (٧) خلص السادات الى ان الاتحاد السوفييتي يضغط على مصر من اجل تركيعها وبما انه يرفض مثل هذا الاذلال لبلاده فانه يقترح على مجلس الشعب الغاء معاهدة الصداقة والتعاون التي كان قد وافق عليها المجلس ذاته في ١٩٧١ ٠

□ في مجلس الشعب عرض وزير الخارجية المصري اسماعيل فهمي مذكرة حول العلاقات المصرية السوفييتية وتطورها اتهم فيها الطرف السوفييتي بالتدخل في الشؤون الداخلية للشعب المصري بصورة مباشرة وغير مباشرة وهذا يعني انتهاكا لنصوص المعاهدة المطلوب الغاؤها ٠ كما اتهم فهمي الاتحاد السوفييتي بعدم تنفيذ ما نصت عليه المعاهدة من دعم لقدرات مصر الدفاعية مما يعني ان السوفييت يريدون تجريد المعاهدة من كل فاعليتها ٠ وبطبيعة الحال فقد أقر مجلس الشعب اقتراح السادات بالغاء المعاهدة ورافق ذلك الغاء التسهيلات البحرية الممنوحة للسفن الحربية السوفييتية في الموانىء المصرية ٠

وكما هو متوقع ولد هذا الالغاء ردود فعل دولية ومحلية متعددة اهمها رد الفعل الامريكي الذي رأى في هذا الاجراء وفي خطاب السادات « خطوة اخرى نحو انهاء اعتماد مصر على الاتحاد السوفييتي وتصميمها على الاتجاه نحو الغرب » ٠ وذكر مسؤولون في الخارجية الامريكية ان ما جاء في خطاب السادات حول الاتحاد السوفييتي «سيعطي الحكومة الامريكية قدرة اكبر في محاولاتها اقناع الكونغرس بان مصر صادقة في انهاء اعتمادها على السوفييت ٠ » اما كيسنجر فقد امتدح السادات قائلا بان الرئيس المصري « اضعف علاقاته بالاتحاد السوفييتي او هو أنهاها من

دون ان يطلب منا شيئا بالمقابل » • كما اكد كيسنجر بان حكومة بلاده ما زالت ملتزمة بتقديم المساعدة اللازمة للاطراف المعنية بالصراع في الشرق الاوسط من اجل تحقيق المزيد من التقدم نحو السلام •

في دمشق نددت وسائل الاعلام بخطاب السادات وبالغاء المعاهدة واعتبرت كلامه « مشحونا بالمغالطات والتناقضات » كما اكدت تمسك النظام المصري وارتباطه بالدور الامريكي في المنطقة • رأت المراجع السورية في الغاء المعاهدة اجراء هدفه تأكيد تبعية نظام السادات للولايات المتحدة واستكمالا طبيعيا لاتفاقية سيناء التي تهدف الى تمزيق وحدة الصف العربي والقضاء على تضامنه • واعتبر الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ـ عبد المحسن ابو ميزر ـ الغاء الاتفاقية « خطوة لا تساهم في تدعيم الصداقة والتعاون بين الامة العربية ومنظومة الدول الاشتراكية كما انها لا تخدم مصلحة الامة العربية او القضية الفلسطينية في وقت لا تأل الامبريالية جهدا في مساندة الكيان الصهيوني ضد المصلحة العربية » •

بالنسبة للاتحاد السوفييتي فقد جاء رده على مستوى رفيع من الاتزان وبعد النظر • تقدمت السلطاتالسوفييتية بمذكرة دبلوماسية الى السلطات المصرية المعنية حملت فيها السلطات المصرية المسؤوليات الخطيرة المترتبة على عملها هذا وعلى سعيها لتعقيد العلاقات السوفييتية ـ المصرية والقضاء على التعاون بين البلدين • واتهمت المذكرة الزعامة المصرية بالانحراف عن مبادىء المعاهدة وبالانجرار وراء الاجراءات المنفردة ، وهي الاجراءات التي « وضعت مصر عمليا على هامش المعركة لتحرير الاراضي المحتلة • » كذلك اكدت المذكرة عزم الاتحاد السوفييتي على مواصلة جهوده في دعم نضال الشعوب العربية ضد الامبريالية والاستعمار ومن اجل تحرير الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني • وكما هو معلوم رفض الجانب المصري تسلم المذكرة• اما الاعلام السوفييتي فقد ابرز عدة نقاط تكشف عن الفهم السوفييتي لمعنى الغاء المعاهدة وكانت اهم هذه النقاط : (أ) ان النظام المصري تخلى عنالكفاح ضد الامبريالية والاستعمار وتراجع عن الدور الرئيسي الذي قامت به مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو داخل حركات التحرر الوطني ، (ب) ان الصحافة العربية تعتبر الخطوة المصرية بمثابة تواطؤ صريح مع الامبريالية الامريكية والصهيونية والاتجاهات الرجعية ، (جـ) ان خطوة السادات احدثت ابتهاجا في تل ابيب التي يسعدها اضعاف الجيش المصري والشقاق الحاصل بين الدول العربية والعزلة المتزايدة التي وقعت فيها مصر ، (هـ) ان وراء خطوة السادات ايضا رغبة في الحصول على مساعدات مالية امريكية بالاضافة الى مساعدات مشابهة من الانظمة العربية الرجعية •واشارت الصحافة السوفييتية بهذا الصدد الى ان الغاء المعاهدة جاء بعد زيارة السادات للمملكة العربية السعودية وحصول مصر على معونة سعودية قدرها ٣٠٠ مليون دولار مما يعني ان الغاء المعاهدة كان احد الشروط المطلوبة لحصول السادات على هذه المساعدات ، (و) ان الغاء المعاهدة يتناقض مع مصالح مصر الوطنية الاساسية بدفعها الى فلك الغرب كما يلحق ضررا بالقضية العربية ولا يخدم الا القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية ، اي القوى المعادية تماما لمصالح الشعوب العربية• يضاف الى ذلك التأكيد على ان التعاون مع الاتحاد السوفييتي هو الذي ابرز ظاهرة معينة مهمة مثل اجتياح خط بارليف على يد جنود وضباط انهوا تدريبهم في الاتحاد السوفييتي مستخدمين دبابات ومعدات سوفييتية والشيء ذاته يقال بالنسبة للطيارين العرب الذين حموا سماء مدنهم وبلادهم في وجه القاذفات الاسرائيلية الامريكية الصنع ، (ز) ان الغاء المعاهدة هو نتيجة منطقية لسياسات السادات واسماعيل فهمي الداعية للتوجه نحو الغرب والى الانفتاح الاقتصادي تحت ستار فكرة التوازن بين الشرق والغرب وهي السياسات نفسها التي تريد جذب رؤوس الاموال الخاصة الى مصر ومنح المستثمرين الغربيين كل الامتيازات التي يريدونها والتخلي عن المكتسبات الاجتماعية

والسياسية التي حققتها الثورة المصرية ٠

نجد التتمة المنطقية لقيام السادات بالغاء معاهدة الصداقة والتعاون في جولته الاوروبية طلبا للمعونات الاقتصادية والعسكرية ٠ شملت جولة السادات كلا من المانيا الغربية وفرنسا وايطاليا ويوغوسلافيا والنمسا ٠ وتركزت محادثاته في هذه البلدان على مراجعة الاوضاع الراهنة في المنطقة العربية ، مشكلات الحوار العربي الاوروبي ، مؤتمر جنيف ومستقبله ، والعلاقات الثنائية بين مصر وكل من هذه البلدان ، هذا بالاضافة الى مسألتي السلاح والمعونات الاقتصادية ٠ وجدير بالذكر هنا ان السادات بعث بوزير حربيته الجمسي الى باريس قبل بدء جولته الاوروبية لاجراء مفاوضات تمهيدية من اجل الحصول على السلاح الفرنسي ٠ وقد صرح الجمسي نفسه عند وصوله الى باريس بانه يرغب في الاطلاع والتعرف على الجيش الفرنسي بصورة افضل والحصول على بيانات دقيقة حول تشكيلات القوات المسلحة الفرنسية وصناعة الاسلحة في البلاد ٠ واعتبر الوزير المصري زيارته ناجحة وايجابية للغاية ٠ كما اعلن وزير الدفاع الفرنسي بانه وضع مع الجمسي برنامجا للتعاون على مدى سنوات عدة ٠ اما الرئيس السادات فقد جعل محطته الاوروبية الاولى المانيا الغربية على اعتبار ان الدولة المذكورة مرشحة للقيام بدور هام في الكونسورتيوم المالي الغربي الذي سيختص بانقاذ الاقتصاد المصري والذي رسمت خطوطه العريضة اثناء زيارة السادات الاخيرة للعربية السعودية ٠ وتشترك في هذا الكونسورتيوم الدول العربية الغنية وايران والولايات المتحدة واليابان بالاضافة الى المانيا الغربية ٠ الا ان الحكومة الالمانية اعلنت مسبقا ان السادات لن يحصل على الكثير منها من باب المساعدات العسكرية او المالية المباشرة ٠ في الواقع صرح ناطق الماني رسمي بأن المانيا ستقدم « بعض » المساعدات الاقتصادية لمصر فقط ولن تزودها باية اسلحة تمشيا مع السياسة الالمانية الداعية الى عدم شحن السلاح الى المناطق التي يسودها التوتر ٠ واعلن السادات من جانبه في مؤتمر صحفي عقده في بون بانه لم يبحث مع المستشار الالماني شميت امكانية حصول مصر على اسلحة المانية كما بين اتفاقه مع المستشار بان التوصل الى السلام الدائم في الشرق الاوسط يجب ان يتم عن طريق المفاوضات٠ ولم تسفر هذه الزيارة الا عن تقديم مساعدة مالية المانية لمصر قدرها ٢٣٠ مليون مارك (٩٠ مليون دولار) لا اكثر ٠ وجدير بالاشارة ان الحكومة الالمانية استمرت في رفضها الموافقة على افتتاح مكتب لمنظمة التحرير في بون قبل اعتراف المنظمة باسرائيل٠

في باريس تباحث السادات مع الرئيس الفرنسي للمرة الثالثة في الاشهر الخمسة عشر الماضية وتناولت محادثاتهما الحرب الاهلية في لبنان بالاضافة الى الموضوعات المعروفة المتعلقة بالنزاع في المنطقة وعلى رأسها المساعدات الاقتصادية والعسكرية لمصر ٠وادلى السادات بعدد من التصريحات في باريس دعا فيها الرئيس فرنجية الى الاستقالة وهاجم سوريا على عجزها في لبنان واكد ان مؤتمر جنيف ما زال الاطار الاكثر ملاءمة لمناقشة التسوية الشاملة لازمة الشرق بحضور جميع الاطراف المعنية بما في ذلك منظمة التحرير ، ومؤكدا بان انعقاد المؤتمر سيكون مستحيلا ما لم يقل كل من السوريين والاردنيين والفلسطينيين كلمتهم الاخيرة بشأن اشتراكهم في المؤتمر ٠ كذلك اتهم الاتحاد السوفييتي بانه كان المسؤول عن انهاء معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين وهاجم حصول ليبيا على اسلحة سوفييتية ٠ يضاف الى ذلك تأكيد السادات قناعته بان فرنسا ستذهب الى ابعد مدى في تقديم المعونات الى مصر على الصعيدين الاقتصادي والعسكري ٠ اما المسؤولون الفرنسيون فقد اعلنوا ان مفاوضات التعاون العسكري الطويل الاجل مع مصر تحرز تقدما مرضيا ٠ وظهرت تكهنات صحفية عديدة عن نوعية الاسلحة التي تستعد فرنسا لبيعها الى مصر وكمياتها الا انه لم تتأكد اية حقائق بعد على هذا الصعيد باستثناء ما هو معروف عن طلب السادات الحصول على دبابات وطائرات فرنسية ٠

في روما لم تقتصر اجتماعات السادات على كبار المسؤولين الحكوميين بل تعدتها لتشمل كبار رجال الصناعة في محاولة لجذب التكنولوجيا الغربية الى مصر ومن اجل تسيير مشاريع التنمية استنادا الى الرأسمال العربي والتكنولوجيا الايطالية والايدي العاملة المصرية على حد قول السادات • وذكرت المصادر الرسمية الايطالية بان المحادثات مع الرئيس السادات جرت في جو من الود والصراحة وتناولت الموقف في الشرق الاوسط وامكانيات التعاون الاقتصادي الثنائي ، كما اشارت الى ان السادات اوضح بان مؤتمر جنيف لن ينعقد قبل انتهاء انتخابات الرئاسة الامريكية •وعلى اثر انتهاء الزيارة صدر بيان مشترك جاء فيه : (أ) ان الجانبين وافقا على الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني الذي يسعى لاقامة دولة مستقلة خاصة به ، (ب) ان السلام العادل في المنطقة يجب ان يرتكز على انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة وعلى حق جميع الدول في المنطقة بالعيش بسلام واحترام سيادة كل منها ووحدتها واستقلالها (جـ) ان الحكومة الايطالية وافقت على تقديم قروض مالية لمصر بمبلغ ٤٠ مليون دولار •

لم يبحث السادات في مواضيع التسلح والاعانات الاقتصادية في عاصمة النمسا مع *المستشار كرايسكي* وقد لخص هدف زيارته بالعمل على اقامة علاقات حسنة مع هذا البلد الاوروبي المحايد ، هذا بالاضافة الى الاطلاع على « الاشتراكية النمساوية » التي عبر السادات مرارا عن اعجابه بها وعن رغبته في تطبيقها في مصر في المستقبل القريب • طبعا بحث السادات موضوع التسلح مع الرئيس تيتو اثناء زيارته لبلغراد اذ اعلنت وزارة الخارجية اليوغسلافية بان الحكومة تدرس طلبا كانت قد تقدمت به مصر للحصول على اسلحة من يوغسلافيا • وعلى اثر انتهاء زيارته ليوغسلافيا صدر بيان مشترك وصف المحادثات بانها «اتسمت بالصراحة والصداقة» ومن المعروف ان كلمة « الصراحة » في البيانات المشتركة تعني عادة وجود خلافات في وجهات النظر • ولم يتطرق البيان الى موضوع تزويد مصر باسلحة يوغسلافية • ويبدو بصورة عامة ان سياسة السادات كما تبينت في جولته الاوروبية وضعت مصر على طريق تزويد جيشها بتشكيلة غير متجانسة من الاسلحة وتوابعها • هذا التشتت في التسليح سيكون النتيجة الحتمية لتوجه السادات نحو كل من فرنسا والمانيا الغربية وبريطانيا وايطاليا حيث سيحصل على بضع عشرات من الطائرات من هذه الدولة وعلى عدد من الدبابات من تلك وعلى بعض المدافع من مكان اخر وهلم جرا •

☐ التطور الهام الاخر الذي يلفت الانتباه كان الانعكاس الدولي للانتفاضة الشعبية في الاراضي الفلسطينية الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي • وكان اهم مظهر لهذا الانعكاس انعقاد مجلس الامن لبحث « الموقف المتوتر في الضفة الغربية ومدينة القدس » واتخاذ الاجراءات العاجلة والفعالة لوقف تدهور الموقف هناك خاصة بعد تفاقم القمع الاسرائيلي للمظاهرات العنيفة الهادفة الى مقاومة الاحتلال الاسرائيلي ، وبالاضافة الى النقاط المذكورة اشارت الدول الداعية لانعقاد مجلس الامن الى الضرر الذي سيلحقه الموقف الحالي في الضفة الغربية باحتمالات التسوية السلمية في المنطقة • كما طالبت باشتراك منظمة التحرير في مناقشات المجلس • من ناحية أخرى قررت اسرائيل تبديل سياستها السابقة الداعية الى مقاطعة الاجتماعات التي تشارك فيها منظمة التحرير مسلحة بهذا الامر الواقع فشارك وفدها في اجتماعات مجلس الامن • كان ابرز ما اظهرته مداولات المجلس الموقف الامريكي كما عبر عنه وليام سكرانتون الذي بدأ بالاعتراض على مشاركة منظمة التحرير في المناقشات وتصويته ضد دعوتها لحضور جلسات المجلس ثم انتقل الى القاء خطاب انتقد فيه اسرائيل على ضمها للقدس وتأكيده مجددا الموقف الامريكي التقليدي من المدينة المقدسة القائل بعدم جواز تقرير مستقبل القدس من جانب طرف واحد بالاضافة الى توجيه النقد لسياسة

اسرائيل العاملة على توطين اعداد كبيرة من الاسرائيليين في الاراضي المحتلة معتبرا هذا العمل عقبة في وجه نجاح مفاوضات السلام في المنطقة ومخالفا لنصوص معاهدة جنيف • واوضح سكرانتون بان انتقاداته المذكورة لا تعبر عن موقف امريكي جديد بل تشدد على موقف بلاده المعروف كما جرى اعلانه في السابق • وكانت خاتمة الموقف الامريكي استخدام الفيتو لنقض قرار معتدل جدا لا توافق عليه اسرائيل • على الرغم من ذلك اعتبرت اسرائيل خطاب سكرانتون في مجلس الامن خروجا على السياسة الامريكية المعلنة في الشرق الاوسط وهاجمته بعنف وعبرت عن استيائها منه صياغة ومضمونا •

حرصت مجموعة الدول غير المنحازة في المجلس على استخدام عبارات معتدلة جدا في صياغة مشروع القرار - بناء على نصيحة اصدقاء امريكا - من اجل تجنب الفيتو الامريكي • نص مشروع القرار في صياغته الاخيرة على النقاط التالية : (ا) ابداء القلق العميق لخطورة الوضع الناشيء في الاراضي المحتلة نتيجة استمرار الاحتلال الاسرائيلي (ب) ابداء القلق العميق من الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية والتي ادت الى تدهور الوضع هناك بما في ذلك الاجراءات الهادفة الى تغيير معالم الاراضي المحتلة وطابعها الثقافي والسكاني والديني واقامة المستوطنات الاسرائيلية فيها (ج) التأكيد على عدم جواز ضم الاراضي عن طريق الحرب (د) التأكيد على قرارات الجمعية العامة ومجلس الامن السابقة التي طالبت اسرائيل بالغاء جميع الاجراءات المشار اليها والامتناع عن اتخاذ اية خطوات اخرى من شأنها تغيير وضع مدينة القدس وطابع الاراضي العربية المحتلة (هـ) الاشارة الى اصرار اسرائيل على سياستها المذكورة على الرغم من قرارات المنظمة الدولية السابقة (و) التعبير عن الاسف لان اسرائيل لم تضع حدا للاجراءات والسياسات الرامية الى تغيير وضع مدينة القدس ولم تلغ الاجراءات التي نفذتها السابق (ز) مطالبة اسرائيل لحين انهاء احتلالها الامتناع عن اتخاذ اية اجراءات ضد السكان العرب في الاراضي المحتلة (ح) مطالبة اسرائيل باحترام الاماكن المقدسة الواقعة تحت احتلالها ومراعاة حرمة هذه الاماكن والتخلي عن سياسة مصادرة واستملاك اراضي العرب وممتلكاتهم واقامة المستوطنات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة والتخلي عن جميع الاجراءات والسياسات الاخرى الرامية الى تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس (ط) متابعة تطورات الموقف بصورة مستمرة بغية الانعقاد من جديد اذا اقتضت الظروف • وعلى الرغم من ان مشروع القرار نال تأييد كل الاصوات في مجلس الامن فقد ابطلت الولايات المتحدة مفعوله باستعمالها حق النقض • وبرر سكرانتون موقف حكومته بقوله ان القرار في حال تبنيه من جانب مجلس الامن سيشكل عقبة على طريق ايجاد تسوية سلمية في المنطقة خاصة وانه لايعكس الموقف في الاراضي المحتلة على حقيقته لان سلوك اسرائيل بالنسبة للاماكن المقدسة جدير بالثناء على حد قول المندوب الامريكي • ولا شك ان السبب الحقيقي وراء الموقف الامريكي هو الرغبة في منع منظمة التحرير من التسلح بقرار صادر عن مجلس الامن يمكنها استخدامه في صراعها الدبلوماسي ضد الاحتلال الاسرائيلي والكيان الصهيوني •

يجب ان ننظر الى الزيارة الاخيرة التي قام بها الملك حسين الى واشنطن على ضوء ما كان قد تردد حول وجود مبادرة امريكية تهدف الى انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل • عشية سفره صرح الملك حسين بان الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية كبيرة بالنسبة للسلام والاستقرار في منطقتنا وبالنسبة للسلام والامن الدوليين • ومن ناحية اخرى ذكرت المصادر الامريكية ان الموضوع الرئيسي في محادثات الملك حسين مع فورد وكيسنجر هو الضفة الغربية ، طبعا بالاضافة الى المواضيع التقليدية مثل طلب الاسلحة والمساعدات الاقتصادية • في الواقع احيطت محادثات حسين في واشنطن بتكتم شديد ولم يصدر الا بيان مقتضب عن البيت الابيض

صيغ بعبارات تقليدية جدا وبمنتهى التعميم مما لا يفيد شيئا • وربما اشار هذا التكتم الزائد الى وجود علاقة حقيقية بين زيارة حسين والمبادرة الامريكية المذكورة لانهاء حالة الحرب • وجدير بالاشارة ان الملك حسين اجتمع الى عدد من كبار رجال الاعمال والصناعة في الولايات المتحدة حيث دعاهم الى تحمل مسؤولياتهم تجاه تحقيق السلام في الشرق الاوسط لان « السلام ليس ممكنا دون تدخلكم لانكم تمسكون المفتاح » على حد قول الملك •

(٢) المناطق المحتلة

الانتفاضة ثورة مستمرة

• يمكن وصف المرحلة الاخيرة من الانتفاضة التي ما زالت تستعر في الضفة الغربية ، بانها مرحلة الثورة المستمرة • ويمكن تأريخ بداية هذه المرحلة مع يوم الصلاة الكبرى في المسجد الاقصى ، يوم الجمعة في ٧٦/٣/١٩ • اذ دعا ائمة المساجد والمنشورات السرية التي وزعت قبل ايام قليلة من ذلك التاريخ ، المواطنين الى التوجه الى المسجد الاقصى للقيام برد عملي على قرارات التهويد والقمع الاحتلالية الاسرائيلية • وبالفعل فقد توجه الالاف من ابناء الشعب الفلسطيني الى باحة المسجد الاقصى وخرجوا بعد اداء الصلاة في شوارع القدس يحملون سعف النخيل ويرفعون ايديهم بشعار منظمة التحرير الفلسطينية راسمين اشارة النصر ويهتفون بالشعارات المعادية للاحتلال • ولم تكن القدس وحدها تتحدى الاحتلال في ذلك اليوم ، بل شاركتها مختلف مدن الضفة الغربية • وفي خلال تلك المظاهرات سقط الطفل الفلسطيني علي حسين البالغ من العمر احد عشر عاما اثر اصابته برصاصة في رأسه خلال مظاهرة قامت في قريته ابو ديس القريبة من القدس • وكان الى جانب هذا الطفل قد جرح شخصان وتسعة اخرين في طولكرم والقرى المحيطة •

وفي غمرة المظاهرات المتواصلة هذه ، قامت سلطات الاحتلال باعادة اغلاق صحيفة الشعب متذرعة بنشر الصحيفة موضوعات تحرض المواطنين على التظاهر والاحتجاج • وقد اتخذ هذا القرار بمنع الصدور لمدة ١٤ يوما ابتداء من تاريخ ٧٦/٣/٢٢ • والى جانب ذلك منعت سلطات الاحتلال بشير البرغوثي رئيس تحرير صحيفة الفجر التي تصدر هي الاخرى في القدس من الالتحاق بعمله او مغادرة مدينة رامالله التي قصدها في زيارة قصيرة •

ومنذ يوم الصلاة الكبرى ـ المظاهرة الكبرى، بدأت الانتفاضة تتصاعد نوعيا من جهة وتأتي بعض ثماراتها من جهة اخرى • فلم يكن طفل ابو ديس هو الذي سقط وحده منذ ذلك التاريخ • اذ ان حملة القمع المسعورة التي قامت بها سلطات الاحتلال بلغت ذروتها الجنونية الى الحد الذي دفعت برجال الشرطة الى الاجهاز على رجل عربي من سلفيت يبلغ من العمر ٤٠ سنة اثناء التحقيق معه بعد ان اعتقل لاشتراكه في مظاهرة • وهكذا فانه نتيجة لاتساع مدى المظاهرات واشتدادها ، وبالتالي اتساع حملة القمع والارهاب فقد سجل النضال الشعبي في الضفة الغربية سقوط العديد من المناضلين شهداء الحرية والخلاص الوطني •

وهكذا فان حالة الاضراب والاضطراب المنظم الذي شهدته الضفة الغربية على مدى اسابيع

متواصلة ، بدأت من ذلك التاريخ - يوم الصلاة الكبرى - تحدث اصداء قوية علىمختلف الاصعدة ، الاسرائيلية منها والعربية والدولية. ففي اسرائيل طالب الجنرال اريك شارون مستشار رئيس الوزراء باتخاذ اجراءات اكثر فاعلية لقمع الانتفاضة وقال ان ما تشهده الضفة الغربية الان يمثل نذير احداث اكثر خطورة . وهدد بتقديم استقالته اذا لم تستعمل السلطات كل امكاناتها لقمع الانتفاضة . وفي تلك الاثناء اخذت الصحف الاسرائيلية تفرد افتتاحياتها للحديث عن الانتفاضة وللتحذير من مخاطرها الى الحد الذي دفع صحيفة اومر لوصف الانتفاضة بانها « اخطر ما حدث خلال السنوات الثماني الماضية » (اومر ٧٦/٣/١٩) . وعلى الصعيد العربي بدأ صوت الضفة الغربية يدوي في كل العواصم العربية من خلال ما نقلته وكالات الانباء ومراسلو شركات التلفزيون الاجنبية من مشاهد البطولة الفلسطينية وما يقابلها من وحشية وفاشية صهيونية . ففي عمان مثلا دعا مكتب رابطة العالم الاسلامي الى جعل يوم الجمعة ذاته يوما للتضامن مع سكان الاراضي المحتلة دعما لانتفاضتهم . كما اصدر مجلس المنظمات والجمعيات الاسلامية في الاردن بيانا مماثلا . الا ان التطور الاكثر اهمية هو قيام حكومتي ليبيا وباكستان بتوجيه رسالة الى رئيس مجلس الامن الدولي طلبتا فيها عقد اجتماع عاجل للمجلس لبحث الموقف المتوتر فيالضفة الغربية ومدينة القدس. وطالبتا باتخاذ اجراءات عاجلة وفعالة لعدم احترام اسرائيل لقرارات الامم المتحدة ، كما طالبتا ايضا باشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في المناقشات . اما في بيروت فقد عقدت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير اجتماعا استغرق ثلاث ساعات « للبحث في تطورات الوضع في الوطن المحتل وانتفاضة الشعب ضد الاحتلال العنصري . وقررت اللجنة توجيه كل الطاقات من اجلدعم الانتفاضة وتحقيق النجاح للاضراب الفلسطيني العام يوم ٣٠ اذار » (وفا ٧٦/٣/٢٣) . اما في الضفة الغربية فان احد ابرز النتائج المباشرة للانتفاضة ،اضطرار الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل الى تقديم استقالته من منصبه . فقد اعتبرت وكالات الانباء هذه الخطوة من جانب الجعبري بمثابة دليل على ان التيار المناهض للاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية والمؤيد للمقاومة الفلسطينية بات الاقوى ، ولم يعد الزعماء الذين تربطهم علاقات معروفة بالسلطات الاسرائيلية كالجعبري قادرين على الوقوف في وجه هذا التيار . وكان الجعبري قد برر استقالته باقدام القوات الاسرائيلية علىاقتحام مبنى البلدية وتحطيم اثاثه واعتدائها بالضرب على عدد من الطلاب والموظفين الذين كانوا فيه .

وفي نطور اخر على صعيد الضفة الغربية ، قامت سلطات الاحتلال الاسرائيلي بابعاد مواطنين الى الاراضي اللبنانية يوم ٧٦/٣/٢٨ وهما الدكتور احمد حمزة النتشة والدكتور عبدالعزيز الحاج احمد ، الاول من مدينة الخليل والثاني من مدينة البيرة . وبررت السلطات الاسرائيلية اجراءها هذا باتهام هذينالمواطنين الفلسطينيين بالتحريض على المظاهرات والاخلال « بالامن » . ومن الجدير ذكره انه في مؤتمر صحفي عقداه في بيروت يوم ٧٦/٣/٢٩ قال الدكتور النتشة ان الجماهير الفلسطينية تخوض عبر انتفاضتها « ثورة حقيقية ضد الاحتلال الصهيوني العنصري ، وترفضه وتؤكد ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد لجميع الفلسطينيين» . ووصف ابعاده وزميله بانه « اجراء تعسفي ومخالف لابسط قواعد العدالة وللمواثيق الدولية » .

ولا بد من الاشارة الى ملمح هام وذي مغزى كبير في انتفاضة الضفة الغربية ، الا وهو مشاركتها لعرب الجليل في الاضراب الذي نظموه في ٧٦/٣/٣٠ تحت شعار يوم الارض ، احتجاجا على مصادرة اسرائيل لما مساحته ٢٠ الف دونم منالاراضي العربية هناك .فبالاضافة الى اعلان حالة الاضراب في بعض المدن الكبيرة كنابلس ورام الله ، اتسمت التحركات في الضفة الغربية بهذه المناسبة برفع الاعلام الفلسطينية واطلاق الشعارات المؤيدة لمنظمة التحرير . وفي محاولة لتطويق التحرك هذا ، لجأت السلطات الاسرائيلية الى فرض منع

التجول في عدد من مدن الضفة وقراها ، كما منعت التنقل بين مدن الضفة الغربية والمدن الاخرى ، لمنع مشاركة الجماهير الفلسطينية في الجليل غضبتها على اجراءات المصادرة الاسرائيلية ٠

ولم تتوقف الانتفاضة، بل ظلت تتجدد يوميا في كل مدن الضفة الغربية وقراها ٠ متحدية بطش العدو وقمعه ، واجراءات منع التجول والابعادات وغيرها ، مثبتة بذلك كله قدرة الجماهير الفلسطينية على مواصلة العطاء الخصب ، دما وتضحيات وآلاما عظيمة ، وما قافلة الشهداء التيقدمتها الجماهير الفلسطينية في يوم الارض وفي ايام الانتفاضة المتواصلة ، الا برهانا على الطاقات العظيمة التي تختزنها هذه الجماهير لمواصلة النضال بكافة اشكاله ، لدحر الاحتلال ، مقدمة لانتزاع حريتها واستقلالها ٠

الانتخابات البلدية

كما كان مقررا سلفا ، جرت الانتخابات البلدية في الضفة الغربية في الثاني عشر من نيسان (ابريل) الماضي ، حيث تنافس ٥٧٧ مرشحا للاحتلال ٢٠٥ مقاعد تتوزعها ٢٤ مدينة٠

وهذه هي المرة الثانية التي تجري فيها انتخابات للمجالس البلدية في الضفة الغربية تحت ظل الاحتلال ٠ وقد حققت العناصر الوطنية والتقدمية الملتزمة بمنظمة التحرير الفلسطينية فوزا ساحقا في هذه الانتخابات ٠ فبينما سيطرت هذه العناصر سيطرة كاملة على بعض المجالس البلدية ، خاصة في المدن الكبيرة، كالخليل ورام‌الله وطولكرم، استطاعت ان تحوز على اغلبية مقاعد مجالس البلدية الاخرى ، وان توصل بعض مرشحيها الى مجالس كانت تاريخيا بايدي المحافظين والتقليديين من المرتبطين بالنظام الاردني والمتعاونين مع سلطات الاحتلال الاسرائيلي ٠

وبنتيجة هذا الفوز الذي يعتبر حدثا تاريخيا بحد ذاته ، تستطيع منظمة التحرير اعتباره استفتاء جديدا على احقية تمثيلها للشعب الفلسطيني بدون منازع ، وبرهانا على التفاف اوسع الجماهير الفلسطينية حول برنامجها السياسي الذياقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة عام ١٩٧٤ ٠

وللتدليل على اهمية هذا الفوز الذي تحقق في هذه الانتخابات ، لا بد من اجراء مقارنة بين الظروف التي اجريت في ظلها وبين‌الظروف التي كانت سائدة وقت اجراء الانتخابات السابقة في العام ١٩٧٢ ٠

اولا : لقد جرت انتخابات العام ١٩٧٢ في ظل دعوة علنية من قبل كافة الفصائل المنضوية في منظمة التحرير الفلسطينية بمقاطعة تلك الانتخابات والتنديد بمرشحيها واهدافها ٠٠٠ الخ ٠ الامر الذي دفع بالقوى الوطنية ليس الى الاحجام عن ترشيح اعضائها فقط بل الى مقاطعتها ٠ ففازت العناصر التقليدية والرجعية مع بعض الاستثناءات كما حصل في مدينتي رام‌الله والبيرة ٠ غير انه في هذه المرة قررت القوى الوطنية في الضفة الغربية خوض معركة الانتخابات بدعم من منظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك للاستفادة من الحصانة النسبية التي توفرها المجالس البلدية لاعضائها ، في معركة النضال المستمرة لطرد المحتلين والظفر بالاستقلال ٠ اذن فان نتائج الانتخابات الاخيرة هذه لا يمكن النظر اليها الا من زاوية اصرار منظمة التحرير على اثبات وجودها الطاغي في الضفة الغربية واحقية تمثيلها للشعب الفلسطيني بدون منازع ٠ومن هذه الزاوية، فانه بقدر ما يحق لمنظمة التحرير الفلسطينية ان تفخر بانتصارها هذا ، فانه يحق للنظام الاردني ان يصاب بخيبة الامل مجددا بعدم قدرته على اثبات ادعائه بتمثيل سكان الضفة الغربية الفلسطينيين ٠

ثانيا : اجريت الانتخابات السابقة عقب سلسلة من الهزائم التي لحقت بالمقاومة الفلسطينية بدءا من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ واستمرت تحاصر الثورة ماديا وسياسيا حتى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ٠ بينما جاءت الانتخابات الاخيرة في ظل انتصار اكتوبر التاريخي وما اعقبه من نهوض وطني فلسطيني عبر عن نفسه في الضفة الغربية من خلال سلسلة

الانتفاضات التـــي كانت الانتفاضــة الاخيرة اهمها واكثرهــا شمولية • اذن فان نتائـــج الانتخابات السابقة في العام ١٩٧٢ كانـــت منسجمة مع المناخ العام الــذي اشاعته هزيمة حرب العام ١٩٦٧ وظروف الحصار الذي عاشته الثورة الفلسطينيةبينما جاءت نتائجالانتخابات الاخيرة فوق ارضية انتصار اكتوبر وسلسلــة الانتفاضات الجماهيرية التي عاشتها الضفــة الغربية خلال السنوات القليلة الماضية •

ثالثا : جاءت هذه الانتخابات في فترة برزت فيها الشخصية الفلسطينيـــة وتكرست فــي مجموع الانتصارات السياسية التي حققتهـــا منظمة التحرير الفلسطينية مؤخرا • بينمـــا لم تكن الفترة التي جرت فيها انتخاباتالعام ١٩٧٢ تشهد سوى المحاولات المستمرة للاجهــاز على الثورة الفلسطينية ومكتسباتها الوطنية• اي انه في العام ١٩٧٢ ، عندما كان يجـــري حديث عن « الشخصية الفلسطينية » ، فانها لم تكن مكرسة عبر انتصارات مادية وسياسية كما هو الحال في المرحلة الراهنة واللاحقة على حرب اكتوبر• حيث يرافق الحديث عن شخصية فلسطينية في هذه المرحلة ، نضال متواصــل لتأكيد استقلاليتها اولا ونزوعها الى الكيانية الخاصة ثانيا • ومن هنا فان الفوز الذي حققته لوائح الجبهة الوطنية الفلسطينية فــي هــذه الانتخابات ليس معزولا عن كل ما سبق ذكره، بل يمكن اعتباره تأكيدا جديدا على استقــلال الشخصية الوطنية الفلسطينية هذه ونزوعهــا الى بناء استقلالها الوطني • فقد قال كريــم خلف بعد فوز لائحته الوطنية في مدينة رامالله، ان هذه الانتخابات خطوة على طريق الدولــة الفلسطينية المستقلة ولكننا سنترك هذا الامر لمنظمة التحرير الفلسطينية التي لها وحدهــا الحق في التفاوض من اجل ذلك •

رابعا : سبق اجراء الانتخابات هذه طــرح مشروع الادارة المحلية من قبل وزير الدفــاع الاسرائيلي المسؤول عن المناطق المحتلة امــام الحكومة • وليس معنى ذلك ان الانتخابــات السابقة لم تجر في ظل احاديث طويلة ومسهبة عن مشاريع تسوية تصفوية تآمرية ، بل على العكس من ذلك • غير ان احاديث التسويات المشبوهة ارتبطت هذه المرة ، قبيل الانتخابات الاخيرة ، بطرح محدد عن مشروع لــلادارة المحلية جرى الترويج له من قبل الاحتلال وعقده لهذه الغاية جملة من الاجتماعات واللقاءات مع الزعامة التقليدية في المناطــق المحتلــة • واذا كانـــت الجماهير الفلسطينية الرازحة تحــت الاحتلال قد اعلنت مسبقا رفضهــا لمثل هــذه المشاريع عبر كل وسائل النضال المتاحة وفي طليعتها التظاهر والاضراب والاعتصام ، فــان فوز العناصر الوطنية سوف يكون عائقا جديدا وهاما في طريق تنفيذ مشروع الادارة المحليــة المؤامرة • وهكذا فانه عن طريق الحفاظ على وطنيـــة المؤسســات البلدية وضع الشعــب الفلسطيني عصا غليظة اخرى في دولاب الادارة المحلية • ورأت صحيفة معاريف الاسرائيلية في نتائج هذه الانتخابات ما هو ابعد مــن ذلــك بكثير حيث قالـــت ان هذه النتائج ستحــدد طبيعة العلاقات التــي ستقيمها الحكومـــة العسكرية من الان فصاعدا مع سكان المنطقة التي جرت فيها الانتخابات (معاريف ٤/١٢/ ٧٦) • ولهذا السبب بالذات ناشدت صحيفــة الفجر الوطنية التي تصدر في القدس ،صبيحة يوم الانتخابــات الناخبين بالاقتراع لصالــح المرشحين التقدميين ، وذلك لكي يتاح للشعب الفلسطيني مجددا التعبير عن رفضه لمشروع الادارة المحلية (الفجر ٧٦/٤/١٢) • وصحيح ان سلطات الاحتلال الاسرائيلي كانت تهدف من وراء الانتخابات الى تحرير مشروع الادارة المحلية ، غير ان الاصرار على التصدي لمثــل هذا المشروع منقبل القوى الوطنية الفلسطينية عقد مرارة بالغة في حلوق الاسرائيليين الذين لم يأملوا بتاتا بمثل تلك النتائج ، فقر عبرت صحيفة يديعوت احرونوت عن تلك المرارة قائلة ان هذه « الانتخابات فضلا عن انها مؤسفة فاننا صنعناها بايدينا ، لقد اردنا ان نضعف الشيوعيين وننشىء قوة سياسية تقف في وجه منظمة التحرير الفلسطينية ولكننــا فشلنا » (يديعوت احرونوت ٧٦/٤/١٣) • وهكذا فقــد انقلب السحر على الساحر • فعوضا عــن ان تأتي نتائج هذه الانتخابات لتصب في طاحونة مشروع الادارة المحليــة جاءت كما وصفهــا شمعون بيريز بانها « تحــول الــى الوطنيــة

واليسار والها تشكل تحديا لاسرائيل اكثر مما تشكل خطرا عليها » ٠

من ناحية ثانية قال الدكتور يهوشـواع بورات في تعليق بثته الاذاعة الاسرائيلية حول نتائج الانتخابات هذه ، انه لم يكن هنـاك شك في ان « القوائم الوطنية ستحقق انتصارا في جميع المدن ، ولكن الحقيقة انها استطاعت انجاح جميع اعضائها ، وهي حقيقة تشير اولا وقبلكل شيء اليان الانتخابات كانت سياسية في الاساس ، وذلك كتعبير عـن الاحتجاج ، وتضامنا مع منظمة التحرير الفلسطينية » ٠ وذكرت الاذاعة ان الشيوعيين احتلوا المكـان الاول بالنسبة لعدد المقاعد في المجالس البلدية، وقالت ان هناك ١٤١ منتخبا جديدا من بين ٢٠٥ اعضاء منهـم ٥٠ عضوا من القدامـى والباقي وعددهم ١٤ تم انتخابهم بالتزكية ٠ وعلـق البروفسور الاسرائيلي على نتائـج الانتخابات بقوله « ٠٠٠ لدي انطباع بـان الجمهور الاسرائيلي وحتى الذين قرروا اجراء الانتخابات ، لم يتوقعوا ان تكون انجـازات القوى الوطنية كبيرة الى هذا الحد ٠ وانـي اميل الى الاعتقاد بانه لو اعتقد المسؤولـون الاسرائيليون بان النتائج ستكون بهذا الشكل لما اجروا الانتخابات ، وهكذا فان المفاجأة فـي رأيي بان يكـون انتصار الشبـان اليساريين والوطنيين بهذا الشكل وبهذه الصورة الشاملة»

واضاف « اذا كانت اسرائيل استخدمت فـي العالم حتى الان شعار ان منظمـة التحريـر الفلسطينية لا تمثل الشعب الفلسطيني ، لان الشعب الفلسطيني لم يتم استفتاؤه ، فـان منظمة التحرير نستطيع ان تقول اليوم ، انه تحت الحكم الاسرائيلي جرى استفتاء للسكان، واظهرت النتيجة تأييدا للمنظمة اكثر مـن منافسيها » ٠ وقال بورات ايضا : « مـن الواضح ان الادعاء الاسرائيلي الذي كان قائما حتى اليوم والقائل ان منظمة التحرير لا تمثل الشعب الفلسطيني قد انتهى ، واعتقد باننا بعد هذه الانتخابات اذا قلنا بهذا الادعاء ، سنواجه بسخرية العالم من اقوالنا » (رصـد اذاعة اسرائيل ٧٦/٤/١٤) ٠ وشاركت صحيفة التايمس اللندنية بورات برأيه حين قالـت : « بعد هذه النتائج بات على اسرائيل اكثر من اي وقت الاعتراف بانه لا يمكن ابقاء الضفة الغربية جزءا من الدولة اليهودية الى مـا لا نهاية ٠٠٠ واذا لم يجد المسؤولون الاسرائيليون طريقة للتفاوض معمنظمة التحرير الفلسطينية حول مستقبل الضفة الغربية واستمروا فـي ترددهم ، فانهم يبدون كأنهم يقلدون اكثـر فاكثر مواقف الرئيس الروديسي ايان سميـث وسياسته ، وقد يأتـي يـوم يشاركونه في المصير » (نقلا عن جريدة النهار اللبنانيـة ٧٦/٤/١٥) ٠

عيسى الشعيبي

رأي :
بعد الانتخابات ما هو الموقف ؟

جرت في الثانـي عشر مـن شهر نيسـان « ابريل » الماضـي ، المرحلـة الثانية مـن انتخابات المجالس البلدية والقروية في الضفة الغربية ، وبلغ عدد المرشحين ٥٧٧ تنافسـوا على ملء ٢٠٥ مقاعد في ٢٤ مدينة وقرية ٠ وقد

جاءتنتائج الانتخابات مغايرة لمعظم التوقعات الاسرائيلية ، ووصفهـا د٠ يهوشواع بـورات « ر٠أ٠ ، العدد ١٠١٩ » بأنها مفاجأة وقـال « لو اعتقد المسؤولون بأن النتائج ستكـون بهذا الشكل لما اجروا الانتخابات » ٠ والسؤال

الذي يفرض نفسه هنا هو ، هل سيترتب على نتائج الانتخابات هذه تغيير في السياسة الاسرائيلية السابقة ازاء المجالس البلدية والقروية في الضفة الغربية وقطاع غزة ؟ وكذلك ، كيف ستتعامل حركة المقاومة الفلسطينية مع المجالس البلدية والقروية الجديدة ؟ هل تستمر في نهجها السابق ، ام ان النتائج التي اسفرت عنها ، ستفرض تغييرا ما في النهج السابق ، باتجاه بلورة سياسة اكثر وضوحا تستوعب المجالس البلدية في التحرك السياسي والنضالي العام لحركة المقاومة داخل الارض المحتلة ؟

لقد اثارت الانتخابات قبل اجرائها ، الكثير من الجدل في الاوساط الوطنية الفلسطينية سواء داخل الارض المحتلة او خارجها ، وتمحور النقاش حول وجهتي نظر رئيسيتين ، الاولى كانت ترى ان الانتخابات لعبة اسرائيلية ، وتأتي ضمن المخطط الاسرائيلي الهادف الى بلورة أو ايجاد قيادات محلية داخل الارض المحتلة ، تشكل على مدى زمني قادم بديلا لمنظمة التحرير الفلسطينية او قوة موازية لها على اقل تقدير ، وبالتالي فقد رأى دعاة وجهة النظر هذه ، ضرورة العمل على مقاطعة الانتخابات وافشالها ان امكن - وذلك لتجنب الدخول في اللعبة الاسرائيلية ومنزلقاتها الخطرة . اما وجهة النظر الثانية . فقد رأت ان الانتخابات لهذه السنة ، تأتي في ظروف سياسية مغايرة لتلك التي كانت سائدة في العام ١٩٧٢ والتي اوجبت مقاطعة الانتخابات ومناهضة اجرائها . وبالتالي فان الموقف الاكثر صوابا الان هو تشجيع ودعم ترشيح العناصر الوطنية في الداخل ضد القيادات التقليدية التي تربعت على المجالس البلدية اثناء الحكم الاردني وخلال الاحتلال الاسرائيلي . ورأى دعاة وجهة النظر هذه ان طبع المجالس البلدية والقروية بطابع وطني ، هو الذي يمنع العدو الاسرائيلي من ان يهيمن على المجالس البلدية ويوظفها في خدمة مخططه .

ولم تتبن منظمة التحرير الفلسطينية ، ايا من وجهتي النظر هاتين رسميا وبشكل معلن بل اتخذت سياسة عملية ، مؤداها عدم الاعلان عن موقف ، مع العمل على دعم وتشجيع العناصر الوطنية في الداخل لخوض الانتخابات . وعلى ما يبدو ان موقف المنظمة هذا نابع من ادراك قيادة المنظمة لضرورة عدم الزام نفسها بموقف محدد قبل ظهور نتائج الانتخابات ، وذلك حتى تتاح لها حرية الحركة في التعامل مع اية نتائج قد تسفر عنها الانتخابات . اما الان ، وقد ظهرت النتائج ، والتي تؤكد فوز اللوائح الوطنية بنسبة كبيرة ، فانه يصبح من الضروري تحديد رأي السياسات الاكثر صوابية والتي يجب انتهاجها ازاء المجالس البلدية والقروية الجديدة . وقبل الحديث عن هذه السياسة وطبيعتها ، لا بد من الاخذ بعين الاعتبار جملة من الامور فيها :

١) على الرغم من ان الاوساط الاسرائيلية المختلفة فوجئت - الى حد ما - بنتائج الانتخابات ، فان ذلك لا يعني ان السلطات الاسرائيلية المحتلة سترتد عن سياساتها السابقة في التركيز على المجالس البلدية والقروية باعتبارها اطارا يجب تنميته لتشكيل قيادة محلية لسكان الاراضي المحتلة تبدأ بخطف الوهج من منظمة التحرير الفلسطينية في الداخل اولا ، ثم يجري تكريسها باعتبارها ممثلة او معبرة عن اماني الفلسطينيين داخل الارض المحتلة . بتقديري انه من الخطأ ان لا نرى في سياسة العدو الاسرائيلي ازاء المجالس البلدية، الا تلك السياسة التي تربط بين هذه المجالس والمشروع الاسرائيلي في ايجاد ادارة مدنية ذاتية . ان التحرك الاسرائيلي في الارض المحتلة اوسع من هذا الاطار بكثير فمشروع الادارة المدنية الذاتية ، لا يزال مجرد مشروع في ذهن بعض المسؤولين الاسرائيليين ولم يتحول الى سياسة عملية ومقرة رسميا من الحكومة الاسرائيلية ، اضافة الى ان هذا المشروع لا يشكل بنظر العدو الاسرائيلي حلا نهائيا لازمة احتلاله للاراضي المحتلة ، بل هو يشكل مقدمة لحل يستوعب الادارة الذاتية في مشروع حل اردني ، او اردني - فلسطيني . فالازمة الاسرائيلية ازاء المسألة الفلسطينية تتمثل في انه لا يوجد طرف فلسطيني ممكن التفاوض معه في هذه المرحلة ، فالمنظمة طرف غير قابل للتفاوض معه في هذه المرحلة لاعتبارات عديدة

تراها اسرائيل ، والنظام الاردني ، كطرف ، يظل بحاجة الى غطاء فلسطيني . ان السياسة الاسرائيلية ازاء المسألة الفلسطينية في هذه المرحلة تقوم على اساس بلورة طرف فلسطيني محاور يأتي في مركز الوسط بين النظام الاردني ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ومثل هذا الطرف لا يمكن ان يولد الا من داخل الارض المحتلة ، وعبر اطرتتجاوز اطر تواجد المقاومةالفلسطينية داخل الارض المحتلة من جهة ، وتستوعب التواجد الاردني داخل الارض المحتلة من الجهة الاخرى . ومثل هذه الاطر لا يمكن ان تكون الا المجالس البلدية والقروية . وما يؤكد ذلك ، اصرار السلطات الاسرائيلية على توسيع قاعدة من يحق لهم حق الانتخاب والترشيح للمجالس البلدية، فأدخلت تعديلات على قانون الانتخابات الاردني للمجالس البلدية ، أدت الى توسيع قاعدة الناخبين من ٣٥ الف كما كانت في العام ١٩٧٢) ، الى نحو ٨٨ الف ناخب ، كما سمحت التعديلات للموظفين الحكوميين بترشيحانفسهم للانتخابات دون الاستقالة من وظائفهم قبل شهر من اجراء الانتخابات . وواضح جدا ان توسيع القاعدة الانتخابية دفع بقوى اجتماعية من غير الملاكين الى المشاركة في الانتخابات ، وهي قوى لا شك احدثت تأثيرا في نوعية الذين فازوا في الانتخابات ولا سيما في المدن . لقد بدا ان السلطات الاسرائيلية المحتلة كانت على استعداد لاستيعاب التغييرات المحتملة في نوعية المجالس البلدية ، مقابل ان تعطي لهذه المجالس صفة تمثيلية اوسع لسكان الارض المحتلة ، وبمثل هذه الصفة يمكن لها انتتعامل مع المجالس البلدية ، ليس كمجالس لادارة بعض الخدمات المدنية ، ولكن كمجالس لها صفة من التمثيل السياسي - الى حد ما - .

٢) صحيح ان النتائج التي اسفرت عنها الانتخابات، تؤكد ان تغييرا ليس بسيطا حدث في تركيبة المجالس البلدية والقروية لصالح القوى الوطنية . فمن اصل الـ ٢٠٥ مقعد نجح ١٤٨ وجها جديدا . ومن اصل ٢٢ رئيس بلدية سابق ، فشل عشرة في الحصول على اعلى الاصوات . كذلك فان انسحاب ابرز العناصر التقليدية امثال محمد علي الجعبري ومعزوز المصري وحمدي كنعان من الانتخابات ، يدل على ان هذه العناصر كانت تتوقع الفشل او احتمال الفشل ، وبالتالي انسحبت حتى لا يأتي فشلها بمثابة اعلان صارخ عن موتها السياسي . ان كل هذه الظواهر تؤكد ان تغييرا ليس بسيطا قد حدث . ولكن يجب اخذ هذا التغيير بحجمه ولا نبني عليه آمالا اكبر مما يحتمل . لقد نجحت مجموعة من العناصر الوطنية معروف بعضها بولائه لمنظمة التحرير الفلسطينية وبعضها الآخر له علاقات قوية مع الجبهة الوطنية الفلسطينية ، اضافة الى مجموعة من العناصر ذات الانتماء الوطني ولكن بدون لون سياسي محدد ، ان مجموعة العناصر هذه متركزة في المدن بشكل رئيسي ، ولا سيما في مدن رام‌الله والخليل ونابلس ، اما القرى فلم تحدث فيها تأثيرات كبيرة ، وان استطاع عدد من العناصر الوطنية التحزيم على القيادات التقليدية والعائلية والفوز بالعضوية . ان هذه التركيبة المختلطة للمجالس البلدية والقروية ، ستعطي للعدو الاسرائيلي وكذلك النظام الاردنيمجالا للمناورة والتأثير على عدد منها وبالتالي ستكون حركة المجالس البلدية والقروية الجديدة ، محدودة سياسيا وضمن سقف محدد ، وهو السقف الذي لا يبعدها عن منظمة التحرير ، وبنفس الوقت لا يجعلها تصطدم معالنظام الاردني .فمجموعة المصالح الاقتصادية التي تربط الضفة الغربية بالضفة الشرقية، تعطي للنظام الاردني امكانية توجيه بعض الضغوطات على هذه المجالس للتأثير على سياستها . وهي ضغوطات لجأ اليها النظام الاردني سابقا للابقاء على قدرة من الحركة له داخل الارض المحتلة .

٣) ونحن نقيم نتائج الانتخابات ، يجب ان لا تغيب عن الذهن كون هذه الانتخابات تمت في وقت كانت تشتعل فيه كل مدن وقرى فلسطين بانتفاضة عارمة ، وهي انتفاضة تجاوزت بكثير في اشكالها النضالية وشعاراتها السياسية ، قدرة المجالس البلدية الجديدة على استيعابها او الالتقاء معها بشكل مستمر، وبالتالي فان نتائج الانتخابات بقدر ما كانت احدى نتائج الانتفاضة وافرازاتها ؛ فانها لا يمكن ان تكون سقفا لها ، فالانتفاضة تظل اشمل واكبر ، ولعل هذا السبب ، الذي حدا

بالاخ ابو عمار ، ان يركز على الانتفاضة في رسالته التي وجهها لجماهيرنا داخل الارض المحتلة عشية الاعلان عن نتائج الانتخابات ، وان لا يأتي على ذكر هذه الانتخابات من قريب او بعيد في رسالته .

على ضوء ذلك **ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه ازاء المجالس البلدية والقروية الجديدة ؟** على الرغم من ان السلطات الاسرائيلية المحتلة فوجئت بنتائج الانتخابات كما اشار الى ذلك عدد من المعلقين الاسرائيليين ، فان مجمل ما صدر من تصريحات وتعليقات اسرائيلية – حتى الآن – عن النتائج تستهدف الخروج بالموقف الاسرائيلي من دائرة المفاجأة ، الى دائرة استغلال نتائج الانتخابات في ابراز ما يسمى وجه اسرائيل الديموقراطي ، وان اسرائيل على استعداد للتعامل مع عناصر ليبراليه في الوقت الذي ترفض فيه العنف . علقت « الجيروسالم بوست ١٦/٤/١٩٧٦ » على نتائج الانتخابات فقالت « ان العمد الجدد وطنيون متطرفون وهم في الوقت نفسه حاصلون على تعليم عال وواقعيون وعمليون بحيث يمكن التعامل معهم » وحتى الآن لم يبرز من السلطات الاسرائيلية المحتلة ما يشير الى انها ستستغل قانون البلديات الاردني في التدخل للتأثير على نتائج الانتخابات بتعيين رؤساء معينين للمجالس البلدية او بفرض اعضاء جدد على بعض المجالس البلدية . وعلى ما يبدو ان السلطات الاسرائيلية ستحافظ على ادعائها الديموقراطي لعدم التدخل ، ولكن هذا لا يمنع انها قد تلجأ في حالات معينة الى قانون البلديات الاردني اذا وجدت ان الامور تجاوزت الحد الذي رسمته لها . وفي **الاطار السياسي** ، فأن التقدير ان السلطات الاسرائيلية المحتلة ستبقي مجال مناورتها واسعا ، ولن تلزم نفسها قريبا بشكل محدد من اشكال العلاقة بينها وبين المجالس البلدية . بانتظار ان تهدأ الحالة في الضفة الغربية ، وبانتظار دراسة مجمل التفاعلات التي تولدت عن نتائج الانتخابات على جميع الاصعدة داخل الارض المحتلة وخارجها .

لقد اكد معظم الفائزون في الانتخابات ، ولا سيما البارزين منهم ، مثل كريم خلف وبسام الشكعة ، اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وانهم سيحبطون اي محاولة اسرائيلية تستهدف ادخالهم في مفاوضات سياسية ، وانهم سيعترضون على اي جهد اسرائيلي يرمي الى تنمية الاستقلال الذاتي من اجل خلق حل بديل لسيادة منظمة التحرير الفلسطينية . « انظر حديث خلف الى صحيفة الجيروسالم بوست ، ١٦/٤/١٩٧٦ » . وعليه ، فان اي توجه اسرائيلي مباشر للتعامل مع المجالس البلدية الجديدة على اساس سياسي تحت شعارات الاستقلال الذاتي او الادارة المدنية الذاتية ، سيصطدم بمعارضة قوية ، كما اصطدم – الى حد ما – مع المجالس السابقة ، وبالتالي فان الاحتمال الممكن ، هو لجوء السلطات الاسرائيلية المحتلة بعد فترة قصيرة ، الى توسيع نطاق مهمات المجالس البلدية في الاشراف على الخدمات المدنية والبلدية، مع اعطاء مجال نسبي لعناصر بارزة من هذه المجالس ، في البروز سياسيا داخل الضفة الغربية من خلال التصريحات وغيرها ، حتى تشكل خلال مدى زمني قريب قادم ، اطارا او قوة من اطر او قوى معادلة المسألة الفلسطينية . وبنفس الوقت تشكل اطارا قد يحجم الحركة الجماهيرية في الداخل بحجمها ويحدها بحدودها .

وبالنسبة للنظام الاردني ، لم يصدر عن المصادر الاردنية اي تصريح او اشارة الى موقف معين قد يتخذه « النظام » من المجالس البلدية باستثناء ما ذكرته النهار « ١٤/٤/١٩٧٦ » نقلا عن اشاعات في الاردن من ان الملك الاردني طالب رؤساء البلديات الجدد بالاستقالة لان التشريع الاردني لم يؤخذ بعين الاعتبار ، وانه هددهم في رسائله بالتوقف عن دفع مرتباتهم اذا رفضوا الاستقالة . والاشاعة التي ذكرتها النهار ، قد لا تكون مجرد اشاعة بل تعبيرا عن تفكير معين للنظام الاردني ازاء المجالس الجديدة ، ونوع من التذكير بأن الاردن قادر على فرض العقوبات الاقتصادية اذا لم يراع وضعه ومطامعه داخل الارض المحتلة ، وما يؤكد مثل هذا الانطباع ، ان الفائزين الجدد ، وحتى البارزين منهم ، كانوا

حذرين في تحديد موقفهم من النظام الاردني ، ولم يدلوا بتصريح او تعليق يصطدم مع النظام الاردني · لا يعني ذلك ان المجالس البلديــة سترضخ الضغوطات الاردنية ، بل يعني مــا سبق ان اشرت اليه ، من ان علاقة المجالس البلديــة بمجموعها لــن تصل الى الدرجــة العدائية والصدامية مع النظام الاردني ، وان علاقة كهذه ستظل ضمن بعض الاطر وبعـض المجالس ، ولن يجري التعبير عنها بشكــل واضح الا اذا برزت تحركات عملية للنظـــام الاردني داخل الارض المحتلة ·

ان كل هذه المعطيات تشير الى ان المنظمة في تعاملها مع المجالس الجديدة لا تسير في حقل خال من الالغام · بل على العكس من ذلك ، فان هذه المجالس الجديدة قد تكون مقدمــة لاخبار السلطات الاسرائيلية المحتلة لمــدى امكاناتها في التعامل مـع عناصر جديدة غير العناصر التقليدية ، والتي تفتقد الى ارضية جماهيرية او بعد وطني واضـح · فالقيادات التقليدية تظل حائطا قديما ، تتجاوزه اوسع الجماهير بسهولة لدى تحركها · اما القيادات الجديدة وذات الطابع الوسطي ، والتي تحاول ان توازن بين وضعها الذي اكتسب نوعا من الشرعية في ظل الاحتلال وبين طموحاتها فــي الالتقاء مع الجماهير في حركتها ، ان هـــذه القيــادات في بعض الحــالات تشكل كابحــا للجماهير اكثر من القيادات التقليدية ، وفــي حالات اخرى ، قد تضطرها الحركة الجماهيرية الى الاندفاع معها · ومن هنا ، فان الاساس في تحرك المقاومة الفلسطينية السياسي داخل الارض المحتلة ، يجـــب ان يبقى التحــرك الجماهيري الواسع ،والانتفاضة الجماهيرية التي اخذت تتسم في هذه المرحلة بسمة القدرة على الاستمرار ، وهي قدرة تتأكد يوما بعد يوم · اضافة الى ذلك ، فانه يجب الوقوف بحزم ، ضـد اي محاولـة تستهدف تحجيم الحركــة الجماهيرية بسقف المجالس البلدية وتحركهــا السياسي العام · وبتقديري ، ان الدخول في مسألة المجالس البلدية تظل لغما يجب التعامل معه بحذر بالغ ، حتى لا ينفجر بنا · ذلك انه من الخطأ الكبير ان ندفع بتنمية اطر قياديــة داخل الارض المحتلة ، تكتسب جانبا كبيرا من شرعيتها من الاحتلال الاسرائيلي · صحيــح ان هذه الشرعية جاءت عبر الانتخاب ، ولكن لا ننسى انها شرعية مختومة في النهاية بختم الاحتلال الاسرائيلي ، وبالتالي فانها محكومة ومحددة بالحدود التيبرسمها لهذه الشرعية ·ان الموقف الاسلم والاكثر صوابية في التعامل مع هذه المجالس ، هو باعتبارها مجالس بلديــة فقط لا غير ، ومقاومة ، اي محاولة لاعطائها غير هذا الوضع او الوظيفة · واي محاولـــة للخروج بالمجالس البلدية عــن هــذا الاطار ، ستشكل نوعا من الدخول غير المباشر فــي اللعبة الاسرائيلية الهادفة الى تحديد معالــم دور او وضع معين للمجالس البلدية في معادلة حل المسألة الفلسطينية ·

غ·خ

(٣) اسرائيليـــات
مصادرة الاراضي في الجليل

قررت الحكومة الاسرائيلية في جلستها يوم ٢٩ /٢ /٧٦ مصادرة عشرين الف دونم مـــن الاراضي في منطقة الجليل ، يملكها العرب ، وذلك من اجل تنفيذ سياسة تقوية الاستيطان وزيادة عدد السكان اليهود هناك · وورد فــي قرار الحكومة « انه بموجب مشاريع الاستيطان التي وضعتها وزارة الاسكان ، قررت الحكومــة ان تأخذ علما ببيان وزير المالية بشأن تجميع

الاراضي ، والقاضي بمصادرة نحو عشرين الف دونم في الجليل » (هارتس ، ١/ ٣/ ٧٦) .
وتقسم الاراضي المصادرة على النحو التالي : ٨٠٠٠ دونم تابعة لمديرية عقارات اسرائيل (وهي من اراضي اللاجئين الفلسطينيين التي استولت عليها اسرائيل بعد قيامها واعتبرتها من املاكها) ، ١٣٠٠ دونم ما زالت خاضعة للتسوية ، اي ان ملكيتها غير محددة حتى الان ، ١٠٥٠٠ دونم ملكية خاصة منها ٦٥٠٠ دونم اراضي عربية و ٤٠٠٠ دونم من الاراضي التي تم الاستيلاء عليها من قبل ونقلت الى ملكية اليهود .

واعلن وزير الاسكان الاسرائيلي ابراهام عوفر بعد انتهاء جلسة الحكومة ، ان خطة المصادرة الاصلية كانت اوسع جدا ، اما الخطة الحالية فتبعت الحد الادنى الضروري . واضاف مبررا قرار المصادرة ان « جميع هذه الاراضي هي صخرية لا تقوم عليها اية ابنية » وعلى حد زعمه لا يعتاش احد من ورائها « وستدفع الحكومة تعويضات مناسبة مقابلها او اعطاء اراضي بديلة لاصحابها ، رغم الاحتياطي القليل من الاراضي في الجليل » (هارتس ، ١/ ٣ / ٧٦) .

تقع الاراضي المصادرة في اربع مناطق مختلفة في انحاء الجليل : اولا ، في منطقة الناصرة حيث صادرت الحكومة مساحة ٤٧٣٠ دونم ـ منها ١٠٤٠ دونم تابعة لمديرية عقارات اسرائيل و ٣٦٩٠ دونم ملكية خاصة . وتقع المنطقة المصادرة شمال شرق الناصرة العليا (المدينة اليهودية) ، وستستخدم في تطوير هذه المدينة في المستقبل ، بحيث يزيد سكانها من ٢٠ الف الى ٦٠ او ٧٠ الف . ثانيا ، في منطقة كرميئيل ، وتبلغ مساحة الاراضي المصادرة ٧٤٨٥ دونم ، منها ٥٤٢١ دونم تابعة لمديرية عقارات اسرائيل ، و ٢٠٦٤ دونم ملكية خاصة . وستستخدم هذه الاراضي في تطوير كرميئيل ، حسب الخطة التي انشئت بها اصلا . وستمكن هذه المصادرة من زيادة سكان كرميئيل من ٨ الاف الى ١٠٠ الف نسمة في المستقبل واقامة ٢٩ الف وحدة سكنية جديدة بها . والجدير بالذكر ان كرميئيل هذه اقيمت على اراضي عربية مصادرة في اواخر سنة ١٩٦١ ،حيث صادرت الحكومة الاسرائيلية انذاك ما مساحته ٥١٠٠ دونم من اراضي قرى دير الاسد والبعنة ونحف الواقعة في مركز الجليل على الطريق الرئيسية عكا ـ صفد . ثالثا ، في جوار قرية المكر شرقي عكا حيث صادرت الحكومة الاسرائيلية ٢٠٦٩ دونم ، ٨٤٤ منها تابعة لمديرية عقارات اسرائيل و ٧٦١ اراضي خاصة ، و ٤٦٤ دونم خاضعة للتسوية. وستخصص هذه المنطقة المصادرة ، كما ذكرت المصادر الاسرائيلية ، لبناء مساكن للعرب القاطنين في مدينة عكا ، حيث سيتم نقلهم من المدينة القديمة بحجة انهم يعيشون في ظروف سكنية واجتماعية صعبة . والمعلوم ان السكان العرب في عكا يعارضون هذا الاجراء الذي يرمي الى ترحيلهم عن مدينتهم ، وتسليمهم مساكن مبنية على اراضي عربية مصادرة . رابعا ، منطقة صفد وتبلغ مساحة الاراضي المصادرة بها ٥٨١٩ دونم منها ٧٤٤ دونم تابعة لمديرية عقارات اسرائيل و٧١٧٥ دونم ملكية خاصة و ٩٠٠ دونم خاضعة التسوية . وسيقام على هذه المساحة ١٥ الف وحدة سكنية جديدة ومركز مديني الامر الذي يؤدي الى زيادة عدد سكان صفد من ١٣٫٥ الف نسمة الى نحو ٦٠ الف نسمة في المستقبل (مناحم راهط ـ معاريف ، ٧٦/٣/٢) .
واعلن وزير الاسكان عوفر ان التوصية بمصادرة هذه الاراضي قدمت بصورة اجماعية الى وزير المالية من قبل لجنة تضم ممثلين عن الوزارات المختلفة ويترأسها مدير عام مديرية عقارات اسرائيل مئير زورياع . والجدير بالذكر انه بعد اشهر معدودة من تولي عوفر منصب وزير الاسكان ، نشرت الخطة الخمسية الاقليمية للسكن . وبموجب محطط السكن في منطقة الشمال ، واقامة مناطق صناعية ومشاريع امنية مختلفة هناك ، طلب من مديرية عقارات اسرائيل تحديد مواقع مساحات من الارض لتنفيذ هذا المخطط . ويبرر زورياع امر المصادرة على غرار وزير الاسكان ، بقوله « انها اراضي صخرية لا تصلح للزراعة » . وذكر المسؤول عن المنطقة الشمالية في المديرية يسرائيل كينغ « ان جميع مشاريع

البناء في الجليل متفرعة عن خطة رئيسية حتى سنة ٢٠٠٠ حين سيتم في الوقت القريب المصادقة النهائية عليها . وتتطرق هذه الخطة الى جميع التفاصيل ، ابتداء من المساكن العامة والمنتزهات والمناطق الصناعية وحتى مؤسسات المعاقين . وقد وضعت حسب رأي جميع الوزارات الحكومية : الداخلية ، الاسكان ، الدفاع الخ ، وعندما يدور الحديث عن استملاك الاراضي لتنفيذها ، يجب عدم الاشارة الى مديرية عقارات اسرائيل ، وكأنها تقوم بمصادرة الاراضي فقط : انها الهيئة التي تنفذ المتطلبات المختلفة والمتنوعة للدولة» (يسرائيل هارئيل - معاريف ، ١٧/ ١٠/ ٧٥) .

وتجدر الاشارة هنا الى انه ليست هذه اول مرة تقوم بها الحكومة الاسرائيلية بمصادرة الاراضي العربية لتنفيذ مخططاتها الاستيطانية في الجليل ، فمنذ قيام اسرائيل ، والقرى العربية تقاسي من هذه المشكلة ، التي يبدو ان لا نهاية لها ، طالما السلطات الاسرائيلية تتبنى سياسة تهديد الجليل على حساب سكانه العرب . وهذا ما يحدث كل بضعة سنوات ، حيث يعلن عن امر مصادرة جديدة يتعرض له الفلاحون العرب . فبعد حرب ١٩٥٦ صادرت السلطات نحو ١٢٠٠ دونم من اراضي الناصرة لاقامة مدينة الناصرة العليا عليها ، وكذلك صادرت في سنة ١٩٦١ نحو ٢٠٠٠ دونم من الاراضي العربية الواقعة في سهل البطوف والتابعة لقريتي عرابة وسخنين ، لاستعمالها في مشروع تحويل مياه نهر الاردن . وفي اواخر السنة نفسها صادرت ما مساحته ٥١٠٠ دونم من الاراضي التابعة لقرى دير الاسد والبعنة ونحف ، لاقامة مدينة كرميئيل كما اشرنا . هذا عدا عن الاراضي التي استولت عليها اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ وبعدها ، ثم صادرتها ، من معظم القرى العربية في الجليل .

هدف المصادرة : تقوية الوجود اليهودي في الجليل

ان من يتتبع حركة الاستيطان اليهودي في الجليل يرى ان « تصعيده انتهى في مطلع الخمسينات . ففي تلك الفترة نزح كثيرون الى مركز البلد والغور .ومن جهة اخرى توسعت القرى العربية مع عودة سكانها سابقا (يقصد بعضهم) بصورة رسمية او غير رسمية ، وافتتاح عيادات طبية ، وبسبب التكاثر الطبيعي الكبير ، وانخفاض نسبة الوفيات لدى الاطفال ، حتى الحد الادنى . وفي نهاية الخمسينات تبين (للسلطات) ان نسبة السكان اليهود في الجليل هي في انخفاض مقابل ارتفاع سريع بين العرب . ولذلك ظهرت فكرة استيطان الجليل على امتداد الحدود لدوافع امنية . ومرت بضعة سنوات حتى نفذ جزء من المشروع المشترك للبفي اشكول ويوسف فايس (بموجبها اقيمت المستوطنات ، شتوله ، نطوعة ، زرعيت ، وبيرانيت) . وقد اثر الانكماش الاقتصادي في الستينات وحرب حزيران . على خفض الموارد المخصصة لتهويد الجليل . حتى ان كرميئيل ، التي كان هدف اقامتها واضحا - وهو دق اسفين داخل منطقة عربية صرفة ، اصيبت بالتخلف في التطوير والاسكان الامر الذي يمكن لمسه حتى الان » (يهودا ارئيل هارتس ، ٢٩/٢/٧٦) .

ان الخوف من ان يصبح اليهود اقلية في الجليل هو الدافع لسياسة الاستيطان والتهويد التي تتبعها اسرائيل في هذه المنطقة . « فهناك خطر من ان يصبح اليهود اقلية في الجليل ، وتتحول هذه المنطقة الى « جليل الغرباء » كما كانت في السابق ، وعندما يدور الحديث عن تهويد الجليل ينبغي الاشارة الى المنطقة المقصودة . اذا كان القصد الجليل الاعلى الشرقي ، اي سهل الحولة وكريات شمونة ، فانه يعتبر « جليل اليهود » ، وهو خال من العرب تقريبا . وينطبق الامر ذاته على الجليل الاسفل ، باستثناء الناصرة . مقابل ذلك فان عدد العرب في الجليل الاوسط والغربي يزيد عن عدد اليهود ، او انهم متساوون . ان القلقين على مصير الجليل لا يشيرون فقط الى الخطر الحالي ، وانما الى الاخطار في المستقبل ، بسبب نزوح اليهود الى مركز البلد خاصة ، بعد ازدياد العمليات الفدائية في الجليل خلال السنة الماضية ، والتكاثر الطبيعي الكبير لدى السكان العرب (دافيد شليف - دافار ، ٧/ ١ /٧٦) . لذلك

من الواضح « ان وراء المصادرة تكمن الرغبة في تقوية الوجود اليهودي في الجليل ، الذي انخفضت نسبته خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة من ٥٨ الى ٥٢ ٪ » (مناحم راهط - معاريف ، ٣/ ٣/ ٧٦) .

بالاضافة الى المدلول الاستيطاني لسياسة التهويد التي تتبعها اسرائيل في منطقة الجليل ، التي يقتطنها معظم العرب في اسرائيل ، فأن لهما دلالة سياسية واضحة ايضا ، تكمن في خوف اسرائيل من المستقبل ، على ضوء التطورات السياسية على الساحة الفلسطينية . وينبع هذا الخوف من ان الفلسطينيين ربما يطالبون في المستقبل بضم هذه المنطقة الى المناطق التي يطالبون بها حاليا على اساس ان فيها اكثرية عربية ، وانها كانت ستخضع لهم حسب قرار التقسيم من سنة ١٩٤٨ ، وهذا ما اشارت اليه صحيفة معاريف في افتتاحيتها ليوم ٧٦/٣/١ قائلة : « على ضوء الاتجاهات السياسية التي تسود المنطقة ، ينبغي النظر الى الخطر بأعين مفتوحة : اذا لم يصبح الجليل الاعلى يهوديا من ناحية ديموغرافية ، فأن علاقة استفهام خطيرة ستوضع على مستقبله السياسي في يوم من الايام » .

امتصاص نقمة العرب

تحاول السلطات الاسرائيلية الان امتصاص نقمة العرب في اسرائيل ، اثر قرار مصادرة الاراضي في الجليل . فقد اعلنت الحكومة الاسرائيلية في نفس الجلسة التي اصدرت بها قرار المصادرة انها ستجمد في هذه المرحلة الدعاوى التي رفعتها مديرية عقارات اسرائيل ضد سكان قريتي كفرقاسم ومعليا ، وتحويل الموضوع الى اللجنة الوزارية التي يشترك فيها ممثلو وزارة العدل ، ومديرية عقارات اسرائيل، ومكتب مستشار الحكومة للشؤون العربية . والقضية تتعلق بـ ٣٠٠٠ دونم في قرية كفرقاسم و١٨ الف دونم في قرية معليا (هآرتس ، ١/ ٣/ ٧٦) .

كذلك تقرر في الجلسة نفسها السماح للفلاحين العرب من قرى سخنين وعرابة ودير حنا الدخول الى اراضيهم الزراعية الواقعة في منطقة التدريب العسكرية ، والتي تدعى (المنطقة ٩ » ، وهي تقع في وسط الجليل ، جنوب كرميئيل ، بموجب تصاريح سنوية (المصدر نفسه) . وقد التقى رؤساء المجالس المحلية في هذه القرى مع مساعد وزير الدفاع أشرين ناتان وضباط اخرين في الجيش الاسرائيلي ، واتفقوا على ان يسمح الجيش لاصحاب الاراضي الزراعية في هذه المنطقة بالدخول اليها وفق تصاريح سنوية كما اشرنا . وقد رفض خلال هذا اللقاء ، طلب رؤساء المجالس المحلية بنقل التدريبات الى منطقة اخرى (معاريف ، ٧٦/٢/٢٩) . اما بالنسبة للبدو الذين يقيمون في هذه المنطقة ، ويبلغ عددهم حوالي ١٥٠٠ نسمة من قبيلةعرب السواعد ، فقد قرر الجيش الاسرائيلي نقلهم من اماكن تجمعهم الى القرية الجديدة « تسلحون » التي تقام في طرف « المنطقة ٩»، او الى القرى المجاورة (المصدر نفسه) .

وحسب المصادر الاسرائيلية تشمل هذه المنطقة ٦١٨٣٤ دونم ، موزعة ملكيتها على النحو التالي : ٤٦٠٨٦ دونم تابعة للسلطة ، ١٣٠٩٨ دونم ارض خاصة تابعة لقرى دير حنا ، البعنة ، سخنين ، نحف والرامة ، ٢٦٥٠ دونم يملكها البدو في مركز المنطقة . بينما اعلن رؤساء المجالس المحلية لقرى سخنين ، عرابة ودير حنا والقبيلة البدوية عرب السواعد ، في مؤتمر صحفي عقدوه في تل ابيب ، ان القرى العربية تملك ٢٣ الف دونم في هذه المنطقة ، منها ١٧ الف دونم حقول زيتون « لنا نحن الفلسطينيين الحق في هذه الارض » . وحسب قولهم فأن هذه الاراضي مسجلة على اسم المزارعين العرب ، حتى منذ العهد العثماني . واضافوا ان هناك ٢٥ الف عربي في هذه القرى يعتاشون من هذه الارض (دافار ، ١/ ٣ / ٧٦) .

عرض جديد لبدو النقب

اما بالنسبة لقضية اراضي بدو النقب التي صادرتها الحكومة الاسرائيلية في بداية الخمسينات والتي تقدر مساحتها بمليون ونصف دونم ، فقد تقدمت الان بعرض جديد

الى زعماء البدو ، لدفع تعويضات مقابلها ٠ والجدير بالذكر ان البدو رفضوا طوال السنين استلام اية تعويضات مقابلها حتى هذا اليوم٠ وقد تقدمت الحكومة الاسرائيلية في اوائل السنة الماضية بعدة اقتراحات الى زعماء البدو ، رفضوها تماما معلنين ان الهدف من ورائها هو الاستيلاء على اراضيهم (انظر قضايا اسرائيلية ، ٣/٦ /٧٥ ، العدد ٥ (١٢) ٠)

بعد مضي اقل من سنة على رفض هذه الاقتراحات ، تقدم رئيس حكومة اسرائيل ، في اجتماع عقده مع شيوخ ورؤساء القبائل البدوية في النقب ، بعرض جديد يتضمن شروطا افضل حسب قول المصادر الاسرائيلية٠ وورد في هذا العرض انه اذا برهن اي فرد من البدو على ملكيته لاراضيه ، يستطيع الحصول على ٥٠٪ مما يطالب به ـ ٢٠٪ منها اراضي بديلة (وليس ١٢,٥٪ كما اقترحوا عليهم في السابق) ، و ٣٠٪ تعويضات مالية ٠ كذلك ذكر في العرض ان الاراضي التي سيحصل عليها البدو ستسجل على اسمهم في الطابو ، ولا تؤجر لهم لمدة ٩٩ سنة كما كان مقترحا عليهم في السابق ٠ وورد في العرض ايضا ان المنفى الحكومي سيعين اسعار جديدة للاراضي ، بعد ان يأخذ في الاعتبار الارتفاع الذي حدث في قيمة الارض خلال السنين ٠ وخلال اجتماعهم برئيس الحكومة رفض البدو الاقتراحات الاولى طالبوا باخلاء الاراضي المستأجرة من قبل اراضيهم وليس على ٥٠٪ منها فقط ٠ كذلك طالبوا بأخلاء الاراضي المستأجرة من قبل مديرية عقارات اسرائيل واعادتها لهم ، وبأستعادة مساحات واسعة ما زالت خالية في غربي النقب ، ومؤجرة من قبل مديرية العقارات لبعض الاشخاص ٠ وقد اشترك في الاجتماع ، لاول مرة ، مجموعة من الشبان ، تعتبر متطرفة جدا بالنسبة للزعماء التقليديين ، الامر الذي بات يقلق السلطات الاسرائيلية (هارتس ، ٢٩/ ١٠ /٧٥) ٠

بيع مقبرة اسلامية اخرى في يافا

اما بالنسبة لقضية املاك الوقف الاسلامي في يافا ، فقد عقدت لجنة المتولين التي عينتها السلطات الاسرائيلية في الماضي لتكون مسؤولة عن هذه الاملاك ، وذلك حسب قانون سنته في سنة ١٩٥٠ ، صفقة جديدة مع شركة استثمار يهودية لبيع مقبرة « طاسو »، وهي مقبرة اسلامية تقع في منطقة ابو كبير في يافا ، وتبلغ مساحتها اكثر من ثمانين دونما ٠ ويترأس لجنة المتولين هذه المدعو علي رشيدي ، وهو من كبار المتعاونين مع السلطه ، وليست هذه اول مرة تقوم بها لجنة المتولين هذه ، التي تعتبر مسؤولة عن املاك الوقف الاسلامي حسب القانون الاسرائيلي ، على عقد صفقات بيع للممتلكات الاسلامية ، وذلك بهدف جني ارباح من ورائها ٠ فقد وافقت في الماضي على بيع مقبرة اسلامية اخرى في يافا ، تدعى عبد النبي ، حيث اقيم عليها فندق هيلتون في تل ابيب ٠ وكان المسؤول يومها عن هذه الصفقة المدعو شريف الشنطي ويقال انه جنى من ورائها ارباحا طائلة (ابراهام روتام ـ معاريف ، ٢/١١/٧٥) ٠ كذلك علم في السنة الماضية ان صفقة تمت بين اعضاء لجنة المتولين وبين احد المقاولين اليهود ويدعى غرشون بيريس ، وهو شقيق وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريس ، لتأجير مسجد حسن بك الواقع في المنشية ، من اجل اقامة مركز تجاري على اراضيه (ارييه افنيري ـ يديعوت احرونوت ، ١١/١٥ /٧٥) ٠

وقد ادت هذه المتاجرة بأملاك الوقف الاسلامي في يافا ، الى اثارة سكان المدينة المسلمين ، وادى توتر الاجواء بينهم الى اقدام بعضهم على القاء قنبلتين على بيت رئيس لجنة المتولين المدعو علي رشيدي ، الا انه لم يصب بأذى وما زالت الشرطة الاسرائيلية تحقق لمعرفة الفاعلين ٠ وقد ادى هذا الحادث الى « لفت انتباه الجمهور الى هذه القضية التي تثير الجمهور الاسلامي في يافا منذ زمن طويل ٠٠٠ ووصلت اصداؤها الى رئيس الحكومة حيث اعلن انه تقرر حل لجنة المتولين في يافا » (ا ٠ افنيري ـ يديعوت احرونوت ، ١١/١١/٧٥) ٠ وما زالت هذه القضية تتفاعل حتى الان ، حيث

تقوم مجموعة من شبان يافا المسلمين بتنظيم النشاط ضد اعضاء اللجنة • وقد اصدروا بيانا يندددون فيه بأعمال الفساد التي يمارسها هؤلاء ، ويعلنون ، « ان هؤلاء لا يمثلون الا انفسهم ، وليس جميع المسلمين في يافا ، ولذلك لن نسمح لهم بعد الان بالتصرف بممتلكات الوقف حسب رغباتهم ، ومن اجل مصلحتهم الشخصية » (المصدر نفسه) • والجدير بالذكر ، ان العرب في يافا يعيشون حتى الان في ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة •

انتفاضة شعبية واسعة تعم الجليل والمثلث

ومن يافا الى الجليل ، حيث تعم انحاءه انتفاضة شعبية واسعة بهدف احباط مشاريع مصادرة الاراضي العربية • وبحيث يمكن اعتبارها ، من ناحية العنف والقوة والتأييد ، امتدادا للانتفاضة الجماهيرية في القدس وباقي انحاء الضفة الغربية وقد انتظمت حركة المعارضة هذه ، حتى قبل اعلان المصادرة بوقت طويل ، خاصة في القرى التي تعرضت للمصادرة • ويصف احد المراسلين الاسرائيليين الجو السائد بين الفلسطينيين هناك بقوله ، ان حالة الغليان بينهم وصلت الى ذروتها مع الاعلان عن قرار المصادرة (معاريف ، ٣/١/ ٧٦) • وكان اول رد فعل لديهم هو تهديدهم بالتوجه الى الامم المتحدة للمطالبة بحقوقهم في اطار معاهدة حقوق الانسان « في حال عدم تراجع الحكومة عن قرارها » (المصدر نفسه)• والجدير بالذكر ان المكتب السياسي في الحزب الشيوعي الاسرائيلي راكح ، اصدر بيانا شجب فيه قرار المصادرة معتبرا اياه « عملا مغامرا يهدد مستقبل العلاقات بين الشعبين ، خاصة وانه جزء من مشروع اوسع لمصادرة الاف اخرى من الدونمات في النقب والمثلث (كفر قاسم واراضي قرية معليا في الجليل الاعلى ، واراضي قرية عرب السواعد في المنطقة المغلقة في الجليل » (الاتحاد ٣/٢٢/ ٧٦) • كذلك كان الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) من اول المبادرين والمنظمين للانتفاضة الجماهيرية في الجليل ، انطلاقا من سياسته في الدفاع عن حقوق العرب وممتلكاتهم داخل اسرائيل •

وكان رئيس المجلس المحلي في قرية معليا ، وعضو لجنة المجالس المحلية للدفاع عن الاراضي العربية ، مسعد قسيس ، قد اعلن انه يعارض ورفاقه كل مشروع مصادرة لاراضي عربية ، او اي مشروع اخر يهدف الى المس بحقوق العرب داخل اسرائيل • واضاف انه اذا لم تستجب الحكومة لمعارضة العرب بشأن الاراضي المصادرة • سيتوجه ورفاقه الى الكنيست طالبا سن قانون لحماية الوجود العربي في اسرائيل (دافار ، ٣/١ /٧٦) • ولعل افضل وصف لحالة الغضب والاستياء التي تسود بين العرب في الجليل الان ، هو ما اعرب عنه مجموعة من الشبان العرب ، التفاهم مراسل احدى الصحف الاسرائيلية في مدينة كرميئيل ، حيث اعلنوا ، ان العرب لا يريدون سماع شيء او تقبل حقائق اقامة مستوطنات يهودية مثل كرميئيل • « ان اراضي الجليل هي لنا وستبقي لنا • لقد صادرت حكومة اسرائيل اراضينا من اجل اقامة مستوطنات يهودية وهذا ما نعارضه ، تماما كما عارض اليهود فيحينه، القيود التي فرضتها عليهم حكومة الانتداب بالنسبة لشراء الاراضي • انتم تمردتم ضد قوانين الانتداب ، ونحن سنفعل الشيء ذاته ضد قوانين دولة اسرائيل ••• الم تكفيكم مجزرة كفرقاسم ؟ والان تتعرضون لاراضي هذه القرية ••• تريدون مصادرة اراضي المنطقة •• ؟ » ، وفي قرية طمرة تعملون على الاستيلاء على منطقة لمقلع نيشر ، والان تصادرون عشرين الف دونم في الجليل • لقد توجهنا في الماضي الى الامم المتحدة والصليب الاحمر ، عندما صادرتم اراضينا لاقامة كرميئيل • ولكن اليوم يملك العرب مركزا اقوى في الامم المتحدة ، وسيطرحون مشكلة مصادرة اراضينا على منبرها • لا يهمنا اذا كانت هذه اراضي صخرية او زراعية ، فهي بالنسبة لنا اراضي عربيةوسنعارض مصادرتها بكل وسيلة ممكنة » (يهودا ارئيل - هآرتس ٣/٣ /٧٦) • ويبدو ان اكثر ما يثير اهالي القرى في الجليل وتحويل اراضيهم المصادرةالى المستوطنات اليهودية « فقد اعلن بعض الوجهاء العرب انهم لا يوافقون ابدا على ان

تقوم الحكومة بمصادرة اراضيهم ومنحها للمستوطنات اليهودية • واقترحوا بأن تحول الحكومة هذه الاراضي الى ملكية المجالس المحلية العربية ، لكي تستغلها في اقامة مشاريع صناعية عليها تكون لصالح اليهود والعرب من سكان المنطقة •

« ان محاولات الشرح للوجهاء العرب بأن مشاريع التطوير في الجليل ستخدم في نهاية الامر السكان العرب ، تقع على اذان صماء ، وتلقى ردة فعل غاضبة • وحتى الحقيقة ، بأن الفي دونم من ال ٦٥٠٠ دونم المصادرة ، ستستخدم في نهاية الامر لاقامة مساكن لعرب عكا القديمة في قرية المكر ، لم تقنع احدا من بين مبادري اعمال المعارضة » (مناحم راهط – معاريف ، ١/٣/ ٧٦) •

يوم الارض في الجليل والمثلث

عقد ممثلو المجالس المحلية العربية اجتماعا لهم في السادس من شهر اذار الماضي في مدينة الناصرة ، للبحث في الاجراءات التي ينبغي اتباعها للتصدي لقرار المصادرة الاخير الذي اعلنته الحكومة الاسرائيلية في نطاق مصادرة الاراضي العربية ، والذي يهدف ، كما ذكرنا ، الى سلب العرب مساحات واسعة من اراضيهم تحت شعار « التطوير » ، وتحويلها الى المستوطنات اليهودية القائمة او انشاء مستوطنات جديدة عليها • وقد توصل المجتمعون الى القرارات التالية : اولا ، يعلن يوم ٣٠ اذار كيوم للارض الفلسطينية • ثانيا ، اعلان الاضراب العام والانقطاع عن العمل والدراسة والتجارة والخدمات في جميع مرافق الحياة في القطاع العربي طوال هذا اليوم • ثالثا ، القيام بمظاهرة امام الكنيست وتقديم طلب الى السلطة لالغاء مشاريع المصادرة • رابعا ، ارسال وفد الى الامم المتحدة ، بحيث يبقى هناك حتى تتراجع حكومة اسرائيل عن قرارها • ووقع هذا القرار بصفة رسمية ٤٨ من رؤساء البلديات والمجالس المحلية ومسؤولي لجان الدفاع عن الاراضي في المدن والقرى العربية في الجليل •
حاولت السلطات الاسرائيلية منذ البداية التصدي لهذه القرارات ومحاولة افشالها بالوعيد والتهويل ، خاصة في مدينة الناصرة وبعض القرى العربية الكبيرة في الجليل ، الا انها لم تنجح ابدا ، وخير دليل على ذلك انتفاضة يوم الارض التي امتدت من اعالي الجليل الى المثلث ، متحدية كل اجراءات السلطة من اعتقالات وفرض منع التجول في قرى الجليل والمثلث ، والتهديد باستخدام القوة في فتح المتاجر • وانطلقت في ٣٠ اذار ، يوم الارض ، اعنف تظاهرات شهدها القطاع العربي المحتل منذ سنة ١٩٤٨ ، حيث خرج الالاف من اهالي قرى دير حنا وعرابة وسخنين وكفركنا والطيبة وام الفحم ونحف والطيرة ومدينتي عكا والناصرة ، في تظاهرات صاخبة ومسلحة في بعض القرى ، ادت الى وقوع اشتباكات بين المتظاهرين العرب وقوات الشرطة والجيش الاسرائيلي • وبالاضافة الى ذلك ، فقد عمت المظاهرات جميع انحاء الضفة الغربية ، في يوم الارض على اوسع نطاق • واكدت وكالات الانباء ان الاضراب شل جميع مظاهر الحركة والعمل والتجارة والمواصلات في جميع انحاء فلسطين بدون استثناء ، وان الشلل امتد الى معظم المؤسسات الاسرائيلية ، كالمعامل والفنادق التي تستخدم عربا •

وقامت ناقلات الجنود الاسرائيلية وطائرات الهليكوبتر بعزل القوى المضربة عن باقي انحاء فلسطين ، خاصة قرى سخنين ودير حنا وعرابة ، مستخدمة الرصاص والقنابل المسيلة للدموع ، وقنابل الدخان والهراوات في التصدي للمتظاهرين ، الامر الذي ادى الى استشهاد وجرح العشرات منهم ، واعتقال اعداد كبيرة منهم • كذلك رفضت السلطات السماح للصحافيين بالدخول الى هذه القرى لمشاهدة ما يحدث بهدف التعتيم على المظاهرات وعنفها • وقد اعلن رئيس بلدية الناصرة توفيق زياد ان ما لا يقل عن سبعة فلسطينيين قتلوا خلال الاشتباكات ، وبينما زعمت المصادر الاسرائيلية ان ٣١ عربيا و ٣٨ اسرائيليا جرحوا ، قالت وكالات الانباء ان الجرحى العرب كانوا بالعشرات وان ما لا يقل عن ٣٠٠ عربي اعتقلوا في اعقاب الاصطدامات العنيفة • والجدير بالذكر ، ان ثلاثة من المواطنين العرب في قرية عرابة استشهدوا

خلال الاشتباك مع الجنود الاسرائيليين واستشهد كذلك ثلاثة اخرون في قرية سخنين ، « واصيب عدد كبير بجروح في القرية • اما في قرية كفركنا القريبة من الناصرة فقد اقام المتظاهرون متاريس الحجارة ودواليب المطاط المحترقة في وجه القوات الاسرائيلية ، الامر الذي ادى الى قطع الطريق الرئيسية بين طبريا والناصرة ، واستخدم المتظاهرون في هذه القريه قنابل المولوتوف المصنوعة محليا ، ضد الجنود الاسرائيليين ، الامر الذي اوقع عددا كبيرا من الجرحى بينهم • اما في قرية الطيبة في المثلث فقد استخدم المتظاهرون الاسلحة الرشاشة في اشتباكهم مع القوة الاسرائيلية ، واصابوا خمسة منهم • وفي مدينة الناصرة ، شمل الاضراب جميع المؤسسات والمدارس ، وقمعت الشرطة تظاهرة انطلقت من جامع السلام في المدينة ، واعتقلت عددا من المتظاهرين • وزعم احد الضباط الاسرائيليين في حديث للاذاعة ان قواته اضطرت الى اطلاق النار دفاعا عن النفس ، بعد مهاجمتها بالحجارة الكبيرة والمشاعل الملتهبة • واضاف « ان الهجوم استمر حتى بعد ان اطلقنا النار عدة مرات ، كما تجاهل سكان القرى قرار حظر التجول متحدين تحذيرات قوات الشرطة » •

اثارت المظاهرات والاضراب ردود فعل عنيفة لدى الرأي العام الاسرائيلي ، على صعيد السلطة ، حيث اعتبرها الاسرائيليون « ضربة قاسية للتعايش العربي - اليهودي » على حد زعمهم ، واعتبرها البعض انها نتيجة حتمية لسياسة القمع والاضطهاد التي تمارسها اسرائيل ضد الاقلية العربية داخلها ، والتي وصلت الى قمتها مع اعلان قرار مصادرة جزء اخر من الاراضي العربية • وقد عقد الكنيست الاسرائيلي جلسة استثنائية بعد وقوع الاضراب ، لمناقشة الاحداث بناء على طلب حزب راكح • واتهم النائب الشيوعي مئير فيلنر خلال الجلسة ، كلا من اسحق رابين وشمعون بيريس وشلومو هيلل ، بتنظيم عملية ابادة ضد السكان العرب ، وانهم دبروا جميع الاغتيالات التي وقعت • واجرى النائب مقارنة بين هذه المذابح وبين مذبحة كفرقاسم التي وقعت قبل ٢٠ سنة قائلا : « ان هذه المذبحة تم اعدادها بعناية » • واتهم النائبان الشيوعيان توفيق طوبي وتوفيق زياد الحكومة الاسرائيلية بأنها تتكون من « سفاحين متعطشين للدم العربي » • وحاول رابين في الكلمة التي القاها في الجلسة الصاخبة القاء تبعة الاحداث على حزب راكح قائلا : « ان ما حدث في الجليل والمثلث امس يدخل في اطار دعوة حزب راكح الى العنف ، وان الامر يتفق بنتيجة منطقية مع سياسة هذا الحزب » • وزعم رابين ان « دعاية هذا الحزب كانت قد نجحت في اقناع بعض المجموعات المتعنتة بين العرب ، بالانتقال الى العمل بالنتائج التي عرفناها » •

ويتوقع خلال الايام المقبلة استمرار تفاعل هذه الاحداث على صعيد السلطة الاسرائيلية ، حيث اعلنت الحكومة انها ستتبنى سياسة جديدة تجاه العرب ، متجاهلة الدوافع الحقيقية من وراء الانتفاضة ، وكأن هذه الدوافع لا صلة لها بالموضوع • وقد وعد زعماء القرى والمدن العربية بعدم السكوت ومواصلة العمل بكافة الاساليب الممكنة حتى تتراجع الحكومة عن قرارها الخاص بمصادرة الاراضي ، لذا يتوقع خلال الايام المقبلة استمرار الغليان •

الاسرائيليون يؤيدون عمليات المصادرة

اما على صعيد الرأي العام الاسرائيلي ، فيبدو ان الاكثرية تؤيد مشروع مصادرة الاراضي العربية ، وهذا ما يستدل عليه من الصحف الاسرائيلية ، وقد عبرت عن ذلك صحيفة دافار شبه الرسمية في افتتاحيتها ليوم (٣/١/ ٧٦) ، بقولها : « ان قرار الحكومة هو خطوة عملية هامة على طريق تنفيذ خطط اسكان الجليل • ان هذا القرار يستحق التأييد الواسع ، خاصة انه اصبح من الواضح انه ليس من بديل اخر حقيقي لاسلوب المصادرات ، ولا اعتراض على الحاجة الى تقوية (الوجود اليهودي) في الجليل » • كذلك عبرت صحيفة اخرى عن رأيها بأن « قرار المصادرة الذي اتخذته الحكومة متأخرا جدا • ولكنه قرار صحيح ويستحق التأييد » (افتتاحية معاريف ، (٣/١/ ٧٦)) • اما على صعيد

الاحزاب فيبدو ان العرب لن يجدوا مؤيدين لهم سوى تلك الفئات التي ساندتهم في الماضي مثل حركة موكيد وهعولام هازيه وما شابهها • وقد قدم عضو الكنيست مئير باعيل ، زعيم حركة موكيد ، اقتراحا الى الكنيست لاعادة البحث في مصادرة الاراضي في الجليل ، واعلن ان مصادرة الاراضي هذه لمتطلبات التطوير تلزم مساواة كاملة في المركز القانوني بين العرب واليهود ، وبين الفقراء والاغنياء • واضاف بعيل «ان اي تمييز لاعتبارات سياسية يجب أن يكون موجها لصالح القطاع العربي ، الذي يجب ان نتصرف تجاهه بتسامح كبير نظرا للازمة العميقة القائمة بين دولة اسرائيل والجمهور العربي داخلها ، وليس على العكس» (دافار ، ٣/٣ /٧٦) • وقد رفض البرلمان الاسرائيلي اقتراحه هذا ، بأغلبية قصوى •

اما موقف حزب مبام المتلون ، فقد انعكس من خلال موقف وزيريه في الحكومة اثناء التصويت على قرار المصادرة ، حيث اقترحا تأجيل قرار المصادرة ، حتى يتم اعداد برنامج شامل « لتطوير » الجليل كله • ويرى الحزب ، انه من المطلوب حقا زيادة عدد السكان اليهود في الجليل ، ولكن يجب الامتناع عن عمليات السلب ومصادرة الاراضي (المصدر نفسه) • وقد كشف عضو الكنيست مئير يعري ، عن موقف حزبه الواضح حول مسألة مصادرة الاراضي ، خلال النقاش الذي جرى في اللجنة السياسية للحزب بقوله ، « ان تطوير الجليل وتهويده ليس سوى مضمون واحد » • وطالب بالاعلان بوضوح امام اعضاء الحزب العربي ، الذين يعارضون عمليات المصادرة ، بأن « هدف الحزب هو العمل على ضمان اكثرية يهودية في الجليل ، لان هدف الصهيونية هو الحفاظ على الصفة اليهودية للدولة من خلال الامتناع عن اضطهاد السكان العرب » (هارتس ، ١٠/٣٠ /٧٥) • واعلن سكرتير عام الحزب مئير تلمي ان الانخفاض الدائم في عدد السكان اليهود في الجليل يمكن ان يؤدي ، في ظروف معينة ، الى تعقيدات سياسية • واضاف ان عدم مصادرة الاراضي يغيب التوقف عن التطوير في الجليل (المصدر نفسه) •

ويتساءل بعض الاسرائيليين لماذا تتبع الحكومة سياسة المصادرة وتتنازل سلفا عن امكانية استملاك الاراضي ، عن طريق المفاوضات مع العرب ، فترد على ذلك الاوساط الرسمية بقولها ان عرب الجليل لا يتنازلون بسهولة عن اراضيهم مهما كانت الاعتبارات• (مناحم راهط ـ معاريف ، ٣/٣ /٧٦) •

حنه شاهين

خاص بالمشتركين

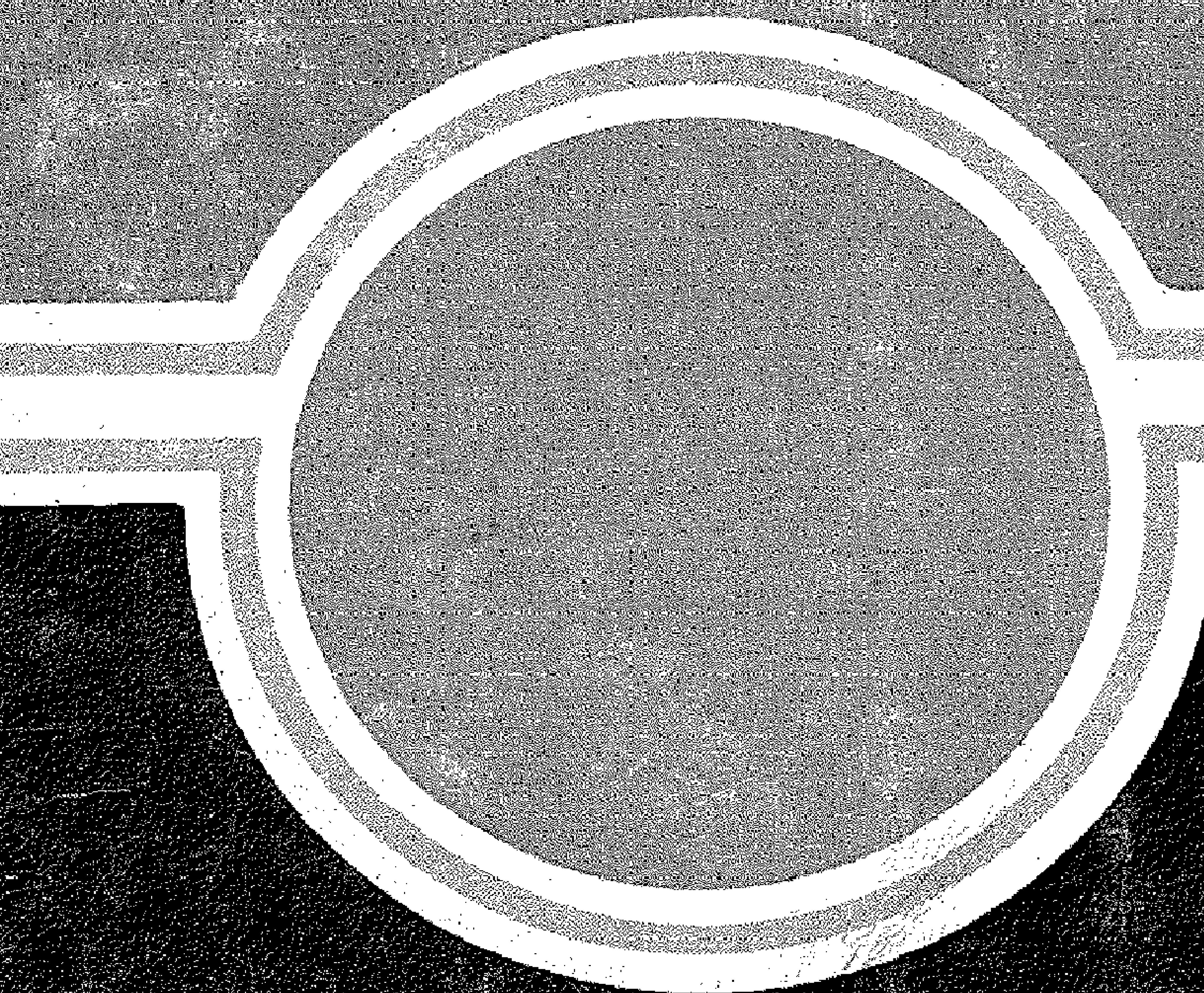
Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ١/٢ ٣ ل٠ل٠ في لبنان
٤ ل٠س٠ في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
١/٢ ٤ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٥
حزيران (يونيو) ٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٨ — حزيران (يونيو) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

محتويات

صفحة

شؤون فلسطينية

الصـــــدام والتحـــــدي

بتحول الحرب الاهلية الوطنية في لبنان الى حرب عربية ـ عربية . تدخل القضية القومية مرحلة هامة وبالغة التعقيد من مسارها النضالي . فقوات الاجتياح السوري المدرع التي انتقلت الى الهجوم الشامل على مواقع الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، فتحت باب الحرب الاهلية العربية . وفتحت معها ، امكانيات الجماهير الهائلة والتي لا تهزم كي ترتفع عبر غابات الرجال والبنادق لتعلن ولادة جديدة للثورة العربية .

الصدام الذي بدأ والذي يأخذ اليوم مسارات متعرجة ، وهو التعبير المباشر عن احدى لحظات الحرب الوطنية التي استطاعت قوى الثورة والتغيير الدفع بها بعيدا الى الامام ، على طريق نصر شامل في لبنان ، يفتح الصدام من مواقع متقدمة مع العدو الوطني . يتجاوز هذا الاتجاه العام الذي رسمته الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، حركة القوى التي قادت حرب تشرين ويضعها امام مأزقها التاريخي : عدم قدرتها على استكمال الحرب الوطنية في شروط دولية ومحلية ملائمة ، واستعدادها لتقديم التنازلات والدخول في المساومة مع العدو الامبريالي . هذه القوى لا تستطيع لاسباب تتعلق بتركيب السلطة الفعلية الدخول الى حلبة الصراع المفتوح مع العدو الامبريالي ، لأن هذا الصراع يفترض شروطا تمس بنيتها الداخلية، وتفرض حدا من الديمقراطية الجماهيرية الحقيقية .

ان المساومة دفعت بهذه القوى الى الوقوف امام جدار الصدام مع العدو الوطني لترتد على قوى الثورة والتغيير في محاولة لضربها وتدجينها تمهيدا لتصفيتها .

لكن حسابات الواقع كانت حسابات تحد . فالجماهير التي واجهت الدبابات كانت تعرف انها لا تخوض معركة فلسطين او معركة لبنان الجديد فقط ، بل تخوض معركة كل الامة العربية ، معركة الصمود والتحدي والمواجهة . لقد قاتلت الجماهير الوطنية باسم كل العرب الذين منعوا من القتال . باسم كل الايدي التي قطعت الالسنة التي اخرست ، وهي حين تنتصر ، تنتصر باسم كل هؤلاء ، باسم وحدة عربية حقيقة ، وحدة تصنعها الطريق الى فلسطين ، وحدة الجماهير المقاتلة التي لا يمكن ان تتم الا ضد الامبريالية وفي لهب الصراع الوطني . فعلى قمم صنين وفي صيدا وصوفر ويحمدون ، صنعت الجماهير اللبنانية ـ الفلسطينية وحدة عربية حقيقية مقاتلة .

الصدام الذي يفتح ابواب المستقبل هو الصدام الذي تصنعه الجماهير فتصنع مستقبلها وهي ترسم الموت والدماء والبداية . فاذا كان الصدام لا يزال محصورا داخل حدود الكيان اللبناني ، فان الارض العربية باسرها هي ساحة التحدي .

الحرب الاهلية العربية ، هي لحظة في حربنا الوطنية الشاملة . والجماهير التي تقاتل ترفع اليوم رايات البدايات الحقيقية ، رايات زمن الشعب الذي يصنع حربه ويصنع مجد الايام التي نحيا .

حدود . . بلا حدود

□ نادرا مـا يكون الخبز العربي فلسطيني المذاق الى هذا الحد . ونادرا ما تتجلى فلسطين ملحا للخبز العربي في مثل هذا الوضوح . كان المجتهـدون بعيدو النظر ، والمقاتلون الطالعون من سياط الاهل ، وحدهم ، هـم الذيـن يرون في انبثاق الممارسة الفلسطينية المستقلة بشيرا او نذيرا ـ وفقا لنظـرة الرائي الايديولوجية ـ بتحولات اجتماعية جديدة في الوطن العربي، فليست نواة الثورة الفلسطينية صالحة لاجراء تعديل جوهري في معادلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي وحدها، بل هي قابلية ملموسة لرفع زخم قوى الحرية والديموقراطية في الداخل العربي وتنشيط فاعليتها ضمن عملية الاستقطاب الثوري الفاعلـة على ازدواجية الصراع : على حدود الوطن المحتل وامتـداد علاقات المحتلين ، وعلى حدود المطالب الداخلية بالتغيير الذي يصل الى اكتشاف علاقـة ما ، هنالك فرق ، بين استمرار الاحتلال واستمرار الظلم الاجتماعي ، من هنـا ارتبطت معركة تحرير فلسطين ، دائما دائما ، وبدرجات متفاوتة من الالحاح ، بالمعركة الديموقراطية الداخلية وبصراع القديم والجديد بمعناهما العلمي، فصار تحرير الحدود هو العملية ذاتها لحرية الناس الذاهبة الى تحرير الحدود وكسر القيود . ولقد كانت هذه المسألة البديهة عرضة للمناقشة ـ وفقا لامتـلاك البلاغة ـ قبل ان تغير بيروت معانيها واحتمالاتها الانقلابية ، على الرغم من ان انفضاح معادلة الارتباط بين امن الغزاة وبين امن الطغاة المسماة ببعـض الاتفاقيات العربية ـ الاسرائيلية كان كافيا لرد التساؤل الى صوابـه . او فلنعتذر عن هذه الصياغة قائلين ان هذا الارتباط الذي سموه ـ مجازا ـ فـك ارتباط قد جاء للفتك بعلاقة الخبز العربي ـ كتعبير اجتماعـي ـ بالارض الفلسطينية ـ كتعبير قومي ـ فوقع اذكياء البلاغة في حماقة نريدها برهانـا وحافزا فتعمقت العلاقة وبلغت حد الحرب الاهلية في لبنان الذي اعتبرته جميـع الاطراف اضعف الحلقات ، دون ان تفطن الى ان الحالة الثورية غالبا ما تأتي من اضعف الحلقات .

« شؤون فلسطينية »

التوازنات المسلحة [٢]
حول انتخابات الرئاسة في لبنان

خالد جابر

صبيحة ١٨ اب ١٩٧٠ ، بعد انتخاب سليمان فرنجية رئيسا للجمهورية باغلبية ٥٠ صوتا ، اي بزيادة صوت واحد على المرشح الشهابي الياس سركيس ، خرجت جريدة « النهار » بصورة كاريكاتورية للرئيس السابق شارل حلو وهو يلبس ثياب كاهن ماروني ، ويقرأ كتاب « تاريخ الموارنة » . والدلالة بالغة الوضوح . فلقد انتخب سليمان فرنجية في سياق المد الذي جاء بالحلف الثلاثي منتصرا في اغلبية دوائر الجبل المارونية . هذا المد هو الذي شكل الوجهة الغالبة في المرحلة التي تلت هزيمة حزيران ، الى جانب وجهة جماهيرية تمثلت في الثورة الفلسطينية وفي محاولات الانظمة الوطنية مواجهة الهزيمة ، عبر الاستعداد لشن هجوم وطني مضاد . لقد اتى انتخاب فرنجية كنقطة تقاطع لهاتين الوجهتين مع اتجاه غالب للمد الرجعي في لبنان ، تمثل في الحلف الثلاثي ومحاولته ضرب السياسة العربية الشهابية .

ان الصورة الكاريكاتورية التي نشرتها « النهار » بالغة الوضوح . فانتخاب فرنجية واسقاط سركيس كان تعبيرا عن قدرة الطرف الماروني الغالب في السلطة ، على بسط هيمنته عليها ، بشكل شبه كامل ، عبر التعاون مع اطراف من البرجوازيات الاسلامية ، حاول الشهابيون ضربها ، وهي تتحالف اساسا مع المحور السعودي .

لكن بعد اقل من ست سنوات ، اصبح السيد الياس سركيس ، مرشح الطرف الماروني الغالب ، وانقلبت التحالفات رأسا على عقب . واتى حوالي ٧٠ نائبا الى قصر حسين منصور الواقع بين المنطقتين الشرقية والغربية ، مخترقين حواجز المطاط النارية ، يتراكضون امام باحة القصر خوفا من الرصاص والقذائف ، من اجل ان ينتخبوا السيد الياس سركيس رئيسا للجمهورية باغلبية ثلثي اصوات مجلس النواب ، في دورة الاقتراع الثانية .

ان الصورة الجديدة ، التي نشرتها « النهار » لاجتماع المجلس وان كانت صورة فوتوغرافية ، لا تقل كاريكاتورية عن الصورة الاولى . فماذا جرى لكتاب « تاريخ الموارنة » الذي كان بيد شارل حلو ، حتى اصبح يصب في خانة مرشح يتفق الجميع على اعتباره مدعوما من سوريا ؟ وكيف انقلبت الصورة بعد اقل من ست سنوات ، ليصبح ولي العهد الشهابي ، مرشح شمعون والكتائب والرئيس كرامي ؟

ان الجواب على هذا السؤال ، لن يكون بالتأكيد ، عبر تحليل مواقف السادة النواب وبرامجهم السياسية . فالسيد سليمان العلي ، يكشف لعبة الاوراق المستورة في انتخابات الرئاسة . فيعلن نهار الاربعاء ٥ — ٥ — ٧٦ ، تأييده للسيد الياس

سركيس « بناء على رغبة الاشقاء السوريين » لكن هذا الكشف لا يكفي . ولا تكفي كذلك لعبة الاغراض التي سياخذها الشباب لاحد النواب حتى يأتي الى المجلس رغم ان النائب البير منصور يفضح لعبة القبض والدفع . فالقضية اكثر تعقيدا ، ولا يمكن فهمها الا ضمن فهم مسألتين :

المسألة الاولى ، وتتعلق ، بالرئاسة في لبنان . دورها داخل التركيبة اللبنانية ، وعلاقتها بالتمثيل السياسي الذي يتركز اساسا في مجلس النواب .

والمسألة الثانية ، هي في فهم انتخابات الرئاسة اللبنانية ، من ضمن سياق الحرب الاهلية المشتعلة في لبنان منذ اكثر من سنة .

ان هاتين المسألتين ، تكشفان الغامض ، في لعبة الانتخاب . وتسمحان بتقييم دقيق لفوز السيد الياس سركيس ، من ضمن دراسة الصراعات الفعلية التي تخوضها الجماهير الوطنية في الحرب الاهلية .

الرئاسة في النظام اللبناني :

الرئاسة في النظام السياسي اللبناني ، هي عقدة حبل الرئاسات . فرئيس الجمهورية قانونيا ، يلي الاحكام ولا يحكم . لكنه يحكم . ورئيس مجلس الوزراء هو رئيس السلطة التنفيذية ، لكن مجلس الوزراء لا يجتمع عادة الا برئاسة رئيس الجمهورية . والاكثرية النيابية هي التي ترشح رئيس مجلس الوزراء في الاستشارات. لكن غالبا ما تترك اكثريتها الحرية لرئيس الجمهورية في اختيار رئيس وزرائه . والحكومات لا تسقط في البرلمان الا نادرا وعندما تفقد دعم القصر الجمهوري . هكذا نرى ان رئاسة الجمهورية في النظام السياسي اللبناني ، تجمع الحكم الرئاسي الى جانب الحكم البرلماني . وتسمح لمنصب رئاسة الجمهورية بغلبة شاملة على الرئاسات الاخرى . هذه الغلبة ، هي وجه الغلبة المارونية في السلطة . فرئيس الجمهورية ، هو ممثل هذه الغلبة ، داخل العلاقات السياسية في التركيبة اللبنانية . تعيد هذه الغلبة تشكيل التحالفات داخل الهيئة التمثيلية ــ مجلس النواب . هكذا ، يأتي رئيس الجمهورية واغلبيته الجديدة الى جانبه . ويعاد تنظيم الحياة السياسية اللبنانية ، في جميع مراتبها التنفيذية والتشريعية ، على ضوء غلبة رئاسة الجمهورية على الرئاسات الاخرى .

فما هي عناصر صناعة الرئيس اللبناني . وما هي اوالية توليه السلطة ؟
من الواضح ان مجلس النواب ، هو الذي ينتخب رئيس الجمهورية . لكن هذا الانتخاب ، ليس انتخابا مباشرا . اذ غالبا ، ما ينتخب هذا المجلس مرشحا وحيدا او شبه وحيد . اذن فانتخاب الرئيس لا يمر باوالية التمثيل السياسي اللبناني ــ مجلس النواب ــ فقط . بل يأتي عبره من التوازن العام الذي يحكم كينونة لبنان ، بوصفه تجزئة عربية .

لذلك ففي بحثنا ، عن صناعة الرئيس في لبنان ، لا بد من معالجة مسألتين مترابطتين : المسألة الاولى ، هي مسألة التمثيل السياسي : مجلس النواب . والمسألة الثانية هي مسألة التوازن العام .

١ ــ التمثيل السياسي :

القانون الانتخابي الحالي هو قانون ، جرى تفصيله على حجم اتجاهات السلطة الشهابية وقدرتها على ضبط الصراعات الطائفية ، داخل التوازن العام الذي اتى

بشهاب رئيسا للجمهورية بعد حرب ١٩٥٨ الاهلية . وهو اساسا ، يخدم سلطة البرجوازية الكمبرادورية في تحالفاتها وتوازناتها بين المركز الامبريالي والداخل العربي. فالتمثيل الديمقراطي اللبناني ، هو ككل تمثيل ديمقراطي — برجوازي ، يحجب الصراعات الفعلية مستبدلا اياها بصراعات مخففة . ففي الديمقراطية البرجوازية الغربية ، يقوم التمثيل النيابي ، واجهزة السلطة البرجوازية ، بحجب الصراع الطبقي ، عبر تفتيت الطبقة العاملة الى افراد احرار . اما في النمط الاقتصادي السياسي الوسيط . فان الميل العام الذي تقود اليه الراسمالية الوسيطة ، هو نحو مزيد من الاستقطاب الطائفي ، وضرب لاشكال التنظيم الاجتماعية الاخرى . لذلك تاتي مؤسسة التمثيل السياسي ، لا لتعكس هذا الميل ، لانه عندئذ اما ان ينفرط الكيان ، واما ان تقوم الغلبة المارونية على العنف الداخلي المباشر والمستمر ، وهذا يتنافى مع تحديد الكيان كنتاج للتجزئة في سياق الصراع مع الامبريالية ، بل لتحجبه ضمن صراعات من نمط جديد . اما عملية الحجب هذه ، فتظهر من خلال العملية الانتخابية ، عبر شكل تقسيم الدائرة الانتخابية نفسها ، الذي لا يتطابق كليا مع الانقسامات الطائفية . وتظهر على الاخص ، عبر تشكيل الكتل النيابية ، تحالفاتها ، اعادة تشكيل هذه التحالفات . تمثل هذه التحالفات وجه التوازن ، الذي ينقل الصراع من حديته الطائفية الى اشكال تحالفات « سياسية » . فالانقسامات في فترات التوازن حيث تعمل المؤسسات السياسية ، لا تبقى انقساما طائفيا بشكل مطلق . بل تأخذ شكل انقسامات سياسية حول السلطة التنفيذية . ان هذه التحالفات هي ضابط التوازن في المستوى السياسي ، الذي هو اساسا توازن عام عربي — امبريالي . (وحدة تجزئة) . هنا يصبح التمثيل السياسي حجبا للشكل الطائفي في الصراع ، بعد وضعه ضمن قنوات اخرى — المؤسسات . فعلى اية قاعدة تجري عملية ضبط التوازن ، ضمن وجهة عامة تتمثل في غلبة الاستقطاب الطائفي ؟

كنا ، قد اشرنا (١) الى ثلاثة مستويات للتنظيم الاجتماعي في لبنان . العشيرة ، العائلة ، الطائفة . واكتشفنا ، انه داخل سياق نمو الراسمالية الوسيطة في ظل التجزئة المفروضة بالعنف الامبريالي ، فان مزاج هذه المستويات يحكمه الميل الى انهيار العشيرة وبروز العائلة الصغيرة ، ضمن حركة تناقضية تؤدي الى تكون الطائفة كمزاج مستجد ، لا يفسر الا بحلول الراسمالية الوسيطة . غير اننا نشير هنا الى علاقتين مركبتين يقوم هذا المزاج على قاعدتهما .

فالعلاقة التناقضية بين العائلة والعشيرة تحسم على المستوى القانوني ، لمصلحة العائلة ، لكن الممارسة الاجتماعية اكثر تعقيدا . فهذا الحسم ، الذي يفتت العشيرة مبدئيا يستعيد بعض اشكالها . فالارث ، يبقى عمليا ، وحتى في ظل الحق البرجوازي، عرضة للتحايل على القانون لمصلحة العائلة الموسعة .

كما ان العلاقة ، بين العائلة والطائفة ، هي الاخرى علاقة مركبة . فالطائفة ليست مجموعة عائلات . بل هما مستويان ، يتناقضان . فالطائفة هي شكل ناتج عن الميل الى تفتيت علاقات الحسب والنسب معا لاحلال صلات الارحام . بينما تقوم العائلة الموسعة على علاقات النسب .

ان غلبة المستوى الطائفي في هذا المزاج ، لا تلغي المزاج . بل هو يتحدد في ظل النمط الراسمالي الوسيط عبر آوالية علاقات مركبة : —

(١) خالد جابر : السلطة والتوازن في لبنان • شؤون فلسطينية ٥٠ ـ ٥١ •

١ ـــ يقود الميل العام الى ضرب مراتبية سحب الريوع ، الى ضرب العشيرة . وهذا يسمح ببروز الطائفة كشكل للتنظيم الاجتماعي .

٢ ـــ غير ان العلاقة بين الطائفة والعشيرة ليست مباشرة . بل هي تمر عبر صراع العائلة البرجوازية (البيت) مع العشيرة . فالعائلة البرجوازية ، القائمة اساسا على سيادة الحق البرجوازي ، لا تقوم هنا على قاعدة انتاج رأسمالية . اذلك لا يستطيع هذا التناقض ضرب العشيرة بشكل كامل . بل ينشأ عنه شكل وسيط هو العائلة الموسعة .

٣ ـــ تنشأ داخل هذا المزاج الجديد علاقة صراعية بين الطائفة والعائلة الموسعة. يأخذ هذا الصراع اشكالا متفاوتة حسب مراحل الصراع في التوازن العام . فالغلبة المطلقة للشكل الصراعي الطائفي ، تعني صراعا طائفيا مطلقا ، اي تنفي امكانية التوازن بالغلبة التي هي اساس الكيان . لذلك تلعب العائلة الموسعة على المستوى السياسي دور الضابط للصراع الطائفي . ففي المستوى السياسي ، وداخل صراعها مع الميل الطائفي الكامل ، تعاند العائلة الموسعة محاولة ضرب نفوذها السياسي . لان هذه المحاولة ، لا تستطيع ضرب العائلة الموسعة كاحدى اطر الصراع السياسي ، لان هذه العملية تقود الى تفجير التناقض الطائفي نفسه بشكل كامل وهكذا يضرب الكيان .

ضمن هذه العلاقة المركبة ، يأتي التمثيل السياسي ، لا ليضرب الميل العام للاستقطاب الطائفي ، بل ليعكسه ، وليحجب الاساسي فيه . هكذا تعاند العائلة الموسعة عملية اذابتها كليا وضربها . وتلعب على المستوى السياسي ، وعلى مستوى المؤسسات التمثيلية دور كابح الانفجار الطائفي . دون ان تستطيع المس بالمراتبية الطائفية . اي بالغلبة المارونية في السلطة .

هكذا يبرز دور العائلة الموسعة على مستوى التمثيل السياسي . وليس من قبيل الصدف ، ان يكون جميع المرشحين لرئاسة الجمهورية ينتمون الى عائلات سياسية لعبت دورا سياسيا في الحياة اللبنانية . (ريمون اده هو نجل الرئيس الاسبق اميل اده . ميشال الخوري هو نجل الرئيس الاسبق بشارة الخوري . جان عزيز هو ابن شقيقة البطريرك الماروني السابق بولس المعوشي . اما السيد الياس سركيس ، الذي لا ينتمي الى العائلات اللبنانية العريقة فهو الابن الروحي للرئيس السابق فؤاد شهاب) . ولذلك ايضا ، تقوم داخل الاحزاب الطائفية عائلات تستند الى القاعدة المادية التي اشرنا اليها . فداخل حزب الكتائب . الذي هو اكثر الاحزاب الطائفية وضوحا في طائفيته ، تنشأ عائلات سياسية . الجميل . ابو شرف . شادر .

يلعب التمثيل السياسي النيابي اذن دور حجب الصراع الطائفي . اي دور عكسه في توازن عام . تجري صياغته في الصراع العربي الامبريالي .

ان دور هذا العامل الداخلي ، التمثيل النيابي ، في اختيار الرئيس او المشاركة في اختياره ، بالغ الدلالة . لانه يكشف العلاقات الفعلية . كون هذه المؤسسة لا تستطيع الا في ظروف خاصة جدا ، لعب دور مؤثر نسبيا في اختيار رئيس الجمهورية . فالفئة الكمبرادورية باجنحتها الطائفية المختلفة ، رغم هذا التعقيد في اوالية دورها السياسي ، بالغة الهامشية . ومؤسساتها سريعة العطب .

ب ـ التوازن العام :

ان التوازن بالغلبة ، الذي صيغ في الميثاق الوطني ١٩٤٣ ، هو شكل لتوازن عام يحكم الكيان اللبناني . فهذا الكيان ، بوصفه تجزئة تتم بالعنف الامبريالي المباشر ، هو لحظة توازن في الصراع العربي ـ الامبريالي . الكيانات بهذا المعنى ، لا تتمتع في بنيتها باستقلالية تسمح لها بالحركة السياسية خارج اطار التوازن العام بين المراكز الامبريالية والاوضاع العربية . وهذا التوازن العام بدوره هو محصلة الصراعات ، التي تشارك فيها الجماهير الوطنية داخل الكيان ، دون ان تستطيع الحركة الجماهيرية ان تتمتع باكثر من استقلال نسبي . لذلك فعملية فرط الكيان ، ومحاولة تغيير النظام تصطدم بمستوى التوازن العربي ـ الامبريالي . بل هي انعكاس مباشر لها ، عبر جدل الوحدة ـ التجزئة .

ان هذه الحلقة الصراعية هي التي ، في ظل قيادة البرجوازية العربية للصراع ضد العدو الامبريالي ، تعيد انتاج الكيان . وتعيد بالتالي انتاج قنواته . فالصراع الطائفي، الذي ينفجر مع بداية الحروب الاهلية الوطنية . ١٩٥٨ ـ ١٩٧٥ . سرعان ما يتحول وضمن اوالية صراعية جماهيرية ، الى صراع طبقي عربي حول المسألة الوطنية . لذلك ، فالمساومة مع الامبريالية ، حتى عبر فرض تراجعات عليها ١٩٥٨ . تعيد انتاج الكيان . وبالتالي نعيد انتاج الشكل الطائفي الذي يدمر نفسه في الصراع الوطني .

ان رئاسة الجمهورية ، بوصفها رئاسة الرئاسات ، تصبح في الكيان اللبناني ، شكل الغلبة المارونية القائمة على قاعدة التوازن العام هذا . لذلك ، فان دور هذا التوازن في اختيار رئيس الجمهورية ، يصبح الدور الرئيسي . فهذا التوازن ، ليس محصلة صراعات داخلية ـ لبنانية . بل محصلة هذه الصراعات ضمن الصراعات العامة في المنطقة العربية بين الحركة الوطنية العربية والامبريالية .

غير ان هذا الدور الرئيسي في اختيار الرئيس . لا بد وان يتم ، في ظل توازن الغلبة الداخلي ، عبر قنوات التمثيل السياسي ، التي تضبطه . فالرئيس ، يصنع كمحصلة قوى . لكنه لا يستورد استيرادا من الخارج . بل يأتي من ضمن قنوات التمثيل السياسي . اي من ضمن الصراعات الطائفية في اشكالها التمثيلية التي تحجبها . هكذا تتوالى العائلات السياسية على منصب الرئاسة .

ان دراستنا ، للعاملين الرئيسيين في اختيار الرئيس ، تشير الى اولوية عامل التوازن العام بشكل مطلق لكن هذا لا يلغي دور العامل التمثيلي . يسمح له بلعب دور هامشي غالبا . ثم يعيد تركيبه ، على ضوء التوازن الداخلي ، الذي يأتي كمحصلة للتوازن العام .

الرئاسات في لبنان :

سوف نحاول الان ، ومن خلال استعراض سريع للمراحل المختلفة في اختيار الرئيس اللبناني ، دراسة علاقة هذين العاملين . واكتشاف الاوالية الداخلية لعملية انتخابات الرئاسة . يمكننا هنا ، تقسيم اختيار الرئيس الى اربع مراحل : ـ

المرحلة الاولى : فرض الرئيس بواسطة الانتداب الفرنسي :

في مرحلة الانتداب الفرنسي ، كان الدور الاول في اختيار الرئيس ، هو للسلطة المنتدبة . فلقد اتى الانتداب الفرنسي ، على اشلاء حركة وطنية عربية بقيادة الاقطاع

المشائري العربي . وقام بضربها عسكريا ــ معركة ميسلون ــ وتصفية انتفاضاتها ــ الثورات . ثورة جبل العرب خاصة ــ لذلك ، كان الانتداب شكلا للعنف المباشر . فرض التجزئة ، وفرض اقامة دولة لبنان الكبير ، رغم معارضة جماهيرية تمركزت اساسا في المدن . لذلك كان الرئيس ، وكانت المؤسسات التمثيلية ، مجرد ستار لحكم استعماري مباشر ، ولا علاقة له بممارسة الحكم فعليا . غير ان الانتداب ، وضع في هذه المرحلة الاولى اسس التوازن بشكل غير واضح . فتعاقب على الرئاسة بعض المسيحيين الذين (ينتمون الى الطائفة المارونية) . وبقي الكيان الجديد ، غير معترف به من اغلبية الجماهير الوطنية المطلقة .

المرحلة الثانية : بداية التوازن العربي ــ الامبريالي :

بقي الانتداب الفرنسي سيدا في ادارته لشؤون دولة لبنان الكبير ، حتى بدأت تباشير هزيمة الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية . وبدات محاولات الاستعمار البريطاني الحلول مكان النفوذ الاستعماري الفرنسي . لقد ترافق هذا الواقع الدولي الجديد ، مع ارتفاع شعارات الاستقلال الوطني التي التقت ، موضوعيا ، مع محاولات الاستعمار البريطاني اكتساب مناطق نفوذ جديدة . فالحركة الاستقلالية هي محصلة هذين الاتجاهين الموضوعين . وتوازناتها اللبنانية هي محاولة اعادة انتاج للتجزئة في ظل ظروف جديدة متقدمة نسبيا . لقد استطاعت البرجوازية الكبرى العربية المتحالفة مع الاقطاع قيادة هذا المد الاستقلالي في المناطق الخاضعة للنفوذ الفرنسي ، عبر التحالف مع انظمة عربية اخرى لا تزال تخوض صراعا محدودا مع الاستعمار البريطاني . فاتى الاستقلال ، ضمن معادلة دولية جديدة اساسا . واتى ايضا ضمن ميل جماهيري وحدوي ، جرى تقنينه في جامعة الدول العربية التي هي اعادة انتاج للتجزئة داخل سياق الميل الوحدوي .

ضمن هذه المعادلة العربية الجديدة ، ضرب النفوذ الفرنسي . واتى الاستقلال ، كاعادة لانتاج التجزئة ، ضمن توازن عام ، الغلبة فيه واضحة للمعسكر الامبريالي البريطاني . واتت قنوات التجزئة اللبنانية كاعادة انتاج للكيان . كتكريس للغلبة المارونية في العرف .

ان دراسة دور المؤسسات التمثيلية والسياسية في هذه المرحلة بالغ الوضوح . فالقرار الرئيسي في اختيار الشيخ بشارة الخوري رئيسا للجمهورية كان قرارا بريطانيا ــ الجنرال سبيرز . لكنه يمر عبر صيغة التوازن ، التي ارسيت ، بالصراعات السياسية . صراعات العائلات والكتل السياسية داخل المؤسسة السياسية اللبنانية . فالتوازن الداخلي ، كان محصلة اتجاه ماروني « معتدل » متحالف مع البريطانيين الكتلة الدستورية . في مواجهة اتجاه متحالف مع الفرنسيين ــ الكتلة الوطنية . الاتجاه الاول ، يقيم علاقة تحالف مع البرجوازية السنية ــ رياض الصلح ــ ومع السلطات العربية . اما الاتجاه الثاني فمعزول عربيا . هكذا اتى الخوري كأول رئيس استقلالي . واخذ التوازن العربي ــ الامبريالي شكلا وحدويا يعيد انتاج التجزئة ــ الجامعة العربية . واعيد انتاج الكيان ، ضمن معادلة توازنات جديدة ، استطاعت داخليا ، وعبر تحالفات عربية ان تقلب بشارة الخوري فيما بعد ، برضى البريطانيين . وان تأتي بكميل شمعون ، ضمن توانين المعادلة نفسها .

المرحلة الثالثة : التوازن العربي ــ الامبريالي :

عام ١٩٥٨ انفجرت الحرب الاهلية في لبنان . لقد كانت المنطقة العربية تعيش في تلك الفترة مرحلة مد قومي عربي ، يقوده عبد الناصر الخارج من حرب السويس ١٩٥٦ بانتصار وطني ، تجلى في تأميم القناة وطرد الاستعمار الانكليزي من مصر . والذي كان يقود المعسكر العربي المعادي للاحلاف الاستعمارية بقيادة بريطانية ، وبشكل خاص حلف بغداد . لقد استطاع المد القومي الناصري ، في ذروة انتصاراته، على الاستعمار القديم ان يضرب التجزئة ، عبر اقامة وحدة مصر وسوريا . وان يمتد تأثيره الى جميع انحاء القارة العربية . والتي تمثلت في ثورات وانتفاضات في اكثر من قطر عربي .

في هذا الظرف العربي ، انفجرت الحرب الاهلية في لبنان . ورفعت الجماهير الوطنية شعار ضرب الاحلاف الاستعمارية . ورفع المطلب الوحدوي .

ان ظروف المد القومي الذي قاده عبد الناصر ، لا يزال بحاجة الى دراسة خاصة . فلقد اتى في ظل ضرب الاستعمار القديم ، ومحاولة الاستعمار الجديد التسلل عبر مشاريع احلاف قديمة ــ جديدة ــ مشروع ايزنهاور . لكن الاساسي هنا ، هو ان الحرب الاهلية اللبنانية ، اصطدمت بالقوات الاميركية الاتية بطلب شمعون ، لا لتحمي حكمه وحكم اعوانه من العملاء البريطانيين ، بل لتحل محلهم . ولتمنع الثورة العراقية تموز ١٩٥٨ من الالتحام بالوحدة .

ان الطبيعة البرجوازية الوطنية لقيادة عبد الناصر ، بالاضافة الى الظروف العامة للامبريالية الاميركية في ذلك الوقت (قائدة المعسكر الامبريالي ، اقوى دولة في الارض) اجبرت الحركة الوطنية على المساومة من ضمن الصراع . فأتى اتفاق ــ عبد الناصر ــ مورفي ليكبح المد الوحدوي امام حدود الكيان . وليقيم توازنا عربيا ــ امبرياليا . نقل الهجوم من الجانب العربي الى الجانب الامبريالي (الانفصال) ثم حرب ١٩٦٧ . التي جاءت كحسم للمسألة ، بعد محاولات عبد الناصر الالتفاف على الامبريالية عبر اليمن .

ان صيغة الاتفاق المساومة ، هي التي انهت الحرب الاهلية في لبنان . وسمح للمؤسسات بان تعود فتتشكل . هنا اتى انتخاب قائد الجيش فؤاد شهاب ، وكأنه عقدة اقامة التوازن اللبناني الجديد ضمن التوازن العربي ــ الامبريالي .

في انتخابات رئاسة ١٩٥٨ ، لعبت المؤسسة التمثيلية دورا بالغ الهامشية . فالاتفاق على الرئيس الجديد ، تم اساسا بين مورفي وعبد الناصر بعد استشارة البطريرك الماروني ، وبعد وضع الزعماء اللبنانيين في اطار هذا الاختيار . ولم تنفع معارضات السياسيين . وتحفظاتهم . ولم تنفع دموع صبري حماده (١) . او مشاعر كميل شمعون (الذي كان يملك الاكثرية في مجلس النواب) فؤاد شهاب من المجيء كرئيس للجمهورية . هكذا اعيد تشكيل التمثيل السياسي جزئيا على ضوء الرئاسة الاولى . واستطاع الحكم الشهابي في عهديه الاول والثاني ان يتمتع باستقرار نيابي وسياسي نسبي ، لم يبدأ في التخلخل عمليا الا بعد هزيمة حزيران . فالحكم الشهابي،

(١) في مقاله الممتاز : من يصنع الرئيس ، ملف النهار ، لبنان ١٩٧٠ ، رقم ٦ . يشير الياس الديري الى تفاصيل الظروف التي اتت بشهاب رئيساً للجمهورية ويبرهن عمليا ، هامشية دور المجالس النيابي .

المستند الى توازن عام والى دعم الجيش . ضرب الاحزاب العقائدية التي لا تتركب في التوازن ثم وجه ضربات فعلية الى شمعون . فاستطاع تأمين استقرار سياسي ، سمح له بتحقيق بعض الاصلاحات الراسمالية . وتابع سياسته العربية المتزنة المؤيدة للناصرية حتى انهيار التوازن العام في هزيمة ١٩٦٧ .

المرحلة الرابعة : الهجوم الامبريالي :

بعد هزيمة ١٩٦٧ ، اختل التوازن في المنطقة العربية ، لحساب المعسكر الاميركي ـ الصهيوني . وفرضت سلسلة تراجعات على البرجوازية الوطنية ، تمثلت في ضرب المد الوحدوي ، التراجع من اليمن . رفع شعار التضامن في وجه الهجمة الامبريالية. كما برزت ظواهر ايجابية ، تمثلت في الثورة الفلسطينية وفي الاستعداد الذي بدأت البرجوازية الوطنية اعداد بلادها له ، في سبيل شن حرب وطنية .

لقد انعكست هذه المرحلة بشكل واضح على الوضع اللبناني . فبدأ التوازن الشهابي ينهار تحت ضربات الحلف الثلاثي (الماروني) وبدأت تنمو في المقابل حركة جماهيرية تلتف حول المقاومة الفلسطينية ، وترفع شعار الحريات الديمقراطية .

ان انتخاب سليمان فرنجية باغلبية صوت واحد ، تعبر اساسا عن ظاهرة تحدث للمرة الاولى في تاريخ لبنان السياسي ، لا يمكن مقارنتها بظاهرة فوز بشارة الخوري على اميل اده ، فبشارة الخوري اتى من ضمن توازن جديد يتركب في ظل بريطانية . اما فرنجية ، فانه يأتي في سياق انهيار توازن كان قائما . فكيف نفسر هذه الظاهرة: نشير اولا ، الى ظاهرة انفراط التوازن اللبناني . فسليمان فرنجية ، يأتي كمرشح للمد القادم بعد هزيمة حزيران . وهو تعبير عن محاولة احداث اختلال في المعادلة اللبنانية بعد انحسار الدور الناصري . لذلك وجد الشهابيون انفسهم خارج دائرة دعم فعلي من مصر . وبدأوا يفتشون عن الحلفاء . كذلك جاء اسقاط الحكم الشهابي برضى اميركي ، بعد ان وجدت الامبريالية الاميركية في نفسها القدرة على تحقيق مكاسب افضل من مكاسب توازن ١٩٥٨ . ورغم استماتة الشهابيين في خطب ود اميركا (فضيحة الميراج) ، فانهم لم يستطيعوا احداث انقلاب سريع في سياستهم . فلم يأتهم الدعم الاميركي الفعلي .

كذلك ، فميزان القوى داخل الساحة العربية ، بدأ يميل لمصلحة المحور السعودي. فأتى تكتل الوسط (سلام ، فرنجية ، الاسعد) وكأنه تعبير عن قدرة هذا المحور على التأثير في مجريات السياسة اللبنانية .

ومن ناحية اخرى ، كانت الحركة الجماهيرية ، الملتفة حول الثورة الفلسطينية ، تجد تمثيلها السياسي اللبناني نسبيا في كمال جنبلاط . وكان من مصلحتها ضرب التوازن الشهابي من اجل رفع قبضة المكتب الثاني عن عنق الجماهير .

عمليا ، جميع القوى المؤثرة في السياسة اللبنانية ، لها مصلحة في ضرب التوازن الشهابي (ما عدا مصر ، التي لم يعد بمقدورها التدخل بالشكل السابق في مجريات السياسة اللبنانية) . ومع ذلك لا يفوز فرنجية الا باغلبية صوت واحد . وبعد عملية قيصرية تشبه الانقلاب الابيض ، المحاط بمسلحي الاحزاب المارونية . هنا ، تأخذ مسألة التمثيل السياسي (مجلس النواب) حجما كبيرا . فمؤسسة التمثيل ، تعاند سياق الانفراط عبر محاولة رفضها له ، لاسباب تتعلق باشكالية التمثيل نفسه، والمصالح المرتبطة بالسلطة التنفيذية . لذلك اخترق فرنجية اسوار مجلس النواب

بما يشبه القوة (عراضات مسلحة) وبما يشبه الاكراه (اجلس فرنجية نائب الكورة المحسوب على الشهابيين : فؤاد غصن الى جانبه ، ليضبط عملية انتخابه لــه) . فالمؤسسة التمثيلية في سياق انفراط التوازن تعاند هذا الانفراط . لكنها لا تستطيع منعه . كما انها تحجب الصراع الطائفي الذي يقع مباشرة خلف هذا الانفراط ، للحظة واحدة . اي لا تستطيع رغم لا طائفية شكل الانتخاب ان تحجب الصراع الطائفي الا للحظة . ثم تبدأ سيرورة عملية انفراط التوازن تأخذ مجراها .

ان انتخاب الرئيس ، في ظل بداية انفراط التوازن . هو الذي يسمح للمؤسسة التمثيلية بهذه الحرية النسبية . وهو الذي يسمح لشكل الانتخاب بان يظهر ، وكأنه يجري وللمرة الاولى خارج الضغوط الخارجية . لكن هذا الدور ، وهذا الحجب سرعان ما ينكشف . ويعود الصراع ليصبح الوجه الغالب .

الرئاسة في الحرب الاهلية :

الياس سركيس ، هو اول رئيس جمهورية ، ينتخب في سياق الحرب الاهلية . فانتخابه لم يات كمحصلة لتوازن عام عربي — امبريالي ، تجري اكتشاف اوراقه المحلية . بل هو يأتي في سياق الحرب وكأحدى مراحلها كاحدى محاولات تركيب التوازن ، ضمن اوالية صراع جماهيري مستمر . لذلك لا يمكن مناقشة عملية انتخابه عبر ارجاعها الى عامل واحد فقط . (تحالف الطبقة الحاكمة بمختلف اجنحتها الطائفية في مواجهة الحركة الشعبية . لان هذا التحالف لم يحصل بشكل كامل) . بل يجب محاولة اكتشافها ، من ضمن سياق الحرب الاهلية غير المعلنة منذ انتخاب فرنجية . وعبر محاولات تركيب التوازن المستمرة .

يقدم عهد سليمان فرنجية نموذجا لمحاولات تركيب التوازن في سياق انفراطه . فوزارة الشباب التي الفها سلام في مطلع عهد فرنجية ، كانت تعبيرا ، عن عدم قدرة العهد الجديد على اقامة توازنه من داخل المجلس النيابي . لكن بعد الانتخابات ، وبعد تجيير اكثرية نيابية للعهد ، تشكلت حكومة الكهول برئاسة سلام نفسه . وعبر استبعاد كتلة جنبلاط من التوازن الجديد .. لكن هذه الوزارة نفسها لم تستطع الصمود ، رغم محاولة سلام تمثيل الدور الذي مثله رياض الصلح مع بشارة الخوري. فأتى الدور صغير الحجم وغير فعال ، ولم يستطع ان يحجب الصراع الفعلي .

لقد تميزت هذه الفترة بثلاث ميزات رئيسية :

١ — نمو الاتجاهات الرجعية في السلطة ، كاستكمال لهزيمتي حزيران وايلول . وبروز اتجاهات لضرب المقاومة وصلت ذروتها في ايار ١٩٧٣ .

٢ — اشتداد الاعتداءات الاسرائيلية على الجنوب ، وفي العمق . والتي بلغت ذروتها في حرب الايام الاربعة في الجنوب ١٩٧٢ . ثم في اغتيال القادة الثلاثة في نيسان ١٩٧٣ .

٣ — نمو حركة جماهيرية وطنية ، حول الثورة . مستقلة عن السلطة بعد ضرب المكتب الثاني . تمثلت في نضالات الطلبة والمعلمين ، وفي نضالات العمال (سلسلة اضرابات توجها اضراب غندور الدموي تشرين ١٩٧٢) ونضالات فلاحي الجنوب .

لذلك كانت محاولة تركيب التوازن ، عبر استبعاد جنبلاط ، محاولة لتركيبة ضد الحركة الجماهيرية . ولا بد ان تقود في ظل ظروف الوضع اللبناني — العربي الى

محاولة تصفية الثورة الفلسطينية عسكريا . لكن بفشل المحاولة لاسباب داخلية تتعلق بوضع الجيش داخل توازن الغلبة ، ولاسباب عربية تتعلق بالاستعداد لحرب تشرين ، بدأت صيغة التوازن اللبناني تنهار . فالبرجوازية السنية ، بدأ يسيل لعابها على مزيد من المشاركة في السلطة بعد فشل الطرف الماروني في فرض شروطه ، وبعد المد العربي في حرب تشرين . وبرزت اطر طائفية جديدة تطالب بالمشاركة في السلطة (الصدر) . لذلك بدأت محاولة تركيب التوازن ، عبر استبعاد الطرف السني واستبداله بالطرف الجنبلاطي (حكومة تقي الدين الصلح ، ثم حكومة رشيد الصلح). لكن هذه المحاولة ، كانت المحاولة الاخيرة لصد انفراط التوازن ، من ضمن سياق الحرب الاهلية وليس خارجها . فأتى الاستقطاب الوطني ــ اليميني ، ليعلن ولادة قوة جديدة في الساحة اللبنانية ، لن تستطيع محاولات تركيب التوازن داخل الحرب الاهلية استيعابها او تصفيتها .

لقد كانت محاولة تركيب التوازن الجديد عبر الحكومتين الصلحيتين ، بعد فشل تجربة الحافظ البائسة ، لا تعني توازنا يتبلور . بل اتت في سياق مزيد من الاستقطاب تمثل في استعدادات الطرفين للحرب الاهلية القادمة . وأن كانت استعدادات الطرف الانعزالي اكثر دقة واكثر وعيا . ولعل ابلغ دلالة على عدم قدرة هذا التوازن على الاستمرار هو اخر فصول حياته ، حين قدم رشيد الصلح استقالته الى المجلس النيابي ، بعد ان فرطت وزارته ، ولم يكن الى جانبه سوى ثلاثة وزراء !

في ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، وبعد شهرين من انتفاضة صيدا ، انفجرت الحرب الاهلية في لبنان . وانفجرت معها صيغة التوازن ، وبدأت المعارك ، والى جانبها ، بدأت محاولات تركيب التوازن داخل سياق الحرب الاهلية . **الحرب الاهلية تأخذ الشكل الطائفي ومحاولات تركيب التوازن تنقل الصراع الى المستوى المؤسسي .** بين قطبي الجذب هذين سارت الحرب الاهلية نحو تدمير كامل لجميع المؤسسات اللبنانية ، حتى مجلس النواب ، انهار واصبح دوره هامشيا جدا . ولم يتركب لينتخب رئيس الجمهورية الجديد ، الا بشكل شبه كاريكاتوري .

سوف نحاول الان ، تحليل محاولات تركيب هذا التوازن ، من ضمن صراع هذين القطبين : ــ

المحاولة الاولى : الحكومة العسكرية :

لقد تألفت الحكومة العسكرية ، كمحاولة لضبط سياق الحرب الاهلية . وتوجيهها نحو طرف خارجي . فالحكومة العسكرية التي تألفت من كبار قادة الجيش ، كانت محاولة لاحداث توازن جديد في السلطة التنفيذية ، يسمح للطرف الغالب بمتابعة الحرب الاهلية في اتجاه جديد ، بعد المشاركة الجماهيرية الواسعة في المعارك التي تلت مجزرة عين الرمانة . لكن هذه المحاولة تساقطت . العامل الحاسم في تساقطها هو نقل الصراع ، الى ارضيته الفعلية ، بوصفه صراعا لبنانيا كذلك . صراعا بين اطراف السلطة انفسهم على توازنات السلطة . وصراعا بين السلطة في جناحها الغالب مع الثورة والحركة الجماهيرية . الانتصار في هذا الصراع يقوي مواقعها المتهاوية ، بعد ارتفاع المطالب الاسلامية ، واعلان رشيد كرامي ترشيحه **لرئاسة الجمهورية !.**

لقد سقطت الحكومة العسكرية في اجتماع دار الافتاء . حيث فرض على الطرف الغالب الخيار بين حرب اهلية طائفية ، وبين القبول باشكالية توازن جديد ، تعني

اولى علاماتها فرض رشيد كرامي مرشحا وحيدا لرئاسة الوزارة . هكذا سقطت الحكومة العسكرية ، عبر نقل الصراع الى حقيقته الفعلية ، بوصفه شكلا طائفيا مؤقتا . وفرض رشيد كرامي رئيسا للوزراء .

المحاولة الثانية : الحكومة الكرامية :

لقد تشكلت الحكومة الكرامية بعد قتال عنيف . وبعد وساطات عربية وصلت ذروتها ، في وساطة الوزير عبد الحليم خدام . فأتت الحكومة الكرامية ، رغم دعوات رئيسها للتهدئة ، ونصيحته للمواطنين بالذهاب الى البحر ، باعتباره مهدئا للاعصاب ، كنقل للصراع الذي انفجر بين تكليف كرامي وتشكيله للحكومة ، الى مستوى المؤسسات ، حيث يحجب . فأتت الوزارة الكرامية ، في اغلبيتها لمصلحة الطرف الانعزالي ، رغم عدم تمثيل الكتائب فيها . وبدا ان الصراع قد هدأ . لكنه عاد فجأة الى الانفجار . فلقد انتقل الصراع بعد اتفاقية سيناء الى مستويات جديدة، عبر الهجوم الانعزالي العام . وقد حاول كرامي ، بمساعدة الوساطة السورية اعطاءه بعض المسكنات ، تشكيل هيئة الحوار الوطني . لكنه عاد للانفجار مرة اخرى بعد السبت الدموي . ووصل الانفجار ذروته في احتلال الكتائبيين بمساندة الجيش مخيم ضبية . ومنطقة الكرنتينا — المسلخ . هنا امام اشتداد الصراع استقال كرامي ولم يعد عن استقالته ، الا بعد احتلال الدامور ، وبعد موافقة الطرف الانعزالي على المقترحات السورية .

المحاولة الثالثة : الوثيقة الدستورية :

لم يعد كرامي عن استقالة حكومته عمليا ، الا بعد بداية انهيار الجبهة الانعزالية ، عبر الصيغة التي تم الاتفاق عليها ، والتي اطلق عليها اسم الوثيقة الدستورية . فالوثيقة التي اعلنها فرنجية وسط رصاص اشيع حينها انه رصاص ابتهاج جاءت عبر تكريسها للطائفية ، لتكرس التجزئة داخل ميل وحدوي موضوعي . ولتكشف حدود البرجوازية الوطنية التي في السلطة ، التي تحاول تقنين الصراع الوطني الجماهيري ، كي يستطيع الدخول في استراتيجيتها . فأتت الوثيقة ، مع جيش التحرير الفلسطيني القادم لحفظ الامن في المناطق الوطنية ، وكأنها نهاية الحرب الاهلية في لبنان . غير انها لم تكن في الواقع سوى احدى حلقاتها . فالصراع الذي نقل ليحجب ، الى المؤسسات ، يستعيد زخمه ضمن عمليتين : —

١ — استبعاد الحركة الجماهيرية الوطنية من الاتفاق الجديد . عبر تهميش دورها على المستوى السياسي . وهذا ما عبرت عنه ، محاولات تشكيل حكومة كرامية جديدة ، تحتفظ فيها جبهة الحرية والانسان (القوى المارونية المقاتلة) بالتمثيل الماروني بشكل كامل .

٢ — تحجيم الثورة الفلسطينية عبر ادخالها ، عمليا ، تحت مظلة عربية . وعبر ضبطها داخل محاولات التسوية بالشكل الذي تطرح فيه (الكونفدرالية) .

لكن الصراع ما لبث ان انفجر منتقلا الى صلب مؤسسات النظام الى الجيش ، فيما سمي بحرب الثكنات . فحركة جيش لبنان العربي تنتشر لتشمل الجنوب باسره . والقوى الانعزالية تستولي على ثكنة صربا . فينقسم الجيش بشكل كامل ، ولاول مرة في تاريخه . وتنهار التسوية ، ويعود الصراع هو الوجه الغالب في الساحة اللبنانية .

المحاولة الرابعة : انقلاب الاحدب :

في غمرة هذا الانفجار غير المتوقع ! بدأ التآكل يصيب المؤسسات بأسرها . فرئيس الجمهورية يريد تحميل قيادة الجيش وحدها مسؤولية انهيار المؤسسات ، وقيادة الجيش تحاول تدارك انهيار المؤسسة عبر نقل الصراع من قاعدتها الى المستوى السياسي ـ المؤسسي . فأتى انقلاب الاحدب بمطلب اقالة رئيس الجمهورية ، كمخرج للازمة ، وكمحاولة لاعادة تشكيل التوازن . لكنه كان مجرد لحظة في سياق اكبر من اشكالية الصراع المحلي . فاكمل الانقلاب تقسيم الجيش ، وبدأت جولة جديدة من الصراع ، تميزت بتناقض واضح في المعسكر المعادي مبدئيا للقوى الانعزالية . وكأن المعركة عندما انتقلت الى الجبل ، انتقلت الى الداخل العربي . فايصال التناقض الى ذروته يسقط عمليا الشكل الطائفي ، ويكشفه كشكل لصراع طبقي عربي على المسألة الوطنية .

لكن معارك الجبل توقفت . في صيغة محاولة جديدة لنقل الصراع الى المستوى المؤسسي .

المحاولة الخامسة : انتخاب سركيس :

بين تعديل المادة ٧٣ من الدستور ، وانتخاب السيد الياس سركيس رئيسا للجمهورية ، انفجر الصراع ، بشكل جديد : ـ

١ ـ فلقد دخلت اعداد هائلة من القوات السورية الاراضي اللبنانية ، في محاولة لتعديل ميزان القوى ، بعد ان حققت الحركة الجماهيرية الوطنية والثورة الفلسطينية، الكثير من الانتصارات في بيروت والجبل .

٢ ـ فتح معركة سياسية ، بين الحركة الوطنية اللبنانية (جنبلاط) والسوريين .

٣ ـ وصول المبعوث الاميركي دين براون الى لبنان . واقامته لمحادثات مع جميع اطراف النزاع ، ما عدا الطرف الفلسطيني ، بقيت مضامينها غير معلنة .

٤ ـ محاولة الطرف الانعزالي تعديل ميزان القوى قليلا ، عبر احتلال ضهور الشوير . وقصف النبعة بشكل همجي .

وسط هذا الجو المحموم ، وبعد تأجيل جلسة الانتخاب للمرة الاولى ، عبر البحث المضني عن الرجل الثالث ! عقدت جلسة مجلس النواب في قصر حسين منصور ، وسط رفض الحركة الوطنية للجلسة ، ووسط قذائف ، واحزمة نارية ، استطاع السيد سركيس ان يفوز باغلبية محترمة جدا !

فكيف نفسر ، هذا الانتخاب ؟

من الواضح ، ان مجلس النواب ، انهار بعد انهيار جميع المؤسسات . ولعل الصور الفوتوغرافية التي نشرتها الصحف ، عن الذي حل بمبنى المجلس ، تشير الى معنى هذا الانهيار . لكنه ، اعيد تركيبه بشكل قسري . فكيف ولماذا ؟ . نستطيع هنا ان نشير الى الامور التالية :

١ ـ لم يكن امام الطرف الانعزالي من خيار ، وسط هزائمه المتلاحقة ، وفي غمرة التراجع الاميركي سوى الاستسلام ، والاستسلام للبرجوازية العربية . ولم يستسلم مباشرة . بل استسلم بالواسطة . بواسطة الولايات المتحدة . هل يفسر

هذا دور المستر براون ؟ ام لا تزال في جعبة البعض تفسيرات اخرى ؟

٢ — لقد جرى تركيب المجلس ، كي ينتخب السيد سركيس . وهذا لم يأت بقوة الارهاب او اغراء المال فقط . بل اتى ، كنتيجة للحدود التي تريدها البرجوازية لصراعها . فهي تقف امام جدار التجزئة ، وسط نضال قومي عارم ، تعيد انتاج التجزئة وسط ميل وحدوي ومحدد الاهداف (كونفدرالية تنتزع تنازلات من العدو ولا تضرب اساس هيمنته) وهي في عملها هذا مضطرة لاعادة انتاج المؤسسة التمثيلية والتحالف معها . كما ان هذه المؤسسة تعيد انتاج نفسها عبر هذا الواقع الجديد ، ولو بشروط اصعب .

٣ — ان استسلام الطرف الانعزالي ، بهذه الطريقة ، يعني ان الرئيس ، صنع خارج قنوات التمثيل السياسي . لكنه لم يفرض عليها فرضا . بل هي مضطرة للقبول به ، حتى لا ينهار النظام بأسره . هكذا يبرز السادة النواب بشكل محزن . يتراكضون الى قصر المنصور رغم علم بعضهم انه يحفر حتفه بيديه ويقضي على مستقبله النيابي ، نتيجة عودة السلطة الشهابية معدلة ، وبتحالفاتها القديمة — الجديدة .

٤ — من هنا ، كان هناك طرف واحد ، مستبعد من العملية الانتخابية . هو الحركة الشعبية . اما ، بقية اطراف الطبقة الحاكمة ، فكان وضعها داخل الصراع التي رفضت المشاركة في صنع توازنه الجديد (لاسباب في جوهرها داخلي ، ويتعلق بالتوازنات داخل المؤسسات) هامشيا وهشا . وكأنها لا علاقة لها بما يجري .

هكذا اتى انتخاب سركيس ، لا كنهاية للحرب الاهلية ، بل كاحدى محطاتها ، وفي لحظة امكانية تحولها الى حرب اهلية عربية . وهذا ما عبرت عنه ظاهرتان : —

اولا : قيام الطرف الانعزالي بمحاولة فاشلة لاحتلال المتين — عينطورة — الزعرور .

ثانيا : انتقال الصراع الى داخل طرابلس .

ان دراسة انتخاب سركيس رئيسا للجمهورية ، وان اتت ، ضمن سياق المحاولات المستمرة لتركيب التوازن اللبناني ، فانها تختلف نوعيا عن سابقاتها ، وذلك لسببين مترابطين : —

السبب الاول ، هو طبيعة الحركة الشعبية وحدودها . فهذه الحركة كانت مضطرة في ذروة الهجوم الوطني العام ، الى ايقاف اطلاق النار ، والتراجع نحو القبول بنقل الصراع الى اطار المؤسسات . وهذا يعود اساسا الى عجزها ، بتركيبها البنوي وقيادتها الطبقية عن طرح مسألة السلطة ، التي تقود حتما الى صراع طبقي عربي مكشوف حول المسألة الوطنية . لذلك ، فحين تراجعت الى القبول بنقل المعركة الى اطار المؤسسات ، كانت تتراجع فعليا ، وتسمح بانتخاب سركيس ، مكرهة . لكن الرئيس الجديد ، الذي يصبح نقطة توازن ، ليس توازنا ناجزا . بل يفرض تعاملا معينا معه ، على ضوء ميزان القوى الفعلي ، الذي سيشكل هو جزءا منه .

والسبب الثاني ، يرتبط بالاول . فالحركة الجماهيرية هي امام مفترق : — فاما الدخول في التوازن العام العربي — الامبريالي ، وهذا يسمح للثورة بالدخول في التوازن اللبناني مؤقتا واما استمرار الحرب الاهلية ، وتحولها الى حرب اهلية عربية .

المـــأزق التـــاريخي
لحركة التحرر الوطني العربيــة

ميشيل كامل

شهد العالم مرحلة انتعاش نمط وطني تقدمي من التنظيم الراسمالي لعلاقـــات الانتاج ((**راسمالية الدولة الوطنية**)) منذ بداية الخمسينات ، انتشر في مختلف انحاء ((العالم الثالث)) ، بلغ اوج النجاح والازدهار وحقق انتصارات وانجازات باهــرة لحركات التحرر الوطني والقومي .

لكن هذه الصحوة لم تدم طويلا ، ولم تعمر الا لفترة سنوات قليلة ، اعقبهــــا انهيارات ، لعل ابرزها في اندونيسيا (١٩٦٥) وغانا (١٩٦٦) ومصر وسوريـــا (هزيمة حزيران ١٩٦٧) .

وتكررت نفس الظاهرة ، لتدخل هذه النظم مرحلة ازمتها وانحسارها ، فهزيمتها . ونمت عناصر **الاستقطاب والحدية** ، وتزايد معدل سرعة هذه التحولات بعد الانتصار الساحق لشعوب فيتنام وكمبوديا ، فانعكست اثارها مباشرة على مجرى الاحـداث في افريقيا (انجولا) والوطن العربي .

وسوف نركز في هذا البحث على ((مصر)) ، كمنطلق لدراسة ((الظاهرة)) فــي حركتها وشمولها . واهمية تسليط الاضواء على التجربة المصرية بالتحليل والتقييـم تكمن في انها **نمط متقدم واكثر نقاءا** لاوضاع ومناهج في الحكم ، سادت لفترة ما فــي الكثير من البلدان العربية . نقصد النظم الاكثر تطورا من الناحية الاجتماعية ، والتي لعبت دورا مؤثرا على راس حركة التحرر الوطنية والقومية . كما ان تجربة مصـر **بلغت مداها واكملت ((دورة حياتها))** ، وانتقلت الى نقيضها ، فهي نموذج مكتمـل . بينما التجارب المماثلة ما زالت تشق طريقها الى نفس المصير المأساوي . فالنظـــام الناصري كان **نموذجا لظاهرة** اعم واشمل .

* * *

جاءت نظم راسمالية الدولة الوطنية بقيادة قطاعات تنتمي الى الراسماليـــة ــ البرجوازية البيروقراطية ــ ترفع رايات الاشتراكية ، ولكنها تتبنى منهجا ((وسطا)) وطريقا ((ثالثا)) لحل المشكلات الوطنية والاجتماعية المستعصية ، المتفجرة ، فــي مجتمعات تتحكم فيها قوى راسمالية كولونيالية وشبه اقطاعية ، وتتميز بعجز القوى الحاكمة التقليدية عن الاستمرار في مواقعها ، وانحلال وتفسخ النظم السياسيــة والقائمة ، وتخلف نضج الطبقة العاملة واحزابها ، وقصور امكانياتها عن تسلـم مقاليد السلطة لاسباب موضوعية وذاتية . وقدمت القيادات الجديدة **حلا ثوريا** فيمـا

يتعلق بالموقف من الامبريالية وقواعدها واحتكاراتها وهيمنتها الاقتصادية ، حلا معاديا للاستعمار والقوى المماثلة له محليا وعربيا . لكنه ظل **حلا اصلاحيا** يدور في اطار العلاقات الرأسمالية . تضت على بعض معوقات انطلاقة القوى الانتاجية الرأسمالية بتحريرها جزئيا من عناصر التخلف ، ومن المكونات الاقطاعية وانماطها الانتاجية .

لقد حققت مستوى ارقى واكثر تحضرا في مجال تنظيم علاقات الانتاج الرأسمالية ، وتصفية معظم الهياكل الاستعمارية وشبه الاقطاعية ، وانتهاج سياسة التخطيط الموجه ، وتولي الدولة لقسم هام ومؤثر من الوظائف الاقتصادية ، اذ اصبح نظام رأسمالية الدولة يتألف من القطاع العام والمشروعات المختلطة والقطاع التعاوني ومؤسسات تنظيم الانتاج في مجال الزراعة والتجارة والحرف . (١) وهكذا يتمكن الجهاز الحكومي من التدخل عن طريق المؤسسات وبواسطة جهاز السوق (سياسة الاسعار) لتوجيه النشاط الاقتصادي ، ليس فقط في القطاع العام ، بل بالنسبة لمعظم رؤوس الاموال المتجمعة في القطاعات الاقتصادية الاخرى .

ومن هنا ، **الوجه التقدمي — المرحلي** — لهذه النظم ، وانجازاتها الضخمة في الحقل الوطني والقومي والاقتصادي والاجتماعي .

لكن هذه النظم — جمعيها — انتهجت سياسة العمل القومي والقرارات العلوية والانفراد بالسلطة واحتكارها (٢) ومعاداة الديمقراطية والتنظيمات الشعبية ، وبصفة خاصة الحركة والتنظيم العمالي . وليس من قبيل المصادفة ان تتم معظم الاجراءات « الراديكالية » ، خلال مراحل القهر والارهاب البوليسي ، واثناء وجود مئات المناضلين الشيوعيين والتقدميين داخل السجون والمعتقلات (مصر) وان تجرى تصفية جسدية للعشرات من اعضاء الاحزاب الحليفة ، اثناء « العمل الجبهوي » في بلدان اخرى تنتهج نفس الطريق . وتحارب وتصفي التنظمات الجماهيرية للاحزاب المشاركة في تلك الجبهات ، والتضييق المتزايد على الحريات النقابية والسياسية ، والقضاء على كل اشكال التعبير المستقل والرقابة الشعبية ، بينما تتولى فئات رأسمالية الحكم باسم الشعب كله ، وباتخاذ مظهر قوة محايدة « فوق الطبقات » وتدعي التسامي عن الصراعات ، والسعي لتحقيق مصالح مجموع الامة !

في هذا المناخ ، فانه من الطبيعي ان تنتعش الرأسمالية ، وتنمو فئة جديدة **بيروقراطية** من كبار الموظفين والقطاع العام ، لا تلبث ان **تتشابك مع عناصر القطاع الخاص القديمة والجديدة** . فالقطاع العام في ظل هيمنة الرأسمالية على السلطة ، **لا يقدم نموذجا جديدا لعلاقات الانتاج ، يكون نقيضا وبديلا** لاسلوب الانتاج الرأسمالي . اذ يبقى اسلوب **الانتاج الرأسمالي سائدا بين رأس المال العام والعمل** . وتصبح « الملكية العامة » مجرد **شكل ارقى من اشكال الملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج** .

ان قطاع رأسمالية الدولة الوطنية لا يؤدي الى « اذابة الفوارق بين الطبقات » — الشعار الديماجوجي المعلن — ، بل على العكس من ذلك ، فهو يحفز ويغذي العلاقات الراسمالية ، وينمي التمايز بين الطبقات .

وفي ظل هذا النمط من تنظيم علاقات الانتاج ، يبرز دور **السلطة** ليس فقط كأداة لحماية العلاقات الرأسمالية ، لكن ايضا **في تادية وظيفة رأس المال نفسه** ، اي كمصدر تراكم راسمالي للفئة البيروقراطية الحاكمة والقطاع الخاص .

فالبيروقراطية الكبيرة ، وبعض العناصر في المستويات الادنى ، المتحكمة في « مراكز القرار » (المشرف الزراعي في الجمعية التعاونية ، رئيس قسم المبيعات في الشركات ... الخ) تستقطع لنفسها نصيب الاسد من الفائض الاقتصادي . وقد زاد حجم المرتبات وبدلات التمثيل للوظائف العليا الى حد كبير . وعلى سبيل المثال ، في الفترة ما بين عام ٦٢/١٩٦٣ و ١٩٦٧/٦٦ — اي خلال اربع سنوات — ارتفعت — البدلات والمرتبات — بنسبة ٢٥٠٪ في قطاع الخدمات و ٢٥١٪ في قطاع الاعمال الحكومية (المؤسسات العامة والشركات التابعة) . وبالرغم من أن حجم هذه الفئة زاد خلال فترة السنوات الاربع بمقدار ٦١٪ ، نجد ان دخلها الاجماعي ارتفع بنسبة ٢٣٠٪ . هذا ، فضلا عن المزايا العينية المتنوعة (السيارات ، بدلات السفر للخارج — من العملة الصعبة ... الخ) .

لكن الوسائل « المشروعة » لا تشكل الا جزءا هامشيا ضئيلا للغاية بالمقارنة مع المبالغ الهائلة التي تستحوذ عليها عناصر هذه الفئة عن طريق السلب والنهب والصفقات المشبوهة . لم تعد السرقات والاختلاسات والرشاوى والعمولات مجرد حالات فردية ، بل « ظاهرة » عامة واسعة الانتشار ، وثيقة الصلة بطبيعة النظام . واصبح لها طابعها المميز « اختلاسات جماعية ... اجتذبت المستويات الوظيفية العالية .. مبالغ ضخمة ، اذ زادت الاموال المختلسة في بعض الحالات على المليون جنيه .. » (اخبار ٢٠/١٠/٧٥) والرقم الرسمي لجرائم الاختلاس عام ٧٣ هو ٣٧٦ جريمة . لكنه رقم لا يعبر عن الواقع ، اذ لا « يشمل الحالات التي لم تستكمل أجراءاتها الثانوية .. كما تقوم النيابة بحفظ القضية في حالة قيام المختلس برد المبلغ » ! ! ثم ان الاف المحاولات لا تكتشف اصلا ، او يجري التستر عليها ، خاصة تلك التي تمس كبار المسؤولين ، مثل فضائح صفقات الاتوبيسات الايرانية والحديد من اسبانيا وطائرات البوينج والاسمنت للسعودية .

وتظهر بعض حالات الاختلاس بطريق غير مباشر ، من واقع اقرارات الذمة المالية . وقد نشر اهرام ٢/٢٢ عشر نماذج من هذه الحالات . ونقدم بعضها فيما يلي :

— مهندس حسين عبد الفتاح العسكري .. كان عضوا لمجلس ادارة شركة مقاولات . قبل عام ٦٢ لا يملك شيئا وفي عام ٦٨ اصبح يملك « منزل على مساحة ٥٠٠ متر ، وقطعة ارض لزوجته بالدقي ، ورصيد ١٧٫٠٠٠ جنيه واسهم في الشركات وارض زراعية وارض فضاء بالسويس من الاوقاف ... الخ » .

— احمد فهمي عبد المجيد ، يعمل رئيس حسابات القطاع الجنوبي بمديرية التحرير .. عند بدء الخدمة عام ٦٩ لا يملك شيئا . في عام ١٩٧٢ أصبح « يملك ٣ محلات تجارية باسم زوجته ، وارضا زراعية باسمه » .

— مهندس احمد نبيه بهجت .. مدير مشروعات الطرق والحدائق بمحافظة الجيزة .. فجأة يملك اطيانا زراعية .. ارض فضاء معدة للبناء .

— ابراهيم عبد الجواد .. مندوب مالي ومشتريات . حتى عام ١٩٦٥ لم يكن يملك شيئا . عام ١٩٦٩ اصبح يملك هو وزوجته ٤ محلات تجارية .

— مصطفى احمد شحاته .. وكيل ادارة مخازن ومشتريات . حتى عام ٦٩ لا يملك شيئا ، ثم اصبح يملك عام ١٩٧٢ ارضا زراعية باسمه واسم زوجته و ٤ محلات تجارية ... الخ .

ويلاحظ ان « الوظيفة » لها علاقة بالمعاملات المالية والقطاع الخاص . وان الاموال تستثمر في الاراضي الزراعية والمباني والتجارة اساسا .

ومن اشكال الاحتيال الشائعة ، ما كشف عنه احد كبار مسؤولي الغرفة التجارية، اذ صرح بان « ٢٠٪ من طالبات السجلات التجارية الجديدة زوجات للعاملين في نفس مواقع السلع » التي يتاجرن فيها . ويستطرد قائلا « ومنطقيا فليست المصادفة البريئة هي التي تقف وراء هذه النسبة . ولا شك ان النسبة سترتفع كثيرا ، اذا اضيفت مستويات القرابة الاخرى » .

وهناك عدة الاف من موظفي الدولة في الاجهزة الحكومية والقطاع العام والقوات المسلحة (٣) اعتزلوا الخدمة — او عزلوا — ليعملوا في مشروعات خاصة ، « راسمالهم » **الاساسي هو شبكة هائلة من العلاقات مع قيادات مختلف قطاعات المال والانتاج والخدمات** ، الذين يملكون حق اصدار تراخيص الاستيراد والتصدير وارساء المناقصات والمقاولات ومنح القروض واتخاذ قرارات بشأن التوريدات وتوقيع العقود .. الخ من قنوات لنهب المال العام واستنزاف الثروة القومية واستباحة جهد العمال والفلاحين . واستشرى الفساد .

ونمت هذه العمليات في كنف النظام الناصري . كما انتعشت قطاعات من رأس المال الخاص ، وتضخمت على « اكتاف » قطاع « راسمالية الدولة » . وعلى سبيل المثال :

— الاستفادة من القروض والسلفيات المجانية من بنك التسليف الزراعي ، التي كانت تقدم بلا فائدة — حتى عام ١٩٦٧ — فقد حصل على ٨٠٪ منها اغنياء الريف الذين تزيد ملكيتهم على ٢٥ فدانا . وكان الرصيد المتأخر عليهم لحساب مؤسسة الائتمان الزراعي ٦٠ مليون جنيه ، من اجمالي المتأخرات البالغ ٨٠ مليون جنيه . (بلغت المتأخرات ١٠٠ مليون جنيه عام ٧٤) . بينما الاصل في هذه القروض المجانية ان توجه لمعونة فقراء الفلاحين . وهكذا استثمرت عشرات الملايين من راس المال العام ، لتحقيق تراكم رأسمالي لكبار الملاك . واتبع اسلوب مماثل فيما يتعلق بقروض عمليات الاسكان والتجارة .

— العمليات التي اسندها القطاع العام الى مقاولي الباطن (القطاع الخاص) « تصل الى ١٤٤ مليون جنيه في كل سنة من سنوات الخطة (الخمسية الاول من ٥٩/٦٠ — ٦٤/٦٥) وتحقق ربحا سنويا يبلغ ٢٩ مليون جنيه » (وهو التقدير الرسمي ، والارقام الحقيقية تتجاوز الضعف) .. « وقد استغل القطاع الخاص هذا الوضع ، فأخذ في رفع اسعار العمليات التي يعهد اليه بها ، حتى في ظل نظام المناقصات ، مما ادى الى زيادة تكاليف عمليات التشييد والبناء ، وهي تمثل ٤٧٪ من قيمة الاستثمارات الكلية للخطة » ، « ومنذ السنة الثالثة للخطة ، تبين ان تكاليف التشييد زادت بحوالي ٢٥٪ في تلك السنة (٦٢/٦٣) عن سنة الاساس (٥٩/٦٠). وان النسبة الكبرى من هذه الزيادة تركزت في عوائد حقوق التمليك ، اي ارباح تعود للمقاولين » (٤) .

— قام القطاع الخاص التجاري اثناء الخطة الخمسية بدور الوسيط بين القطاع العام كمنتج ومستورد وبين جماهير المستهلكين ، مستقطعا ارباحا مرتفعة . كذلك قام بمختلف عمليات الوساطة بين وحدات القطاع العام ذاتها عن طريق عقود التوريد. وبلغت قيمة توريداته للقطاع العام وحده ٢٠٠ مليون جنيه خلال الخطة الخمسية .

وفي كثير من الحالات كان يشتري من مؤسسة للقطاع العام سلعة ، يبيعها لمؤسسة عامة اخرى بأسعار مضاعفة .

انها مجرد نماذج ، على سبيل المثال ، لا الحصر — تؤكد المدى الذي بلغته **عملية الحراك الاجتماعي والنمو الرأسمالي والتمايز الطبقي** في احضان النظام الناصري ، بل في المرحلة الاكثر راديكالية منه (التي وصفت بالاشتراكية) فتحولت شرائح من البيروقراطية الكبيرة الى الانشطة الرأسمالية ، وارتبطت بالقطاع الخاص ، الذي تضخم بدوره . وقد افاد الجميع من قطاع الدولة والمال العام . وحقق المزيد من المكاسب والارباح بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، نتيجة التنازلات التي تمت ، والتراجعات التي تتابعت لمصلحة مختلف فئات الرأسمالية ، بما فيها الطبقات التقليدية (رفع العديد من الحراسات ، وتعديل قانون التعاون لمصلحة كبار الملاك الزراعيين .. الخ) .

وقد زاد وزن هذه الطبقات داخل المجتمع واستشرى نفوذها في مؤسسات السلطة ، وصارت **السند الاجتماعي لانقلاب ايار ١٩٧٠ الرجعي ، والركيزة الاقتصادية لسياسة « الانفتاح » ، والمعول الذي امكن بواسطته هدم المنجزات الوطنية** وفي مقدمتها الاستقلال الاقتصادي والسياسي .

* * *

كما ان الطبيعة الاجتماعية للقوى الحاكمة انعكست على انماط التنمية ، الامر الذي يؤدي الى اختناقات متجددة ، واختلال هيكلي بين قطاع الخدمات والقطاع السلعي (الاول على حساب الثاني) . ويتحيز التصنيع لمصلحة الصناعات الاستهلاكية والترفية التي تفي بتطلعات البرجوازية ، وتشكل عبئا على ميزان المدفوعات (استيراد مستلزمات الانتاج والسلع الوسيطة) . ويرتفع الطلب الاستهلاكي والضغوط التضخمية وتنخفض الطاقة الادخارية .

ويجدر بنا هنا ان نفرق بحسم ، بين لجوء دولة اشتراكية الى تشجيع بعض اشكال رأسمالية الدولة ، لوضع الاساس المادي للنظام الاشتراكي ، وبين رأسمالية الدولة في نظام برجوازي ، مهما كانت ثورية و « راديكالية » القيادات الحاكمة . فقد كان من الضروري استخدام عناصر الرأسمالية وتوجيهها في قنوات رأسمالية الدولة ، كمنهج لزيادة القوى الانتاجية . ولكن ذلك يتم باعتباره شكلا انتقاليا من اقتصاد رأسمالي وعلاقات انتاج رأسمالية الى اقتصاد وعلاقات اشتراكية . فهي شكل من اشكال الصراع الطبقي ، واداة في يد الطبقة العاملة موجهة ضد الرأسمالية في مرحلة الانتقال الى الاشتراكية ، ويتشكل قطاع رأسمالية الدولة في البلد الاشتراكي من المشروعات الرأسمالية والمشروعات المشتركة بين رأس المال العام والخاص ، بينما **يتحول القطاع العام الى قطاع اشتراكي** ، وليس جزء من قطاع رأسمالية الدولة ، بل نقيضه الذي يقود عملية تصفية الرأسمالية . اما القطاع العام في نظام رأسمالية الدولة البرجوازية — ايا كانت — فهو **قطاع رأسمالي** ، يولد المزيد من الرأسمالية ، ويقود كحتمية الى تفاقم التمايز الاجتماعي والصراع الطبقي .

وتؤدي سياسة هذه النظم الى تقوية قطبي الصراع . فتنمو الطبقة العاملة مع التقدم في عمليات التصنيع ويزداد عدد العمال وتركيزهم في تجمعات اضخم ، كما ترتفع نسبة المشتغلين منهم في الصناعات الثقيلة ، كذلك تنمو الرأسمالية ، وخاصة الشرائح الطفيلية منها .

البداية والنهاية ، لظاهرة عابرة في مجرى التاريخ :

ومن خلال عملية الحراك الاجتماعي والاستقطاب السياسي ، تتجه السلطة الى تصعيد حملات القهر ضد الطبقة العاملة (سواء بالبطش او الاحتواء او كليهما معا) (٥) ، بينما ، يجري تقارب ، ويتزايد الارتباط بين اجزاء اساسية من الدوائر الحاكمة والقطاع الرأسمالي الزراعي (بحكم وزنه في هذه المجتمعات) والطفيلي (الذي ينعش على حساب القطاعات الاخرى) ، الامر الذي يزيد من فرص هذه القوى للانقضاض على السلطة ، والاستحواذ عليها بالكامل ، وتصفية ما تبقى داخلها من مراكز وتيارات وطنية وتقدمية مستفيدة من اخطاء النظام وعزلته عن الجماهير .

ويؤدي اسلوب الحكم ونمط التنمية الذي تنتهجه هذه النظم الى تفاقم عملية التمايز والاستقطاب في المجتمع ينعكس بدوره على السلطة . ومن هنا ظاهرة الصراعات والتصفيات المتتابعة داخل هذا النمط من النظم .

ان تتبع ودراسة التغييرات التي تجري داخل الدولة ومؤسساتها في جميع البلدان التي تنتهج نفس الطريق يسمح باستنباط بعض القواعد العامة : —

— في بداية عهدها ، تملك المجموعة الحاكمة قدرا من الاستقلال النسبي ، بسبب عدم ارتباطها بصورة عضوية بالطبقات التقليدية في السلطة القديمة ، وتحررها من نفوذها المباشر . ونتيجة انتماء معظم عناصرها الى فئات « من غير الملاك » (العناصر البيروقراطية) . هذه الميزة توفر لها قدرا من المرونة وحرية الحركة ، ويكفل لها القدرة على انجاز اصلاحات جذرية في اطار علاقات الانتاج الرأسمالية .

— هذه الاستقلالية النسبية هي ايضا **مرحلية** موقوتة ، ليس لها صفة الدوام او الاستمرارية .

— مصيرها الحتمي هو الارتباط العضوي باحدى الطبقات او الفئات المالكة ، عندما تلتقي المصالح ، وحينئذ تفقد استقلاليتها تماما ، وتصبح المعبر المباشر عن الطبقة او التحالف الطبقي الرأسمالي ، صاحب الوزن الاكبر في المجتمع .

— لا يعول على الانتماءات والاصول الطبقية لعناصر الفئة الحاكمة الجديدة في تحديد الطبقية الاجتماعية للسلطة ، اذا كان هذا الانتماء لغير **الطبقات الرئيسية** في المجتمع . وحتى في حالة انتماء غالبية هذه العناصر للبرجوازية الصغيرة — او الفئات الوسطى — ، **فان تطورهم الى قوة مسيطرة في الدولة يجعلهم يتحولون الى ممثلين لفئة اجتماعية سياسية اخرى .. احد قطبي المجتمع . (٦)**

— يتغير تدريجيا التمثيل الطبقي داخل السلطة ، من خلال عملية الارتباط برأس المال الخاص ، فان شرائح من البرجوازية البيروقراطية ، **تفقد هذه** الصفة ، بمجرد مشاركتها في الانشطة الخاصة ، **وتنتقل الى مواقع طبقية جديدة** (الحراك الاجتماعي) **حسب نوع النشاط** الذي تزاوله (زراعة — تجارة — مقاولات — عمارات — شقق مفروشة .. الخ) . ومن الملاحظ ان هذه الفئة تتجه الى التوسع الافقي (تنويع الاستثمار) ، لا الراسي ، اساسا من الانشطة الطفيلية .

— عملية الحراك الاجتماعي والتمايز والاستقطاب الحتمي داخل المجتمع ، تؤدي الى تغير ذاتي داخلي في التوجهات الاساسية للفئة الحاكمة ، وتبنيها لفكريات ومفاهيم

وممارسات اكثر يمينية ، وانسلاخ قطاعات منها عن المعسكر الوطني فتنضم الى المعسكر المعادي ، او تتحول موضوعيا الى رصيد له .

ــ تجري **تغييرات بنيوية في التركيب الاجتماعي للسلطة** عبر عمليات التصفية والتطهير المتتابعة للاتجاهات الاكثر تقدما وتماسكا في معاداة الامبريالية والرجعية ، تسيطر بموجبه قوى الردة داخل النظام ، او يستفاد من التناقضات والاختناقات وازمة النظام وعزلته للانقضاض عليه واسقاطه بعملية انقلابية . (٧)

وهذا ما يجعلنا نصل الى الفرضية التالية :

تمر نظم « راسمالية الدولة الوطنية » « بدورة حياة » ، تبدأ بالانطلاق والنمو والانتعاش والازدهار . وسرعان ما يصيبها العقم والجمود ، وتعصف بها امراض ــ تناقضات ــ الراسمالية من جديد ، لتبلغ مرحلة الشيخوخة والاضمحلال . وتقطع شوطا كبيرا في طريق انجاز مهام الثورة الوطنية بتحقيق الاستقلال السياسي والتنمية بمعدلات سريعة ، والتصنيع والاصلاح الزراعي ، وتحرر قوى الانتاج من بعض معوقات انطلاقها بتخليصها من العلاقات شبه الاقطاعية والاحتكارية ، بالتخطيط الموجه ، وتدخل الدولة في النشاط الانتاجي والتحكم في عملية تكرار الانتاج وتوزيع الفائض الاجتماعي . لكن هذه النظم سرعان ما **تقع أسيرة طبيعتها الطبقية المحدودة وتناقضاتها الداخلية ،** عندما تقف حجر عثرة امام تحرير قوى الانتاج من علاقات الانتاج الراسمالية ، بسبب **عجزها عن تجاوز نفسها ، واستحالة ان ينجز احد قطبي الصراع العدائي مهمة القطب الاخر .. وينتحر طواعية .**

لقد انهارت اوهام الاشتراكية ــ اشتراكية البرجوازية الصغيرة ــ وبدعة مرحلة التحول الاشتراكي وتذويب الفوارق بين الطبقات والطريق اللاراسمالي **بقيادة** « مجموعة اشتراكية في السلطة » او « القادة الوطنيون الديمقراطيون » الذين « ينتقلون من مواقع وطنية الى مواقع اشتراكية » .. من خلال « التجربة والخطأ » عندما يكتشفون ان « طريق الرأسمالية مسدود » ... الخ من نظريات ابتدعها بعض المراجعين والمرتدين ، وروجها المرتزقة ، وما زالوا يتمسكون بترويج « بضاعتهم » الفاسدة ، بل ويحاولون تطبيقها على نظم ارتدت عن الخط الوطني . والبعض الاكثر ذكاء يعمل على اجراء تعديلات جزئية شكلية تدور في نفس الاطار ، وتشكل امتدادا لمنهجهم المخادع .

هذا ، فضلا عن ان قضيتنا **الملحة** اليوم لا تتعلق بالاشتراكية ، فهي ليست مطروحة كهدف مباشر ، اذ ان هذه النظم لم تنجز بعد مهام الثورة الوطنية الديمقراطية حتى نهايتها . **وليس في استطاعتها ان تحقق الا جزءا منها .** ثم ان منهجها في الحكم يؤدي بالضرورة الى انتكاسات في الطريق ، **فتضاف مهام جديدة .** اي ان تلك المهام **تزيد ولا تقل . ونحن نبتعد عن الهدف ، ولا نقترب منه .**

لقد اضيفت مهمة تحرير سيناء والجولان منذ حزيران ١٩٦٧ ، بعد هزيمة فاضحة فخرية ، غير مبررة ، ترجع الى تفسخ النظام وعجزه .. حتى عن حماية الوطن (وتقلصت الاهداف القومية الى تحرير الاراضي التي احتلت بالعدوان الاخير .. وحده) . ثم التخاذل في مسؤولية التحرير .

وكانت « النكسة » بدورها « مبررا » لمزيد من الابتعاد عن الاهداف ــ مما يرجع ايضا الى **الطبيعة** البرجوازية للسلطة ــ فتهرب النظام من الاخذ بمتطلبات اقتصاد

الحرب ، ارضاء للفئات المتميزة .. فتباطأت عمليات التنمية ، ونمت الاتجاهات الاستهلاكية والانفاق الترفي، ورفعت بعض الحراسات ، واتخذت اجراءات «التيسير» على القطاع الخاص ، والاغداق عليه بالامتيازات في الوقت الذي كانت تزداد الاعباء على الجماهير الشعبية الكادحة عن طريق الضرائب غير المباشرة !) . «وسرحت» المقاومة الشعبية ، وطوردت القوى الوطنية اليسارية . ودعمت السلطة نفوذ وصلاحيات القيادات البيروقراطية في الدولة والقطاع العام ، وتمسكت باجهاض كل تحرك شعبي ، ورفض اي نوع من التعبئة او المشاركة الجماهيرية .

وقام النظام بتعديل نظام التسويق التعاوني ، ليفتح مجالات امام الرأسمالية الريفية لتمويل وتسويق المحاصيل . واعاد صياغة قانون التعاون الزراعي (عام ١٩٦٨) لمصلحة كبار الملاك موجها ضربة شديدة لفقراء الريف . (٩)

هذا ، بالاضافة الى العديد من المهام الاخرى في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ويبرز التناقض بين « اضافة مهام جديدة » من اجل استكمال الثورة الوطنية ، وبين توجهات وتحولات اكثر يمينية ورجعية لهذه النظم . وهو تناقض لا يمكن ان يحل من داخل النظم القائمة وبقياداتها الراهنة ، او ببدائل مماثلة ، لها نفس الانتماءات الطبقية ، وانما بتغير ثوري من خارج اطار السلطة ، يضع الطبقة العاملة واحزابها في موضع القيادة الفعلية .

ونحن نتحدث هنا عن النظم الوطنية ، وعن مصر . قبل انقلاب ايار ١٩٧١ . ان هزيمة ٦٧ وانقلاب ٧١ هما **من نتائج ازمة النظام المصري (والسوري) منذ عام ١٩٦٥** . فالاسباب الاساسية للهزيمة كانت تكمن في عدم وصول التحولات الاجتماعية الى مستوى تصفية العناصر المعادية « للثورة » في النظام ، واحتلالها لمواقع خطيرة في المنظمات السياسية وجهاز الدولة والقوات المسلحة .. في ان **المهام التي طرحت حينئذ بالحاح ، كانت تتجاوز ثورات ومصالح الطبقة الحاكمة** .

ومن الاهمية بمكان ، توضيح حقيقة ان ردة او **انهيار هذه النظم لا ترجع الى عوامل خارجية او تآمر اجنبي ، بل تعود في الاساس الى عناصر وتناقضات داخلية** . وقد تبدو هذه النقطة الخلافية كقضية شكلية ثانوية . لكنها في الواقع تعكس مفهومين متعارضين يشكل كل منهما خطا متميزا ، مفهوم ثوري واخر اصلاحي . فالقول بان ازمة النظام المصري بدأت وتفجرت « بالنكسة » ، يعني ان المشكلة تجيء **« من الخارج »** . وهنا لا تبدو حاجة لاجراء تغييرات جذرية في السلطة . اما وجهة النظر الاخرى فترى انها ازمة **« من الداخل »** ، **ازمة نظام** ، تفجرها تناقضاته ، مما يفترض ضرورة تجاوز النظام بكامله ، باعتباره السبيل الوحيد لانجاز الاهداف القومية .

وهناك العديد من المؤشرات ، تؤكد وجهة نظرنا ، نوجز منها الاوضاع التالية ، التي سادت منذ عام ١٩٦٥ .

— **على المستوى الاقتصادي :** هبوط معدل التنمية ومعدل الزيادة في الدخل من ٦ر٥٪ الى ٥٪ الى ٧ر٠٪ في السنوات الثلاث من ٦٤/٦٥ حتى ٦٦/٦٧ (١٠) وازدياد حدة الضغوط التضخمية واحتدام ازمة العملة الصعبة وارتفاع العجز في ميزان المدفوعات (منذ عام ٦٤) وحجم المديونية للخارج .

— **على المستوى السياسي :** احتدام الصراع داخل السلطة ونجاح الجناح اليميني (عبد الحكيم عامر) في اقصاء علي صبري وحل منظمة الشباب ، واعتقال عدد كبير

من العناصر اليسارية والماركسية ، وتفجر الصراعات في الريف المصري (كمشيش والغياط وغيرها) ، وبدء سلسلة من الاضرابات كان من اهمها اضرابات واعتصامات دمياط ، واكتشاف تنظيم جديد للاخوان المسلمين وتحول جناز النحاس باشا الى تظاهرة سياسية ... الخ .

ـ **على المستوى العسكري :** العجز عن انهاء حرب اليمن بنجاح بسبب تفسخ القيادات العسكرية وانتشار الفساد بينها .

وغداة الهزيمة ، تصور البعض ان « النكسة » ودروسها ، كفيلة بتحول نوعي في اسلوب الحكم ، خاصة بعد ان تخلص عبد الناصر من « مركز القوة » المناوىء في الجيش (مجموعة شمس بدران وعبد الحكيم عامر وصلاح نصر) ، وحصل على « مبايعة » شعبية ومساندة جماهيرية بلا حدود ، الا ان النتائج جاءت مخيبة للامال منذ التعديل الوزاري الاول واعادة عدد ممن سبق عزلهم بتهمة ولائهم للغرب ، واحكام ضباط الطيران المخففة .. الخ .

وقد لعبت الهزيمة دورا مزدوجا ، فهي من جانب اضعفت هذه النظم وكشفت عن تناقضاتها وفضحت عجزها . ومن جانب اخر ، قطع الوعي والتحرك التلقائي الشعبي الطريق على المؤامرات المضادة ، **واتاح لها فرص الاستمرار ،** خاصة وان المشاعر الوطنية للجماهير ، جعلتها تتخلى عن مطالبها الاقتصادية ، وتتسامح ازاء محاباة السلطة للرأسمالية ، وبعض مظاهر العدوان على الحريات والعودة الى الاساليب التقليدية في الحكم ، رغم كل العهود والوعود باصلاحات ثورية (بيان ٣٠ مارس ..)

ومما تجدر الاشارة اليه ، تخلف « الفكر التقدمي » عن الحس الثوري التلقائي للجماهير الشعبية الكادحة ، حينئذ . فقد تفجرت حركة ١٠/٩ حزيران ، ثم شباط ١٩٦٨ (قادها عمال المصانع الحربية بحلوان) وتشرين ثاني ١٩٦٨ ، بشعارات ومطالب تحمل مضمونا اكثر تقدما ، ونزعة استقلالية ، بينما ظلت الغالبية العظمى من « المثقفين الثوريين » تصب الماء في طاحون السلطة ، وتدعو للعمل من خلالها ، وتندد بكل اتجاه استغلالي (باستعداء السلطة ضده) وتروج لكافة المفاهيم البرجوازية .

التغييرات في الخريطة الاجتماعية

ومن الظواهر التي تدعو الى التأمل ، **ان « دورة حياة هذه النظم ، لا تنتهي باحتلال البديل التاريخي لمواقع السلطة المنهارة .** فازمة النظام البرجوازي الوطني لا تقضي على العلاقات الراسمالية وتطيح بحكم البرجوازية ، لمصلحة نظام اشتراكي بقيادة الطبقة العاملة ، وانما **ينتكس الى نظام تابع ،** خاضع للسيطرة الامبريالية . ويتبدد الاستقلال الاقتصادي والسياسي ، وتهيمن الاحتكارات والمصالح الاجنبية . وقد يبدو هذا التحول متعارضا مع المنطق ، وسنة الحياة وقوانين التطور . لكن هذه الظاهرة لها اسبابها الموضوعية ، التي يمكن استنتاجها من خلال متابعة ودراسة ما يطرأ على الخريطة الاجتماعية من تغييرات داخل هذه النظم .

فالقطاعات الطفيلية تنمو بمعدلات اكبر بمراحل من الشرائح الوطنية من الراسمالية . وراس المال التجاري يشكل النسبة الاضخم في تكوينه راس المال المحلي .

ويرجع ذلك الى طبيعة النظام وأسلوب الحكم والمناخ السياسي ، وتركيز المسؤوليات بين ايدي البرجوازية البيروقراطية — متحررة من الرقابة الشعبية — ودور السلطة كأداة للتراكم الرأسمالي اسواء لعناصر هذه الفئة او القطاع الخاص (وفي علاقتهما المتبادلة والمشتركة) ، والافتقار الى الاستقرار السياسي ، مما يجعل رؤوس الاموال تتجه الى الاستثمار « الافقي » (١١) والمشروعات التي تكفل دورة سريعة وارباحا مجزية . وتعمل على زيادة حجم عملياتها — الظاهرة منها بصفة خاصة — بقروض تحصل عليها من البنوك والمؤسسات ، حتى لا تغامر باموالها الخاصة ، خاصة وأن فوائد الديون تقل كثيرا عن الارباح المحققة .

ولا نتصور اقبال رأسمالية — جبانة — في اوضاع غير مستقرة ، على بناء المصانع واستثمار اموالها في رأس مال ثابت ومشروعات يصعب التخلص منها ، وقت الحاجة .

كما ان **الربحية العالية** لرأس المال التجاري ، تغرى بالاستثمار في هذا المجال ، والاحجام عن المشاريع الانتاجية . بل ان هيمنة العقلية الطفيلية ، واغراءات الربح الاسطوري تسبغ طابعها المتميز على مختلف الانشطة الرأسمالية في المجتمع ، بما في ذلك القطاع الانتاجي ، وتثمر الاتجاهات الاحتكارية عند هذا القطاع الذي يطمع لتحقيق نفس مستوى العائد الذي تدره التجاره ، أو يتحول الى النشاط التجاري . ويعفي عنصر المضاربة في مجال المقاولات والعقارات والاسكان .

كذلك يؤدي فتح باب الاستيراد على مصراعيه وبلا قيود الى منافسة غير عادلة مدمرة للانتاج المحلي ، الامر الذي أدى الى افلاس واغلاق عدد من الصناعات الوطنية .

وهناك ظاهرة « البنوك المتنقلة » ، وهي طبقة جديدة من المولين تقوم بتمويل تراخيص الاستيراد وتحصل على فوائد عاليه ، نصيبها من « المال السايب » ، عرق وجهد الفلاح والعامل المصري .

وتشير التقديرات الرسمية الى ان « في مصر الان ٥٠ الف مكتب للاستيراد والتصدير والاستشارات ! وان ٢٢ من اصحاب هذه المكاتب من الوزراء السابقين » (اهرام ٤/٥)

وقد « قدر احد اعضاء مجلس الشعب قيمة العمولات التي حصل عليها بضعة افراد خلال السنوات الماضية بحوالي مليارين من الجنيهات » كما ان « واحدة فقط من العمولات وصلت الى اكثر من ٣ ملايين جنيه مصري » (عدد ٣/١٥ روز اليوسف) وأن عمولة وسيط في صندوقة واحدة من البطاطس بلغت نصف مليون جنيه ، ودخل التاجر الواحد من تجارة الجملة في سوق الخضار يبلغ ١٥٠٠ جنيه كل يوم ، وأن موظفا صغيرا في مصلحة الاستيراد يفتح مكتبا ويكون ثروة تبلغ مليون جنيه بالاضافة الى ٢٠٠ فدان (روز اليوسف ٤/٢٦) ، وأن كل جنيه يحقق ربحا قدره ٨٠ قرشا ... الخ وكم من المغريات للاقبال على القطاع الطفيلي !

وقامت السلطة برد جزء كبير من الاملاك ورؤوس الاموال (التي سبق مصادرتها او وضعها تحت الحراسة) ، وعوضت الالاف من كبار الاقطاعيين والرأسماليين القدامى ، فانتقلت ثروات اضافية الى هذه الطبقات ، معظمها في صورة اموال سائبة، تدخل سوق النشاط الطفيلي . ورفعت الحكومة قيمة التعويض بنسبة كبيرة ، على

الاراضي الزراعية والعقارات والمباني التي لم ترد بسبب التصرف فيها بالبيع ، وليس من المتصور بطبيعة الحال ان تستثمر الطبقات — التي « لدغت من الجحر مرة » — اموالها في راس مال ثابت .

كذلك عاد عدد كبير من اصحاب الملايين ، « طيور كانت قد هاجرت من مصر بعد التأميم » (طبقا لتعليق للاخبار القاهرية) ومعظمهم من المتمصرين — كافوري وباتا وسالمون وسباهي وأبو رجيلة وعشرات غيرهم — . لم « يعودوا بملايينهم » كما تذكر الجريدة ، ولكنهم تهافتوا على مصر ليواصلوا عملياتهم الربوية والطفيلية .

كل هذه العوامل ادت الى **تضخم سرطاني في القطاع الطفيلي ، وتشابكه وتزاوجه مع العناصر القيادية في جهاز الدولة ، وضمور البرجوازية الوطنية وانسلاخ شرائح اساسية منها ، لتلتحم بالقطاع الطفيلي ، واختلال توازن القوى الاقتصادي والاجتماعي ، فالسياسي لمصلحة الفئة النامية بلا حدود . ولكل هذه الاعتبارات والتحولات يصبح البديل الطبيعي — المرحلي — لنظام رأسمالية الدولة الوطنية هو السيطرة المطلقة للرأسمالية الطفيلية على مقاليد السلطة .**

ومن البدهي أن العنصر الرئيسي الذي سمح لهذه العملية بالانطلاق الى ابعد مدى، هو عدم نضج القوى الشعبية الكادحة ، بسبب تخلف « القيادات الثورية » ومفاهيمها وتحليلاتها وبرامجها ، وانحرافها عن المنهج العلمي ، وانسياقها الى وضع التبعية والذيلية للايديولوجيات الرأسمالية .
« لا حركة ثورية دون نظرية ثورية »

ومما يؤسف له أن العديد من « القيادات التقدمية » لا ترى في التحولات التي تجري في هذه النظم ، اكثر من انزلاق لليمين ، وتكثيف للاستغلال الرأسمالي المحلي ، وتفاقم للتمايز الطبقي ، و « انتعاش » لفئات الطفيلية والطبقات التقليدية (حتى في مصر بعد انقلاب ١٩٧١) ، ويتعلقون بأوهام عن مقاومة « الاجنحة » الوطنية والتقدمية داخل السلطة ، ويتجاهلون ، عن جهل — أو عمد — **حتمية** سقوط هذه الانظمة في قبضة الامبريالية ، وحتمية خيانة الفئات الحاكمة . ويأبى هؤلاء الاقرار بأن هذه التحولات **توفر العوامل الموضوعية لضياع الاستقلال السياسي والاقتصادي ، وعودة السيطرة الامبريالية ، لان التحالف والمصالح المشتركة بين هذه الطبقة والرأسمالية العالمية هو جوهر الاستعمار الجديد (١٢) كما أن البرجوازية الطفيلية هي القاعدة المادية والمولد لطبقة الكومبرادورية .**

وقد صيغت « قوانين الانفتاح » في مصر بعد اقل من ثلاثة اشهر من انقلاب ايار ١٩٧١ ، بعد هيمنة الفئة الطفيلية على مقاليد السلطة ، على رأس تحالف ضم مختلف القوى الاجتماعية والسياسية الرجعية (١٣) الا أن النظام الجديد احتاج الى عدة سنوات (من التصفيات والتطهير واعادة ترتيب الاوضاع) ، كما احتاج الى حرب تشرين ، حتى يتمكن من « تحرير » هذه القوانين وتطويرها والتوسع فيها وتنفيذها بجرأة وتحد .

ونسفت تشريعات الانفتاح كل قواعد الاستقلال الاقتصادي والسيادة الوطنية ، وفتحت الابواب على مصراعيها لتحكم رأس المال الاحتكاري والنفوذ الامبريالي — خاصة الامريكي — . ونستعرض فيما يلي بعض هذه القوانين ، على سبيل المثال ، لا الحصر :

□ السماح لشركات الاستثمار وبنوك الاعمال وبنوك الاستثمار والبنوك التجارية وشركات التأمين الاجنبية بالعمل في مصر ، واقامة البنوك المشتركة ، تمارس نشاطها بالعملة المحلية . وتستثنى هذه المؤسسات من احكام قوانين البنوك والائتمان واللوائح المنظمة للرقابة على النقد ، ومن رقابة البنك المركزي (بنك الدولة !) والسلطات النقدية . وهو وضع لا نشهد له مثيلا في اي بلد مستقل في العالم . وهو بمثابة دولة (الاقوى) داخل دولة ، اذ تتحكم المصارف في عصب النشاط الاقتصادي وتمسك بكل خيوطه (١٤)

□ تحويل جميع الموانىء — وقطاع من القاهرة — الى مناطق حرة ، والتصريح للمستثمرين الاجانب بتصريف منتجاتهم في السوق المحلية كأفضلية لهم عن غيرهم من الموردين الاجانب . (منافسة الصناعة المحلية ، واستنزاف المهارات والعمال الفنيين . . . الخ)

□ ومن اخطر الاجراءات التي اتخذت اخيرا « اطلاق حرية التعامل في العملات الحرة » (صحف ٥/٩ أي سوق تجارية للصرف تخضع للعرض والطلب . وهو يعني ببساطة رفع سعر كل الواردات من الغرب ، بنسبة الفرق بين السعر الرسمي وسعر « العرض والطلب » (أي سعر السوق السوداء) . فتتضاعف اسعار كل ما تستورده من السوق الراسمالية ، سواء السلع الغذائية (وفي مقدمتها القمح) والسلع الوسيطة ومتطلبات الانتاج (بما لذلك من اثر هدام — على الصناعة الوطنية) ومستلزمات الانتاج الزراعي (المبيدات والاسمدة . .) ، الامر الذي يؤدي الى استنزاف موارد البلاد لمصلحة الاحتكارات متعددة الجنسية (١٥) وطفرة هائلة في الاسعار ، تطحن ذوي الدخل المحدود .

□ السماح بمشاركة رأس المال الاجنبي والاحتكارات العالمية في الصناعات المصرية الاساسية — والناجحة . (١٦)

□ فتح مجالات الاستثمار في المناجم والمحاجر لرأس المال الاجنبي .

□ السماح للاجانب بدخول كافة مجالات النشاط ، في التصنيع والتعدين والطاقة والسياحة والنقل . . الخ

□ حق الاجانب في شراء واستثمار اراضي البناء والعقارات والاراضي الزراعية ، رغم ان القوانين المعمول بها في معظم انحاء العالم وفي العديد من البلدان العربية تحظر ذلك .

□ اعادة افتتاح بورصة الاوراق المالية . ومن اهدافه الرئيسية (كما اوضح القيسوني) تشجيع رأس المال الاجنبي ، حيث يسمح له بتصفية المشروعات التي يقيمها في البلاد (ببيع اسهمها) عندما تشاء للهروب عند ظهور بوادر ازمة مالية أو سياسية . ولا شك ان سيولة حركة رؤوس الاموال (بالاضافة الى تعويم الجنيه المصري) ستؤدي الى سهولة تسرب الاموال من مصر الى الخارج .

□ قانون التوكيلات الاجنبية الذي **يشكل حلقة وصل** بين السوق المحلية والسوق الراسمالية العالمية ، **بين الراسمالية المصرية والاحتكارات متعددة الجنسية . وقد أجاز هذا القانون للاجانب افتتاح مكاتب التوكيلات التجارية ، بشرط « مشاركة مصرية » !**

.. وهي بعض نماذج من شبكة هائلة من القوانين والتشريعات . فقد اغدق نظام السادات الامتيازات على راس المال الاجنبي ، في شكل اعفاءات ضخمة من الضرائب العامة وضرائب الايرادات والارباح والرسوم الجمركية وفوائد القروض ، واستثناه من الالتزام بتطبيق قوانين العمل (التوظيف والفصل والاجور ... الخ)

وقد حرصت الدوائر الامبريالية ، وبخاصة الولايات المتحدة (ملتقية في ذلك مع راس المال المحلي) على اشراك راس المال المصري في مشروعاتها ، وان تتوفر له كل الضمانات والتيسيرات ، بهدف **خلق وتقوية القاعدة الاجتماعية المحلية التي تستند** اليها في بسط نفوذها ، وتعتمد عليها لاستمرار سيطرتها على البلاد . (١٧)

الجديد في عملية الاستقطاب على النطاق العربي

تتكرر نفس « الدورة » في جميع البلدان التي انتهجت طريق رأسمالية الدول الوطنية — تزيد او تقل ، ويختلف معدل سرعتها تبعا للظروف الخاصة التي ظهرت وعملت فيها — نلمسها في الانفصام المتزايد بين الشعارات المعلنة والممارسة الفعلية ، تعثر عملية التنمية الاقتصادية ، وتضاؤل دور التخطيط وقطاع الدولة ونمو المشروعات الراسمالية الخاصة والسخاء في منح التيسيرات للقطاع الخاص ، وانعاش وتضخم راس المال الكبير ، خاصة في القطاعات الطفيلية وتفاقم التمايز الاجتماعي ، وظهور مجموعة الاختناقات التي شهدناها في مصر ، وطرح شعارات ومفاهيم « الانفتاح الاقتصادي » على الغرب (مع ملاحظة ان الدور الاعلامي المباشر اقل حجما من التنفيذ العملي لهذه السياسة في بعض البلدان) ، واتساع نطاق ، التعامل التجاري مع المعسكر الامبريالي ، والزيادة الكبيرة لمعدل التعاقد مع الدول الغربية على المشروعات الجديدة ، على حساب التعامل مع المعسكر الاشتراكي (١٨) .

نلاحظ ايضا تصاعد الضغوط على الاتجاهات الراديكالية ، واستخدام مختلف اساليب القهر وابشعها ، ومعاداة الشيوعية واحزابها (حيث تقوم جبهات شكلية في بعض هذه البلدان) لمحاصرة وتحجيم نشاطها وتصفية تنظيماتها الجماهيرية .

ومن ابرز التحولات دلالة ، تلك التي تجري على المستوى العربي ، **بعمليات المصالحة والتفاهم فالتحالف ، بين هذه النظم مع اشد واعتى الدول والتنظيمات رجعية ، لتشكل تجمعا واحدا يسير في خط التقارب والارتباط بالمعسكر الامبريالي .**

تميز عهد ازدهار الحركة الوطنية والقومية ، بقيادة هذه النظم ، باحتدام الصراع والمعارك مع الرجعية العربية ، والاستقطاب العدائي بين المعسكرين الوطني والمالىء للامبريالية ، لكن هذه الظاهرة (المرحلية) اصبحت في ذمة التاريخ ، فيتلاشى التمايز وتلتقي المواقف ، وتتوثق العلاقات بين الطرفين . وليس من قبيل المصادفة ان كلا من هذه النظم « الوطنية » ، اصبح ينمي علاقاته مع اعمدة الاستعمار والعملاء المباشرين للامبريالية في المنطقة ، وتمتد الجسور منها الى السعودية والمغرب والاردن وايران — ومصر بعد الردة — وغيرها من الدول والدويلات الرجعية والعميلة . ويجمع الكل عداء متأصل للحركات الثورية والاحزاب والتنظيمات الراديكالية ، وبصفة خاصة الثورة الفلسطينية ، التي يتزايد التآمر على تصفيتها — كحركة ثورية — كما تصوروا ان الطريق للتسوية اصبح ممهدا . والاحداث الاخيرة في لبنان ومواقف القوى المختلفة منها ، بالغة الدلالة واضحة المغزى ، تفضح المدى الذي بلغته عملية الاستقطاب ، وتبدل المواقع .

وترتكب بعض القوى الوطنية والتقدمية اخطاء فادحة في مواجهة هذه الظاهرة . ولعل اخطرها هو نفي وجودها اصلا ، او التقليل من شأنها ، الى مجرد انحرافات جزئية عابرة نتيجة حسابات غير موفقة ، واوهام سرعان ما تتكشف عن دخان فتعود المياه الى مجراها الطبيعي . وقد تعزى الى اعتبارات حزبية وشخصية — لا منهجية طبقية — .

ويبرر التخاذل ازاء هذه النظم بالاعتبارات التكتيكية ، لمنع ما هو اشد وادهى ! ولتجنب استفزاز القيادات المرتدة الى المزيد من الانزلاق . وتعالج المشكلة من قبل البعض الاخر بالانتقال الدراماتيكي من نظام الى اخر جيئة وذهابا (١٩) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الوعي بالشيء ، لا يعني بالضرورة اتخاذ مواقف انفعالية حياله فمثلا ادراك حقيقة هذه النظم ، لا يتطلب بالضرورة : دفع الاوضاع للاصطدام بها ، دون مراعاة توازن القوى ، ولا يتعارض مع استخدام التناقضات الثانوية بين هذه النظم لمصلحة الحركة الثورية .

اننا نفرق بحزم بين ما يعنيه التحالف الاستراتيجي بين القوى الاجتماعية المؤهلة لقطع مرحلة استراتيجية ما ، وبين امكانية عقد اتفاقيات موقوتة في موقف محدد ، من قضية واحدة ، معينة ، مع قوى او شخصيات او منظمات سياسية ، مع عدم الاخلال بالموقف المبدئي ، اي استمرار الصراع — خاصة الفكري والسياسي — مع هذه القوى ، دون توقف . وأن تكون طبيعة وحدود العلاقة واضحة ، للجماهير أساسا ، حتى لا تصاب بالبلبلة وفقدان الثقة من كثرة ما تشهده من تبادل القبلات والطعنات ، والعكس !

لقد بدأت اولى مؤشرات عملية الاستقطاب منذ اكثر من عشر سنوات ، لكن البعض ، ظل يدور داخل اطار قوالب متحجرة لنظريات ديماجوجية انتهازية ، عجز عن فهم جدلية التاريخ ، وان ما هو تقدمي في مرحلة ما ، لا يستمر تقدميا الى ما لا نهاية ، وان **وجه هذه النظم الرجعي يطغي على وجهها التقدمي تدريجيا حتى يغمره تماما ،** للتحول الى قوة رجعية وعقبة في طريق اي تقدم .

والبورجوازية لا تقود « ثورة مستمرة » ، ولكنها تتولى زعامة ثورة ، تتحدد امكانياتها ومداها باطارها الاجتماعي — الطبقي . وهي لا تحقق « تطورا وارتقاء مطردا » ، بل « دورة كاملة » ، حتى تلقي مصيرها المحتوم ، ككل نظام برجوازي ، اينما كان ، وفي اي صورة يتشكل . وهي لا تلغي التناقضات وتحلها ، وانما تؤججها وترتفع بها الى مستوى اعلى من التعقيد والحدة . والاهم من ذلك كله ان البرجوازية — بكل مراتبها — . لم تعد قادرة على انجاز اكثر من جزء محدود — ويقل باستمرار — من اهداف الثورة البرجوازية الوطنية . ان كسر حلقة التخلف ، لا يمكن ان تتحقق بواسطة حل برجوازي وطني ،بل حل اشتراكي وطني .وتبقى قبل ذلك مهمة استكمال الثورة البرجوازية الوطنية . وهنا يبرز دور الطبقة العاملة واحزابها — او الاحزاب التي تتبنى ايديولوجيتها في البلدان الاكثر تخلفا — لاستكمال هذه المهمة ، كحتمية تاريخية ، من خلال جبهة عريضة تضم كل الجماهير الشعبية الوطنية ، بما فيها البرجوازية الوطنية .

ذلك هو التشخيص العلمي **لازمة حركة التحرر العربي . فبعد ان لعبت نظم رأسمالية الدولة الوطنية دورا تقدميا على رأس حركة التحرر نكصت على اعقابها ، ودخلت منحنى النهاية ، مرحلة الانحدار والاندحار ، قبل ان ينضج البديل الثوري .**

بسبب عدم ادراك القوى الثورية ــ المؤهلة لكسر حلقة الجمود فالانهيار ــ لطبيعة القوانين التي تحكم العملية الثورية عبر مراحلها المختلفة .

وتمضي السنوات وتتراكم الهزائم ، وتبرز الى السطح كل المؤشرات والشواهد التي تؤكد خطأ تقديراتها . . سقوط النظم المشابهة في جميع انحاء العالم بسهولة ويسر ــ يثيران التساؤل ويلحان على تفسير مقنع ــ (٢٠) ازمة الانظمة العربية بدءا من العراق (١٩٦٣) فالنظام المصري (عام ١٩٦٥) ، فهزيمة ١٩٦٧ وانقلاب ١٩٧١ الرجعي والردة الكاملة للنظام المصري . . اجهاض حرب ١٩٧٣ ، وما اعقبها من تحالفات وتنازلات وتهالك على الحل الامريكي .وتتكرر الظاهرة ــ بدرجات متفاوتة من السرعة ــ في مختلف النظم المماثلة ، على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والوطنية والقومية . . ورغم ذلك تظل (معظم القيادات التقدمية) على تشبثها بافكار ومفاهيم بالية ، وتؤخذ على غرة المرة تلو المرة ، وتهزها « المفاجآت » غير المتوقعة (!) . دون ان تحاول جديا اعادة النظر في هذه المفاهيم .

الهجمة الامبريالية لترتيب الاوضاع
تمهيدا لتمرير التسوية الاستسلامية

يعتبر « سقوط » مصر نقطة تحول هامة على مستوى الوطن العربي كله ، و«عامل حفاز » للتعجيل بعملية الاستقطاب ، وزيادة معدل سرعة الانحدار في المنحنى الاخير من « دورة حياة » نظم راسمالية الدولة الوطنية . وقد تحول توازن القوى لمصلحة التحالف الرجعي ــ الامبريالي ، في اتجاه معاكس لحركة التاريخ ، ولموجة المد الثوري العام الذي يجتاح العالم (الانجازات الثورية في جنوب شرق اسيا واوروبا وافريقيا .)

وركزت الولايات المتحدة بكل ثقلها على « الشرق الاوسط » ، لتعويض خسائرها ونفوذها المتآكل في الانحاء الاخرى من المعمورة ، وتقديرا للاهمية الاستراتيجية للمنطقة (الموقع الجغرافي ، الثروات النفطية ، وعائداتها المالية ، الاسواق . . الخ) **واستفادت من الظروف المواتية ، وبالذات نتيجة ادراكها لطبيعة القوى الحاكمة ، والتحولات اليمينية الجذرية التي تجري داخل السلطة ، ونمو اتجاهات المصالحة والردة** ، والالتقاء والارتباط المتزايد مع المصالح الامبريالية ، وعملية الاستقطاب التي تدفع بالطبقات الحاكمة الى احضان المعسكر الذي كانت تعاديه في الماضي ، **ليشكلا معا تجمعا واحدا** ، مناهضا لحركة التحرر الوطني والاجتماعي العربية .

توخت الخطوة الاولى في المخطط الامبريالي توثيق عرى الارتباط بين **الحلقات الثلاث التي تعتبر بمثابة العمود الفقري** للمنطقة ، السعودية (بوزنها النفطي والمالي والديني) وايران (قوتها العسكرية والنفطية والاقتصادية) ومصر (بثقلها الحضاري والسكاني ورصيدها على النطاق القومي)

واستدارت الولايات المتحدة « للجيوب » التي تبقت على امتداد العالم العربي ، لتنفرد بها الواحد بعد الاخر (وضد الاخر) ، شارعة كل اسلحتها ، سواء بالابتزاز والتهديد والضغوط الاقتصادية والعسكرية (عبر ايران واسرائيل) او بالاغراء والترغيب والتلويح بالمساعدات « لانتشال » الاقتصاد القومي (بمعنى الرخاء للفئات الطفيلية داخل هذه المجتمعات) .

واطلقت يد طهران في الخليج العربي ، فصعدت عمليات العدوان العسكري ضد ثورة ظفار ، واعتدت على اراضي اليمن الجنوبية (بالاضافة الى ضغوط اليمن الشمالي المدعوم والموجه من السعودية) .

وفجرت مشكلة الصحراء « الاسبانية » لشغل الجزائر في معركة مع المغرب وموريتانيا

وحققت اكبر نصر لها بتوقيع **الاتفاق المصري ـــ الاسرائيلي ـــ الامريكي** في ايلول الماضي ، والحصول على حق اقامة **قاعدة عسكرية** اليكترونية لها على ارض سيناء ، وتكريس خط الحلول الجزئية والمنفردة . وتفجرت موجة جارفة من الاحتجاج والمعارضة الشعبية ، اجتاحت العالم العربي كله . أما القيادات والنظم ، فتفاوتت ردود فعلها . . البعض وجه نقدا « محسوبا متزنا » ـــ للاستهلاك المحلي والعربي ـــ ثم التزم الصمت ، بل ودعم علاقاته مع السلطة المصرية ـــ والبعض الاخر شن حملات مكثفة عن الاتفاقية وضد الدوائر الحاكمة في القاهرة . لكن المنطلقات كانت تتراوح بين اصالة الحس القومي الثوري (خاصة في القاعدة الشعبية) وبين التعبير عن الغضب والاحتجاج ، بسبب اسقاط هذا النظام أو تلك القيادة من الصفقة ، الامر الذي يحرجها ويضعف من اوراق المساومة التي « تلعب بها » في اطار « التسوية الامريكية » .

واشتد التنافس والتسابق على كسب ود اكثر النظم رجعية وعداءا للشعوب ، خاصة ايران والسعودية والاردن . وفي نفس الوقت زاد العداء للقوى والحركات الثورية ، خاصة الاحزاب الشيوعية والتنظيمات التي تتبنى الماركسية ، وزاولت النظم حملات منظمة من الضغوط عليها والتضييق على تحركاتها .

وحاصرت المؤامرات الثورة الفلسطينية من كل جانب ، متخذة مختلف الاشكال ـــ والتبريرات ـــ ، سواء بوقف المعونات والدعم لبعض التنظيمات دون البعض الاخر ، او استعداء منظمات ضد الاخرى في محاولة لفصم عرى الوحدة داخل منظمة التحرير .

وبعد أن بلغ التدهور في الوطن العربي مداه ، دخل المخطط الاستعماري مراحله الاخيرة ، مستهدفا **تصفية المعقل الاساسي المتبقي** ، الصامد والمتصدي للمخطط الامبريالي (بغض النظر عن تباين الدوافع) ، ونعني التحالف القائم بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية وسوريا ، من موقع قناعة بأن المعركة الرئيسية، لفتح الطريق الى التسوية الامريكية ، تحسم على ارض لبنان.

وبدأت المعركة بتسليط القوى الطائفية الانعزالية اللبنانية ـــ بنزعاتها الفاشية ـــ ضد قوى الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . الا ان هذه القوى تمكنت من احباط المؤامرة في مراحلها الاولى . هزمت **« الخط الاول »** المشكل من ميليشيات الكتائب والاحرار وحراس الارز . . الخ ، وانهار **« الخط الثاني »** مع تفسخ وانقسام القوات المسلحة ، حينئذ ساد الاضطراب والقلق صفوف العدو . ورغم تحركات الاسطول الامريكي والتهديد بالتدخل العسكري ومؤامرات التدويل والتعريب ، كانت واشنطن تدرك استحالة التدخل العسكري المباشر (٢١) لذلك رأت المخرج والحل هو في الاستعانة « بأداة عربية » ، لها سمعتها الطيبة ومكانتها في الاوساط القومية والتقدمية ، فخططت لتوريط سوريا في لبنان .

وقامت « بلعبتها » البارعة ، نتيجة استيعابها وفهمها لحقيقة التغييرات التي تجري داخل هذه النظم ـــ موضوع هذا البحث ـــ مع استغلال طموحات النظام السوري لاقامة شكل من اشكال الكيان الموحد من سوريا والاردن ولبنان والاراضي الفلسطينية التي تنسحب منها اسرائيل . . أي « جبهة عريضة من الناقورة الى العقبة » طبقا لتصريحات عبد الحليم خدام . .

وصدرت تصريحات امريكية ، وجرت مقابلات ، وتعددت الايحاءات بأن لا اعتراض لامريكا على تدخل القوات السورية في المناطق التي تتواجد بها قوات جبهة الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية ، المقاومة الفلسطينية — **فقط لا غير** ! — . وحددت اسرائيل الخط الاحمر الذي لا يجوز لهذه القوات ان تتجاوزه كان ذلك بمثابة الضوء الاخضر لتدخل دمشق ، لوقف عجله « اختلال التوازن » لمصلحة القوى اليسارية ، ومن اجل حماية « الصيغة اللبنانية » ، وفي اتجاه يتعارض مع ما ترى المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية انه يتسق مع مصالحها . وحقق العدو : اهم انجاز له في تفجير الخلاف والدفع الى التصادم المسلح وشق صفوف « الجبهة الثلاثية » .

وابدت سوريا استعدادها لحضور مؤتمر جنيف — الذي سبق ان رفضته هي والاردن منذ وقت قصير — وتسارعت خطوات الوحدة — الكونفدرالية مع المملكة الهاشمية — ، ونشطت مساعي السعودية والكويت لمصالحة سوريا مع مصر وتسوية الخلاف بينهما .

وفي مجال التعليق على المصالحة المصرية السورية ، عقبت الاهرام بقولها « ان ازمة الشرق الاوسط تقترب الان من مرحلة الحل النهائي . وهذا يفرض على القاهرة ودمشق والمقاومة وحدة الشعور ازاء مؤتمر جنيف . » (اهرام ٥/١٢)

واعلن الرئيس فورد « ان الوقت قد حان لمناقشة اقرار تسوية شاملة لأزمة الشرق الاوسط . . وهذا بالطبع يعني اقرار السلام في المنطقة »

وصرح كيسنجر ان « الفرص المتوفرة الان لايجاد تسوية عربية — اسرائيلية ، لم يسبق لها مثيل » (وكالات الانباء ٥/١٠) .

ونجح المخطط الامريكي — الاسرائيلي في دفع الامور الى اخطر ما واجهته الامة العربية من تدهور ، بلغ الذروة ، عندما اصطدمت قوات الصاعقة ، وجيش تحرير فلسطين (بقياداته السورية) مع قوات الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية .

استبدال العمامة براس حقيقي

ان اخطر سلبيات الحركة الثورية العربية تتمثل في قصور الجانب الفكري عن مستوى المهام المطروحة في الاطار المحلي والعربي ، في الحقل الوطني والاجتماعي . وسيادة « عقلية » لا عقلانية ، تمجد العفوية وتستخف بالنظرية ، فتتخبط في دائرة التبعية والذيلية للايديولوجيات البرجوازية ، الامر الذي يعرضها «لمفاجآت » حساباتها الخاطئة ، ويكبدها خسائر فادحة ، ويتسبب في كوارث ونكبات متلاحقة لحركة التحرر الوطني العربية .

ان الحركة الوطنية والتقدمية العربية تواجه حاليا اخطر التحديات . وقد آن الوقت « لاستبدال العمامة براس حقيقي » (٢٢) ، والعضلات البدائية بالخلايا الرمادية (٢٣) استبدال التلقائية بالوعي ، و « الفهلوة » بالعلم ، والتجريبية بنظرية الثورة .

وضرورة حل المسائل الخلافية ، والخوض فيها دون وجل ، والوعي بأسبقيتها على غيرها من المشاكل التاكتيكية والممارسات اليومية ، ليس من قبيل الترف الفكري أو المتعة الذهنية . انه الاساس في فهم الواقع واستيعابه ، والتنبؤ العلمي المستقبل . وهو المنطلق الموضوعي لصياغة استراتيجية وتاكتيكات الحركة الثورية ، وتطوير

برامجها وتحالفاتها ومبادراتها ، بما يتسق مع هذا الواقع المعاش ، ومتغيراته في مراحل التطور المختلفة .

وتقع على كاهل القوى التي تتبنى الماركسية اللينينية مسؤوليات اساسية في هذه المرحلة بالذات ، لانه كمنهج ، هو اكثر ايديولوجيات عصرنا ثورية ، يكفل القدرة على رؤية واضحة للتناقضات ، وتعقيدات الوضع العربي والعالمي ، من خلال الربط في تزاوج جدلي بناء ، بين النظرية والواقع ــ بخصوصيته ــ والعصر ، بكل تفاعلاته وتأثيراته على المنطقة والصراعات الدائرة فيها . وبذلك وحده يمكن تجسيد المهام الاستراتيجية في اهداف ملائمة لكل مرحلة ، وصياغة خط سياسي ثوري سليم ، يدخل في اعتباره عملية الحراك الاجتماعي والسياسي داخل صفوف البرجوازية ، وانسلاخ قطاعات منها ، تنضم الى المعسكر المعادي في المراحل الحرجة والحاسمة من الصراع .

---

(١) يمكن مقارنة هذه المرحلة ، معصر محمد علي ، الذي اجرى اصلاحات جذرية ، في اطار النظام القائم العلاقات الاجتماعية السائدة حينئذ ، فقد طبق « الاصلاح الزراعي » الذي انزل ضربة قاسية بنظام الالتزام ــ وملكية الارض من جانب الملتزمين والمماليك ، وقضى على تبعية الفلاح الشخصية لهم ، واستملك اراضي الاوقاف ، وطور نظم الري وتوسع في اقامة الصناعات الكبيرة الحكومية ، واطاح بمخلفات القرون الوسطى الاكثر رجعية ، دون ان يقضي على نمط الانتاج الاقطاعي .

(٢) حتى في حالة قيام جبهات وطنية ، يظل القرار حكرا للفئة الحاكمة .

(٣) خلال عمليات التطهير المتتابعة في الجيش حرصت السلطة على توفير وظائف مغرية للمبعدين ، سواء في السلك السياسي او القطاع العام ، وساعدتهم على مزاولة الانشطة الخاصة ، والتغافل عن كل ما يقترفون من انتهاكات . وعلى العكس كانت تشجع احيانا ، لابعادهم عن الانشطة « الخطرة » .

(٤) من كتاب « سنوات التحول الخمس » الذي اصدره علي صبري ، رئيس الوزراء والمشرف على تنفيذ الخطة الخمسية الاولى .

(٥) اخطر اساليب القهر واكثرها فاعلية تتمثل في الجانب الايديولوجي ، ومجموع النظريات المراجعة والانتهازية التي روجتها قيادات تقدمية ــ بعضها ماركسي ــ وادت الى تخريب الوعي الاجتماعي ، واثارت البلبلة والسلبية ، واضعفت الحركة الثورية المنظمة .

(٦) ومن هنا اعتراضنا ورفضنا « لنظرية » نظم البرجوازية الصغيرة .

(٧) هذه العملية يمكن ان تجري في اتجاه عكسي فقط عندما تتغير موازين القوى العالمية بشكل اكثر جذرية ، ومع نمو السوق الاشتراكي العالمي الى الحد الذي يسمح بتقديم معونات هائلة تكفل تحرير الاقتصاد من كل ارتباط بالسوق الرأسمالي العالمي ، كعوامل مساعدة هامة (ايضا العنصر الجغرافي ، كالحدود المشتركة) بالاضافة الى العامل الاساس ، وهو ان تبلغ الطبقة العاملة وحزبها من القوة ــ والبرجوازية من التفسخ ــ ما يمكنها من فرض مشاركتها المتزايدة ، فقيادتها الحقيقية للدولة .. وكلها خزون لم تتهيأ بعد ، وليس من المتوقع توفرها قبل فترة طويلة من الزمن .

(٨) فشل اليسار في اقناع الحكومة بفرض ضرائب على الفئات الثرية ، المتهربة ، فظلت الرأسمالية الزراعية ــ مثلا ــ معفاة من ضريبة الارباح ، رغم انها كانت

تحصل من كل الانشطة الاخـــــرى – الرسمية – وفي نفس الوقت تتضاعـــف الضرائب غير المباشرة على كاهـــــل الجماهير الكادحة – (على سبيل المثال رفعت ضريبة الدمغة خلال عام واحـــد بمقدار ٤٠ مليون جنيه لتبلغ حصيلتهـــا ٤١٨ مليون جنيه) ٠

(٩) حرم القانون الجديد الفلاحين الاميين من عضوية مجالس ادارة الجمعيات التعاونية وتبلغ نسبة الامية في هذا القطاع نحـــو ٩٦٪ ٠ كما رفع حد الملكية لعضوية اربعة اخماس المجلس من خمسة الى عشـــرة افدنة ٠

(١٠) بعد عام ٦٥/٦٤ (العام الاخير من الخطة الخمسية الاولى) لم تتمكن الدولة مـــن وضع اي خطط اخرى رغم انه تقرر عـدة مرات وضع خطة خمسية ، فسبعية ثـم لمدة ثلاث سنوات ، فخطة انجاز سنوية٠

(١١) توزيع رأس المال على عدد كبير مــــن المشروعات ، ونقله من مجال الى اخر ، فنجد البرجوازي الجديد يحرص علـــى التنوع والتعدد، بين استثمار ارض زراعية واشتغال بالتجارة – خاصة الاستيـــراد وتجارة الجملة – واعمال المقاولات والشقق المفروشة والتاكسات ٠٠ الخ وهي ظاهـرة اصبحت شائعة في احضان « الثـــورة » وتفاقمت بعد « الانفتاح » ٠

(١٢) « ان الامل الوحيد لها (الرأسماليـــة المحلية) في النمو هو ان تربط نفسهـــا بحركة الاحتكارات العالمية وتقتفي اثرها وتتحول الى ذيل لها ، وتجر اوطانهـــا وراءها الى هذه الهاوية الخطيـــرة » الميثاق الوطني (١٩٦٢) ص ٧٧ ٠

(١٣) ورغم ذلك ظلت معظم الكتابـــــات « التقدمية » تردد نفس نغمة التحـــول الاشتراكي والطريق اللارأسمالي ، بـل اعتبر البعض الانقلاب ، تخليصا للناصرين من سلبياتها ، خاصة في حقل الحريـــات والديمقراطية !

(١٤) من نصوص الميثاق الوطنـــي (١٩٦٢) « يجب ان تكون المصارف في اطار الملكية العامة ، فان المال وظيفة وطنية ، لا تترك للمضاربة او المغامرة ٠ كذلك فان شركات التأمين لا بد ان تكون في نفس اطـــار الملكية العامة ، صيانة لجزء كبير مـــن المدخرات الوطنية » ص ٨٢ ٠

(١٥) اقر هذا الاجراء تحت الضغط الامريكي ٠ وتقرر اثناء اللقاء الاخير للسادات مـــع سايمون – وزير الخزانة الامريكي – ومع ممثلي صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للانشاء والتعمير ، وعلى اثر زيـــــارة الرئيس المصري للخليج ، والاتفاق علـــى انشاء صندوق دعم عربي ، وما يسمـــى « بمشروع مارشال » الجديد ٠

(١٦) دخلت شركة هولدر بانك وهي اكبـــر احتكار عالمي في صناعة الاسمنت والطوب الحراري شريكا (٤٩٪) مع صناعـــــة الاسمنت المصرية (٤ مليون طن سنويا) التي تحقق ارباحا هائلة ، دون اي مبرر ٠

(١٧) راجع نص اتفاق « مبادىء العلاقـــات والتعاون بين مصر والولايات المتحدة » ٠ وعلى سبيل المثال وضع شرط تشكيـــل المجلس الاقتصادي المشترك من « ممثلي القطاع الخاص في كل من البلديـــــن » مستعدا القطاع العام ٠٠٠ الخ من نصوص معبرة ٠

(١٨) في المجال الاعلامي يستخدم نموذج طبـق الاصل من المبررات والحجج التي روجت في مصر تمهيدا لاعداد الرأي العام لتنفيذ هذه السياسة ٠

(١٩) بعد ان بلغت ظاهرة المصالحات هـــذا الحد من الشمول ، لم يبق من النظم مـــا يمكن للقوى الثورية ان تلجأ اليه لحمايتها من هجوم النظم الاخرى ٠ ومع ذلك مـــا زال المجال مفتوحا للاستفادة بالتناقضات في حدود ، ودون اوهام ٠ والاهم من ذلك كله هو العمل الجاد من اجل اعادة ترتيب القوى على اساس من الواقع الجديد

والخروج تدريجيا من دائرة النظم الى آفاق العمل الجماهيري وتوثيق عرى التضامن والتنسيق بين التنظيمات الثورية ، والمزيد من التعبئة والتنظيم الجماهيري ٠

(٢٠) في الفترة ما بين تشرين ١٩٦٥ حتى تموز ١٩٦٦ سقطت عشر نظم حاولت شق نفس الطريق ، وذلك بواسطة انقلابات عسكرية ٠

(٢١) في هذه المرحلة بعثت بمندوبها براون الى لبنان ٠ ووقعت اتفاق تأجير قواعد عسكرية باليونان ، واتفقت مع تركيا على العودة لاستخدام قواعدها في الاراضي التركية ٠

(٢٢) طبقا لتعبير ماركس ٠

(٢٣) الخلايا التي تقوم بوظيفة الفكر في المخ البشري ٠

الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية
بين حربين : ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣

المقدم الهيثم الأيوبي

حققت اسرائيل في حرب ١٩٦٧ انتصارا عسكريا حاسما فاق تصورات قادتها السياسيين والعسكريين ، وظهرت المؤسسة العسكرية بعد هذه الحرب كقوة متطورة قادرة على خوض الحرب الحديثة بكل ما تتطلبه من حركية ومرونة وحسم ومبادهة ، ومؤهلة لتجاوز التعقيدات الادارية والتقنية التي تفرضها الحرب الخاطفة. واستطاعت القوات المسلحة الصهيونية خلال فترة زمنية قصيرة تدمير جيوش ثلاث دول عربية ، والسيطرة على مساحات واسعة من الاراضي العربية خارج « الخط الاخضر » ، الامر الذي اعطاها ثقة مفرطة بالنفس وقدرة على الافادة من العمق الجغرافي الجديد في اي صدام مقبل مع الدول العربية ، ووضع بين يديها « رهينة » كبيرة (الارض والسكان) للمساومة عليها في المستقبل ، ومنحها بالتالي حرية عمل سياسية واسعة.

ولقد خلقت حرب ١٩٦٧ في اسرائيل احساسا بالتفوق ، وزادت الروح الهجومية في الجيش الاسرائيلي تأججا . وكان من المفروض ان تخلق في المعسكر العربي احساسا بالدونية ، وان تعمق الروح الدفاعية التي اصيبت بها الجيوش العربية منذ حرب ١٩٤٨ ، وان تزيد تأثيرات الردع الاستراتيجي التي كانت موجودة داخل القيادات العربية قبل حرب ١٩٦٧ باشكال ونسب متفاوتة ، ولكنها كبيرة على كل حال . واذا كانت النتائج السيكولوجية الايجابية قد دفعت القيادة الاسرائيلية الى التمسك بمكاسب حرب ١٩٦٧ ومحاولة استغلالها الى الحد الاقصى ، فان النتائج السيكولوجية السلبية المتوقعة لم تؤد الى شل الارادة القتالية العربية ، ولم تدفع العرب الى وهدة اليأس التي تصور الاسرائيليون انها ستبتلع الصمود العربي بشكل نهائي وتكون منعطف تحول جذري في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، بل ادت على العكس الى رد فعل تمثل بالتوجه نحو العقلنة ، والبحث عن الاخطاء لتلافيها ، وتعميق الحقد القومي على العدو ، وتنامي الدوافع النفسية التعرضية والدوافع الوطنية اللازمة للتحول من الدفاع الى الهجوم .

وهكذا فشلت الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثالثة في تحقيق الغرض الذي اندلعت من اجله . فبدلا من ان تقهر العرب وتدجنهم ، وتكون خاتمة الحروب في المنطقة ، فانها حملت في رحمها بذور حرب جديدة اشد عنفا . ويرجع ذلك الى عدة عوامل : **اولا ،** التعنت الاستفزازي الاسرائيلي الذي اضاع فرص السلام التي كان من الممكن استغلالها بعد وقف القتال ، او بعد انتهاء حرب الاستنزاف على الاقل لو كان لدى القيادة الصهيونية اية رغبة حقيقية في السلام . **ثانيا ،** العربدة الاسرائيلية (اللفظية والعملية) التي ظهرت بوضوح في فترة ١٩٧٠ ــ ١٩٧٣ ــ ، وخلقت داخل

الانسان العربي احساسا عميقا بضرورة الرد على العنف القهري بعنف تحريري واسع النطاق . **ثالثا** ، دعم الدول الاشتراكية للدول العربية الراديكالية سياسيا وعسكريا ، ومساعدة دول المواجهة على اعادة بناء قواتها المسلحة بشكل أعاد التوازن العسكري والمعنوي الى المنطقة وامن الظروف المناسبة لمتابعة الجهد العسكري العربي التحريري . **رابعا** ، فشل جميع محاولات التسوية السلمية ، وفقدان أي امل بالوصول الى الغرض السياسي عن طريق المباحثات والضغوط والمبادرات ، واعتبار اللجوء الى السلاح الوسيلة الوحيدة لتحقيق الغرض السياسي (التحرير) ، ومنع العدو من تحقيق غرضه السياسي (ضم الاراضي المحتلة وتدجين سكانها) .

وفي مناخ التوازن المادي والمعنوي العام ، ووجود الدفع النفسي القوي نحو الحرب ، وايمان العرب بان شمس التحرير لا يمكن ان تشرق الا من فوهة البندقية ، واعتقاد الاسرائيليين بان المدافع العربية صمتت الى الابد بفعل الردع ، اندلعت حرب ١٩٧٣ وكسرت حالة الجمود التي دامت ثلاث سنوات ، واعتبر الاسرائيليون والعالم وكثرة من العرب ان القيادتين المصرية والسورية قد اخطأتا الحساب وتورطتا في حرب خاسرة سلفا ، وان العسكرية الاسرائيلية ستحسم المعركة باسلوب حزيران ١٩٦٧ ، وتفرض على العرب سلم المنتصرين . ولكن الامور سارت بشكل مخالف لذلك ودارت المعارك باسلوب لم يتطابق مع التوقعات ، كما لم يتطابق (الى حد ما) مع توقعات القيادة العربية التي خططت لها . وسنعمد في هذا المقال الى تحديد عناصر الاستراتيجية العسكرية التي طبقها الاسرائيليون للرد على الهجوم العربي ، واظهار الفروق بين هذه الاستراتيجية والاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية في حرب ١٩٦٧ .

الحقيقة ان الفرق بين الاستراتيجيتين المذكورتين هو فرق نوعي . فعندما كانت اسرائيل تحتل رقعة صغيرة لا تعطيها العمق الامني الكافي ، وكانت ترغب في التوسع على حساب الارض العربية ، كانت استراتيجيتها **هجومية الطابع** تستخدم فيها القوات اسلوب الحرب الخاطفة قصيرة الامد . وبعد التوسع الذي نجم عن حرب ١٩٦٧ ، ووصول القوات الاسرائيلية الى خطوط ارض رأت انها تلائمها امنيا (قناة السويس ، ونهر الاردن ، ومرتفعات الجولان) ، واعتقادها بان بوسعها الاعتماد على هذه الخطوط للحفاظ على المكاسب وهضمها ، تبنت الدولة استراتيجية **دفاعية الطابع هجومية الاسلوب** ، يمتزج فيها الصد الدفاعي مع الرد الهجومي العنيف والحاسم ، وتتعاون فيها التحصينات مع الحركة والصدمة ، من اجل ردع العرب او الحاق الهزيمة بهم ، بشكل يجبرهم في الحالتين على التخلي عن غرضهم السياسي .

ورغم هذا الاختلاف النوعي الجذري بين الاستراتيجيتين ، والناجم عن اختلاف الاوضاع (الجغرافي ، والسياسي الدولي ، والهدف السياسي) فان العناصر التي بنيت عليها هاتان الاستراتيجيتان بقيت ثابتة تقريبا ، مع وجود تمايزات (كمية) تتعلق بتسلسل العناصر على جدول الافضليات ، وسنأتي على ذكر هذه التمايزات خلال مجرى البحث الذي سيحدد ايضا الدور الذي لعبه كل عنصر في حربي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، اي التباين في مستوى تطبيق العناصر الاستراتيجية خلال الحربين .

عنصر المعلومات :

اعتمدت الاستراتيجية الاسرائيلية دائما على مسألة جمع المعلومات ، واعتبرتها عنصرا اساسيا يؤمن لها هامش الامن بالزمان . ويعطيها الفرصة لاتقاء الصدمات

المفاجئة وتسديد الضربات في المكان والزمان المناسبين . ولهذه المسألة اهمية بالغة في جميع الاستراتيجيات ، ولكن لها في الاستراتيجية الاسرائيلية مكانة خاصة تنبع من وضع الدولة الصهيونية الجغرافي ، ووجودها المفتعل اصلا والمحاط باعداء دائمين ، وواقعها السكاني الذي لا يسمح لها بخلق قوة عسكرية دائمة كبيرة ، ويجبرها على اعتماد اسلوب الجيش الاحتياطي الذي تتطلب تعبئته هامشا زمنيا معينا . لذا كان الحصول على هامش زماني واسع في راس جدول الافضليات خلال الحربين . ولكن استغلاله كان متباينا في الحالتين :

ففي الفترة التي سبقت حرب ١٩٦٧ جمع الاسرائيليون معلومات وافية عن الاوضاع العربية السياسية والاقتصادية والنفسية والعسكرية ، واستطاعوا من خلالها تحديد النوايا الحقيقية الكامنة وراء اعلان حالة الاستعداد القصوى في القوات المسلحة المصرية ، في ١٩٧٦/٥/١٤ ، ووراء سحب الرئيس جمال عبد الناصر لقوات الطوارىء الدولية من شرم الشيخ وسيناء وقطاع غزة في ٥/٢٢ ، والمغزى السياسي لحشد القوات المصرية في سيناء خلال النصف الثاني من ايار ، وحجم هذه القوات وتدريبها وتسليحها ، واستنتجوا ان هذا الحشد لا يشكل تهديدا هجوميا فعليا ، وكانوا في استنتاجهم على صواب . ولهذا قاموا بالتعبئة دون استعجال مفرط ، وهم واثقون من انهم لن يتعرضوا خلال فترة التعبئة لاية مفاجأة استراتيجية . وحصلوا على حرية عمل واسعة بفضل دقة المعلومات وحسن تحليلها . ثم استفادوا من المعلومات اثناء القتال بشكل ساعدهم على تطبيق استراتيجيتهم بأفضل شكل ممكن .

اما في الفترة التي سبقت حرب ١٩٧٣ ، فقد جمع الاسرائيليون المعلومات نفسها من مصادر متعددة (ذاتية واجنبية) . ولكنهم لم يحسنوا تحليلها ، ولم يستطيعوا تقدير المغزى العسكري للحشد العربي على الجبهتين المصرية والسورية ، كما لم يقدروا نوايا القيادة السياسية في القاهرة ودمشق ، وكان تقييمهم لكفاءة القوات العربية وتكتيكاتها المحتملة وقواها المعنوية مغلوطا ، رغم حصولهم على المعلومات الوافية عن عددها وتسليحها . واستنتجوا من كل ذلك ان الحشد العربي لا يشكل تهديدا هجوميا فعليا ولا يتطلب اجراء التعبئة الشاملة طالما ان القوات العاملة المنتشرة على الخطوط الدفاعية قادرة على تنفيذ عملية الصد بنجاح ، واعطاء الاحتياط الهامش الزماني اللازم للتعبئة والتحشد ودخول معركة الصد .

وعندما تأكدت القيادة الاسرائيلية في صباح ١٠/٦ من ان الحشد ذو طابع هجومي، وان الهجوم العربي سيبدأ في الساعة ١٨,٠٠ من اليوم نفسه ، اعطت اشارة الانذار وامرت بالتعبئة بعد فوات الاوان ، وضاق هامش الامن الزماني الى ساعات قليلة بدلا من ان يكون اياما . وزاد من ضيق هذا الهامش اندلاع القتال في الساعة ١٤,٠٠ بدلا من الساعة ١٨,٠٠ ، الامر الذي افقد الإسرائيليين اربع ساعات ثمينة وحيوية . وهكذا فشلت الاستخبارات الاسرائيلية في تأمين العنصر الاول للاستراتيجية ، ولم تعط القيادة هامش الزمان اللازم ، وحرمتها بذلك من حرية العمل قبل القتال وعرضتها للمفاجأة الاستراتيجية ، كما جردتها من بعض حرية العمل وعرضتها للمفاجأة التكتيكية خلال القتال (وخاصة في الايام الاولى) لانها لم تستطع مسبقا تقييم الكفاءة القتالية العربية ، وقدرة المعدات وفاعليتها واساليب استخدامها (الصواريخ والمدافع الرادارية الموجهة المضادة للطائرات والصواريخ المضادة للدبابات ، وقتال كتل المشاة ضد رؤوس الحراب المدرعة المندفعة بعمق دون تغطية كافية من المشاة والمدفعية ، ووسائط العبور ، وسرعة نصب الجسور العائمة .... الخ) .

الاعتماد على الجيش الاحتياطي :

جاء الاعتماد على الجيش الاحتياطي في اسرائيل من عدة اسباب سكانية واقتصادية . وكان نجاحه يرتكز على الانذار الطويل المسبق كما ذكرنا من قبل ، كما يعتمد على سرعة التعبئة ، وسرعة الحركة من مراكز التعبئة الى مراكز الحشد ، وارتفاع المستوى القتالي والنفسي لقطعات الاحتياط .

وليس بوسعنا حتى اليوم تحديد الكفاءة والسرعة اللتين تمت بهما التعبئة والحشد في حرب ١٩٦٧ لان هاتين العمليتين تمتا في ظروف عادية ، وليس تحت ضغط المعركة. والعاملان الضاغطان الوحيدان اللذان لعبا دورا في النصف الثاني من ايار ١٩٦٧ ، هما : الخوف من تحشد القوات العراقية بحجم كبير في الاردن ، والرغبة في قطع الطريق امام اي تدخل دولي يجمد الموقف قبل اندلاع القتال ، ويحرم الاسرائيليين من اغتنام الفرصة التي سنحت امامهم للقيام بعمل عسكري يدمرون به القوات المسلحة العربية ويوسعون بواسطته حدود الارض التي يحتلونها .

وليس بوسعنا ايضا تحديد المستوى القتالي والنفسي لقطعات الاحتياط ، لان حرب ١٩٦٧ لم تأخذ شكل الحرب من جانبين (صدام بين ارادتين) ، بل اخذت شكل العمليات من جانب واحد ، بعد الانهيار الاستراتيجي الذي اصاب القيادات العربية منذ يوم ٥ حزيران بعد تكامل المعلومات حول اثار الضربة الجوية الاسرائيلية . ومن المؤكد أن الانهيار الاستراتيجي بلغ ذروته على الجبهة السورية في ٩ حزيران (يوم بدء الهجوم الاسرائيلي على الجولان) ، لان اثار الضربة الجوية الاسرائيلية اقترنت بالاثار الناتجة عن تحطيم الجيشين المصري والاردني في الايام الاربعة السابقة ، وبقبول مصر وقف اطلاق النار في ليلة ٨ — ٩ حزيران .

اما في حرب ١٩٧٣ ، فيمكن القول ان سرعة التعبئة والحشد كانت عالية جدا . فلقد استطاعت القطعات الاحتياطية التي استدعيت الى الخدمة في يوم ٦ تشرين الاول ، تحقيق التعبئة والحشد واحتلال قواعد الانطلاق وتلقي اوامر العمليات ودخول معركة الرد (الهجوم المعاكس الاستراتيجي) على الجبهة السورية في صباح ١٠/٨ . وهذا يعني ان ستة الوية مدرعة (الالوية الاحتياطية ١٤ و ١٧ و ١٩ و ٢٠ و ٦٠ و ٧٩) ولواء مشاة ميكانيكي (اللواء المظلي ٣١ المحمول) لم تنتقل خلال ٣٦ ساعة من حالة السلم الى حالة الاستعداد القصوى للحرب فحسب بل انتقلت الى الاشتراك بالقتال الهجومي ، كما ان بعض كتائبها وصلت الى مسرح العمليات وشاركت في معركة الصد منذ يوم ١٠/٧ . وفي الوقت نفسه عبأ الاسرائيليون وحشدوا وحركوا نحو الجبهة المصرية ثلاث مجموعات الوية واصبحت هذه الالوية مستعدة للقيام بعمليات هجومية واسعة بعد ٧٢ ساعة من بدء التعبئة ، لو ان الوضع الاستراتيجي في سيناء كان يسمح بشن مثل هذا الهجوم .

ولهذه الارقام معنى هام ، فهي تدل على ان انظمة التعبئة والتحشد والفتح التي وصلت في اسرائيل الى مستوى متقدم قد خدمت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية في حرب ١٩٧٣ ، ووسعت بذلك حرية عمل القيادة ، وسمحت لها بامتلاك القوات اللازمة للعمل في الزمان والمكان المناسبين . ولكن السرعة التي تمت بها كل هذه العمليات تفقد موضوعيا شيئا من بريقها اذا عرفنا انها تمت تحت سماء نظيفة وفي ظل انعدام التهديد الجوي ، وان عددا من القطعات الاحتياطية توجهت الى مسرح العمليات قبل استكمال معداتها وتجهيزاتها وذخائرها ومحروقاتها ، وان دبابات

مجموعة الوية بيليد التي تحركت نحو الجولان على سلاسلها تعرضت لكثير من الاعطال وتأخرت بشكل جعل مشاركتها في الهجوم المعاكس خلال يوم ١٠/٨ اقل من المستوى المطلوب .

الهجوم الاجهاضي (الوقائي) المسبق :

يستهدف « الهجوم الاجهاضي المسبق » الافادة من عاملي المبادرة والمفاجأة ، لتسديد ضربة قوية الى الخصم المحتشد كليا او جزئيا ، وتدمير قواته قبل ان تقوم بتنفيذ نواياها . ولقد تبنت اسرائيل فكرة الهجوم الاجهاضي المسبق منذ حرب ١٩٥٦، واعطت نفسها حق تسديد الضربة الاولى المسبقة لتفادي التعرض للمفاجأة ولاحباط التدابير العربية التي تؤثر عليها امنيا ، واعتبرت ذلك عنصرا في صلب استراتيجيتها العسكرية . ولكنها لم تستخدم هذا العنصر حتى اليوم ، في اي حرب من حروبها مع العرب .

ففي حرب ١٩٦٧ كانت نوايا القوات العربية المحتشدة على الحدود الاسرائيلية دفاعية الطابع . ولم يكن حجم هذه القوات المحتشدة يشكل تهديدا جديا لامن اسرائيل . وكان هدفها منع اسرائيل من الاعتداء على سورية ، وتغطية عملية سحب قوات الطوارىء الدولية من شرم الشيخ واغلاق مضائق تيران امام الملاحة الاسرائيلية (تصفية اخر اثار حرب ١٩٥٦) . وفي يوم ٢ حزيران عقد في القاهرة مؤتمر اعلن فيه الرئيس جمال عبد الناصر قراره بالاستعداد لتلقي الضربة الاولى ثم القيام بعد ذلك بضربة معاكسة . وكان من الممكن ان يتجمد الوضع العسكري عند هذا المستوى ويبدأ العمل لايجاد مخرج سياسي لمسألة الملاحة في خليج العقبة (وقد بدأ بالفعل دون ان يصل الى نتائج سريعة) لولا ان الولايات المتحدة ، واسرائيل وجدتا الفرصة المناسبة لتسديد ضربة قاصمة الى حركة التحرر الوطني العربي .

وفي الخامس من حزيران بدأ الاسرائيليون هجومهم . ولا يمكن اعتبار هذا الهجوم « هجوما اجهاضيا مسبقا » لان انتفاء التهديد العربي (من ناحية النية والقدرة) يجرد الهجوم الذي قامت به اسرائيل من طابعه الاجهاضي المسبق ، ويضعه في نوع « الهجوم » لا في نوع « الهجوم لمنع الهجوم » .

وهناك نوع اخر من « الهجوم الاجهاضي المسبق » هو « الهجوم لمنع استكمال التحشد الدفاعي » ولا يدخل الهجوم الاسرائيلي في هذا النوع ايضا ، بل يدخل على العكس في نوع « الهجوم بعد السماح للعدو بالتحشد » . وهو هجوم مبني على مبدأ طرح الطعم لجذب حشود الخصم الى ارض القتل ، وتسديد الضربة عند تكامل التحشد بغية تدمير كبد قوات الخصم وحسم الحرب بمعركة اساسية واحدة .

ولقد كان بوسعنا اعتبار الهجوم الاسرائيلي في ٥ حزيران « هجوما لمنع استكمال التحشد الدفاعي » لو انه بدأ قبل ذلك في النصف الثاني من ايار ، عندما كانت القوات المصرية تتحرك نحو سيناء ، وقبل ان يطير الملك حسين الى القاهرة في ٣٠ ايار ويعقد مع مصر معاهدة دفاع مشترك . وكان المناخ العام ملائما لمثل هذا الهجوم ، نظرا لارتفاع مستوى التعبئة النفسية في اسرائيل ، واقتناع الاسرائيليين آنذاك بوجود « خطر الابادة » ، ووقوف الرأي العام العالمي الى جانب اسرائيل « الضعيفة » التي يهددها العرب بالفناء ، ووجود القوة اللازمة لتحقيق الضربة . ولكن مهندسي حرب ١٩٦٧ فضلوا التريث حتى يسمحوا للعرب بوضع البيض في سلة واحدة ، وحتى تكون الضربة الموجهة الى هذه السلة حاسمة ماديا ومعنويا .

وفي حرب ١٩٧٣ كان الوضع العام مختلفا من جميع الوجوه . فلقد توفرت مبررات الهجوم الاجهاضي المسبق (الحشد العربي) . وكان بوسع اسرائيل ، من وجهة نظر امنية نظرية ، القيام بهذا الهجوم . ولكن عدة عوامل اجبرتها على التريث واتخاذ قرار تلقي الضربة الاولى للرد عليها بضربة معاكسة . وتتمثل هذه العوامل التي قلصت حرية عمل القيادة الاسرائيلية ومنعتها من تطبيق احد مبادئها الاستراتيجية العسكرية بما يلي : ١ ــ الاسترخاء الامني وعدم وجود دفع نفسي داخلي نحو الهجوم بعد ان بددت حرب ١٩٦٧ مخاوف « خطر الابادة » وخلقت الاحساس بالتفوق ٢ ــ عدم ملاءمة الرأي العام العالمي للضربة المسبقة ، ٣ ــ الاعتماد على خطوط التحصينات المنيعة والاعتقاد (بناء على تحليلات الاستخبارات) بان الحشد العربي غير مهدد ، ٤ ــ عدم توفر القوة اللازمة للضربة بسبب التأخر في جمع الاحتياط ، والخوف من تسديد ضربة مسبقة تستفز العرب وتدفعهم الى الرد قبل جمع الاحتياط ، ٥ ــ الايمان المطلق بقدرة سلاح الطيران والتحصينات على ردع العرب . وهكذا ادى تشابك العوامل العسكرية والسياسية غير الملائمة من حرب ١٩٧٣ الى منع انطلاق الهجوم الاجهاضي المسبق ، وعندما توفرت المعلومات المؤكدة بان العرب ينوون الهجوم ، وصار من الضروري القيام باي عمل وقائي كانت الفرصة قد تبددت ، ولم يعد امام اسرائيل عمليا سوى التخلي عن المبادرة وانتظار الصدمة الاولى .

الحسم الاستراتيجي الجوي :

يعتبر الحسم الاستراتيجي الجوي شرطا من شروط الحرب الخاطفة . وهو يأخذ اهمية زائدة في الحروب التقليدية المحدودة بين الدول الصغرى التي يكون الصراع المسلح بينها اقرب الى العملية (او المعركة احيانا) منه الى الحرب بمعناها الواسع (عدة عمليات على مسرح او عدة مسارح عمليات) . وينطبق هذا القول الى حد بعيد على الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، خاصة وان القتال في هذا الصراع يتم عادة على مسرح مكشوف ومحدود وتحت سماء صاحية .

ولقد تبنى الاسرائيليون فكرة الحسم الاستراتيجي الجوي بناء على خبرة حرب ١٩٥٦ التي استطاع فيها الطيران الانكلو ــ فرنسي تدمير القوة الجوية المصرية واجبر المصريين على الانسحاب من سيناء ، وفسح المجال امام القوات الاسرائيلية للتقدم العميق والسريع واقتطاف ثمار الحسم الجوي . وفي العام ١٩٦٧ طبق الاسرائيليون الاسلوب نفسه مع استخدام طيرانهم الخاص . وحسموا الحرب في اليوم الاول للقتال ، بان سددوا الضربة الجوية الاولى الساحقة الى القوات الجوية العربية ، وبدلوا ظروف المعركة البرية التي صارت تتم في ظل التفوق الجوي الاسرائيلي ، وخلقوا داخل القيادات العربية احساسا بالعجز ادى الى الشلل الاستراتيجي ، في الوقت الذي وصلت فيه القيادة الاسرائيلية الى ذروة احساسها بالتفوق . وهكذا جردت الضربة الجوية الاولى الجانب العربي من حرية العمل ووسعت حرية عمل الجانب الاسرائيلي بشكل مطلق . ولم تعد المعارك البرية التي تمت بعد ذلك على الجبهات المصرية والاردنية والسورية اكثر من تصفية للجيوب واستثمار للفوز الاولي باسلوب الحرب الخاطفة التي شارك التفوق الجوي الاسرائيلي في تسريع نتائجها .

ويعود نجاح الضربة الجوية الاسرائيلية الاولى في تحقيق الحسم في العام ١٩٦٧ الى عدة عوامل اهمها : ١ ــ الاستطلاع الجيد ، ٢ ــ المبادرة الهجومية التي اعطاها العرب الى الاسرائيليين عندما قرروا تلقي الضربة الاولى وتحمل نتائجها ، ٣ ــ ضعف

شبكة الاتصالات وعدم جدية الاستعداد الجوي العربي ، ٤ ــ ضعف اجهزة الرصد والانذار المبكر عند الجيوش العربية آنذاك ، ٥ ــ وجود الطائرات العربية مكشوفة على المهابط وليس داخل ملاجىء من الاسمنت المسلح ، ٦ ــ بطء رد فعل القيادة المصرية على قيام القوات الاسرائيلية البرية (عن طريق الخطأ) بمهاجمة موقع ام بسيس الموجود على المحور الاوسط في الساعة ٧٫٣٠ واضاعة الزمن الطويل بين الساعة ٧٫٣٠ والساعة ٨٫٤٥ (ساعة بدء القصف الجوي المعادي للمطارات المصرية) دون اتخاذ اي تدبير استثنائي مع ان مهاجمة السرية المدعمة في ام بسيس كان ، من مناخ التوتر القائم آنذاك ، انذارا كافيا لتنبيه القيادة المصرية الى طبيعة الخطر المحتمل ، ويشكل سببا كافيا لتصور الموقف ومعالجته وتجنب التعرض للمفاجأة .

وساعد نجاح الطيران في تحقيق الحسم الاستراتيجي على تمسك الاسرائيليين بسلاحهم الجوي ودعمه وتطويره . وبعد وصول الطائرات الاميركية « سكايهوك » و « فانتوم ف ــ ٤ » الى اسرائيل ، صار من الواضح ان الدولة الصهيونية ستستخدم قواتها الجوية في تثبيت اركان الردع قبل اندلاع الحرب ، وستلجأ اليها لتحقيق الحسم الاستراتيجي اذا ما كسر العرب حلقة الردع . ومع هذا فان القيادة الاسرائيلية لم تستخدم الضربة الجوية الاولى في اواخر ايلول والايام الاولى من تشرين الاول عندما كانت القوات المصرية والسورية تحتشد بكثافة على الحدود . ويدخل هذا الامتناع عن تسوية الضربة الجوية الاولى ضمن اطار القرار السياسي بعدم اطلاق الرصاصة الاولى . ولقد تحدثنا عن دوافع هذا القرار في فقرة الهجوم الاجهاضي المسبق . ولكن هل كان بوسع مثل هذه الضربة الجوية احباط الاستعدادات العربية للهجوم ؟ ان كل الدلائل العملية تشير الى ان النتائج التي كان بوسعها تحقيقها محدودة جدا ولا تتناسب مع السلبيات السياسية الناجمة عنها . ويرجع ذلك الى قوة الدفاعات الارضية المضادة للطائرات ، ووجود الطائرات نفسها داخل ملاجىء من الاسمنت المسلح ، وارتفاع مستوى الاتصالات ، وتطور وسائل الرصد والانذار ، واستعداد القيادات العربية للقيام برد فعل سريع .

وسدد العرب هذه المرة الضربة الجوية الاولى التي جعلها ميزان القوى ضربة ذات اثار تكتيكية وعملياتية فقط ، ولم يسمح لها بتدمير الطيران الاسرائيلي على الارض والارتقاء الى مستوى الحسم الاستراتيجي . وكان من الطبيعي ان تستخدم اسرائيل طيرانها السليم في عمليات الصد والرد لتحقيق الحسم الاستراتيجي . ولقد مارست ذلك بالفعل منذ بدء القتال ، ولكن شبكات الصواريخ ارض ــ جو العربية احبطت نشاط الطيران وجردته من حرية العمل ، وحرمت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية من احد اركانها . ولقد استعاد الطيران الاسرائيلي جزءا محدودا من حرية العمل في الجولان بعد ان بذل جهدا كبيرا وغاليا لضرب قواعد الصواريخ ارض ــ جو ، ولكنه لم يستطع تحقيق الحسم الاستراتيجي على هذه الجبهة ، ولم يشارك في صنع هذا الحسم الذي لم يتم . اما على الجبهة المصرية ، فقد استعاد الطيران الاسرائيلي جزءا كبيرا من حرية العمل فوق قطاع الجيش الثالث بعد ان استطاعت طلائع « قوة شارون » عبور القناة في يوم ١٥ وتدمير بعض قواعد الصواريخ ارض ــ جو على الضفة الغربية للقناة ، ومنحت بذلك ممرا جويا نظيفا ، لم يلبث الطيران والقوات البرية ان وسعته بشكل ساعد الطيران على المشاركة في حسم معركة ثغرة الدفرسوار ومعركة الدبابات على الضفة الشرقية لقناة السويس (معركة ١٠/١٧ التي حاول المصريون خلالها قطع طريق قوة شارون على

الضفة الشرقية) . ولكن المشاركة الجوية بقيت عند حدود الحسم التكتيكي ولم تتوصل الى اي حسم استراتيجي .

القتال على الخطوط الداخلية :

من المعروف ان الوضع المركزي لاسرائيل ، واحاطتها بخصومها من عدة جهات ، قد فرضا عليها استخدام « استراتيجية القتال على الخطوط الداخلية » . لذا اعدت الدولة الصهيونية الاداة اللازمة لهذه الاستراتيجية : قوات سريعة الحركة ، خطوط دفاعية للتأخير ، شبكة طرقات ذات كفاءة عالية . وكانت خطتها الاستراتيجية العامة تتمثل في : الدفاع التأخيري امام جبهة او اكثر ، وحشد القوات على احدى الجبهات لتحقيق الحسم السريع ، والانتقال بعد ذلك لحسم الوضع على الجبهات الاخرى .

ولقد طبقت اسرائيل هذه المناورة في حرب ١٩٦٧ بشكل ممتاز عندما وجهت مركز ثقل قواتها نحو الجبهة المصرية ، وشاغلت الجبهة الاردنية بشكل ديناميكي ، وجمدت الموقف على الجبهة السورية . واستخدمت اسرائيل لتسوية الضربة الرئيسية على الجبهة المصرية ٧ الوية مدرعة و ٣ كتائب دبابات مستقلة من اصل قوتها المدرعة العامة البالغة ١١ لواءا مدرعا (٧٢٪) ، و ٤ ـــ ٥ الوية ميكانيكية احدها مظلي من اصل ١٣ لواءا ميكانيكيا (٣٥٪) ، و ٦ الوية مدفعية من اصل ١٢ لواءا (٥٠٪) . ولم تستخدم لتسديد الضربة الثانوية على الجبهة الاردنية سوى ٣ الوية مدرعة ولواء مظلي و ٥ الوية مشاة ميكانيكية ووحدات مساندة، وتركت في مواجهة الجبهة السورية لواء ميكانيكيا واحدا .

وعندما حققت الضربتان على الجبهتين المصرية والاردنية هدفهما وتم الوصول الى قناة السويس ونهر الاردن ، بدأ الحشد الاسرائيلي يتجه نحو الجبهة السورية . ولم تسحب القيادة الاسرائيلية الالوية المخصصة لمهاجمة الجولان في ٩ حزيران من سيناء (نظرا لبعدها) ، بل جلبت القوات من الجبهة الاردنية ، حتى اصبح مجمل القوات التي حسمت الوضع على الجبهة السورية ثلاثة الوية مدرعة وكتيبة دبابات مستقلة ولواء مظليين وكتيبة مظليين مستقلة و ٣ الوية مشاة احدها ميكانيكي (٣٠ الف جندي و ٢٥٠ دبابة) .

وخلقت حرب ١٩٦٧ وضعا جديدا وكان لهذا الوضع بالنسبة الى المناورة الاستراتيجية على الخطوط الداخلية **ايجابية** تتمثل في امكانية تثبيت الجبهات بسهولة استنادا الى قناة السويس ونهر الاردن ومرتفعات الجولان ، كما كان له في الوقت نفسه **سلبية** تتمثل في تباعد الجبهات عن بعضها بشكل يعرقل حركة نقل القطعات البرية من جبهة الى اخرى ويزيد مسافة الطيران عند نقل الجهد الجوي من مكان الى اخر ، وزيادة مسافة الطيران من القواعد الجوية المركزية الى اجواء مسارح العمليات ، الامر الذي ادى الى انخفاض عدد الطلعات اليومية .

ولقد ارادت اسرائيل في حرب ١٩٧٣ تطبيق المناورة الاستراتيجية نفسها ، مع تركيز الجهد الرئيسي هذه المرة على الجبهة السورية نظرا لضيق هامش المناورة بالمكان في الجولان (عمق ٢٠ ـــ ٢٥ كيلومترا) ، وخطورة التهديد الذي يمثله وصول القوات السورية الى المناطق المشرفة على سهل الحولة وطبرية . وكانت تعتقد ان بوسعها تثبيت المصريين عند خط بارليف ريثما يتم حسم الوضع على الجبهة السورية، ونقل مركز الجهد بعد ذلك الى الجبهة المصرية . ولكن اختراق خط بارليف بسرعة فائقة ، وتدفق القوات المصرية عبر الجسور المنصوبة على القناة في ليلة ٦ ـــ ٧

تشرين الاول ، واحتمالات تقدمها نحو الشرق لاحتلال ممرات سيناء ، اجبرت الاسرائيليين على تعديل مناورتهم ، وتقسيم قواتهم بين الجبهتين المصرية والسورية الضاغطتين هجوميا بتناسق . وبهذا خالفت القيادة الاسرائيلية اول شرط من شروط النجاح في القتال على الخطوط الداخلية .

ولقد حاولت اسرائيل تخفيف اثار هذه السلبية بتركيز الجهد الجوي على جبهة قناة السويس ، حتى تقطع الجسور وتصفي القوات المصرية التي عبرت القناة (القتال على الخطوط الداخلية جوا) . ولكن طائراتها اصطدمت بجدار الصواريخ ارض ــ جو وعجزت عن تنفيذ مهمتها . **عندها قررت القيادة الاسرائيلية** تثبيت الجيش المصري ، ونقل جهدها الجوي الى الجبهة السورية لحسم المعركة هناك برا وجوا ، وقامت بالهجوم المعاكس الاستراتيجي في الجولان منذ ١٠/٨ ولم يستطع هذا الهجوم حسم الوضع بالسرعة المطلوبة بسبب صمود القوات السورية ، ووصول طلائع القوات العراقية ودخولها المعركة منذ يوم ١٠/١٢ ، وتحرك المصريين نحو الشرق في ١٠/١٤ بشكل تطلب سحب الطيران لمجابهتهم . وعندما وجد الاسرائيليون ان ميزان القوى يتحول في الجولان ضدهم بسبب استمرار وصول القوات العراقية ، واحتمالات تحرك قوات اردنية ايضا الى الجولان ، ورأوا انه لم يعد بوسعهم قلب التوازن الاستراتيجي للجبهة السورية وتحقيق الحسم في الشمال ، نقلوا محور جهدهم الجوي الرئيسي من جديد الى سيناء لتنفيذ عملية « الغزالة » الرامية الى قلب التوازن الاستراتيجي وتحقيق الحسم في الجنوب . ولكنهم لم يستطيعوا نقل اي جزء من قواتهم البرية العاملة في الجولان ، خوفا من ان تستغل القيادة السورية سحب القوات وغياب الطيران في الجنوب لشن هجوم معاكس سوري ــ عراقي ــ اردني يؤدي الى تصفية القوات الاسرائيلية المتورطة في جيب سعسع ، ومتابعة التقدم في الجولان . وبسبب عدم القدرة على حشد القوة المتناسبة مع المهمة تأخر الحسم على الجبهة المصرية ، وتوقف القتال قبل ان يتحقق ، وفشلت المناورة الاستراتيجية **البرية** على الخطوط الداخلية ، ولم تستطع اسرائيل تنفيذ هذه المناورة الا بقواتها **الجوية** وبكفاءة محدودة نسبيا .

تدمير القوة المسلحة

اعتمدت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيليةفي حرب ١٩٦٧ على المفهومالكلازفيتزي القائل بان تدمير القوة المسلحة للخصم وتجريده من درعه هو هدف المعركة . لذا كان غرض قواتها البرية والجوية والبحرية تدمير الجيوش العربية على مسارح المعارك وفي اجوائها . ولم تبذل هذه القوات اي جهد لضرب الاهداف المدنية (التجمعات السكانية والمراكز الصناعية) مع انها كانت تملك حرية العمل الكاملة وخاصة في الجو والبحر .

وكان من الممكن ان تطبق اسرائيل المفهوم نفسه في حرب ١٩٧٣ ، لو ان قواتها استطاعت تحقيق انتصار عسكري سريع كانتصار ١٩٦٧ . ولكن فشلها في تحقيق هذا الانتصار ، وتعرضها لخسائر موجعة جعلها تتجه نحو قصف الاهداف الاستراتيجية في العمق العربي ، وخاصة العمق السوري ، بغية التاثير على معنويات المواطنين وتعطيل عجلة الانتاج الاستراتيجي (البترولي اساسا) . بيد ان محدودية حرية عمل الطيران وارتفاع نسبة الخسائر بالطائرات والطيارين وضخامة الاعباء الميدانية الملقاة على عاتقه ، حددت نتائج وفاعلية هذا القصف الاستراتيجي الذي اثبتت كل الحروب السابقة انه لا يستطيع تحقيق انهيار الجبهة الداخلية وتعطيل

الانتاج (وخاصة في بلد زراعي) ، الا اذا كان كثيفا وطويل الامد . والذي اثبتت حرب ١٩٧٣ انه لا يحقق اي اثر ردعي اذا كان الخصم يمتلك صواريخ ارض — ارض التكتيكية والعملياتية القادرة على ردع الردع .

الحرب الخاطفة :

الحرب الخاطفة في المفهوم العام للكلمة هي الحرب التقليدية التي تطبق فيهـا استراتيجبة الافناء ، مع استخدام قوى ووسائط متفوقة تملك قوة الصدمة وغزارة النار وسرعة الحركة ومرونة المناورة في سبيل تدمير تجمعات العدو او اسرها عن طريق الخرق والتطويق والاندفاع في العمق نحو المؤخرات لتحقيق الانهيار الاستراتيجي والحسم بسرعة (تحسب بالاسابيع والشهور) قبل ان يستعيد الخصم توازنه وينظم صناعته الحربية ويحشد قواته الاحتياطية الاستراتيجية ويتابع القتال . وللحرب الخاطفة بالمفهوم الاسرائيلي (المحكوم بظروف الحرب المحدودة في الشرق الاوسط) المعنى نفسه تقريبا ، والاختلاف بين المفهومين هو ان الانهيار الاستراتيجي والحسم ينبغي ان يتما بسرعة (تحسب بالساعات والايام) قبل ان تستعيد جيوش دول المواجهة توازنها ، وتصل الى مسارح العمليات قوات كبيرة من دول المساندة ، وقبل ان يتدخل المجتمع الدولي لوقف القتال في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، وقبل أن يمد الحليف الاستراتيجي للعرب (السوفييت) جسرا جويا يساعد على اعادة التنظيم واستعادة التوازن .

ولقد كانت حرب ١٩٦٧ بالتأكيد تنفيذا مثاليا لهذا المفهوم الاستراتيجي . فلقد حشد الاسرائيليون قوة متفوقة مرنة ضاربة تملك قدرة النار والصدمة ، وسددوا ضربة عنيفة افقدت الجيوش العربية توازنها وحققت الحسم الاستراتيجي قبل ان يستفيق المجتمع الدولي من ذهوله ويتدخل لايقاف القتال ، وقبل ان تصل القوات العراقية أو الجزائرية — وكانت آنذاك القوات العربية الوحيدة المؤهلة لدعم دول المواجهة — الى مسرح العمليات وتشارك في القتال بفاعلية .

وكان من الطبيعي ان تحاول اسرائيل تطبيق الاستراتيجية نفسها في حرب ١٩٧٣، خاصة وانها دعمت سلاحها الجوي (كما ونوعا) في فترة ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، وزادت عدد الويتها المدرعة ، ومكننت الوية مشاتها ، ورفعت قدرتها على النقل الجوي ، وادخلت الكثير من التحسينات على اتصالاتها وشؤونها الادارية . وكان من المنتظر ان تقوم الالوية المدرعة المدعومة بالطيران فور انتهاء التعبئة (اي بعد ٤٨ ساعة على الاكثر) بهجوم خاطف سريع ، يدمر الجيوش العربية المهاجمة ويوسع رقعة الارض المحتلة .

ولكن مثل هذا الامر لم يتحقق في ١٩٧٣ ، اذ اصطدمت المدرعات الاسرائيلية بقطعات عربية حسنة التدريب والتجهيز والتسليح ومرتفعة المعنويات ، وحدت الصواريخ ارض — جو من حرية عمل الطيران ، وعندما كانت رؤوس الحراب المدرعة تندفع باسلوب الحرب الخاطفة دون دعم كاف من المدفعية ودون حماية كافية من مشاة المرافقة ، كانت وحدات المشاة العربية المسلحة بالصواريخ م/د تدمرها . وتعطلت الحرب الخاطفة ، وبقيت القوات الاسرائيلية على الجبهة المصرية في وضع الدفاع الهجومي حتى يوم ١٥/١٠ .

ولقد حاول الاسرائيليون الانتقال من الدفاع الهجومي الى الهجوم الاستراتيجي في الجولان ، وبداوا هجومهم المعاكس في ٨/١٠ ، وحققوا خرقا باتجاه سعسع على

طريق القنيطرة — دمشق ، ولكن الخرق لم يكن عميقا كما ينبغي ، ولم يصل الى مؤخرة القوات السورية لقلب توازنها الاستراتيجي ، بل خلق انحناء محدودا في الجبهة ، وشكل جيبا محاطا من كل جانب . وكان عمق التقدم الاقصى لرؤوس الجراب الاسرائيلية المدرعة خلال اربعة ايام (من ٨ الى ١٢) حوالي ٤٠ كيلومترا ، إي بمعدل ١٠ كيلومترا في اليوم ، وهذه وتيرة بطيئة جدا في الحرب الخاطفة . وكان من الطبيعي ان يتابع الاسرائيليون الضغط للوصول الى مؤخرات السوريين ، والانتقال بعد ذلك الى حرب الحركة ، ولكن المقاومة المنيفة وطبيعة الارض ، والاعداد الهندسي الجيد لمسرح القتال ، منعتهم من تحقيق غرضهم . لذا توقف الضغط الاسرائيلي على هذه الجبهة نهائيا منذ يوم ١٠/١٢ ، وتحولت القوات الاسرائيلية الى الدفاع الديناميكي ، وتوقفت الحرب الخاطفة .

وحتى يوم ١٠/١٤ (اي بعد ٩ ايام من القتال) كان الاسرائيليون يراوحون في مواقعهم امام القوات العربية (ولقد بقوا يراوحون على الجبهة السورية حتى نهاية الحرب) . وكان مرور هذا الوقت دون تحقيق الحسم يعني فشلا ذريعا لاستراتيجية الحرب الخاطفة (بالمفهوم الاسرائيلي وبالظروف الشرق اوسطية) .

وفي يوم ١٥ عبرت طلائع قوة شارون قناة السويس في مكان غير مدافع عنه جيدا . ووجدت نفسها فجأة على مؤخرة المصريين ، وارادت عند ذلك تطبيق حرب الحركة والعودة الى اساليب الحرب الخاطفة ، وفتح مروحة تطوق الجيشين المصريين الثاني والثالث . ولكن قوة الدفاع والهجمات المعاكسة التي شنها الجيش المصري الثاني حدت من التقدم نحو الشمال وحولت المروحة الى نصف مروحة لتطويق الجيش المصري الثالث فقط . ورغم بطء وعدم عنف رد الفعل الاستراتيجي المصري على قوة شارون في الايام الثلاثة الاولى بعد عبور قناة السويس ، ورغم تمكن الاسرائيليين من حشد حوالي ٣٠٠ دبابة على الضفة الغربية لقناة السويس ، فان تقدم نصف المروحة نحو الجنوب لم يكن سريعا بشكل يتناسب مع متطلبات الحرب الخاطفة ، واضاع الاسرائيليون سبعة ايام من ١٦ الى ٢٢ دون ان يتمكنوا من اغلاق الطوق حول الجيش المصري الثالث . وفي هذا الوقت استطاع المجتمع الدولي ، الذي لا يسمح بان تطول الحرب في منطقة الشرق الاوسط الحساسة ، التوصل الى اتفاق حول وقف القتال . وصدر قرار ٣٣٨ (١٩٧٣/١٠/٢٢) قبل ان ينجز نصف المروحة الجنوبي مهمته . وكان مجمل التقدم الذي حققه الاسرائيليون في سبعة ايام حوالي ٥٠ كيلومترا ، اي بمعدل ٧ كيلومترات في اليوم .

وبسبب هذه السرعة البطيئة التي لا تتناسب مع استراتيجية اسرائيل استطاع الجيش المصري الثالث استعادة توازنه والصمود امام نصف المروحة الجنوبي ، كما استعادت القيادة المصرية العليا المبادرة ، وبدأت تطوق قوات الثغرة بقطعات مرسلة من العمق . ولولا استغلال اسرائيل للوضع الناجم عن وقف القتال في ليلة ٢٢ — ٢٣ لما استطاعت احتلال ميناء الادبية واغلاق الطوق حول الجيش المصري الثالث في فجر يوم ١٠/٢٤ .

وتحت ستار وقف القتال ، حاول الاسرائيليون استغلال الوضع الجديد الناجم عن تطويق الجيش الثالث ، وقاموا بالضغط على السويس لاحتلالها . وهنا ايضا اضاع الاسرائيليون زمنا طويلا نسبيا تفاعلت فيه الازمة دوليا (تهديد السوفيات بارسال قوات لفرض وقف القتال ، والاستنفار النووي الاستراتيجي الاميركي) وصدر عن

مجلس الامن القراران رقم ٣٣٩ (١٠/٢٣) و ٣٤٠ (١٠/٢٤) . وتوقف القتال بالفعل في يوم ١٠/٢٥ دون حسم الموقف على مؤخرة الجيش الثالث .

وهكذا نرى انه رغم الاستعداد للحرب الخاطفة ، وتبني اساليبها ، ومحاولة تطبيق هذه الاساليب لحسم المعركة بسرعة قبل تبدل الظروف المحلية والدولية فقد فشل الاسرائيليون في انجاز مهمتهم بالسرعة المطلوبة ، وطالت مدة الحرب ١٧ يوما (رسميا) و ٢٠ يوما (عمليا على الجبهة المصرية) ، الامر الذي اعطى القوات العراقية والليبية والجزائرية الفرصة للانتقال من العمق الاستراتيجي الى مسرح العمليات والمشاركة بالمعركة ، واعطى المجتمع الدولي الفرصة للتدخل وفرض وقف القتال بعد تأزم الموقف بين الدولتين العظميين ووصوله الى حافة الصدام النووي .

الحدود الامنة :

لم تكن فكرة الحدود الامنة عنصرا من عناصر الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية في حرب ١٩٦٧ . وكان من نتائج هذه الحرب وصول اسرائيل الى مواقع اعتبرتها حسب قول يشعياهو جافيتش «افضل مواقع على الخطوط الامامية تمتعت بها اسرائيل في اي وقت من الناحية العسكرية » . ولقد صرح حاييم بارليف في مطلع العام ١٩٦٨ بان هذه الخطوط هي « اهم مكاسب حرب حزيران ١٩٦٧ » . وبفضل الوصول الى هذه الخطوط ظهرت فكرة الاعتماد على الحدود الامنة (الرادعة والتي يمكن الدفاع عنها باقل قوة ممكنة) ودخلت في صلب الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ، وبنيت على اساسها خطوط التحصينات في الجولان وعلى الضفة الشرقية لقناة السويس .

ولقد حدد ييغال الون مفهوم الحدود الامنة بانها « حدود سياسية ترتكز على عمق اقليمي وموانع طبيعية كمجاري المياه والصحراء والممرات الاجبارية الضيقة لمنع تقدم الجيوش البرية والميكانيكية . انها حدود تضمن اولا امكانية اقامة نظام الانذار المبكر والناجع ضد اقتراب الطائرات المعادية ، وتتيح من ناحية اخرى قواعد مريحة للهجوم المضاد » . وانطلاقا من هذا المفهوم وعلى هديه بنى الاسرائيليون خطي بارليف والون ، وانشأوا المستعمرات الزراعية والدفاعية في الجولان وغور الاردن ومنطقة رفح .ووفق هذا المفهومدخل الاسرائيليون حرب ١٩٧٣ .وكانت النتيجة العملية سقوط المفهومبشكل مأساوي ، رغم العمق الاستراتيجي الذي حصلت عليه ، الدولة الصهيونية : فلقد اجتازت الجيوش العربية الحدود الامنة « المثالية » بسهولة ودمرت القوات المتمركزة عليها . وخلق عمق سيناء الكبير معضلات ادارية للقوات الاسرائيلية وادى بعد مسارح العمليات عن بعضها الى عرقلة المناورة على الخطوط الداخلية كما ذكرنا من قبل . وظهرت عبثية مساهمة المستوطنات في القتال منذ اليوم الاول للحرب وكانت عملية اجلاء سكانها في الايام الاولى للحرب عبئا اضافيا على عاتق القيادة العسكرية الامر الذي دفع الجنرال الاحتياطي متتياهو بيليد الى القول بعد حرب تشرين : « كانت الثقة كبيرة جدا بهذه المناطق ، حتى اننا نسينا انه في ضوء جودة الاسلحة الحديثة فان العمق الذي اكتسبناه لا يضر ولا ينفع ، لان المشاكل الاساسية للدولة التي تعاني من وضع تطويق تقوم به قوات تفوقها عددا ، لا تتبدل في اعقاب اية اضافة اقليمية طالما ان الوضع الاستراتيجي الاساسي لم يتبدل . وهذا الوضع لم يتغير بعد حرب الايام الستة . ولكن التراخي العام الذي تسلل الى داخلنا ، وبلبل الصفاء الذهني الاستراتيجي لدينا ، تجسد في تبني هذا المفهوم الدفاعي القديم والفاشل .

ونستنتج من كل ما تقدم انه كان بين الاستراتيجيتين العسكريتين الاسرائيليتين في

حربي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ فرقان واضحان : **اولهما** نوعي ، يتمثل في التحول من الهجوم الاستراتيجي الى الدفاع الهجومي . **والثاني** كمي، يتمثل في تطبيق عناصر الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية بشكل مثالي في حرب ١٩٦٧ ، وتعثر تطبيق هذه العناصر في حرب ١٩٧٣ ، بفضل التطور الكبير الذي حققه جيشا مصر وسورية في فترة ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، والقفزة النوعية التي قاما بها في جميع المجالات للرد على الهزيمة بالتحدي ، في الوقت الذي نامت به العسكريتاريا الاسرائيلية على امجاد ١٩٦٧ . ولقد كان من الممكن استثمار هذا التعثر بشكل افضل خلال الحرب لو كان الهدف العربي الاستراتيجي اكثر اتساعا ، كما كان من الممكن استثمار حرب تشرين (التي تمثل ضربة الايقاف العربية للحد الصهيوني الذي وصل الى ذروته في حرب ١٩٦٧) لو أن العرب حافظوا على خط المجابهة مع معسكر العدو والتحالف الاستراتيجي مع معسكر الصديق ، وتابعوا الضغط على اسرائيل في لحظة فقدان التوازن النفسي التي خلقتها حرب ١٩٧٣ .

قبل الخروج من الاردن وقائع واحداث

غازي الخليلي

[١]

« ... راقبوا الوضع بدقة ، ابقوا الاصابع على الزناد ، انتظروا تعليمات جديدة » . كانت هذه ملخص التعليمات التي نقلها المسؤول العسكري لموقع جبل عمان الى مجموعة من المقاتلين في متراس متقدم ليلة الخميس السابع عشر من ايلول ١٩٧٠ . اعاد احد المقاتلين الكلمات بصوت اقرب الى التمتمة ، راقبوا .. انتظروا .. الزناد ، ثم انفجر بصوت واضح : ولماذا الانتظار ، الامور باتت واضحة ، والمعركة لا بد منها ، ان لم نبادر نحن بالهجوم ونحسم الامر ، فان القوات الملكية ستحسم الامر بالنيابة عنا ، ولن تعطينا المزيد من الوقت للتفكير . انهى كلماته ، ثم اتكأ بتثاقل على اكياس الرمل . قال المقاتل الذي يجلس قبالته وقد شد من قبضة يده على البندقية : ولماذا الاستعجال ؟ الم تعتد بعد على مثل هذه الامور ؟ او لم تعرف بعد اننا لن نكون البادئين في اي معركة ؟ هكذا كنا وهكذا لا نزال ، على كل لن يطول انتظارك ايها الرفيق ، فالليلة موعدنا مع الموت لنصنع الحياة .

« كفاكم ضجيجا وكلاما بدون طعم ، انصتوا ، انني اسمع هديرا كأنه هدير دبابات » . قال مقاتل اخر . سيطر الصمت ، العيون تراقب البعيد ... البعيد ، والاذان اصغت ترصد ادنى حركة . لحظات ، ثم ارتفع صوت قائد المجموعة : ايها الرفاق ، لقد بدأت المعركة ، استعدوا ، وليكن عناقنا للسلاح عناق عشاق ، وليكن حبنا للموت لا يعلوه الا حبنا للارض . ودوت القذائف ، وامتلأ الجو رصاصا وتنابل .

كانت الساعة ٤٥ر١٦ من صباح الخميس السابع عشر من ايلول ١٩٧٠ عندما فتحت القوات الملكية نيران اسلحتها من جميع المواقع على جميع مواقع الثورة في عمان .. في الزرقاء .. في اربد .. وكانت عشرة ايام من القتال الدامي ، لم تستطع خلالها القوات الملكية ان تسيطر على اكثر من ربع العاصمة ، وبقيت الاشرفية — اشرفية عمان — صامدة تقاتل ، وبقيت جبال الهاشمي والتاج والنصر ، وحي المصاورة في جبل عمان ، تقاتل بعناد . ومن صويلح الى الحدود السورية ، ظلت قوات المقاومة مسيطرة على كامل المنطقة حتى بعد انسحاب القوات السورية . ولم تخرج عن سيطرة المقاومة الا مدينة الزرقاء ومنطقة الجنوب .

وجاءت اتفاقية القاهرة في السابع والعشرين من ايلول ، لتضع نهاية لمعركة ، ولكن لترسي معالم معركة ، وربما معارك ، جديدة .

منذ اليوم الاول لاعلان اتفاقية القاهرة والمباشرة بتنفيذ وقف اطلاق النار ، اخذ النظام الاردني يتحرك بطريقة لا تترك اي لبس او ابهام في ان موافقته على اتفاقية القاهرة ، ليست الا محطة ، اضطر الى الوقوف عندها ، ولكن لن يطول وقوفه فيها . كان الملك مجبرا على القبول بهدنة ، وان ارتدت ثوب اتفاقية تنظم علاقات « النظام » مع المقاومة على ضوء النتائج التي اسفرت عنها معارك الايام العشرة ، وهي نتائج لم يكن يتوقعها ، وكانت دون ما يريده وما استهدفه من المجزرة التي ارتكبها ، بكثير . كانت تقديرات « النظام » ان المقاومة لن تصمد اكثر من ثلاثة ايام ، ولكن النتائج جاءت مغايرة لكل التوقعات والتقديرات ، ولم يكن بمقدور الملك ان يتابع المعركة ، ليس لان الحكومات العربية استفاقت بعد اكثر من ٤٨ ساعة على بدء المجزرة ، بل ، لان مقاتلينا في العاصمة اثبتوا قدرة على المواجهة والصمود ، ولان ذخائر الملك نفذت او كادت ان تنفذ . حدثني احد ضباط الجيش الاردني بعد انتهاء المعارك فقال : « لقد انهارت معنويات اكثرية الجنود في الايام الثلاثة الاخيرة من القتال ، ولم يعد لدنيا ذخائر كافية ، ولو استمرت المعارك اربعة او خمسة ايام اخرى ، ربما لكانت الامور تختلف كليا عما هي عليه الان » .

قبل نهاية شهر ايلول ١٩٧٠ وصل الباهي الادغم ، رئيس اللجنة العليا للمتابعة ، الى عمان ، كما وصل ايضا العميد احمد عبد الحميد حلمي ، رئيس لجنة الرقابة العسكرية ، « اضافة » الى معظم ضباط لجان الرقابة العسكرية ، الذين اختيروا من بعض الدول العربية . وفي ١/١٠/١٩٧٠ ، تم التوقيع على اتفاقية بين المقاومة و « النظام » بخصوص تنفيذ المادة الثانية من اتفاقية القاهرة والتي تنص على انسحاب كافة القوات الاردنية والقوات الفدائية من عمان . وفي ١٣/١٠/١٩٧٠ تم الوصول الى اتفاقية عمان ، تنفيذا للمادة «٨» من اتفاقية القاهرة والتي تنص على ان « تقوم اللجنة العليا للمتابعة باعداد وابرام اتفاقية ملزمة للطرفين تضمن استمرار النشاط والعمل الفدائي واحترام سيادة البلاد في حدود القانون ، فيما عدا الاستثناءات اللازمة للعمل الفدائي » . وفي ٢٢/١٠/١٩٧٠ ، تم اعداد بروتوكول تنظيم تواجد العمل الفدائي في الاردن . وقد شكلت هذه الاتفاقات جميعا والبروتوكول الملحق بها ، الارضية التي يجب ان تقوم عليها العلاقة بين المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني بعد معارك ايلول .

اتسمت حركة النظام الاردني وتصرفاته ، خلال فترة عقد الاتفاقات واقرارها ، بمرونة نسبية على الصعيد الرسمي ، وباعداد ترتيبات لمواجهة جديدة على الصعيد العملي .

فقد كان بحاجة الى تطمين المقاومة حتى يعيد ترتيب اوضاعه . فمن جهة استبدل وزارة محمد الداوود الذي استقال ، بحكومة يراسها احمد طوقان ، رئيس الديوان الملكي ، كي يوحي للمقاومة انه جاد في انهاء الحكم العسكري . ومن جهة ثانية كان عملاؤه يشيعون ان الملك سيعهد الى شفيق ارشيدات بتشكيل وزارة جديدة بعد الانتهاء من توقيع الاتفاقات ، وذلك حتى يقلل من معارضة المقاومة لبعض البنود التي كان يسعى لتضمينها اتفاقية عمان ، وكي يوحي لها انه جاد في تنظيم العلاقة معها على اسس جديدة ، بان يعهد الى شخصية تطمئن اليها في تشكيل وزارة تشرف على تنفيذ الاتفاقات .

غير ان هذه المرونة النسبية التي كان يوحي بها « النظام » كانت تتناقض مع مجمل ممارساته العملية . فمن جهة رفض « النظام » اصدار عفو عام عن جميع الحوادث

التي ارتكبت قبل ٢٧ ايلول ١٩٧٠ ، ووعد فقط بالافراج عمن تبقى من المعتقلين ،ومن جهة ثانية اغلق منطقة الجنوب نهائيا في وجه المقاومة واحال مدينة الزرقاء الى ثكنة عسكرية ، واكمل سيطرته عليها باعتقال كل من كان يمت بصلة ، مهما كانت واهية ، مع المقاومة الفلسطينية . اضافة الى ذلك فقد اخذ يكثف وجوده العسكري في مدينة عمان تحت ستار فتح مخافر امن جديدة في اكثر من حي من احياء عمان .

كانت المقاومة في تلك الفترة ، تبدي من الحرص على تنفيذ الاتفاقات المعقودة ، والوصول من خلالها ، الى ارضية واضحة تقوم عليها علاقة المقاومة مع النظام الاردني مستقبلا ، اكثر من حرصها على ترصد حركات « النظام » على الصعيد العملي ووضع حد لها منذ البداية . فتهاونت في قضية فتح المخافر ، ولم تثر كثيرا من الاعتراضات حول احقية تواجدها في منطقة الجنوب ومدينة الزرقاء ، كما تنص على ذلك الاتفاقات المعقودة . لقد اتسمت حركة المقاومة في تلك الفترة ، بالتشوش والاضطراب ، فكانت لتوها خارجة من معركة طاحنة ، وتحتاج الى بعض الوقت لاعادة تنظيم صفوفها وقواتها ، اضافة الى انها لم تتوصل بعد الى تحديد واضح لابعاد المرحلة القادمة ، هل ستطول الهدنة على ارضية الاتفاقات المعقودةمع «النظام» مع ان الوضع سيعود الى التفجر من جديد وخلال فترة قريبة ؟ وما هي الاشكال التي سيتخذها تفجر الوضع مجددا ؟ الاجابة على مثل هذه الاسئلة الهامة كانت تضيع في دوامة العمل اليومي ، وكانت قضايا التموين واغاثة الجماهير التي حوصرت بالجوع والمرض خلال الاحداث تستنفذ القسط الاكبر من جهد المقاومة . وربما لهذه الاسباب ، ولاسباب اخرى غيرها ، لم تجتمع اللجنة المركزية لحركة المقاومة لدراسة الوضع الجديد وتحديد سياسات العمل خلال المرحلة القادمة الا في ١٩٧٠/١٢/٤ اي بعد مضي اكثر من شهرين على انتهاء المعارك . وخلال هذين الشهرين ، كان النظام الاردني قد استعاد تنظيم صفوفه الى حد كبير ، عسكريا وسياسيا ، واستعد لمباشرة الهجوم من جديد على حركة المقاومة .

[٢]

لم يكد حبر الاتفاقات يجف ، حتى بدا اكثر من مؤشر واضح يدل على ان «النظام» سيتابع هجمته على حركة المقاومة . وكان من اوضح هذه المؤشرات المجيء بوصفي التل ، رئيسا للوزراء ، وبوزارة تضم اشخاصا معروفين بعدائهم للمقاومة ، امثال مازن العجلوني وضابط المخابرات عدنان ابو عودة .

وعلى الرغم من ان المقاومة كان لديها معلومات ، حتى قبل توقيع اتفاقية عمان ، ان وصفي التل ، هو الشخص الذي يعهد اليه الملك برئاسة الوزارة خلفا لوزارة احمد طوقان ، فانها فوجئت بمجيئه بهذه السرعة ، لان مجيئه كان يعتبر تحديا للمقاومة ، ومؤشرا على ان « النظام » لن يلتزم باي اتفاقية ، وانه سيتابع هجمته على المقاومة استكمالا لهجمته في ايلول . ومع مجيء التل بدات تتضح سياسات « النظام » اكثر فاكثر ، وبدا واضحا للجميع ، ان الصراع مع « النظام » مستمر وان ارتدى اشكالا جديدة ، قد لا تكون بالضرورة على شاكلة ايلول ، اي ضربة سريعة وشاملة وخلال ايام ، ثم حصد النتائج السياسية لمثل هذه الضربة في حال نجاحها . وكان التقدير ، **ان هجمة « النظام » ستقوم على اساس تجنب خوض معركة حاسمة، بل تجزئة المعركة ، باستهداف المراكز الاضعف للمقاومة ، تصفيتها واحكام سيطرة « النظام » عليها ، وبتكثيف الوجود العسكري « للنظام » في المناطق التي تسيطر عليها المقاومة لخلق نوع من التوازن العسكري ، وثم بالسيطرة على نقاط هامة تقع على**

الطرق التي تربط اماكن تواجد المقاومة في المدن وخارجها ، لاحكام الطوق على المقاومة تمهيدا لمعركة حاسمة يكون النجاح فيها مضمونا للنظام . وهي السياسة التي عرفت باسم « القضم والهضم » والتي مارسها « النظام » بقدرة ، مستفيدا من كونه امسك بزمام المبادرة سياسيا وعسكريا بعد ايلول ، ومن كون ان المقاومة لم تقرر بشكل واضح **هل تواجه الهجمة الجديدة ، ام تناور لتجنب المعركة ؟** وبين حدي المواجهة والمناورة فقدت المقاومة قدرتها على تحديد سياسة واضحة في ادارة دفة الصراع ، واختلطت المواقف ، وشوشت القاعدة ، وتبلبلت الجماهير ، وعندما كان تحرك « النظام » يضيق امامنا مجال المناورة ويفرض علينا ان نواجهه ، كنا نستصرخ الدول العربية ونستغيث باللجنة العربية ، وان واجهنا ، فمواجهتنا كانت محدودة ، وبحدود حركة « النظام » . وكانت مواجهتنا تفقد اي اهمية سياسية ، عندما يعود « النظام » ويفتح المجال للمناورة ، بعد ان يكون قد حقق من تحركه الهدف الذي حدده له .

لقد تحرك « النظام » على جميع الاصعدة الاعلامية والسياسية والعسكرية بتناسق شبه كامل . فعلى **الصعيد الاعلامي** اعتمد على التمييز بين فدائي شريف واخر غير شريف ، بين فدائي يعمل من اجل فلسطين ، وفدائي يرتبط بمنظمات تسعى لقلب نظام الحكم في الاردن ، بين منظمات يمكن التفاهم معها ، ومنظمات خطرة ، ليس على النظام الاردني ، ولكن على حركة المقاومة نفسها ، لانها تورط المقاومة في مواقف وسياسات ليست من شأنها . اما عمليا ، فلم يكن « النظام » يميز بين فدائي واخر ، فكلهم معادون له . لقد كان الهدف من هذه السياسة احداث شق في صفوف المقاومة باستغلال بعض الخلافات في وجهات النظر حول بعض القضايا بين منظمات المقاومة . ولقد حاول عدنان ابو عودة ، وزير اعلام الملك ، ان يجرب حظه في هذه السياسة ، عندما بدأ يحرض اللجنة المركزية لحركة المقاومة على الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اثر الخلاف الذي نشب في اوساط المقاومة حول اتفاقية الميليشيا التي عقدها مندوبون عن اللجنة المركزية مع النظام الاردني في ١٩٧١/١/١٤ لقد استعر الخلاف بين الطرفين لدرجة ان اللجنة المركزية اصدرت قرارا في ١/١٥ بتجميد عضوية الجبهة الشعبية في اللجنة المركزية لانها لم تمتثل لقرار وقف اطلاق النار . وكان من المقرر بموجب اتفاقية الميليشيا ان تقوم صباح ١٩٧١/١/١٦ لجنة رباعية مشكلة من ممثلين عن اللجنة المركزية ولجنة المتابعة والجيش الاردني وقوات الامن الاردنية ، بتفتيش الاحياء والتأكد من ان السلاح الموجود هو مجرد سلاح فردي ومجمع في الاماكن التي حددتها الاتفاقية . لقد اجاب عدنان ابو عودة ، عندما سئل ، كيف ستتصرف الحكومة الاردنية فيما لو اصرت الاطراف غير الموافقة على الاتفاقية على موقفها ؟ اجاب بانه يترك هذا الامر للجنة المركزية ، اي بمعنى اوضح انه كان ينتظر ان يحصل الصدام المسلح بين صفوف المقاومة .

كانت الدقائق ثمينة والوقت ضيق ، ولم يبق الا ساعات على بدء عملية التفتيش . الاصابع على الزناد والكل مستنفر ، لحظات وقد ينفجر الوضع . واذكر في تلك الليلة ،ليلة ١٩٧١/١/١٦ ، ان الاخ ابو عمار كان مدركا لخطورة الوضع ، وكان يؤكد ان اي خلاف ممكن ، الا الصدام المسلح ، الا الاقتتال الداخلي . وبالمقابل فقد كان الدكتور جورج حبش مدركا ايضا لخطورة الوضع ، وكان يؤكد ان كل شيء ممكن الا الصدام المسلح ، الا الاقتتال الداخلي . وقبل ان ندخل اللحظة الحرجة او المأساة بمعنى ادق ، انتصر العقل الفلسطيني ، وانتصرت ارادة الوحدة ، بان التزمت الجبهة الشعبية بالاتفاقية ، واصدرت اللجنة المركزية بيانا ترحب بعودة الجبهة الشعبية الى

موقعها في اللجنة المركزية . لقد انتظر عدنان ابو عودة ، ان يحترق السهل الفلسطيني بأيد فلسطينية ، ولكن ارادة الحفاظ على الارض الفلسطينية دون هزات او زلازل كانت اقوى من كل شيء .

اما على **الصعيد السياسي ، فقد** كانت حركة « النظام » ذات اوجه عديدة . **فمن** ناحية كان « النظام » يبرر تحركه العسكري سياسيا ، بانه لمواجهة **« الامن الفلتان »** في **البلد** ، وكان يتخذ من بعض التصرفات الفردية لبعض افراد من المقاومة ، سلاحا للتشهير السياسي بالمقاومة ، وبان « الامن فلتان » في المناطق التي تسيطر عليها ، لدرجة انه اخذ يصور في اعلامه ان وجود المقاومة في المدن هو السبب في «فلتان الامن» **ومن فكرة « الامن الفلتان » انطلق « النظام » في الهجوم على ميليشيا المقاومة والمطالبة بنزع سلاحها** . طالب اولا بمنع حمل السلاح في الاحياء مع السماح باقتنائه في البيوت، ثم تدرج في مطالبه ، بان طالب بجمع السلاح في اماكن معينة في الاحياء تحت اشراف حراسات من الكفاح المسلح ، بعد ذلك طالب بان تقفل مراكز جمع السلاح بالشمع الاحمر وان تشرف عليها حراسات من الامن العام . وللوصول الى هذه الغاية ، ضخم اعلام « النظام » من قضية الامن الداخلي وبالغ فيها ، واستطاع في النهاية ان يفرض نزع سلاح الميليشيا وجمعه في اماكن محددة ، بعد عدة معارك عسكرية خاضها من اجل الوصول الى هذه الغاية . لقد عمد « النظام » الى تسليح اعداد من المواطنين الشرق — اردنيين تحت اسم « المقاومة الشعبية » ، وذلك في اماكن تواجد المقاومة في احراج جرش وعجلون ، واخذ يساوم المقاومة على نزع سلاح المقاومة الشعبية وتخفيف نسبة التسليح في المخافر التي اقامها في قلب وعلى مداخل الاحياء في مدينة عمان ، مقابل نزع سلاح الميليشيا . كذلك فقد كان « النظام » يبرر تحركاته امام الدول العربية بتكرار نغمة ان المقاومة تستهدف قلب نظام الحكم في الاردن ، وانه مضطر للدفاع عن نفسه . وامام اللجنة العربية العليا كان يدعي ان المقاومة غير ملتزمة باتفاقيتي القاهرة وعمان ، في حين ان كل الشواهد كانت تؤكد انه هو الطرف غير الملتزم . وواضح ان اي اتفاقية بين طرفين ، تفسر لدى تنفيذها لصالح الطرف الاقوى ، وكان « النظام » يستغل سيطرته الكاملة على مدينة الزرقاء ومنطقة الجنوب بالادعاء انه مستعد لفتح مكاتب للمقاومة في هذه المناطق حسب نصوص الاتفاقية ، ولكن بشرط ان تلتزم المقاومة بنقطة كذا وكذا ، وكانت النقطة التي يركز عليها « النظام » هي وجود ما يدعيه **سلاح ثقيل** لدى المقاومة في الاردن ، وكان يعتبر القنبلة ، وال ب ٢ سلاحا ثقيلا اضافة الى الفرينوف ، فكيف بالدوشكا ! واحيانا كان مندوب اللجنة المركزية يقبل بهذه المساومة ، فيوافق على اتفاق جديد يعطي للنظام هذا الحق في اخراج ما يسميه السلاح الثقيل ، او في جمع سلاح الميليشيا ، مقابل فتح مكتب للجنة المركزية في الجنوب او الزرقاء . ولكن عمليا ، هذه المساومة ليست ممكنة ، فالمناطق التي كان يسيطر عليها « النظام » لم يكن يسمح لاي فرد من المقاومة وحتى من اللجنة العربية — احيانا — بدخولها . فكان يماطل في هذا الموضوع بينما يكون قد حقق ما يبغيه من الاتفاق الجديد .

وعلى الصعيد العسكري ، فقد كانت حركة « النظام » هنا هي الاهم في مجمل تحركاته . وكان يتحرك ضمن حسابات دقيقة ، وضمن خطة عامة وضعها بناء على سياسته في « القضم والهضم وتقطيع الاوصال » . وكانت تقوم على الاسس التالية :

(ا) احكام قبضته وسيطرته الكاملة على المناطق التي سيطر عليها خلال معارك ايلول ، ونشر حالة من الرعب فيها ضد كل العناصر الوطنية .

(٢) تكثيف وجوده العسكري في المناطق التي تسيطر عليها المقاومة في المدن ، بالسيطرة العسكرية على عمارات تسيطر على هذه المناطق او تقع على مداخلها ، وبالاكثار من مخافر الامن في الاحياء واملائها بعناصر من الجيش التي حولها الى الامن العام والمسلحة بالرشاشات الثقيلة وبسيارات للمطاردة . فمثلا في حي المصاورة ، وهو حي فقير يقع في جبل عمان ، انشأ النظام اربعة مخافر تتحكم بجميع مداخل الحي وتسيطر عليه بالنيران سيطرة كاملة .

(٣) اغلاق المدن بحواجز التفتيش المتعددة على مداخلها ، وعلى مداخل احيائها الرئيسية ، والقيام بتفتيش السيارات والمارة باستمرار . وغالبا ما كانت هذه الحواجز تعتقل المواطنين العاديين بهدف ارهابهم ، او اعتقال افراد المقاومة على الرغم من الاوراق الثبوتية التي بحوزتهم .

(٤) تسيير دوريات عسكرية بكثافة على الطرق التي تشرف على مراكز المقاومة في احراج جرش وعجلون ، كنوع من الاستفزاز ولابراز العضلات .

(٥) السيطرة على مواقع تقع على مشارف اماكن تواجد المقاومة في احراج جرش وعجلون او تتحكم في الطرق المؤدية اليها .

وتنفيذا لهذه الخطوط فقد عمد « النظام » الى اتباع سياسة تقوم على أساس **حسم المعركة اولا في المدن** بانهاء تواجد المقاومة المسلح فيها ، ضمن خطة تقوم على استهداف اماكن تواجدها الاضعف ، وبنفس الوقت العمل على **تضييق الخناق على المقاومة خارج** المدن اي في احراج جرش وعجلون ،بجعلها معزولة عن جماهيرها وجسمها البشري ، وهي السياسة التي عرفت بسياسة **« الحصر والعصر »** .

[٣]

كانت البداية في تحرك « النظام » العسكري ، استهداف السيطرة على **ثغرة عصفور** ، وهي تلة تشرف على الطريق العام بين اربد وعمان ، كانت تسيطر عليها المقاومة ، فقامت القوات الملكية باحتلالها مدعية ان اتفاقية عمان تنص على ان تكون مواقع المقاومة بعيدة عن الطريق العام مسافة كيلومترين . وبلعت المقاومة العملية بصمت . ولكن بعدها انطلق النظام الى موقع اخر عندما وضع حاجز للتفتيش على جسر الزرقاء على طريق جرش — عمان والذي يربط جرش بمخيم غزة . واذكر ان اقامة هذا الحاجز اثار اعتراضات واسعة من المقاومة . ولكن ثبت « النظام » نفسه في هذا الموقع عندما كانت الاوامر تنص على **« ضبط الاعصاب وعدم الرد »** . وبعد يومين من السيطرة على هذا الموقع قامت قوات « النظام » صباح ١٩٧٠/١٢/٦ **باقتحام مدينة جرش** والسيطرة عليها وبانهاء كل تواجد علني للمقاومة هناك . لقد كانت ضربة جرش ، ضربة كبيرة نوعا ما ، اعطت « النظام » وضعا عسكريا متقدما، استغله في محاولة فرض اتفاق جديد على المقاومة ، فكانت **اتفاقية الميليشيا الاولى** في ١٩٧٠/١٢/١٣ .

لقد عقدت هذه الاتفاقية بدون علم كل اطراف المقاومة ، ويتحمل مسؤوليتها بشكل اساسي مندوب اللجنة المركزية لحركة المقاومة لدى اللجنة العربية العليا — آنذاك — وقد رفضت هذه الاتفاقية من كل قواعد المقاومة ، ومن معظم فصائلها ، ولم تجد امكانية لتنفيذها . الا ان هذه الاتفاقية طرحت على بساط البحث قضية الميليشيا وسلاحها ، وكان كل جهد « النظام » يتركز على هذه الناحية ويستميت في نزع سلاح

الميليشيا ، لانه اذا حقق هذا الهدف ، فانه يضمن السيطرة على المدن . وحيث ان هذه الاتفاقية لم تنفذ في وجه الاعتراضات التي اثيرت ضدها ، فقد انتظر « النظـــام » شهرا اخر حتى يعيدها الى الوجود بعد ان حقق نصرا عسكريا اخر .

بعد ان احكم « النظام » سيطرته على جرش والمواقع الاخرى ، قام بالسيطرة على مفرق **مرحاب** الذي يربط جرش ـــ بالمفرق ، وبالطريق الى العراق ، وبذلك احكـم سد منافذ الطرق التي تربط المقاومة بسوريا والعراق . بعدها انطلق الى المطالبـــة **بجبل طلوزة** ، وهو جبل يتمتع باهمية عسكرية ، لانه يشرف على منطقة السلـــط والبقعة ويحمي مواقع المقاومة في ام الرمان من اي تقدم للقوات الملكية باتجاه مواقع المقاومة هناك . طرح « النظام » الامر في اللجنة العربية العليا وادعى انه مهم لـــه لحماية قواته في منطقة الاغوار ، فسلم اليه تسليما على اساس ان يتواجد عليه افراد من المقاومة ومن الجيش الاردني . واقيمت المناسف ـــ بهذه المناسبة ـــ على قلعـــة الجبل ، تأكيدا على الوحدة بين الجيش الاردني والمقاومة . ولكن كما يقال « فـــان جهنم مبلطة باصحاب النوايا الحسنة » فبعد الاستيلاء على جبل طلوزة ، تقدم مندوب الملك بطلب اخر ، وهو **مخفر ام الرمان** الذي يقع في قلب مناطق المقاومة ويسيطـــر سيطرة كاملة على طرق مواصلات قواعد المقاومة في جلعاد والرميمين وفي السلط ، وتلك التي في احراج جرش . رفضت المقاومة ذلك ، ولذا فصباح ١٩٧١/١/٨ ادعى « النظام » ان فدائيين اختطفوا اثنين من جنوده في تلك المنطقة مما جعله يقوم بقصف كل مواقع المقاومة في احراج جرش ، في دبين وفي برما وقزازه ، وفي مخيم غزة . ثم تقدمت قواته فاحتلت مواقع المقاومة في جلعاد والرميمين ، وبذلك انهى وجود المقاومة العسكري في منطقة الغور الاوسط لتصبح محصورة في احراج جرش وعجلون .

اثار هجوم « النظام » هذا ردود فعل واسعة ، واختلفت المواقف بين اطـــراف المقاومة في كيفية التعامل مع هذا الهجوم وصده ، ولكن كان النظام قد حقق نقطـــة قوية باتمام سيطرته على المنطقة ، ولا سيما انه قام خلال هجومه **بأنهاء وجود المقاومة في منطقتي الرصيفة وشنلر** ، وبذلك قلص وجود المقاومة كثيرا ، فأصبحت محصورة في عمان ، وفي اربد ، ثم في الاحراج . لقد ترتب على هذه الهجمة ان فرض «النظام» **اتفاقية الميليشيا الثانية** التي عقدت في ١٩٧١/١/١٤ ، والتي اثارت الكثيـــر مـــن الخلافات في صفوف المقاومة . وبهذه الاتفاقية انتقل « النظام » الى موقع قوي ، واخذ يعد نفسه للمواجهة في العاصمة . ولكن قبل المواجهة في العاصمة **انهى وجود المقاومة في اربد** ، الذي تقلص الى وجود في مخيم اربد فقط بعد ان نشرت قوات الملك وجودها في معظم انحاء المدينة . وفي ١٩٧١/٣/٢٦ شن النظام هجمته الكبيرة على مخيم اربد، وانهى المعركة لصالحه خلال يومين . وساق من اعتقلهم من افراد المقاومة الـــى زنازين العبدلي وبركسات معتقل الجفر الصحراوي .

كانت ضربة اربد مؤشرا على ان الضربة القادمة ستكون في العاصمة ، فلم يبق من وجود مسلح للمقاومة في المدن الا في عمان ، فمتى تكون الضربة ؟

لم ينتظر الملك طويلا ، بل انتقل مباشرة الى طرح وجود المقاومة في العاصمـــة بعد ان انهى وجودها في اربد ، وطالب بسحب كل المقاتلين وافراد الميليشيا من عمان، وبانهاء كل وجود مسلح للمقاومة في العاصمة ، مقابل ذلك فانه سيصدر عفوا عاما ، وسيحافظ على سلاح الميليشيا المجمع في اماكنه في الاحياء تحت حراسة الامن العـــام الاردني .

واذكر تلك الايام القليلة ما قبل الانسحاب من عمان ، كان « النظام » يســـرب

معلومات من انه سيقوم باقتحام عمان وقصف قواعد المقاومة في الاحراج اذا لم تنسحب المقاومة من العاصمة « بسلام » ولقد اكد الملك تهديدات كهذه في لقائه مع وفد من التجمع المهني في الاردن . وكانت المعلومات دقيقة وكثيفة لدرجة تأكدنا ان تسربها مقصود للتأثير على الموقف السياسي للمقاومة .

كانت جماهير المخيمات تتابع اخبار الهجوم الملكي على اربد بكل الم ، ولما تحركت الجماهير النسائية في عمان بتظاهرة يوم ٣/٢٨ احتجاجا واستنكارا على ما يجري في اربد ، لم تتورع القوات الملكية عن اطلاق الرصاص على المتظاهرات . اما قيادات المقاومة فكانت تعيش اجواء الانسحاب من عمان .

في ١٩٧١/٤/٢ ، جرى اجتماع للجنة المركزية لحركة المقاومة في مقرها في جبل اللويبدة لمناقشة الوضع واتخاذ القرار المناسب ، وكان قبل هذا الاجتماع ، قد جرى لقاء بين مندوبين من اللجنة المركزية والحكومة الاردنية بحضور وصفي التل ، الذي قدم مسودة اتفاقية جديدة لانسحاب المقاومة من عمان مقابل اصدار العفو العام . لم يتخذ قرار واضح في هذا الاجتماع — اجتماع اللجنة المركزية — واكتفي بالتأكيد على الاستنفار العام للمقاومة للرد على اي تحرك للنظام الاردني لاقتحام عمان ، مع رفض اي فكرة لعقد اي اتفاق جديد بين المقاومة و « النظام » . وصباح ٤/٤ عقدت اللجنة المركزية اجتماعا اخر ، وقدم « البعض » مشروع اصدار بيان من المقاومة يشير الى تعهد المقاومة بسحب ما تبقى لديها من سلاح ثقيل في عمان حقنا للدماء ، وتحميل النظام الاردني مسؤولية وضع البلد على ابواب ايلول جديدة . وشرح اصحاب المشروع وجهة نظرهم بانه يجب تجنب خوض الصراع مع « النظام » في اضعف حلقة بالنسبة للمقاومة ، حيث ان امكانية المواجهة في عمان محدودة وضعيفة، في حين ان بالامكان المواجهة عبر القيام بعمليات عسكرية من قواعد المقاومة في الاحراج وفي سوريا . كان واضحا ان الجو المسيطر هو جو انسحاب ، بدليل انه في ٤/٣ اي في اليوم السابق للاجتماع شوهدت شاحنات تقل عناصر باسلحتها تابعة لتنظيمين من تنظيمات المقاومة ، تنطلق من امام اللجنة المركزية في طريقها الى الاحراج . وللحقيقة فان جميع تنظيمات المقاومة كانت مع الاتجاه العام للبيان باستثناء مندوب الجبهة الشعبية الذي تحفظ على اصدار البيان ، وباستثناء الجبهة الشعبية — القيادة العامة التي غاب مندوبها عن الاجتماع . وربما يدين البعض وينتقد فكرة الانسحاب من عمان بهذه الطريقة ، ولكن الادانة ، حتى تأخذ مداها وتعبر عن الحقيقة ، يجب ان تشمل ادانة كل السياسات التي قادت الى مثل هذه النتيجة . فالذين كانوا يتصورون ان الانسحاب من عمان لن يؤدي الى اخراج المقاومة كليا من الاردن ، وكانوا يدعون ان الانتقال الى الاحراج سيكون مفيدا ، لانه يتيح لكثيرين التدريب العسكري الجيد في الاحراج ، اضافة الى انه يكشف « النظام » امام الجماهير العربية والحكومات العربية ، ان هؤلاء يتحملون القسط الاكبر في مسؤولية ما انتهت اليه المقاومة في الاردن . واذكر قول احدهم : « انه ليس بثائر من لا يستطيع اخفاء بندقية » ! !

لقد كان انسحاب المقاومة من عمان ، الفصل ما قبل الاخير في مسلسل اخراج المقاومة من الاردن ، وكان المحطة الرئيسية في سيطرة اجواء القمع الاردنية على جماهيرنا في الاردن . واذكر انه مساء الرابع من نيسان « ابريل » ١٩٧١ ، كنت واقفا وبعض الرفاق نشاهد المنظر الكئيب لقافلة الشاحنات التي انطلقت من امام اللجنة المركزية وهي تقل المقاتلين باسلحتهم الى الاحراج . الامهات والاطفال كن على جانبي الطريق يبكين ويصرخن : كيف ستتركونا . وبعض المقاتلين كان يسيطر على

الوضع باطلاق زخات من الرصاص في الهواء . وفي لحظة من الشعور بالاسى همست في اذن الرفيق الذي يقف الى جانبي : بربك كم تقدر ، يوما او شهرا ، حتى ترى هذه الجموع نفسها ولكن بسيارات اخرى ، وبوجوه غير هذه الوجوه ، تساق الى معتقل الجفر الصحراوي . « ربما لن يزيد الوقت عن شهرين او ثلاث على ابعد تقدير » . قالها الرفيق بأسى وهو يبلع ريقه من شدة التأثر .

[٤]

حدثني رفيقي القادم من الاحراج الى معتقل الجفر الصحراوي ، وهو يشـد بأصابعه على قدميه اللتين انتفختا من كثرة الضرب « لقد بدأت معركة الاحراج منذ أن انتهى « النظام » من السيطرة على عمان . فمنذ اواسط شهر نيسـان ١٩٧١ وقوات الملك تقصفنا بشدة ، ضيقت الحصار علينا ، منعت التموين عنا ، واقفلت جميع الطرق المؤدية الى مواقعنا في احراج جرش وعجلون . قصفوا مخيم غـزة بقسوة ، واوقعوا اصابات كثيرة فيه . وفي يوم ٧١/٧/١٣ بدأ الهجوم الشامل مـن اكثر من محور ، اقتحموا مخيم غزة وتقدموا باتجاه القزازه ، وبرما ، سيطروا على جبل الاقرع ، ثم تقدموا باتجاه دبين . كان ابو علي اياد بطلا ، فقد رفض ان يسلم ، وصمدت عجلون ، وصمد مقاتلون في اكثر من موقع .. ولكن .. تجمعنا في خشيبة ، وقالوا انهم سينقلونا الى مواقع جديدة ... لقد نقلونا الى المفرق ، ومن هناك ، سفر البعض الى سوريا ، واخذ البعض القليل الى زنازين المخابرات في العبدلـي ، والبقية الباقية ، سيقت الى هنا ، الى الجفر ... »

نظر الى السماء من بين اوراق شجرة الحور حيث كنا نجلس ، كانـت الشمس بحرارتها اللاهبة تكاد تحرق رمل الصحراء ، بقي لحظات ينظر الى قرص الشمس الذي يتوسط السماء الصافية الزرقاء ، ثم التفت الي وقال « الحقيقة تبقى ناصعة ، وتحرق احيانا كثيرة ، ونحن هنا لاننا جزء من الحقيقة ، ومهما قست رمال الصحـراء علينا ، فسنظل اكبر منها ، لان الحقيقة ستنتشر في النهاية . والحقيقة ، او جانب منها ، يا رفيقي ، ان سحر الصعود الى الجبل قتلنا ، لقد قتلنا عندما حاولنا ان نجذف خارج بحر الجماهير في المدن ، كان يجب ان لا نتساهل في الدفاع عن وجودنا العلني في المدن ، فاحراج جرش وعجلون ، ليست جبال سييرامايسترا ، انها بقعة ضيقة محاصرة ومعزولة ، ولا اعتقد يا رفيقي اننا سنكرر التجربة الاليمة » .

اللعب خارج المعادلة

ملاحظات على أساس البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

سميح سماره

قد يتوفر قول يؤكد انه في مثل هذا الظرف الذي تشن فيه قوى العدوان الثلاثي : الامبريالية ، الصهيونية ، وادواتهما العميلة في المنطقة هجمة بالغة الشراسة على الثورة الفلسطينية كطليعة نضالية لقوى حركة التحرر الوطني العربية بهدف تصفية نسفها ، لتمرير صيغ الترتيب و « التوضيب » الاستسلامي للمنطقة على جثتها .

وانه في مثل هذا الظرف الذي تندفع فيه هذه القوى العدوه لمحاولة تتل الساحة اللبنانية كنقطة استقطاب تاريخي للطموحات الجماهيرية العربية في الحرية والتقدم الاجتماعي والوحدة .

ومقابل ذلك حيث يشتد السعي الفلسطيني لتلبية الحاجة الموضوعية المتمثلة ببناء وصيانة وحدة وطنية فلسطينية راسخة بين فصائل الثورة لتاكيد استقلاليتها وصيانة جوهرها الصدامي .

في مثل هذا الظرف قد يبدو من المستهجن او من غير المستحب او من خارج الموضوع ان نتجه الى نشر خلافاتنا الداخلية على سطح النقاش العلني ، وخصوصا ان هذا من حيث المبدأ موقف لا يتسم بالصواب .

لكن ، حين لا يكون للامر علاقة مع مسألة الصواب والخطأ بنسبيتهما . وحين يكون هناك سعي حثيث من احد الاطراف الى محو العلامات الفاصلة بين الصواب والخطأ . اي تجاوز الدائرة التي يجوز خلالها الاختلاف ، الى دائرة اخرى تتلون بالوان اخرى .

اي ، وخصوصا ، حين يكون هناك سعي حثيث ايضا لمس مكونات الارضية التي تشكل انطلاقا منها النضال الوطني الفلسطيني المعاصر ، وسعي حثيث كذلك لمس سقف هذا النضال .

حينذاك تصبح معظم المحاذير غير واردة ، ويكون التصدي لمثل محاولات المس هذه واجبا نضاليا تفرضه معايير الالتزام بالثورة وميثاقها وبرنامجها .



لعل من اهم او محور ما افرزه الواقع الفلسطيني ــ العربي منذ اقرار البرنامج السياسي المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية في حزيران ١٩٧٤ هو القناعة التي بدأت تتشكل مؤخرا للثورة الفلسطينية بان مجريات الامور في العامين الماضيين قد دللت على ان تغييرا معينا قد طرأ على موازين القوى في ساحة الصراع العربي ــ الصهيوني

والامبريالي وهو التغيير الذي تبلور باعلان اتفاقية سيناء بين جمهورية مصر العربية وبين اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية ، وبالانحياز المعلن للنظام الحاكم في مصر الى الامبريالية الامريكية بعد ان قطع اخر خيط يربطه بالمعسكر الاشتراكي بالغائه لمعاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ، وبالانجذاب المطرد لهذا النظام الى دائرة القوى الرجعية العربية ، وهو الامر الذي انعكس على علاقة مصر مع القوى الوطنية والتقدمية محليا وعربيا ودوليا .

ثم جاءت الحرب الاهلية اللبنانية لكي تثبت انعكاسا اخر لمثل هذا التغير ، نـراه هذه اللحظة في طبيعة التحالفات الجديدة في الساحة اللبنانية التي تؤكد مسألة رئيسية بالغة الاهمية هي ان القوى الاجتماعية الحاكمة في بعض الاقطار العربية المتقدمة تحكمها اولا طبيعتها الوسطية ، الاصلاحية التي لن تفرز غير سياسات وتحالفات من هذا النمط ، مما يعني ان اية مراهنة على مشاريع مرحلية تعتمد بشكل اساسي على مثل هذه التحالفات مع مثل هذه القوى ، هي مراهنة خاطئة بالضرورة ، ومما يعني كذلك ان اية محاولة لقلب الواقع وايقافه على راسه وذلك باعتبار مسألة التحالف والعامل الموضوعي الذي خلقته حرب تشرين الوطنية ، سابقة على مسألة العامل الذاتي والحجم الذاتي في التأثير على فرض البرامج ايا كانت ، هي محاولة خاطئة ولا تستند الى الواقع ، خصوصا بعد ان وضح ان كل طرف قد سعى لحياكة « ثوب تشرين » على مقاسه ، وجلسوا بانتظار الطرف الفلسطيني الذي سيرتدي الاثواب الجاهزة .

ولقد اظهرت الفترة منذ الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني حتى الان انه رغم ان الثورة الفلسطينيةقد استطاعت فعلا عبر انتصاراتها العسكرية والسياسية والديبلوماسية ، وعبر زج قطاعات اوسع من جماهير شعبنا في الوطن المحتل ضمن اطر « الجبهة الوطنية الفلسطينية » والمشاركة الواسعة للجماهير الفلسطينية في التصدي للاحتلال وللوصاية الهاشمية ورفع راية منظمة التحرير في كل مكان ، وكذلك عبر تمتين العلاقة مع القوى الصديقة والحليفة لشعبنا وقضيته ، استطاعت الثورة ان « تحدث تغييرا ملموسا في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله » كما اكد البرنامج المرحلي .

رغم ذلك ، فان الفترة نفسها قد ابرزت ايضا اختلالا واضحا في ميزان القوى على الصعيد العربي ، وذلك بعد ان كشفت البرجوازية الصغيرة العربية عن حدودها وامكانياتها في عملية التصدي للهجمة الامبريالية ــ الصهيونية ــ الرجعية .

هذا الواقع ذاته هو الذي دعا الثورة الفلسطينية الى ان تعلن عبر الصحيفة المركزية لها انها بصدد وضع برنامج جديد ، انطلاقا من اننا « نقف على ابواب مرحلة جديدة من النضال » . وهو برنامج ينسجم مع كل البرامج السابقة « ومن ضمنها برنامج النقاط العشر » مع الاخذ في الاعتبار « كل المتغيرات التي وقعت على مستوى الساحة الفلسطينية والعربية والدولية خلال الفترة التي اعقبت حرب تشرين ١٩٧٣ » والاخذ في الاعتبار ايضا ان يأتي « البرنامج الجديد كوسيلة اساسية لترسيخ وحدة كافة فصائل المقاومة ، والقوى الفلسطينية العاملة (...) بعيدا عن كل اشكال الانتهازية والعصبية التنظيمية البغيضة » « فلسطين الثورة » العدد ١٨٠ .

ويبدو ان نفس هذا الواقع ، مع الاختلاف في طريقة النظر اليه ، هو الذي دعا الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الى الاعلان عن برنامجها السياسي الذي اعتبره

امينها العام الاخ نايف حواتمة في مؤتمره الصحفي برنامج الثورة الفلسطينية بكل فصائلها !

اذن . فنحن نقف على ابواب مرحلة جديدة ، وعلى ابواب دورة جديدة للمجلس الوطني الفلسطيني (كما تؤكد ذلك « فلسطين الثورة » في عددها ١٨٠) ، مما يقتضي بالضرورة برنامجاً جديداً يراعي التحولات الجديدة التي نشأت بين دورتي المجلس .

وهكذا بادرت الجبهة الديمقراطية الى طرح برنامجها . ونحن مدعوون اذن لمناقشة هذا البرنامج الذي هو « برنامج الثورة الفلسطينية » مع ما يحمل ذلك من عسف ، على اعتبار انه لم تجر اية مناقشة لهذا البرنامج قبل الاعلان عنه !

ولكن قبل ان نحدد موقفنا من الركائز الاساسية التي قام عليها برنامج الجبهة الديمقراطية يجدر بنا ان نتوقف عند الملامح العامة للمرحلة الراهنة وعلاقة ذلك مع الافق السياسي العربي بشكل عام .

هناك شبه اتفاق في الساحة الفلسطينية على ان مرحلة جديدة من الصراع في الساحة العربية قد بدأت ملامحها في التشكل ، وذلك في ظل :

● ● توقيع اتفاقية سيناء والانفتاح السياسي ــ الاجتماعي ــ الاقتصادي المصري على الامبريالية .

● ● ازدياد نفوذ قوى الرجعية العربية .

● ● تمكن النظام الهاشمي من الخروج من عزلته عبر تحالفاته الجديدة !

● ● تشديد الهجمة الانعزالية في لبنان من خلال التحالف والدعم الكاملين مع الامبريالية والصهيونية وقوى عربية مختلفة بهدف تصفية او تحجيم الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية .

● ● ازدياد عزلة بعض الانظمة العربية المتقدمة ، وغرق او اغراق انظمة اخرى بالقضايا الجانبية .

● ● ازدياد النفوذ الامبريالي الامريكي في المنطقة العربية ، مع ما يلازمه من انحسار لحضور القوى الاشتراكية الصديقة .

وفي المقابل هناك :

● ● انتزاع الثورة الفلسطينية لعدد هائل من الانتصارات على مختلف الاصعدة .

● ● تثبيت انعطافة بالغة الاهمية في مجرى حركة التحرر الوطني العربية كما برز ذلك في التلاحم الوطني الفلسطيني ــ اللبناني في مواجهة المؤامرة التي تمكن هذا التلاحم من صدها وافشالها طيلة عام كامل من القتال الضاري .

وهكذا. وفي ظل الملامح والمؤشرات، فالى اين تتجه رياح المرحلة المقبلة ؟ من حيث ان مسألة الصراع العربي ــ الصهيوني والامبريالي هي محور هذه المرحلة وكل مرحلة في الزمن المنظور ، وفي ظل الاختلال الكبير في موازين القوى لصالح القوى المساومة وحلفائها الدوليين ، وكذلك في ظل المكاسب والانجازات التي تمكنت الثورة الفلسطينية من احرازها ، فما هي طبيعة البرامج السياسية التي يمكن للثورة الفلسطينية ان

تطرحها او نأخذ بها والتي تضمن تأكيد وتثبيت انتصاراتها ، وتفتح الباب كذلك للنضال من اجل احراز انتصارات جديدة على طريق تحقيق الاهداف الاساسية للثورة والشعب ؟

الامر الذي اصبح واضحا هو انه اذا كان البرنامج السياسي المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية قد جاء كنتيجة منطقية لحرب تشرين الوطنية وذلك من حيث تحديده للحلقة المركزية في هذه المرحلة من النضال الوطني الفلسطيني ، وهي الحلقة القائمة على الكفاح من اجل اقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها . اذا كان ذلك ، فالامر الذي اصبح واضحا هو ان شركاء حرب تشرين الوطنية قد ساروا باتجاهات اخرى لا تلتقي على الاطلاق مع خصائص هذه السلطة التي يعد النضال من اجل تحقيقها هدفا مشروعا .

اي ان الذي اثبتته المرحلة الماضية هو ان تعارضا وتناقضا حادا قد ظهر بين فهم شركاء حرب تشرين للسلطة الوطنية الفلسطينية في الاراضي التي يتم تحريرها وبين الفهم الفلسطيني لهذه السلطة ، مما يعني تبعا لذلك ان اي برامج جديدة تحمل مثل تلك الخصائص ، انطلاقا من الحلقة المركزية ذاتها للمرحلة ذاتها وعبر التحالفات العربية ذاتها ، سوف لن تخرج باي حال عن مثل هذه الاتجاهات الجديدة التي سار عليها شركاء حرب تشرين ، مما يؤدي بالضرورة الى السقوط في تسويات التحالف مع الامبريالية الامريكية والعدو الصهيوني .

وقد كانت النقطة العاشرة من برنامج النقاط العشر قد نصت : انه « على ضوء هذا البرنامج تضع قيادة الثورة التكتيك الذي يخدم ويمكن من تحقيق هذه الاهداف » وبالفعل فقد وضعت قيادة الثورة تكتيكها الذي استطاع ان يخدم وان يحقق عددا كبيرا من الانجازات ؛ لكن النتيجة الرئيسية التي فرضت نفسها في نهاية هذه المرحلة كلها ، وبعد ان افترق شركاء حرب تشرين كل الى فهمه الخاص لطبيعة المرحلة ، ان هذه الطبيعة ذاتها وموازين القوى فيها لن تؤدي بالتأكيد الى اي شكل من اشكال « سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة » التي نص عليها البرنامج المرحلي .

من هنا اذن برزت الدعوة الى المرحلة الجديدة التي نشاهد ملامحها في الافق ، والى البرنامج الجديد المتناسب مع هذه الملامح . ومن هنا تصبح العودة الى الينابيع الاولى اي الى الميثاق الوطني الفلسطيني للاسترشاد ببنوده والخروج من ذلك بالبرنامج الجديد ، هو الامر المنطقي الوحيد .

ومن هنا كذلك تصبح الدعوة الى :

- تصليب وتأكيد الخط الاستراتيجي للثورة الفلسطينية .
- ترسيخ الوحدة الوطنية الفلسطينية والارتقاء بها لمواجهة الهجمة الحالية والمستمرة .
- تأكيد التحالف مع قوى حركة التحرر الوطني العربية وجماهيرها .
- تثبيت التحالف مع حركة التحرر العالمية والقوى الاشتراكية والديمقراطية .
- الدفاع عن الساحة اللبنانية كقاعدة انطلاق للثورة .

تصبح الدعوة الى فرض هذا الاتجاه البرنامجي ، وفي ظل الظروف الراهنة ، هي الدعوة الاكثر منطقية ، والاكثر انسجاما مع الظرف الموضوعي وميزان القوى الحالي.

ولكن . وفي ضوء كل ما سبق ، ماذا طرحت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في برنامجها الذي اكدت على انه برنامج المرحلة القادمة ؟ ؟

الجبهة والبرنامج :

يهمنا ان نؤكد بدءا على المركز المهم الذي شغلته الجبهة الديمقراطية ضمن اطار منظمة التحرير الفلسطينية ، في العامين الماضيين بشكل خاص . وذلك عبر المشاركة النضالية السياسية والعسكرية والجماهيرية الفاعلة للجبهة سواء في الوطن الفلسطيني او في التصدي للهجمات والمؤامرات التي شنتها القوى العدوة للثورة والجماهير خارج الوطن . ويهمنا ان نؤكد على ملمح بارز ميز هذه المشاركة النضالية وهو قدرة الجبهة الديمقراطية على توظيف هذه النضالات لصالح البرنامج السياسي المرحلي الذي وضعته الثورة الفلسطينية .

وفي الواقع انه منذ تكوين الجبهة في ٢٢ شباط ١٩٦٩ (وقد مرت ذكراها التأسيسية السابعة مؤخرا) فقد استطاعت ان تقدم اضافة مهمة الى النضال الفلسطيني مما اهلها ان تشغل مثل هذا المركز . وبصرف النظر عن التأكيد الدائم والمستمر من طرف الجبهة على انها تمثل « يسار الثورة الفلسطينية المستقل ايديولوجيا وسياسيا وتنظيميا وعسكريا » (! !) وبصرف النظر كذلك عن مدى علاقة الشعارات التي تطرحها وتتبناها الجبهة مع الواقع الملموس ، وبصرف النظر كذلك عن مدى علاقة الموقف المبدئي للجبهة مع التكتيك السياسي الذي تنتهجه في علاقاتها الفلسطينية والعربية والدولية . وبصرف النظر رابعا عن اعتناق الجبهة للمركزية الديمقراطية كمبدأ تنظيمي يقود الى توفير وحدة الارادة ووحدة الفكر ، ثم عن ترجمة ذلك الى الواقع اليومي للعلاقات الداخلية للجبهة .

بصرف النظر عن كل ذلك فاننا نستطيع ان نتوقف دائما عند مجموع المبادرات التي قدمتها الجبهة الديمقراطية على كافة المستويات لتطوير اوضاع الثورة الفلسطينية وتعزيز علاقاتها مع حركة التحرر الوطني العربية ومع البلدان الاشتراكية .

من هنا فاننا لا يجب ان ننسى ان الجبهة كانت وراء الدعوة الى مرحلة النضال الفلسطيني وتحديد الحلقة المركزية في مهمات الثورة . بما في هذه الدعوة من اهمية وتأثير حيث انها تفتح الباب امام هذه المرحلة من نضالنا للخروج من التعميم والخطوط العريضة واللابرمجة وسيطرة الحماس الجماهيري غير المنظم . وكان ذلك قد شكل في احدى الفترات حاجة موضوعية للثورة لكي تتمكن من مواجهة ما يستجد منمؤامرات خصوصا بعد مجزرة ايلول ١٩٧٠ ، وقد جاءت الجبهة الديمقراطية لكي تلتقط مثل هذه الحاجة وتلبيها وتعبر عنها .

ورغم ان الشعارات التي اطلقتها وتطلقها الجبهة والتي تعد استتباعا لمثل هذا التعبير كانت او كادت تؤدي الى توريط الثورة الفلسطينية في المواقع غير المألوفة ، الا ان مثل هذه الدعوة قد شكلت مساهمة ملموسة واضافة مهمة الى النضال الفلسطيني .

ومع ان البعض يعترض بان جميع ما قدمته الجبهة قد اقتصر في الواقع على هذه المساهمة لا اكثر ، الا انه من الصعب اعتبار ذلك صحيحا . اذ رغم العلاقة البراجماتية القائمة بين العمل العسكري للجبهة ، وخاصة في العامين الماضيين ، وبين محور البرنامج المرحلي ، غير ان مثل هذا العمل العسكري وعمليات احتلال مواقع ومنشآت

العدو في الاراضي المحتلة (رغم ملابسات ذلك) ، والمردود الاعلامي والجماهيري لمثل هذه العمليات ، قد شكل بالفعل مساهمة ملموسة .

لكن التضخيم والتعسف السياسي والايديولوجي الذي يصاب به غالبا التنظيـــــر السياسي للجبهة الديمقراطية ، مصدره في تقديرنا ، خاصة محددة تتسم بها التنظيمات الصغيرة ، ولا نريد ان نقول تنظيمات البرجوازية الصغيرة . وهي الخاصة التي تتكفل بالخلط بين الطموح وبين الواقع او الممكن ، او بالخلط بين الافق الاستراتيجي وبـــين الصياغة الراهنة لبنوده في ظل التوازن القائم ، فيجيء طرح الشعار الذي قد يكـــون صحيحا من حيث المبدأ مصحوبا بوهم مضخم بان ترجمته الى الواقع العملي هي مسألة مطروحة وراهنة . وحيث ان مثل هذا الشعار يكون في الغالب من خارج السيـــاق وخارج النطاق العملي الا انه يجري الدعوة اليه والتحريض لتحقيقه دون اي مراعاة للظرف الذاتي والامكانيات الذاتية والظرف الموضوعي (احدهم كان ينتظر ، ولو مـــن باب المبالغة والتجريح ، ان تطرح الجبهة الديمقراطية مسألة الاستيلاء على السلطة في لبنان ، او طرح شعار « لا سلطة فوق سلطة المقاومة ») ثم هناك خاصة اخرى يتميز بها في الغالب الطرح السياسي والايديولوجي للجبهة الديمقراطية ، وهي ما يمكن ان يسمى بـ « شوق تجاوز القائم » او الحرص على الاتسام بالطليعية ، مع ما يصاحـــب هذه الخاصة من نظرة تقترب من الشفقة والتعالي غير المبرر وغير الموضوعي الى بقية الفصائل في الساحة الفلسطينية ، وما يلازم ذلك من هجمات تتسم بالعنف والحدة حتى حدود الشتائم المنظرة !! لجميع التنظيمات الاخرى ، بحيث يتنافى ذلك تماما مـــع الدعوات المتكررة من طرف الجبهة الى تشكيل الجبهة الوطنية الفلسطينية الموحدة . ويخيل لمن يقرأ ادبيات الجبهة وبرامجها السياسية منذ ٢٢ شباط ١٩٦٩ حتى الان ان القناعة الاساسية للجبهة الديمقراطية ، مبعث كل تنظير هي ان احدا لا يستحق ان يعيش في الساحة الفلسطينية غيرها ، وان كان لا بد من ذلك ، فتحت ابطها لا اكثر !!

اما كيف يحدث ذلك ، ولماذا يحدث ذلك ، فانه من الافضل هنا ان يتم الرجوع الى الادب الماركسي الكلاسيكي والحديث في تعريفه لتنظيمات البرجوازية الصغيرة التي لا تتعب من التأكيد ، بمناسبة وبدون مناسبة ، انها وحدها الحزب الجماهيري ، ووحدها الحزب الثوري البروليتاري الذي يشكل اداة الثورة الخلاقة القادرة على تعبئة الجماهير وتنظيمها والزج بها في اتون حرب لا تنتهي الا بتحقيق النصر .

اي نريد ان نخلص من ذلك الى القول : كما ان مثل هذا « الوهم التجاوزي » بمـــا يشمل من تضخيم غير معقول لحجم الجبهة الديمقراطية السياسي والعسكـــــري والايديولوجي ، والذي يكاد يسيطر على البنية التنظيمية الداخلية للجبهة ، هو الـــذي كان يقف خلف معظم الشعارات التي اتصفت احيانا بالخرق ، فان هذا الوهم هـــو نفسه الذي يقف الان وراء البرنامج الجديد الذي تطرحه الجبهة الديمقراطية للثـــورة الفلسطينية . فماذا يقول البرنامج ؟

البرنامج :

في البدء لا بد من الاشارة الى نقطة بالغة الاهمية في تقديرنا تتكفل بتفسير الكثير من بعض نقاط البرنامج الغامضة او المتعارضة . اذ في الوقت الذي جرت فيه المصادقة على مشروع البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في الربع الاخير من عام ١٩٧٥ ، جرت ايضا ، وبنفس الوقت ، المصادقة على مشروع النظام الداخلي للجبهة الديمقراطية « كما عدله واقره الاجتماع الموسع للجنة المركزية » .

وفي هذا الاخير تحديد واضح للوضع التنظيمي الذي يشتمل الجبهة ، وذلك من حيث اعتبار الجبهة لنفسها بانها « منظمة ديمقراطية ثورية موحدة تسير على طريق التحول الى حزب ماركسي — لينيني يمثل الفصيلة الطليعية من الطبقة العاملة وسائر الكادحين » النظام الداخلي ص ٥ .

ونحن اذا راعينا الربط بين هذا التحديد وبين تحديد الامين العام للجبهة لمهماتها او اطر مهماتها القادمة كما شرحها في مقابلة له مع «عدد من الصحفيين العرب التقدميين» واعادت مجلة « الحرية » نشرها في العدد ٧٦١ ، لشكل ذلك اضواء اخرى تكشف بعض الجوانب والزوايا غير الواضحة لمشروع برنامج الجبهة السياسي .

فالاخ نايف حواتمة يؤكد في مقابلته انه « اذا كان دور بعض الفرق الوطنيه يتوقف عند حدود انجاز مهام التحرر الوطني فدور الجبهة الديمقراطية متواصل ويمتد الى مرحلة انجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية على ارض فلسطين المحررة بعد تحرير الوطن والمهام اللاحقة لصنع مستقبل فلسطين الاشتراكي لجميع ابناء الشعب الذين رووا بالدماء والالام تراب الوطن . وفي اطار الوحدة القومية للوطن العربي تحت رايات الديمقراطية والاشتراكية والسلام » .

اذن . وكما هو واضح ، ففي افق الاراضي الفلسطينية التي يتم تحريرها ، او افق السلطة الوطنية الفلسطينية نقطتان مركزيتان : وجود حزب ماركسي — لينيني (شيوعي) نواته الحالية الجبهة الديمقراطية . وبرنامج عمل لهذا الحزب مهامه هي مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ، وقراءة سريعة لبنود هذا البرنامج تؤكد ان هذا الحزب (الذي ما زال طموح الجبهة الديمقراطية) سوف يشغل موقع حزب المعارضة ضمن اطر النظام السياسي الذي سيقوم في هذه الارض التي سيتم تحريرها .

هذه نقطة محورية تمنعنا من الغرق في التفصيلات المجزوءة عند استعراضنا ومناقشتنا لمثل هذا البرنامج .

وفي الواقع ليس هناك اعتراض ما على مثل هذا الطموح للجبهة الديمقراطية ، فهي مسألة تتعلق بها اولا وبالظروف المتاحة ، لكن الاعتراض ، وبشكل محدد هو حول نقطتين :

١ — ان يجري القفز السريع عن الزمن وعن الواقع ، وان يجري الافتراض بشكل متعسف وغريب ان الارض الفلسطينية قد اصبحت محررة فعلا ، وان السلطة الوطنية قد قامت فعلا ، وان الامر الوحيد المطلوب هو برمجة النضالات والعمل داخل اطر هذه السلطة التي اصبحت قائمة وراهنة ! ! ؟

اذ حتى لو اصبحنا على ابواب القدس ، فهل الامر الوحيد الذي ينقصنا هو كيف يمكن ان نحسن حياة الجماهير ؟ ! فمشروع برنامج الجبهة الديمقراطية هو برنامج حزب ما ، اي حزب ، ولنقل شيوعي او غيره ، في ظل نظام قائم ليس هناك من تناقضات رئيسية معه غير التناقضات الاجتماعية التي تقدم الجبهة الديمقراطية برنامج عمل التغلب عليها وكأن « مهام التحرر الوطني » التي يتحدث عنها الرفيق حواتمة قد تم انجازها فعلا ، ونحن فقط الذين لا نرى ذلك !

٢ — اما النقطة الخطيرة التي تفتح الباب ليس للتعارض فقط مع الجبهة وبرنامجها بل ايضا للتناقض الرأسي معها ، فهي المتعلقة بامر التخلي الواضح عن ارضية النضال الوطني الفلسطيني التي يعبر عنها الميثاق الوطني الذي لا يجوز ومن الخطأ الفادح ان

لم نقل اكثر ، الخروج عن تحديداته الواضحة لطبيعة صراعنا مع العدو الصهيوني والامبريالية .

ان الموقف من الصهيونية كحركة عنصرية من خلق البرجوازية التجارية الاوروبيـة لتطويع اقطار الوطن العربي وتسهيل السيطرة الاستعمارية عليها . وان الموقف مـن الاستعمار الاستيطاني لبلادنا فلسطين ــ والموقف من التجمعات اليهودية في فلسطين ، والموقف من الاعتراف بمثل هذا الكيان العنصري الصهيوني ، ثم ان الموقف من النظام الهاشمي في الاردن وطبيعة تناقضنا معه . هذه المواقف جميعها هي التي تمثل الاساس الاستراتيجي للثورة الفلسطينية والتي حدد الموقف الواضح منها والذي لا يحمل اي التباس الميثاق الوطني والمجالس الوطنية الاثنا عشر . لذا فان اي خروج عن هـذه التحديدات وهذه المواقف الواضحة هو مس بالاساس الاستراتيجي للثورة الفلسطينية لم يجرؤ عليه احد حتى الان ، ليس لانه « التابو » المقدس بل لانه الموقف الاستراتيجي الصحيح من عدونا القومي وتناقضنا الرئيسي معه ، لذا فاننا نلاحظ الان (ونحن الان خارج دائرة الاتهام الضيقة الافق) تخليا ملموسا من جانب مشروع البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية ، وان كان قد غلف بطبقة سميكة من التنظير « الثوري » ، فـان هذا يدفعنا لكي نقف وبصوت مرتفع جدا ، ضد مثل هذا التخلي الخطير .

فماذا تضمن البرنامج ؟

(١) المسالة اليهودية والموقف منها :

لم يحدث على الاطلاق ، ومنذ كتاب « المسألة اليهودية » لماركس الذي اعتبر اول تحديد علمي لطبيعة ومستقبل التجمعات اليهودية في اوروبا ، واول موقف علمي مـن مسالة اضطهادهم على يد الراسمالية الاوروبية ، وحتى الان ، وحتى عنـد اغلب المنظرين البرجوازيين ان وافق احدهم على وصف هذه التجمعات اليهودية او وضـع هذه التجمعات ضمن اطار قومي يهودي يستتبع الاعتراف بحق هذه « الامة » في تقرير مصيرها .

وقد كان واضحا منذ البدء ، وما زال ، ان الايديولوجية الصهيونية التي جرى بعثها على يد البرجوازية اليهودية الصغيرة بدفع ودعم كاملين من البرجوازية الاوروبيـة لم تكن الا انعكاسا للواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي يحيا يهود اوروبا ضمن اطاره، وان هذه الايديولوجية لم تكن الا انعكاسا مشوها لمصالح هذه البرجوازية اليهوديـة الصغيرة المختنقة بين الاقطاع الاوروبي المنهار وبين الراسمالية الاوروبية الاخذة فـي الانحطاط ، وذلك بدليل ان اللاسامية او الاضطهاد اليهودي الذي هو ليس الا افرازا للمجتمع الطبقي الراسمالي الاوروبي كان اداة التحريض الافضل وشبه الوحيدة التي استخدمتها الصهيونية لتحقيق الهجرة اليهودية الى فلسطين .

ومنذ بدء العمل على تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني ـ الاستعماري فـي فلسطين في اوائل القرن التاسع عشر كان واضحا لدى الاستعمار البريطاني والفرنسي ان فرض الاطار القومي اليهودي وتوطينه في فلسطين ليس الا سعيا من جانب هـذه البرجوازية الاوروبية التجارية الباحثة عن اسواق جديدة وعن مواد خام جديـدة ، لاقامة « دولة مستقلة في سوريا وفلسطين بشكل خاص تحت السيطرة الاوروبية يقوم اليهود باستيطانها بكثافة بحيث تنشأ دولة يهودية تقوم بدور العازل بين السلطـة العثمانية ومصر » مما كان من شأنه ان يعزز النفوذ البريطاني ، كما يوضح ذلك اللورد شافتسبوري . هذا بالاضافة الى حل الازمة الداخلية للبرجوازية الاوروبية امام نضوج

الوعي الجماهيري العمالي في اوروبا ضد هذه الطبقة وسلطتها ، فجرى استخدام تلك التجمعات اليهودية المضطهدة ، التي فقدت موقعها الاقتصادي منذ بدء تطور البرجوازية التجارية الاوروبية ، وتطور القوى المنتجة ، ووفرة الفائض الانتاجي، وجرى استخدام ذاك التعلق اليهودي الاسطوري بالارض الفلسطينية (كما هو تعلق المسلمين بالكعبة كما يقول الماركسي اليهودي اسحق دويتشر) الذي هو بحد ذاته ليس الا انعكاسا للظروف الاضطهادية التي كانت تعيشها الجماهير اليهودية في مجتمعات التحكم البرجوازي . وجرى استغلال « بقايا العنصر اليهودي التعس » كما يسميه دويتشر ، من قبل البرجوازيات النهمة .

وفي الاساس ، ان عملية طرد اليهود واضطهادهم من المجتمع الراسمالي ، وتطور الراسمالية المعاصرة ذاتها لم تبدأ الا بعد انتهاء تشكيل القوميات ، وبعد ان ضاقت القوى المنتجة ذرعا بالحدود القومية ، وقد تراغق القضاء على اليهود واليهودية مع انحطاط الراسمالية ودخولها مرحلة الاستعمار (اعلى مراحلها) .

وكما يقول ابراهام ليون : « عوضا عن ان تكون الصهيونية نتيجة لتطور القوى المنتجة (كما هو الحال لدى كل التشكيلات القومية المعاصرة) فقد جاءت نتيجة لتوقف هذا التطور وتجمد النظام الراسمالي . وبينما نرى ان الحركة القومية هي نتيجة مرحلة الراسمالية الصاعدة نرى بان الصهيونية هي ثمرة عصر الامبريالية . وما المأساة اليهودية التي استغلت استغلالا كاملا من الراسمالية الاوروبية الا النتيجة المباشرة لانحطاط الراسمالية » — المفهوم المادي للمسألة اليهودية — . لكن . لماذا نورد مثل هذا التحديد المكثف « للمسألة اليهودية » و « القومية اليهودية » ؟ ان هذه المقدمة ، وهذا التحديد الواضح لاصول « المسألة اليهودية » وكيفية نشوءها وتوضيح المبررات الحقيقية لزرع مثل هذا الكيان الصهيوني العنصري في بلادنا ، قد جساء بالتحديد للرد على الفقرتين أ و ب من الفصل الثاني للبرنامج السياسي الذي طرحته الجبهة الديمقراطية . هذا مع ان الدهشة والاستغراب الكاملين ما زالت تحكمنا بسبب اضطرارنا الى مناقشة فصيل فلسطيني « ماركسي — لينيني » في مثل هذه المسألة التي عف عنها الجدل ! !

تحدد الفقرة « أ » التي تقع تحت عنوان « السمة الوطنية الديمقراطية لثورتنا » (ص ٣٠ من البرنامج) المهمة الاستراتيجية للثورة الفلسطينية «في انجاز حل ديمقراطي جذري للمسألة الوطنية للشعب الفلسطيني » . ما هي هذه المسألة ؟ « هي في جوهرها مسألة التبديد القومي (. . .) بسبب من الغزو الاستيطاني الصهيوني (. . .) واقامة دولة اسرائيل كدولة يهودية **مغلقة** (التشديد مني) تعتبر نفسها وطنا لجميع يهود العالم على الارض الفلسطينية » « ان هذا التبديد القومي يقود الى نشوب **تناقض قومي** محتدم بين الصهيونية وتجسيدها السياسي (اسرائيل) وبين الشعب الفلسطيني (والتشديد مني ايضا) .

والخلاص من هذا التبديد القومي « يتوقف على النجاح اولا في انجاز حل جذري لهذا **الصراع القومي** بازالة اسبابه الجوهرية المتمثلة في مصادرة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني على ايدي الدولة الصهيونية اساسا » ، هذا للوصول الى مستقبل فلسطين الاشتراكي .

اذن فهذه الفقرة تتضمن :

١ — الاعتراض من جانب « الديمقراطية » على انغلاق « الدولة اليهودية » ، وهـ

اعتراض يحمل مطالبة بانفتاح هذه « الدولة » على الجماهير والاقطار العربية كخطوة اولى لحل « التناقض القومي » بينهما !!

(٢) الاعتراف « بالتناقض القومي » يتضمن اعترافا واضحا بكيان قومي يهودي في فلسطين يعتبر الصهيونية « وتجسيدها السياسي » معبران عنه ! !

٣ ـ هذا « التناقض القومي » فجر « صراعا قوميا » تبرعت الجبهة الديمقراطية دونما تكليف بايجاد « حل جذري » له يراعي مصالح القوميتين المتصارعتين ، وذلك بان تتفضل « القومية اليهودية » وتسمح بالتخلي عن « مصادرة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني » !!

وتحمل الفقرة « ب » ما تطلق عليه الجبهة الديمقراطية « الحل الجذري للمسألة الوطنية » وهو الحل الذي يتكون من الاربعة بنود الرئيسية التالية :

١ ـ انجاز الاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني (وسنوضح في الصفحات القادمة السبل التي تراها الديمقراطية لتحقيق هذا الانجاز)

٢ ـ اقامة دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين (اي تواجد القوميتين المتصارعتين في اطار سياسي واحد) .

٣ ـ اعلان المساواة القومية الكاملة بعيدا عن اي اضطهاد او تمييز قومي اوعنصري او ديني .

٤ ـ الارتباط بعلاقات وحدوية مع سائر اقطار الوطن العربي .

كيف يمكن التوصل الى مثل هذا « الحل الجذري » ؟

ان هذا يتطلب ، في تقدير الجبهة ، سلسلة من التدابير (لا اكثر) السياسية الملموسة ، وتتمثل في :

١ ـ فرض الاعتراف العملي بالوجود الوطني المستقل للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره بحرية في اطار دولة وطنية مستقلة .

٢ ـ اقرار حق جميع اللاجئين الفلسطينيين في العودة الى ديارهم الاصلية .

٣ ـ الغاء قانون العودة الصهيوني ووضع حد للهجرة الصهيونية .

٤ ـ الغاء كافة مظاهر التمييز القومي والعنصري والديني .

هذا البرنامج السياسي العريض الذي تضعه وتتبناه الجبهة الديمقراطية «لتحرير» فلسطين يستاهل النقاش من جانبين :

١ ـ مسألة الاعتراف بـ « القومية اليهودية » والدعوة الى المساواة القومية .

٢ ـ الكشف عن التناقضات والمغالطات التي يتضمنها البرنامج ذاته .

كما هو واضح فان مشروع برنامج الجبهة الديمقراطية يقوم على قاعدة الاعتراف البديهي وغير المشروط والذي ليس بحاجة حتى الى الحاقه ببعض المبررات ، بالقومية اليهودية ، وهو الهدف الذي تقوم على اساس تحقيقه بنية الكيان الصهيوني ، الذي لم يترك وسيلة ما منذ قيامه الا وعمل بها من اجل نيل هذا الهدف المحوري : الاعتراف

بكيانه القومي . وبدون اي ثمن ، وبدون اي شرط تتقدم الجبهه الديمقراطبة بكل مروءة لتقدمه له مرفقا بالاعتراف بالجميل .

ونحن نريد القول انه اذا كان الامر الواقع من حيث هو كذلك ، وبصرف النظر عن صوابه او خطأه ، يفترض الاعتراف به واقراره ، فان جميع الاقليات في كل المجتمعات ، وان جميع الدعوات الكيانية القومية الفاشيستية ، مدعوة لتقديم طلباتها الى الجبهة الديمقراطية لكي تمنحها صك الاعتراف بها .

وفي واقع الامر ان هذا ليس تطاولا ، اذ اننا نستطيع ان نفهم الان خلفية الاعتراف الفوري والغريب من جانب الجبهة الديمقراطية بالحركات الانفصالية في كل من الصحراء المغربية والعراق !

فتحت شعار حق الامم في تقرير مصيرها يستطيع اي تجمع فيعرفالجبهة الديمقراطية ان ينتزع استقلاله « القومي » . مما يفقد — بالتالي — قتالنا المحتد منذ عام ضد القوى الانعزالية في لبنان كل مسوغاته وكل حججه ، طالما ان العمود الفقري للهجمة الانعزالية هو هدفها بتقسيم لبنان وتشكيل كيانها القومي .

وفي وقت لم تجد فيه جميع الادبيات الماركسية (على اعتبار ان الجبهة الوطنية تسترشد بالماركسية — اللينينية ومبادىء الامية البروليتارية كدليل للعمل) حلا لـ « المسألة اليهودية » وللتجمعات اليهودية في كل مكان ، ولهذا « الشعب — الطبقة »— وهو اقصى حد من الاعتراف بطبيعة كيانيتها نالتها هذه التجمعات .

في وقت لم تجد فيه جميع هذه الادبيات حلا الا بتحقيق ديمقراطية بروليتارية واسعة تستطيع ان تستوعب وتدمج هذه التجمعات اليهودية ضمن اطرها .

في هذا الوقت ، تقوم الجبهة الديمقراطية متخطية جميع الحواجز ، ومتجاوزة لكل الادبيات والاعراف والمواثيق والبرامج لتقدم اعترافها الكامل بالقومية اليهودية ، وهو التناقض المضحك .

فالجبهة الديمقراطية تعتب على دولة العدو الصهيوني لانغلاقها غير المبرر ، اذ لو فتحت ابوابها على هذا العالم العربي الواسع منذ البدء لألغيت على الفور كل التناقضات معها ، ويبدو ان الجبهة الديمقراطية كانت تريد ان تستغل الكيان الصهيوني اذ ان فتح ابوابه يعني ذوبانه وذوبان كيانه القومي في هذا البحر القومي العربي !

وطالما ان مثل هذا الاستغفال لم يتم — فلا بد من الاعتراف بقومية هذا الكيان الصهيوني — لكن المسألة لا تتوقف عند هذه الحدود . اذ هناك التناقض القومي المحتدم بين الصهيونية وتجسيدها السياسي (اسرائيل) وبين الشعب الفلسطيني ، هذا التناقض الذي فجر الصراع ، اذن لا بد من العمل على ايجاد حلول جذرية لمسألة الصراع هذه — وهي مسألة بسيطة للغاية ، اذ لا تتطلب اكثر من الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني !

هذا دونما اي اعتبار ، ودون ان يساور الجبهة الديمقراطية اي قلق ، من تناقض ما بين طرحها وبين مواد الميثاق الوطني الفلسطيني التي تشكل الارضية التي تقوم عليها منظمة التحرير الفلسطينية التي تعتبر الجبهة الديمقراطية نفسها جزءا منها وعضوا في لجانها وكان الميثاق قد اتخذ موقفا بالغ الوضوح لا يحتمل اي التباس من هذه المسألة ، الا اذا كانت الجبهة الديمقراطية قد اصبحت ترى في هذا الميثاق ، موقفا رجعيا — عينيا لم يراع مقتضيات ومتغيرات العصر !!

ففي مادته الاولى يؤكد الميثاق ان « فلسطين هي وطن الشعب العربي الفلسطيني». وفي مادته الثانية يؤكد الميثاق ان « فلسطين بحدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب البريطاني وحدة اقليمية لا تتجزأ » .

اما بالنسبة للتجمع اليهودي في فلسطين فيؤكد الميثاق في مادتــه السادســـة ان « اليهود الذين كانوا يقيمون اقامة عادية في فلسطين حتى بدء الغزو الصهيوني لهـــا يعتبرون فلسطينيين » .

هذا هو الحل واضحا كما يراه الميثاق الوطني ، للجانب السياسي للمسألـــة ، اما الجانب النظري فيوضحه حين يؤكد في مادته العشرين على « اليهودية بوصفها دينـــا سماويا وليست قومية ذات وجود مستقل . وكذلك فان اليهود ليسوا شعبا واحــدا له شخصيته المستقلة وانما هم مواطنون في الدول التي ينتمون اليها » .

اذن . فما الذي جرى ، وما الجديد الذي طرأ حتى تطرح الجبهة الديمقراطيـــة مثل هذا التعديل أو النقض الصارخ لمواد الميثاق الوطني ، وهي التي تعرف انـــه لا يحق لها تعديل هذا الميثاق الا باكثرية ثلثي مجموع اعضاء المجلس الوطني لمنظمـــة التحرير الفلسطينية ، وفي جلسة خاصة يدعى اليها من اجل هذا الغرض .

ما الذي طرأ لكي تضع الجبهة الديمقراطية نفسها على طرفي نقيض مع جميـــع البرامج والقرارات السياسية الصادرة عن المجالس الوطنية الفلسطينية التي شاركت في معظمها ؟!

وما الذي طرأ لكي تضع الجبهة الديمقراطية نفسها على طرفي نقيض مع نفسها ، ومع ادبياتها ذاتها .

ففي كتيب نشرته الجبهة الديمقراطية تحت عنوان « العمل بعد حرب تشرين » لم تبرد سخونته بعد ، يحدد امينها العام ما يسميه بـ « منطق العصر » حيث يؤكد « ان منطق العالم ومنطق العصر الذي نعيشه هو منطق الحاق الهزائم المتتالية بالامبريالية والكيانات العنصرية سواء في فلسطين او في افريقيا ،فان جميع هذه الكيانات العنصرية التي ولدت على ارض شعوب تم اقتلاعها وتبديدها من اراضيها قد ولدت في مرحلـــة تاريخية ماضية ، تم فيها تزاوج شامل بين الحركة الاستعمارية العالمية وحركات الغزو الاستعمارية الاستيطانية مثل الحركة الصهيونية . ان هذه المرحلة قد اخذت تشهــد بداية نهايتها » .

ونحن نستغرب ونسأل حين نرى الرفيق حواتمة والجبهة الديمقراطية يلاحظـــان المراحل التاريخية بمثل هذه الدقة وهذا الجزم ، ما الذي دعا الى مثل هذا « التكويع » بنسبة ١٨٠ درجة ، وخصوصا انهم لم يتركوا فرصة الا ليكيلوا فيهـــا لاصحـــاب « النظرة الاستراتيجية التحريفية للقضية الفلسطينية » ــ يستحسن مراجعـــة الموضوعات السياسية الصادرة عن المجلس الوطني العام الاول للجبهة الديمقراطيةـــ.

اذن . نريد ان نسأل باختصار : هل نشهد الان تطويعا للموقف الاستراتيجي او ليا لعنقه لصالح موقف سياسي راهن ومطلوب كان وراء مثل هذا الاعتراف المجانـــي « بالقومية اليهودية » ، بل مثل هذا الاعتراف المجاني بالكيان الصهيوني نفسه ، على اعتبار ان المطلوب ليس الغاء للكيان الصهيوني ــ ولا اعترافا منا به ــ فهو امر واقع والاعتراف به تحصيل حاصل ، بل المطلوب هو اعتراف هذا الكيان بنا ــ اي بكيـــان فلسطيني اخر على الارض الفلسطينية !! ؟

تناقضات البرنامج :

لا نريد ان نوضح اولا ان ليس همنا اقتناص الاخطاء في هذا البرنامج . بل اننا ننطلق من موقع الاحترام لدور الجبهة الديمقراطية النضالي ولبرامجها ومواقفها السياسية .

لكننا نشير الى نقطتي تناقض وقع بهما برنامج الجبهة الديمقراطية اثناء عمليه بحثه عن « حل جذري للمسألة الوطنية » !

فمشروع البرنامج يقوم على قاعدة مبدأ حق الامم في تقرير مصيرها ، اي وكما انه يطالب باعطاء الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره ، كذلك فقد قدم حق « الامة اليهودية » في تقرير مصيرها . وهنا وقع في نقطتي التناقض :

الاولى : حين فرض على « الدولة اليهودية » في فلسطين شرط الانضمام الى « دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين » ، وذلك دون ان يراعي حق هذه « الدولة » بالانفصال ورفض الوحدة ، وهو مبدأ لازم ولا مناص منه .

والثانية : حين فرض ضرورة « الغاء قانون العودة الصهيوني » وهذه سقطة قانونية اخرى ، اذ طالما انه اعترف بحق هذه « الامة » في دولتها في فلسطين ، فلماذا يقف ضد حق « الدولة » ، في استدعاء شعبها الى كيانه القومي .

واضافة الى ذلك هناك تناقض واضح وغريب بين تعريف البرنامج للحركة الصهيونية بانها « تعبير سياسي قومي زائف عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية ، الحرفية والصيرفية » — ص ٤ — وبين الاعتراف بهذا التعبير السياسي القومي ذاته بعد ان اصبح امرا واقعا في فلسطين !

(٣) من « الحل الديمقراطي للمسألة الفلسطينية » الى « الحل الجذري للمسالة الوطنية » .

لا شك انه يذكر للجبهة الديمقراطية دائما انها سباقة الى العمل على برمجة النضال الفلسطيني وتنظيمه ، وذلك منذ طرحها للدولة الديمقراطية في فلسطين ، والى هذا البرنامج ، مرورا بطرح مسألة « السلطة الوطنية في الاراضي التي يتم تحريرها »، ورغم حرص الجبهة على « طليعية » معينة في هذا المجال ، الا انه يبدو ان شدة اندفاعها وتحمسها لطرحها هو الذي يوقعها في مثل هذه المآزق النظرية والسياسية .

وكانت الجبهة قد طرحت ، وبعد اشهر من اعلانها عن نفسها عام ١٩٦٩ ، تصورها الخاص « لحل ديمقراطي للمسألة الفلسطينية » ، وقد راعى هذا الحل النقاط الرئيسية التالية :

١ — رفض الحلول الشوفينية والرجعية الصهيونية — الاستعمارية ، والقائمة على الاعتراف بدولة اسرائيل .

٢ — رفض الحلول الشوفينية الفلسطينية والعربية القائمة على ذبح اليهود ورميهم بالبحر .

٣ — وهذا هو محور الحل ، النضال من اجل حل ديمقراطي شعبي للمسألة الفلسطينية والمسألة الاسرائيلية يقوم على ازالة الكيان الصهيوني ، وانشاء دولة فلسطينية ديمقراطية شعبية يعيش فيها العرب واليهود بدون تمييز .

٤ ــ هذه الدولة تصبح جزءا لا يتجزأ من دولة اتحادية عربية .

اذن ، فان هذا الحل يقوم على رفض الاعتراف بما يسمى « اليهود » في اقامة كيان قومي في فلسطين ، بل هو يلغي عنهم اي تشكيل قومي وهو يلتقي بذلك مع اساس الميثاق الوطني الفلسطيني ، ولا يطرح حلا للتجمع اليهودي في فلسطين غير الاندماج ضمن الدولة الفلسطينيه ذات القوميه الواحده (العربية) .

فما الذي دعا الجبهة الديمقراطية الان ، عبر برنامج « الحل الجذري » هذا ان تدعو الى دولتين وكيانين وقوميتين في فلسطين ، ونحن لا نسأل عن التناقض بين البرنامجين اذ قد تجد الجبهة تبريرا لذلك ، لكن نسأل عن مبررات هذا الطرح الجديد، في ظرف نجد فيه ان العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية والغربية عموما تقاتل بشراسة غير محدودة من اجل انتزاع الاعتراف العربي والفلسطيني بشرعية الكيان الصهيوني . اي ان السؤال هو : ما هي خلفية هذا التبرع المجاني العجيب الذي تتقدم به الجبهة ، في حين انه قد اصبح واضحا وبشكل ملموس ، وخلال المعركة المظيمة التي تشهدها الساحة اللبنانية ان مسألة المراهنة على مشروع السلطة الوطنية الفلسطينية المستقلة لا تقوم ، وخصوصا في هذه الفترة ، وضمن موازين القوى الراهنة ، على اي اساس موضوعي . لماذا هذا الاقتراب الشديد من مشروع تقسيم فلسطين الاستعماري في حين ان الاتجاه العام الذي اصبح قائما في الثورة الفلسطينية هو الدعوة الى تأكيد وتصليد بالخط الاستراتيجي للثورة الفلسطينية .

واعتمادا على كل المبادرات السابقة للجبهة الديمقراطية كنا ننتظر فعلا ان تقوم بطرح برنامج جديد للساحة الفلسطينية يؤكد على هذا النهج ، ويشدد على هذا الاتجاه ، لذا فان علامات الاستفهام والتعجب ما تزال قائمة وبحاجة الى اجابة .

(٤) البرنامج المرحلي .. وبرنامج العمل في الضفة الغربية وقطاع غزة .

بذات الوقت الذي طرحت فيه الجبهة الديمقراطية هذه المهام الاستراتيجية امام الثورة الفلسطينية لتتبناها وتعمل على تحقيقها ، فهي قد طرحت ايضا مهمات راهنة ومباشرة جمعتها في اطار « برنامج نضالي مرحلي ملموس » يرسم « سياسة تمكن من التحويل والتغيير المطرد لنسبة القوى الراهنة في صالح توفير شروط الانتصار الثوري الحاسم » فما هي هذه المهمات ؟

اولا ان « المحور المركزي » لهذا البرنامج المرحلي هو النضال من اجل طرد الاحتلال الاسرائيلي . لكن كيف ؟ بالتالي :

١ ــ مقاومة كافة اجراءات الاحتلال في مصادرة وشراء الارض .

٢ ــ حماية الاقتصاد الوطني من اجراءات الدمج والتدمير والضرائب .

٣ ــ تنظيم نضال الطبقة العاملة ضد الاستغلال والتمييز .

٤ ــ حماية الحريات المدنية .

٥ ــ ضمان حق النساء والطلبة والمعلمين والشبيبة وسائر فئات الشعب في اقامة منظماتهم الجماهيرية والمهنية .

٦ ــ حماية الثقافة والتراث الوطني وبرامج التعليم والمقدسات الدينية .

ويبدو ان الجبهة قد غفلت او تغافلت عن شكل النضال ضد الاحتلال ،اذ ان الواضح والغريب ان البرنامج قد تغافل عن ذكر اي اشارة عن المبدأ الذي يكون المادة التاسعة من الميثاق الوطني ، والذي يشكل سقف النضال الوطني الفلسطيني ، والذي لم يخل اي برنامج واي ميثاق واي موقف واي نظام داخلي فلسطيني منه وهو مبدأ « الكفاح المسلح » الذي يؤكد عليه الميثاق الوطني من حيث انه **«الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، وهو بذلك استراتيجية وليس تكتيكا ، ويؤكد الشعب العربي الفلسطيني تصميمه المطلق وعزمه الثابت على متابعة الكفاح المسلح والسير قدما نحو الثورة الشعبية المسلحة لتحرير وطنه »** .

ان الواضح تماما ان برنامجا مثل هذا يمكن انيكون برنامجا نموذجيا لحزب معارضة يناضل نضالا اجتماعيا لالغاء التسلط والقهر الطبقي ، وهو برنامج يمكن ان يكون صالحا للحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) مثلا . لكن ما علاقة كل ذلك بوضع كوضعنا ، يخضع فيه الوطن الفلسطيني كله للاحتلال ونباشر نحن كثورة فلسطينية قتالا مريرا وعلى شتى الاصعدة وبشتى الوسائل ضد الاحتلال ، واول هذه الوسائل الكفاح المسلح ؟ والغريب في الامر ان الجبهة الديمقراطية تؤكد ان هذا هو برنامج المهمات الراهنة والمباشرة فكيف يمكن حل هذه المعادلة طالما ان المهمة الرئيسية والمحورية هي « دحر وانهاء الاحتلال الاسرائيلي » ؟ ليس همنا ان نطرح علامات الاستفهام ، او نحدد اتهامات معينة ، لكن المطلوب فعلا هو توضيح المبررات لهذا التخلي الكامل والنهائي عن سقف النضال الوطني الفلسطيني : الكفاح المسلح ؟ وما هي مبررات طرح مثل هذه المهمات المطلبية في اطار صراع اجتماعي تحت حيمه نظام لا نعرف كنهه ؟ اين ومتى وفي ظل اي نظام سنباشر النضال لتحقيق مثل هذه المهمات ؟

٥ ــ البرنامج المرحلي .. وبرنامج العمل في الاردن :

ان هذا البرنامج كذلك يتضمن تخليا غريبا ومدهشا عن احد الشعارات الاساسية التي طرحتها الثورة الفلسطينية ، والجبهة الديمقراطية على رأسها ، وهو شعار : اسقاط النظام الاردني. وتبعا لذلك لم تطرح الجبهة الديمقراطية وسائل النضال لتحقيق المهمات التي يجب النضال لتحقيقها في الساحة الاردنية وهي :

١ ــ الغاء النفوذ الامبريالي في البلاد وانجاز التحرر الوطني الكامل وتعزيز استقلال البلاد عن المساعدات الاجنبية الاستعمارية وبناء اقتصاد وطني انتاجي . ولم يذكر البرنامج كيف يمكن تحقيق ذلك ؟

٢ ــ انجاز اصلاح زراعي جذري وفقا لقاعدة « الارض لمن يحرثها » .

٣ ــ اطلاق الحريات الديمقراطية .

٤ ــ تطوير الجيش وتطهيره من العمالة والفساد والرشوة .

٥ ــ الاعتراف غير المشروط بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .

٦ ــ انتهاج سياسة تعليمية وطنية وديمقراطية .

٧ ــ تحرير المراة ومساواتها بالرجل .

كل هذه المهمات في وقت يؤكد فيه البرنامج وفي نفس الصفحة ان الطبقة الحاكمة الاردنية التي تتكون من تحالف كبار الملاكين والبورجوازية الكمبرادورية والبيروقراطية الرجعية والارستقراطية الملكية ، هي التي تشكل العائق الرئيسي امام تطور البلاد وطنيا وديمقراطيا ، دون ان يطرح البرنامج رغم هذا الاعتراف الواضح بمثل هذا العائق الرئيسي ايه اشارة الى ضرورة اسقاط حكم هذه الطبقة او هذا العائق ؟!! بل بالعكس ، فان هذا البرنامج يطالب او يناشد ربما (طالما انه لم يقترح شكل النضال ضدها) هذه الطبقة الحاكمة بان تفتح الباب لتحقيق مثل هذه المهمات !!

ثم ان لمن له اي اطلاع ولو جزئي على البرامج السياسية التي تطرح لكي تشكل دليل عمل الجماهير ضد نظام ما يعرف ان هكذا برنامج يطرح في العاده للنضال ضد حكم برجوازي معين لاحداث تغييرات اساسيه على مساره السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لكن ان يطرح نفس هذا البرنامج للنضال ضد حكم كبار الملاك والبيروقراطيه والارستقراطيه الملكيه ، فهذه معادله اخرى تحتاج الى حل !

الملاحظة الاولى :

بالاضافه الى التناقضات والمغالطات العديدة التي يقع فيها البرنامج ، وبالاضافة الى المنهج الانتقائي الذي لا يمت بصله الى المنهج المادي الجدلي فيتحليل الواقع واقتراح الحلول لمعضلاته ، فان البرنامج غفل او تغافل عن مسألة خطيره اخرى . اذ في نفس الوقت الذي نوقش فيه هذا البرنامج واقر وجرت المصادقة عليه من جانب اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية ، ثم صدر وعرض في مؤتمر صحفي عالي الرنين كانت الجماهير الفلسطينية واللبنانية تخوض معركة ضاريه ضد التحالف الامبريالي — الصهيوني — الرجعي في لبنان ، وكانت دماء مقاتلينا وجماهيرنا الفلسطينية واللبنانية تضمخ أرض لبنان العربي ، وكانت حركة التحرر العربي تحقق في معركتها بلبنان انعطافة نوعية خلاقه تدفع الحركة كلها عشرات الخطى الى الامام . ورغم كل ذلك فان الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لم تجد اي مبرر لكي تضمن برنامجها ، الذي هو برنامج الثورة الفلسطينية كلها ، ولو اشاره واحده بسيطه الى هذه المعركة !! وفي حين انها طرحت المهمات العديدة امام الجماهير الفلسطينية في كل الساحات الا انها غفلت او تغافلت عن ان تطرح ولو مهمة واحدة امام الجماهير الفلسطينية في لبنان ، التي يتفق الجميع ، وبمن فيهم الجبهة ، انها تخوض معركتها المصيرية والحاسمة ؟؟!!

الملاحظة الثانية :

في اواسط كانون الثاني ١٩٧٦ صدرت نشرة « الوطن » التي يصدرها « التنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة الغربية » وهي تحمل مقالا رئيسيا بعنوان : فلتتوطد نجاحات منظمة التحرير ببرنامج واقعي لتسوية عادلة . وفيه تؤكد « الوطن » ان الفضل الاساسي لتحقيق نجاحات منظمة التحرير السياسية يعود « للمساندة المادية والمعنوية التي قدمتها الشعوب العربية وانظمتها الوطنية والاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية » وانه لولا هذا الدعم « لما كان بالامكان تحقيق مثل هذه النجاحات » !!

اذن فعلى منظمة التحرير ان تعرف المعطيات الحقيقية للمرحلة الراهنة . وهذه المعطيات تتطلب من منظمة التحرير التالي :

١ ــ اعلان التخلي عن شعار الدولة الديمقراطية العلمانية بحجة ان الشعار لــم ينل قبول السكان اليهود !!

٢ ــ اعلان الموافقة على حضور مؤتمر جنيف !!

٣ ــ اعلان الاستعداد للدخول في تسوية سياسية !!

الملاحظة الاخيرة :

★ هل هناك من يرى رابطا ما بين معطيات هذا « التنظيم الشيوعي » وبين برنامج الجبهة الديمقراطية ؟

الاستيطان :

بين الدافع الايديولوجي والخطة السياسية

صبحي طـه

مقدمة عامة :

ان لظاهرة الاستيطان الاسرائيلي ابعاد تاريخية ارتبطت بالحركة الصهيونية منذ نشوءها وحتى الوقت الحاضر ، فقد شكلت سياسة الاستيطان ، والهجرة حجر الزاوية الرئيسي في تنفيذ المشروع الاغتصابي الصهيوني خلال مراحله الاولى وحتى قيام « الدولة اليهودية » عام ١٩٤٨ .

استمرت عمليات الاستيطان بعد ذلك حينما برزت ظواهر جديدة اهمها تبعثر المستوطنين الصهيونيين في مدن الساحل الفلسطيني وابتعادهم عن المناطق الاخرى في الشمال والجنوب التي بقيت اقل من غيرها عرضة للتوغل السكاني اليهودي . وقد كانت الغاية وراء انشاء المستوطنات تكريس واقع الاحتلال الصهيوني من خلال الانغراس في الارض التي لا يتواجد فيها اليهود بكثرة وذلك بقصد اعادة التوزيع الديموغرافي بما يتلائم واهداف الكيان الصهيوني في خلق اوضاع يكون لليهود اغلبية راجحة في كل المناطق التي تشملها حدود « دولة اسرائيل » .

بيد ان جميع الاجراءات العملية التي تم تنفيذها لتحقيق هذا الغرض لم تستطع ان تحقق التفوق العددي لليهود على السكان العرب في تلك المناطق بالنسب المرجوة. فبناء مدينة الناصرة العليا وسلسلة المستوطنات التي اقيمت في شمال فلسطين كذلك تطوير مدينة بئر السبع وتوسيع مستعمرة سيدي بوكر ومدن الساحل في الجنوب لم تؤثر ــ بشكل كبير ــ على اوضاع تلك المناطق خاصة امام ظاهرة النمو الديموغرافي الواسع للسكان العرب في الجليل والجنوب (النقب) . ان هذا يفسر لنا بشكل كاف القلق المتزايد الذي تبديه الاوساط الصهيونية ازاء مستقبل تلك المناطق ، ويوضح حاليا اهداف مخططات السلطات الاسرائيلية وسبب تركيزها على تهويد منطقة الجليل من خلال زيادة المبالغ المخصصة لتوزيع استثمارات البناء ضمن مشاريعها الاستيطانية الحالية . ففي شهر شباط ١٩٧٥ اعلن اسحق رابين ــ رئيس وزراء العدو « ان الحكومة الاسرائيلية قررت منح افضلية الجليل (في مجال الاستيطان) اكثر من اي وقت مضى » وقال « ان هذا الاسلوب في راينا افضل حتى من نقط الاستيطان (الاخرى) فحدود الشمال والجليل كله منطقة حساسة ويجب الا توطن زراعيا فقط بل باشكال استيطان اخرى كاقامة المدن والقرى الصناعية ... (١) » وفي اوائل شهر تشرين الثاني عام ١٩٧٥ كشف النقاب عن خطة واسعة اعدتها دوائر الاستيطان الاسرائيلية تقضي « بزيادة عدد المستعمرات

اليهودية في منطقة النقب وستقام في تلك المنطقة ــ كمرحلة اولى ــ ثلاث مستعمرات حديثة بالقرب من بيرعسلوج تحمل اسماء « اشاليم ، وبيبيم ، مسآبي ساديه» (٢) »

وعلى صعيد المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ فان الرسم البياني لحركة الاستيطان يشير الى ارتفاع ملحوظ في عدد المستوطنات في كل من الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء . فبالاضافة الى اهتمام سلطات الاحتلال بتعزيز وتطوير نحو ٦٥ مستوطنة اقيمت خلال سنوات الاحتلال التسع الماضية فانه يعمل على انشاء مستوطنات اخرى يعتبرها العدو ذات اهمية استراتيجية وامنية واقتصادية لكيانه(٣)، دل على ذلك ازدياد حجم الاستثمارات المخصصة لمجال الاستيطان في موازنة العدو الصهيوني في العام الماضي بمقدار يزيد عن ثلاثة اضعاف ما خصص لمجال الاستيطان في عام ١٩٧٤ (٤) .

على ان ثمة صعوبات مختلفة تقف في وجه العدو في تنفيذ مخططاته الاستيطانية ، فبالاضافة الى ردود الفعل القوية مــن جانب السكان العــرب ضد اجراءات العدو لمصادرة الاراضي واقامة مستعمرات على الارض المحتلة . فهناك نقصا شديدا فــي عدد المستوطنين الراغبين في الاقامة في تلك المستوطنات ، وخاصة بعد الانخفاض المتزايد الذي طرا على معدلات الهجرة اليهودية من الخارج خلال الفترة التي تلــت حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ . وفي الوقت الذي اعلن فيه وزير الاسكان الاسرائيلي ان « نقاط الاستيطان ستزداد عام ١٩٧٥ بمعدل ٥٠٪ مقابل العام الذي سبقه سواء من حيث عدد الوحدات او المال اللازم (٥) » اشار الى « ان المشكلة ليست اقامـــة مستوطنات جديدة وانما ايجاد المستوطنين ليقيموا فيهـــا (٦) » وقد اكــد يتسحاق رافائيل ــ وزير الاديان ــ تلك الظاهرة عندما قال « ان ٣٠ مستوطنة على الاقــل ستقام خلال العام الحالي (١٩٧٥) خارج الخط الاخضر .. ولكن للأسف ليس هناك عدد كاف لاسكان هذه المستوطنات التي ستقام ، وتلك الــى ستقــام في المستقبــل البعيد (٧) » .

ونظرة سريعة لعدد المستوطنات في المناطق المحتلة واعداد الافراد القاطنين فيهـــا تبين لنا بوضوح حجم تلك الظاهرة . فقد دلــت الاحصاءات الاسرائيليــة « ان ٤٤ مستوطنة تحوي فقط نحو ٤١٠٠ نسمة موزعين على الشكل الآتي : ــ الجولان : ١٨ مستوطنة بلغ عدد افرادها ٢٫٠٠٠ نسمة غور الاردن : ١٢ مستوطنة ١٥٠٠ نسمة، رفح وسيناء ٦ مستوطنات بلغ عدد افرادها ٦٠٠ نسمة ، وتلك المستوطنات تضــم ١٤ مستوطنة تعاونية ، و ١١ كيبوتس ، و ٨ مستوطنات ناحال ، و ٣ مراكز قطرية ، و٨ مستوطنات اخرى (٨) » .

ومن جهة اخرى فهناك الازمة الاقتصادية التي يعانيها العدو والتي اثرت ــ ولو بشكل ضئيل ــ على مشاريع الاستيطان التي يخطط العدو لتنفيذها ، فقد اعتــرف وزير الاسكان الاسرائيلي ان « ثمة تخلف في مشاريع البناء (للمستوطنات) يصل الى حدود ١٥٪ نتيجة ارتفاع الاسعار (٩) » .

امام هذا الواقع تبدي السلطات الصهيونية اهتماما خاصا لحل تلك المعضــلات وفق برنامج مخطط ومدروس وضع علــى رأس اولوياته اقامة مستوطنات مدينيـــة وصناعية الى جانب انشاء قرى زراعية وتعاونية اخرى . وقد حظيت مدينة القدس والمناطق المجاورة لها ، كذلك مستوطنة كريات اربع ومدينتي ياميت (في مشــارف رفح) ومدينة اوفيرا (في شرم الشيخ) ، علــى النصيب الاكبر من موازنة العــدو

المخصصة لمجالات الاستيطان . اضافة الى النشاط المتزايد لانشاء مستوطنات صناعية في الخان الاحمر واقامة انوية اخرى مشابهة في وسط الجولان وشمال سيناء.

سياسة التهجير الوجه الآخر للاستيطان .

تشكل الارض المحتلة الواقع المادي الملموس الذي يجري فوقه عمليات الاستيطان والتهويد وعلى ذلك ارتبطت مسألة الاستيطان تاريخيا بسياسة التهجير (او التفريغ) التي تمارسها سلطات الاحتلال ضد المواطنين العرب . واذا كانت تلك السياسة تنسجم مع المنطلقات الصهيونية فانها جاءت ايضا لدوافع تكتيكية واستراتيجية في اطار الهدف الصهيوني لتكريس واقعه الاحتلالي والمحافظة على « نقاء » كيانه العنصري . فقد شكل ما يزيد عن مليون ونصف مواطن عربي يعيشون في ظل الاحتلال الصهيوني مصدر قلق رئيسي للزعامات الصهيونية ، ويعتبرون اهم المشاكل الرئيسية التي تهدد كيانهم العنصري على المديين المتوسط والبعيد . وبالرغم ان اجراءات العدو لتهجير المواطنين العرب وطردهم من الوطن المحتل قد اثرت على الاوضاع السكانية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين ، الا انها لم تحقق الهدف الصهيوني المطلوب خاصة بعد خيبة الامل التي اصيبت بها الهيئات الرسمية الصهيونية على صعيد الهجرة اليهودية وبعد ارتفاع معدلات الزيادة السكانية الطبيعية للسكان العرب في المناطق المحتلة .

وامام التزايد السكاني العربي في مناطق الجليل والنقب يمضي العدو في تنفيذ مخطط يرمي الى تهويد الجليل بالدرجة الاولى من خلال انشاء مستوطنات زراعية وصناعية مختلفة بهدف خلخلة الوضع الديموغرافي وتفتيت البنية السياسية والاجتماعية للمدن والقرى التي تتمتع باغلبية كبيرة للمواطنين العرب .

وعلى صعيد المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ فقد برزت مشاريع متعددة لانشاء مستوطنات مدينية كبيرة ضمن المناطق التي يعمل العدو على ضمها ، في وقت يعمل فيه وبمختلف الوسائل لترحيل اكبر عدد ممكن من السكان العرب من اجل تخفيف قوة النمو السكاني عموما ، وزرع المستوطنين الجدد ضمن الاحياء الذي خصصها لهم في القدس ومشارف رفح وشرم الشيخ .

ويمكن تحديد الوسائل التي ينتهجها العدو في هذا المجال كما يلي :

١ ــ سياسة الجسور المفتوحة : فقد ساهمت في دفع وتيرة النزوح الفلسطيني الى خارج الوطن المحتل ، وخاصة بعد ان قامت سلطات الاحتلال بتقديم تسهيلات كبرى للمواطنين العرب وفق تصاريح السفر المؤقتة التي تمنحها للطلاب والعمال ومختلف الفئات الاخرى .

من جهة اخرى فقد تركت سياسة « الدمج اقتصادي » التي استخدمها العدو للتعامل مع « اقتصاديات الضفة والقطاع » آثارا سلبيه ليس فقط على صعيد اضعاف اسس وبنية الاقتصاد الوطني في المناطق المحتلة ، وانما ايضا على ازدياد عوامل الهجرة العربية الى الخارج . فقد ازدادت معدلات النزوح « المؤقت والدائم » عندما تفاقمت اوضاع العدو الاقتصادية خلال الاعوام التي تلت حرب تشرين ١٩٧٣ . ففي تحقيق نشرته صحيفة « دافار » الاسرائيلية بينت ان « ثمة تحولا في توجه قسم كبير من العمال العرب في الارض المحتلة » حيث قالت انه « بسبب الأزمة الاقتصادية (الاسرائيلية) والازدهار في دول النفط العربية زاد عدد المغادرين الى شرق الاردن

ودول النفط ... وان تلك الظاهرة ستزداد اتساعا اذا تفاقم الوضع الاقتصادي وتعاظمت البطالة » (١٠) . وفي احصاء نشرته صحيفة عل همشمار في اواخر العام الماضي اوضحت ان « ١٣٫٢٦٧ شخصا من ذوي المهن والكفاءات والمثقفين غادروا الضفة الغربية المحتلة الى الدول العربية (١١) » .

٢ ــ نشاطات المؤسسات الصهيونية بالتعاون مع بعض السفارات الاجنبية لتشجيع هجرة الشباب العربي في المناطق المحتلة الى دول اوروبا واميركا الشمالية وكندا واستراليا . وقد كشفت الصحف العربية الصادرة في الوطن المحتل بمناسبات كثيرة عن نشاط تلك المؤسسات واستجابة بعض المواطنين العرب لها ضمن مخطط العدو في تفريغ المناطق المحتلة .

ومن جهة اخرى فان سلطات الاحتلال تعمل من اجل زعزعة التجمعات السكانية وخاصة ضمن المناطق العربية التي ينوي العدو اقامة مستوطنات عليها . ففي منطقة مشارف رفح عمد العدو على طرد « حوالي ١٥٣٠ عائلة عربية » (١٢) ، يقدر عدد سكانها بنحو ٢٠ الف نسمة من اراضيهم بغية اقامة مستوطنات عليها . اضافة الى نقل عدد من سكان مخيمات اللاجئين في قطاع غزة الى مناطق اخرى في الضفة الغربية .

ويركز العدو حاليا على مسألتين : ــ

الاولى : توطين اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة ، وتخصص السلطات مبالغ متزايدة ضمن موازنتها المالية لتحقيق هذا الهدف ، ففي عام ٧٣ ــ ٧٤ انفق نحو ٥٠ مليون ليرة اسرائيلية لتوطين بعض اسر اللاجئين في المخيمات .. وقد زاد حجم الاستثمارات فيهذا المجال الى ٧٥ مليون ليرة في عام ١٩٧٥ «لانشاء احياء ومؤسسات عامة للاجئين في قطاع غزة » (١٣) . وقد كشف شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي ان « الحكومة ماضية بتنفيذ **خطة معدة** تستغرق بضع سنوات وتهدف الى بناء ١٩ حيا جديدا في قطاع غزة لتوطين اللاجئين من سكان المخيمات (١٤) » ، وحسب ما نقلته احصائيات العدو فقد « تم توطين ١٥٠٠ عائلة من اللاجئين وسيقام في عام ١٩٧٥ نحو ٢٫٠٠٠ ــ ٢٫٥٠٠ وحدة سكنية في الاحياء الجديدة في غزة وخان يونس ورفح لاستيعاب ١٥٫٠٠٠ ــ ١٨٫٠٠٠ نسمة من بين ١٦٠ الف لاجيء يشكلون مجموع اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في مخيمات قطاع غزة » (١٥) .

الثانية : تخفيف الاكتظاظ السكاني العربي في مدينة القدس ضمن مخطط يهدف الى تهويد المدينة ــ كما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد ــ فبالاضافة الى هدم احياء عربية بكاملها في بعض المناطق وخاصة داخل اسوار المدينة ، فان سلطات الاحتلال فرضت اجراءات كان من نتيجتها حرمان السكان العرب من اقامة اي مشاريع سكنية ضمن مناطق معينة في وقت تجري فيه عمليات واسعة لبناء احياء يهودية كاملة في القدس . ويعمل العدو حاليا على اقامة ضاحية سكنية في قرية العيزرية تشمل ١٫٠٠٠ منزل اعطيت فيها اولوية الاسكان لاسر البلدة القديمة (١٦) « التي يطمع العدو بتهويدها .

ستعالج السطور القادمة بشيء من التفصيل التصريحات الرسمية والاجراءات العملية التي تمت على صعيد الاستيطان الاسرائيلي في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ والتي شكلت اهم العوامل الرئيسية للانتفاضة الشاملة التي عمت مدن وقرى الوطن

المحتل خلال الشهور الماضيــة في اطار الصراع الطويــل الذي يخوضه شعبنا ضد العدو الصهيوني .

★ ★ ★

الاستيطان في منطقة رفح

بدأ استيطان شريط رفح عام ١٩٦٩ عندما اقدمت سلطات الاحتلال على مصادرة ١٥٠٠٠ هكتار من اراضي المنطقة . وفي اوائــل كانون الثاني عــام ١٩٧٢ اتسعت عمليات المصادرة رافقتها اجراءات طرد الاف الفلاحين والبدو من منازلهم ومنعهم من الاقتراب من المنطقة المصادرة .وفي اوائل تشرين الاول ١٩٧٣ صادرت السلطات ٣٦٠٠٠ هكتار اخرى بعد ان طردت مزيدا من السكان الذين وصل عددهم نحو عشرين الف نسمة . وحتى حزيران ١٩٧٥ اقيمت **عشر مستوطنات في شريط رفح منها اربع قرى تعاونية وخمس مستعمرات زراعية شبه عسكرية ونواة مدينية كبيرة تدعى «ياميت» على الساحل ، ويخطط العدو لبناء ٩ قرى تعاونية وستة من الكيبوتس (١٣) .**

ويولي العدو اهمية خاصة للموقع الاستراتيجي الهام الذي يحتله المثلث الممتد من رفح شمالا الى « نيتسانا » (العوجة) في الجنوب والعريش غربا . فهو برأيــــه « يفصل قطاع غزة عن اي توجه نحو مصر ، ومنه تمــر الطرق المهمة التي تمكن العدو من الانطلاق الى شمالي سيناء ويشكل حاجزا امنيا من الدرجة الاولى لتأمين الهدوء في تطاع غزة وفي مستوطنات النقب (١٨) » . وقد كشفت الصحافة الاسرائيلية عن مخطط وضعت معالمه في منتصف ١٩٧٣ يهدف الى « اخلاء كل المنطقة الكبيرة التي تكمل المثلث لغاية العريش ونيتسانا وتوقعت انه سيكــون حجم الاخلاء اكبر ستــة اضعاف مما صودر خلال عامي ١٩٦٩ و١٩٧٢ (١٩) » .

من جهة اخرى « فقد سلمت وزارة الاسكان بعض العائلات من مهاجري الولايــات المتحدة والى بعض المستوطنين من اماكن اخرى مفاتيح المساكن التي سوف يستعملونها في مستوطنة « يميت » في مشارف رفح (٢٠) » وكان وزير الاسكان قد اعلــن « ان ١٨٥ شقة في المستوطنة سيكتمل بناؤها في شهر تموز ١٩٧٥ وان الافضلية ستعطى الى المهاجرين من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (٢١) » .

وكان من نتيجة سياسات الاستيطان طرد السكان العرب وحصرهم ضمن شريط ضيق لا تتجاوز مساحته ١٥٠٠٠ دونم بعد ان كانوا يقيمون في منطقة مساحتها ١٤٠ الف دونم قبل اجراءات العدو الاستيطانية . ويتعرض هؤلاء السكان الى خطر الطرد المجدد حيث يبذل سكان المستوطنات في تلك المنطقة ضغوطا على حكومة رابين مــن « اجل طرد البدو تماما من المنطقة وخصوصا من شاطىء البحر القريب من مدينــة ياميت والمنطقة الصناعية القريبة منها (٢٢) » وكانت سلطات الاحتلال «قد انذرت عدة آلاف من بدو رفح الذين يقيمون على بعد ٣٠٠ متر من طرفي الطريق العام المؤدي الى مستوطنة « ياميت » لاخلاء اماكنهم بصورة نهائية (٢٣) » وفي احصاء نشرته صحيفة دافار (٧٥/٤/٩) تبين « ان ١٥٣٠ عائلة اجليت من منطقة مشارف رفح لم تعتمد الحكومة سوى عشرين مليون ليرة فقط لاغاثة ٦٦٦ عائلة بدوية » .

ردود الفعل

ظل سكان رفح متمسكين بحقوقهم رغم الاجراءات الوحشية التي انتهجها العدو لحملهم للتنازل عن اراضيهم .. وقد صمد سكان المنطقة رغم الوسائل القمعية التي

اتخذتها سلطات الاحتلال وصلت الى التهديد بقطع حصص الطعام التي يحصلون عليها من شركة الاحسان الاميركية « كير » وسجن اعداد كبيرة منهم رفضوا التوقيع على وثيقة التنازل التي تقدمت بها السلطات . والتهديد بتجريد مشايخ العشيرة من صلاحياتهم اذا ما رفضوا بيع اراضيهم وفصل كل معلم من وظيفته اذا ما فشل في اقناع عشيرته بالتوقيع (٢٤) .

وقد رفع مشايخ رفح سلسلة مذكرات احتجاج لسلطات الحكم العسكري . اضافة الى مناشدة الحكومة الاسرائيلية لايقاف عمليات المصادرة والتهجير التي تمارسها قوات الاحتلال الاسرائيلي ضدهم ، معلنين تمسكهم بالارض . وقد كشف الشيخ صباح عبدالله السلامي من مشايخ بدو رفح عن الضغوط التي يتعرض لها اهالي المنطقة في مذكرة قدمها للسلطات العسكرية بين فيها الاجراءات الوحشية التي قامت بها سلطات الاحتلال عندما رفضوا استلام التعويض الذي قدمه المسؤولون مما ادى الى قيام الجنود « بتقلبع اشجارنا انتقاما منها على موقفنا بعدم التنازل عن الارض وهدم منازلنا ومسجدنا ومدرسة العشيرة » . وعندما رفع السكان المهجرين قضيتهم الى « محكمة العدل العليا الاسرائيلية » جاء قرارها دعما لحجج سلطات الاحتلال بأن عملية المصادرة تمت « لاغراض امنية ! (٢٥) » .

وقد دلت التحقيقات التي قامت بها بعض الصحف الاسرائيلية مدى تمسك السكان باراضيهم . ومدى استيائهم الشديد من الحكم العسكري الصهيوني . فقد عبر احد المشايخ عن الواقع الاليم هذا عندما قال « لم يبق لنا الا ان نعتمد على الله . . . نحن مصريون وليس بامكان مصر ان تساعدنا فلماذا يطردوننا ، لقد حكمنا الاتراك والانجليز ولم يتعرضوا قط لارضنا اما الاسرائيليون فهدفهم الاول مصادرة ارضنا » (٢٦) .

الى جانب مصادرة الارض تتم عمليات استغلالية ضد المواطنين العرب وذلك باستخدامهم كايدي عاملة رخيصة لبناء المستوطنات الاسرائيلية بعد واقع البطالة القسرية التي خلفتها سياسات العدو التهجيرية . وفي الوقت الذي اكد فيه وزير الصحة الاسرائيلي شيمطوف انه « لا يعمل عامل يهودي واحد في جميع الاراضي المستصلحة للاستيطان في مشارف رفح (٢٧) » انتقدت بعض الاحزاب الاسرائيلية ما يجري في منطقة رفح ، ففي رأي حزب مبام ان عدم قيام اليهود بانشاء المستوطنات من شأنه « ان يشوه مفهوم الاستيطان اليهودي » واشارت الصحف الاسرائيلية بأنه « يجب عدم تزييف الاستيطان بواسطة استخدام البدو كعمال مأجورين واذا ما اردنا الاستيطان علينا ايجاد يهود يكونون على استعداد لتهيئة الارض كما يفعل البدو (٢٨) » .



الاستيطان في هضبة الجولان

بعكس معظم المراكز الاستيطانية التي اقيمت في المناطق المحتلة ، فان الجولان يحظى على اهتمام خاص ومتميز من قبل الاوساط الصهيونية الحاكمة. فبالاضافة الى ان اقامة مستوطنات في الهضبة السورية يقع ضمن الافضليات الاولى في برنامج العدو الاستيطاني ، فهناك دوافع امنية وسياسية وراء تمسك العدو باراضي الجولان وسلسلة المستوطنات التي شيدها خلال سنوات الاحتلال الماضية . وفي الوقت الذي يؤكد فيه رئيس وزراء العدو « عدم التخلي عن الجولان . . والتمسك بالقرى الاستيطانية الزراعية كعامل دائم وثابت » ، تعمل المؤسسات الصهيونية على تطوير

المستعمرات التي اقامتها وبناء مستوطنات اخرى جديدة ، فقد اعلنت مصادر قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية انه « سيجري خلال عامي ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ اقامة ٥ قرى صناعية تعاونية في هضبة الجولان (٢٩) » الى جانب مشروع اعدته ادارة التخطيط والاستيطان في الجولان يقضي بان « تضم هذه المنطقة حتى نهاية عام ١٩٧٨ تسعا وعشرين قرية ومدينة واحدة (٣٠) » وبالفعل « فقد قررت وزارة الاسكان الاسرائيلية انفاق اكثر من ٩٠ مليون ليرة لبناء المرحلة الاولى لمستوطنة « كاتسرين» الجديدة حيث بوشر بانشائها في اواسط عام ١٩٧٥ وبحسب مخطط الوزارة فانه سيتم توطين السكان في نهاية عام ١٩٧٧ بعد ان تكون الوزارة قد انتهت في بناء ٢٠٠ شقة الى جانب مدرسة وروضة أطفال (٣١) » .

ازداد عدد المستوطنات في هضبة الجولان حيث بلغت نحو احدى وعشرين مستوطنة ، وقد جاءت تلك الزيادة في اعقاب القرار الذي اتخذته اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان في اوائل شهر كانون الاول الماضي يقضي باقامة « اربع نقاط استيطانية اخرى في الجولان » وذلك « ردا على قرار مجلس الامن الدولي في عقد دورته لبحث القضية الفلسطينية وحضور منظمة التحرير الفلسطينية في مناقشات المجلس (٣٢) » . وقد دل تصميم الحكومة الاسرائيلية على اقامة تلك المستوطنات عندما رفض رئيس وزراء العدو استلام مذكرة امريكية كان الرئيس فورد قد ارسلها الى الحكومة معبرا عن استيائه من قرار اللجنة الوزارية في اقامة مستوطنات اخرى على هضبة الجولان المحتلة (٣٣) فقد باشرت سلطات الاحتلال منذ اتخاذ القرار باقامة نواة لمستوطنة « سلعيت » وفق المخطط الذي وضعته الوكالة اليهودية وحركة الموشاف (٣٤) . اضافة الى البدء في العمل في ٥/١٢/٧٥ لبناء مستعمرة جديدة تقع الى الشرق من مدينة القنيطرة السورية ستضم افرادا من حركة بتيار للشبيبة (٣٥) .

ويواجه العدو حاليا مشكلة ايجاد المستوطنين لتعزيز مواقعه الاستيطانية فمعظم المواقع الاستيطانية تشرف عليها قوات تابعة للجيش الاسرائيلي (الناحال) ولم يزد عدد السكان في احدى وعشرين مستوطنة على ٢٢٠٠ نسمة ، فقد كشفت صحيفة يديعوت احرونوت عن تلك الظاهرة عندما قالت « ان هضبة الجولان التي تشمل الآن ثماني كيبوتسات وثماني مستوطنات ومركزين بلديين وقريتين صناعتين لم تتمتع بعدد سكاني كبير ، ولكن الجميع يفخر بالستمائة ولد الذين ولد معظمهم (وليس كلهم) في الجولان (٣٦) » .

ومن جهة اخرى فقد خفت التوجهات الاستيطانية الغير رسمية لانشاء مستوطنات في الجولان اذا قورنت بالسنوات التي سبقت حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ويولي العدو اهتماما لمعالجة ظاهرة النزوح من قبل المستوطنين في المستعمرات الاسرائيلية في الجولان ، والتي جاءت في اعقاب شعورهم بقلق حول مستقبل اوضاع تلك المستوطنات في اطار الاحتمالات المطروحة بالنسبة للتسوية وما قد تؤدي الى انسحاب من الجولان وبالتالي من المستعمرات المقامة حاليا ، او الحرب وما تعكسه من اخطار تهدد اوضاع المستوطنين . ولذلك تحرص قيادات العدو في عقد زيارات مستمرة مطلقة تصريحات « تطمينية » لحمل السكان على البقاء في المراكز الاستيطانية وتخصيص مبالغ ضخمة لبناء مشاريع سكنية وصناعية في تلك المراكز في اطار سعيها لتثبت مواقعها في الهضبة . وفي هذا المجال نورد الملاحظات التالية :

١) ان استمرار القتال اثر وبشكل ملموس على زعزعة المستوطنات الاسرائيلية في الهضبة فخلال حرب تشرين ١٩٧٣ وما اعقبها من معارك الاستنزاف شهدت

المستوطنات ظاهرة نزوح كبيرة الى مناطق اخرى داخل الوطن المحتل . ففي شباط ١٩٧٤ عقد سكان المستوطنات الاسرائيلية في الضفة والجولان اجتماعا ناقشوا فيه « كيفية الاحتجاج على سياسة الحكومة التي تركتهم لمصيرهم » .. فقد اعترف زعيم حركة الاستيطان في منظمات الكيبوتس (شلومو وولف) بمدى تأثير الحرب على اوضاع سكان المستعمرات بقوله « ان الاحساس الذي يراودنا هو ان هذه هي بداية النهاية .. ان المعنويات بين سكان المستوطنات تتهاوى شيئا فشيئا كما ان الصعوبات تتزايد في اقناع الشبان للسفر والاقامة في تلك القرى بينما اعرب عدد من السكان عن عزمه على الرحيل » (٣٧) .

٢) ان معظم المواقع الاستيطانية في الجولان ذات طابع عسكري ومهام امنية محصنة ولم ينجح العدو لاسباب عديدة في تكريس اي مستوطنات مدينية او صناعية بالمعنى الذي يطمح اليه رغم اهتمامه الكبير في تحقيق هذه الغاية .

وليس من شك في ان تعزيز مواقع العدو الاستيطانية يجد منها العدو عوامل اساسية لتقوية مركزه خلال مرحلة المفاوضات لانجاز تسوية سياسية في المنطقة وبالتالي فان تلك السياسة توفر للعدو الصهيوني ورقة ضغط هامة في اطار سعيه لفرض شروطه على سوريا والمراهنة على ان تقدم سوريا تنازلات سياسية من شأنها ان تعطي العدو مجالا واسعا للمناورة لتكريس احتلاله الهضبة او على الاقل الحصول على اتفاق من شأنه ان يوفر ضمانات عملية لانهاء ما يسمى « بحالة الحرب » من خلال تجريد الجولان من السلاح والاحتفاظ ببعض المواقع الاستراتيجية الذي يراها ضرورية « لضمان امنه » .

الاستيطان في الضفة الغربية المحتلة :

كان من ابرز اثار العدوان الصهيوني عام ١٩٦٧ احتلال اراض عربية تبلغ مساحتها ثلاثة اضعاف الاراضي التي احتلتها « اسرائيل » عام ١٩٤٨ . وقد انتهج العدو اسلوب اقامة عدد من المستوطنات العسكرية كاحدى الوسائل الذي وضعها لاقامة «حزام امني» على طول مرتفعات الجولان ووادي الاردن ووادي عربة وشرم الشيخ . وحتى عام ١٩٧١ انشىء ست مستوطنات في منطقة الاغوار على يد سلاح الناحال ،في وقت ركز فيه العدو على تنفيذ مشاريع استيطانية اخرى في القدس والخليل وبعض المناطق الوسطى في الضفة الغربية .ومنذ عام ١٩٦٧ وحتى منتصف عام ١٩٧٥ اقامت سلطات الاحتلال نحو ١٩ مستوطنة زراعية في الضفة الغربية اضافة الى مستوطنة مدينية في مدينة الخليل (كريات اربع) هذا عدا سلسلة المستعمرات والاحياء اليهودية التي شيدت في مدينة القدس والمناطق المجاورة لها .وقد ذكرت صحيفة هآرتس « ان اسلوبا جديدا للاستيطان بدأته السلطات في الضفة الغربية وفق خطة تقضي باقامة موقع عسكري كخطوة اولى ثم يتحول وباسلوب تدريجي الى مستوطنة مدينية» (٣٨).

وتستأثر مسألة استيطان الضفة الغربية باهتمام مختلف الاوساط الصهيونية في اطار تمسك العدو بها ، ويبدو ان حكومة العدو لم تحسم بعد تبني اي مشروع محدد من بين المشاريع التي طرحت لتحديد مستقبل الضفة الغربية . الا انها تسير في سياستها ضمن خطوط عريضة تقضي بما يلي :

١) ان المستعمرات اليهودية (وخاصة الرسمية) ستبقى جزءا من دولة اسرائيل ضمن اي تسوية محتملة .

٢) ان اسرائيل لن توقع اي اتفاق يقضي بتقديم تنازلات بشأن اي جزء من الضفة الغربية دون عرض القضية على الشعب في انتخابات جديدة اذا طلبت ذلك اي فئة من الفئات المشتركة بالحكم . (٣٩)

بيد ان مشروع آلون قد حظي على تأييد بعض الزعامات السياسية الاسرائيلية ، الامر الذي يعد اقرب المشاريع التي يمكن ان تحظى على موافقة الحكومة الاسرائيلية على المدى البعيد . وقد تضمن هذا المشروع النقاط الرئيسية التالية :

١) اقامة شريط من المستوطنات شبه العسكرية على طول الضفة الغربية لنهر الاردن وذلك لحماية اسرائيل من التسلل والهجوم بالاضافة انه سيجنب اسرائيل مشكلة استيعاب اعداد كبيرة من العرب وهذا ما يسمى « بحزام الامن » .

٢) اعطاء حكم ذاتي للضفة الغربية — كجزء من الاردن — غربي حزام الامن فيما عدا القدس وبعض اجزاء من اللطرون والخليل .

٣) في حالة قيام معاهدة سلام بين الاردن واسرائيل ستعطى الاردن ممرا بريا خلال حزام الامن الى المنطقة العربية من الضفة الغربية التي سيكون لها بدورها ممر الى البحر المتوسط واستخدام جزء من مرافىء اسرائيل .

٤) توضع كل التسهيلات تحت تصرف الاردن ، وستضمن حرية الوصول الى الاماكن المقدسة في القدس لجميع العرب مسيحيين ومسلمين .

ومن خلال متابعة حركات الاستيطان في الضفة الغربية نجد ان برنامج الحكومة يسير في اطار هذا المشروع ، دل على ذلك سلسلة المشاريع التي اعتمدتها حكومة العدو في تثبيت مواقع الاستيطان ضمن الحدود الجغرافية التي رسمها الون ، في وقت جاءت فيه المحاولات الاستيطانية من قبل بعض الكتل والاحزاب المعارضة لتثير جدلا واسعا بين الزعامات الاسرائيلية ، فقد صرح ابراهام عوفر وزير الاسكان « ان ٦٢ مستوطنة اقيمت في المناطق التي لا يدور حولها جدل باستثناء مستوطنتين» (٤٠) وربما يقصد بذلك مستعمرة عفرا في شمال رام الله وسبسطية بالقرب من مدينة نابلس .

النشاطات الاستيطانية « غير الرسمية » :

شهدت المناطق المحتلة محاولات استيطانية من قبل بعض التكتلات والاحزاب الصهيونية جاء بعضها مخالفا لبرنامج الاستيطان الذي وضعته حكومة العدو . وقد نجحت تلك المحاولات في اقامة بعض المراكز الاستيطانية وخاصة على اراضي الضفة الغربية . بل ان العديد منها حظي بموافقة الحكومة فيما بعد ، وجاء بعضها بتنسيق مسبق مع الحكومة الاسرائيلية وخاصة في منطقة الخليل (كريات اربع) ومستوطنة « عفرا » على سفوح جبال شمال رام الله . الا ان سلطات الاحتلال تصدت للعديد من المحاولات التي قامت بها جماعات صهيونية استيطانية وافشلت مخططاتها في العديد من المناطق .

واذا كانت الاطماع التوسعية الصهيونية وضعت بعض الكتل والاحزاب الصهيونية لتسعير نشاطها الاستيطاني في الفترة من ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٣ . فان ثمة اعتبارات سياسية وداخلية كانت وراء معظم المحاولات الاستيطانية التي نظمتها احزاب المعارضة « الليكود » بعد حرب تشرين الاخيرة . فقد شكلت مسالة الضفة الغربية احد المجالات الرئيسية التي ساعدت بتهيئة المناخ امام المعارضة في التصدي لحكومة

رابين . وقد بانت اهداف المحاولات الاستيطانية التي قامت بها احزاب المعارضة عندما نظمت كتلة « الليكود » اضخم مسيرة ضمت نحو عشرين الفا من المستوطنين الصهاينة لاقامة مركز استيطاني في سبسطية قرب مدينة نابلس (٤١) وقد وصف رئيس وزراء العدو محاولة استيطان سبسطية بانها كانت عملا سياسيا هدفه تقويض سلطة الحكومة وربما اكثر من ذلك » . وجاء في تعليق اوردته صحيفة علهمشمار (٧٤/١٠/١١) : « لا يعتقد بان الاف المستوطنين هؤلاء كانوا ينوون حقا الاستيطان في الاماكن التي اختاروها اذ انهم كانوا على علم بان الحكومة وقوات الجيش لن يسمحا لهم بتنفيذ مآربهم ، الا انهم ارادوا بهذه التظاهرات تشديد الصراع ضد الحكومة واجراء بروفة في الصراع الذي سيكون اعنف عندما تأخذ التسوية مسارها الحقيقي » (٤٢) .

وفي اوائل اذار ١٩٧٥ ، وعندما اتسعت حدة الخلاف بين كتل المعارضة والحكومة الاسرائيلية ، نظمت الاحزاب الصهيونية المتطرفة حملات استيطانية الغرض منها اخراج الحكومة وتهديدها بالسقوط . وفي وقت واحد شن مستوطنون تابعون لتلك الاحزاب هجمات من اجل اقامة اربعة مراكز استيطانية اخرى غير سبسطية وهي : دير نظام شمال رام الله ، وهضبة بالقرب من الخان الاحمر ، وكنيس قديم قرب « دير قمران » على بعد مسافة قصيرة من مدينة اريحا ، ومنحدرات وادي القلط (٤٣) في وقت قدم فيه رؤساء جميع الكتل المؤلفة « لليكود » لرئيس الكنيست يسرائيل يشعياهو « عريضة موقعة من قبل ٦١٩,٤٥٠ مواطنا يشكلون ٤٤٪ من سكان الدولة اليهود يطالبون الحكومة بعدم التنازل عن اراضي يهودا والسامرا » (٤٤) .

وقد دفعت تلك المحاولات الحكومة لان يعلن رابين — لاول مرة — عن استعداده للاستقالة ، بعد الانتقادات الشديدة التي تعرض لها من قبل حزب العمل الاسرائيلي حين اعلنت كتلة الحزب النيابية عدم موافقتها « للتسوية التي تمت بين المستوطنين والحكومة » (٤٥) من خلال قبول رئيس الوزراء اقامة مستوطني سبسطية في معسكر كفر تدوم القريب من مكان المستعمرة . وفي الوقت نفسه شنت احزاب المعارضة المتمثلة في « كتلة الليكود » حملة قوية ضد الحكومة لعدم سماحها باقامة المستوطنة في سبسطية ، وقد تطورت حدة الخلافات فيما بعد الى درجة باتت فيها الحكومة امام خطر الانهيار حين هدد حزب « المفدال » بسحب وزرائه من الحكومة اذا لم تسو الخلافات القائمة حول قيام مستوطنة سبسطية (٤٦) .

مخططات العدو الاستيطانية :

في اطار سعيها لتعزيز مواقعها الاستيطانية قررت الحكومة اقامة مستوطنات صناعية وزراعية وعمالية في منطقة الاغوار ، في وقت تستمر فيه لاستكمال مشاريع البناء لتطوير الاحياء اليهودية ضمن المناطق المحيطة بالقدس . وبعد ان باشر العدو في اقامة مراكز صناعية في الخان الاحمر وقرية عناتا في شمال القدس ، فقد اقر مؤخرا اقامة ثلاث مستوطنات احداها عمالية في وادي الاردن وهي لانتيف هفدود ، ومعاليه افرايم، وكوخاف هشامرا شمال شرقي ستيلا بالقرب من طريق رام الله — اريحا (٤٧) وكان رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية قد صرح في ايلول ١٩٧٤ ان «مشروعا استيطانيا جديدا سينفذ في الاربع سنوات المقبلة وستتم في اطاره اقامة ٦ مستوطنات في الخليل وغور الاردن ومنطقة الجفتلك » (٤٨) كما ان ثمة اهتماما تبديه الحكومة لاقامة مستوطنات اسرائيلية في مناطق قلقيلية ونابلس وطولكرم — جنين (٤٩) .

وفيما يلي سنتعرض لاهم المشاريع الاستيطانية التي ينفذها العدو وفق التقسيم التالي :

تهويد مدينة القدس :

حددت سلطات الاحتلال حدود مدينة القدس وفق الشكل الاتي : قلندية (بما في ذلك مطار القدس) شمالا ومنطقة الخان الاحمر في منتصف طريق اريحا شرقا ، صورباهر وجزء كبير من اراضي منطقة بيت لحم بما في ذلك قرية سلوان جنوبا ، وقد اقامت السلطات الصهيونية سلسلة مستعمرات في اطار مخططها لتطويق « العاصمة» باحياء يهودية (٥٠) .

من جهة اخرى كشفت الصحف الاسرائيلية عن مخطط يقضي بتوسيع حدود مدينة القدس بحيث يشمل جزء كبيرا من اراضي الضفة الغربية (نحو ٣٠٪ من مساحتها) وتضم تسع مدن وستين قرية عربية يقدر عدد سكانها الحاليين ب ٢٥٠ الف مواطن عربي . فقد صرح ايجال الون وزير خارجية العدو ان « القدس في حاجة الى منطقة خلفية خاصة بها على امتداد قطر معين من حولها .. وفي الامكان اقامة نقط ضرورية استيطانية في صحراء يهودا تستمد منها القدس فائدة بلدية هامة » واضاف انه « يجب شمل صحراء يهودا ومعاليه ادوميم (الخان الاحمر)ضمن حدود مدينة القدس »(٥١). وقد اوردت صحيفة دافار في كانون الثاني ١٩٧٥ تفصيلات حول « خارطة القدس الموسعة التي تمت الموافقة عليها بالكنيست حيث شملت الضواحي التالية : الخان الاحمر شرقا و « بيت ايل » قرية بتين (شمال مدينة البيره) شمالا ، ومدينة الخليل (مستعمرة كريات اربع التي انشأها العدو بعد عام ١٩٦٨ جنوبا ، واللطرون « مستعمرة بيت شيمش » غربا (٥٢) .

وقد مهدت سلطات الاحتلال لتنفيذ هذا المشروع باقامة عدد من المستوطنات اهمها ما يلي :

أ) اعتبار مستوطنة « معاليه ادوميم » الخان الاحمر ، حدود منطقة القدس الشرقية :

ففي العام ١٩٧٢ تم اغلاق المنطقة وفق قرار من الحاكم العسكري باعتبار الخان الاحمر منطقة عسكرية . وفي ٢٤ — ١١ — ١٩٧٤ اقرت الوزارة الاسرائيلية انشاء مدينة صناعية فيها ، وفور ذلك تمت مصادرة ٧٠الف دونم واقيمت مشاريع لشق طرق داخلية بحيث شمل المشروع « شق طريق يحيد عن القدس الشرقية ويربط معاليه ادوميم عبر طريق عناتا شمال شرقي القدس ولغاية سديروت اشكول قرب التلة الفرنسية » (٥٣) .

وقد اثارت مسألة استيطان الخان الاحمر خلافات واتهامات من بعض الاحزاب الاسرائيلية وحكومة رابين ، حسمت من خلال القرار الذي اتخذته الحكومة والذي نص « ان تقوم ادارة اراضي اسرائيل بتنفيذ اعمال التأسيس في ذلك المكان وستواصل الادارة العمل حتى نهاية السنة الحالية (نيسان ١٩٧٥) ثم تنتقل ، مسؤولية اعمال التعمير الى وزارة التجارة والصناعة وبعد ان ينجز المشروع تنتقل المسؤولية الى وزارة الاسكان» (٥٤) . وفي الوقت الذي صادقت فيه حكومة رابين على تخصيص ١٠ ملايين ليرة اسرائيلية من اجل تنفيذ اعمال اقامة المستوطنة الصناعية ، نوه رئيس وزراء العدو باهمية المستوطنة بالنسبة الى القدس عندما قال « ان توطين معاليه ادوميم (الخان الاحمر) ضرورة حيوية لتحصين القدس اليهودية ، وطبقا لهذا الاعتبار

اتفق على ان تكون اهمية بناء معاليه ادوميم مساوية لاهمية بناء القدس ، ولذا حظيت المستوطنة باولوية من الدرجة الاولى» (٥٥) وقد حدد الوزير يسرائيل غاليلي اهداف بناء المستوطنة بتلبية « الحاجات الاستراتيجية لتحصين القدس والحاجات البلديـــة للعاصمة » (٥٦) .

ووفق مخطط العدو لتوسيع حدود القدس فان المنطقة المراد توسيعها على الحدود الشرقية للمدينة تشمل القرى العربية : العيزرية ، ابو ديس ، العيسوية ، الطــور ، العبيدية ، عرب التعامرة ، عرب السواحرة ، والخان الاحمر » (٥٧) .

ب) اعتبار « بيت ايل » قرية بيتين حدود منطقة القدس الشمالية :

قامت المستوطنة على يد نواة « شيلوش » التابعة لكتلة جوش ايمونيم الاستيطانية، وقد حظيت اقامة المستوطنة بتأييد شمعون بيرس وزير الدفاع الصهيوني عندما سمح للمستوطنين بالاقامة في معسكر اردني مهجور يقع على اعلى قمة من جبال بيت ايل ويدعى « باعلحشور » ويبعد نحو ٩ كلم شمالي شرقي رام الله وسط مجموعة مـــن القرى العربية وتحمل المستوطنة اسم « عفره » . ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية تنوي انشاء مستوطنة جديدة في المنطقة الواقعة بين قريتي عين يارود والمزرعة الشرقيـــة في قضاء رام الله (٥٨) فقد قام عدة مئات من المستوطنين بتسوية الاراضي الواقعة بين قريتي ، عين قينيار المزرعة الشرقية تمهيدا لاقامة المباني وانشاء مستوطنـــة جديدة (٥٩) . ومن اجل ربط تلك المستوطنات بمدينة القدس كشف النقاب عن مخطط قامت بوضعه وزارة المواصلات بالتعاون مع بلدية القدس يقضي باقامة طريق « يلتف خلف مدينة القدس عن طريق النبي يعقوب ويتصل بالخان الاحمر ثم اقامة طريق خارج القدس يصل منطقة الخان الاحمر ــ برام الله ، وقالت صحيفة الشعب « ان الغاية من هذه الطريق هو عزل القدس عن الضفة الغربية » (٦٠) .

وعلى الشريط الممتد بين القدس الى قرية بيتين شمالا قام العدو بتركيز اهتمامـــه على تحصين المواقع التي تحيط بالمدينة ، ففي **منطقة قلنديا** يبدي العدو اهتماما لضم المنطقة الى المدينة ، فقد اعاد تشغيل المطار هناك كما ان ثمة خطط لاقامة مشاريـــع صناعية في قلنديا ، فقد صرح شمعون بيرس وزير دفاع العدو « ان الصناعـــــات الجوية الاسرائيلية ستقيم مصنعا للطائرات بكلفة ٦٠ مليون ليرة حول مدينة القدس ، وقال ان هذا المصنع مع المنطقة الصناعية في الخان الاحمر سيشكل جزءا حيويا من المستوطنات اليهودية التي ستحاصر مدينة القدس » (٦١) .

من جهة اخرى اشارت صحيفة معاريف عن مشروع لربط منطقة قلنديا بشبكـــة القطارات الاسرائيلية التي تمر بالقدس ، وتأكيدا على ذلك نقلت صحيفة الشعـــب تصريحا لرئيس بلدية القدس تيدي كوليك اقترح فيه « نقل محطة القطارات من القدس الى منطقة قلنديا » وذكر « ان الدراسات قد افادت انه في حال ايصال خط القطارات الى قلنديا فلن تكون هناك صعوبة فنية لايصاله الى الخان الاحمر » (٦٢) ويمكن تصور مخطط العدو هذا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المشروع الصناعي الذي اقامه العدو في قرية « عناتا » الى الشمال من مدينة القدس ، فقد اعلن تيدي كوليك ــ رئيس بلدية القدس ــ انه « متمسك بتطوير المنطقة الصناعية في عناتا وهو يرى ان لذلك اهميـــة تفوق بناء المركز الصناعي في الخان الاحمر » (٦٣) .

وتستمر سلطات الاحتلال بمصادرة بعض الاراضي الواقعة ضمن المنطقة المشمولة في مخطط توسيع القدس ، فقد لجأت الحكومة الاسرائيلية الى التستر وراء شركـــات

وهمية من اجل تمرير لعبة شراء الاراضي في قرى **بيتونيا وبيرنبالا** الواقعة الى شمال مدينة القدس ، وقد كشفت صحيفة الشعب بعض تلك الالاعيب من خلال نشر اعلانات لاصحاب تلك الاراضي يحذرون فيها من اي محاولة تستهدف شراء اراضيهم . وكان من نتيجة يقظة المواطنين واصحاب الاراضي العرب وتحركهم السريع « ان اجبر ضابط الشؤون المدلية في الضفة الغربية على ايقاف تسجيل حوالي ٤٠٠ دونم من اراضي بيتونيا والجيب وبيرنبالا » (٦٤) .

وحسب مخطط العدو لضم المنطقة الشمالية ضمن حدود مشروع القدس الموسعة فمن المفروض ضم ٤ مدن هي البيره ورام الله وبيتونيا ودير دبوان و ١٣ قرية هي : بيتين ، برقة ، كفرعقب ، جبع ، حزما ، فحماس ، قلنديا ، بيرنبالا ، بيت حنينا ، عناتا ، رافات ، جديره ، الرام (٦٥) .

د) اعتبار مستوطنة كريات اربع في مدينة الخليل حدود منطقة القدس الجنوبية :

تقع المستوطنة على طريق بني نعيم ــ الخليل واقيمت على قمة الجبل المشرف على الحرم الابراهيمي. بدأ بناء المستوطنةفي اواسط نيسان ١٩٦٨ .وفي ٢٣ ــ ١ ــ ١٩٧١ تم انشاء أول حي سكني ضم ٦٠ منزلاً . حظيت المستوطنة باهتمام خاص من قبل الحكومة الاسرائيلية وتقوم وزارة الاسكان حاليا بتنفيذ خطة لبناء ١٠٠٠ر١ وحدة سكنية حتى نهاية عام ١٩٧٧ اضافة الى مؤسسات تربوية وصناعية وتجارية وخدمات مختلفة (٦٦) . ولاجل ربط المستعمرة بمنطقة القدس « فقد تم تخصيص مبلغ ٤ ملايين ليرة لشق الطريق الذي سيصل القدس بالخليل » (٦٧) .

وصل عدد سكان المستوطنة حتى اذار ١٩٧٥ ١٠٠ الاف نسمة اغلبهم من المتدينين المتعصبين (السكناج) وينتمي القسم الاعظم منهم لحزب حيروت ، ويطمح سكان المستوطنة بازدياد اعدادهم ، فقد ذكر **موشيه ليفنجر** (رئيس المستوطنين اليهود في كريات اربع) ان سكان المستوطنة رفضوا عرضا قدمه موشى دايان باقامة علاقات قد تشمل ايضا توحيد المستوطنة اليهودية المحاصرة والخليل الاسلامية ، وبرر ذلك بقوله « ما دامت المستوطنة اليهودية متخلفة عن الخليل كثيرا في عدد السكان وليس لديها امكانات مضمونة للنمو فلن يكون مناسبا لنا ان نجري مفاوضات اذا كنا جيبا صغيرا .. فهناك ٤٠ الف عربي ، اما نحن فاقلية تعدادها ١٠ الاف وان العلاقات حاليا محدودة في المسائل التجارية » (٦٨) من جهة اخرى تحوى المستوطنة عددا كبيرا من المصانع والورش وتفيد احصاءات وزارة التجارة والصناعة ان « مموليين اسرائيليين اقاموا حتى الان نحو ٢٠ ورشة في كريات اربع من بين ٦٠ مصنعا وورشة في المناطق المحتلة » (٦٩) .

من بين **الاهداف المباشرة التي يسعى اليها العدو** وراء عملية الاستيطان في مدينة الخليل ما يلي :

أ) خلخلة الروابط الاجتماعية والاقتصادية باهالي مدينة الخليل العربية عن طريق استغلال الظروف الصعبة التي تعانيها مدينة الخليل تحت الاحتلال الصهيوني . ويمكن رؤية المخطط الصهيوني عندما فتحت سلطات الاحتلال المجال امام العمال العرب للعمل ضمن المشاريع الانشائية والصناعية لتطوير المستوطنة ، وتوجيه قوة العمال لاغراض استيطانية توسعية .

ب) يعمد العدو على تطوير وتوسيع كريات اربع وسط المدينة في وقت يحرص فيه

على ابقاء مدينة الخليل ضمن ظروف اقتصادية متخلفة الامر الذي يخلق معادلة غير متوازنة تؤدي في المدى البعيد الى اعتماد سكان مدينة الخليل (حوالي ٥٠ الف نسمة) تدريجيا على المستوطنة في سد احتياجاتهم من المصانع والمشاريع الانتاجية الاسرائيلية في مستوطنة كريات اربع ، ومن الجدير بالذكر ان العدو قام بربط شبكة كهرباء مدينة الخليل بشبكة كهرباء كريات اربع (٧٠) .

ومن الواضح ان العدو متمسك بالحفاظ على تلك المستوطنة ، مما دفع مراسل صحيفة معاريف الى القول « ان الجانب الاسرائيلي المسؤول عن البناء لا ينظر الى المسألة باعتبارها مجرد اقامة عدد من المساكن ، وانما على اساس انها مدينة حقيقية بغض النظر عن كل النتائج السياسية التي ستترتب عن احتمال قيام تسوية للنزاع العربي ــ الاسرائيلي » (٧١) . ففي اوائل شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ اصدر الحاكم العسكري في الضفة الغربية امرا بتشكيل ادارة محلية في كريات اربع ، ويأتي هذا القرار بعد سنوات من الجدل والتردد لمسألة ضم المستوطنة للكيان الصهيوني وبموجب هذا الامر فان الحي اليهودي في الخليل سيتمتع بادارة محلية تعمل حسب القانون البلدي الاسرائيلي . وقد اشارت الصحافة الاسرائيلية الى ان هذا الاجراء يعتبر الاول من نوعه خلال سنوات الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٦٧ .

تهويد الحرم الابراهيمي :

تمت عملية بناء المستوطنة جنبا الى جنب مع عملية الاغتصاب التدريجي للحرم الابراهيمي . وفي الوقت الذي قام به العدو في هدم بعض المنشئات والابنية الاثرية والوقعية الملاصقة للمسجد وتوسيع رقعة الاراضي المحيطة به فقد نشط الصندوق القومي اليهودي « الكرين كايميت » بعقد صفقات لشراء اراضي من المدينة وخاصة مع هيئات كنسية واصحاب اراض عرب يقيمون في المهجر (٧٢) .

وبعد سلسلة نشاطات وضغوط قام بها مستوطنوا كريات اربع ، اصدرت سلطات الاحتلال سلسلة اجراءات ادت في النهاية الى « **تقسيم الحرم الابراهيمي بين المسلمين واليهود بحيث خصص جناحان من الاجنحة الثلاثة من المسجد لليهود بينما خصص الجناح الثالث للمسلمين** » (٧٣) .

ولتاكيد مخطط العدو لضم كريات اربع ضمن « مشروع القدس الكبرى » اشارت صحيفة هآرتس ان « السلطات الاسرائيلية تسعى لاحاطة القدس بالمستوطنات اليهودية ولهذا الغرض اقامت الحي اليهودي في كريات اربع وتقيم حاليا منطقة صناعية في معاليه ادوميم » (٧٤) .

وعلى امتداد الطريق الممتد بين الخليل جنوبا وحتى مدينة القدس اقام العدو سلسلة من المستوطنات اهمها ما يلي :

١ ــ **هضاب الخليل الشمالية** : حيث اقيمت ثلاث مستوطنات ، في منطقة **كفار عستيون** ضمن مخططها في اقامة مجموعة قرى زراعية في المنطقة وصل عددها الى خمس مستوطنات . ويقوم الصندوق القومي اليهودي بالانفاق على مشروع لشق طريق بين غوش عستيون ومدن ومستوطنات السهل الشمالي من جهة وبين مدينة القدس من جهة اخرى .

٢ ــ منطقة بيت لحم وبيت جالا ، بيت ساحور

ففي نهاية شهر كانون الثاني عام ١٩٧٥ قامت سلطات الاحتلال بالاستيلاء على اراضي عرب الرشايدة الممتدة من الجنوب الشرقي لمدينة بيت لحم حتى الفشخة قرب البحر الميت وتدعى هذه المنطقة نجرية « تقوع » وذكرت صحيفة يديعوت احرونوت « ان ادارة اراضي اسرائيل والكرين كايجت شرعتا في شق طريق تمهيدا لاقامة مستوطنة فيها (٧٥) » من جهة اخرى قامت سلطات الاحتلال يوم ١٩٧٥/١١/١٩ « بمصادرة مئات الدونمات في منطقة بيت ساحور قضاء بيت لحم ، وانذرت السكان بضرورة اخلائها خلال خمسة عشرة يوما » (٧٦) .

وفي **منطقة بيت جالا** اعلن وزير الاسكان الاسرائيلي ان وزارته تقوم «بانشاءضاحية في جبل جالا» وقد احتج رئيس بلدية بيت جالا فرح الاعرج على ذلك وقال «ان اسرائيل ضمت منذ عام ١٩٦٧ ٥٠٠٠ دونم تخص سكان بيت جالا بغرض توسيع القدس ، والان يسعون لاقامة ضاحية في المنطقة على اراضي تبلغ مساحتها ٨٠٠ دونم تخص البلدة » (٧٧) .

وفي منطقة **بيت ساحور** قامت السلطات بمصادرة مئات الدونمات من اراضي المنطقة وقد سبق ان احتج اهالي بلدة بيت ساحور في مذكرات ارسلوها الى الحاكم العسكري في بيت لحم والى رؤساء بلديات بيت ساحور وبيت لحم وبيت جالا احتجوا فيها على مصادرة السلطات لاراضيهم وطالبوا بارجاعها (٧٨) .

وتضم المنطقة الجنوبية مدينتين هما : بيت ساحور وحلحول واحدى وعشرين قرية وهي : صورباهر ، بيت صفافا ، بيت امر ، ام طولى ، شرفات ، بيتير ، الخضر ، حوسان ، وادي فوكين ، ارطاس ، نحالين ، صوريف ، خراس ، نوبا ، بيت اولا ، سعير ، الشيوخ ، بني نعيم ، بيت كامل ، تفوح ، ترقرميا .

د) اعتبار اللطرون « مستعمرة بيت شميش » حدود مدينة القدس الغربية .

وتضم هذه المنطقة قرى : بيت اكسا ، النبي صمويل ، الجيب ، بيت سوريك ، بدو قطنة ، القبيبة ، بيت عنان ، بيت دقو ، الطيره ، عين قينيا ، دير ابزيع ، عين عريك ، بيت عور التحتا ، بيت عور الفوقا ، بيت اجزا « يالوبيت نوبا وعمواس التي دمرت في حزيران ١٩٦٧ » حنفا ، بيت صير ، بيت لقيا ، بيت تول واللطرون (٧٩) .

اهداف المخطط الاسرائيلي :

مما سبق يتبين لنا اهداف المشروع الصهيوني هي اقتطاع اجزاء من الضفة الغربية تقدر مساحتها نحو ٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية وضمها الى الكيان الصهيوني او على الاقل تحقيق الاشراف الكامل على تلك المناطق .ويأتي هذا المخطط ضمن اطار المشروع الصهيوني لتمزيق المناطق المحتلة من خلال زرع سلسلة من المستوطنات اليهودية ضمن المناطق المأهولة المحيطة بمنطقة القدس .

ولاجل هذه الغاية يعمل العدو على زيادة عدد المستوطنين في كل من القدس وكريات اربع ومعاليه ادوميم (الخان الاحمر)وتعزيز المستوطنات المحيطة بها في قرية بيتين ، وجبل جيلا ، واقامة بعض الضواحي السكنية في بيت ساحور ومنطقة اللطرون .

وقد كشفت صحيفة هآرتس عن وثيقة سرية حول « مشروع القدس الكبرى »

تضمنت خطة لبناء ٣٠ الف وحدة سكنية . حيث قررت اللجنة الوزارية « البدء في بناء تلك الوحدات في القدس ، منها ٦٥٠٠ مسكن في « راحون » من اراضي قرية النبي صمويل و ٨٠٠٠ وحدة سكن في حبيلو (بيت جالا) و ٢٤٠٠ وحدة في تل ديون . و ١٠٠٠ وحدة في النبي يعقوب و ٩٠٠ وحدة في محطة اللنبي ، و ١٧٠٠ وحدة سكنية في رامات هاكيرم » (٨٠) .

ومن جهة اخرى كشف تيدي كوليك ان عدد السكان في كلا شطريها يتراوح بين ٥٥٠ — ٦٠٠ الف نسمة من عرب ويهود (٨١) . واذا ما راعينا عدد السكان العرب في حدود الثمانين الفا فان عدد السكان اليهود في القدس حاليا يبلغ ما بين ٤٧٠ — ٥٢٠ الف يهودي (٨٢) . وقد اشارت صحيفة دافار (١٩٧٥/٤/١٤) ان ثمة زيادة طرأت على عدد اليهود خلال العشر السنوات الماضية بنحو ١٤٢ الفا . وقالت انه « بلغ عدد المهاجرين اليهود الجدد الذين تم استيعابهم (في الاحياء الجديدة التي اقامتها سلطات الاحتلال بعد عام ١٩٦٧ في مدينة القدس) نحو ١٣ الف شخص خلال عام ١٩٧٤ فقط . وقد اوضح مدير لواء القدس والجنوب في وزارة الاستيعاب الاسرائيلية « ان القدس تستوعب ١٠٪ من مجموع القادمين الجدد » (٨٣) .

الخلاصـــة :

ازدادت حمى الاستيطان الاسرائيلي في المناطق المحتلة في اعقاب حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ وحتى الوقت الحاضر . وهذه دلالة هامة على عزم العدو الصهيوني على تكريس واقعه الاحتلالي التوسعي رغم كل ما يقال عن امكانية تحقيق « تسوية سياسية » في المنطقة . واذا كانت مخططات العدو الاستيطانية قد كشفت اوهام البعض حول ما يسمى « بالسلطة الوطنية » على اراضي الضفة الغربية وقطاع غزة . فان اهتمام العدو بتعزيز قدراته العسكرية وتطويرها وتحصين مواقعه الامامية يعطي مؤشرا هاما لنواياه العدوانية على المديين القريب والمتوسط .

ومما سبق يتبين لنا ان العدو الصهيوني لم يلتزم بمشروع محدد ازاء نظرته المستقبلية للاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، في وقت حكمت سياساته خطوطا عريضة ، واطرا معينة شكل الاستيطان محورها الرئيسي . ومن خلال متابعة تصريحات العدو الرسمية نجد ان سياسة العدو تتركز على الاسس التالية :

١) بالنسبة الى الضفة الغربية وقطاع غزة : فان اقصى ما يمكن ان « يتنازل » به العدو هو اقامة « حكم ذاتي » في الضفة والقطاع مرتبط بالنظام الاردني بعلاقة فيدرالية او كونفدرالية من جهة ويكون الكيان الصهيوني محتفظا بالمستوطنات العسكرية التي اقامها في بعض المواقع الاستراتيجية في وادي الاردن وقطاع غزة من جهة اخرى . هذا عدا تمسكه بمدينة القدس والمستوطنات الدينية المحيطة بها (وخصوصا كريات اربع) ، باعتبارها جزء من كيانه ولا تقبل الجدل والمناقشة او التفاوض في اي محادثات ترمي الى تحقيق تسوية سياسية في المنطقة .

٢) بالنسبة الى هضبة الجولان : — ففي الوقت الذي يعمل العدو على تطوير وتوسيع مستوطناته عليها ، فهو يرى من خلالها ما يعزز مواقعه العسكرية من جهة وورقة هامة للضغط على سوريا لتقديم تنازلات سياسية تؤدي في النهاية الى تجريد الجولان من السلاح على الاقل من خلال اتفاق من شأنه ان ينهي حالة الحرب في المنطقة ويعطيه مكاسب سياسية وعسكرية هامة على غرار ما حصل عليها من خلال اتفاق سيناء او ربما اكثر من ذلك بكثير .

واذا كانت ثمة صعوبات تعترض سياسة العدو الاستيطانية فهي تتعلق بقدراته البشرية نتيجة الانخفاض الشديد الذي طرأ على معدلات الهجرة اليهودية خلال السنوات الثلاث الماضية وما رافقها من ازمات اقتصادية اثرت ـ بشكل محدود ـ على مشاريع البناء اللازمة لتطوير مستعمراته . وعلى الرغم من ان ثمة تغيرات طرأ على مواقف بعض الاحزاب والكتل السياسية الصهيونية باتجاه ايقاف عمليات الاستيطان ، الا ان تأثيرها كان محدودا حيث لم تزل بعيدة عن مواقع السلطة صاحبة القرار السياسي اضافة الى بروز تيارات متطرفة تدفع باتجاه استكمال عمليات الاستيطان في اطار سعيها الحثيث للاحتفاظ بالمناطق المحتلة .

لقد شكل القتال واستمراره العامل الاهم في اضعاف مراكز العدو الاستيطانية وحمل المستوطنيين الصهيونيين للنزوح عن العديد من المستعمرات التي انشأها العدو وخاصة على الحدود الشمالية من فلسطين وفي هضبة الجولان . بيد أن حالة الجمود السياسي والعسكري التي تلت حرب تشرين ١٩٧٣ اتاحت للعدو فرص معالجة الظواهر السلبية التي نتجت عنها ، وافسحت المجال امامه لتعزيز مستوطناته على نحو اكثر قدرة وقوة .

وعلى الجانب الاخر فقد رافقت عمليات الاستيطان مقاومة شديدة من جانب جماهيرنا العربية داخل الوطن المحتل التي ظلت متمسكة بارضها وبحقوقها رغم الاجراءات القمعية التي تمارسها سلطات العدو خلال سنوات الاحتلال الماضية .

وقد تراكمت سلسلة النضالات الجماهيرية لتشكل اروع انتفاضة جماهيرية عارمة عمت المدن والقرى الفلسطينية منذ اوائل العام الحالي وحتى الوقت الحاضر . وليس من شك ان الصراع حول الارض شكل محور النضال العربي الفلسطيني ضد ابشع استعمار عنصري استيطاني شهده التاريخ الوسيط والحديث .

الهوامش :

١ ـ معاريف ١٩٧٥/٢/٢٠
٢ ـ السفير ١٩٧٥/١١/٤
٣ ـ صرح ابراهام عوفر وزير الاسكان الاسرائيلي (هاتسوفيه ١٩٧٥/٥/٣٠) « انشىء منذ حزيران ١٩٦٧ «٧٥» مستوطنه جديدة منها «٦٥» مستوطنة خارج الخط الاخضر » .
٤ ـ اشارت الاحصائيات الاسرائيلية انه تم انفاق نحو ٨٩٠ مليون ليرة اسرائيلية منذ حزيران ١٩٦٧ وحتى منتصف عام ١٩٧٤ في مجال الاستيطان في مناطق عام ١٩٦٧في حين بلغت ميزانية الحكومة لعام ٧٤ ـ ١٩٧٥ نحو ٤٣١ مليون ليرة .
٥ ـ معاريف ١٩٧٥/٣/٥
٦ ـ هآرتس ١٩٧٥/٢/٧
٧ ـ ر١٠١٠ ١٩٧٥/١/٢
٨ ـ انظر : التقرير الشهري العام لدائرة شؤون الوطن المحتل لشهري شباط وآذار ١٩٧٥ .
٩ ـ ر١٠١٠ ١٩٧٥/٥/٣١ .
١٠ـ دافار ١٩٧٥/١١/١١
١١ـ عل همشمار ١٩٧٥/١٢/١٠
١٢ـ دافار ١٩٧٥/٥/١٩
١٣ـ دافار ١٩٧٥/٤/٢٢
١٤ـ معاريف ١٩٧٥/١/١٤
١٥ـ معاريف ١٩٧٥/١/١٥
١٦ـ معاريف ١٩٧٥/١٠/٢٠
١٧ـ الرأي الاردنية ١٩٧٥/٦/٢
١٨ـ عل همشمار ـ الملحق ـ ١٩٧٥/٢/١٤
١٩ـ نفس المصدر .
٢٠ـ مجلة فلسطين المحتلة العدد : ٣٧ /١٥ ١٩٧٥/١٢ .

٢١- صحيفة الشعب المقدسية ١٩٧٥/٧/٨ ٠
٢٢- دافار ١٩٧٥/١١/٣٠
٢٣- الاتحاد ١٩٧٥/٢/١٨ ٠
٢٤- نشرت صحيفة عل همشمار (١٤/٢/١٩٧٥) مزيدا من التفاصيل للضغوط التي مارستها سلطات الاحتلال ضد المواطنين العرب في مشارف رفح ٠
٢٥- الرأي الاردنية ١٩٧٥/٦/٢ ٠
٢٦- نفس المصدر ٠
٢٧- عل همشمار ١٩٧٥/٥/٢٦
٢٨- عل همشمار ١٩٧٥/٥/٢٧
٢٩- صحيفة الانباء الاسرائيلية ١٩٧٥/١/٢٧
٣٠- القدس ١٩٧٥/٥/١٠ ٠
٣١- جيروساليم بوست ١٩٧٥/٦/١٢
٣٢- ر١٠١٠ ١٩٧٥/١٢/٣
٣٣- ر١٠١٠ ١٩٧٥/١٢/٢٤
٣٤- مجلة فلسطين المحتلة العدد : ٣٨ ١٢/٢٢/ ١٩٧٥ ٠
٣٥- النهار اللبنانية ١٩٧٥/١٢/٦ ٠
٣٦- يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٢/١٨ ٠
٣٧- النداء اللبنانية ١٩٧٤/٢/٨
٣٨- السفير اللبنانية ١٩٧٥/٤/٦ ٠
٣٩- تصريح لاسحق رابين - رئيس وزراء العدو ٠ الانوار ١٩٧٥/٥/١١
٤٠- دافار ١٩٧٥/٢/٧ ٠
٤١- عل همشمار ١٩٧٤/٧/٢٦
٤٢- انظر : عيسى الشعيبي « سيناريو الاستيطان الاسرائيلي في الضفة الغربية المحتلة » السفير ١٩٧٥/٣/٢٥ ٠
٤٣- هآرتس ١٩٧٤/١٠/١٠
٤٤- هاتسوفيه ١٩٧٥/٣/١١ ٠
٤٥- النهار اللبنانية ١٩٧٥/١٢/١١ ٠
٤٦- ر١٠١٠ ١٩٧٦/٣/٢٠
٤٧- معاريف ١٩٧٥/٥/٤
٤٨- دافار ١٩٧٤/٩/١٣
٤٩- الفجر المقدسية ٧٤/١٢/٦
٥٠- جيروساليم بوست ١٩٧٤/١١/٨
٥١- يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٣/٥
٥٢- دافار ١٩٧٥/١/٢٠
٥٣- يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٣/٩
٥٤- هآرتس ١٩٧٥/١/١٣
٥٥- معاريف ١٩٧٥/١/١٣
٥٦- يديعوت احرونوت ١٩٧٥/١/٢٢
٥٧- انظر : مذكرة روحي الخطيب امين القدس الى رئيس اللجنة الملكية لشؤون القدس الدستور الاردنية ١٩٧٥/٦/١
٥٨- السفير اللبنانية ١٩٧٥/١٢/٥ ٠
٥٩- مجلة فلسطين المحتلة العدد : ٣٩ ، ١٩٧٥/١٢/١٩ ٠
٦٠- الشعب المقدسية ١٩٧٥/١/١٣ ٠
٦١- هآرتس ١٩٧٥/٢/٢٨
٦٢- الشعب المقدسية ١٩٧٥/١١/١٩ ٠
٦٣- الفجر ١٩٧٥/١/١٤
٦٤- الشعب المقدسية ١٩٧٥/٢/٧
٦٥- مذكرة روحي الخطيب - المصدر السابق٠
٦٦- يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٢/٢٥
٦٧- معاريف ١٩٧٥/٣/٦ ٠
٦٨- جيروساليم بوست ١٩٧٥/٣/٦
٦٩- يديعوت أحرونوت ١٩٧٥/٢/٢٥ ٠
٧٠- لمزيد من التفاصيل انظر التقرير الخاص الصادر عن مركز التخطيط بتاريخ ٤/٢/ ١٩٧٥ بعنوان « مستوطنة كريات اربع في مدينة الخليل » ٠
٧١- بيروت ١٩٧١/٥/٢٨ ٠
٧٢- هآرتس ١٩٧٥/١/٤ ٠
٧٣- الشعب المقدسية ١٩٧٥/٨/١٥
٧٤- هآرتس ١٩٧٥/٢/٧
٧٥- يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٥/٢٢
٧٦- السفير اللبنانية ١٩٧٥/١١/٢١ ٠
٧٧- هآرتس ١٩٧٥/١٠/١٢
٧٨- البعث السورية ١٩٧٤/٧/١٦
٧٩- مذكرة روحي الخطيب - المصدر السابق٠
٨٠- وفا ١٩٧٥/١٠/٢٨
٨١- هاموديع ١٩٧٥/٢/١١ ٠
٨٢- مذكرة روحي الخطيب - المصدر السابق٠
٨٣- دافار ١٩٧٥/٤/١٤

مستقبل الليرة الاسرائيلية

عبد القادر شهيب

لم تهنأ العملة الاسرائيلية والليرة ، طول عمر اسرائيل وحتى الان بالاستقرار ، فمنذ عام ١٩٤٨ — عام قيام اسرائيل — والليرة الاسرائيلية تتعرض لسلسلة من التخفيضات التي لم تنته بعد حتى الان ! .. كان الدولار عند قيام اسرائيل في عام ١٩٤٨ يساوي ليرة واحدة ، والان الدولار يساوي ٧ر٥٣ ليرة ، بل ان التقديرات الرسمية لخبراء وزراء المالية الاسرائيلية تتوقع أن يصل سعر الدولار في نهاية العام الحالي الى ٩ر٧ ليرة ، وذلك بسبب اجراءات (التخفيض الزاحف للعملة) والتي تعد احد البنود الهامة في السياسة التقشفية التي تبنتها الحكومة الاسرائيلية منذ قليل ، وتتمسك بها حتى الان في سعيها لتطويق الازمة التي تمسك وبعنف بخناق اقتصادها .. وهكذا لا يلوح في الافق امام العملة الاسرائيلية غير تضاعف المتاعب ، وعدم الاستقرار ، فمنذ نهاية العام الماضي ، تكاد الليرة الاسرائيلية تتعرض شهريا للتخفيض في قيمتها .

الشكلين معا :

ولقد تعرضت قيمة الليرة الاسرائيلية لكل هذه التقلبات والتغيرات نتيجة للاهمية الخاصة التي منحها القائمون على ادارة الاقتصاد الاسرائيلي لمسألة تعديل اسعار الصرف معا ، وهما .. اولا تخفيض قيمة العملة من خلال تعدد اسعار الصرف الاقتصادية التي تبنتها الحكومات المتعاقبة في اسرائيل ، وزادت اهميتها مؤخرا في السياسة التقشفية الجديدة التي تحاول الحكومة الاسرائيلية تنفيذها تخفيفا لحدة المشاكل التي يعاني منها الاقتصاد الاسرائيلي حيث يخضع سعر الليرة الان لاعادة النظر في امره شهريا !

ولان مسألة تعديل اسعار الصرف ، كانت وما زالت لها مثل هذه الاهمية في تفكير مديري الاقتصاد الاسرائيلي ، فلقد عرف هذا الاقتصاد شكلي تعديل اسعار الصرف معا ، وهما .. اولا تخفيض قيمة العملة من خلال تعدد اسعار الصرف الرسمية او الفعلية (١) ، وثانيا تخفيض قيمة العملة الرسمية مباشرة بالنسبة للعملات الاجنبية (٢) .. بل والاكثر من هذا ان الاقتصاد الاسرائيلي لم يعرف شكلي تعديل اسعار الصرف معا فقط ، بل انه افرط في استخدامها كثيرا .

ففي اسرائيل تتعدد اسعار الصرف لليرة بالعملة الاجنبية .. ويمكننا التمييز بين ستة اسعار مختلفة للصرف هي .. السعر الرسمي ، والسعر القانوني ، والسعر الحقيقي ، وسعر التعادل ، والاسعار الفعالة ، واسعار السوق السوداء (٣)

الليرة .. ورحلة التخفيضات :

أما تخفيض قيمة العملة الرسمية بالنسبة للعملات الاجنبية ، فلقد عرفه الاقتصاد الاسرائيلي مبكرا للغاية ، وفي العام الاول من عمر اسرائيل ، ثم تلاه تخفيض اخر في العام الثاني ، حتى اذا ما جاء عام ١٩٦٢ ، كانت الليرة الاسرائيلية قد تعرضت للتخفيض خمس مرات متتالية . (٤)

وفي مواجهة تخفيض قيمة الجنيه الاسترليني عام ١٩٦٧ ، قامت الحكومة الاسرائيلية بتخفيض قيمة عملتها بنسبة ٣ر١٤٪ ليصير سعر الدولار ٥ر٣ ليرة .

ثم عادت الحكومة الاسرائيلية الى اجراء تخفيض جديد لعملتها عام ١٩٧١ ليرتفع سعر الدولار الى ٢ر٤ ليرة اسرائيلية ، ولقد جاء هذا التخفيض في اعقاب الاجراءات الاقتصادية التي اعلن عنها الرئيس الامريكي نيكسون وقتها علاجا لازمة ميزان المدفوعات الامريكي ، فأي تغير في قيمة الدولار كان من الضروري أن يترك اثره في قيمة الليرة الاسرائيلية خاصة وأن خمس اجمالي الصادرات الاسرائيلية يتجه اساسا الى الولايات المتحدة الامريكية (٥)

وعندما اضيفت اعباء حرب اكتوبر ١٩٧٣ الى ما يتحمله الاقتصاد الاسرائيلي من اعباء ، تفاقمت مشاكل هذا الاقتصاد ، فلقد كلفت هذه الحرب الاقتصاد الاسرائيلي ثمنا باهظا بلغ اكثر من سبعة امثال نفقات حرب يونيو ١٩٦٧ . لقد اعلن بنحاس سابير وزير المالية السابق وهو يقدم اول ميزانية اسرائيلية بعد اكتوبر ١٩٧٣ : « أن الحرب كلفت البلاد خسائر في الانتاج والاستثمارات قدرت بحوالي ٣٠ مليار ليرة اسرائيلية ، ! بينما بلغت تكاليف حرب يونيو ٤ مليارات ، ٣٧٥ مليون ليرة فقط » (٦)

ولمواجهة هذه الاعباء اعلنت اسرائيل ما يسمي وقتها (بأقسى) برنامج تقشف او « السياسة الاقتصادية الجديدة » في نوفمبر ١٩٧٤ ، وتضمن هذا البرنامج فرض ضرائب ورسوم جديدة ، ورفع لمعدلات بعض الضرائب والرسوم القائمة ، وتخفض بعض النفقات ، ومنع استيراد بعض السلع ، مثل السلع الكهربائية والسيارات وغيرها ، لمدة ستة اشهر ، الى جانب اجراءات نقدية تستهدف الحد من التوسع في الاقراض ، وشمل هذا البرنامج ايضا تخفيضا جديدا لليرة الاسرائيلية بنسبة ٤٣٪ . وكان هذا التخفيض هو التخفيض الثامن لها . (٧)

غير ان هذا التخفيض الجديد لليرة الاسرائيلية ، وبقية الاجراءات الاقتصادية التقشفية كلها ، لم تنجح في وقف التدهور الاقتصادي الذي تعاني منه اسرائيل ، فتصاعدت صيحات الخبراء الاقتصاديين فيها تهدد من حلول خطر الافلاس ، وتنتقد وبقسوة السياسات المالية والاقتصادية ، واستحوذ وزير مالية اسرائيل على الاغلب الدائم من هذا النقد حتى انه ظل يردد دائما : « انني اذا اضطررت الى السير فوق بضعة مسامير .. سأفعل ذلك ! » . وعلقت مجلة التايم على ذلك القول : « ان وزير المالية يسير بالفعل على عدد وافر من هذه المسامير ! » (٨)

ولذلك لم تلجأ الحكومة الاسرائيلية فعلا الى اجراء تخفيض جديد لعملتها ولكنها اعلنت عن برنامج شامل للتخفيض الزاحف لعملتها ، تخففا من الام هذه المسامير . ففي منتصف شهر يونيو ١٩٧٥ ، عندما وافقت الحكومة الاسرائيلية على تخفيض جديد لليرة بنسبة ٢٪ قامت في نفس الوقت بتعيين لجنة وزارية مسئولة لمراقبة

سعر تبادل العملة ، برئاسة وزير المالية ، وتضم وزراء التجارة والصناعة والعدل ، وخولت هذه اللجنة حق اجراء اية تخفيضات جديدة لليرة بنسبة ٢٪ بعد التشاور مع رئيس مصرف اسرائيل ، وبعد موافقة رئيس الحكومة ، على الاقل المدة التي تنقضي منذ التخفيض السابق عن ثلاثين يوما (٩) ، وقد سمي هذا التخفيض الجديد بالتخفيض الزاحف .

ومنذ ان شكلت هذه اللجنة (لجنة التخفيض الزاحف لليرة) وهي تمارس الصلاحيات التي خولت لها في تخفيض الليرة الاسرائيلية تقريبا مرة كل شهر وكان اخر تخفيض لليرة الاسرائيلية بنسبة ٢٪ في شهر مارس (١٩٧٦) حيث ارتفع سعر الدولار ليساوي ٧ر٥٣ ، وهذا هو التخفيض رقم (١٦) للعملة الاسرائيلية منذ قيام اسرائيل ، والتخفيض رقم (٨) منذ الاعلان عن خطة التخفيض الزاحف للعملة الاسرائيلية ، ويجمع كثيرون من خبراء الاقتصاد ورجاله خارج اسرائيل وداخلها ان هذا التخفيض لن يكون اخر تخفيض للعملة الاسرائيلية ، خاصة وان الحكومة الاسرائيلية ما برحت متمسكة بخطة التخفيض الزاحف للعملة والتي اعلنتها منذ قرابة التسعة اشهر . بل ان مصدرا اسرائيليا مسئولا صرح تعليقا على اخر تخفيض تم للان : « ان الحكومة تبحث اجراء التخفيض على فترات اقل من الثلاثين يوما ! » (١٠)

وهكذا لن تقدر الليرة الاسرائيلية — كما يبدو في المستقبل المنظور — ان تهنأ بنوع من الاستقرار ، كما لم يتح لها ذلك في الماضي المعروف . بل لعل هذا الاستقرار المفقود سوف يكون مضاعفا .

عدم الاستقرار .. لماذا ؟

كانت توجد باستمرار اسباب تفرض على الليرة الاسرائيلية عدم الاستقرار ، وهذه الاسباب تضاعف عددها وزاد تأثيرها ، وان كانت تختلف نوعيتها من فترة الى اخرى ! .. فلا توجد اسباب واحدة تفسر كل هذه التخفيضات التي تعرضت لها الليرة الاسرائيلية . ولكن توجد اسباب خاصة بكل مرحلة مر بها الاقتصاد الاسرائيلي وعملته .

ويمكننا التمييز بين ثلاث مراحل تتميز كل منها باسباب خاصة فرضت على العملة الاسرائيلية عدم الاستقرار ، وعرضتها للتخفيض المرة تلو الاخرى .

المرحلة الاولى : ظروف النشأة غير الطبيعية :

ترجع اسباب التخفيضات التي تعرضت لها الليرة الاسرائيلية في السنوات الاولى الى ظروف النشأة غير الطبيعية لاسرائيل ، ففضلا عن عدم الاستقرار الذي تميز به الاقتصاد الاسرائيلي وقتها (نتيجة لاختلال العلاقات داخله بين الاسعار والاجور والاستثمارات) فلقد ووجه القائمون على ادارة هذا الاقتصاد بمطالب اقتصادية هامة كان عليهم تلبيتها وهي :

اولا : مواجهة مشاكل المهاجرين الجدد الى اسرائيل خاصة وان السنوات الاولى في حياتها شهدت سيلا جارفا من المهاجرين من مختلف بلاد العالم فقد بلغ عدد اليهود المهاجرين الى اسرائيل منذ قيامها حتى عام ١٩٦٥ اكثر من مليون ونصف مليون يهودي من انحاء العالم . (١١)

وكان على حكومة اسرائيل ، وبالذات القائمون فيها على ادارة اقتصادها ، أن

يوفروا احتياجات هذا العدد الضخم من المهاجرين ، سواء كانت هذه الاحتياجات مسكنا او فرصة عمل ، او قدرا من الخدمات لا يمكن الاستغناء عنه !

ثانيا : مواجهة مشكلة الامن التي ولدت اسرائيل تعاني منها بسبب نشأتها غير الطبيعية والعدوانية ، ولذلك احتمت حكومات اسرائيل منذ قيامها بتخفيض نسبة كبيرة للغاية من اموال ميزانيتها العامة لانفاقها في اغراض بناء جيشها ، وتدعيم قدراته العسكرية . فمنذ أن قامت وحتى عدوان يونيو ١٩٦٧ وهذه النسبة تكاد لا تقل عن ٣٠٪ من ميزانيتها الا في عامين اثنين ، هما عامي ١٩٥٩ (١٨٪) ، ١٩٦١ (٢٥ ٪) . (١٢)

ثالثا : محاولة تحقيق نسبة مرتفعة من النمو بتحقيق قدر كبير نسبيا من الاستثمارات ، فمنذ قيامها واسرائيل قد وضعت نصب عينها أن تحقق سياستها الاقتصادية برنامجا استثماريا كبيرا ، واتخذت باستمرار من الادوات والوسائل ما يساعدها على ذلك (١٣) . فقد كان النمو الاقتصادي المرتفع والاستثمارات الكبيرة ضرورية لتحقيق المطلبين السابقين بالاضافة الى ظروف الحصار الاقتصادي المفروض عليها من قبل الدول العربية المحيطة بها .

ولمواجهة هذه المطالب الضرورية للسياسة الصهيونية والعدوانية التي تنتهجها الدولة الجديدة ، لجأت الحكومة الاسرائيلية الى اتباع السياسة النقدية السهلة ، وهي المتاحة لها وقتها ، فلقد درجت خلال هذه السنوات على تمويل جزء من ميزانيتها ومشروعاتها الاستثمارية بالعجز ، وذلك عن طريق الاقتراض من البنك المركزي ، وهي سياسة مماثلة لسياسة الاسراف في طبع النقود بلا غطاء . كما توسعت في حجم الائتمان المقدم للجمهور والحكومة واسرفت في استعمال الارصدة الفائضة لديها من العملات الاجنبية . (١٤)

ولقد ترتب على هذه السياسة ان زاد حجم الكتلة النقدية بنسبة تفوق الزيادة الحقيقية في مجمل الناتج القومي الاسرائيلي . فبينما زاد حجم هذه الكتلة النقدية في اسرائيل خلال الخمسة عشر عاما الاولى من عمرها تسعة اضعاف ، فلقد زاد الناتج القومي اربعة اضعاف فقط خلال هذه الفترة (١٥) . وهذا ما ادى الى الارتفاع المستمر في الاسعار وشيوع ظاهرة التضخم في الاقتصاد الاسرائيلي حتى صارت هذه الظاهرة احدى السمات الخاصة لهذا الاقتصاد منذ نشأة اسرائيل وحتى الان . (١٦)

وبسبب هذا التضخم الذي عانت منه اسرائيل ، وفي محاولة — كانت دائما غير ناجحة — للحد من تفاقمه ، لجأت الحكومات الاسرئيلية الى اجراء التخفيض تلو الاخر في قيمة الليرة الاسرائيلية . . وهكذا (شهد الاقتصاد الاسرائيلي طوال حياته دورة حلزونية من ارتفاع الاسعار ، وتخفيض العملة الرسمي ، وغير الرسمي (الفعلي) يتبعه ارتفاع في الاسعار يقضي على الاثار التي استهدفها التخفيض الاول ، وبالتالي يجعل من الضروري اجراء تخفيض اخر . .) (١٧)

ونستخلص من ذلك ان التخفيضات المتتالية في قيمة الليرة الاسرائيلية خلال هذه المرحلة (حتى عام ١٩٦٢) قد فرضتها ظروف النشأة غير الطبيعية لاسرائيل ، وظروف الملائمة التدريجية مع الواقع البنياني للاقتصاد الاسرائيلي بالاضافة الى اتباع الحكومة الاسرائيلية لسياسة نقدية — كان لا مفر من اتباعها بسبب هذه الظروف غير الطبيعية — ساهمت في الارتفاع المستمر للاسعار وزيادة حدة التضخم .

المرحلة الثانية : الطبيعة الشاذة للاقتصاد الاسرائيلي :

اما في المرحلة الثانية فقد كان تخفيض الليرة يرجع سببه الى الطبيعة الشاذة للاقتصاد الاسرائيلي ، وهي القائمة على الاعتماد اساسا على المصادر الخارجية في تمويل نشاطها الاستثماري . فمعظم الاستثمارات التي حققها الاقتصاد الاسرائيلي طوال فترة وجوده حتى الان لم يتم تمويلها عن طريق الادخار المحلي ، بل عن طريق المصادر الخارجية ، واعلى نسبة ساهمت بها المدخرات المحلية لم تتجاوز ٤٥٪ (أي اقل من النصف) وكانت في السنوات ما بين ١٩٦٠ ، ١٩٦٥ ، ولكنها انخفضت بعد حرب يونيو الى ٢٢٪ فقط . (١٨)

وعلى العكس كانت نسبة مساهمة المصادر الخارجية في الاستثمارات الاسرائيلية مرتفعة ، خاصة في هذه المرحلة ، حتى ان المساعدات الامريكية وحدها لاسرائيل في السنوات الاربع ما بعد ١٩٦٧ ، بلغت نصف جملة الزيادة خلال ثلاثة وعشرون عاما كاملة من عمر اسرائيل . (١٩)

ومن هنا اكتسبت العلاقات الخارجية الاقتصادية والتجارية لاسرائيل مع العالم الخارجي ، اهمية كبيرة في عقل المخطط الاقتصادي الاسرائيلي ، ولذلك اهتم بتحديد اسعار صرف متوازية لليرة الاسرائيلية على ضوء الاهمية الكبرى للعلاقات الاقتصادية والتجارية لاسرائيل مع العالم الخارجي ، وما يفرضه ذلك ايضا من اهمية معالجة الاختلال المزمن في ميزان المدفوعات او التخفيف من حدته بقدر الامكان .

وهذا هو ما يفسر التخفيضات التي اقدمت عليها الحكومة الاسرائيلية لقيمة عملتها في هذه المرحلة . ففي عام ٦٧ قامت الحكومة البريطانية باجراء تخفيض في قيمة الجنيه الاسترليني ، وحتى تتمكن اسرائيل من أن تواجه اثار هذا التخفيض قامت بدورها بتخفيض قيمة عملتها — وللمرة السادسة منذ انشائها — بنسبة ١٤٫٣٪ ليصبح سعر الدولار ٣٫٥ ليرة اسرائيلية . فلقد ارادت الحكومة الاسرائيلية ان تحافظ على مستوى علاقاتها التجارية مع بريطانيا حيث كانت الاخيرة تمثل السوق الثانية لاسرائيل .

وعلى اثر ذلك شهد الاقتصاد الاسرائيلي موجة توسعية جديدة بعد الركود الذي عانى منه في الاعوام ١٩٦٥ و ١٩٦٧ فزادت الاستثمارات بتوسط سنوي قدره ٣٠٪ وزاد الانتاج المحلى ، وكان من المتوقع ان يؤثر هذا في مستويات الاجور والاسعار بالارتفاع ، غير ان الاجور ظلت ثابتة نتيجة للاتفاق بين الحكومة والاتحادات التجارية واصحاب العمل خلال عام ١٩٦٧ لتجميد الاجور ، كذلك لم ترتفع الاسعار بمعدل ملحوظ بسبب الزيادة الكبيرة في حجم الواردات عام ١٩٦٨ ، فغطت الفجوة بين الانتاج المحلي والطلب ، ولقد ادى ذلك الى زيادة العجز في ميزان المدفوعات حتى وصل الى ١٣٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٠ (اي ما يماثل ٢٥٪ من الناتج القومي) بينما لم يزد التدفق الراسمالي من الخارج بصورة ملحوظة تغطي عجز ميزان المدفوعات، فانخفض احتياطي اسرائيل من الذهب والعملات الاجنبية من ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٨ الى ٣٨٠ مليون دولار عام ١٩٧٠ . (٢٠) اي انخفض بنسبة ٢٤٪ خلال سنتين فقط !

وبسبب تفاقم مشكلة (العجز في ميزان المدفوعات) على هذا النحو ، لجأت الحكومة الاسرائيلية مرة اخرى (السابعة) في عام ١٩٧١ الى تخفيض قيمة عملتها بنسبة ٥٠٪ ليصبح الدولار يعادل ٤٫٢ ليرة اسرائيلية .

غير ان هذا التخفيض جاء عقب الاجراءات الاقتصاوية التي اعلنها الرئيس الامريكي السابق نيكسون علاجا لازمة ميزان المدفوعات الامريكي ، نتيجة (قــــوة الروابط التجارية بين اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية .) ففي السنوات الاخيرة مثلا كانت الصادرات الاسرائيلية الى امريكا تعادل خمس اجمالي كل صادراتها . (٢١)

وخلاصة القول .. ان التخفيض الذي تعرضت له الليرة الاسرائيلية في هــــذه المرحلة ولمرتين (١٩٦٧ و ١٩٧١) يرجع سببه اساسا الى الطبيعة الشاذة للاقتصاد الاسرائيلي ، والتي تتسم بالاعتماد الكبير على المصادر الخارجية في تمويل الاستثمارات الداخلية ، ولذلك كان تخفيض العملة خلال هذه المرحلة يستهدف امرين معا : الامر الاول معالجة مشكلة تحديد اسعار الصرف لليرة الاسرائيلية على ضوء الاهميـــة الكبرى للعلاقات الاقتصادية والتجارية لاسرائيل مع العالم الخارجي ، وهو ما يؤكده ان تخفيض العملة في هذه المرحلة كان يأتي دائما في اعقاب اجراءات اقتصادية خــارج اسرائيل وفي دول لها روابط اقتصادية او تجارية وثيقة بها ، .. والامر الثانـــي تخفيف حدة الاختلال المزمن في ميزان المدفوعات وهو الامر الذي سيصبح احــــد المشاكل الرئيسية للقائمين على ادارة الاقتصاد الاسرائيلي ، وحتى الان !

المرحلة الثالثة : البديل المرغوب فيه :

اما في المرحلة الثالثة ــ والتي بدأت بعد حرب اكتوبر ــ فلقد صار تخفيض الليرة الاسرائيلية ضرورة اقتصادية يحبذها الساسة الاسرائيليون ، أو بديلا مرغوبــا فيه من جانب القائمين على ادارة الاقتصاد الاسرائيلي والحكم كله .

فلقد كانت امامهم عدة اختيارات لمعالجة مشاكل الاختلال في الميزان التجـــاري وميزان المدفوعات اهمها :

اولا : الاعتماد على احتياطي الذهب والعملات الاجنبية القابلة للتحويل . غير أن هذه الوسيلة كانت تعد غير مجدية في ظروف مثل ظروف اسرائيل ، فهـي تفترض اساسا أن تكون النسبة بين حجم الاحتياطي من الاصول الاجنبية والذهب الى حجم التجارة الخارجية ، كبيرة نسبيا ، وأن تكون مشكلة العجز في الميزان التجاري ذات طبيعة عارضة او سطحية . وهذه الشروط لم تكن متوفرة في الظروف الاقتصاديـــة لاسرائيل . فالعجز في الميزان التجاري الذي تعاني منه اسرائيل هو عجز من النوع المزمن يتزايد عاما بعد الاخر ، وقد وصل في نهاية العام الماضي (١٩٧٥) الى حوالي ٣ مليارات دولار (٢٢) بينما الحجم النسبي لاحتياطي اسرائيل من العملات الاجنبية ضئيل وفي تناقص مستمر ، حتى اصبح هذا الاحتياطي لا يكفي لاكثر من ستة اسابيـع بدلا من ثلاثة شهور . (٢٣)

ولهذه الاسباب استبعد رجال الاقتصاد الاسرائيلي هذا الاختيار مـــن بيــــن الاختيارات المطروحة عليهم لمعالجة مشاكل الميزان التجاري وميزان المدفوعات .

ثانيا .. اللجوء الى تخفيض او تجميد مستويات الاسعار والاجور ، لمحاولة احتواء اي ارتفاع في تكلفه انتاج سلع التصدير ، حتى لا تفقد ميزتها النسبية في الاســـواق العالمية فيتناقص الطلب عليها . وهذه الوسيلة تقتضي اتباع سياسة نقدية مرنـــة ، وتستلزم تجاوبا كبيرا من جانب نقابات العمال فتتراخى في مطالبتها بزيـــادة اجـــور العمال المنضمين لها ، وهو أمر من الصعب تحقيقه . ومما يؤكد ذلـــك تصاعــــد الاضرابات العمالية في اسرائيل ، وتنوعها وشمولها عددا كبيرا ومتزايدا من العمال ،

واضطرار النقابات هناك للرضوخ ـ وان كان بعد تسويف ومماطلة ـ لهذه المطالب .

اما من الناحية العملية فهذه الوسيلة تعادل في اثارها اسلوب تخفيض قيمة الليرة مع بقاء مستوى الاسعار ثابتا .

ثالثا . . فرض رقابة على عمليات الاستيراد واتباع سياسة تمييزية فيما يتعلق بالصادرات . فهذا من شأنه تخفيض الواردات ، ورفع مستوى الصادرات ، الامر الذي سوف يؤدي في النهاية الى خفض العجز في الميزان التجاري ، والنتائج هنا مباشرة وسريعة التأثير في علاج خلل الميزان التجاري وميزان المدفوعات . غير ان هذه الوسيلة ليست مستحبة في البلاد ذات النهج الراسمالي ، فعادة لا يلجأ المخطط الاقتصادي الى اتباع هذا الاسوب الا في البلاد التي تمثل فيها الملكية العامة وزنا ملحوظا وتتسم فيها السياسة العامة الداخلية براديكالية واضحة ، وهو ما تفتقده اسرائيل .

ولذلك بات اسلوب تخفيض قيمة العملة هو البديل الوحيد المرغوب فيه من قبل الساسة الاسرائيليين ، ومديري اقتصادها خلاصا من مشاكل عجز موازين التجارة والمدفوعات ، أو تخفيفا من حدتها . فالوسائل السابقة ـ كما رأينا ـ لا تعد بدائل مرغوب فيها من قبل الساسة الاسرائيليين .

وهكذا قامت الحكومة الاسرائيلية في نوفمبر ٧٤ باجرء تخفيض كبير في قيمة عملتها بلغت نسبة ٤٣٪ ضمن مجموعة من الاجراءات الاقتصادية . ذات الطابع التقشفي في اطار ما يسمى بها (بالسياسة الاقتصادية الجديدة .) ثم عادت في منتصف يونيو ١٩٧٥ باعلان برنامج شامل لتخفيض قيمة عملتها عرف ببرنامج التخفيض الزاحف ، يحق بمقتضاه للجنة يراسها وزير المالية اجراء تخفيض شهري بنسبة ٢٪ في قيمة الليرة . ومن يومها ، واللجنة تستخدم هذا الحق كل شهر تقريبا !

اهداف التخفيض الزاحف :

ولقد اعلنت الحكومة انها تسعى بهذه السياسة الجديدة (سياسة التخفيض الزاحف) لتحقيق جملة من الاهداف .

اولا: تخفيض حجم العجز في الميزان التجاري عن طريق زيادة الصادرات الاسرائيلية، فكما يزعم (ابراهام دوفرات) المستشار الاقتصادي لوزارة المالية الاسرائيلية : « ان تخفيض سعر الليرة شهريا من شأنه ان يضع الصادرات الاسرائيلية في مركز تنافس مع الدول الاخرى ، لانه يسمح بتعويض ارتفاع اسعار السلع المصدرة بمعدل اعلى بكثير من معدل ارتفاع الاسعار في اسرائيل » . (٢٤)

ثانيا : تخفيض حجم العجز في ميزان المدفوعات بواسطة زيادة تدفق الاموال ورؤوس الاموال الى اسرائيل . فدوائر وزارة المالية الاسرائيلية تتوقع ان يساهم تخفيض الليرة سنويا في اقرار حالة من الاستقرار في سوق الاوراق المالية من شأنه تشجيع تدفق رؤوس الاموال الاجنبية اليها . فكما يدعي السيد كافتير وفتيسن مراقب النفقات بالعملات الاجنبية في وزارة المالية الاسرائيلية بأن احدى مزايا التخفيض الزاحف هو « ان السوق السوداء للتعامل بالعملات الاجنبية ستفقد غرضها وذلك لان الفرق الكبير بين السعر الرسمي وسعر السوق الحرة سوف يتلاشى بسرعة وكذلك الفرق بين سعر البضائع والخدمات المستوردة » . (٢٥) . وعندما تختفي

السوق السوداء ، تستقر سوق الاوراق المالية ، ويتشجع اصحاب رؤوس الاموال تتدفق الاموال على اسرائيل لتساهم في حل مشكلتي الاستثمارات بها والعجز المزمن بميزان مدفوعاتها .

ثالثا : تخفيف عبء الديون على الخزانة الاسرائيلية ، فزيادة اصادرات المنشودة سوف يزيد من حصيلة هذه الخزانة من النقد الاجنبي ، الامر الضروري لمواجهة عبء هذه الديون ، خاصة عبء الفوائد وهو متزايد ، كما أن تخفيض الواردات — المرجو تحقيقه كأحد اثار تخفيض الليرة من شأنه تقليل احتياجات اسرائيل من كميات النقد الاجنبي ، وهذا اما أن يوفر عليها قروضا او ديونا جديدة ، او يحقق لها بعض الوفر من النقد الاجنبي تواجه به عبء الدين الاجنبي .

وهكذا يتضح ان الحكومة الاسرائيلية ، خاصة دوائر وزارة المالية فيها ، تراهن بشكل اساسي على سياسة التخفيض الزاحف للعملة لحل عديد من مشاكلها الاقتصادية والتي لم تنجح خطتها التقشفية في عام ٧٤ في القضاء عليها أو التخفيف من حدتها ، وهذا ما يفسر اصرارها على المضي قدما في هذه السياسة ، فها هو وزير المالية الاسرائيلية يعلن اصراره عليها عندما يقول : « أن السياسة الاقتصادية — المنفذة بالطبع — قد منعت التدهور الذي كان متوقعا . لكن يجب الاستمرار باتخاذ الاجراءات الشديدة والخطيرة في خلال السنتين القادمتين كسياسة مستمرة وليس على شكل مرة واحدة فقط » . (٢٦)

وفي مواجهة هذا الاصرار الحكومي على السياسة الاقتصادية كانت ثمة معارضة على الجانب الاخر من قبل بعض خبراء الشئون الاقتصادية ، مثل المعلقين الاقتصاديين لبعض الصحف وأبرزهم معلق صحيفة دافار — ، ورئيس الغرفة التجارية ورئيس بنك الاتحاد الصناعي .. وغيرهم (٢٧) .. وترتفع اصوات هؤلاء الان وغيرهم محذرة الحكومة من عواقب هذه السياسة لكن الحكومة ما برحت مصرة على المضي قدما في السير فوق هذه المسامير ، كما ابدى وزير ماليتها استعداده لذلك غير عابيء بكل التحذيرات .

حصاد سياسة تخفيض العملة :

غير أن حصاد سياسة تخفيض العملة في الماضي خاصة في السنتين الماضيتين ٧٤ ، ١٩٧٥ ، والنتائج المتوقعة لاستمرارها ، انما تخذل الحكومة الاسرائيلية بحق ، وتؤكد رأي معارضي سياستها الاقتصادية ، فلا الاهداف المرجوة من اجراءات تخفيض العملة المتتابعة تحققت ، ولا الامال المعلقة على سياسة التخفيض الزاحف سوف تتحقق هي الاخرى .

ففي المرحلة الاولى استهدف تخفيض العملة الجديد التضخم الناشيء من السياسة النقدية (التمويل بالعجز) التي اتبعتها الحكومة الاسرائيلية لمواجهة متقلبات ظروف النشأة الاولى لاسرائيل ، غير أن التخفيض لم ينجح في مجرد تخفيض حدة هذه المشكلة ، بل صار التخفيض احد الحلقات في الدورة الحلزونية التي شهدها الاقتصاد الاسرائيلي ، وما زال يتلوها ارتفاع في الاسعار يلغي الاثار التي استهدفها التخفيض الاول ويجعل من الضروري اجراء تخفيض جديد في العملة وهكذا دواليك .. !

اما في المرحلتين التاليتين ، فلقد فشلت اجراءات تخفيض العملة في مجرد تخفيف حدة المشاكل المالية والاقتصادية التي تعاني منها اسرائيل ، وهو الامر الذي كان

المسئولون في اسرائيل — وما يزالون — يعربون عن املهم في ان يساهم تخفيض العملة في تحقيقه .

● فالعجز في الميزان التجاري يتجه خطه البياني الى الصعود المستمر .. لقد كان العجز في عام ١٩٧٢ لا يتجاوز المليار دولار (٨٢٠ مليون دولار) ولكنه في العام الذي يليه بلغ مليارا ونصف مليار دولار ثم ارتفع في العام ١٩٧٤ الى ١٨٠٠ مليون دولار ، اما في نهاية العام الماضي فلقد بلغ العجز ثلاثة مليارات دولار ، ولقد زاد هذا العجز — كما اعلن موشيه زنبار حاكم مصرف اسرائيل أمام اللجنة الاقتصادية التابعة للكنيست — بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار عما كان متوقعا في بداية السنة المالية بسبب عدم تحقق التوقعات بشأن زيادة الصادرات وهو ما كانت تنشده الدوائر الاقتصادية الاسرائيلية من عمليات التخفيض المتوالية لليرة . (٢٨)

● واتجه ايضا الخط البياني لميزان المدفوعات الى الصعود وبمعدل مرتفع .. حتى بلغ في العام ١٩٧٤ حوالي ثلاثة مليارات ونصف مليار من الدولارات ، وهو ما يعادل تقريبا العجز في بريطانيا ، رغم ان تعداد السكان في اسرائيل يقل كثيراً عن تعداد السكان في بريطانيا . (٢٩)

وهكذا زاد العجز بمقدار اربعة اضعاف منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، اي انه زاد اربع مرات خلال عامين فقط (٣٠) ، ولم تفلح اجراءات تخفيض العملة في التخفيف من حدة هذا العجز او مجرد وقف تزايده .

● وزادت كذلك ديون اسرائيل وزاد عبئها عليها . فمنذ سنوات قليلة ، وبالتحديد عام ١٩٦٧ ، كانت جملة الديون الخارجية الاسرائيلية لا تتجاوز ١٦٠٠ مليون دولار ، غير انها ارتفعت مع نهاية العام الماضي الى ٨ مليارات دولار كاملة . (٣١) ، ولقد قدرت اعباء الديون ومدفوعاتها في العام ١٩٧٥ وحده حوالي ١٥٠٠ مليون دولار ، أي ما يوازي ثلاثة ارباع قيمة صادرات اسرائيل . ولقد نقل عن مسئول بوزارة المالية الاسرائيلية قوله : « بعد سنتين أو ربما بعد سنة سوف تضطر اسرائيل الى تسديد ديون وفوائد بالعملة الصعبة تساوي كل القيمة الاضافية لصادراتها الصناعية » . (٣٢) ، ولقد قدرت صحيفة معاريف جملة هذه الديون في نهاية العام الحالي بحوالي ٩٫٢ مليار دولار . (٣٣) بينما ترتفع بها توقعات أخرى الى ١٠ مليارات دولار . (٣٤)

● اما احتياطي العملات الاجنبية لدى اسرائيل ، فلقد تناقص بشكل ملحوظ وواضح . ففي عام ١٩٧٤ انخفض احتياطي العملات الاجنبية بنسبة ٥٠٪ عن العام الذي قبله ، ليبلغ ٩٠٠ مليون دولار فقط (٣٥) وفي العام الماضي اضطر وزير المالية الى مد يده الى ما يسمى باحتياطي الخط الثاني من العملة الصعبة (وهو ودائع السكان المقيمين بالخارج) ، فلقد قرر وزير المالية السماح للمصارف الاسرائيلية التي تحتفظ بهذه الاموال باعطاء الشركات الاسرائيلية التي تحتاج لعملة صعبة من اموال الودائع الخارجية حتى تستورد ما يلزمها من معدات ومواد خام ، ولقد بلغ استهلاك احتياطي الخط الثاني كله حوالي ٧٠٠ مليون دولار في العام الماضي (٣٦) ، اما الان ومع بداية العام الحالي ، فلقد اصبح احتياطي النقد الاجنبي لا يكفي لاكثر من ستة اسابيع بدلا من ثلاثة شهور . (٣٧)

● كما انخفضت الاستثمارات الاجنبية في اسرائيل كثيرا ورؤوس الاموال الواردة اليها في السنتين الماضيتين — وهما السنتان اللتان شهدتا تخفيضات متتالية لسعر

الليرة . ففي عام ١٩٧٤ ، انخفضت رؤوس الاموال الواردة اليها بنسبة ٤٥٪ (٣٨) ، بينما بلغت نسبة الانخفاض في العام الماضي ٥٠٪ (٣٩) واحد العوامل الهامة في هذا الانخفاض هو اسلوب التخفيض الزاحف — كما صرح بذلك رئيس مجلس ادارة مصرف الاتحاد الصناعي (٤٠) . فهذا التخفيض الزاحف قد الحق الضرر بالمولين الاجانب العاملين في اسرائيل حتى ان بعضهم قام بتحذير الهيئات الحكومية وتنبيهها الى انهم لن يستطيعوا مواصلة العمل في الظروف التي حلت باسرائيل نظرا للخسائر التي تعرضوا لها اثر التخفيضات ، وعلى اثر ذلك انشغلت الدوائر الحكومية الاسرائيلية في الفترة الاخيرة بالبحث في كيفية تقديم تسهيلات لهؤلاء المولين تشجيعا على البقاء والعمل في اسرائيل . (٤١)

● ولحق الانخفاض ايضا بمستوى المعيشة في اسرائيل وذلك نتيجة لاتساع موجة التضخم التي تمسك بخناق اقتصادها منذ سنوات ، والارتفاع المستمر في الاسعار خاصة اسعار المواد الضرورية ولقد ارتفعت الاسعار مع نهاية العام الماضي (١٩٧٥) بنسبة ٥٥٪ (٤٢) ويتوقع رجال الاقتصاد في بنك اسرائيل استمرار هذه الزيادة وبنسبة لن تقل عن ٤٠٪ في العام الحالي . (٤٣)

ونتيجة لهذا الارتفاع في الاسعار انخفض مستوى المعيشة في اسرائيل عام ١٩٧٤ عن العام الذي قبله بنسبة ٥٪ (٤٤) ، ويلعب تخفيض قيمة الليرة دورا في ترسيخ اقدام التضخم في اسرائيل ، وظاهرة تدني مستوى المعيشة ، بل ان المراسل الاقتصادي لصحيفة عل همشمار يتوقع ان ينخفض معدل استهلاك الفرد بالدولار في العام الحالي الى ٢٠٥٠ دولار مقابل ٢١٨٠ دولار في العام الماضي اي بنسبة انخفاض ٦٪ ، وذلك نتيجة لتوقع انخفاض سعر الليرة في العام الحالي ليصير الدولار يساوي ٩٫٦٨ ليرة اسرائيلية ، بينما انتهى عام ١٩٧٥ وهو يساوي ٧٫٤٨ ليرة فقط ! (٤٥)

وهكذا لم تساهم التخفيضات — ومنها ٥ تخفيضات ضمن ما يسمى بسياسة التخفيض الزاحف — في تخفيف حدة المشاكل المالية والاقتصادية التي تعاني منها اسرائيل ، بل وعلى النقيض تماما كان لهذه التخفيضات دور في تفاقم هذه المشاكل ، مثل مشكلة الاستثمارات الاجنبية ، والتضخم في اسرائيل .

كذلك ليس من المتوقع — كما يراهن ساسة اسرائيل — ان تساهم سياسة التخفيض الزاحف في تلطيف الام هذه المشاكل الحادة والمزمنة للاقتصاد الاسرائيلي . وذلك لاكثر من سبب :

اولا : ان زيادة الصادرات الاسرائيلية لا يتوقف فقط على عامل واحد هو انخفاض السعر عن غيرها من السلع ، وهو الامر الذي يحققه تخفيض الليرة شهريا كما قدرت دوائر وزارة المالية الاسرائيلية . ولكن هناك عوامل اخرى هامة ايضا تتحكم في نمو حركة الصادرات باسلب والايجاب ، مثل جودة هذه السلع نفسها ، وهو الامر الذي لن يوفره تخفيض قيمة الليرة ولو يوميا ! ، خاصة اذا كانت نصف الصادرات الاسرائيلية تتجه الى الاسواق الاوروبية ، فهناك سوف تجد من السلع الاوروبية منافسا قويا لتفوقه في الجودة ! . . وايضا مثل تكلفة الانتاج ، وهو امر لا يؤثر فيه بالقليل او بالكثير اجراءات تخفيض العملة لانه يتوقف اساسا على حجم الانتاج ، والطاقة الانتاجية المتاحة والمستخدمة للاقتصاد القومي . وعندما يكون الاقتصاد الاسرائيلي يعمل بنصف طاقته الانتاجية الان ، خاصة وان ذلك سوف يزيد

كثيرا من تكلفة الانتاج ، وبالتالي سيؤثر بنفس الدرجة في امكانيات واحتمالات زيادة الصادرات ، وهو ما تسعى اليه اجراءات تخفيض الليرة ! ، خاصة اذا كانت نصف الصادرات الاسرائيلية تتجه الى السوق الاوروبية ، فهناك سوف تجد السلع الاوروبية منافسا قويا في الجودة ! . . وأيضا مثل تكلفة الانتاج ، وهو امر لا يؤثر فيه بالقليل او الكثير اجراءات تخفيض العملة ، لانه يتوقف اساسا على حجم الانتاج والطاقة الانتاجية المتاحة والمستخدمة للاقتصاد القومي . وعندما يكون الاقتصاد الاسرائيلي لنعمل بنصف طاقته الانتاجية الان ، فان ذلك سوف يزيد كثيرا من تكلفة الانتاج ، وبالتالي سيؤثر بنفس الدرجة في امكانيات واحتمالات زيادة الصادرات ، وهو ما تسعى اليه اجراءات تخفيض الليرة .

ومعنى ذلك كله ان اجراءات تخفيض الليرة — وشهريا — سوف يكون تأثيرها هامشيا في احتمالات زيادة الصادرات ، لان هناك عوامل اخرى تتحكم في هذا الامر وباتجاه معاكس .

واذا تضافر مع ذلك صعوبة تخفيض الواردات ، فاننا يمكننا ان نتوقع ان يساهم التخفيض الزاحف في ايجاد حل لمشكلة الميزان التجاري او تخفيف حدتها .

ثانيا : ان التخفيض الزاحف لليرة الاسرائيلية لن يقضي على المضاربات الحالية في اسرائيل لانه لا يلغي الظروف التي تدعو للمضاربة ، فمن ناحية ما برح سعر الفائدة في اسرائيل عاليا ، وأعلى من مثيله في اوروبا ، ومن ناحية اخرى لا يوفر هذا التخفيض الزاحف (الاستقرار الحالي المطلوب لافتقاد (السعر الهدف) الذي تسعى سياسة التخفيض الزاحف للوصول اليه . ومن ناحية ثانية لن يلغي هذا التخفيض الشهري السوق السوداء للعملات في اسرائيل ، بل لعله سيساهم في اتساعها ، فيتزايد اقبال الاسرائيليين على تحويل مدخراتهم من الليرات الاسرائيلية ، والى عملات اجنبية قوية تضمن لهم المحافظة على القوة الشرائية ، على عكس الليرة التي سيزداد توقع استمرار انخفاض قوتها الشرائية في ظل التخفيض الزاحف .

وبسبب افتقاد هذا الاستقرار لن تكون هناك امكانية لاطراد تدفق رؤوس الاموال الاجنبية على اسرائيل ، وحتى الان ما برح قادة اسرائيل يرفضون وبعناد التخلي عن سياستهم العدوانية ، ولذلك سوف تستمر المشاكل الاقتصادية لاسرائيل وتزايد حدتها .

ومعنى هذا ان تفشل سياسة التخفيض الزاحف في مجرد تخفيف حدة مشكلة ميزان المدفوعات ، وايضا مشكلة التحويل الخارجي ، وعندما يسجل التخفيض الزاحف فشله في حل مشكلة الميزان التجاري ، وميزان المدفوعات ، فهذا يعني بالضرورة فشلا في ايجاد حل لمشكلة الديون ايضا !

ثالثا : ان المحصلة النهائية لسياسة التخفيض الزاحف ، وعلى عكس ما قدر خبراء الاقتصاد الاسرائيليون — سوف تكون زيادة لحدة التضخم وارتفاعا مستمرا للاسعار ، فالتخفيضات المتتابعة في سعر تبادل العملة الاسرائيلية سوف يؤدي الى ارتفاع اسعار السلع المستوردة التامة الصنع ، وايضا اسعار السلع المنتجة المحلية التي يدخل في انتاجها المستورد . كما ان التخفيض المستمر يسبب جوا من الذعر وعدم الاستقرار وهو ما يضاعف من الضغوط التضخمية ، والحصيلة في النهاية انخفاض في مستوى المعيشة .

اما اذا اضطرت الحكومة — تحت ضغوط شتى — الى الاستمرار في زيادة

الاجور ، والمحافظة على اسعار السلع الغذائية الاساسية بزيادة الاعانات المنوحة لها ، فسوف تضطر بالضرورة الى زيادة انفاقها بالعجز لتغطية هذه المطالب ، الامر الذي سوف يرتد الى صدرها بزيادة الضغوط التضخمية !

غير ان اخطر النتائج المتوقعة لسياسة التخفيض الزاحف لليرة هو عملية اعادة توزيع الدخل بين السكان من اصحاب الدخول المنخفضة الى اصحاب الدخل المرتفع . نتيجة للتزايد المستمر للاسعار ، وهو ما يأتي باستمرار على حساب مصالح اصحاب الدخول المحدودة والمتوسطة ، ونتيجة لاتساع رقعة السوق السوداء ، وهو ما يلحق الغبن بالفقراء ، وهذه هي نقطة البداية لافتقاد الاستقرار الاجتماعي وتزايد الاضطراب داخل المجتمع ، ومن هنا يمكن ان نفسر تزايد الاضرابات العمالية في اسرائيل .

هكذا لن تقدر سياسة التخفيض الزاحف لليرة علا حل مشاكل اقتصادها المعقدة ، بل سوف تساهم في زيادتها تعقيدا . . فحل هذه المشاكل يقتضي نوعا اخر من الحلول، ومنهجا مختلفا من التفكير ، يقتضي ان تعيد الحكومة الاسرائيلية النظر في الاموال التي تنفقها على التسليح والاستعداد العسكري ، خاصة بعد ان وصلت نسبة هذه الاموال الى ٤٠٪ من ميزانية العام الحالي ، وتوظيف هذه الاموال في مجالات اخرى اكثر نفعا ، وحتى يحدث هذا لا بد وان يتخلى قادة اسرائيل عن اهدافهم وسياستهم العدوانية في المنطقة ، ويقبلون بالسلام العادل !

الهوامش :

(١) تخفيض قيمة العملة من خلال تعدد اسعار الصرف الرسمية او لفعلية يتضمن تمييزا بين السلع المختلفة من حيث اسعار الصرف وذلك تبعا للاهمية النسبية لكل منها في مجال التصدير او الاستيراد .

(٢) أما تخفيض القيمة الرسمية لعملة البلد بالنسبة للعملة الاجنبية ، فالهدف وراءه هو تخفيض اسعار السلع المصدرة مقومة بالعملة الاجنبية ، الامر الذي يؤدي الى تشجيع الصادرات وتقليل الواردات للتقليل من العجز في الميزان التجاري .

(٣) دراسة حول تخفيض الليرة الاسرائيلية ـ ١٩٧٤ ـ نشرات مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام . القاهرة ص ١

(٤) جاء تخفيض الليرة في عام ١٩٦٢ بعد فترة استقرار طويلة للسعر الرسمي لها تجاوزت التسعة اعوام ، أما التخفيضات الاربعة السابقة لتخفيض عام ١٩٦٢ فلقد حدثت كلها بشكل متتالي هكذا ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٢ ـ ١٩٥٣ .

(٥) دراسة حول تخفيض الليرة الاسرائيلية ـ نشرة مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام ـ المرجع السابق ـ ص ٤ .

(٦) الاهرام الاقتصادي ـ الاقتصاد الاسرائيلي بعد عامين من حرب اكتوبر ـ العدد ٤٨٣ أول اكتوبر ١٩٧٥ ص ١١ .

(٧) نشرة الارض ـ السنة الثانية ـ العدد (٢٣) ـ ٢١/ ٨/ ١٩٧٥ وهل سينجح التخفيض الزاحف في القضاء على مشاكل الاقتصاد الاسرائيلي ، ص ١٤

(٨) التايم الامريكية ٥/١/١٩٧٦ ص ٧

(٩) نشرة الارض ـ السنة الثانية ـ العدد (٢٣) ـ المرجع السابق ص ١٧ .

(١٠) جريدة الاهرام ١٢/٢/١٩٧٦ .

(١١) جريدة الجمهورية ١٣/١٢/١٩٧٣ ـ مستقبل الهجرة الى اسرائيل بعد حرب اكتوبر ـ عبد القادر شهيب ص ٤

(١٢) اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة - كتاب - سلسلة دراسات فلسطينية - انجلينا الحلو ص ٤٦

(١٣) نمو الاقتصاد الاسرائيلي - عثمان محمد عثمان - ص ٨٤

(١٤) السياسة المالية في اسرائيل - يوسف شبل - دراسات فلسطينية ص ٧٨

(١٥) المرجع السابق ص ٧٨

(١٦) كان التضخم المالي في السنوات الثلاث الاولى من عمر اسرائيل تضخم من النوع المكبوت حيث لجأت الحكومة وقتها الى فرض رقابة على لاسعار ولم يطل الامر حتى بدأت السوق السوداء تظهر الى الوجود ، واشتد الطلب على مختلف السلع نتيجة لارتفاع الشرائية فلجأت الحكومة الى تخفيض لسعر الليرة الاسرائيلية ٠

(١٨) نمو الاقتصاد الاسرائيلي - المرجع السابق - ص ١٤

(١٩) مجلة العمال - باب معنى الارقام - عبد القادر شهيب - ١١ ديسمبر ١٩٧٢ العدد ٢٦٦ ص ٦

(٢٠) حول تخفيض الليرة الاسرائيلية - دراسة - المرجع السابق - ص ٤

(٢١) المرجع السابق ص ٤

(٢٢) الاهرام الاقتصادي - العدد ٤٨٣ ص ١٠

(٢٣) مجلة التايم الامريكية - مقال بعنوان (بحر من المداد الاحمر) ١٩٧٦/١/٥

(٢٤) نشرة الارض - السنة الثانية - العدد ٢٣ - ٧٥/٨/٢١ - المرجع السابق ص ١٧

(٢٥) المرجع السابق ص ١٨

(٢٦) نشرة الارض - العدوان ٨٠٧ - ٣١/ ١٢/ ٧٥ ص ٢٦

(٢٧) رئيس بنك الاتحاد الصناعي من المرشحين لتولي مسؤلية وزارة المالية ٠

(٢٨) مجلة العصر الحديث - ٧٥/٨/٥ ص١٣ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية - العددان (٢٣ ، ٢٤) - ٧٥/١٢/١٦ ص ٦٠٠

الاهرام الاقتصادي - العدد ٤٨٣ - اول اكتوبر ٧٥ ص ١١

(٢٩) العصر الحديث ٧٥/٨/٥ ص ١٣ مجلة الاكسبرس - نقلا عن جريدة الجرائد العالمية ٧٦/١/١٢ - نشرة مصلحة الاستعلامات المصرية ٠
نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٧٥/١٢/٣١

(٣٠) الاهرام المصرية ١٩٧٦/١/١٤.

(٣١) مجلة العصر الحديث ١٩٧٥/٨/٥

(٣٢) نشرة مؤسسة الدراسات - المرجع السابق - ٧٥/١٢/٣١

(٣٣) نقلا عن نشرة الارض ٧٥/١٢/٣١ - المرجع السابق ص ١٥

(٣٤) الاهرام المصرية - مقال للسيدة عليوه - وداعا للرخاء ودولة الرفاهة في اسرائيل ١٩٧٦/٢/٩

(٣٥) العصر الحديث ٧٥/٨/٥ - المرجع السابق ٠

(٣٦) نشرة مؤسسة الدراسات - المرجع السابق ص ٢٠٧

(٣٧) مجلة التايم الامريكية - نقلا عن جريدة - الجرائد العالمية ٧٦/١/١٢

(٣٨) الاهرام الاقتصادي - العدد ٤٨٣ - المرجع السابق

(٣٩) تصريح لوزير التجارة والصناعة الاسرائيلي فيصحيفة معاريف الاسرائيلية نقلا عن نشرة مؤسسة الدراسات - المرجع السابق ص ٦٠٧

(٤٠) المرجع السابق

(٤١) نشرة الارض - عدد ٨٢٧ - ٧٥/١٢/٣١- المرجع السابق ص ٢٨

(٤٢) الاهرام ١٩٧٦/١/٢٦

(٤٣) الاستماع السياسي - اذاعة عبرى - الاهرام ١٩٧٦/١/٢٦

(٤٤) وكالة تاس ١٩٧٦/١/١

(٤٥) نقلا عن نشرة الارض - ٧٥/١٢/٣١ - المرجع السابق ص ٤٧

مـن الانتظار الى اليقظة في أدب اميل حبيبي

د. فيصل دراج

منذ روايته الاولى « سداسية الايام الستة » وقف اميل حبيبي امامنا كاتبا قمينـا بالاهتمام ، فما ان ظهرت روايته الثانية « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل » حتى اخذ حدسنا مصداقيته ، فرأينا في اميل حبيبي كيانا ادبيا ذا ظلال ، اديبا مبدعا يستعيد حقله النضالي الرحب ويعيده لنا جسما ادبيا رحبا بـدوره ، ولا ينبع حقله الادبي الرحب من خصب تجربته النضالية فقط ، بل من قدرته على تجسيد هذه التجربة الجمعية ادبيا .

وسنحاول هنا لمس دلالة عمله الادبي ، تلمسا لا يحتضن المضمون فقط ، بل يسعى ايضا للمس الخصوصية الادبية الكامنة في جدران العمل الادبي .

سعيد ابي النحس ومسار الحس العام :

تمثل رواية « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل » نمطا روائيا متميزا ، متميزا في شكله الروائي وفي شكل البطل او الابطال الذين يتحركون فـي الفضاء الروائي ، كما يتميز في شكل عكسه للواقع . فالرواية لا تقدم صورة مباشـرة للواقع ، صورة مستوية ، لكنها تقدم هذا الواقع من خلال منعطف أو « استدارة » ، بحيث يمثل امامنا ظاهرا كثيفا ليس في دلالته الا الجوهر المستتر الذي يعطي الظاهر المعنى ويمنحه الجذور . فالخاص لا يفهم الا بعد ربطه بالعام ، والهزلي لا يوعى الا من خلال ربطه بالمأساوي . فلا يقدم الواقع بكل مأساويته مباشرة بل يتقدم من خلال قناع الهزلي او الساخر ، فتضحو الملهاة بكل ابعادها الظاهرية تجسيدا للمأساوي . فالجوهري والاساسي هو المأساوي الذي يتجلى ادبيا من خلال قناع الساخـر ، ويتشخص هذا التناقض الظاهري ــ الديالكتيكي بواسطة شكل البطل الذي يحمـل الحدث بكل تناقضاته ويعكسه كملهاة من حيث هي قناع للمأساة .

تطفو مأساة الواقع المستند على علاقة المحتل بالمحتل عبر شخصية ضاحكة ، لكن الضحك لا يصدر بسبب جمال الواقع واتساقه بل بسبب لا معقوليته وبعده عن الوضع السليم ومجافاته للمنطق ، أي يصبح الضحك الجواب المعقول ازاء واقع لا معقول . الضحك هنا لا مباشر ، لا معقول ، تعبير عن واقع كاسر وكسير . وبذلك يشكل هذا الموقف الضاحك ــ اللامعقول احتجاجا على واقعه ، احتجاجا لا متوازن ، فيتوازن من خلال تطور الحركة التاريخية ، وعندما يتوازن يبتعد الضاحك ــ اللامعقول ليحل مكانه عنصر جديد : المقاومة .

ليس « سعيد ابي النحس المتشائل » في جوهره الا الشعب الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال منذ عام ١٩٤٨ خلال مستويات زمنية مطردة . فاذا نظرنا اليه أدبيا وجدنا فيه نموذجا متميزا ، فهو لا يمثل على المستوى الادبي بطلا ايجابيا او سلبيا ! بل هو تعبير عن شكل البطل السائد في فترة تاريخية محددة ، انه الانسان العادي المحكوم بخصائص شروط وجوده . يقبل بالاحتلال ويحافظ على جلده . وينمو ، كي يعود في افق قادم فيقاوم الاحتلال ، اي ان الصحيح يمكث باستمرار وراء الزائف . فليس « سعيد ابي النحس » الا شخصية زائفة في سذاجتها وممتلكة ادراكا للعالم المباشر ، وتصورا عفويا ، شعبيا وديمقراطيا له ، اي انها بشكل اخر تشخيص للانسان العفوي أو **الحس العام** ، المقولة الاجتماعية الاكثر أنتشارا في ظروف تاريخية محددة . ويصبح البطل هنا ذاتا ــ نمطا خاضعة لجملة تحديدات اجتماعية ــ تاريخية . فهو ليس ممثل الحس العام بشكل مطلق أو في الفراغ بل ضمن حقل زمني محدد . ونعني بالحس العام الرؤيا والسلوك والممارسة المتواجدة لدى القطاع العام من الشعب ، اي القاسم المشترك الذي يتحلق ويتمركز حوله غالبية الشعب ازاء موقفهم من العالم وحركته ، والذي لا يسفر عن وجهه الصحيح الا في لحظات مؤاتية ، فالحس العام يسير مقزما ، مراعيا بذلك الشروط المهيمنة وموازين القوى المرتبطة بها .

ونعود فنلخص اطروحتنا بالشكل التالي :

ــ ان « سعيد ابي النحس » تعبير عن الحس العام ، اي قطاع من الشعب الفلسطيني ، لذلك فهو لا يمثل من وجهة النظر الادبية **فردا** او شخصية ، بل هو بطل نمطي يحمل خصائص ومزايا ومواقف شعبه ، ويكون بهذا المعنى **شكل ــ ذات** ، شخصية تحمل في كيانها كيان الشعب بأسره .

ــ ان « سعيد » من حيث هو بطل زمانه ــ النموذج السائد في فترة محددة ــ محكوم في ممارساته وافعاله وردود افعاله بميزان القوى المسيطر ، لذلك فمواقفه لا تتحدد بخصائصه الفردية بل بمحصلة القوى السائدة ، فلكل بطل زمانه ، ولكل زمن بطله ، وهو بذلك بطل زمانه لا بطل في التاريخ . لكنه يصبح بطلا في التاريخ عندما يصبح قادرا على خلق وصياغة واقعه كما يريد .

ــ ان « سعيد » من حيث هو شكل ــ ذات لا يمثل كيانا جامدا ، فهو يحبو ويسير على الخلفية التاريخية ، أي ينمو ويكبر ويزداد وعيه لحاضره بحيث يصل في المستوى الاخير للتحكم بشروط وجوده .

فاذا عدنا الى رواية اميل « الوقائع الغريبة » وجدنا ان البطل الذي هو الحس العام من حيث المضمون وشكل ــ ذات من حيث الشكل يبرز هويته في اكثر من مكان « اخرون ــ هؤلاء انا . الصحف لا تسهو عني . فكيف تزعم انك لم تسمع بي ! انا انسان فذ . فلا تستطيع صحيفة ذات اطلاع ، وذات مصادر ، وذات اعلانات ، وذات ذوات ، وذات قرون ، ان تهملني . ان معشري يملأون البيدر والدسكرة والمخمرة . انا الاخرون . انا فذ » (١) فبطلنا يوجد في كل مكان ، انه الاخرون . ان ذلك الذي لم « يعشق سوى يعاد ولم يتزوج سوى باقية ولم ينجب سوى ولاء » (٢) . وعلى الرغم من انه « قضى نصف عمره في خدمتهم » فان دلالة الاشياء تغيرت عندما قابل الفدائي الفلسطيني القادم من لبنان : « وضمد جراحي بالحديث عن جراحه . وظل يوسع في الكوة الضيقة الوحيدة حتى رأيتها في عرض الافق الذي لم أره من قبل . واصبحت قضبانها المتشابكة جسورا نحو القمر ، وما بين فراشي وفراشه حدائق معلقة » (٣)

فبطلنا هو شعب يسير ، ربما يراوح تارة ويتراجع تارة اخرى ، لكنه مع ذلك يتقدم ، فهو ان لم يمش « بالفعل » مشى « بالقوة » . منتظرا عودة « يعاد » ، عودة وجهه الحقيقي .

البطل كشخصية فنية : ان ما يهب عملا أدبيا ديمومة ووجودا حقيقيا هو بناؤه الفني ، فالمضمون مهما كان حقيقيا لا ينتج عملا فنيا ، فما يحيي المضمون وما يميته ايضا هو الشكل الفني او الاناء الذي يحمله . لذلك فان نضارة العمل الفني تتحدد بعناصره ومكوناته الفنية : الشخصيات ، الحوار ، المنطق الداخلي الذي يربط الحدث . لن نتناول هنا الحوار الرائع الذي يعبق في رحاب رواية اميل ، بل سننظر فقط الى شخصية البطل ، شخصية « سعيد » التي تذرع بقامتها الرائعة صفحات الرواية ، شخصية « متشائلة » تسخر من ذاتها ومن اطارها العائلي ، بل ومن شعبها بأسره ، سخرية نقدية تنصب على الايدلوجيا المسيطرة ، وعلى حزمة الاوهام التي ساهمت في ضياع الوطن :

ــ « كانت البداية حتى ولدت مرة اخرى بفضل حمار »

ــ « اقوم في الصباح من نومي فأحمده على انه لم يقبضني في المنام . فاذا اصابني مكروه في يومي احمده على أن الاكره من لم يقع . فأيهما أنا المتشائم ام المتفائل »

ــ « غير اني تذكرت وصية ابي وبركة والدتي . فقلت في نفسي : سأثور عليه اذا ما اطلق الرصاص . ولكنه يهددها فحسب . فبقيت منكمشا »

ــ « فهذه هي شيمة عائلتنا النجيبة . أن نظل نبحث تحت اقدامنا »

ــ « حين تنتهي الحرب . سيقيمون لنا كيبوتسات يعتمدون فيها على امثالي من الشبان المتحررين الذين يتقنون لغة انسانية »

يحاول البطل هنا ان يعكس جميع الاوهام التي غاصت في اعماق شعبنا يوما ، مع ذلك فاننا نرى فيه ذلك الفلسطيني الذي يعشق بلده ويذكرها ويذكر تاريخها ، انه فلسطيني بكل خصائصه وكل نتف حياته اليومية :

« ايقظني عطر القرية ، الذي عبق به ليلها الانيس . فوجدتني مستلقيا على فراش من الصوف نظيف . فتخيلت أنني نائم على صدر أمي ، في بيتنا العتيق . وكانت تأتيني رائحة المونة وخابية الزيت وطين الطابون ، واصوات همس مكبوت ، وأنفاس أطفال نائمين بلا كبت ، وخيالات نساء قرويات وهن رائحات غاديات يحملن اطباق الارز المعصفر وفوقه لحم الدجاج ، ومائدة خشبية منخفضة في وسط البيت العتيق . فناديت أماه ! » (٤)

شخصية تمثل في خصوصيتها الفردية الحية ، نموذجا بيننا يمكن أن تستعاد معايشته ، قريبا منا لانه منا ، فهو ليس شخصية ذهنية ، شخصية ــ فكرة ، انه بالعكس شخصية ــ فكرة محددة زمانيا ومكانيا وثقافيا ، شريحة فلسطينية نمطية تدخل الذاكرة ولا يطويها النسيان ، مستحيلة بذلك الى نموذج ، الى كيان ذي سيماء فكرية محددة . اي اننا بمعنى اخر أمام **شخصية جمعية** واضحة في علاقاتها مع نفسها ومع بيئتها ووجودها الاجتماعي ومع معضلات هذا الوجود ، مشكلة بذلك ترجمة كاملة لواقعها التاريخي :

« هكذا حالي . عشرون عاما أهر واموء حتى اصبح هذا الحلول يقينا في خاطري . فاذا رأيت هرة توسوست : لعلها والدتي ، رحمها الله ! فأهش لها وأبش . وكنا نتماوأ أحيانا » (٥)

يشتمل الوصف هنا على نظرة الشخصية الى العالم . فالنظرة الى العالم هـــي الشكل الارقى للوعي من حيث هي تجربة شخصية عميقة يعيشها الفرد ، وهـــي تعبير يميز ماهيته الداخلية ، ويعكس خصائص الفضاء التاريخي الذي يعيش فيــه .

نعثر في شخصية « سعيد » على عنصرين مترابطين مكونين بذلك البناء الكامــل للشخصية الفنية : العنصر الاول يتمثل **بالحياة الحسية** ، فيما يفعله في ارجاء حياته اليومية بكل رغباتها وأوهامها ، مسراتها وأتراحها . أما العنصر الاخر فهو **السيمــاء الفكرية** التي تحكم شكل العلاقة بين الوجود الشخصي والموقف امام العالم . ويلعب الحوار والموقف هنا دور **التوسط** الذي يعكس السيماء الفكرية في الحياة اليومية :
« فقمت وعلقت ورقة الاقامة الجبرية على جدار البسطة فلم يمض يومان حتى جاءت الشرطة ، وابلغتني بأن الحاكم تلطف وألغى اوامر الاقامة الجبرية . وأن دولتنــا ديمقراطية . ثم انتزعوا الامر من على الجدار واعادوني الى السجن قائلين انني حقرت اوراق الدولة الرسمية » (٦) .

واذا كان البطل هنا يعرض شكل حياته اليومية وموقفه منها ، فانه يعرض ايضا وعيه بكل رواسبه وحمله المساره التاريخي بطرقه المتعرجة :

« وودعتني يعاد مصافحة . ثم اقتربت بوجهها من وجهي وقالت : هل قبلت والدتي قبل رحيلها ، يا عماه ؟

قلت : حالوا ما بيني وبينها .

قالت : اذن ضاعت عليك القبلة الثانية » (٧)

نرى فيما سبق الوحدة الديالكتيكية بين الموضوعي والذاتي ، بين البطل وعالمه ، بين الفردي والجماعي . أما مكان التلاقي بين الموضوعي والذاتي فهو الحدث وشكله، فالحدث هنا « ملتقى للافعال المتبادلة المتشابكة في ممارسة الانسان ، والصراع شكل اساسي لهذه الافعال المتبادلة الكفاحية والمليئة بالتناقض ... ... ، فالظواهــر العامة النموذجية تصير بذات الوقت تصرفات خاصة ، نوازع شخصية لانــاس معينين » (٨)

ان الفردي في رواية اميل « ينهض الى مستوى النموذجي ، دون ان تسلب منــه القسمات الفردية ، بل بالتشديد على القسمات الفردية بالذات . ان هذا الوعــي الملموس ـــ مثله مثل الهوى المندفع المتفتح تفتحا تاما والبالغ أعلى ذراه ـــ يهب الفرد تفتحا انسانيا لقدراته الغافية فيه ،والتي لا يمتلكها في الحياة ذاتها الا على نحو مشوه، والتي لا تتعدى فيها نطاق الرغبة والامكان » (٩)

و « سعيد » يشكل اذن بهذا المعنى **ذاتا جمعية** ، فهو في الكل والكــل فيــه ، انه التلخيص الدينامي لشرطه التاريخي ، شخصية فردية ـــ جماعية ، او بشكل اخــر شخصية تأليفية واعية لمصيرها ، أو بناء يحمل الخاص والعام في الوقت نفســـه .

ان القيمة الفنية لرواية اميل تنبع من الشخصية الحية للرواية « سعيد » ، حيــة

كنمط ، وحية كذات مستقلة . فبطلنا سعيد على الرغم من مزاياه الفردية يمثل في كل مساره **اللحظة المركزية** ، اي يشرح ويعبر عن الحدث الذي تقوم عليه الرواية : مسار شعب . ويذكرنا هذا بلوكاتش في تحديده للسيماء الفكرية :

« ان صياغة السيماء الفكرية تقتضي وصف الاشخاص وصفا انسانيا عاما وعميقا وواسعا الى ابعد حد ، .... ، وهذا يشترط قبل كل شيء القدرة على استحضار المعايشة غير المنقطعة للصلة الحية بين التجارب الشخصية للوجه الادبي وتعبيرها الفكري ، وبالتالي صياغة الافكار كمسار للحياة لا كنتيجة لها ، ويتطلب الى ذلك تصوراً للشخصيات يجعل الرقي الفكري يظهر ، انطلاقا منها ، كأمر ممكن وضروري » (١٠)

نصل الان الى امر اخير هو الدور المركزي لشخصية البطل «سعيد » ، فهو ليس مادة للحدث بل هو **حامل الحدث** ، ويشكل عالمه الداخلي والخارجي البنيان الزماني والمكاني للحدث ، انه صورة مكثفة للحدث بأكثر اشكالها حدة وتطرفا ، بحيث يمكن القول انه الشخصية ــ الحدث ، فهو ليس **شخصية يومية** بل شخصية **تاريخية ــ اجتماعية** ، وبالتالي فهو لا يعكس تناقضات الحياة اليومية بل يعكس **تناقض فترة تاريخية** يقول لوكاتش « ان المعرفة العميقة للحياة لا تنحصر ابدا في معاينة الشأن اليومي .بل انها تقوم ،استنادا الى استيعاب الملامح الجوهرية ، على خلق شخصيات وحالات غير ممكنة تماما في الحياة اليومية ، لكنها تكشف عن تلك الطاقات الفاعلة والميول ، والتي لا يظهر فعلها في الحياة اليومية الا مشوشا مضطربا ، في وضوح التفاعل الارقى والاصفى للتناقضات » (١١)

ان بطلنا يمثل التطرف في كل نواحيه ، تطرف في السخرية والقدرية والحكمة والقدرة على تبصر الامور . ان شكل **هذا البطل المتطرف** تمليه ضرورة الفترة التي يعكسها ، فهو ينطقها ويخارجها من خلال ممارسته :

« ان السمة المتطرفة للاحوال النموذجية تنتج عن ضرورة استخراج الاعمق والابعد في الشخصيات الانسانية مع كل التناقضات المتضمنة فيها » (١٢)

ان التطرف هنا ليس هدفافي حد ذاته ولا رغبة رومانسية سحابية ، بل هو ضرورة. فجملة الشخصيات القائمة في الرواية لا تأخذ دلالاتها الا من **وضع سعيد ،** فهو المركز الذي تنسرب منه الدلالة ويتجسم فيه الحدث ،شخصية نموذجية اعطاها مسارا معقدا متحركا مليئا بالتبدلات والتناقضات المتطرفة .

الشكل الروائي ودلالته :

لا تقدم لنا « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل » صورة طبيعية ، ستاتيكية للواقع . ترصد ظاهر الاشياء في يوميتها المباشرة ، لكنها صورة تصل الى جوهر الاشياء وتقذفها الى السطح كظاهر ــ جوهر يعكس الشرط التاريخي بكل خصائصه . لذلك فمن اجل الولوج الى جوهر الاشياء وخلق مستوى الظاهر ــ الجوهر ، عمد المؤلف الى شكل معين لروايته يتطابق مع شكل الحدث الذي ترسمه ، بحيث يتواءم الشكل الروائي مع الشكل التاريخي للحدث ، فنحن اذن ازاء عمل ادبي ساخر او بشكل ادق ستير (Satire) ان اختيار هذا الشكل الادبي مشروط بشكل جوهري بالشرط التاريخي ، اي بطبيعة الارضية التاريخية التي ينمو ويحبو فوقها الحدث . فماذا يعني هذا ؟

يبرز الادب الساخر فوق اساس اجتماعي — تاريخي متسم بفراق كامل بين الانسان وواقعه ، بانقطاع وطلاق كامل بينهما ، بحيث يضيع الانسان ويتشوه في عالمه بدلاً من تحقيق ذاته في هذا العالم . أي ان هناك انقطاعا بين الواقع والمثال . لذلك فان الكاتب من خلال شكله الروائي ومضمونه لا يسير في تيار هذا الواقع بل يعارضه ويناضل ضده ، مستعيدا هذا الواقع فنيا بشكل ساخر . ان السخرية لا تعني هنا السلبية والقبول ، لكنها تمثل تحديا ومواجهة . فالكاتب الذي لا يحقق ذاته في عالمه يعود لتحقيق هذه الذات ساخرا من الواقع ورافضا له .

وهو بذلك يحقق عدة لحظات : لحظة الرفض ، ولحظة التصدي ، اللتان تشكلان عتبة اللحظة الثالثة : التغيير . فتقديم شرط اجتماعي بشكل ساخر انما يعني تقديم شرط يدعو الى السخرية ويثيرها ، ويعمد الكاتب لتكثيف لحظة السخرية هذه الى لمس كل مفاصل الحياة اليومية ليضع أمامنا الحضور المستمر والكثيف « للساخر » Le Satirique ، اي المغترب عن السليم ، وبذلك نرى صورة عالم منحط جدير بان يحل مكانه الى عالم نقيضه : الصورة — المثال .

يشكل الادب الساخر معارضة مطلقة بين الذات الواعية وعالمها المتدهور ، فالعالم المشوه يصفع الكاتب الانا الواعية ، لكن هذا الاخير يعود بدوره ليصفع عالمه عندما يستعيده فنيا بشكل ساخر ، عندما يطابق بين ظاهره وجوهره .

ان الكاتب هنا ليس محايدا ولا منجرفا في تيار العبث والعدمية ، **فهو يبغي مصالحة عالمه** ، لكن عالمه يجعل هذه المصالحة مستحيلة ، لذلك يعمل الكاتب بأدواته من اجل اعادة صياغة هذا العالم ليخلق الشروط الضرورية للمصالحة بين الانا الواعية والعالم .

نحن اذن امام معادلة ثلاثية العناصر : الانا الواعية (اللاجىء في ارضه/ العالم المقلوب (المغتصب سيدا) / المصالحة بين الانا والعالم (الفلسطيني والاسرائيلي). ان **استحالة المصالحة** بين الانا والعالم تشكل الاساس الموضوعي للادب الساخر ، اي تشكل اساس المطابقة بين الشكل التاريخي للحدث والشكل الادبي :

— « ولما استشهد والدي ، على قارعة الطريق ، وانقذني الحمار ، ركبنا البحر الى عكا ، فلما وجدنا ان لا خطر علينا ، وان الناس لاهون بجلودهم . نجونا بجلودنا الى لبنان حيث بعناها واسترزقنا » (١٣)

— « ومنذ ذلك الحين وانا احلم بان يذكرني التاريخ حين يذكر فلكيينا الاقدمين . وبقيت احلم على هذا المنوال حتى جندلوا والدي ، رحمه الله ، وقامت دولة اسرائيل » (١٤)

يطغو « الساخر » كثيفا على سطح عالم من الظلم والاضطهاد والاقتلاع : استشهاد على قارعة الطريق — الحمار منقذ — الجلد الانسان مصدر رزق — موت بلا كرامة — احلام متكسرة — . فليس الساخر اذن الا قشرة خارجية لنواة متراصة بالحزن والمرارة والانكسار ، وقناعا لشرط انساني كسير : انسان فقد عالمه المطابق لذاته ، فقد وجهه . فهناك تضاد ما بين الانسان وتجليات العالم المحيط به ، ما بين عالمه الداخلي وبين عالمه المتدهور — السجن والغربة في الوطن — .

ان قيمة الادب الساخر لا تصدر من مضمونه ، ولا من الصرخة الاخلاقية الكامنة

في بنيانه ، لكنها تنبع من شكله الادبي الذي يعكس الواقع بشكل متميز . كما لا تنبع أهمية هذا الادب من هدف معركته بل من تشكله الادبي ذاته (١٥) . فما يهمنا ليس المضمون الاجتماعي ــ السياسي للوحة المرسومة ، بل الشكل الذي خلق المضمون ادبيا . فالمضمون هو دائما مادة خام ملقاة على قارعة الطريق ، انها تحيا وتمشي فنيا من خلال الادوات الفنية التي اعادت خلقها ، اي من الشكل .

الادب الساخر تاريخيا ادب معركة ــ سوفت ، بريشت ، هاشك ــ يستهدف ما هو منحط ومتدهور لتحطيمه . فالموقف الاجتماعي للادب الساخر يتباطن بالضرورة مع تشكله الادبي . **فالشكل الادبي هنا موقف بحد ذاته** لانه ينطلق ويعود الى شروط تثير السخرية . فهناك تطابق كامل ووحدة جدلية بين الشكل وما يحتويه .

يعتمد الادب الساخر بلا شك على مادة الحياة الاجتماعية القائمة ، شأنه في ذلك شأن اي نوع ادبي يستند على ديالكتيك الظاهر والجوهر . لكن انتاج ديالكتيك الظاهر والجوهر في الحياة الاجتماعية سمة الادب عامة . فأين تكمن اذن خصوصية الادب الساخر والعنصر النوعي فيه ؟

اذا كانت الرواية العادية تعتمد على نظام ديناميكي من التوسطات الاتي عن تفاعل متبادل بين السبب والنتيجة بشكل منطقي ، فان الادب الساخر (الستير) لا يحتاج الى نسق التوسطات هذا بل يعمد الى جملة حوامل فنية ترسم الاجتماعي بشكل ساخر ، فالحدث لا يظهر خلال سرد متسق منطقي بل بواسطة ادوات فنية ، **حوامل فنية** ، تعتمد على خيال الكاتب وابداعيته ، وتتلون وتتعدد هذه **الحوامل** بحيث تغطي كل الفضاء الاجتماعي بكل مركباته .

فاذا عدنا الى رواية « الوقائع الغريبة » وجدنا ان اميل حبيبي يعمد الى الحوامل الاتية :

١ ــ **الموازاة المتعارضة** : تتضمن هذه الموازاة **المحاكاة** اللامباشرة ، فهناك نموذج (انسان) يتعامل مع نموذج اخر (انسان اخر) في شروط غير عادية ، لا معقولة ، تنتج بالضرورة معاملة غير عادية بعيدة عن النموذج السليم . فالساخر يصدر هنا من الارضية المقلوبة و اللامعقولة التي يندرج فوقها الحدث :

ــ « لما نزلت عن الحمار رأيتني اطول قامة من الحاكم العسكري ، فاطمأنت نفسي حين وجدتني اطول قامة منه بدون قوائم الحمار . فارتحت على مقعد من مقاعد المدرسة التي حولوها الى مقر الحاكم وحولوا الواحها الى طاولة بنغ بونغ » (١٦)

ــ « وصرخ انا الحاكم العسكري وانزل عن الحمار . قلت : انا فلان بن فلان ... فشتمني ، فصحت انا طنيب على الخواجا سفارشك ، فشتم الخواجا سفارشك . فنزلت عن الحمار . » (١٧)

ــ .. واقبلت عليه ، واخذت يده في يدي مسلما قبل ان يمدها الي حتى لا احرجه في عماه . فزجرني يعقوب وصاح : تأدب ! فوقفت متأدبا . » (١٨)

ينتج الوضع الساخر هنا من شكل العلاقة القائمة بين نموذجين متضادين ينتميان الى عالمين مختلفين . فالتواصل السليم اذن مستحيل . وبما ان طبيعة الوضع المسيطر لا تسمح بعلاقة سليمة ، بما في ذلك الصدام والمناهضة ، لذلك فان احد النموذجين ، وهو هنا « سعيد » يطرد الجاذ من حقله ويحل محله المزلي ، وهو

بذلك ينقذ جلده . فالسخرية النابعة من القهر تحل محل المواجهة كشكل من اشكال المواجهة ، يلجأ المضطهد كثيرا الى قناع ، الى السخرية ، الى العته ، كي ينقذ راسه ويطرد عنه غضب الحاكم — صورة نموذجية في الادب الافريقي — .

٢ — **اللجوء الى الخارق** : ان اللجوء الى الخارق « كحامل فني » أو كما يقول لوكاتش « كموضوع ساخر » Objet Satirique انما يهدف الى اظهار التعارض والتضاد بين العادي واللاعادي ، بحيث يولد الساخر من اللاعادي ، والذي يشكل في جوهره استنكارا وادانة لما هو عادي . فعندما يصبح الواقع المعاش قاتلا يلجأ الانسان الى عالم مواز يخلقه بخياله ، والمبالغة الساخرة هنا انما هي اشارة الى ما هو قائم . فعندما يغترب دون كيشوت عن زمانه ويصبح فارسا في غير زمانه يهاجم الطواحين الهوائية . أما « سعيد ابي النحس » فينتهي الى « الخازوق » . والخازوق كموضوع ساخر ليس الا تعبيرا عن « خازوق » الحياة اليومية ونتيجة لوضع الفلسطيني في شروط الاحتلال ، وعجزه عن ازالتها . كما يتضمن هذا الرمز الساخر تجسيدا للوعي الاجتماعي الفرد وتعميما للواقع اليومي المعاش . فالوعي يعمم الواقع اليومي بواسطة حامل ساخر هو الخازوق .

يأخذ الخارق اشكالا اخرى في رواية اميل . « فسعيد » يدخل في عالم الديامبس ويتجه نحو « الضوء المتغضن » معتقدا انها دعوة سماوية ، كما تصل اليه اشارات فضائية ، كما ان له « اصدقاء فضائيون » . يمثل اللجوء الى الخارق هروبا من العالم المشوه واستسلاما له . انه انسحاب من العالم المتدهور والبحث عن حل لم تطوله اليد بعد . فالواقع التعيس يدفع الانسان الى «الحلم والخيال» ، حلم مستحيل التحقيق ينتهي اخيرا الى كوميديا . و « يعاد » ما زالت بعيدة على الرغم من حضورها باستمرار في الذاكرة . لذلك فالانسان يهزأ من نفسه ومن غيره ومن عالمه .

ان كثافة المأساة وعمقها تأخذ بعدها الحقيقي في الساخر اكثر مما تأخذه في حزمة مفاهيم باردة تحاول تحليل الواقع . فالساخر يعيد صياغة شكل الواقع مظهرا كل بشاعته من خلال تكافل الضحك والمبكي اي بواسطة **التضاد الساخر** Contraste Satirique .

ينقلنا هذا الى نقطة ثالثة هي :

٣ — **قلب الدلالات** : عندما يصبح اللامعقول مسيطرا تتغير دلالة الاشياء ، فيصبح « المعكوس » قانونا من حيث هو وجود سليم ، فصاحب الوطن غريب ، والمحتل مواطن ، يتسلل « الفلسطيني الى فلسطين . » يظهر الساخر هنا الاشياء المعكوسة في اوج كثافتها :

— « كشفت له عن رغبتي في التسلل الى اسرائيل »

— « مدينتي حيفا ، ايضا مقدسة ؟
كل مكان في بلادنا قد تقدس بدماء المذبوحين ويظل يتقدس يا بني » .

— « وهل يدخلون جامع الجزار كما دخل الصليبيون مسجد عمر ؟

— حاشا وكلا يا بني ، بل يقرعون الباب فنخرج نحن اليهم . انهم لا يدنسون حرمة دور العبادة ، بل ان لهم في خارجها ، متسعا لهذا الامر » (١٩) .

ـــ « قال انه متطوع جاء ليحارب الاقطاع ، وانه يحب العرب . وقبل ان يتـرك المركز عاد وصافحني بحرارة ووعدني بأنه ، حين تنتهي الحرب ، سيقيمون لنـــــا كيبوتسات » (٢٠)

يرسم اميل حبيبي من خلال الشكل الذي اصطفاه لروايته الواقع بدقة واحكـام ، فالحدث يمور خلال جملة لوحات ذات وحدة منسقة ، وليس التشكل او التناقض في الشكل الا انعكاسا للتناقضات الديالكتيكية في المضمون ، لذلك فان الحدث بكـــل شجريته ، فرديته وجماعيته ، واقعيته ولا واقعيته ، تعبير عن الحقيقة .

تأخذ رواية « الوقائع الغريبة .... » قيمتها اساسا من خيالها الرحب وحرارتها الايحائية ، اضف الى ذلك ان عنصر الابتكار والخلق فيها لا يهيم ضائعا في معادلات فكرية بل يستند الى ارض الواقع الصلبة ، الى معاناة الباحثين عن « شظايا اهلهم ». فقوة الايحاء ترتبط بقوة مع مفهوم الكاتب للعالم ووعيه لقضيته ، ويحيل غيـــاب هذا المفهوم بلا شك الرواية الى ملهاة باردة بدون طعم ولا دلالة .

ان رواية اميل حبيبي ليست متعة قراءة ، ولا صورة عن واقع شعب وحركتـه فقط ، فهي ايضا رواية **مقاتلة** ، فاذا نظرنا اليها عثرنا فيها على عنصرين : موقـف من الذات وموقف من الاخر . اما الموقف من الذات فيظهر كنقد ذاتي ، نقد للاوهام والقدرية والاتكالية التي كانت سائدة عندما ضاع الوطن ، وصورة « المتشائل » هي التعبير الكامل عن ذلك ، تعبر عن فهم وتبرير قدري لكل ما يحدث . اما الموقف من الاخر « العدو الصهيوني » فيفوض في كل ارجاء الرواية ، انه **الحقـد الاسود** تجاه المغتصب بعالمه المنحط . حقد يتضمن الاستنكار والاحتقار والكره . لذلك فـان الرواية تتجه وتدفع الى المستقبل ، تساير وتوازي القوى الصاعدة في التاريخ ، لا تصرخ ولا تعظ ، لكنها تظهر مرارة المنفى وبشاعة الاحتلال ، وتذكر بوطن مفقود اضاع الاخر معالمه ، تذكرنا باسواقنا القديمة ، بالبحر والبراري ، وبالعسف الوابل علينا انها تبدأ بالسخرية لتشير الى الحركة وضرورة الحركة لاعادة توازن هـــذا العالم المقلوب .

من الكمون الى اليقظة :

عندما ضاع الوطن وقامت دولة اسرائيل ، وقف الفلسطيني لاول وهلة مضطربا ، مصفوعا ، لا متوازنا . الا ان هذا الموقف لم يكن يعبر عن استسلام مستمر امـــام الواقع الجديد ، فهناك مرحلة العودة الى التوازن من جديد ، ووعي العالم مـــن جديد ، اي بدون اوهام ، واقتضى هذا ان ينظر الفلسطيني الى نفسه ، والـــى الاخرين من الملوك والرؤساء ، والنظر ايضا من جديد الى الاخر : العدو الصهيوني. كان من الضروري منطقيا المرور بهذا المسار كي ينتقل الفلسطيني من حالة الكمون الى حالة التوثب .

يرسم اميل هذا المسار في روايته « الوقائع الغريبة » ، حيث نرى مجيء النكبة وهبوط الاحتلال والفلسطيني الضائع المنتظر عودة ارضه ، كما نرى المسار التاريخي الذي دفع بالفلسطيني الى وضع جديد : المقاومة . فـ « سعيد » الذي « عمل معهم » هو نفسه الذي يولد من جديد عندما يلتقي في السجن « بالفدائي القادم من لبنان » .

تشكل رواية « الوقائع الغريبة » من حيث المضمون مقدمة لرواية « سداسية الايام الستة » ، حيث نملك لوحة منذ يوم النكبة حتى الهزيمة الحزيرانية .

يعود اميل فيرسم لنا صورة جديدة عن شظايا الاهل وشكل لقائهم . شظايـــا انتجها الاحتلال ، ولقاء ايضا انتجه الاحتلال ، فهو لقاء مبهج على الرغم من انــه لقاء كسيف :

« وهذه الجبال المشرئبة تحرس السهل الاخضر . هي عشرة نعدوها . وهــذا الهواء النقي ، هذا الاريج اعرفه . اني استنشق رائحة رافقتني طول العمر . هذا المكان مكاني » .

ـ « فهتفت لم اعد لوحدي .

قلت : مع كنوزك ؟

فهتفت : بل مع اصحابها . انهم يعودون . يعودون » . (٢١)

على الرغم من الاحتلال ما زال سيدا ، وهو السبب في الفراق واللقاء ، الا ان اللامعقولية هنا لا تنتج وضعا ساخرا ، فهناك شكل جديد للتصدي : المقاومــــة المسلحة . وبذلك نكون قد قطعنا شوطا طويلا بدءا من المقاومة في اكثر اشكالهـــا سلبية : المقاومة بالساخر حتى الوصول الى اعلى اشكال المقاومة واكثرها رقيا : البندقية .

يتوارى عهد الاشباح المتكدسة في الظلمات وينبلج عصر جديد :

ـ « وحدثها عن رشق احجار . وعن اعتقالات . وعن نفي . وعن اهـــازيج شعبية » (٢٢)

ـ « في بلدكم شاب

وذكر اسمـــــه

ـ اعرف

ـ وطلب يد فتاة من القدس

ـ سمعت بالخبر

ـ فهل تعرف انها ابنتي

ـ لا

ـ وهي في الثانوية

ـ لينتظر حتى تنتهي دراستها

ـ لقد طردوها لانها اشتركت في مسيرة الاربعاء

ـ فتستطيع ان تتزوجه

ـ ولكنه معتقل هنا

ــ كيف ؟

ــ حمل معها اكليل زهر في مسيرة الاربعاء فاعتقلوه » . (٢٣)

يصل الحس العام هنا الى مرحلة متقدمة من النضج ويبدأ في بناء نفسه بنفسه معتمدا على ممارسات مستجدة ومتنوعة . اي ان تلك البذرة بقيت قائمة ، لم تحرقها حرارة الايام ، فما ان جاءها الغيث حتى طلعت من جديد .

اذا كان « سعيد ابي النحس » يلخص بشخصيته مزايا شعب ومساره ، فكذلك حال البطل في « سداسية الايام الستة » فنحن لا نجد بطلا متفردا بل نجد شعبا بأسره ، باشواقه ونضالاته ومعاناته . فشكل الرواية يتوافق مع مضمونها . جملة لوحات يتحرك عليها شعب كامل . فالبطل دائما هو الشعب .

واخيرا فان اميل حبيبي لا يقدم لنا وثائقا تاريخية بل عملا ادبيا اصيلا وخلاقا ، عمل جدير بنضالات شعبنا ومسار الخصب من الكمون الى اليقظة .

---

١ ــ « الوقائع الغريبة .. » دار ابن خلدون ص : ١٧
٢ ــ نفس المصدر ص ١٥٨
٣ ــ نفس المصدر ص ١٧٢
٤ ــ نفس المصدر ص ١٨٢
٥ ــ نفس المصدر ص ١٠١
٦ ــ نفس المصدر ص ١٧٩
٧ ــ نفس المصدر ص ٢٠١
٨ ــ دراسات في الواقعية : جورج لوكاتش ــ دمشق ــ ص : ٢٧
٩ ــ نفس المرجع : نفس الصفحة .
١٠ ــ نفس المرجع : ص ٢٨ ــ ٣٢
١١ ــ نفس المرجع .
١٢ ــ نفس المرجع . ص ٣٣
١٣ ــ « الوقائع الغريبة .. » ص : ١٩
١٤ ــ نفس المصدر .
١٥ ــ G. Lukacs : problemes du réalisme. ARCHE — PARIS. p. 19-25
١٦ ــ « الوقائع الغريبة » ص ٢٢
١٧ ــ نفس المصدر ص ٢١
١٨ ــ ص : ٦٦
١٩ ــ ص : ٣٧
٢٠ ــ ص : ٥٦
٢١ ــ سداسية الايام الستة ــ دار العودة ــ بيروت ص : ٣٠
٢٢ ــ ص : ٦٤
٢٣ ــ ص : ٦٣

الــبراري

سـليم بركات

الى طلال رحمه

جَفَلَتْ عُجول السهل حين أَحاطَ بي
نبعٌ وهرولتِ الزنابق والسهولُ
فغسلتها ونزعت عن نبعي غلالة مائهِ
ليضمنا ثوب يهيِّئهُ العويلُ

وانتظرتْ الأرضَ تسترخي ككاهنةٍ أمــام فراشي الحجـريِّ ، وانتظرتْ زرافاتُ الغبار إناثَها ، وتدافعتْ بين الحمائم من حمير الوحش أسرابٌ تموج خطوطها كمصائرٍ ، وجذبتُ أقفالَ الينابيع الخفيفةِ كي أرى جيلاً يجمهر يأسهُ ويغيرُ مخفوراً بأجرامٍ وحدادينَ : اني حافلٌ بسلالة مشغولةٍ ، ومعي القنادس والسهولُ

والآبنوس يشدني شدّاً ، وينثرني الصهيلُ
لؤلؤاً ، فترى القبائلَ عادياتٍ بين لؤلؤةٍ ولؤلؤة ، تخضُّ سماؤها
قِرَباً من الأحشاء ينهض بينها الفتح البديلُ .

جُرَّني يا مــاء ، جُرَّ منابعي وسط انتخاب القتل ، وسط النخبة : ألآن أعتكافي مثل أسياد يجسُّون العوالمَ جَسَّ فحلٍ حاذق لإناثهِ . الآن اعتكافي حيث أُفلتت الوشيعةُ بين أجرام تقود عُجولها العربات بين نيازك الموتى ، وأهتــف : اننا الأرضُ – المكيدةُ ، والمكانُ

سهمٌ يغُذ الى دمشق . . أهكذا
يُعلى لنا عدمٌ ويبتدىء القِرانُ ؟

لا يــدٌ غمرت بطونَ العاشقات كما غمرتُ بطونهنَّ بجوهرٍ قلقٍ ، وأفرغتُ الجواهرَ حاضناً شمس البويهيينَ ، أهجس : أنها شمسٌ ؛ وأهجس : أنها نافورةٌ :

فليُعْـــلَ قصديرٌ على رمـح الكهولة ، وليكنْ لشباكنـا قَبْضٌ كقبض الوقتِ ، ولتأتِ الفروقُ

مهمومةً ، والنفس تحلجُ بعضها حَلْجاً كقطنٍ ، والندى
يرمي أد ب ا اصوت الى الندى ، والهازلونْ
كلٌّ تنَكّب موت ومضى الى موت السنينْ .
ولتأت كلُّ مكيدةٍ صعدت الى ميقاتها :
خُمْسٌ سلاجقةٌ
وخمسٌ وردةٌ
خمسٌ أقاليمٌ
وخمسانِ الأنوثةُ . .

يا سريراً ليناً ،
يتها الأنوثةُ ، يا حدود غبارنا

في أيّ هاويةٍ نهيء موتنـا للميتينَ ؟ سنانُنا أرضٌ ولا كبدٌ لأرضٍ ، لا دمٌ يصفو ، تعالوا :

من يدّعي أني جرفت الارخبيلَ الى بلاط أنوثـةٍ مختومة بالبحر ؟ من يعدو بقلبي جاهراً بمجيء حلّاجينَ او بمجيء غلمان يواسونَ الممالكَ بين هاوية وهاويةٍ ؟ دعوني عاقداً عَدَمي على أشيائهِ

فأنا انتخابٌ غامرٌ ، وانا الاصولُ
والمدى درعٌ واني مُحْكَمٌ كالدرع ، لا موجٌ يجاهر بي ، ولا يغتالني المجرى ، ويفضحني المسيلُ .

عُدَّني يا رب اني مفردٌ اصغيت للنسل الذى التحمت مساكبهُ ، واني مفردٌ يطوي تكاثره ليبدأ سيرة معلومةً :

« للمرء حقانِ : الغبارُ ومجدهُ ،
للمرء حقٌ واحدٌ ،
للمرء ميتتهُ . . » أخياري مفردٌ يا رب : « ثمة نسوةٌ يفرشنَ بلور الرياحِ

لآمةٍ تحبو كطفلٍ ، ثم يفلقن النهار مقامراتٍ باشتمالٍ مؤنسٍ تحنو عليه فصائلُ الدّفلى ونجم محاربٍ ،

هـذا اختياري

فلتمتْ ارضٌ بأرضٍ ، ولتَضِلَّ يمامة بيامةٍ في الافق من صخب المعادن ، حيث أنتشل الفضاء كقرص قصديرٍ من النبع الذي يحنو المحارب فوقه بدروعهِ

هـذا اختياري

فلتمتْ ارضٌ بأرضٍ ، ولتنَمْ في خوذتي الاخلاطُ من كردٍ وجوالين : اني فسحة منذورةٌ للكيمياء ، وفي يدي كبدٌ ادور به كنواسٍ على الاعشاشِ .

مُرّي يا حمائمُ ،

يا عصافيرَ الفضارِ ،

ويا غرانقُ ،

يا اوزُّ ،

ويا سُمانى ،

يا دجاج الماءِ ،

يا بازيُّ ،

يا حدآتُ ،

يا جُهلولُ ،

يا دَّراجُ ،

يا بطريقُ ،

يا زرزورُ ،

يا خُطّاف ؛ مرّي ، فابتهالي ليس الا نزعةً من آدميٍّ يحتفي باناثه اذْ هُنَّ يفتحن الفضار كوردة للنيزك الملكيّ ، او يخطفنَ محور بعلهنَّ مشاكساتٍ رعدهُ ؛ مريٌّ وئيداً يا قرنفلةً مسوَّرةً بانفاس العناكب ؛ قد تطاوعني البراري مرَّة في يأسها فأردُّ كلَّ فصيلة مجهولةٍ رَدَّ الصواري نحو موجة مأتمٍ ، وافرقُ الاكباد بين مكيدة ومكيدةٍ ، ولربما دحرجتُ اقمارَ البراري في غشاء يابسٍ وقذفت كل مدينة في يأسها ، وانا أديرُ الوقت كالخزافِ ، مستنداً الى كرةٍ تفيء الى جوانبها الفلولُ

ولربما سيَّرتُ اقماراً على اهليلج الصرخات ، او
أحنيت جذعي فوق نجم محاربٍ ،
وكشفت كيف يجيء موجٌ هازلٌ مستطلعاً موجي فيهذي الارخبيلُ .
ولربما شيَّعتُ سوسنةً الى جرحٍ ، وعابثتُ الموالي حاشداً في خوذة مشقوقةٍ شمساً يفاجئها الاصيلُ
بانقسامٍ مذهلٍ ، بالشعب يحشدهُ دمٌ او زنجبيلُ
ولربما غيرتُ مسرى طعنتي نحو اعتدال الروح ، اهتف : ساعديني يا لبونات العراء ، ويا صفيحاً قادماً في أسرهِ الجسدُ الصقيلُ .

ساعديني يا حُبارى القتل ، اني حـازمٌ امري على شَرَكٍ سادفع نحوه الايامَ والريحَ النفيسةَ خائضاً في بركة من تُرَّهات العـالم المحلول مثـل كتابةٍ ، ولربمـا امسـكتُ قرميدَ البيوت مقبِّلاً هذا الزجاج ، وذاك ، او هذا السياج ، وذاك ، او متسائلاً : ماذا ستحمل لي بيوت حلوةٌ ؟ مـاذا ستحمل لي حجارُتها ؟ واين النحـل ؟ اين طنينه فوق الازاهير الجسورةِ ؟ اين مَنْ القتْ الى لغتي زجاجـاتٍ مكسَّرةً ، وأطلقتِ العنادلَ في خرابٍ حائمٍ كالصقرِ ؟ . . مُرِّي يا لبونات العراء بمأتمي ، وأحطْ بنعشيَ يا عراءُ

ها هي العرباتُ تاخذ شعبها متحاذياتٍ تحت خنشار السفوحِ ،
وها هي البلدان تركضُ ، والهواءُ
يستطير كقلب عاشـقةٍ ؛ احيطي يا لبونات العـراء بمـأتمي ،
فدمي عَجُوْلُ

والمدى مثلي شريكٌ قابضٌ بيدٍ على ميزانهِ ،
والارضُ تعقد عروةً في وسطها رئـةٌ وميزانٌ ثقيلُ :
« كلٌّ نَفْسٍ احضرتْ بخُمورها ،
والموت احضر جزَّةً وقرون كبشٍ . . » يا عراءُ ،
يا لبونات العراءِ ، ويا حضاراتٍ يخبئها السنونو في جناحٍ مُتْعَبٍ ، واقودها في طيلُسان الرمل يشملني ويشمْلُها الرداءُ . .
ها هي العربات تاخذ ارضها ،
والجهراتُ تموج بين فراغ اشكالٍ واشـكالٍ مهيَّأةٍ لها بدءٌ طويلُ .

« كلٌّ نفسٍ احضرت بخمورها »
والموت احضر جُزَّة وقرون كبشٍ . . » ، والعويلُ

حائمٌ كالصقرِ ؛ اني حامل غصنَ المشيَّعِ ، لابسٌ ما يلبس المحزون ، لكني احاذر ان تراني نسوةٌ اشعلن خرنوبَ البراري في صفيح اجوفٍ ، وجمعن اعشاشاً على اثدائهن كانمـــا دفعت بهـنَّ ذكورةٌ للمسرح : آحتمل ، آحتملْ يـا قلبُ ، يا زريابَ غِرِّينْ وسفسطةٍ فاني حامل غصن المشيَّعِ ، لابس ما يلبس المحزون ، لكني امدُّ يديَّ تلتقيان خيطَ طفولةٍ منهوبةٍ وادير وجهي عارفاً اني سأُقْتَلُ تحت سقف امومـةٍ اخرى ، وتحت جنـاح امراة تلامس زينتي بانامـلٍ منهوبةٍ . . هاالجمهرات تمـوجُ :

انى راحلٌ ،
والافق يهزهُ الرحيلُ

وانهدامٌ سيِّدٌ يلوي باعناق السهول الى دروع اسدلتْ
فوق النهار فلا ترى منه سوى شرخٍ يلامسه عواءٌ او هديلُ .
وانهدامٌ سيدٌ يرتجُّ مثل الثدي مختصراً انينَ فريسةٍ ، ودمٍ يجانسهُ الافولُ .

كلٌّ نَفْسٍ احضرت بخمورهـا ، واتتْ بناتُ الوعر يمـلأن السلال بابجديات مرقَّطةٍ ، ويخلعنَ البُصيلات البقيـةَ من فضاء هارب في سربه ؛ واتى المشيَّعُ : « ايُّ قاماتٍ ستختار السلالةُ ؟ » احضري يا نفس ما احضرت من حبقٍ حديديٍّ فان الجيل يطلق صقره في غابةٍ ويهيم مغسولاً ببلور الانوثةِ ، مالئاً ابواقهُ بلهاث مامُوْتٍ وتَيْسٍ اشقرٍ خـارت قوائمـهُ . آركضي يا نفسُ ؛ ثمـة جمهراتٌ ، ثمـةَ آرتفعتْ قرونٌ مثل لبلابٍ نحيل اخضرٍ ، وتزاحمتْ في منبعي الهالاتُ والهلعون : لستُ مدينةً ، لست انتظاماً ممعناً في حَضْرِ مخلوقاتهِ . هيـا اركضي يا نفسُ ، فوضى صندلٍ جذعي ، اركضي في جُلَّنارٍ ، في عقيق باردٍ ، وسَلي وبوحي
واجعلي من عارضٍ ارضاً ، ومدى عارضاً
للجمهرات تجيء في خزفِ المسوحِ .

فَرْسخٌ مُلْكي ، وكم باعدت بين حدوده يا نفس ، كم سوَّرتُ ينبوعي بجـلد لبونةٍ ، ونهضت بــين صناجب الأبنوس متبوعاً بجيلين استوائيينِ ، او بفسائل ثديَّيةٍ . كم ضِعتُ ، كم ضيَّعْتُ في أثري شعوباً صِرفـــة ، ومسحت ظهر أتانتي

بخلائقٍ كالنّيفِ . كم كنت الوحيد الفرد يطلق كوكباً لصقوره ، ويرى عراك معادن مذعورةٍ . كم جاءني النسرين يدفع شمسه كفريسةٍ ، وكم الندامى غافلوا أيامَهم ومشوا بأجراس السمندل في جروحي .

فَرْسَخٌ مُلْكي ، وأزعمُ : فورسخانٍ ؛ وعرعرٌ جسدي ،
وأزعمُ : ردهةٌ بين الصفيحِ .
لي خِلافٌ آسرٌ في كل جوفٍ ، وارتباكي
كارتباك فجيعة صعدت الى ميعادها
ومشت كما تمشي الكراكي
في ذهول مُحْكَمٍ يا نفسُ ؛ لي ميثاقُ كلِّ فجيعة ، لكنني
ميثاق شعب جئت أضرمه ، وأذهب في الضريمِ الى المديحِ
عالياً ، لكأنَّما غيَّرتُ موضعَ نجمةٍ وشردتُ أبعدَ في غلالات المذوبة ساحباً ذيلَ الرداء عن السفوحِ .

أيُّ نفس أقلقت أيلَ المدائحِ ،
أيُّ عشبٍ مُشْكرٍ يعلو ويرفع لي مديحي
في إناءٍ مُشْكرٍ من أرجوان النعمةِ ؟ انطلقي اذن يا نفسُ ، أبعدَ ، ثم أبعدَ ، عالياً يا نفس كي أرمي فتوحي
مثلَ سمّاقٍ وفِلزٍ راسبٍ ؛ يا نفس اني جئت من يأس المعادن قاصداً يأسَ السلالة في حنوٍّ بالغٍ ، وأحدِّثُ الحيوات أحياناً حديثاً مفرطاً في تُرَّهاتٍ رموزهِ :

« لو أن عمالَ المدينة حطموا ماسورة ، واستأنفوا غسل الغيوم بحمض كبريتٍ وعادوا آخر الليل انطوائيينَ ، كلٌّ يستردُّ وشيعةً من حلمه ويضم أسلاكاً كطفلٍ ؛ لو بكى الطلابُ والحرسُ الحكوميون تحت جدار مدرسة ؛ لو ان ستارةً سقطتْ بشرقيِّ المدينة واستعادَ المسرحُ الجسدَ الذي سحلوه من حيٍّ لحيٍّ ، لو تراكضتِ البيوت بلا لجامٍ أو قلاداتٍ تضيء شكيمة المقتولِ ؛ لو أن الجسور تباعدتْ لرأيتموني عالياً أرمي فتوحي » .

أيُّ نفسٍ أقلقت أيلَ المدائحِ ،
أي عشبٍ مُشْكرٍ يعلو ويرفع لي مديحي ؟

قـــد عقدتُ مساحباً من تُرّهاتٍ حلوةٍ ، ونفخت في كوري : أنا الحدادُ أطلقُ أسرَ انثى المعدنِ ، ألانثى التي جذبت عجول الزِّنْكِ من حيزومها وتقدمتْ في غفوة الينبوع توقظ وردةً من نيكلٍ وغصون قصـــديرٍ تراختْ ، ثم تقتحمُ الذكورةَ . انني الحدادُ : من يعدو بجمري ، بالرقائقِ من حديد الجمرِ ؟

عُشبٌ مُسْكرٌ يعلو ويرفع لي مديحي

والقرامطةُ الذين تبادلوا في دورقٍ اعلامهم ،
يَشكُونَ ضِيقَ الأرض ؛ والملكاتُ يستوقدنَ في المدّ الفسيحِ
طمثهنّ ، تدافعي يا نفس ،

عشب مُسكرٌ يعلو ويرفعُ لي مديحي

ويعشّني درعُ السمندلِ حين أُحني قامتي لسمندلٍ ، ويعشّني بانٌ فأرفع درعــهُ مستوفزَاً حيث الحيـاة هياكلٌ ورفيفُ اجنحةٍ تزاحمُ بعضها في قبّـة مكسورةٍ . يا نفس عودي : لن تكون حرابُنا ريحـــانَ انفاسٍ ، ولن تتواثب الأجرامُ في حجراتنا كأرانبٍ ؛ سنعود نحو بلادنا ، نحو الحظوظِ ونحو ريحـانٍ سأجثو تحت قامته اباعدُ بين اوراقٍ لها قزحيّةٌ من مخملٍ ، وستجهش الأبعاد في عيني صارخة : خذينــا يا طفولة . . لا ، آركضي يا نفس ، اني ماليءٌ درعي بغسلين وفجـرٍ ارقطٍ كالنّمرِ ، اني قاذفٌ قلبي وجيلي في قرنفلة ، واني قادم خــالٍ من الاحشاء والرئتين ، خالٍ من كِلًى ، خالٍ من الكبد : آرفعي درعي ، ارفعيه لنخلة او وردة ، فلقد نهضت امام نسلي طاعناً في نبعه ، مثلي كمركبةٍ لهـــا مئتان او زيْدَتْ من الأفراس ، مثلي مثــل مفجوع يدقّ على صفيحٍ لامعٍ بهباته وشموسهِ ، ويعود اكثرَ وحشةً فيمازجُ الأرحـامَ بالاعشاشِ . مثلي مثـل هـــذا الشعبِ . . فلترفع دروعي نخلةٌ او وردةٌ ولينبثقْ هذا الحديدُ

بين نافوراتنا ، ولينبثق عدمٌ مديدُ
كي نقيسَ رياحَنا في ظلهِ ،
ونطوف جمعاً حاشداً اقداره في قبة مكسورةٍ ،
او جُرْنَ عرّاف واردية يعود بها الشهيدُ .

ليتهـا رفعتْ دروعيَ ، ليتني غَمّسْتُ جسمي عاريـــاً في عُصْفرٍ ، ورأيتُ كوكبَةً يدور به الصعودُ

ليتني لامستُ لَمْسَ الظنّ ما يخفيه قوسُ امومةٍ طرفاهُ في نبعٍ ، وفي النبع الهوادجُ والمحاريثُ ، التوازنُ ، واشتغالُ فصيلةٍ بفصيلةٍ . ليت الحناجرُ احْكَمَتْ إقفالها وتنفّسَتْ بحناجر القصدير ، ليتَ تكسّرتْ واستلّ من بلّورها هذا الصعيدُ حربةُ وزرودهُ ،

واستنهضَ الحذقينَ حيث سنونهم بَوْصٌ وقُنَّبُ خيمةٍ مزحومةٍ بمالح الإنسانِ ؛ ليت الآلهاتُ نزلنَ من بلورةٍ في مقتل الانسان يستودعنهُ خلخالهنّ وجلدَ جاموسٍ ؛ وليت تبادلتْ نخبي الحشودُ ،

حين قلبتُ الغبارَ لدرهمٍ ،
ورايت آبائي ووقتي مائلاً كالصاريهْ
وهتفتُ : يقتلني البعيدُ
ثم تمحو الهاويهْ
خُوَذَ السنابل اذ تقوم الى صلاة الدّفن في اعضائي المتراميهْ .

من يدّعيني الآن ؟ اي كواعبٍ امسكنَ حيزوم المدينة ، ثم اطلقن الفحولةَ من قوارير الغبارِ ؟ وايُّ مقتولٍ توازن موتَهُ شمسانِ :

(١)	(٢)
شمسٌ كسَّرَتْ اقداحها	شمسٌ رمتْ اقداحها
وتكسَّرتْ	ورمتْ
بين	باكباد
الندامى	الندامى
فانحنوا	فانحنوا

(هـذا اتجـاه الصاريـه)

اَوَ يدّعيني بارقٌ يمحو كما تمحو حدودي الهاويهْ ؟
اَوَ تدعيني خوذةٌ ؟ اني جمعت هياكلاً بهياكلٍ ،
وضحكت للشعب الذي اجتمعت به الاهوالُ في مرآتهِ ،
ونحرتُ ساقيةً لنار الساقيه
ولثمت ماء الساقيه

ورأيت في حصبائه أمـي ، رأيت شعوبي اختلطتْ ، وقلتُ : تباركي يا نفس ، ان الترجمان مآتمٌ ؛ وتباركي يا نفس ، هذا صاحبي قد عاد من أيامهِ ، هذا طلال : أتذكرين شملته بالرَّنْدِ والنعناعِ واستنفرتْهُ فاستنفرَ الياقوتَ ثم طوى جوانحه على بلدٍ ، وأطلقَ جرحهُ ؟ أوتذكرين صرخت : يا لجمالِ مـا أهرقتـهُ من حزن هـذا اللوتس العربيِّ ؟ ثم صرخْتِ : هذا صاحبي يا نفس ، هذا لوْتَسٌ مُلْقى على ماء تكاد شفاهنا ان تستحمَّ به ، وهذا صاحبي يا نفس ، هذي زوجُهُ ودروغَهُ ، وأنا تكافؤ صرختين تناهتا من خندق ، وانا الذهولُ

قاطعاً كالوقت يهزجُ بينه وقتٌ بتولُ
يا نفس هذا صاحبي ،
يا نفس هذي نجمة موصولةٌ بخيانةٍ متعاليه
وخيانتان دمي : بلادٌ أهرقتْ ، والهاويه .

وخيانة هذي المدينة حيث تغمرُ ريحُها ريحاً فلسطينية بحثالةٍ من أبجديات النخيلِ ورملها ، يا نفس هذا صاحبي قد عـاد من موت دمشقيٍّ الى موت أرى فقراءهُ مستوحشين يكسِّرونَ جرارهم في حجرة من أبجديات النخيـل ، ويرجعون الى الينابيـع الخفيفة عاصبين جباههم بمكيدةٍ وانين سوسنةٍ ، وأهتف : مُـرَّ ، مُـرَّ طلال ، ان العاصمه

رفعت اليك كتابها وقضاتها ،
وتثاءبت مدنٌ كأن المحكمه
وهج لمدفأةٍ تراخى نائمٌ من حولها ، أو نائمه .

والشاهدان دمي وزنبقةٌ ؛ أتذكرُ كم كتبنا عن جنون كتابةٍ ، كم قلتَ ان الطاوله

ستكون آخر قاتليكَ ، وأن شمس السنبله

ستنامُ في « الشياحِ » ، ان دفاتر الصحفي سوف تمر بين « المسلخ » الباكي وبين المظم ، أن القنبله

فرحٌ ، وأنك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدى والمهمله ؟

ستنام أعرف ان غصنك ذاهبٌ لينامَ ، أن ثمار هذا الغصن والأوراقَ ذاهبةٌ ، وجذعك ذاهبٌ لينـامَ ، أني ذاهبٌ والريح ذاهبـةٌ ، وأرضك مثلنا ستنامُ :

فاملأ راحتيك بخردلٍ وقطيفةٍ ، وانثرْ زبيبك في ظلامٍ أخضرٍ تجتــازهُ الاجساد مثل القافله

واذهبْ ، فانك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدى والمهمله .

ستنام . . اعرفُ يا طــلال ، واعرف سطير الذي سيحوم حول يديك اذ تتقاسمان ظلام قبرٍ ضيقٍ ، وتهومان كشتلةٍ بين الظلام لطيفةٍ متناغمه .

ستنام . . أعرف ان هذي العاصمه
نزلت اليك بقبّعاتٍ حلوةٍ ،
وبسترةٍ من مخمل الماء الفلسطينيِّ ، والريحانِ ، والتفّتْ عليك كزنبقاتٍ ناعمه
فقطفتها وارتحتْ ، ثم تركتها للسابله
وذهبتَ ، اعرف ان جسمك ذاهبٌ نحو التواريخ المعادة كالصدى ، والمهمله .
وعرفتُ اني ذاهبٌ ، والارض ذاهبةٌ ، وناري
محضُ قضبانٍ وأخلاطٌ من البازلتِ والأحشاءِ تذهب بالنهارِ الى النهارِ .

من يدّعيني الآن ؟ أيُّ صديقةٍ عادت بقلبي من حطام اخضر ، وبكتْ لأني لم اجد موتاً يمهّدُ فِلزهُ وعصورهُ ، ولأن عاصمة بكتْ وبكيتُ : مرّي يا نباتاتِ الغضار ، ويا صديقةَ خيزران مائلٍ في ضفة الخابور ؛ مُرّي طلالُ ، مُرّي كتربةٍ مجروفةٍ من سفح سنجارَ الخجول فــانني لامست موتك لَمْسَ مَنْ مَرّتْ يــداه على قرون الظبي ؛ تلك صديقتي ، تلك الغصون وقد ترامت في حنين الشعب ، تلك جنادبٌ مسروجةٌ ، ودمي يجيء مع الصنوجِ

خائضاً ميراثهُ ، والبحر يلجأ من « مهابادَ » الرياحِ الى الخليجِ
لكأنّما سَعَتِ الملوكُ الى انكسارٍ ،
وانكسارُ البحرِ نبضٌ خالقٌ ينحلُّ في زبدٍ وموجٍ

جانحٌ قلبي : ترى من يدّعيني الآن ؟ لستُ مكيدةً ؛ لكنني
شَرَكٌ ، ودرعي كالثلوجِ
أبيضُ غَضٌّ تدور به المروجُ على المروجِ .

كلُّ شيء هادئٌ ، وطلالُ أهــدأُ من وعولٍ تستريح مــع الظهيرة ، والسماءُ جنازةٌ ، وانا اواسي الزهرَ معتدلاً كطقسٍ ، حاكماً بــين الدروعِ اخيطُها بسيورِ

معدنها ، واقطعْ ما يوَصِّلني كشمسٍ في فراغ الابجديات التي لم تأت ـ: « يا للحلوةِ انتظرتْ ، ويا لجمال عينيها اذا ما رفَّ بين جفونها دمعٌ ، ويا لجبينها المتغضّنِ الباكي ويا لشفاهها » ، وانا اواسي الأبجديات التي لم تأتِ ، معتدلاً كميعادٍ ستُقْبِلُ فيه وحشيّاتُ هذا الروح ـ : « يا للحلوِ ، يا للحلوةِ اقتربا . . » إلهي .

يا الهَ الابجدياتِ التي لم تأتِ ، ماذا استنفر القلقاصَ ؟ ماذا استنفر الجيلَ الذي ألقوه بين معادنٍ مذهولةٍ ؟ ماذا يُصيِّرني اعتدالاً جارحاً فأصيحُ : هاتوا حربكم وطيوركم ، هاتوا الطبيعة مثل كلبٍ اعرجٍ ؟ يا ربِّ يا متعالياً في رهبة الانسان اني عارمٌ كهدوء هذا الجيلِ ، اني واقفٌ حيث اللواتي اجْتزنَ مدرجهنَّ يستنبتنَ رعبَ الموجِ واللغةِ ـ : « ألحبيبُ يضمُّها ، والحلوةُ اتكأتْ . . » الهي

كل شيء هادىءٌ ، وطلالُ أهدأُ من وعولٍ تستريح مع الظهيرة ، والدروعُ جنازةٌ ، والافقُ لي : « هذي رموزي
حُلوةٌ ، واناثيَ الهلعاتُ يستغفلنني
ويضئْنَ مسرحهنَّ بين دمٍ ولوزِ
واحتفالي قاتلٌ ، ومعاولي
كونيّةٌ ، والماء مصباحي الى بهو الكنوزِ
حيث استقري الطبيعةَ في قناعٍ مهّرجٍ ،
واضيّعُ الأرحامَ بين خسارةٍ تأتي ، وفوزِ .

والإشاراتُ التي اودعتها في الوردِ تخرجُ كالمناقير الصغيرة كي تدلَّ عليَّ : اني تاركٌ قلبي على غصنٍ وبوصلةٍ ، فماذا يدفع المدن الجميلةَ ان تجيء اليَّ ؟ ماذا يجعل الساعاتِ اسلحةً ، ونفسي مثل بوتقةٍ لها عنقٌ طويلٌ من زجاج اخضرٍ ، والبوتقه
عربيّةٌ ، والكيمياء ـ الشعب ترشح من جوانبها فتعلو
همهماتُ الشعب بين دخان نارٍ فاسقه ؟

يا ربِّ هذي ارضُك اقتلعتْ جذورَ نحاسها وحديدها .
يا ربِّ هذي ريحك اغتسلتْ من الريح التي رفعت اليك نذورها .
يا ربِّ هذا قلبك اقتسمته بلوّزاتنا ،
هذي رموزي سيدي ،

وفسيفسائي الانظمه
وجداولي تمضي على مَهلٍ وقد لبست فراء الملحمه . .
وكشّيدٍ بدّلتُ جيلَ الملحمه
بعشائرٍ حضَّريةٍ مستسلمه

ونفضتُ عمري من نظامك خالعاً قبري وانسانيتي من فجوة الانسان : هـذا مقتلي يا ربّ ، والهجراتُ آتيةٌ ، وحرٌّ عنصرُ الماء الذي اكسوهُ شكلَ القلب ثم اعيدهُ ماءً ، واكسرُ في مرايا نبعه شكلي معيداً كل زاويةٍ الى قانونها في المهزله

وافجّرُ الاجسامَ حيث تفجَّرتْ اشكالُها ،
واقول هذا مطلعٌ حَسَنٌ ، وهذا
منفذٌ بين التواريخ المعادة كالصدى ، والمهمله » .

لا بأس ، هادئةٌ هي الأجناسُ ، والحرب التي علّقتها كقلادةٍ ستظل مثل قلادةٍ ، سأظلُّ أمتحن السناجب في السهول وأحتمي بفراشة من معدن حرٍّ ، واستقصي العوالمَ صائحاً بين اللقالق والوعول كما يصيح الفاتحُ : آشتعلي اشتعالَ طريدةٍ يتهيا اللقالق والوعولُ ، ويا ظباءُ استنفري ، وخذي نهاريَ يا زواحفَ لا دروع لها ، ومرّي مسرعه

هي تسعُ ساعاتٍ وأخلقُ ظبية من ثورةٍ متنازعه :
(في الساعة الاولى أباشرُ جمع كل عظامها في زئبق ، فاذا تلاصقت العظامُ كسوتها باللحم ، ثم تركتها للوقت يكسوها بجلدٍ لينٍّ ، وغسلتها في التاسعه بدمٍ ، وقلت لها اركضي في خندق الله المقاتل مسرعه) .

هي تسعُ ساعاتٍ ولكني سأختزلُ العناصرَ والعواصمَ حاضناً أشلائيَ الأخرى ، مغيراً نحو باديةٍ تركت شموسَها ترمي على جسدي عباءتَها كأني آخرُ اللغة التي سقطتْ ، كأني جرحُ كل محاربٍ ، أو درعَ من لا درعَ يحضنُ موتَهُ ؛ هي تسعُ ساعاتٍ وأمنح مقتلي سبباً ، وأرجع من حروب لم أكن في موجها غيرُ انحدارِ الموج نحو عويل مخلوقاتِهِ : هذا اشتعالي في غد ليس انهداماً ، بل غد متجانسٌ ، وترى الحداديه صرخةَ مترَفٍ اذ ينحنون على معادنهم ، ويحتفلون بين شرارةٍ وشرارةٍ بنظام خَلْقٍ مُتْرفٍ . . هذا اشتعالي

حين أجعل جذر كل مقاتلٍ كبداً يجرُّ على الرمالِ
أمَّةً ، وأهيِّءُ الأشياء في أحزانها ،
وأصيح مرتجفاً : تعالي

اني أمحو الهواء وأنتقي هذا الفراغَ الفحلَ كي أصطاد جمهرةً من الأشكالِ ، أو أصطاد شعباً ذاهلاً عن شكلهِ ، وأقوده نحو الفراغِ الفحلِ منتحلاً صفات محاربٍ او دولةٍ ، وأصيح مرتجفاً : تعالي

يا بغالَ الوقتِ ، ولتقف السنابلُ في قميص السهل ، تحت فراغها ،
وليمضِ شرقٌ مثقلٌ بدم المناكب والسحالي .

اني أمحو الهواء ، وأستطيل مباركاً هذا الفراغَ الفحلَ حين أرى القتيل يجسُّ كوكبَهُ كفحلٍ حاذقٍ ، وينام بين عذوبة الافق الغريب وموته ، وأصيح مرتجفاً : تعالي

يا غزالة كلِّ مادبةٍ ، فان وليمتي شَرَكٌ لاجناس ستسقط في عذوبتها ، وتنهض حيث لا جرحٌ سوايَ كانني جمَّعتُ مِسْكَ الشعب في قارورة وسكبته في مركزٍ حيٍّ فكانت الجديات ، وكان اللهُ ؛ او لوحتٍ للأنثى بمنديلٍ من القصديرِ والاعشابِ ، وانزلقتْ يدي فتهاوتِ البلدانُ . . انَّ وليمتي شَرَكٌ ، واعلن : « لا مجالسَ ، والحكوماتُ انفصامٌ ضمن منظوماتها ، ونقابة العمالِ غيرُ نقابةِ العمال ، والاحزابُ تستوفي شروط حضورها في جدول الطبقاتِ ، والمتوسطون لدى المدينة يحملون نساءهم كدريئةٍ ، والبرلمانُ دعابةٌ ، والحُكْمُ آخرُ لعبة في الترَّهاتِ الخاسره

ولتأتِ تلك الشارةُ المتناثره
من طغمةٍ مهزومةٍ ومثقفين يجنِّدون على الحبالِ
مجدهم كمهرِّجٍ . . » واصيحُ مرتجفاً : تعالي

يا سمندلةَ الحياةِ ، ويا نساء حقيقةٍ محسومةٍ ، وتناثري يا ارضُ تحت دروعنا اذ نحتمي بدم وصلصالٍ ، ونكسرُ شكلنا فنعود محض زنابقٍ . . وأصيحُ : عودي يا عُجول الى مدى سهلٍ هناك ، ويا فراشاتُ اركضي محمومةً ، فانا انبثاق الحرب بين عواصمٍ ، وانا اختيارُ البرق في فوضى دمٍ متهالكٍ ، وانا الفلسطينيُّ

يحمل شمس « عامودا » الى « نابلسَ » في رِفقٍ كأن بلادَهُ احتضنتْ بلاداً مثلها وتوزّعتْ في القلب ، او جفلتْ وعولٌ عادها شوقُ الوعولِ الى الوعولِ .

ساظلُّ امتحنُ الحياة وأحتمي
بفراشةٍ تمحو الكتابة بين هاويتي وميعادِ السهولِ
واظلُّ ادفعُ بالسهولِ
نحو ميعادِ الجنونِ ، ووردةِ الفتح البديلِ .

* * *

كانون الاول ١٩٧٥ — آذار ١٩٧٦

ثقافة

الياس خوري

ايقاع الحرب الاهلية

لم تغسل هذه الحرب الاهلية الارض بالدماء ، الا لترسم ايدي الجماهير وهي تقتحم سماء الثورة العربية . عرس البدايات الذي يبدأ مع اقواس الرغبة التي امتدت من الشاطيء الى صنين ، يرسم وهج تاريخنا وهو يتقدم محمولا على الدماء .

هذه الحرب الاهلية هي مطر الاعماق . مطر ورياح . حبال من المطر الـــذي لا تسقطه غيمة عابرة . بل هو الغيوم الخارجة من ايدينا . يعيد رسمنا وتشكيلنا ، ويصنعنا كما الارض ، نصنعها بالارادة الشعبية التي خرجت تكسر القيـــود ، تحطم الاصنام ، فيما تكتشف ذاتهـــا في صراع لا يرحم .

جميع نتائج هذه الحرب هي نتائج مؤقتة . حتى الموت مؤقت . وحدهما ، المطـــر والريح كانا ثابتين . لانهما يخرجان من ارادة شعبية حقيقية . من عرس جماهيري دموي . من بنادق حربنا التي لن تسقط ابدا .

جميع النتائج مؤقتة . ما عدا سماء الثورة العربية التي صنعنا . اما المطـــــر والريح فمن دم . واما الكلمات فرجع لدمائنا . ولن تكون غير ذلك ، لان دمـــــاء الفقراء ، كتبت مرة اخرى تاريخ الفقراء ، الذي لن نسمح لايد اخرى بمحاولة كتابته مزورا وخشبيا .

كان مطر ، وكانت رياح من الدم والشوق الحلم . هكذا نولد من جديد . ونكتشف في لهب الدم ، اننا من يصنع المستقبل . واننا شرف العرب ومجدهم وكرامتهم .

نقد السلاح ، الذي مارسته الكتلة الشعبية الوطنية العربيـــة ، كـان وجها لسلاح النقد الذي لا يصنع الا في الشارع ، في الممارسة الجماهيرية الفعلية وكتلخيص لها . هكذا تشحذ الطبقة العاملة العربية سلاح نقدها ، فيما هي تمارس نقد الســـلاح وسط الكتلة الشعبية الوطنية . وحين نكتشف معادلة وحدة السلاحين والنقديـــن ، سوف نقبض على النتائج المؤقتة . وندخل لهب زمن البدايات .

مطر ودماء وحلم . واكتشفنا في لهب الحرب الاهلية العظيمة . أن الثقافة المسيطرة هي خارج التاريخ الذي نصنع . واكتشفنا ان ايدي من ادعوا الليبرالية تلطخـــت بدماء الفقراء . وأن كلماتهم كانت فاشية صغيرة سواء تكلموا او سكتوا او برروا

لن تكلم عنهم . واكتشفنا كيف صنعت دماء اصدقائنا لهب حروف نكتبها وارض نصنعها ، وثقافة جديدة نمارسها ونكتبها لحظة اقتحام السماء . امــــا الذيـــن تركونا ، فلا نحقد عليهم . بل نحزن من اجلهم . لانهم تركوا لنا وحدنا ، تركـــوا للفقراء الذين ترتسم وفق هاماتهم دوائر النور . هذا المجد كله . هذا الحلم كلـه . هذا الموت كله .

مطر وريح ودم فوق آسيا العربية . هذه الحرب الاهلية ، كانت مجدنا . وسنبقى في لهبها ، نبحث داخل نقد السلاح عن سلاح النقد ، لرسم وجهنا على تاريخ خـراب صنعناه على انقاض مدينة كسرنا زيفها ، وعلى انقاض ثقافة حطمنا اصنامها .

رسائل السياب

بدر شاكر السياب ، هو احد اكثر المحطات اهمية في الشعر العربي المعاصر .فلقد استطاع ان يقدم شكلا متقدما لقصيدة عربية جديدة . تتجاوز الماضي محافظة على نبرة كلاسيكية ، تتوهج اللغة في داخلها ، وتأتي الصورة والرمز وعاء لمعاناة فعلية .

ان تجربة السياب تستحق اكثر من دراسة . ويجب ان توضع في سياق اتجاهات الحركـة الشعرية العربية المعاصرة ، كي تـــدرس بوصفها تلخيصا ، للمرحلة الرومانسية عبـر كسرها في محاولة بناء جديدة للقصيـــدة ، تستطيع ان تجيب على اكثر من سؤال واحد في اكثر من صوت .

يتميز صوت السياب الشعري ، وبالتالي اضافاته الى الحركة الشعرية العربية المعاصرة في ثلاثة ابعاد ، تضمها وحدة المرحلة التــي انتجت هذا الشعر . فهو اساسا شعر الريف أي شعر الحنين الى الاعماق والماضي الذي ينكسر في الزمن الجديد الذي يعيشه . هذه النبرة الريفية في شعر السياب ، وفي حنينـه اللاهب الى الطفولة وذكرياتها ورموزها ، لا تعني انه كان رومانسيا ـ الا في مراحل شعره الاولى ـ بل ان هذه الرومانسية تكسر فـــي لحظتين متداخلتين : اللحظة الاولى هـــي المدينة العربية . بغداد او البصرة او بيروت.. المدينة العربية بكل ما تحمله من الريف داخل علاقاتها وقيمها الجديدة ـ القديمة . هكذا تكسر المدينة الريف او الحنين الريفي دون ان تحطمه . تشققه دون ان تقضي عليه . فالام المثقف ـ المواطن ، المقتلع ، تأخذ في المدينـة شكل غربة مزدوجة . فهنا الريف ما يزال حاضرا ، لكن اشكال القمع والقهر والاستغـلال اصبحت اكثر عصرية ، واخذت شكلا جديدا . هكذا ينكسر الريف ، وتنكسر النبـــــرة الرومانسية ، في لحظة تشبه الضياع ، ولا ينقذها منه سوى ممارسة سياسية ـ ثقافية .

اللحظة الثانية هي الثقافة الغربية الحديثة ان الانفتاح الكامل الذي بدأ في اوائل القرن على الثقافة الغربية الحديثة . يأخذ الان ، شكلا جديدا ويصب في اشكالية جديدة . فعوض استعارة المضامين كما جرى مـــع الشعر الرومانسي (ابو شبكة) ، يكســـر الشعر العربي ، أو يحاول كسر عمود الشعر ، يتمرد على الاشكال القديمة محاولا اكتشـاف شكله الجديد . هكذا تدخل الثقافة الليبرالية مجتمعا غير ليبرالي . تتقدم الثقافة الغربية في بنية ثقافية متكسرة . تعاني الانقطاع وازدواجية الشخصية . هنا تنكسر مرة اخرى النبرة الريفية ، وتصبح مجرد لحظة فـــي استجماع الذات ، والتقاط اللحظة التاريخية .

ان هذه اللحظات المتداخلة ، هي السمـة الغالبة لمرحلة شعرية وثقافية كاملة . فأهمية السياب التاريخية ، انه استطاع في شعـره ان يلخص المرحلة ، عبر جمعه هذه الابعاد في قصيدة واحدة . فاتى شعره وكانه يستعيـن بلحظتين ، ليملع لحظة واحدة من التقـاط تجربته الشعرية . من هنا نفهم هذا التكسر الهائل في قصائده . وهذه النبرة المأساويـة

★ رسائل السياب . جمع وتقديم ماجد السامرائي ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى آب ١٩٧٥ .

التي تدلك على مبلغ مرارة مرحلة الانتقال وصعوبتها ، وتداخل عواملها المركبة .

ان هذا التحليل الاولي لتجربة السياب الشعرية ، لا يغني عن التحليل . ولا يقدم سوى اشارات او عناوين لدراسة مستقلة ومعمقة ، تحاكم هذه الافتراضات نقديا . أي عبر دراسة تفصيلية للقصيدة السيابية . غير ان هذا لا يمنعنا من ابداء ثلاث ملاحظات : ـ

١ ـ ان تلخيص هذه اللحظات الثلاث في بنية القصيدة . ينعكس مباشرة على الشكل الشعري ، عبر محاولة التجريب الفنية التي ترتطم دائما بأصولية كلاسيكية لا يتخلى عنها السياب . من هنا تأتي قصيدة السياب وكأنها مزدوجة . أو يظهر فيها شيء من الانفصام بين الشكل والمضمون .هذا الانفصام، هو تلخيص لمرحلة شعرية كاملة . تتعامل مع ظروف موضوعية انتقالية ، وتحاول الانتقال بالقصيدة العربية الى مرحلة جديدة .

٢ ـ استعمال الرمز والاسطورة بشكل دائم وكأنهما يستطيعان تعبئة فراغات هذا الانفصام . لذلك أتى الرمز الاسطوري في بعض الاحيان مسطحا ، وغير قادر على الدلالة المعقدة . فالبقاء عند لحظة الرمز الاسطوري، تستطيع ان تقلل من قدرة القصيدة نفسها على الايحاء الداخلي وعلى الاشارة الى التناقضات الداخلية .

٣ ـ ان قصيدة السياب ، عبر دمجها للحظات مختلفة داخل التجربة الشعرية . استطاعت في بعدها الواحد ، وتفككها في بعض الاحيان ، ورصانتها الاصولية الكلاسيكية ، أن تضرب عميقا في ارض الواقع ، وأن تعبر عن اكثر لحظات تراجيدية . فمرحلة الانتقال والصراعات الوطنية ـ الطبقية ، هي قاعدة استطاعت قصيدة السياب ، عبر انتقاليتها ان تتعامل معها ، وان ترسم بها ، مرحلة بالغة الاهمية في شعرنا العربي .

الشعر والخلفية الايديولوجية والذاتية .

ان الدراسة الفعلية للشعر، لا تكون الا بدراسة الشعر نفسه اساسا . أي بدراسة القصيدة بوصفها شكلا ادبيا . ثم ربطها بالادب بوصفه شكلا ايديولوجيا . ودراسة علاقة هذا الشكل بالممارسة الاجتماعية أي بالصراع الطبقي . من هنا تصبح دراسة حياة الاديب او الشاعر ضرورية ، لانها تشكل احدى خلفيات الدراسة العامة . دون ان تصبح هذه الدراسة اساسية أو بالغة الاهمية . غير انها تكشف على الاقل، خاصة بوجود رسائل أو نصوص كتبها الشاعر ، جانبا ، من لحظات خلفية الابداع الفني . بوصفها لحظات معاناة . ولحظات صراع ايديولوجية .

هنا تقع اهمية الكتاب الذي جمعه وقدم له ماجد السامرائي لرسائل السياب . فرسائل السياب تكشف جانبا هاما من الصراعات الايديولوجية والسياسية ، التي رافقت مرحلة ادبية كاملة ، وطبعتها بطابعها . كما نتعرف على جانب من شخصية السياب . بهمومها ورومانسيتها واوجاعها وامراضها .

لا بد امام هذه الرسائل من ابداء بعض الملاحظات :

١ ـ هناك فجوة في الكتاب الرسائل ، بين مرحلة المراهقة ، ومرحلة الخروج على الحزب الشيوعي . هذه الفجوة يجب استكمالها . وهي ، كما يشير السامرائي ،بالغة الصعوبة ، نتيجة كون مجهود تجميع الرسائل ، لا يرتبط فقط بارادة من يجمعها ، بل يرتبط اساسا بارادة من يقتنيها ، لكن كان من الافضل لو أشير الى هذه الفجوة الهامة في مقدمة الكتاب . وقدم تحليل أولي لها .

٢ ـ تعطي هذه الرسائل خطا بيانيا لتطور السياب في اربع مراحل : مرحلة المراهقة . مرحلة التعامل مع الناصرية عبر التعامل مع مجلة الاداب . ثم مرحلة التعامل مع مجلة شعر والعداء السافر للشيوعية . ثم مرحلة المرض والالام الرهيبة . تلخص هذه المراحل ، قلق الثقافة العربية ، والتيارات التي تتجاذبها . وكيف تصبح المسألة الوطنية ، ومسألة الادب . وجهين في مرحلة واحدة .

٣ ـ تشير هذه الرسائل الى خلخلة الفكر الليبرالي ، ووقوعه في شرك معاداة الشيوعية

بشكل اعمى . فعلى الرغم من الحس القومي المرهف ، ومن المعاناة الريفية التي يحملها السياب في شعره ، فانه لم يستطع تجاوز تأثيرات القرينة الثقافية ، فوقع اسيرا لها . ففي رسالة له ليوسف الخال ٤ اذار ١٩٥٨ يشدد على ضرورة « تخليص الشعر من المزبلة من السياسة . اذ أن على الشاعر ألا يبعثر جهوده في قضايا تبعده عن قضية الشعر » . لكن هذا الهرب من السياسة ، هو هروب الى السياسة نفسها . اذ أن هذا لم يمنع السياب من محاولة نشر مقالاته « كنت شيوعيا » في كتاب مستقل وفي الخارج ! .

٤ ـ تشير هذه الرسائل ، الى مبلغ التكسر العام في النظرية الشعرية . ومحاولة الخروج بتنظير متماسك يتعرض للتساقط دائما . ان رسائل السياب ، هي مجرد شهادة غير متكاملة . لكنها شهادة لمرحلة مليئة بالمنعطفات والتحولات . لذلك تأتي شهادة السياب وكأنها شهادة لتيار في عصر ادبي يتميز بكونه عصر انتقال . من هنا ، فهي لا تضيف كثيرا ، غير انها تضيء بعض اللحظات . وتساعد في رسم لوحة متكاملة للثقافة العربية المعاصرة .

محاورة الواقع اليومي

بين السرد القصصي ، والتوتر الغنائي ، تقع محاولة مريد البرغوثي الجديدة ، في محاولتها صياغة الزمن الثوري الفلسطيني . المعادلة التي تحاول مجموعة « الايام الصعبة» صياغتها ، هي معادلة بالغة الصعوبة . لانها تريد ان تلتقط لحظتين في صيرورة شعرية واحدة، دون ان تستطيع بلورة اتجاهات وتحولات داخل القصيدة نفسها تكفي للوصول الى صيرورة شعرية متكاملة .

حين تتعامل اللغة الشعرية ، مع الواقع اليومي ، فانها لا تتعامل مع فراغ . انها تنطلق اساسا من جدل داخلي ، هو جدل اللغة نفسها مع الواقع ، عبر اقليتها . هكذا يتطور الشعر تطورا ايقاعيا . فهو حين يكتشف ايقاعه الخاص داخل اللغة ، يقوم بعملين مزدوجين : استنباط ايقاع اللغة واستخدامه ، ثم كسره في سبيل الوصول الى ايقاع جديد يجاوب على متطلبات لحظة تجاوز ، تفرضها علاقة الشعر المعقدة بالممارسة الاجتماعية . هكذا لا تفقد اللغة الشعرية خصائصها ، بل يجري تجاوز الخصائص القديمة ، كسرها ، اقامة قطيعة معها ، وصولا الى مجموعة من الخصائص التي تسم مرحلة او فترة من التطور الفني .

الشعر الواقعي ، لا يخرج عن هذا التحديد ، بل يؤكده . ما هو الشعر الواقعي ؟ انه بالقطع ليس شعر وصف للظواهر . بل هو شعر تغلغل في اعماقها . اكتشاف جدلها عبر جدل اللغة . هكذا فكل شعر عظيم هو شعر واقعي . فالشعر العظيم هو شعر الاكتشافات . شعر اذابة الذات في اللحظة التاريخية ، هنا تخرج اللغة مغسولة بالممارسة الاجتماعية . تلتقط اكثر روافدها عمقا . أي تلتقط جدل حركتها الذي يتقدم داخل الصراع الطبقي ، لتعيد انتاج اللغة . وتعيد بالتالي انتاج دلالات جديدة ، تكسر الماضي لتتجاوزه .

بهذا المعنى ، يفهم الشعر الثوري فالشعر الثوري ، هو مدخل الى لحظات التحول في حركتها . اي انه لا يكتفي من الاشياء بالظاهرة . ولا يتوقف عند الوصف ، الا ليدخل منه الحركة . لا يتوقف عند لحظة ، الا بوصفها استخلاصا لحركة من التناقضات . وهو بهذا المعنى ، محاولة دخول الى واقع التحولات التي تصنعها الممارسة الاجتماعية . هذا الدخول يأخذ في الشعر ، سمة الشعر ، أي يأخذ الايقاع والشكل بوصفهما اعادة بناء للدلالات . لا يمكن فهم الشعر ، خارج منطق الايقاع وتطور الاشكال . فمحاولة كتابة الشعر خارج الاشكال هي محاولة شكلية في جوهرها . أي انها تتوقف في صناعتها عند محطات ايقاعية تعيد صياغة الشكل الشعري في جسد

★ مريد البرغوثي : الايام الصعبة . منشورات فلسطين الثورة . شباط ١٩٧٢ .

هو القصيدة · ان محاولات كتابة قصيدة النثر العربية تقع هنا · من ضمن البحث عن جسد جديد للقصيدة · وهي بمقدار قدرتها على اكتشاف الحركة الداخلية للواقع في حركة اللغة والايقاع ، تصل الى لحظتها الغنية في القصيدة ·

البساطة بهذا المعنى ، تصبح محاولة بناء من داخل الاشياء المحسوسة · فعوض الصور المجردة ، تقدم البساطة الشعرية ، محاولة كتابة لغة شفافة ، تحجب نفسها فيما هي تحاول اكتشاف جدل الممارسة · فناظم حكمت وايلوارو ونيرودا ، حين يرسمون جسد تحولات الواقع ، يذهبون في لعبة اللغة الى تخومها ، الى محاولة نفي اللغة الشعرية بالشكل الشعري · لذلك يكون جسد القصيدة وحدة تحولات · وتأخذ علاقاتها ، ايقاع الواقع ، الذي ينتظم ، داخل اللغة الشعرية ، في اكتشاف لحظات شفافيتها ، داخل التغيير والحلم ·

تأخذ محاولة اكتشاف ايقاع الممارسة في اللغة الشعرية اكثر من اتجاه ، حتى في اكثرها رفضا للاشكال ، تحافظ على خصوصية الشكل الشعري في شكل اللغة · من هنا ، تبدو قراءة الشعر مترجما ، وكأنها تنزع عن اللغة الشعرية شكلها وترميها في فراغ · فقراءة الشعر الثوري الصيني على سبيل المثال ، لا يمكن أن تتم خارج الخصوصية الشكلية التي للغة الصينية والتي تقترب من الرسم · وقراءة شعر ايلورا ، لا يمكن ان تتم خارج اشكالية تطور الحركة السريالية وتناقضاتها وتياراتها ،ضمن محاولة صياغة الحلم داخل الواقع ·

السرد والتطور الداخلي

في محاولة البرغوثي ، كتابة نثرية تحاذي الشعر ، فمجموعة كبيرة من مقاطع الكتاب ، تحاول ، عبر محاكاتها للغة ناظم حكمت الشعرية ، ان تقيم نصا بسيطا ، ينقل الواقع ، عبر محاولة كتابة لغة شفافة · لكن هذه اللغة تصطدم بمسألة اساسية : وقوفها عند لحظة واحدة في السرد · فاذا اخذنا النص كوحدة ، نكتشف انه يلتفظ لحظة واحدة ، ينوع عليها ويقيم حولها مجموعة من التداعيات لكنه في المقابل ، وهو يبحث عن البساطة ، لا يجد سوى بساطة وحيدة الجانب · اي تبقى عند حدود لحظة ، دون أن تنقل الصراع الذي يقع خلفها ·

ففي « اني اتذكر » أو « الحداد الفلسطيني يقوم اعوجاج المعادن » ، تبدو لغة السرد القصصي لغة خادعة · اذ لا وجود لهذا السرد· الا كشكل يعطي انطباعا بتطور ما · غير أن الجدل الداخلي الذي في النص ، يتعطل ليمنع التطور او يجبر النص على كشف رمزه · « والحداد الفلسطيني / هو نحن جميعا ··· هو الشعب الفلسطيني » ·فاللغة لا تترك مجالا لاي سوء تفاهم · ولا تسمح بخصوصية خارج خصوصية النثر اي خارج السرد الذي يستخدم بعض التشابيه ، دون ان تصبح الصورة مدار توتر خاص · أو دون أن تبحث عن ايقاع حركة ، يعطي للغة بعدا داخليا خاصا ·

ان هذه الخاصة ، العامة التي للنص النثري ، لا تمنع لحظات الشعر الجميلة من البروز في احايين كثيرة · هكذا تأتي الصورة التشبيهية البسيطة الجميلة لتبرز ، وكأنها نسيج لحظة خاصة ، تسقط على النص لانقاذ لغة الشعر من السرد · ففي « هكذا تكلم عوني منصور » ، يخرج النص في بساطته الملتهبة ، جميلا ومنسابا وبالغ الشفافية والدلالة ·

« صامت
كالزيتونة المثمرة في الحقل
والدالية في الكرم ـ ومياه الينابيع ـ وبيادر القمح
ونوافذ البيت ـ وارصفة الشوارع
وحجارة الطرقات الريفية
وانحدار السفوح في البراري
كلها ، صامتة تماما مثل عوني منصور · »

الايقاع والصوت الغنائي الهاد

هذا الكتاب ، هو في المقابل شهادة على ازدواجية اللغة الشعرية في بحثها · فحين يحاول النص النثري السردي اقامة حركة التفاف واقعية على القصيدة ، تقول الاشياء

من خلال محاولة نسيج علاقات او اكتشافها • تأتي القصائد الموزونة لتشير الى صوت احتجاجي ، مباشر ، هدفه ايقاع خارجي حتى ولو استخدم قافية لا تطيعه ، فيسحبها الى حيث تناغم نهايات الحروف • وصولا الى صخب ايقاعي •

« انا نسمي الورد فوق موائد التوقيع شوكا في الحناجر

انا نسمي من يبدد كبرياء الارض والشهداء خاسر

ان الشجاعة والدماء وتربة الاوطان مبدأ • »

يخدم شد القافية الى نهايتها ، هدفا ايقاعيا خارجيا • فهذه القصائد ، تبحث عن الاحتجاج • تعيش وسط الالم الفلسطيني المقاتل ، صوت الاحتجاج هذا هو صوت غنائي • صوت لحظة واحدة ، تحاول التقاط الاساسي في الواقع الفلسطيني ورسمه على الخريطة العربية • لذلك يأتي الايقاع ، دمويا، صاخبا ، يلامس اللغة خارجيا ، يريد فقط استخدام امكانياتها ، دون الدخول في لعبتها الداخلية • فهذه اللغة الشعرية ، هي تنويع على لحظة واحدة ، ومحاولة استصراخها المواقف • هنا يأتي هذا الوله الفلسطيني ، وكأنه يريد ان يكون ضمير العرب فيخترق اللحظة الانية ، الى الاتي في الثورة • أي الى لحظات مفتتة • هنا يصبح الاحتجاج الصدى المباشر للواقع ، لا يستطيع اختراقه • يبقى على جداره ، تعبيرا عن قلق واندماج كامل في حركة الجماهير وهي تبحث في الممارسة عن اختراق الواقع • ان الصوت الغنائي ، يرتفع ليصل الى حدود محاولة كتابة الاغنية بالشعر • وهذا ما تعبر عنه قصيدة « يا حادي العيس » بشكل مباشر •

الاقتراب من لحظة التداخل •

ربما كانت المقاطع النثرية ، اكثر قدرة على الايحاء في هذا الكتاب • وهي حين تدمج باللحظة الشعرية المتكاملة تعطي قصيدة متكاملة • تخترق الواقع ، تقدم تطورا موضوعيا جدليا • كما في قصيدة « الى غسان كنفاني » التي هي اهم ما في هذا الكتاب • ففي السرد ، تقع خلفية القصيدة فيما يشبه الحكاية الاسطورية ، وفي المخاطبة ، تأتي لغة الوزن والايقاع ، لتعطي هذه الخلفية ابعادها • هكذا تتوحد اللغة في الشعر • وتصبح القصيدة محاولة خروج عن لحظة واحدة، من اجل وضعها في سياقها الفعلي •

« ولماذا حين مات الثائر الفارس لم تبك الفرس
والجنازات استحالت في بلادي
والمراثي اصبحت عرسا طويلا
نسي الريفي ان يبكي وحفار القبور
يغلق القبر
ومن ابعد حي في المدينة
سمع الاطفال اصداء الرصاص الاحتفالي المدوي »

ان اقتراب الشعر من القصيدة ، يعطي البعد الفلسطيني مذاقه الخاص ، بوصفه انتقالا الى التحولات العربية •

لغة الشعر هي احتمالات اللغة داخل الممارسة • هكذا ، لا تخرج اللغة الى احتمالها خارج القصيدة ، وخارج الشكل الشعري • ويأتي صدى الواقع ، وكأنه اعادة انتاج للواقع • فلا صدى في الشعر • وحين نسقط خارج القصيدة او على محاذاتها ، ترتفع الاصداء ، ولا تبقى سوى لحظات من الصور والتداعيات والايقاع •

ان هذه المحاولة ، تحمل احتمالات كثيرة • فالتجاوز هو الافق الوحيد الذي تطرحه ممارسة جماهيرية مسلحة ، بحجم هذا الدم العربي الذي ينبت عنوانا لفلسطين جديدة هي القارة العربية •

دراسة تاريخية

قراءة في سياسة الحزب الشيوعي الفلسطيني
(مجلة حيفا ١٩٢٤ - ١٩٢٦)

اعداد وتعقيب : هاني حوراني

هذه الدراسة معنية حصرا بالتعريف بمجلة « حيفا » التي عاودت الصدور منذ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ معرفة نفسها بـ « مجلة العمال » . ولهذه المجلة اهمية خاصة وعنايتنا بها تعود الى الاسباب التالية :

١ - ان المجلة هي مجلة الحزب الشيوعي في فلسطين غير الرسمية . فهي اول مجلة عمالية اشتراكية عربية معروفة في فلسطين . بصفتها هذه تفيد دراسة المجلة للوقوف على احد المصادر الاساسية لفترة مبكرة من تاريخ الحزب بعد اعتراف الكومنترن به ، من مثل اهتمامات المجلة ، خطها العام ، مواقفها الاساسية من قضايا النضال العمالي والوطني ومن قضايا الاشتراكية والتحرر الوطني في العالم . ان المجلة وقد صدرت في اواخر ١٩٢٤ تفيد في رؤية استجابتها العملية لموضوعة « التعريف » التي كانت الشرط الاساسي لانضمام الحزب للكومنترن في نفس العام .

٢ - ان مجلة « حيفا » ليست فقط جزءا من تاريخ الحزب الشيوعي ، انها جزء من تاريخ الصحافة التقدمية في فلسطين ايضا ، وهو التاريخ الذي ما زال غامضا . فدراسة المجلة هذه ينبغي ان يستتبع بدراسات اخرى لمجلات تقدمية اخرى ، سرية او علنية ، حزبية او غير حزبية مثل « الى الامام » ، « النور » « الاتحاد » ، « الفجر » ، و « الغد » ، و « صوت الحق » .. الخ . وذلك للوقوف على مصادر الفكر التقدمي في فلسطين والثقافات ذات الاتجاهات الماركسية والتحررية والديمقراطية .

واول الاشكالات المتصلة بتعريف المجلة هو ان غالبية مقالاتها غير موقعة ، او هي موقعة باسماء اولى ، او بالقاب رمزية ، او باحرف اولى ، مثل تواقيع : خليل ، محفوظ ، عامل ناصح ، عامل في سكة الحديد ، فلاح من قباطية ، ... الخ ، التواقيع الكاملة كانت غالبا لكتاب او قراء من خارج فلسطين : رسالة موقعة من يوسف يزبك في لبنان ، اخرى من مصر وثالثة من موسكو ، بالاضافة الى تواقيع اصحاب المقالات المعربة عن لغات اخرى .

لا نعرف على وجه اليقين الى متى استمرت او متى توقفت ، مصدر واحد بين ايدينا يشير الى ان « حيفا » سبق ان تأسست في تشرين الاول سنة ١٩٢١ ، لصاحبها ايليا زكا ، وكانت تصدر اسبوعية وتطبع على مطابع « النفير » التي كان يديرها ايليا زكا نفسه . ولا نعرف شيئا عن اعدادها قبل تشرين الاول عام ١٩٢٤ ، فقد توقفت قبل ذلك الى ان عادت « بشكل جديد وتحرير جديد حيث نهجت نهجا اشتراكيا عماليا واستمرت في الصدور سنة واحدة ثم احتجبت من تلقاء نفسها » (١) .

نحن معنيون بالمجلة على كل حال في فترة صدورها التالية لتشرين الاول ١٩٢٤ ، اي منذ خرجت بصفتها « مجلة العمال » وبصلتها بالحزب الشيوعي في فلسطين . واذا كانت

استمرت في صدورها الثاني لمدة عام ، فان الاعداد التي بين ايدينا تغطي تقريبا هذه الفترة مع بعض الفجوات : اي بين ايدينا ١٥ عددا من مجموع ٤٣ عددا صدرت حتى ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥ . خلال هذه الفترة توقفت المجلة مؤقتا مرتين ، المرة الاول لمدة ٤٥ يوما بسبب مرض صاحب المجلة وسفره الى خارج البلاد وبسبب « دواع حكومية » شرحتها المجلة ، والمرة الثانية حدث التوقف في الفترة الفاصلة بين العددين ٤١ و ٤٢ ولم توضح اسبابها واكتفى بوصفها بانها « ظروف قاهرة » .

ما يمكن نقله عن المجلة ان صاحبها ورئيس تحريرها هو ايليا زكا ، الذي كان يصدر في نفس الوقت جريدة « النفير » ، وهي صحيفة قديمة جدا اصدرها ابراهيم زكا في الاسكندرية عام ١٩٠٤ وكان اسمها انذاك « النفير العثماني » . ثم انتقلت الى القدس عام ١٩٠٨ وتحول امتيازها الى ايليا زكا الذي اصدرها من هناك الى عام ١٩١٣ ،حيث انتقلت مرة اخرى الى حيفا واستقرت فصدرت فيها حتى عام ١٩٤٥ (٢) .

ما يستدعي الوقوف عنده ، ان خط ومعالجة مجلة « حيفا » في فترة صدورها الثانية اي منذ تشرين الاول ١٩٢٤ ، التي نحن بصددها ، ليس له علاقة بايليا زكا الصحفي المحترف الذي لم تكن له قط ميول شيوعية او اشتراكية (٣) . اذ يبدو لنا ان المجلة في هذه الفترة قد صدرت باتفاق بين الحزب او بعض اشخاصه مع ايليا زكا ، بهدف توفير منبر صحفي علني للحزب بالعربية . وهي سياسة كانت متبعة في الاحزاب الشيوعية العربية في فترة تأسيسها وذلك لتأمين الحماية القانونية للتحريض السياسي عبر صحيفة مرخصة بدون ملاحقة ، وللاتصال الواسع مع الجماهير العربية .

فيما يتعلق بكتاب المجلة ، فان الغموض يحيط المساهمات العربية في المجلة ، ما نعرفه هو ان كوادر الحزب من العرب كانوا قلة ، في تلك الفترة ، والكوادر العربية المثقفة والمؤهلة للكتابة غير معروفة . اغلب الظن ان المساهمة الاساسية في اعداد المواد كانت باشراف كوادر الحزب الشيوعي من اليهود ، وربما كان المترجمون الى العربية من الصحفيين المحترفين او من غير كوادر الحزب ، اذ ان بعض التراجم غامضة وغير دقيقة في تعابيرها ، ان ما يبدو كمساهمات عربية صرفة في المجلة ، هي ذات نزوع انساني واشتراكي بدائي ، غير علمي .

ظلت المجلة تصدر مرتين في الشهر ، ثم تحولت الى مجلة اسبوعية فيما بعد ، ومنذ العدد السابع الصادر في ١٥ كانون الثاني ١٩٢٥ بات تعريف المجلة : « مجلة العمال والفلاحين » بعد ان ظلت تعرف نفسها كمجلة للعمال ، من العدد الاول وحتى السادس .

بماذا بررت « حيفا » صدورها ، وما هي المهمات التي حددتها لنفسها ؟ في العدد الاول من « حيفا » (٤) تحدثت مقدمتها عن غاية المجلة واهدافها فقالت :

« في فلسطين جرائد ومجلات كثيرة منتشرة زيادة عما تتحمله البلاد ، لا نود بهذه المجلة زيادة عددها ولا مزاحمتها على قرائها والاعلانات ، لان مجلتنا هذه في واد وجرائدهم في واد ، جرائدهم تخدم غاية غير غايتنا وتسعى وراء مقصد غير مقصدنا (...) غايتهم الاهتمام بالوجهاء والاعيان والسراة التي لا ينطبق معها الاهتمام بطبقة العمال غير المكترث والمعتني بها والمهملة من صحافة هذه البلاد . مقصد هذه المجلة الفرد وغايتها الوحيدة الاهتمام ، فقط بالعمال وما يقاسونه» .

وبعد ان تتعرض للتحولات الجارية في العالم ، من « الانقلابات الفجائية العظيمة المدهشة » وتقصد بها انتقال الطبقة العاملة في الاتحاد السوفييتي الى السلطة ، وتعزز مواقع البروليتاريا في عدد من البلدان ، وهي التي ايقظت الشعوب الفقيرة والمستعمرة ، ودفعت العمال الى تنظيم انفسهم . قالت : « ما زال تيار حركات الاعتصاب يزداد في العواصم الكبيرة ، والمصادمات اليومية تقع بين العمال واصحاب المعامل حتى تمكنوا في بعض العواصممن قلب الهيئة الحاكمة والقبض على زمام الاحكام . اما في الاخرى فتمكنوا من تغيير نظام وشكل الحكومة وقلبوها ظهرا على عقب » .

وانتقلت الى وضع العمال في فلسطين فقالت : « اما العامل في فلسطين فقد اخذ يستيقظ من سباته العميق ويشعر بان حياته عبئا عليه ، لان مجموع العمال المأجورين اخذ بازدياد مضطرد من يوم الى اخر ، وزاده كثيرا الفلاحون الفلسطينيون الذين عجزوا عن دفع ديونهم للمرابين فاصبح السواد الاعظم يشتري كسرة خبزه ليسد رمقه بعرق عمله ، فبلغ عدد العمال في هذه البلاد ما يقارب سدس السكان وهو جمهور لا يستهان به ، واصبح من واجبنا عضده ومعونته والاخذ بناصره ومشاركته بكل ما يحس ويشعر ويتوجع ويتألم » .

وتعود « حيفا » في العدد السابع عشر (٥) في مقالة افتتاحية بعنوان « خطتنا » الى مساجلة الصحافيين والصحف السياسية الرجعية التي تتهم مجلة حيفا بان ليس لها خطة ثابتة نسير عليها . وترد مجلة حيفا على هؤلاء فتقول : « ... لسنا ندري اكان هذا القول ناجما عن جهل او بساطة ام عن شيء اعظم (...) ان خطتنا التي نسير عليها - ايها الاعزاء المتجاهلون - تختلف تماما عن تلك التي تسيرون عليها ، اذ بينما انتم تحولون انظاركم يمينا نحو كبار السياسيين وتحاولون معرفة ما يشعر به هؤلاء (السادات) نحوكم ، نحول نحن انظارنا يسارا نحو جماهير العمال الاممية عموما ونحو عمالنا وفلاحينا خصوصا ، وبينما انتم تحاولون الاتصال والتفاهم مع الاشراف والنبلاء من اصحاب السيطرة ، نحاول نحن تنظيم جماهير العمال العاملين وتقويتهم ، ثم ان خطتنا واضحة جلية لا تحتاج الى ايضاح وتعبير وهي : اننا نطالب بحرية هذه البلاد واستقلالها ، كما واننا معارضون لكل عمل او مشروع يقوم على كاهل السواد الاعظم من الشعب دون ان يكون له من فائدة او منفعة » .

ترد حيفا على الصحف التي تخلط بينها وبين صحيفة صهيونية « عمالية » . فتقول : « لقد عجبنا جدا كيف اكتفيتم بالحكم علينا دون ان تفكروا قليلا بماهية حكمكم ، وعجبنا على الاخص لعدم تمييزكم بين « حيفا » مجلة العمال والفلاحين وبين الجريدة الصهيونية التي تصدر باسم « اتحاد العمال » ، لانه ليس يقتضي للحكم علما وفراسة وتعمقا في علم السياسة حتى يحكم بان جريدة « اتحاد العمال » انما انشئت قصد مقاومة مبدئنا ومكافحة خطتنا الصريحة المعروفة (....) نحن لا نلوم احدا قط لعدم مقدرته على التمييز بين الشيء والشيء لان هذا الامر اصبح من الخصائص ! انكم تعتبرون بلفور وامري شخصين مختلفين ، فتقاطعون الواحد وتزحفون على ركابكم امام الاخر ، كما وترون في الصهيونية والسيطرة عاملين سياسيين متنوعين ولهذا تخلطون بين احزاب العمال الناهضة وبين الطبقة المتمولة الصهيونية » .

نشأة الحزب الشيوعي في فلسطين وقضايا التعريب

أ) اصول الحزب الاثنية وموقف الكومنترن :

من المعروف ان الحزب الشيوعي في فلسطين قد نشأ منذ البداية في اوساط الاقلية اليهودية المتوطنة في فلسطين . ظلت هذه النشأة والاصول التنظيمية للفرق التنظيمية المندمجة في - والمكونة - للحزب ، كما ظلت الايديولوجية السائدة فيه ، من الاسباب الاساسية التي حالت دون تحول الحزب مبكرا الى حزب عربي - جماهيري ، ودون ان يكون حزبا يشمل البلد بأسره .

تكون الحزب - وكان اسمه انذاك الحزب العمالي الاشتراكي - بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ كنتيجة لاندماج ما عرف باقصى يسار « البوعيلي تسيون (الاتحاد العالمي لعمال صهيون) » في فلسطين مع عدد من الفرق الصغيرة المنفصلة من البوعيلي تسيون في اوروبا الشرقية (٦) . ان اصول هؤلاء كأعضاء سابقين في منظمة مقتصرة على اقليات اثنية - دينية في فلسطين ، وبوصفهم ما زالوا متعلقين بالترسبات القومية البرجوازية - الصهيونية الكامنة في المنظمة الام ، قد قادت الحزب الى تبني ايديولوجية « البروليتاريا الصهيونية » منذ مؤتمر ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ . وهكذا شارك الحزب في المؤتمر

التأسيسي للهستدروت ، حيث حصل للحزب على ٧ من ٨٧ مقعدا في المؤتمر (٧) ٠

لم تكن مشكلة الحزب العمالي الاشتراكي ، كحزب للاقليات اليهودية - في فلسطين، مشكلة محلية ، سواء فيما يتعلق بتنظيمه او ايديولوجيته ، بل كانت جزءا من مشكلة اعم جسدها على المستوى العالمي حزب البوعيلي تسيون الذي كان حزبا عماليا - اشتراكيا مشبعا بالروح الشوفينية ، والتطلعات القومية البرجوازية ٠ فقد اصر في المستوى القطري ، على استقلال العمال و « البروليتاريا اليهودية» سياسيا وتنظيميا عن الحزب العمالي للاغلبية السكانية في كل بلد تواجد فيه ، واصر في المستوى الدولي على الاحتفاظ باستقلاله التنظيمي عن الاممية الثالثة التي كان بصدد الانضمام اليها ، مع تمييز نفسه بوضع خاص واحتفاظه بايديولوجية متعاكسة مع شروط الانضمام الى الكومنترن (٨) ٠ وهكذا فقد تأثر الحزب العمالي الاشتراكي في فلسطين ، في الميدان الواقعي والعملي بمشكلات واجهها من قبل البوعيلي تسيون في المستوى العالمي ، وبخاصة مع الحركة الشيوعية ٠

كانت الاممية الشيوعية قد تأسست اصلا كرد ثوري على الانتهازية والشوفينية القومية التي جسدتها عمليا مواقف الحركة الاشتراكية - الديمقراطية في الاممية الثالثة ٠ التي سارعت لبيع نفسها لبرجوازيات بلادها ودعمها اثناء الحرب العالمية الاولى ، والتي اتخذت خطا شوفينيا - انتهازيا ضد شعوب المستعمرات وضد عمال وبروليتاريي البلدان الاخرى ٠

منذ المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية « الثالثة » كان الهم الاول منصرفا لاستكمال القطيعة مع احزاب وسياسات الاممية الثانية ، ووضعت الشروط الواحد والعشرين للانضمام اليها ، وكانت هذه الشروط بمثابة القاعدة المبدئية - السياسية لاستكمال التشكيل النهائي للاممية الشيوعية ، التي مست في اكثر من جانب من بنودها اسس ايديولوجية البوعيلي تسيون وطابعه القومي تنظيميا ، كما تمس التعابير المحلية للتنظيمات العمالية اليهودية في فلسطين ٠ لقد تقدم لينين الى المؤتمر الثاني للاممية الثالثة (اب - ١٩٢٠) بادانة كاملة ومباشرة للصهيونية والنزعات القومية البرجوازية لدى « البوعيلي تسيون » ففي الفقرة السادسة من الموضوعة الحادية عشرة من « موضوعات حول المسألة الوطنية ومسألة المستعمرات ، قال التقرير المذكور : « ٠٠٠ وكمثال صارخ على عملية الخداع هذه - التي تمارسها على الطبقة العاملة في البلدان المضطهدة ، قوى الحلفاء الاستعمارية وبرجوازيات هذه البلدان - نذكر مشروع الصهاينة في فلسطين حيث تعمل الصهيونية - بحجة انشاء دولة يهودية في فلسطين التي يشكل اليهود نسبة لا تذكر من سكانها - على اخضاع السكان الاصليين من الكادحين العرب لنير الاستغلال الانجليزي ٠ ان اتحاد الجمهوريات السوفياتية هو السبيل الوحيد الى خلاص القوميات المستضعفة والمقهورة في الوضع العالمي الراهن » (٩) ٠

ان الامر نفسه ، قد تكرر في مؤتمر باكو لشعوب الشرق (ايلول - ١٩٢٠) الذي عقد بغية توطيد التحالف بـ الثورة البلشفية والحركة الشيوعية مع الشعوب المستعمرة في الشرق ٠ فقط تضمن « نداء الى شعوب الشرق » ادانة خاصة للصهيونية ، وتحديدا لطبيعتها كحركة استعمارية استيطانية في فلسطين ، وكحركة موظفة في خدمة الاستعمار البريطاني في ان واحد (٨) ٠

لم يكن لهذا التناقض بين شروط الانضمام والانخراط الى التنظيم البروليتاري العالمي الثوري وبين الاتجاهات والافكار المزاوجة بين الماركسية والصهيونية في البوعيلي تسيون ان يبقى دون حسم ٠ تقدم الاخير بطلب الانضمام الى الاممية الثالثة ، التي طلبت منه بدورها تطبيق القرارات - الشروط الواحد والعشرين للمؤتمر الثاني ، وتغيير اسمه كشرط للبت بامر انضمامه اليها (٩) ٠

لكن البوعيلي تسيون ماطلت في تنفيذ شروط انضمامها للكومنترن ، عندما انعقد المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية (حزيران - ٢١ تموز ١٩٢١) ٠ لذا فقد حضر مندبوها

المؤتمر بصفة استشارية ، الامر الذي لم يخل من نقد حاد وهجوم صريح على الايديولوجية التي يحملها البوعيلي تسيون في داخل المؤتمر وعندما تعذر الوصول الى قرار حاسم بصدد انضمام البوعيلي تسيون الى الاممية الشيوعية اثناء المؤتمر الثالث ، احيل الموضوع الى لجنة فرعية خاصة للجنة التنفيذية ، واثر اول اجتماع لها بعد المؤتمر طلبت اللجنة التنفيذية للكومنترن من البوعيلي تسيون عقد مؤتمر يقرر فيه حل نفسه وانضمام اعضائه خلال مدة لا تتعدى الشهرين الى فروع الكومنترن القطرية • كما طلبت منه ان يقطع كل صلاته بالنظريات والاتجاهات الصهيونية ، وان يدين المشاريع الصهيونية الاستعمارية في فلسطين المسخرة لخدمة الاستعمار البريطاني (١٠) •

كما هو متوقع ، اقتصر التغيير في البوعيلي تسيون على اليافطة : لقد اصبح اسم التنظيم « الاتحاد الشيوعي » لكن الجسم التنظيمي ، المشبع بروح الشوفينية البرجوازية « رفض في غالبية فروعه ـ قرار الحل والانضمام الى الكومنترن • وهكذا كان على فروع البوعيلي تسيون في روسيا وبولونيا الانشقاق والانضمام افراديا للاحزاب الشيوعية ، فيما احتفظت بقية الفروع ، وهي الاكثرية ، بايديولوجيتها وسياستها التنظيمية المستقلة وبطموحها الاستعماري الشوفيني (١١) •

لم يلبث الكومنترن ان حدد موقفه من البوعيلي تسيون ، وما يمثل في بيان صدرته اللجنة التنفيذيةفي ٢٥ تموز ١٩٢٢ : «•• الوضع جلي الان ، منذ المؤتمر الثالث (للكومنترن) والعناصر البرجوازية الصغيرة والقومية والانتهازية في جناح الاكثرية في مؤتمر الاتحاد تقف في وجه محاولات العناصر البروليتارية والشيوعية التي تريد الانضمام الى الاممية الشيوعية • وترى اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية الان انه بات من واجب الفروع القطرية ان تبادر الى اتخاذ الاجراءات الحاسمة ضد الانعزاليين البرجوازيين الصغار• ان المشروع الفلسطيني ـ اي محاولة صرف انظار الجماهير الكادحة اليهودية عن الصراع الطبقي بالترويج لفكرة الاستيطان اليهودي الواسع النطاق في فلسطين ـ ليس مشروعا قوميا برجوازيا صغيرا وحسب ، وانما هو ايضا مشروع معاد للثورة من حيث نتائجه في حال تحمس جماهير واسعة له وصرف انظارها عن النضال ضد مستغليها من اليهود وغير اليهود • كما يجب على الفروع القطرية للاممية الشيوعية ان تؤيد جناح الاقلية في الاتحاد العالمي لعمال صهيون في نضاله ضد جناح الاكثرية • ذلك ان جناح الاقلية هذا قد وافق على شروط الانضمام للفروع القطرية للكومنترن •••• اما الموقف الوحيد الذي يمكن للشيوعيين اتخاذه من اتحاد عمال صهيون بعد رفضه شروط الانضمام ، فهو موقف العداء النهائي والسافر » (١٢) •

ب) مشكلات اتجاه الحزب نحو التعريب :

على الرغم من ان الحزب العمالي الاشتراكي في فلسطين ، كان قد تكون من عناصر وفرق يسارية منشقة على البوعيلي تسيون منذ فترة مبكرة ، الا ان صلة هذه العناصر والفرق بالترسبات القومية ـ الصهيونية بقيت قوية : لقد ظل حزبا للاقليات الاثنية اليهودية في فلسطين ، وترك نفسه داخل « الجيتو اليهودي » • فيما وضعته ايديولوجية « البروليتاريا الصهيونية » في يسار الاحزاب الصهيونية • ان كل ما مر جعل حدود تمايزه الحزبي عن فروع البوعيلي تسيون محدودة •

عانى الحزب من جملة اشكالات موضوعية ، فهو من جهة كان يتناقض مع المؤسسات الصهيونية ،ومن جهة ثانية كان عاجزا ، بحكم تكوينه وايديولوجيته عنان يكون حزبا وطنيا واسعا وجماهيريا • وكان من جهة ثالثة ، لا يتمتع بالشروط التنظيمية والايديولوجية كي يكون حزبا شيوعا ، مقبولا من الاممية الشيوعية • ان جملة هذه الاشكالات قد عكست نفسها في انقسام الحزب عدة مرات وفي تعرضه لضربات خارجية قاصمة •

واجه الحزب مع حوادث اول ايار ١٩٢١ ـوكان يعد انذاك ما يزيد عن ٣٠٠ عضو ـ اول ضربة

مؤلمة ، ففي احتفالات عيد العمال ، تصادمت جماعات الحزب مع فرق صهيونية ادت الى الحوادث المعروفة في يافا في ذلك اليوم ، والتي انتهت الى سقوط اعداد كبيرة من القتلى والجرحى من اليهود والعرب • لقد ابعدت سلطات الانتداب البريطاني قادة الحزب الاربعة عشر من فلسطين الى الاتحاد السوفياتي ، حيث اعتبرته كل من السلطات البريطانية والتنظيمات الصهيونية ، مسؤولا عن هذه الحوادث (١٣) • لقد اضطر الحزب الى التحول الى السرية وتعرض اعضاؤه للملاحقة • ثم لم يلبث الحزب ان انشق عام ١٩٢٢ متأثرا بجملة العوامل المارة •

بعد فشل حزب العمال الاشتراكي في الاحتفاظ بوجوده ، كانت مجموعة اخرى تحاول تأسيس حزب شيوعي في فلسطين • لكن هذه المجموعة ، بدلا من ان تبحث لنفسها عن مدخل يؤمن لها تكوين بنية تنظيمية وخط سياسي يفتح الباب امام تحولها الى حزب شيوعي للبلاد بأسرها ينسجم داخليا مع تطلعاته ومسؤولياته المعلنة كحزب بروليتاريا ،بدلا من ذلك ، رفضت هذه المجموعة محاولة البدء في تأسيس حزب مستقل • وراهنوا مجددا على العمل من داخل حزب الجناح الصهيوني اليساري ، بحجة تأمين واجهة شرعية لهم ، وبحجة تخريب الحزب « من الداخل » • وبعد ذلك ، قرروا اقامة حزب شيوعي غير شرعي (١٤) •

لقد عاد الحزب الجديد ، وبسبب من المدخل الذي اختاره للشروع بالعمل ، ليناقش ما اذا كان ينبغي عليه التعاون مع دعاة «البروليتاريا الصهيونية » ، بغية التأثير عليهم ام لا ؟ لقد ادت مثل هذه المقدمات الى دفع الحزب الثمن مبكرا ، انشقاقا وانقساما • كانت قيادة الحزب قد وافقت مدعومة من الاغلبية على التعاون مع دعاة نظرية البروليتاريا الصهيونية • وهكذا فان المؤتمر الرابع للحزب في سبتمبر ١٩٢٢ شهد انشقاق اقلية عنه ، اسست بدورها حزبا شيوعيا K.P.P. وكان شعارهم الرئيسي « اتركوا الجحيم الصهيوني » (١٥) •

كانت الاغلبية تعد حوالي ٣٠٠ عضو ، فيما الاقلية في الحزب الجديد ١٥٠ عضوا • وقد استمر الصراع بين الطرفين قرابة عشرة شهور حتى المؤتمر الخامس عام ١٩٢٣ ، حيث انتهت المجموعتان الى تأسيس واجهات شبه شرعية مثل « قسم العمال » و « قسم البروليتارية » (١٦) •

في عام ١٩٢٣ اعيد لأم الحزب • ان موافقة كتلة الاغلبية على موضوعات الاقلية ، غير المفسرة بعد جيدا ، قد فتحت الباب امام مهمة رئيسية هي « الصراع ضد الصهيونية بكافة اشكالها ، من اجل فضح الخديعة الصهيونية المفلسة» •لقد صادق المؤتمر، الذي شهد التئام الحزب ، على خط سياسي جديد معاد للصهيونية في فلسطين ، ابرز بنوده قطع علاقاته بيسار البوعيلي تسيون ، رفض ايديولوجية « الصهيونية البروليتارية » التي ظلت شعار حزب العمال الاشتراكي، وبات اسم الحزب : الحزب الشيوعي الفلسطيني (١٧)•

من الواضح ان هذا كله قد تم في جو القطيعة من الاممية الشيوعية للبوعيلي تسيون وفي جو « العداء النهائي والسافر » للصهيونية كيفما تسربلت • كما من الواضح ان الحزب كان يحاول استكمال شروط الانضمام للكومنترن، التي تنص بوضوح على « التخلي عن مشروع فلسطين القومي والانتهازي ، وحل الاتحاد العالمي (للبوعيلي تسيون)،وانضمام العناصر البروليتارية الشيوعية اليهودية الى الفروع القطرية للاممية الشيوعية ـ الاحزاب الشيوعية •• » (١٨) •

هكذا ، بعد مؤتمره وبعد اقرار خطه الجديد تقدم الحزب الى الكومنترن بطلب انضمام رسمي • فعينت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية لجنة فرعية خاصة لدراسة الطلب • ولم تلبث ان قررت قبول الحزب كفرع للكومنترن مؤكدة بدورها على الشرط الحيوي الذي يحكم مستقبل علاقة الكومنترن بفرعه الفلسطيني : اي ضرورة تعريب الحزب (١٩) •

مع قبول الحزب الشيوعي في فلسطين فرعا في الاممية الثالثة ، في مؤتمرها الرابع ، كانت

توصية اللجنة التنفيذية « للحزب الشيوعي الفتى » : « ضرورة اقامة صلات وثيقة مع اوسع الجماهير العربية بغية تحويل الحزب من منظمة للعمال اليهود الى حزب اقليمي فعلي . كما اعلنت انه يتوجب على الحزب الشيوعي ان يدعم حركة التحرر الوطنية للسكان العرب ضد الاحتلال البريطاني ـ الصهيوني ». كانت هذه اول التوصيات الاممية التي قدمت للحزب في تاريخ « التعريب » كي يصبح حزبا جماهيريا (٢١) .

تبنى الحزب في توجهه نحو الجماهير العربية الفلسطينية ، شعارا اساسيا « على الحزب ان يغادر الغيتو اليهودي» كما اتجه نحو اليهود الشرقيين ، الذين كانوا شأنهم شأن العرب مهملين في الحزب . ولم يكن من شأن هذا التحول الدراماتيكي في نهج الحزب وتوجهه ، الا ان يعكس نفسه انفضاضا وانشقاقا من الاعضاء اليهود الخاضعين لايديولوجية صهيونية . فمنذ ان فتحت النار على الصهيونية داخل الحزب ، وعلنا ، وعلى نطاق واسع في الصحافة الشيوعية في فلسطين والعالم ، واثر قطيعة مترددة مع المنظمات الصهيونية ، عادت منذ وقت مبكر من عام ١٩٢٤ الانشقاقات وانخفضت عضوية الحزب الى ثلث ما كانت عليه قبل سنتين .

في مؤتمر تموز (يوليو) ١٩٢٤ ، كان لا بد لهذا التوجه الجديد ان يعكس نفسه على قيادة الحزب . فقبل انعقاد مؤتمر الحزب باسابيع كان راديك يتحدث الى قادة الحزب: « ان نجاح الحزب يعتمد على تحوله الى حزب جماهيري عربي » . وهكذا حلت قيادة جديدة نشطة محل القيادة القديمة للحزب . وكان تحويل شعار الحزب الى واقع والى ممارسة ؛ يعني خروج المزيد من اعضاء الحزب ، ومزيد من المعارضة والحصار من الحركة الصهيونية. لقد طرد الحزب من الهستدروت في نيسان (ابريل) ١٩٢٤ ، ومن مؤسسات اخرى ـ واتهم بالتخريب فيها . (٢٢) وكان على الحزب من جهة اخرى ان يتجه لاجتذاب العرب ، الذين كانوا قلة ضئيلة جداً فيه ، الى صفوفه .

مجلة حيفا والتوجه الشيوعي نحو التعريب (ملاحظات اولى)

هكذا فان المجلة ظهرت مع بدايات التأسيس الفعلي للحزب الشيوعي في فلسطين ، ودخوله الكومنترن ، وفي ضوء توجهات علنية : « لنغادر الغيتو اليهودي » ، واقامة اوثق الصلات مع الجماهير العربية ، كي يتحول الحزب من منظمة للعمال اليهود الى حزب اقليمي فعال « اي تعريب الحزب » وفي مناخ عداء نهائي وسافر للصهيونية . فماذا نجد في مجلة حيفا ؟ وكيف ترجمت توجه الحزب الشيوعي نحو الجماهير العربية ، وكيف عبرت عن اتجاه الحزب نحو التعريب في خططها ومعالجاتها ؟ ان نظرة عامة على المجلة ، تظهر بوضوح ان توزيع المواد والتغطيات يكاد يكون نموذجا لمجلة غير رسمية للحزب : تنوع وشمول في التغطية ، توزيع متناسب والاولويات المفترضة في مجلة سياسية نصف شهرية ، ثم اسبوعية . طابع تحريضي تثقيفي ، مع لمسات تحليلية ، وتغطية اخبارية من منظور حزبي يساري ملموس ، وان يكن غير معلن الولاء . حرص على البساطة والسهولة في الوصول الى القارىء . وهو حرص متعمد ، الحت اليه المجلة في افتتاحية العدد الاول منها : « ان الباب الذي نلجه ، باب ايقاظ العامل البائس من سباته العميق وتنوير افكاره بعبارة بسيطة والفاظ سهلة يفهمها ليتمكن من معرفة داءه ودواءه .. » .

اذا اخذنا بالاولويات التي حكمت تغطيات المجلة عبر اعدادها المختلفة ، فان تعريف مجلة حيفا نفسها كمجلة للعمال ، ثم كمجلة للعمال والفلاحين ، لم يكن اسقاطا متعسفا . فمن الناحية الشكلية البحتة احتلت الموضوعات والمعالجات والاخبار المتصلة بالعمال واوضاعهم مساحة كبيرة من المجلة ، واعطتها توجها عماليا ـ نقابيا صارخا . في اعداد تالية من المجلة ، ظهرت عناية اكبر بشؤون الفلاحين . اما موضوعيا فقد احتفظ ادعاء المجلة العمالي والعمالي ـ الفلاحي بقسط كبير من مصداقيته ، وان كان ثمة ملاحظات وتحفظات وانتقادات يمكن ايرادها حول فهم المجلة لمهامها وحول غياب بعضها .

اذا ما اخذنا المجلة في اطارها التاريخي ، وفي اطار المجتمع الفلسطيني انذاك ، فان من الملاحظ على المجلة ، هو الحاح توجهها نحو العمال والفئات الكادحة العربية الفلسطينية من مدخل اقتصادي – طبقي غالب ۰ وهذه السمة تميز مفهوم الحزب للتعريب وللتوجه نحو الجماهير العربية ۰ فهذا التوجه المتلازم مع النبرة التحريضية التثقيفية طبقيا ، والحاح المهمات الحزبية عبر المجلة في اطار هذا التوجه ، جدير بان يثمن ايجابيا ، لو ان القضية الوطنية – وهي قضية العمال والفئات الكادحة العربية – عولجت بامانة مبدئية ودقة نظرية ، وبالاساس لو انخرط الحزب في النضال من اجلها كما يجب ۰ عبر التوجه نحو العمال والفئات الكادحة ، عن طريق التشهير الاقتصادي باوضاع العمال والشغيلة والفئات الكادحة ۰ وعن طريق التشهير باوضاع الجماهير المعيشية وبالغلاء ، والوضع الفلاحي والضرائب القديمة (الاعشار) ، وعن طريق التحريض على النضال من اجل بناء النقابات والجمعيات العمالية والفلاحية ، وعلى العمل من اجل الحفاظ على الطابع العمالي «اللاقومي» في النقابات القائمة منها ، او تلك التي في طور التأسيس ۰

كانت المجلة ايضا ، مسرحا لسجال ووجهات نظر حول النضال المشترك للعمال العرب واليهود في النقابة الواحدة ، وحول العمل في نقابة ذات قيادة وتوجه صهيوني وعلى ردة الفعل في الاوساط العمالية العربية التي تدعو لبناء نقابة عربية مستقلة ۰

الى جانب هذه وتلك من قضايا النضال الاقتصادي والطبقي الاولي ، كانت ثمة مقالات تطرقت الى الحريات الديمقراطية ، والى القوانين المقيدة للحريات كالقانون المسمى بـ « قانون منع الجرائم » الذي كان يعطي السلطات البريطانية حق الاعتقال والمداهمة للمواطنين في فلسطين ۰

بالاضافة الى التشهير الاقتصادي والطبقي الاولي والحث على بناء منظمات العمال والفلاحين المستقلة ، ظهر عدد من الافتتاحيات التي تحث على بناء حزب يضم العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين مثل افتتاحية « اسسوا حزبا قويا نافعا » ، والافتتاحيات الاخرى التي تتحدث عن الطبقات والاحزاب والموقف الطبقي مثل « كيف تنهض الامم ؟ » وهي تستنهض الفلاحين كطبقة ، ومثل « قوة النهضة » وفيها دعوة لتحالف العمال والفلاحين ، ونقد للاحزاب القائمة في فلسطين ۰

ان المقالات المارة وغيرها المتعلقة ببناء منظمة سياسية للطبقة العاملة والكادحين العرب ذات قيمة تحريضية وتاكتيكية هامة لاستثارة الحس الطبقي عند الجماهير العربية الفقيرة الواسعة ، التي لم تتعرف بعد على الحزب الشيوعي ، والذي ما يزال حزبا للعمال اليهود ۰ وهي تريد تهيئة الجماهير العربية الكادحة للانخراط في الحزب الشيوعي۰ ان هذه المقالات المارة ، كانت تتعرض للقضية الوطنية ، وتمس بنقدها قيادات النضال الوطني البرجوازية والوجاهية ، مثلما كانت تسعى لبناء منظمة ذات تحالف طبقي شعبي واسع ۰ لكن تعرضها للقضية الوطنية لم يقتصر على هذه المقالات ، وانما تكررت الافتتاحيات والمقالات التي تمس المأزق الوطني القائم انذاك مباشرة وأزمة القيادة السياسية للنضال الوطني العربي ، وكانت قد استحكمت انذاك اول ازمة ثقة بارزة بين الجماهير العربية وقيادتها التقليدية ۰

ان ما يلاحظ على المقالات المتعلقة باحداث فلسطين الوطنية ، هو سمتها النقدية اليسارية ، من منظور طبقي ، ان اساس الموقف المتشدد طبقيا ازاء قيادة الحركة الوطنية في المجلة ، يستند نظريا الى خط الكومنترون المتشدد ازاء البرجوازية والاقطاع ، ويستند محليا الى تكوين الحزب الاثني ، والى الفشل الموضوعي للقيادة التقليدية للحركة الوطنية في فلسطين ، التي ظلت مراهنة عى تفهم بريطانيا واحترامها لحقوق الشعب الفلسطيني ومطالبه ، حتى عندما بدا موقفها السلبي واضحا ولا رجوع عنه ۰

ان تعرض المجلة للصهيونية وللقيادات الصهيونية حاضر في المجلة في ثنايا المقالات

سواء كانت هذه المعالجات منصبة على موضوع عمالي ونقابي ام على موضوع متصل بالنضال الوطني ، وفي بضعة مقالات عبارات حادة وقوية ضدها ٠ الا انها تبدو لنا – الان – كما لو انها جاءت من باب تحصيل الحاصل ، فهي في ثنايا المعالجة وليس في صلبها ولم تكرس لها – في حدود الاعداد التي بين ايدينا – معالجة مستقلة تنم عن حماسة في النضال ضدها ، هذا القصور ، قد برز فيما بعد ، حين انتقد خط الحزب وقيادته بمرارة الا انه من الواضح في المجلة ، ان كوادر الحزب من اليهود ، كانت تعاني انذاك من ازمة موضوعية ، ومن عداء صهيوني ، ومن مطاردة واعتقال السلطات البريطانية ٠ كذلك من الواضح ان توجهات الحزب من اجل النضال المشترك (العربي – اليهودي) في النقابات وفي غيرها ، كانت تتعرض لهجمات رجعية ومن ضغوط من الجانبين الصهيوني ، والرجعي العربي ، كما سنلاحظ فيما بعد ٠

احتلت قضايا التحرر الوطني والنضال من اجل استقلال الشعوب الثورة الوطنية في المشرق والمغرب العربي مكانه هامة في تغطيات المجلة ، وكذلك هو الحال بالنسبة للمستعمرات وشعوب الشرق الاخرى ٠ وهكذا حظيت الثورة السورية والوضع المصري وثورة الريف المغربي بتغطيات ومعالجات لائقة ، والحال هو نفسه مع الثورة الصينية وتضمنت مجلة حيفا تراجم لاخبار الحركات العمالية والاحزاب الاشتراكية في اوروبا وامريكا والمستعمرات ٠ وبعض المقالات المترجمة عن الاوضاع في المستعمرات وعن النضال الوطني والطبقي فيها ٠ كما يبدو فقد عول على هذه المقالات والتغطيات والاخبار ، من اجل تنوير العمال والفئات الكادحة ، واخذ العبر منها في النضال المحلي ٠

اسهمت مجلة حيفا ، اخبارا وتغطيات ، في لفت انظار الجماهير الى بدايات فك الحصار من حول الاتحاد السوفياتي والثورة البلشفية ، ولتتالي اعترافات الدول فيها ٠ كما تضمنت تراجم ومقالات حول سياسة البلاشفة الخارجية ومواقفه المؤيدة للنضال شعوب المستعمرات وشعوب الشرق وكذلك نبذا واخبارا حول الحركة الشيوعية في العالم ، اخبار الشيوعيين العرب وخاصة في مصر ٠

بالاضافة الى هذه ، كان ثمة مقالات قصيرة عن ماركس ، الاممية الاولى ، كومونة باريس ، واخرى عن الثورة البلشفية وعن لينين ، وتضمنت اعدادها نداء للشعوب المظلومة بصدد معاهدة فرساي ، وتصريحه بشأن حقوق الشعوب المختلفة في روسيا واذا تذكرنا ان المجلة كانت تصدر عام ١٩٢٥/٢٤ ، فان لهذه المقالات والترجمات قيمة هامة لكونها قد تكون النصوص المبكرة التي تعرف الجماهير العربية في فلسطين على اول ثورة بروليتارية ناجحة واول سلطة لها ٠ كما تعرف بالفكر الثوري وبالتجارب الثورية للبروليتارية الاوروبية ٠

واخيرا ، كانت في المجلة ابواب وزوايا متفرقة اخرى ، رسائل من القراء ، بعض التراجم لقصص واقعية عن اضطهاد شعوب المستعمرات او قمع العمال ، قصة طويلة مسلسلة في حلقات ، وهذه كانت تأخذ حيزا ضيقا من المجلة وتخرج بصورة غير منتظمة ٠

هذا ما يمكن نقله عن مجلة « حيفا » توجها ومعالجة على وجه العموم ٠ اما الرؤية الاهم فستغنينا فيها قراءة المجلة ٠ وقد عمدنا وصولا الى ملاحظاتنا الختامية ، الى تصليف وتجميع مقالات وتعليقات « حيفا » في زمر من الموضوعات ٠ تتقدمها اشارات تفسيرية وتوضيحية تلزم لقراءة النصوص ٠ يهمنا ان ننوه ، ان حجم الاقتباسات في الزمر التالية ، لم تتقرر برغبة ذاتية ، وانما عكست حجم الاهتمام المعطى في المجلة لكل موضوع ٠

اولا – حول التحريض لصيانة المصالح المباشرة للعمال والجماهير الفقيرة والتشهير باوضاعها

احتلت الموضوعات المتصلة باوضاع العمال والجماهير الفقيرة ، مكانة خاصة من توجه

المجلة .وقد تضمنت اعدادها كمية ملفتة للنظر من المواد التحريضية والتشهيرية ، كالحديث عن القوانين المنظمة لشؤون العمال ، او عن ظروف العمل وحقوق التنظيم والضمانات الصحية والاجتماعية . كما افردت مقالات خاصة تناولت الغلاء وارتفاع تكاليف المعيشة في فلسطين ، ومقالات تحريضية تحث على انشاء منظمات الطبقة العاملة الخاصة كالنقابات والجمعيات العمالية .

ما يعطي هذه المقالات اهميتها ، هو طرحها المبكر لمطالب اساسية في وقت لم تكن في البلاد اية تشريعات عمالية . ففي فلسطين كان قانونا الجمعيات والاحزاب العثمانيين لسنة ١٩٠٩ معمولا بهما ، ووفق قانون الجمعيات المذكور ، كانت النقابات والاحزاب يجري تسجيلهما . اما فيما يتعلق بالتنظيم القانوني لعقود العمل فقد كانت مجلة الاحكام العدلية لسنة ١٩٠٧ هي المنظمة مع ما ادخل عليها من تعديلات والغاءات فلسطينية وانجليزية . فاول تشريع حديث في فلسطين كان قانون تعويض العمال لسنة ١٩٢٧ ، تلاه قانون اخر متصل بالتنظيم النقابي هو قانون نقابات العمال لسنة ١٩٤٧ .

ان المقالات التالية ، لا تكتسب اهميتها فقط من زاوية قيمتها التاريخية كنصوص مبكرة ، وانما ايضا لما تتمتع به من قيمة نوعية متقدمة .

أ ـ بصدد قوانين العمل :

ففيما يتعلق بالتحريض على سن قوانين منظمة لشؤون العمل ، كتبت حيفا في عددها الثاني (٢٣) مقالا افتتاحيا تحت عنوان « العمال والقانون ، نريد قانونا يحمي العمال » قالت فيه : « في الشهرين الاخيرين حدث في فلسطين نحو العشرين حادثة مشؤومة للعمال اثناء قيامهم باعمالهم اليومية مما نبه افكارنا لمطالبة الحكومة بسن قانون يخفف شيئا من الام العامل ويضمن اقله قوته الضروري اذا انكب بفقد احد اعضائه الذي لا يمكن بدونه القيام بالعمل ، وتأمين قوت عياله بعد مماته ، اسوة ببقية البلاد التي لا تخلو من امثال هذا القانون غير المعروف في فلسطين بتاتا . لذلك نرى صاحب الشغل ذا حرية واسعة لا يقيدها قيد ولا شرط .والاسباب عدم وجود هذا القانون » .

وبعد ان تشير الافتتاحية الى ظروف العمل الشاقة في فلسطين وقلة اجرة العامل تقول : « رغما عن كل ذلك فان العامل لا يسلم من التهديد المتواصل والمختلق في كل دقيقة من دقائق نهاره بالطرد والاهانة والتعطيل ، وتضيف « لصاحب العمل في هذه البلاد الاستبداد المطلق والارادة التي لانهاية لحدودها والحرية الواسعة بتغيير شروط الاتفاق وتخفيض اجور العمال اي وقت اراد وزيادة ساعات العمل لاي خاطر يخطر على باله .. » .

وتستطرد الافتتاحية لتشير الى ان كل هذا دفع العامل لحماية حقوقه بتأليف الجمعيات والنقابات والاحزاب ، « واصبح من اللازم الضروري ان تطالب هذه (...) بسن قانون خصوصي يحفظ حقوق العمال بشكل مشروع ومعمول في المحاكم ، ذلك ان هذا القانون (...) يدفع هجمات وتهديد اصحاب العمل ». ويكون الحائل الاكبر دون مطامع وهضم حقوق العمال ويقلل من المشاجرات والمشاغبات التي تجري يوميا في فلسطين فيما بين اصحاب العمل والعمال ويترك للعامل مجالا لتقدمه ونجاحه ورقيه ادبيا واقتصاديا » .

وبعد ان تشير الافتتاحية الموقعة باسم « خليل » للمكاسب التي حققها العمال في : « الممالك الغنية » وتذهب الى المطالبة بتحديد ساعات العمل في ثماني ساعات ، والى « منع تشغيل الاولاد الحديثي السن والنساء الحوامل » وتحديد سن انخراط الاولاد في العمل ، تشير الى ان كثيرين من ابناء البلاد يعملون منذ سن الثانية عشر . وتطالب الافتتاحية بقوانين منظمة لضمان حياة العامل بعد ان تكررت « الحوادث المفجعة التي تنتهي بتعطيل العامل او موته وعجزه وشيخوخته ، فقالت ان على هذه القوانين ان « تؤمن نفقاته الضرورية لقوته وقوت عياله». وان « تؤمن نفقات امكان المعالجة ابان المرض او فقد احد اعضائه الرئيسية ثم يخاطب

« خليل » العمال داعيا الى اتحادهم وتكاتفهم والمطالبة بسن قانون للعمال ٠

وعادت مجلة حيفا في عددها الخامس (٢٤) الى نفس الموضوع ، فنشرت مقالا بعنوان « قوانين للرفق بالعامل والاهتمام بظروف حياته الاشتراكية » تميز عن المقال السابق بدقته وشموله ٠ وهو كما يبدو مترجم عن احدى اللغات الاجنبية ، وموضوع في بنود ومطالب مفصلة ٠

عادت مجلة حيفا مرة ثالثة للحديث باستفاضة عن الحاجة الى قوانين لحماية العمال من الاصابة ولتعويضهم في حالة الضرر او التشوه او لتعويض على اسرة العامل في حالة الوفاة ٠ ففي العدد ١٥ قالت تحت عنوان « حول الرفق بالعامل (٢٥) ٠٠٠ ان المصائب والنكبات التي وقعت اخيرا في مصلحة سكة الحديد حيث نكب عاملان اثناء القيام بالعمل ، احدهما بواسطة آلة المقدح والاخر بين عربات المياه تجبرنا على اعادة الكلام في هذه القضية ، في الاعادة افادة ٠٠ »

وتشرح المجلة اسباب اصابات العمل في فلسطين وفي غيرها باسلوب تثقيفي قائلة « ان هذه الاصابات تقع في كل ان ومكان ولا يمكن ازالتها الان بتاتا ، لكن السبب الوحيد لنشوئها هو نظام الرأسمال الفوضوي الذي يضع لحياة الانسان ثمنا رخيصا ويجعلها لدى الرأسمالي ابخس من ارباحه فيها ٠ وهذا لا يستطيع نقضه غير الاجتماعية الاشتراكية (٠٠٠) ولكن هذا لا يجبرنا او يحتم علينا ان نقف الان بازاء هذه الحوادث الموجعة وقفة المتفرج ٠٠٠٠ »

وختمت مقالها بعبارة تحريضية قوية قالت فيها : « ان الداعي الاكبر الى ايقاع العامل في هوايا الاحوال السيئة هو عدم انتظام العمال واتحادهم ٠ فاتحدوا ايها العمال والفوا النقابات الصناعية لان للعامل اعداء كثيرون ، ولكن تهاونه وخنوعه هو من الد اعدائه المقربين اليه فدعوا التهاون وانبذوه بحزم وعزم وهمه واسسوا النقابات الجديدة واحيوا الحاضرة منها وانعشوها ٠

ب ـ بصدد ارتفاع اكلاف المعيشة :

وفي معرض معالجتها قضية الغلاء وانخفاض الاجور والشروط المعيشية القاسية للعمال والفئات الكادحة ، كتبت حيفا في افتتاحية عددها الرابع (٢٦) تحت عنوان « الغلاء » : « لا تزال حالة العامل المسكين في هذه الديار تزداد بؤسا وشقاء من يوم لاخر سواء كان مرزوقا بعمل او عاطلا لا يكتسب ما يسد به رمقه ٠٠ » واشارت الى غياب قانون يحمي العمال في حالة المرض او الاصابة ثم انتقلت الى ضآلة الاجور فقالت ان « الاجرة الحالية بوجه الاجمال زهيدة للغاية اذا قابلناها بما كان يتقاضاه في السنوات الماضية » ٠

جـ ـ في التنظيم النقابي العمالي :

بدأت حيفا منذ عددها الثاني بنشر انباء عن تشكيل النقابات في فلسطين متخذة من هذه الانباء ومن غيرها مناسبة للتحريض على التنظيم النقابي ٠ فكانت تتوج في مقالاتها بالمطالبة بحرية الاجتماعات والجمعيات وبالتضامن العمالي ٠ وهكذا نشرت « حيفا » في عددها الثاني في باب « مراسلات » رسالة من احد عمال يافا عن انشاء جمعية عمال بلدية يافا ٠ وقد علقت المجلة على الرسالة مرحبة « بهذه الحركة المباركة » داعية العمال الى « العمل اكثر من القول » ٠

وعادت المجلة في عددها السادس (٢٧) تحت عنوان « عمال الناصرة » للتطرق الى اوضاع عمال المدينة بعد ان انحلت نقابتهم هناك ٠ فقالت « ٠٠ انحلت تلك النقابة التي سررنا بها ، وكأن الدهر ابى على العمال الناصريين الذين هم تسعة اعشار السكان ان ينحدوا ويتفقوا لينالوا حقوقهم المهضومة التي يتلاعب بها الاغنياء من المقاولين والرأسماليين والمؤلم الاقرار به عدم ثبات اولئك العمال وضعفهم ولا ندري اكان ذلك لعدم وجود من يسوي امورهم وينظم حقوقهم ام لافتقارهم الى حمية وغيرة » ٠ ثم خاطبت عمال الناصرة بقولها « ايها الرفاق (٠٠) انكم لو اتحدتم كنتم كتلة قوية لا يستهان بها » ٠

واضافت « لقد مرت عليكم احوال ضيقة كان يجب ان (...) تدفعكم الى تأليف الجمعيات والنقابات التي تأخذ على عاتقها حفظ حقوقكم فلا يهضمها اولئك المقاولين والرأسماليين اللصوص الذين سرقوا ولا زالوا يسرقون اتعابكم ... » .

وبمناسبة الاعتراف الرسمي بنقابة سكة الحديد والبوسطة والتلغراف ، كتبت مجلة حيفا في عددها السابع (٢٨) التعليق التالي : « اعترفت ادارة سكة الحديد اخيرا بجمعية عمال السكة الحديدية بعد ان القت عليها سؤالات تمثل في الوقت نفسه كما يظن شروط الاعتراف وهي : ١ - هل الجمعية شيوعية ؟ ٢ - هل الجمعية سياسية ؟ ٣ - هل من نظامها الاضراب عن العمل ؟ ولما اجيب على هذه السؤالات بالنفي اعترفت الادارة بالجمعية . فنحن نغتبط من صميم افئدتنا بهذا الاعتراف، لان النقابة المذكورة هي الوحيدة في هذه الديار والاولى التي اعترف بها رسميا . ان كافة الجمعيات في بلادنا عربية كانت ام اسرائيلية ما هي الا جمعيات انتفاعية ، اما نقابة سكة الحديد فهي جمعية صناعية فنية وللاعتراف بها اهمية سياسية عظمى . وبما ان ادارة سكة الحديد دائرة من دوائر الحكومة فتكون باعترافها قد نابت عن الحكومة نفسها واقرت رسميا وجود اتحاد للعمال في البلاد ، فنرجو ان يصير الانتظام في النقابة المذكورة بسرعة لان لا صعوبة او معارضة تقف من الان وصاعدا في سبيل ذلك » .

وعلقت على تخوف العمال العرب من الانضمام الى النقابة خوفا من الطرد ، ومن غضب السلطات عليهم ، فقالت ان الاعتراف الرسمي يفتح المجال امام دخولهم النقابة دون خوف . وطالبت نقابة سكة الحديد بتوسيع انتظام العمال فيها باعداد كبيرة ، وان تعمل على افتتاح دروس ليلية للعمال ، وتجهز غرفا للقراءة ، ونشر المطبوعات ، ونشر الوعي العمالي ، والنقابي لدى العمال صغار السن . ودعت العمال للانتظام في حضور اجتماعات النقابة وجلساتها وان تجري قراراتها بكل اخلاص واستقامة .

وانهت حيفا تعليقها بالدعوة الى « الحاق كافة العمال بنقابة واحدة » وفي اشارة الى الصهيونية قالت ان عليها - اي النقابة - « ان تسعى لازالة كل فكرة مستبدة من النقابة وايجاد الثقة بين اعضائها المختلفين ووضع اساس متين لاتحاد العمال الحقيقي الدولي المختلط .. » وتساءلت حيفا : « .. هل يصغي عمال سكة الحديد لهذا القول ويفهموه؟ وهل لرؤساء النقابة الحاليين المقدرة والكفاءة اللازمة للقيام باعمال كهذه ، او هل لهم الارادة الصالحة لذلك ايضا ؟

ـ ثانيا في النضال النقابي العربي ـ اليهودي المشترك

منذ العدد الرابع من « حيفا » اولت المجلة اهتماما خاصا بالتعليق والتنويه باهمية انخراط العمال العرب واليهود في العمل النقابي المشترك ، الذي فتح الباب امامه دخول عدد كبير من العمال العرب في حيفا في نقابة عمال سكة حديد فلسطين عام ١٩٢٤ . وكانت هذه النقابة مقتصرة من قبل على العمال اليهود دون العرب ، كما كانت تتحكم في تسييرها قيادة صهيونية . بعد دخول العمال العرب في هذه النقابة ، تعرضوا لضغوط متبايلة ، منها وجود قيادة صهيونية صرفة تريد توجيه النقابة باتجاه مضاد لمصالحهم الوطنية والطبقية ، ومنها وجود ضغوط من الاوساط العربية الوجيهة والبرجوازية التي تستهول قيام تعاون ونضال عمالي عربي - يهودي مشترك . وقد اتجه العمال العرب بعد ذلك الى الخروج من نقابة عمال سكة حديد فلسطين وانشاء جمعية عمالية خاصة بهم .

هذا الحدث ،دخول العمال العرب ثم خروجهم من نقابة عمال سكة الحديد ، كان موضع متابعة مسهبة وموضع سجال من مجلة « حيفا » في خمسة اعداد من هذه التي بين ايدينا . وقبل تناول ما كتبته « حيفا » في هذا الصدد ، يهمنا التنويه الى بضعة ملاحظات تساعد القارىء على رؤية المقالات في اطارها التاريخي . اما تقييمنا لموقف المجلة فسنتركه الى اخر هذه الدراسة .

يفترض بداهة في اي حزب شيوعي في بلد ما ، ان يعنى بتنظيم الطبقة العاملة في منظمات اقتصادية وسياسية وان يعمل على قيادتها هي والفئات الكادحة الاخرى ، في برنامج ثوري يكفل تحقيق المهام الملحقة في الفترة المعينة ووفق الظروف المعينة . ويفترض بداهة ان يتوجه الحزب الشيوعي لتعبئة وتنظيم العمال والكادحين من كافة القوميات والاديان في البلد المعني .

كذلك ، فانه من الناحية المبدئية ، يفترض بالحزب الشيوعي - الجدير باسمه حقا - ان يكون موجودا اينما وجد العمال والفئات الكادحة ، وان لا يتركهم عرضة للتخريب الايديولوجي وتحت تأثير القيادات والايديولوجيات الانتهازية او الشوفينية او تحت نفوذ القوى الرجعية فعلى الحزب اذ ذاك ان يحارب الاتجاهات التحريفية والانتهازية في مؤسسات الطبقة العاملة ، وان يكسب العمال وان يعمل معهم من اجل طرد القيادات الانتهازية والرجعية ويطهر النقابة من نفوذها وتأثيرها المخرب على العمال .

اذا اخذنا موقع الحزب الشيوعي في فلسطين في المجتمع الفلسطيني في منتصف العشرينات ، نجد انه ما زال حزبا صغيرا متواجدا ضمن الاقلية اليهودية الوافدة الى فلسطين . وان نفوذه داخل الاغلبية العربية ضعيفا للغاية ان لم يكن معدوما . كما ان العلاقة بين العرب واليهود انذاك قد اصطبغت تحت تأثير الحركة الصهيونية والانتداب البريطاني ، بشكل من التناقض العدائي الذي يفسره وجود مشروع استيطاني اجلائي لدى الصهيونية .

ان صيغة العمل والانخراط العمالي اليهودي عند الشيوعيين قد انطرح في ظروف بداية تأجج المشاعر الوطنية والقومية ، وفي ظروف افتقاد الثقة والتخوف من الطابع العدواني الاجلائي للاستيطان اليهودي . لذلك فان الحزب الضعيف عربيا ، والمتواجد في مؤسسات وتجمعات عمالية يهودية ، اي داخل الجيتو اليهودي الذي لم يغادره ، كان يدعو العمال العرب للدخول معه الى « داخل الجيتو » لمساعدته على طرد النفوذ والقيادة الصهيونية في النقابات . فيما كان الامر سيكون مختلفا لو ان الحزب قد اولى التوجه نحو العمال والفئات الكادحة العربية الاهتمام الاول ، لكانت عملية مطاردة النفوذ الصهيوني والقيادة الصهيونية من داخل التجمعات والنقابات اليهودية او المختلطة اسلم من الناحية المبدئية ومن الناحية الاستراتيجية . وهذا لم يحدث . لذلك ظلت قدرة الحزب الشيوعي على التأثير في المحيط العمالي العربي ضعيفة ، ولم ينجح في سحبهم من دائرة النفوذ الوجاهي - البرجوازي ، مثلما لم ينجح في جذب العمال اليهود اليه وتحريرهم من النفوذ الصهيوني .

ان المقالات التي سنقتبس منها ، تلقي الضوء على منظور الحزب الشيوعي او على الاقل رؤية اوساطه لمسألة العمل العربي اليهودي المشترك في هذه الفترة .

١ - في العدد الرابع (٤٩) من « حيفا » كتب « عامل » ، تحت عنوان « القومية واللاقومية » تعليقا على دخول العرب في نقابة سكة الحديد، وعلى ردود الفعل لدى الاوساط العربية الوجيهة والبرجوازية . ولدى الاوساط الصهيونية . فقال : « دخل عدد كبير من العمال العرب بحيفا في نقابة عمال سكة حديد فلسطين فاقلق عملهم هذا افكار من يدعون انفسهم « محبي الشعب » وهم الوطنيون الناهضون ، اصبح هؤلاء تجاه هذه الحقيقة في اضطراب شديد وهيجان ثائر عبرت عنه بعض الجرائد بما نقلته عن افكار الوطنيين واصحاب الوظائف المتسائلة بهذا الخصوص وعن « كيفية حصول تفاهم كهذا بين عمال العرب واليهود وتضامنهم وانتظامهم في جمعية ونقابة واحدة، فهم يرون بهذا العمل جريمة لا تغتفر » .

واما القوميون من الصهيونيين فانهم نظروا الى هذا الاتحاد والتفاهم بعين الحقد والغضب ونسبوا للعمال اليهود الخيانة لمصالحهم والازدراء بمقاصدهم القومية . و « يحث كل من الطرفين عماله للارتداع ونبذ التضامن والتفاهم والاتحاد الدولي مبينا لهم الخطر العظيم الذي ينشأ عن ذلك لانفسهم ولوطنهم

ولقوميتهم ايضا ٠٠ فما الذي يدفع هذين العدوين الى الاجتهاد في هذا السبيل ؟ يظهر ان شبح تضامن واتحاد طبقة العمال المرعب هو الدافع لذلك ، وهذا مما يستدعي العامل الى التمعن والتبصر ، ويدفعه الى الاعتقاد بان لهذه المعارضة من اصحاب المذاهب - عرب وصهيونيين - سببا يعظم عنده عمله ، واهمية عظيمة لا يرغبها اولئك المسيطرون فيتمسك ويدافع عنه بكل قواه اعنوية وادبية ٠ فلذا ندعوكم يا اصحاب الاهتمام من صهيونيين وعرب وجهاء واعيان ان تهتموا باعمالكم الخاصة وتتركوا الاهتمام بشؤون الطبقة العاملة لها وحدها لانها لا حاجة لها الى من يهديها ويرشدها الى الطريق الناجح لها فهي اعلم بما يؤدي الى رقيها ونجاحها ٠ ولكي لا تكثر الاقاويل والاشاعات الباطلة وتضليل الرأي العام والعمال في جرائدكم ، نسبق ونخبركم بان الوسيلة الوحيدة لنجاحنا هي : الاتحاد الدولي والتضامن المختلط بين كافة عمال البلاد » ٠

ويتابع « عامل » فيقول بنبرة طبقوية فجة داعيا عمال فلسطين لوضع مصالحهم ووحدتهم كطبقة فوق الاعتبارات « الوطنية والقومية »، وهو يقصد بها الاتجاهات الشوفينية : « ولا يسأل احدنا الاخر عن اعتقاده او دينه او قومه او جنسه بل عن طبقته فقط ، ومن ثم نسعى بل ونبذل الجهد التام لنزع وسحق الفكرة الوطنية والقومية المستبدة من رأس جميع العمال ومن بين الطبقة العاملة عموما ٠ ولعمال سكة حديد فلسطين الخطوة الاولى في هذا السبيل لانهم بانضمامهم الى النقابة انتصروا على اول مبدأ صهيوني مستبد كان من سعيه ابعاد العامل الاسرائيلي من العمال الاخرين ، وهدموا - وهم البسطاء - اركان هذا المبدأ وسحقوه فاصبحت النقابة عديمة الاساس الصهيوني ورابطة قوية لطبقة العمال فقط » ٠

وفي معرض نقده الضمني لهيمنة السياسة الصهيونية على النقابة ، يدعو كاتب المقالة العمال الى عدم الالتفات للدعاوة السياسية لدى الرجعية الصهيونية والعربية على السواء والالتفات فحسب الى مصالح العمال الموحدة : « ولقد الفنا هذه الجمعية لا لنتعاطى بالسياسة الحمقاء الخداعة بل لندافع عن مصالحنا القومية ، وليست الراية الصهيونية الزرقاء البيضاء او العربية الوجيهة والخضراء والحمراء تهدي العمال وترشدهم الى طريق الحرية ، بل علم العمال الدولي الاحمر فقط ٠ فمن له اذنان للسمع فليسمع والسلام » ٠

٢ - في نفس العدد من المجلة (الرابع) (٣٠) كتب « محفوظ » مقالا مسهبا حول ذات الموضوع ، لكنه تميز بنقد حاد للصهيونية ، وللعمال اليهود المتشبعين بالنزعة الشوفينية٠ والمقالة عموما امتن واقل فجاجة من سابقتها٠ قال « محفوظ » : « اذيع في الجرائد خبر اتحاد وانضمام العمال الاهليين الى نقابة سكة الحديد والبريد والبرق فاذهب العقول واقلق الافكار وبلبل بال جماعة من الوطنيين واصبح موضوع بحثهم وانتقادهم وتمامنهم وعرضة لحملاتهم ناظرين اليه بعين (النهضة القومية العربية) فقط غير مكترثين بحالة العامل الاقتصادية الحالية ، التي دعته الى ان يخطو خطوته الاولى في هذا السبيل ٠ كنا نبشر بالاتحاد ونحمده مبينين للعموم فوائده وضرورته فلم نذمه ونحط به في امر كهذا ! ليس للاتحاد منافع حسنة في النهضات القومية فقط بل ان له الاهمية العظمى في نهضة العمال الاقتصادية ايضا ويجله كل بشر مخلص وكل ذي عقل سليم ان كان بفكرة شريفة ومقصد حسن ومبدأ مستقيم ولا يطعن به ولا يذمه الا من له بدونه فوائد شخصية واماني ذاتية ٠

ويتحدث محفوظ عن ردة الفعل في المؤسسات الصهيونية : « كان لاتحاد وتفاهم عمال سكة الحديد في النوادي والجمعيات السياسية الصهيونية دويا عظيما كدوي الصاعقة وتأثيرا سيئا على قلوب زعمائها فارتعدت فرائصهم وخفقت قلوبهم وارتعشوا لهذا التضامن وايقنوا بدنو الخطر العظيم الناجم عنه لسياستهم وتمثل لهم شبح هذا الاتحاد المخيف قابضا على روح فكرتهم وواضعا قدمه على عنق خطتهم السياسية السلبية المستبدة » ٠

ثم يتوجه محفوظ لمخاطبة العمال اليهود

بنقد حار : « واننا نأسف فقط لموافقة القسم الاكبر من طبقة العمال الاسرائيليين على ان يكون الة في يد هؤلاء المسيطرين وعبدا لمطامع سياستهم الخداعة ، على انه لم يظهر مثل ذلك من طبقة عمال اخرى في تاريخ نهضة العمال الدولية قط ، لان الدولية انشئت لتتخلص من عبودية المستبدين بين الرأسماليين ، وليس للاستخدام في معامل سياستهم حتى وان العمال الغير راقين في البلدان المختلفة لم يتنازلوا الى مثل ذلك ولم تكن تملقات مستعبديهم لتقودهم الى انحطاط كهذا ، ولا نعلم ما الذي استعملته الصهيونية من الوسائط والوسائل لتطمس على قلوب وبصائر العمال الاسرائيليين حتى انهم ينقادون اليها ويخضعون لسياستها التي ستكون يوما ما اكبر خطر عليهم مما هي على فلسطين واهلها » .

يصف الكتاب الطابع الرجعي الذي يسمه توجه العمال اليهود ، وتناقضه مع ارث الطبقة العاملة العالمية ، واحلال التناقض مع العمال العرب محل التناقض مع الرأسمالية ويقول : « واذا اطلعنا على حركة العمال الاسرائيليين في المدة الاخيرة في فلسطين نجدها مضادة لخصائص وقوانين ونظامات الدوليات الثلاث الاساسية لانها لم تكن موجهة ضد المسيطرين على طبقة العمال بل ضد الطبقة العاملة العربية من اهالي فلسطين . وان عدم اتحاد العمال الاسرائيليين مع رفاقهم العرب وما اهملوه في سبيل ذلك منذ انشاء النهضة يدل على مبدئهم الغير قويم وعلى اليد الصهيونية التي تسوقهم ، وبما ان الخطة الصهيونية تدفعهم الى مزاحمة العمال العرب فلا غرو انها ستقوى عليهم وتقيد مستقبلهم وتجعل منهم عبيدا خاضعين لاسيادهم وان لم ينتبهوا من غفلتهم ويرفعوا من اعناقهم نير العبودية ويتحدوا مع العمال الاخرين يفوتهم الوقت ولا يعود ينفعهم الندم بعد العدم ، اي انعدام الحرية المنشودة لطبقتهم . قال زعيم الصهيونية « ان عمالنا في فلسطين بركة عظيمة لقضيتنا » ، فماذا يقصد القائل بذلك ؟ اليس هذا ازدراء بالطبقة العاملة عموما ؟ او لم يدرك العمال الاسرائيليون الذين يدعون التنور والرقي الخطر الناجم لهم لاتباعهم هذا المبدأ وهذه الخطة المنكرة ؟ ام هم مستعدون لتضحية طبقتهم في سبيل توطيد الفكرة المؤسسة على نجاح المتمولين والمستبدين من ابناء قومهم ؟ واني ، بصفتي عامل شرقي اجهل ما هي النهضات الوطنية العديدة ونهضات العمال في اوروبا وغيرها ، غير انه يتضح لي من هذه القضية جليا ان الوطن القومي ليس للعامل الاسرائيلي والعربي بل للرأسمالي الاسرائيلي والوطني فقط وكلاهما في معارك دائمة لا مصلحة للعامل فيها ولا نفع . واذا كانت نقابة سكة الحديد التي لها علاقة مع الدولية الثانية في امستردام ما زالت تحت تأثير الصهيونية كما يظهر ، فلا صالح للعامل الاهلي فيها على هذا الحال ومن واجبات الاعضاء العرب الابتدائية تنوير اذهان المدعين بالتنور والرقي من اعضاء النقابة ومشتركيها من اليهود وانذارهم بما سبق ذكره ، وان ابت عقول هؤلاء وقلوبها قبول هذا التحذير المخلص يكون سعي اعضاء العمال العرب سحق وازالة كل اثر فكرة قومية ووطنية من نقابتهم المختلطة.وليس الانسلاخ والانفصال عن النقابة هو الذي يؤدي الى نيل المرام بل الاجتهاد والعمل والاتحاد المكلل بالفوز على المتمردين الاغبياء . وان جمعيات العمال الصهيونية اليوم ، تسعى التخلص من الخطر الذي جلبته عليهم نقابة سكة الحديد وذلك باتحادها مع العرب ، وهي تبذل جهدها الان لايجاد وسيلة تستطيع بها ازالة العقبات والموانع لتنفيذ فكرتها وستلجيء الى اساليب مختلفة لاكراه العمال العرب على الرجوع والانفصال عن النقابة ، وستقترح على المتحدين في بادىء الامر تأليف نقابتين متساويتين تحت رئاسة مختلطة ، فيكون للنقابة الاسرائيلية عندئذ الحرية التامة في اتباع فكرة القومية والعمل لاجلها لان النقابة المختلطة تمنعها ولا تسمح لاي عضو كان بالمداخلة في السياسة المضرة بمصالح العمال ، ولا العمل في ادعام سياسة المسيطرين والرأسماليين ولا يرضى اي عامل كان من العرب لنفسه ان يكون الة لتنفيذ الفكرة الصهيونية والنهضة الوطنية كما هو الامر عند القسم

الاكبر من العمال الاسرائيليين • لا فائدة ترجى من اتحاد العمال الاسرائيلين وحدهم ولانجاح لمساعيهم ان لم يصافحوا العمال العرب بنية مخلصة وفكر صادق وليعلموا ان رياءهم لا يجلون منه الا الانخذال والفشل • فليعتبروا وليبتعدوا عن المراوغة والاحتيال ولينضموا الى الجماعة المخلصة من اعضاء سكة الحديد الاسرائيليين ويشاركوهم في مبدئهم وعملهم المخلص المستقيم في سبيل نمو النقابة فيتم الاتحاد ويأتي بما هو كون لاجله • واننا نريد ان نتساءل ما يكون يا ترى جواب اعضاء الهيئة المركزية الاسرائيلية في نقابة سكة الحديد المحلية على السؤالين الذين القيا عليها من احد اعضاء النقابة العرب لو كان السائل ممثل الدولية الثانية في امستردام ؟ وبماذا تجيبه الرابطة العمومية للعمال الاسرائيليين وبقية الاتحادات والنقابات الاسرائيلية للطبقة العاملة في فلسطين ؟ او هل لاتحاد العمال الدولي مادة في قانون الدولية الثانية تسمح للخاضعين لها والمنخرطين في سكانها والمستندين على اعانتها في جهادهم لمصالح العمال ان ينجروا بالدولية الثانية لتنفيذ فكرتهم الوطنية القومية • الا فلندع هنا هذا التحايل والخداع المقوت الذي يشوش افكار العمال ولنرم بما يؤخرنا عن التفاهم والاتحاد التام عرض الحائط ، ولنتكاتف ولنتضامن ولنجاهد باستقامة للمدافعة عن حقوق العامل المهضومة • ويجب علينا ان لا ندع لاتحادنا ادنى صبغة قومية او وطنية وان لا يخالج قلوبنا ادنى تأثير يضر بمصالح الطبقة العاملة ولنضع كلمات ماركس اساسا لمبدئنا وهي : يا عمال العالم اتحدوا ، فلا قوة الا بالاتحاد ولا اتحاد الا بالاخلاص ولا يكون الاخلاص الا بالاستقامة والتضحية » •

٣ ـ عادت « حيفا » الى التطرق لموضوعة العمل في نقابة ذات قيادة صهيونية في عددها السادس (٣١) وكانت المناسبة انسحاب العمال العرب من النقابة المذكورة ، بعد ان كانوا قد انضموا اليها • فقالت المقالة المعنونة بالتساؤل التالي : « هل يجب ان ينسحب العمال من نقابة سكة الحديد ؟ » « لقد انضم قبل مدة قصيرة قسم كبير من العمال العرب الى نقابة سكة الحديد والبوسطة والتلغراف ،ولم يلبثوا ان انسحبوا منها بداعي مقالة نشرها الرفيق حسنين افندي فهمي في جريدة « النفير » وبسبب فتنة بليدة نشرها بعض الاعضاء العاملين في النقابة المذكورة • وقد حض الرفيق حسنين بقية الرفاق على الانسحاب من الجمعية اذ قد تبين له بانها صهيونية ، فهل هذا هو الصواب ؟ وهل تلك هي الطريق التي يجب على العامل ان يسلكها في سبيل الاتحاد •

وبعد ان نفى كاتب المقالة ان النقابة صهيونية ، وصفها بانها جمعية عمال تسعى لتحسين ظروف العمل والاجور ، الامر الذي يتناقض مع الصهيونية التي تستبعد العامل وتخفض اجرته وتطيل مدة عمله ثم اضاف : « اما حقيقة الامر فهي ان اصحاب الادارة الحالية يبذلون ويزورون مقاصد الجمعية لان الاكثرين منهم اغبياء يميلون الى الاستخدام في مقاصد اصحاب الرأسمال من اليهود وهكذا فهم يهتمون بمصالح هؤلاء ويفضلونها على الاهتمام بمصالح العمال • واننا نأسف لوجود عدد كبير من الاعضاء اليهود في النقابة والذين لا يميزون ولا يفهمون بان اصحاب ادارة النقابة مموهون فينقادون لهم رغما عن ذلك دون ان يسعوا لازالة هذه الحالة ونبذ الداعي اليها والمسبب لها من بينهم » •

يتساءل كاتب المقالة وهو يوقع باسم « عامل في سكة الحديد » : « فهل يجوز لنا والحالة هذه ان ننسحب من النقابة تاركينها بايد صهيونية تعمل لخداع العمال الى ما شاء الله وتوسع الهوة بين عمال العرب واليهود ؟ » •

ثم يجيب بالنفي شارحا اهمية البقاء في النقابة ويقول : « كلا ، ومهما كلفنا الامر فلا يجب ان نتزعزع في موقفنا بالنقابة بل يجب ان نسعى لنستلم ادارة النقابة ونعمل منها جمعية تدافع عن مصالح كافة العمال من عرب ويهود ، وانه يوجد عدد كبير من الرفاق اليهود الذين لهم خبرة تامة في ادارة شؤون الجمعية وهم مستعدون لمساعدتنا على

ذلك باخلاص ونية سليمة • فلنتكاتف مع هؤلاء في تنوير جميع العمال وتعليمهم حتى يمكنهم ان يعلموا ما هي واجبات اتحاد العمال فنقود النقابة سوية الى النجاح على طريقة العمال فقط • اننا نعلم بان الحالة في النقابة الان ليست حسنة وقد يقف في سبيل الاتحاد والتنظيم مانعان يلزم ازالتهما فالمانع الاول هو تأخر العمال والثاني سوء الادارة والخيانة في مركز النقابة الحالي •

فهل نزيل هذين المانعين بانسحابنا من النقابة او بتأليف نقابة اخرى مستقلة ؟ كلا لانه :

١ ـ لم يستطع عمال سكة الحديد العرب الذين كان عددهم في جانب الاكثرية ان يؤلفوا اغلبية متحدة في النقابة ، ويستلموا قيادتها وهكذا فلا يستطيعون تأليف نقابة مستقلة اخرى •

٢ ـ بخروجنا وانسحابنا من النقابة نؤيد موقف الصهيونيين فيها وهؤلاء يودون انسحابنا حتى لا يكون لهم معارض باعمالهم السياسية فيها • فالبقاء والثبات في النقابة والسهر على جميع المسائل المتعلقة بحياة العامل فقط يلزمنا بان نتقدم ونزيل الخلل الحاصل في ادارة الحالية وننزع ازمة القيادة من ايدي الخائنين ، وبوجودنا في النقابة نستطيع ان نقتبس الخبرة المادية والفنية التي بواسطتها فقط نتمكن من قيادة النقابة في الطريق المستقيم والمرغوب لدى اكثرية اعضائها • لذلك ادعوكم ايها الرفاق لتنضموا الى النقابة ولا تجعلوا العواصف الشديدة تقلقل وتزعزع مركزكم فيها • »

٤ ـ كما يبدو فان هناك من يخالف رأي مقالة « عامل في سكة الحديد » السالفة • ان مجلة حيفا تنشر في العدد الخامس عشر (٣٢) مقالا موقعا باسم « عامل عربي في مصلحة سكة الحديد » يشرح فيها « الاسباب التي دعت العمال العرب لان يؤلفوا نقابة مستقلة في حيفا » ويقول العامل العربي : « اضطر العمال العرب في سكة الحديد قبل شهر لان يؤلفوا نقابة عربية محضة دعوها « جمعية الخير » وقد انضم الى هذه النقابة ما ينوف عن المئة والخمسين عاملا ، والذي ظهر لنا ان هذه النقابة ستتقدم تقدما حسنا بفضل ما يبذله اعضاؤها من الهمة والعزم في العمل لصالح نقابتهم » •

ويعلن « العامل العربي » عن اغتباطه بهذه الخطوة ويأسف لاضطرار العمال العرب للاستقلال عن النقابة الموجودة منذ خمس سنوات • ثم يورد اسباب هذا الاستقلال فيقول : « تأسست النقابة القديمة تحت علم الصهيونية وهي فرع من الرابطة الاسرائيلية العمومية في فلسطين ، وقد حاول العمال العرب مرارا الاتحاد والتفاهم مع هذه النقابة فدخلوها قبل مدة وانضم اليها العدد الكبير منهم • ولكنهم لم يلبثوا طويلا حتى انسحبوا منها نظرا لما شاهدوه من مراوغة وخداع زعمائها السائرين في ادارة شؤون النقابة على خطة سياسة صهيونية لا يمكن للعمال الموافقة عليها » •

ثم يتحدث « العامل العربي » في رسالته الى « حيفا » عن موقف العمال العرب : « لما رأى العمال هذه المراوغات وهذا الخداع شعروا حقا ان اساس هذه النقابة وقواعدها لا تستند على مصالح العامل ورفع مستواه ، بل على تنفيذ رغائب القضية الصهيونية بين العمال •

ويظهر « العامل العربي » في رسالته تعاطفا واضحا مع استقلال العمال العرب في نقابة مستقلة رغما انه مقتنع بان الطريق الافضل كان هو النضال في النقابة السابقة مع العمال اليهود ضد الصهيونية لذا يقول : « كل هذه الاسباب المؤلمة دفعت العمال العرب الى الانسلاخ عن النقابة القديمة المشتركة والى تأليف نقابة جديدة مستقلة بدلا من ان يثبتوا في تلك ويقاوموها ويلاشوا كل فكرة صهيونية او قومية تتخللها بقوة اتحادهم ومثابرتهم على العمل فيها • ورغما عن ان هذه الخطة ، خطة التفرقة بين العمال في الجهاد ضد اعداء مصالحهم ليست بالطرق التي يجب على العمال ان يتبعوها في سبيل

حريتهم ، فاني اتمنى لهذه النقابة التوفيق والنجاح » .

٥ ـ لم تلبث مجلة « حيفا » ان نشرت في العدد ١٧ (٣٣) مقالا ممهورا بتوقيع « م ٠ أ ٠ و ٠ ـ عامل بمصلحة سكة الحديد» جاء ردا على الرسالة السابقة بصدد الموقف من النقابة المذكورة ، وحول الانفصال عنها ، بسبب الهيمنة الصهيونية على قيادتها ، وتأسيس نقابة عربية مستقلة . ويظهر السجال هذا ، الحاح المسألة التي شغلت الشيوعيين في فلسطين انذاك حول العمل في نقابة صهيونية قالت الرسالة تحت عنوان « ايضا وايضا ، نقابة عمال سكة الحديد » : « .... قال بعض الرفاق : نحن لا نرغب في الاتفاق مع الصهيونيين ولا نريد ان تضمنا واياهم نقابة واحدة ! الحق بيدك ايها الرفيق ، ولكن اليس من الخير لك اذا كنت معاديا للصهيونيين ان تعمل على مكافحتهم وقهرهم ودحرهم وانت مع رفاقك تمثل الاكثرية بينهم بدلا من ان تنسحب عنهم وتدعهم يعملون بما يرغبون ؟ ثم ويقال ان « النقابة صهيونية » فكم هو مخطيء من يقول هذا القول » « النقابة نفسها ليست صهيونية وانما يوجد فيها بعض الزعماء المتحمسين للصهيونية والعمال الباقين هم ابعد ما يكون عن الصهيونية ، هوذا الجهاد اليوم مستمر والخصام عنيف بين العمال وعن حقوق العمال وبين السماسرة الصهيونيين المتزعمين . فهل من العدل ان يتركوا هؤلاء المخلصين وحدهم يجاهدون دون ان تساعدوهم في هذه الواجبات المقدسة ؟ » .

ويشير « م ٠ أ ٠ و » الى محاولات شق تضامن العمال العرب مع العمال الشيوعيين من اليهود عن طريق اثارة مشاعر العداء تجاه البلشفية ، فيقول : « لقد نجح هؤلاء السماسرة الصهيونيين في ارعابكم بالغول (...) الذي صوروه لكم باقبح المناظر هو البلشفية ! لقد اعتاد هؤلاء الصهيونيون المضللون ان يسموا كل عامل يقاوم المبدأ الصهيوني بسمة البلشفية ، وهم يهمسون في اذانكم ان البلشفيك يستحقون الاعتقال والسجن . لقد استسلمتم لهؤلاء المخادعين ولاقاويلهم وفسادهم كما يستسلم الصغار ، وصادق البعض منكم على رفض بعض رفاقكم المجاهدين بالخلاص من النقابة لانهم عملوا على حفظ الوحدة والاتحاد التام لنقابة سكة الحديد » .

ثم ينتقد موقف الزعامات العربية الوجيهة بشدة : « اين كان زعماؤكم ايها العمال العرب عندما كان الجهاد قائما بعنف وشدة ضد السماسرة الصهيونيين الموجودين في النقابة ؟ لقد اخذ زعماؤكم الان يفندون الصهيونيين بمواعظهم واقوالهم ان تؤسس « نقابات مستقلة » وحل عليهم اليوم الروح الصهيوني الفاسد القائل بتأسيس (طوائف قومية) ، فاي مصالح يخدم هؤلاء الزعماء الذين لا يقومون بعمل جديد سوى اعادة مضغ الاقاويل وبث الدعاية الصهيونية على النسق العربي ؟ افيخدمون مصالح العمال ؟ كلا ، فان ادارة سكة الحديد ، والصهيونيين المتمولين ، والوطنيين الرجعيين ، كل هؤلاء لا يريدون ان يكون للعمال في هذه البلاد نقابات صحيحة ، ويرغبون في تفكيك عرى النقابات كيما تخور قواها ويثبط عزمها ، ولا تعود صالحة للدفاع عن حقوق الطبقة العاملة ، اذا فكل ما يتحدث به الزعماء ليس سوى اقاويل فارغة وثرثرة لا طعم لها . حذار ايها الاخوان ! فليس من طريق الانفصال والتفرقة يأتينا الخلاص .

يختم « العامل بمصلحة سكة الحديد » رسالته بمخاطبة العمال العرب للعودة للنقابة والتعاون مع العمال اليهود المعادين للصهيونية . ويقول : « اذا فلنسر سوية ! هلموا وانضموا حول النقابة ، ولنعمل بجد ونشاط في سبيل تأليف جبهة متحدة قوية ضد الصهيونية . لا تسألوا العامل عن معتقده وعن الحزب الذي ينتمي اليه ، وانما اسألوه فيما اذا كان مستعدا ان يجاهد ويدافع عن الطبقة العاملة وعن حقوق العمال في مصلحة سكة الحديد ، وان يعمل على انماء النقابة ونجاحها » .

ثالثا ـ في الوضع الفلاحي وفي التنظيم الفلاحي

تضمنت مجلة حيفا منذ عددها الخامس بضع مقالات مستقلة عن المشكلة الزراعية · ويمكن تقسيم المقالات من حيث تناولها الى ثلاث زمر ، الاولى هي تلك التي تتناول وضع الفلاحين والعمال الزراعيين ، والضرائب العثمانية القديمة (الاعشار) واثرها في افقار المزارعين واعاقة التطور الزراعي · وهذا الجانب كان موضع غالبية مقالات « حيفا » الزراعية · والثانية هي التي تناولت الصدام بين الفلاحين والمستوطنين اليهود بمناسبة حادث قرية العفولة · والثالثة هي المتعلقة بالدعوة لانشاء تنظيم فلاحي ، وبرنامج هذا التنظيم · وعموما لم تخل الافتتاحيات المتصلة بالوضع السياسي العام في فلسطين من اشارات وتنويهات ببؤس الفلاحين الاقتصادي ، او بالدعوة لتنظيم انفسهم باستقلال عن القيادات الاقطاعية والوجاهية كما سيمر معنا ·

تكمن قيمة هذه المقالات في طرحها جملة من المسائل المتصلة بالوضع الفلاحي ، فهذه النصوص المبكرة تتضمن اطروحات في وثائق لاحقة مثل وثائق المؤتمر السابع للحزب عام ١٩٣١ · ومن ابرز هذه القضايا :

١ ـ معالجة الضرائب القديمة (الاعشار) بوصفها معطلة للتطور الزراعي ومضرة بالفلاحين ودعوة لالغائها وليس تخفيضها · والتنويه بقيمتها الحقيقية بحيث تصل الى ٢٥٪ من محصول الفلاح وليس ١٠٪ منها ·

٢ ـ دعوة الفلاحين للتحرك وعدم انتظار رحمة الحكومة ، وانشاء « لجان الغاء ضريبة الاعشار » ·ودعوة جماهير المدن للتضامن مع مطالب الفلاحين ·

٣ ـ معالجة مسألة الربا والفوائد الباهظة المتحققة للمرابين في عمليات التسليف ·

٤ ـ ديون الفلاحين القديمة · والدعوة لالغائها ·

٥ ـ معالجة مشاكل الاستيطان من خلال قضية ملموسة (احداث العفولة) وتعريض بالاقطاع والملاكين الكبار والصهيونية بوصفهم اعداء الفلاح ، ودعوة لوحدة الكادحين · ويعني بذلك وحدة العمال والمزارعين العرب واليهود ·

في مجال التنظيم الفلاحي ، قدمت المجلة تحليلات مبكرة لضرورة تضامن العمال والفلاحين ·اما هدف اتحاد المزارعين المأجورين، فهو ليس الحصول على المطالب الاقتصادية الخاصة بهم فقط وانما مساعدة الفلاحين الصغار والدفاع عن حقوقهم ·

ان اقتراحات « حيفا » كمبادىء لاتحاد المزارعين ، تنم عن مطالب متطورة تستهدف تصفية العلاقات الاقتصادية القديمة ، فهي تقترح احلال المقابل النقدي بدلا من المقابل العيني ، تحديد ساعات العمل ، وضع تشريعات لتحسين وضع العمال الزراعيين ، مثل ظروف العمل ، المطالب الصحية ، رفع الاعشار ، اعطائهم اراضي ، تسليفهم بفوائد زهيدة ، منع العمل الاجباري ، توفير فرص التعليم وتحسين المواصلات بين القرى والمدن ·

أ) حول الضرائب العثمانية

كانت ضريبة « الاعشار » الزراعية ، في رأس الموضوعات الفلاحية التي تكررت في مجلة « حيفا » ففي العدد الثامن (٣٤) قال المقال الرئيسي فيها ، تحت عنوان « الى متى ؟ سؤال حقوقي مهم ، ما يلي : « ··· ان بحثنا عن الاسباب التي تجعل الفلسطيني في حال مؤلم من التأخر والجهل والفقر وجدنا بان القوانين التركية التي كان ولايزال يعمل بموجبها حتى عصرنا الحاضر هي الداعي لذلك · » لسنا ندرك نحن (البسطاء الجهلة) الاسباب التي تدفع اقدم دولة ديمقراطية في اوروبا وهي انكلترا الى التمسك والعمل عندنا بتلك القوانين المستبدة القديمة العهد الخالية من الروح العصرية الديمقراطية العادلة · (···) لقد علمنا بان الحكومة التركية الغت منذ زمن قريب من قوانينها تلك المادة المختصة بالاعشار ، غير ان ذلك لم يكن

له تأثير في بلادنا ولا على قوانيننا التركية قط • فعلام نسير نحن يا ترى ؟ (•••) ام من المحتم علينا ان ننجز ما يأمرنا به قانون ، قد الغاه منشئه وتبرأ منه قطعيا »•

ثم تشير المقالة الى الابحاث التي كتبها المختصون الاقتصاديون والتي برهنت على « الضرر الاقتصادي الذي ينجم عن اسلوب جباية العشر الاسيوي » • والتي تنبهت الى ان هذا الاسلوب من الجباية كان وراء هجرة الفلاحين العرب من المنطقة الى الولايات المتحدة منذ وقت مبكر ••• »

عادت « حيفا » الى موضوع ضريبة الاعشار في العدد ١٧ ، مرة اخرى (٣٥)• وكان ذلك بمناسبة اجراء حكومة الانتداب تخفيض في نسبة العشر • وتطالب المقالة بالغاء الاعشار واحلال ضريبة حديثة يتحمل اعباءها كبار الملاك وتقول : « ان حال الزراعة السيء ، وسوء حالة الفلاح الفقير على الاخص ذاك الذي يمثل التسعين في المئة من كافة الفلاحين في هذه البلاد يجعلنا ان نبحث مرة اخرى عن مسألة الغاء هذه الضريبة القاتلة اقتصاديا ومعنويا • فنقول : ان التخفيض الذي انعمت به الحكومة على الفلاحين لا يحسن حالتهم ، ولا يخفف شيئا من كواهلهم ، ويوجد الان منهم كثيرون في السجون لعدم تمكنهم من ايفاء هذه الضريبة الجائرة ، فلماذا لا تسن لنا يا ترى قوانين اوروبية ترسم الضريبة ايضا على كبار ذوي الاراضي كما هي على الفلاح الفقير ؟ »

« ان السياسة التي تتبعها الحكومة من هذا القبيل تلقى اثقال ضريبة الاعشار على كاهل التسعين في المئة من الفقراء من الفلاحين العاملين ، اما العشرة الباقون وهم يمثلون الاغنياء والملاكين فلا يثقل كاهلهم شيء من هذه الضريبة مع ان مدخولهم يعادل مدخول التسعين الاولين • فمن ذا الذي يجب عليه القيام بالعمل في سبيل ذلك ؟ »

وتحث مجلة حيفا الفلاحين على عدم انتظار اجراء حكومي ، وان ينتقلوا الى العمل فورا : « ان الاتكال وتوقع « نعمة الحكومة ورحمتها» لا يجديان نفعا ولا يرجى منها ان تقوم بذلك، فانما هي لا تجد فرصة للتفكير بحالة الفلاح الاقتصادية وعائلته ، بل يشغلها فكر تضخيم خزينتها وامر موظفيها في الدوائر المختلفة كالبوليس والقضاء وهلم جرا • فليس يستطيع العمل على الغاء ضريبة الاعشار سوى الفلاح نفسه ، وذلك بان يشكل لجانا في القرى تحت اسم « لجنة الغاء ضريبة الاعشار » وعلى الفلاحين كافة ان يرفعوا اصواتهم بالاحتجاج على هذه الضريبة العاتية » •

ب ـ الاعشار ، الربا ، التسليف ، الديون القديمة •

في العدد الثامن عشر من « حيفا » (٣٦) تطرقت مرة اخرى الى طريقة جباية الاعشار في سجال مع تصريحات المسؤولين الحكوميين في فلسطين • ثم انتقلت بعد ذلك الى مشاكل الفلاحين الاخرى ، مثل الربى وديون الفلاحين القديمة فقالت : « •• يتبع مسألة الاعشار التي لا تتغير حالة الفلاح او تتحسن اقتصادياته الا بالغائها تماما ـ مسألة الربا • فانه لا يوجد في العالم اجمع مرابون كما في فلسطين يشتغلون بالتسليف على طريقة ١٠ ـ ١٥ اي انهم يعطون بمعدل ١٠ ويطالبون بخمسة عشر ، وهذه المستمرة مع الاعشار تمتص دم الفلاح مصا (•••) وهناك ايضا ديون الفلاح العثمانية القديمة التي لم تر الحكومة جواز تمديد اجل وفائها الى سنين اكثر • فالفلاح في اثناء الحرب العظمى وصل الى درجة قصوى من الفقر والبؤس بعد ان سلبته الجيوش المتحاربة كل ما يملك وابادت اقتصادياته حتى اصبح عاجزا عن ايفاء الديون التي استلفها قبل عشر سنوات والقته المطالبة بهذه الديون بين ايدي المرابين كيلا يبيع اراضيه وحيواناته ، فما الذي قالته الحكومة بشأن ذلك : « ان تأجيل دفع القروض ليس في صالح الفلاح (!) وما وفاؤ ها الا لعهد معنوي يرتبط به المدين بموجب شهود » ! •• فهل اغرب من هذا ؟ وهل اعجب من القول ان تمديد اجل الوفاء ليس في صالح الفلاح ! ؟ فيقوم صالحه يا ترى بان يعجز عن الدفع

وتباع اراضيه او حيواناته الزراعية والبيتية مع علفها ، كما قالت الحكومة بعدئذ ؟ يا لهذا الصالح ما اغربه ، والاغرب منه التمسك بشريعة « العهد المعنوي الذي يرتبط به المدين بموجب شهود » . الفلاح يحتاج الى (قروض بفوائد قليلة) ولا يمكن الحصول على ذلك فيما اذا سمحت الحكومة لشركات اختصاصية ان تقوم بهذا العمل لان تلك الشركات المرابية لا تصنع بالفلاح خيرا مما يصنعه المرابي الفرد ، فهي تستوفي الفوائد الفاحشة التي تؤدي الى ازدياد سوء حالة الفلاح وتكرهه على بيع اراضيه وممتلكاته ..»

في عددها الثاني والعشرين (٣٧) كتبت « حيفا » تحت عنوان « يجب الغاء الاعشار » تنتقد الصحافة في فلسطين انعدام الجدية عندها ، لانها تتوقف عن متابعة مطالب الجماهير ، لعدم اصغاء الحكومة لها . ثم اضافت في حديثها عن الاعشار الى ما كانت قد كتبته بضعة افكار جديدة ، منها ان الاعشار ضريبة غير ضرورية ، ولا تعود بالنفع على البلاد وانما تستعمل في تمويل ابواب غير ضرورية في موازنة الحكومة مثل دفع مرتبات الموظفين الانجليز الكبار ، او تمويل مشاريع لا حاجة للبلاد اليها . لكن الفكرة الاهم هي ضرر هذه الضريبة على التراكم في الزراعة وعلى التطور الاقتصادي وفي القطاعات الاخرى . تقول « حيفا » في هذا الصدد : «ان هذه الضريبة ليست ماسة بالاف من الفلاحين فقط وبتقدم البلاد الزراعي ايضا ، بل ولها تاثير كبير في تقدم فلسطين بوجه عام (...) فان اساس كل تقدم كان ولا يزال ، ولا شك الى الاجيال الاتية ، المحاصيل الزراعية ، فثروة فلسطين تتوقف على يسر الفلاح فيها . اما الاعشار التي جعلت سدا منيعا في سبيل حصول الفلاح على ثروة كهذه ، فهي لا مشاحة خراب ووبال على البلاد » .

ثم يؤكد الكاتب ان من الوهم تصور امكانية الغاء الاعشار عن طريق المناشدة والمطالبة مع الحكومة ، فهي « تسعى جهدها للمحافظة على المصالح البريطانية في فلسطين » ، ويضيف « ان هذا المطلب الحيوي لا يمكن الحصول عليه الا بالمطالبة الشديدة وبالحملات العنيفة يشترك فيها اهل المدن وسكان القرى سوية » . ويختم الكاتب مقاله مخاطبا جماهير المدن والريف بقوله : « فباسم الاف الفلاحين وتقدم الزراعة في فلسطين ، وباسم تقدم البلاد عامة وباسم ثروتها ومستقبلها نادوا : « لتسقط تلك الضريبة البالية » » .

ج ـ الاستيطان الصهيوني

كان حادث العفولة ، مناسبة تعرض فيها مجلة حيفا وجهة نظرها في بيوع الاقطاعيين العرب للارض وشراء المستوطنين الصهاينة لها ، من منظور طبقي . ففي ٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٤ وقع صدام بين عدد من المزارعين العرب الذين كانوا يتعيشون من زراعة ارض تابعة لال سرسق بيعت للمستوطنين الصهاينة ، وبين فريق من الزراعيين اليهود كانوا قد شرعوا في حراثة الارض . وقد اصيب في النزاع مزارع عربي برصاص مسدس القته صريعا ، وجرح من المعارك بالحجارة نحو ثمانية من اليهود واثنان من العرب جراحا خفيفة .

وقد علقت « حيفا » على الحادث بقولها (٣٨) : « هكذا ايها العمال ، يبيع سرسق المتمول العظيم في بلادنا اراضيه لاحد المتمولين الاميركيين (الصهيونيين) ... والفلاحين والعملة من عرب ويهود تهدر دماؤهم الزكية بجريرة التملك والسيادة واستثمار منافع تلك القوة المقيدة المستبعدة بهرق الدماء ! .. ان هذا لا يهم سرسق ، ولن يؤثر على عواطفه المتصلبة القاسية (...) فيا فلاحو العرب ويا عمال اليهود ، الم تفهموا بعد كل هذه التجارب والامثال الجارحة القاسية التي مرت عليكم وذقتم مرارة طعمها ، ان اخوة البؤس والشقاء تجمعكم (...) الا اوقفوا الخصام وكفوا عن القتال واخلدوا الى السكينة وتعلقوا واعتبروا ان لا نجاة لكم ولا حياة ولا حقوق تحفظ الا بتفاهمكم وانضمامكم وتاليفكم النقابات ضد عموم اعدائكم (...) الا فليفهم عمال الشرق بانه لن يقوم المتمولون الصهيونيون ضد الفلاحين ، ولا الفلاحون العرب ضد العمال

اليهود اذا عرف العمال والفلاحون بدون فرق بين القومية كيف يؤلفون نقابات الصداقة والاخوة يتمكنوا من الحصول على حقوقهم المهضومة في الارض التي هي محط امالهم » .

في نهاية المقال اعلاه ، نشرت « حيفا » خبرا عن توزيع الشيوعيين في يافا نداء باللغتين العربية والعبرية حملوا به على ما وقع في حادثة العفولة . وقالت حيفا « .. ولم يكد ينتشر ذلك النداء حتى جرت مناوشات بين العمال والصهيونية فاوقف البوليس ١٢ شخصا حكم اربعة منهم بشهرين وبينهم ابنة لم تبلغ بعد سن الرشد حكمت بالسجن ستة اسابيع وذلك لاتفاقهم مع الحزب الشيوعي ، واما البقية فحكموا بسبعة ايام لاخلالهم بالامن العام » (٣٩) .

د ـ في التنظيم الفلاحي :

اما مسألة اتحاد العاملين الزراعيين ، فقد حظيت بمقالة خاصة ، اختتمت بعدد من الاهداف والمطالب ، يناضل من اجلها العمال الزراعيين وينظمون اتحادهم على اساسها فتحت عنوان « ضرورة اتحاد عمال الزراعة » قالت حيفا في عددها الخامس (٤٠) « لما كانت الظروف والاحوال الاقتصادية هي السبب في اتحاد عمال المدن وتضامنهم ، فهي لعمال القرى الداعي الوحيد ايضا . وعدا عن ان اتحاد عمال الزراعة يؤمن بطبيعته ويثبت موقف عمال المدن المتحدين والمتعاضدين في جهادهم الاقتصادي فانه يزيل عن هؤلاء خطر المزاحمة في الاشغال ومعاكسة مساعيهم من قبل عمال الزراعة الغير متحدين ، وذلك لان عدد العمال في القرى يفوق عدد عمال المدن والفرق عظيم بين الاجرة التي يرتضى بها عامل الزراعة (الفلاح)والتي يحصلها العامل المدني ومن هذا يخشى ان تنشأ عن ذلك تلك المزاحمة والمعاكسة المذكورة (...) فما تقدم يحثنا على الاسراع في خوض غمرات هذا اليم للوصول الى النتائج المفيدة والعمل على اتحاد وتضامن عمال الزراعة وتأليف النقابات والرابطات لهم ، ولا تكون المهمة الوحيدة لعمال الاجرة القرويين ، هي ان يحصلوا على مطاليب اقتصادية فقط بل يكون من اكبر واهم واجباتهم معاونة الفلاحين عموما ، وعضدهم والمدافعة عن مصالحهم وحضهم على مشاركتهم في نهضتهم هذه ايضا ، لان اعظم عمال الزراعة في بلادنا فلاحين يشتغلون تسعة اشهر من السنة بالاجرة ويفلحون الارض مدة الثلاث اشهر الباقية على حسابهم الخاص » .

« اما عمل الاتحاد فيجب ان يتأسس على المبادىء والقوانين الاتية : ١ ـ ان تكون مكافأة عمال الزراعة على عملهم بالنقود وليس بالمحصولات الطبيعية . ٢ ـ ان تعين لهم مدة العمل اليومي والعمل بوجه الاجمال . ٣ ـ ان يكون للرفق بعمال الزراعة ، والاهتمام بظروف حياتهم الاشتراكية قانونيا ، وان تقدم لهم المساعدة الطبيعية . ٤ ـ ان ترفع الاعشار والضرائب عنهم . ٥ ـ ان تعطى لهم الاراضي . ٦ ـ ان يسلفوا نقودا بفوائد صغيرة . ٧ ـ ان يسعفوا بتحسين تربة اراضيهم وذلك بامدادهم بالوسائط اللازمة لذلك . ٨ ـ ان يسعى لتهذيبهم مجانا . ٩ ـ ان ترفع الاشغال الاجبارية عنهم . ١٠ ـ ان تنشأ طرق مواصلات بين المدن والقرى وغيرها . وهكذا يتم لعمال الزراعة ما هم الان في اشد الحاجة اليه » .

رابعا ـ في النضال من اجل الديمقراطية وبصدد القوانين المعطلة للحريات

كان الشيوعيون اليهود في فلسطين منذ بداية العشرينات موضع ملاحقة واحتجاز وطرد من فلسطين . وقد طردت سلطات الانتداب بعد احداث اول ايار ١٩٢١ قادة الحزب الى خارج البلاد واستمرت ملاحقة كل من يشتبه بانه شيوعي ، بواسطة قوانين مثل قانون منع الجرائم . وكان هذا شأن الشيوعيين شأن العرب الذين يتصدون لسلطات الاحتلال او الصهيونية ، حيث كان قانون منع الجرائم سلاحا مشهرا فوق رؤوس الجماهير ، تكفي مجرد الشبه او الظن بان مواطن ما قادر على ازعاج السلطة او تهديد الامن ، لكي يساق الى السجن وفق القانون المذكور ، وقد استخدمت سلطات الانتداب قانون منع

الجرائم ضد الشيوعيين واليهود المعادين للصهيونية في العشرينات بكثرة مثلما استخدمته ضد العرب في اوقات مختلفة ٠

ان مناسبة هذه المقالات هو اعتقال الشيوعيين واصدقائهم من اليهود الذين قاموا بنشاط معاد للسلطات البريطانية والصهيونية ٠ وذلك قبيل واثناء زيارة اللورد بلفور لفلسطين وابان احتفالات اول ايار ١٩٢٥ ٠

علقت مجلة حيفا على قانون منع الجرائم لعام ١٩٢١ الذي سنته سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين اكثر من مرة ، وشرحت ابعاده واهدافه ومخاطره على الحركة الشعبية ، كما تناولت في اكثر من مكان مسألة الحريات الديمقراطية والسياسية للعمال والجماهير ، وعلقت في بعض المناسبات على حقوق ومطالب السجناء السياسيين ٠

١ ـ في العدد الخامس عشر (٤١) من مجلة حيفا كتبت تحت عنوان « قانون منع الجرائم» ما يلي : « وضعت الحكومة لبلادنا سنة ١٩٢١ قانونا غريبا لم تحصل بلاد اخرى على شرف التعرف به ، ويعرف هذا القانون بـ « قانون منع الجرائم » فالبوليس بموجب هذا القانون مفوض بالقبض على اي شخص كان من الاهالي متى خيل له ان سلوك الشخص سيء وانه من المحتمل ان يقترف جرما او ان يخل بالقانون ٠ وهكذا فلمنع اقتراف الجرم او الاخلال بالقانون الوهميين يزج البوليس المقبوض عليه في السجن لمدة معينة ان لم يستطع هذا دفع مئة جنيه كفالة ٠ والداعي الاساسي لوضع هذا القانون (بموجب الاوامر المعطاة لوضعه) هو الرغبة في منع هرق الدماء بين البدو حيث كان هؤلاء ولا يزالون ساخطين على الحكومة باغضيلها ، وهذا ما دعى الحكومة الى اصدار قانون ضد البدو الثائرين ٠ ولكن الحكومة اخذت في مدد مختلفة تعمل بفقرات هذا القانون ضد من يسخط عليها في بعض المدن الفلسطينية ـ كيافا ونابلس وحيفا والقدس الشريف ـ وفي القرى التابعة لها ايضا ، فقبض بموجب هذا القانون الجديد على عشرات من الاشخاص الابرياء لانهم (حسبما تخيل البوليس) على عزم اقتراف جرم مجهول! (٤٢) ووقت الاحتفالات الصهيونية الاخيرة قبض على عشرين عامل اسرائيلي ليس لجرم اقترفوه بل لان البوليس ظنهم ساخطين على الحفلات البلفورية وفي امكانهم اظهار سخطهم بالقول والكتابة ٠ نحن لا نرى مانعا هنا من التصريح بحقيقة القاء القبض على الستة عشر عامل اسرائيلي في محلة تل ابيب الصهيونية ، بل نروي الحادثة كما وقعت ليطلع عليها الجمهور : وصدر امر رئيس محكمة الصلح نوفاخ (الصهيوني) في تل ابيب لتفتيش بعض مساكن العمال والقبض على من فيها فنفذ الامر ليلة ٢٤ ـ ٢٥ اذار ، اي الليلة السابقة لوصول بلفور الى فلسطين ، وفي الصباح التالي القي القبض ايضا على عدد من العمال اثناء قيامهم بالعمل ، فاصبح عدد المقبوض عليهم ١٦ عاملا ، انهكوا ضربا وقيدوا بالسلاسل الحديدية ومثلوا اخيرا امام القضاء حيث تلي على مسامعهم نص التهمة التالية : قانون منع الجرائم لسنة ١٩٢١، انكم متهمون حسب قول البوليس وبموجب المادة ٣١٤ من القانون المذكور ومظنون عليكم انكم اناس : ١ ـ فيكم الكفاءة للاخلال بالامن العام وتهديد السلم ٠ ٢ ـ وزعتم او ستوزعون او ستحاولون توزيع (!) مناشير مهيجة تختص بالامور الحاضرة ومن شأنها احداث الاضطراب العظيم والحث على الاعتداء بين الاهالي او بين طوائف مختلفة الاديان من السكان ٠ ثم اثار الضابط (هالفون) الى انه اجرى القاء القبض بامر المحكمة ، وانه لم يجد اثناء التفتيش عند احد من المقبوض عليهم سلاحا جارحا او ناريا او ما شاكل ذلك سوى بعض المناشير الغير الرسمية ٠ ولكنه مستعد ان يقدم بعد ثماني ايام من يشهد على ان العمال المقبوض عليهم بامكانهم احداث ما ظنه ٠٠٠ وعلى ذلك بقي العمال في السجن ٠ وقد سأل العمال القاضي قائلين : لماذا يجب ابقائنا في السجن ونحن لم نقم بعمل يخالف القانون ولا يوجد من يشهد على اننا نستطيع احداث ما ظن بنا وليس سوى الضابط الذي قال انه (يستعد) على احضار

الشهود بعد ثمانية ايام ؟ فاجابهم القاضي لا دخل لكم في هذا الامر والمحامي وحده يستطيع القاء هذا السؤال على المحكمة ! ٠٠»

وتضيف مجلة « حيفا » : « سطرنا هذه الواقعة التي حدثت في تل ابيب كمثال لجور القانون المذكور اذ من يعلم اذا كان البوليس في الغد يعتبر كل نشرة او فكرة حرة مضرة ومخلة بالامن فيلقي القبض على كل شخص يراه ملائما لتثبيت نظريته على قاعدة (التشبه والظن) ؟ ٠٠٠ » ٠ وتنتهي مجلة حيفا الى المطالبة بالغاء هذا القانون ٠

٢ ـ كررت « حيفا » تناولها لقانون منع الجرائم في العدد الثامن عشر (٤٣) فقالت : « جاء في الجريدة الرسمية عدد ١٣٨ انه سيعمل بـ «قانون منع الجرائم» عدة سنوات اخرى ٠ لسنا ندري وايم الحق سبب احتفاظ الحكومة بالعمل بموجب قانون فوق العادة كهذا ، ما زال التقرير الرسمي الذي قدمته الى عصبة الامم يعلن لها ان الامن قد استتب في البلاد ، افلم يتضح لها بعد ان تاجيل الغاء هذا القانون يعرض رجال القانون لان يقترفوا جرائما عديدة لسوء استعمال ذلك القانون ؟ ٠٠٠ » ٠

٣ ـ وعلقت حيفا في نفس العدد (٤٤) على سجن « المجرمين السياسيين » فقالت : « ٠٠ لقد اجابت (الحكومة) انه منذ سنوات عديدة لم يدخل سجونها مجرمون سياسيون مع ان الكل يعلم ان الحكومة سجنت كثيرين من العمال والافراد الوطنيين المجاهدون خلال السنوات الاخيرة ـ عدا الفلاحين الكثيرين الذين سجنوا لعجزهم عن وفاء ضرائب الاعشار ـ فهل لم يكن هؤلاء يا ترى مجرمون سياسيون ؟ او لا ينوف عددهم عن المئات ؟ فكيف يقضي هؤلاء مدة سجنهم يا ترى وكيف يعاملون ، او لم يوضعوا بين الاشقياء من المجرمين ؟ او لم تشغل هذه المسالة يومئذ البرلمان الانكليزي ٠٠٠ » ٠

٤ ـ وفي نفس العدد المذكور انفا ، نشرت حيفا تقريرا (٤٥) قالت انه وردها بالبريد من جمعية « اعانة العمال الدولية في فلسطين » ٠

وقد ذكر التقرير انه منذ ٧ ايار ١٩٢٥ قد اضرب اربعة عمال في سجن القدس عن الطعام احتجاجا على الزامهم بالانحناء لمأموري ادارة السجن ، والباسهم عنوة لباس السجن ٠ وقال التقرير ان العمال المسجونين قد ضربوا وقيدوا بالحديد في غرفة السجن وكانت ايديهم مصلوبة على حائط الغرفة لمدة ساعتين ٠ وقد اضرب العمال مطالبين : بالتمييز بين السجناء السياسيين والعاديين ، وبعدم الباس السجناء السياسيين البسة السجن ، منع عادة انحناء السجناء للموظفين ، والسماح لهم بمقابلة الاقارب والاصدقاء ، وبالكتابة والتدخين والنوم على الاسرة بدلا من الارض » ٠

وقال التقرير « انه قد مضى على الاضراب عن الطعام ثمانية ايام ، وان بين الاربعة سجناء عاملين حديثي السن ، احدهما مصاب بالسل ، وان حالتهم سيئة للغاية وخاصة حال المسلول فهي اسوأ بكثير ٠ ونقل التقرير على لسان طبيب السجن قوله لهم : لا بأس ، دعهم يموتون ٠ كما رفض قومندان السجن مطاليبهم وقال انهم مجرمون غير سياسيين ٠

ثم اضاف التقرير ان الحقيقة هي انه قد حكم على كل منهم بالسجن خمسين يوما لانتماء احدهم الى حزب سياسي غير نظامي ، بمناسبة مجيء بلفور ولبيع الثاني وهو الحديث السن المسلول نشرات نظامية تنشرها جمعية العمال المسماة بالجركونية «اربيتر فراكتسي»٠ كما حكم على الاثنين الاخرين لانهما وزعا نشرات لبيان انتخابات « نقابة العمال والعاملين » ٠

وتحدث التقرير المنشور في حيفا عن قيام جمعيات العمال واحزاب ونقابات صناعية وطائفة العمال الاشتراكية وغيرها بالدعوة للاشتراك في الاحتجاج على نظام السجون الحالية وللمساهمة لانقاذ حياة العمال المضربين عن الطعام ٠

كما تحدث التقرير عن مباشرة الحزب الشيوعي الفلسطيني وجمعية اربيتر فراكتسي « في اعانة المضربين ، كما وعدت

نقابة الخبازين ، وطائفة العمال الاشتراكيـة بالمساندة . وانتهى التقرير بالحديث عن عدم معرفة الجمعية بما فعلته الجمعيات الصهيونية العمالية لهؤلاء المضربين » .

خامسا : حول تحالف العمـال والفلاحين ، والحزب

تميزت الفترة التي كتبت فيها هذه المقالات بانقسام عام في الحركة الوطنية ، بعد فشل محاولات اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الفلسطيني في اقناع بريطانيا بالعودة عن وعد بلفور وسياسة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وقد انعكس فشل القيادات الوجاهية في حدوث جزر عام في الحركة الوطنية . وفي فقدان الجماهير ثقتها بالقيادة، وبروز اتجاهات لانشاء احزاب بديلة ومنظمات راديكالية .

يظهر المقال الاول اهتمام الحزب الشيوعي بموقف سكان الريف ، ويحاول ان يوجه الفلاحين لبلورة موقف مستقل عن تأثيرات القيادات التقليدية من الاحداث . فهي من جهة تبدي دهشتها من صمت الفلاحين ويدعوهم للتحرك والتحالف مع العمال في المدن ، كما يدعو هذا التحالف بدوره لقيادة الحركة الوطنية . اما اساس هذا التحالف فهو : « لنسر متفرقين (اي كل في حزب مستقل) ولنضرب سوية » .

ان المقال الثاني يحلل اهمية تحالف العمال والفلاحين ، ويقول ان القيادة هي للعمال . ويشير الى ان الفلاحين هم السواد الاعظم من الشعب لكنه مبعثر وغير منظم ، فيما العمال وهم القلة ، منظمين ومتماسكين .

يصف المقال الثالث ، التمزق الحزبي في البلاد وضعف الحركة الوطنية وينتهي الى الدعوة لانشاء حزب لتحالف العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين « الطبقة الراقية » . ويقترح المقال اسس لهذا التحالف مثل : النضال من اجل استقلال فلسطين ، تحسين اوضاع الفلاحين والعمال المأجورين ،الديمقراطية واقامة مؤسسات تشريعية منتخبة من العمال والفلاحين والشغيلة ، اعادة النظر في الضرائب والغاء الاعشار ، اعادة النظر في السياسة الجمركية ، منح الفلاحين قروض تساعدهم على التخلص من الديون القديمة والفوائد الباهظة ، تنظيم الري ، مد الزراعة بالالات ، حماية حقوق العمل ، العمل ثماني ساعات ، حرية الاجتماعات وحرية تنظيم النقابات والجمعيات ، تعميم التعليم المجاني .

على الرغم من الجوانب الايجابية والمتقدمة في هذه المقالات فانها تشكو من عيوب ،معروفة في الحزب ابان نشأته ، مثل النزعة الطبقوية الصرف في تحليله ورؤيته ، تعسف وفجاجة رسمه للوحة الطبقية . ما يفوق هذه العيوب ، وما يمكن وصفه بانحراف ، هو المكانة المتواضعة للمسألة الوطنية ، اي النضال ضد الامبريالية البريطانية وضد الصهيونية والاستيطان والهجرة . وهذه سنعود اليها في نهاية الدراسة .

أ ـ حول الموقف السياسي للفلاحين :

في مقال افتتاحي بعنوان « كيف تنهض الامم ؟ » تحدثت « حيفا » في العدد السابع، (٤٦) عن الانقسام الحزبي والسياسي في البلاد وعن حاجة الفلاحين لتنظيم حقوقهم والتعبير عن مصالحهم باستقلال عن « الملاكين والاغنياء والتجار » ودعت الى تحالف العمال والفلاحين في فلسطين قائلة « ... واله ليدهشنا من الفلاحين السكوت عن ذلك ، كأن لا منافع لهم تدعوهم الى النهوض بانفسهم ، أفليس للفلاح مهمة اخرى غير التسليم ؟ اليس للفلاح مصلحة يخصص لها كل قواه كي يمنع الاخرين عن امتصاص دمه وسلب ماله بواسطة الاعشار والضرائب الموضوعة عليه .

« ... يجب ان يكون سعي كل مخلص لانقاذ الشعب وتحريره من ربقة الاستعباد بانشاء مجموع متحد كجيش وطني مرصوص، وعلى هذا النمط تحصل على فوائد كبيرة ويكون نجاحنا عظيم جدا . ولايجاد هذا الجيش القوي يجب قبل كل شيء تأليف قوة عامة لان نهضة الملاكين والاغنياء والتجار الوطنية غير صالحة ولا كافية لقيادة الشعب في الطريق

الحقيقي للغاية المشتهاة لان هذه النهضة تنقصها الجسارة والجرأة والمبادىء الصحيحة وثقة الشعب ، وهكذا فان القسم الاكبر من الشعب والاكثر شقاء وبؤسا واستعبادا ، وهو العمال والفلاحون، وهم الصالحون للقيام وتصدر النهضة الوطنية » .

ب ـ الاساس الموضوعي لتحالف العمال والفلاحين

في العدد ١٣ عادت حيفا في افتتاحيتها « قوة النهضة » (٤٧) لتعالج مسألة الضعف العام الذي يسمم الحركة الوطنية في فلسطين، والازمة التي تعانيها بسبب من قياداتها وزعمائها واحزابها . وقالت « حيفا » ان « افتقارنا واحتياجنا الى حزب نافع عامل هو الالة الجوهرية لكل نهضة (اشتراكية) صرفة » ، وبعد ان تشير الى كثرة الاحزاب في فلسطين على قلة جدارتها باسم الاحزاب تقول : « اما الحزب الحقيقي فهو من يتناسب وبرنامجه مع السواد الاعظم من الشعب ، وحددتهم بـ « الفلاحين والعمال »: وقالت عنهم: « يمثل فلاحو بلادنا الثمانين في المئة من الشعب الفلسطيني وهم عائشون في أدنى من الذل والهوان ... اما احزابنا الوطنية فلا تبالي بتلك المصائب والنكبات ... » .

« يفتقر الفلاح هنا الى الاتحاد والتضامن مع ابناء طبقته ليسير نحو مراعي الحياة الطيبة فتراه يعيش لنفسه بنفسه منفردا مبعثر القوى ، تبعده طبيعة الحال ـ كسكناه « في القرى والتزامه محلات اقتصاده الصغير الضيقة ـ عن المجتمع فيحيا منفصلا (...) وبقطع النظر عما للفلاح من الصفات الحسنة، فهو غير كفؤ للقيام بتوحيد طبقته وتنظيم صفوفه ، وهذا ما يفرض على العامل ان يأخذ على عاتقه الاهتمام بامر ذاك المسكين الخاسر، ويبلغ عدد العمال المنتظمين في ذلك الاتحاد الخمسة عشر الف عامل ، ولما كان هذا العدد قليل جدا لا يستطيع وحده القيام بالفروض والواجبات ، التي يرتكز عليها اتحاده فهو يرغب ويسعى الى ادماج الفلاحين معه في انتظامه واتحاده ليصبح الفريقان معا قوة واحدة عظيمة يعضدها الفلاح بعدده والعامل بهيئته العاملة المنظمة ... »

جـ ـ حول الحزب :

عادت « حيفا » في عددها الثامن عشر (٤٨)، لتدعو مباشرة العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، « الطبقة الراقية » حسب تعبير المجلة الى الانتظام في حزب واحد . فتحت علوان « اسسوا حزبا صحيحا نافعا » قالت افتتاحية العدد المذكور : « لا تمر علينا ليلة واختها ولا تفاجؤنا الاخبار بولادة حزب جديد وقماطة برنامج عمل جديد ، ولفافاته خطة جديدة ، ومصالح شخصية حديثة . حتى بتنا نخشى ان يؤلف كل ثلاثة اشخاص او اربعة منا حزبا ، لان العائلات اخذت تنقسم الان الى عدة احزاب فالاب مثلا الى حزب والام الى حزب والولد الى حزب وهلم جرا .... فكم يكون الفرق عظيما بين حالتنا الحاضرة وحالتنا المرجوة لو كان سواد الشعب الاعظم اي العمال والفلاحين والطبقة الراقية بحالة منظمة موحدة تمثل قوة عظيمة قادرة على صوغ المشيئة من الشعب واقتياد تأثيراته في الجهاد شاعرة معه في ضيقه والامه واحتياجه . لقد وصل الامر بنا الى حالة لا نستطيع احتمالها فعلينا ان نضع حدا لهذه الفوضى السياسية وان ننظم امورنا فنؤسس لنا حزبا حقيقيا نافعا يمثل الشعب باسره ... فيجب ان يتألف هذا الحزب من العمال والفلاحين ، وان يعمل بموجب برنامج يوافق هذه الطبقة العاملة ،وبما ان الحزب المؤلف هو الذي يضع خطة فلا يسعنا الا ان نشير هنا الى بعض القواعد الاساسية التي يجب ان يقوم عليها هذا البرنامج . وتلك القواعد هي الاهتمام بحاجيات الفلاح الفقير ورفع مستوى العامل المأجور ، ويكون من اول واجبات هذا الحزب الجهاد في سبيل استقلال فلسطين والحصول على المطالب السامية الديمقراطية وتنظيم هيئات تشريعية ينتخبها العمال والفلاحون والمأجورون للعمل دائماً ، الذين يمثلون السواد الاعظم من الشعب . ومن اهم الامور المطلوبة منه ان ينال التصريح الرسمي بحرية الاجتماعات وحرية تأليف النقابات والجمعيات الخ . وان ينظم العمال

على اساس التهذيب الشعبي ، ويطالب بفتح المدارس المجانية لتعليم الشعب وتهذيبه بالعلوم والفنون » .

سادسا : في المسألة الوطنية والتحرر الوطني والاستقلال

على الرغم من صعوبة استخلاص ملاحظات اساسية وافية من هذه المقالات حول فهم الحزب للمسألة الوطنية وقضايا التحرر الوطني والاستقلال ، اذ هنا تبرز الحاجة للبحث عن الاعداد المفقودة من « حيفا » ، فانه من الممكن القول انها تنقل بضعة اتجاهات رئيسية :

ـ فالمقالات تنتقد القيادة الوطنية الفلسطينية (اللجنة التنفيذية وموسى كاظم الحسيني) من عدة زوايا . ففي المقالة الاولى نقد لاستمرار نهج الاعتماد على الاتصالات مع الملوك العرب (هنا الشريف ـ الملك حسين) والاتصالات الدبلوماسية وحث على الاعتماد على الجماهير . اما المقال الثاني ، ففيه شرح للسياسة البريطانية في المنطقة بمناسبة زيارة بلفور الى فلسطين ، ونقد القيادة هنا هو في استمرار اساليب العمل التقليدية المراهنة على تغيير موقف بريطانيا عن طريق المناشدة . (نقد نشر المقالات الانكليزية في الصحف العربية في فلسطين . كذلك ثمة نقد لما يلمس كتحريض طائفي ، او حسب تعبير المجلة : « تهييج قسم من السكان على الاخر » .

ـ على ان هناك دعوة لنبذ الفرقة وحث للعمال والفلاحين على الاشتراك في الاحتجاج الذي دعت اليه اللجنة التنفيذية ، واستحسان لاعلانها عن الاحتجاج . اي ان موقف المجلة يعبر عن خط نقد ـ تضامن . وان كان النقد يفوق ما يلمس من تضامن .

ـ هناك شكوك في جدارة القيادة ، وهناك قناعات بعجزها . ودعوة لها لزيادة التصاقها بالجماهير العمالية الفلاحية . وفي مقابل ذلك ، تشدد المقالات على بضعة مسائل اساسية مثل ضرورة قيام « عصبة » ، « رابطة واسعة » من العمال والفلاحين ، اي الحزب . وكذلك دعوة « لتأليف نهضة وطنية موحدة » تصفها بوحدة « دون ميزة بين منتصر ومدحور » و « حزب الشعب الصحيح والقويمة السير » . وتعني بهذه « العصبة » و « النهضة » ، « الحزب » .: العرب واليهود على السواء . وقد جاء هذا في نهاية تقييمها للموقف المحلي من زيارة بلفور (المقال الثالث) . وملخصه هو فشل صهيوني مصحوب بضجيج اعلامي ، ونصر عربي غير مكتمل ، وعدم اكتماله ناشيء عن الافتقاد للقيادة الوطنية الكفؤة . في المقالات ادانة للصهيونية ونقد للاتجاهات الشوفينية في صفوف القيادة العربية . واخيرا هناك موقف ضد الهجرة الصهيونية الى فلسطين .

أ ـ نقد القيادة الوطنية :

تحت عنوان « كفى التوكؤ على عصا مكسورة » (٤٩) تعليقا على زيارة موسى كاظم الحسيني وبعض اعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الفلسطيني للملك (الشريف) حسين للتفاوض معه فقالت : « كنا نأمل ان نرى ممثلي امتنا وقد تتبعوا حوادث الاشهر الاخيرة ان يكونوا اقتبسوا منها ما يعود على سياستهم وعلى القضية العظيمة بالفائدة ، غير ان امالنا بذلك خابت ولم يتحقق ما كان يخالج نفوسنا المضطربة في التخيلات والاوهام الذهبية ، اذ ظهر لنا اخيرا بان رؤساء نهضتنا لم يعتبروا بالحوادث الحديثة العهد ، ولا يزالوا متمسكين بخطتهم السياسية العوجاء » .

ثم تتساءل عن العمل الذي قام به الملك حسين وانجزه طيلة مدة قيادته للامة العربية التي اعتبرته منقذا لها من نير العبودية والسيطرة الاجنبية . كما تتساءل عن المبرر للمقابلات والمفاوضات الجديدة معه . وقالت « ان الحسين لم يكن لامته مرة ركنا وسندا متينا قط ولا في مدة عظمته وسطوته ، فكم بالحرى وهو كالعصا المكسورة لا امل به ولا رجاء » وتضيف « ان للفلاحين والعمال الحق ان يطلبوا من موسى كاظم ورفاقه جوابا

صريحا على السؤال التالي هو : ما الــذي فعلتموه عند الحسين الملك السابق » ؟

وتقول « حيفا » : « كفى الاعتماد على رجال عظام والامل بامراء وملوك ٠٠ يا زعماء نهضتنا لان للرجال العظام كالحسين وفيصل وعبد الله شهية قوية (للبلع) ولا اهمية عندهم للناس الضعفاء البسطاء وطريقكم هذا لا يؤدي الى الحرية ، ولا يجب علينا ان نبحث عمن يساعدنا في نهضتنا بتلك الديار اذ (لا يحك جسمك مثل ظفرك) ٠ فلا من يساعدنا غير اتحادنا وانضمامنا وبذل جهدنا في سبيل العمل الحر ! وانما نقول لاولئك الذين يتجولون في البلدان ويطرقون الابواب العالمية في طلب المساعدة (٠٠٠) لا تتحملوا عناء السفر في الطريق البعيد المؤدي الى الحسين وغيره ، بل اقتربوا من الشعب وتنازلوا لاستشارته واطلبوا المساعدة من جماهير العمال والفلاحين ، بعد ان تخففوا الامهم وتتمموا مشيئتهم فتهتدوا الى السبيل الذي بحثتم عنه طويلا (هذا اذا كنتم مخلصين) ٠ ان حرية الشعب تخص الشعب فقط ، وسيكون اتحاد العمال والفلاحين اقوى زعيم وانبع قائد في الجهاد نحو سبيل الحرية والاستقلال ! » ٠

ب ـ تحليل للسياسة البريطانية ودعوة للاحتجاج ضدها

وبمناسبة قدوم بلفور الى فلسطين كتبت « حيفا » في عددها الرابع عشر تقول (٥٠) : فكرت انكلترا في ايجاد خطة تمكنها من التنفذ في الشرق والتسيطر التام عليه فاتبعت خطة تتطلب القيام بامرين في هذا السبيل ، فالامر الواحد هو ابعاد مزاحمتيها (اميركا ، وفرنسا) عنه ، والثاني تامين سياستها ونفوذها بين اهله ، وقد حاولت انكلترا حل هذه القضية اثناء الحرب وبعدها على طريقة مزدوجة ناهجة منهج (اشباع الذئب دون ان تمس النعجة بضرر) فنصبت لذلك عروش ممالك عربية جديدة في العراق وشرق الاردن والحجاز ورفعت عليها ملوكا ثم احاطت تلك الممالك بسدود ثابتة منيعة خوفا من شره اصحاب الحكم فيها في المستقبل فسدت السبل في وجه هذه السلطات العربية التي لا يتمكن منها ضم المقاطعات الاخرى الى ملكها واضعة فرنسا في سورية محصلة فلسطين بوعد بلفور ٠

« ٠٠٠ يقدم بلفور الى بلادنا ليتظاهر ويعلن ان تصريحه الورقي اقوى من ارادة الشرق العربي باسره ، وما مجيئه سوى مظاهرة انكليزية ضد النهضة الوطنية العربية ٠ فليعلم كل مخلص يريد حرية الشعب ان من واجباته المقدسة نحو الامة وان كان رأيه يختلف عن رأي اللجنة التنفيذية ان ينبذ الان كل ما فيه ضرر للشعب ولسنا نخال السواد الاعظم من الشعب العربي الا مدرك اهمية موقفه امام ذلك » ٠ وفي الوقت الذي ندعو فيه العمال والفلاحين الى الاشتراك بالاحتجاج في هذا نرى من اهم واجباتنا الفات نظر اللجنة التنفيذية الى ضعف بصيرتها ، فهي لم تزداد للان رشدا وادراكا ومعرفة بالامور ولا تزال ترى في الواقع امرا سياسيا ليس الا بانية امالها على شعور اللورد القادم واحساساته »

« ما هو المرمى الذي تبتغي اصابته بقرارها ان تصدر الجرائد العربية يوم قدومه بمقالات انكليزية ، ولمن يريد ابناء قومنا الوطنيين تقديم عرائضهم هذه ؟ االى لوردات الانكليز ؟ الا فليعلموا اكيدا ان هؤلاء يحفظون في مكاتبهم السياسية بيانات صافية عن الحالة في بلادنا هي اكثر دقة من تصريحاتكم واحتجاجاتكم بالمقالات الانكليزية التي ترغبون نشرها او نأمل بكتابة شكاياتنا في اللغة الانكليزية للقراء الانكليز (كي) يقرأها اللوردات وارباب المناصب منهم فيشفقون على الشعب والامة العربية ؟ ما اتفه هذه الفكرة ! ان ارباب السياسة الحاليين في الدول الاوروبية قد شاهدوا اكثر من دموع عربية في مقالات انكليزية ، فيوجد في باريس ولندن وغيرها من المدن والعواصم مئات الالوف من الارامل والملايين من مشوهي الحرب وعشرات الملايين من اليتامى الذين يملؤون منفسحات الشوارع ولم يكن احد هؤلاء الرجال العظام ليرتعش جفنه عندما كان يصدر الاوامر للحروب الجديدة التي تتطلب ضحايا جديدة ٠ افتريدون

انتم الان ان تؤثروا على عواطفهم بمواهبكم ومهارتكم في الكتابة (باللغة الانكليزية) . ابساطة هذه منكم ام هناك شيء اخر .

« تكلموا مع الشعب ، مع الفلاح والعامل وليس باللغة الانكليزية الفصحى بل باللغة العربية العامية ، لغة ابائكم واجدادكم ولا تهتموا بتنميق عبارات السياسة البليغة بل سطروا له كلمات بسيطة عادية منقولة فيقرأ ويسمع ، ويفهم ويعمل . ثم فما هو القصد من الكتاب الذي بعثت به ايتها اللجنة التنفيذية الى الحكومة والى ماذا ترمي تلك العبارات الغامضة التي تضمنتها ؟ افيدينا ! ! . هل تتوهمين ايتها اللجنة ان من تهييج قسم من السكان على الاخر تجنين فائدة ؟ او تحاولين بذلك اخفاء ما انت عليه من الضعف فترغبين السير بكفاحك في طريق غير الذي يجب ان يسار عليها . »

وخلصت الى القول : « لا يستطيع الافراد وحدهم ان يحصلوا على شيء ضئيل مهما كانوا على جانب كبير من الفطنة والذكاء . ومهما كانت الجماعات الفردية باسلة وشجاعة فهي لن تحصل على بغيتها ما لم تصوب نظرها نحو الجهد والوقت في سبيل تنظيم نهضة عظيمة قديرة من الشعب ، برمته ولذلك نحن ندعوكم الى تنوير الشعب وتنظيم شؤون الفلاح والعامل وتاليف عصبة من كافة العمال والفلاحين . اما الاحتجاج عند مجيء بلفور فيجب ان يكون بالعمل الافتتاحي المنظم لانشاء رابطة واسعة من عمال وفلاحي بلادنا على خطة منظمة مرتبة » .

جـ ـ تقييم الموقف المحلي من زيارة بلفور

جددت مجلة حيفا حديثها عن زيارة بلفور لفلسطين في عددها الخامس عشر ، فكتبت تحت عنوان « ماذا علمنا الاحتفاء ببلفور في فلسطين (٥١) :

« كانت الايام الواقعة بين ٢٥ اذار و ٥ نيسان ولا شك « ايام بلفور » في فلسطين . والغريب انها امتازت بتأثيرها المزدوج على عواطف سكان هذه البلاد امتيازا لم يكن له شبيه في تاريخ الانسانية منذ تكوينها ، لانها كانت للاقلية الضئيلة من السكان ايام فرح وغبطة واحتفال بمعبودها بلفور ، وللسواد الاعظم منها ايام حداد وحزن هاجت فيها عواطفهم وتفاقم غضبهم المقدس.كانت ايام احتجاجات رفعت على بلفور ضد مجيئه الذي كان سببا لاشتعال نيران البغض والحنق في صدور من قضى عليهم بحكمه الجائر المجرد من الانصاف والحق والعدل والانسانية. فهل اعتبرنا بما علمتنا اياه الايام ، وما هي الدروس التي القتها علينا .

ان من يريد استقصاء الحوادث والاعمال التي جرت بمناسبة وجود الزائر (المحبوب من القلائل) والمكروه من الاكثرين عليه ان يتحرى اعمال الطرفين اللذين رأى كل منهما ان من صالحه وواجبه القيام بها اثناء تلك الزيارة .

والسؤال الاتي ولا ريب يتردد في اذهان الجميع من الطرفين ان هل تمكن الصهيونيون من التظاهر السياسي كما رغبوا ام لا ؟ والجواب على ذلك من جهة اولى : كلا ومن جهة اخرى : نعم واليك الايضاح : شاء الصهيونيون للزيارات التي سيقوم بها معبودهم المخلص بلفور في فلسطين صورة تجعل الزائر يعتقد ان الزيارات ليست سوى تخليد ذكرى النصر العظيم الذي حازوه واحتفاء بشخصيته المقدسة ، فيقتنع بلفور ان فلسطين بلاد صهيونية والعرب فيها لا شيء في نظرهم . وليس من حال يحوجهم الى ان يحسبوا لهؤلاء حسابا . ولكن سرعان ما خاب امل الصهيونيين من هذه الوجهة لان الرياح لم تجري كما تشتهي سفنهم ، فتل ابيب رغما عن انها محلة صهيونية محضة لم تستطع المجاهرة بمقاصدها واجراء ما عزمت عليه بالبراهين الا بعد صعوبات عديدة ومصادرة منازل مختلفة وتسليم بعض سكانها الى ايدي الشرطة . فتأمل ؟

« ان اجهل طبقة في الشعب متهيئة لان تدرك مصالحها وهي تفهم واجباتها في مثل تلك الاحوال وتحترمها حق الاحترام ، وقد برهنت لنا على ما تقوله عجوزا عربية يفوق سنها عن السبعين سنة لم تجهل امر امتها اذ سمعناها تقول : ان « فلفور » (وهي

تعلي بلفور) عدو الشعب العربي باسره ٠ !
« ٠٠٠ ان خلاصة ما تقدم هي : لقد برهنت لنا حادثة مجيء بلفور انه في الامكان دخول قضيتنا في طور النجاح لو شئنا حقيقة ان نعمل ٠ ودلتنا المجريات على امكان تأليف نهضة وطنية موحدة ٠ وضرورتها لنسمو بها الى الحرية ٠ وقد دعانا هذا صراحة الى واجب تأليف وحدة دون ميزة بين منتصر ومدحور ٠ فالشعب وحده يجب ان يكون المنتصر ٠ ولهذا نوجه نداءنا الى محبي الامة والمخلصين للنهضة الوطنية ان اقدموا على تأليف حزب الشعب الصحيح والقويم السير » ٠

د ـ من اجل اتحاد العمال والفلاحين ضد السياسة البريطانية

وبمناسبة تعيين اللورد بلومر مندوبا ساميا على فلسطين كتبت مجلة « حيفا » في عددها الثاني والعشرين تقول (٥٢) : « لقد وصل مندوب سام جديد لفلسطين وكم من جريدة تغنت بحسن مقاصده نحو سكان هذه البلاد ٠ على انه لا يخفي ان جناب اللورد بلومر وان يكن سبق له الخدمة في مستعمرات اخرى ، ولكنه لم يحل فلسطين قبل هذه المرة ٠ فهو على ذلك لا المام له بموقف هذه البلاد ولا علم عنده بمطالب اهاليها ٠ فما اتى الا ليحكم عن الحكومة الانكليزية ، ولكي يحول فلسطين الى قاعدة حربية خدمة لمصالح بلاده في الشرق الادنى ٠

قد يوجد من يؤمل ان اللورد بلومر سيهتم بمطاليب الاهالي الوطنيين على ان كل من له اقل علم بالسياسة البريطانية في المستعمرات وفيما يسمونه البلاد التي تحت الانتداب يفقد كل امل كهذا ، فما اللورد الا موظف بريطاني يعمل للسياسة البريطانية ، وعليه ستبقى مطالبة الامة العربية لاستقلالها كما كانت غير ملتفت اليها ٠ وبالتالي ليس في وسع اللورد بلومر ان يلغي « وعد بلفور »٠ قد يمكنه ان يسند بعض المراكز العالية الى بعض اكابر العرب غير ان مزايا الصهيونية ستبقى نافذة المفعول ومعمول بها كأنها جزء من السياسة البريطانية ٠ »

وخلصت الى القول : « يجب ان يدرك المندوب السامي الجديد على الفور ان اهالي فلسطين يطالبون بكامل حقهم السياسي وانهم يطلبون حكومة خاصة تكون من الشعب فتحمي طبقة العمال من الاجحاف بحقوقهم كأن لا تزيد ساعات العمل عن ثمان في اليوم ، وان يسن قانون يقيهم شر الحوادث ويقرر اجورهم تبعا للظروف والاحوال وبان تلغى ضريبة الاعشار عن طبقة الفلاحين وفوق ذلك يقدم لهم كل مساعدة تعينهم في الزراعة وتمنح لهم المساعدات المالية ٠ على انه هيهات ان تحقق هذه الاماني اللهم الا بجهاد عظيم واتحاد في الصفوف فعلي بين جميع العمال والفلاحين في فلسطين ٠ فان اللورد بلومر ما جاء فلسطين الا للمحافظة على المصالح البريطانية (٠٠٠) وهذه هي يا عمال فلسطين الطريقة الوحيدة التي بها تحصلون على نتيجة مرضية ويفتح امامكم مستقبلا زاهرا غير هذا الحاضر الكرب » ٠

هـ ـ حول موقف القيادة الوجاهية من المسألة الوطنية :

في نقد للجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الفلسطيني ، كتبت « حيفا » في عددها الثالث والعشرين (٥٣) مقالا تحت عنوان : « احقيقة انهم يعبرون عن ارادة الشعب ؟ » قالت فيه : « عندما سأل اللورد بلومر هيئة اللجنة التنفيذية عمن ينوبون وباسم من يتكلمون اجابه موسى كاظم معجبا : « بالنيابة عن الامة العربية » ٠ لا شك ان لجنة تنفيذية ينتخبها مؤتمر عربي لا بد وان تمثل هذا المؤتمر عامة وبالتالي الامة ايضا ٠ غير اننا لو طالعنا الخطب التي نشرها مندوبو اللجنة التنفيذية مخاطبين اللورد بلومر ورددتها جريدة « فلسطين » بتاريخ ١٦ اكتوبر « (تشرين الثاني)لا يسعنا الا الاقرار بان هؤلاء المندوبين قد اساؤا استعمال قوة انتدابهم والمسؤولية التي تسلموها من سكان فلسطين العرب ٠ فمتى يا ترى اعترف الوطنيون بالانتداب البريطاني على البلاد ؟ ومتى قبلوا تجزئة فلسطين وسوريا ؟ وفي اي زمن رفضوا طلب الاستقلال التام ؟ اننا لا يمكننا ان نذكر منهذا

شيئا مطلقا فانه لا توجد رغبة ما تتاجج في قلب كل عامل وفلاح فلسطيني ، ولا أمل يتوقد بين الاضلع اكثر من امل الحصول على الاستقلال التام والوحدة مع سوريا وتكوين حكومة خاصة وطنية بدون اي تدخل او مراقبة اجنبية . على ان مندوبي اللجنة التنفيذية ما ذكروا مطلقا ولا صرحوا ابدا بهذه المطاليب الاولية والجوهرية . فانهم يتحدثون متصاغرين وبكل جبن امام المندوب السامي كأنهم مثلوا امامه لا ليطالبوا بحقوق امة مهضومة بل ليسألوا هبة وعطية او يطلبوا رحمة . ان عمال وفلاحي فلسطين لا يرجون ولا يشحذون ما هو حقهم وملكا لهم وهم لذلك ينكرون على المندوبين ذلتهم وتصاغرهم .

« اي وطني كان مهما كانت شدة كراهيته للصهيونية ، ومهما بالغ في معاداتها ومعاكستها لا يمكن ان يقر تلك الكلمة المشهورة التي فاه بها احد المندوبين وهو راغب الامام الا وهي : « نحن لا نتذمر لو جاء البريطانيون انفسهم وسلبونا ما ارادوه ، فقط الا يحكمون فينا قوما اجانب » . انكم يا راغب الامام ويا ايها المندوبين لفي غلط مبين فان العامل والفلاح الفلسطيني لا يرضى بان يسلب او يغتصب من اي كائن كان ، ان بريطانيا او صهيونيا . كان الواجب على المندوبين ان لا يسمحوا بان يفاه بكلمات مثل هذه بالنيابة عن اللجنة التنفيذية ... »

و ـ ضد الهجرة اليهودية الى فلسطين

نشرت « حيفا » الخبر التالي ، تحت عنوان « حكومة السوفيت تقاطع المهاجرة الى فلسطين » (٥٤) « تذكر الاخبار .. ان الحكومة الروسية حكومة العمال والفلاحين اعطت مبلغ ٤٠٠ الف روبل ذهب لاجل مشروع توطن الاسرائيليين في القريم وهذا القسط الاول من المليون الذي وعدت بدفعه في سبيل هذا المشروع» .

ثم علقت المجلة في اسفل الخبر على النحو التالي وباسمها : « حيفا » : ان الحكومة الروسية هي الوحيدة التي اعترفت منذ الابتداء بخطر الفكرة الصهيونية لفلسطين ولعمالها وفلاحيها خصوصا وهي بذلك ولا تزال تبذل كل ما لديها من الوسائط المادية والمعنوية في احباط المساعي الصهيونية ولا عجب في ان الصهيونيين في هذه البلاد يقشعرون لذكر روسيا وحكومتها وينقمون على من ينتمي اليها ويسعى في تنفيذ خطتها هذه » .

ان هذاالتعليق يكاد يكون الوحيد في اعداد المجلة التي في ايدينا ، يتناول الهجرة اليهودية بوصفها خطرا على « فلسطين وعلى عمالها وفلاحيها » .

سابعا : تقييم عام لمجلة حيفا
(سياسة الحزب الشيوعي كما عبرت عنها مجلة حيفا ١٩٢٥/٢٤) .

قبل ان نشرع في تقييم مجلة حيفا ، خطا ونهجا ، لا بد من الاشارة الى اننا ما زلنا بحاجة الى معرفة موثوقة عن كيفية اصدار المجلة ، فنحن لا نعرف عن كتابها ومحرريها شيئا . اذ لا توجد توقيعات صريحة . يهمنا ايضا ان نعرف حجم المساهمة العربية في المجلة . فالغموض الذي ما زال يكتنف الاعضاء العرب في الحزب في فترة التأسيس لم ينجل الا قليلا . وهو يزيد في تعقيد وصولنا الى معرفة دور الكوادر العربية في تحرير المجلة . ان احد وثائق الكومنترن (٥٥) بصدد تقييم انتفاضة ١٩٢٩ وموقف الحزب الشيوعي الفلسطيني ، تشير في معرض نقدها اسلوب التعريب فيه ، الى ان الحزب قد فسر عملية التعريب كعملية « ضم الية لعدد من الرفاق العرب الى اللجنة المركزية » . متى كانت عملية الضم هذه ومن هم هؤلاء ؟ كما ان تقارير الشرطة لعام ١٩٢٤ تشير الى وجود عضو عربي واحد في الحزب والى ٨ اعضاء عرب عام ١٩٢٥ (٥٦) .

من الاسئلة التي تطرح نفسها ، هو هل كان صدور المجلة بتوجيه من الكومنترن ؟ هل هو بقرار من الحزب ؟ باتفاق منه مع صاحبها؟ اننا لا نملك معطيات دقيقة تجيب على هذه الاسئلة . لكن كل هذه الثغرات التي تنتظر الملء لا تلقي ظلالا او تشكك في ان المجلة هي مجلة الحزب ، وان نهجها وخطها يعكس رأي

الحزب الشيوعي الفلسطيني . ان النقص في المعلومات تضعف فقط الافتراض الذي نحن بصدده وهو وجود مساهمات عربية في المجلة تتجاوز حدود الترجمة . ونستقي هذا الافتراض من بعض الاختلافات في المواقف . ومن السمات البدائية للتحليل السياسي التي تتسم بها عدد من مواد المجلة : اشتراكيتها البدائية ، سماتها الانسانوية الرومانسية ، ضعف علميتها . اما طبقوية المعالجة والرؤية، نزوعها اليساري الفج والحاد فنراه سمة عامة في الحزب وخطه ورؤيته .

نجد تطابق المجلة مع خط الحزب الشيوعي الفلسطيني انذاك في النقاط التالية :

اولا : التوجه العمالي ـ النقابي الصارخ في المجلة . والنزعة الاقتصادية التي تطبع المجلة ، وتعبيرها الاساسي : تغليب التحريض والتشهير من خلال حديثها عن العمال والعمال الزراعيين والفلاحين ، والتوجه والدعوة لبناء منظمات طبقية اقتصادية ، وهذا ما ميز خط الحزب في مرحلته الاولى .

سمة التحليل السياسي ، هي التوجه الطبقي والتحريضي الطبقي الصارخ . رسم صورة نظيفة وصافية للطبقات تتفق مع ما في الحزب من نزوع ذاتي لرؤية ما لا يرى ، اي لرؤية ما يتمنى ويسقط على المجتمع من تحديدات صارمة .

هذه السمات ، كما سنبين ذات جوهر يميني ، رغم لبوسها « اليساري » ، « الطبقي » . ونجد هذا الجوهر اليميني في التوجهات الاقتصادية ـ التريديونيوية « النقابية » ، التي تتساهل في التحريض على العمل المشترك ، المختلط بين العمال العرب واليهود ، وتتصلب ازاء الطبقات الاخرى ، مثل الدعوة لعدم الاهتمام « بالسياسة » و « العقائد » في النضال الاقتصادي للعمال .

ثانيا : توافق عناية المجلة بالحريات الديمقراطية ، والتصدي للقوانين المعطلة لها ، مع ما فيه من ضرورة مبدأية ، مع تعرض الحزب الشيوعي الفلسطيني انذاك للاضطهاد السياسي والمادي من السلطات البريطانية والصهيونية على حد سواء . فمادة المجلة ازاء هذه المسألة مرتبطة مباشرة بهذا الاضطهاد . وكانت الموضوعات ذات قيمة تحريضية للجماهير من اجل لفت نظرها لما يتعرض له الحزب في موقفه من السلطات ومن الصهيونية .

ثالثا : النزعة « اليسارية » في الدعوة للتحالف الطبقي : « العمالي الفلاحي » والموسع اخيرا ليشمل « المثقفين الثوريين » او « الطبقة الراقية » . يتفق في المجلة مع خط الحزب من قبل ومن بعد (من بعد : « شعار حكومة العمال والفلاحين ») .

رابعا : التشدد ازاء البرجوازية والملاك والوجهاء والموظفين الكبار ، هو في خط الحزب، كما في خط المجلة ، وهو سيستمر الى ما بعد . ويتغذى من تأثيرات الخط العام للكومنترن مع تحويرات محلية ذات انحرافات خطيرة . هذا التشدد لا يعبر عن نفسه فقط في الاطار الوطني ، وانما ليبرز في مواقف المجلة وتحليلها للوضع في مصر وسورية والبلاد العربية الاخرى وفي العالم . ويتفق مع خط الاحزاب الشيوعية العربية الاخرى (خاصة في مصر) .

خامسا : في معالجات المجلة للمسألة الوطنية ، وفي تناولها « الطبقوي » اليساري، تعميمات غير مستساغة وغير مقبولة عن المسألة الوطنية ، كرؤية الصراع في فلسطين كصراع بين الرأسمالية العربية والرأسمالية اليهودية . والذي ليس للعمال والكادحين من العرب واليهود مصلحة به . هذه الرؤية في المجلة تعكس انحرافا خطيرا . فهي تطرح وتعمم مقولة عامة « كلاسيكية » عن موقف الطبقات العليا ، بدون ان تعكس القيمة النوعية الخطيرة للصهيونية كغزوة امبريالية، وبدون ان تؤكد على تلازم وتحالف الصهيونية مع الامبريالية البريطانية . وهو تلازم لبهت اليه وثائق الكومنترن مبكرا ، ثم اكدته في وثائق ١٩٢٩ وما بعد .

ان « حيفا » كما هو الحزب الشيوعي

الفلسطيني انذاك ، قد عالجت التناقض مع الامبريالية البريطانية كتناقض رئيسي ·وهذا صحيح ، لكن الطرح كان « صافيا » · فلم يجر الربط بين الامبريالية البريطانيـــة والصهيونية بقوة واحكام · اي ان الميزة العيانية المحددة ، لوضع فلسطين ، لم يوضع في الاعتبار في التحليل انذاك ·

مما مر نلاحظ ان المجلة تمثل خط الحزب الشيوعي الفلسطيني · فاذا تجاوزنا ما في مقالاتها من فجاجة وبدائية ، وسمات عـدد من مقالاتها الانسانوية ، الرومانسية ، او الطبقوية الحادة جدا ، نجد في ثنايا المجلـة خط الحزب ومواقفه آنذاك · فالمجلة اذ اجاز التعبير ، تعريب او صياغة غير نظيفـة لخط الحزب ، تصل احيانا الى حد التعبيـر الكاريكاتوري والساذج عن جذر الموقف الحزبي· بالاضافة الى ان تبويبها ، واهتماماتهـا وتغطياتها تعطيها هذه الصفة · كل مـا يمكن التحفظ فيه هو في مدى دقة تعريبها ، والمتانة النهاجية في التعبير عن الموقـف الحزبي · اما الشطط البدائي ، والانسانوي الرومانسي ، والطبقوية الصارخة ، فهـي مما نقبل الافتراض بوجوده في الاحـزاب الشيوعية في المنطقة في تلك الايام التأسيسية، اي في العشرينات من هذا القرن ·

في تقييمنا لمجلة حيفا ، بعد نصف قرن ، سنستند بالاساس الى الحصيلة الممكنـة من المعرفة المتاحة في فترة صدور المجلة وبعدها بقليل · اي الفترة التي بدأت مع تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني وقبوله فـي الكومنترن المرهون بتعريبه وتحويله الى حزب اقليمي ، الى حزب الكادحين في فلسطين · معرفة ذلك العصر ، تكفي رؤية هذه المجلة خطا ونهجا ومعالجة الى حد كبير · ولكن ليس كليا · سنبدأ بما كان ممكنا ان يرى في فلسطين ، كما عكست ذلك وثائق الكومنترن (١٩٢٩) والوثائق والكتابات التي تناولت تجربة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ومنها وثائقه اللاحقة (١٩٣١) ·

سمات المجلة

ابرز سمات المجلة العامة ، والاكثر انطباقا على مواد المجلة السمتان التاليتان :

اولا : ضعف العناية بتوجيه النار الـى الصهيونية كعدو للجماهير العربية ، وضالـة المساحة المخصصة للتنديد بهـا وفضحهـا وتسليط الانتباه اليها · وعدم احتـلال الصهيونية مكانتها وعدم اعطاءها ثقلهـا المحدد ، في نطاق المسألة الوطنية وفي اطـار التناقضات الرئيسية ، التي ينبغي على الجماهير حلها لصالحها ·

ثانيا ـ النزوع الطبقي ـ الاقتصادي الذي يجمع تحليل ورسم الموقف من كافة مسائـل التحرر الوطني وقضايا التحرر الاجتماعـي والديمقراطي الداخلي · هذا النزوع رغم مظهره الخارجي المتشدد طبقيا ، والذي يبدو بلبوس « يساري » يغطي على السمة الاولى ، ويحاول اخفاء وجه الانحراف فيها · ان السمتيـن وجهان لعملة واحدة · وهذا ما سوف نبينه ·

أ) الموقف من الصهيونية

بصدد السمة الاولى ، نلاحظ مثلا ان النار قد سلطت على الصهيونية في سياق معركـة داخل صفوف العمال وداخل النقابـات ، اي داخل « الجيتو اليهودي » · بينما نلاحظ ان الصهيونية غائبة في اطار الصراعات الوطنية وعند رسم برنامج لتحالف العمال والفلاحـين او حين الحديث عن الحزب · وحيثما وجدت مبررات قوية للتصدي للصهيونية (اثناء زيارة بلفور) ، فالصهيونية ، هي حركـة رجعية برجوازية ، لكنها ليست ملموسة الخطر بقوة · ولا يسلط عليها الانتباه بالقدر الذي تستحق ، فيما يبرز التناقض الرئيسـي مع الامبريالية البريطانية ·

كيف نفسر ما يبدو تناقضا ؟ كيف نفهم هجوم المجلة على الصهيونية في اماكن بقـوة وشدة ، وعدم اعطاءها وزنها العيني في اماكن اخرى ·

ان هذا كامن في اصول الحزب الشيوعـي التنظيمية وطبيعة تكوينه كحزب للاقليـة

المهاجرة من اليهود الى فلسطين · قد حملت الى الحزب الكثير من الاوهام والايديولوجيات التي تجمع بين الماركسية والصهيونية · وقد ثبت فيما بعد ، من فشل الحزب في تعريب نفسه عدة مرات ، ان هذه الاصول التنظيمية والايديولوجية التي كانت في « مناخ »التجمعات اليهودية تفسح وتوطن امكانات الانحراف ·
ما يلاحظ في توجه الحزب الشيوعي في فترته التأسيسية ، هو انه اخفق رغم شعاره الرئيسي « لنغادر الغيتو ـ الجحيم الصهيوني » في تعيين الاتجاه · فاصبح ما يشبه بنداء نحو تحرير الغيتو اليهودي من الصهيونية · او بتعبير اخر ، بات الصراع مع الصهيونية داخل الغيتو اليهودي نفسه · وهو ما يفسر ان معاركه الاساسية مع الصهيونية ، كان في مواقع العمال اليهود وداخل المؤسسات والمجالس والنقابات اليهودية · ان السر في توجيهه النار في هذه الميادين ، وليس في ميادين اخرى ، هو ذلك الرهان المضمر لدى قيادات الحزب على وجود « قدرة ثورية لدى المهاجرين اليهود»(٥٧) وبالعكس ، تقليل قيادات الحزب من الامكانات الثورية لدى الجماهير العربية · ووصولهم الى قناعات متشائمة حول امكانية فصل الجماهير عن تأثير القيادات التقليدية ونفوذها ·

هذا التصور لوجود قدرةثورية لدى المهاجرين اليهود ، وتصور ضعف التماسك و « الانضباط الطبقي والسياسي » (٥٨) لدى الجماهير العربية ـ الفلاحية اساسا · خلق لدى قيادات الحزب اوهاما وانحرافات مميتة · عبر عن نفسه في التعويل على العمال اليهود للعب دور « بلشفي » على غرار الثورة الروسية · وكان على مثل هذا الوهم ، ان يتصور ذاتيا « طبيعة بروليتارية لثورة في الاوضاع الراهنة لفلسطين » (٥٩) ·

لذلك فان المادة المطولة المتعلقة بقضايا النضال العمالي (الدعوة لتشريعات عمالية ، الدعوة لانشاء النقابات ، صياغة مطالب متطورة للعمال) ثم المواد المطولة المتعلقة بالنضال العربي ـ اليهودي في النقابات المختلطة ، والاهمية المفرطة التي اعطيت لهذه المسألة، يفسرها فهم الحزب الشيوعي لطبيعة الثورة « البروليتارية » من جهة ، والرهان على قدرة ثورية للمهاجرين اليهود · ان مجلة حيفا في هذا المجال تعوض نقصا كبيرا في الوثائق المتعلقة بمرحلة التأسيس اي ١٩٢٥/٢٤ ، فهي تظهر كيف ابدى الحزب عناية فائقة بالنضالات الطبقية ـ الاقتصادية، وبالنضال داخل النقابات ، وغالبها كانت تحت السيطرة الصهيونية · وكيف فهم الحزب مسألة التعريب · هذه المادة تظهر لنا ان الحزب اراد ذاتيا انضاج ظروف مناسبة لتحويل اسقاطاته الى واقع ، فالمواد التشهيرية والتحريضية بوضع العمال والشغيلة ، وحديثه عن غياب القوانين الحديثة ، ومطالبه الموجه لتثقيف العمال بها ، تعكس سعيه الذاتي لتأهيل العمال لدور متصور ـ مسقط · (رغم انها من ناحية اخرى تعتبر كمادة تحريضية ذات نوعية متقدمة وهو ما سنثمنه فيما بعد) ·

كما ان الحاحه على ضرورة بقاء العمال العرب في النقابة ذات القيادة والسيطرة الصهيونية ، ضرب من ضروب الذاتية · فمن الواضح ان العمال العرب لم يكونوا يروا ما يراه كتاب المجلة من امكانية وقدرة ثورية لدى العمال اليهود ، ولذلك انصرفوا لتأسيس نقابات مستقلة ·

ان هذا التوجه وهذه الرؤية لدى الحزب كانت تعبيرا عن الانحراف الكامن في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني · الماركسية ـ اللينينية كانت تقول غير ما كان الحزب يقول · فالكومنترن كان يرى في مقولة « الطبيعة البروليتارية للثورة في فلسطين » امرا يتنافى كليا والواقع التاريخي · كما وجد ان هذه المقولة ، تعني بالدرجة الاولى في ظروف فلسطين المخصوصة ، قيام دكتاتورية تمارسها حفنة من العمال اليهود على اوسع الجماهير العربية (٦٠) ·

اتجه وعي الكومنترن عند قبوله عضوية الحزب الشيوعي ، بان مهمته الاساسية هي ان «يدعم حركة التحرر الوطنية للسكان العرب

ضد الاحتلال البريطاني ـ الصهيوني » (٦١)، وان دور الرفاق اليهود المخصوص في الحزب تجاه الجماهير العربية هو كونهم « قوى مساعدة للحركة العربية وليس بوصفهم قيادة لها » .

اكثر من ذلك ، كان التقدير الماركسي ـ اللينيني للتجمع اليهودي المهاجر الى فلسطين، معاكس لما هو في الحزب . لم يكن لدى الكومنترن اوهام حول الطبيعة الرجعية للمهاجرين اليهود ، هكذا رددت اطروحات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بتأثير ، وتحت نار النقد القاسية التي مارسها الكومنترن لقيادة الحزب السابقة ان « الهجرة اليهودية هي بالدرجة الاولى هجرة كوادر ، دربت تدريبا خاصا بوسائل تقدمها البرجوازية اليهودية (...) واعدت خصيصا للاستيلاء على البلاد وانشاء « دولة يهودية » . ويشتق تقرير الحزب من معلومات الهستادروت فيقول « ان اكثر من تسعين بالمئة من المهاجرين الذين انضموا اليها في الخارج هم اعضاء في احزاب صهيونية شتى (...) ولا تزيد نسبة العمال بين المهاجرين اليهود على خمسة بالمئة. والغالبية تتألف من عناصر برجوازيةوبرجوازية صغيرة ، بينها عناصر معادية للثورة نفيت من الاتحاد السوفياتي .. « كما لاحظ الحزب ان قسما صغيرا جدا من هذه الهجرة (تم) بصورة عفوية تلقائية » . (٦٢)

كتابات اخرى بصدد فلسطين في تلك الحقبة . لاحظت ان « المهاجرين اليهود ، الذين تشجعهم الامبريالية الانكليزية ، يحملون في الاساس طابعا رجعيا « وان الامبريالية والبرجوازية الصهيونية يقومون بعناية باختيار سياسي واجتماعي بين المهاجرين » وان هؤلاء الاخيرين « يربون بروح شوفينية ـ فاشية » . (٦٣)

ان هذا التقييم ، وهذا التقدير لدى الاممية الشيوعية ، ولدى الحزب نفسه فيما بعد ، ولدى كتابات اخرى ، تكشف ان رهان الحزب على القدرة الثورية للعمال اليهود بصورة رئيسية ، لا ينطبق على الواقع العياني ومع طبيعة التجمع اليهودي في فلسطين .

من نافل الذكر ، ان هذا التقييم لم يعن ولا ينبغي ان يعني اهمال العمل في صفوف العمال والمهاجرين اليهود ، ولم يعن اهمال او التقليل من اهمية العمل المشترك في النقابات المختلفة . فهذه مهمات ثابتة كان على الحزب ان يقوم بها ، في اطار تصور دقيق لمهماته ، الاساسية والثانوية ، القائم على التحليل العيني الموضوعي وهو ما لم يقم الحزب به .

الميدان الاوسع للانحراف الذي وقعت فيه قيادة الحزب ، هو عند تناولها للمسألة الوطنية وعند حديثها عن المسألة الزراعية وتحالف العمال والفلاحين . في هذه الميادين كانت الصهيونية غائبة او انها ليست في واجهة التناقضات في دعاية الحزب في مجلة « حيفا ».

عند تحليل الوضع العام الداخلي ، كانت « حيفا » تطرح التناقض مع بريطانيا بصورة نظيفة ، بدون مشروع صهيوني ، او تطرح الصهيونية كطرف رجعي في نفس المكانة مع القيادات التقليدية . وكان التصدي لها في تحليلات المجلة في سياق اجمالي عام وفي سياق نقد السياسة الاستعمارية والقيادات التقليدية بالجملة .

اما في مجال تناول المسألة الزراعية ، فالطابع الاقتصادي يغلب على المعالجة . والانحراف واضح ، لا فقط في ميدان نقد الادارة والضرائب القائمة ، وطرح المشكلة الزراعية كمشكلة تقنية ، ومشكلة اساليب ونمط زراعي واعطائها اولوية في التأثير على مصير الفلاحين . وانما ايضا في غياب طرح مسألة نزع ملكية الاراضي من الفلاحين على ايدي الصهيونية . المشكلة الزراعية في فلسطين ، كما تعبر عنها « حيفا » ، هي المشكلة الزراعية ذاتها في سورية او لبنان مثلا . فلا خطر صهيوني ، ولا استيطان ، ولا نزع ملكية، ولا طرد للفلاحين . اذا استثنينا التعليق المتعلق بالعفولة ، فانه لا اشارة الى الصهيونية ومشاريعها وخطرها على الفلاح العربي . ان التعليق على احداث العفولة ، وهو استثناء في مادة المجلة (٦٤) ، وهو تعليق بالمناسبة ، تعليق اقتضاه الحدث . وهو مع ذلك يعالج

النزاع من زاوية ترى في الفلاحين العرب والعمال اليهود ضحية صفقات الملاكين الكبار والرأسمالية اليهودية وان لا مصلحة للفلاحين العرب والعمال الزراعيين اليهود بالنزاع ، وان مصلحتهم هي بالاتفاق معا ضد اعدائهم الطبقيين ٠

ما يهمنا الاشارة اليه هنا ، هو ان المجلة ، كانت حذرة جدا في ايراد مطالب ومهمات تتعلق بالنضال ضد الصهيونية في متن المقالات المتعلقة بالوضع الوطني او بالدعوة لتحالف العمال والفلاحين وفي صياغتها لمقترحات البرنامج الحزبي لهذا التحالف ٠ وتقريبا لم يرد في المقالات هذه اية اشارة للنضال ضد الصهيونية ٠

ان تفسير هذا الغياب معقد جدا ٠ فهو قد يفسر بان الحزب المشبع بالاوهام حول القدرة الثورية للمهاجرين اليهود ، قد رأى مهمة نقد « الايديولوجية البرجوازية اليهودية» والمؤسسات الصهيونية ، مهمة داخلية بحتة للتجمع السكاني اليهودي ٠ وقد وجدت في ذات الفترة داخل الحزب افكار من نوع النضال ضد الصهيونية « عن طريق العمل التربوي في صفوف الشغيلة اليهود » ٠ وحيث اعتقد ان على الحزب (الشيوعي) ان ينظم مكافحة الصهيونية حيثما وجدت جماهير يهودية متراصة » (٦٥) ٠

ان اعتقادات واوهام داخل الحزب مثل هذه المار ذكرها ، واساليب العمل المتعلقة بالوضع داخل « الجيتو اليهودي » ، تدفع الى السطح اقتراحات وافكار تجد في النضال ضد الصهيونية مهمة « داخلية » للتجمع اليهودي٠ وواقع الامر انه ليس في الامر اي خديعة ، فمثل هذا النضال ضد الصهيونية قد مورس بقوة ، ثم ووجه الحزب الشيوعي بالطرد والملاحقة في نيسان (ابريل) ١٩٢٤ من الهستيدروت ومن غيره ٠ فالامر يتعلق بانحراف ايديولوجي ، له اصوله الابعد ٠

لهذه الاوهام داخل الحزب وجهها الاخر : انه ما يرونه لدى الجماهير العربية من نقيصة في الامكانات الثورية ، وما يرونه من خضوع لتأثير ونفوذ البرجوازية والملاك ورجال الدين ، بالاضافة الى عيوب بنيوية اخرى تجد اشارات اليها فيمقالات حيفا (الفلاحين وسمات وضعهم) قاد هذا الفهم للجماهير العربية الى التخوف من اية دعاية مضادة ضد الصهيونية ، يمكن ان تفسر بانها دعاية وتحريض ضد اليهود ٠ ولم يكن هذا التخوف غير مشروع تماما ، فالقيادات السياسية والاحزاب العربية انذاك وجهت تناقضها مباشرة مع الصهيونية ٠ ولم يكن صعبا ان يؤول هذا التناقض الى تناقض مع اليهود ٠ كما ان ذات القيادات ، كانت ما زالت تحاول مد جسور التفاهم مع السلطات البريطانية ، وتأمل في تسوية واتفاق معها ٠

لكن الحزب الشيوعي ذهب بعيدا في استصغار الامكانات الثورية لدى الجماهير الفلسطينية وفي التهويل في خضوعها للقيادات البرجوازية والملاك ورجال الدين ٠ وكان هذا غير صحيح ، وفي هذه الفترة بالذات وفي فترات اخرى لاحقة ٠

وجد داخل الحزب الشيوعي انذاك من يرى في الجماهير العربية « جمهور فاشي قوامه فلاحون محمديون ، وبدو بقيادة رجال دين جهلة ، وزعماء اقطاعيين وعناصر برجوازية » (٦٦) ولم يستنتج الحزب مما رآه في الحركة الوطنية اية نتائج سليمة ٠ اذ قال ان الحركة الوطنية العربية تعكس « مسعى البرجوازيات الصغيرة في هذه البلاد ، تدعمها جموع الفلاحين ، كي تضمن لنفسها الظروف الملائمة التي تمكنها من التطور بحرية » ٠ من شأن هذا الرأي ان يقود الى رؤية سمات المرحلة بوصفها مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية في بلد خاضع للاستعمار ، وان يعمل على تطوير النضال نحو مضمون اكثر تحررا وتقدما٠ لكن الحزب استنتج انه ليس بين هذه « الحركات السياسية والاجتماعية الجارية في الشرق الادنى وبين الشيوعية شيء مشترك » ولذلك فان على الشيوعية ان تأخذ جانب الحذر في مواقفها ، فتدعم هذه الحركات طالما هي معادية للامبريالية ، ثم : « ولكن عليها ان لا تنسى طبيعتها البرجوازية وميولها الرأسمالية » (٦٧) ٠

في واقع الامر ان الحذر ، اخذ مداه • لذلك امتنعت « حيفا » عن تحذير الفلاحين من الصهيونية ، خوفا من تأويل ذلك الى عداء لليهود •واعتبرت الصراع داخل التجمع اليهودي مهمة داخلية • وكان همها اكثر من ذلك ، توجيه انتباه الفلاحين الى تناقضهم مع الزعامات التقليدية والوجيهة والبرجوازية في دعايته العربية • وفهم الحزب عملية كسب ثقة الجماهير العربية من زاويتها الحياتية المباشرة ، كمطالب اقتصادية – اجتماعية ، وكمطالب سياسية عامةضد الاحتلال البريطاني والانتداب ، والمطالبة بالاستقلال •

من شأن هذا التحليل وهذا الفهم داخل الحزب ان يقود الى تشخيصات من نوع اعتبار انتفاضة ١٩٢٩ ، « كمذبحة ضد اليهود » ، وان ينعزل عن الاحداث • بل وان يأخذ – وهو ما زال حزبا يهوديا – جانب الدفاع عن التجمعات اليهودية • وكانت الانتفاضة مناسبة لاختبار جدارة الحزب باسمه ، وجديته في تعريب نفسه • واقع الامر ان الامتحان كان عسيرا ، وتعرض الحزب لعملية تطهير من العناصر اليمينية الانتهازية المسؤولة عن عن انحراف الحزب • واتجهت سياسة التعريب وجهة اكثر جدية فيما بعد •

٢) الطبقوية والنزعة الاقتصادية

سمة التشدد الطبقي – والنزعة الاقتصادية، هي السمة الرئيسية الثانية لمجلة حيفا • وهي دون شك سمة الحزب في نشأته ، وحتى بعد تطهيره من العناصر اليمينية الانتهازية (بل ان الحزب اتجه نحو التشدد اليساري اكثر بعد عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٣٤) •

هذه السمة ، التشدد الطبقي ، والنزعة الاقتصادية في التحليل ، هي وجه العملة الاخر، ولا يمكن فصلها عن الانحراف اليميني الذي خضع الحزب له •

ان اصول هذه السمة ، مستمدة من بنية الحزب – ذات التركيب الاثني المنفرد • وعبرت عن نفسها في نزعة ارادية ذاتية ، غير موضوعية فيالتحليل للواقع الفلسطيني ومهمات النضال فيه • اذا رجعنا الى اصول الحزب ، نجد ان بقايا ايديولوجية « الصهيونية البروليتارية » ما زالت كامنة في الحزب الشيوعي • ان الايديولوجية المذكورة هي وجه صارخ لخليط انتقائي يحمل الكثير من النزعة الذاتية • واذا كانت هذه قد اخفقت واصطدمت بالواقع بسرعة ، وندد بها من الكومنترن بقوة، فان بقاياها ظلت في الحزب متسربلة بلباس جديد : « الطبيعة البروليتارية للثورة في فلسطين » •

في مجلة حيفا نماذج وتعابير عن النزعة الذاتية ، نفاذ صبر ونشاط محموم داخل التجمع اليهودي وفي النقابات المختلطة ضد الصهيونية ، وعمل مشترك (عربي – يهودي) من اجل قلب موازين القوى داخل المؤسسات النقابية رهانا على قدرة ثورية ضد المهاجرين اليهود •

وفي المقابل : دعوة لاستقلال الفلاحين عن القيادات والطبقات العليا • ولتحالف عمالي – فلاحي يقود النضال الوطني • مهمات واقتراحات وبرامج وتثقيف يهدف الى انضاج عملية التبلور الطبقي ذاتيا وبالتحريض والتشهير • اكثر من ذلك التعامل – في تحليل المجلة – مع الواقع بصيغ ترىفي المجتمع طبقات مبلورة ، ومن ثم بناء نتائج سياسية على هذه الصيغ تجريديا ، وبشكل يتفق مع الرغبة الذاتية والتخطيط الايديولوجي للثورة ، بمضمونها البروليتاري – الفلاحي •

هكذا نجد في « حيفا » مقالات تطالب بقوانين منظمة لحقوق العمل ولظروف الحياة الاجتماعية للعمال • وبحق العمال في انشاء النقابات والاحزاب • وتطالب بحريات الاجتماع والتنظيم السياسي • كما نجد موادا تدعو الى تنظيم المزارعين في اتحاد زراعي ، وتضع له اهدافا ومبادىء • ان السمة العامة للتوجه هي سمة اقتصادية – معيشية ، وسمة تهدف الى انضاج التبلور الطبقي من خلال النضال من اجل اصلاحات وقوانين تقدمية • ان السياسة ، من حيث هي القضية الوطنية ، وقضايا الصراع ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية غائبة ، او هي عامة جدا • فيما السياسة ، من حيث

جيّ صراع اجتماعي ، حاضرة بقوة في مواد المجلة • فحتى المقالات السياسية التي تتناول الوضع السياسي العام ، غالبا ما كانت مكتظة بالمطالب الاقتصادية المباشرة للعمال والفلاحين فيما الجوانب السياسية المباشرة ، المتعلقة بالاستعمار البريطاني والصهيونية ، لا تعدو ان تكون عناوين وفقرات قليلة عامة •

فالتشديد على الطبقات ، والتشدد ازاء البرجوازية والملاك الكبار والطبقات العليا ، في مجلة حيفا ، ليس انعكاسا لواقع الصراع الاجتماعي والسياسي في البلاد ، لا ينسجم مع مستوى الوعي السائد ، بل هو تعبير عن النزعة الارادية ـ الذاتية لدى الحزب • هذه النزعة تظهر بمظهر واضح عندما تعكس تطابق وتوافق مصالح العمال العرب واليهود في النقابات المختلطة ، فهي تشدد على الوضع الاقتصادي الذي يجمعهم ، وتهمل «السياسة» و « العقائد » ، وترى بعض المقالات في الميول الصهيونية لدى التجمع الصهيولي « سذاجة » او « حمق » ، او كنتيجة ، كخديعة • ان تشددها اي مجلة حيفا ـ ازاء الطبقات الاخرى يقابله « تساهل ايديولوجي وسياسي » عندما يتعلق الامر بالعمال من عرب ويهود • النزعة الذاتية في خدمة الوحدة الطبقية • لذلك ، تدعو « حيفا » لنبذ القومية وتحرض على وحدة المصالح المفترضة ، طبقيا • بالاضافة الى عدد من ضروب خداع النفس والحقيقة •

٣) ملاحظات ختامية

الى جانب هذه ، من سمات المجلة ايضا الرومانسية والاشتراكية البدائية ، وقد اغفلنا عددا من المقالات التي لا تتسم سوى بهذه السمة • ويمكن ان نشبه هذه المقالات بتلك التي كانت تصدر في مجلة « الانسانية » في نفس الفترة في لبنان • فهي مزيج من تقديس العامل وحبه ووصف مناقبه ودوره في انهاض المجتمعات واعمارها ، وقدح وذم في حق مصاصي دماء العامل ، البرجوازية المستغلة • ومثل هذه الكتابات حفلت بها المجلات اليسارية انذاك ، وقد نقلت تأثيرات الاشتراكيات المختلفة ، الى المنطقة • وكانت بدايات تبلور الوعي الاشتراكي في مصر وفلسطين وسورية ولبنان تتشابه من حيث سماتها الخليط من : الانسانوية ، التطورية ، الطوباوية ، والاشتراكية العلمية •

من الصعب الان ، تقييم الدور الذي لعبته حيفا ، قبل خمسين عاما في فلسطين فقد عكست الى حد كبير سياسة الحزب ، وان في تعريب وصياغة فجة • فدورها لا يمكن عزله عن دور الحزب الشيوعي • وقد خضعت لذات الاخطاء ، كما ان قيمتها ، جزء من قيمة الحزب التأسيسية • من الممكن ان يساق في هذا الصدد ، ان المجلة كان لها فضل تعريف عمال وفلاحي فلسطين على الماركسية والاشتراكية وعلى انتصارات الثورة الاشتراكية في العالم ، وعلى الدور الذي لعبه العمال والنضالات التي شنوها في العالم انذاك ، في شقيه المستعمر والمستعمر • وقد نقلت حيفا الى عمال فلسطين ملامح اولية من دروس النضال الطبقي ، وتركت لهم اشارات الى مهامهم وكيفية صياغة مطالبهم • وكذلك الحال بالنسبة للفلاحين والعمال الزراعيين • ان قيمة هذه المساهمات وقيمة الدور الذي لعبته « حيفا » ، لا يقارن بما كان يمكن ان تلعبه المجلة ، لو ان الحزب لم يعان من الاخطاء والاوهام والانحرافات التي عاناها •

الهوامش

(١) احمد خليل العقاد : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين ، الطبعة الثانية ، عمان ، ١٩٦٧ ، ص ١٧٧

(٢) المصدر نفسه

(٣) من رسالة خاصة من السيد موسى البديري ، الذي يعد اطروحة الدكتوراه حول الحزب الشيوعي في فلسطين ، وقد اطلع على تقارير للبوليس البريطاني تفيد بان ايليا زكا قد عرض على المخابرات البريطانية تعاونه معهم فيما بعد •

(٤) حيفا ، العدد الاول ، الصـــادر في ٢١ تشرين الاول ١٩٢٤ ٠

(٥) العدد ١٧ ، الصادر في ١٤ ايار ١٩٢٥

(٦) عمار الطالبي : شؤون فلسطينيــة ، العدد ١٥ (تشرين الثانـــي ١٩٧٢) « الطبقة العاملة الفلسطينية واليهودية وتنظيماتها » (١٩١٨ - ١٩٣٩) ص ١٧٤

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٧٤

(٨) فواز طرابلسي : « الاممية الشيوعيــة وقضيــة فلسطين » ، في المقاومــة الفلسطينية : الواقع والتوقعات ، كتـاب خاص صادر عن مجلة دراسات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، تموز (يوليو) ١٩٧١ ، ص ٦٨ و ٦٩

(٩) المصدر السابق ، ص ٦٧

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٦٨

(١١) المصدر نفسه ، ص ٦٩

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٧٠

(١٣) عمار الطالبي ، المصدر السابق ، ص ١٧٥

(١٤) LAQUEUR W. Z. Communism and Nationalism in the Middle East. LONDON, 1961, p. 76.

(١٥) Ibid p. 77

(١٦) Ibid p. 77

(١٧) Ibid p. 77

(١٨) فواز طرابلسي ، المصدر السابق ، ض ٧٠

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٧١

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٧١

(٢١) عمار الطالبي ، المصدر السابق ، ص ١٧٥

(٢٢) LAQUEUR, Ibid p. 77-78

(٢٣) حيفا العدد الثاني ، ٨ تشرين الثاني ، ١٩٢٤ ، ص ٥

(٢٤) حيفا العدد الخامس ، ١٥ كانــون الاول ١٩٢٤ ، ص ٣٦

(٢٥) حيفا العدد الخامس عشر ، ٣٠ نيســان ١٩٢٥ ، ص ١١٦

(٢٦) حيفا العدد الرابع ، ١ كانون الاول ١٩٢٤، ص ٢٥ - ٢٦

(٢٧) حيفا العدد السادس ، ١ كانون الثانـي ١٩٢٥ ، ص ٤٤

(٢٨) حيفا العدد السابع ، ١٥ كانون الثاني ، ص ٥١

(٢٩) حيفا العدد الرابع ، ١ كانون الاول ١٩٢٤، ص ٢٦ - ٢٧

(٣٠) حيفا العدد الرابع ، ص ٢٨ - ٢٩

(٣١) حيفا العدد السادس ، ص ٤٣ - ٤٤

(٣٢) حيفا العدد الخامس عشر ، ص ١١٧ـــ ١١٨

(٣٣) حيفا العدد السابع عشر ، ١٤ ايار ١٩٢٥ ، ص ١٣٥ - ١٣٧

(٣٤) حيفا العدد الثامن ، ١ شباط ١٩٢٥ ، ص ٥٧ ، ٥٨

(٣٥) حيفا العدد السابع عشر ، ص ١٣٧ - ١٣٨

(٣٦) حيفا العدد الثامن عشر ، ٢١ ايار ١٩٢٥، ص ١٤٢ - ١٤٣

(٣٧) حيفا العدد الثاني والعشرين ، ٧ تشرين ثاني ١٩٢٥ ، ص ١٧٦ - ١٧٨

(٣٨) حيفا العدد الخامس ، ص ٣٤ - ٣٥

(٣٩) وقف الحزب الشيوعي بامانة الى جانـب الفلاحين العرب في حادثة العفولة ٠ وقد مارس اعضاء الحـزب دورا في تحريض الفلاحين ضد الاستعمار الصهيوني علـى « انقاض القرية الفلاحية » الفلسطينية، وقد اتهمت السلطات البريطانيــة الشيوعيين بالتسبب في الصدام والتحريض عليه ٠ راجع LAQUEUR, Ibid. p. 78

(٤٠) حيفا ، العدد الخامس ، ص ٣٤

(٤١) حيفا ، العدد الخامس عشر ، ص ١١٦ ، ١١٧

(٤٢) كان قانون منع الجرائم موضع سخــط الجماهير العربية في فلسطين وكان موضع بيانات تنديد اصدرتها القيادات الوطنية انذاك ٠ انظر د٠ كامل محمود خلــة ، « فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ » مركز الابحاث (بيروت ، ١٩٧٤) الملحق رقم ٣٩ بيان اللجنة التنفيذية في ١٩٣٠/١/١٧ حول قانون منع الجرائـــم وسياسة الحكومة في فلسطين ، ص ٥٤٨

(٤٣) حيفا ، العدد الثامن عشر ، ص ١٤٢
(٤٤) نفس المصدر ونفس العدد ، ص ١٤٣
(٤٥) نفس المصدر ونفس العدد ، ص ١٤٣ — ١٤٤
(٤٦) حيفا ، العدد السابع ، ص ٤٩ ، ٥٠
(٤٧) حيفا ، العدد الثالث عشـــر ، ١٣ اذار ١٩٢٥ ، ص ٩٧ — ٩٨
(٤٨) حيفا ، العدد الثامن عشر ، ص ١٤١ — ١٤٢
(٤٩) حيفا ، العدد الثامن ، ص ٥٨ — ٥٩
(٥٠) حيفا ، العدد الرابع عشـــر ، ٢٠ اذار ١٩٢٥ ، ص ١٠٥ — ١٠٦
(٥١) حيفا ، العدد الخامس عشر ، ص ١١٣ — ١١٥
(٥٢) حيفا ، العدد الثاني والعشريـــن ، ص ١٧٣ — ١٧٤
(٥٣) حيفا ، العدد الثالث والعشريـــن ، ٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٥ ، ص ١٨٢ — ١٨٣
(٥٤) حيفا ، العدد الثامن عشر ، ص ١٤٧
(٥٥) فواز طرابلسي ، مصدر سابق ، ص ٧٤
(٥٦) موسى خليل، الحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩١٩ — ١٩٤٨ شؤون فلسطينية العـــدد ٣٩ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ، ص ١١٥
(٥٧) لوتسكي ·ف: « الامبريالية الانكليزيـــة وثورة تشرين الاول في فلسطين ، فـــي المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، مصدر سابق ، ص ١٥
(٥٨) فواز طرابلسي : المصدر السابق ، ص ٧٧
(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٧٣
(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٧٣
(٦١) المصدر نفسه ، ص ٧١
(٦٢) الاممية الشيوعية والثورة العربيـــــة (الكفاح ضد الامبريالية) الوحـــدة ، فلسطين ، وثائق (١٩٣١) دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ·
(٦٣) لوتسكي ف: المصدر نفسه ، ص ١٥ — ١٦
(٦٤) لا بد ان نلاحظ ان العمل الرئيســـي للشيوعيين في حادث العفولة ، كان بـــين العمال اليهود ، حيث دعوهم الى عـــدم المساهمة في طرد العرب من الارض راجع موسى خليل ، المصدر السابق ، ص ١١٦
(٦٥) المصدر السابق ، ص ١١٤
(٦٦) المصدر السابق ، ص ١١٧
(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١١٦

دليـــل الباحثين

اعداد المقدم الهيثم الايوبي

اعد المقدم الهيثم الايوبي ، دليلا للباحثين حول افكار منظمات الثورة الفلسطينية ، ونشرت « شؤون فلسطينية » الحلقة الاولى من «دليل الباحثين» حول افكار حركة فتح السياسية والعسكرية ، في ١٩٧٤/١/١ عدد رقم ٢٩ ، ثم نشرت « دليل الباحثين » حول الافكار السياسية والعسكرية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في ١٩٧٥/٤/١ عدد رقم ٤٤ . وهي تقدم في هذا العدد الافكار السياسية والعسكرية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) .

أفكار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة (من تشرين الاول ١٩٦٧ حتى كانون الاول ١٩٧٢)

في مطلع الستينات تشكلت جبهة التحرير الفلسطينية في سورية . وكانت تضم مناضلين غير حزبيين ، هدفهم القيام بعمليات عسكرية ضد العدو الاسرائيلي لازعاجه واستنزافه ماديا ومعنويا . وبدأت هذه المنظمة عملياتها في الاراضي المحتلة . وكانت غالبية هذه العمليات تدخل ضمن اطار الاستطلاع وحرب الالغام والمتفجرات . وعندما ظهرت حركة « فتح » كقوة على الساحة الفلسطينية جرت محاولة لتوحيد المنظمتين ، ولكن هذه المحاولات لم تحقق الغرض المنشود منها .

وفي اواخر العام ١٩٦٧ وعلى اثر هزيمة حزيران تشكلت « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي اصدرت بيانها التأسيسي في كانون الاول (ديسمبر) . وكانت هذه الجبهة تضم « جبهة التحرير الفلسطينية » ، و « منظمة ابطال العودة » ، و « منظمة شباب الثأر » ، ومجموعات من المناضلين المستقلين .

ولقد عملت هذه المنظمات مجتمعة تحت قيادة واحدة حتى تشرين الاول ١٩٦٨ ، حيث وقع خلاف داخل الجبهة انفصلت « جبهة التحرير الفلسطينية » والمناضلون المستقلون على اثره عن منظمة « شباب الثأر » و «منظمة ابطال العودة » . وادعى كل طرف من الطرفين احقيتهباسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ولذا حافظت منظمتا « شباب الثأر » و «ابطال العودة » على اسم « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » ، على حين ان « جبهة التحرير الفلسطينية » بقيادة احمد جبريل ، ومجموعة المناضلين المستقلين بقيادة احمد زعرور ، اخذتا اسم « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) » . ولم تعتبر ج.ش.ت.ف. (القيادة العامة) ان عملها انشقاق ، بل اعتبرت انها فصلت « ابطال العودة » و « شباب الثار » من الجبهة . وانها هي الجبهة . وقد بينت سبب هذا الامر في بيان سياسي اصدرته في تشرين الاول ١٩٦٨ .

وتذكر ج.ش.ت.ف. (القيادة العامة) في بيانها المذكور انها اتفقت مع الاطراف الاخرى على عدة اسس اهمها : ١ – استقلالية الجبهة وشخصيتها الذاتية ، ٢ – تصعيد العمل

الفدائي ، ٣ ـ اعتبار الجبهة الشعبية قاعدة للقاء التنظيمات الاخرى ، ٤ ـ الحقيقة كل الحقيقة للجماهير .

ويقول البيان ان « حركة القوميين العرب » حاولت فرض سيطرتها على الجبهة من خلال « شباب الثأر » ، وانها استقطبت عداء بعض الدول العربية ، واستغلت العمل الفلسطيني المسلح لاغراض حزبية ، ولهذا تم طرد «شباب الثأر » من الجبهة ـ كما يقول البيان ـ الذي هاجم في خاتمته الاحزاب المنغلقة ، واكد تأييد (القيادة العامة) للتحالف الوطني .

ولقد تعرضت ج.ش.ت.ف. (القيادة العامة) بعد ذلك الى انشقاق في اوائل شهر آب (اغسطس) ١٩٦٩ ، اذ انفصلت عنها مجموعة المناضلين المستقلين وشكلت « منظمة فلسطين العربية » .

★ ★ ★

لقد تم اعداد الدليل الحالي استنادا الى الادبيات التالية :

١ ـ مجلة الجبهة من العدد (١) كانون الثاني يناير ١٩٦٩ ، حتى العدد (١٠) السنة الثانية ١٩٧٠ ،اي قبل حصول الانشقاق.
٢ ـ مجلة الى الامام: مجلدات ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ .
٣ ـ الميثاق (كانون الثاني ١٩٦٩)
٤ ـ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩) .
٥ ـ بيان سياسي حول المجلس الوطني الفلسطيني (شباط ١٩٦٩) .
٦ ـ مذكرة الجبهة الى المجلس الوطني السادس (ايلول ١٩٦٩) .
٧ ـ بيان سياسي حول مساهمة الجبهة في قيادة الكفاح المسلح (تشرين الاول ١٩٦٩) .
٨ ـ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ) .
٩ ـ دراسة في : ١ ـ غياب الرفض العلمي ٢ ـ ملاحظات حول الوحدة الوطنية (بدون تاريخ ، يعتقد ١٩٧٠) .
١٠ ـ مذكرة الى المجلس الوطني الفلسطيني في دورته السابعة (١٩٧٠/٥/٣٠) ، منشورة في مجلة الى الامام ، عدد (٣٠٢) تاريخ ٥ حزيران ١٩٧٠ . ولقد اخذت المعلومات من هناك .
١١ ـ مذكرة الى المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاستثنائية ، عمان (آب ١٩٧٠) ، منشورة في مجلة الى الامام ، عدد (٣١٥) تاريخ ٤ ايلول ١٩٧٠ . ولقد اخذت المعلومات من هناك .
١٢ ـ كراس سياسي حول الاوضاع الراهنة (شباط ١٩٧١) ، منشور في مجلة الى الامام عدد (٣٣٥) تاريخ ٥ شباط ١٩٧١ . ولقد اخذت المعلومات من هناك .
١٣ ـ كراس المجلس الوطني الفلسطيني التاسع (تموز ١٩٧١) ، منشور في مجلة الى الامام عدد (٣٥٧) تاريخ ٩ تموز ١٩٧١ .. ولقد اخذت المعلومات من هناك .
١٤ ـ مذكرة مقدمة للمؤتمر العام لطلبة الاردن المنعقد في لبنان (تشرين الاول ١٩٧١) ، منشورة في مجلة الى الامام ، عدد (٣٧٠) تاريخ ٧ تشرين الاول ١٩٧١ ، ولقد اخذت المعلومات من هناك .
١٥ ـ مذكرة الى المجلس الوطني في دورته الاستثنائية (نيسان ١٩٧٢) .
١٦ ـ مذكرة للمجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاستثنائية (١٩٧٢/٤/٦) .
١٧ ـ كتاب العرقوب بين الغارتين (١٩٧٢) .
١٨ ـ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢) .

أ ـ الافكار السياسية

١ ـ تحديد العدو

ص ٤ الميثاق (١٩٦٩)
ص ١١ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٢٨ ـ ٢٩ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)

٢ ـ الامبريالية

ص ١ ـ د الميثاق (١٩٦٩)
ص ٦ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)

ص ٨ ـ ٩ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)

٣ ـ الصهيونية

ص ١٣ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ١٠ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٣ ، ٢٠/٨/١٩٧١ .

٤ ـ الثورة مادتها وقواها

ص ٢٦ ـ ٢٧ مجلة الجبهة ، العدد ٢ شباط ١٩٦٩
ص ١٦ ـ ١٧ مجلة الجبهة ، العدد ٦ ، حزيران ١٩٦٩
ص ١٢ ـ ١٥ مجلة الجبهة ، العدد ٩ ، ١٩٧٠
ص ٨ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ١٤ ـ ١٥ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ١٨ ـ ١٩ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٦ ـ ٨ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٨ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٣٨ ـ ٤١ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٦ ، ١٩٧٠/٧/٣
ص ١٢ ـ ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٢ ، ١٩٧٠/١٠/٢٣
ص ١٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/١٩٧٢/١٢

٥ ـ اهداف الثورة واخلاقياتها

ص ٥ الميثاق (١٩٦٩)
ص ١١ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٢٥ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩) .

٦ ـ الاعلام الثوري

ص ٤ ـ ٥ مجلة الجبهة ، العدد ٩ ، ١٩٧٠
ص ٧ مجلة الجبهة ، العدد ٩ ، ١٩٧٠
ص ٤ ـ ٦ مجلة الجبهة ، العدد ١٠ ، ١٩٧٠
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٩ ، ٢٣/٧/١٩٧١

٧ ـ الثورة والجماهير

ص ٢ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٥ ـ ٦ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ١٤ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٢١ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٣٥ ـ ٣٦ كراس ازمةحركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٦ ، ٢٤/٤/١٩٧٠
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣١١ ، ٧/٨/١٩٧٠
ص ٢ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٥ ، ٤/٩/١٩٧٠
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٨ ، ٧/٥/١٩٧١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٩ ، ٢٣/٧/١٩٧١
ص ١٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/٧٢/١٢

٨ ـ الايديولوجية الثورية والدافع الثوري

ص ١٩ مجلة الجبهة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٦٩
ص ٢٤ ـ ٢٥ مجلة الجبهة ، العدد ٤ ، نيسان ١٩٦٩ .

٩ ـ الادب الثوري

ص ١٤ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٥ ، ١٧/٤/١٩٧٠
ص ١٤ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٦ ، ٢٤/١٩٧٠/٤

١٠ ـ الانضباط الثوري

ص ٢٤ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٤٢ ـ ٤٣ كراس ازمةحركة المقاومة (١٩٧٢)

١١ ـ الثورة في الثورة

ص ٤٦ ـ ٤٧ كراس ازمةحركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/٦/١٩٧٠
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٠ ، ١٠/٧/١٩٧١

١٢ ــ الثورة الفلسطينية والانظمة العربية

١٣ ــ الثورة الفلسطينية والثورة العربية

١٤ ــ الثورة الفلسطينية والثورة العالمية

١٥ ــ حول الانظمة العربية الوطنية

١٦ ــ حول الانظمة العربية التقليدية

١٧ ــ البعد العربي للمعركة

١٨ - تحرير الارض والانسان

ص ١٨ مجلة الجبهة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٦٩
ص ٢١ مجلة الجبهة ، العدد ١٠ ، ١٩٧٠
ص ٥ - ٦ الميثاق (١٩٦٩)
ص ١١ - ١٣ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٢٨ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٦ ، ٢٣/٤/١٩٧١
ص ٣٠ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)

١٩ - الحزب والوضوح السياسي

ص ٨ - ٩ مجلة الجبهة ، العدد ٣ ، آذار ١٩٦٩
ص ٥ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ١٤ - ١٥ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٦ - ٧ الميثاق (١٩٦٩) .
ص ١٩ - ٢٠ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٢٥ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٣٠ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ) .
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٠ ، ٧/١٠/١٩٧١

٢٠ - الدولة الفلسطينية

ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٧ ، ٢/٥/١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٣ ، ٢١/٨/١٩٧٠
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٢ ، ٢٣/١٠/١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٣ ، ٣٠/١٠/١٩٧٠
ص ٦ - ٧ المرجع نفسه
ص ٤ - ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٩ ، ١٨/١٢/١٩٧٠
- القسم الاول من كراس دراسة في غياب الرفض العلمي وملاحظات حول الوحدة الوطنية .

٢١ - الدولة الديمقراطية

ص ١٢ - ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٨ ، ٢٥/٩/١٩٧٠

٢٢ - الحل السلمي

ص ٧ - ٨ مجلة الجبهة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٦٩
ص ٢ - ٣ مجلة الجبهة ، العدد ٤ ، نيسان ١٩٦٩
ص ٩ مجلة الجبهة ، العدد ٩ ، ١٩٧٠
ص ٤٣ مجلة الجبهة ، العدد ٩ ، ١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٥ ، ١٧/٤/١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٨ ، ٩/٥/١٩٧٠
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/٦/١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٠ ، ٣١/٧/١٩٧٠
ص ٨ - ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٠ ، ٣١/٧/١٩٧٠
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٠ ، ٣١/٧/١٩٧٠
ص ٦ - ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣١١ ، ٧/٨/١٩٧٠
ص ١٢ - ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١١ ، ٧/٨/١٩٧٠
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٢ ، ١٤/٨/١٩٧٠
ص ٦ - ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٢ ، ١٤/٨/١٩٧٠
ص ٢ - ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٥ ، ٤/٩/١٩٧٠
ص ١٢ - ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢١ ، ١٤/٩/١٩٧٠
ص ١٢ - ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٢ ، ٢٣/١٠/١٩٧٠
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٠ ، ١/١/١٩٧١

ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣١ ، ٨/١/ ١٩٧١
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٥ ، ٥/ ١٩٧١/٢
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٥ ، ٥/٢/ ١٩٧١
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٦ ، ١٢/٢/ ١٩٧١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٧ ، ١٩/٢/ ١٩٧١
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٧ ، ١٩/ ١٩٧١/٢
ص ١١ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٨ ، ٢٦/٢/ ١٩٧١
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٩ ، ٥/٣/ ١٩٧١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٠ ، ١٢/٣/ ١٩٧١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤١ ، ١٩/٣/ ١٩٧١
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٢ ، ٢٦/٣/ ١٩٧١
ص ٣ ـ ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٤ ، ٩/ ١٩٧١/٤
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٦ ، ٢٣/ ١٩٧١/٤
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٩ ، ١٤/٥/ ١٩٧١
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٥ ، ٢٥/٦/ ١٩٧١
ص ١٠ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/٧/ ١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٠ ، ٧/١٠/ ١٩٧١
ص ١٤ ـ ١٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٥ ، ١٩٧٢/٩/١٥

٢٣ ـ الوحدة الوطنية

ص ١٥ مجلة الجبهة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٦٩
ص ٣ ـ ٤ مجلة الجبهة ، العدد ٢ ، شباط ١٩٦٩
ص ٢٨ مجلة الجبهة ، العدد ٧ ، تموز ١٩٦٩
ص ٧ الميثاق (١٩٦٩)
ص ١٦ ـ ١٧ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٢٨ ـ ٢٩ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٣٣ ـ ٣٤ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٧ و ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٥ ، ١٩٧٠/٤/١٧
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٦ ، ٢٤/٤/ ١٩٧٠
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٨ ، ١٩٧٠/٥/٩
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٠ ، ٢٢/٥/ ١٩٧٠
ص ٣ و ١٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ١٩٧٠/٦/٥
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٣ ، ١٢/٦/ ١٩٧٠
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/٦/ ١٩٧٠
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٧ ، ١٠/٧/ ١٩٧٠
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٠ ، ٣١/ ١٩٧٠/٧
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٣ ، ٢١/٨/ ١٩٧٠
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٤ ، ٢٨/٨/ ١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٥ ، ٤/٩/ ١٩٧٠
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٦ ، ١١/ ١٩٧٠/٩
ص ١١ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٠ ، ٩/٩/ ١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢١ ، ١٤/٩/ ١٩٧٠
ص ١٢ ـ ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٢ ، ١٩٧٠/١٠/٢٣
ص ١٦ المرجع نفسه
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٣ ، ٣٠/١٠/ ١٩٧٠

ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٦ ، ٣٠/ ١٩٧٠/١١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٧ ، ٢٨/ ١٩٧٠/١١
ص ١١ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٧ ، ١٩/ ١٩٧١/٢
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٩ ، ٣/٥/ ١٩٧١
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤١ ، ١٩٧١/٣/١٩
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٥ ، ١٦/٤/ ١٩٧١
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٦ ، ٢٣/٤/ ١٩٧١
ص ٣ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٧ ، ٣٠/ ١٩٧١/٤
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/٧/ ١٩٧١
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/ ١٩٧١/٧
ص ١١ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٣ ، ٢٠/ ١٩٧١/٨
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٩ ، ١/١٠/ ١٩٧١
ص ٨ ـ ١٠ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٥ ، ١٩٧٢/٩/١٥
ص ٤ ـ ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٦ ، ٨/ ١٩٧٢/١٢
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/ ٧٢/١٢
مجمل بيان سياسي حول مساهمة الجبهة في قيادة الكفاح المسلح (١٩٦٩)
ص ٢ ـ ٥ مذكرة للمجلس الوطني (٦ نيسان ١٩٧٢)
ص ١ ـ ٢ مذكرة الجبهة الى المجلس الوطني السادس (ايلول) ٠
القسم الثاني من دراسة في غياب الرفض العلمي وملاحظات حول الوحدة الوطنيـة (١٩٧٠) ٠

٢٤ ـ المجلس الوطني الفلسطيني

ص ١٣ ـ ١٤ مجلة الجبهة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٦٩
ص ٢ ـ ٣ مجلة الجبهة ، العدد ٧ ، تمـوز ١٩٦٩
ص ٣ ـ ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٣ ، ١٢ حزيران ١٩٧٠
ص ٢ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٤ ، ١٨/٦/ ١٩٧١
ص ٤ و٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/ ١٩٧١/٧
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٩ ، ٢٣/٧/ ١٩٧١
مجمل بيان سياسي حول المجلس الوطني (١٩٦٩)

٢٥ ـ حول موقف النظام الاردني من الثورة

ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٢ ، ١٥/١/ ١٩٧١
ص ٦ ـ ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٢ ، ١٥/ ١٩٧١/١
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٢ ، ١٥/ ١٩٧١/١
ص ٤ ـ ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٧ ، ١٩/ ١٩٧١/٢
ص ١٠ ـ ١١ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٧ ، ١٩٧١/٢/١٩
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٨ ، ٢٦/٢/ ١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤١ ، ٢٦/٢/ ١٩٧١
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤١ ، ٢٦/ ١٩٧١/٢
ص ٣ ـ ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٣ ، ٢/ ١٩٧١/٤
ص ٦ ـ ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٤ ، ١٩٧١/٤/٩
ص ٥ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٥ ، ١٦/ ١٩٧١/٤
ص ٣ ـ ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢١ ، ١٩٧٠/٩/١٤
ص ٧ ـ ٩ المرجع نفسه ٠
ص ١٢ ـ ١٣ المرجع نفسه ٠
ص ٣ ـ ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٢ ، ١٩٧٠/١٠/٢٣

ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٣ ، ٣٠/
١٩٧٠/١٠
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٦ ، ٢٠/١١/
١٩٧٠
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٧ ، ٢٨/
١٩٧٠/١١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٨ ، ١١/١٢/
١٩٧٠
ص ٤ – ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٩ ، ١٨/
١٩٧٠/١٢
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٠ ، ١/١/
١٩٧١
ص ٣١ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٣ ، ١٢/
١٩٧٠/٦
ص ٣ و٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٤ ، ١٩/
١٩٧٠/٦
ص ٨ – ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/
١٩٧٠/٦
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٧ ، ١٠/
١٩٧٠/٧
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٧ ، ١٨/
١٩٧٠/٩
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٨ ، ٢٥/
١٩٧٠/٩
ص ٤ – ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٩ ، ٤/
١٩٧٠/١٠
ص ١٢ – ١٣ المرجع نفسه
ص ٤ – ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٠ ، ٩/
١٩٧٠/٩
ص ١٣ المرجع نفسه
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٦ ، ٢٣/
١٩٧١/٤
ص ٨ – ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٨ ، ٧/
١٩٧١/٥
ص ١٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٩ ، ١٤/٥/
١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥١ ، ٢٨/٥/
١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٢ ، ٤/٦/
١٩٧١

ص ٣ – ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٣ ، ١١/
١٩٧١/٦
ص ٣ – ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٥ ، ٢٥/
١٩٧١/٦
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٦ ، ٢/٧/
١٩٧١
ص ٣ و ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/
١٩٧١/٧
ص ٨ – ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/
١٩٧١/٧
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٨ ، ١٦/
١٩٧١/٧
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٩ ، ٢٣/
١٩٧١/٧
ص ٣ و ٧ مجلة الى الامام العدد ٣٦١ ، ٦/٨/
١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٤ ، ٢٧/
١٩٧١/٨
ص ٣ و٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٦ ، ١٠/
١٩٧١/٩
ص ٤ – ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٧ ،
١٩٧١/٩/١٧
ص ١٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٨ ، ٢٤/
١٩٧١/٩
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٠ ، ٧/١٠/
١٩٧١
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٢ ، ٢٢/
١٩٧١/١٠
ص ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٥ ، ١٥/
١٩٧٢/٩
ص ٨ – ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٨ ، ٦/
١٩٧٢/١٠
ص ١٢ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨١ ، ٢٧/
١٩٧٢/١٠
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٢ ، ٣/١١/
١٩٧٢
ص ١٤ – ١٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٤ ،
١٩٧٢/١١/٢٤
ص ١٠ – ١٢ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٥ ،
١٩٧٢/١٢/١
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/
١٩٧٢/١٢

ص ١٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/١٢/١٩٧٢
- القسم الاول من كراس دراسة في غياب الرفض العلمي وملاحظات حول الوحدة الوطنية ٠

٢٦ - الجبهة الوطنية الاردنية

ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٠ ، ١٠/٧/١٩٧١
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧١ ، ١٥/١٠/١٩٧١

٢٧ - حول موقف النظام اللبناني من الثورة

ص ١٠ - ١٢ كتاب العرقوب بين اغارتين (١٩٧٢)
ص ١٨ - ٢٢ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ١٠ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٥ ، ١٧/٤/١٩٧٠
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/٦/١٩٧٠
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٨ ، ١٦/٧/١٩٧١
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٢ ، ١٣/٨/١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٢ ، ٢٢/١٠/١٩٧١
ص ١٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٥ ، ١٥/٩/١٩٧٢
ص ٨ - ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٧ ، ٢٩/٩/١٩٧٢
ص ٦ - ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٩ ، ١٣/١٠/١٩٧٢
ص ٤ - ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٠ ، ٢٠/١٠/١٩٧٢ ٠
ص ٢٨ المرجع نفسه ٠
ص ٦ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٣ ، ١٧/١١/١٩٧٢ ٠
ص ٢٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٦ ، ٨/١٢/١٩٧٢

ص ٤ - ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٧ ، ١٥/١٢/١٩٧٢
ص ٢٠ - ٢١ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ١٩٧٢/١٢/٢٢

٢٨ - منظمة التحرير

ص ٣ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠

٢٩ - الموقف من حكومة المنفى

ص ٢٣ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٠ ، ٢١/٥/١٩٧١
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٢ ، ٤/٦/١٩٧١
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/٧/١٩٧١
ص ٤-٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٨ ، ٦/١٠/١٩٧٢
ص ٤ - ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٩ ، ١٣/١٠/١٩٧٢

٣٠ - تعدد المنظمات

ص ١٦ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٢٢ - ٢٣ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٦ ، ٢٤/٤/١٩٧٠

٣١ - نقد قيادات المقاومة

ص ٢٦ - ٢٨ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٤٣ - ٤٥ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠
ص ٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤١ ، ١٩/٣/١٩٧١
ص ١٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٩ ، ١٤/٥/١٩٧١
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/٧/١٩٧١
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٩ ، ٢٣/٧/١٩٧١

ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٩ ، ١/ ١٩٧١/١٠
ص ٢٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٩ ، ١٣/ ١٩٧٢/١٠
ص ٤٠ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/ ٧٢/١٢

٣٢ ـ الديمقراطية والنقد الذاتي

ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٣ ، ١٢/ ١٩٧٠/٦
ص ٢٠ ـ ٢١ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)

٣٣ ـ الموقف من الدين

ص ١١ ـ ١٢ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٣٠ ـ ٣١ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)

٣٤ ـ فلسطينية الثورة

ص ٣ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٢٩ ـ ٣٠ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٢ ، ١٤/٨/ ١٩٧٠
ص ١٠ ـ ١١ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٣ ، ١٩٧٠/٨/٢١

٣٥ ـ جماعية القيادة

ص ٦ ـ ٧ مجلة الجبهة ، العدد ٢ شباط ١٩٦٩
ص ٨ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٢٠ ـ ٢١ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)

ب ـ الافكار العسكرية

١ ـ حرب التحرير الشعبية

ص ٢٠ ـ ٢٢ مجلة الجبهة ، العدد ٥ ، ايـار ١٩٦٩
ص ٦ ـ ٧ مجلة الجبهة ، العدد ٦ ، حزيران ١٩٦٩
ص ٢٣ ـ ٢٤ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/ ١٩٧٠/٦
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٨ ، ١٧/٧/ ١٩٧٠
ص ١٢ ـ ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٢٢ ، ١٩٧٠/١٠/٢٣

٢ ـ الكفاح المسلح

ص ١ الميثاق (١٩٦٩)
ص ١ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٣ ـ ٥ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٢٤ ـ ٢٥ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٢٦ ـ ٢٧ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٩ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/ ١٩٧٠/٦
ص ١٢ ـ ١٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١١ ، ١٩٧٠/٨/٧
ص ١٢ ـ ١٣ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣١٢ ، ١٩٧٠/٨/١٤
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٤ ، ٢٩/١/ ١٩٧١

٣ ـ حرب العصابات

ص ٤ ـ ٧ مجلة الجبهة ، العدد ٧ ، تمـوز ١٩٦٩
ص ٥ مجلة الجبهة ، العدد ٨ ، آب ١٩٦٩
ص ٢٠ ـ ٢١ كتاب العرقوب بين اغارتين ١٩٧٢
ص ٤ ـ ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٥ ، ٢٦/ ١٩٧٠/٦
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٢ ، ١٩٧١/١/١٥
ص ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٣ ، ٢٢/ ١٩٧١/١

٤ ـ خصوصيات الكفاح المسلح الفلسطيني

ص ٢٦ ـ ٢٧ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)

٥ ـ هانوي العربية

ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٤ ، ١٩/٦/١٩٧٠

٦ ـ العنف الثوري

ص ١٨ مجلة الجبهة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٦٩
ص ٢٦ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠

٧ ـ صفات المقاتل الثوري

ص ٩ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٢٤ ـ ٢٥ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)

٨ ـ عمليات الداخل

ص ٨ ـ ٩ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٢٢ ـ ٢٣ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣١ ، ٨/١/١٩٧١
ص ٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٨ ، ١٦/٧/١٩٧١

٩ ـ عمليات القشرة

ص ٢٢ ـ ٢٣ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)

١٠ ـ العمليات الخارجية

ص ٤ الميثاق (١٩٦٩)
ص ٩ ـ ١٠ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩) .
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٦ ، ١١/٩/١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣١٧ ، ١٨/٩/١٩٧٠
ص ١٦ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣١ ، ٨/١/١٩٧١
ص ٨ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٧ ، ٩/٧/١٩٧١
ص ١٤ مجلة الى الامام ، العدد ٣٦٨ ، ٢٤/٩/١٩٧١

١١ ـ ضرب المصالح الامبريالية

ص ١٢ ـ ١٣ ، مجلة الى الامام ، العدد ٣١٢ ، ١٤/٨/١٩٧٠
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٣٥ ، ٥/٢/١٩٧١
ص ٧ مجلة الى الامام ، العدد ٣٧٠ ، ٧/١٠/١٩٧١

١٢ ـ قيادة الكفاح المسلح

ص ٢٨ ـ ٢٩ مجلة الجبهة ، العدد ٧ ، تموز ١٩٦٩
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٩ ، ٢٤/٧/١٩٧٠
مجمل بيان سياسي حول مساهمة الجبهة في قيادة الكفاح المسلح (١٩٦٩)
ص ٣ ، مذكرة الجبهة الى المجلس الوطني السادس (ايلول ١٩٦٩)

١٣ ـ القيادة الموحدة

ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٢٩٦ ، ٢٤/٤/١٩٧٠
ص ٣ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٢ ، ٥/٦/١٩٧٠

١٤ ـ اخطاء العمل الفدائي

ص ٢٢ كراس الميثاق وابعاده (١٩٦٩)
ص ١ ـ ٣ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٢٧ ـ ٢٨ كراس استراتيجية الكفاح المسلح (بدون تاريخ)
ص ٤٠ ـ ٤٢ كتاب العرقوب بين اغارتين (١٩٧٢)
ص ٧ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٨ ـ ١٧ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٢٥ ـ ٣٠ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٤٣ كراس ازمة حركة المقاومة (١٩٧٢)
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٠٣ ، ١٢/٦/١٩٧٠
ص ٥ مجلة الى الامام ، العدد ٣٤٥ ، ١٦/٤/١٩٧١
ص ٨ ـ ٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٥٩ ، ٢٣/٧/١٩٧١
ص ١٩ مجلة الى الامام ، العدد ٣٨٨ ، ٢٢/١٢/١٩٧١

تقارير

من تجارب العمل الشعبي خلال الاحداث

وجدت اللجان الشعبية في منطقة الشياح - الغبيري - كرد فعل طبيعي ، على الاهمال الذي تعاني منه المنطقة من جهة ، وللشعور العفوي الذي بدأ يتبلور بعد فقدان دور السلطة الكامل ، خلال الاحداث التي بدأت في نيسان ١٩٧٥ ٠

لقد تجلى الاهمال الكامل قبل الاحداث ، بعدم الاهتمام بقضايا الجماهير المعيشية ، وعدم ايجاد عمل للقسم الاكبر من الاهالي ، او من القوى القادرة على العمل ويعود ذلك اساسا الى عدم قدرة قطاع الخدمات على استيعاب قوى جديدة ، وبسبب تشبع القطاع العام في الدولة ٠ وقد ترافق ذلك مع قوة الهيمنة الاجنبية الاقتصادية على الاقتصاد اللبناني ، هذه القوة التي تمنع ، مع القوى المرتبطة بها ، والمرتبطة اساسا بامتيازات طائفية تاريخية ، تمنع وتقف حجر عثرة في وجه التطور في القطاعات المنتجة - الزراعة - والصناعة ٠ لان تطور القطاعات المنتجة يقود الى مواصفات جديدة لا تتوافق مع مواصفات سيطرة النسب الطائفية على جهاز موظفي الدولة ٠

ومن جهة اخرى فان انفتاح بعض الدول العربية على الاسواق الغربية مباشرة اثر على الوضع اللبناني ، بنسب ملموسة ، وبالذات على قطاع الخدمات والتجارة ، القائم، اصلا على الوساطة ، اضافة الى ان تصاعد الاعتداءات الصهيونية على الاراضي اللبنانية ، قد اوضح بشكل شبه كامل الدور الحقيقي للسلطة العسكرية ، فعدم التصدي لهذه الاعتداءات على مدار السنوات الماضية ، افرز تحولات مهمة عى الصعيد الشعبي ، هذه التحولات التي تطالب بالرد ، وحين لم يستجب لطلبها ، بدأت تنحى منحى الدفاع عن الارض، وبدأ بينها وبين فصائل الثورة ، تحالف يزداد رسوخا مع الوقت ٠

ان تطور ضعف سلطة الدولة ، ينبع اساسا من ضعف قدرتها على تامين عمل للقوى الجديدة ،وعن تلبية مطالب الجماهير المعيشية من جهة ، وتلبية مهمة الدفاع عن الارض المستباحة وعن الشعب الموجهة ضده الالة العسكرية الصهيونية ، بدون اي رادع ٠ من جهة اخرى ينعكس هذا الوضع العام ، على منطقة الشياح - الغبيري ٠ كما سنرى تفصيليا ٠

الوضع السكاني والاقتصادي لمنطقة الشياح - الغبيري

يوضح التركيب السكاني للمنطقة الامور التالية :

١ - يبلغ عدد سكان المنطقة الاصليين حوالي الثلاثين الف نسمة ٠

٢ - يتراوح عدد السكان النازحين من

الجنوب ما بين الاربعين الف نسمة والخمسين الف .

٣ ـ كما يتراوح عدد السكان النازحين من منطقة بعلبك ـ الهرمل ما بين خمسة عشر الف وعشرين الف نسمة .

٤ ـ كما يبلغ عدد القادمين من مناطق لبنانية اخرى ، حوالي العشرين الف نسمة .

التركيبة الطبقية لسكان المنطقة

تشكل الفئة الميسورة من هذا التصنيف المذكور ، وبالتحديد من السكان الاصليين ، والذين يملكون العقارات والارض ، والمصالح المتوسطة والصغيرة ، ومن اصحاب الوظائف العالية ـ والمتوسطة ـ والصغيرة ايضا .

وهناك فئة قليلة من المناطق الثانية تنتمي لهذا التصنيف ، وتتركز فيه مجمل هذه التركيبة الطبقية ، وان كان قسم لا بأس به ينتمي الى فئة اصحاب العقارات .

اما بقية السكان فهم اجمالا من الفئات المسحوقة ، والتي تعمل في قطاع الخدمات العامة ،وفي المصانع والمعامل المحيطة بالمنطقة، في الحرف او كمعلمي مدارس ، او اصحاب حوانيت ، وعمال بلدية ، وبالتالي فان قسما لا بأس به يعمل في السلك العسكري ، جيش ـ درك ـ شرطة .

ان التركيبة السكانية من جهة ، وهذه اللوحة الاولية للتركيبة الاجتماعية من جهة ثانية ، تعطينا صورة حول الاصول الطبقية لهذه الفئات ، والتي بمجملها من الطبقة الفلاحية ، النازحة من الريف وان تفتت العلاقات في الريف ، اضافة الى اهمال القطاع الزراعي ، ادى بهذه الفئات للنزوح لتشكل ما سمي بحزام الفقر .

ان هذا الوضع من الاهمال الكامل في المناطق التي نزحوا عنها ، حيث لا خطط انمائية ، مع اهمال للاوضاع الصحية ، وعدم اعطاء الجيش دوره في الدفاع عن الارض ، وتحكم قطاع الخدمات ، بمصير القطاعات المنتجة ، اضافة لامتداد هذا الوضع الى المناطق التي نزحوا اليها . وخاصة منطقة الشياح ـ الغبيري والنبعة ـ قد ادى بهم الى تحسس الخطر المحدق بهم من القوى المرتبطة بالهيمنة الاجنبية ـ وبامتيازات تاريخية ـ على حساب بقاء البؤس ـ والفاقة والمرض .

ان هذا الوضع قد جعلهم في الخندق الامامي، دفاعا عن مصيرهم اساسا ، ومن اجل المساهمة في تغيير هذا الواقع الذي يعانون منه . ودفاعا عن ارض الوطن ، الذي يريده البعض مركزا للتآمر على الوطن العربي . ويريدون ارضه مشاعا للعدو الصهيوني ، كما ان بدء المؤامرة من عين الرمانة ، جعل من منطقة الشياح ـ الغبيري ، المنطقة الاكثر تحسسا ، والاكثر شعورا بالمسؤولية .

اللجان الشعبية وهدفها

فور بدء المؤامرة ، التي كانت ردا على تطور الشعور الوطني والقومي المتنامي ، المرتبط بالمطالب المعيشية للجماهير ، حمل المئات من ابناء الشياح ـ الغبيري السلاح للدفاع عن المصير اولا ولاحباط المؤامرة ثانيا ، وكانت الجماهير تدرك بعفويتها أن احباط المؤامرة بداية لبلورة وضع جديد لمستقبل جديد ، سواء من حيث الالتزام بقضايا الوطن العربي المصيرية ، ام من حيث تحقيق اصلاحات سياسية واقتصادية ، تستجيب لحاجات وتطلعات الجماهير .

والشيء الاساسي المكمل لهذا التوجه هو الاهتمام بقضايا الجماهير المعيشية ، اذ أن اهمال هذا الجانب معناه ان نفسح المجال لخلل يمكن ان تنفذ منه القوى المشبوهة ، لدق اسفين ما بين سكان المنطقة ، وما بين الحركة الوطنية ـ وفصائل الثورة .

لذلك فقد كان الجانب الاساسي في عمل اللجان ، هو محاولة تشكيل قوى متقدمة للعمل الجماهيري ، وصورة متقدمة للعمل الجبهوي مع كل الاطراف الموجودة على الساحة ، بهدف الارتفاع بمستوى العلاقات بين الاطراف السياسية الفاعلة لمواجهة كافة الاحتمالات .

ولقد برز اتجاه ضمن هذه اللجان ، يريد ان يكون بديلا للاطراف السياسية ويريد ان ينغلق على نفسه ، وكان يتعامل مع

الجماهير ، ومع المنظمات من هذا المنطلق ، لقد اوصل هذا الاتجاه العمل ، بعد فترة من الزمن الى طريق وعرة ، والى منعطف حاسم . وقد ساعد ذلك كثيرا على المزيد من التشرذم على ساحة العمل في المنطقة ، فالجماهير تريد توحيد المواقف وترفض الشرذمة والعصبوية داخل اللجان وخارجها وخاصة عند الاطراف الناشئة ، التي وقفت موقف المتفرج من اللجان، ومن ثم بدأت تعمل لتشكيل اللجان الخاصة بها ، وهذا ما زاد الموقف تبلبلا وتشرذما .

التجربة والنتائج

ان الشيء المكمل لمسألة الدفاع عن المنطقة ، هو ان نهتم بقضايا الجماهير وبمشاكلها ، السياسية - والاجتماعية - والاقتصادية . لهذا فقد طرح منذ البدء ايصال الموقف السياسي - والعسكري للجماهير عبر اذاعات نقالة ، وطرحت المسألة الامنية بحدة مسألة المحافظة على الاملاك الخاصة مكافحة وجهات النظر التي تريد اقامة شرخ بين السكان وبين القوى الوطنية وفصائل المقاومة ، ووضع ما يحصل ضمن اطر العمل الوطني ، لا ضمن ما يخطط له المتآمرون الذين يريدونها ان تتحول الى عمل طائفي .

كذلك اهتمت اللجان بالمسائل الصحية ، وقد قامت اللجنة النسائية بدور هام ، كان من نتيجته ان ساهمت في بناء مركز مستوصف شعبي ، قام بدور صحي وقائي وساهم في حل جزء من مشاكل المواطنين الصحية ، وقد قامت اللجان بجمع جزء من الادوية من بعض الاطباء، وبجمع جزء من تبرعات شعبية كما قدم الهلال الاحمر الفلسطيني كميات من الادوية غطت القسم الاكبر من الاحتياجات . علما ان تجربة هذا المستوصف كانت التجربة الاولى في المنطقة للعمل الصحي الشعبي خلال الازمة ، وفي مناطق الاشتباكات المتقدمة ، وهذا وباعتبار ان مستوصف نادي الضاحية كان له الدور الرئيسي في هذا المجال ، فقد تم التنسيق بين المركزين .

اما على صعيد التموين ، فقد حاولت اللجان حل مشاكل المنطقة ، لهذا حاولت احصاء المخازن التي تمون المنطقة ، من اجل ايجاد احتياطي دائم ، وبالاسعار المتعارف عليها ، كما حاولت مكافحة التلاعب بالاسعار ، ومكافحة عمليات الاحتكار التي يتلاعب بها البعض من التجار ، مع التأكيد على توثيق العلاقة مع اصحاب الحوانيت ، من اجل مشاركتهم في الوصول لحل اية اشكالات يمكن حصولها .

هذا وقد حصلت اللجان على كميات من السكر والرز ، بيعت بالاسعار المتعارف عليها ، كما تعاونت مع اصحاب الافران ، وحلت مشكلة تأمين الطحين وخاصة في الفترات الصعبة ، وذلك عبر تأمينه من مطحنة الشهباء في برج البراجنة ، بعد تعذر الوصول الى مطحنة الشياح .

كما حصلت على كميات من التموين من حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » وزعت على الفئات المسحوقة في المنطقة على ثلاث دفعات متتالية وفي اوقات مختلفة ، كما امنت الحركة الدقيق في بعض الفترات ،ولبعض الافران ، وقد وزع للاهالي عبر اللجان الشعبية بدون مقابل .

اما بالنسبة للنظافة ، فقد اقامت اللجنة اسبوعا للنظافة في المنطقة ، وتعاونت في ذلك مع البلدية ، اذ امنت البلدية وسائل النظافة، وقامت اللجان بالحملة كما قامت في مناطق مختلفة من المنطقة حملات مختلفة للنظافة .

وقد حصل اكثر من لقاء مع مسؤولي البلدية ، لمعالجة القضايا الطارئة ومحاولات الابتزاز التي كان يقوم بها البعض ، اي القيام بحملات للنظافة لقاء عمولة محددة من الاهالي .

ومن جهة ثانية قمنا بمسح اجتماعي لبعض مناطق المنطقة ، ولبعض المؤسسات الموجودة فيها ، وقد تبين لنا التالي :

١ - في المنطقة - ١٣ - فرنا ٢ - عشر محطات بنزين . ٣ - خمس صيدليات . ٤ - اربع مدارس رسمية ، مع ما يزيد عن الخمسين مدرسة خاصة . ٥ - ثماني ابار ارتوازية . ٦ - ثلاثة نواد . ٧ - اربع

مستوصفات – العمل الشعبي – الضاحية – مستوصف الاسعد – النجدة الشعبية ٠ ٨ – مطحنة ٠٠٠

كما ان اللجنة ، قامت بمجموعة ندوات شعبية في فترات مختلفة ، تم خلالها توضيح الاوضاع السياسية كما تم خلالها طرح مهمات جماهيرية كانت ملحة خلال ذلك الوقت ٠ وقد كانت هذه اللقاءات مدخلا للتعرف على مجموعات من الكفاءات ، كي تشارك في بعض المهمات على صعيد المنطقة ٠

هذا وقد تم ايضا اصدار خمسة بيانات في فترات مختلفة توضح تطورات الاوضاع السياسية ، كما تم اصدار نشرة باسم صوت الشياح ، تم من خلالها تقديم صورة اولية حول وضع المنطقة ٠

كما تم عرض بعض الافلام السينمائية في اماكن مختلفة من منطقة الشياح ، وجرى اصدار ملصقين ، يوضحان المهمات والمطالب المطروحة ٠

ان ما سبق وذكر من انجازات تم تحقيقها ، لا يعني انه لم يكن هناك من مهمات لم تنفذ ، ولا يعني انه لم يقع كثير من الاخطاء، وكثير من التقديرات الخاطئة لمجموعة من المسائل ٠٠

خلاصة ٠

لقد قدمنا صورة حول وضع المنطقة من جهة ، هذه المنطقة التي تتواجد فيها كل التنظيمات السياسية بدون استثناء ، وان كان هذا التواجد بنسب متفاوتة من حيث العدد ، ومن حيث التأثير في مجرى الامور ، فضلا عن ان بؤرا سياسية ، وقوى عديدة قد ظهرت على الساحة خلال الازمة ، ومبرر هذا الظهور كما يقول هؤلاء هو العجز عن مواجهة الوضع العسكري بالشكل المطلوب او حل مشاكل الجماهير والاهتمام بقضاياها السياسية والاجتماعية ٠

ان هذا التشرذم الحاصل قد ادى الى تعقيد الكثير من القضايا ، وادى الى ان ينعكس على الجماهير وبأغلب الاحيان وبشكل سلبي ، او قلما تجد ان تنظيما ما له وجهة نظر حول قضية محددة مع تنظيم اخر ، فضلا عن التجارب الناجحة للعمل الجبهوي لم تبرز حتى الان ، وكل ما قيل ويقال لم يشكل الا طموحات نحاول ويحاول الاخرون الوصول اليها ٠

المفهوم الاسرائيلي لصفقة طائرات النقل الاميركية (هيركليس)لمصر

اعتادت اسرائيل في الماضي ان تعترض في كل مرة كان يتسرب الى علمها ان مصر بصدد عقد صفقة سلاح ٠ ان كان ذلك مع الاتحاد السوفييتي او بريطانيا او فرنسا ٠ وكانت مبرراتها باستمرار وراء ذلك هو انها كانت لا تريد ان ترى عدوتها الكبرى تحصل على مزيد من الاسلحة الهجومية او الدفاعية مهما كان تاثير ذلك على الصراع في المنطقة صغيرا ام كبيرا حتى لا يؤثر ذلك على موازين القوى العسكرية في المنطقة بالمقام الاول ٠ يضافالى ذلك انها غالبا ما كانت تستغل اعتراضهاعلى مثل هذه الصفقات التي كانت تعقدها مصر او اية دولة عربية في السابق بقصد التشهير في الاوساط الدولية لتمهيد الطريق لاصدقائها في الكونغرس الاميركي في الولايات المتحدة حتى يقوموا من جهتهم بمسؤولياتهم التقليدية تجاهها بطلب مزيد من السلاح والمساعدات العسكرية الامريكية لها ٠وطبعا كانت ذريعتهم في كل مرة معزوفة قلقهم على امن اسرائيل وحرصهم على ان لا يختل ميزان القوى العسكرية في المنطقة الذي ظل يميل باستمرار

طيلة سنوات الصراع السابقة - ولا زال - لصالح اسرائيل ٠

هكذا ظل سلوك اسرائيل طيلة سنوات الصراع الماضية ، وغالبا ما كانت تحقق ما كانت ترمي اليه من وراء اثارتها الاوساط الدولية والاميركية بوجه خاص ضد صفقات السلاح التي كانت تعقدها مصر او اية دولة عربية ٠ وهو اسلوب رأت نفسها تحقق الكثير من وراءه وتحصل بواسطته على ما تريد من اسلحة هجومية ودفاعية من ترسانات الدول الغربية التي ظلت تبتز منها السلاح ابتزازا في اكثر الاحيان ٠

غير ان اعتراض اسرائيل لصفقة طائرات النقل العسكرية الاميركية لمصر التي بلغ لعلمها ان مصر بصدد تسلمها من الولايات المتحدة قريبا يختلف هذه المرة في مضمونه ومراميه عن الاحتجاجات التي كانت تتقدم بها في السابق ٠ فالسلاح الذي تعترض عليه اسرائيل هذه المرة لا يدخل في عداد الاسلحة الهجومية او حتى الدفاعية الذي من شأنه التأثير على الاوضاع العسكرية السائدة او الاخلال بموازين الصراع العسكرية السائدة في الجبهة الجنوبية بين الجيشان المصري والاسرائيلي ٠ فهذا السلاح ومهما كان نوعه وقيمته العسكرية يأتي هذه المرة من دولة تقيم معهااسرائيل علاقات سياسية واقتصادية وتجارية ومالية وعسكرية قوية مميزة من نوع خاص جدا تفوق في نوعيتها العلاقات التقليدية التي تقوم عادة بين الدول التي ترتبط فيما بينها بمواثيق او معاهدات وحتى احلاف عسكرية ثنائية ٠

ان اعتراض اسرائيل هذه المرة يأتي بعد التوقيع على اتفاقية سيناء الثانية بمدة طويلة وبعد البدء بتنفيذ بنودها والتي تم تنفيذ الشطر الاكبر من بنودها وهي الاتفاقية التي اعتبرت بمثابة المنعطف الذي نقل المنطقة من اجواء الحرب الى اجواء السلم على حد تعبير القادة الاسرائيليين انفسهم ٠ يضاف الى ذلك تصريحات القادة الاسرائيلين وعلى رأسهم رئيس الحكومة الجنرال « رابين » ، واعترافه بصورة علنية لمندوب الاذاعة الاسرائيلية بأن ميزان القوى لا زال يميل لصالح اسرائيل وان اوضاع مصر العسكرية لم تعد بالقوة والمستوى العسكري اللذان كانت عليهما وقت اندلاع القتال في تشرين اول ١٩٧٣ ٠ (النهار ١٩٧٦/٢/٢٢) هذا من الناحيتين السياسة والعسكرية الموضوعية ، اما من النواحي الفنية والعسكرية التقنية والتكتيكية ، فالطائرات الست التي تثير اسرائيل حولها الجدل وتحاول بكل طاقاتها منع الولايات المتحدة تسليمها لمصر هي طائرات نقل عسكرية قديمة من طراز (هيركوليز سي - ١٣٠) من انتاج شركة « لوكهيد » الاميركية ولا تشكل بالمعنى العسكري الصحيح اية قيمة عسكرية تذكر في المجال التكتيكي الهجومي او الدفاعي لا نوعا ولا كما ٠ ان طائرة (سي - ١٣٠) انتجت لاول مرة في عام ١٩٥٢ وقد عملت في خدمة السلاح الجوي الاميركي وعدد من الاسلحة الجوية الاخرى بنجاح كبير ٠ فهي تتسع لـ(٩٢) جنديا بكامل تجهيزاتهم القتالية وبامكانها الاقلاع والهبوط من اراض غير معبدة ، كذلك حمل معدات وتجهيزات حربية ثقيلة ٠ ان سي- ١٣٠ مجهزة باربعة محركات من نوع (اليسون- تي ٥٦ - م - ٧ م) قوة كل محرك منها (٤٠٥٠) حصانا ٠ ان حمولتها القصوى تبلغ (١٧٥٠٠٠) رطل انكليزي (٧٩٣٨٠) كلغ واقصى مدى لها يبلغ حوالي (٤٧٧٠) ميلا ٠ اما سرعتها الاعتيادية الاكثر اقتصادا للوقود في الرحلات الجوية فتبلغ (٣٨٤) ميل / الساعة ٠ ان طائرة (سي - ١٣٠) هي متعددة الاستخدام ايضا ،فيمكن استخدامها الى جانب النقل الجوي العسكري كطائرة صهريج جوي وطائرة استطلاع وتصوير جوي وطائرة هجومية بامكانها تقديم الدعم الجوي للقطعات البرية في حالات معينة ، وطائرة للتفتيش والانقاذ ٠ والجدير بالذكر انها تشابه طائرة (انتونوف ١٢) السوفياتية التي تملك مصر اعدادا كبيرة منها كما تستخدم في اكثر من سلاح جو عربي ٠ غير ان طائرة (سي - ١٣٠) تمتاز على الطائرة السوفياتية من حيث القدرة على المناورة على الارض وفي الجو والاداء ونوعية المهام العسكرية التي بامكانها القيام

بها وان كانت تتشابه معها من حيث السرعة والحمولة والشكل تقريبا ٠

هذه هي مواصفات الطائرة التي تحاول اسرائيل ان تثير الضجة حولها وتتخوف من تسليمها لمصر وتعتبر تجهيز السلاح الجوي المصري بها سابقة خطيرة جدا (النهار ٣/٥/ ١٩٧٦) ٠ ان القاء نظرة على مواصفات الطائرة لا يوحي للقارىء ان هذه الطائرة لا من حيث نوعيتها ولا من حيث كميتها (وحتى لو حصلت مصر على اعداد كبيرة منها) ستشكل اي تهديد لامن اسرائيل او ستخل عند تسليمها لمصر بميزان القوى العسكري السائد في جبهة سيناء بين الدولتين المعنيتين ٠

اذن لماذا كل هذه الضجة المفتعلة ؟ ان الاجابة الصحيحة على هذا السؤال تكمن في خلفيات هذه الصفقة ونظرة القادة الاسرائيليين اليها ومفهومهم لها ٠ ويجيء تصريح رابين في الكنيست يوم ١٠/٣/ ١٩٧٦ ليعطي مزيدا من التوضيح على الموقف الاسرائيلي من الصفقة ، فهو يقول « ان اسرائيل تعارض تزويد مصر بمعدات عسكرية والمشكلة ليست قيمة هذه الاسلحة وقيمة طائرات النقل العسكرية الست بل ان في الامر سابقة لصفقات اخرى من الاسلحة بين الولايات المتحدة ومصر وعلى هذا الاساس وكمنطلق مبدئي تعارض اسرائيل الصفقة » ٠ (ر ١١ ـ ١٠١٣ تاريخ ١٩٧٦/٣/١٠) ٠ وهكذا تظهر اسرائيل تخوفها من الصفقة لاعتبارات مبدئية وذلك كما يقول قادتها ان هذه الصفقة ستكون بداية لسلسلة صفقات اسلحة تعقبها بين واشنطن والقاهرة ، وخوف القادة الاسرائيليين هنا يتركز على نوعية الاسلحة التي ستتلقاها مصر بعد اتمام هذه الصفقة الاولية ، وقد تتضمن اسلحة هجومية ودفاعية من تلك التي تعطي الجيش المصري في المستقبل قدرة اكبر على الردع والحسم العسكري وامتلاك انواع من الاسلحة الهجومية تفتقر اليها الترسانة الحربية المصرية ٠ (« المحرر » ١٩٧٦/٣/١٠)٠ ومما يزيد من قلق القادة الاسرائيليين التصريحات التي تصدر عن كبار المسؤولين في البيت الابيض وتطور العلاقات السريع بين القاهرة وواشنطن وكان ابرز هذه التصريحات تحول الرئيس فورد « ان على الولايات المتحدة ان تعطي مصر اكبر مقدار ممكن من المساعدات العسكرية والاقتصادية (النهار ١٩٧٦/٣/١٤) ٠ غير ان ذلك لا يعني ان الصفقة ستمرر بدون مضايقات قد يثيرها الاسرائيليون واصدقائهم في الاوساط والمحافل الاميركية والكونغرس الاميركي خاصة وان الانباء الواردة من الولايات المتحدة بدات تميط اللثام عن مثل هذه لتحركات وانزعاج الادارة الاميركية منها (المحرر ١٩٧٦/٣/٢٣) ٠ غير ان هذه التحركات الاسرائيلية الصهيونية الاميركية المضادة وعلى الرغم من تصميم الادارة الاميركية على تنفيذ الصفقة قد اضطرت كيسنجر الى القول « ان الولايات المتحدة لا تنوي ان تصبح مصدر الاسلحة الرئيسي لمصر » في محاولة منه لتطمين الاسرائيليين والتخفيف من حدة الهجمة المضادة لصفقة الطائرات مع مصر من قبل الصهاينة واصدقائهم في الولايات المتحدة والكونغرس٠ (النهار ١٩٧٦/٣/٢٧) وهو التصريح الذي يرسم في الوقت نفسه سقف التعامل المصري الاميركي ويحدد ابعاده ٠

هذا واشارت التقارير الواردة من واشنطن في ١٩٧٦/٣/٢٧ ان طلب مصر للطائرات قد احيل الى اللجنة الفرعية للمساعدات الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي لدراسته وابداء رأيها فيه بعد ان نال موافقة الادارة الاميركية ٠ (النهار ١٩٧٦/٣/٢٧)

وتبين من الضغوط التي توجهها الادارة الاميركية على مجلس الشيوخ والنواب الاميركيين ان الصفقة ربما يتم التصديق عليها لكن بشروط وقد تستغرق الدراسة وقتا طويلا (المحرر ١٩٧٦/٤/٣) الا ان المصادر الصحفية الواردة من واشنطن ذكرت ان الكونغرس وافق على بيع مصر الطائرات ، لكنه اشترط بأن لا تباع لمصر في عام ١٩٧٦ (بعد تسليمها الطائرات) اية معدات عسكرية اخرى ٠ (المصدر نفسه) ٠

لقد ظلت اسرائيل تتمتع بالدعم الاميركي العسكري والمالي والسياسي والمعنوي لها

طيلة ربع القرن الماضي • وقد تطور هذا الدعم بعد حرب حزيران ١٩٦٧ حتى وصل الى حد الابتزاز • ان مثل العلاقات المميزة مع واشنطن اراحها كثيرا وامن لها في السنوات الاخيرة كميات هائلة من السلاح المتفوق الذي منحها بدوره تفوقا عسكريا ظاهرا على جيرانها من الدول العربية التي تناصبها العداء • وهي ازاء ذلك تحرص وتحاول الابقاء على هذه العلاقات والاوضاع قائمة • لذلك فهي تتخوف من تطور العلاقات المصرية الاميركية والتي قد تؤثر على العلاقات العربية الاميركية في المستقبل ، مخافة ان يؤدي ذلك في نهاية المطاف الى سحب بساط الدعم الاميركي كليا من تحت قدميها • لذلك فهي تعمل بكل طاقة لديها لمنع قيام اي علاقات ودية بين مصر والولايات المتحدة ومهما كان حجمها مخافة ان يؤدي ذلك الى تبدل في الموقف الاميركي ازاء الصراع الشرق اوسطي • لهذا فعندما ادركت ان الصفقة لا محال ستتم اتجهت نحو اصدقائها في الكونغرس محاولة اقناعهم على ان تتم الصفقة على اسس تجارية وليس ضمن برنامج المساعدات العسكري الاميركي الذي يتم عن طريق البنتاغون الاميركي • وذلك حتى ينحصر ذلك في الاطار التجاري البحت وحتى لا يشكل سابقة يمكن ان تمهد لمزيد من المساعدات العسكرية والاسلحة لمصر والتي يمكنها في المستقبل ان تشكل تهديدا فعليا لامنها • ان تقديم السلاح من مصادر اميركية وغربية لمصر (التي هي بأمس الحاجة الى انواع متطورة ومتقدمة محددة منه يمكنها لو امتلكتها ان تهدد بها عمق الاراضي الاسرائيلية) يمكن ان تكون له دلالاته وتأثيراته وابعاده الهامة على الصراع في المستقبل ، بمعنى ان يحدث ذلك تأثيرا سلبيا الى حد ما على العلاقات العسكرية الاميركية الاسرائيلية من جهة في حين انه سيكسر ايضا والى حد ما الطوق الذي كانت تفرضه الولايات المتحدة على تزويدها الدول العربية ببعض الاسلحة والاجهزة الالكترونية المتقدمة والمتطورة بعيدة المدى والفاعلية •

لهذا كله تعتبر اسرائيل ان خطر صفقة السلاح التي تبلغ قيمتها (٦٥) مليون دولار هو لاعتبارات مبدئية وليس لاعتبارات تتعلق بقيمة السلاح النوعية ولا بعدده • ان خوف اسرائيل هو ان لا تتمتع في المستقبل بعلاقات مميزة مع الولايات المتحدة وتفقد بذلك مركز الافضلية الذي ظلت تتمتع به في علاقاتها بواشنطن خلال ربع القرن الماضي •

الرائد طيار حسين عويضة

مناقشات

رد على مقال ((وفاة أول امين عام عربي للحزب الشيوعي الفلسطيني)) (عدد ٥٣ ـ ٥٤)

ورد في عدد « ٥٣ ـ ٥٤ » من « شؤون فلسطينية » تاريخ « كانون الثاني ـ شباط » (يناير ـ فبراير) « تقييم » سريع لحياة الرفيق رضوان حسن الحلو (موسى) ، بقلم عبد القادر ياسين . وتضمن « التقييم » عددا من الاخطاء التي نرى ضرورة تصحيحها ، ليس دفاعا عن الرفيق ،او تهجما على الكاتب، بل تقريرا للتاريخ .

وقبل ان نذكر ملاحظاتنا « التقييم » ، نود ان نشير الى ان معظم الكتاب العرب يعتمدون ، كليا ،في معالجتهم للحركة الشيوعية في فلسطين على كتاب « الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط » ، تأليف « والتر لاكير » « » . ومما يذكر ان هذا الكتاب يرتكز على منطلقات صهيونية، وهو ، في سياقه العام ، معاد لنضال الشعوب المستعمرة (فتح الميم) من اجل تحررها ، وللحركة الشيوعية على وجه الخصوص . ناهيك ، عن « التزوير المتعمد » للحقائق التاريخية التي يمتليء الكتاب بها ، فضلا عن انه يبتعد كل البعد عن المنهج العلمي في تقصي الحقائق والتحليل النقدي .

اما ملاحظاتنا حول « تقييم » عبد القادر ياسين فيمكن سردها كما يلي :

اولا ، يذكر الكاتب ان صدامات شهر ايار (مايو) ١٩٢١ وما رافقها من اضطهاد مارسته السلطات البريطانية ضد الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ادت الى انضواء الحزب تحت لواء حزب (بوعا لي زيون) الصهيوني وهذا خطأ . فمن المعروف ان « حزب العمال الاشتراكي » كان في الاصل انشقاقا يساريا عن حزب « بوعا لي ريون » ، الا انه حافظ على علاقاته مع الحزب الام .

راجع : « خمسون سنة للحزب الشيوعي في البلاد » ، ص ٢٥ ـ ٣٧ . اصدار الحزب . الشيوعي الاسرائيلي . (راكاح) ، اللجنة المركزية ـ حيفا ، ١٩٧٠ .

راجع ايضا : « الوثائق المتعلقة بتطورات حزب العمال الاشتراك » الموجودة في ارشيف « مكتب السجلات العامة » في لندن ، وفي ارشيف دولة اسرائيل في القدس .

وقد تشكلت خلال سنوات (١٩٢١ ـ ١٩٢٤ ، وحتى اعتراف « الكومنترن » بالحزب الشيوعي الفلسطيني ، مجموعات شيوعية عدة ، حملت اسماء مختلفة مثل : « الحزب الشيوعي اليهودي » ، « الحزب الفلسطيني الشيوعي »،

ثانيا ، وحول « المؤتمر السادس للحزب والمنعقد سنة ١٩٢٦ »والاحداث التي رافقته ، نود ان نشير الى ان هذا المؤتمر عقد في عام ١٩٢٦ ، وليس « في عام ١٩٢٤ » كما ورد في « تقييم »الكاتب ياسين . (راجع :

مجلة المراسلات الدولية ، الصادرة في موسكو بالانكليزية ، ص ١١٨٤ – عدد ٦٨ ، سنة ١٩٣٦) . اما بالنسبة لشعار « تعريب الحزب » فقد رفع خلال المؤتمر السابع للحزب في ديسمبر (كانون اول) ١٩٣٠ ، بينما تم رفع الشعار منذ عام ١٩٢٤ نزولا على رغبات « الكومنترن » الذي اشترط على الحزب في بيان قبول عضويته في « الكومنترن » والذي قضى بتحويل الحزب الشيوعي الفلسطيني لنفسه « كتنظيم اقليمي » . اما حول « الصراع » المذكور في « تقييم » السيد ياسين بين « اقلية » و « اكثرية » في اللجنة المركزية ، وتمكن الاقلية من « تنمية » الاغلبية (؟؟) في مؤتمر عقد سنة ١٩٢٤ (؟؟) . فهذا امر يتطلب ايضاحا اكثر من ذلك الذي يقدمه لنا المؤلف الصهيوني « لاكير » .

ثالثا ، لم توفد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني « ٣٠ عضوا الى موسكو في سنة ١٩٢٧ » كما ذكر الكاتب ياسين ، بل كان الحزب يبعث بمجموعات صغيرة جدا ، بين الحين والاخر ، تألف معظمها من الرفاق اليهود ، الى جامعة « كادحي الشرق » في موسكو .

ومما يذكر ان « نجاتي صدقي الالايميني » كان اول رفيق عربي سافر الى موسكو في عام ١٩٢٦ (اذار – مارس) ، ولم يصطحب باي عربي اخر . وتلا ذلك مجموعات اخرى في عام ١٩٢٧ كان في عدادها : محمود المغربي الجزائري (الاطرش) وحسن صدقي الالايميني، وعبد الغني الكرمي واخرين . اما رضوان الحلو ، فقد سافر الى موسكو ، للمرة الاولى ، عام ١٩٣٠ ، بصحبة نجاتي صدقي ، لتمثيل الحزب الشيوعي الفلسطيني في مؤتمر « البروفنترن » الخامس . وكان من المقرر ان يمضي عاما واحدا في جامعة « كادحي الشرق »، الا ان ظروفا معينة ادت الى بقائه في موسكو حتى عام ١٩٣٣ . ولدى عودته الى فلسطين عين سكرتيرا للشبيبة الشيوعية . وفي مطلع عام ١٩٣٤ ، وبعد القاء القبض على « زئيف بيرمان » ، سكرتير الحزب ، عين رضوان الحلو سكرتيرا للحزب ، وكان اول عربي يشغل هذا المنصب . (حصلنا على هذه المعلومات من مقابلتين الاولى مع رضوان الحلو في اريحا بتاريخ عام ١٩٧٤/١/١٢، والثانية مع « جوزيف بيرجر » في تل ابيب بتاريخ ١٩٧٤/١/٢) .

رابعا ، يكرر الكاتب ياسين ادعاءات سبق وان صرح بها المدعو « محمد دويدار » (في مقابلة منشورة في كتاب د . رفعت السعيد) توحي بوجود « مؤامرة صهيونية داخل قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني » . ان الكلام عن « التكوين الطبقي والفكري » ، و « الانتقاء » .. و « عناصر عربية غير صالحة للعمل الثوري » الخ .. يوحي بعدم فهم للظروف الموضوعية التي كان يعمل قادة الحزب في ظلها ، وتهجم لا مبرر له على اخلاص وثورية الرفاق اليهود في الحزب الذي اسسوه واشرفوا على اعداد النواة العربية الاولى التي ، لولاها ، لما امكن من المباشرة في عملية تعريب « الحزب » .

ومن ناحيته ، فقد رفض رضوان الحلو رفضا قاطعا (فيمقابلة اجريت معه في اريحا بتاريخ ١٩٧٤/٢/٢٣) ادعاءات « دويدار » حول ما نسبه لنفسه من « دور قام به » في فلسطين . وذكر رضوان الحلو ان الحزب كان مضطرا للتعامل مع الكوادر العربية القليلة ، الموجودة في صفوفه في تلك الفترة المبكرة . اذ لم يكن هناك مجال للاختيار والتفضيل ، الامر الذي ادى الى ظهور بعض « الخونة » في صفوف الموفدين (عبد الغني الكرمي) ، او استنكاف بعضهم الاخر للعمل الحزبي بعد العودة الى فلسطين . اما بالنسبة لنوعية الرفاق الموفدين ، يؤكد الرفيق رضوان الحلو ان الحزب كان مهتما بايجاد عناصر بروليتارية لايفادها الى موسكو ، ولم يكن يبحث عن « عناصر مغامرة » من ابناء ملاكي الاراضي والبرجوازية الناشئة .

ان المعارضة اليهودية للتعريب لم تكن معارضة « عنصرية » وانما كانت مبنية على ايديولوجية الحزب السائدة انذاك ، ونظرته الى دور الاقلية اليهودية في العملية الثورية في البلاد . وفي هذا المجال ، فالحديث

عن « مؤامرات الصهاينة » الذين نجحوا « بالتسلل الى قيادة الحزب » ، لا تختلف نوعيا عن الاتهامات التي وجهت الى « توخاشوفسكي » قائد الجيش الاحمر عن كونه « جاسوسا المانيا » عام ١٩٣٦ ، والتهم التي وجهتها القيادة الستالينية الى « بوخارين وتروتسكي وزنوفييف وغيرهم » .

خامسا ، وحول « ثورة اب ١٩٢٩ » وتقييم الحزب « الخاطيء » لتلك الاحداث كما يذكر عبد القادر ياسين ، فان الخلاف بين الحزب والكومنترن لم يتعلق « بحقيقة » وقوع مذابح ضد اليهود » ، فهذه مسألة معروفة لدى الكومنترن . ان الخطأ الذي وقع فيه الحزب يتمثل في عدم وضعه لتلك المذابح في موقعها الملائم داخل حركة الجماهير العربية الواسعة . وقرر الحزب في تقييمه الجديد للاحداث ، بعد انتقاد « الكومنترن » له ، ان ثورة اب بدأت كرد موجه من القيادات العربية التقليدية « على الاستفزازات الصهيونية ، وان توجيه هذه الثورة كان عرقيا ودينيا . الا ان حركة الجماهير خرجت على سلطة القيادة الاقطاعية الدينية واتخذت طابعا ثوريا عضويا ادى الى الاصطدام مع السلطات البريطانية ، الامر الذي دفع القيادات العربية الى استعمال نفوذها لوقف امتداد الثورة . والجدير بالذكر ان المشاركة الجماهيرية ، لا سيما مشاركة الفلاحين ، هي التي اضفت على ذلك التحرك سمة «الجماهيرية الثورية ».ويذكر « بيرجر » ، عضو سكرتارية الحزب ابان الاحداث والقائد الفعلي انذاك ، نظرا لغياب « اورباخ » سكرتير الحزب في موسكو ، « ان قيادة الحزب بدأت تتراجع عن موقفها ، قبل وصول رسالة الكومنترن لها في ١٢ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٢٩ ، وتطور تقييمها للاحداث » . (راجع : مقال « القدس في اب ١٩٢٩ » ، بقلم جوزيف بيجر ، ملشور في مجلة ، « كيشيت » العبرية ، ص ١٣٥ ، عدد ٢٩ ، سنة ١٩٦٥) .

ومما يذكر ان عملية تعريب الحزب التي بدأت جديا في عام ١٩٣٠ كانت باشراف الرفاق اليهود في الحزب ، اذ ان القيادة العربية التي انتخبت في المؤتمر السابع في كانون الاول (ديسمبر ١٩٣٠ ، القي القبض عليها في كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ، ولم يتسع لها المجال للقيام باي دور فعال في هذا الصدد. ان اللجوء الى المجلات السوفياتية الصادرة في تلك الحقبة كمرجع لتعرية « عملاء الاستعمار » في فترة كانت القيادة السوفياتية تكيل لخصومها السياسيين شتى التهم خارج الاطار العلمي الذي يتم في استقراء الحقيقة التاريخية .

سادسا ، وحول اشتراك رضوان الحلو في مؤتمر العمال العرب الاول المنعقد في ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ قبل سفره الى الاتحاد السوفياتي ، فقد اصدر المؤتمر « كراسا » عن اعماله احتوى على مقتطفات من كلمات بعض المندوبين ، فضلا عن قرارات المؤتمر . ونشر في صفحته رقم « ٤٣ » اسماء اللجنة المركزية المنتخبة ، ومن بينهم رضوان الحلو ، مندوبا عن « يافا » كبرى المدن الفلسطينية . ولا يعقل ان يكون الرفيق الحلو في عداد الاحد عشر عضوا الفائزين بالاجماع ، في انتخابات اللجنة المركزية ، فيما لو صح وصف ياسين له بانه « احتفظ لنفسه بموقف المتفرج »؟؟!!

سابعا ، جرى تعيين رضوان الحلو سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي الفلسطيني في عام ١٩٣٤ ، واستمر يقود الحزب حتى انشقاقه في عام ١٩٤٣ واستقلال الشيوعيين في تنظيمات قومية ، عربية ويهودية ، منفصلة . ويعلن عبد القادر ياسين ان « ادقاع » (؟) سكرتير الحزب « الفكري » ، « جعله عاجزا عن التأثير في خط الحزب ، او ممارساته » (؟) ، ويحاول، عبر اهتمامه لموضوع زواجه من « سمحة تزاباري » ، عضو السكرتارية ، ان يوحي بان العنصر اليهودي تمكن من السيطرة على الحزب ! ! .

ان دور الرفيق رضوان الحلو في قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني لا يحتاج الى دفاع عنه، وكذلك الدور القيادي الذي لعبه الرفاق اليهود في الحزب . ولن تنقص الادعاءات اللامسؤولة التي يرددها ياسين ، ورددها من قبله « والتر لاكير » (ويبدو ان هذا الاخير يمثل المرجع الرئيسي لاكثر كتابات ياسين عن الحركة الشيوعية في فلسطين) والكتاب الصهاينة

والمؤلفون العرب المغرقون في الرجعية خدمة لاغراضهم الخاصة ، لن تنقص من دور الرفاق في الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان رضوان الحلو والحزب الشيوعي الفلسطيني قد ارتكبا اخطاء عدة ، الا ان ياسين يكتفي باصدار الاحكام الاخلاقية ، بدلا من مناقشة سلبيات الحزب واخطاء سكرتيره العام ٠ ويكتفي ياسين باعلامنا بان حياة رضوان الحلو السياسية « كانت بلا شك ، اكبر بكثير من قدراته الفكرية والنضالية » (٢) ٠

ثامنا ، وحول دور احداث ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ في الانقسام الذي ما لبث ان اصاب الحزب في الاربعينات ، لا اجد المجال الكافي للخوض في هذه المسألة ٠ الا ان الذي يجدر ذكره هو ان ارجاع الانقسام الى تلك الاحداث ينم عن فهم خاطيء لتطور المجتمع اليهودي في فلسطين ، وعن فهم الشيوعيين لذلك التطور ٠ وكذلك ، يهمل ياسين الدور المتعمد الذي لعبه اعضاء الحزب العرب ، لا سيما مجموعة «بولس فرح» في حيفا ، في احداث الانقسام ٠ فيدعي بان الرفيق الحلو قد « عجز عن اتخاذ موقف حاسم ومحدد حيال الخلاف القومي المحتوم » ، بينما المعلوم ، هو ان الرفيق حلو قد رفض الموافقة على قيام تنظيم شيوعي تقتصر العضوية فيه على العرب (عصبة التحرر الوطني) في بلد يحتوي على اقلية كبيرة من اليهود ٠ وظل رضوان الحلو خارج اي تنظيم سياسي حتى عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ٠

تاسعا ، ونود ان نلفت نظر الكاتب ياسين الى ان الحزب لم يعقد مؤتمره الثامن « في آب ١٩٤٠ » ، وانما عقد الجناح اليهودي المطرود من الحزب مؤتمرا ادعى فيه انه يمثل الحزب بمجمله ٠ اما المؤتمر الثامن لكل الحزب فقد عقد خلال الفترة الممتدة بين ٢٦ ـ ٢٨ ايار (مايو) ١٩٤٤ ٠

عاشرا ، عاد رضوان الحلو الى صفوف الحركة الشيوعية ، بعد صدور قرار تقسيم فلسطين ، وناضل في صفوف « عصبة التحرر الوطني » في الضفة الغربية ، واعتقل من قبل السلطات الاردنية ٠ ولم يترك رضوان العصبة بعد تشكيل الحزب الشيوعي الاردني عام ١٩٥١ ، الا انه فصل من الحزب ، ولم يترك ، بعد ذلك بسبب خلافات سياسية معروفة ٠ وبقي رضوان الحلو حتى آخر ايامه محافظا على ايمانه العميق بالطريق الذي اختطه لنفسه في عام ١٩٢٧ لدى انضمامه الى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

موسى خليل البديري

شهريات

القضية الفلسطينية دوليا

□ سيطر الجمود على التحركات الدولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية فلم تطرأ في الفترة الاخيرة اية تطورات هامة في هذا الميدان على خلاف ما اعتدنا عليه في السابق وقد اعترف وزير الخارجية الامريكي بهذا الواقع عندما صرح في منتصف شهر ايار بأن استجلاء سبل السلام في الشرق الاوسط قد توقفت منذ فترة بسبب الحرب الاهلية في لبنان . وواضح ان الطرف الامريكي لا يريد الاقدام على اية خطوات قبل التأكد من الاتجاه الذي ستميل اليه محاولات ضرب المقاومة الفلسطينية في لبنان . وقد يكون هناك سبب اخر وراء هذا الجمود الدولي لم يذكره كيسنجر ويتعلق بالاعداد للمصالحة السورية المصرية المزمع اجراؤها باشراف سعودي وخليجي ، علما بان الاتجاه نحو هذه المصالحة لم يبرز الى العلن الا منذ فترة قصيرة جدا . وواضح ان الهدف من هذه الخطوة هو وضع حد للهجوم العربي الذي ما زالت تتعرض له اتفاقية سيناء المصرية - الاسرائيلية . وليس بعيدا عن كل هذا الاصداء التي ما زالت تتردد على صعيد دولي ومحلي حول امكانية عقد صفقة اسرائيلية عربية بجهود الولايات المتحدة وضماناتها يقوم الجانب العربي بناء عليها بانهاء حالة العداء مع اسرائيل ويسترد الملك حسين جزءا من الضفة الغربية كما تسترد سوريا جزءا من الجولان وبدون تحقيق اي انجاز على صعيد انشاء السلطة الوطنية الفلسطينية .

بالنسبة للولايات المتحدة هناك عدة تصريحات واخبار ظهرت في الفترة الاخيرة لا بد من رصدها بهذا الصدد . (١) الانباء التي ترددت حول قيام المسؤولين في وزارة الخارجية الامريكية واوساط اجهزة الاستخبارات بدراسة موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية دراسة مجددة يمكن ان تؤدي الى اعادة النظر بهذا الموقف ، خاصة بعد النتائج التي اسفرت عنها الانتخابات البلدية في الضفة الغربية والتي ادت الى انتصار مؤيدي منظمة التحرير على مؤيدي النظام الهاشمي . ويبدو ان الاوساط السياسية الامريكية تأمل في تحويل الزعامات الفلسطينية الجديدة في الضفة الغربية عن ولائها المباشر لمنظمة التحرير - وهي بعيدة اصلا عن الاردن - لتشكل قوة جديدة تفسح المجال امام حل مرض للقضية الفلسطينية . وذكرت هذه الانباء ان الخبراء الامريكيين يعدون في الوقت الحاضر « اوراق عمل » حول كافة جوانب النزاع العربي الاسرائيلي ، وخاصة المسائل الحساسة مثل مشكلات الحدود والاستيطان ووضع مدينة القدس والمساعدات الاقتصادية الامريكية لاسرائيل والدول العربية . ومما يؤكد جدية هذه الاخبار ما تردد في الاوساط السياسية الاسرائيلية العليا حول ملاحظتها بروز اتجاه جديد في السياسة الامريكية تجاه القضية الفلسطينية ، مما دعا رابين للتصريح قائلا بان احتمال تبديل الولايات المتحدة لموقفها من الاعتراف بمنظمة

التحرير اصبح واردا • يضاف الى ذلـــك التصريح الذي ادلى به الناطق بلسان وزارة الخارجية الامريكية في الاسبوع الثاني من شهر ايار ، حيث عبر عن معارضة حكومة بـــلاده سياسة اسرائيل الداعية لاقامة المزيد مـــن المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة وجـاء هذا التصريح بصفته امتدادا وتأكيدا لما كـان قد قاله وليام سكرانتون حول هذا الموضـــوع بالذات في خطابه امام مجلس الامن اثنـــاء المناقشة الاولى للقمع الاسرائيلي لانتفاضـــة الضفة الغربية • ٢) ـ سلسلة من التصريحات ادلى بها الرئيس فورد حول النزاع العربـــي الاسرائيلي ومشكلة الشرق الاوسط عمومـــا قال فيها : (أ) ان الوقت قد حان للبحث في تسوية شاملـــة للنزاع في الشرق الاوسط لان سياسة الخطوة خطوة وصلت الى غايتهـــا باتفاق سيناء مما يستدعي اجراء محادثـــات اضافية لتحقيق تسوية اوسع تؤدي الى السلام والاعتراف باسرائيل ، (ب) ان الولايـــات المتحدة ستبقى الضامنة النهائية لحريـــة اسرائيل وبقائها ولا ضير عندئذ من قيـــام اسرائيل باعادة الاراضي المحتلة كشرط لتحقيق السلام الدائم في المنطقة مما يعني ـ حسب كلام فورد ـ ان اسرائيل مدعوة الى اتخاذ « الخطوة الحيوية » المتعلقة بالتخلي عـــن الارض وذلك مقابل اجراءات سياسية يتخذهـا الجانب العربي (ج) ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ كادت ان تؤدي الى مجابهة بين الولايـــات المتحدة والاتحاد السوفييتي كما ادت الـــى فرض الحظر على النفط العربي مما أضـــر بالمصالح الدولية ، ويستدعي هذا الوضـــع تحرك العرب واسرائيل لانهاء نزاعهم ،(د) ان الولايات المتحدة لا تدعو الى تنازلات من طرف واحد بل الى تخلي اسرائيل عن الارض مقابـل اجراءات سياسية عربية ، وهذا يتطلب جـرأة خاصة من الجانب الاسرائيلي لان عليه «مبادلة اشياء محسوسة باجراءات غير محسوسة » ، (هـ) ان باستطاعة اسرائيل الاعتماد دومـــا على دعم الولايات المتحدة لان الصداقـــة الاساسية بين البلدين باقية على الرغم مـن بعض الخلافات بينهما حول وسائل تحقيـــق الاهداف المشتركة في الشرق الاوسط ، (و) ان الولايات المتحدة تتمتع بثقة الحكومات العربية والحكومة الاسرائيلية مما يجعل السياســـة الامريكية عامل استقرار في المنطقة • ـ ٣) التصريح الذي ادلى به الدكتور كيسنجر امام حشد يهودي امريكي حيث قال بأن الفـــرص المتوافرة حاليا لتحقيق تسوية عربية اسرائيلية لم يسبق ان توفرت في الماضي على الرغـــم من المصاعب التي ما زالت تعترض طريـــق التسوية السلمية • ومن اهم هذه المصاعـــب اضطرار الاطراف المعنية في النزاع « لاتخاذ قرارات صعبة » مثل « قيام اسرائيل مبادلة الارض بتسوية سياسية » • واضاف قائـلا بأن حكومته لا تقلل من المخاطر التي تواجـه اسرائيل نتيجة المفاوضات المؤدية الى اتخاذ مثل هذا القرار ولذلك لن تعمل الولايات المتحدة ٤) استقبال الرئيسين السادات والاســـد ٤ ـ استقبال الرئيسين السادات والاســـد والملك حسين للساناتور الامريكي جاكـــوب جافيتس المعروف بصهيونيتـه العميقـــــة والشرسة ومواقفه الحادة في مجلس الشيوخ الامريكي في تأييد اسرائيل ومعاداة العرب • ان استقبال الزعامات العربية المشرقية لمثل هذا الساناتور ملفت للانتباه بحد ذاته ، وقد صرح جافيتس اثناء جولته العربية بأن حكومـــــة بلاده قد تتدخل في النزاع العربي الاسرائيلي لعرض حلول للازمة فيما لو فشل الطرفان في التحرك نحو السلام بانفسهما واكد بـــان جولته بينت له غياب اي قابلية للحرب فـــي المنطقة ونفور كافة الاطراف نفورا كبيرا من استئناف القتال واستعدادها لتحقيق السلام وانتقص الساناتور في كلامه من اهميـــــة المشكلة الفلسطينية في التسوية السلميـــة بقوله ان « الوجود الفلسطيني او الشخصيـة الفلسطينية لا يشكلان قضية اساسية للتسوية المذكورة » كما نفى وجود اي رغبة لديـــه للاجتماع باي من الزعماء الفلسطينيين •

☐ بالنسبة لاسرائيل ادلى رابين بتصريـح هام عبر فيه عن اعتقاده ببروز امكانات لاجراء مفاوضات مع سوريا خلال الاثني عشر شهـرا المقبلة بمساعدة فريق ثالث يرجح ان يتألـف من الولايات المتحدة والعربية السعوديـــه • واشار رابين الى ان المحادثات مع سوريـــا ومصر حول انهاء حالة الحرب ستكون التطور

السياسي الايجابي الوحيد المتوقع خلال سنة من الان . كذلك اشار الى اهتمام حكومته « بالتغيير الذي تحقق في العلاقات العربية » لانه ينطوي على احتمالات اعادة كل من مصر وسوريا النظر في مواقفهما من مسالة انهاء حالة الحرب مع اسرائيل . ودعا رابين اسرائيل للعمل من اجل كسب الرأي العام الدولي والرأي العام الامريكي بشكل خاص بهدف منع منظمة التحرير من المشاركة في اية مفاوضات قد تدخلها اسرائيل مع الدول العربية . واخيرا عاد رابين الى تأكيد الموقف الاسرائيلي المعروف بقوله ان حكومته مستعدة للبحث عن حل للمشكلة الفلسطينية في اطار اتفاق مع الاردن فقط لانها ترفض رفضا باتا اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية تهيمن عليها منظمة التحرير .

☐ بالنسبة لمصر ادلى الرئيس السادات بعدد من التصريحات التي تمس ازمة الشرق الاوسط وكان اهم ما جاء فيها النقاط التالية : (أ) ان مفتاح التوصل الى السلام في المنطقة هو قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة على ان يربط بينهما شريط ارضي . وبمجرد اعلان قيام مثل هذه الدولة يمكن انهاء حالة الحرب مع اسرائيل على اساس ضمانات يقدمها مجلس الامن والدول الكبرى واية دول اخرى ترغب في ذلك ، (ب) ان اسرائيل اصبحت حقيقة قائمة بالفعل وقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ يتضمن اعترافا عربيا باسرائيل ، (ج) ان ٩٩ بالمئة من فرص التوصل الى حل لازمة الشرق الاوسط هي فيد الولايات المتحدة لذلك لا يمكن تحقيق تسوية شاملة في المنطقة الا بعد انتهاء انتخابات الرئاسة الامريكية ، (د) ان الخلافات بين الرؤساء العرب هي التي حالت دون استئناف مؤتمر جنيف للسلام حتى الان على الرغم من اتفاق كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ومصر على ضرورة استئناف اعمال المؤتمر مما يستدعي مواقف واضحة من جانب الرؤساء العرب في هذا المجال. واشار السادات الى ما كان قد صرح به سابقا حول امكانية استئناف اعمال مؤتمر جنيف « بدون الاشتراك المباشر للفلسطينيين» على ان يجري ادراج مسألة اشتراكهم على رأس جدول اعمال المؤتمر .

من ناحية اخرى اتجه نظام السادات نحو الصين على اثر الغاء معاهدة الصداقة والتعاون المصرية السوفييتية للحصول على ما ينقصه من قطع غيار حربية اصبح من المتعذر استيرادها من الاتحاد السوفييتي . وقد قام حسني مبارك بزيارة للصين الشعبية قابل خلالها الرئيس ماو تسي تونغ وكبار المسؤولين الصينيين مما اسفر عن توقيع بروتوكول عسكري بين البلدين . واعتبر مبارك ان نجاح زيارته تجاوز كل التقديرات اذ ان الحكومة الصينية لا تؤيد الحق العربي في نزاع الشرق الاوسط فحسب بل تؤيد ايضا الرئيس السادات في سياساته من اجل التنمية والبناء. واعتبر النظام المصري هذا الاتفاق بداية مرحلة جديدة في العلاقات المصرية الصينية الجديدة . وجدير بالاشارة هنا ان الاعلام المصري تابع حملته على الاتحاد السوفييتي متهما اياه بالاتجار بالاسلحة والعمل على افقار مصر واستغلالها واهانتها .

☐ اما الجانب السوفييتي فقد اصدر بيانا رسميا في نهاية شهر نيسان موجها الى كل دول العالم حيث تناول الوضع في الشرق الاوسط بما فيه الحرب الاهلية في لبنان . وقد جرى ابلاغ السيد ياسر عرفات بمضمون البيان قبل اعلانه . حذر البيان من انفجار الوضع في المنطقة ووقوع حرب خامسة فيها كما هاجم سياسة اسرائيل التوسعية واستمرارها في احتلال الاراضي العربية وفي الوقوف في وجه ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه المشروعة بانشاء دولة مستقلة له ، على الرغم من قرارات الامم المتحدة الداعية لذلك . وعبر البيان عن قلق الاتحاد السوفييتي من الانباء التي ترددت حول توصل اسرائيل الى انتاج اسلحة نووية كما انتقد « الصفقات المنفردة » في الشرق الاوسط و « المحاولات الواضحة » لانزال ضربة في حركة المقاومة وجر العرب الى الاقتتال فيما بينهم (في لبنان) والحشود الاسرائيلية على حدود لبنان الجنوبية وتمركز السفن الحربية الامريكية على مقربة من شواطىء لبنان . بالاضافة الى ذلك اكد

البيان مجددا القواعد المقبولة لايجاد تسوية سياسية جذرية لازمة الشرق الاوسط على اساس :

(أ) انسحاب القوات الاسرائيلية من جميع الاراضي المحتلة (ب) تلبية المطالب الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه المشروع في انشاء دولته المستقلة (ج) توفير ضمانات دولية لامن كل دول المنطقة وسلامتها وحقها في الوجود والتطور المستقل • أخيرا دعا البيان الى استئناف اعمال مؤتمر جنيف باشتراك كافة الاطراف المعنية بما في ذلك منظمة التحرير • وللمرة الاولى يقترح الجانب السوفييتي عقد المؤتمر على مرحلتين : مرحلة اولى لحل المسائل التنظيمية والاجرائية ومرحلة ثانية لحل القضايا الجوهرية الواجب حلها لتحقيق التسوية الشاملة في المنطقة على ان تشترك منظمة التحرير في كلا المرحلتين •

□ في هيئة الامم اجتمع مجلس الامن للمرة الثانية خلال الشهرين الماضيين لمناقشة القمع الاسرائيلي لانتفاضة الضفة الغربية على سلطات الاحتلال • وكما في المرة الاولى جاء اجتماع المجلس نتيجة طلب عاجل من مصر دعت فيه هذه الهيئة الدولية لتحمل مسؤولياتها ازاء عمليات اسرائيل الارهابية ضد السكان العرب في الضفة الغربية والعقبات التي تضعها اسرائيل على طريق تحقيق سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط • وعلق وزير الخارجية المصري على دعوة بلاده لانعقاد مجلس الامن بقوله ان الاصرار الاسرائيلي على تحدي ارادة المجتمع الدولي واستخفافها بالرأي العام العالمي يشكلان موقفا لا يمكن السكوت عليه ويقتضي ردا حاسما من المجلس على وجه السرعة •بدأ مجلس الامن مناقشاته بالتصويت مرة اخرى على موضوع مشاركة منظمة التحرير في مناقشات مجلس الامن ، وكالعادة صوتت الولايات المتحدة ضد دعوة المنظمة وامتنعت فرنسا وبريطانيا وايطاليا عن التصويت وحاز مشروع القرار على الاغلبية المطلوبة في المجلس • جدير بالاشارة ان مناقشات المجلس طالت كثيرا عما هو معتاد في مثل هذه الاجتماعات ، ولم تثر كبير اهتمام بسبب تكرار المواقف المعروفة للاطراف المشاركة في المداولات والعلم المسبق بان اي مشروع قرار جدي قد يمس اسرائيل ستعارضه امريكا وتبطل مفعوله عن طريق استخدام حق النقض • وحتى ما بعد منتصف شهر ايار لم يكن اي طرف في المجلس قد تقدم بمشروع قرار او طرح مثل هذا المشروع في الكواليس • مع ذلك لا بد من الاشارة الى النقاط التي اثارها ممثل منظمة التحرير في مناقشات مجلس الامن : (أ) التأكيد على ان اساس المشكلة هو الاحتلال الاسرائيلي نفسه والذي زادته سوءا طبيعة اسرائيل العنصرية واهدافها التوسعية ، (ب) التأكيد على شرعية الكفاح المسلح في وجه الاحتلال الى ان يتم دحر السيطرة الصهيونية (ج) التأكيد على ان « الفيتو السلبي والاستبدادي » للولايات المتحدة هو الذي منع المجلس من ادانة اسرائيل منذ ٦ اسابيع وذلك انسجاما مع السياسة الامريكية التي جعلت استخدام حق النقض امرا بديهيا في مواجهة اي قرار يدين السياسة الصهيونية واعمالها وسلوكها العنصري ومواجهة اي مشروع قرار يؤكد الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني • ومن ناحية اخرى ندد وزير خارجية اسرائيل بمناقشات مجلس الامن متهما اياه بتجاهل الموقف في لبنان وتوجيه اهتمامه للضفة الغربية مدعيا ان دعوة المجلس اصلا كانت لاسباب تتعلق بالخلافات القائمة بين الدول العربية • وانتقد الون الموقف المصري في مجلس الامن لانه لا يتفق مع نص اتفاق سيناء وروحه مشددا على ان المستقبل السياسي للضفة الغربية سيتقرر عبر مفاوضات بين اسرائيل والدول العربية المجاورة • واكد ان سياسة اسرائيل في الضفة الغربية لن تتحيز ولن تتأثر باية مناقشات تجري في مجلس الامن •

□ عقد وزراء خارجية الدول الاسلامية مؤتمرهم السابع في اسطنبول بمشاركة منظمة التحرير • واستحوزت القضية الفلسطينية على قدر كبير من اهتمامات المؤتمر ووقته وتوصياته • وجدير بالاشارة ان رئيس وزراء تركيا ندد في خطابه الافتتاحي بالغزو الاسرائيلي للاراضي العربية وبضمها كما اعلنت تركيا رسميا ـ اثناء انعقاد المؤتمر ـ

اعترافها بمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني · واجمع الخطباء على ادانة اسرائيل وعلى المطالبة بانسحاب قواتها من الاراضي العربية المحتلة ووضع حد لاضطهاد المواطنين العرب الواقعين تحت حكم السلطة الاسرائيلية · ومن اهم التوصيات التي اقرها المؤتمر : (أ) ادانة الصهيونية كشكل من اشكال العنصرية ب) تأييد الكفاح الذي يخوضه الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة وادانة التصرفات التي تقوم بها السلطات الاسرائيلية في تلك الاراضي جـ) مطالبة الدول الاعضاء في الامم المتحدة العمل على طرد اسرائيل من المنظمة الدولية د) التأكيد على ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني · وقرر المؤتمر انشاء صندوق رأس ماله ٥٠ مليون دولارا للمحافظة على الطابع العربي الاسلامي لمدينة القدس ومساعدة سكان الاراضي العربية المحتلة كما ادان التواطؤ القائم بين جنوب افريقيا واسرائيل داعيا جميع الدول الى وقف الدعم العسكري والمادي والبشري لاسرائيل · وعلى اثر انتهاء المؤتمر صدر بيان ختامي اكد ان الوضع في الشرق الاوسط يتدهور باستمرار مما يهدد العالم بانفجار واسع ومرير كما واعتبر قضية فلسطين محور هذا الوضع · واشار البيان الى انه لا يمكن اقرار السلام العادل والدائم في المنطقة الا على اساس انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني واقامة دولته المستقلة · ووصف البيان اسرائيل بانها قاعدة امامية للاستعمار في قلب العالم الثالث كما شجب التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا وادان الصهيونية كشكل من اشكال العنصرية ·

القضية الفلسطينية عسكريا
الكفاح المسلح جنبا الى جنب الانتفاضات الجماهيرية في الارض

على الرغم من الجهود التي تبذلها اجهزة الامن الاسرائيلية في محاولة منها لوقف تدهور الوضع الامني في داخل الارض الفلسطينية المحتلة واصل الثوار الفلسطينيون تنفيذ عملياتهم العسكرية في داخل الارض بجرأة واقدام ·

ففي ١٩٧٦/٣/١٥ ذكرت مصادر الشرطة الاسرائيلية انه عثر على ثلاث جثث في حطام حريق اندلع في مجمع للصناعات الصغيرة في تل ابيب · وكانت النيران قد اندلعت في مصنع صغير للمعادن ومصنع اخر للمطاط بالاضافة الى مستودع للقطن ، ووقعت الحرائق كلها في منطقة تعرضت خلال الاشهر الثلاث الاخيرة الى عدة حرائق ، كان احدها الحريق الذي شب في مستودع تابع لصحيفة هارتس · وكانت مصادر فلسطينية قد اعترفت بمسؤوليتها عن هذه الحرائق التي نجم عنها تدمير خمسة مصانع اسرائيلية ، في حين ذكرت الصحف الاسرائيلية عن بعض هذه الحرائق الا انها كعادتها لم تذكر اسباب اندلاع هذه النيران · (المحرر ١٩٧٦/٣/١٦ والنهار ١٩٧٦/٣/١٧)

وفي ١٩٧٦/٣/١٩ تمكن الثوار الفلسطينيون من وضع عدة عبوات ناسفة حارقة داخل احد الباصات السياحية الصهيونية في القدس المحتلة وعبوة اخرى في داخل سيارة شحن عسكرية في مدينة اشدود وقد انفجرت العبوتان في اوقاتهما واحدثت اضرار مادية بالغة في الباص والسيارة العسكرية · (المحرر ٣/٢٠/ ١٩٧٦) ·

وفي بلاغ اخر ذكرت المصادر الفلسطينية ان الثوار الفلسطينيين هاجموا بعض

المستوطنين اليهود في كريات اربع عندما كانوا يحاولون التوجه الى مدينة الخليل للاعتداء على المواطنين العرب في المدينة مستغلين بذلك زيارة الحاكم العسكري الاسرائيلي لها • وقد فتح الثوار رشاشاتهم الاتوماتيكية عليهم مما نجم عنه قتل وجرح عدد منهم • (المصدر نفسه) •

وفي ١٩٧٦/٣/١٩ ذكرت الانباء الواردة من الحدود الجنوبية للبنان انه ظهرت في صبيحة ١٩٧٦/٣/١٨ حشود الية عسكرية اسرائيلية في مواجهة خراج ميس الجبل وبليدا اللبنانيتين • وظلت حركة الاليات ملحوظة بالعين المجردة حتى ساعة مبكرة من يوم ١٩٧٦/٣/١٩ ، وكانت تتجمع داخل المستعمرات القريبة من الحدود اللبنانية (النهار ١٩٧٦/٣/٢٠) وتجيء هذه التحركات في اعقاب ازدياد عمليات الفدائيين الفلسطينيين ونجاح معظمها في عمق الاراضي المحتلة والانتصارات العسكرية التي حققتها القوى الوطنية على الانعزاليين في كافة الجبهات في لبنان • وهكذا يثبت للجميع ان ما تقوم به القوى الانعزالية من تصعيد عسكري في معظم الجبهات انما تستفيد منه اسرائيل •

وفي ١٩٧٦/٣/٢٠ اعلن الناطق العسكري الفلسطيني ان احدى المجموعات العاملة داخل الارض المحتلة تمكنت من وضع عبوات ناسفة وحارقة موقوتة داخل النادي الليلي وقاعة الاستقبال والمستودعات التابعة لفندق « بارك » الواقع عند شاطىء شارع « هرتزل ـ هميلش » في ناتانيا • وفي الساعة (٠٤٢٠) صباحا انفجرت العبوات الموقوتة فادت الى نسف اجزاء من الفندق واندلاع النيران في الطابق الاول والثالث والسابع من مبنى الفندق وسرعان ماامتدت النيران الى الطوابق الاخرى• كما قامت المجموعة نفسها بقطع التيار الكهربائي عن جميع المنطقة الغربية من المدينة ثم انسحبت الى قواعدها سالمة (المحرر ١٩٧٦/٣/٢١) وفي تل ابيب اعترف ناطق بلسان البوليس الاسرائيلي بالحادث وادعى ان شخصين فقط قد قتلا واصيب ٤٢ شخصا بجروح • (المصدر نفسه) •

ومن جهة اخرى وضع الثوار الفلسطينيين عبوة ناسفة شديدة الانفجار داخل صالة المسافرين في محطة الباصات المركزية الواقعة مقابل مدرسة « شمدت » في باب العمود في القدس المحتلة ، وقد ادى الانفجار الى تدمير جزء كبير من مبنى المحطة وتدمير واصابة عدد من باصات شركة « ايجد » الاسرائيلية وقتل وجرح عدد من الصهاينة (المصدر نفسه)

وفي الذكرى الثامنة لمعركة « الكرامة » البطولية نفذ الثوار الفلسطينيون داخل الوطن المحتل اربع عمليات جريئة • ففي يوم ١٩٧٦/٣/٢٣ نصبوا كمينا لدورية اسرائيلية محمولة على الطريق بين مستوطنتي يفتاح والمنارة في منطقة الجليل الاعلى • فقد هاجم افراد الكمين مجنزرة للعدو كانت تقوم باعمال الدورية ، وقذفوها بالقذائف الصاروخية والاسلحة الرشاشة وتمكنوا من تدمير الالية وقتل وجرح من فيها • (المحرر ١٩٧٦/٣/٢٥)

وفي بلاغ اخر ذكر الناطق الفلسطيني ان احدى المجموعات المقاتلة التابعة للقوات الخاصة نصبت مساء يوم ١٩٧٦/٣/٢١ عدة كمائن للدوريات الاسرائيلية ما بين قرية بيت امر ومستوطنة كفار عصيون وذلك بأن سدت الطريق الرئيسي الموصل بين القرية والمستوطنة بالحجارة • وفي الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه مرت دورية اسرائيلية على الطريق المذكور مؤلفة من الية نصف مجنزرة وناقلة جنود وعدد من سيارات الجيب وتوقفت امام الحاجز لفتح الطريق ، غير ان الثوار فاجأوها بالرشاشات والاسلحة المضادة للدروع والقنابل اليدوية وتمكنوا من اصابة الالية واحراقها وتدمير نصف المجنزرة وقتل جميع من فيهما • وعلى الاثر دفع العدو بقواته الى ارض المعركة في محاولة لتطويق ثوارنا واشرك في ذلك طائراته الهليوكبتر فدارت بين ثوارنا والقوات الاسرائيلية معركة كبيرة استمرت حتى الساعة الواحدة صباحا من اليوم التالي • وذكرت الانباء الواردة من الارض المحتلة انه نتيجة للمعركة طوقت القوات الاسرائيلية قرية « بيت امر » وفرضت نظام منع التجول في المنطقة وقامت باقتحام

القرية بحثا عن الفدائيين . (المصدر نفسه).

ثم قال الناطق الفلسطيني ان ثوارنا في الارض المحتلة اصابوا ضابط مخابرات اسرائيلي يدعى (موريس) بجروح خطيرة عندما اطلقوا النار عليه فيما كان يستقل سيارته متوجها لعمله . (المصدر نفسه) وفي بلاغ رابع ذكر الناطق نفسه ان قوات الداخل هاجمت سيارة شحن عسكرية اسرائيلية بالقرب من قرية « عيناتا » فقتلت وجرحت من فيها من جنود مظليين . (المصدر نفسه).

وفي هذا الاثناء اثار دخول القوات السورية الاراضي اللبنانية قلق اسرائيل مما حدا بالقيادة العسكرية الاسرائيلية الى ارسال طائراتها لاستطلاع تحركات القوات السورية واماكن انتشارها وتواجدها . وقد كتب مراسل صحيفة معاريف الاسرائيلية العسكري نقلا عن مصادر اسرائيلية مأذونة عن علم القيادة الاسرائيلية بوجود جنود سوريين في داخل الاراضي اللبنانية ، الا ان هذا المراسل افاد بأن القوات السورية لم تقترب مباشرة من الحدود الجنوبية للبنان والى انه لم يسجل عن وجود اي نشاط عسكري سوري غير عادي في المنطقة . وقد قدرت المصادر الاسرائيلية عدد العسكريين السوريين المتواجدين بالاراضي اللبنانية ما بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠٠ جندي . وذكرت القيادة العسكرية الاسرائيلية انها لا ترى بناء على ذلك دخول اي تغيير جوهري على الموقف العسكري بينها وبين السوريين ،وانها ازاء هذا الموقف المستجد الطارىء تتابع الموقف باهتمام ويقظة بالغة ، وانها اضطرت نتيجة لهذا التواجد السوري فيلبنان الى تكثيف دورياتها العسكرية العاملة قرب الحدود الشمالية معلبنان واضافت ان هذه التحركات السورية لم تدخل اي جديد على وضع القوات السورية المرابطة في هضبة الجولان والتي تتألف اساسا من وحدات مدفعية ومجموعات الدفاع الجوي . ثم اوضحت ان التحركات السورية في لبنان لا يقصد بها سوى سيطرة هذه القوات على الموانيء والمطارات والمحاور الرئيسية والمؤسسات الحكومية الهامة لدوافع امنية بحتة . (النهار ٧٦/٤/٧)والجدير بالذكر ان اسرائيل كانت قد اعلنت مرارا وتكرارا في السابق ان دخول اي قوات عربية الى لبنان وخاصة سورية سيضطرها الى التحرك ضد لبنان . ولكن يبدو هذه المرة ان دخول القوات السورية لم يثيرها بعد تلقيها ضمانات من الولايات المتحدة .

وفي ١٩٧٦/٤/٧ قصف الثوار الفلسطينيون عددا من الاهداف الجوية المعادية في قلب مدينة القدس المحتلة بالصواريخ الثقيلة واصابوا الاهداف المحددة بدقة . وقد استهدف القصف « جفعات هانينا » وشوهدت النيران تندلع في هذهالاهداف بعد قصفها ،كما شوهدت سيارات الاسعاف تقوم بنقل القتلى والجرحى الى المستشفيات . وفي اسرائيل اعترف ناطق عسكري بالقصف لكنه كعادته ذكر انه اصيب نتيجة للحادث ثلاثة اشخاص بجروح خفيفة . (المحرر ١٩٧٦/٤/٨) .

وفي نابلس قامت وحدة فدائية تابعة لقوات الداخل بقصف مقر الحاكم العسكري الاسرائيلي في المدينة بصواريخ « كاتيوشا » شديدة الانفجار وقد نجم عن القصف وقوع خسائر بين الاسرائيليين . وفي تل ابيب اعترف ناطق عسكري اسرائيلي بالقصف لكنه ادعىان الصواريخ سقطت بالقرب من سجن نابلس . ثم اضاف انه تم العثور على السيارة التي استعملت في عملية القصف وادعى القاء القبض على الفدائيين الذين قاموا بالعملية (المحرر ١٩٧٦/٤/١٠) .

وفي غزة تمكن الثوار الفلسطينيون من تدمير سيارة عسكرية للعدو محملة بالجنود اثناء مرورها على الطريق الرئيسي ما بين منطقة الجوازات ومعسكر الجيش الاسرائيلي المحتل الواقعة جنوب مدينة « رفح » بالقطاع فقد مرت السيارة على لغم وضعه الثوار مما ادى الى قتل وجرح جميع من فيها (المحرر ١٣/ ١٩٧٦/٤) .

وعلى صعيد اخر احرق الثوار الفلسطينيون مصنعا للورق داخل المدينة الصناعية في مدينة اسدود وذلك بعد ان زرعوا عددا من العبوات الموقوتة الحارقة داخل المصنع بعد قطع التيار الكهربائي عنه . وقد اتت النار على جزء كبير من المصنع بعد ان امتدت الى مستودعات

الورق المجاورة واتت عليها بالكامل رغم مكافحة رجال الاطفاء للحريق . وبعد الحادث قامت السلطات الاسرائيلية باعتقال عشرات المواطنين العرب كما اقامت عددا من الحواجز في الشوارع الرئيسية ومداخل المدينة ، لكن ثوارنا تمكنوا من الافلات والعودة الى قواعدهم سالمين (المحرر ١٩٧٦/٤/١٨) .

وفي ١٩٧٦/٤/١٩ تمكن الثوار الفلسطينيون من تدمير مستودع لمواد البناء في شارع (كروشيه كهير) في تل ابيب فقد تمكن الثوار من وضع عبوات حارقة داخل مستودع المصنع وفي الساعة (٠٤٠٠) صباحا انفجرت العبوات وادت الى تدمير واجهة المستودع واشعال النيران في محتوياته . كما امتدت النيران الى الطابق الاول من المبنى. (المحرر ١٩٧٦/٤/٢٠)

وفي الوقت نفسه نجح الثوار في وضع عبوات حارقة موقوته داخل مصنع للادوات المنزلية في شارع « معريزيت » في يافا . وقد انفجرت العبوات محدثة تدميرا كبيرا في محتويات المصنع بالاضافة الى تصديع احد جدرانه ، كما اصيبت نتيجة للانفجار عدة سيارات تابعة لادارة المصنع كانت تقف بالقرب من موقع الانفجار (المصدر نفسه) .

وفي القدس ، نفذ الثوار اربع عمليات جريئة ، فقد تمكنت المجموعة الاولى من وضع عبوات ناسفة شديدة الانفجار بالقرب من صندوق العمال الصهيوني « كومات حوليم » في شارع شتراوس بالقدس كما زرعت عبوات اخرى داخل مبنى مخابرات العدو في الشارع نفسه . وفي الساعة (١٠٠٠) اكتشف العدو العبوات الموجودة قرب الصندوق واستدعيت قوات الشرطة وخبراء المتفجرات لابطال مفعول العبوات . واثناء محاولة فك المواد المتفجرة انفجرت وادت الى قتل ضابطين من شرطة العدو وجرح قائد شرطة القدس . وقتل خبير المتفجرات وهو برتبة ملازم اول وعدد اخر من افراد العدو ، وفي هذه الاثناء انفجرت العبوات داخل مبنى المخابرات وادى انفجارها الى تصدع احد جدران المبنى وتحطيم معظم محتوياته واصابة عدد من افراد العدو . (المحرر ١٩٧٦/٤/٣٠) . وفي ثلاثة بلاغات اخرى صدرت عن الناطق العسكري الفلسطيني ، ذكر ان الفدائيين دمروا خط التوتر العالي في منطقة رعنان ، وهاجموا حاجزا للشرطة في الشارع الرئيسي بمدينة هرتسليا وقتلوا وجرحوا عددا من افراد الحاجز. كذلك هاجم الثوار مبنى مضخات المياه التي تزود منطقة حولون جنوبي تل ابيب بالماء وتمكنوا من تدميره . (المصدر نفسه) وفي تل ابيب ذكرت وكالات الانباء ان اجهزة الامن الاسرائيلية اعتقلت (٤٠٠) عربي في اثر وقوع الانفجارين في مدينة القدس . وتقول المصادر ذاتها ان هؤلاء يجري استجوابهم من قبل ضباط الامن الاسرائيليين . (المصدر نفسه) .

ورغم الاجراءات الامنية المشددة التي اتخذها العدو في مدينة القدس المحتلة ، نفذ الثوار في الداخل عملية اخرى جريئة في المدينة . ونقلت وكالات الانباء الاجنبية انباء الحادث بقولها انه سمع صوت انفجار عنيف وقع في وسطمدينة القدس بفعل عبوات ناسفة كانت موضوعة على دراجتين ناريتين وقد توجه الى مكان الحادث عددكبير من سيارات الاسعاف وعربات الاطفاء . وافادت المصادر نفسها ان الدوائر الاسرائيلية ذكرت ان (٢٨) شخصا قد جرحوا ، وجراح احدهم خطرة (المحرر ١٩٧٦/٥/٤) . وفي اعقاب الحادث صرح ناطق عسكري فلسطيني انه ردا على اجراءات العدو الوحشية والبربرية ضد اهلنا في الوطن المحتل التي يحاول من خلالها قمع انتفاضتهم الجماهيرية للرد على المتطرفين اليهود من منظمة (غوش امونيم) حيث استشهد نتيجتها عدد من المواطنين العرب ، فقد صدرت التعليمات الى احدى مجموعاتنا بوضع عبوات ناسفة موقوتة شديدة الانفجار في شارع بن يهودا وفي الوقت المحدد انفجرت العبوات وادت الى وقوع اصابات وخسائر مادية كبيرة بالعدو . (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٦/٥/١٢ تمكن الثوار من زرع عبواتهم الناسفة الموقوتة داخل صالة سينما (ايحاد) في شارع « هيركون » في قلب تل ابيب وانفجرت العبوات في الوقت المحدد

وادت الى جرح وقتل عدد من افراد العـــدو وتدمير اجزاء الصالة • (المحرر ١٩٧٦/٥/١٣) كما شن الثوار في اليوم نفسه هجوما بالصواريخ الثقيلة على مستوطنة كريات خمسة التـــي اقامها العدو على طريق بيت لحم ـ كفـــار عصيون • كذلك استهدف القصف الصاروخي مستوطنة وادي دروسيا التي اقامها العـــدو قرب قرية عجور في لواء الخليل • ونتج عـــن القصف تدمير عدد من الابنية واندلاع النيران فيها وقتل وجرح عدد من افراد الـــعدو • (المصدر نفسه)

ح • ع •

المناطق المحتلة

حافظت الانتفاضة الجماهيرية ضد الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية ، في الفترة بين ١٥ نيسان و ٢٠ ايار ، على شدة اندفاعهـا وزخمها ، متخذة نفس الاشكال السابقـــة ـ الاضرابات العامة ، اضرابـــات المدارس ، التظاهرات والاشتباكات مع قوات الاحتـــلال بالحجارة والعصي واحيانا زجاجات المولوتوف الحارقة • وقد جابهت سلطـــات الاحتـــلال التظاهرات ، كما في السابق ، بالقمع الوحشي، واسفرت الاشتباكات عن مقتل وجرح عدد من جنود الاحتلال ، واستشهاد وجرح الكثير مـــن ابناء الضفة ، واعتقال العشرات من المتظاهرين والمناضلين • وأثارت ردود فعل عنيفة بصورة خاصة ، لدى ابناء الضفة الغربية ، المسيرة الاستفزازية التي دعت اليها كتلة « غوش ايمونيم » اليمينية المتطرفة ، وشارك فيهـا حوالي عشرين الف اسرائيلي ، انطلقوا مـــن القدس الى اريحا يومي ١٩ ـ ٢٠ نيسان ، ردا على « يوم الارض » الفلسطيني ، واظهارا لاصرار المتطرفـين عـلى المضـي قدمـا في الاستيطان اليهودي في جميع انحاء الضفـــة الغربية • وفي نفس الفترة التي يُغطيها هذا التقرير (١٥ / ٤ ـ ٢٠ / ٥ / ٧٦) ، نفـذت المقاومة الفلسطينية المسلحة عددا من العمليات العسكرية ضد اهداف اسرائيلية في المناطـق المحتلة ، واعلنت سلطات الاحتلال عن اكتشاف عدد من شبكات المقاومة في الضفة •

ومن ناحية اخرى ، تسلمت المجـــالس البلدية والقروية في الضفة الغربية ، المنتخبـة حديثا ، مسؤولياتها في الاسبوع الثالث من نيسان ، وحدد عدد من رؤسائها مواقفه مـن مسألة تمثيل الشعب الفلسطيني وحـــدود التعامل مع السلطات المحتلة •

وفي تطور خطير على صعيد موقف الحكومة الاسرائيلية من الاستيطان في الضفة ، صرح شمعون بيرس ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، ان الحكومة الاسرائيلية قررت انشاء سلسلة ثانية من المستوطنات الاسرائيلية الاهلـــة بالسكان في الضفة الغربية •

وقائع الانتفاضة :

افاضت شؤون فلسطينية (العدد السابق) في معالجة اسباب الانتفاضة ، وابعادهـــا ، ومغزاها • ولذلك نكتفي هنا بعرض الوقائـع في الفترة التي يغطيها التقرير : بعد فتـــرة وجيزة من اعلان نتائج الانتخابات البلدية ، اقدم احد العملاء الاسرائيليين المعروفين فـي رام الله ، عبد النور خليل جنحو ، ومعه عدد من الاعوان ، على اقتحام منزل المواطن فخري عثمان موسى عيسى ، واطلاق النار علـــى الموجودين فيه ، مما ادى الى استشهاد المواطن خليل محمود عيسى واصابة المواطن فخري عثمان عيسى بجراح خطيرة • وقد حدثت هذه الجريمة يوم ١٦ نيسان ، واتت بعد سقـوط جنحو في الانتخابات البلدية • وفي اليوم التالي (١٩٧٦/٤/١٧) ، اجتاحت مدينة رام اللـــه

مظاهرات صاخبة ، احرق المتظاهرون خلالهـــا المحلات التجارية العائدة لجلحو وبعض العملاء المحليين ، واقاموا المتاريس في الشوارع ، واشعلوا النار في اطارات السيارات · وتدخلت قوات الاحتلال ضد المتظاهرين الذين اشتبكوا معها ، واطلقت النار عليهم ، مما ادى الـــى استشهاد شاب عربي · وتضامنت نابلس مع مدينة رام الله ، وشهدت في اليوم نفســـه مظاهرة ضخمة ضد الاحتلال ، اشتبكت مـــع قوات الامن ، بينما اغلقت جميع المتاجـــر ابوابها ·

ـ يوم (١٩٧٦/٤/١٩) : تجددت المظاهرات والاشتباكات الدامية في جميع مدن الضفـــة الغربية ، احتجاجا على السماح بمسيرة غوش ايمونيم المشار اليها اعلاه · في نابلس ، اقام المتظاهـــــرون متاريس في الشوارع ، واستخدموا زجاجات المولوتوف الحارقة · واعلن متحدث اسرائيلي ان عربيا من اهالي المدينـــة قتل ، وجرح اثنان ، في اعقاب اطلاق دورية اسرائيلية نيران المدافع الرشاشة على مجموعة كبيرة من العرب هاجمتها داخل البلـــــدة القديمة · وحدثت اشتباكات في مخيم عسكر بجوار نابلس ، استشهد نتيجتها مواطـــن عربي ، وجرح ١٦ اخرون ، وتم في اثرهـــا فرض منع التجول على مخيمي عسكر وبلاطه، واعتقال ٢١ مواطنا · وفي اريحا ، هدف المسيرة الصهيونية ، ادت الاشتباكات الى جرح ٣ عرب ، واعتقال ٣٠ اخرين · وقامت قـــوات الامن بتوجيه المسيرة الى مراكز خارج المدينة ، التي فرض عليها حظر التجول · وفـــي بيرزيت جرح الجنود الاسرائيليين ١٢ عربيا ، واعتقلوا ٢١ اخرين ، وتم فرض منع التجـول على البلدة · واستخدم المتظاهرون في الخليل الحجارة وقنابل المولوتوف ضد القـــــوات الاسرائيلية التي تصدت لمظاهراتهم ، ونجـم عن الاشتباكات اصابة ١٤ مواطنا بجـــراح ، واعتقال ١٧ متظاهرا · واصيب خلال هـــذه الاشتباكات عدد كبير من افراد القوات المحتلة·

ـ (٢٦ / ٤/ ٧٦) : المظاهرات والاشتباكات والاضرابات مستمرة · منعت السلطـــــات الاسرائيلية دخول السياح الى بعض مناطـق القدس بعد تجدد المظاهرات فيها ، وقمعـــت قواتها المظاهرات التي قامت فيها وفـــي نابلس وطولكرم وجنين ، واعلن الحاكـــــم العسكري فرض منع التجول في الســـــوق الرئيسية في طولكرم والمخيم المجاور للمدينة · وقدمت محطة « سي بي اس » الاميركيـــة احتجاجا الى الحكومة الاسرائيلية لقيـــام قوات الامن باحتجاز واتلاف الافلام التي قامت بعثتها الصحافية بالتقاطها لمظاهرات العرب داخل الاراضي المحتلة ·

ـ يوم (٧٦/٤/٢٢) : سارت مظاهـــــرة للطالبات في القدس ، واشعلت اطـــــارات السيارات داخل البلدة القديمة ، واستمـــر اغلاق المتاجر في طولكرم ، واضراب الطــلاب فيها ، كما استمر حظر التجول في الســـوق الرئيسية والمخيم القريب منها ·

ـ يوم (٢٣/ ٤/ ١٩٧٦) : وقعت اشتباكات بين المتظاهرين وقوات الامـــن في اريحا ، أسفرت عن جرح ١٧ مواطنا ، واعتقـــال ٢١ مواطنا و ١٢ طالبا وطالبة · ووقعت اشتباكات ايضا في القدس · وتوفي في رام الله طفـــل عمره ست سنوات متأثرا بجراح اصيب بها في الاسبوع الفائت · وتوفي في نابلس رجـــل عمره ٥٥ سنة نتيجة الاشتباكات ، وقامت السلطات الاسرائيلية باغلاق الحي القديـــم في المدينة ببوابات حديدية · واستمر فـــرض منع التجول على المخيم القريب من طولكرم ·

ـ يوم (٢٥/ ٤/ ١٩٧٦):استمر اضراب الطلاب والمعلمين في الضفة ـ حطـــم اهالي نابلس خلال الليل ثلاثا من البوابات العشر التـــي اقامتها السلطات الاسرائيلية في مداخل الحـي القديم لمنع المظاهرات ـ قامت في جنيـــن مظاهرة فرقتها سلطات الاحتلال

ـ شهر ايار (من ١ ـ ٢٠ ايار) : في مطلع شهر ايار ، عيد العمال تجددت الاضرابـــــات والمظاهرات والاشتباكات على نطاق واسع في جميع انحاء الضفة الغربية ، وامتدت الى قطاع غزة · وقد سقط في الاشتباكات التي جـرت بين المتظاهرين وقوات الامن عدد من القتلى ، وعشرات من الجرحى من الطرفين ، واعتقلت سلطات الاحتلال العشرات من المتظاهرين ،

واضطرت الى فرض منع التجول في معظم المدن والقرى • وقد ارغم امتداد الانتفاضة الى غزة رئيس بلديتها المعروف بعلاقاته الحسنة مع الاسرائيليين ، رشاد الشوا ، على تقديم استقالته • وفي اليوم التالي ، ٢ ايار ، ارسلت قوات الاحتلال تعزيزات عسكرية قدرت بالاف الجنود الى مدينة رام الله ومدن الضفة الغربية الاخرى لاخماد الاضطرابات ، والحؤول دون قيام سكان الضفة الغربية بمسيرة ردا على مسيرة « غوش ايمونيم » الصهيونية ، تنطلق من القدس الى رام الله ، وتعبر عن اصرار الفلسطينيين العرب على التمسك بارضهم ورفضهم لاحتلال • وذكرت وكالات الانباء ، نقلا عن الصحف الاسرائيلية ان ميجور اسرائيلي اوقف عن العمل بسبب قتله مع جنوده المواطن احمد دهلول ، سكرتير الحزب الشيوعي في بلدة سلفيت • وقد قتل المواطن دهلول نتيجة الضرب الشديد الذي تعرض له على ايدي الجنود الاسرائيليين ، مع ستة عرب اخرين نقلوا الى المستشفى ، بناء على تعليمات من الميجور المشار اليه •

واستمرت المظاهرات والاشتباكات في الايام التالية ،بصورة متقطعة هنا وهناك ، الى ان عادت فانفجرت بصورة شاملة وبالغة العنف،في يوم ذكرى النكبة ، ١٥ ايار • ففي يوم ١٤ ايار ، وزعت الاف من المنشورات في مدن الضفة الغربية وقطاع غزة ، تدعو المواطنين الى الاضراب والتظاهر بمناسبة الذكرى ، وللاعراب عن « التضامن مع اليسار الذي يقاتل في لبنان » • وقامت قوات الامن ، بالمقابل ، بحملة اعتقالات في القدس والضفة شملت عددا من الاشخاص المعروفين بمواقفهم المناهضة للاحتلال الاسرائيلي ، ووضعت القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة في حالة تأهب • ولكن الجماهير لم تردعها الاجراءات الاسرائيلية ، وخرجت صبيحة يوم ١٥ ايار في مظاهرات شاملة ، اشتبكت مع القوات الاسرائيلية ، وسقط فيها عدد من القتلى وعشرات من الجرحى ، مما اضطر السلطات الاسرائيلية الى فرض حظر التجول في عدد من المدن والقرى ، والقيام بحملة اعتقالات واسعة شملت المئات • واثار المشاعر بصورة خاصة ، سقوط الشهيدة لينا حسن النابلسي ، من مناضلات فتح ، برصاص قوات الامن في نابلس • وقد تجددت الاشتباكات بين المتظاهرين وقوات الامن ، طيلة الايام التالية، وحل يوم ١٨ ايار وحظر التجول مفروض على كبريات المدن العربية في الضفة : نابلس ورام الله والبيرة ، وجنين وطولكرم ، فيما شهدت القدس اضرابا شاملا وتظاهرات عنيفة اشتبك خلالها المتظاهرون مع قوات الجيش الاسرائيلي ، وسقط شهيدا شاب من ابناء القدس • وقد صرح مصدر اسرائيلي ، في ١٨ ايار ، انه تم اغلاق جميع مدارس وكالة غوث اللاجئين التابعة للامم المتحدة في المناطق المحتلة • وفي لندن علقت صحيفة « الديلي تلغراف » البريطانية المحافظة والموالية لاسرائيل على الانتفاضة الجماهيرية: « ان الروح القومية الفلسطينية قد اصبحت للمرة الاولى بمثابة قوة حقيقية في الضفة الغربية المحتلة ، كما ان هذه الروح بدأت تسري من جديد لدعم العرب في داخل اسرائيل نفسها » • وعلقت صحيفة « همو ديع» الاسرائيلية على الموضوع بقولها : « يبدو ان العرب في المناطق المحتلة وفي اسرائيل لا يتحدثون عن دولة فلسطينية داخل الضفة الغربية فحسب ، بل يريدون ضم الجليل باسره لهذه الدولة » •

شهادات اسرائيلية :

اجمعت الصحف الاجنبية ووكالات الانباء على ان رد فعل القوات الاسرائيلية على الانتفاضة كان وحشيا واتسم بالعنف البالغ • وعلى الرغم من عدم توفر صحف اسرائيلية تعود الى الفترة الاخيرة ، فان اقتباس ما كتبه عدد من الصحف الاسرائيلية الصادرة في نهاية شهر اذار وبدايات نيسان ، قد يكون مفيدا من زاوية كونه شهادة ضد قوات الاحتلال ، صادرة عن اسرائيليين • كتب واتي روبنشتاين في دافار (٣٠/٣/ ٧٦) ان « رد الفعل على التظاهرات العنيفة كان احيانا عنيفا ، ويتسم بالتحقير ، مع الحاق الاذى الجسدي ، لتلقين العرب درسا ، واشعارهم ان حياتهم ستصبح جحيما في حال تعرضهم لقوات الامن » • وتابع روبنشتاين انه وقعت عدة حوادث جرى فيها

ارغام بعض رجال الدين والمارة على «تكنيس» الشوارع وتنظيفها من الحواجز ، وايقـــاف مجموعات كبيرة من العرب بالقرب مـــن الحيطان ، وارغامهم على خلع احذيتهـــم وسط توجيه الاهانات اليهم ، واطلاق النـار فوق رؤوسهم . وقال ان « مواجهة التظاهرات العنيفة لم تتم بوسائل لائقة ، ونفـــذت التعليمات الداعية الى التصرف بشدة تجـاه السكان ...بشكل مبالغ فيه .وخلال الاسبوعين الاخيرين ، تكررت يوميا ، بل وكل ساعة ، اعمال الضرب واللكم والشتم ، وانتهـــى الامر في حالتين بالموت المباشر » .

وكتبت ريمولدا طويل في هعولام هـــزه (٧٦/٤/١) ان جنود الجيش الاسرائيلي في نابلس « كانوا يقبضون على اشخاص فـــي الشارع ، او يدخلون البيوت ليلا ويخرجون منها الرجال ، ويأمرونهم بالركض حول مكان ما في وسط المدينة ، او يرغمون الناس علـى الرقص وسط الشارع على قدم واحدة ، او ان يركب الواحد على ظهر الاخر ، او يصفعه تحت التهديد » .

وكتب اوري افنيري في هعولام هزه (٢٤ / ٣/ ٧٦) : « لقد استخدمت [اسرائيـــل] اليد القوية ، وعندما لم تنجح ، استخدمـــت يدا اقوى . وكان في وسع اسرائيل ، هـــذا الاسبوع ، ان تنظر الى نفسها في المرآة ، ولم يكن المنظر المعكوس جميلا . وقد بثت بمشهد جميع شبكات التلفزيون ، بالانكليزيـــــة والفرنسية والروسية ، وخصوصا بالعربية . واظهرت الات التصوير شرطة الاحتـــلال ، شرطة مألوفة لمحتل مألوف ، تقوم بالاعمـال المألوفة التي يقوم بها كل محتل . اظهـــرت الالات الشاب الثائر الشبيه باي شاب في اية منطقة احتلال ، والشرطة وهي تضـــرب ، وتهاجم ، وتطلق النار ، وتجر على الارض ، وتشد الشعور ، وفي بعض الاحيان تفـــر ، والشاب يتقدم ، ويقذف بالحجارة ، ويصاب ويلقي القبض عليه جريحا » . وتابع افنيري ان « الاحتلال [الاسرائيلي] وصل الى مرحلة كلاسيكية ، وسيضطر الى ان يكون اكثــر شراسة ، واكثر وضوحا ، واكثر انكشافـــا امام نظر العالم » .

البلديات المنتخبة

تسلمت المجالس البلدية المنتخبة في الضفة الغربية مسؤولياتها في الاسبوع الثالث مـــن نيسان . وصرح كريم خلف ،الذي اعيد انتخابه رئيسا لبلدية رام الله ، لصحيفة الجروز الم بوست ، ان رؤساء بلديات نابلس والخليـــل ورام اللـــــه وبيـــــت لحـــم ، اتفقوا على حصر نشاطهم في ادارة الشؤون البلدية ، واحباط اية محاولة اسرائيليـــــة تستهدف ادخالهم في مفاوضات سياسية . واستطرد قائلا ان « ممثلنا السياسي هو منظمة التحرير الفلسطينية ، واننا نعتـرض على اي جهد اسرائيلي يهدف الى خلق بديل لسيادة منظمة التحرير . وادلى اليـــاس فريج ، رئيس بلدية بيت لحم ، بتصريحات الى الصحيفة نفسها ، قال فيهـــا : « ان نتائج الانتخابات لا بد وان تحمل السلطـات الاسرائيلية على الحد من علاقاتها مع السلطات البلدية الجديدة ، بحيث تقتصر على المسائل الادارية وحدها » . واضاف انه من الخطـــأ الاعتقاد بانه يمكن التفاوض بشأن تسويـــة سياسية مع رؤساء البلديات الجدد (السفير ٧٦/٤/١٧) .

وفي تصريح لاحق ، نقلت وكالات الانباء من تل ابيب في ٧٦/٤/٢٤ ، صرح كريم خلـــف ، ان رؤساء واعضاء المجالس البلدية الجـــدد لا يحق لهم التحدث باسم الشعب الفلسطيني لان هذا الحق تملكه منظمة التحرير وحدها . واضاف انه يشك في امكانية التعايش السلمي بين الاسرائيليين والفلسطينييـــن ، وانــــه سيعمل على احباط خطط شمعون بيـرس الرامية الى منح البلديات نوعا من الحكـــم الذاتي . وقال ان بيرس يحاول اجبارنا علـــى الدخول في السياسة ، ولكننا لا نعتبر انفسنا ناطقين باسم الفلسطينيين ، وان منظمـــة التحرير الفلسطينية هي الناطقة بلساننا .

وقال فهد القواسمه ، رئيس بلدية الخليل ، في تصريح نقلته وكالة الانباء الفرنسيـــة من القدس في ٧٦/٤/٣٠ ، ان « منظمة التحرير الفلسطينية هي التي تمثلنا . ونحن نقبل باي قرار تتخذه . اما علاقاتنـــا بالاردن والدول

العربية ، فستحدد بعد اقامة حكومة فلسطينية بقيادة منظمة التحرير » ٠

وفي مقابل هذه التصريحات لرؤساء البلدية الجدد ، الذين اكد فوزهم في الانتخابات البلدية التأييد الساحق الذي تتمتع به منظمة التحرير في الضفة الغربية ، صرح يتسحق رابين ، رئيس الحكومة الاسرائيلية ، انه على اعضاء المجالس البلدية في الضفة ان يفهموا ان مهمتهم تتوقف عند ادارة اعمال بلدياتهم، وان اية محاولة من جانبهم ممارسته نشاط سياسي ستفشل (النهار ، ١/٥/ ٧٦) ٠

وحذرت صحيفة داقار ، شبه الرسمية ، رؤساء البلدية الجدد من القيام باية اعمال تخرج عن صلاحيات البلديات ومجال اختصاصها ٠ واضافت ، في صدد تعليقها على نتائج الانتخابات البلدية ، انه « يبدو ان غالبية سكان الضفة يعتبرون انفسهم جزءا من الوجود الفلسطيني الشامل بقيادة منظمة التحرير ، ولا يعتبرون حسين ممثلا لهم » (السفير ١٧/٤/ ٧٦) ٠

الانتخابات البلدية في الصحافة الاجنبية :

ابدت الصحافة الاجنبية اهتماما شديدا ، بانتخابات البلدية التي جرت في الضفة الغربية في ١٢ نيسان ١٩٧٤ ، واتفقت جميعها في الرأي انها مثلت انتصارا ساحقا لمنظمة التحرير ، والقوى اليسارية المؤيدة لها ، وانها ستزيد في حدة المتاعب التي تعاني منها قوات الاحتلال في الضفة الغربية ٠ كتبت هيرالد تريبيون ١٤/٤/٧٦ : « ان الفوز الساحق الذي احرزه المتطرفون ، الشباب في الانتخابات في الضفة الغربية يعني ان اسرائيل ستواجه معارضة اكثر جدية هناك ، وربما ستواجه هذه المعارضة في المناطق التي سيطرت عليها قبل حرب ١٩٦٧ ٠ ويتضمن هذا نذير شؤم للاسرائيليين » ٠ واضافت ان غليان الضفة الغربية وعدم الاستقرار في بعض المناطق التي تعد جزءا من اسرائيل جاء ليزيد من مصاعب اسرائيل ، كما وان اية تسوية بشروط تكون مقبولة لاسرائيل تبدو مستبعدة الان ٠ وكتبت الديلي تلغراف (١٤/٤/ ٧٦) ان نتائج الانتخابات البلدية اسفرت عن فوز الشيوعيين والوطنيين العرب المتطرفين ٠٠٠ وعلى ضوء النتائج فان على اسرائيل ان تتعامل باساليب سياسية جديدة كليا » ٠ وكتبت التايمز (١٤/٤/٧٦) انه « في ضوء نتائج الانتخابات ، من المتوقع ان تزيد المجالس الجديدة من ضغطها على اسرائيل حول القضايا التي ادت الى اعمال العنف الاخيرة ، ومن هذه القضايا انتشار المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية »٠ وكتبت نوفيل اوبزيرفاتور (١٩/٤/٧٦) ان « نتيجة الانتخابات كانت مفاجئة لاسرائيل، وجاءت « بموجة جديدة » وطنية فلسطينية منفتحة بشكل علني على (م ٠ ت ٠ ف) حيث يعتبر وصول مؤيدي (م ت ف) بهذا الشكل الجماعي الى مراكز اساسية في الاراضي المحتلة كارثة بالنسبة لاسرائيل في الوضع الحالي وتهديدا خطيرا في المستقبل ٠ وعلقت وكالة الانباء السوفياتية نوفوتسي على الموضوع (٢٣/٤/٧٦) بقولها : « ان نتائج الانتخابات اظهرت اشتداد المقاومة ضد الاحتلال والارهاب والقمع والتعسف الصهيوني، كما انها عكست الوعي السياسي المتنامي للمواطنين الفلسطينيين بواقع الاعتراف المتزايد بمنظمة التحرير الفلسطينية على كل الاصعدة » ٠

احمد خليفة

قرارات الحكومة الاسرائيلية حول الاستيطان

عشية اجتماع الحكومة الاسرائيلية في جلسة خاصة لمناقشة سياسة الاستيطان في الضفة الغربية ، تداعت تجمعات سياسية اسرائيلية تعارض الاستيطان في الضفة الغربية وتعارض استجابة الحكومة لضغوطات حركة غوش ايمونيم والمتدينين ، الى مظاهرة في تل ابيب ٠ وقد اشترك في المظاهرة نحو ٢٥ الف اسرائيلي على رأسهم عدد من اعضاء الكنيست الاسرائيلي ، وبعض نواب حزبي مابام والعمل وكذلك موكيد ويعد وغيرهم ٠

وفي اليوم التالي التأم مجلس الوزراء الاسرائيلي لمناقشة سياسة الاستيطان ، وتوقف طويلا عند مسألة استيطان كفر قدوم التي سبق ان اقامت فيها مجموعة

متدينة تقدر بحوالي ١٢٥ شخصا منذ حوالي خمسة اشهر . وقالت الاذاعة الاسرائيلية - ٧٦/٥/٩ - ان النقاش دار في معظمه حول « مشروع الون » وان وزراء مابام احتجوا على الاستيطان في كفر قدوم . وكانت نتيجة النقاش ان اصدر المجلس قرارا يقضي بنقل المستوطنين من كفر قدوم الى مكان اخر في نطاق المشاريع الاستيطانية التي خططت لها الحكومة وذلك في « وقت قريب » .

وواضح هنا ان قرار مجلس الوزراء الاسرائيلي لم يحدد موعدا معينا لنقل المستوطنين ، كما انه لم يعين مكانا جديدا محددا لهم في خارطة الاستيطان . ومع ذلك فانه نتيجة لهذا الاقرار ، فقد اصبح وجود المستوطنين في كفر قدوم « مؤقتا » كما قال يجيال الون عقب جلسة الحكومة . واضاف وزير الخارجية الاسرائيلي معلقا على القرار قائلا « قررت الحكومة بصورة جازمة ان قدوم ليست ضمن المناطق الاستيطانية التي اقرتها ، وانها ستعرض على مستوطني قدوم الانتقال الى مكان استيطان اخر بناء على مخططات الحكومة وقراراتها . واذا كانت الحكومة قد ارجأت لبضعة اسابيع القيام بمحاولة التأثير على مستوطني قدوم لتفعل ذلك بهدوء وبالحسنى ودون استخدام الاجراءات القانونية ، فهذا ليس بالامر السيء . ولكن من الواضح ان مستوطني قدوم لن يبقوا في قدوم ... » (ر . أ . أ . ٧٦/٥/١٠) .

ان قرار مجلس الوزراء الاسرائيلي وما سبقه من نقاش وتظاهرات ، واعقبه من تصريحات وتعليقات ، تكشف الى مدى بعيد عمق الخلافات التي تسود الاوساط الاسرائيلية ، بما فيها الحكومة ، حول الاستيطان في الضفة الغربية . فمثلا اذا كان يجيال الون قد اعتبر القرار انتصارا لوجهة نظره ، فان تصريحات شمعون بيرس وزير الدفاع التي اعقبت القرار وسبقته قد كشفت هي الاخرى عن وجهة نظر متعارضة مع قرار الحكومة . فقد اسهب بيرس في تعقيبه على القرار بقوله : « استطيع الاعتراف من الناحية الادبية بموقفين : موقف القائلين ان البلاد كلها لنا وانه يمكن لذلك الاستيطان في كل مكان ، والموقف الاخر يقول « كلا » اذ ينبغي التوصل الى تسوية مع العرب ، ولذلك لا يجوز اجتياز الخط الاخضر . اني لا اوافق على الرأي القائل بعبور الخط الاخضر لكني متفهم لهذا الرأي. والذي يقول « كل البلاد » لا اوافقه الرأي مع انني افهم موقفه . لكني اجد مشقة في فهم المنطق القائل بان الاستيطان في الجولان مسموح وانه في جبل السامرة ممنوع » . وختم بيرس تصريحه بالقول : « انني لا اعارض الرغبة في الاستيطان ، ولكني ارفضها عندما يكون الامر مخالفا للقانون ولسياسة الحكومة » (ر . أ . . ٧٦/٥/١٠) .

والانشقاق الذي احدثه هذا القرار بين اعضاء الحكومة ، احدثه كذلك في صفوف الاحزاب الاسرائيلية . فقد قال تسفي بيرنشتاين الامين العام لحزب المفدال انه متشائم لهذا القرار وانه يتوقع نشوب ازمة بين المفدال والحكومة التي يشترك فيها بثلاثة وزراء . اما يتسحاق بركائي امين عام حزب الاحرار المستقلين فقد قال : « نحن مرتاحون اولا للقول الصريح والمقاطع ان قدوم ليست مستوطنة دائمة ووجوب اخلاء المستوطنين . ثانيا عودة الحكومة الى التأكيد ان استمرار الاستيطان ينبغي ان يكون طبقا لقرارات تحددها الحكومة . وثالثا انني مرتاح لان الحكومة منعت وقوع مجابهة بين قوات جيش الدفاع الاسرائيلي وبين مستوطني قدوم ولم يبق الا ان نأمل ان يوافق المستوطنون على قرار الحكومة وان ينفذوا قرارها » .

غير ان مئير تلمي امين عام حزب مابام ، لا يؤيد غير النصف الاول من القرار ، اي عدم اقامة مستوطنة قدوم . اما ارجاء موعد اجلاء المستوطنين عنها فهو من وجهة نظره ليس الا تحديدا للنقاش الدائر في الاوساط الاسرائيلية حول هذه المسألة .

اما شولميت الوني فقد عقبت على القرار بقولها « ان القرار الذي اتخذته الحكومة بعد عشر ساعات من النقاش العقيم ، يؤكد ان هذه الحكومة لا تستطيع اتخاذ قرارات . فان كان بامكان الون وشيمطوف وهامر ان

يعيشوا تحت سقف واحد ، فهذا يعني انهم قرروا عدم اتخاذ قرارات ، وان كل الاحاديث الجميلة عن الحفاظ على الديمقراطية ينبغي ان توجه اليوم الى الحكومة وليس الى غوش ايمونيم » ٠

غير ان لدة الفعل في المناطق المحتلة ازاء هذا القرار ، جاءت مختلفة عن ردود الفعل لدى كل من مؤيدي القرار ومعارضيه في الاوساط الاسرائيلية ٠ فقد عكست صحيفتا القدس والشعب المقدسيتان استنكار الشعب الفلسطيني في المناطق المحتلة لهذا القرار ونتائجه ، وقالتا انه مجرد خداع للشعب الفلسطيني ٠ فقالت « القدس » انه ليس من الخطأ القول ان الخلافات في الرأي داخل الحكومة الاسرائيلية ليست حول شرعية الاستيطان بل حول المسائل المتعلقة بمكان الاستيطان وزمانه ، وحول سلم الاولويات للمناطق الاستيطانية ٠ ولذلك ينبغي اعتبار القرار الذي اتخذ امس قرارا في نطاق سياسة الاستيطان ، العقبة الاساسية بوجه السلام (القدس ٧٦/٥/١٠) ٠ اما صحيفة « الشعب » فقد هاجمت قرار الحكومة بشدة بينما اشادت بالذين اشتركوا في المظاهرة التي سبقت القرار والتي رفعت شعارات معادية للاستيطان ٠ وقالت ان قرار الحكومة يشير الى ضعفها والى انها لا تستطيع بالتالي اتخاذ قرار صريح وبسيط بالنسبة للقرارات المطلوبة في المستقبل خلال المحادثات السلمية (الشعب ٧٦/٥/١٠) ٠

وقد اقدمت الحكومة الاسرائيلية على خطوة تصعيدية خطيرة على مستوى الاستيطان في الضفة الغربية ٠ فقد صرح شمعون بيرس ، وزير الدفاع ، في ٧٦/٥/١٨ ، بأن الحكومة الاسرائيلية قررت انشاء سلسلة ثانية من المستوطنات الاهلة بالسكان في الضفة الغربية ٠ واضاف بيريز قائلا ان هذه المستوطنات ستكون موازية لسلسلة المستوطنات الاولى المكونة من سبع عشرة مستوطنة في وادي الاردن ،وقال ان المستوطنات الجديدة ستقام في المنحدرات الشرقية لمرتفعات الضفة الغربية ، ولكن في منطقة ذات كثافة سكانية قليلة ٠

واوضح وزير الدفاع الاسرائيلي ان برنامج السلسلة الجديدة من المستوطنات ستحد من فكرة ان « نهر الاردن ينبغي ان يظل دائما الحدود النهائية لاسرائيل » ٠

وكان راديو اسرائيل قد اعلن في وقت سابق ان انشاء المستوطنات الاسرائيلية السبع عشرة على طول نهر الاردن كلف نصف مليار ليرة اسرائيلية (السفير ٧٦/٥/٢) ٠

عيسى الشعيبي